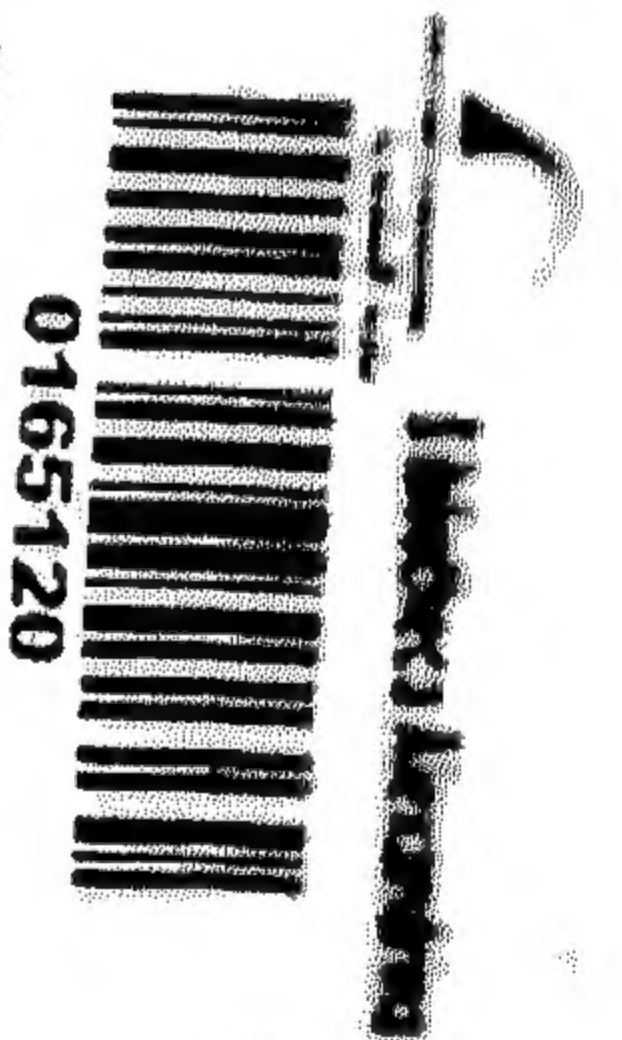
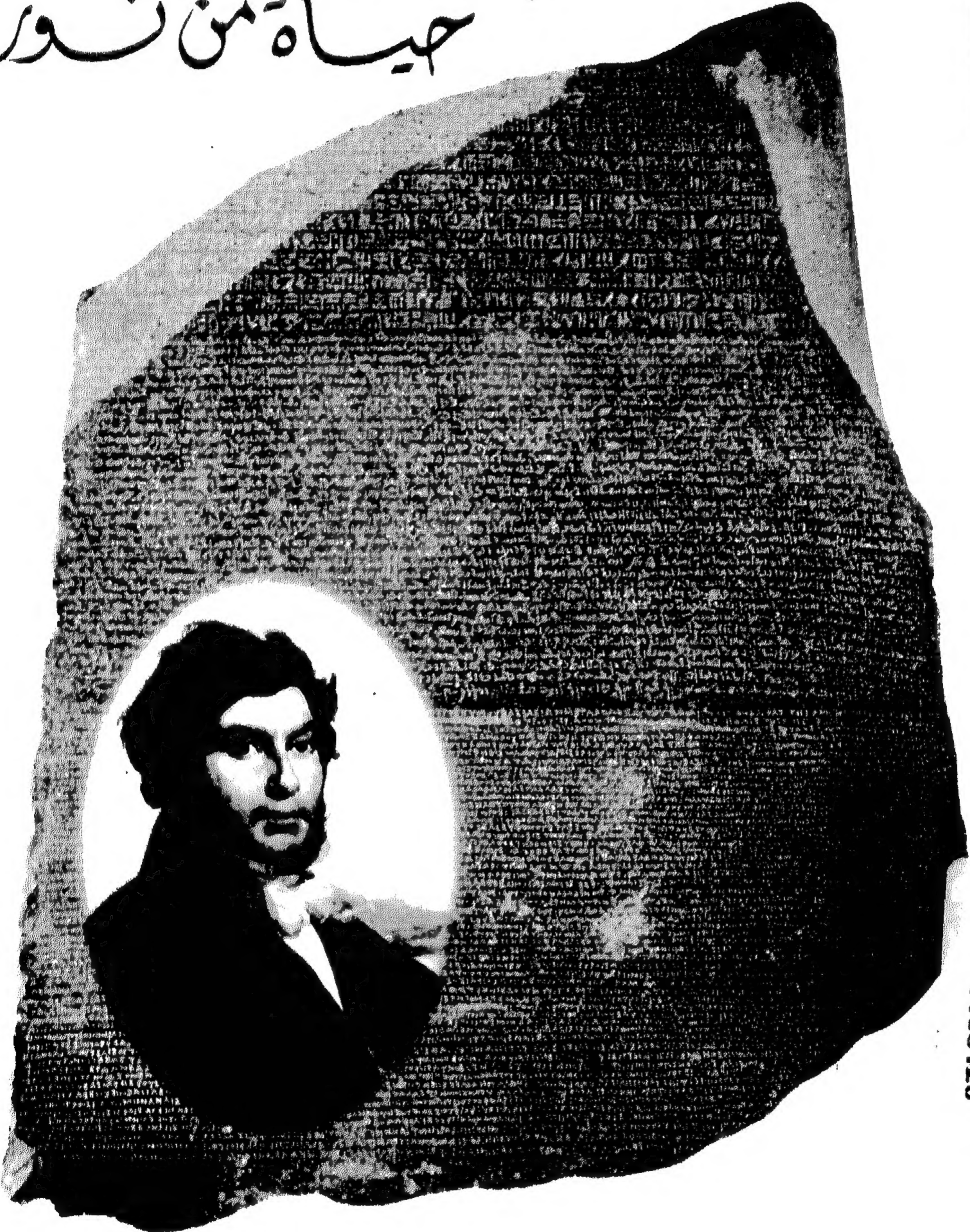




مجموعه اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

جان لا کویتیر شامپولیون حیة من ندر



ترجمة وتقديم وتعليق: نبيل سعد

164

اهداءات ٢٠٠١

المهندس / محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

المشروع القومي للترجمة

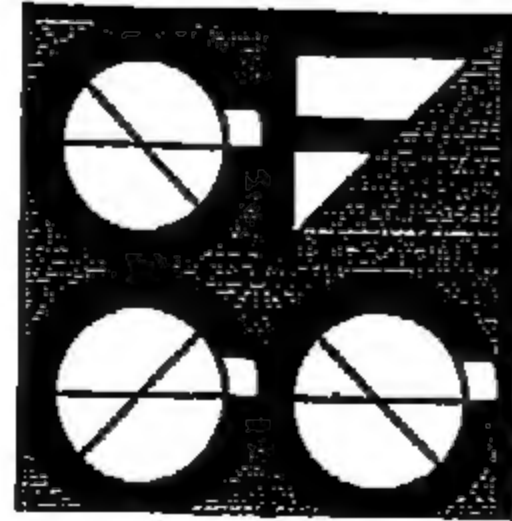
شامپوليون

حياة من نور

جان لاکوتير

ترجمة وتقديم وتعليق

نبيل سعد



المركز الفرنسي للثقافة والتعاون



JEAN LACOUTURE

CHAMPOLLION

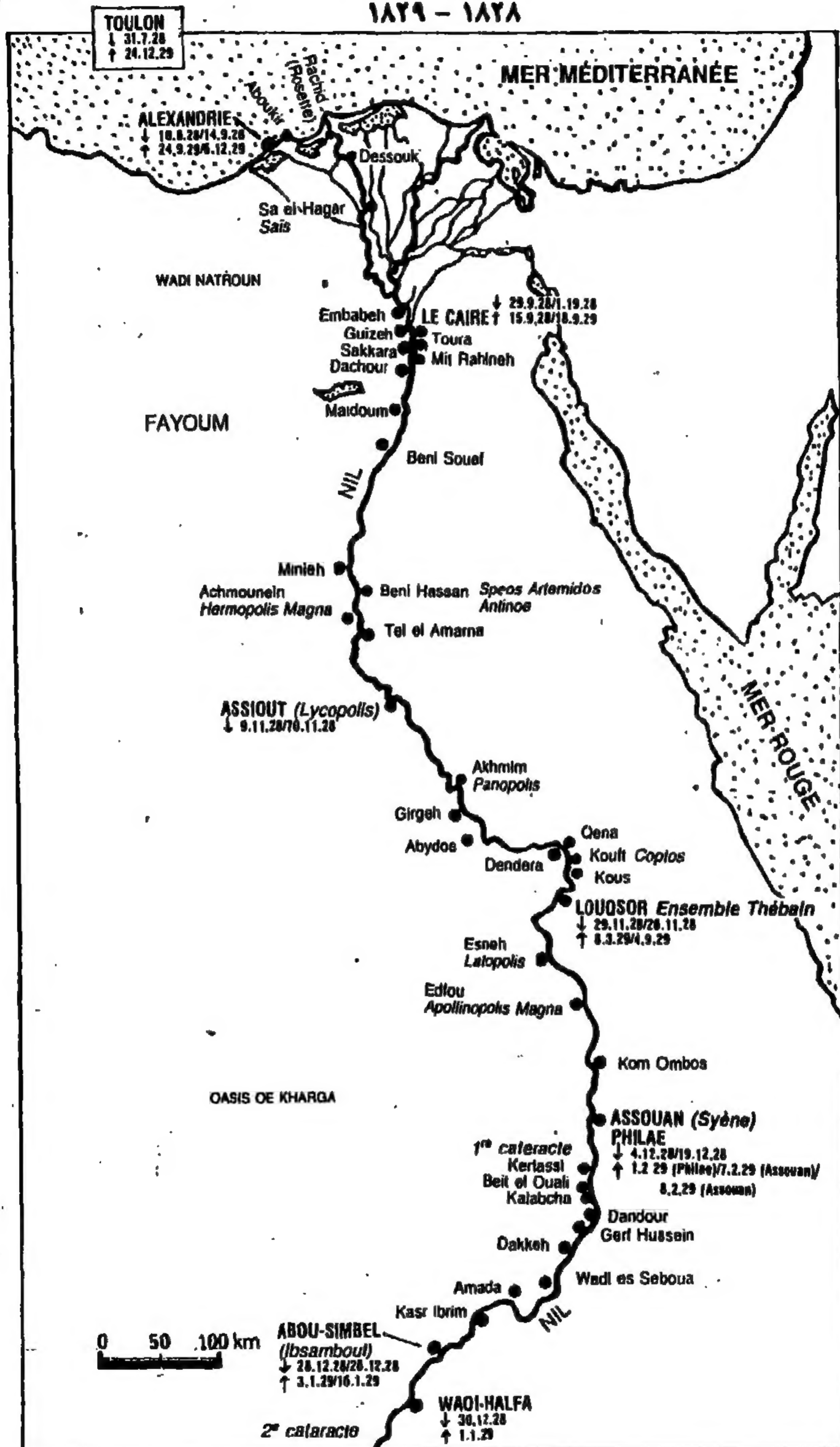
une vie de lumières

BERNARD GRASSET

PARIS

إهداء المترجم
إلى ابني ياسر

رحلة شامبوليون في مصر
١٨٢٩ - ١٨٢٨



تقديم

« ذاب في حب مصر »

إذا كانت صحف هذه الأيام تلهث وراء أخبار الأحداث السياسية ، فإن صحافة أوروبا كانت تهتم في القرن التاسع عشر بأبناء المواضيع العلمية والأدبية في المقام الأول . وكانت أنباء حل لغز حرف هيروغليفى تحتل صدر الصفحات الأولى من صحف أوروبا كلها .

وكان اهتمامها عظيماً بنبأ اكتشاف ضابط صغير فى سلاح المهندسين فى جيش بونابارت فى مصر (ملازم أول مهندس بيير بوشار) حجراً من البازلت الأسود من بين أطلال قلعة قديمة كان يقوم بترميمها فى مدينة رشيد . وكان الحجر قد نقشت عليه نصوص مكتوبة بثلاثة أنواع من الحروف : الإغريقية والديموطيقية (كتابة مصرية قديمة ، غير الهيروغليفية) والهيروغليفية ؛ ومنذ ذلك الحين (أغسطس ١٧٩٩) وحتى ٢٢ سبتمبر ١٨٢٢ عندما تمكن شامبوليون من موضوعه وكشف أُلغاز الكتابة الهيروغليفية ظلت الأوساط المثقفة والعلمية فى جميع أنحاء العالم تتابع بشغف كبير أنباء حل اللغز الهيروغليفى ، فإذا ظن أحدهم أنه فهم معنى حرف أو حرفين اعتبر ذلك نصراً كبيراً . ولكن سرعان ما كان يتضح أن هذا النصر سابق لأوانه بل إنه زاد الأمور تعقيداً ؛ إلى أن توصل شامبوليون إلى إيجاد الحل الحقيقى .

فلم يكن اكتشاف شامبوليون الذى حدث عام ١٨٢٢ هو لحروف اللغة المصرية القديمة المقدسة فقط وإنما - وذلك هو الأهم - اكتشاف المنظومة المركبة التى تقوم عليها استخدامات الحروف الهيروغليفية .

الذى حدث بعد ذلك الاكتشاف هو أن جميع الصروح والمعابد المصرية القديمة والبرديات المنتشرة فى جميع أنحاء العالم راحت تتكلم . وكان بعض هذه الآثار قد نقله الرومان منذ أكثر من سبعة عشر قرناً عندما احتلوا مصر . ومثال ذلك المسلات التى تزين ميادين روما إلى يومنا هذا ، والبعض الآخر انتزع من جدران المعابد المصرية ومن المقابر الفرعونية ، وتم إخراجه من مصر ليكون متاحف فى بلدان العالم المختلفة . هذا بالطبع بخلاف المجاميع الخاصة بالأفراد ... كل هذه الآثار أخذت تتكلم فجأة وتبوح بما كانت تتكلم عليه لأكثر من ألف وسبعمائة عام .

ولكى نقدر أهمية ما اكتشفه شامبوليون يجب أن نعرف أن الكمبيوتر لم يتمكن من كشف ألغاز لغات قديمة أقل صعوبة من لغز الهيروغليفية .

إذا كان شامبوليون قد تمكن من الحل ، فذلك لأنه لم يتعامل معه بعقله فقط بل بقلبه أيضاً ، وهذا هو الجانب الأهم فى العملية كلها . وهذا هو ما أظهره جان لاكوتير فى هذا الكتاب .

وجان لاكوتير الذى نشر أكثر من خمسة وأربعين كتاباً حتى الآن أحب مصر هو أيضاً . عاش فيها كصحفى إبان قيام ثورة يوليو وعرف عبد الناصر عن قرب ، وألف عن مصر ثلاثة كتب بمفرده أو مع زوجته سيمون لاكوتير ، وهو دائم التردد عليها مرة على الأقل سنوياً . ويمكن القول إن لاكوتير لم يكن ليكتب مثل هذا الكتاب الرائع والدقيق والمشوق - تشويق الروايات البوليسية - لو لم يحب مصر مثلما أحبها شامبوليون .

شامبوليون عشق مصر .. بل يمكن أن نقول إنه «ذاب» فى حبها بالمعنى الكامل للكلمة . أى أنه فى تفانيه لها أعطاهها طاقته كلها وصحته وفكره ، ومات شاباً فى الثانية والأربعين من عمره . على الرغم من مظهره الجسدى القوى .

كتب لأخيه من مدينة الأقصر عندما زار مصر فى أواخر حياته ومكث بها نحو ثمانية عشر شهراً : «إن كيانى كله لمصر ، إنها كل شىء بالنسبة لى» .

حب جان - فرانسوا شامبوليون لمصر لم يكن مقصوراً على تاريخها وأثارها وإنما كان لشعبها أيضاً . ويقول جان لاكوتير : «نراه ، يهتم بسرعة كبيرة بهذا الشعب الوريث البعيد لتاريخ كله عظيمة .. إلا أن حالته الحالية تؤثر فيه بعمق ... وكان لا يتخرج أثناء حياته اليومية فى صعيد مصر من تقديم نصائحه للفلاحين لكى يتقاربوا المضايقات التى كانوا يتعرضون لها من قبل السلطات المحلية أو لكى يتقاربوا تسديد بعض الضرائب المجحفة على الرغم من أن ذلك لم يكن ليخفى عن عيون جواسيس الباشا .» (محمد على الكبير) كما أن شامبوليون قد عمل كل ما فى وسعه لدى الباشا لكى يحافظ على الآثار المصرية القديمة . إذ إن المعابد كانت تفكك فى تلك الفترة وتستخدم أحجارها فى تشييد المصانع وخاصة مصانع السكر . وعندما كتب شامبوليون مذكرة للباشا عن هذا الموضوع كان قد تم بالفعل تدمير ثلاثة عشر معبداً من أجمل المعابد وأكملها . قال له شامبوليون بدبلوماسية كبيرة «إنه من مصلحة مصر أن تعمل حكومة بسموكم على الحفاظ الكامل على الصروح والمباني الأثرية الذى تسبب هدمها فى إثارة الأسى فى أوروبا كلها ، ويعلم الكافة بالطبع أن هذه العمليات التخريبية البربرية

تمت ضد رغباتكم السامية ونواياكم الطيبة المعروفة لدى الجميع وعلى يد حفنة من الأفراد لا يقدرון الأضرار التي يسببونها للبلاد دون أن يكونوا على دراية بذلك» .

هذا الكتاب يلقي الضوء أيضاً على العلاقات التي كانت قائمة بين فرنسا ومصر في مرحلة من أهم مراحل تاريخها الحديث ؛ مرحلة بناء الدولة الحديثة على يد محمد علي ومحاولة تحويل مصر من ولاية تتبع الإمبراطورية «الخلافة» العثمانية إلى دولة مستقلة ذات سيادة . أصبحت هي ذاتها شبه إمبراطورية ممتدة الحدود والتأثير في العالم . وتتعرف من الكتاب على ما كان يدور في كواليس الحكم وعلى الدور الذي لعبه القناصل الأجانب للتأثير على والي مصر وقدرة محمد علي الفائقة على تحليل الأمور واتخاذ القرارات الصائبة في السياسة الدولية في ظل صراعات هائلة كانت تتصامم فيها مصالح القوتين العظميين في ذلك الوقت إنجلترا وفرنسا ، وفيما بينهما قوى أخرى مثل روسيا والنمسا ... يكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن محمد علي رفض تماماً حفر قناة السويس وقاوم كل الضغوط التي مارسها عليه الفرنسيون وعلى الأخص قنصلها الداهية دروفيتي الذي كان مقرباً جداً من الباشا ويعتبر من أهم مستشاريه وعلى الرغم من علماء فرنسا الذين تركوا بلادهم شباناً وجاءوا إلى مصر بعدما كفروا بالحياة في فرنسا وتطوعوا للعمل على نهضتها ، لأنها - فيما آمنوا به - كانت بالنسبة لهم أم حضارتهم . ومن هؤلاء السان سيمونيون وغيرهم ... وهم الذين ساعدوا الباشا في تشييد مصر الحديثة فاستغلهم في بناء المصانع وبناء السدود (القناطر الخيرية و ... الخ) إلا أن الباشا ظل على رفضه ، لا يلين بالنسبة لحفر قناة السويس ؛ لأنه بنظره الثاقب تأكد أنها ستجلب على مصر المصائب والكوارث ؛ لأنها ستصبح عرضة للأطماع العالمية . فانتظر الطامعون وفاته إلى أن رضخ «سعيد» للضغوط وثبتت صحة تقديرات الباشا .

إذا كان الحديث عن تلك الفترة من الحياة السياسية المصرية مشوقة فإنها تصبح أكثر تشويقاً بقلم جان لاکوتير . فمن خلال الخلفية التي وضعها جان لاکوتير لأحداث حياة شامبليون تشعر أنك في قلب عملية اتخاذ القرار سواء في مصر أو فرنسا وبلاد أخرى كثيرة .

كانت الفترة التي عاشها شامبليون هامة بالنسبة لمصر وبالنسبة لأوروبا وفرنسا على وجه الخصوص ؛ إذ رأت صعود بونابارت على أنقاض الثورة الفرنسية إلى أن أصبح الإمبراطور نابليون وسقوطه وعودة الملكية ثم سقوطها .

وچان لاکوتیر مؤرخ دقیق بخلاف کونه أدیباً فذاً ، ویقول علی سبیل المثال عن نابولیون وما قام به فی مصر :

«إذا كانت الحملة (الفرنسية علی مصر) تعتبر كارثة سياسية وعسكرية لوئتها أعمال مروعة لا يمكن وصفها وحصرها فإن بوناپارت - وقد كان عبقریاً فی أعمال البروباجندا - نجح فی تحويلها إلى ملحمة» .

وفی مكان آخر یقول لاکوتیر : «لن نروی هنا أحداث المعارك التي دارت من الأول من يوليو ١٧٩٨ حتى الثاني من سبتمبر ١٨٠١ التي أدت - مروراً بانتصارات كبيرة - إلى كوارث عظيمة .. حتی الانسحاب فی السر للجنرال القائد العام ثم الرحیل المخزی لما تبقى من قوات الحملة - (أربعون فی المائة بین قتلی ومفقودین) علی ظهر سفن الأسطول البريطانی كان الفشل ذریعاً والخسائر فادحة والمحصلة النهائية كئيبة» .

سعة ثقافة وعلم وحياد المؤلف تجعله يضع الأمور فی إطارها الواسع (الصراعات العالمية الدائرة فی تلك الحقبة التاريخية المهمة) ثم فی إطار أقل اتساعاً (فرنسا ، إنجلترا ، تركيا ، مصر ...) ثم فی مدن تجری فیها أحداث الكتاب : الإسكندرية القاهرة - باريس - جرونویل - الأقصر - تورينو - فيينا - لندن الخ .

ثم تضيق العدسة وتقترب أكثر فأكثر من المركز لترى الأفراد فی منازلهم ، وتتعرف علی أثاث بیوتهم والروائح الصادرة من مطابخها ، وتطل من نوافذها علی شوارعها بمحلاتها التجارية وهكذا .. كل ذلك یضفی علی القراءة متعة الفهم العمیق لما یجرى من أحداث . مثال ذلك ما ينقله لاکوتیر من خطاب لشامبولیون لأخيه الأكبر عن باريس بعد أن رآها لأول مرة وهو فی السابعة عشرة من عمره . « المناطق المحیطة بباريس بدت لی قبيحة لدرجة مقرزة .. خيبة أملی بسبب اكتشافی أن باريس لیست جميلة جعل معدتی تضطرب .. أوحال شوارع باريس (...) ورؤية هذا الكم الهائل من الناس المشغولين یمرّون بسرعة داخل مركباتهم الجميلة ... كل ذلك جعلنی أشعر بحزن عمیق ...» .

لم یكن شامبولیون یحب باريس ، وكان یسميها «عاصمة فرنسا القذرة» ، وظل علی رأیه هذا إلى أن توفی ، أما رأیه عن القاهرة فهو مختلف تماماً .. سحرته فأحبها ، وبهرته فأشاد بها ، وكتب إلى أخيه بعد أن زارها ومكث بها عدة شهور : «قالوا أشياء سيئة كثيرة عن القاهرة ، أما أنا فسعيد جداً فیها ، إن شوارعها التي یبلغ عرضها

من ثمانية إلى عشرة أقدام تبو لى محسوبة بعناية تامة لتفادى تأثير درجات الحرارة المرتفعة جداً . ورغم أنها مرصوفة فهي نظيفة لدرجة تثير الإعجاب (...) باريس وهى فى قمة أناقتها أكثر قذارة منها . »

بفضل اكتشاف شامبوليون عادت مصر القديمة تتحدث عن نفسها فتم التواصل بين العصور القديمة والحديثة لتاريخها الذى ظل مبتوراً عنها لأكثر من سبعة عشر قرناً ، وتواكب هذا الاتصال بين المراحل التاريخية مع بداية بناء مصر الحديثة على يد محمد على الكبير .

سعة ثقافة وعلم جان لاكوثير وفهمه العميق للشأن المصرى أضافت الكثير لأهمية ما قام به شامبوليون .

نبيل سعد

١٩٩٩ - القاهرة

تمهيد

وميض هائل من نور صامت

« سيجئ يوم يظهر فيه أن المصريين قد
مجدوا آلهتهم بلا طائل . هذه الأرض عظيمة
القدسية ، وطن الأهرام والمعابد بأكملها مغطاة
بالمقابر والرفات .. آه !! يا مصر !! يا مصر لن
يبقى من معتقداتك سوى الأساطير ، وفيما بعد
حتى أبنائك لن يصدقونها .. ولن يبقى الدهر
سوى كلمات محفورة في الحجر تحكى مآثر
الدينية .. » .

هيرماس تريسيميست

عرف قرن «التنوير» ذروة مجده في الثلاثين من سبتمبر ١٧٩١ في تلك الليلة
تزامن حدثان ، الأول في باريس حيث اختتمت الجمعية الوطنية التأسيسية أعمالها ،
وقد أصدرت الإعلان الذي تؤكد فيه «أن كل رجل في فرنسا حر» ومنحت اليهود حق
المواطنة ، وقررت فيه بطلان «الجرائم الوهمية» ؛ أى العيب في الذات الملكية والهرطقة ..
والحدث الآخر في فيينا حيث كان بضعة مئات من أهالي إحدى ضواحيها المغرمين بما
تعود أن يقدمه مسرح «أوف دير فيدن» من عروض ممتعة – لحضور العرض الأول
لمسرحية غنائية بقيادة واضع موسيقاها فولجانج موزارت ، ويؤدى أهم الألوار فيها
مؤلفها إيمانويل شيكانيدار .. وهى مسرحية «الناى السحري» .

تحكى المسرحية كيف انتصر النور على الظلمات من خلال أسطورة مصرية قديمة
تصف كيف انتصر الحكيم «ساراسترو» على الملكة الشؤم ملكة مملكة الليل المظلم ...
وهكذا يتحقق حلم مؤلفى الإنسيكلوبيديا .. المتنورين أصحاب الـ Aufklärung ...
فمن خلال هذا العمل يعرض موزار وهو العضو بالحركة الماسونية العالمية والمنتمى لإحدى لجانها

المسماة «نحو الأمل المتوج حديثاً» يعرض على العالم باسم إيزيس وأوزيريس مثلاً أعلى فى الأخوة المستنيرة التى تعتبر مصر الفرعونية فى موقع المركز منها . إن أوبريت «النأى السحري» هى نموذج للمسرح الغنائى الألمانى "Singspiel" ، كما أنها جزء من التراث الموسيقى الغنائى للماسونية (Oratorio) وتعتبر الوصية الروحية لموزار ، كما أنها تعتبر المدخل الرسمى أو المقدمة المضيئة لما تلاها من اكتشافات . ففيها يقود الحكيم ساراسترو ، أستاذ تفسير الإشارات ، تلاميذه عبر عراقيل الليل موصلاً إياهم إلى ضوء النهار . غير أن هذا الإلهام كان فى احتياج إلى توضيح ، كما كان هذا القبس فى انتظار أن يتحول إلى نور وضاء .. كما بقت هذه الدروس الإنسانية التى حملتها هذه الألحان السماوية على حالها ثماراً لخيال فنان جوال . الحضارة المصرية القديمة - إذن - كانت تبهر العالم كله ؛ غير أن السؤال المطروح كان «ماذا كانت هذه الحضارة تقول ، وما الذى كانت توصى به هذه الحكمة الرمزية ؟» تعددت فرضيات الشرح وتضاربت من الأب كيرتشار إلى جوزيف بوجينى ومن الأسقف واربورتون إلى بول - إيرنست چابلونسكى والقس بارتليمى . وبقي الدرس المصرى عصياً على الفهم . يشده بعضهم فى اتجاه السحر ، ويدفعه البعض الثانى ناحية الرمزية ، فى حين يجذبه الآخرون نحو العقلانية .. وعصى الدرس على الجميع هائماً على سطح مياه النيل بين الضفتين مستمراً على حالته الافتراضية .

هذه الحضارة المهيبة مهابة الشمس هى أقرب من الأبدية من أى حضارة أخرى ... وكان صمتها يسحر الأبواب كما يسحرها امتدادها الزمنى وأبعادها الهائلة .. وأبو الهول الذى كان مدفوناً فى رمال الجيزة بقى رمزاً لهذه الأسرار المستعصية على الفهم ، أميناً عليها .

الصمت

تسعة أشهر قبل العرض الأول «النأى السحري» ولد فى «فيجاك» وهى مدينة صغيرة تتبع مقاطعة جاسكونيا الشمالية الرجل الذى كان سيعطى لخطاب ساراسترو معناه الكامل يجسد بنات أفكاره ، وهو : چان فرنسوا شامبوليون . فبعد ثلاثين عاماً من عرض النأى السحري سيرجع إلى هذا الشاب القادم من مقاطعة كوارسى الفرنسية الفضل فى أن أصبحت تصورات موزار وشيكاندر الذهنية واقعاً يقينياً .

لم يكن ماحدث كتبديد النهار لظلمات الليل . فلم تجر الأمور على هذا النحو ، ولم يصرخ أحدهم قائلاً «وجدتها ، وجدتها» فى الرابع عشر من سبتمبر ١٨٢٢ .. إن عظمة شامبوليون لا تكمن فى أنه نصب نفسه صانعاً للمعجزات ، ولكن فى أنه عرف كيف يجمع ومضات النور التى كانت تظهر وتختفى خلال الليل ، ويجمع شملها لتصبح كشفاً ،

وفى أنه كان يجمع فى شخصه المكتشف الرائد والوارث لأعمال أسلافه ، وأنه أسس مشروعه على الدراسة والبحث وعلى مقدار يساويهما من الحدس .

لم تكن مصر فى نهاية عصر التنوير - القرن الثامن عشر الميلادى - ملفوفة بظلمة حالكة . إن الظلال الثقيلة التى غلفتها بها قرارات الإمبراطور المسيحى تيودور قبل ألف وخمسمائة عاما بتحريم الشعائر والثقافة المصرية حملت فى طياتها إشارات كثيرة . وإذا كان جان فرنسوا شامبوليون قد نجح فى تأسيس علم جديد هو علم المصريين ، فإن ذلك يرجع إلى أنه لم يستسلم لثقل مئات عديدة من سنين الصمت هذه ولأنه عرف كيف يحتفظ برياسة الجأش وهو يعنى النظر فى هذا الليل اللانهائى حتى اكتشف نجومه . وعلى الرغم من ذلك فإننا لن نعطي عبقريته حق قدرها إلا إذا أوضحنا أن الهوة التى عقد العزم على عبورها كانت سحيقة وممتدة ، وأن ما حاوله الرواد الأوائل لم يكن سوى جسوراً ضعيفة ورخوة ومهزوزة أقاموها ؛ لأنهم كانوا يعملون فى الظلام .

ولكن فلنعد إلى التسلسل الزمنى للأحداث ولنلتزم به فهو إذا كان يتسبب فى الإحساس بالنوار إلا أنه يضع أيضاً علامات قيمة على الطريق ، وبطريقة ما يشير إلى دروب تؤدى إليه وأضواء لتثيره ، .. فإذا كان السحر الذى خلبت به مصر الخيال العلمى والشعرى والدينى أيضاً للعالم الغربى كان بهذه الدرجة من القوة ، وإذا كانت حضارة النيل قد ألحت لهذه المدد طويلة على أعظم أرياب الفكر من فيثاغورس إلى لايبنتيز ومن أفلاطون إلى هيجل فذلك يرجع إلى خليط سرى مكون من نور وصمت ، من روعة مشعة وسكون لانهائى .

من الأمور المتفق عليها الآن هو إرجاع نشأة التاريخ والكتابة المصرية إلى قرنين قبل الألفية الثالثة التى تسبق الميلاد ، فى عصر الملك مينا خليفة الملك/ العقرب الأسطورى ؛ ومينا هو أول من تكلل رأسه بالتاج المزدوج لمصر العليا ومصر السفلى* . أما نهاية هذا التاريخ ، وكذلك استخدام الكتابة المعبرة عنه ، فمن السهل تحديدها بعام ٣٨٤ بعد الميلاد عندما أصدر الإمبراطور تيودورس مرسومه الأمر بإغلاق المعابد «الوثنية» .

خمسة وثلاثون قرناً ! ما هى الحضارة التى يمكن أن تدعى لنفسها مثل هذا الدوام والأهم من ذلك نفس هذه الاستمرارية ؟ مع الأخذ فى الاعتبار أنه منذ أن غزاها

* لن ندخل هنا بالطبع فى الجدل الدائر حول أسبقية مصر أو سومر .

قمبيز لم تعد مصر سوى أحد الأقاليم الفارسية قبل أن تصبح يونانية ثم رومانية ثم مسيحية ومنذ عام ٦٣٩ إسلامية .

وفى جميع الأحوال فقد ازدهرت على ضفاف النيل طوال خمسة وعشرين قرناً ثقافة دينية وسياسية تبدو كما لو أنها نوع من الحياة التي سبقت الحضارة الإنسانية . وعلى الرغم من أن التوقف المفاجئ لاستخدام الكتابة (الهيروغليفيه) قد ألقى بها فى جب الأساطير والميثولوجيا فهي لم تفقد أبداً قوة سحرها .. أليست هى العصر القديم لعصرنا القديم ؟ !

يحكى أفلاطون فى كتابه Timée أن سولون لدى زيارته لمصر نزل ضيفاً على كاهن عجوز وقص عليه تاريخ بلاده فقاطعه مضيفه قائلاً : «إنكم يا معشر اليونانيين لازتم أطفالاً فلا يوجد بعد شيوخ فى اليونان ... - فسأله سولون : ماذا تقصد ؟ - فرد عليه الكاهن العجوز : إنكم مازلتُم شباباً فى التفكير ؛ لأنه لا يوجد لديكم بعد أى تراث قديم بحق ولا أى نظرية أو عقيدة شابت مع الزمن .. » .

ولسهولة تصور هذه الأوضاع نقول إن الفترة الزمنية التى تفصل (المثال اليونانى الأشهر) بيريكليس فى القرن الخامس قبل الميلاد عن الملك زوسر صاحب الهرم المدرج فى سقارة الذى كان يتحدى فى ذلك الحين عواصف الصحراء منذ خمسة وعشرين قرناً توازى تقريباً الفترة التى تفصلنا نحن عن قمة الحضارة اليونانية . وأن المواطن الرومانى المعاصر للإمبراطور أغسطس الذى ولد عام ٦٣ قبل الميلاد كانت الحضارة الفرعونية بالنسبة له توازى فى بعدها بُعد حرب طروادة عنا . وعندما كان هيروبولت - صاحب أقدم بحث تاريخى منظم عن مصر يمكن الرجوع إليه - يزور مصر حول عام ٤٥٠ قبل الميلاد - كانت قد مرت ألفيتان على تشييد خوفو لهرمه فوق هضبة الجيزة مقترباً باسمه حامياً لمقبرته ، وكان لابد أن تمر ألفيتان أخريان ليتمكن أحد الآباء اليسوعيين الألمان (كيرشار) من التوصل إلى أحد المفاتيح المؤدية لفك رموز الكتابة المقدسة .

المزلاج وضعه عدم التسامح وأحكمت غلقه مئات السنين ، وشارك فى ذلك أيضاً طائفة الكتبة ؛ لأنهم - كما يشرح هيجل عن حق - كانوا يريدون أن يجعلوا من أنفسهم حماة الأسرار من أعين الشعب ؛ لأن هذه الكتابة لم تكن تستهدف الحياة الاجتماعية ولكنها كانت تصون هيبة الأسرار والطقوس .. وهو ما وصفه چاك ديريدا فى مقدمته :

«إنها عملية كهنوت وتسلب هدفها السيطرة...» (1) .. لأن هذا «المخطط الكهنوتي» استهدف حماية «القوة الكونية» المنسوبة لهذه اللغة من وراء حفاظه على السر المهيب . وإذا كان السر قد ظل طوال هذا الكم من القرون سرّاً فذلك لم يكن مرجعه عدم وجود باحثين عظماء يعوزهم الفضول العلمى .. بل إن هناك عددا لا يحصى من الرحالة - خاصة اليونانيين - الذى زاروا مصر المستعمرة .. التى كانت قد دخلت مرحلة الانحطاط ، ولكن ما زالت ثرية بثقافتها وألالتها . ذلك فى الفترة ما بين فتح الإسكندر لها وانتصار المسيحية فيها ... وكان الكتبة والكهنة يستقبلون هؤلاء الرحالة عن طيب خاطر بل ويمدّونهم أحيانا بما يجدد به علمهم من معلومات فى علوم الهندسة والفلك .

يؤكد سيرج سونرون أنهم كانوا يمتنعون عن تلقيّنهم «العلم المقدس» أى مبادئ الكتابة الهيروغليفية إذ أن اختصاصهم بها كان يؤكد سلطانهم ويرفع من هيبتهم علاوة على أنها هى القادرة وحدها على تقديم «تفسير للعالم» .

ويشهد تعبير قاله كاهن مصرى قديم هذا الجانب الغير قابل للوصف ، والذى لا يضاهيه شىء ، والذى تتم به الكتابة فى الحضارة المصرية القديمة ، إذ قال : «لا يوجد شىء عظيم أو جميل تم عمله ... دون أن يكون قد تم تسجيله كتابة منذ زمن طويل ...» (2)

ومع ذلك يخطئ من يعتقد أن الحضارة قد هوت فى جب جهالة العالم الخارجى لها بعد أن اختفى قراء أوراق البردى والمسلات من الوجود فلم يكن الليل حالكا تماما بين تيودوز وشامبوليون ؛ فقد كانت تضيئه بعض الشعلات التى سمحت بحلوث محاولات وتجارب تقريبية أدت إلى بعض الاكتشافات ، ومن ثم استمرار التراث .

لكن ظلت مصر - الصامته العظيمة - حية على الدوام !! حية ولكن منقبة .. فى التوراة والثقافة اليونانية والسلطة الرومانية ومن خلال الأفلاطونية الجديدة لعصر النهضة وأخيراً من خلال بعض الطوائف الدينية التى قدست الإلهة إيزيس فى الغرب بعد تحويل الديانة المصرية القديمة .. ولذا يجب أخذ كل هذه العلامات التى على الطريق فى الاعتبار والتى قادت الباحثين وزودتهم بالمعلومات أحيانا وضللتهم أحيانا أخرى طوال الفترة من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر ، وهى التى وضعت جان - فرانسوا شامبوليون على الدرب الذى أدى به إلى اكتشافه العظيم فى سبتمبر ١٨٢٢ ، وقد نجح هو دون الآخرين ؛ لأنه عرف كيف يطرح أسئلته على هذه الرموز المتناثرة بصورة أفضل من الذين سبقوه كما عرف كيف يجمع الدلائل ويضبط سويها الفتات الذى جادت به ذاكرة التاريخ ، والتى كانت المادة الأولى التى استعانت بها حصافته .

ذكرت مصر كثيراً في التوراة (التي يقرأها شامبوليون في نصها العبري وهو في الثالثة عشرة من عمره) وإن كان ذكرها غالباً ما كان يجرى على أنها العدو الذي يعذب ويفسد الشعب المختار . وقد سجل جورج بوزنار عدد ٦٨٠ (ستمائة وثمانين) ذكراً لمصر في التوراة وفي المقابل لم يظهر اسم إسرائيل سوى مرة واحدة في نص فرعونى وهو الموجود على لوحة مينييتاح والذي يقول : «إن إسرائيل قد خربت ولم يعد لبذرتها وجود ..» .

جمع الفلسطينيون وبلادهم فلسطين وفرقوا في الوقت ذاته بين مصر الفرعونية وشعب التوراة وظلت علاقات الطرفين مضطربة طوال العشرين قرناً المذكورين في سفرى التكوين والخروج .. فهل يمكن إغفال الدور الذى لعبته مصر في تاريخ يوسف وفكر موسى وفي تشريعات سليمان أو تضرعات حرميا ؟ وكيف يمكن دراسة مختلف مراحل العائلات الحاكمة في مصر دون ذكر الغارات التى شنّها هؤلاء الآسيويون من الهكسوس إلى قبائل آل كنعان والتى تسببت فى العديد من المشاكل للملوك المصريين .. وجاء ضمن أسماء «القادة الأجانب» المشاغبين التى ذكرها الكتبة المصريون ذكر إيرريانو والذي يعتقد البعض أنه إبراهيم . ظهر موسى فى فترة حكم الأسرة التاسعة عشرة حين كان العديد من الآسيويين يعيشون فى بلاط فرعون فى حين كان العديد من البدو يعملون بالسخرة فى الوادى . وقد وصلت وعورة الأعمال التى سخرّوا لها إلى درجة لا تحتل أدت إلى الخروج من مصر . وهو ما يمكن تحديد زمن حدوثه بعدة عشرات من السنين سبقت تحرير النص الكوارثى المتحدث على لوحة مينا بتاح الذى سبق ذكره أعلاه .

بعد هذه القطيعة المؤسوية عادت الوثائق تتواصل بين السلطات المصرية وقادة أورشليم فى عصر تانيس ومملكة يهودا ، وذلك حوالى العام الألف قبل الميلاد .. ولم يخف الملك سليمان ما استعاره من حضارة الدولة المصرية ، والذي يمكن للقارئ المدقق للتوراة أن يسجلها ، ولعله يسمع وهو يقرأ صوت الأنبياء وهم يندبون بالحكم المستبد المطلق للفراعنة .

كان كل شئ يتعارض فى النظامين ، فالجانب البشرى الموجود فى تعدد الآلهة المصرية الذى يستوحيه النظام القائم فى طيبة وعلى قمته الملك / الإله ، والذي يعتبر أعجوبة من التوازن الصامد . كان هذا يتعارض مع الأيديولوجية التوراتية التى تتأسس كلية على معجزة نجاة الشعب المختار من النكبات والكوارث وعلى ولائه المثير للشجن لإله إبراهيم الأوحى . كل شئ عند المصريين هو نظام وعقل واستمرار ، فى حين يعلن كل شئ عند الآخرين عن مؤسويته وتفككه وإلهاميته .

غير أن التوراة ذات الرسالة الكونية الشاملة لم تكن لتغفل التعاليم الواردة من وادى النيل ، وهى تلك التى استخلصها شامبوليون عبر قراءته لها ، فهو مؤرخ الحضارات الكبرى وهو أيضا عبقرى فى المقارنة بينها . كان أثر المصدر المصرى - أى ثقافة وادى النيل على الإغريق - على نفس القدر من الأهمية للتأثيرات الحاسمة التى كانت لعبقريتهم بالنسبة لأهل عصر النهضة الأوروبى بعد ألفى سنة ... مع فارق وحيد أن «السفر إلى مصر» كان فرضاً واجباً على رواد الفكر اليونانى أعظم بكثير من زيارة اليونان على معاصرى إيرازم ورونسار .

قام سارچ سونرون⁽³⁾ بوضع قائمة - غير كاملة بطبيعة الحال - للعلماء والشعراء والفلاسفة اليونانيين الذين أصروا على عبور البحر المتوسط للنهل من المعارف والحقائق فى مصر ؛ لأنهم كانوا يعتبرونها «مهذا للعلم كله والحكمة كلها» . ويضيف سونرون أنه إذا حدث ، ولم يتمكن بعضهم لسبب أو لآخر من القيام بهذه الزيارة الواجبة على كل عالم ومفكر ؛ فإن كتاب سيرهم الذاتية كانوا يعملون على إضافة نص خيالى عن هذه الزيارة التقليدية ؛ لأن عدم إجرائها يجعل من أى مفكر أو مبتكر يونانى شخصية محلية أو غير ذات أهمية .

لم يتخلف أحد من الكبار : أورفيوس الذى اشترك فى الاحتفالات الديونزية - حسب ما أورد ديودور - وهوميروس الذى ذكر «النهر ايجيبيوس» ، والذى أسر أوليسس بالقرب منه ، وذلك فى ملحمة الأوديسا . ولم يتخلف سولون كما ذكرنا من قبل ولا طاليس ولا فيثاغورس .. الذى يقول عنه جاميليك إنه أمضى ما لا يقل عن اثنين وعشرين عاماً داخل المعابد المصرية تحصل فيها على العلم الذى «بسببه يعتبر فيثاغورس من العلماء» ، وناهيك عن أفلاطون الذى يُعتقد أنه أقام مع يوبوكس فى معبة كهنة هليوبوليس لمدة ثلاثة عشر عاماً .

وسنرى أن جان - فرنسوا شامبوليون سينسب نفسه إلى أفلاطون ، وذلك فى خطاب وجهه إلى صديقه أنجيليكا پالى - التى هى أيضا من أصل يونانى - يؤكد فيه أن «أفلاطونيته» ترجع إلى أنه «تشبع بالتعاليم المصرية التى هى المنبع الخصب الذى نهل منه مواطنك أفلاطون ، كما نهل رجل آخر أعظم منه بما أحدثه من عمل خير ألا وهو فيثاغورس ، فشرع شعوب إيطاليا المحظوظين»⁽⁴⁾ .

كتب هنرى چوليفى مقال نشرته مجلة سيلكس تحت عنوان مُعبر «أفلاطون عالم المصريين» يؤكد أن صاحب كتاب «تيميه» أخذ عن النموذج المصرى نظريته الخاصة

عن الفن التى تعتبر بمثابة بيداجوجيا إصلاحية وتقويمية ، وكانت مصدر الإلهام لكتابه «الجمهورية» . وعلى العموم فإن أفلاطون والأفلاطونية ذكر بتاريخ الحضارة المصرية فى العديد من مراحلها .

أما إسقراط ، وإن لم يقيم بالزيارة الواجبة لمصر ، إلا أننا نلاحظ أن أفلاطون فى «فيدون» يمتدح السهولة التى يلقى بها إسقراط دروساً مصرية ، وهو ما يعنى على الأرجح أن المعلم كان كثيراً ما يستعين «بلوجوس» حكماً مصر .

ومهما بلغت درجة تأثر الكتاب والفلاسفة والعلماء اليونانيين بدروس الحضارة الفرعونية فلم يرتبط اسم أحدهم بمصر بنفس تألق اسم هيروبوليس ، فهو يخصص لها خمسة وثلاثين فصلاً عن حوالاته ، وهو لا يزال بعد أربعة وعشرين قرناً نموذجاً لا نظير له فى التحقيق البحثى على ضفاف نهر النيل . كان هيروبوليس أكثر تحمساً لخصائص مصر الجغرافية ولعادات وتقاليد أهلها أكثر من انبهاره بعظمة فنونها ؛ فقد رأى فى هذا البلد الصامد الأصل المطلق لكل شئ . ولذلك فهى يجب أن تقرأ بل يجب أن تفك شفرتها ... وكان ذلك أعظم دافعاً تأثر به الشاب شامبوليون الذى كان يجيد مثل أخيه الأكبر الدراسات اليونانية كما كان قارئاً نهماً لأبى التاريخ .

أما بلوتارك فقد عاد من مصر وقد كتب مؤلفه «عن إيزيس وأوزيريس» الذى يشارك فى عملية انتشار الطقوس الإيزيسية فى أوروبا ، وهو يدين فى كتابه هذا بالكثير للكهنة مانتيون* فقد كانت مؤلفاته متاحة للتداول فى القرن الأول قبل الميلاد ، وقد استخلص سوزون من ذلك قوله : «مهما بلغ فلاسفة اليونان من شهرة فقد كانوا يرفعون من درجة الإعجاب الشعبى بهم إذا أمكن إرجاع مصدر علمهم إلى المرحلة المصرية» (5) .

لا توجد مثل هذه العلاقة الحميمة المبهرة فى العلاقات المصرية الرومانية . فقد طُبعت هذه العلاقات منذ البداية بكارثة حريق مكتبة الإسكندرية لدى استيلاء قيصر على المدينة فى عام ٤٧ ق.م . وهى المكتبة التى كانت تضم كنوز الثقافة المصرية المحررة باليونانية أو المترجمة عنها ، وعلى وجه الخصوص الثلاثين جزءاً المكونين لمؤلف مانيتون «إچييتياكا» ثم تأثرت هذه العلاقات بالنظام الاستعماري الذى فرضته روما على شعب وأرض النيل محاولة إياها إلى إقطاعية مصدراً للجباية ، كما تأثرت أخيراً بالتهب المنظم للمواقع والآثار الفرعونية بواسطة الولاة الرومان .

* هو كاهن مصرى قديم من القرن الثالث قبل الميلاد ومن ضمن ما كتب تاريخ الأسر الحاكمة المصرية .

ومع ذلك فقد قام جيرمانيكوس برحلة لمصر سجلها تاسيت بدقة فى كتبه وذكر فى كتابه أن كاليجولا كان ممن عبدوا آلهة النيل . وفيما بعد زارها أيضا الإمبراطور هادريان ، وكان معه خليله أنتينوس ، وقام بحفر اسمه على قدم أحد تمثالى ممنون العملاقين .. ثم عندما غرق محبوبه الأثير فى النهر أعطى إحدى المدن المصرية اسم «أنتينويه» .

وعلى العموم ، فإن روما كانت مزينة كلها من ساحة الإله مارس إلى ميدان الإلهة مينرفا بالآثار الفرعونية والتى عملت على تعريف زوارها الأوروبيين العديدين بالفن المصرى . وبعد ذلك فى عام ١٥٨٨ وضعت مسلة الكرنك فى ميدان لاتران وقبل شامبليون الذى زارها وانبهر بها فى ١١ مارس ١٨٢٥ زار الأب اليسوعى أتاناز كيرشار المدينة الأبدية (روما) قبله بقرنين ومن الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على مسلاتها السبعة عشرة حاول حل شفرة اللغة الهيروغليفية .

وعلى الرغم من أن الرومان كانوا يولون لحضارة النيل أهمية أقل من التى كان يوليها أساتذتهم اليونانيون إلا أنهم كانوا عاملا مفيدا فى نشرها . ولم يكن سيسيرون وحده الذى ادعى اكتشاف الأصل الفرعونى لعالم الآلهة اليونانية . وجعل من الإله تحوت إله الحكمة والكتابة أصلا للإله اليونانى هيرماس .. غير أن الكاهن الأفلاطونى «كليمنت السكندرى» أعلن فى نهاية القرن الثانى أن تحوت مخترع الهيروغليفية كان مؤلف النصوص الأساسية للحكمة المصرية القديمة المعروفة بالهيرميتيكية ، (أو السرية) .. عبر هذه المؤلفات ازدهرت فى بلاط آل الميديتشى فى القرن الخامس عشر أفلاطونية حديثة كان منشؤها هو مارسيليه فيشان . وهل يوجد شئ أكثر أفلاطونية من التصور الرمضى الذى تكون لدى أهل ذلك العصر عن الحروف الهيروغليفية مما كتبه «هورا بوالون» * وقدم فيه تصورا للعالم حيث تكون الأشياء رموزا ، وهكذا فإن عصر نهضة العصور القديمة أثار نهضة مصرية موجودة فى خلفيتها بل تعتبر أحيانا أساسا لها .

وعبر الحركة الأفلاطونية استمر انتشار تيار من الحكمة المصرية حتى عصر الإصلاح المضاد . ظلت الكنيسة تنتظر إليه بارتياح ، إلا أنها امتنعت عن مجابهته لفترة زمنية طويلة إلى أن جاء اليوم الذى حكمت فيه على جيوردانو برونو بالحرق حيا .. وعندئذ انكمش الفكر الأفلاطونى الهيروميتيكي فى مجالات علم الفلك والكيمياء والطب والهندسة ؛ حيث «ظلت الحكمة المصرية القديمة تمارس تأثيرها القوى والنشيط» كما كتب إيريك إيفرسان (6) .

* مؤلفه «هيروجليكا» اكتشف عام ١٤١٩ فى جزيرة اندروس ونشر بعد قرن من الزمان فى شينيسيا .

غير أن الحضارة الفرعونية أخذت طرقاً أخرى أقل سرية من السبل التي طرقتها الأفلاطونية الجديدة لتأصل وجودها في الغرب وهو عبادة أكثر آلهتها طهارة : الزوجة والام وسيدة الأراضى والمياه - إيزيس . وإذا كان تاريخ الولع بالمصريات (الإيجيبتومينا) أو الجنون الأوربى بها لم يتم تسجيله على الوجه الأكمل ، فإن تاريخ أحد المكونات الأساسية لهذه الحالة وهو «الإيزيسية» قد كتبه يورجس بالتروسايتيس : وهو «البحث عن إيزيس»⁽⁷⁾ فهو يرى أن هذ المعابد ومنع إقامة العبادات وتحريم استخدام الكتابة المقدسة قد حول هذه الحضارة فى نهاية القرن الرابع من مجال دراسة الآثار إلى مجال الروايات والأساطير ، مما دعم انتشارها جعل آلهتها يمنحونها فرصة الأخذ بالثأر بأن انتشرت فجأة عبر الإمبراطورية الرومانية كلها بل وفرضت نفسها بإلحاح على الأفئدة . بعد كاليجولا وبومينسيان «معتنقى الحضارة المصرية» فى العن شيد كاراكالا «إيزيوم» أول معبد إيزيسى فوق الكويرينالى فى روما دامجا هكذا عبادة الإلهة الكبرى مع الديانة الإمبراطورية . ومنذ ذلك الحين أصبح آلهة وادى النيل رعاة الفيالق الرومانية من بومبي إلى الدانوب ومن جوليا (فرنسا) إلى الجزر البريطانية وحتى أطراف العالم المتحضر .

وإذا كان قد تم اكتشاف آثار عبادات إيزيسية من بلجيكا حتى مدينة ليون (وكشف كنز شيلديريك الذى عثر عليه فى تورنيه عام ١٦٥٣ أن أسلاف كلوفيس كانوا يعبدون الآلهة المصرية) فإن أهم هذه الآثار تظهر واضحة فى باريس والمنطقة المحيطة بها . ومنذ القرن السادس عشر أشار جيل كوروزيه أن كنيسة سان جيرمان دى بريه * شيدت فوق موقع إيزيوم معبد لإيزيس - وأن ضاحية إيسى الباريسية اسمها تحوير لاسم الإلهة المصرية ، وأن ضاحية مولون كان اسمها إزيوس . وباريس ذاتها سميت هكذا بعد أن استوعبت جارتها تلك *quasi par Isis* .. أما سانت - أمان فهو يذهب إلى أبعد من ذلك ؛ إذ كتب فى عام ١٦٤٤ يقول إن أصل كلمة باريس هو فاريا (ابنة فارعون) إيزيس - فهل من مزيد ؟

وعلى العموم فإن كتاب كبار - كثيرون منهم من رجال الدين الكاثوليك - يؤككون أن جزيرة لاسيتيه ** كانت مقراً لمعبد إيزيس الذى كان يقع بالقرب من الموقع الذى شيدت عليه كاتدرائية نوتردام ، كما أن هؤلاء المؤلفين يقرون بأن المسيحية تمد بعض جذورها فى الديانة المصرية القديمة . وتذهب كريستين دى بيزان إلى الإيحاء بأن

* فى وسط باريس الحالية (المترجم) .

** وهى فى قلب باريس على نهر السين (المترجم) .

إيزيس هي نموذج للعدراء مريم .. كما يذهب آخرون إلى القول بأن حورس ابن إيزيس هو نموذج مسبق للمسيح .. كما يقال إن بوابات نوتردام وكنيسة سان جيرمان وكنيسة سانت جينييف (التي هدمت عام ١٨٠٦) كانت بها الأدلة على ذلك .

ويوجد ضمن المؤرخين المسيحيين (نون مولينييه ، نون مارتان نون بانييه) من يؤكد أن إيزيس كانت ضمن الآلهة التي يعبدوها الدرويد (رجال الدين في فرنسا القديمة - لاجول - قبل المسيحية) (المترجم) كما يؤكدون أن آلهة أخرى من مصر القديمة كانت ضمن من يقدمون لها الشعائر مثل أوزيريس وأبيس . لقد عارض بعض المفكرين مثل الكونت دي كايوس هذا النوع من النظريات ولكن يبقى أن إيزيس ظلت من عصر الدرويد إلى العصر الكلاسيكي تؤكد وجودها ضمن الآلهة التي تركتها المسيحية تهيم في الوجدان الواعي أو اللاوعي للشعب الفرنسي . وهكذا فإن مصر الفرعونية اندمجت معها داخل الميراث الديني والفكري لفرنسا منذ ما قبل قرن التنوير والانتشار الهائل ما أطلق عليه اسم «الإيجيبتومينا» أو «الولع المرضى بمصر» .

لم تتوقف مصر - ومن خلال التوراة ثم الحضارة اليونانية - الرومانية ثم الأفلاطونية الحديثة بعد ذلك من خلال الإيزيسية - عن فرض وجودها على العالم حتى لو كان ذلك في شكل خرافى أو أسطوري . ولكن الحضارة المصرية - وعلى الرغم من هذا الإلحاح الضاغط لم يبق فيها سوى مصدر هائل للافتراضات . وذلك ابتداءً من تاريخ تدمير أعمال مانيتون* التي كانت بمثابة الذاكرة الوحيدة المفهومة للقرون التي اختفت وابتداءً من ذلك اليوم الذى تحدى فيه كاتب مصرى شجاع المحظورات وحفر في الرابع والعشرين من أغسطس ٣٩٤ م** آخر الحروف الهيروغليفية على أحد أعمدة معبد فيلة .

ماذا كان ممكن «لرجل عادى» من القرن السابع عشر أن يعرف عن مصر ؟ ما عدا ما كانت تقوله له التوراة - التي كان الكاثوليك يتشككون فيها حينذاك - ويقولوه الفلاسفة اليونانيون والرومانيون - فإن معارفه كانت قليلة .

لم تساعد الحروب الصليبية كثيراً على معرفة «عالم الكفر» ... هناك ... بعض حجاج بيت المقدس الذين اكتشفوا خط سير العائلة المقدسة والقديس مرقس ، كما أن أغلب من قرأ مؤلفات لابروييار اعتقد أن الأهرامات كانت صوامع سيدنا يوسف وأن أبا الهول كان ينتظر عودة أوديب ..

* هذه الأعمال كتبت باللغة اليونانية .

** ندين بهذه الدقة المدهشة لسرج سونرون .

ومع ذلك ففي النصف الثاني من ذلك القرن (السابع عشر) عاد الموضوع المصرى يظهر على السطح من جديد. فبعد أن لفت ليبينيتز* العظمى عام ١٦٧٢ انتباه بلاط فرنسا الملكى النهم إلى أرض الفراعنة . (وذلك لسبب فريد : وهو أن الملك العظمى (لويس الرابع عشر) كان يمكنه أن يضرب هناك «الجمهوريين» الهولنديين بأن يدمر نشاطهم التجارى مع بلاد الهند الشرقية) أرسل الوزير كولبار أحد الآباء الدومينيكان ألمانى الجنسية اسمه فانزلاب فى مهمة إلى مصر ، وهو يعتبر أول مستكشف أوروبى لانتينويه .

وفى خط مواز لهذا الاستكشاف على أرض الواقع تعددت تحريات وافتراضات باحث عظيم فى شئون مصر وذلك فى مدينة روما حيث يوجد العديد من آثارها وهو الأب اليسوعى الألمانى أتاناز كيرشار الذى نشر عام ١٦٥٢ كتابه أوديب المصرى OEdipus AEgyptiacus . وكانت إحدى افتراضاته الحديثة هى التى فتحت الطريق أمام شامبوليون ؛ فهو الذى خمن أن اللغة القبطية – اللغة الدينية لأقباط مصر – هى النسخة الصوتية للكتابة الهيروغليفية .

ولما أشرف القرن السابع عشر على الانتهاء كان القنصل الفرنسى بونواى ماييه يرسم الأهرامات ، ويكتب وينشر وصفا جيدا لها وإن لم يكن يكتفى بذلك فقد كان ينقب ويسرق روائع الآثار وأثرى بها مجموعات الملك^(٨) الأثرية ومجموعة الكونت دى كايوس .. وهو فى ذلك كان الرائد الذى احتذى به زملاؤه الذين ورثوا مركزه فى عهد محمد على باشا . ثم بعد بضعة سنوات جاء إلى مصر الأب اليسوعى كلودسيكار ، وكان من دارسى اللغة العربية وملماً باللغة القبطية ، وإذا كان قد حضر فى بداية الأمر بصفته مبعوثاً من الوصى على العرش إلا أنه سرعان ما تحول من موظف فى الخدمة الرسمية إلى باحث ذى رؤية شاملة يجوب أنحاء وادى النيل زائراً معبد الكرنك داخلاً وادى الملوك مغامراً حتى أبوسمبل ليرسم أول خريطة حديثة لمصر .. قبل أن يموت فى القاهرة وهو يعالج مرضى الجزام .

سجل جان لوكلان ظهور موجة من الوله بجمع الآثار فى القرن السابع عشر تولدت عنها ما سمي بـ «غرف الروائع» وهو يقول : «فى عام ١٦٤٨ ظهرت فى مرسيليا ما أطلق عليه «أصنام من مصر لحفظ الموميوات بإحكام» وهو اسم تورية واضح للتوابيت الأثرية . وعرف عن ريشوليو ومازاران والوزير سيجييه أنهم كانوا

* سنرى (فى الفصل التاسع) أنه اهتم بمسألة الكتابة الهيروغليفية .

من كبار جامعى التحف . إن أقدم كاتالوج موجود عن المجموعة الملكية وهو المؤرخ فى مايو ١٦٨٤ يضم بعض الآثار المصرية . كما أن راعى الكنيسة الخاص بالملك لويس الرابع عشر - القس فوقيل - كان يمتلك تمثالا صغيرا لإلهة القط بست تحمل فى يدها إله الرق . أما نيقولا فوكيه فقد كان يمتلك تبوتين باعهما له بعض التجار جلبوهما إلى مرسيليا فى سبتمبر ١٦٣٢ وقد ارتجل لافونتتين بعض الأبيات عندما رآهما فى منزل وزير المالية فى سان مانديه :

لم أستطع كتم الضحك

قائلا يا مولاي حورس

إنك أذهلتنا جميعا ..

إن أبناء بلدك

كما يبنون - يرتنون مريلة الأطفال

وأراها مصنوعة بطريقة غريبة .

وقد نشر ميشيل بوفاشتار مقالا فى مجلة الإيجيبتولوجيا (المجلد ٣٧ لعام ١٩٨٦) تضمن كشف جرد للآثار المصرية الموجودة فى مكتبة لويس الرابع عشر عام ١٦٨٤ ، ويتضح منه أنها كانت تحتوى على ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين قطعة ، منها : تمثال جميل من حجر البازلت يسمى «اليشب الأسود» وأحد الآلهة من حجر السفير الأبيض وعدداً من الجعارين ومن الصلاصل شخاشيخ وسبعة عشر مومياء مصرية منها اثنتان غير سليميتين» .

هكذا فى مطلع قرن التنوير ومع ظهور موجة جنون الولع بمصر بدأ يتشكل نوع من العلوم يمكن تسميته «ما قبل الإيجيبتولوجيا» وهو كان مبنيا على تخمينات كيرتشر الحديثة وعلى أعمال چابلونسكى واقتراحات فاربوتون والرسومات التى رفعها مايبيه . وملاحظات سيكار .. ولذلك فإن هؤلاء الذين توغلوا فى مصر بعد ذلك ويتصورونها بل ويعينوا تشكيل صورتها قاموا بذلك على أسس أكثر صلابة .

أول فريق تقدم على الدرب جمع مجموعة مذهشة من الرحالة ثم سار على آثار خطاهم شعراء وموسيقيون وباحثون وعلماء لغات وفلك ومعهم أيضا دجالون وعاملون في مجال التجميل وفنانون تشكيليون وعلماء اجتماع ...

من مجموعة عشرات المتهورين كاشفى أسرار الألفاظ نختار ثلاثة :

البحارة الدنمركى فريدريك نوردن الذى أبحر وهو فى الثلاثين من عمره إلى مصر ثم أبحر فى مياه النيل صعودا حتى فيلة ومعابد النوبة قبل أن يعود ليموت فى باريس بعد خمس سنوات تاركا مجموعة رائعة من رسومات «آثار طيبة» .. وقد أثبت أنه كان يتمتع بموهبة فنية راقية وهو يقدم - كما فعل فيثان بونون من بعد - أفضل تصوير وتأثير للفن الفرعونى - ولا شك أن شامبوليون قد اطلع على هذا العمل الرائع وأشاد - كما فعل قبله شاتوبريان - بدقة النقل .

إذا كان نوردن بحاراً فإن ريتشارد بوكوك القادم من ميناء ساوثهامبتون الإنجليزى لم يكن كذلك بل كان رجل دين ولم يسافر من أجل التبشير لدينه بين الحمديين بقدر ما جاء يستكشف روائع الإبداع الفنى . ووصل حتى أسوان بعد أن زار الأديرة القبطية على البحر الأحمر . وإننا لنقدر بساطة العنوان الذى صدر به مذكراته عن رحلته : «وصف لبلاد الشرق وبعض المناطق الأخرى» : الرؤيا ثاقبة والأسلوب سلس . وقد نال هو أيضا إعجاب شاتوبريان كما قرأه شامبوليون .

أما كلود - لوى فورمون ، فقد كان أكثر الثلاثة قرباً من عالم المصريات الحقيقى . فهو كان يعمل مترجماً فى المكتبات الملكية . وقد زار مصر السفلى عام ١٧٤٦ ، ونشر بعد بضع سنوات كتاب «وصف هضبتى هيليوپوليس وممفيس» وهو يتميز بأنه حدد بدقة المكان السليم لعاصمة الفراعنة القديمة بالقرب من سقارة عند البدرشين . بل إنه أشار أيضا إلى وجود هرم رابع فى الجيزة .

فى الوقت ذاته الذى كان هؤلاء الرجال الشجعان ينتزعون فيه من وادى النيل أسرار الدفينة قام آخرون بإضفاء شكل فنى وفلسفى للأسطورة المصرية العائدة للانتشار من جديد .

ولم يلهب كتاب مخيلة الغرب مثلما فعل كتاب الأب جان تيراسون الذى نشر عام ١٧٣١ فى باريس^(٩) تحت عنوان «سيتوس» وعنوانه الفرعى «تاريخ أو قصة حياة مأخوذة من الآثار المصرية وعن قصص مصر القديمة» أُرِدَف به ملحوظة لم تخدع أحداً :

«مترجم عن مخطوط يوناني اكتشف في مدينة الإسكندرية تحت حكم الإمبراطور مارك - أورال» . ويؤكد الأب تيراسون في مقدمة كتابه أنه يدين في عمله لأستاذين هما مؤلفا كتاب «تيليماك» وكتاب «أسفار فورش» وهما مؤلفان خياليان . كما أنه يشير إلى رجوعه إلى أعمال هيرودوت وديودور وبلوتارك وهي بالطبع المصادر البحثية التي اعتمد عليها .

سيتوس كان أحد أمراء مصر في القرن الحادى عشر قبل الميلاد ابن الملك أوزوروت والملكة نيفتى التى توفيت تاركة مكانها لزوجة الأب الرهية : ديلوكا . إلا أن الطفل يجد حليفاً في شخص معلمه الحكيم أميديس .. وهنا نلاحظ الخطوط العريضة التى بنيت عليها شخصيات أوبرا الناي السحرى . خاصة وأن التجربة الأولى التى كان على سيتوس أن يجابهها هى ظهور «شعبان مرعب» وهو نفس المنظر الافتتاحى لأوبرا موزار .

لم تكن رواية الأب تيراسون مجرد تمجيد للحكمة المصرية القديمة ؛ لأن هذا القس هو الذى كان معروفاً أنه عضو فى الحركة الماسونية ملاً قصته ببعض الملامح الفلسفية السائدة فى زمنه . فقرأ مثلاً أن سيتوس يقول لمعلمه أميديس الذى كان يمتدح له الأعمال العظيمة التى شيدها الفراعنة : «لا أعتقد أن يجب السماح بتعذيب الناس بحجة تمجيد الآلهة» .

إن أحد أهم الجوانب الملفتة فى «سيتوس» والتى جعلت منه مرجعاً من مراجع الماسونية فى ذلك العصر هو ما تضمنه من شعائر وتقوس وأهداف عملية إدخال العضو الجديد إلى الماسونية ، فنقرأ مثلاً هذه السطور : «بعد أن تتم إدخال الأمن إلى قلبه بواسطة النار والماء والهواء يتلقى العضو المقبول حديثاً النور ويصبح له الحق فى إعداد روحه للكشف أمامه عن أسرار الإلهة العظيمة إيزيس ..»⁽¹⁰⁾ وكان وقع هذا الكشف على سيتوس مثيراً لدرجة جعلته يتخلى عن وراثته العرش لأخيه ليحتجب وسط الكهنة . ليأتى إليه الملوك والعظماء لاستشارته حول مختلف الأمور ، فقد أصبح أكثر العارفين بالأسرار من بين المتطلعين عليها .

لم تكن قصة «سيتوس» أحد الكتب الأساسية للماسونية فقط كما لم تكن فقط مصدر إلهام موزار لتأليفه أوبرا «الناى السحرى» بل إنها أوحى له أيضاً بقصة أوبرا «ثاموس ، ملك مصر» والذى عرضت قبل ذلك بعشرين عاماً (وسوف نعود للحديث عنها فيما بعد) .

أعيد طبع رواية «سيتوس» في ١٧٦٧ و ١٧٩٥ و ١٨١٣ ، وكان أحد الكتب الأكثر رواجاً في ذلك الوقت* ولا بد أن قرأها الأخوان شامبليون خاصة وأن أباهما كان صاحب مكتبة ويمكن إعتبار هذه الرواية إحدى الحلقات في سلسلة العوامل التي أدت إلى وصول كشاف الرموز إلى اكتشافه العظيم .

قد يدهشنا اليوم أن تيراسون قد جعل مصر مصدراً للإشعاع الماسوني علماً بأن عالمها كله كان يدور في فلك الدين ، وكانت خاضعة تماماً لسلطة الحاكم الإله ، وهكذا فعل بعده أيضاً موزار وجوته وهوباك وغيرهم من الماسونيين ، ولكن في القرن الثامن عشر وهو عصر «الاستبداد المستنير» فإن الأمر كان يبدو طبيعياً . ذلك لأن قرن التنوير كان يرى التسلط الفرعوني - والذي ندد به سيتوس كما سبق أن أشرنا - أن حضارة وادي النيل هي الترياق المنقذ من سلطة رجال الدين المقيدة للفكر فهي مشبعة بالحكمة والتوازن بالفكر الإنساني والحيوية النشطة . قرن التنوير كان يجابه العالم الأسود والمتشنج للآباء اليسوعيين ورجال الكنيسة الآخرين ورجال محاكم التفتيش والوعاظ المهددين بثواب الأمور في اليوم الآخر وقادة «الإصلاح المضاد» بالنور الساطع لأمون - رع وبعظمة الشمس الهائلة وبالتوازن الكامل لتعدد الآلهة فهو يعتبره قمة التعبير العقلي .

هذا التيار الماسوني المصري أخذ وجهاً كاريكاتورياً في شخصية سيئة السمعة اسمها جوزيف بالسامو - وكنايته كاجليوسترو . فقد أعلن نفسه «القبطي الأعظم» - محولاً آباء إلى فاء لإضافة مسحة من الغموض الشرقي للصورة التي اخترعها (قبطي بدلاً من قبطي) وأسس عام ١٧٨٤ في سرورديار في باريس «أم المحافظين للتحويل إلى الماسونية المصرية العليا» ثم جال في أوروبا وذا ع صيته في الصالونات والقصور ناشراً طقوساً ادعى أنها «مصرية» ؛ حيث امتزج السحر بالإثارة الجنسية التي تولت عرضها أو ممارستها زوجة بالسامو (11) .

ولم تعتبر هذه القصة مجرد مسلسل روائي لكاتب ساخر فقد أخذت روما ومكتب البابا هذه المغامرة - أو لعلها بدت كما لو أنها تأخذها على محمل الجد لدرجة أنها رفعت على هذا الدجال قضية عام ١٧٩٠ «لممارسته الماسونية» .. وكان من المحتمل أن ينتهي به الأمر بالموت حرقاً ... الواقع أن كاجليوسترو قد انتهى به الأمر في السجن

* حولها أحد المؤلفين المغمورين : «تانيقو» إلى مسرحية شعرية عام ١٧٣٩

حيث توفى . ولعله أنقذ نفسه من المصير الأسوء بأن «أقر» أن الماسونية هي التي وضعت المخطط العالمى الذى أثمر عن هذه الثمرة المسمومة التى هي الثورة الفرنسية .. وقد استغلت الكنيسة الكاثوليكية هذه النظرية على أوسع نطاق ... غير أن ما يشد اهتمامنا فى هذا المقام ليست القصة فى حد ذاتها - والتى تناولها بشكل جيد جداً جيرار دى نرفال فى روايته «المهمون Les illuminés» ، ولكن ما يهمنا أن نلفت النظر إليه هنا هو أن يلجأ دجال كبير وذلك فى عصر فولتير صاحب كتابى زائير ومحمد إلى مصر ليستقى منها النور الذى يجعل مشروعه يبرق لدرجة خلبت ألباب الناس وذلك على أعتاب العروش المالكة !

إذا كان بالسامو هو كاريكاتير لافتنان قرن التنوير بالحضارة المصرية ، فإن موزار يقدم أسمى صورة لهذا الافتنان . إن الفلاسفة الماسونيين هم الذين قابوه نحو مصر : ففي عام ١٧٧٣ وكان فى السابعة عشر من عمره طلب منه تأليف المقدمة الموسيقية وموسيقى أغانى الكورس وكذلك القطع التى تتخلل فصول عرض مسرحية تاريخية . اسمها «تاموس ، ملك مصر» للمؤلف توبيافون جيلار ، الذى كان يرأس جمعية ماسونية فى مدينة فيينا وقد بدأ جيلار بالموسيقار جلوك صاحب أوبرا «أورفيوس» إلا أنه رفض العرض علماً بأن جلوك كان ماسونياً أيضاً .. أما موزار فقد تحمس للعرض حتى أنه أعاد كتابته وأضاف إلى تأليفه الموسيقى بعد سبع سنوات من العرض الأول أى فى عام ١٧٨٠

ازداد افتنان موزار بمصر القديمة بعد أن تعرف على أكثر المستنيرين شهرة إيجناز فون يورن صاحب كتاب عن الحضارة الفرعونية ، وهو الذى أوحى بتأليف «النأى السحري» كما كان الأصل الغامض لصورة شخصية ساراسترو . إلى هذه الفترة يرجع دخول موسيقار سالزبورج عضواً فى المجموعة الماسونية المسماة «نحو فعل الخير» ثم بعد ذلك فى المجموعة الأكثر أهمية وشهرة المسماة «الأمل المتوج حديثاً» .

ولكى نؤكد على أهمية الجذور المصرية لعمل موزار الموسيقى هذا ، فإننا نشير إلى أنها لما عرضت لأول مرة فى أوبرا باريس عام ١٨٠١ كان ذلك تحت عنوان «أسرار إيزيس» ، وبهذه المناسبة نشير أيضاً أن هذا المسرح ذاته هو الذى عرضت فيه قبل ذلك بنصف قرن - أوبرا - باليه «ميلاد أوزيريس» للموسيقار الفرنسى رامو .

لم يكن الجو العام مشبعاً فقط بالموسيقى والأغنى .. فقد كانت الزخارف والمعمار أيضاً تشارك فى تأكيد الوله المرضى الملح بمصر القديمة .. ففي الوقت الذى

كان فيه ملك بروسيا فريديريك - جليوم الثانى - (وهو بالمناسبة ماسونى أيضاً) - يملك حدائق فى مدينة بوتسدام مزينة بالأهرامات والمسلات وأبا الهول - ويتشبه به جوستاف الثالث ملك السويد فى مدينة هاجا ، كان يتم بناء منبج للعجل أبيس فى لرسدن «وكان بمثابة تجميع لكافة المواضيع المصرية الشائعة حينذاك» (12) .. فقد كان المشهد الجمالى الفرنسى يعيد تشكيل ذاته فى نفس هذا الاتجاه . وفى هذا الصدد .

كتب المؤرخ الفنى لوى هوتكور يقول : «منذ عصر لويس الرابع عشر انتشرت تماثيل أبو الهول كتكتئات للكراسى وكحاملات لرخام الكونسولات .. والأشكال الإيزيسية المختلفة المنحوتة فى البرونز كانت تثبت فى رخام مداخن تدفئة المنازل . كما أن المسلات كانت تنتشر فى الحدائق بجانب الأكشاك والمباني الأخرى المستوحاة من الشرق الأقصى» . (13) كل ذلك زاد انتشاره لدرجة الجنون غداة الحملة على مصر ثم طوال فترة الإمبراطورية النابليونية : فلم يكن هذا الاتجاه بمثابة تشبه بتيار سائد لموضة العصر ، ولكنه كان يحدث من باب تقديم فروض الواجب للإمبراطور .

وقد أعطى كتاب وصف مصر والرسام فيثان بونون للفنانين المجمعين وإلى المعمارين المستندات الجادة التى تسمح لهم بالاستهلام الدقيق منها .

ومع ذلك فقد ظهر استثناءان أمام هذا التيار الجارف : أولهما يتمثل فى مجموعة مؤلفى كتاب دائرة المعارف أو الإنسيكلوبيديون فقد وقفوا متحفظين إزاءه على الرغم من أن قرن الفلاسفة كله كان يبدو مسكوناً بأشباح الأهرامات وأسرار إيزيس والطقوس السرية المصرية القديمة .. والذى يتصفح اليوم الإنسيكلوبديا الأولى هذه معتقداً أنه سيجد بها العديد من الرسومات الكاشفة عن الولوج المرضى بالمصريات الشائع فى ذلك العصر من خلال الماسونية سيصاب بخيبة أمل . ففى باب الآثار القديمة الثرى بالموضوعات لن يجد سوى لوحة واحدة للمعمار المصرى بها صورتان ضعيفتان للأهرام وواجهات المعابد .. علماً بأن الشخصيتين اللتين أشرفتا على تأليف هذا المرجع الأساسى ، هما ديدرو ودالمبار لم يكن ليرفضا أى شىء للماسونية التى هى مرتبطة ارتباط وثيقاً بالولوج بمصر القديمة .

ولا يجد المرء أى مبرر لعدم اهتمام القائمين على هذا المؤلف الأساسى بحضارة وادى النيل العظيمة .. فهل ضايقته «الموضة» المصرية بيدرو ودالمبار فأرادوا أن يقفوا فى وجهها ؟ هل استنبطوا وجود عملية غش وراء هذا التيار يريد العودة إلى نوع من الإيمان المزيف ؟ وهل وجد أن هذه الطقوس الدينية وتلك الأسرار والاحتفالات

التجريبية للدخول فى عضوية الجمعيات السرية عودة مقلقة إلى مقننات التدين ؟ علينا أن نسجل فى جميع الأحوال هذا التحفظ . فهو موقف لا يبرره عدم وجود مستندات جادة أو آثار حقيقية : فقد كانت روما مليئة بهذه الآثار كما سبق وأشرنا .

أما الاعتراض الآخر الذى تصدى لموجة الولع بمصر القديمة فقد تمثل فى شخص المؤرخ الفنى : وينكلمان فقد نشر كتابه تاريخ الفن عام ١٧٦٤ ، وعندما كان التيار فى أوجه .. ويعتبر هذا الكتاب بمثابة نشيد مدح يمجد هيمنة الحضارة اليونانية لدرجة أن جميع الحضارات الأخرى بجانبها تبدو كما لو أنها موصومة بإدانة فنية ولا يرجع ذلك إلى عدم معرفة جوهان وينكلمان بمصر : فقد درسها بطريقة أعمق من الذين سبقوه ودرجة أنه يمكن القول إنه ساهم فى الكشف عن عالم الفراء ة . إلا أنه كان يعتبر مصر لحظة زمنية أو ظهور انتروبولوجى مفاجئ فى التاريخ البشري - ولا يعتبرها فصل من فصول تاريخ الفن . فبالنسبة لوينكلمان تعتبر مصر الفرعونية شاهدا على قدرات الإنسان وعلى قدراته الاجتماعية الخلاقة واهتماماته الدينية لا على عبقريته الفنية . إنه يرى فيها مجتمعا فى طور التكوين مما يشمله من آلهة وكهنة وملوك . مقدمة أو مسودة لنظم كانت ستظهر بعدها - وهو لذلك لم ير فيها الجمال الذى يعبر عن نفسه وهو الشيء الذى يعود اكتشافه إلى شامبوليون .

قبيل اندلاع الثورة الفرنسية أضيف مؤلفان مهمان إلى المجموعة الشاملة للمراجع المصرية التى كانت تمكن العلماء من مختلف التخصصات من المراجعة والبحث .. ويعتبر أحد هذين المؤلفين من الأعمال الرئيسية الهامة * .

كلود سافارى كان يسافر للمتعة الشخصية . وكان عمره ستة وعشرين عاماً عندما قام برحلته إلى مصر حيث مكث فى القاهرة وضواحيها القريبة ثلاث سنوات بين ١٧٧٦ حتى ١٧٧٩ لم يكن عليمًا بمصر القديمة علماً بأنه قرأ أعمال «مابيه» و«سيكار» وهو يرجع إليهما لكون ذكر اسميهما - بل كان اهتمامه منصباً على المجتمع

* من الصعب أن نحدد هنا بدقة مكانة سوزيني دى مانونكور وهو معاصر لسافارى ودى فولنى . أما كتابه «رحلة إلى مصر السفلى والعليا» التى قام بها بين عامي ١٧٧٧ و١٧٨٠ لم ينشر سوى عام ١٧٩٩ - بالإضافة إلى أنه كان من تلاميذ علامة الأحياء «بوفون» ولم يلق على آثار مصر الفرعونية سوى «نظرة سريعة قلقة» فلم يشاهد طيبة سوى من بعد و «فى عجالة»

المصري المعاصر له . غير أن كتابه «خطابات مرسله من مصر» يحتوى على الأقل على وصف لرحلة قام بها للجيزة . كتب فيها : «رأينا قمتى هرمين كبيرين إن منظر هذه الأثريين العتيقين اللذين قاوما تخريب الأمم وسقوط الأمبراطوريات وآثار الزمن المدمرة يثيران الاحترام فى النفوس ... تحية إلى آخر عجائب العالم السبعة !! وتوقيراً لعظمة الشعب الذى شيدها !!» .

ثم يلى ذلك وصفاً لزيارته هرم خوفو وهو يزحف بين الثعابين والخفافيش داخل المجرى المؤدى للغرفة الجنائزية وتابوتها المفتوح والمنهوب . كان هذا الكاتب ذا نية حسنة ومتفاعل ويتضح ذلك فى هذه الرسالة التى تضمنتها مجموعة «خطابات مرسله من مصر» . يقول فيها : «إذا وضع هذا البلد الجميل بين يدي أمة صديقة سيعود ليصبح مركز تجارة العالم كله . والجسر الذى يربط بين أوروبا وآسيا . وستعود هذه البلاد السعيدة لتكون مرة أخرى وطناً للعلوم وأسعد مكاناً يقام فيه فى العالم . صدقنى يا سيدى إذا قلت لك أن هذه المشاريع ليست تهيئات مستحيلة التحقيق» . لذلك يمكن اعتبار سافارى بالرجوع إلى هذا الحديث ، أحد رواد الحملة التى جردت بعد ذلك بخمسة عشر عاماً .

أما كونستانتان دى شابسبوف ، وكنيته «فولنى» فقد كان معدنه مختلفاً . فهو مولود عام ١٧٥٧ فى منطقة مان ولوار وهو صديق للانسيكلوبيديين وكان شديد الإعجاب بفولتير لدرجة أنه اختار كنيته هذه تعبيراً دائماً عن تبجيله لأستاذه فالمقطع الأول مأخوذ من الجزء الأول لفولتير والمقطع الثانى مأخوذ من المقطع الثانى للبلدة التى يقيم فيها : فرنى .. كما أنه لم يبدأ رحلته إلى الشرق من عام ١٧٨٣ إلى ١٧٨٥ إلا بعد أن درس اللغة العربية لمدة سنتين كاملتين .. وكان ذلك بون جنوى فقد اتضح له أن ما درسه فى الكوليج دى فرانس علاقته بعيدة عن المستخدم فى الحياة اليومية لسكان وادى النيل .

إن كتابه «رحلة إلى مصر وسوريا» الذى نشر عام ١٧٨٧ يدخل فى باب علم الاجتماع ويعتبر تمهيداً لما كتبه «توكفيل» بعد ذلك . وقد نشر مرة أخرى عام ١٨٥٢ ضمن أعماله الكاملة وتظهر فى مقدمة الكتاب مقدمة - لم يذكر اسم محررها - يؤكد فيها أن «الرحلة ...» «عرفت نجاحاً سريعاً ومتألقاً وأقل إثارة للجدل عن أى كتاب آخر» وينقل كاتب المقدمة عن الجنرال بارتية قوله فى كتابه «سرد للحملة على مصر» : «إن كتاب فولنى كان بمثابة دليل الفرنسيين فى مصر . وهو المؤلف الوحيد الذى لم يخذلهم أبداً» .

يصف قولنى بدقة المكونات المختلفة لسكان مصر وهو يقول عن الأقباط : « هذا الجنس من الرجال السمر عبيدنا وموضع ازدراعنا هو نفس الجنس الذى ندين له بفنوننا وعلومنا وحتى باستخدامنا للتعبير بالكلمات » - وعن المماليك يقول : « إنهم عبيد لأقصى الأسياد استبداداً لا قانون لهم سوى العنف الذى يتسم به العسكر المتوترين والأجلاف (....) وإذا اجتمعوا كان ذلك تجمهراً وإذا ساروا فمحتشدين وإذا حاربوا فهم كقطاع الطرق (....) إن نفوسهم نفوس الأرقاء وهم فى منزلة الملوك ... » .

وبعد أن يرجع إلى أعمال ماييه وسيكار وبوتوك ونورد ونيهور وسافارى يتسائل قولنى : « ما هو مصدر تحمس الرحالة إلى مصر ؟ » أما هو فتخليه لا تجد فيه أى قدر من الحماس ؛ إذ يقول : « إن فنون مصر الآن هى فى مرحلة الطفولة والأفكار فيها تعيش عصر البربرية (....) هيئتها العامة هى الانهيار التام والفقر المدقع (....) هذا الشعب يستحق الشفقة لا الازدراء وهو سيتحرر من عبوديته إن توفرت له الوسائل (الآن) النار المكورة لا تنتظر سوى اليد التى تعرف كيف تحركها ... » .

ثم نقرأ هذه التأملات التى لا بد وأن تثير الإعجاب ، فهى ترفع من شأن المعبر عنها من كونه رحالة جسور إلى مستوى المؤرخ :

« لا ريب أن الاهتمام بهذا الشعب هو الذى يجب أن يثير الاهتمام بالآثار .. ولكن إذا امتلكت مصر أمة محبة للفنون الجميلة * فهى ستجد فيها إمكانات تسمح بمعرفة العصور القديمة وهى الإمكانيات المستعصية علينا فى أنحاء الأرض الأخرى (....) إن هذه الآثار القديمة الشامخة مدفونة فى الرمال لتصونها كما لو كانت فى خزن خاصة وذلك لمصلحة الأجيال القادمة .. وعلينا أن نؤجل رجاءنا وأملنا فى حل لغز اللغة الهيروغليفية إلى ذلك الحين ولعله يكون أقرب مما نتصور . علماً بأننى أعتقد أن الوسائل المتاحة حالياً تكفى للوصول إلى حل الشفرة هذه » .

ويمكن أن نتصور تأثير قراءة هذا الكلام على رجال مثل بوناپارت وشامبليون من بعده - فهو كلام واضح جامع عن التفكك الذى يستدعى الفاتحين وعن الإمكانيات التى هى بمثابة الإلهام بالنسبة لجلاّب الحضارة وعن العجائب التى تنتظر المستكشفين وعن الأسرار التى تلهب خيال الباحثين .. وإذا كنا لا نعرف على وجه الدقة تأثير كتاب

* نفس التعبير تقريباً استخدمه سافارى كما سبق ما أشرنا فى الصفحة السابقة . وهو بمثابة دعوة جديدة للاستعمار .

قولنى على الفيلسوف فإننا نعلم عن يقين أن الجنرال كان من قرائه المتحمسين ، وأن منه الرفيق الذى لا يفارقه فيما يتعلق بالشأن المصرى ثم أصبح فيما بعد من أصدقاء المؤلف .

عرف القرن الثامن عشر قمة المجد بقيام الثورة الفرنسية بظلالها وأنوارها ويتزامن معها وصول الولوج المرضى بالمصريات إلى هذه الدرجة السامية ذاتها وأفضل المعبرين عن الحكمة المتزايدة التى تميز بها هذا الزمن المضطرب هم ثلاثة رجال : نيقولا دى بونفيل وشارل دوبوى وألكسندر لونوار .. فقد ساهمت الدعاية (ولو كانت كلمة بروباغندا قد اخترعت فى ذلك الوقت لكانت التعبير الأدق) التى قاموا بها فى إثراء الأيديولوجيا التى قامت فى البداية على أساس الموضوعات المستقاه من أهل روما القديمة كما كان يتصورها الرسام دافيد فى لوحاته - بموضوعات مصرية كما أنهم جعلوا من أحد أعظم الاحتفالات طقساً دينياً إيزيسياً هائلاً ، وكان ذلك بمناسبة افتتاح النافورة التى أقيمت على أنقاض الباستيل . نافورة «إعادة الشباب» .

● نيقولا دى بونفيل كان من الماسونيين وكان من المقرر إعدامه بالمقصلة لولا أن قيام حركة التاسع من شهر تيرمبور الثورى أنقذ رقبته . وقد نشر كتاب «روح الأديان» عام ١٧٩١ حاول فيه - كما فعل أستاذه كور دى جوبلان - أن يجعل من عالم الآلهة المصريين القدماء المصدر الرئيسى لأفكار الثورة وإرهاصات ميلاد دين عالمى جديد تكون أهم آلهته إيزيس والمسيح وفى ركبهم يسير آلهة مصر الآخرون .

● شارل دوبوى كان أستاذاً فى الكوليج دو فرانس وعضواً فى الجمعية التأسيسية نشر بعد ذلك بثلاث سنوات كتاباً عنوانه «أصل الديانات أو الديانة العالمية» والذى زعم فيه أن هذا الأصل لا يمكن أن يكون سوى على ضفاف النيل . ويؤمن فيه أن المسيحية ما هى سوى اقتباس للمعتقدات المصرية القديمة . ويذهب مريده سيلفان ماريشال إلى أبعد من ذلك شارحاً ما قاله على طريقته بأن كتب يقول : «إن عابدى المسيح لا يعرفون أن تقديسهم لمريم مصدره موجود على ضفاف النيل»⁽¹⁴⁾

● الكسندر لونوار كان من تلاميذ دوبوى .. عين عام ١٧٧٠ مسئولاً عن المباني العامة . وبعد ذلك بتسعة عشر عاماً نشر كتابه : «شرح الكتابة الهيروغليفية» * .. وكان هذا الكتاب هدفاً لأسلوب شامبوليون الساخر فيما بعد .. ولكنه كان يؤكد فى

* انظر الفصل السابع .

وقت قيام الثورة وبإصرار ، مستنداً فى ذلك إلى الهيبة التى تضفيه على شخصه وظيفته الرسمية ، أن المسيحية ليست سوى تحويراً لبيان طيبة وأن «الأشكال الرمزية للشخصيات التى تتزين بها واجهات كنائسنا القديمة هى نوع من الرموز الهيروغليفية المشابهة للرسومات المصرية القديمة» .

وتعليقاً على ذلك كتب بالتروسايتيس يقول «لقد انقلبت الأوضاع فى الفكر الثورى . لم تعد مصر أسطورة للحكمة الموازية للعهد القديم فى التوراة . فقد استخدمت الأسطورة المصرية حينذاك فى عملية إسقاط المسيحية وذلك بإعادتها إلى مستوى الديانات البدائية . واعتبرت رواية أوزيريس وقصة المسيح رمزاً للموت والعودة إلى الحياة كما هو الحال بالنسبة للدورات التى تعرفها الطبيعة ...» . ويضيف بالتروسايتيس قائلاً : «ولكن من المعروف أن أى نضال مناهض لأى دين ينتهى به الحال بأن يصبح ديناً آخر» . (15) وقد اعتنق الكسندر لونوار دين إيزيس وأصبح ابتداءً من عام ١٨١٢ أهم المبشرين به . المهم هو أن كل شىء كان يأتى من مصر ويعود إليها .. ولذلك فإن الشاب الذى بدأ يدخل مرحلة الوعى فى بداية القرن الجديد لم يجد موضوعاً جديراً بالاهتمام أكبر من «مصر الصامته» .

فى خضم هذه اللجة من حمى الولع بمصر وتخيل عالم آلهتها بزغت أكثر الأفكار جنوناً والتى يمكن أن تعبر أبداً عن فكر رجل من رجال الدولة وخاصة إذا كان رجل الدولة هذا هو شارل - موريس دى تاليران - بيريجور وزير خارجية حكومة «الديركتوار» الذى يعتبر أكثرهم وضوحاً وأكثرهم رجاحة وعمقاً فى رؤاهم . فهو الذى حول حلم الحملة على مصر الذى داعب خيال بعضهم إلى مشروع سياسى وحربى علماً بأنه نفى ذلك فيما بعد .

الفكرة نفسها نبتت قبل ذلك بفترة طويلة - ففى كتابه «التاريخ العالمى» أكد «بوسوييه» (16) أن إعادة الكشف عن روائع طيبة قد تكون من الأعمال السامية الجديدة «بالمملك العظيم» (لويس الرابع عشر) .. ثم فى منتصف القرن التالى - الثامن عشر - جعل «شوازل» من نفسه بطل حركة المطالبة بضم وادى النيل إلى فرنسا : الواقع أن تاليران عندما أعلن تأييده لفكرة قيام حملة عسكرية على مصر على أساس ما أورده فى شرح أسباب ذلك قنصل فرنسا فى مصر ابن مرسيليا : شارل ماجالون - رجع فى تأييده هذا إلى سلفه الأشهر شوازل - وكان ذلك فى صورة بحث تقدم به إلى «معهد فرنسا» (لانسيتيتو) عام ١٧٩٧ ثم فى مذكرة بعث بها إلى حكومة الديركتوار فى يناير ١٧٩٨ أوضح تاليران فى هذين البحثين أن الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار وعليه فيتعين على فرنسا أن تستولى على بعض من حطام هذا الانهيار وعلى مصر بالذات ، خاصة وأنه لم يعد لتركيا فيها «أى قدر من السلطة» .

وقد ناقض شاتوبريان هذا الكلام فيما تضمنه كتابه «مذكرات من وراء اللحد» :
«يتحمس الفرنسيون لدرجة النشوى بالحملة العسكرية على مصر .. إنهم لا يرون أنهم بذلك
يطعنون النزاهة بنفس القدر الذى يطعنون به أيضاً الحق السياسى : ففى إطار السلام
الذى يخيم على العلاقات التى تربطنا بأقدم حلفاء فرنسا * نقوم نحن بمهاجمتها وننتزع
منها مقاطعتها الخصبة فى وادى النيل .. وذلك دون ما إعلان لحرب كما لو كنا مثل
الجزائريين فى إحدى غزواتهم على مرسيليا أو مقاطعة بروفانس⁽¹⁷⁾ ليستولوا عليها . »

فى تقرير تالى رفعه الوزير لحكومة الديركتوار فى الرابع عشر من فبراير ١٧٩٨
عاد مرة أخرى يستشهد بأراء سافارى وقولنى ليؤكد «إن مصر لا تنتظر سوى قيام
حكم عاقل ومتنور ليستثمر ثرواتها» وراح بعد ذلك فى تطوير فكرة جديدة مفادها أن
احتلال مصر سيسمح بإعادة فتح الطريق إلى الهند من السويس وهو بمثابة «ضرب
انجلترا فى مقتل» . كان الموضوع إذن فى تصور تاليران هو القيام بعملية ذات هدف
مزيج استعمارى واستراتيجى . علاوة على كونها مناورة فى السياسة الداخلية :
فمثله مثل بقية أعضاء حكومة الديركتوار - وعلى رأسهم الوزير بارأس أراد تاليران
أن يبعد بوناپارت عن فرنسا فاتح إيطاليا وكانت شهرته قد بلغت أوجها مما بدأ يهدد
السلطة القائمة التى هى أصلاً هشة وضعيفة . ولكن بوناپارت تردد فى قبول المهمة
حسبما قال أخوه جوزيف . وإذا كانت فكرة المغامرة قد داعبته للغاية كما تشهد على
ذلك برقية بعث بها إلى «الديركتوار» قبيل عودته من راشات وما أسر به إلى سكرتيره
بوربان فى إيطاليا إلا أنه استشعر - كما يورد فوشيه (وزير الداخلية) - فخاً ينصبه له
بارأس وتاليران ولكن ما هو الحل ؟ هل يعبر البحر إلى انجلترا فيكون ذلك مخاطرة
أكبر مما يمكن أن يحتمل نتائجها أم يبقى على حاله فيتأكل هو وما قام به أيضاً ؟
اختار إذن أن يسلك الدرب الذى سبقه عليه قيصر ... نحو الشرق فى أثر الإسكندر
الأكبر . اختلطت فى نفسه أكثر الأحلام رومانسية مع أكثر الأفكار واقعية وأكثر
الحسابات دقة . لا بد وأنه رأى ما فى هذا المشروع من «هوس الجنون»⁽¹⁸⁾ إذ أنه
سيحرم فرنسا من أفضل جيش لديها ومن أفضل جنرالاتها الاستراتيجيين فى الوقت
الذى كانت الحرب تتهددها من جديد .. بل إن المشروع كان يمكن أن يغرقهم تماماً
وإلى الأبد لما كان لانجلترا من تفوق بحرى هائل فى البحر الأبيض المتوسط .. وعليه
فما هو مقدار فرصة الأسطول الفرنسى فى الإفلات من مطاردة نلسون له ؟ الإجابة
هى : الفرصة معدومة ... ومع ذلك اختار بوناپارت أن يعتمد على نجمه العالى .

* إشارة إلى المعاهدة التى أبرمت فى القرن السادس عشر بين فرنسا والاول والعاهل التركى .

لما كان العدو الرئيسي في لندن وإمعاناً في تضليله حتى لحظة الإقلاع فإن الوجهة الرسمية للحملة البحرية كانت الجزر البريطانية وكان النداء الذي وجهه بونابارت لقواته لحظة فرد الأشرعة في ١٩ مايو ١٧٩٨ يبدأ هكذا : «أيها الجنود ، إنكم أحد أجنحة جيش غزو إنجلترا .. ولذلك فعليكم أن تخوضوا حروب البحار» .

حاول نابليون في منفاه بجزيرة سانت هيلين أن يسرد أنبل رواية لأحداث هذه المغامرة المتهورة للماريشال برتران * واستمر هذا السرد لعدة أيام طوال ... كما أن نابليون يكرر على مسامع لاس كاز ما يدعى أنه قاله أثناء الحملة : «لقد جئت لكي أحول اهتمام أوروبا وأثبت أنظارها على العالم القديم في مركزه»⁽¹⁹⁾ أى أنه اعتبرها نوعاً من «الدعاية لمصر» .. ولكن يخطئ من يكتفى بالاستهزاء من هذا القول - لأن الرفعة والسمو عنده كثيراً ما كانا يتواءمان مع البشاعة واللامعقول .

يجدر أن نسجل أيضاً أن عام ١٧٩٨ هو الذي ظهر فيه كتاب إيتيان لوتيه «رحلة أنتينور إلى بلاد اليونان وآسيا» الذي طواه النسيان وقد أقر المؤلف أنه نقله عن كتاب الأب بارتيليمي : «رحلة الشاب أنارشازيس» . وعشية قيام الحملة كتب شاتوبريان مشيراً إلى هذا الكتاب عند نشره فيقول : «.. حتى «رحلة أنتينور» بدت في أول الأمر على أنها واقع جاد : «سندخل إلى مصر الغامضة .. نفتش أرجاء الأهرامات ... نفك طلاسم الهيروغليفية ...»⁽²⁰⁾ .

وبشكل عام فإن فكرة تكليف الحملة العسكرية بمهمة علمية عظمى موازية لها تكشف عن أكثر الجوانب إيجابية في عبقرية بونابارت . في كتابه «مغامرة بونابارت في مصر»⁽²¹⁾ كتب الكولونيل الإنجليزي «إلجود» يقول : «تعتبر هذه الحملة بمقارنتها بجميع حروب نابليون أعظمها من الناحية الإنسانية وأكثرها جدارة بالاهتمام» كما أنه يشير أيضاً إلى أن مثل هذه الأفكار قد دارت من قبل في ذهن كل من ريشوايو .. كولبار وهناك آخرون يفضلون الإشارة إلى سابقة الإسكندر الأكبر الذي اصطحب معه أيضاً المفكرين والفنانين .

بعد عودته من إيطاليا بفترة قصيرة انتخب بونابارت عضواً في «المعهد أو «الإنستيتو» قسم «الميكانيكا» . وما أن اتخذ قرار القيام بمغامرته في مارس ١٧٩٨ إلا وسارع باستدعاء زميله مونج وبرتوليه - الأول رياضي أشهر والآخر كيميائي عظيم - لينضموا إليه في مشروعه . ويبدو أن مونج قد تناقل في بادئ الأمر مما حدا به بأن يكلف برتوليه بتجنيد أعظم الرجال من أجل القيام بحملة علمية كبرى لـون تحديد

* برتران كان هو أيضاً من أعضاء الحملة على مصر .

وجهتها كما أنه كلف الجنرال كافاريللي نو فالجا ضابط سلاح المهندسين الذائع الصيت والجدير بالاحترام - ليقوم بالمهمة ذاتها .

بعد شهرين كان الجنرال القائد الأول «لجيش حملة انجلترا» فى طريقه إلى ميناء طولون وهو على يقين من أنه يمكنه أن يعتمد على خدمات كتيبة مكونة من أفضل العقول التى عرفها ذلك العصر . وقد أعلن نابليون حينذاك : «ثلاث أعضاء «المعهد الانستيتو» مصاحبون لنا فى الحملة» . ولكن ما هو الهدف من ذلك ؟ لقد بقى السر محفوظاً * بدقة على الرغم من أن بوناپرت قد قام بمصادرة جميع الحروف العربية الموجودة فى جميع مطابع روما وأن سيلفستر نو ساسى المكلف بتدريس اللغة العربية فى الكولاج نو فرانس قد اشتكى من أن أفضل تلاميذه قد تم تجنيدهم فجأة فى حين أن زميله أستاذ العلوم الشرقية لانجلاس - الذى سيدخل فى صراع مع الأخوين شامبوليون - رفض الانضمام للحملة كما رفض الشاعر دوسييس والموسيقى ميهول .

سواء سافر لانجلاس أم لا فإن بريق هذه الكتيبة لم يضاهيه بريق أى مجموعة أخرى فى ذلك العصر : ١٦٧ عالماً ومهندساً وفناناً وعالم آثار (اثنان منهم عادوا أدراجهم بعد الوصول إلى مالطة) كانوا أعضاء نذكر منهم : مونچ وبيرتوليه وفورييه (الذى سيلعب دوراً هاماً فى موضوعنا هذا) وجوفروا سانتيلار - وعالم الاقتصاد چان - باتيست سى وعالم الجغرافيا إدم چومار والمهندس نيقولا كونتى وعالم المعادن ديودا دى دولوميو والطبيب جراح لارى (الذى قال عنه نابليون فى وصيته أنه «أكثر الرجال الذين عرفتهم فضيلة») والطبيب دى چينات والرسامان دوترتر وروبوتهى والمستعرب فانتور دى بارادى - الذى أصبح مترجم بوناپارت والذى لقى حتفه فى حصار عكا - وأهمهم من وجهة نظرنا «ثيفيان ديتون» رسام وعالم من علماء الجمال وروائى و«مرايسل» صحفى والذى أصبح مؤرخ الحملة والذى سئل بعد قليل بصفته هذه .

* كتب عن ذلك فيلار دوتراج فى «يوميات وذكريات من الحملة على مصر» (١٨٩٩) : «قرار الحملة على مصر اتخذته الديركتوار فى ٥ مارس ١٧٩٨ (١٥ فانتوز عام ٦) . وانتشرت الشائعة فى أنحاء باريس تقول أن هناك حملة جديدة على وشك أن تقوم (...) ولا أعلم لماذا تصور البعض أنها ستكون بعيدة على الرغم من أن مقصدها ظل سراً لا يعرفه أحد . ومع أن البعض قال أنها ذاهبة إلى انجلترا إلا أن القليل من الناس صدقوا هذا القول على الرغم من الأمر الذى أصدرته الحكومة إلى بوناپارت بالتوجه إلى ميناء بريتوت . وسرعان ما عُرِف أن مونچ وبيرتوليه ونورييه والعديد من العلماء سيصاحبون الجنرال القائد العام فى حملته التى بدت أنها ستكون علمية بقدر ما هى عسكرية .

وماذا عن علماء المصريات ؟ لا يوجد أحد - لسبب بسيط هو أن علم المصريات لم يكن معروفا بعد وأن هؤلاء الرجال بالذات هم الذين سمحوا لجان - فرنسوا شامبوليون بأن يؤسس هذا العلم بما نتج عن رحلاتهم من تسجيل للملاحظات وجمع للمستندات ورسم للصور وجمع للمواد والأشياء - وهناك سبب آخر وهو أن الأصل في الحملة كما تصورها مخططوها بما فيهم بونابارت هو أنها حملة استعمارية . وأصطحب العلماء كان هدفه الأول هو الإعداد للاستغلال العلمى والتنمية التقنية للبلاد . لقد كان الهدف الموضوع لمهندس المساحة والميكانيكا والتعدين ولعلماء الطبيعة والاقتصاد والكيمياء والجيولوجيا هو إقامة أول عمل استعماري علمي ولم يكن الهدف هو البحث عن سيزوستريس . ولكن حدث بعد فترة أى فى صيف ١٧٩٩ أى بعد فشل العملية السياسية العسكرية أن قرر بونابارت عشية انسحابه المفاجئ أن يثأر من القدر بطريقة مدهشة بأن أرسل حملتين علميتين إلى مصر العليا بهدف إرساء أسس ما عرف فيما بعد بعلم المصريات .

لن ندع أنفسنا نروى أحداث المعارك التى جرت من الأول من يوليو ١٧٩٨ حتى الثانى من سبتمبر ١٨٠١ والتى أدت - مروراً من انتصارات بركة إلى كوارث كبيرة ، من الأهرامات إلى أبوقير ومن عكا إلى طيبة ، قبل وبعد الانسحاب السرى للجنرال القائد العام (٢٢ أغسطس ١٧٩٩) - إلى الرحيل المخزى لما تبقى من قوات الحملة (أربعين فى المائة من القتلى والمفقودين) على ظهر الأسطول البريطانى . فمن وجهة النظر هذه كان الفشل ذريعاً والخسائر فادحة والمحصلة النهائية كئيبة .

إن ما يهمنا هنا - مع وعينا بأن نشاط البعض لا يمكن فصله من العمليات التى قام بها الآخرون - هو ما اتخذته اللجنة العلمية فى مجال المعرفة بمصر القديمة والحديثة - أكثر من اهتمامنا بالتحركات التى قام بها بونابارت وكليبر . ودوسى وصورا مع العلم بأن عملياتهم هذه كثيراً ما كانت هائلة - وسنرى فى هذا الصدد أن ثقافة شخصية مثل دوسيه أوبيليار أو مينو قد أفادت المكتشفين والفنانين .

فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ أى بعد بضعة أسابيع من دخول القاهرة أسس بونابارت «معهد مصر» * واحتفظ لنفسه فيه بمقعد فى قسم الرياضيات إلى جانب كافاريللى وأيضاً (فى المراحل الأولى) إلى جانب ياوره المقرب له جوزيف سولكوفسكى الذى كان

* يطلق عليه اليوم «المجمع العلمى المصرى» ومقره بالقاهرة بشارع القصر العينى
إلا أننا سنحتفظ هنا بالترجمة الحرفية له «معهد مصر» Institut d'Egypte (المترجم) .

نيبلاً بولندياً انضموا تحت لواء الثورة الفرنسية وكان دارساً متميزاً للغة العربية وقتل خلال ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) .

كانت أعمال المعهد ذات أبعاد ثلاثة : الأولى وهى ذات صبغة استعمارية أولية استهدفت المنفعة الفورية : مثل خميرة الخبز وصيانة الترع وتحسين الري وإنشاء الورش وكان الذى يسهر على هذه الأنشطة هو «كونتى» وكان يتمتع بفكر خلاق لا مثيل له وكانت هذه الأعمال تعمل على تلبية احتياجات الجيش الميكانيكية والمادية وعلى تجهيز البلاد بالمعدات اللازمة وإلى تنمية المنتجات الزراعية ... بينما كانت توجد مطبعتان تنشر إحداهما صحيفة «لوكورييه نو ليجيت» تحت إدارة فورييه سكرتير عام المعهد و «لاديكاد إيجيبسيان» تحت إشراف تاليان .

النوع الثانى من الأعمال التى نيطت بالمعهد كانت تلك التى تستهدف تقييماً علمياً لحالة مصر المعاصرة . وأحد نتائج هذا النشاط هو الصرح العظيم كتاب «وصف مصر» . الذى هو بمثابة شاهد على عصر ألفتة مجموعة من العلماء المثقفين ونشر منذ ١٨٠٩ فى عشرين جزء ويعتبر الانعكاس الأكثر بقة للواقع سمح به تقدم العلوم فى ذلك الوقت . وسنعود إلى الحديث عنه بالطبع .

أما النوعية الثالثة لهذه الأعمال فقد انكبت على إعادة اكتشاف مصر القديمة . كان بونابارت واقعاً تحت سحر الإسلام (وكان قد أعلن أنه حامى الإسلام لدى دخوله القاهرة علماً بأنه أقر فى منفاه بجزيرة سانت هيلينا فيما بعد أن قوله هذا كان فيه شئ من «الشعوذة») ويبدو أنه لم يكن يعطى اهتماماً كبيراً بالحضارة الفرعونية . وفيما عدا الأهرامات التى أتاح له فرصة النطق بعبارة صارت تاريخية – علماً بأن البعض يشكك فى أنه أطلقها أصلاً فإن صروح وأثار وادى النيل لم تؤثر فيه فيما يبدو كثيراً .. فإذا طالعنا كتاب «تذكار سانت هيلين» سنقرأ ما يلى :

«يقول لاسكان إنه كان (أى بونابارت) يعتبر أن كل ما رآه فى مصر وعلى وجه الخصوص هذه الأطلال التى تثير كل هذا الإطراب لا يقبل أى مقارنة بباريس (...) وكان الفرق الوحيد فى رأيه يكمن فى أن مصر تحتفظ بآثار خالدة بفضل صفاء سماءها وطبيعة موادها الأولية فى حين أن درجات الحرارة الأوروبية لا تسمح بذلك أبداً فى بلادنا ... وكان يندم كثيراً على الرغم من ذلك لأنه لم يقدّر معبداً مصرياً فى باريس»⁽²²⁾ .

عندما زار الجيزة رفض أن يزور الهرم الأكبر من الداخل لأنه اعتبر أن الزحف يعتبر عملاً لا يليق بمكانة القائد العام إلا أن رؤية الأهرامات جعلته يعلق عليها تعليقاً غير عادي ، إذ صُنع مونيچ عندما سمعه يقول إنه طبقاً لحساباته فإن الأحجار المستخدمة في بناء الأهرامات الثلاثة تسمح ببناء سور ارتفاعه ثلاثة أمتار حول فرنسا (وقد تأكد الرياضي مونيچ من صحة هذه الحسبة ..) . غير أن ج . س - هيرولد - أفضل المؤرخين البريطانيين للحملة - يشير إلى أن بونابارت «وكان قادراً على تقييم جدوى ما هو عديم الجدوى» شجع هذا النوع من الأبحاث بعد أن شعر بأنها ستعود على بلاده بمكانة عظيمة .. وما أن صدر هذا التشجيع إلا وانطلق عديد من أعضاء اللجنة العلمية على الرغم من أن تكوينهم العلمي لم يكن يؤهلهم لأداء دور «الأثريين» في رسم المعابد والباروايف ونسخ الهيروغليفيات على قدر الإمكان وذلك لصالح الذين سيعملون على كشف الأسرار التي كانت لا تزال تحيط حينذاك بحضارة النيل ، فكان من بين هؤلاء من كان مساحاً مثل فيلار نو تيرچ * وچولوا أو دوبا - إيميه ، أو كان عالم جغرافيا مثل چومار أو عالم فيزياء مثل مالوس أو أحياء مثل دولوميو أو عالم لغويات مثل جان - جوزيف مارسيل أو رساماً مثل دوتارتر .

وكيف يمكن التعريف بالأعمال التي نهض بها معهد مصر بأفضل من نقل ما قاله أحد المشاركين فيها ومن شاهد فريد عليها ؟ فقد كتب جوفروا سانت هيلار إلى صديقه كوفييه يقول : «إننى أعيش فى المركز من بوتقة حية من الأنوار (...)» إننا نهتم بكل نشاط بجميع المسائل التي تشغل الحكومة وبالعلوم التي تطوعنا بإرادتنا لخدمتها» (23) .

أما المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى الذى وصف الحملة فى موضع آخر بأنها «موجة من الكوارث الرهيبة» فننقل عنه هذه الملاحظة الجميلة عن مكتبة المعهد : «إذا تقدم أحد المسلمين (...) استقبله الفرنسيون (...) معبرين له عن سعادتهم بهذه الزيارة خصوصاً إذا ما اكتشفوا فيه الدراية والمعرفة والاهتمام بدراسة العلوم (...)» كان ذلك بالفعل يخلب الأبواب . فقد زرت هذه المكتبة عدة مرات ...» (24) .

إذا كانت الحملة تعتبر كارثة سياسية وعسكرية لوئتها أعمال مروعة لا يمكن حصرها (نجح بونابارت وقد كان عبقرياً فى أعمال البروباجندا فى تحويلها إلى ملحمة جرت فى بلاد بعيدة وغريبة حتى يتمكن من فرض سيطرته فى (شهر «برومار» الثورى) ...

* الذى حور اسمه إلى نوبيلار إبان المرحلة الجمهورية .

إلا أنها كانت من وجهة نظر علم المصريات - الجنيني فى ذلك الوقت - فيضاً كريماً غزيراً .. بل يمكن أن نتحدث بصدد هذا - إذا اعتبرنا ذلك تلاعباً بالألفاظ أم لا بأنها كانت بمثابة عملية قيصرية .. إذ أنها أهتت دفعة واحدة إلى هذا العلم الوليد ثلاثة كنوز لا تقدر بثمن ألا وهى : حجر رشيد ، وكتاب «ريبورتاج» لفريقان دونون وكتاب وصف مصر .

فى التاسع عشر من يوليو ١٧٩٩ أعلن المواطن ميكال - أنج لانكريه - فى معهد مصر - عن اكتشافه فى رشيد عن مخطوطات «قد تكون ذات نفع كبير»⁽²⁵⁾ . ولم يمض شهران على ذلك الإعلان أى فى ١٥ سبتمبر إلا ونشرت صحيفة كورييه ديچيبى فى عددها السابع والثلاثين برقية مؤرخة فى ١٩ أغسطس أثارت الأمل فى قلوب جميع الذين يهتمون بحل لغز الهيروغليفيات - ومنهم على الأرجح الأخ الكبير من آل شامبوليون - الذى كان قد وصل لتوه لمدينة جرونوبل للإقامة فيها حيث اهتم سريعاً كما سنرى فيما بعد بكل ما يتعلق بالتاريخ القديم وبمصر على وجه التحديد⁽²⁶⁾ .

«رشيد فى الثانى من فركتيدور العام السابع * .

«تم العثور وسط الأعمال التى قام بها المواطن بوتبول لتدعيم قلعة رشيد القديمة على الضفة الغربية للنيل (...) على حجر من الجرانيت الأسود الرائع . حبيباته رفيعة للغاية وصلب جداً لدى طرقة (..) ارتفاعه ٣٦ بوصة وعرضه ٢٨ بوصة ويتراوح سمكه من ٩ إلى ١٠ بوصات ** توجد على أحد وجهيه فقط المصقول صقلاً ناعماً ثلاثة مخطوطات مختلفة منحوتة فى ثلاث مجموعات من الخطوط المتوازية . المجموعة العليا - الأولى - مكتوبة بحروف هيروغليفية (...) المجموعة الثانية - الوسطى - مكتوبة بحروف يعتقد أنها سريانية *** . أما المجموعة الثالثة فهى مكتوبة باليونانية (...) تمت ترجمة جزء من النص اليونانى بأوامر من الجنرال مينو (...) يتيح هذا الحجر فرصة عظيمة لدراسة الحروف الهيروغليفية بل لعلها ستتيح فرصة إيجاد مفتاح لغزها .

* حسب التقويم الثورى الفرنسى .

** ١,٢٠ متر ، ٩٠ سم و ٣٢ سم .

*** هى كما سنرى حروف ديموتيقية أى النسخة الشعبية والمتأخرة للهيروغليفية . ومنذ شهر سبتمبر ١٧٩٩ حدد اثنان من المتخصصين فى معهد القاهرة وهما ج - ج - مارسيل وريمى راج هذه الكتابة الوسطى بأنها «حروف متصلة» .

«تم تكليف المواطن بوشار * (...) الذى كان يتولى الأعمال الهندسية (...) بنقل هذا الحجر إلى القاهرة» .

يحدث كثيراً أن يمر الباحثون نون أن يدروا بجوار الكنوز نون أن يروها . ولا يمكن أن ينطبق ذلك على مكتشفى هذا الحجر الرائع ولا يمكن أن نقول أن رؤيتهم كانت تعونها الدقة : لأن هذا الحجر هو الذى أعطى «مفتاح» اللغز . إن الأهمية القصوى لهذا الحجر المكتشف وضحت تماماً وللوهلة الأولى أمام أعين هؤلاء الذين شاركوا فى العملية - وهو ما يلقي الضوء على نوعيتهم الرفيعة - من بوشار إلى بوتبول ومن مينو إلى المحرر فى صحيفة الكورييه (المستول عنها كما سبق ذكره هو جوزيف فورييه أمين عام معهد مصر والذى سالتقى به فيما بعد ...) .

أهمية الاكتشاف وقد تأكدت بهذه الطريقة لم تكن لتخفى على أحد وعلى وجه الخصوص على الإنجليز . فبعد أن أجبروا مينو الذى تولى بعد بونابارت وكبير على نصف استسلام فى أغسطس ١٨٠١ أصروا على ضم حجر رشيد إلى غنائمهم الحربية . وعلى الرغم من عناد مينو وإصرار أعضاء العهد ** فقد أخذوه إلى «البريتش ميوزيوم» حيث لازال يجلس على عرشه فيه . وقد اضطر الباحثون الذين لم يتمكنوا من السفر إلى لندن إلى الاعتماد فى أعمالهم على نسخ غير دقيقة منه . ومن هؤلاء جان فرانسوا شامبوليون .

وفيما كان اللوح المقدس لعلم المصريين يتم الكشف عنه كان تومينيك فيفان نونان *** يستعد لترك مصر على متن الفرقاطة لامويرون إلى جانب الجنرال القائد العام ومعه أقرب القادة من معاونيه (مثل بيرتييه ومورا ولان ومارمون) وكذلك مونج وبيرتوليه . ولكن لا يمكن أن نقول أن هذا الأبيكوري (المحب للحياة) المقدام كان يغادر البلاد وأيديه ورأسه فارغة . فهو سيعطى إلى كل ما أنجزه وهو بجوار الجنرال بوسى

* الملازم أول بيير بوشار . ضابط مهندس ٢٧ عاما ، تمت ترقيته إلى رتبة النقيب بعد اكتشافه هذا بفترة قصيرة .

** «سمح الجنرال هاتشيسون للعلماء بالاحتفاظ بمجموعاتهم إلا أنه أصر على الاحتفاظ بحجر رشيد الذى تركه له مينو وهو يحتج : «إنك تريده يا سيدى الجنرال ؟ فيمكنك إذن الاحتفاظ به مادمت أنت الأقوى ...» (راجع جـ . س . هيرولد . بونابارت فى مصر ، الناشر : بلون ١٩٦٢ ، ص ٤٦٨) .

*** «فيفان» مثله مثل «تومينيك» هو جزء من اسم المركب من اسمين أما لقبه دينون فكان يكتب فى كلمة واحدة حتى خلال النظام الذى سبق الثورة خلافاً لما يتردد كثيراً من أنه تركيبة من حرف «نو» وكلمة «نون» وهو الحرف الذى يدل على الانتماء إلى أسر النبلاء فى النظام الملكى السابق على الثورة : أبو فيفان كان رجلاً عادياً .

فى صعيد مصر بريقاً ستتردد أصدائه وتؤثر تأثيراً بالغاً على الرأى العام خلال السنوات الأولى من القرن يكاد يعادل تأثير حجر رشيد فى تأسيس علم المصريات أو على الأقل فى التقديم له .

كان بونابارت قد ضمه إلى الحملة على مضض تحت إلحاح جوزيفين حيث كان يلمع ويشير البهجة فى صالونها بأسلوبه المرح الذى كان يتسم به العهد السابق على الثورة . ولم يكن عضواً فى المعهد وقد تعدى عمره الخمسين – هذا القادم من مقاطعة بورجونى نو القلب الطيب الكبير والقلم المتألق كان بمثابة روح الحملة المتأججة وقناصها . ويبدو أنه كان ضمن القلة القليلة من «العلماء» الذين لا يدخلون فى زمرة الكوادر الخاضعة للنظام العسكرى . وكان ينظر إليه على أنه «ضيف» الجنرال القائد العام .

وإذ كانت تربطه علاقات صداقة بمينو فى منطقة الدلتا وبندوسيه فى صعيد مصر كان يبدو حراً تماماً فى تحركاته . كان يشاهد فى كل مكان من الإسكندرية إلى الأقصر يرسم المعابد والمعارك وصورا من الحياة الشعبية . إلا أن أكثر ما سيثير إعجاباً مستحقاً به هو حصاد أعماله فى الصعيد . شارك عن قرب فى المعارك التى أبرز المترجم لحياته (إبراهيم غالى) وحشيتها⁽²⁷⁾ عن صدق وفى الحياة الصعبة اليومية للجنود . مما أثار احترامهم له . ثم بفضل ثقة كل من بوسيه ونائبه بيليار * لم يتوقف عن استخدام موهبته وثقب رؤياه وهوى أعصابه الذى ساعده كثيراً فى ظروف بالغة الصعوبة – من القيام بتنفيذ رسوماته التى صنعت شهرته العظيمة .

ويروى أناتول فرانس فى مقال خصه به فى صحيفة «لافى ليترار» (الحياة الأدبية) بعد أن عجز عن إيجاد الوقت اللازم للترجمة لحياة هذا الرسام الذى انضوى تحت لواء الثورة (والذى يشبه فى أعماله الرسام قراجونار) . وقد رسم لنفسه لوحة جميلة معروضة فى مسقط رأسه شالون حيث نراه شخصية متحدية وساخرة ، لون بشرته وردى وأنفه ينم عن الشجاعة وعينه تتكاملش تحت قبعة زارع كرمة مصنوعة من البوص .

يروى أناتول فرانس عنه هذا الحدث الذى يلخص جيداً براعة هذه الشخصية الأبيقورية المقدمة :

«... أخذ يرسم . وإذا هو قد أشرف على إنهاء عمله مرت رصاصة وهى تصفر فوق الورقة التى أمامه . فرفع رأسه ورأى أحد الأعراب يقوم بتعمير بندقيته .. مدّ يده

* استعان بيوميته عن المعارك فى كتاباته .

إلى سلاحه المملود على الأرض وأتحف الأعرابي بطلقة فى صدره ثم أقفل حافظة أوراقه ... فى المساء قال له الجنرال دوسيه «إن خط الأفق فى رسمك غير مستو - أجابه دينون قائلاً ، واه ! إن هذا خطأ الإعرابي إذ أنه أطلق رصاصته مبكراً !» .

فلنستمع إلى فيثان دونون ذاته وهو الذى وصف نفسه بأنه «جندى - أكروياتى» :
«لما كان يتحتم علينا ملاحقة عدو دائم التحرك على فرسه فإن تحركات الفرقة كانت باستمرار متعددة وغير متوقعة .. فكنت لذلك مضطراً فى بعض الأحيان أن أمر مرور الكرام أمام الآثار الأكثر أهمية (...) رسوماتى نفذتها فى معظم الأحيان فوق ركبتى أو فى الوضع واقفاً أو حتى وأنا ممتطياً فرسى ... فلم أتمكن قط من الانتهاء من واحد منها وفقاً لإرادتى .. إذ لم أنجح عبر عام كامل من إيجاد لوحة منصوبة بشكل جيد يمكننى أن أضع مستطرتى فوقها» .

غير أن ما يعطى قيمة لهذا الريبورتاج المدهش عبر الحرب وعبر القرون فهو الحس الجمالى للرسم الذى تمكن قبل شامبوليون من اكتشاف جمال فن لم يكن يحظى حتى ذلك الحين سوى بدهشة المسافر لقدمه الأسطوري وأبعاده المتناهية الضخامة ، كما يعطيه قيمته أيضاً التفانى من أجل العلم الذى دفعه إلى نسخ كتابات هيروغليفية لا يفهم منها شيئاً لعدة ساعات متواصلة معرضاً حياته للخطر وفى جو حرارته خانقة .

ويقول دينون «إن نقش هذه الكتابات تم بوضوح الصراحة لدرجة أنى أعتقد أن المصريين كان لهم طريقة خاصة لصب معدن أنواتهم لنحت الجرانيت . إن كل هذا النحت أجرى بواسطة الحفر ليبرز المنحوت داخل فراغ عمقه بوصتين وقد احتفظ بدقته بصورة تثير الإعجاب» (إن هذه الملحوظة سبقت ملحوظة شبيهة بها تماماً قالها شامبوليون بعد ذلك بثلاثين عاماً) .

هل كان فيثان دونون ذا «نوق فنى سى»⁽²⁸⁾ كما قيل عنه بعد ذلك ؟ إذا كان رأيه فى تمثالى (ماردى) ممنون أنهما «غير جميلين ولا سحر فيهما» - وله كامل الحرية فى عدم محاسبته على ذلك - فإن الإعجاب الذى أثارت فيه مشاهدة الأهرامات وأبو الهول يعتبر قمة فريدة فى جمال الإحساس : «إذا كانت هذه الرأس تنقصها ما اتفق على تسميته سلامة الأسلوب . أى الأشكال المشوقة القوام والمتعالية التى صور بها الإغريق آلهتهم فإن أحداً لم يف قط هذا الوجه حقه فى جمال بساطته ومرور الطبيعة الهادئ والممتد طويلاً فوقه وهو بالفعل يستحق كل الإعجاب» .

أما ما قاله عن معبد «تنترا» (يطلق عليه اليوم اسم دندره) فقد أصبح قولاً مأثوراً :
«لن أجد قط تعبيراً يعكس ما أحسسته عندما كنت على عتبة تنترا ... وددت لو أمكنتني
رسم كل شيء ولكنى لم أجروء على مسك القلم . أحسست بأننى لن أرتفع قط إلى درجة
سمو ما تعجب به عيناى وإننى سأحط من قدر ما أردت تقليده ... لم يحدث فى أى
مكان آخر أن وجدت نفسى محاطاً بمثل هذا القدر من الأشياء التى تثير إعجابى ...
أخذت ... والقلم فى يدي ... أمر من شيء إلى آخر يشاغلنى أحدهم عن الآخر مجنوب
لذلك دائماً ، ينتزعنى منه شيء آخر دائماً ، كانت تنقصنى عيون وأيد ورأس أوسع
يمكنها أن تشاهد وترسم وترتب كل ما نال إعجابى . كنت أخجل من عدم كفاية
الرسومات التى نقلت بها كل هذه الأشياء المتسامية .. ولكنى كنت أريد الاحتفاظ
بذكرها (...) كنت أخشى أن يهرب منى دندره إلى الأبد» .

وفى دندره أيضاً عرف كيف يجد الوقت وكيف يمضى ساعات طويلة مضية -
بإيعاز من المساحين الشباب جولوا وقيلاز نو تيراج الذى يثير وعيهم بعبقريه الفن
المصرى الدهشة والإعجاب - من أجل نسخ «الزودياك» المشهور أى خريطة السماء
التي سوف تثير فيما بعد - حول تأريخ البشرية - مناقشات حادة سيضع لها
شامبوليون حداً بعد ذلك بربع قرن * .

مهما بلغت مشاعر فيثان دونون من الحدة فقد عرف كيف يضيف إليها الذكاء
العلمى . فهو سريعاً ما اقتنع بأن «الهيروغليفيات المنحوتة فى الحوائط لم تكن الكتب
الوحيدة لهذا الشعب العالم» وقد اكتشف فى مدينة جابو لفافة من ورق البردى فى يد
مومياة نشرها عام ١٨٠٢ مع مجموعة من الرسومات المنقولة بطريقة الجرافور (الحفر)
ضمها إلى الطبعة الأصلية لكتابه «رحلة إلى شمال مصر وصعيدها» وهى تشكل مع
حجر رشيد أحد المستندات التى سينكب عليها الباحثون وعلى رأسهم وأفضلهم جميعاً
شامبوليون .

ما أن عاد فيثان دونون إلى القاهرة (يوليو ١٧٩٩) استقبله بونابارت على الفور .
وتحت سحر مارواه له مدعماً بالرسومات التى أراها إياه توصل الجنرال إلى خلاصة
غاية فى الأهمية : ففي ٢٧ تيرويدور عام ٧ (وهو اليوم ذاته الذى اكتشف فيه حجر
رشيد ...) أصدر مرسوماً بإنشاء لجنتين يرأس كوستان إحداها ويرأس فورييه
الأخرى أنيطت بهما مهمة زيارة ودراسة آثار مصر القديمة فى الصعيد دراسة علمية
ونسخها بكل دقة رسماً : وهكذا فى الوقت الذى كان يستعد فيه للاعتراف بهروبه ذاته

* راجع الباب ١١

بفشله السياسى والعسكرى ويفقدانه لمصر الحديثة بدأ بوناپارت غزو مصر عريقة التاريخ الذى يمتد لآلاف السنين ، ومتلما ترك هروب الجنرال القائد العام داخل الجيش أثراً كله مرارة فإن انسحاب بونون كان له تأثير سىء على زملائه فى المعهد المصرى . إذ كانوا ينتظرون منه تقريراً عن مهمته وشعروا بأن عودته المبكرة إلى باريس ستدفعه إلى الكشف عنها مما سيعود عليه بالمجد وذلك على حسابهم هم وأنه سيسوق لذلك حجة أنه لا يمكنه أن «يمنع مواطنيه من الانتفاع من الثمار التى جناها (هو) وكلفته (هو) كل هذا العناء ..» من ذا الذى يمكنه ألا يغفر لهذا المراسل الذكى والمقدام أنه ضمن لنفسه «خبراً خاصاً» (سكوب بلغة الصحافة) حتى لو كان حصل عليه بطريقة فيها شىء من الإجحاف بالنسبة للآخرين ؟

ابتداءً من ١٨٠٢ ظهر فى باريس كتاب «رحلة إلى شمال وصعيد مصر إبان حملة الجنرال بوناپارت ، بقلم فيفان بونون وقام بطبع الكتاب «الأصلية مكونة من جزء من القطع الربعى للنص ومن جزء فى حجم (الأطلس) أو الأطلنطى للصور . وكان يباع لدى المؤلف بشارع ح . روسو ولدى المطبعة فى أروقة اللوفر .

بخلاف المقدمة – وهو الخطاب الذى حرره بونون لإلقائه أمام زملائه فى معهد مصر – فإن الجزء الأول يتكون من جزئين : قصة الرحلة وشرح للوحاته وواحد وأربعين لوحة التى يتضمنها المجلد الثانى وتضم كل لوحة منها تقريباً عدة مواضيع (وبعضها ينفرد بموضوع واحد فى صفحة كاملة مثل المنظر الليلى البديع لميدان الأزبكية فى فترة الفيضان) * .

إهداء هذه الطبعة الأولى من الكتاب كان بطبيعة الحال إلى بوناپارت . وقد عرف الكتاب أربعين طبعة خلال ذلك القرن وهو نجاح فاق نجاح كتاب فوانى ولم يتفوق عليه فى ذلك الوقت سوى كتاب عبقرية المسيحية (لشاتو بريان) وقد نشر فى العام ذاته . وقد جاء فى الإهداء : «... ستستقبل أوروبا – وقد عرفت أنى كنت فى صحبتكم فى إحدى أكثر حملاتكم تعلقاً بالذكرى – كتابى هذا باهتمام كبير . لم أهمل أى شىء لكى أجعل منه جديراً بالبطل الذى أردت أن أهديه له (...) إن ضم بريق اسمك إلى عظمة آثار مصر يعتبر ربطاً لعظمة أمجاد قرننا هذا بالعصور التى تتخطى بعظمتها الأساطير ...» .

* حفر دسنة من هذا اللوح تم بيد دينون نفسه . ويجب أن نسجل هنا البراعة التكنيكية المتمثلة فى حفر مئات من الرسومات خلال الفترة الزمنية القصيرة التى تفصل عوبة بونون ونشر كتابه .

وإذ كان متلقى هذا الإهداء قد أصبح القنصل الأول فقد ظهر اسمه على رأس المائتين والأربعين مشتركاً في اقتناء الطبعة الأصلية يسبق اسمى كامباسيريس ولوبران القنصلين الآخرين كما يسبق أسماء تاليران وفوشيه وملكى أسبانيا وبروسيا والسفراء وأصحاب البنوك والفنانين والتجار وعدد كبير من الإنجليز وقدماء الحملة على مصر والآتية هنرى عضو مسرح الفنون وتالما من المسرح الفرنسى وفولنى ولانجلاس وكاترومار * ... وأخيراً أكثرهم أهمية جميعاً على الرغم من المظاهر بوكرو أمين مكتبة مدينة جرونوبل ** ذلك لأننا متأكدون أن الشقيقتين شامبوليون قد تمكنا من الاطلاع على هذا الكتاب المثير ومن التأمل أمام هذه الصور المثيرة للإبداع وقد أتيت ذلك للأخ الكبير عندما انتقل للإقامة فى هذه المدينة عام ١٧٩٩ والثانى عام ١٨٠١ .

أما الكنز الثالث الذى عاد به مشاركو بونابارت فى رحلته البحرية فقد ظهر بعد ذلك بفترة طويلة . فإذا كان كل ما احتاجه النشيط بونون لتحرير وحفر ونشر ريپورتاچة المصور لم يتعد السنتين مفضلاً أن يحتفظ بطابعه «البداى» الذى تركه فى نفسه كرحالة مبهور فإن الفترة التى احتاجتها اللجنة العلمية التى عادت من الشرق عام ١٨٠١ كانت عشرين عاماً كاملة وأكثر لتتشر من ١٨٠٩ حتى ١٨٢٢ عملها الضخم وهو عبارة عن تسع مجلدات من النصوص فى القطع الكامل (فوليو) وأحد عشر مجلداً من اللوح قدمت للجمهور تحت عنوان «وصف أو مجموعة الملاحظات والأبحاث التى تم إجراؤها فى مصر إبان حملة الجيش *** الفرنسى» . نشر بأوامر من صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون . هذا العمل الذى جاء ليكمل ويحدد عمل فيثان بونون التمهيدى يعتبر كما يقول جان فاركوتار «القاعدة التى أمكن تشييد علم المصرىات فوقها» (29) .

ستحاول بطبيعة الحال قياس مقدار التأثير المباشر على الشقيقتين شامبوليون لهذا البعث الذى طرأ على الموضوع الذى وكما به - وقد ازداد هذا التأثير حدة لدى الأخ الأكبر - چاك - جوزيف - إذ أنه سيشترك فى تحرير مقدمة الكتاب التى أنيط بها الأمين العام السابق لمعهد مصر جوزيف فوربيه من قبل اللجنة وكان قد أصبح فيما بعد محافظاً لمقاطعة الإيزار .

* شخصيات ستلتقى بها فيما بعد .

** اسم آخر سيرد كثيراً فى هذا السرد ...

*** من الغريب أن يكون الانتباه مركزاً على الجيش وحده .

فى انتظار ذلك نسلج أن كتاب الوصف - بعد كتاب الرحلة لفيثان نونون - عمل على خلق جو عام ، إذا ما قورن بذلك الذى نجم عنه مرض الولع بمصر (الإيجيتومينيا) فى القرن السابق ، يعتبر مصطنعاً وسطحياً فى عشرات الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر . استولت مصر على الأنظار واحتلت صورها مخيلات الناس بواسطة الكتب والصور المحفورة والأشياء والأثاث والأعمدة . وإذا ارتبطت لفترة طويلة بالأسطورة الإمبراطورية (النابوليونية) فإن هذه الصور الملحة لم تتأثر بل قاومت كوارث أعوام ١٨١٤ و ١٨١٥ * .

إن الذى أوصل السحر المصرى الذى سيطر على الألباب أو على الثقافة إلى قمته كان مشاركة أعظم كتاب العصر فى ذلك . ففي يوليو ١٨٠٦ توجه فرانسوا رونييه نو شاتوبريان إلى الشرق فى رحلة قادته إلى أثينا وأزمير وبيرجام والقدس ويافا والإسكندرية والقاهرة .

لم يقم صاحب كتاب «ناتشان» برحلته ليصفها مثلاً فعل ساقارى أو قولنى وإنما قام بها من أجل الملحة المسيحية التى كان يفكر فيها . ولكى يضيف أيضاً جواً من الترقب ومن المجد ومن الوجد إلى الموعد الذى حدده - فى أسبانيا - للقاء ناتالى دى نواى ... وتجدر الإشارة إلى أن نشر كتاب «الشهداء» الذى كرس سفره الحادى عشر كله لمصر ، سبق بعامين نشر الرحلة من باريس إلى القدس الذى لا يحظى فيه وادى النيل سوى بباب واحد كتب فى عجلة .

عولمت مصر فى كتاب «الشهداء» معاملة خاصة : «زرت طيبة ذات المائة باب وتنتيريس ** ذات الآثار الرائعة وبعضاً من الأربعين ألف مدينة التى يمر عليها النيل عبر مجراه» ياه !! أربعون ألفاً ... شىء جميل أن يرى أحدهم أن مصر «بقرة ولادة» وأن أهراماتها «بواباتها الجنائزية» غير أنه ليس فى مثل هذا الكتاب كان يمكن للشاب شامبليون أن يجد ما يشفى ويرضى ولعه علماً بأننا نعرف أنه قرأه دون أن يثير حماسه .

كما لم يرضيه كتاب «الرحلة» الذى نشر عام ١٨١١ إن القىكونت نوشاتوبريان يعتقد أنه رأى «بالعين المجردة» أبا الهول من قمة قلعة المقطم (عشرون كيلومتراً تفصل بينهما) وهو لم ير داع للذهاب إلى منطقة الأهرامات فقد منعه الفيضان من ذلك على حد قوله .

* هزائم نابليون المتوالية والتى أدت إلى سقوطه (المترجم) .

** تسمية مختلفة (يونانية) لندرة .

وقد كلف القنصل بالذهاب إلى هناك «ليكتب اسمه على هذه المقابر الضخمة مثلما جرت العادة وذلك عند أول فرصة سانحة». وبذلك يكون قد وضع خاتمه السحري على مصر الفراعنة بهذه الطريقة غير المباشرة والتي منحت أيضاً الأبحاث التي تخصصها بركات عبقريته الشاردة .

جرى إثراء مجموعة المراجع التي سيعتمد عليها شامبوليون في معالجته للغز الأكبر في تلك السنوات ، بأعمال واكتشافات وملحوظات قام بها ثلاثة من الرحالة المقدامين ، إثراءً أفضل وأقوى من صفحات شاتوبريان المتعجلة . وهؤلاء هم عالم التاريخ الطبيعى المولود في مدينة نانت ، فريدريك كايو ، والنحات المرسيلي جان - چاك ريفو ، والإيطالى الساحر چان باتيستا بيلزوني . الأول عاد عام ١٨١٩ من حملة جسورة في وادى النيل حيث قام بالتنقيب عن الآثار حتى أبو سمبل وأطلع الأخوين شامبوليون على «لوحة الملوك» التي اكتشفها في معبد رمسيس الثانى فى أبيدوس والثانى كان منقبا لا يعرف الكل يعمل لحساب القنصل بروقيتى وفر لهما كمية ضخمة من نسخ للمخطوطات وذلك فى بداية العشرينات من القرن . أما الثالث فهو الذى كان ينقل القرون الزمنية والجبال من طيبة وممفيس حتى أنه نقل وعرض فى باريس مقبرة سيسى الأول مما أوصل حمى موضة الولوج المصرى إلى ذروتها عام ١٨٢٢ * .

الملف المصرى الذى انغمس فيه الباحثون عن حل لغز الهيروغليفيات فى بداية القرن التاسع عشر كان يتكون من نوعين من المشاركة : الأول أصحابه هم «المستشرقون» والآخر «الأثريون» .

الأوائل هم - من هيروبولت إلى ماييه ومن فوردن إلى ثولنى ومن دونون إلى بلزوني - الذين ذهبوا إلى المواقع ذاتها لزيارة أو دراسة آثار حضارة ظلت قائمة وصمدت أمام الكوارث والتحريم وفقدان ذاكرة الكلام حتى لو كان ذلك من خلال دراستهم للسكان الأقباط الذين رأى منهم العديد من الزوار نبض التراث المهشم للقرون العظيمة الفائتة .

أما الآخرون فيبدون أقل مصداقية . فقد حاولوا من خلال مستندات مشكوك فى صحتها فى كثير من الأحيان وهى على العموم منقولة وغير مفهومة فى بعض الأحيان الأخرى - أن يعيدوا تكوين جماليات ولغة ومعانى الثقافة الفرعونية ، من هؤلاء على سبيل المثال الأب أثناس كيرشار وچوزيف نو چينى والأب بارتيليمى وچابلونسكى

* بيعت هذه المقبرة فيما بعد إلى انجلترا .

وواير بورتون والدبلوماسى الدانماركى زويجا وشارل نوبوى والكساندر لوتوار وعالم اللغويات الفرنسى سيلفاستر نوساسى والنبيل السويدى أكربالد وعالم الطبيعة الإنجليزى يانج .

بيدو أن چان - فرانسوا شامبوليون قد أعطى اهتماماً أكبر للأوائل . فهم الذين أتوا بوقائع وملاحظات يمكن التأكد من صحتها ، عن الآخرين الذين اتسمت أعمالهم بوفرة ما تقدمه من افتراضات ونظم تفكير عشوائية . ولكن لا يعنى ميله للسخرية من هؤلاء «الأثريين» أنه أهمل مداخلاتهم ..

فى الوقت الذى أطلق بونابارت أسطوله من المحاربين والعلماء فى اتجاه مصر كان چان - فرانسوا شامبوليون البالغ من العمر سبع سنوات وخمسة أشهر قد تعلم لتوه القراءة فى كتاب صلوات القديس الملوك لوالدته . وذلك يجعلنا بعيدين عن الأسطورة التى تضعه فى زمرة مجموعة عام ١٧٩٨ أما الأخ الأكبر چاك - جوزيف فقد كان قد بلغ حين ذاك التاسعة عشرة . وكان ولوعاً بمصر وكان يخطط - حسبما يقول - ليلحق إن عاجلاً أو آجلاً بالمشاركين فى الحملة المقدسة فى القاهرة . وكان على العموم مهتماً بالاطلاع على أعمالهم وتحركاتهم من خلال قراءته صحيفة لوركورييه ديجيببت على وجه الخصوص والتى كانت تتلقاها مكتبة مدينة جرونوبل بعد شهر أو اثنين من صدورهما كما كانت تتلقاها (حسبما أوردت مدام هارتلوبان أفضل المحققين فى سيرة صاحب الكشف) مكتبة فيجاك . هل حاول بالفعل إثارة اهتمام ابن عمه النقيب أندريه شامبوليون الذى سافر من ميناء طولون فى مايو ١٧٩٨ بصحبة اللواء الثالث عشر الذى يقوده الجنرال داريكو ولم تصله أى أنباء عنه سوى لدى عودته فى ١٨٠١ ؟ سنعود إلى هذا الحديث لاحقاً .

فى جميع الأحوال توجد علاقة قوية ومباشرة يمكن الكشف عنها بين حملة بونابارت وما أسفرت عنه (حجر رشيد ومارواه فيثان نونون وكتاب «وصف مصر») والاكتشاف الذى أدخل اسم شامبوليون فى سجل المجد .

١ - الحياة فى فيچاك فى عهد الثورة

أين ؟ متى ؟ فيمن ؟ - لا توجد عبقرية : - فلاحو مقاطعة بوفينية - حرفة البائع المتجول (حامل الخرج) - چاك صاحب المكتبة وچاكو الساحر - الزوجة المريضة - المقصلة فى الميدان - ابن المعجزة ؟ - كتاب القداس الذى حُلت شفرته - نون كالمال

إذا أردنا فهم شخصية رجل ، هل يجب أن نعرف أين ولد ؟ أم الأفضل أن نعرف متى ولد ؟ أم من صلب من ؟ إن كتاب السير الشخصية لم يفصلوا فى الأمر بعد .. إن بعضهم يعتقد أن مولد أحدهم فى أجاكسيو هو أهم العوامل* . والبعض الآخر يعتقد أن مولد المؤرخ له فى « أغسطس ١٩١٤ هو ذلك العامل المؤثر وذاك الآخر - فى النهاية - يقول : بل أن يكون أبوه جزاراً أو أمه عازفة آلة البيانو .

أما بالنسبة لجان - فرنسوا شامبولىون فقد ولد فى فيچاك ، احدى المدن الصغيرة التابعة لمنطقة كارسى الشحيحة الموارد والتي كانت لهذا السبب قليلة الاتصال بالعالم الخارجى .. ولد فى ٢٣ ديسمبر عام ١٧٩٠ عن أب صاحب مكتبة - كان قبل ذلك بائعاً متجولاً وعن أم من أصل بورجوازى لكن أمية وظلت مريضة لفترة طويلة . يجب الا نغفل أبداً فيما يتعلق بشامبولىون نشأته فى هذه المنطقة المعزولة ولا هذه الأصول المتباينة ولا هذا التاريخ الذى كانت الثورة (الفرنسية) تتأهب فيه للولوج إلى مرحلة شديدة الإضطراب من تطورها .

فى بداية عام ١٧٨١ وصل إلى فيچاك شخص يدعى جان - فريديريك نو ريشبراى ويعمل مفتشاً ملكياً للضرائب والمالية .. للتأكد من أن أهل قطاع « جيان العليا » يدفعون الضرائب المفروضة عليهم بالفعل أو أنها ثقيلة على عاتقهم ، وكان هذا المفتش يسجل إجابات السكان على الأسئلة التى يطرحها عليهم فى « يوميات رحلة عمل »^(١) وهى تعطى فكرة عن الحالة المادية التى كانت عليها « دائرة » أو « بلدية » فيچاك . وتعد هذه النصوص مؤشراً لها تضمنته فيما بعد المطالب التى تقدمت بها منطقة كارسى فى عريضتها إلى « المؤتمر العام »* مثلما فعلت المناطق الفرنسية الأخرى . استهدف السؤال الأول التعرف على المنتجات المحلية :

* إشارة إلى نابليون بونابارت - (المترجم) .

** وكان عدد سكان فيچاك أكثر بقليل من ستة آلاف

الإجابة : « النبيذ والقمح والجاودار والقنب والتين والجوز والكستناء ؛ أما الباقي فهو غير جدير بالتسجيل . ».

س : مم تستخرج المواد الغذائية وبأى وسيلة ؟

ج : نحصل على الزيوت من منطقة البالانجو بوك « والجبن من مقاطعة أوفرني، أما الباقي من بوردو عن طريق الأنهار أو بالعربات أو على ظهر الحمير »

س : ما هو تعداد السكان ؟

ج : « من المعتقد أن عدد السكان رجالا ونساء وأطفالا يقدر بنحو مائة ألف »*

س : هل من عبقرى بينهم ؟

ج :- لا يوجد. الناس في قطاع شاتينيال أفضاظ: شديدا الالتصاق بمصالحهم - عنيون ومشاكسون .. وبشكل عام فإن تطور الأفكار يحدث ببطء شديد كما يصعب للغاية تحريك قدراتهم الذهنية ليسايروا أى أسلوب جديد .. بشكل عام فالنشاط وخاصة في الريف والذكاء ضعيف في الثقافة .»

عن حالة الثراء أو الفقر ؟

« الفلاحون والفلة يعانون من الفقر ويعيشون ليومهم ، ويعرفون الضنك الشديد إذا زاد تعداد أفراد الأسرة ، ويزدادون مرض وبؤسا إذا عرض منهم واحد لفترة طويلة .. المستهلكون حالتهم العامة من ناحية الثروة عادية جداً سواء كانوا من النبلاء أو من رجال القانون أو تجارا أو بورتوازيين . وقد يصعب على المرء - حتى لو أراد - أن يذكر أى استثناءات .. »

كيف يمكن تحسين هذا الوضع ؟

« سكان فيچاك وبقية القرى الهام الواقعة في نطاق دائرتها يميلون للعمل في التجارة غير أن ضيق ذات اليد يمنعهم من عمل صفقات ذات أهمية كما أن حالة الطرق وعدم وجود انهار قابلة للملاحظة في تنفيذ ما هو متاح أمامهم .. »

* مؤتمر « ليزيتا جينيرو » les Etats Généraux يجمع ممثلين لمكونات الدولة في العهد الملكي وهي ممثلو الكنيسة والنبلاء والقطاع الثالث أو عامة الشعب . من جميع المناطق . وكان يدعو الملك للإجتماع في الحالات الحرجة . وكان آخر إجتماع له في ١٧٨٩ . وهو الذي مهد للثورة - (المترجم).

من المؤكد بالطبع أن أحداً لا يضخم من دخله أمام موظف الضرائب سواء كان فرداً أو مصلحة حكومية عامة .. ولكن من الواضح أن هذه البلاد فقيرة وأهلها ليسوا على المستوى الذى يسمح لهم بالاعتماد على أنفسهم لسد حاجاتهم أمام نواب الطبيعة .

ومع ذلك فإننا نلاحظ شيئين : أولاً : إذا كان الريف فقيراً و « المستهلكون » يعانون ضيق ذات اليد فإن بوجوازية مدينة فيچاك كانت فى شئ من رغد العيش . فعشية قيام الثورة أمكن إحصاء أربعة عشر معلماً من صناعات القبعات (من مجموعة سان كريبيان) وأربعة من البنائين وصانع قباقيب واحد مما يعنى وصول المنطقة إلى مرحلة من مراحل الحداثة .

والأمر الثانى هو أنه لا يبدو أن رجال الكنيسة كانوا يعانون من حالة الفقر السائدة⁽²⁾ . فقد سجل السيد ريشبراي الإجابة التالية على سؤال عن حالة الكنيسة المحلية وهى مؤشراً واضحاً على ذلك : « عشرون ألف جنيه غير خاضعة لأية ضريبة ويستفيد منها الكاهن رئيس كنيسة المقاطعة واثنان من مساعديه وشماس وثمانية قسوس وأربعة رجال دين مكلفون أسبوعياً واثنان من الدعاة واثنان من الكتبة وثمانية عمال وموظفان وموظف علمانى واحد . »

وإذا استفسر عن النبلاء كان الجواب : « السيد باريس ، وهو يقطن باريس ، يمتلك إقطاعية مركزية مونبران ، أما بارونية كاسترنو دى بروتونو فهى ملك الدوق دى شوفروز أما الدوق دوزاس فهو أيضاً بارون إقطاعية كابديناك .. »

معنى ذلك عدد لا بأس به من الأراضي الإقطاعية تتبع نبلاء من غير أبناء المقاطعة .

حركات العنف التى قام بها الفلاحون بعد ذلك بسبع سنوات ترجع أسبابها إلى تلك الأوضاع .

لم تكن مقاطعة كارسي مركزاً ثورياً نشطاً .. غير أن أهلها كما جاء فى نص السيد / ريشبراي - كانوا « مشاغبين ومعاندين » وذلك هو مصدر هيمنة رجال القانون فى فيچاك التى ماتزال إلى يومنا هذا تطبع الروح السائدة فى هذه المدينة الصغيرة ، وهى تفخر بأنها بلد آل شامبوليون وكذلك المشرع فرنسوا بوتاريك الذى كان فى ذلك الوقت نداءً لمونتسكيو .

كانت الثورة الفرنسية فى الأساس شأنًا من شئون رجال القانون وقد فرض رجال القانون فى فيچاك ريادةتهم النشطة فى ذلك الوقت ، وعندما ساءت الأمور بعد ذلك قامت المقصلة بأداء وظيفتها فى الميدان العالى : ولابد أن الطفل الذى ولد على بعد خطوتين من ذلك المكان عام ١٧٩٠ قد سمع صريها وأترك شيئًا عن الإنتفاضات التى هزت المدينة .. خاصة وأن چاك شامبوليون - والد چان فرنسوا قد أنيطت به بعض المسئوليات الخاصة بهذا الأمر بعد ذلك بثلاثين عاما مما حدا بالمحافظين من أهل جرونوبل أن يطلقوا عليه كنية « روبسيير » .. (سنحاول التعرف فيما بعد على أهمية هذه المسئوليات) . أما الآن فنكتفى بأن ميلاده فى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠ تزامن تقريبا مع وقوع ثلاثة أحداث هامة عجلت فجأة من العملية الثورية : ففى الوقت الذى صوتت فيه الجمعية التأسيسية بالموافقة على بيان تعلن فيه تقديرها لچان - چاك روسو وقف چان - بول مارا يلقي خطابا ضد الملك كان بمثابة عريضة إتهام تنبئ بقيام الجمهورية التى طالب بها .. والحدث الثالث هو صدور قانون يوجب إرجاع أى إختراع لصاحبه .

كان چاك شامبوليون - والد المكتشف - أصلا من مقاطعة الدوفينييه .. وقد أرق بعض كتاب السير الشخصية من أفراد العائلة وغيرهم أنفسهم لتقديمه على أنه من أصل نبيل لفرع من عائلة شامبوليون من مقاطعة الجابانسيه والفرع الآخر من مقاطعة الفالبونية . فهل كان حقا من سلالة إقطاعية ؟ كتب أحد المؤرخين - فى كتابه سلسلة الأحداث العالمية ، Chronologie universelle : « الكتابة الهيروغليفية ، فك شفرتها «السيد دى شامبوليون*» وسيجد بعض المؤرخين الآخرين أجدادا من الضابط كانوا قريبى الصلة بالنبيل « توليدجيار » شخص يدعى بيرانجية نو جويا ، وأحدى مرافقات مدام بونتسان ونبيل آخر يعمل إلى جوار نوق نورليان وكذلك أحد ياورا نوق دى شارتي فى جيماب » ، وكلها محاولات تثير التعاطف إلا أنها لا تتفق مع الفكرة التى كانت لدى چان - فرنسوا شامبوليون عن أصوله .. فهو يفخر بأنه « فلاح حر » وذلك فى خطاب له سيأتى ذكره فيما بعد .

توجد بالفعل أسيرة تدعى « مارتان نوشامبوليون » كما هو ثابت فى بعض المستندات الخاصة بمقاطعة « دوفينييه » ويتعلق أحد هذه المستندات بوعده بدوطة لم تدفعها أسيرة سيدة من عائلة نو جويا إلى أحد النبلاء يحمل نفس الاسم . ومن هذه السلالة نجد محاربين وقساوسة ومحامين .. ولكن الأبحاث التى قام بها الباحثون

* مقطع دى de الذى سبق اللقب فى الفرنسية ينسب الاسم إلى إقطاعية التى تمثلها الأسرة وهى عادة ماتشير إلى نبل أصول صاحب الاسم (المترجم) .

الجرونوليون* لم تسفر عن اكتشاف علاقة معلنة بين هؤلاء النبلاء المحاربين وعلماء الآثار القادمين من فيچاك . ومن ناحية أخرى وفي إحدى المذكرات المحفوظة في أرشيف العائلة وممهورة بملحوظات بخط جاك - جوزيف (الأخ الأكبر) ورد ذكر بعض الأصول الإيطالية .. « شيبولو » ؟ « كامبوليوني » التقارب اللفظي واضح كما أن مقاطعة الدفينيه قريبة من مقاطعة البييمون الإيطالية . إن حب جان - فرنسوا لإيطاليا سيظهر بوضوح في مناسبات عدة ولكن هل يتحتم الرجوع إلى الأجداد لكي يشعر بالحب تجاه هذه البلد ؟

أحد الباحثين (من مدينة لاترونش) من منطقة ليزار ويدعى مسيو شاموران يحدد موطن عائلة شامبوليون في قرية من قرى بلاد الألب العليا ، كان إسمها كامبولانوس . في عام ١٣٧٠ تم تطور الاسم ليصبح شامبوليو (١٥٥٧) ثم شامبوليون عام (١٥١٦) تم تطور النطق لتصبح كتابته بالطريقة الحديثة الحالية Champollion .

أما أحدث الأبحاث فهي ترجع أصول عائلة « شامبوليون » إلى تجمع سكاني صغير يدعى لاروش . تابع لمدينة فالجوفري** بالقرب من مقاطعة فالليون ، جنوب مقاطعة الوازين على بعد خمسة وثلاثين كيلومتر من مدينة جرونويل .. وكانوا فلاحين بسطاء أو بالأحرى فلاحين وتجار ويحملون بضاعتهم على اكتافهم إذ كانوا يهجرون واديهم المرتفع في فصل البرد القارس بعد أن تغطيه الثلوج ليمارسوا مهنة التجارة الجواله - وقد يصلون في ترحالهم إلى مناطق تبعد كثيرا عن موطنهم .. وهذا النشاط كان يدر لكل بيت دخلا لا بأس به .

ومن ناحيه أخرى هؤلاء الباعة المتجولون كانوا - يجمعون معلومات كثيرة خلال رحلاتهم الطويلة بما جعل أهل وديان الوازان أكثر علماً من كثير من سكان المدن المحيطة ، وقد عثر الكولونيل أوهارن خلال أبحاثه في السجلات الكنسية على عدة توقيعات لأفراد يحملون إسم شامبوليون من فالجوفري « ومنهم العديد من النساء وكان يعتبر ذلك شيئاً يندر وجوده في الوسط القروي والكاثوليكي في ذلك العصر*** إلا أنه لاحظ في الوقت ذاته أن بارتيليمي شامبوليون جد مؤسس علم المصريات لم يكن في مقدوره التوقيع باسمه .

* على وجه الخصوص الكولونيل جان أوهارم في « النشرة الشهرية لأكاديمية البوفينيه » يناير

١٩٧٣ ص ١٢ إلى ٢٢

** الأخ الأكبر جاك - جوزيف سيصبح فيما بعد عمدة هذه المدينة .

*** أما البروتستانت فإن وجوب قراءة الكتاب المقدس كان يرفع نسبة من يستطيعون القراءة والكتابة بينهم.

هذا البارتيليمى تزوج من مارى جيرو (أو جيرو) التى أنجبت له خمسة أنجال إستطاعوا أن ينقلوا الأسرة من مستوى الفلاحة إلى البرجوازية الصغيرة : أحدهم أصبح « قنصلا » لمقاطعة فالبونيه – وهو مركز ذو أهمية محلية – والثانى كان يعمل « موثقاً للعقود » والثالث تزوج من إبنة أحد تجار مدينة جرونويل* والرابعة ولدت إبنا اسمته « أندريه » وستلتقى به فيما بعد ضابطاً فى الجيش فى مصر.**

آخر أبناء بارتيليمى ولد عام ١٧٤٤ أسموه چاك .. ويبدو أن كونه أصغر الأبناء قد حرمه من الميراث مما نتج عنه حرمانه من التيار الصاعد الذى أخذ بقية أعضاء الأسرة إلى مستوى إجتماعى أعلى .. إذ سنجده فى المكانة التى كانت عليها العائلة فى الأصل : مزارعاً وبائعاً متجولاً . إلا أنه تخصص فى بيع الكتب .. وقد راح يجوب الطرق وخاصة عبر الهضبة العليا وهى التى كان يعبرها البائعون الجائلون القادمون من منطقة جبال الألب .. وأخذته جولاته بعيداً وسريعاً إلى مقاطع كارسى على بعد عدة أسابيع من موطنه فى الدوفينييه التى وصلها فى أحد أيام عام ١٧٧٠ .

والسؤال الملح فى هذه الحالة هو : لماذا رحل بعيداً وبهذه السرعة ؟ ومهما كان والد چاك جوزيف وچان فرنسوا غير ميال بطبعه للاستقرار فى المنزل فإن من حق الدارس أن يتساءل عن السبب وراء ما يبدو للوهلة الأولى نفياً ... من المؤكد أن تخوم فرنسا وساقوا وسويسرا وإيطاليا تعتبر منطقة واعدة بالصفقات المربحة بالنسبة لتاجر كتب جوال إذا قورنت بمنطقة كارسى المخلقة على نفسها والفقيرة طبقاً لما سجله ريشبراى فى تقريره . فهل كان چاك شامبوليون ينقل كتباً ممنوعة التداول مما نتج عنه إبتعاده عن المنطقة الحدودية ؟

سنجد بداية لشرح ما حدث فى خطاب بعثت به مادام نولابريار وهى حفيدة إحدى بنات أخ چان فرنسوا شامبوليون إلى چول مالريو رئيس جمعية « أصدقاء فيچاك العتيقة » : « .. فى تاريخ غير محدد ولأسباب يصعب أيضاً تحديدها ولكنها كانت بالقطع سياسية ، جرى طرد أحد أفراد هذه العائلة من آل شامبوليون من المحافظة وتم مصانرة ممتلكاته فيما بين عامى ١٧٦٥ و ١٧٧٠ وكان محباً للكتب

* وهو سيساعد بدوره فى صعود نجم چاك – جوزيف .

** سبق ذكر هذا الموضوع وسنعود إليه فى الفصل الثانى من الكتاب .

ودارساً للغات ومثقفاً .. ولكي يتغلب على النوائب فقد عمل في المجال الذي يعرفه وهو بيع الكتب متجولاً .. وقد أوصلته الطرق إلى منطقة « اللوت » (3) .

هل كان وجود قريب لچاك شامبوليون رجل الدين في كنيسة سان - سوفير هو الذي شده ناحية فيچاك ؟ الأب بويأ يدعى ذلك دون أن يأتى بالبرهان .

جاء في أحد مستندات سجلات اللوت أن عمودية فيچاك هي التي أخذت مبادرة تمويل هذا البائع المتجول لكي يفتتح لنفسه محلاً لتجارة الكتب حيث أن المدينة لم يكن بها هذا النشاط .

وعلى الرغم من ذلك فإن چاك شامبوليون لم يتخل عن حياة التجوال بشكل نهائي إذا سنراه يتاجر في أسواق المدن وخاصة سوق بوكار .. إلا أنه نجح في أن يكون له مقر دائم حتى لو لم يستقر هو نفسه تماماً وذلك لأن المال الذي أخذه من العمودية له لم يكن ذا شأن .

وكان زواجه من چان فرنسواز جاليو - وهو في الثلاثين - عام ١٧٧٣ هو الذي سمح له بشراء دكان ومنزل مدركاً بذلك شيئاً من الثراء .

كان آل جاليو يقطنون ضاحية فيسال المتاخمة وهم برجوازيون متأصلون . ولكن والد چان - فرنسواز كان يعمل نساجاً مثل أبيه ومهنة النسيج كانت تعد من الحرف النبيلة - غير أن العائلة كانت تفتخر بوجود موثقين للعقود بين الأجداد ولعدة أجيال . كما أن والدته چان - فرنسواز كانت من عائلة تولييه وهي إبنة عمدة المدينة السابق . بزواجه من هذه الأنسة دخل جاك وسط مجموعة صغار وجهاء فيچاك .

لم نحصل على أى صورة لوالدى چان - فرنسوا . كانا على مشارف عامهما الثلاثين عندما إقترنا وهذه السن تعد متأخرة للغاية بالنسبة لسيدة في ذلك العصر غير أن الذى يدهش أكثر هو أن هذه السيدة ذات الأصول البرجوازية الحضرية كانت لاتقرأ ولاتكتب . وقد ورد في عقد الزواج المؤرخ في ٢٣ يناير ١٧٧٣ « بين چاك شامبوليون -التاجر - المولود في لاروش - دى - قالبونيه - وفرنسواز جاليو الابنة الطبيعية والشرعية لچاك جاليو - تاجر - وهي تقدم له دواة مقدارها أربعمئة جنيه نقدأ راجعها وتسلمها المدعو شامبوليون (...)» وقد وقع على العقد أحد عشر شخصاً ولكنه غير موقع من العروس « لأنها لاتعرف كيف تقوم بذلك » (4)

قبل ستة أشهر من العقد أى فى ٦ يوليو ١٧٧٢ كان چاك شامبوليون قد إشتري المنزل الذى سيقوم فيه مع أسرته ودفع نصف ثمنه فى إنتظار إستلام دوطه زوجته . غير أنه لم يشتري مقر مكتبته* إلا فى عام ١٧٧٩ وذلك فى الميدان الأسفل» (بلاس باس) وكان يستأجرها قبل أن يشتريها - وذلك جعل منه صاحب مكتبة موثق.(5)

كون چاك أصبح عضوا فى برجوازية فيچاك وفيما بعد رب أسرة لم يمنعه من الاشتراك فى نشاط الأسواق الجواله .. وقد نجد فى هذا الترحال أسباب مولد چان - فرنسوا - أو على الأقل أحد أسباب عودة نجلى « تاجر المكتب » إلى منطقة الدوفينييه - وقد أدت عودتهما هذه لورا حاسماً فى إتجاهاتهما الفكرية ، وفى تحالفاتهما ونجاحاتهما .

من ، القرن السادس عشر ومن بعده عصر التصحيح La Réforme وعلى الأخص فى القرن الثامن عشر أدى تاجر الشنطة أو التاجر المتجول أو بسميه تاجر الخرج لورا إجتماعيا وخاصة إذا كانت تجارته هى الكتب . فهو ليس فقط حاملا للسلع بل هو أيضا ناقلا للأخبار .. إذا أنه ينشر الإشاعات السارية فى المدن والطرق العامة إلى أكثر القرى بعداً وعزلة .. فهو يختلط بعامة الناس الذين لا أصل لهم المعدمين والشحانيين الهاربين من الطاعون ومن الحروب .. مثل هؤلاء زاد عددهم كثيراً فى نهاية القرن الخامس عشر بسبب هجرة الفجر « المصريين » و « البوشمان » و « الرومانيين » إلى غرب أوروبا .

كان هؤلاء الباعة المتجولون يحملون فى خروجهم بالاضافة للعاديات الدينية وصور القديسين - مطبوعات أخرى تمت بوساطة الحفر على الخشب (اكسيلوجرافيا) وكان الكتاب يؤرق السلطات الدينية والملكية سواء بسواء لما قد يحمله من أراء .. وكان يجب إذن التحكم فى إنتشاره . ومن ناحيتهم فقد قاوم أصحاب المكتبات نوو العناوين الثابتة إنتشار بيع الكتب عن طريق الباعة الجائلين بسبب صعوبة التحكم فى تحصيل نسبتهم فى حقوق الطبع التى اشتروها من مؤلفى الكتب .

من الناحية الرسمية كان لا يحق للبائع الجائل أن ينقل أو يبيع سوى أشياء محددة مثل الكتيبات الدينية والنصائح العامة والتقويم وكتب محو الأمية وروايات

* أصبح فيما بعد محلا لتجارة الأقمشة ، وهو الآن « بقالة جملة ».

عصر الفروسيه . وأضيف إلى القائمة فيما بعد مجموعة كتب « المكتبة الزرقاء » وكانت تطبع في مدينة تروا Troyes (مركز صناعة الخردوات التي هي أهم بضائع الباعة الجائلين) .. أما من الناحية الواقعية فقد أصبح بائع الخرج عاملاً مؤثراً للغاية في نشر الأفكار « الجديدة أو الهدامة » لعصر التنوير بوساطة الكتب .

ويقول لوسيان فابر وهـ . حـ مارتان في مؤلفهما « ظهور الكتاب »⁽⁶⁾ أن الباعة الجائلين كانوا ينقلون في خروجهم أشياء عديدة غير تلك المسموح بها .. وفي جميع فترات الأزمات لوحظ بانتظام تزايد عدد « رجال من المتشردين » الذين يبيعون المنشورات والروايات خلسة في أكثر الأماكن ازدحاماً .. في القرن السادس عشر تم حرق العديد من الباعة الجائلين أحياء وذلك لأنهم ضبطوا وهو يبيعون كتباً هرطقية وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر في فرنسا زج بالعديد من هؤلاء في سجن الباستيل لأنهم كانوا يبيعون كتيبات سياسية مناهضة للحكم الملكي .

چاك شامبوليون لم يسجن في الباستيل ولم يحرق .. لكن ما حدث على الأرجح هو أنه طلب منه أن يذهب « في داهية » إلى أبعد مايمكن . ولهذا السبب فهو لم يذهب إلى إبنيه الذين أقاما بعد ذلك في مقاطعة الدوفينييه وأصبحا من المشاهير ومتبوعين مراكز تجعله يفخر بهما* في حين أنه كان كثير السفر في اتجاه الشرق – أوبالآخرى الجنوب الشرقي . ففي كل عام تقريباً كان هذا البرجوازي المحدث من جيبان العليا يشارك خلال شهر يوليو في حمى اللهو والمرح والمكاسب التي تتيحها سوق بوكار .

الأرباح كانت غير قانونية أحياناً .. فقد كتب مالزارب في كتابه « بحث في حرية الصحافة » يشير إلى هؤلاء « القوم الذين يهبطون من جبالهم ليتسوقوا الكتب من مدينة ليون ومن غيرها » . ثم يضيف « منذ سنتين أو ثلاثة ذهب أحد أصحاب المكتبات الباريسيين إلى سوق بوكار ليصادر كتباً أعيد طبعها دون إذن » .

بعد ذلك بقرن كامل وعلى الرغم من أن السوق كانت قد بدأت تفقد أهميتها وبريقها أشار الفونس لوديه في روايته « نونا رومتان » إلى قوة تأثيرها على الجماهير الغفيرة بسبب « هذه الوشائج الأخوية الماسونية » التي كانت تربطهم بها :

« كانت سوق بوكار ومازالت أسبوعين أو شهراً من حياة الحرية واللهو والمفاجآت في معسكر للبوهميين ... كل ذلك تحت مسمى المعاملات التجارية ...

* لعله ظهر مرة واحدة هناك بصحبة إبنه البكر ولفترة قصيرة جداً .

هذه المجموعة متعددة الألوان من الإسبان وسكان ساردينا واليونانيين جلايهم الطويلة وشبابيهم المطرزة والأرمن بعمائمهم المصنوعة من القرو والأتراك بأرديتهم المزركشة ومراوحهم وسراويلهم القطنية الواسعة ذات اللون الرمادي ... إلخ ».

من المؤكد ، طبقاً للعديد من الشواهد ، أن چاك بائع الخرج كان واقعا تحت تأثير هذا السحر وكل شئ يدل على أنه كثيرا ما كان يتغمس في حياة « المعسكر البوهيمي » هذا ... (حتى بعد إصطحابه لچاك - جوزيف ابنه الأكبر عندما راح يبحث عن عمل في الدوفينييه) .. لقد كان رجلا مرحا وميالا لشرب الخمر .. فهل نذهب إلى الاعتقاد بأنه أقام علاقات من نوع خاص مع بعضهن أو أن بعض الأشياء الغريبة التي مرت في حياته ترجع إلى ذلك السبب ؟ أو أن بعض هؤلاء « البوشمانيين » أو « الفجر » أو « المصريين » * قد دخلوا حياته حتى اندمجوا فيها ودخلوا في خصوصياته إلى أن ظهر في فيك ولد صغير أسمر البشرة سرعان ما أطلقت عليه كناية « الشرقي » ؟ .. هذا الولد الذي سيتحمس بسرعة لمصر ؟ ... تخيلات ... أم تهينات ؟؟ كل شئ جائز .

ومع ذلك فإن أهم مراحل الحياة العملية لچاك شامبوليون قضائها في فيچاك واعتبارا من عام ١٧٧٩ وبعد ستة أعوام من زواجه كانت زوجته قد أنجبت له أربعة أطفال بقي منهم ثلاثة على قيد الحياة وأخذ وضعه المادي ينتعش .. فهو لم يكتفى بأن أعد خبيرا في المكتبات يقوم بتقييم مجموعات الكتب التي يمتلكها نبلاء منطقة قوس - وهو ماتشهد عليه السجلات المحلية - بل أكثر من مشاريعه التجارية الصغيرة فاستأجر أراض زراعية ، كما إشتري وظيفة ذات دخل في الكنيسة ، وإشتري كذلك مقر مكتبته المطل على الميدان الأسفل (Place Basse) وكان يستأجره حتى ذلك الوقت . وعلاوة على كل ذلك فقد إشتري في العام ذاته (١٧٧٩) مقر إقامته في حارة لابولوسكوري وهو المنزل الذي ولد فيه چان - فرنسوا ** .

* يعتقد البعض أن كلمة « جيبسي » أو غجرى كما نقول في العربية هي تحوير كلمة ابجيسيان أو مصري بالفرنسية - (المترجم) .

** الذي أصبح منذ عام ١٩٨٦ متحف شامبوليون .. لم يتفق المؤرخون على هذا التاريخ (١٧٧٩) الذي ظهر في الأوراق التي نشرها السيد / كالون .. فقد نشرت الأنسة مونيك إسكات مقالا موثقاً تشير فيه أن صاحب المكتبة إشتري المنزل نحو عام ١٧٧٢ كما أنها توضح أنها لم تجد أى مستند يوضح أصل هذا المبنى (راجع مجلة ميدي - بيرينييه) رقم ١١٥ - أغسطس ١٩٨١) الأنسة إسكات هي التي عملت بنجاح على تحويل هذه الدار إلى متحف .

وبشكل عام - كما يقول أندريه نوال - المثقف المقيم بالمنطقة - كان صاحب المكتبة شامبوليون رجل أعمال ناجح (...) كانت مكتبة المدرسة المحلية ثرية جدا بالكتب وكانت تشتري مقتنياتها من مكتبة الميدان (...) كما كانت تفعل أيضا عائلات فوكو دالزون ودوجاش ، ورايونديج ... » كانوا يقتنون كتباً في الزراعة والطب والقواميس المختلفة وكتاب « العصافير » تأليف بريسون (١٧٦٠) .. و - الأغرب من ذلك كله - صدق أو لاتصدق - كتاب « هيروغليفيات القراءة » لمؤلفة فارتوبرون في طبعته الفرنسية* التي ظهرت عام ١٧٤٤⁽⁷⁾

توفي أول أبناء فرنسواز وچاك بعد مولده بساعات في أكتوبر ١٧٧٣ وأسموه جييوم . ثم ولدت لهما ابنة - تيريز - بعد ذلك بعام واحد ثم بيترونيل بعد عامين ثم (چاك - جوزيف « في ٨ أكتوبر ١٧٧٨ الذي سيصبح الرائد والمشرف على صغر الأبناء چان - فرنسوا .. ولعلنا نقول بلغة هذه الأيام أنه كان مدير أعمال أخيه الأصغر .. بعد چاك - جوزيف ولد چان - باتيست الذي توفي وهو في الثالثة - ثم ولدت ماري - جان عام ١٧٨٢ .. وبعد ذلك بثمانية أعوام كاملة احتفل آل شامبوليون بأخر العنقود : چان فرنسوا الذي سيدخل اسم شامبوليون في سجل الأمجاد .

كان هذا المولد غريباً من جميع الوجوه ليس فقط لأن المولود أصبح فيما بعد شخصية فذة ولكن بسبب الظروف الفريدة التي أحاطت بمولده وبسبب الروايات التي ترددت حوله .. وسنأخذ ذلك في الاعتبار مع طرح الأسئلة اللازمة .

في مؤلفها القيم* الذي خصصته لمؤسس علم المصريات نقلت هيرميني هارتلوبان في ١٩٠٦⁽⁸⁾ رواية من هذه الروايات وذلك دون أى تقييم نقدي لها وهي تدور حول أعمال السحر .. مصدر الرواية الوحيد الذي يعتد به مذكور في النسخة الأصلية باللغة الألمانية (ص ٢ ، هامش ٤) وهذه المذكرة الهامشية لم تظهر في الترجمة الفرنسية للكتاب التي ظهرت بعد ٧٥ عاماً من الأصل الألماني . والمرجع الذي ذكرته هو «مذكرة في الفراسة الدماغية خاصة بشامبوليون الصغير » تليت على جمعية فرينولوجيا - باريس في ١٢ نوفمبر ١٨٣٣ ونشرت في صحيفة هذه الجمعية (B N 8 Ln 27 57613) صاحب هذا البحث هو الدكتور جانان** - وهو أحد

* سنعود إلى هذا المؤلف في الفصل التاسع .

** تربطه بجان ، فرانسوا علاقات شبه أسرية .

تلاميذة مخترع علم الفرينولوجيا (أو الفراسة الدماغية) المسمى «جال» - وكان قد كشف على جان - فرنسوا بعد ذلك بعشرين عاماً :

« لما كانت أتفه الظروف تعد ذات أهمية بالنسبة لتاريخ الشخصيات العظيمة فمن الواجب على أن أذكر علامه مميزة ..

« كانت والدته شامبوليون تعاني من آلام روماتيزمية حادة جداً تمنعها من استخدام أطرافها وقد حاولت نون جدوى أن تخفف من آلامها بالوسائل الطبية .. إلى أن أحضروا لها قرويا لايعرف القراءة ولكنه أصبح مشهورا بسبب نجاحه فى علاج حالات عديدة فى الناحية .

« قام هذا الرجل بتدليكها بنبيذ ساخن بعد أن تم غلى أعشاب طبية فيه .. شربت منه وفى اليوم الثالث من هذا العلاج قامت من سريرها وقد برأت تماماً من الداء .. ولكن الأغرب من ذلك كانت النبوة التى قالها هذا المعالج لمدام شامبوليون .. وكانت حينذاك فى الثامنة والأربعين وكانت قد توقفت عن الانجاب منذ عشرين سنوات .. فقد قال لها أنها ستلد ابناً فى وقت قريب وأنه سيشرفها .. وقد ولد شامبوليون الصغير بعد ذلك بعام . «.

كل ذلك لا يوحى بأى ثقة . وعندما تتكرر هذه القصة على لسان سيدة إسمها مدام لاكروا فإن المدلك غير المعروف ينجح فى الحصول على إسم : « چاكو الساحر » .. كما تتضح الوصفة السحرية « شربت مرة واحدة كميات كبيرة من منقوع مغلى لأعشاب طبية وهى ممددة على فرشاة من الأعشاب المغلية » .. كل ذلك مضاف إليه جملة تاريخية : « بشر چاكو الساحر مريضته بانها ستلد ابناً » سيصبح : عالماً مستتيراً للقرون القادمة*.

هل كان الهدف من هذه الأسطورة هو إضافة لمسة إبهار لتاريخ رجل هو أصلاً فى غنى عنها فأن ما حققه فى حياته قد فاق كل تصور ؟ أم أن الهدف كان التمويه على الرواية الحقيقية ؟ وهى أن تكون أمه الحقيقية من الأغراب أو بكلمات أخرى أنه ولد

* أما إيميه شامبوليون - فيجاك ابن أخ جان فرنسوا فقد ذكر القصة فى كتابه « رجالن إسمهما شامبوليون » ولكنه لخصها فى الجملة التالية على لسان الساحر : « ... طفلاً سيسعدنا » .

خارج إطار الزواج . هذا الافتراض لا يدعمه فقط الحياة غير السوية التي عاشها والده وإنما أيضا عدم معقولية الرواية الرسمية المزوقة التي تقول أولى إدعائها أن أمه ولدته وهي في الثامنة والأربعين وهذه السن تعتبر متقدمة بالنسبة للقرن الثامن عشر علما بأن صحتها كانت معتلة للغاية وكانت قد توقفت عن الانجاب منذ ما يقرب من عشر سنوات .. ثم أن هذا الابن المعجزة لم يذكرها أبداً في جميع مراسلاته في حين أنه أشار في العديد من المرات وحتى مماته – أى بعد خمسة وعشرين عاما من وفاة مدام شامبوليون : شخص عزيز عليه للغاية فاتته في فيچاك .

باختصار نقول أنه في ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠* ولد طفل في حالة صحية جيدة بشرته سمراء وذلك في المنزل الكائن بحارة لابود وسكوري . أما سجل كنيسة نوتردام دويوى فمسجل به أنه تم تعميده بها في ذات الليلة : « في عام ألف وسبعمائة وتسعين وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر تم تعميد جان فرنسوا شامبوليون المولود في اليوم ذاته من الزواج الشرعى للسيد / چاك شامبوليون تاجر الكتب وفرنسواز – ابنه جاليو – التابعين لهذه الكنيسة . أبوه الروحى هو چان – فرنسوا** شامبوليون – طالب – أخوه .. وأمه الروحية (اشبينته) هي نوروتى جاليو – خالته وقع عليه أبو الطفل وأبوه الروحى والام الروحية لم توقع .

توقيع : شامبوليون – القس بوسكيه – شامبوليون .

الدار سادتها الحياة وضوضاء ثلاث بنات وولدين أكبرهم عمره اثنا عشر عاما .
المدينة سادتها حمى الثورة المتفاعلة . التى لن تلبث أن تحدث بها أيضا الهزات العنيفة التى عمت البلد كله .. فى حين أثار الاطماع بيع « الأملاك الوطنية » وكان أحد الطامعين هو چاك شامبوليون الذى لم يترك الفرصة تمر دون أن يقتنى حقل عنب كان يمتلكه رهبان وذلك فى ربيع عام ١٧٩١ . ثم إشتري بعد ذلك بعضاً من قطع الأثاث ..

* كتاب ميشو « السيرة الدولية » و « القاموس الاسيكلوبيدى لفرنسا » تأليف ف . لوبا يذكران عن خطأ أن ميلاده هي ١٧٩١ ، وقد نقل هذا الخطأ سيلفستر بوساس ذاته في « مذكرة عن شامبوليون الصغير » ١٨٣٣

** القس بوسكيه أخطأ فذكر إسم المولود بدلا من إسم أخيه .

وهكذا كانت الأمور مستمرة في سيرها الحسن كل شيء إذن كان على مايرام فيما عدا حدوث مشكلة إغلاق المدرسة التي كان چاك - جوزيف يدرس بها والتي كان يديرها الرهبان . فقد احتلها الحرس الوطني . ولذلك تحتم البحث عن مدرس خاص ليتابع تعليم جاك جوزيف - أثرى المستقبل - والذي كانت شهيته للتحصيل ثابتة بوضوح . تولى هذه المهمة قسان على التوالي* إلى أن عين سكرتيرا في الشؤون الإدارية لبلدية المدينة وذلك عام ١٧٩٤ .

وهنا يثار سؤال - ضمن أسئلة عديدة أخرى - حول الآثار التي تركتها أحداث الثورة المختلفة على هذه الأسرة . إذا سلمنا بما تتناقله الرواية التقليدية كما فعلت هيرميني هارتلوبان⁽⁹⁾ فإن چاك شامبوليون كان « على رأس الشرطة » في فيچاك في العام الثالث للثورة أي أثناء حكم « الإرهاب » .. وذلك يحدد موقع آل شامبوليون من القلاقل : وهو في قلبها ذاته . إذ كان على رئيس البوليس في ذلك العهد أن يتخذ قرارات خطيرة للغاية وأن يشترك في عمليات وحشية .. إلا أن المؤلفة تشير إلى احتمال ايواء شامبوليون الأب . لاثنتين من الرهبان كانا معرضين لخطر داهم ومع ذلك فإن وضعه قد تعرض لخطر كبير في التاسع من تيرميدور وهذا يلقي بظلال من الشك على النشاط القمعي لچاك شامبوليون خاصة وأننا سنرى فيما بعد أن ابنه الأكبر قد عبر فيما كتب عن إرتياحه لما حدث في ذلك التاريخ**.

يشير أدريه نوال في أحد النصوص التي نشرها « أصدقاء شامبوليون » في فيچاك - إلى هذه الفترة بطريقة توحى بأن آل شامبوليون كانوا ضمن تيار الـ SANS/CULOTTE المتمربين إبان الثورة إن لم يكونوا اصلا قادة هذا التيار :

« في عام ١٧٩٤ لم يكن الطفل (چان - فرنسوا) قد تعدى الرابعة *** من عمره عندما كانت الجماهير الهادرة في الميدان العالي تصرخ : « تحيا الجمهورية » . ويومها سقطت ثلاثة رؤوس بفعل المقصلة وذلك في الساعة السادسة والنصف وقد تم إعدام المحكوم عليهم الثلاثة وسط الفرحة العارمة للجماهير »⁽¹⁰⁾.

* راجع الفصل الثاني .

** يشير أحد المستندات التي اكتشفت مؤخرا أن چاك شامبوليون كان عضوا في لجنة المدينة عام ١٧٩٣ (نقلا عن مدام سيمون فوايساك)

*** الواقع أن حكم الإرهاب سقط في يوليو ١٧٩٤ حين كان چان فرنسوا في الثالثة والنصف من العمر .

الشيء المؤكد الذي يذكره هذا الكاتب المحلى هو أن مكتبة شامبوليون كانت تحصل على الصحافة الثورية مثل « نشره المحكمة الثورية » و « صديق الشعب » ، صحيفة سياسية محايدة « (11) . وكان زبائن المكتبة يعلقون على ما يقرأونه فى المكتبة - علما بأن هذه الصحف كانت تصل بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع من صدورها وهى المدة التى كانت تستغرقها « العربية الحمراء » للوصول إلى فيجاك قادمة من باريس .

باختصار يقول إنه حتى لو نحينا جانباً احتمال قيام جاك شامبوليون بدور قائد الشرطة المحلى فإن الواقع هو أن الثورة كانت حاضرة بكل ثقلها فى حياة هذه الأسرة أو على الأقل فى حياة الطفل الذى كان يلعب فى شارع صغير لا يبعد سوى ثلاثين خطوة من الميدان العالى . أى المكان الذى كانت المقصلة منصوبة فيه وذلك حتى الشهر الثورى تيرميدور وقد زرع مكانها بعد ذلك شجرة الحرية التى كانت إحتفالات الثورة تقام حولها فى صخب .

ماهى النفس التى لا تتأثر مدى الحياة بتلك الأحداث الجسام ؟ خاصة إذا كانت إحدى هذه النفوس هى نفس چان - فرنسوا وهى من أكثرها حساسية وأقلها تحكماً فى ذاتها بالنظر إلى غرابه علاقاتها الأسرية .

إننا نعرف كل شئ تقريباً عن العلاقات التى ربطت بين الطفل - ثم الشاب - بأخيه الأكبر الذى قال عن نفسه أنه كان بالنسبة له الأب والأستاذ والتلميذ (الأب ؟) وكان له فيما يبدو أب حقيقى إلا أننا لانعرف تقريباً أى شئ عن العلاقات التى كانت تربط چان - فرنسوا بأبويه سوى أنهما لم يقررا منحه فرص التعليم الحقيقية سوى فى وقت متأخر وأنهما تركاه يسافر فى سن صغيره وهو عشر سنوات وثلاثة شهور لمدينة بعيدة ليعيش مع أخيه بصورة نهائية .

لن نتعرف على مشاعر چان - فرنسوا نحو أبيه سوى بعد فترة طويلة من خلال مراسلاته وهى مشاعر قاسية فى أغلب الأحيان وخاصة منذ ١٨١٧ عندما تسببت الفوضى التى إتسمت بها حياة جاك شامبوليون فى إيصال نباته إلى حافة الافلاس الكامل . إلا أننا نلاحظ أنه حتى قبل أن يترك الدار للسفر إلى جورنوبل فى ١٨٠١ أن حياة الولد الصغير كانت تنور فى فلك أخيه الأكبر الذى يبدو وكأنه يأخذ وحده كافة القرارات حتى وهو على بعد مئات الأميال من فيجاك .. كل شئ يوحى بأن الأبوين قد

تنازلاً تماماً لچاك - جوزيف - سواء فى فيچاك نفسها أو فى جرونويل ثم فى باريس - عن مسئولية التعليم بل والاتفاق على الولد والمراهق جان فرنسوا .

هل كانت مواقف الأب السياسية أو المراكز التى تبوأها بين عام ١٧٨٩ و ١٧٩٤ هى التى جعلت منه غير لائق لأن يكون مربياً فى نظر الرأى العام ؟؟ وهل تسبب ذلك فى أنه كان شخصية مرفوضة ؟ لا يوجد أى دليل يثبت ذلك .. هل أصبح سكيراً ؟ على العموم فإن عدم وضوح وجوده يثير الدهشة أكثر مما يثيره غياب وجود الأم الأمية التى ظلت على حالها إلى أن توفيت عام ١٨٠٧* على الرغم من مهنة زوجها والنشاط الفكرى الهائل الذى قام به ولداها . وكذلك إنبتها تيريز ومارى ولكن بدرجة أقل وهما اللتان أدارا المكتبة بعد والدهما .

توجد قصة أخرى ربما تدخل أيضاً فى حيز الأساطير ولكنها أكثر إبتكاراً من رواية « چاكو السحر » وهى على العموم أكثر طرافة وبالقطع هى بمثابة النبوءة ويجدر ذكرها ، فهى تعطى فكرة معبرة عما عرفت هذه الطفولة من أحداث فريدة . القصة الوحيدة التى توضح كم هى مبهمة العلاقة مع أم تبدو غائبة فى حين يعوض هذا الغياب بعض الشئ يقظة اخواته البنات .

وإذا كان العديد من المؤلفين قد رواوا هذه القصة الطريفة فإننا سننقلها هنا من كتاب هيرمينى هارتلويان :

« ... بما أنهم أرادوا إبعاده عن الدراسة لعدة سنوات** فقد أخذ يبحث عن وسيلة يخرق بها أسرار الكتب . كانت الأم قد لقنته عدة صلوات من كتاب القديس الخاص بها*** وقد حفظ هذه المقاطع عن ظهر قلب .. وسرعان ما تحصل على نسخة من الكتاب - وطلب من أحدهم أن يحدد له فيه النصوص التى حفظها (-) وراح يعطى معان خياليه للحروف المطبوعة للتمييز بينهما ، ثم نقلها كتابة (كيف ؟ هل كان يعرف الكتابة بعد؟) ثم راح يقارن بين الكلمات التى تعرف على بعضها . إلى أن نجح بهذه الوسيلة (..) إلى تحديد كل كلمة وكل مقطع فى كتاب الصلوات الذى حفظه.(12)

* الجدير بالتسجيل أنه عندما طلب منها التوقيع على وصيتها عام ١٨٠٧ أعلنت أنها لا يمكنها ذلك «بسبب رعشة فى يديها» (راجع كالمون - دراسات من اللوت ، ١٩٨٢، ص ٢٥١)

** لماذا ؟ كان چاك - جوزيف ضعيف البنيان فى حين كان أخوه الأصغر عفا منذ ولادته .

*** لا بد وأنها قد حفظتها عن طريق السمع بما أنها كانت لاتعرف القراءة .

وهكذا فمن الأصوات إلى الرموز ومن هذه إلى تلك إختراع - الفن فى نشأته - بأن إمتلك مبادئ طريقته التى ستتبلور تماماً بعد عشرين عاماً - فهو سيقفز من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية من القبطية إلى الديموتيقية ومنها إلى الهيراتيقيه والهيروغليفية موفقاً بهذه الطريقة « بين أصوات الأحياء المسموعه والحروف الميتة » (13)

هكذا تباطأ صاحب مكتبة الساحة السفلى فى تعليم هذا الطفل البالغ من العمر خمس أو ست سنوات فى ذلك الحين تعليماً يتناسب مع ما يملكه بكل وضوح من إمكانيات ذهنية غير عادية . فيتولى چاك - جوزيف تعويض هذا العجز بقدر ما يمكن وقد شجعه فى ذلك تمسك الطفل به . وهو الذى يكبره باثنى عشر عاماً . خاصة وأنه كان قارئاً نهماً للكتب ويعرف أضعاف ما يعرفه معظم التلاميذ المحليين الآخرين فى التاريخ واللغات القديمة .

وإذ بالدروس الأخوية تتوقف فجأة . فبعد أن صدم الأخ الأكبر فيما يبدو عندما لم ينجح فى السفر مع ابن عمه أندريه ضمن حملة بونابارت على مصر - وهى القصة التى ثارت حولها عدة إفتراضات كما سنوضحه فيما بعد - وبعد ان زاد إحساسه بالاختناق فى حارة لابود وسكيرى وقد بلغ التاسعة عشرة من العمر نجح فى الحصول على وظيفة صغيرة فى أحد متاجر مدينة جرونوبل وجدها له أولاد عمامه المقيمون فى مقاطعة بوفينية .. كان قد قابلهم مع أبيه فى سوق بوكير . وهكذا خرج چاك - جوزيف من بوكير عام ١٧٩٨ - وكان هذا بمثابة محنة لا مثيل لها بالنسبة للولد الصغير الذى لن يتمكن أحد من مواساته فى ذلك لفترة طويلة . لقد كان سفر الأخ بكل تأكيد بداية أهم أزمة عاشها الطفل فى فيچاك .

وعليه — فقد دخل مدرسة البنين الأوليه التى أعادت عمودية فيچاك إفتتاحها بتمويل منها فى مقر المدرسة التى أغلقت عام ١٧٩٠ (14) دخلها عشية بلوغه سن الثامنة فى نوفمبر ١٧٩٨ ولم يكن سعيداً ولا ناجحاً فيها . وسرعان ما أعتبر تلميذاً سيئاً . فهو يبغض كل ما يتعلق بالحساب وهو ضعيف فى الإملاء* ويتسبب ذلك فى تكرار معاقبته .. علاوة على شخصية سريعة الغضب ، غير المرتبة .. كل ذلك يرجع غالباً إلى كونه « آخر العنقود » داخل أسرته يفسده تدليل أخواته .. وسرعان ما يتهمش ولا يحلم سوى باليوم الذى يخرج فيه من تحت سلطة أساتذته .

* سيستمر على هذا الحال لفترة طويلة جداً .

تلك هي الفترة التي كتب فيه على ما يبدو خطاباً غير مؤرخ من يضعه سطور لم يتم فك شفرة سوى سطره الأولين :

“Montreser frère je vous prie demefere savoir de tes nouvellesge te prie”

أما الباقي فهو غير مقروء .. (15)

يبدو من سير الأمور أنهم كانوا بصدد تنشئة تلميذ بليد وغير متواعم مع مجتمعه متمرد : ولا نعرف كيف توصل إلى إحاطة أخيه علماً بما يحدث وكان هذا الآخر يقيم بصفة دائمة في مقاطعة دوفينييه وإقناعه بما يريد . لكن يبدو واضحاً أن تدخل چاك – جوزيف هو الذي أدى إلى إخراجه من المدرسة ووضع تحت رعاية قس إسمه نون كالمالز وهو الذي تولى تعليم أخيه الأكبر قبل ذلك بعشرة أعوام .. ولأن القس احتفظ بذكرى طيبة عن تلك التجربة فقد قبل أن يتولى شئون الأخ الأصغر المشاكس .

الرواية التي قامت مدام هارتلوبان بتربيتها جعلت من « يوم كالت » كما نسميه المربي الأول لچاك جوزيف ثم لچان فرنسوا شامبوليون ، راهباً من البنيديكتان مناهضاً للدستور المدني الذي طبقته الثورة على رجال الكنيسة وأن چاك شامبوليون تطوع بشجاعة في استقباله وإيوائه في داره بشارع بودوسكيرى .

أما شارل – أوليفيه كاريونال فهو يشكك في صحة هذه الرواية في كتابه «شامبوليون الآخر » L'Autre Champollion ، أما السيد ميشال فورييه – وهو باحث من فيچاك – فقد أرسل لنا خطاباً يؤكد فيه أن الشخصية التي نحن بصددتها غالباً ما تكون چان جوزيف كالمالز الذي انتخب عام ١٧٩١ القس المسئول عن كنيسة نوبوى التي تتبعها عائلة شامبوليون والتي عمد فيها چان فرنسوا .. وقد توصل إلى تلك النتيجة بعد أن رجع في بحثه إلى قائمة رجال الكنيسة الذين أقسموا والذين لم يقسموا (الولاء للثورة) كما رجع أيضاً إلى مقارنة خط أستاذ چاك – جوزيف وچان فرنسوا ببعض النصوص الأخرى كتبها بخط ، ثم أن نون كلاماز كان يسكن على بعد بضعة أمتار من سكن شامبوليون في شارع البكروسكيرى كما أن العديد من العقود تحمل إمضاءه بجوار إمضاءات العديد من أفراد العائلة .

لا أحد كان يستحق أكثر منه لقب صديق العائلة الذي أطلقه عليه چاك – جوزيف .. بالإضافة إلى أن شامبوليون الأب (چاك – جوزيف) كان ثوريا معلناً (جاكوبى) لدرجة لا تسمح له بأن يآتمن أحد أعداء الثورة على تعليم أبنائه حتى لو كان هذا الشخص من أصدقائه .. وهذا الجانب من القصة هو الذى يهم المؤرخ فى المقام الأول

.. لأن تربيته الأخوين شامبوليون لم تكن من النوع الذى يشكك فى الولاء للثورة الذى إرتبط بها أهل البيت جميعا . كان دم كالمالز بالتاكيد رجلا غزير العلم ، راجح العقل واسلوبه فى الكتابه لا يخلو من الأناقة . تحت رعايته تفتحت شخصية چاك چوزيف أولا ثم چان - فرنسوا أفضل بكثير مما حدث لهما فى المدرسة .

هل تأثر أسلوبه التعليمى بكتاب چان چاك روسو : أيميل ؟ من المؤكد أن القس وتلميذه إلتزما ببعض مبادئ الفيلسوف . فأمضيا أكثر فترات الدرس فى الريف ، وربط المعلم على قدر الإمكان بين أقواله وحقائق الحياة وطاحونة جريقول ، والحشرات والنباتات وكذلك الآثار القديمة مثل الطريق الرومانى المؤدى إلى موقع «الأوكسيلوبونوم» * القريب والقصر العتيق المجاور للابلان ومبنى الضيافة الذى شيده سوللى ** (وزير مالية لويس الرابع عشر) فى المدينة الصغيرة .

كان إهتمام الولد الصغير مشدودا لمادتين تحمس لهما : النبات والنجوم التى سحرت لغتها لب التلميذ الصغير كما علمه إياها يوم كالمالز . إلا أن هذا الأخير لم يساير تعاليم الفيلسوف چان چاك روسو فى نقطة واحدة من مشروعه التعليمى وهو دراسة اللغات التى كان روسو لا يحبها ، ذلك لأن الولد كان قد أثبت نبوغه فى مجال اللغات القديمة مما دفع القس إلى تشجيعه خاصة أنه هو نفسه كان فيما يبدو يحسن التعليق على النصوص الدينية .

وهكذا تحصل چان فرنسوا خلال هذين العامين اللذين قضاهما بجوار دوم كالمالز (١٨٠٠ - ١٧٩٩) على مبادئ راسخة للاتينية والأغريقية وبعض من العبرية بالإضافة إلى التاريخ الطبيعى والفلك .

وحتى نحسن تقييم تطور هذه الدروس ونتائجها نعطى الكلمة للإثنين : المعلم والتلميذ وقبلهما لصاحب هذا المشروع التعليمى ومنسقه . فى التاسع والعشرين من شهر ترمينور عام ٧ (الموافق ١٧ أغسطس ١٨٠٠) كتب چاك - چوزيف شامبوليون خطابا لدوم كالمالز من مدينة جرونوبل حيث يقيم منذ مايقرب من عامين :

* فى كابديناك الأعلى

** أصبح اليوم « دار النقود » وقد تم ترميمه على أكمل وجه

« سيدى علمت بكل سرور أنكم تفضلتم بالموافقة على إعطاء دروسكم وعنايتكم لأخى الصغير . لو كنت أحبه أقل مما أشعر به نحوه أو لو كنت لأحبه قط لكان لايعيننى أن يكون أستاذة عالما ، طيب القلب ومتسامحاً أو أن يكون مدعياً ، فظاً وجافاً ، غير أن الحب الذى أكنه لأخى يجعلنى أمل فى أن يكون معلمه من النوع الأول . وما أنا أرى آمنياتى قد تحققت وأنى أهنى أخى لأنه عثر فى شخصكم على المعلم والصدق : ولاشك أننا سنراه - بعد أن يكون العمر قد شكل شخصيته - ينضم لى وللأسرة للتعبير عن إمتناننا لكم (...) أسمح لنفسى بأن أطلب منكم مذكرة صغيرة عن برنامج دراسته قدراته وتطوره .. » (16)

وجاءه رد المعلم :

« فيجاك ، فى ٨ نيفوز عام ٩* (٢٩ ديسمبر ١٨٠٠)

« إنى بكل تأكيد أقبل مساعدة أخيكم ويسعدنى أن أشعر بشئ من الفخر لأنى أشارك فى تشكيل مثل هذه الموهبة الجميلة لو لم يكن متقلبا لهذه الدرجة ؟ إلا أننى أمل أن أراه يحرز تقدما بخطى عملاقة فى مجال الأدب حيث أن فى أماكنه سلوك هذا اللرب بشئ من النجاح عندما يكون العمر قد أنضج الدروس المتواضعة التى أعطيها له . انه لم يتعد التاسعة بعد ويمكنكم أن تتصور بسهولة ما يمكن لطفل فى سنه أن يفعله عندما يكون إعتماده كاملا على حنان الأب والأم وعلى تسامح أستاذة (...) لقد كنت مرتبطا بكم بكل صدق ولما كان الود يحتاج لما يزيكه ولم يعد فى إمكانى أن أضيف لكم شيئا تحتاجونه فإنى أهنى نفسى إذ أتمكن من صنع شئ له . وبالمناسبة فإنى أرجو أن تدركوا أنى أحصل على مقابل لعنائى : فإنى أعتقد فى لعبتنا هذه سيكون رهانى عليه رابحا ، إنه متعلق بى جداً وذلك يزيد من رعايتى له .

« لقد بدأ يقدر أول مصاعب اللغة اللاتينية وهو ينجح من وقت لآخر فى ترجمة نص إلى هذه اللغة ترجمة مقبولة .. أما تراجمه من اللاتينية فقد قام بنقل نص واحد إلى الفرنسيه دفعنى إلى أن أطلب منه المزيد حيث أنه نجح فى التعبير الجيد عن المعنى اللاتينى .

* عدم تعود القس دم كارملز على التقويم الثورى جعله يؤرخ خطابه عام « ٨ »

أنه يتمتع بقدر كبير من التنوع وقدر كبير من حب الدراسة إلا أن هذا التنوع وهذا الميل ينوبان في نوع من اللامبالاة والاهمال يصعب وصفهما . ففي بعض الأيام تراه يريد معرفة كل شئ وفي أيام أخرى تراه لا يفعل شيئاً .

« لقد مررنا بمثل هذه الفترة السعيدة من العمر ، لم نكن نرغب خلالها أن يوبخنا أحد واليوم بعد أن قدرنا قيمة المعرفة نشعر بالغضب تجاه اساتذتنا لأنهم لم يسلكوا جميع الوسائل المتاحة لكي يمزجوا ما هو نافع بما هو مشوق حتى نتمكن من المضي في درب العلوم المتينة .

« كان يمكن لنا أن نصل إلى مرادنا لو كانت الكتب الإبتدائية متوافرة ولكنكم تعرفون أننا محرومون في هذا البلد من كافة الوسائل .. ولذلك فإننا نعتقد أننا سنصبح أكثر فائدة للبشرية لو تعرفتم في أوقات فراغكم على وسائل حديثه لدى معلمي مدينة جرونوبل وأفدتمونا بعد ذلك بوجهة نظركم .. لعنا نتمكن بنجاح من تنمية ذلك النوع من العبقرية التي نتلمسها لدى شباب هذا البلد ...

« القس : كالمز » (17)

بعد بضعة أيام يكتب جان فرنسوا لأخيه الأكبر خطاباً يستخدم فيه صيغة الجمع للمرة الوحيدة تعبيراً عن الإحترام ولعلها تكون قد أمليت عليه من يوم كالمز .

« فيچاك في ٢٠ يناير ١٨٠١ (بعد أيام من بلوغه العاشرة) أخى العزيز جدا . بعد طول إنتظار بلغت المنى بأن تسلمت خطابكم العزيز . وقد إزداد سروري بأن علمت أنكم في أتم صحة .. أما أنا فأحمد الله على أنى في صحة جيدة جداً وكذلك الحال بالنسبة للوالد والوالدة والأخواتنا العزيزات * وهن يرسلن لكم قبلاتهن الصادرة من أعماق قلوبهن . أشكركم على النصائح التي تفضلتم بها علينا وسأبذل كل جهدي كل يوم لأطبقتها . لقد طلبتم عينة مما نعرفه .. وإنى أرسلها طيه .

« أرجوكم أن تسامحوا عقلي الصغير لأنه متقلب بعض الشئ وأمل أن تقومه نصائحكم . أرجوكم أن تبلغوا كافة الأقارب الأعزاء بأسفى هذا وأن تقبلوهم بالنيابة عنى . السيد كالمات (كذا) كان ، في منتهى السعادة بخطابكم العزيز وهو يؤكد لكم

* من الغريب أن صفة « العزيز » لم تقرن سوى للأخوات .

اعتزازه بصداقتكم .. فى الختام ياأخى العزيز أقبلكم من أعماق قلبى (...) تأكدوا
إنى سأبقى مدى الحياة أخاكم المطيع .

شامبليون الأصغر .»

أرفق هذا الخطاب نص ترجمة إلى اللغة اللاتينية قام بتزويقها برسومات عديدة
والنص الفرنسى قدمه له يوم كالمز : وترجمته إلى العربية :

« إن الله يحبني عندما أعطى خبزي للفقراء . أنطوان (٩) سيحبني عندما أحفظ
دروسى جيدا الرجال الذين يمارسون الفنون يعملون لصالح العلوم (...) التلميذ
العاقل لا يغضب أحد قط . » (18)

ما يلفت النظر فى محاولات التعبير التى يقوم بها جان - فرنسوا فيما بين الثامنة
والعاشرة من عمره هو ضعفه فى الإملاء أكثر من عدم استواء الخط الذى راح يتحسن
من نص لآخر .

من المؤكد أننا نحتاج لكى نحكم على التلميذ حكما سليماً مقارنة أعماله بما كان
يقدمه معاصروه لدرسيهم فى هذه المجتمعات شبه البلدية . غير أننا لانسى أن والد
جان - فرنسوا كان صاحب مكتبة وأن الطفل كان يمضى ساعات طويلة فى متجر أبيه
وعلاوة على ذلك فقد تعلم القراءة وحده وهى تجربة كانت مفيدة جداً فى تكوين
شخصيته .

يتحتم علينا أن نسجل باختصار أنه بالرغم من كل هذه الإمكانيات فإن هذا الولد
كان ضعيفاً للغاية فى هذا المجال وهو فى العاشرة من عمره مما تسبب له كما رأينا
فى توبيخ أخيه له . ومع ذلك فإن هذا الطفل كان يمتلك مواهب خاصة جداً ستزدهر
فيما بعد ..

بعد أسابيع قليلة يوجه چاك - جوزيف - وقد إزداد موقفه من أخيه أبوة - هذه
السطور المعبرة بما فيها من نصائح عن مدى سلطة الأخ الكبير وعمق أحاسيسه تجاه
شقيقه الأصغر .

« جرونوبل ، ٩ بلوفيز ، عام ٩ (٢٩ فبراير ١٨٠١)

أريدك أن تفى بالوعد الذى قطعتة على نفسك فى خطابك الأخير بأن تتبع
النصائح التى قدمتها لك من موقع الصداقة التى أكنها لك وإذا كنت أشعر ببعض

الأسف فهو لأنى لا يمكننى إسداءها لك شخصيا ومشاركة والدى العزيز ووالدى
العزیزة* فى الإعتناء بك بالإضافة إلى عناية يوم كالمز المتسامحة .

« بما أنك إعترفت لى بأن تفكيرك متقلب لذا يتحتم عليك أن تمنحه بعضا من
الثقل . لا تنسى أبداً أن الوقت الذى يضيع لا يمكن إستعاضته . وأعتن بواجباتك .
تذكر أن أكثر ما يعيب التلميذ هو الكسل والإهمال (...) إذا كنت تريد أن تحضر
لتبقى بجانبى** فيجب أن تتعلم شيئا وبسرعة لأن الجهلة لا يصلحون لشيء . إذا أردت
أن أحصل من والدنا العزيز*** على موافقته لكى تبقى معى فيتحتم عليك من جانبك أن
تحصل على رضاه بقدر الإمكان عندئذ ستكون هنا معى فى مدينة كبيرة ولن تترك
صداقتى لك أى شيء تبتغيه دون أن تلبيه . وعلاوة على ذلك فإنك ستتعرف على جميع
أقربائك ومنهم أبناء عمومة فى مثل سنك يدرسان مثلك ويحققان تقدما فى كل يوم .
فإذا لم تكن على نفس مستواهما عندما تحضر إلى هنا فلن يكون فى ذلك ما يشرفك
(...) إن القراءة مفيدة للغاية وتساعد على تكوين الفكر والأحاسيس ، وأنت تتمتع
بهذه المقدرة فاستفد منها . من الأفضل أن تجتهد فى تحسين خطك والأهم أيضا أن
نتقدم فى الإملاء . إن القراءة ستساعدك كثيرا فى كل ذلك .

« أود أن تتواصل من اليوم مراسلاتنا وأن تقول لى كل ما يخصك ، امنحنى هذا
السرور إلى أن أتمكن من إحضارك إلى هنا وهو ما قد يحدث أقرب مما تتصور .
تقدمك وحده هو الذى سيحسم الأمر . قبلاتى ..» (19)

أرفق الأخ الأكبر بهذا الخطاب خطاباً مطولاً ليوم كالمز ننقل منه بعض
الأسطر على أن نعود إليه فيما بعد عندما نحاول التعرف عن قرب على شخصية جاك
جوزيف*** :

« جرونويل فى ٩ بلوفيز عام ٩ (٢٩ يناير ١٨٠١)

أكد لى خطابكم الموقر المؤرخ ٢٨ ديسمبر الفكرة التى كنت كونتها عن أخى
الصغير . إن طبيعته التى قدرت أنها متهيجة ومشاكسة جعلتني أتخوف من أن يتسبب

* حصل الأبوان هنا علي صفة « الاعزاء » .. مع ملاحظة أن الأخ الأكبر هو الذى يكتب

** فى جرونويل ، مما يوضح أن مشروع إنتقاله إليه كان يدرس منذ فترة .

*** انظر الفصل الثانى

فى قدر أكبر من الهموم للشخص الذى يوافق على أن يتولى تعليمه . إن رعايتكم له ستزيد أن أمكن ذلك من إمتنانى لكم . وأرجو أن يعوضكم الود الذى اكنه لشخصكم عن مجهودكم ولو بقدر قليل . أرجو أن تواصلوا رعايتكم له ... » (20)

لم يمض على ذلك التاريخ سوى شهر ونصف إلا وكانت «رعاية» يوم كالمز قد توقفت : فقد ركب جان - فرنسوا العربية المتجهة إلى مدينة «ليون» ثم المتجهة إلى مدينة جرونوبل وذلك فى نهاية مارس ١٨٠١ ليلحق بأخيه الأكبر فى الدوفينية واضعاً نفسه تحت وصايته . هل سافر هذا الولد الصغير البالغ من العمر عشر سنوات وثلاثة شهور وحده ؟ من غير المحتمل أن يكون أبوه قد رافقه فى رحلته ولم يتوافر مايدل على أن جاك - جوزيف قد إنتقل إلى ليون للقاء أخيه الصغير. لأن الذى إستقبله هناك هو أحد أصدقاء جاك جوزيف من رجال الدين إسمه مارتان .

فإذا صح أن الصغير «إميل» فيچاك قد قام بهذه الرحلة الطويلة وحده (وهى تساوى رحلة عبر الأطلنطى فى زمننا هذا) فلا بد أن نتخيل مدى ما شعر به من فخر وما أضفته عليه من ثقة بالنفس واعتزاز بها .

هل نجازف الآن ونرسم صورة شخصية لجان - فرنسوا وهو فى العاشرة من عمره بناء على المؤشرات المتوافرة لدينا وبناء على ما نعرفه عن أفعاله وتحركاته هو وأهله يوم أن ترك فيچاك للحاق بأخيه فى كبرى مدن الدوفينية التى هى مواطن الأسرة ؟

جان - فرنسوا ولد متوهج المزاج ، حاد فى تحركاته وتلقائى فى إندفاعه وسريع فى ردود أفعاله : لون بشرته بنى غامق ويصفه البعض بأنه مائل إلى اللون الزيتونى . عيناه لوزيتا الشكل غامقتان للغاية ، قرنيتهما صفراء تطلق شرارا تحت خصلات من شعر داكن السواد ، يتفق البعض على وصفه بأنه سريع الإنفعال بل عنيف : « صعيدى » دمه ساخن ، رأينا كيف أن أخاه قد وصفه بأنه « متهيج ومشاكس » .

وما دمنا قد ذكرنا «إميل» (كتاب جان چاك روسو) فإننا نستعير منه كلمة فريدة لجأ إليها روسو ليصف بها هذه النوعية من الأولاد إذ يقول « ولد ديسكول » أو ذلك « الذى يهشم الأثاث الذى يستخدمه ويكسر شبابيك غرفته » (21) ؟ يجب ألا نبالغ فى هذا الاتجاه لقد نعتوه يوما بأنه Cabochard وهى الصفة الدقيقة لمثل هذا النوع من المزاج المندفع السيكلوتيمى المتذبذب دون وسطية بين القمة والقاع ولا يرى مواد براسته سوى من خلال كرهه العميق والمناهض للرياضة الحسابية ولعه الإيجابى

بدراسة اللغات والسماء والنباتات ، إندفاع يليه تخلى وحماس ثم إرهاق . هذا هو جان فرنسوا وسيبقى دائما هكذا .

لن نتوقف طويلا عند هذه الجملة أو تلك إلى قالها كالمألوف مثل « الخطوات العملاقة التي يمكنه أن يقوم بها في مجال الأدب » .. لأن في ذلك بعضا من الكلام لأصحاب مهنة التدريس .. غير أننا نرى في لهجة الأستاذ أنه يكن لهذا التلميذ الفريد اهتماماً فائقا على الرغم من أنه « متقلب » « كسول » و« مهمل » ومثبط للهمم في بعض الأحيان .

نضيف إلى موهبة حبه للغات التي سجلها يوم كالمألوف لدى جان فرنسوا ميلا حاسماً للرسم منذ تلك الفترة من حياته ويجب ألا نهمل هذه النقطة . لأنه عمل على تطوير هذه الموهبة بكل الحماس الذي يضعه فيما يحب ولأن « شامبوليون الصغير » سيجعل من هذه الموهبة سلاحاً غاليا الثمن في دراسته للحروف التي هي في كثير من الأحوال تعبيراً أنيقاً عن الواقع (بالنسبة لتسمية « شامبوليون الصغير » فقد أطلق عليه هذا الاسم وهو في تلك السن بالمقارنة بأخيه الأكبر إلى أن إتفق الإثنان على استخدام اسم مستعار من اللغة العربية وهو « صغير » « Seghir » .) ومن كثرة المرات التي أعاد بها نسخ الحروف الهيروغليفية باعتناء كبير ودقة متزايدة نجح العالم المكتشف من التعود على هذه الرموز السرية ثم التقلب عليها وترويضها .

لنعد في الختام إلى المجال الأسرى حتى نتمكن من تقييم هذا الولد ذي الإمكانيات المتباينة القيمة والمزاج المتقلب والمندفع . فهل يمكن الحديث عن غياب الأب ؟ في خطابه المؤرخ ٢٩ يناير ١٨٠١ أشار إلى قرار يبدو أن « والدنا العزيز » قد إتخذه (دون أي إشارة إلى والدتهما) مما يجعل من الواجب تصحيح ما سبق قوله عن تقلب صاحب المكتبة في نوره التربوي : كان في إمكانه على الأقل استخدام حقه في الاعتراض .. وأقل ما يمكن قوله في هذا الصدد أنه استخدم هذا الحق تجاه ابنه بنفس القدر الشحيح الذي استخدمه لويس السادس عشر تجاه نواب الأمة . يجب أن ندخل في تقييمنا لعدم إنتظام هذا الولد « الديسكول » ضعف السلطة الأبوية الملاحظ عند جاك شامبوليون وربما أيضا العناية الزائدة عن الحد التي أولتها أخواته له لتعويضه عن غياب الأم (ربما بسبب مرض أو إعاقة ما ؟)

سيهرب جان فرنسوا وهو في العاشرة وثلاثة شهور من هذه التربية العرجاء التي كانت تتفاقم ليلتحق في جرونويل بالذي سيصبح بالنسبة لقلبه - بمثابة الأب ثم أيضا بعد ذلك بقليل بالنسبة لعقله أيضا .

٢ - أخ ، أم أستاذ ، أم أب ؟

ثيو وفنسنت ؟ من بلزاك إلى ستندال - إبن القرن - إنتهازية - ترشيح للمشاركة فى حملة نابوليون ؟ محب للكتب لدرجة مرضية - من جاربيل إلى ميلان - زيجة مناسبة - سحر الشرق .

لم يذهب الغلام جان - فرنسوا شامبوليون فى نهاية مارس ١٨٠١ لاكتشاف أو غزو مدينة ، إنما ذهب إلى لقاء رجل هو أخوه الأكبر . بالتأكيد كانت جرونويل فى نظره المدينة الكبيرة المهيبة فهى عاصمة الإقليم الذى تنتمى له عائلته . غير أن ما كان يهمله بالفعل هو جاك - جوزيف ووجوده وكذلك نصائحه وحمايته - كدنا نكتب أبوته .

لهذا السبب يجب التأكيد الآن مع بداية هذه الحياة المنطلقة - على الدور الذى لا يقبل أى مقارنة والذى أداه الأخ الأكبر ، وهو الدور الذى سيصعب تمييزه عن دور الأخ الأصغر على المستوى العلمى والذى يستحيل عدم إحلاله محل دور الأب على المستوى المعنوى فهل يستوجب هذا أن نقدم للقارئ سيرة ذاتية مزودة تعيد تشكيل الفريق المكون من التوأمن شامبوليون ؟ لقد فضلنا أن نبرز ما يستحيل إختزاله فى العبقرية وما يميزها عن التطبيق وحسن الصنعة وسعة المعرفة والموهبة ؛ هذه التفرقة التى أحسن جان كوكتو التعبير عنها حين قال « الموهبة تفعل ما تريد أما العبقرية فهى تفعل ما يمكنها » .

بعد هذا الاستطراد فإنه لا يسعنا إلقاء مايكفى من ضوء على ما شارك به طول بال المثقف فى تكوين المكتشف وإن تم ذلك أحيانا بالحاح قاس . لقد أثرت أحيانا المقارنة بين علاقة الأخوين شامبوليون وتلك العلاقة التى قامت فى نهاية القرن بين ثيو وفنسنت فان جوخ . سنعاود الحديث عن هذه المقارنة ولكن نبار ونقول أن ثيو الذى كان الأخ الأصغر - لم يشارك قط بيده فى وضع الألوان التى نبتعت فيها « زهور عباد الشمس » التى رسمها فنسنت ، كما فعل جاك - جوزيف عندما اضطر على سبيل المثال جان فرنسوا أن يحيط المجتمع العلمى الممثل فى شخص مسيو داسييه باكتشافه الذى تم فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ .

سنخطئ في تقييم ما قام به المكتشف إذا نحن أغفلنا وقوف هذا الأخ الأكبر الذي لا يكل إلى جانبه أو أمامه يناديه ويشجعه ويساعده بماله وبمشورته وبمعارفه (بكل ما تشير إليه الكلمة من معان) . لقد كان بالنسبة له الحارس ومرشد الدرب ، مزيل الصعاب وحامل الزاد منسق المستندات والمراجع ، هو المعبر الذي أوصله لهدفه نظير أخيه الذي حضر مولد عبقريته قبل أن يدافع عن فتوحاته وأن يحافظ على ذكره بصفته « أبيه وأستاذه وتلميذه » في آن واحد .

من هنا تأتي الأهمية التي سنوليها لهذه الشخصية التي تبدو كما لو أنها قفزت مباشرة من رواية من روايات عصره . إن طموحه المحموم ودمائة طباعه الاجتماعية وصعوده الدعوب في المجتمع وفي مجال العلوم تعيد إلى الذاكرة ما حدث لأبطال روايتي « رجل عظيم قادم إلى باريس من الريف » أو « مباحج ومزلات الغواني » هو لوستو - أو فينو أوجيرو في حين تذكرنا النزوات العبقرية للأخ الأصغر ومطالبه وتقلباته المزاجية ولهيبه غير المحكوم وبراعته في أن يصنع لنفسه الأعداء - بأبطال روايات يستندال مثل جوليان أو لوسيان سنكتفى بهذا القدر من المقارنة .. غير أننا سنعود قريباً إلى يستندال في معرض حديثنا عن هذا أو ذاك - عندما نستكشف جرونوبل في مطلع القرن التاسع عشر ...

إذا كان من الصعب - كما رأينا - استكشاف السنوات الأولى من حياة جان فرنسوا شامبوليون : - « الشقى » الصغير المقيم في حارة لابود وسكيرى - فمن السهل جدا أن نكون لانفسنا فكرة عن طفولة وفترة مراهقة أخيه الأكبر . فقد عكف - غداة بلوغه الحادية والعشرين - على كتابة الفصل الأول من سيرته الذاتية التي لم تكتمل * مع عمليات التجميل التي غالبا ما تصاحب مثل هذا العمل (حتى عندما يقوم به مؤلف مثل جان جاك روسو) فإننا نتعرف بكل وضوح على الحقيقة البينة : حقيقة الثورة ثم الامبراطورية النابليونية وبشائر الرومانسية : زمن بدا كما لو أن إعلان حقوق الإنسان قد يسمح بفتح الطريق أمام الجميع نحو الثقافة .

تحت عنوان « السنوات العشرون الأولى من حياتي » كتب جاك - جوزيف شامبوليون في ٢٧ برومار عام ٨ (١٧ نوفمبر ١٧٩٩) في جرونوبل قبل أن ينضم إليه أخوه الصغير بأربعة شهور ، هذا المشروع « لاعترافاته » :

* اكتشفها وذكرها للمرة الأولى (جزئيا) ش - أو كاريونال (المرجع المذكور سابقا) في حين أن إيميه شامبوليون فيجاك - ابن المؤلف ذاته - لم يذكرها قط .

« ولدت بعد ظهر يوم ٦ أويه ٧ أكتوبر ١٧٧٨* . ولدتى أمى نون مساعدة أى طبيب بمفردها تقريبا ضالة جسمى وضعف تكوينى قللا كثيرا من البهجة التى جلبها مولدى لوالدى فقد كنت أول ذكر يولد لهما وكان مظهرى لاينبئ بأن سلالتهم ستكون كبيرة .

« وضعت لبن أمى . طفولتى كانت بالنسبة لوالدى سلسلة من المخاوف والأزمات ... وأدين ببقائى لاستمرارية العناية الدوبة التى حظيت بها (...) لقد إستمرت المخاوف ذاتها وتكررت نفس الأزمات ولكن قابلتها نفس العناية المثابرة التى لم تتوقف مدعمة بمودة لم تضعف ، غمرتى ...

« عملية تعليمى بدأت وأنا مازلت صغيرا ، فما أن بدأت أتفوه ببعض الكلمات إلا وكنت قد وضعت فى رعاية سيدة عجوز ورعة - كاتينو - التى أصبحت مربيتى أكثر من كونها معلمتى . فقد مزجت بين رعايتها الأمومية لى وبين دورس القراءة الأولية ؛ وهى التى علمتنى كيف أميز بين الحروف . ويمكننى أن أقول أن والدى قد تركانى لفترات طويلة عندها فلم يكن ذلك للتعليم على يديها بقدر ماكان ليعلنانى أتمتع بالرقعة والعناية التى حبت الطبيعة بها هذا الجنس ... »

يستحيل هنا أن نمنع انفسنا من أن نتسائل عن طبيعة هذه الزوجين جاك وجان - فرنسواز شامبوليون . فهما قد رزقا بإبن ذكر بعد الذى توفى بعد مولده قبل خمس سنوات وبعد بنتين كانا قد بلغا الرابعة والثانية من عمرهما .

ليس من الصعب أن نصدق جاك جوزيف عندما يقول أن « ودأصادقاً » جعلهما « لايتواينيان » عن الاعتناء بهذا « الوريث الذكر » ، لكن لماذا عهد به إلى سيدة غريبة فور أن تمكن من « النطق ببعض الكلمات » حتى لو كانت هذه السيدة « قديسة » ضمن القديسات . خاصة وأن الله حباه بأى وأختين أكبر منه وفى الإمكان أن يتمتع داخل أسرته بالرقعة والعناية التى حبت بها الطبيعة الجنس اللطيف ؟ قد يكون السبب فى أن العرف فى ذلك الوقت يقضى بوضع الطفل فى رعاية مربية . ومع ذلك فالملاحظ هو تعدد الأمور الغريبة داخل هذه الأسرة والتى ستزداد مع جان - فرنسوا ؛ يبدو مؤكداً أن الأم لم تكن فى حالة تسمح لها بتولى مسئولية إبن ذكر .

« بقيت فى كنف المربية كاتينو حتى سن السابعة** عندئذ طلبت أن أذهب إلى

* راجع ش - أو كاربونال سجل كنيسة نتردام نوبوى فى فيجاك ويؤكد أن جاك - جوزيف قد تم تعميده فى ٦ أكتوبر ١٧٧٨ وكان قد ولد فى اليوم السابق (راجع المؤلف المذكور ص ١٢) .

** ست سنوات كاملة قضاها بعيداً عن بيت الأسرة فى شارع لابويسكيرى .

المدرسة ،الحقنى والذى لدى القس المسئول وهو الذى علمنى القراءة وجعلنى أحفظ عن ظهر قلب بعض صفحات الكتاب الأولى وأراد أن يعلمنى الكتابة أيضا . وعندما بلغت التاسعة أراد لى أبى أن أتعلم اللغة اللاتينية غير أنه لم يكن لديه أى معرفة بهذه اللغة . ومع ذلك فقد حاول فى أحد الأيام أن يترجم عنها نصا ولما جعلنى أقرأ له فى كتاب المزامير ذلك المزمور الذى يبدأ باللغة اللاتينية بهذا المطلع : Portis Horode impie : ترجمها إلى الفرنسية « بوابو رودس ساروا مترجلين ».

« وعليه فقد قرر والدى بناء على نصيحة صديقه بوجيه* أن يطلب من السيد - نور سيسى أن يتولى رعايتى (..) بدأ تعليمى الحقيقى عند السيد وسيسى وكان ذلك بأن عمل على تخليصى من العادات السيئة واللهجة المتكلفة التى نقلتها عن معلمى السابق (...) كان مسيو دوسي فى الخمسين تقريبا (...) وكان رجلا متعلما بحق وفى إمكانه تعليم الآخرين (...) وكما هو معتاد فقد كان يحابى بعض تلاميذه وكنت ضمن هؤلاء . كان يخصنى برعاية متميزة خاصة عندما إكتشف أن لدى إستعدادات طبيعة للتحصيل (...) كان تقدمى فى الدراسة سريعا فلحقت بعد فترة وجيزة بصديقى بوج (...) ولم نفترق عن بعضنا لمدة طويلة (...) وإستمر مسيو نوسيسى فى رعايتنا (..) رابطا سمعته بتقدمنا حتى أصبح الموضوع بالنسبة له مسأله كرامة شخصية (...)

« عندما إندلعت الثورة كنا على هذا الحال (...) المشاكل التى لا حقت مسيو نوسيسى (...) حرمتنا من تعاليمه .

أغلق مدرسته (..) فلم يبق أمامنا سوى الإلتحاق بالمدرسة (...) فى الوقت ذاته تلقيت بعض الدروس من أستاذ الرقص الملحق بالكتيبة المربطة فى فيجاك ... »

فى ١٧٩١ عندما بلغ جاك - جوزيف الثالثة عشرة قبل فى الفصل الخامس ، بعد عشرة أشهر من مولد جان - فرنسوا ، ولم تسجل ذاكرته هذا الحدث فلم يذكره** . غير أن المدرسة اضطرت إلى غلق أبوابها بسبب « المضايقات الثورية » وكان حينذاك فى المرحلة الثانوية وقد حصل على قدر جيد من المعارف فى اللغتين اللاتينية واليونانية . وأراد أن يتعلم البلاغة . فلجأ أبوه إلى يوم كالمز للمرة الأولى ، فوافق على تحمل

* نجل السيد / بوجية سيظل قريب الصلة بالأخوين شامبوايون وسيسدى لهم خدمات جلية كما سنرى فيما بعد -

** كان يحرر مذكراته عام ١٧٩٩

المسئولية عن طيب خاطر مؤكداً على أنه لا يقوم بذلك سوى بصفتة صديقاً « ولكن سرعان ما يجب إيقاف هذه الدروس لأن ممثلى الثورة المتجولين جعلوا من « رجال الدين أشخاصاً محتقرين ومشكوك فيهم ، وكانت شخصيتهم فى ذاتها محرجة فى نظر رسل القانون هؤلاء » .

بعد أن حرم من المعلمين أخذ جاك جوزيف يلتهم الكتب قرأ هوميروس وفيرجيل وسيسيرون وبلوتارك .. إلا أن أباه قرر أن الوقت قد حان لكى يجعل من نفسه شخصاً نافعا فوجد له وظيفة فى إدارة « الدائرة » فى ديوان « المراسلات العامة » وذلك فى شهر « فلوريال » عام ٢ - ولم يكن قد تعدى السادسة عشرة ومع ذلك فسرعان ما اناطوا به تسجيل القوانين وإعطاء تأشيرات الجوازات بل وأكثر من ذلك كلفوه بمهمة منح شهادات « المواطنه الحسنة » !!

كانت فترة « الإرهاب » حركة باريسه فى الأساس - إلا أنها تسببت فى إثارة المشاعر والعقول فى مقاطعة جييان العليا ... ولذلك فإن من المرجح أن جاك شامبوليون كان يتمتع حينذاك بقدر من النفوذ ، حتى لو لم يثبت أنه كان قائداً للشرطة .

يقول جاك جوزيف عن وظيفته الجديدة: صابفت هذه المأمورية هواى لأنها إتفقت مع ميلى الطبيعى لحب الاستطلاع .. ففى تلك الفترة تواصل ورود سيل من المطبوعات نتيجة للقوانين الثورية فكان كل شئ يمر من بين يدي ومن كل شئ كنت أحصل على نسخة : البريد والتقارير والخطب والمحاضر والقوانين والقرارات ... من هنا شرعت فى تكوين مجموعة القوانين والتقارير .. وكان مفتاح سجلات المحفوظات (الارشيف) تحت تصرفى .. »

هذا لايغنى أن نأخذ هذا الشاب العليم ببواطن الأمور على أنه من مجموعة « اللامتسرولين » المتطرفين المتعصبين (Sans - Culottes) :

« ثم جاء يوم ٩ تيرمينور * (٢٧ يوليو ١٧٩٤) . ونتج عنه تجديد الإدارة بالكامل تلى ذلك شطب العاملين الذين لم يسيروا فى الخط السياسى لهذا اليوم وكانت أرائى السياسية لا تضعنى فى زمريهم * . اجتاحت موجه من اليأس عدداً كبيراً من الموظفين (...) فلم يبق تقريباً سوى أعضاء السكرتارية والذين تكفلوا بكل شئ طوال

* ٩ تيرمينور فى ذلك اليوم .

** ذلك يعنى أنه « ترمينورى » أى غير ثورى .

مدة الشهرين التي تلت إحتضار مكاتب المنطقة الإدارية (...) فكان من نصيبى تحمل مسئولية المراسلات وتحرير القرارات الإدارية (...) واعتمد رئيس السكرتارية على مجهوداتى فى تصريف شئونى (...) فى مقابل ذلك (يضيف جاك - جوزيف ببساطة شديدة) حصلت على تقدير الجميع وعلى صداقة المعلم الكبير (؟) .

نحن - إذن - بصدد شاب حاذق عرف كيف يعبر دون خسائر فيما بين عامى ١٧٩٤ و ١٧٩٥ - عواصف « تيرمينور » وإقامة النظام الجديد محافظا على وضعه الأمن لأن طبيعته كما كان يعبر عنها معتدلة أصلا ، وكان من الممكن أن نجد فى هذه السطور تلخيصا لحياته المديدة (فقد توفى وهو فى التسعين من العمر) لولا أنه أثبت فيما بعد أن مرونته كانت تتسلح أحيانا بشجاعة صادقة :

عندما لاحظ جاك شامبوليون (الأب) أن « عواصف الثورة » هدأت وعادت التجارة إلى نشاطها ، أراد أن يدخل إبنه عالم الأعمال وكان قد بلغ التاسعة عشرة ، وكان له أولاد عمومة يقطنون مدينة ليون ومدينة جرونوبل .. فحاول أن يبعث لهم «سكرتير بلدية المقاطعة » ليقم لديهم ، على الرغم من أنه كان قد أخذ على عاتقه كما سبق ورأينا - تربية جان فرنسوا الذى كان يقترب من الثامنة .

اصطحب تاجر الكتب إبنه الأكبر إلى بوكير ، ومنها إلى ليون الا أنه وجد أن هذه المدينة الكبيرة الواقعة على نهر الرون قد خربتها أحداث العنف الثورية ولم يعد فيها شئ يصلح لجاك - جوزيف وكان عليه أن ينتظر العام التالى وفى سوق بوكير - وبالتحديد يوم ٢٩ يوليو ١٧٩٨ وافق أولاد العمومة المقيمون فى جرونوبل على طلب جاك شامبوليون بأن يصطحبوا معهم جاك جوزيف ليعمل تحت التمرين لدى « شاتيل ، شامبوليون وريف » .

بدا هنا أن خطته فى الحياة كمتقف قد توقفت فجأة .. ومع ذلك لانجد أثرا لاي تمرد فى تقييمه النهائى لما يحدث بل نجد قبولا مع بعض الأسى للقضاء والقدر (كما حدث « لرنيه » بطل رواية شاتوبريان) ولا نجد تلك الطاقة التى راحت تحرك أبطال الروايات المعاصرة له - كما ستحركه هو نفسه بعد تلك الفترة بقليل إذا أنه سيتسلح بتلك الحالة الذهنية المقدمة : « هل أنا قد بلغت السن الذى يتحتم على المرء فيها أن ينظر إلى المستقبل نظرة واضحة ، ، ومع ذلك فليس لدى مشروع ولا طموح وأترك نفسى أهم دون هدف (...) فى استسلام كامل ودون أى أمل فى سعادة ولا خوف

من بلية . أنتظر أن يقترح على أحد قرارا حاسماً أتخذه أو يعرض على مشروعاً أنفذه .
وإذا فرض على أن أبلور هدفى فى كلمات لقلت أنى أشعر بميل جارف للأعمال
العظيمة تلك التى تخرج عن المعتاد وإنى مستعد أن أشارك فى رحلة إلى بلاد بعيدة .

وإذا كنت قد ندمت على شئ فهو أنى لم أنضم للحملة على مصر . كما أقول أنى
إذا خيرت بين كافة المهن لأخترت فى الغالب الحياة العسكرية . وفى كلمة نهائية أقول
أن أقل شئ يكفى لاسعادى لو أمكننى أصلاً أن أكون سعيداً !!

« جرونوبل ، فى ٢٧ برومار عام ٨ (١٧ نوفمبر ١٧٩٩) (١)

الجملة التى تشد الإنتباه فيما سبق هى بالطبع التى تتعلق « بالاسف لعدم
مشاركته فى الحملة على مصر » . ونلاحظ أنه كتب « الجيش » ولم يتطرق إلى الحملة
العلمية .. وهذا شئ طبيعى بما أنه كان يميل إلى الإنخراط فى الحياة العسكرية ،
سبق لنا أن أشرنا إلى ذلك الحلم المصرى .

فى جميع الأحوال فإن بونابارت لم يكشف عن الهدف الحقيقى من الحملة سوى
بعد أن رحلت ووصلت إلى مالطة واحتلتها ثم أن الذى أثار اهتمام جاك - شامبوليون
هى المغامرة العسكرية التى كانت قد بدأت قبل سنه ونصف السنة من تاريخ كتابة هذه
السيرة الذاتية التى نحن بصدددها .. ولم تكن مصر فى حد ذاتها هى التى أثارت
إهتمامه . والبرهان على ذلك ضمن عدة براهين أخرى ، هذا الخطاب الذى أرسله
النقيب أندريه شامبوليون إلى أخ له وهو على متن السفينة « لوجنيرو » فى ٢٢ فلوريار
عام ٢ « لازلنا لا نعرف إلى أين المسار . قال لنا الجنرال بونابارت أن لدى عودتنا من
هذه الحملة العظيمة الأهمية فإن كل جندى سيحصل على ما يسمح له بشراء ستة
أربان على الأقل (حوالى ثمانية فداين أو ثلاثة هكتارات) أعتقد أن هذه الرحلة
ستطول بعض الشئ ، خاصة إذا كنا سنذهب إلى حيث يقولون ... » (٢)

لايوجد ما يثبت أن جاك - جوزيف قد كتب لابن عمه النقيب أو أننا على الأقل
لنعرف فحوى ولاتاريخ الخطاب إن وجد ولكن يمكن أن نقرأ ما يمكن إعتباره نوعاً من
الرد ذلك الخطاب الذى أرسله بعد ذلك بفترة زمنية طويلة الجنرال داريكو إلى جاك -
جوزيف شامبوليون يبلغه فيه أخبار ابن عمه أندريه :

« ٢٩ بلوڤيوز عام ١٠ (١٨ فبراير ١٨٠٢)

من أوجيستان داريكو قائد اللواء ٣٢

إلى المواطن شامبوليون ... النقيب شامبوليون الذى تسألوننى عنه (...) قد رحل على إحدى القطع البحريه وهو فى حالة صحية جيدة* .

كل ذلك يظهر بالتأكيد قدراً من الإهتمام لدى جاك جوزيف لهذه العملية التى شارك فيها قريب من أقرباءه ... وهى جديرة بأحلام شاب يريد « المشاركه فى رحلة بعيدة » ويود إرتداء الزي العسكرى . لكن كل ذلك بعيد تماماً عما يذكره أغلب كتاب السير عن « الأمل العميق » الذى كان يختلج فى نفس جاك - جوزيف فى أن يشارك فى الحملة على مصر وعن « رجع الصدى المدوى » الذى كان لهذا الأمل فى « نفس صغيرنا » حتى أن أحد هؤلاء الكتاب قد رأى من واجبه أن يؤكد أن « عندما رفضت حكومه الديركتوار هذا الطلب كانت خيبة الأمل لدى الأخ الأكبر مريرة ولكنها كانت على درجة هائلة من العنف على نفس الصبى جعلت الجميع يتجنبون مجرد ذكر اسم هذا البلد على مسمع منه » (3)

لم يحدث قط أن تقدم الأخ الأكبر بطلب إلى حكومة الديركتوار ، فهى كانت تحافظ على سرية هدف الحملة (لأن انكشاف هذا السر كان سيجعل نابليون يقع فى شرك نلسون) ولم يحدث أى رفض ولا رد فعل عنيف داخل نفس جان - فرنسوا الذى كان فى السابعة .

ولكن يمكن أن نتصور أن أندريه شامبوليون ، النقيب الذى كان ضمن القوات التى أبحرت إلى مصر الذى كان على علم باهتمام قريبه بهذا البلد - قد عمل على أن ترسل أعداد من صحيفة لو كورييه دو ليجييت Le Courrier de l'Egypte إلى مكتبة فيجاك ومنها على وجه الخصوص عدد ٢ فروكتيدور عام ٧ الذى أعلن فيه عن اكتشاف حجر رشيد** .. كما يمكن أن نتصور أن جاك شامبوليون عمل على أن تصل جميع الأعداد إلى جاك - جوزيف الذى كان قد إستقر فى جرنوبل .

ش . أو كاربونال - مؤرخ سيرة جاك - جوزيف - وجد ضمن أوراق هذا الشاب مذكرات أخذها عن مصر فى إحدى هذه المنكرات التى نقلها عن كتاب أطلس تاريخى يذكر أن الرجال ال ٣٦٠.٠٠٠ الذين يعملون لمدة عشرين سنة فى بناء الأهرام استهلكوا بما يوازى ٣٦٦.٠٠٠ إكو*** من الثوم والفجل والبصل (4) ، وذلك يوضح

* هذا المركب كان يحمل العلم اليونانى

** راجع ص ٤٠, ٣٩

*** من عملة الامبراطورية الاولى .

أن إهتمام الابن الأكبر بمصر كان أقرب للناحية التجارية منه للناحية الثقافية .. ولذا
لزم التنويه ...

كل ذلك كون حزمة من الإهتمامات وأساساً معرفياً ، ومولد حب ولكنه لا يزال
بعيدا جداً عن الولوج الهائل الذى تملك وجدان أخيه نحو أرض الفراعنة التى كانت
لاتزال حتى عام ١٨٠٢ أسطورة من الأساطير .

فى مقال علمى⁽⁵⁾ خصصه جان باكيه للأخوين شامبوليون فى جرونوبل أكد أن
چاك - جوزيف عندما وصل إلى هذه المدينة خلال صيف ١٧٩٨ كان قد «أصبح شاباً
خبيراً باللغات القديمة ويعلم اللغويات وبالتاريخ» . لعلنا نعبر عن بعض التحفظات :
فهو كان يبحث عن طريقه عبر اللغة اللاتينية ، أما فيما يتعلق باليونانية فإن تردده فى
الموافقة على أن يقوم بتدريسها بعد ذلك بعشر سنوات يثبت أنه لم يكن واثقاً من
إملاكه لخاصيتها . من الأفضل أن نقول إذن أن هذا القادم حديثاً إلى جرونوبل كان
محباً لدراسة اللغات والعلاقات التى تربطها ببعض وتاريخها .

أولى سنوات إقامة جاك - جوزيف فى منطقة الإيزار كشفت شخصية ذات ثلاثة
أبعاد : الموظف المجد فى مؤسسة شاتيل شامبوليون وريف* ؛ وشخصية المحب للكتب
المولع بالبحث عنها والمجازف فى إقتنائها ؛ وشخصية الجامعى تحت التمرين الذى
تردد فى مسيرته فى الجامعة من المكتبة إلى كرسى الاستاذية ومن الرسالة إلى
الأكاديمية صاعداً بركة وراء أخرى من السلم التعليمى حتى أصبح من الشخصيات
المرموقة فى مجال التعليم والبحث العلمى .

ويصعب من جهة أخرى التمييز بين هذه المجالات الثلاثة من نشاطه ، لأن محب
الكتب كان يستخدم عمله كتاجر فى شراء وتبادل الكتب فى سفرياته ، كما أن مكتشف
الكتب القديمة كان يجد فى نشاطه هذا مدخلاً إلى الأوساط العلمية . وباختصار
ففى خلال خمس أو ست سنوات أصبح الموظف الذى عينه أولاد عمومته تحت التمرين
فى مؤسستهم فى صيف ١٧٩٨ أصبح إحدى الشخصيات الفاعلة فى مجتمع
«الكوميديا الإنسانية» الجرينوبلوازيه ، تستقبله «أحسن العائلات» وأغرقها إلى أن
تصاهر مع إحداها وأخذ يشق طريقه نحو التفوق الجامعى .

* نشاطها يشبه مانسميه الآن التصدير والاستيراد .

لم تتوفر سوى مؤشرات قليلة جدا عن نشاط الإبن الأكبر لصاحب مكتبة فيجاك فى مؤسسة « السادة شاتل (الابن الأكبر) وشامبوليون وريف » .

وكانت من الشركات المتواضعة المتخصصة أصلا فى تجارة المنسوجات إلا أنها كانت على اتصال مع مرسيليا وميناء لوهافر وجزيرة المارتينيك (6) وقد توصلنا إلى بعض أثار لسفريات قام بها الموظف الصغير إلى باريس وروان* وليون والهافر وأفينيون . الشئ الواضح تماما هو أنه حصل على رضا مستخدميه وأنه نجح فى عقد صفقات رابحة وأن دخله تحسن منذ عام ١٨٠٠ ، وعلاوة على كل ذلك فقد كان مقتصدا وقريبا من ماله .

إلا أن حياته كانت تنور فى المقام الأول حول الكتب وهى التى قادتته خطوة تلو الأخرى إلى الثقافة والعلم . فهل يعود ذلك إلى تراث عائلى ؟ المؤكد أن جاك - جوزيف كان مولعا بالكتب ، كرس لها حياته كلها إلا أنه لم يمر بتجارب « حامل الخرج » القاسية غير أن الواقع هو أنه تعامل فى تجارتها كما فعل والده وأن حمى إستكشافها وشراها التى ملكته منذ أن بلغ سن العشرين تزامنت مع أكتسابه براعة فذة فى إستغلالها ماديا .

عندما كتب فى تلك الحقبة من حياته : أنه يتحصل « بعناية كبيرة - وفى أحيان كثيرة بتكاليف عالية - على مؤلفات هؤلاء الكتاب الذين فتحوا أمامنا الطريق ... (...) هوميروس وسترايون وسوفوكليس (...) الذين « لانمل سماعهم يتكلمون » .. فإننا نشعر أنه فى قوله هذا كان بالتأكيد صادقا . تعطشه إلى المعرفة واكبه شراهة كبيرة لكل ماهو مطبوع والكتب النادرة: إبن صاحب مكتبة فيجاك كان مريضا بحب الكتاب .

هذا الولع المتقد تولد عنده تلقائيا .. إلا أنه تضاعف عندما تعرف عام ١٨٠٣ على شخص اسمه ياسانت جارييل كان على نفس القدر من الوله ... غير أن هذا الأخير كان يتاجر أصلا فى الكتب .. قدمه له أحدهم قائلا « أقدم لك إبن العم شامبوليون تاجر متعلم وشغوف بالأدب الجميلة .. » (7) ومنذ ذلك الحين بدأت رحلة صيد مشتركة استخدم ناتجها أحيانا كعملة للتبادل .

فى مرة استلم من صديقه صندوقا يحتوى على كتب متباينة فكتب خطابا يقول له فيه « كمبدأ عام فإن كل ماهو غير مفهوم يعتبر ملاما لى ومن ذلك العبرى والسيريانى

* حيث إصطحب معه أخاه جان فرنسوا فى إحدى السفريات إليها .

والسانسكريتى والتاتارى والصينى والفارسى وعلى وجه الخصوص اللغات القديمة ..
إنها طريقة تفكير تمهد لأعمال كبيرة آتية ! ثم يستطرد « إبن العم » شامبوليون موجهها
خطابه لحاربييل :

« أمنى نفسى بسعادة جمّة مع الصندوق العبرى - السيريانى - الكالديانى -
اليونانى - الاسبانى - الجزمانى - الانجليزى - الشعرى - اللاهوتى - الفلسفى -
النقدى - الويستان * الجاربيلانى (...) هل توجد وسيلة لإضافة شامبوليونى ؟ (...)
ماهى التضحيات التى ستفرضونها ؟ وماهى الكلمات ؟ والأفعال ؟ » (8)

إنها لهجة صائد النصوص الذى يعانى من ولع شره مضافا إليها نغمة هزلية
ومؤثرة تعكسها « كل ما هو غير مفهوم » : سرعان ما سيصاب جان - فرنسوا بنفس
الحمى التى ستتضاعف فى حالته هو بفعل عبقريته المستبدة .

اضطر أكل الكتب متعددة الاشكال واللغات هذا إلى اللجوء إلى آلاف الوسائل
التي أتاحتها له براعته التجارية لتجميع ثروته هذه لأن مرتبه لم يكن بالطبع متناسبا
أبدا مع هذه النفقات غير أنه لم يكتف بوضع براعته فى خدمة ولعه النبيل هذا بل أخذ
يستخدم براعته فى جمع الكتب وثقافته التى استمدها منها ليدفع بنفسه داخل
الأوساط المثقفة بمدينة جرونوبل ببدء مرحلة صعود متسارعة طوال خمسة عشر عاما
بين الأوساط التعليمية والأدبية والبرجوازية المتنورة لعاصمة مقاطعة اللوفنيه .

أضف إلى ذلك أن الكتاب لم يكن حبه الوحيد : إذ أن علم اللغات وعلم النميات
(دراسة وجمع القطع النقدية والميداليات والأوراق المالية .. إلخ) والتاريخ القديم بشكل
عام كانت تستهوى هذا العقل الباحث فى كل الاتجاهات : سنراه ينجذب نحو كل ماهو
أثار قديمة ، فضوليا لا يكل ومطارداً ملهم لم يكتف بأن يسلك الطريق الصاعد متسلقا
نحو مختلف الطبقات العليا للمجتمع الجرونوبلوازي بل عمل أيضا على أن يقيم علاقة
أساسية لمستقبله ثم بعد ذلك لمستقبل أخيه مع أويان - لويس ميلان ، أمين متحف
الأثار بالمكتبة الوطنية ، ومؤسس مجلة : المخزن الأنسيكلوبيدى « أفضل لورية ثقافية
تتشر فى ذلك الوقت فى فرنسا » **

* نسبة إلى البائع السويسرى للصندوق الخرافى : ويستانين

** علماً بأنهما لم تكن تطبع سوى ٤٥٠ نسخة فقط

ويتجراً جاك - جوزيف هذا القروي المجهول ويوجه رسالة إلى الشخصية التي كانت تعد حينذاك قمة علوم الآثار في فرنسا ثم يقيم معها علاقات مراسلية تحولت إلى صداقة فعلت الكثير للمستقبل المهني متعدد الاتجاهات للأخوين . سنعود فيما بعد للحديث عن « مسيو ميلان » عند الحديث عن جان - فرنسوا شامبوليون ... الذي أصبح بعد أخيه تلميذه ثم صديقه وفي جميع الأحوال كان مدينا له بالكثير . ولكن لنسجل هنا قبل أي إستطراد أن هذه الشخصية المثقفة كانت للثنائي الفيجاكي بمثابة المعلم بالمعارف وبأساليب الحياة المتسندة . كما أن اختيار جاك جوزيف منذ البداية لهذا الأراعى لهما يعتبر « ضربة معلم » بحق .

إلا أن نشاطه المتعدد في كافة الاتجاهات لم يصرفه عن هدفه الأصلي ألا وهو التدريس إذ أن ميل جاك - جوزيف إلى كل ما هو نادر وما هو موحى بالغرابة وما هو « غير مفهوم » جعل تفكيره إيجابياً وجعله يهتم إهتماماً بالغاً بأن يصبح من الشخصيات المرموقة فعمل على تجهيز ولعه بالتنقيب والبحث وإحتياجه لانبئات ذاته بالآليات اللازمة لتجسيد ذلك . سنراه يصبح أمين مكتبة المدينة وهي وظيفة ملائمة جداً مرحلياً إلى أن يصل إلى الوظيفة النبيلة التي يتحرق شوقاً لها وهي التدريس مع كل مايوفره له هذا العمل من سلطان . ومن المفيد في هذا الصدد أن نقرأ نصاً يكشف فيه بصدق واضح أفكاره الحاكمة والتي يستفيد منها ويتحمل اثارها في بعض الاحيان أخوه وتلميذه جان - فرنسوا هذا النص جاء في سياق خطاب أرساه إلى العزيز دوم كالمبلز كاتم أسراراه المفضل ومن خلاله نكتشف أنه مربى في طور التكوين (9) .

« إن بلدتنا * تعتبر للأسف ضمن البلدان التي لا يعطى فيها التعليم قدره الحقيقي .. فيها تظل المواهب نبتاً لا يراعى كما أن الوسائل اللازمة لدعمها تبقى نون إستخدام إن هي وجدت أصلاً .. علماً بأن الطبيعة لم ترض على سكانها بنصيبهم من الذكاء والأسباب الموجودة على الدوام تمنع تفتحها . يترتب على ذلك عدم جدوى جهود الذين يطمعون مثلك في تزويد الفنون بالمعارف والعلوم بمحبيها والمجتمع بمواطنيين أكفاء . إلى كل ذلك يرجع السبب وراء هذا النوع من البلاء التي يرتع فيها مايسمى بالشعب الطيب ... وهذا هو في نهاية الأمر السبب في الأفضلية الممنوحة لطبقة متميزة ... وأعني بذلك طبقة الأغنياء ... »

* فيجاك

« إن حكومة الجمهورية الفرنسية ومشرعينا أرادوا محاكاة الأقدمين على أساس أنهم كانوا المتفوقين وهم في ذلك على حق ، إلا أن مدارسنا الابتدائية لا توازي بأي حال « جيمنازات » روما ولا مدارسنا العليا أكاديمية أثينا . لأنهم عندما خططوا لهذا المشروع لم يراعوا الأوضاع في فرنسا (..) فالتعليم هنا * مهمل .. لأن القلة فقط هي التي تعطيه مقداره ولأن المبدأ العام غير وارد كما أن الغرور والمصالح الشخصية تتبنى لنفسها مبادئ خاصة . وعليه فإن الغرور المتوطن في قلوب سكان المدن الكبيرة لا يرى أهمية لوجود مدرسة إبتدائية مركزية .

« يترتب على ذلك أن المدرسين الخصوصيين يوظفون في المنازل فلا يخضعون لأي تفتيش .. والنتيجة هي إنشاء نوع من التعليم تتراوح نسب الخطأ والعلل فيه أن التخبط متفشى (...) الأثر السيئ للمصالح الخاصة يتنامى بسبب صلته الوثيقة بالتجارة . إن عدد التجار كبير ويجد الطفل البالغ من العمر ست سنوات نفسه موجهاً من أبيه إلى هدف ما وهذا الهدف يصبح الأساس فيما يتلقاه من تعليم . .. وأترك لكم تقدير ما يترتب على ذلك عندما يواجه ميل ما لدى الصبي الصف بإرغامه على المضى في اتجاه محدد**.

« ملحوظة (...) المدارس الخاصة تكتفى فيما يخص اللغات القديمة باللغة اللاتينية لأن كثيرين يعتبرونها على علاقة باللغة الفرنسية ولا يوجد مدرس للغة اليونانية القديمة . ولا مدرس للغة الانجليزية .. يوجد بعض مدرسين للإيطالية . مدرس ألماني واحد ولا أحد للإسبانية وهكذا يبقى أكثر الحقول خصوبة نون فلاحه .»

نجد فيما سبق فكراً واضحاً وحرراً وإن لم يأتى بجديد ، متوجه بإصرار ناحية التربية أو على الأقل ناحية نقل المعارف ، كما نلاحظ إهتمامه باللغات سواء الحية منها أو القديمة ، وبالإبقاء على الثقافة الكلاسيكية القديمة وبقينه الراسخ في أسبقية النشاط الذهني على النشاط النفعي – كما نسجل أيضاً إهتمامه بالمساواة وعداءه المعلن لامتيازات « الأغنياء » ، نحن هنا بصدد مجموعة من المعتقدات والميول التي تجعل من جاك – جوزيف رائداً من رواد التعليم العظام في نهاية القرن من جول فرى إلى أرنست لافيس .

لو أردنا تخطي التسلسل التاريخي للأحداث سنجد أننا لن نتمكن من تحديد مكانة ابن تاجر كتب فيجاك داخل المجتمع الجرينويلوازي حيث سيصعد بأخيه أولى

* يقصد مدينة جرونويل

** هل يستشف من ذلك أن جاك جوزيف كان يشير إلى ما حدث له شخصياً عندما وجهه أبوه إلى

هذه التجارة ؟

بسلام المجد نون أن تشير إلى بعض المراحل الأساسية التي عرفها صعوده هو داخل هذا المجتمع .

أولى هذه المراحل تعود إلى الحظ وتتمثل في تعيين جوزيف فورييه قائداً لشرطة جرونوبل عام ١٨٠٢ وهذا الذي سيكون له دور حاكم في تاريخ أول شامبليون : فقد كان فورييه عالم طبيعة مشهور وكان سكرتير عام معهد مصر L'Institut d'Egypte وكان نابليون قد إصطحبه معه إلى ضفاف النيل ثم عينه محافظاً لمقاطعة إيزار وبعد ذلك طلب منه كتابه مقدمة كتاب « وصف مصر ».

وعندما أقام جاك - جوزيف علاقة صداقة وطيدة مع هذا العلامة ورجل السلطة - كما فعل مع ميلان - فإنه قد فتح بذلك أبواب مصر أمام أخيه *

بعد شهور قليلة (ديسمبر ١٨٠٣) دخل جاك - جوزيف شامبليون عضواً في جمعية الفنون والعلوم « لمدينة جرونوبل التي حلت محل « أكاديمية بوفينييه » الشهيرة (التي قررت الثورة إنشائها قبل ذلك بعشرة أعوام) .. أن يقبل هذا الموظف الصغير في مجال التجارة نو الاعوام الخمسة والعشرين والذي لم يحصل على أى درجة جامعية أو أدبية - والذي لم يكن قد أقام في المدينة إلا خمس سنوات فقط عضواً في هذا المجتمع العلمي إلى جوار الشخصيات المرموقة في المدينة - يعطينا فكرة عن دينامية هذا الشاب وعن السمعة الطيبة التي اكتسبها . مما يعد بمثابة وعد بنجاحات تالية ! .

إلا أن زواجه من زويه بيريا في الأول من يوليو ١٨٠٧ هو على الأرجح الذي أمن مستقبل أكبر البناء شامبليون بصورة لافتة . ولا يرجع ذلك إلى أن آل بيريا كانوا من الأثرياء الكبار ، فلم تتعد بوطه زوية اثني عشر جنيهاً ترنوازيا وهو مبلغ لم يكن ليدير رؤوس شباب العصر الطموحين . غير أن هذه العائلة كانت من العائلات المحترمة . ضمن البورجوازية المرموقة والمتأصلة باقتدار . كان بيير بيريا - حمو جاك - جوزيف رئيس مجلس إدارة نقابة محامى المدينة. كما كان بيريا - سان برى من رجال القانون المشهورين ، فعوضاً عن « الثروة » فضل صديقنا - كما قال في خطاب جارييل أن يتبع « ميوله » العاطفية (فقد تزوجا بعد ستة شهور فقط من لقاءهما الأول !!) استقر نون بریق كبير إستقراراً متعلقاً ، إلا أنه كان إجتماعياً ومثقفاً على مستوى راق . **

* انظر الفصل التالي

** قد يستشف من قراءة خطاب أرسله له أخوه الأصغر لتهنئته على قراره أن جاك - جوزيف كان في بادئ الأمر ينوى الزواج بأخرى زواج متفعة .

نقرأ فى الكتاب الذى أفرد له س - أو كاريونال نصاً من حوليات مقاطعة الإيزار. فى صفحة ١٠ يوليو ١٨٠٧ يشير إلى « حفل زواج » أنشئت خلاله بعض الاشعار من تأليف « شامبوليون الكبير وشامبوليون الأصغر » وتلى ذلك نص من شعر العريس تذكر منه هنا البيتين الآخرين فهما يوضحان فى إيجاز شخصية جاك - جوزيف فى ذلك الوقت . إذ أن البساطة هنا تبين أننا لسنا بصدد شخصية خبيثة :

« يا زويه تأكدى من رقة مشاعرى

ومن ميلى الشديد للعصور القديمة » (١٥)

لقد أردنا أن نرسم فقط الخطوط العريضة لشخصية أكبر الأخوين شامبوليون . أما مراحل حياته الأخرى فسيجئ سردها مع مختلف مراحل سيرة أخيه ! ولن يمكن بعد ذلك التفريق بينهما .

فقد كان من الواجب أن نبادر بتحديد شخصية هذا العضو الأساسى فى قصتنا الدرامية تحديداً واضحاً .. فهو إن لم يكن بطلها الأول فهو على الأقل مخرجها . ولذلك قمنا بوضع بعض العلامات على الطريق وأشحننا بعيداً عن بعض الأساطير التى روج لها من كانوا يسلطون عليه الاضواء (ومن هؤلاء بطبيعة الحال ابنه إيميه* وكان كتابه المصدر المطبوع الأول الذى لجأ إليه المؤرخون) ومن جهة أخرى من كانوا على النقيض من ذلك يدفعون به إلى الظل حتى يبرزوا عظمة أخيه الأصغر .

هكذا كان جاك - جوزيف شامبوليون مراسل ميلان وصديق فورييه الوفى والعضو المنتخب لجماعة الفنون والعلوم ثم بعد ذلك زوج ابن بيير بيريا يخدم طموحه بطريقة منظمة ويثقف نفسه على أيدي جميع من يتيح له ذلك . ثم أخذ يعد فى جرونوبل المأوى الذى سيقم فيه ويتربع الإبن « المتمرد » الذى فتح له سكان جارة لابوبوسكورى والقس كالمز باب القفص ليفر طائراً من فيجاك .

قد نشارك كاتب سيرة الابن الأكبر لصاحب مكتبة فيجاك ش . أو كاريونال فى الإستهزاء بون قسوة من حسه الزائد عن الحد لكل ما له علاقة بمستقبله المهنى . إلا أن هذه التحركات والبراعة فيها وهذه الخطوات الإلتفافية تذكرنا بالشباب الطموح الذى رسمت شخصياته وشخصيات من هم أصغر منهم مختلف أجزاء « الكوميديا الانسانية » لبلزاك .

* شامبوليون وشامبوليون Les deux Champollion جرونوبل ، ١٨٦٧

خطابات چاك - جوزيف شامبوليون فيچاك إلى أخيه الأصغر تتناثر فيها أمثال تشبه تلك التي يضعها بلزاك على لسان الأب هيريرا وهو يعطى دروسه إلى لوسيان فى رواية « الأوهام الضائعة » Les illusions Perdues فهو يكتب له فى أحد خطابات « يجب أن تعرف بنفسك فى باريس لكن تنجح خارج باريس .. وأن تكتسب تعاطف بعض الشخصيات الهامة حتى يمكنك أن تتحصن برعايتهم عند اللزوم ... قمة المهارة لبلوغ النجاح فى المجتمع هى فى أن تقوم بعمل الشئ المناسب فى الوقت المناسب ... » (من خطابين مؤرخين فى ٤ يناير و ٨ فبراير ١٨٠٨) .

يجب أن نوضح أولاً أن هذا السلوك يعكس التقاليد التى كانت سائدة فى ذلك الوقت وهو يتناقض مع ذلك الذى تلاه وشاع بين الشعراء « الملعونين » من جيرار دى نرغال إلى لوتر يامون الذين جعلوا من الفشل فى المجتمع المرادف - بل الشرط الواجب - لإزدهار القريحة الخلاقة ... ونوضح ثانياً أنه لولا هذه المناورات - التى هى بمثابة عمليات إرساء الأساس لتضاعفت الصعوبة التى واجهها الأخ الأصغر على طريق النصر .

كان من الواجب فتح الطريق أمام التخمينات الوضاعة التى لاحت له فى العشرينات من القرن ... وتوفير شروط الإنصات له وعقد التحالفات أمام الهجوم المضاد الذى يثيره تلقائياً كل عبقرى خلاق . كان يحتاج إلى مبشر بأعماله وإلى وصى عليه وإلى مدافع عنه مثلما كان بوالو بالنسبة لراسين ... ولذلك فإن قيام چاك - جوزيف بعمل أشياء لم يرض أو لم يعرف كيف يقوم بها أخوه الأصغر هى أفعال تحسب له : لا أن تثير السخرية منه .

توجد بعض نقاط تطلب الإيضاح ... لقد قيل أن الابن الأكبر لصاحب مكتبة فيچاك قد اختار لنفسه لقباً مركباً أضاف فيه إلى اسم عائلته اسم المدينة التى ولد فيها : فيچاك - وأنه فعل ذلك حتى يترك لأخيه الأصغر شرف التمتع وحده باسم العائلة لأنه كان يعرف مسبقاً أنه سيصل إلى المجد . وراح البعض يمتدح هذا المثل الرائع فى التضحية الأخوية .

مثلما يحدث دائماً عند التصدى لقصة هذين الأخوين فإنه لايمكن أن ننحى جانباً مثل هذا التفسير النبيل للوقائع . غير أنه من الواجب أن تأخذ أيضاً فى الاعتبار بعض التقاليد التى انتشرت بعد الثورة وصعود بورجوازيه جديدة تتطلع بدورها إلى التميز ، ولما كانت لفظة دو « de » التى كانت تسبق أسماء العائلات النبيلة أيام ما قبل الثورة (لتنسب هذه الأسر إلى مكان إقطاعياتها) أصبحت ملعونة بعد الثورة فقد لجأت هذه

البورجوازية إلى وسيلة تميز أخرى مكثفية بها مرحلياً بإضافة أسماء مدن وقرى صغيرة إلى اسم الأسرة مباشرة (مثل روايه - كولار ولودرو - رولان) واستمر الحال لفترة إلى أن عادت « de » تبزغ من جديد مثلما حدث مع أونوريه « دو » بلزك وچيرار « دو » نرقال .

في مدينة جرونوبل أصبحت هذه الطريقة في التميز شائعة ، فقد بدأتها الأسرة التي ناسبها چاك - جوزيف فيما بعد : بيريا فقد أضاف إليها عميدها چاك إسم « سان پرى » فأصبحت عائلة : « بيريا - سان پرى » فزاد الإسم رونقاً !! . ويقول - سن - أو كاربونال : « هذا الاءاء في إضفاء النبل على أسماء العائلات أصبح شائعاً في تلك الحقبة الزمنية » إلا أنه يسجل أيضاً أن چان فرنسوا « رفض بإصرار » أن يلجأ إلى هذه الحيلة السائدة ولم يتبع أهله هذا المنهج⁽¹¹⁾ . إذا شاب هذا الت سير شئ من السلبية فهو لاينم عن اختلاف في المواقف بقدر مايعكس إختلافاً في الشخصية وفي « مشاريع » كل من الشقيقين .

إن هذا التباين في إطار التكامل الذي نحن بصدد تقدير درجة قوته بين الشخصيتين يجب إرجاعه أيضاً إلى الفارق في السن الذي يفصلهما والذي يكاد يضع كل منهما في جيل آخر إذ يصل إلى اثني عشر عاماً . ويكاد يكون هو فارق السن بين أحد الفراعنة وأبنة البكر !! من هنا إكتسب چان - فرنسوا عادة إضافة صفة الأخ الأصغر « كاديه » (Cadet) إلى إسم عائلته عند التوقيع وقد تحولت هذه الصفة عام ١٨٠٥ إلى كلمة « صغير » باللغة العربية Séghir ، وذلك عندما إنغمس تماماً في دراسة لغات الشرق .. وسرعان ماتعدى إستخدام هذا اللفظ في التوقيع على الخطابات المتبادلة بين الأخين ليصبح الأسم الذي يناديه به أعضاء الأسرة والأصدقاء أيضاً .

بعد فترة من الزمن لجأ صاحب الاكتشاف إلى توقيع مختلف إذ كان يضيف حرفي ل. چ. أو لوچون « le jeune » أو « ل. ا. » (أى الأصغر أيضاً أو الأقل سناً) حتى يذكر بأن هناك شامبوليون آخر له مكانة في مجال علم الآثار وأن المجد الذي أدركه يجب ألا يظل ما يستحقه الآخر . إن هذا النوع من العلاقات بين الأشقاء يجب أن يضرب به المثل .

النزعة الاستشراقية التي جعلت چان - فرنسوا يختار لفظ « صغير » « séghir » حتى قبل أن يستعرب لدى زيارته لوادي النيل عامي ١٨٢٨ و ١٨٢٩ أخذت أشكالاً

مختلفة ومتعددة . فنرى « صغير » يقتنع أخاه الأكبر بأن يسمى ابنه البكر « على » فى وقت لم يكن هذا الاسم شائعاً فى الغرب . وعندما رزق هو نفسه بابنته الوحيدة فقد أسماها « زورايد » (تحوير واضح لزهرى) .. وهكذا نرى أن الجو العام السائد لديه كان ما يسمى فى ذلك الوقت « استتراك » (من كلمة تركيا (Turquerie)) وهو جو موزار وليس موليير - وهوثير جو الشرق الأسطورى الغامض والذى دخله الشقيقان حاملين سراجهما .

الصورة التى قد يخرج منها المرء من تجميع بعض ملامح چاك - جوزيف شامبولىون - فيچاك مثل التكالب الوظيفى وهواية جمع الكتب النادرة وحب عقد الصفقات وبعض الأحقاد والزهو كل ذلك قد يوحى بأننا بصدد شخصية غير محبوبة ومثقف متعالى وئيم ومرتشى غير أن الحقيقة هى أن لاشئ فيما عرف عن علاقاته بمعظم معاصريين يسمح بتأييد مثل هذا التصور .

لم يكن چاك - جوزيف بارعاً فقط فى تصرفاته بل كان يتمتع أيضاً « بقبول ساحر » . الصور التى رسمت له إلى أن تقدم فى السن وعلى الخصوص فى سنوات الربع الأول من القرن تظهر أنيقة وبشاشة وطيبة وذكاء متقد وهى جميعاً صفات ساعدته فى تحقيق نجاحاته الاجتماعية والفكرية . إن ما قام به فى حياته من زواج ناجح « قبل أن يبلغ الثلاثين بوريثة إحدى أكبر العائلات تأثيراً فى مدينة جرونوبل ، ومن إقامة العديد من الصداقات التى دامت على الرغم من حساسيته المفرطة وطموحه المتأجج وعلى الرغم كذلك من مزاج أخيه الأصغر المشاكس وكذلك اقتناعهما المشترك بأنهما فى جميع الأحوال وفى جميع الأوقات على حق دون الآخرين جميعاً . كل ذلك يشير إلى أن الرجل كان ينزع دائماً إلى أن ينال الإعجاب وكان يناله .

لو أن چاك - جوزيف شامبولىون قد وضع كل ماسمحت له مقدرته على الإغواء وطاقته على الإغراء وإصراره على التقدم والالتفاف والترقى والتملك لخدمة مجده الشخصى لكنا نحفظنا على شخصية هذا الانتهازى أو المتسلق . لكن الواقع أن هذا النشاط الاجتماعى كان فى أغلب الأحيان يوظف لخدمة الرجل النابغة الذى اكتشفه مبكراً فى شخص أخيه مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن فى ذلك ما يرفع عنه ذنوبه بل ويشرفه .

إنه ترابط وتوأمة تذكر بما رسمه بلزك فيما بعد من شخصيات فى رواياته عن أخوين مرتبطين مثل دافيد سيشار ولوسيان دور رويامبويه فى « الأوهام المفقودة »

وأيضاً مثل الراوى وبطل « لويس لامبار » وكان أصدقاءهما يطلقون عليهما كناية مشتركة هي : « الشاعر وفيثاغورس » .

إننا لاندعى هنا أننا نخلط بين جان - فرانسوا شامبوليون وشخصية لويس لامبار « وهو النابغة الكامل والذي صمغته نوبة « وجد مُشل » حتى لو كان مكتشفنا لمفاتيح اليهروغليفية قد عرف ولو لفترة قصيرة نوبة شبيهة لحظة توصله لاكتشافه فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ . ومع ذلك فإننا نذكر فيما بعد بعض الآراء التى عبر عنها بطل رواية بلزك إلى صديقه الذى هو بمثابة « چاك - جوزيف » بالنسبة له :

« من ذا الذى سيشرح فلسفياً إنتقال الإحساس إلى الفكر والفكر إلى الكلمة والكلمة إلى تعبيرها الهيروغليفي والحروف اليهروغليفية إلى الأبجدية والأبجدية إلى الفصاحة المكتوبة ، جمالها ينبع من سلسلة الصور التى يرتبها المتحدث والتى هى بمثابة هيروغليفيات الفكر . ؟؟ ألم يحدد الرسم فى العصور القديمة الأفكار البشرية على هيئة أشكال حيوانية وحدد بذلك العلامات الأولى التى استخدمها الشرق للتعبير بالكتابة ؟! » (12) .

كتب هذا النص عام ١٨٣٢ وهى السنة التى توفى فيها مكتشف أسرار اليهروغليفية بعد اكتشافه بعشر سنوات . وهو يبدو وكأنه لحديث متبادل بين نجلى صاحب مكتبه فيچاك . وصل إلى سمع هذا المنتصر الآخر الذى كان يعمل - هو - على حل الألغاز الاجتماعية السائدة فى عصره ؟

إن من حقنا أن نعبر عن خيبة أملنا فى الكتاب الذى كتبه إيميه شامبوليون - فيچاك عن أبيه وعمه بعد فترة وجيزة من موت أبيه چاك - جوزيف « Les Deux Champollion » وهو الوفى الورع لذكرى أبيه . غير أنه يتعين أن نستخلص من هذه القائمة غير المرتبة لبعض المستندات والروايات عنوانها الفرعى على الأقل : « حياتهما وأعمالهما » إذ إنه على الرغم من سطحية الكتاب فالمفرد المتسم به البعد السيرى يلقى تأييدنا - فى مقابل صيغة الجمع المتصلة بأعمالهما فقد كانت متباينة جداً بالنسبة للرجلين .

الحياتان كانتا معقودتين مثل العمود بعقد المعبد تحمل الأولى الأخرى لتتسامى بها وتدفع بهذا الحمل اللوح نحو القمم والنور .

بدون چاك - جوزيف لكان من المرجح أن يبقى الأخ الأصغر باحثاً مغموراً ثم
« يموت من الغضب » ومن كبت عبقريته مثل ليون بلوا ... وبدون جان - فرنسوا فإن
الأخ الأكبر كان مهدداً بأن تسير حياته العملية دون إرتكاب خطأ واحد في الأكاديميات
الفرعية في مختلف المدن ويل وفي باريس أيضاً ، يلبي دعوات على العشاء هنا وهناك
ويسرى عن الحضور بثقافته في صالونات سيدات المجتمع . إن تحالف الشقيقين سمح
لهما باجتياز العواصف وبلوغ القمم .

٣ - جرونوبل و « مكان إقامة قاتل »

هنرى برولار وسوء الهضم - « جروايبر » - چاك - جوزيف المعلم - مدرسة
الليسيه والطبله - عالم شقيقات فى الخامسة عشرة من عمره - « چوهانيس
و « الوحوش » - الضجة الكبرى - « المصريون يسكنون قلبى ا » - جوزيف فورييه -
مراهق يحاضر فى أكاديمية الدوفينييه ...

عندما نزل جان - فرنسوا شامبوايون وهو فى العاشرة من عمره من عربة السفر
القادمة من ليون على رصيف إيزار فى السابع (أو الثامن) والعشرين من
مارس ١٨٠١ كان هنرى بال « ستندال » قد فر من المدينة منذ خمسة عشر شهرا
وكان قد ولد بها قبل ثمانية عشر عاماً وندد بها بطريقة مسرحية فى كتابه « قصة حياة
هنرى برولار » : « كل ماهو منحط أو متسطح فى البوراجوازية يذكرنى بجرونوبل وكل
مايذكرنى بجرونوبل يثير اشمئزاضى ... كلا إن كلمة إشمئزاز تعتبر أنبل مما أشعر به :
غثيانى هى الأصح . إن جرونوبل بالنسبة لى هى مثل ذكرى سوء هضم رهيب ... كل
ماهو منحط ومتسطح [...] هذه هى جرونوبل بالنسبة لى (1) ... » .

لعنة سيخفف من حدتها كلام مختلف جدا عندما يتحدث ستندال عن الفترة التى
تحرر فيها فى شبابه من الإستبداد المثلث الذى سيطر عليه عندما كان يقيم فى شارع
« فيو - جيزويت » . إستبداد والده وعمته ستيفانى وأستاذة القس ريان .

هذه الجرونوبل التى عرفها جان - فرنسوا شامبوايون فى بداية القرن عند هبوطه
فيها لانتظر إليها نحن بعين الصبى بايل (ستاندال) أسير « الآباء اليسوعيين »
ولكن بعين المراهق المغلوب على أمره أمام أسلوب تعليم وحياة تلميذ يشبهان تلك الحياة
التي عاشها صبى فيچاك الصغير .

نسجل هنا دهشتنا الكبيرة التى يشاركنا فيها كل من عرف نزعة التضامن التى
يتسم بها مكان مقاطعة دوفينييه - والتى ستتكر أسبابها عبر قصتنا هذه : نسجل أن
مؤلف كتاب « برولار » (ستندال) لم يقابل قط مكتشف لغز الهيروغليفية ، أو أنه لم
يذكره أبداً ضمن أسماء المئات من مواطنيه الذين ذكرهم بقلمه * . وبعد عشرين عاماً

* تحققنا من ذلك مع أستاذ الدراسات الستندالية فيكتور دبل ليتو .

من الاكتشاف الذى تشرف به أحد مواطنيه لم يذكر ستانداى ولو بكلمة واحدة إسم شامبوليون وهو الذى نال من شاتوبريان العديد من صور الثناء . وعلى الرغم من أنه جعل من كراهية جرنوبل دستوراً له فهو لم يخف إعترازه بسكان الدوفينييه لما أسماه « مزاجهم الخاص » الذى هو « نوع من الإحساس بالذات تتسم بالحيوية والإصرار ورجاحة التفكير ... مثابرة وعمق وذكاء وحس رفيع ... » .

لو أن طريق جان - فرنسوا شامبوليون قد ألتقى وطريق ستانداى فإن هذا الأخير كان سيختار بين تصنيف الشاب القادم من فيجاك بين مواليد « مثلث الموت - بوردو - بايون - فالانس : الذى يؤمن سكانه بالسحر ولا يحسن أحد منهم القراءة وحديثهم ليس فرنسياً (2) » أو أن يضعه فى مصاف الذين يتسمون « بالعمق » و « الحس الرفيع » فى مقاطعة دوفينييه ، إننا لنراهن على أن كاتبنا الذكى كان سيطرحه ضمن هذه المجموعة الأخيرة كما يجب ألا ننسى أن الروائى (أى ستانداى) كان كان يصغر چاك - جوزيف بخمس سنوات ويكبر جان - فرنسوا بسبع . إن ذكرياته عن المدينة التى تلامس فيها شبابهم ودراساتهم وحبهم الأول كانت دائماً متفاوتة فالنسبة لتجارب وأعمال الأخوين كان متقدماً عن الأول ومتأخراً عن الآخر .

فى تلك الأيام المحمومة تقلبت المواقف وتباينت الشخصيات والقيم وعلاقات القوى من شهر لآخر . خلال الأشهر القليلة التى غاب فيها ستانداى عن جرنوبل واستقر فيها شامبوليون الصغير . كان بوناىبارت قد عاد من مصر ووضع نهاية للثورة كما أقام حكم القناصل ومهد لحكم الوفاق (Concordat) وأكد هيمنته على القارة فى مارنجو . إن كلا من هذه السنوات كانت تأتى بتغييرات أكثر مما تأتى به عقود عادية بأكملها .

فلنعد إلى مطالعة رواية « هنرى برولار » لنتعرف ونستشق الأجواء التى كانت تسود مدينة جرونوبل عندما شق الأخوان شامبوليون طريقهما فيها نحو المجد فيما عدا بعض الفترات القصيرة التى تغيبا فيها عنها) . نفس الأشخاص عبروا حياة الثلاثة لسبب أو لآخر : من الطبيب هنرى جانيون جد ستانداى والطيب الذى كان وراء تنمية التعليم فى المدينة ورعاية متحفها إلى شارل رينودون عمدة جرونوبل من ١٨٠٠ إلى ١٨١٥ والذى كان زميلاً لشيروبان بايل ووالد أحد أقرب أصدقاء جان - فرنسوا ... ومن القس جاتال الذى قام بتدريس قواعد اللغة للروائى والمستشرق على التوالى أمام الأب دوكرى الراهب المشلوح الذى عين أميناً لمكتبة المدينة والذى كان يعتبره ستانداى من « العباقرة » .

ومن خلفه دويوا - فونتانتال الذى شغل فى نفس الوقت منصب عميد الجامعة الوليدة وأستاذ التاريخ بها وهو الذى فتح الطريق أمام الشقيقتين ، إلى أستاذ الرسم جاي الذى كان لا يعرف سوى « تهميس تلاميذه » حسبما قال ستاندال . وفى كلمة نقول أنه فى كنف مجتمع جرونوبلوازي مترابط ومتناغم ترعرع كل من الروائى (على عجل) وبصعوبة بالنسبة لعالم الآثار أى ستاندال وشامبوليون .

فى معرض سردنا سنقرأ إحدى رسائل جان فرنسوا يطلب فيها من أخيه أن يوصى الطبيب جانيون لكى يداوى عينيه العليلتين . كما سنراه تلميذا قادمًا من فيچاك « يثير » المشاكل لأساتذة سلفه بايل مثل المدرس لأكروا ... كما أننا سنلتقى برينودون - الأب والإبن - فى قلب الصراعات السياسية التى عاشها الرجال الثلاثة . لقد جاءوا من أوساط إجتماعية متباينة وكان مستواهم المادى شديد الاختلاف إلا أنهم كانوا متفقين دون أن يلتقوا - فى كرههم « للآباء اليسوعيين » وفى نفورهم من المتطرفين .

على العموم فإن جرونوبل التى هرب منها ستاندال عام ١٧٩٩ والتى وصلها الصبى القادم من مقاطعة كارسى سعيداً بأنه حظ فى « أثينا مقاطعة الدوفينييه » . كانت مدينة مزدهرة ومشهورة عبرت مرحلة الثورة باقتدار ودون مشاكل كبيرة علمًا بأنها كانت إحدى بؤر هذه الثورة .

فى العشرين من مايو ١٧٨٨ عقد البرلمان الريفى إجتماعاً فيها على الرغم من قرار ملكى بمنع انعقاده .. وبعد ذلك بإسبوعين قام الشعب بإلقاء الحجارة على قوات الشرطة لإعادة ممثليه إلى اجتماعهم وكان هذا هو « يوم القرميد » « journée des tuiles » .. ثم بعد ذلك بأسبوع واحد طالب مائة من الشخصيات العامة المجتمعين فى دار العمديه باختيار ممثلى الدوفينييه عن طريق الانتخابات الحرة . وفى قصر فيزيل القريب من المدينة إنتزع أعيان مقاطعة الدوفينييه فى ٢١ يوليو ١٧٨٨ من لويس السادس عشر ومن وزيره بريان قرارا باستدعاء اجتماع البرلمان الفرنسى بطبقاته الثلاثة .

هذه المواقف الثورية النبيلة سمحت لجرونوبل ألا تسقط خلال الأعوام الخمسة التالية فى الأعمال المتطرفة . ولم يزل ستاندال يؤكد أن « مرحلة الإرهاب » مرت هادئة على المدينة حتى أنها لم تطل أباه « اليسوعى » ... ويضيف أن الكياسة فيها تغلبت على أفعال باريس « المجنونة » .. وعلى الرغم من سلوكها العاقل فإن المدينة التى ولد فيها بايل (ستاندال) اتخذت لنفسها سلوكا يميل إلى الأحمر (لون الكفاح) أكثر من الأسود (لون رجال الكنيسة) أى أنها أثرت الحرية على مديح طبقة النبلاء وبقيت على

هذا السلوك لفترة طويلة حتى أن لويس الثامن عشر الذى لم ينس قط « يوم القراميد » ولا المؤمرات التى أدت إلى إعادة الملكية لم يكن يسميها سوى « جروايبر » (استبدل المقطع الثانى من الاسم وهونويل أى نبيل - ليبر أى « حر ») (المترجم) .

هل كان سلوك هذه المدينة يرجع إلى « مزاج أهل مقاطعة دوفينييه الذى يتسم بالإصرار والتفكير » ؟ أم أن أهلها أرادوا أن يخفوا نزعتهم إلى الاستقلال عن باريس المجنونة وليون المناهضة للثورة ؟ . أم هو توازن البرجوازية المزدهرة والمتشوقة للوصول إلى السلطة ولكنها قريبة فى الوقت ذاته أكثر مما ينبغى من طبقة النبلاء ورجال الدين حتى تتمكن من الاعتداء عليهما ؟ أم هو تواصل التبادل الذى حافظ عليه نسيج تعاونى وثقافى يلفظ الإرهاب والرجعية معا ؟

الواقع هو أن جرونويل كانت خارجة لتوها من المرحلة الثورية عندما هرب منها ستانداى ودخلها شامبوايون . وكانت قامتها قد إرتفعت بسبب ما أقدمت عليه من أعمال جسورة وبسبب تعقلها فى الوقت ذاته وكانت فخورة بأنها تحدثت الملك قبل أن تتحداه باريس ذاتها دون أن تلقى بأهل العهد السابق فى مياه الإيزار ولا أن تقيم المجازر لرجال الكنيسة فى الجبل .. فقد كانت المدينة الفرنسية التى يمكنها أن تقدم أكثر من كشف حساب مشرف بعد عشر سنوات من القلاقل : لم يكن هناك أى مدينة أكثر إستعدادا منها لاستقبال الطفل المتفرد ذى الحذاء القذر الهابط من عربة البريد ومعه چاك - چوزيف شامبوايون الذى كان قد سافر إلى ليون للقاءه هناك .

ما الذى كان يدور فى رأس الابن الأكبر لصاحب المكتبة عندما قرر إحضار أخاه الأصغر ليعيش معه فى جرونويل ؟ واضعا إياه تحت سلطته المباشرة ؟ منتزعا إياه من المحيط العائلى الآمن ؟ وليضعه بعد ذلك فى يد أكثر خبرة من أيد دوم كالمالز الممتازة ؟ الشئ المؤكد أنه رأى أن الوسط التعليمى كان أفضل فى جرونويل منه فى فيچاك وأنه عندما إكتشف بعض مواهب أخيه المتميزة قرر أن يعطيه كل فرص النجاح .

سبق أن تحدثنا عن التجهيزات الثقافية ... كانت موجودة بالفعل ولكنها كانت مشلولة بفعل المضايقات الإدارية التى مارسها السلطات المختلفة التى توالى على إدارة المدينة . تماماً مثلما كان الحال فى فيچاك المدرسة المركزية أنشأت عام ١٧٩٥ وكان مقرها (منذ ١٧٩٦ حتى ١٨٠٢) فى دير الآباء اليسوعيين بشارع نوڤ *

* اسم المدرسة أصبح الآن « ليسيه ستانداى » بشارع راول بلانشار .

والدراسة الثانوية بها كانت حرة تماماً تشبه التعليم الجامعى فجميع الدروس غير إجبارية والمدرسة لاتمنح أى شهادة عند التخرج . ستاندال إمتدح مع بعض التحفظ هذا الأسلوب الحر ولكنه رأى أنه يفتقر إلى هيكل يسنده : وإذا كان بعض الأساتذة قد تركوا لديه ذكرى حسنة - مثل جاتال و دويوا - فونتانال - فإن البعض الآخر تعرض لسهام سخريته القاتلة .

هل كان هذا الأسلوب التعليمى مكلفاً جداً بالنسبة لچاك چوزيف أم أنه لم يحظر بثقته ؟ هل قدر أن ضعف أخيه فى مادة الحساب سيعوق مسيرته المدرسية ؟ هل رأى أن الصبى مازال محتاجاً لبعض الصقل قبل أن يختلط مباشرة مع أبناء المجتمع المتحضر ؟ الذى حدث هو أن چاك - چوزيف قرر أن يتولى هو بنفسه تعليم تلميذ دوم كالمالز .

هذا الأسلوب التعليمى نتج عنه بعض الحرج المادى للأخ الكبير . فقد إضطر إلى تخصيص إحدى الحجرتين التى كان يشغلهاما بالقرب من محلات أبناء عمومتهما فى الشارع الكبير (جراند رو) وهى التى كان قد جعلها مكتبته الخاصة التى يطالع فيها كتبه ... ترتب على ذلك أن الصبى الذى كان قد أمضى ساعات طوال من عمره داخل مكتبة الأسرة وجد نفسه داخل شرنقة من الكتب ! كانت فى معظمها كتباً قديمة مكتوبة باللغات الشرقية التى سبق أن استهوته ومالبست أن خلبت ليه إلى أن توفى . فلنحاول أن نتصور هذا الصبى البالغ من العمر عشر سنوات وهو نائم فى مهد من الرموز ... وكم من الأحلام أثارتها فى منامه وكم من أمال إندفعت فى خياله من طياتها ؟!

الوصاية الأخوية فرضت من جهة أخرى على چاك - چوزيف تضحيات كبيرة من وقته خاصة وأنه كان ناجحاً فى عمله بالمحل التجارى وأنه كان يواصل تعليمه وينشط داخل المجتمع الجرونوبلوازى ويشبع شغفه باقتناء الكتب . كل هذا لم يمنعه قط من أن يأخذ مهمته التعليمية على محمل الجد الصارم ، وتشهد على ذلك الرسائل المؤثرة التى تبادلها مع العزيز دوم كارمالز ... هذه المخاطبات تلقى من جهة أخرى الضوء على إخلاصه لأخيه كما تبرز فى الوقت ذاته مواهبه ونقاط ضعف چان - فرنسوا .

ومثال ذلك هذا الخطاب المؤرخ ٢٥ يناير ١٨٠٢ أى بعد عشرة شهور من وصول الصبى إلى فيچاك (أى أنه كان قد بلغ الحادية عشرة) الذى كتبه چاك - چوزيف للقس العجوز فى فيچاك :

« عندما كنت أخطط لمشروع إستدعاء أخى ليعيش بجانبى تصورتكم كحائل يعيق تنفيذه .. لأن الأفضال التى تكرمت بها عليه والعطف الذى أسبغتمونه عليه جعلنى أكاد أحجم عن تنفيذه حتى لا أتسبب فى تعكير مشاعركم .. غير أننى عندما رأيت توصياتكم تلتقى ورغباتى لم أتقاعس عن اللجوء إلى أى وسيلة تسمح بالإسراع فى تحقيق مرادى . لم أخف عن نفسى أبداً صعوبة المهمة التى تحملتها بكونى أصبحت مسئولاً عن أخى أمام عائلتى وأمامكم . لكنى تجرأت واثقا من قدراتى .. الزمن وحده هو الذى سيثبت إن كنت وثقت فى ذاتى أكثر مما يجب .

« ما أن وصل إلى جرونوبل إلا وكنت قد اخترت له مدرساً خاصاً * تتلمذ عليه حتى فترة الأجازات – ومنذ ذلك الحين وأنا أباشره شخصياً بالكامل وهو لا يأخذ أى درس غير الدروس التى أعطيها له .

« لقد كنتم على حق تماماً عندما قلتم عنه أنه أحياناً يفيض حماساً وإستعجالاً ، بادياً كما لو أنه يخشى أن يجد لشغفه بالتعليم حدوداً . وأنه فى أحيان أخرى يبدو مثبط الهمة ومرهقاً وساعتها كل شئ يصبح أمامه عائقاً يجب إقتحامه أو صعوبة عليه أن يحلها .

هذا التباين راجع لشخصيته أو ، لآكون أكثر وضوحاً ، لطيشه ، مما يجعله غير قادر على العناية بما يعمل .. إنه لايفكر فى إستخدام إمكانياته كما أن السهولة الكبيرة عنده فى إدراك ما يشرح له تضرر حاجته لحفظه [...] ولما كان العمل لا يكاد يشغل باله فإنى لأترك له أوقات فراغ طويلة لأنى أود أن أجعل من الاعتناء بالعمل إحدى عاداته . فى أحيان كثيرة لا أجنى ثمرات ما ألقيه عليه من دروس .. ولكن تغيير الشخصية وتقويم العادات لا يتم فى يوم واحد [...] إنى أهتم بشئ آخر لا يقل أهمية ألا وهو تحسين أسلوبه فى الحديث [...] إذ اجتهد فى أن أمحو من أخى هذه الخطيئة المتأصلة [...] التى هى لهجة بلدتنا التى لاتوجد فى أى بلد يعرف كيف يتحدث باللغة الفرنسية ** .

وعمله المعتاد يشمل ترجمة إلى الفرنسية فى الصباح ومنها فى المساء إلى اللاتينية . ثم مبادئ القواعد الفرنسية .. كتاب إنسيكلوبيديا الأطفال والكتاب

* لم نجد له أى أثر .

** راجع تعبير ستندال عن الموضوع نفسه فى الصفحات السابقة .

الثانى من ملحمة الـ Enéide (لفيرجيل) هى الكتابان اللذان يأخذ منهما دروسه .. ثم أضيف على ذلك بعض قصص لافونتان الشعرية [...] أقوم بتصحيح واجباته مرتين فى اليوم وفى بعض الأحيان أعيدها إليه ليعلق عليها ويشرحها كلمة بكلمة [...] هذه هى ياسيدى الطريقة التى إستخدمها لكى يتحصل حتى على بعض التعليم [...] .

« أما فيما يخصنى فإننى أقسم وقتى بين هذه المجهودات وأعمالى التجارية وأجد أيضا بعضاً من الوقت أعمل على حسن استغلاله : إلا أن دراسة اللغة اليونانية تستهلكه .. وقد تخطيت المرحلة الأولية وانتقيت صفحات من العهد الجديد من الكتاب المقدس فى أولى محاولات الترجمة » * مؤرخ فى (٥ بلوفيرور عام ١٠ من الثورة) .

بعد ستة شهور أرسل المدرس تلقائياً إلى أستاذه السابق تقديراً أولياً :
« إن الموافقة التى تضمنها خطابكم العزيز ** على الطريقة التى أعطى بها أخى العلاج الوحيد الكفيل بتقويم عيوب طبيعته تساندنى كثيراً فى مسيرتى .. اعترف بأننى عندما ألاحظ أن أحد المدرسين يستخدم أسلوباً مختلفاً عن النهج الذى أسلكه يتملكنى الشك ويبدأ داخلى صراع بين مقاصدى وبين خوفى على أخى واهتمامى به [...] يبدو أن أخى يشعر فى بعض الأحيان بقيمة التعليم . فهو كثيراً ما يؤدى واجباته بدرجة من العناية لايمكن أن تتأتى سوى نتيجة حب أكيد للعلم . غير أن بعض الفيوم تغطى فى أوقات كثيرة صحوات النيات الحسنة هذه . أركز عنايتى على تتبع لحظات التراخي هذه فأقوم حال حدوثها بتحفيزه بجميع الوسائل الممكنة . فأقدم له غذاءً جديداً فى صورة موضوع بدائى يحرك شهيته للمعرفة : وأنجح أحياناً فى إغرائه بالسباحة فى فضاء الخيال الواسع حتى بر الأمان . إن أخى يعمل كثيراً وينجح كثيراً بصورة جيدة . »

تتعدد بعد ذلك تفاصيل خاصة بطريقته التعليمية وطلبات النصائح ثم يختتم چاك - جوزيف خطابه إلى كالمالز بأن يعبر له عن « امتنان » أخيه وجميع أفراد

* يوضح هذا أن چاك - جوزيف دارس اللغة اليونانية كان لايزال فى مراحل دراستها الأولى .
** لم يتم العثور عليه .

الأسرة . ونسجل هنا تقديره للإستمرارية فهو يود وبوضوح ألا يتسبب فى أى شرح بين أسلوب التعليم الذى ينتهجه مع أخيه وذلك الذى حصل به على علومه الابتدائية فى فيچاك ويود أن يكون بمثابة فترة مرحلية بين تعاليم القس المربى وتلك التى سيتلقاها فى المدرسة .

غير أنه رأى أن مرحلة جديدة يجب أن تضاف إلى الفترة الانتقالية . ففي عام ١٨٠٢ بعد عام تقريباً من التدريس الأخرى كان المدرس يتلقى خلاله دروساً هو الآخر فضل چاك - جوزيف أن يعهد بأخيه إلى مدرس محترف وفاتح دوم كالمالز فى ذلك .

« أعرف واحداً من هؤلاء ، يضطلع بواجبات مهنته بصورة أفضل من نظرائه جميعاً . إن التقدم الذى يحرزه تلاميذه وعلاقات الصداقة التى تربطهم بأستاذهم مدعومةً بهيبته واحترامهم له ... كل ذلك يحملنى إلى الاعتقاد بأنه عرف كيف يجعلهم يحبونه ويخشونه فى الوقت ذاته .. أما أقوى الحوافز التى يزرعها فى تلاميذه فهو عامل المنافسة بينهم . إنه متسامح ولكنه عند الضرورة يكون بلا رحمة كما أن حديثه مصاغ ليكون فى مستوى التلاميذ وليس العكس ... »

قصد بحديثه هذا الأب دوسار الذى كان يحظى بسمعة كبيرة فى مدينة جرونوبل ، وتلمذ عليه چان - فرنسوا من نوفمبر ١٨٠٢ حتى إجازة * ١٨٠٤ .. يصف چاك - جوزيف فى خطابه لأستاذه السابق - النظام التربوى الذى كان يتبعه هذا القس وهو نظام لا يأتى بأى جديد يبرزه عن الآخرين (حيث أن الكتب التى يقوم عليها هى De Viris وكتب فيرجيل وأفلاطون) ماعدا تجديد واحد يتمثل فى تقسيم دور التلاميذ بنظام أسبقية مبنى على أساس عدد الواجبات التى يقدموها دون أخطاء .

كانت مصاريف هذه الدراسة مرتفعة ** حسبما قال الأخ الكبير ولذلك فإن « عدداً قليلاً من الناس كان فى مقدورهم أو من رغباتهم أن يقدموا على إنفاق مبلغ كهذا » . أما هو الموظف الصغير المفلس فإنه يقدم بالرغم من كل شئ على هذا الإنفاق من أجل مصلحة أخيه .

* كانت فترة الإجازة تمتد حينذاك من نهاية أغسطس إلى بداية نوفمبر .

** جاء فى الخطاب ذكر رقم ١٢ دون أن يحدد إن كان ذلك بالفرنكات .

فى خطاب أرخه ٦ أغسطس ١٨٠٣ فى نهاية العام الدراسى الأول كتب دوسار إلى چاك - جوزيف يقول له أنه « سعيد جداً بـ « شامبوليون الأصغر » وهو لذلك لم يسمح له فقط بدراسة اللغة العبرية ولكن بدراسة ثلاث لغات سامية أخرى هى العربية والسيرانية والكالدية (أو الآرامية وهى اللغة التى كان يتكلم بها المسيح) .. يدهشنا هذا « التسامح » وإن كان يلقى الضوء على ميول الصبى الذى كان يبلغ حينذاك الحادية عشرة والنصف وعلى العقلية المتفتحة لأستاذه فى آن معا ، فما أكثر من كانوا سيتذمرون إزاء طلب كهذا متعللين بأنه ضرب عن حب الظهور أو النزوات أو إضاعة للوقت ... إلخ .

كانت مدرسة دوسار تعمل على ما يبدو على قدر من التكامل مع المدرسة الحكومية المسماة فى ذلك الوقت « مركزية » وعلى العموم كان فى استطاعة تلاميذ دوسار متابعة دروس المدرسة العامة التى كان يعطيها أساتذة مشهورون مثل الرسام چاى وعلى وجه الخصوص عالم النبات فيلار الذى سرعان ما احتضن چان - فرنسوا واصطحبه معه فى الجبال يدرسان بشغف النباتات على الطبيعة . وإذا كان صاحبنا الشاب الصغير قد اكتفى بدوسار لدراسة اللاتينية واللغات الأخرى فقد إضطر إلى متابعة دروس الحساب وهو نقطة ضعفه فى المدرسة المركزية .

سبق أن أشرنا إلى أن الأب دوسار قد أكد على تعطش « شامبوليون الأصغر » لتعلم اللغات الشرقية . وبالنسبة لنا تمثل هذه النقطة بداية المشوار اللغوى الذى سيوصل چان - فرنسوا إلى اللغة القبطية وإلى مصر . إلى اللغة القبطية عن طريق التوراة - التى كان يقرأها فى لغتها الأصلية - وعن طريق المؤلفين اليونانيين مثل هيرودوت وسترابون وبلوتارك . ثم إلى الهيروغليفية عن طريق هورابولون وكليمان السكندرى وعن طريق اللغة القبطية والمقارنة مع اللغات السامية ...

أن يتحمس صبى عمره اثنا عشر عاماً لدراسة لغات طال دفنها فى طيات الذاكرة الإنسانية وأن يجد فى هذه الدراسة المملة بالنسبة لآى صبى آخر لذة حقيقية وأن يتسلى فى فك شفرة هذه الكتابات وأن يتجول فى يسر داخل القواميس وكتب قواعد اللغات الأكثر صعوبة للفهم ... لا يمكن أن نرى فى ذلك كله سوى ما أطلق عليه فيما بعد علامة من علامات « العبقرية » فى غياب أى تفسير ممكن آخر أو لفظة أكثر دقة .

غير أن الموهبة الخاصة التي حُبى بها جان - فرانسوا شامبوليون لم يكن لها دون أى شك أن تجد طريقها للإزدهار لو لم يجد أمام عينيه المثل الذى يحتذى : أخاه ، هذا المجنون بحب الكتب والذى تحول شيئاً فشيئاً إلى مستشرق هاو ... فما أقرب الأشياء إلى طبيعتها ألا يحاكي الصبى الشخص الذى يحبه ويعجب به ؟ البداية كانت لعباً ومناقسة ومحاكاة .

قبل أن يتمكن من إثبات عبقريته كان على جان - فرنسوا أن يتعلم . ومن نافلة القول أن الأخ أراد أن يؤمن لأخيه الزاد الدراسى الذى لم يلق منه هو - نصف المتعلم - سوى الفتات . ولهذا السبب انتمن على تعليمه دوسار صاحب المدرسة التى كانت بمثابة المشتل الذى يغذى التعليم العام . وبعد أن تشكل فيها استعداد شامبوليون الصغير لخوض مسابقة القبول فى المؤسسة الجديدة المسماة « اليسيه » وذلك فى ربيع ١٨٠٤ .

كان القنصل الأول * قد قرر بالفعل أن يقيم نظاماً جديداً من إختراعه يسمح بتكوين رجال إدارة وضباط يدينون بالولاء للنظام الجديد وهو فى مرحلته الأولى - ليحل محل نظام المدارس المركزية الذى أنشأته الثورة والذى أثبت عدم صلاحيته خاصة وأن التسيب كان متفشياً فى نظامها وفى تعيين المدرسين بها .

كان ذلك زمن العسكرية . فبعد خمس سنوات وفى إحدى المكاتبات الدورية طالب الرئيس الأعلى للجامعة مسيو دى فونتان من رئيس جامعة جرونوبل بأن يطلب من التلاميذ أن يكتبوا فى مادة « الإنشاء » عن : « الأعمال البطولية التى قامت بها جيوشنا تحت إمرة صاحب الجلالة الإمبراطور ... وعن الحب الذى من حقه علينا أن نكنه له » .

بقى هذا الخليط من عبادة الأصنام والحياة العسكرية سائداً حتى عام ١٨٠٩ وهى السنة التى أرسى فيها « نظام الشرطة فى المدارس » تطبيقاً لخطاب دورى متشدد وزعه المسيو دى فونتان ذاته . أما الذين سيتولون المسؤولية التعليمية الثانوية لجان - فرنسوا ابتداءً من الناظر الأب چاتال فلم يكونوا قط من حاملى السياط ولاهم كانوا « باش باش شويشية » بل إننا سنلاحظ أن كثيراً من مظاهر الحياة فى هذه المدرسة كان أقرب للأبوية منها للعسكرية . وعلى الرغم من ذلك رفض جان - فرنسوا هذا النظام وسوف نرى الأسباب وراء ذلك .

* لم يشغل بوناپارت هذا المنصب سوى فى ديسمبر ١٨٠٤

مهما كان ضعف إحساسه بالسعادة فى إطار ذلك النظام فقد كان صاحبنا المراهق مهتما بالإنخراط فى صفوف اليسيه الجديد الذى كان يعطى مائة وخمسين منحة دراسية للناجحين فى مسابقة القبول به . كان المتحان هما المفتشين العامين لوفائر - جينو و فيلار وكانا يطرحان الأسئلة بأنفسهما على التلاميذ المتقدمين المزودين بكتب فيرجيل وهوراس . شامبوليون الصغير نجح فى إمتحان اللغة اللاتينية ثم أكد هذا النجاح بأخر فريد من نوعه بأن ترجم فقرات من التوراة عن اللغة العبرية . وكان ذلك مثار انتباه أعضاء لجنة الامتحان لدرجة أن الصحافة ذكرته فى صفحاتها . خلاصة القول أن جان - فرنسوا شامبوليون قبل فى اليسيه الإمبريالى لمدينة جرونوبل فى مارس ١٨٠٤ المسمى حالياً « ليسيه ستانداى » وكان الرقم الذى طبع على ملابسه هو (٥٨) . نشرت الصحيفة الإدارية لمحافظة الإيزار أسماء المائة وخمسة ناجحين ومن بينهم « جان - فرنسوا شامبوليون فى الثانية عشرة من فيچاك - تلميذ بمدرسة دوسار » (3) .

من كانوا أساتذته ؟ أكثرهم أهمية بداية بسبب كونه ناظر اليسيه ثم بسبب كونه مدرس « القواعد » وشارك بذلك فى إدخال صاحب اكتشافات الغد إلى عالم اللغويات وهو الأب كلود - مارى جاتال . كان شخصية مثيرة من وجوه عدة ... ذكره ستانداى بخير قلما جادت به قريحته على رجال الكنيسة حتى عندما حاول إخفاء ذلك بستان من السخرية : « كان قساً متأنقاً متظرفاً تجده دائماً فى معية السيدات فهو قس حقيقى من قساوسة القرن الثامن عشر » وبعد أن رسم شخصيته فى هذه العبارات ، أطرى صاحب « البرولار » (ستانداى) بأكثر كلمات الثناء شيوعاً ، المثقف والمعلم كلود - مارى جاتال :

هذا الجانب من شخصيته المتمثل فى قول ستانداى « قس من القرن الثامن عشر » تبرزه قصيدة كتبها ناظر ليسيه جرونوبل ليتحدث فيها عن مدبرة منزله واسمها « فيكتوار » - (وجد القصيدة إيميه شامبوليون - فيچاك) :

أعزها ، علها تصدقنى

أه !! لو لاقت أمانى قبولها

لكنت العاشق الكتوم فى المتعة

نصرى يداريه حجاب مسقط (4)

كان الناظر أكثر صرامة مع تلاميذه من القس مع مديرة منزله . إذ يقول جان - فرنسوا : « وددت الخروج من المدرسة يوم خميس العهد إلا أن السيد / جاتال خشى أن ينتهز الذين سيخرجون للترويح عن أنفسهم في ذلك اليوم الفرصة ويبددون الهواء الذي استنشقه داخل اليسييه ... فرض إعطاهم تصريح الخروج ... »⁽⁵⁾ .

صديق النساء وناظر متبصر - ومع ذلك متحرر كما سنرى كان جاتال في قول نهائي من تلاميذ كوندبيك وأستاذاً في اللغويات ومؤلفاً لقاموس ممتاز للجيب اللغة الفرنسية . وجعلت منه دراساته العامة في هذا المجال أحد رواد الشرقيات .. لابد إذن أنه كان من مصادر إلهام الأخوان شامبوليون .. وفي سياق حديثنا سنتسائل عن التأثير الذي قد يكون له على أعمال جان - فرنسوا .

وننتقل إلى معايير - فانسان شالفيه المكلف بتدريس مادة التاريخ ونتسائل إن كان من الملائم إعتباره أحد « أساتذة » شامبوليون فقد قال لنا عنه « هنرى برولار » (بطل رواية ستاندال) أن « هذا الشاب الفاسق البائس » قد إختلس مصاريف الدراسة (التي سددها له تلاميذه) هو وأخواته الثلاث اللاتي أمتهن العُهر واللاتي أصبته بعدوى مرض السيفيليس الذي قضى على حياته بعد فترة قصيرة »⁽⁶⁾ ؟ لم يختلف تقييم جان - فرنسوا عن تقييم برولار له .

الرسام لويس - جوزيف چاي كان أكثر كفاءة ، علماً بأن ستاندال لايعترف له بأي موهبة أخرى سوى موهبة « تحريض الأولاد »⁽⁷⁾ . وليس فقط الأولاد : فقد كان من الشخصيات الجاكوبينية (أى ثورى جمهورى يطالب بمركزية الحكم) ذات الحمية وكان تأثيره كبيراً على شخصية شامبوليون الصغير خاصة ، وأن هذا الأخير كان حريصاً على تنمية قدراته في فن الرسم والتي كانت خير معين له عندما حان وقت نقل وتفسير الخطوط اليهروغليفية من الآثار المصرية . إلا أن المدرس المفضل لدى جان فرنسوا في اليسييه كان بكل تأكيد عالم النباتات دوميستيك فيلار ... والذي كان قد حضر فصول دراسته عندما كان تلميذاً بمدرسة دوسار . وقد كان أسف صديقنا المراهق عظيماً عندما إنتقل فيلار من مدينة جرونويل في نهاية عام ١٨٠٥ عندما عين عميداً لكلية علوم بمدينة ستراسبورج .. ومع ذلك بقيت دروسه ورحلاته التعليمية عبر الطرق الجبلية حيث كانا يتدارسان النباتات سوياً محفورة في ذاكرة الشاب الصغير .

كان جان - فرانسوا تعيشاً في اليسييه . ليس بسبب الحرمان المفاجئ من الحنان والإطار العائلي والحماية التي يوفرها هذا الجو العائلي عادة لكثير من الأولاد ... فهو على ما يبدو لم يحتفظ بذكرى حانية طيبة من حياته لأسرته . أما الألفة الحميمة مع أخيه الأكبر في مقرهما الضيق في شارع جران رو - كانت مفعمة بالموودة وثريه لنفسه . من هو الأخ الصغير الذي لم يحلم بأن يعيش هكذا شريكا لأخ أكبر يحظى ببعض الشهرة جلبتها له معارفه ؟ هذا الانفصال عن أخيه هو الذي أثر فيه كثيرا .

أضف إلى ذلك أن الولد القادم من فيچاك سواء كان « مشاغبا » أم لا - والذي كان قد احتفظ على الأرجح باللهجة الريفية الخاصة ببلدته مما أثار سخرية أقرانه الجدد كما أثار بونابارت سخرية زملاءه في بريان . كان ذلك الولد كما سبق ورأينا متحمساً ومندفعا وعنيدا . ولم يكن أى نوع من الانضباط ليلقى قبوله . كان الانضباط في اليسييه الإمبراطوري على النقيض من التسبب السابق في المدرسة المركزية دقيقا حتى لو لم يكن عسكريا بالمعنى الحرفي ، ويلقى الضوء على ذلك هذا النص الذي تضمنه كتيب تم توزيعه على أولياء الأمور في ١٨٠٦ : « مجموع ساعات العمل اليومية عشر ساعات - الرقابة على الطلبة مستمرة طوال الأربع والعشرين ساعة وما بينها من الدقائق جميعا وهي تتم بالليل والنهار في الفسح كما في أوقات الدراسة بل وفي أثناء نوم التلاميذ أيضا : الرقابة لا تتركهم لأنفسهم ولا للحظة واحدة » .

كان الإعلان عن بداية ونهاية الحصص بدق النفير والطلبة . وكانت قوائم التطوع تمرر على الطلبة تحثهم على الإنخراط في الجيش ليصبحوا « باشويشييه » بترقيتهم بعد ذلك إلى رتبة ملازم ثاني (كما جرى الحال لهنرى بال « ستانداال » ولكن بطريقة أخرى) ... ونذكر هنا أن شامبوليون الصغير لم يوقع على هذه القوائم . غير أننا عثرنا على خطاب يطلب من أخيه رأييه في إمكانية قيده في المدرسة العسكرية بفونتانبلو « حيث لا يبقى الطالب سوى ثمانية عشر شهرا ثم يصبح ضابطا أو ملازما ثانيا » ... ثم يضيف تلميذنا على الفور مطالبا : « كتاباً !! من فضلك !! » المؤكد هو أن ميوله لمهنة سلاح كانت أقل بكثير من ميل أخيه وخاصة وأنه كان مناهضا للانصياع العسكري .. وسيثبت جان فرنسوا بطريقته أن لا أحد يمكنه أن يحسن تسيير القوات الخاصة بحزم مثل رجل محب للسلام ، إذ كتب يقول :

« وظيفتي داخل الفصل برتبة عريف ؛ أى أنى أعلق شارة العقاب للذين يتسببون فى الضوضاء .. ولاتدوم فترة حكمى سوى خمسة عشر يوماً . إنتخبت العام الماضى وكنت الثانى فى الترتيب ، أما هذا العام فأنا الأول . وشغلت هذا المنصب أربع مرات العام الماضى وأرجو أن يستمر الحال هذا العام أيضاً .. » .

كان التعليم فى الليسيه الإمبراطورى بجرونوبل فى عام ١٨٠٤ يقوم على مادتين أساسيتين : اللغة اللاتينية والعلوم الرياضية .. وتمتد المرحلة التعليمية لسبع سنوات من السنة السادسة إلى السنة الأولى تنازلياً ثم السنة الختامية . غير أنه كان فى الإمكان الفصل بين الدورتين أى أن الطالب كان يمكن أن يواصل الدراسة على مستويين مختلفين وهكذا دخل شامبوليون الصغير الفصل الرابع فى اللغة اللاتينية ولكنه بقى فى الفصل السادس بالنسبة للرياضة .. وهو سيصعد إلى الفصل الثالث ثم الثانى فى اللاتينية وسيصعد إلى الخامس والرابع فى الرياضة ثم « سيتوقف » فى السنتين الأخيرتين عن مواصلة السير فى هذا المنهج للأسباب الوجيهة التى ستعرض لها فيما بعد - إلا أنه سيحصل على الرغم من ذلك على « شهادة دراسية وحسن سير وسلوك » فى سبتمبر عام ١٨٠٨ * .

إذا أردنا أن نقيم أداء التلميذ شامبوليون ثم المراهق شامبوليون وإذا إعتمدنا فقط على التقديرات التى أعطاها له أساتذته فى الفترة من ١٨٠٤ إلى ١٨٠٧ فلاشك أننا سنصاب بخيبة أمل . فقد كان منغمساً بالكامل فى الشرق القديم الذى سيطر عليه (كما كان مولعاً بعلوم النبات) وكان مناهضاً للإنضباط الذى كان يثير سخطه وإذا لم يكن يعطى دروسه وواجباته المدرسية سوى أقل وقت ممكن أى بالقدر الذى يسمح له بأن يحتفظ بترتيب لا يخله أمام أخيه .. وكان تلميذاً متذبذب المستوى ومهملاً لدروسه فى كثير من الأحيان وتشهد على ذلك نتائج المدرسية نصف الشهرية المحفوظة فى الأرشيف العائلى .

* سنرى أن أستاذه لوى لانجلاس سيرفض إعطاءه حتى شهادة إنتظام فى الدراسة عندما كان فى مدرسة اللغات الشرقية .

تقديرات أساتذه الليسيه الإمبراطورى لم تكن على هيئة أرقام ولكن بالحروف : أ = ممتازة ، وى = ضعيف جدا . وهذه عينات من الكشوف التى إضطر جان - فرنسوا أن يرسلها إلى أخيه :

كشف « بلوقيوز » عام ١٣ (الموافق ٧ يناير ١٨٠٥)

« صحة عامة ، دين/عادات ، سلوك : أ

، شخصية ، نظام ، آداب عامة : هـ

حب العمل ، عناية به ، تقدم : ن

الأيام التى قضها فى العيادة المدرسية : هـ لإلتهاب فى الحلق لاعقوبات ولا مكافآت .

كشف الأول من جيرمينال عام ١٣ (الموافق ٢١ مارس ١٨٠٥)

« صحة عامة / عادات ، أمانة ، سلوك : أ

نظام ، عمل : هـ

تقدم : ن

لاعقوبات ولا مكافآت «

كما سنجد كشفا دراسيا مؤرخاً فى سبتمبر ١٨٠٥ حصل فيه جان - فرانسوا على أضعف درجة على الإطلاق فى « حب العمل وإتقانه » ثم نراه يحصل فى أول فبراير ١٨٠٦ على أ فى جميع المواد . ثم فى أبريل ١٨٠٧ نجده قد حصل على ٧ هـ وواحد ن - وفى يونيو من العام نفسه عشية توديعه النهائى لليسيه الإمبراطورى على هـ أ و ٣ هـ ... خط بيانى على هيئة أسنان المنشار !!

نذكر ضمن أسباب الدهشة التى تثيرها هذه التقديرات تلك التى نالها فى مادة « الدين » و « الصحة العامة » وهى ممتازة . وسنعود فى حديثنا إلى هذه الأخيرة إذ أن صحته ستتسبب له بعد حين فى عذاب كبير أما بالنسبة لمادة الدين فإن أقل ما يقال بصدد هذا أن الابن الأصغر لچاك شامبولىون لم يكن متدينا حتى أن التساؤل قائم حول ما إذا كان قد أدى « تتاوله الأول » ولو بدا مسيحياً متحمساً فقد رجع ذلك إلى اهتمامه المتعمق بالتوراة التى كانت المرجع الأول له فى دراساته للعبرية ...

الحقيقة المؤكدة أن هذه الدراسات كانت تضايقه حتى اللغة اللاتينية التي كان أستاذ الصف بها هو مسيو جاميه وكان يقدره لإمتيازه ، سيرسب فيها فى إمتحان قبول الصف الثانى .. إنه لايفكر سوى فى الكتابة وفى دراسة النباتات وفى أن يفرق تماماً وبسعادة فى دراسة قواعد اللغات الشرقية وكتاب التوراة باللغة العبرية وكتب علوم الآثار . فالتقديرات التي حصل عليها فى الليسيه الإمبراطورى لا تكشف لنا أهم جوانب شخصيته : كل ما يهمنى فى تكوين شخصية هذا الشاب موجود فى المرحلة التي تبدأ بانتهاء الدراسة فى الليسيه . ومن حسن الحظ أن سمح له بمواصلة دراسة اللغويات معتبرين إياها نزوات تلميذ أهوج ... واحد منهم فقط وهو أستاذه دوسار ذهب إلى أبعد من ذلك بأن كان يشجعه على السير فى هذا الطريق ...

حياة تلميذنا لم يكن يتعسها داخل ليسيه جرونويل نظامها العسكرى فقط ، لأن العسكرية كانت هى الجو العام السائد فى ذلك الوقت وكانت تعكس صورة مجتمع وطنى مشبع بالمشاعر المتأججة بالنضال زادت من جنونيتها إنتصارات نابليون فى أوسترليتز وينا وفريدلاند ، بل كانت تعتمها أيضاً قلة الموارد وضعف موقفه ؛ إذ إن حياته كانت مرتبطة بحرص أخيه فى ما يمن به عليه وبعد إلحاح مستمر من جهته .

ضاعف من تأثير حياة الضنك هذه على جان - فرنسوا أنه كان وسط أبناء برجوازية جرونويل المزودين بالمصروف الذى يملأ جيوبهم وهو ما يملأ صفحات مراسلاته مع چاك - جوزيف . وهو يلاحظ كل يوم أن المنحة الدراسية التي حصل عليها عام ١٨٠٤ لا تغطى كل نفقات التعيينات المدرسية والملابس والهوايات ودروس اللغة الإيطالية والمصروفات النثرية اليومية . كانت أغلب مطالباته تتعلق بالورق الذى كان يستهلك منه جان - فرانسوا الكثير . وكان أخوه الأكبر على ما يبدو مقتصدا للغاية فى هذا الموضوع الحيوى ... كان عليه أن يدفع من جيبه ربع مصاريف الطالب الحاصل على المنحة .. وتكررت المطالبات الرسمية كما تشهد على ذلك المذكرة المرسلة إلى چاك - جوزيف فى ٢٥ أبريل ١٨٠٦ : « تلميذ الحكومة الحاصل على ثلاثة أرباع منحة دراسية إبنكم [كذا] جان - فرنسوا يجب أن يسدد ثلاثة أشهر مقدماً وهو مايوازى ربع المنحة السنوية إعتباراً من أول أبريل ١٨٠٦ أى ٧٦ جنيهاً تورنوا (٧٦ فرنكا) عن ربع السنة البادئ فى يناير الماضى والربع الذى بدأ فى أبريل الحالى » المنحة الدراسية السنوية الكاملة تبلغ إذن ٦٠٨ فرنكا .

أكثر المشاكل كان يسببها له بند الملابس :

« [...] فيما يتعلق بملابسي فأنا تلومني باستمرار على حالتها الرثة ولك الحق في ذلك [...] أصبح ردائي في حالة قاربت حالة ملابس مهرج السيرك أي أن قطع القماش متباينة الألوان المضافة إليه جعلت منه لباساً ملفتاً جداً [...] أرسلت سرورالي للترزي لكي يضيف إليه زرارين فأعيد إلي في حالة رهيبة [...] أنا محتاج لبعض القطع [...] سأقدم بشكوى لضابط المدرسة الذي سيفضل بكل تأكيد أن يراني أتجول عارياً تماماً على أن يصرف لي أربع .. ميليمات ... »

طلبات الإعانة تشمل جميع المجالات :

« أرسل لي شيئاً من المال فعندما تكون في نزهة مدرسية من المفيد أن يشرب المرء شيئاً من اللبن وعلى الأخص عندما يكون متعباً جداً ... »

صادف أمس عيد ميلاد مفتش المدرسة . ذهبنا إلى البيت الريفي * وأكلنا هناك وجبة بسيطة : كان على تسديد ١٢ (صول) ، أرجوك أن ترسلها لي حتى أقوم بالوفاء بها [...] كما أرجو أن ترسل لي ٤٠ صول أنا مدين بها للبواب .

الصعوبة المادية التي يعيش فيها تعطي معنى فريداً لهذا الرد الذي أرسله لخطاب عرض فيه أبوه المساعدة :

« أنا لا أحتاج شيئاً وأشكركم على عرضكم . أخى يغطي كافة مصاريفي . أرجو أن تعبروا له على إمتناني .. وأرجو أن أثبت له أنه لا يرعى تاركاً للجميل بأن أحسن إستغلال جميع الفرص التي أدين بها لحبه الأخوي . »

توضيح محدد ومؤثر يشرح طبيعة العلاقات القائمة بين هذا الصبي المفلس ووالده .. لأنه عندما تركه يدخل تحت وصاية أخيه الأكبر فقد أي حق عليه غير أن يكون « الذي يبلغ أخاه بما يكن له أخوه من إمتنان أو تعبير آخر فهو يقول له : « لقد فات الأوان » . وسنرى فيما بعد – جان فرنسوا يطلب أحياناً المساعدة من أبيه ، ولكن بعد أن يوضح له أنه يفعل ذلك مرغماً .

* نزل يتبع المدرسة يرسل إليه التلاميذ في فترة الصيف عندما يكون الجو صحواً وكان عليهم الإضطلاع بمصاريفهم فيه ..

كانت المراسلات المتبادلة الغنية بالمعلومات بين جان - فرانسوا وچاك - جوزيف غزيرة جداً على الرغم من أن الأخ الكبير كان يزور أخاه الأصغر أو يستقبله مرة كل أسبوع في المتوسط . غير أن الباحث يجد فيه نقطة ضعف وهي أن الأخ الصغير نادراً ما كان يؤرخ خطابه . ويتسبب ذلك في الصعوبة التي نجدها في تحديد مسار حياة الشاب الصغير من نوفمبر ١٨٠٤ عندما قُبِلَ نهائياً في اليسييه وأغسطس ١٨٠٧ عندما تركه .

إلا أن من اللافت للنظر أن هذه المراسلات أصبحت شخصية بصورة مفاجئة خلال السنة الدراسية ١٨٠٦ - ١٨٠٧ ولانجد لهذه الظاهرة سوى شرح واحد : ففي ربيع ١٨٠٧ يبدو أن چاك - جوزيف تأثر من طلبات أخيه الملحة كما توقع أنه سينتقل إلى باريس بعد فترة قصيرة . فقام بإخراجه من نظام « الداخلية » المدرسى وجعله يقيم معه على الرغم من الصعوبات التي ستسببها له هذه الخطوة خاصة وأنه كان على وشك الارتباط بزوجته .. ومع ذلك فإن مشكلة عدم تأريخ جان - فرانسوا لخطابه تبقى دون تفسير .

إذا افترضنا عدم أهمية الدراسة المدرسية التي فرضت على هذا التلميذ غير العادى وقبلنا فرضية أن المهم بالنسبة له كان يحدث خارج حصص اللاتينية والحساب فيتحتم علينا أن نلقى الضوء على بعض الأحداث التي جرت له في هذه الفترة مع العلم بأنه من غير الممكن تأريخها جميعاً .. فهذه الأحداث وإن كانت بها جوانب رمزية وتعد خارج إطار محاولاته البحثية إلا أنها أثرت دون شك في شخصيته وتبرز جوانبها الفريدة والخاصة جداً . ومن هذه الأحداث نذكر « الشوشرة الكبرى » التي حدثت في الغالب خلال صيف ١٨٠٥ مما دفع مراقب اليسييه الإمبراطوري إلى الاستعانة بالعساكر ، نذكر أيضاً « أكاديمية جنيات الفن » التي أسسها جان - فرانسوا في الإطار المدرسى وهي مبادرة قام بها في العام التالي والقطيعة التي أجبر عليها فيما يخص صداقة قوية كانت تربطه بزميل له ؛ وكذلك الخطبة العامة التي ألقاها أمام محافظ مقاطعة الإيزار في نهاية العام الدراسي ١٨٠٥ - ١٨٠٦ على الأرجح .

لايشكل أى من هذه الأحداث أهمية مماثلة لمولد موهبته المصرية . والذي يمكن إرجاعه لعام ١٨٠٥ وهو فى السادسة عشرة من عمره والتي سنعود للحديث المطول عنها فيما بعد ، لكن هذا لايمنعنا من الاهتمام بتلك التجارب والمبادرات التى قد تبدو ثانوية ولكنها كانت علامات أثرت فى حياة شخص يبحث عن وجهته .

ماهى قصة « الشوشرة الكبرى » ؟ ننقل هنا النص الطريف جداً الذى سرد فيه جان - فرنسوا الأحداث لأخيه كما لو كانت تمرد مساجين :

« [...] بالأمس أفسد مفتش الليسيه كل شئ [...] راح يوزع لكلماته وضربات عصاه فى جميع الاتجاهات .

فى المساء فى البيت الريفى أخذ كل فرد عصا صغيرة معه وأختبأ الجميع فى الظلام [...] فى طريق العودة إلى الليسيه توقفوا عند القلعة وملئت الجيوب بالحجارة . ثم ذهب الجميع للعشاء وحدثت ضوضاء رهيبه . وإذا خشى المفتش أن تقوم ثورة عليه طلب أن يذهب الجميع للصلاة فى قاعة الدراسة ثم التوجه إلى قاعات النوم . ولما بلغت الساعة التاسعة والنصف ألقى الحجارة على زجاج قاعات النوم بعد أن أطفئت الأنوار . فتكسر كله . عندما حضر المفتش ألقى خطبة لم ينتج عنها سوى زيادة الإثارة . وبعد أن انسحب عاد الجميع إلى تكسير الزجاج وأوانى الغرف التى ألقىت على أسوار النوافذ .

لم يعرف المفتش كيف يتصرف ؛ فذهب إلى المعسكر وأحضر العساكر وأدخلهم قاعة النوم وأوقفهم ببنادقهم والسكنى مرفوع مع الأمر « بخوزقة » أول من يتحرك . فثبت الكل ولكن استمر الصراخ بأعلى من ذى قبل . لم تطرف لنا عين طول الليل (8) .

لا أعرف إلى أى مدى ستصل الأمور : إلا أننى لم أشارك فيما حدث ... « لم أشارك فيما حدث » أبعد شئ قابل للتصديق فى كل ماسبق هو هذه الجملة . إذ أن صيغة المبني للمجهول المستخدمة لابد وأنها جمعته هو أيضا .. إن بقية حياة جان فرنسوا ستوضح أنه لم يكن يستثني موقف الحياء أو وقفة المشاهد . لم يكن من طبيعته أن يترك زملاءه يواجهون وحدهم السناكى والعساكر المتريصين بهم « لخوزقتهم » ... الذى حدث هو أن المفتش قرر أن يسدد التلاميذ ثمن الزجاج المكسور .. وقد تكسر منه الكثير كما رأينا ! الذين لن يسددوا لن يتمكنوا من

الخروج الخميس التالى أول أيام العطلة الصيفية من « معسكر الموت » كما أطلق عليه جان - فرنسوا . ويستطرد المراهق قائلًا وهو يمزج حديث العالم بكلمات الخطابة المؤثرة :

« بدأ رجال الإدارة يتطبعون بطباع الشرقيين وهم يعاملون أولياء أمور التلاميذ معاملة البيت العالى لليهود جعلوهم يصلحون على نفقتهم الأماكن التى تضررت من السراى [...] الدفع ، الدفع : أعتقد أنه من الأفضل كتابة هذه الكلمة بحروف من ذهب فوق الباب الرئيسى ... »

وينتهى الخطاب بصرخة الختام : « هل تريد أن تتركنى راكدا فى هذا المقر الجهنمى ؟ » ... الذى حدث هو أن جان - فرنسوا لم يطرد من الليسىه . ولعله كان يأمل فى ذلك - وأبقاه أخوه فى « مقره الجهنمى » . من المحتمل أن يؤرخ لبداية توتر العلاقات بين الشاب القادم من فيچاك وإدارة مدرسته الإمبراطورية بتلك الليالى العاصفة التى شاهدها صيف ١٨٠٥ وسيبلغ هذا التوتر ذروته بحادث الصداقة التى قُوِّضَتْ .

كان مشاغبا أحيانا وغير منتظم فى مستوى تعليمه إلا أن جان - فرنسوا لم يكن أبداً « الأبن الضال » أو الشاب الهائج المنطلق داخل المدرسة . بل هو قادر أن يظهر حماساً منقطع النظير مادام المطلوب منه خارج البرنامج الدراسى المفروض عليه .. وفى هذا الصدد يادر بتأسيس « أكاديمية الفنون » فى إطار المدرسة يقول عنها لأخيه مايلى :

« ... إليك ما نود عمله : سيقوم كل فرد منا كلما أتيح له الوقت بكتابة نص يليق بنا سواء كان شعراً أو نثراً ، ستعقد جلساتنا كل خميس فى فترة الفسحة داخل أحد الفصول . وسوف نحصل على موافقة المفتش . سأعرض عليك الخطاب الذى سألقيه عند إفتتاح الأكاديمية . نود ألا نزيد عددنا عن ثمانية وسيصبح لنا أعضاء منتسبون كثيرون جميعهم متقدمون فى السن بل ربما أكبر منك سناً . أرجوك أن تكتب لنا وإن أمكنك هب لنا إحدى دراساتك [...] إحضر كل ذلك معك غداً عندما تاتى لزيارتنا وسأكون لك ممنوناً » .

وبناء على ذلك وصلت الدعوة التالية إلى حوالى عشرين شخصية من شخصيات مدينة جرونوبل وعليها أسم الليسىه :

« من أكاديمية آلهات الفنون إلى السيد .. »

نسمح لأنفسنا اليوم بأن نخاطبكم راجين أن تساعدوا أكاديمية آلهات الفنون الوليدة لما عرف عنكم من قدرات ومواهب ولذلك نرجو أن نحظى بنصائحكم . إن جميع آمالنا معقودة عليكم لكي نتجح في مشروعاتنا : إننا نعمل على أن نتعلم ونحن نلهو * miscuimus utile dulce ولما كنا مازلنا صغاراً في السن لنتمكن من الحكم السليم على عملنا فإننا نلجأ إليكم لأن رؤاكم السديدة يمكنها أن تقودنا على طريق الفنون الجميلة المزدهرة . فلتكونوا أبوللو بالنسبة لنا ودلونا على الطريق الصحيح المؤدى للبارناس . إننا نتوجه لكم أملين أن تقبلوا أن تكونوا أحد أعضاء المنتسبين .

وسندين لكم بكل العرفان

خدامكم المطيعون

الرئيس وأمين الصندوق

توقيع : شامبوليون « (9)

أسلوب منمق لا بأس به ... يصعب جداً إيجاد تاريخ لهذه المبادرة الأكاديمية . وقد يكون من الممكن إرجاعها إلى السنة الأولى من قبول صديقنا الشاب في المدرسة ١٨٠٤ - ١٨٠٥ لأنها السنة التي كانت فيها إنطلاقاته حرة غير مقهورة بالتوتر والقمع والغضب التالية ، لولا أن الثقة بالنفس التي ينم عنها الخطاب وكذلك العلاقات المقامة مع الشخصيات التي وجه إليها تجعلنا نرجح إعادتها إلى سن الخامسة عشرة من عمر « الرئيس - أمين الصندوق » ونعتبرها إحدى العلامات الدالة على النضج المبكر . غير أن الأخطاء الإملائية المؤسفة لشامبوليون الصغير تعود بنا إلى نقطة الشك .

يبدو أن أحد الأعمال الذي تقدم بها جان فرنسوا وهو في الرابعة عشرة إلى زملائه أعضاء « أكاديمية إلهات الفنون » هذه هي القصة القصيرة التي فضل أن يكتبها شعراً والتي تبدو وكما لو أنها سيرة ذاتية معكوسة .. إنها تحكي قصة شخص عجوز اسمه كوناكسا (وهو عنوان القطعة) وزع ثروته كلها على ابنه وإذ به يجد

* نخلط المفيد بالطريف .

نفسه وحيداً بعد أن نبذه ولداه وأصبح معدماً .. فينصحه أحد أصدقائه باللجوء إلى الحيلة بأن يعلن أنه حصل على كنز كبير وأنه سيترك هذا الكنز لأكثرهما حناناً له ... فأسرع الإثنان بالإلتفاف حوله – وعند وفاة الرجل العجوز في نهاية الأمر لم يجد ولداه بجوار الجنة سوى :

..... هراوة

ومعها عبارة مكتوبة نصها كالآتي :

هذا السلاح لتأديب الآباء الحمقى

لعلاجهم من غبائهم

الذى يجعلهم يتنازلون عن ممتلكاتهم لأبنائهم .

أقل ما يمكن أن يقال عن هذه النهاية أنها لاتعبر قط عن عن العلاقة التي كانت قائمة بين جاك شامبوليون ووالديه ألهم إلا إذا عكسنا الأمور . وهو ماسيتم إثباته بعد مرور عشر سنوات .

حياة جان – فرنسوا إهتزت بما هو أعنف من « شوشرة » وبمعاشرة ألهاث الفنون ... وهو حادث سنطلق عليك من باب التبسيط « حادث فانجيهيز » والمتمثل في قطع علاقة الصداقة المتقدة التي ربطته بأحد زملاءه نزولا على أوامر أساتذته على الرغم من كل الألم واليأس الذى تسبب فيه ذلك .

عندما قبل جان فرنسوا فى الليسيه كان فى الرابعة عشرة مرافقاً مرهف الحس محروماً من الحنان العائلى أقل مايعانيه هو إبتعاده مؤخراً عن داره ... هذا المراهق ركز عاطفته كلها فى أخيه الأكبر الذى كان بمثابة أب حقيقى والمرشد الفكرى الوحيد . دخول المدرسة فى نوفمبر ١٨٠٤ لم يكن صعباً ... ثم أن قاعة النوم لم يكن قد انتهى تجهيزها بعد ولذلك فإن الإقامة بالمدرسة الداخلية تأخرت شهرين وهى المرحلة التى مرت بها فترات تمرد وأسى . كما أشرنا من قبل .

فى السنة الدراسية التالية كان قد بلغ الخامسة عشرة وهى السنة الخطرة ... هل تعرف على جوهانيس فانجيهيس منذ السنة الأولى ؟ يبدو أن الصداقة لم تأخذ طابع الاشتغال بين المراهقين سوى فى السنة الثانية من حياة الدراسة الداخلية لجان

فرنسوا ١٨٠٥ - ١٨٠٦ فى جميع الأحوال فهو لم يشرك فانجيهيس فى مبادرته الأولى
وهى تأسيس « أكاديمية إلهات الفنون » .

وبناء على ذلك يمكن إعادة الأزمة إلى الفترة ما بين ربيع ١٨٠٥ وصيف ١٨٠٦
والتي تعكسها عدة رسائل لجان - فرنسوا والتي تتغير لهجتها ، فلم تعد تعبر عن
غضب التلميذ البليد بل عن بكاء المراهق الرومانسى - دون أن يمنع ذلك الجدل
والتعبير عن السخط . ومثال ذلك خطاب يمكن إرجاعه إلى أواخر عام ١٨٠٤ بعد عدة
أسابيع من دخوله المدرسة جاء فيه :

« أما عن أخطائى فأعتقد أننى لم أخطئ عندما أقول الحقيقة وليد عن
آخر » * .

ولكن بعد ذلك تحل الكآبة مكان الغضب :

« أعترف لك أننى فى غير حالتى الطبيعية منذ بعض الوقت . عاد الحزن يملكنى .
وباختصار فإنى لست على سجيتى . إننى أذبل وأشعر بذلك ... وأعتقد أنه إذا لم أجد
هنا شخصاً يساعد على مرور الزمن ، صديقاً يرفه عنى ، فإنى لن أعيش طويلاً .
أقبلك من كل قلبى . أخوك المطيع » .

هذا « الشخص الذى يساعد على مرور الزمن » - المذكور فى جملة قد لا تكشف
عن شئ - هذا الشخص هو چوهانيس فانجيهيس . إننا لانعرف شيئاً عنه تقريباً
سوى أنه كان - كما كتب عنه جان - فرنسوا لأخيه - صاحب مزاج حزين وغير
إجتماعى وهو ماكنت تلومنى أنا أيضاً عليه » . وأنه كان مريضاً فى السنة التالية خلال
العام الدراسى فترك الليسيه لكى تتم معالجته مع عائلته . وقد عقب على ذلك « بايرون »
المدرسة بقوله :

« ... هل يمكنك أن تخرجنى من المدرسة ؟ لقد ضغطت على نفسى إلى الآن حتى
لا أضايك إلا أن الأمر أصبح غير محتمل بالنسبة لى . إننى أشعر أننى لست
مخلوقاً لأعيش فى زحام مثل الذى نحن به [...] ولعى الأول وهو اللغات الشرقية
لا أعمل فيه سوى مرة واحدة كل يوم . إننى لا أطيق زملائى . غير واحد فقط

* ثلاث كلمات غير مقروءة .

عزيز على لكنه مريض . ولا يمكننى رؤيته . كنا نساعد بعضنا لى نتحمل حياتنا البائسة هنا . أما أنا الحزين المنسى فلا أسعد برؤياك سوى مرة واحدة كل أسبوع * أشعر أنى لست فى صحة جيدة ولا أعرف ما الذى يطبق على وأعتقد أن به خراجاً [...] إذا بقيت هنا فترة طويلة أقسم لك أننى لن أعيش ... ** .

هذا خطاب مثير من عدة وجوه ... إحدى المشاكل التى يثيرها بداية هو التاريخ وعلى الرغم من أنه ذكر فيه يوماً وشهراً : التاسع من يونيو إلا أننا لانعرف من أى عام . مسيو پيير قايان فى كتابه الممتاز الذى جمع فيه مقتطفات من مراسلات جان - فرنسوا شامبوليون تحت عنوان « خطابات لأخيه ١٨٠٤ - ١٨١٨ » يحدد هذا العام بأنه ١٨٠٧ ... غير أنه من الأرجح أن يكون ذلك فى ١٨٠٦ ؛ أولاً لأن مرض فانجيهيس سبق بعدة أشهر إجباره على فض العلاقة وهو ماتسبب فى الأزمة التى سنتعرض للحديث عنها فيما بعد وثانياً لأن إخراج جان - فرنسوا من اللىسييه حدث فى بداية ١٨٠٧ كما سنرى .

فى جميع الأحوال فإن هذا الخطاب يدخل فى إطار تصاعد درامى للأحداث توالى خلاله فترات الحزن الأليم مع التمرد الثائر :

«... إنهم يعذبونى *** منذ فترة طويلة ، إلا أنهم لن يصيبونى أبداً بمثل ما أصابونى به هذه المرة . إذ لم تكفيهم كل الإهانات (التى تحملتها فى صمت) كما لم تكفهم مطاردتهم الشرسة لى وتؤيلهم على هواهم لأكثر أفعالى براءة .. فهم يريدون علاوة على كل ذلك أن ينزعوا منى مايواسينى .

كان لى صديق أحببته من كل قلبى وسأحبه إلى الأبد . وكان يبادلنى الحب بنفس القدر وكان يعيننى على تحمل الآلام والقسوة التى كانت تمارس ضدى . كنا دائماً معاً ولم يرنا أحد مفترقين وكان مصدر سرورى كله وهو الذى كان يساندنى حتى الآن ... هاهم ينقلونى من القسم ، عمداً لى يضايقونى ولقد نصحوه بالابتعاد عن

* الواقع هو أنه كان كثيراً ما يقابل أخاه مرتين فى الأسبوع .

** بعد كلمة « أعيش » كتب « طويلاً » ثم شطبها .

*** يقصد المدرسين .

مصاحبتى لآتى - حسبما قالوا - أفسده * كما لو أن فى أستطاعتهم أن يفسدوه هم ... فلم يأبه صديقى بنصائحهم ويظل عزائى الدائم ، فما كان من هؤلاء الوحوش بعد أن أثارهم إستمرارنا معاً إلا أن نقلوه من القسم الذى أنا فيه ولن أراه سوى عابراً ! لقد فقدت عقلى ، إنى غاضب جداً . متى سينتهى عذابى ؟! مهما عملوا حتى لو أنهم قطعونا إرباً فإنهم لن يغيروا قلوبنا : لعل هذا الجانب من شخصيتهم يساعدك على معرفة شخصياتهم ! »

ثم راح چان - فرنسوا يوسع نطاق النقاش :

« ... أحد مراقبى الدروس وهو متدين متطرف بكل ما فى ذلك التعبير من قوة المعانى وعلاوة على ذلك منافق هو المحرك لهذه العملية . فهو لم يكتفى بأن يفتابنى بل تجرأ على الحديث عنك بأسلوب غير ملائم (علمت ذلك من مصدر موثوق) . إنه لم يجرؤ على ذلك أمامى لآتى لن أتمكن من التحكم فى نفسى .. إنه يعرفنى جيداً .. » صعب جداً أن تجابه مضطهديك وأن تبقى وسطهم . إذا كان هناك إنسان واحد غاضب وتعيش فى المدرسة فهو أنا .. إنهم سيفقدونى صوابى ... »

هانحن - كما يقال - أمام حالة رومانسية حادة علما بأنه يجب استخدام كلمة رومانسية بتحفظ عند الحديث عن چان - فرنسوا شامبوليون : لأنه لو كان رومانتيكى بحق لكان إستخدم كلمة « قلب » بدلاً من « صواب » . حتى قبل أن يعرف بايرون أو « رونه » (لقد قرأ روسو) فما هو وحيد وترك وحيداً وقد تملكه الغضب من عالم يعاديه ويغار منه .

« إنهم لن يغيروا من قلوبنا » ... ماذا يعنى اتهام « الإفساد » الذى وجه لچان - فرنسوا ؟ معروف كم هو شائع هذا النوع من القصص فى المدارس كما أن الغيرة أو التزمت يمكنهما أن يفجرا الفضائح حول صداقة معلنة أكثر من غيرها . لاشئ يجعلنا نعتقد أن شيئاً بين الشابين تعدى حدود التعاطف المتبادل الذى أثار بعض ذوى العقليات المريضة . وسيتعرف صاحبنا بعد ذلك بقليل على أصدقاء ستربطهم به صداقات قوية وخاصة أوجوستان تيفنيه أحد أبناء أسرة من الأسر العريقة فى مدينة جرونوبل والذى سيبقى وفياً له إلى أن مات . لاشئ غير ذلك ولا أكثر من ذلك .

* وضع خط تحت الكلمة فى غضب .

سرعان ماسنراه أكثر هدوءاً ، قابلاً للندم – باحثاً عن حل وعائد لدراساته
العزيزة وستهبط حدة النبرات ويصبح الكلام أكثر وضوحاً :

«... أنا وحدي وسط كتبي باللغة العبرية وهذا لا يغضبني كثيراً . إلا أنني
أشعر أن ذلك سيزيد من كرهى للآخرين . كما أن مزاجى الاجتماعى سيزداد قوة
على قوة على الرغم من أنى أتصور ماقد يترتب على ذلك كما سبق ولفت نظرى إليه
كثيراً . [...] سامحنى يا أخى العزيز إذا كنت تصرف بطريقتى هوجاء وبدون تفكير ،
واقبل إعتذارى . لقد فكرت وأرجوك أن تحدد لى كيف أتصرف [...] وأقسم لك
أننى لن أحمدا عما سترسمه لى من مسار . سوف أهتم وبنشاط بدراسة العبرية
واليونانية ... »

وه مع ذلك فهو لا ينسى المطالبة بالحرية التى كان أخوه يعمل لها من أجله وكان على
علم بذلك :

« حاول أن تخرجنى من هنا ، أرجوك ... وإلا سأصبح أكثر الرجال بؤساً . متأسف !
لا أريد أن أخفى عنك شيئاً . لقد فتحت لك قلبى . وقرأت ما فيه . إنك تعرف المرض
الذى أعانيه – عالج . وتأكد وإلى الأبد من حب وإمتنان أخيك المطيع والذى يكن
لك كل الاحترام ... »

الامتحان ؟؟ كان الشاب يعرف أسباب هذا الامتحان الذى هو مدين له به .
إلا أن خطاب چاك – جوزيف المؤرخ ٢٢ سبتمبر ١٨٠٦ أى بعد أكثر من ثلاثة
شهور بقليل من صراخه طلباً للنجدة الذى أطلقه فى ٩ يونيو جعله يأمل أن
الإجراءات التى يقوم بها أخوه الأكبر فى باريس لكى ينتقل إليها قد أوشكت على
النجاح ، وسنعود إلى الحديث عن ذلك بعد أن نكون أعتبرنا فى ذلك نهاية موضوع
« فانچيهيس » .

لم يكن چان – فرنسوا سعيداً فى الليسيه ولكنه كان يعمل . وكان أساتذته
يقدرون مواهبه لدرجة أنهم أناطوا به مسئولية التعبير عن جودة التعليم الذى تقدمه
المدرسة فى خطاب عام ألقاه بمناسبة زيارة قام بها المحافظ لهذه المؤسسة التعليمية
فى أغسطس ١٨٠٦ (وذلك بناء على طلب جوزيف فورييه) . لقد رفض الشاب غير
المحب للآخرين فى بادئ الأمر الحديث أمام الجمهور وخاصة أمام « فورييه » العظيم
وكتب خطاباً لأخيه جاء فيه :

« أنى بالفعل غاضب من الشرف الذى يريد السيد المحافظ تكريمه به ، فأنا أعتقد أنه من المستحيل على أن أتقلب على الخجل .. فإذا كنت فى الأصل أرتبك فى حضور أربعة أشخاص فما بالك بما سيحدث أمام ألف ، أرجو أن تفعل كل شئ ممكن لكى لا يحدث ذاك [...] كما أرجو أن تتأكد أن السبب وراء ذلك ليس عدم معرفتى إنك أدري بالأمور » .

نعم ! ليس السبب عدم المعرفة .. ومن السهل علينا أن نتصور رد فعل الأخ الأكبر ، هذا الطموح العاقل الذى لن يسمح لمثل هذه الفرص أن تمر دون أن يلفت نظر هذه الشخصية الهامة والتي سيتوقف عليها وإلى حين مستقبلهما المشترك . وبالفعل إضطر جان - فرنسوا إلى الأنصياح لتعليمات أخيه .. حتى أن صحيفة « حوليات الإيزار » نشرت فى عدد ٣١ أغسطس ١٨٠٦ السطور الآتية :

« قام العديد من التلاميذ بدراسات ليست مقررة عليهم فى الليسيه فى أوقات فراغهم . وهكذا رأينا الشاب جان - فرنسوا شامبولىون وهو من التلاميذ الوطنيين يشرح خلال الامتحان العلنى . جزء من سفر التكوين وذلك من النص العبرى وذلك بعد أن أجاب على بعض الأسئلة التى طرحت عليه فى اللغات الشرقية عامة ... وقد عبر السيد المحافظ الذى وزع الشهادات على الناجحين عن رضاه التام عن التنافس القائم بين هؤلاء الشبان المتحمسين ... » (10) .

التوراه والقرآن واللغة اليونانية والسريانية والآثيوبية والكالدية (أو الأرامية) ... إن مجموعته اللغوية تزداد ثراءً بصورة ملفتة . ولكن ما الذى سيجعل من اللغة المقدسة المصرية المحور الذى ستدور حياته حوله وسيصنع منها نجمه الهادى ؟ ، من الذى سيزرع فيه هذا الهاتف المتسامى والمسيطر ؟ مازال چاك - جوزيف هو الدليل والمحفز والممول دون منازع . ولكن لعله كان يود أن يرى أخاه يتمسك بالتعددية التى تجعل منه « عالم الآثار القديمة » الأعظم ، رجل الشرق فى مجمله من الناحيتين الجمالية والروحية .

استمر دور الأخ الأكبر حاكماً فى هذا المجال . ولكن يجب أن نبحت عن مشجعين آخرين دفعوا شامبولىون الصغير على طريق مغامرته العظمى . فى أول صفوف هؤلاء يقف جوزيف فورييه شامخاً فهو عالم الطبيعة العبرى الذى جعل منه بونابارت الراعى الأول لعلم المصريات على نفس مستوى ثيافان دينون . ولذلك سنتوقف قليلاً أمام هذا الرجل العجيب الذى لولاه لما أصبح شامبولىون هو شامبولىون بل لعله ظل ببساطة عالم لغات مرموقاً أو مدرس تاريخ قديم .

ما هو الطريق الذى سلكه چان - باتيست فورييه لى يصبح وهو فى الرابعة والثلاثين محافظا لمقاطعة الإيزار فى أبريل ١٨٠٢ ؟ لقد ولد فى مدينة أوسار عام ١٧٦٨ لأب خياط . أصبح يتيماً عندما بلغ الثامنة واحتضنه الأباء البنيديكتيون الذين أعدوه فى البداية ليدخل السلك العسكرى ولكنهم بعد فترة أرادوا أن يدخلوه سلك الرهبنة . وبعد أن إرتدى لباس طالب الرهبنة إندلعت الثورة .. فتخلّى عن فكرة التنسك فى دير « سان - بنوا - سور لوار » وكرس وقته لدراسة الرياضيات والطبيعة مشتركاً فى الوقت ذاته بصورة إيجابية فى الثورة . وقد أوشك على أن يمر برقبته تحت المقصلة عندما إتهم بأنه من المعتدلين وذلك فى عام ١٧٩٤ .. وكان قباب قوسين من الخروج فى « التطهير » بسبب شهرته بأنه من اليعقوبيين (چاكوبان) فى ١٧٩٥ ... » .

كان أستاذ التحليل فى المدرسة الهندسية العليا (بوليتكنيك) وبهذه الصفة إصطحبه بوناپارت معه إلى مصر حيث أصبح من أقرب الناس إليه . والسكرتير العام لمعهد القاهرة « الأنستيتو » * ثم أصبح مؤسس مكتبة القاهرة وراعى البعثة العلمية لمصر العليا عام ١٧٩٩ ** ومندوب القائد العام فى « الديوان » العمومى .. وقد أبلى فى كل ذلك بلاء حسناً مما حدا بالقنصل الأول أن يعينه محافظا لمقاطعة الإيزير بعد عودته من مصر بوقت قصير . وقد منعه المنصب لفترة من الاستمرار فى أبحاثه العلمية عن انتشار الحرارة والتي كان إسمه قد اقترن بها قبل كل ذلك . وعلاوة على كل ما سبق لم يكتف الإمبراطور بأن حمّله مسئولية إحدى أكثر المحافظات حساسية وأقلها سهولة فى المعاملة فى فرنسا كلها بل كلفه فوق كل ذلك بمهمة كتابة المقدمة التاريخية لكتاب « وصف مصر » العظيم . وقد قبل جوزيف فورييه التحدى المثلث الأضلاع ونجح فيه بعد سبع سنوات من وصوله إلى مقاطعة الإيزار وسلم الناشر نص المقدمة والتي ساعد فى تحريرها بجهد ضخم چاك - جوزيف شامبوليون بمعاونة أخيه الأصغر ... وهو ماسنعود للحديث عنه فيما بعد . بعد ذلك بسنتين أنهى كتابه العظيم عن « النظرية الرياضية للحرارة » وهو الذى فتح أمامه أبواب أكاديمية العلوم . بعد مائة وخمسة وستين عاماً حيا كل من إيليا پريجوجين وإيزاباك ساندازز فى كتابهما

* الآن المجمع العلمى المصرى .

** راجع التمهيد ص ٣٧ .

« الحلف الجديد » La Nouvelle Alliance . عمق وحدانية هذا المؤلف والذي يمكن مقارنته بأعمال نيوتن * .

فى بداية القرن التاسع عشر كان جوزيف فورييه يعتبر الوريث الأمثل لقرن التنوير . وكانت شهرته كعالم وكشخصية عامة واسعة جداً . كان أيضاً إحدى الشخصيات المرموقة فى الحركة الماسونية وكانت شهرته تجوب أوروبا كلها وكان شديد الاهتمام بكل شئ وعالمياً فذا فى العديد منها . وارتبط بأمجاد بونابارت ولذلك فإن هذا « البورجينيونى » (من مقاطعة بورجونى) ذا الوجه السمع الواضح ، والملامح النبيلة والهيئة المتفتحة والقلب الطيب والمقبل على الحياة والمتحدث اللبق كان يعتبر « شخصية » بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معان . كان رأى الأخوين شامبوليون فيه عال جداً ويبدو ذلك واضحاً فى مراسلاتهما التى كانت تمتلئ بالعديد من كلمات الـ « خرية عن الكثير من معاصريهما ولكن فيما يتعلق بجوزيف فورييه فقد أطلقا عليه كناية جميلة هى « كريئزوستوم » .

لدى تكليف بونابارت سكرتير عام « معهد مصر » سابقاً بتحرير المقدمة التاريخية « لوصف مصر » أراد أن يجد له مساعداً فى استطاعته أن يجمع له مراجع لم تكن متوافرة فى جرونويل وأن يساعده علاوة على ذلك فى كتابة المقدمة .. لم يكن ممكناً ألا يفكر فى ذلك الشاب المثقف النشط الخدم العالم ببواطن الأمور وعلاوة على كل ذلك له شبكة علاقات جيدة .. وهكذا أصبح چاك - جوزيف شامبوليون فيچاك منذ عام ١٨٠٤ مشاركاً فى هذا المشروع الضخم . حيث لجأ إلى مقدرات أخيه الأصغر التخصصية الذى قدم له عوناً هائلاً متمثلاً فى مذكرات شملت عدداً من الموضوعات التاريخية والجمالية . ولكن ظل الأخ الأكبر وحده فى الصورة أمام المحافظ .

* عن « فورييه » وصلتنا من السيد / جورج شاريك هذه المذكرة : « ما إصطلاح على تسميته الآن » مجاميع فورييه وأصوله « أصبح لها أهمية وشمولية تتعدى بكثير هدفها الأسمى . يوجد العديد من المجالات الأخرى فى علم الطبيعة وفى الهندسة تستخدم بشكل روتينى الأساليب التى طورها فورييه . إن جميع مسائل تحليل الصور تلجأ إليها مثل تلك التى تثار لدى إستخدام الكشف بأشعة إكس أو الكشف عن الأورام بالموجات فوق الصوتية .

« الأبحاث فى مجال هيكل الجزئيات الكبيرة بواسطة التقنيات البللورية التى هى الأساس فى دراسات بيولوجيا الجزئيات تلجأ بكثرة إلى « تحويلات فورييه » كما أن بعض التقدم الذى طرأ مؤخراً على هذا المجال يرجع إلى أن الحاسبات الإلكترونية أصبحت تقوم بحساب هذه التحويلات بسرعة أكبر بكثير من ذى قبل » .

نشط چاك - جوزيف لدرجة أن جوزيف فورييه اعتبره من أصدقائه ، وقد ساعد على ذلك ماكان يحظى به شامبليون الكبير من حسن الطوية ، عشر سنوات كانت تفصل الرجلين سنا والعديد من الاهتمامات كانت تجمعهما فكرا . وفى عام ١٨٠٥ وقعت فى أيدي چاك - جوزيف - بفضل صديقه جامع الكتب جارييل - مراسلات عالم الرياضيات الألمانى العظيم ليونهارد أولار . فقدمها لفورييه وقد أتاح له ذلك أن يحرر مداخلة قدمها لأكاديمية جرونوبل فحازت إعجابا كبيرا . أنها سمحت له بتوسيع أفاق أبحاثه ... ولم يكن عالم الطبيعة من الجاحدين !

هكذا تواترت دعوات المحافظ للتاجر عالم الآثار لحضور حفلات الاستقبال التى ينظمها ، والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل كان الأخ الأكبر يصطحب أخاه معه فى هذه الحفلات والإجابة كانت ستسمح بتحديد المهة الحقيقى الذى ولد فيه هاتف الدراسات المصرية القديمة فى قلب مكتشف أسرار الهيروغليفية أى قاعات إستقبال جوزيف فورييه .

كل المؤشرات تؤيد فكرة اقتياد چاك - جوزيف لأخيه إلى متحف مدينة جرونوبل حيث عرض عليه وشرح له ماهية المومياء التى كانت من أهم التحف المعروضة وكأنه قد أهداها للمدينة القنصل الفرس ح . ب مور فهو من مقاطعة الدوفينييه أصلا ومثل فرنسا فى مصر لفترة فى عام ١٧٩٩ . ولكن التقليل من شأن كل ما ساعد على تعريفه بمصر بداية بكتاب فيثان دونون لايمكن أن نحدد المكان الذى « تبلورت » فيه الاتجاهات المصرية لدى چان فرنسوا شامبليون خارج مقر جوزيف فورييه العظيم فهو شاهد لامثيل له وعالم أصيل .

إن الإغراء على اعتقاد ذلك جامع لدرجة أن هيرمبنى هارتلوبان قد وقعت فى براثنه : فراحت تصف بدقة مؤثرة حوارا بين المرشد الكبير والطفل النابغة تماماً كما لو كان اللقاء بين أرسطو والأسكندر ... ولذا فإن الإغراء كان عظيما بأن تؤسس على هذه المحاورات انتقال شعلة المعرفة من الرجل الكبير إلى الشاب الصغير .

غير أن هناك شك أولى : إن مدام هارتلوبان تحدد موعد اللقاء الأول فى خريف ١٨٠٢ . (11) لكن هل يمكن أن نصدق أن هذه الشخصية الكبيرة التى لم يكن قد مضى على حضورها إلى جرونوبل سوى أقل من ستة أشهر وكانت المسئوليات الضخمة والمسئوليات ترهق كاهلها قد وجدت الوقت لاستقبال صبي عمره أحد عشر عاماً مهما كان هذا الولد موهوباً ؟ علاوة على أن أول دليل على تبادل كتابى شخصى

بين چاك - جوزيف والمحافظ هو الخطاب المؤرخ أكتوبر ١٨٠٣ .. ولذا لا يمكن تصديق أن شامبوليون فيچاك قد تمكن من محاصرة فورييه فى تلك الفترة لكى يقدم له أخاه .

كما يوجد مؤشر سلبى آخر وهو عدم وجود أى أثر لهذه اللحظة التاريخية فى مراسلات تلميذ الليسيه . هل يمكن أن نتصور ألا يشير الصبى إلى مقابلته لرجل الحملة المصرية المحاط بهالة من الأعمال الرائعة فى مراسلاته ؟ وهو الذى كان يسرد فيها كل شئ عن ذاته وأعلامه وطموحاته وولعه بالشرق ؟

الواقع هو أن الأمور أبسط من ذلك وأقل إثارة وتشويقاً . فإذا كان جان - فرنسوا شامبوليون قد حظى - بناء على تدخل من أخيه - بشرف إثبات ذاته أمام «فورييه» خلال الزيارة التى قام بها الليسيه عام ١٨٠٦ وبيع بعض الامتيازات مثل إعفائه من الخدمة العسكرية أو تسهيل عمله فى السلك الجامعى فإن أسطورة حوار المطول مع الأمين العام السابق « لمعهد مصر » تفشل فى اجتياز تجربة مراجعة مراسلات الشقيقتين .

كما أن هناك شاهداً آخر يتمثل فى خطاب أرسله فيچاك إلى « صغير » مؤرخ فى ٤ يوليو ١٨٠٩ - أى بعد سبع سنوات من البداية المفترضة للعلاقات المتميزة بين عالم الطبيعة الكبير وتلميذ الليسيه الموهوب فى اللغات يحاول فيه الأخ الأكبر إقناع أخيه الموجود حينذاك فى باريس أن يذهب للقاء « فورييه » الذى كان يزورها لفترة :

«... يجب ألا تضايقك هذه الزيارة . إن السيد / فورييه رجل ممتاز فهو طيب وودود أيضاً . وهو مصرى مثلك وهو يحبك لعلمه بميوالك المعرفية وأعمالك وفيما بيننا فهو يقدرك أكثر من العديد من أعضاء « اللجنة » * وإنى على يقين من أنك ستسعد بالتعرف عليه شخصياً ...» .

« التعرف عليه شخصياً » ... « .. هو مصرى مثلك .. » لا يوجد حرف واحد فيما سبق لا يشترك فى تدمير الأسطورة . والواضح هو أن فورييه كان صديق چاك - جوزيف صديقه هو وحده . وما يكون الأخ الصغير قد رافق أخاه إلى مقر المحافظة لحضور حفل أو للزيارة ولكن چاك - جوزيف رأى عدم تقديمه للرجل الكبير فى تلك الفترة المبكرة .

* لجنة مصر ، التى يرأسها چومار .

هيرميني هارتلويان عندما أسست مواد علم المصريات على مقابلة شخصية بين جان - فرنسوا شامبوليون وجوزيف فورييه إستجابت لإغراء ميل متأصل لديها - يتكرر كثيرا بوضوح وبطريقة مثيرة للعواطف - أن تظهر شامبوليون فى صورة الطفل المعجزة مثل يسوع وسط العلماء - فى حين أن عبقرية المكتشف قد تكونت على مراحل وبطريقة أكثر عقلانية بواسطة المقارنة والمنافسة مع قدر مماثل من الإلهام .

ومع ذلك يجب أن نقر أن نظرية الطفل العبقرى تؤيدها بعض الأسانيد . يذكر من - أو - كاربونال عدة خطابات وصلت چاك - جوزيف من أصدقاء له مثل مارتان وجاريل يتحدثون فيه عن الصبى وهو فى الثالثة عشرة من عمره (١٨٠٤) على أنه «عالم أثار المستقبل الكبير» الذى سيحل محل «سكاليجية ...» * .

ألا تتم هذه المقابلة مع فورييه قبل عام ١٨٠٩ لا يقلل من أهميتها التاريخية إلا أنها تبقى هامة للغاية بمقدار أهمية العوامل الأخرى المكونة «للإلهام» المصرى الذى هبط على مكتشف الغد وهى : غوصه فى دراسة اللغات الشرقية منذ مرحلة الدراسة لدى الأب دوسار وقراءة كتاب فيثان دونان (الذى نشر عام ١٨٠٢) حيث وجد على وجه الخصوص البردية المشهورة - (لوحة رقم ١٢٨) والتي ستكون فيما بعد إحدى أدوات عمله .

إذا كانت الرعاية التى خص بها فورييه جان - فرنسوا شامبوليون أقل تأثير عليه فى اختيار طريق علم المصريات عن الاعتقاد السائد فإن ذلك لا يمنع أن تأثيرها لا يقدر بثمن ، لقد كان محافظ الإيزار يجذب حوله جميع من كان يُعتد به فى مجال التعليم وفى مجال العلوم المتعلقة بمصر . وهو ما أتاح لچاك - جوزيف فرصة التعرف على شخصيات ذات تأثير على الجامعة مثل جان - باتيست بيو وهو عالم الرياضيات الذى تكاد تبلغ شهرته شهرة مونج وكذلك أنطوان فوركروا عالم الكيمياء مفتش عام التعليم الحكومى والذى سنراه يجد فى الدفاع عنهما فيما بعد .

غير أن أكثر الشخصيات تأثيرا ضمن هؤلاء الذين تعرفنا عليهم بفضل جوزيف فورييه هو أحد قدماء الحملة على مصر « دوم رافائيل دى موناشيس » . كان هذا الراهب من أصل يونانى وقد عاش لفترة طويلة فى سوريا . ثم أصبح بعد ذلك - إلى جانب فانتور دى بارادى - أحد « المستشرقين الشرقيين » لبونابارت . وأعيد إلى

* جوليو سيزارى سكاليجية عالم لغات إيطالى من القرن السادس عشر والذى يعتبر كتابه « الشاعرية » المحاولة الأولى لعقلنة اللغويات .

فرنسا عام ١٨٠٢ بصفتها هذه ليصبح أستاذ اللغة العربية في المدرسة الخاصة للغات الشرقية . كان إمامه باللغة القبطية كافيا لتوضيح أهميته القصوى لهؤلاء الذين كانوا يحاولون إلقاء الضوء على اللغة المقدسة للمصريين القدماء .

من المرجح أن يكون دوم رافائيل هو السبب وراء إدراك جان - فرانسوا أن اللغة القبطية هي الجسر الذي لاغنى عنه للوصول إلى تفسير الرموز الفرعونية والتي هي بدورها النسخة المتأثرة باللغة اليونانية التي تحدث بها وكتب بها قدماء المصريين . (ويجيئ دوم رافائيل في هذا المجال بعد أتاناز كيرشار الذي تتلمذ بدوره على يد المثقف « بيرسك ») * . وعلى العموم فإن الشيء المؤكد هو أن الشراة الاستشراقية لصديقنا الشاب قد إتسعت للغاية مارة بثلاث مراحل حول محور مصرى أولاً ثم قبطى وأخيراً هيروغليفى .

ومنذ ذلك الحين أضفى ميل جان - فرنسوا للهروب صبغة ملحة لدرجة مرضية . فلم يصبح الأمر فقط مسألة إشمنزاز من الليسيه بل أضيف إلى ذلك عطش حاد لاكتشاف هذا المجال الجديد وهو اللغة القبطية ولم تكن جرونوبل تتيح له أية إمكانية معرفتها ، وثائق ولا أشخاصاً يمكن مراجعتهم فيها فيما عدا دوم رافائيل الذى زارها مرتين ولفترات قصيرة جداً عامى ١٨٠٥ و ١٨٠٧ .. لم يبق أمام جان - فرنسوا سوى باريس كحقل معرفى ينهل منه .

كما هو الحال دائماً تقريباً سنرجع إلى مراسلاته للبحث عن الإشارات التى توضح طريقة تطوره وكيفية تطوره وكيفية إرتفاع حدة رغبته فى المعرفة . وسنجد فى هذه الرسائل إشارة ذكرها عام ١٨٠٥ إلى « قائمة بحكام مصر » ولعل أوضح تعبير عن توجهه المصرى يبدو جلياً فى خطاب موجه إلى أسرته - بيد جاك جوزيف : إذ كتب يقول : « أريد أن أقوم بدراسة متعمقة ومتواصلة عن هذه الأمة العريقة . إن الحماس الذى حركه فى نفسى وصف آثارهم العملاقة والإعجاب التى أثارتها عظمتهم وعلومهم سينموان كلما زدت علماً بها . أعترف وأقر لكم أنه لا يوجد شعب من جميع الشعوب التى أفضلها يعادل فى قلبى حبي المصريين ! » .

هذا الخطاب الذى خطه غلام فى الخامسة عشرة يثير الفضول : لأنه مذكور فى جميع كتب من أرخوا لجان - فرنسوا شامبولىون : إيمى شامبولىون - فيچاك

* راجع الفصل التاسع .

وهيرمنى هارتلوبان وليون دولابرييار ومادلهين پوربوان . ولكنه غير مذكور فى أى من الأرشيفات . ومع ذلك فليس المقصود هنا هو التشكيك فى صحته . ولكن التساؤل هو حول الأسلوب الخطابى للرسالة ولعله يعود إلى إضافات من وضع أخيه الأكبر ؟ وربما يعود ذلك أيضا إلى شخصية من كان يخاطبهما أى والديه أو إلى مايتضمنه « تعهده » هذا من مهابة حتى أن المرء يخاله يعلن قبوله دخول الدير والرهبة .

ولكن يوجد جانب من شخصيته يعبر عن تفرد أصغر الأخين شامبوليون ، نجده فى الخطاب الذى بعث به لأخيه وأرفق به الخطاب المتضمن تعهده الذى قطعه على نفسه لوالديه . فقد أضاف ملحوظة فى نهاية خطاب أخيه نصها الآتى : « إذا دفعك فضولك إلى رؤية « الأزينيناد » فسأعطيها لك يوم الأحد .. إنها قصيدة بطولية مثل « الإلياذة والإنبيد والهزياة .. إلخ » .

تحول فى المواقف يثير الدهشة !! فى اللحظة نفسها التى يقسم فيها علنا على تكريس حياته للعلم مثلما يفعل الآخرون لدى دخولهم سلك الرهبة ، يعلن جان - فرنسوا لأخيه عن عمل كتبه على طريقة سكارون (كاتب ساخر فرنسى من القرن السابع عشر) وهو عمل ملحمى إبطاله من الحمير على ما يبدو - وهو يعبر بشكل مثير للضحك عن معرفته بمصر حيث يؤدى هذا الحيوان منذ الأزل دورا أساسيا كما ذكر هيرودوت . وكذلك أعضاء الحملة الفرنسية على مصر فى ١٧٩٨ ولا يوجد شخص أثنى على الحمير بأفضل مما قاله جان فرنسوا ذاته عندما زار مصر عام ١٨٢٨ .

وعلى الرغم من هذه الملحوظة الإضافية فإننا سنعتبر هذا « التعهد » أو المانيفستو العائلى نقطة تحول فى حياة كاشف أسرار الفراعنة ، حدثت بعد بضعة شهور من لقائه بنوم رافائيل .

وحدث بعد ذلك فى صيف ١٨٠٦ عندما سمع عمدة جرونويل جان فرنسوا وهو يتناقش مع ابنه فى مسائل خاصة بالنباتات وسأله وهو مازال فى الخامسة عشرة من عمره إذا كان يود أن يتخصص فى العلوم الطبيعية ، رد عليه قائلا بجدية أدهشت العمدة : « كلا ياسيدى - أريد أن أنذر حياتى لدراسة مصر القديمة »⁽¹²⁾ لم يكن قد تطرق بعد إلى الحديث عن الهيروغليفية .. ولكن يجب أن نلاحظ أن كل ما يهمه يؤدى فى النهاية إليها : اللغات المقارنة والتاريخ والجغرافيا وعلى الخصوص دراسة هذين الكاتبين اليونانيين اللذين قاما بجهد كبير فى هذا الاتجاه وهما مورابولون وكليمان السكندرى .

وفى جميع الأحوال فالشئ الواضح هو أن البحث العظيم الذى كان بصدد مكرساً له حياته فى صيف ١٨٠٦ تقريباً لم يدفعه إليه انبهاره ببلد غريب ولم تحركه فيه رؤية الروائع التى كشفها جوزيف فورييه . فقد عمل منذ البداية على أن يقوم بحثه على أسلوب علمى . كل شئ أصبح مادة للتشبيه والمراجعة والمقارنة اللغوية .

« اطلعت فى كتاب « آلية اللغات » على المساجلة بين السيدين فالكونيه وفرينيه عن معنى كلمة « دونوم » : الأول يفضل إعطاء معنى مكان معروف وهو ما يتوافق بطريقة لابأس بها مع كلمة أوكسيلودونوم أو كابديناك * . فى حين يقول الآخر تعنى مكاناً مأهولاً . ولكى أتأكد بحثت فى الأصول العبرية فوجدت أن « دوم » تعنى « مدينة » : مثل « المدينة » فى الجزيرة العربية كما أن « ديناس » تعنى مدينة بلغة مقاطعة بريطاني فى عهد الاضمحلال . أما فى اللغة اليونانية فقد وجدت « دينا » ومعناها « جب » . كما أن فالكونيه يدعى أن « دونوم » تعنى جبل . فى المفاتيح الصينية وجدت « تشان - إى ، وتا - إى وجميعها لا تتفق مع « دونوم » التى تعنى جبل » .

وقد يقول البعض أن فى ذلك جهداً كبيراً ضائعاً من أجل إكتشاف أن تركيبة الكلمات اللاتينية لا تقبل المقارنة مع الكلمات الصينية . لكن لا توجد إكتشافات غير مجدية كما لا توجد محاولات لا تؤتى بعض الثمار وحتى يدعم تمكنه من موضوعه ولكى يوسع مجال بحثه بدأ فى عام ١٨٠٧ مغامرة جسورة متمثلة فى عمل خريطة وكتابة « قاموس جغرافى للشرق » مع إعطاء إهتمام خاص لوادى النيل . لكن سيتضح أن كلمة « جغرافى » لم تكن سوى طريقة فى التعبير ؛ إذ سنراه يهتم أيضاً بذكر الأسر الملكية والطوبوغرافيا وأصول الكلمات وأشكالها وأسماء المواقع الجغرافية وأصلها (onomastique & toponymie) .

كتب إلى أخيه الأكبر يقول :

« أوشكت على الانتهاء من قاموس . هل تكرمت على « بأن تسأل مسيودى لاسالات ** أن يعطيك المجلد الأول من « المكتبة الشرقية » . أريد قراءة هذا الكتاب لأنه مرجع يجب العودة إليه باستمرار حتى يمكن السير بخطى ثابتة فى متاهة الأسرار الشرقية . وعلى العموم فإن التعود على معرفة الأسماء الشرقية يبدأ هنا فقط كما

* قرية صغيرة تقع بالقرب من فيچاك فوق مرتفع . فهل كانت نفس مدينة أوكسيلودونوم الذى قال قيصر أنه فتحها ؟ حاول الأخوان شامبوليون الرد على هذا التساؤل عام ١٨١٧ . (راجع الفصل السابع) .

** جنرال متقاعد فى سلاح المدفعية أصبح من المثقفين وعالم فى الموسيقى .

نشحن ذاكرتنا بمعلومات غاية فى الضرورة لشخص كرس حياته للقيام بدراسة خاصة عن الشرقيين » .

إن الذى يثير شغفه العلمى فى هذا العمل هو إعادة إكتشاف الأصول القديمة للأسماء المعربة الآن فى مصر . فهو يتساءل إن هو رفع الحجاب الذى فرضه الفتح وأعاد الأسماء الأصلية إلى الحياة فهل سيجد الكلمات ذاتها التى كان يستخدمها أسياى وادى النيل ثم الأقباط من بعدهم لعلهم يكونون قد إحتفظوا بنفس المعطيات الصوتية دون الاحتفاظ بلغة كتابتها .

إننا نعرف جميع محاولات هذا المراهق صاحب الخمسة عشر عاما الذى كتب خلال أجازة صيف ١٨٠٦ وهو فى ضيافة أحد أولاد عمومته « بحثا مختصرا فى علم النميات (دراسة القطع النقدية والميداليات .. إلخ) العبرانية من عشرين صفحة تقريبا » وكذلك تعليقا على « سفر أشعيا » و يترجم سفر الخروج ويدرس الجغرافيين العرب إن الأوردي والبكوى ويلتهم الكتب والقواميس فى غرفته بليسيه جرونوبل .

لعلنا نسبق الأمور بتصوير ما يدور فى رأسه ... ولكن ماذا عن أخيه الأكبر الذى لم يخطئ فى تقدير هل سيجب نشاط أخيه مجمل المجال الشرقى أم أنه سيركز مجهوده على مصر ؟ لقد أيقن أن هذا الأخ الذى تولى أمره قد بدأ بالفعل السير فى طريق سيقوده إلى أفاق بعيدة .

فى ١٨٠٦ كتب الأخ الأكبر إلى صديقه ورائده ميلان يسأله عن الطريق الذى يجب تمهيده أمام أخيه الصغير الذى لم تعد إمكانيات مدينة جرونوبل تدخر ما يصلح له من غذاء علمى .. فرد عليه مدير « المخزن الإنسيكلوبيدى » أن أمامه إمكانيات إما دخول الكولاج دوفرانس ليتتلمذ على سيلفاستر دوساسى أو جامعة جوتينجان .

سينتهز چاك - جوزيف أول فرصة لتمكين أخيه من الإقامة فى باريس . فالصداقة التى يكنها له فورييه وأصدقائه فى جرونوبل وتلك التى تربطه بميلان فى باريس وإنتخابه عضواً فى أكاديمية العلوم والفنون بجرونوبل ، كل ذلك أعطى ثقلاً لمحاولاته خاصة وأن چان فرنسوا دعى وهو مازال فى الخامسة عشر والنصف من العمر فى ٢٧ مايو ١٨٠٧ ليعرض أمام هذه المؤسسة ذات السمعة الرفيعة « ملاحظاته على قصص العمالقة طبقا لأصول الأسماء العبرية » .

سافر چاك - جوزيف شامبوليون فيچاك إلى باريس في أغسطس وسبق بها حتى سبتمبر ١٨٠٦ ولم تزل تدور في رأسه توسلات أخيه المكتوبة والتي كررها له شخصيا عند لقائهما عدة مرات بأن يخرج من هذه « الإقامة الجهنمية » في اليسييه الإمبراطوري .. وجاءت حادثة « فانجيهيس » لتحرك السلاح داخل الجرح فتعمقه . كان النجاح الذي أدركه في شرحه للتوراه بالعبرية أمام المحافظ وأبرز المواهب التي تم إكتشافها لدى جان - فرنسوا .. حافز الأخ الكبير لبدأ حملته .

راح مزوداً بخطاب توصية من جوزيف فورييه للقاء أنطوان فوركرو المدير العام للتعليم العام في شهر سبتمبر وطالبه بإدخال أخيه إحدى المؤسسات التعليمية العليا المتخصصة في اللغات الشرقية وإن أمكن في المكتبة الإمبراطورية .

لدينا عن نجاح هذه المهمة .. ولو جزئياً .. شهادتان الأولى من فوركرو إلى فورييه عبارة عن مذكرة مؤرخة ٣ أكتوبر ١٨٠٦ تعرب فيها الشخصية الهامة عن نيتها « إيجاد مكان لهذا الشاب المثير للانتباه يتناسب ومعلوماته » ... والأخرى خطاب من چاك - جوزيف لأخيه مؤرخ في باريس ، ٢٢ سبتمبر ١٨٠٦ ، ويعد بمثابة وصف شيق للعلاقات التي تربط الشقيقين :

« ... يسعدني أن أراك مستمرا في ترجمة سفر « أشعيا » وكذلك « الخروج » ، إن أنت أتقنتهما فلا بد وأن تكون مقبولة وستكون مثل هدية تعطيها لي .. إنني أرجو أن تسعدك هديتي التي أحضرها لك بنفس المقدار إلا أنني غير متأكد من أنك قد تجد أحد الجوانب السيئة [...] ولعل أول هذه الجوانب سيكون مؤلماً لك لو كنت أقل تعقلاً ولو أنك لم تعرف كيف تتحمل المضايقة لفترة أمام موضوع بهذه الأهمية لمستقبلك كله ، ثم تتمتع بعد ذلك بسعادة ممتدة .. وذلك بأن تطيع بل بأن تستمع لنصائح موظف كبير سيفعل الكثير من أجلك : هذه الشخصية الكبيرة هو مسيو فوركرو . أما المضايقة فهي فترة قصيرة من البقاء في مدرستك أما السعادة فستعطيها لكل المكتبة الإمبراطورية . سأقص لك بالتفصيل مايتعلق بك لكن يجب أن تشعر بلزوم أن تعرف كيف تكتب وكيف تتحدث قبل أن تنتهي من تعليمك - كما يتحتم أيضا الإلمام ببعض الرياضيات . لماذا تعرض نفسك للخطر بأن تذهب في طريقك دون زاد ؟! كن مطمئناً فأنا أقف في الخطوط الأولى من أجلك وأرجو أن أثبت لك مقدار إهتمامي بك . أملئ أن تستجيب لذلك : فهذا هو الطريق الأسلم لاستحقاق كل الحب الذي أكنه لك . » (13)

منذ ذاك الحين لم يعد ممكناً لجان - فرنسوا أن يكتف سعادته . لم ينجح فى أن يترك الليسيه إبتداء من ذلك الصيف .. « الجانب السيئ لهديه » چاك - جوزيف أو « هذه المضايقة » هى وجوب أن يستمر فى الدراسة لعام ثالث تحت السلطة « السمحة » للأب جاتال و (القاسية) للسيد فاجيه . ولكنه سيجد هذه السنة الدراسية منذ الآن « أقصر » طولا .

منذ ذلك الحين كان قد تحرر من الإقامة الداخلية فى المدرسة . وهذا يفسر عدم وجود خطابات يتحدث فيها عن اللغة القبطية التى عرفه بها دوم رافائيل - أصبح يعيش فى مجال مختلف : قد تلاحظ هنا وهناك شيئاً من نفاذ الصبر فى خطابه ولكن الاتجاه السائد هو الأمل :

« ... جعلتني ألح إمكانية إخراجي من الليسيه ... وجعلتني أعتقد أنك تسعى لإدخالى كلية تدرس فيها اليونانية والعبرية والعربية والكالديه والسيريانية [...] إن إنخراطي فى المدرسة الخاصة باللغات الشرقية سيتيح لى أن أقبل فى المكتبة الإمبراطورية * . لن تكون تلك هى أقل ميزة لمكانى هذا . إذ سأتمكن من التفرغ التام لدراسة العربية والسيريانية والعبرية والكالديه والفارسية » .

هل ستتكرر قصة بييريت وجرة اللبن ؟ لم تكن المشاكل كلها قد حلت بعد وإن يحل شيئاً بالكامل أبداً . وإذلك واصل چاك - جوزيف جهوده .. ففى مايو ١٨٠٧ كتب لفوركرو خطاباً يذكره فيه بلقاءهما فى سبتمبر ١٨٠٦ وبالمذكرة التى أرسلها مدير التعليم العام إلى محافظ الإيراز مؤكداً فيها على التقدم الذى أحرزه أخوه فى دراساته ومشيرا إلى التقارير التى قدمها عن أعماله لأساتذته مثل بوساس ولانجلاس - ثم طالب له « بعمل ما فى المكتبة الإمبراطورية سواء فى قسم المخطوطات أو فى مكتب الانتيكات ** حتى يتاح للشباب فرصة حضور محاضرات المدرسة الخاصة (باللغات الشرقية) والحكومة أن « تشكل مواطناً نافعا » . نافعا ١١٩ بكل تأكيد . والأكثر من ذلك والأهم أنه مبكر النضج . فى الأول من سبتمبر ١٨٠٧ وهو لم يزل فى

* الواقع هو أن العكس هو الصحيح لأن مدرسة اللغات الشرقية تتبع المكتبة وسنرى فيما بعد أنه لا يوجد علاقة تلقائية بينهما .
** الذى يرأسه ميلان .

السادسة عشرة وتسعة شهور من العمر سيقدم جان - فرنسوا شامبوليون « بحثه الوصف الجغرافى لمصر قبل غزو قمبيز لها » إلى أكاديمية الفنون والآداب لمدينة جرونوبل .. وقرأ هذا المراهق الصغير أمام هذا الحشد من كل علماء جرونوبل ومقاطعة الدوفينييه وشعرائهما مقدمة بحثه وتعليقه على خريطة لوادى النيل مبين عليها الأسماء التقريبية للنومات (المحافظات) التى رسمها كتبة فرعون .

قد تكون الفرصة التى أتاحت للشباب مدينة بالكثير لحماية فورييه له وتحركات شامبوليون - فيچاك . إلا أن العرض لاقى نجاحاً مدهشاً حتى أن الطبيب هنرى جانيون جد ستانдал المحبوب بادر إزاء هذا النجاح بأن عرض على زملائه قبول تلميذ الليسيه - عضواً منتسباً للأكاديمية .

بعد ستة شهور على أثر التصويت الذى جرى على هذا الاقتراح كتب شارل رينولدون عمدة جرونوبل يعلن للفائز قبوله فى الأكاديمية ومعلقاً على ذلك بقوله « بقبولكم عضواً على الرغم من جدائة سنكم اعتمدت الأكاديمية على : ماقمتم به وتعتمد أكثر على ما يمكن أن تؤدونه . وهى تود أن تعتقد أنكم ستثبتون صحة الآمال التى عقدتها عليكم وإذا جاء يوم تكون أعمالكم قد صنعت لكم فيه اسماً ستتذكرون عندئذ أنكم حصلتم منها على أول تشجيع » .

كان رد فعل جان فرنسوا - وكان قد هجر مقاطعة الدوفينييه غاية من الرقة : إذ كتب چاك جوزيف يقول « إن قبولى فى أكاديمية جرونوبل أسعدنى كثيراً .. إن أكثر ما يثير زهوى فى ذلك هو أنى أصبحت أكثر من ذى قبل شقيقك . »

عضو أكاديمية أم تلميذ ؟ اعتباراً من ٣١ أغسطس ١٨٠٧ لم يعد الأخ الأصغر تابعاً للنظام الذى جعله ينفر من المدرسة الكائنة بشارع نوف . ومع ذلك فإن الليسيه المكروه والذى عاش فيه بانسا لم يدعه نون أن يمنحه « شهادة دراسة وحسن سير وسلوك » مثيرة لغيرة أقرانه على الرغم من عدم حصوله على أى جائزة :

« نحن أستاذ الدراسة فى ليسييه جرونوبل ومفتشه

نشهد بأن الشاب جان - فرنسوا شامبوليون - البالغ من العمر ١٦ عاماً المولود فى فيچاك - اللوت - درس فى الليسيه لمدة ثلاث سنوات : السنة الرابعة والثالثة

والثانية فى صف : اللغة اللاتينية والسنة السادسة والخامسة والرابعة فى صف الرياضيات
إن اجتهاده فى العمل وطاعته للأوامر* والتقدم الذى أحرزه استحققت المديح .

« حررت فى جرونوبل فى ٥ سبتمبر ١٨٠٧

« المدير : چاثال

« مفتش الدراسة : فاجيه »

قبل أن يسافر لباريس لا لاقتحامها بل من أجل الرموز التى تستحوذ على
مفاتيحها سيجد من ينبهه إلى أن الحياة تجرى أيضا خارج الكتب وأن التجارب تحدث
على هامش النصوص والسعادة تجى فيما هو وراء الاكتشافات الفكرية . فى أول أيام
عام ١٨٠٧ وهى السنة التى عرفت فيها الإمبراطورية النابوليونية قمة مجدها (وهى
الإمبراطورية التى كان ينظر إليها نظرة غير متحمسة بل بشئ من السخرية) لم ينظر
إلى عاصمتها من تلك الزاوية وإنما اعتبر باريس جنة الحياة الفكرية التى كانت فى
ذلك الوقت . وقد كتب لأخيه عن ذلك رسالة تستدعى نقلها . فهى فى مبالغاتها المراهقة
تكشف بعض ملامح شخصيته وهى فى مرحلة فرض ذاتها توضح ليس فقط إمتلاك
مصر الكامل لكيانه كله ولكن تبرز أيضا بداية حرية التعبير عن رأيه بالنسبة لأخيه
الذى تحكم فى حياته حتى ذلك الوقت والذى سيرى أخاه - وقد تخلص من لفافاته
الطفولية - يوجه له بعض التنبيهات .

النص هو عبارة عن قصيدة طويلة من عدة صفحات تصف رؤيا جان - فرنسوا .
لأحد الملائكة يقوده بين حضارات الماضى وفيها تحية كلها ولع موجهة لمن يحب :
« شاهدت مصر القديمة ومعابدها المهجورة هى كالمصاغ يزىّن سهولها المحرقة ...

هنا تتحول القصيدة إلى ابتهاال :

« ياسيد الكون ، أنت يا إلهى ، أنت يا أبى [...]»

إصغ إلىّ واسمع صوتى ا واستجب لى

نال أخى - وأنت العارف - منذ نعومة أظافرى

على حقوق مقدسة تستوجب عرفانى بجميله ،

علمنى أن أسير فى طريق الفضيلة

* مبالغة اللغة الرسمية هنا تتخطى كل الحدود المعقولة .

أن أنزع من قلبي خمائر الشر .
البريق الزائف للذهب والثراء الكاذب
لا يستطيعان بث السعادة في مستقبله ،
هي ثروات مسمومة تجلب إليه التعاسة
وبدلاً من جلبها السعادة لقلبه ستدمرها فيه [...]
اجعل في قلبه حباً يسعده يضيء عليه محاسنه [...]
أوه ! اجعل من نجاحاتي تحقيقات لأماله
وأن أكون صالحاً وأن يلحظ ذلك !
اجعل منى قادراً أن أثبت له حبي
بأن أتمكن في النهاية من تخفيف عبء شيخوختي » .

يبدو أن هذا الدعاء كان يشير إلى مشروع « زواج ثرى » كان چاك - جوزيف
ينوى عقده (« بريق الذهب الزائف ») الأخ الأكبر الذى تزوج بعد ذلك بقليل من
« زويه بريا » هل كان ينوى قبلها أن يعقد على أخرى أكثر ثراء ؟ تنبيه الصغير له
اللافت للنظر لا من حيث الأسلوب ولكن من حيث الجسارة التى يكشف عنها تجاه
أخيه صاحب القدرة الكاملة عليه .

هل كانت هذه هى طريقته فى « قتل الأب ؟ » إن الترتيل باسم مصر وتحرر
الشخصية يتزامنان أو يتقابلان فى جميع الأحوال فى هذا النص الساذج والبليغ فى
الوقت نفسه .

بعد ستة شهور امتنع چان - فرنسوا شامبوليون من توجيه أى نقد لأخيه : لأن
زواج چاك - جوزيف من زويه بيريا فى الأول من يوليو ١٨٠٧ قد سره للغاية على
ما يبدو . تدل على ذلك قصيدة كتبها فى الأول من يناير من السنة التالية فى هيئة
قصيدة مدح عربية فارسية تعتبر فى الواقع أغنية زفاف . والحقيقة يجب أن يقال إن
صاحبنا كانت له هذه المرة أسباب شخصية تجعله لا يعترض على مشروع چاك -
جوزيف : لقد وقع فى حب أخت زويه بيريا .

كانت پولين تكبره بست سنوات ؟ لكن هل يمكن أن تحسب الأمور على هذا النحو
فى سن السادسة عشر ؟ إحتفظ بسره لأشهر طويلة سواء بالنسبة لأخيه أو لزوجته
أخيه . لم يجرؤ على كشف مكنون قلبه سوى بعد أسابيع عديدة من سفره إلى باريس
دون أن نعرف إن كان قد تكلم بصراحة فى ذلك مع پولين وهل نتج عن هذه المشاعر
شئ آخر غير حلم أفلاطونى : كتب لأخيه يقول :

«... قررت أخيراً أن أفتح لك ولزويه قلبي . سامحني إن كنت أخفيت عنك وهذه الفترة الطويلة شيئاً هاماً كهذا بالنسبة لسعادتي وهو أحد أسباب التعاسة التي رأيته عليها والتي أملك . ولم يكن وراء تأخري في الإفصاح عن ذلك عدم الثقة – فأنا أعرف أنني سأجد فيك دائماً أخاً متفهماً ومشاركاً لمشاعري ومهما بسعادتي ... »

تناول چاك جوزيف الأمر كرجل خابر الحياة دون أن يؤدي دور الأخ العنيف . ولم يأخذ على أخيه سوى أنه باح بسره لقريبته سيزارين شابار . إذ أن حبيبها أدعى أنه أراد أن يتوسط له لدى بولين :

« لو أنك تفضلت بالحديث معي قبل ذلك عن هذا السر لكنت تخلصت مبكراً من عبئ ثقيل . ولكنني أشعر أن مثل هذه الاعترافات يمكن أن تحذر أكثر من أن تفسر . إن مشاعرك نحو بولين هي مشاعر طبيعية للغاية . إلا أنه يتعين علي أن أقول لك إنك أخطأت عندما راسلت سيزارين في هذا الشأن ، لمثل هذه المواضيع على الدوام جانب سيء في نظر غير المشاركين فيها بشكل مباشر [...] لقد غضبت بولين جداً وبالتالي شاركت سيزارين في السخرية من خطابك ومن مشاعرك [...] يستوجب الأمر بعض الحرص إلى أن نتخلص منها دون ضجة . ستحصل على نصائحي إن أنت طلبتها ولايسعني إلا أن أكرر نصيحتي لك بأن تكون حريصاً » .

في المجموع ، يبدو أن الموضوع أخذ بحرص أكثر من أن يكون تسبب في غضب أحد وأن الأخ وزوجته نظراً إلى حبه هذا نظرة لاتخلو من القبول . أما فيما يتعلق ببولين فلايعرف أحد الآن ماذا كانت مشاعرها على وجه اليقين . هل إستمريت في «ضحكها» على الخطاب الذي وجه لسيزارين أم على مشاعر المراهق ؟ لا يوجد مستند واحد يعطى رداً صريحاً على هذا التساؤل . إلا أننا سنجد في مراسلات چان – فرنسوا المثالية عدداً من الإشارات الطيبة نحو بولين حتى شهر نوفمبر ١٨٠٨ كما سنرى أن باريس أتاحت لصديقنا الشاب فرصة واحدة على الأقل لكي ينسى ضحكة أول امرأة أحبها .

في غضون ذلك وقع في حياة الشقيقين شامبوليون في يونيو ١٨٠٧ الحدث الذي يعكس صفو حياة الرجال جميعاً على وجه تقريب : ألا وهو وفاة الأم . أرشيف مدينة فيچاك مازال يحتفظ بشهادة وفاة : « السيدة فرنسوا جاليو ،

زوجة السيد / چاك شامبوليون تاجر كتب عمرها ثلاثة وستون عاماً توفيت فى ١٩ يونيو ١٨٠٧ فى الساعة السادسة مساءً تقريباً فى دارها الكائن بجوار الميدان العالى ...* .

لايوجد مستند واحد آخر - خطاباً كان أو تعليقاً - ليحدثنا عن هذه الوفاة - فيما عدا المواجهات التى دارت فيما بعد بين چاك صاحب المكتبة وأبنائه . ولا كلمة واحدة فيما نعرفه من المراسلات الحية والثرية المتبادلة بين الشقيقين . يُوجد دون أى شك سر للام فيما يخص چان - فرنسوا على الأقل . كل شئ حول هذا الموضوع ينم عن الفراغ . كان لابد لغياب كهذا أن يكون له تأثير على ولد حساس ومندفع ويصعب إرضاءه مثله . أن يكون چاك - جوزيف قد حل تماماً مكان الأب المهمل أو الهوائى فذلك شئ مؤكد . ولكن من هى السيدة التى حلت مكان الأم غير الحاضرة أصلاً والتى لم يترك موتها سوى آثار قليلة للغاية ؟

يوجد درب أمام الباحث ما أن يسلكه ألا ويجده حارة مسدودة . فى ٣١ ديسمبر ١٨١٦ إضطر الأخ الأصغر أن يقيم فى فيچاك فكتب إلى صديقه فى جرونوبل أوجوستان تافنيه يلومه على صمته :

« لا يوجد دعاء لم أرفعه ضدك ولولا أمى الحبيبة والحنونة فى فيچاك ... لما عرفت إلى أى مدى كنت سأدفع غضبى منك . إلا أنها دافعت عنك فاضطرت مثل أى ابن مطيع يحترم أهله أن أضع حداً لمشاريع الانتقام منك تعبيراً عن تقديرى للحماسة التى دافعت بها عنك ... » (14) .

« أمى الحنونة » و « الابن المطيع والمحب » ... تسع سنوات بعد وفاة فرنسوان چاليو ؟ ... وبعد ذلك بعدة سنوات قبيل وفاته مرّ على فيچاك فى محاولة لاستعادة صحته التى تأثرت كثيراً بالسفر إلى مصر تحدث عالمنا المكتشف عن شخص عزيز عليه ينتظره فى مقاطعة كارسى . من كانت هذه الشخصية ؟ سيكون هذه المرة أكثر تحديداً فهو يتحدث عن « مدام أديل » . هل كانت موضوع حب قديم أم هى « الأم الحنون » ؟ يتعثر البحث عن هذه النقطة التى سنعود إليها فيما بعد .

* تزوج چاك جوزيف من زويه بيريا بعد ثلاثة عشر يوماً : ورؤى عدم تأجيل الزواج .

قبل أن يبتعدا عن بعضهما يصطحبه چاك - چوزيف إلى سوق الكتاب فى بوكار التى تلعب كما رأينا دورا هاما فى تاريخ هذه العائلة . فهل كان السبب فى ذلك أن يقابل چاك شامبوليون بعد موت زوجته (وهو لم يترك فرصة تمر دون أن يذهب إلى هذه السوق) ؟ أم كان ذلك من أجل الانتهاء من موضوع الميراث قبل زواج چاك - چوزيف من زوييه ؟ كل ذاك جائز والشئ المؤكد هو أن الأخوين قد أمضيا بعض الوقت فى مقاطعة بروفانس فى نهاية شهر يوليو ١٨٠٧ .

رحلة أخرى قبل الصعود إلى باريس : نظمها چاك - چوزيف لأخيه فى شهر أغسطس فى فالبونييه موطن العائلة الأصلى . هذه المرحلة فى مقاطعة وازان التى لم يكن چان - فرنسوا قد زارها أبداً ، أعجبتة وإن كانت مصادر السعادة التى وجدها فيها لم تترك كلها عنده ذكرى طيبة ... فقد كتب بعد ذلك بخمس شهور لأخيه : « أشعر بالآلم يزداد على فى الجانب الذى ألقى فى فالبونييه بعد أن شربت من ماء الشلال أو لأنى تجولت كثيراً ذلك الصباح بصحبة مدموازيل أولامب فاقييه . أبلغها تحياتى وأشياء كثيرة أخرى لها وشقيقها ... » .

حان وقت « الصعود » إلى باريس حيث سيصطحبه چاك - چوزيف ويؤمن له مسكن . ركب الشقيقان العربة العمومية المتجهة لليون ثم تلك المسماة « عربة البوريونيه » الموصلة لباريس بعد أقل من خمسين ساعة .

كان چان فرنسوا ما يزال شاباً مراهقاً عمره ستة عشر عاماً وتسعة شهور . قوى البنيان سريع الحركة تعوزه بعض الرشاقة إلا أن مصاحبة الشخصيات القريبة من چاك - چوزيف ثم أفراد عائلة بيريا كانت قد بدأت تهذب هيئته وتحركاته . إلا أن ما لفت نظر جميع من قابلوه حينذاك هو لون بشرته السمراء لدرجة أن يوم زواج أخيه قالت له العروس التى كانت تحبه كثيراً وهى تضحك : أنه كان من الواجب عليه بهذه المناسبة أن يبيض بشرته قبل بدء الاحتفال . (15)

كان الجميع ينادونه حينذاك بـ « صغير » Séghir . ليؤكدوا على صغر سنه من ناحية وعلى ولعه بالشرق من ناحية أخرى . وهو إن كان قد أكد شخصيته بالنسبة لچاك - چوزيف فإن خطاباتة استمرت مطبوعة بالحب والامتنان الشديدين حتى وهى تحمل أحيانا آثار خلاقات حتمية .

كان الذى يصدىم الآخرين أكثر من هيئته الشرقية مزاجه المتأجج الذى زاد حدة مع السن . الطفل المشاغب فى العاشرة أصبح فى السادسة عشر مراهقاً تتسبب نداءات قلبه فى إثارة الفضائح ويتسامح أساتذته إزاء تصرفاته الطائشة ويبدو أن زملاءه كانوا يخشونه فيما عدا فانجيهيس وتيفنيه . ولكنه هو نفسه الذى طلب منه تشريف مدرسته عن طريق فصاحته وعلمه عندما زارها المحافظ .

لقد رأيناه يميل للشعر دون أن تكون لعبقريته تأثير فى هذا المجال - سيستمر فى قرض الشعر معترفاً بأنه أكثر موهبة فى التقليد عن الشعر الغنائى ... أما أحاسيسه الجياشة فتؤكد لها طلاقته فى الحديث (« وهى كسمة من سمات أهل الجنوب ») ستحملة إلى الجدل والهجاء ... وسيصبح خطيباً صعب المراس .

فى السن الذى بلغه هنرى بال (ستاندال) قبله بثمان سنوات وكان يقفز فيه نحو باريس كان هو لا يزال الصغير المتهيج الذى يهرب من محبسه فى الدوفينييه ليقتمح أبواب العاصمة .

٤ - بابل أو متاعب باريس

« عاصمة فرنسا القنطرة » - مرض حب مصر ... - بولين ... مدام ميكران صاحبة المسكن -
إفلاس مزمن - لو كولاج فدو فرانس ومدرسة اللغات الشرقية - سيلفاستر دوساسي ،
الأستاذ والتلاميذ - جوسار داخلو لجنته - نوم رافائيل والقسيس - الأدباء مصاصو
الدماء « - هل يجند في الجيش ؟ » كشفت معنى بداية البردية ... « - إطلاق
النار على علماء الآثار - « لا أحلم إلا باللغة القبطية » - باحث « سيكلوتيبي » -
لويز أو الوضع .

« مشارف باريس بدت لي قبيحة لدرجة روعتني لاتوجد بها جبال ... أشمئزاني
منها يزيد مع توالي الأيام [...] خيبة أمل في باريس زادت بعد أن إكتشفت عدم
جمالها ... وحل باريس وإنعدام الجبال وكذلك رؤيتي هذا الكم من الناس المشغولين
يمرون بسرعة داخل عرباتهم بجانبى : أنا الذى لايعرفه أحد والذى ليس لديه شئ
يفعله تسبب لي كل ذلك في حزن عميق ... » (1) .

مرة أخرى نلجأ إلى ستانندال فهو أفضل مرشد يتيح لنا سبر أغوار شامبوليون ،
فقد سبقه على الدرب ذاته قبل سبعة أعوام وهو ابن الدوفينييه بالمولد وسبق إبنها
بالتبني في الاشمئزاز من « عاصمة فرنسا القنطرة » بالقدر نفسه تقريبا .

لن يتمكن صاحبانا القادمان من مناطق جبلية من التأقلم قط مع المستنقع
الباريسي وكلمة مستنقع هنا تؤخذ بمعنيها المباشر وغير المباشر ، كانت شخصية كل
منهما حادة ومتمردة على تكامل وخبث أهالى مناطق الأراضى المنبسطة باستثناء أهل
لومبارديا بالنسبة للأول وأهل وادى النيل للآخر .

وطأت أقدام « صغير » أرض باريس في ١٣ سبتمبر ١٨٠٧ يقوده في دهاليزها
چاك - جوزيف ... في عشية ذلك اليوم كان محمد على باشا الكبير قد نجح في دحر
الجيش الإنجليزى بقيادة الأدميرال فريزر في الأسكندرية وأرغمه على الانسحاب
مؤكداً بذلك بعث مصر السياسى الحديث ... ومحمد على سيؤدى دوراً أساسيا في
إكتشافات چان - فرنسوا شامبوليون لأرض الفراعنة .

قبل ذلك بعدة أسابيع كان فرنسوا - رونييه دو شاتوبريان قد عاد لتوه من رحلة إلى الشرق وتحدى نابوليون تحدياً لم يسبق له مثيل وذلك في مقال شهير نشرته صحيفة « المركور دو فرانسى » *Mercure de France* يستذكر فيه « صمت المذلة » . رحلة شاتوبريان إلى الشرق كانت قد أتاح له فرص قياس عبقريته الشخصية بمقاييس عبقرية الفراعنة المشيدين للأعمال العظيمة . كان الفيكونت دو شاتوبريان شجاعاً ، ولكنه لم يكن من المتهورين : ولذلك فإن تعبيره الشجاع هذا كان بمثابة مؤشر رائد على بداية إنهيار نظام كان قد بلغ ذروة مجده ... وبذلك فإن شامبولىون الصغير قد افتتح المرحلة الجامعية لبحثه العظيم فى خريف ١٨٠٧ فى الوقت الذى أكدت فيه مصر بتألق مبهر عن بعثها الجديد وهو ماتزامن مع ظهور أولى مؤشرات اهتزاز عصر يدين فيه طبيعته الاستبدادية ونزعتة العسكرية المحمومة .

ورغم كل شئ كانت العاصمة الإمبراطورية التى إستقر فيها الشباب مركز العالم كله فى مجالات الفنون والآداب والعلوم : لأسباب عديدة منها السئ والجيد فريادة فن الرسم رفع رايته دافيد وبرودون وجرو ومن بعدهم أنجر وسيستمر ذلك لفترة من الزمن .

وكان لويجى شيروبينى * قد ألفت فيها أوبرا « ميديه » وثيفان دونون يجدد علم المتاحف ويضع فونتان تقنيها للجامعة .

أما لابلاس ومونج وكوفييه وسيلفاستر دو ساسى وشابتال وفورييه وبيروتولين ولانلد وجوفرواسانتيلار فكانوا يؤكدون دعائم الزعامة العلمية « للمعهد » *L' institut* . ولدرسة الهندسة (المتعددة الفروع التقنية) *Polytechnique* . ولتحف التاريخ الطبيعى والكولاچ دو فرانس . وعلاوة على كل ذلك وعلى الرغم من أن الشرطة الإمبراطورية أرغمت بعضهم على الإقامة خارج أسوارها فإن رجالاً ونساءً مثل شاتوبريان وچيومان دو ستال وبنچامان كوستان ودستوت دبو تراسى وبونالد كانوا يؤكدون بكل فخر مركزية باريس للغة الفرنسية وهى اللغة المهيمنة على العصر .

غير أن هيمنة باريس الثقافية فى عام ١٨٠٧ لم تكن أسسها جميعاً جديرة بالاحترام مثل السرقة المنظمة - بل يمكن تسميتها نهبا علميا منظما ** يقوم به المنتصر على كل من إيطاليا وألمانيا ابتداءً من عام ١٧٩٦ ، وقد أدى ذلك إلى أنه جرى

* ابن الموسيقى سيصبح بعد ذلك من أقرب أصدقاء شامبولىون .

** قام مونج بدور كبير فى تلك العملية بعد أن كلفه بونابارت بتنظيم عمليات السطو فى إيطاليا وألمانيا وتولى ثيفان دونون العملية من بعده .

«تصريف» ثروات فنية ومستندات تمثل ثروة لا تقدر بثمن نحو العاصمة الفرنسية كانت عبارة عن لوحات فنية وتماثيل وكتب فن ومخطوطات ومراسلات لم تنشر . هكذا أصبح اللوفر والمكتبة الإمبراطورية ولفترة من الزمن * مغارات على بابا راح يرتع فيها علماء البحوث ودارسو الفن مزودين بوسائل عمل لم يسبق لها مثيل ، مما فتح لهم أبواباً على عالم لا نهائى من المتعة الفكرية . بالنسبة لهذه الأوساط ، لاندنم ولاوخر ضمير كان يؤرق هناء أحد منهم . غير أن نهائى الكنوز وجدوا من يرأسهم جميعاً على أرض مصر : والدليل على ذلك أن حجر رشيد لم يصل أبداً إلى اللوفر ولكن إلى «المتحف البريطانى» البريطانى ميوزيوم فى لندن ...

إذا كان عصر الفتوحات فى إيطاليا ثم فى مصر بمثابة العصر الذهبى لضابط من الفرسان يبحث عن المجد فقد كان أيضاً عصراً ذهبياً بالنسبة للباحثين والفنانين الذين جعلوا من باريس مركزاً لأعمالهم . فقد أصبحت بارثينون تشيد وفتح أبوابه لكل من باحث عن المعرفة حتى لو لم يزينه حجر رشيد .

فإذا كان أصغر أبناء چاك شامبولىون يعتقد أنه بخروجه من فيچاك ودخوله جرونوبل قد فتح لنفسه أبواب أثينا القديمة ماذا يقول لنفسه وهو يصعد من جرونوبل إلى باريس حيث حلت روما محل أسبارطة دون أن تفتقد أرسطو ..

كان الجيش - المسمى فيما بعد بالعظيم - مستهلكاً للرجال بشراهة تفوق بكثير شراهة المقصلة . وكان هذا ما يلح كثيراً على فكر چان - فرنسوا الذى لم يكن يهتم بتأناً بالذهاب للموت على ضفاف نهر الدنوب والإبير من أجل رفعة مجد الإمبراطور غير أن قبضة نابولىون قد جعلت من باريس غرفة آلات لا نظير لها يحسن إستخدامها . المهندسون وعلماء الطبيعة وكذلك علماء اللغات والجراحون والمعماريون وفنانون المنمنمات . وإذا كان البعض لا يستسيغ طراز « الأمبير » فى الزخرفة والديكور ؛ لأنه خادع للنفس وينم عن حداثة النعمة ، كان شخصاً تسيطر عليه ذكريات الحملة على مصر . مثل چان - فرنسوا شامبولىون لم يكن فى مقدوره ألا يلتفت إلى كل ماكان من هذا الطراز . علاوة على ذلك فإن البلاط والمدينة والأوساط العلمية كانت تمتلئ بقدماء محاربى حملة عام ١٧٩٨ من بيريه إلى جونو ومن موينج إلى چومار ومن فيقان دونون إلى بوريين : دون أن ننسى تاليران صاحب فكرتها ومحركها . كانت مصر إذن تحوم فى مخيلات باريس ذلك العصر وحتى لو كان ذلك عبر طراز كاريكاتورى لها فإنه

* الكثير من هذه التحف تم استعادته بعد ١٨١٥ .

جعلها مجسدة فيها ومسيطرة عليها . عام ١٨٠٧ يعنى ثمان سنوات بعد عودة بونابارت من مصر وستاً بعد عودة العلماء والفنانين أعضاء « اللجنة » وخمساً بعد نشر كتاب فيثان دونون .

فى منفاه العاطفى الذى طال فى قلب العاصمة تشبع شامبوليون الصغير بذلك الجو العام على الرغم من كل ماكان يقول . فإن مصر التى أدعى أنه لا يبحث عنها سوى فى المكتبات والمعاهد كانت تهاجمه من جميع الزوايا . وهكذا أصبحت باريس بالنسبة له ويخبث ممفيس أخرى .

لم يكن « صغير » مسحوراً بأبحاثه لدرجة إهمال ماكان فى إستطاعة باريس أن تهبه لفكر متفتح ومتطلع لمعرفة كل شئ . إلا أن ما يسترعى الانتباه هو أن مراسلاته لأخيه الذى لا يخفى عنه شيئاً توضح إلى أى مدى كان يمتنع عن المشاركة فى « الحفل الإمبراطورى » إلا بقدر . فإذا حدث وأشار فى إحدى رسائله إلى أحد أعمال الأوبرا التى قدمت على شرف الإمبراطور والتى لم يحضرها فهو يوضح من جهة أخرى أنه إذا لم يكن يواظب على الذهاب إلى المسرح فالسبب هو ضيق ذات اليد وأن عليه الذهاب إلى المتحف لأن الجدول الزمنى الذى وضعه لنفسه ويراقب تنفيذه چاك - جوزيف ما لم يترك له مجالاً لذلك .

ولكن دعونا ندقق فى كل ذلك عن قرب .

كيف كان صاحبنا القادم من جرونوبل مقاطعة / كارسى / سيعيش عملية إعادة زرع فى تربيته الجديدة هذه إذا لم يكن چاك - جوزيف الذى لا يكل ولا يتعب - قد أمضى معه الأسبوع الثالث من سبتمبر ١٨٠٧ الذى تلا وصولهما إلى باريس بعد عروج قصير على مدينة روان ؟؟ كان چان - فرنسوا سيبلغ السابعة عشرة بعد ثلاث شهور ومازال خجله يشل تحركاته ويزيد من وطأة شعوره بأن ملابسه تجعل منه نموذجاً للتلميذ الريفى الذى يبدو أن أوساخ الطريق مازالت عالقة به . ومن ناحية أخيه كانت قصة حبه لبولين وعدم إفصاحه عن عواطفه ناحيتها حاجزاً سيبقى قائماً بينهما لعدة أسابيع . يفترض أن تلك الأيام كانت فترة إنبهار إلا أنه عاشها فى حالة من الاغتراب الموحش . كان يتصور نفسه وهو فى جرونوبل إله النار والحضارة المتمرد على زيوس ليعوض كونه تلميذاً متمرداً على قيود المدرسة التى يبغضها .. أما هنا فهو مثل ستانдал لا يرى سوى أناس يمرون فى عجلة ولا يرونه لأنه لا يمثل لهم شيئاً . الحزن يمتلكه من البداية مثلما كان الحال بالنسبة لمن سبقه .

لم يدع له الوقت فرصة إدراك ذلك فى البداية بالطبع وكان أخوه مايزال بجانبه يعمل بجد على تنظيم أمور أخيه مع حرص فى النواحي المالية وإن وصف بعضهم هذا الحرص بأنه تقتير .. لأن المنحة الدراسية الحكومية التى حصل عليها فى مارس ١٨٠٤ لجعل المرحلة الثانوية ثم إختصار عامين منها قد أعيد جدولتها لتسمح بتعميق المعارف فى باريس .

كان چاك - جوزيف يأمل أن يحصل بمساعدة جوزيف فورييه وصديقه فوركرو المدير العام للتعليم العام ، على « علاوة » إغتراب تضع فى الاعتبار غلاء المعيشة فى العاصمة . ولكن نون جدوى . كما أنه حاول معتمداً كذلك على الأصدقاء أنفسهم أن يجد لأخيه وظيفة « مساعد أمين مكتبة » ولكن مساعيه لم تنجح فى هذا الاتجاه أيضاً . ولابد أن فورييه وفوركرو قد لاحظا أن أمناء المكتبات كانوا يفضلون أن يختاروا الموظفين الجدد من بينهم * .

فى ٦ ديسمبر ١٨٠٧ أبلغ الأخ الأصغر أخاه أن المدير العام للتعليم العام أعرب عن « خيبة أمله فى أن التعيين فى وظائف المكتبة الإمبراطورية » ليس من إختصاصه . وكان من المحتم إذن الاعتماد على منحة جرونوبل مضافا إليها الربع وجود به چاك - جوزيف من ماله الخاص .. وهكذا زادت أعباء الوصى بصعود أخيه إلى باريس وهو مايبرر تشدده بالنظر إلى المسئوليات الواقعة على عاتقه هو فى جرونوبل . كان الأخ الأكبر يستخدم حجج الأب جرانديه ولكن فى سلوكه كان مثل الأب جوريو ** .

اعتقد چاك - جوزيف أن فى إمكانه أن يجعل أخاه يقيم مع صديقه ميلان ، ولكنه وجد له غرفة إيجارها ثمانية عشر فرنكا فى الشهر عند سيدة أسمها ميكراى الكائنة ٨ شارع إيشال سانتونوريه (اسم الشارع الآن هو الإيشال وهو موازى لشارع البراميد « الأهرام ») . كانت العلاقة بين الساكن وصاحبة المسكن متوترة فى أوقات كثيرة . كما توضح ذلك مراسلاته ، ولكن يجب أن نلاحظ فى هذا الصدد أن چان -

* كتب چاك باكيه فى مقال عن « الأخوان شامبوليون فى الوسط الجامعى الجرونوبلوانى » ، مؤكداً أنه وجد فى أرشيف مقاطعة إيزار مستنداً يدل على أن چان فرنسوا قد عين موظفاً خارج الكادر فى قطاع المخطوطات الشرقية فى مكتبة باريس على كشف وزارة الداخلية إلا أننا لم نستدل على هذا المستند كما أن چان فرنسوا لم يشر إلى ذلك قط فى مراسلاته .

** بطلا روايتى بلزاك « أوجينى جرانديه » و « الأب جوريو » . (المترجم)

فرنسوا كان يقيم فى حى راقٍ بالنسبة لقروى شاب مقلس فهو على بعد خطوتين من قصر التويلورى .

أما بالنسبة للماكل ولنوع من الرقابة الشاملة على سلوك وتصرفات جان - فرنسوا فى باريس فقد عهد چاك - چوزيف بمسئولياتها للزوجين فوجا Faujat * (وهما غير عائلة فوجا دوسان فون Faujas de Saint - Fond التى تتشابه أسمائهم وتختلف أوضاعهم والتى سيتكرر ذكر إسميهما فى مراسلات الأخوين) . الزوج فوجا دى سان فوين Faujas de Saint Fond كان عالم جيولوجيا من مقاطعة دوفينييه تتلمذ على بوفون - وكان ملحقا من جهة بمتحف التاريخ الطبيعى ومن جهة أخرى بوزارة الداخلية بسبب علاقته بصديقه دوكرىه - وزير الداخلية - وهو سيؤدى دوراً نشطاً للغاية ومفيداً فى حياة مواطنيه العملية .

أما آل فوجا Faujat فكانوا قوماً بسطاء وكانت حالتهم المالية هى التى أجبرتهم على أن يقدموا لشامبوايون الصغير وجباته . وقد أثنى جان - فرنسوا كثيراً على حسن طوبيتهم بل وعلى سخاءهم أيضاً . غير أن الوجبات عندهم كانت تستهدف فى الواقع إقامة الأود فقط . علماً بأن صحة مدام فوجا كانت ضعيفة ولذا كثيراً ماكان يكتفى بما يطهوه الزوج . وقد إضطر هذا الوضع جان - فرنسوا أن يلجأ إلى مطبخ آخر بعد بضعة شهور : فقد إقترح عليه أخوه أن « يكتفى » بما يقدمه « الأخوة الريفيين » وثمان وجبة العشاء أربعون « سو » وهى وجبة جيدة جداً وثمان الغذاء عشرة « سو ... » إذن تكلفة غذاء خمسون « سو » فى اليوم ، أى خمسة وسبعون فرنكا فى الشهر .

« معطياتى التقريبية هى كالاتى : أولا ثلاثة وتسعون فرنكا للغرفة ولطعامى . من تسعة إلى عشرة فرنكات لغسيل الملابس ونثرىات أخرى ليصل المجموع إلى مائة وثلاثة فرنكات . حمامان بسعر ستة وثلاثون سولا أى ثلاثة فرنكات وأثنا عشر سول أى مائة وخمسة عشر فرنكا . الباقى تخصص لشراء الشموع والزيت والخطابات وللنزهة فى حدود المعقول . وهو مايجعل المطلوب لايتعدى مائة وثلاثين فرنكاً .. وإن كان الأفضل هو مائة وأربعون فرنكا ، ولكن عندما يحين موعد إقتناء الأحذية و«البوتز» وتفصيل الملابس فسيتعين اللجوء حصافتك لكى لا تخصصها من مرتبى » .

* يقع كثير من المؤرخين فى هذا الخلط . (المترجم) .

« حصافة » چاك - جوزيف ستفعل مايمكن أن يفعل بقدر ماتسمح به ظروفه كعريس جديد غير ثرى ستنتظر زوجته أول أبناعهما فى نوفمبر ١٨٠٧ - وسنرى أن الأخ الأكبر لن يتردد مع ذلك فى التشدد مع أخيه مما سيؤدى إلى حدوث خلافات بينهما سرعان ماتنتهى بالتعبير عن الاعتراف بالجميل ويوعود الأخ الأصغر بأن يكون أكثر حرصاً . تشهد على ذلك رسالة مؤرخه فى ٢٢ ديسمبر ١٨٠٧ عشية إحتفال چان - فرنسوا بعيد ميلاده السابع عشر والتي تلخص جيداً هذا النوع من العلاقة .

« لو أنى علمت بأنى سأتسبب فى أقل إحراج لك لكنت فضلت أن أذهب أدفن نفسى إلى الأبد فى بلدتنا وأساعد أبى * على قدر الإمكان متخلياً إلى الأبد عن الآمال التي يحلم بها قلبى . هل تعتقد أنى أنسى للحظة واحدة مايفعله حبك لى ؟ هل تعتقد أنى دائماً ما أحفر فى أعماق قلبى ما تكرمت به على والعناية الأبوية التي شملتني بها ... ؟ خاصة وأن هذه العناية لن تكون بعد قليل من حقى وأن كائننا جديداً أقرب إليك منى سيطالبك بها قريباً ... لم يحدث أنى أنفقت أى مبلغ بدون داع ... على الأقل فى نظرى أنا » .

ومع ذلك فإن شامبوليون - فيچاك لا يدع نفسه يتأثر بمثل هذه الكلمات وسرعان ماتصل قائمة أسعار محددة إلى الأخ فى باريس ! « بالنسبة لبند المصاريف فهى كالآتى : السكن ٤٥٠ فرنكا فى العام وقد صرفت بالفعل ٢٠١ فرنك فى شهر واحد . وهو ماسيكلفنى ألفين من الجنيهات فى العام الواحد ! وأنت تعلم جيداً أن عبئاً كهذا سيقضى على تماماً وبعد أن أكون قد بعث مكتبتي (وهى تضحية لن أقوم بها سوى لك وحدك) فلن أتمكن من الحياة على هذا المنوال لعام واحد . وأتصور أنه ليس فى نيتك أن تحرمنى من الشئ الوحيد الذى يسعدنى وهو كتيبى ** . ولكنك ستدفعنى إلى ذلك لو إنك لم تلجأ إلى الاقتصاد لكى تدعم كل ما أنوى عمله من أجلك . تريد أن تذهب إلى المسرح ؟ سيكون ذلك من الأعمال الضارة لأن أقل وصف لذلك هو أنه إنفاق غير ضرورى عليك إذن الامتناع التام عن كل مالم يدخله العقل فى بند الضروريات » .

* كلمات نادراً ما خطها قلمه وهى لذلك ملفتة للنظر . كان أخوه قد أفاد لتوه بأن زويه تنتظر مولوداً .
** بخط كبير وتحتها خط فى النص الأسمى .

تباً !! لأن « صغير » دفع أربعة فرنكات فى الشهر ثار جاك - جوزيف مرة أخرى بعد بضعة أيام : « نظف ملابسك بنفسك ، ورتب مبلغاً شهرياً لتنظف أحذية ليتولى تنظيفها لك فهذا أقل تكلفة .. إن بدأنا تكلف ثمانية وأربعين فرنكا فى العام لتنظيف الملابس بفرشاة وتلميع الأحذية يعتبر شططا لا لزوم له . لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام بعد ذلك ... » سينصاع « صغير » لهذا الأمر بالطبع .

قد تبدو توبيخات فيچاك نوعاً من البخل الزائد على الرغم من أنه يعد أخاه فى الخطاب ذاته بأن مصالحيهما لن تنفصل فى يوم من الأيام « حتى لو جاء عشرون « عليا » * الواحد تلو الآخر أو حتى لوجاعوا جميعاً مرة واحدة » . ولكن على الرغم من صغر القيمة الظاهرية للمبالغ التى ذكرها الأخ الأصغر فمن الواجب أن نقدرها فى مع الأخذ فى الاعتبار مقاييس تلك الفترة . فقد لاحظنا أن الغرفة المؤجرة تقع فى حيّ سكنى راقٍ « وأن « الأخوة القرويين الذى يتعين عليه أن يكتفى به « هو من المطاعم الجيدة ، إن مرتب ألف وأربعمئة فرنك فى العام كان يعادل مرتب موظف حكومى متوسط . الواقع إذن أن صديقنا الشاب كان يشعر بقلّة الموارد لأنه لم يكن يدير شئونه جيداً .

سوف نعود إلى الحديث عن تلك المشاكل التى ستترك أثرها على مزاج وصحة الشاب إن لم تؤثر على شخصيته وهو يعيش فى حالة قحط دائم . كان يشعر عندما كان فى اللىسيه أنه قريب من ولى أمره .. ولكن هنا فى المدينة الكبيرة فإن القلق النسبى على الأشياء المادية يزيد من وطأة الوحدة .

فى ١٦ أكتوبر أى بعد أكثر من شهر من وصوله كتب إلى جاك - جوزيف هذه السطور الكاشفة :

« إنى وحيد اوعلى الرغم من وجودى وسط أشخاص صحبتهم مريحة وأشياء تتسق وذوقى فإننى أشعر وأنا فى هذا الوضع بفراغ رهيب . لاشئ يشغل بالى وأفكارى سوى الدراسة والعمل ... »

« الدراسة والعمل » ؟ كان قد عرف لتوه أن المحاضرات فى الكولاج دو فرانس لن تبدأ سوى فى نوفمبر وفى « المدرسة الخاصة » فى ديسمبر فهو يعمل ويعيش إذن وحيداً فيما عدا تلقيه بعض الزيارات . ومن هنا جاءت حالة الحزن التى انتبته .

* كان اسم « على » هو الذى إتفق عليه الشقيقان لتسمية الطفل المنتظر .. انظر ماسياتى نكره فيما بعد .

فبعد ذلك بثمانية أيام فقط عاودته حالة الحزن :

« أخى العزيز جداً ، لم يصلنى منك سوى خطاب واحد منذ أن تركتتى . فلم تكتب لى من مدينة ليون ولا حتى من جرونوبل [...] إنى فى حالة من الضيق والمزاج السيئ لدرجة أنى أبكى مثل طفل صغير [...] إنك تعلم أن الخطابات تخفف كثيراً عن النفس عندما نكون بعيدين عن الأشخاص الذين نحبهم » .

وفى ٢٧ أكتوبر * وبعد أن عاود الحديث بإيجاز عن علاقته ببولين وبعد أن طمأن أخواه على أنه يقوم « بتبويض » بحثه المقدم إلى أكاديمية جرونوبل عن مصر عاد إلى نغمة وحدته الحزينة : « لم أكن قد أبتعدت عنك أبداً وها أنا أعيش وحيداً [...] إن الضيق والغثيان يثقلان على [...] وعلى الأخص عندما أكون وحيداً فى منزلى يلاً [...] تهاجمنى الأفكار السوداء » .

فى ١٦ نوفمبر تكاد تكون أمام « آلام الشاب فارتار » لو لم تكن « شارلوت » فى هذه الحالة فى طريقها إلى النسيان .. فقد أنهى خطابه إلى أخيه بأن رجاءه أن يبلغ بولين « أسفه لما تسببه لها من آلام عظيمة » بعد ذلك ببضعة أيام أفاده أخوه الكبير بشئ من التهكم أن خطابه الأخير إلى سيزارين - وهى كاتمة أسرار حبه لبولين - « قد صودر فى الجمارك التى أديرها أنا * وتم حرقه » .. وكان الرد هو شكر الصغير للكبير على لجوئه إلى هذه الوسيلة الحاسمة ... لقد تنازل إذن عن عواطفه . وسيتحول حبه لإخت زوييه - امرأة أخيه - إلى صداقة ، وهكذا ستتطفى جذوة حبه الجارف الأول وهو الذى عرفناه فى ظروف أخرى أكثر جسارة واندفاعاً ...

ولكن فيما عدا ذلك فإن المزج السوداوى يبقى سائداً وملحاً :

« أخى العزيز جداً مرت ثمانية أيام دون أن تصلنى منك أية أخبار ولا أية خطابات من أى كان . إنى أتألم من فكرة أن تكون مريضاً أو يكون قد حدث لك مكروه [...] يزداد الضيق فى نفسى يتضاعف من يوم لآخر وأفقد عقلى فى بعض الأوقات خاصة منذ أن توقفت أنت وزوييه والجميع عن مراسلتى ... »

* تاريخ تقريبي .

** الإشارة الوحيدة المتاحة لنا عن هذه الوظيفة الهامة أو لعل فيجالك أراد هنا أن يتفاخر أمام أخيه الأصغر .

ولكن هل كان جان - فرنسوا فى باريس لكى ينتظر خطابات من زوييه أو لكى يقيس أثر الاغتراب على النفس ؟ بل هو هنا ليعمق دراساته للغات الشرقية التى سنقوده بعد مقارنتها ببعضها أو تركيبها مع بعض أو مقابلتها إلى الكشف عن أسرار الكتابة المقدسة التى تعبر بها هذه الحضارة الفرعونية عن نفسها وهى التى تملك منه تمامًا .

فى هذا الإطار كانت هناك أربع مؤسسات وبعض الرجال جعلوا من باريس الواحة التى يحلم بمائها كل عابر للصحراء . هؤلاء الرجال هم على وجه التحديد سليفاستر دو ساسى وبروسبار أودران ولوى لانجلاس ودوم رافائيل دو موناشيس وأوبان ميلان وسونينى وقولنى والأب دو تيرسان وجومار ولانكرن وبعض الآخرين ، منهم قس يدعى دو سان روش . أما المؤسسات فهى الكولاج دو فرانس والمدرسة الخاصة للغات الشرقية والمكتبة الإمبراطورية ولجنة « مصر » .

الكولاج دو فرانس الذى أسسه قبل ذلك بمائتين وسبعين عامًا الملك فرنسوا الأول تحت اسم « كولاج اللغات الثلاث » لكى يواجه بها سيطرة أهل الكنيسة المتعلمين والتعاليم الدوجماتية الجامدة التى تقدمها جامعة السوربون وسطوة اللغة اللاتينية السائدة دائما ، ظلت مركزا للتعدد الثقافى والحرية الفكرية لدرجة أن نابوليون فكر يوما فى أن يغلق أبوابها .

فى عام ١٨٠٧ كان هناك فى مجال « الشرقيات » عدد من الأساتذة ينشرون معارفهم التى لا تكاد تدانيها معارف أخرى فى ذلك العصر : سليفاستر دو ساسى فى اللغة العربية (بالتبادل وكوسان) واللغة الفارسية . بروسبار أو بران بالنسبة للغة العبرية . لوس لانجلاس * بالنسبة للغات أسيا القريبة والوسطى . كان مقر الكولاج دى فرانس يقع بالقرب من السوربون فى ميدان كامبريه . أى أنه كان يبعد قليلا عن مقر إقامة جان - فرنسوا بالقرب من اللوفر . إلا أنه كان يتردد عليه يوميا لكى يستمع إلى تعاليم هؤلاء الأساتذة الثلاثة الذين أحسنوا استقباله فى البداية حتى أو بروسبار أودران كان يكن له عطا خاصا .

ولكن بالنسبة للنقطة التى وصل إليها « صغير » فى بحثه فإن مركز دراساته كان فى « المدرسة الخاصة » وهو الاسم الذى كان يطلق فى ذلك الوقت على مدرسة اللغات

* سيعاد النظر فى قدراته العلمية بعد ذلك .

الشرقية . تأسست هذه المدرسة فى عام ١٧٩٥ (١٠ جيرمينال عام ٣) بقرار أصدره لاكانال بإيعاز من فانتور دو بارادى وهو الذى أصبح بعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ أول مترجمى بوناپارت فى مصر قبل أن يلقي حتفه خلال حصار عكا - كما أوصى أيضا بإنشائها قولنى الذى كان قد نشر - بعد عودته من زيارة لبلاد المشرق * - دراسة تحت عنوان « حول تبسيط اللغات الشرقية » وقد إحتلت المدرسة مقراً متاخماً للمكتبة الوطنية بشارع « نوڤ - دى - بتى - شان » .

ومثلها مثل الكولاج دوفرانس فإن المحاضرات التى تلقى بها مجانية وعامة . ولم تكن تعطى أية شهادات علمية فى نهاية العام ولكنها كانت تمنح شهادة بالمواظبة على الحضور . اللغات التى كانت تدرس بها هى العربية والتركية والفارسية . كان يتولى كرسي اللغة العربية الذى أنشأه دو ساسى فى عام ١٨٠٣ دوم رافائيل « موناشيس (الذى سبق أن ألتقينا به) . أما كرسي اللغة التركية فكان يشغله أميدية چوبار الذى كان يعمل مساعداً لفانتور دويارادى فى مصر ثم أخذ مكانه فى تدريس هذه اللغة بعد وفاته . أما لانجلاس فقد كان يجمع تدريس اللغة الفارسية إلى جانب إدارته للمدرسة . بالمقارنة بما يدرس فى الكولاج دوفرانس كان التدريس فى المدرسة الشرقية يصبو ألى أن يكون أكثر موضوعية أى أقرب إلى الحياة العملية .

كانت المكتبة الإمبراطورية مصدراً دائماً للإبهار بالنسبة لمرتاديها مثل الأخوان شامبوليون . كل مخطوط تم تسجيله فى أى من جامعات القارة الأوروبية كان له نظير فى هذه المكتبة أو على الأقل فى هيئة صورة طبق الأصل له : فى فيينا وتوبنجان وبرلين وتورينو وينا بيزا كل شئ هناك تم جمعه ونسخه ثم أن مدير المكتبة لم يكن من المقرين المستحويين على كنوزهم .

فى فرع الآثار كان شامبوليون الصغير يراجع المسئول عنه أوبان ميلان وهو بئر من المعرفة لاتنضب . وعلى الرغم من تحفظات چان - فرنسوا على القيمة العلمية البحتة لأستاذه فقد كان يستفاد إلى أقصى حد منه فى تعميق مداركه فى علم النُمية (علم دراسة النقود والميداليات ...) وهو العلم الذى أشركه باستمرار فى أبحاثه اللغوية ودراسة المباني الأثرية .

* راجع المقدمة .

كان ميلان كذلك سعيداً بتلميذه وكتب إلى شامبوليون فيچاك يقول : « كثيراً ما يحضر السيد أخوك العمل عندي وهو يراجع بعناية مختلف الكتب المتعلقة بمصر . إنه يدرس ويعتني بعمله بشكل مفيد . كما أن السيدين لانجلاس وساس سعيدان به جداً » .

أما « لجنة مصر » فإنها تختلف عن هاتين المؤسستين في أنها كانت مؤقتة . فقد نبعت من المؤسسة العلمية التي أنشئت في القاهرة عام ١٧٩٩ وهي تباشير عملية إصدار كتاب « وصف مصر » وهو الهدف الذي حدده بوضوح شديد الجنرال القائد الذي أصبح الآن الإمبراطور المتوج . سوف يصدر أول جزء من هذا العمل الضخم في عام ١٨٠٩ قبل مقدمته التي كتبها الأمين العام لمعهد القاهرة جوزيف فورييه الذي عين فيما بعد محافظاً على مدينة جرونوبل .

أول من عينه على رأس هذه المؤسسة هو نيقولا كونتية ثم حل مكانه ميشال - أنج لانكريه * وتلاه عالم الجغرافيا آدم جومار وكان أقرب معاونيه جولدا وفيلار دوتيراج مكتشفاً رسم الأبراج الذي يزين أحد سقوف معبد دندره . ولنا أن نتصور إهتمام صديقنا الشاب القادم من جرونوبل بأعمال هذا الفريق حتى لو أثار ذلك إنتقاداته ثم سخريته . ** هذه المؤسسات المختلفة لم تكن تجمع سوى بعض الأساتذة والقليل من الطلبة : ويترتب على ذلك علاقات إنسانية شخصية جداً وعاطفية خاصة بالنسبة لمراهق مرهف الحس مثل جان - فرنسوا . كان « الكولاج » و « المدرسة الخاصة » و « المكتبة » في نظره رجالاً أصبح هو أحد أصدقائهم قبل أن تكون مؤسسات أو أحد أعداءهم مثلما حدث بالنسبة ل لانجلاس وجومار *** وكاترومار أو أحد التلاميذ المعجبين ولكن دون طاعة عمياء مثلما كان الحال بالنسبة لسيلفاستر دوساسي . ولما كانت هذه الشخصيات قد أدت أدواراً نشطة جداً في تكوين شخصية عالمنا المكتشف فسيتعين دراسة العديد منهم بعناية .

كان إسحق سيلفاستر بارون دوساسي في قمة المجد على الرغم من استقلاله الكبير عن السلطة الإمبراطورية ؛ إذ كان يعتبر مع مونج ولابلاس مثالا للعالم الخالص . وكان ملكاً متوجاً على اللغويات الشرقية .. كان معتل الصحة منحني القامة دميماً

* توفي بعد ذلك بقليل .

** سيأتى توضيح ذلك فيما بعد .

*** سيأتى ذكر ذلك فيما أبعد من ذلك بكثير .

للغاية يقذف مستمعيه بنظرات ملتهبة وهو يتكلم بصوت غامض وكان يعد أستاذاً لامثيل له يعرف كيف يخضع معارفه الهائلة لمقتضيات الاتصال بتلاميذه كما لم يكن هناك من يبرزه في إظهار صلات القرابة والتفاعل بين لغات الشرق .

إلا أنه يعد نموذجاً للمثقف والعالم خريج المكاتب : فهو لم يجرؤ على الذهاب إلى أبعد من مدينة جنوا في شمال إيطاليا ولم يذهب إليها إلا مضطراً لمراجعة أرشيفها . وقد رد على أحد دارسي اللغة العربية الأجانب الذي سأله عن إسم الشيخ الذي تتلمذ عليه قائلاً : « ليس في مقدوري متابعة أى محادثة باللغة العربية !! » ... ومع ذلك فقد كان يعرف كل شئ عن هذه اللغة التي لم يكن في مقدوره إستخدامها في التعبير وكان أستاذاً لشامبوليون . (كتب هذا الأخير عنه قائلاً « إنه من العلماء وعلاوة على ذلك فهو متواضع ») ثم أصبح أحد أكبر منتقدي مكتشف أَلغاز اللغة الهيروغليفية قبل أن يعود مرة ثالثة ليكون أكبر ملاحيه * وأعلام صوتاً .

لأنجلاس أيضاً لم يكن يهوى السفر وكان مع ذلك أكثر المستشرقين شهرة وعندما طلب منه مرافقة نابليون في رحلته إلى مصر لم يوافق . كان من الشخصيات المنفرة ومحتقراً للآخرين أحياناً (كتب عنه جان- فرنسوا لأخيه يقول « عندما أكون معه أكون مثل الآخرين : لا أحد ») وحاول لأنجلاس أن يبعد الشاب عن مصر وإن يقنعه بأن يتخصص في دراسة لغات أسيا ، ولما لم ينجح في محاولاته أضمر له شعوراً من الكره المتزايد لدرجة أنه رفض إعطاء شهادة مواظبة حضور المحاضرات عام ١٨٠٨ . وسيشكو جان فرنسوا لأخيه من كثرة المنغصات التي تسبب له فيها من كان يسميه « الإنجليزي » وكتب يقول له في خطاب بتاريخ ١٨ يناير ١٨٠٩ مؤكداً أن « لأنجلاس » يزحف ولم يصل إلى مركزه إلا بأن مرغ نفسه في الطين » .

وعلى النقيض من ذلك كان تقييم شامبوليون لبروسبار أودران ، فهو لم يجد فيه سوى ما يستوجب المديح . وكان أودران علاوة على تملكه للغة العبرية معلماً في اللغتين السيريانية والآرامية لدرجة أنه كان يبدو قد تشكل من سفر القضاة ! وسرعان ما إرتبط بجان - فرنسوا خاصة وأن اهتمام هذا الآخر بلغة التوراة كان يتعمق باستمرار بل وذهب به الحال إلى درجة أنه عبر له عن تقديره الفائق بأن سمح له بأن يلقي المحاضرات بدلا منه أين ؟ في الكولاج دو فرانس - وهو في السابعة عشرة من عمره !! .

« أنا أقوى من يحضر محاضراته ومعظمهم من القساوسة ورجال الدين نوى الأدمغة المتصلبة وكلهم متقدمون في السن ، قرى من مسيو أودران يزداد كل يوم . فأننا أساعده في تأليف كتاب في قواعد اللغة السيريانية ثم في القواعد المقارنة

* راجع الباب ١٩ .

بين اللغتين العربية والعبرية فهما من أصل واحد والاختلاف فى اللهجات فقط ... » .

أكثر أساتذته إخلاصاً له فيما بعد وأعله كان أكثرهم نفعا له هو دوم رافائيل دو موناشيس والذى تعرف عليه عن طريق أخيه فى جرونوبل . وكما حدث مع القس كالماس كانت صداقتهما بداية العلاقة بينهما بل أن الحب كما قال لأخيه هو الذى جعل دوم رافائيل يهتم به حتى أن هذا الأخير كان يناديه « إبنى » [بالعربية فى النص] وكثيرا ما كان يستقبله فى بيته الكائن ٣ شارع باشيه بحى الماريه .

« إنى أعمل كثيراً مع دوم رافائيل . (من خطاب إلى الأخ الكبير) وأصبحت « أتصرف ، » فى الحديث بالعربية . فأصرف الأفعال وأترجم حوارات ... » وكان يزداد تقديرا لا ستأذه فى اللغة العربية بقدر ما كان هذا الأخير « يسايره فى تخميناته حول الأسماء القديمة للمدن المصرية » . وفوق كل ذلك كان دوم رافائيل قد أبدى إلى تلميذه معروفا هائلا : فقد وجهه نحو التعرف على قسيس قبطى جاء من مصر علم ١٨٠٢ وهو جيهما الشيفيتشى راعى كنيسة سان روش . والذى تمكن طالبنا من التخاطب معه باللغة القبطية والتدريب عليها معاً ، فهى اللغة التى بدت لهما المفتاح الذى سيؤدى إلى الأبحاث المتعلقة بالكتابة المصرية القديمة .

وهكذا تحول شامبوليون الصغير ، القادم من مقاطعة دوفينييه من جهة الكاريسى إلى مستشرق وهو سعيد بذلك . وهو يعلن لأخيه بعد ذلك بستة أشهر أنه فقد كثيرا من وزنه حتى أن خديه قد تقعرا للداخل فزاد أكثر شبها بالعرب خاصة وأنه « أصلا يبدو كالشرقيين » وأنه من كثرة الحديث بالعربية أصبح صوته يخرج من أعماق حنجرتة .

فى خطاب مؤرخ فى بداية شهر ديسمبر روى لأخيه كيف أن شخصا يدعى عيد صاوى التقى به وهو مع دوم رافائيل فظن أنه عربى وحياء بكلمة « سلامات » وكان الأمر سيزداد إختلاطا عليه لولا أن صديقهما المشترك أوضح الأمر فى حينه . وفى إحدى الرسائل لأخيه أختتمها بتحويل إسمه إلى « أسد سعيد المنصور » (كذا) . وعندما أعلن له أخوه فى بداية شهر ديسمبر ١٨٠٧ أن « زوييه » ستجلب له « أثريا صغيرا » وطلب منه أن يقترح له إسماً « عربيا على الأقل » رد عليه جان فرنسوا : « على ، الحبيب » .. مما سيثير الأقاويل فى أروقة الكنائس * .

* المشكلة ستطرح نفسها بالطبع عندما - حان تعميد الطفل وتسميته . وقد أوضح جان - فرنسوا بحماس أن هناك قديساً إسمه « على » عاش فى القرن السادس - فصدقوه !!

كما أن صديقنا تعرف على أحد العلماء الكبار وهو الأب تيرسان وكان منزله فى أبروشيه « أبى أوبوا » بمثابة متحف أتروسكى - فينيقى - مصرى ، وزاد إرتباطه به عندما كشف القس تيرسان عن أكثر التحف أهمية لجان - فرنسوا المتمثلة فى نسخة لحجر رشيد قام القس نفسه بعملها عن الأصل فى البريتيش ميوزيوم (المتحف البريطانى) وقد توطدت العلاقة بينهما إلى حد أنه أعار صديقنا الشاب بعضاً من تحفه النادرة مثل كتاب العهد الجديد باللغة القبطية ومصحفاً باللغة العربية . ونرى إسمه مذكوراً فى العديد من المرات فى مراسلات الأخوين وكذلك إسم أحد المثقفين الدارسين للغة السلتيّة (القادم من الدوفينيّه أيضاً) وهو دو كامبرى وقد تسبب موت هذا الأخير فى نهاية ١٨٠٧ الذى كان قد أصبح من أصدقائه المقربين فى حزن عميق تملكه .

على الرغم من خجوله الطبيعى فإن أصغر أبناء تاجر كتب فيچاك - ماله مثل جميع المغرورين المحبطين - تمكن من السيطرة على فوراته العنيفة مثلما يفعل أخوه الأكبر.

فهو يعلن له فى خطاباته « أن سلوكه لايشوبه أى غبار حتى الآن موضحاً : «إذا جاء بعض الأصدقاء لزيارتهم فهم يحتفون عن أى اقتراح يعرفون مسبقاً أننى سأرفضه » ولكنه يقبل اقتراحات أخرى إذا علم أنها تتفق ورغبات چاك - جوزيف . مثل دعوة إوبان ميلان الذى يدرس له مادة « الميتولوجيا القديمة » لحضور اجتماعات يوم « الأربعاء » الذى يعقدها إسبوعياً فى منزله . وعلى الرغم من شعوره بأن ملبسه غير لائقة فإن مراهقنا كان يحضر هذه الندوات وما كتبه لأخيه فى وصفها يكشف عن حسه المبكر لفن الهجاء :

« أذهب أيام الأربعاء عند مسيو ميلان لأشارك فى سهراته [...] الحضور كثير ويوجد بينهم من خمسة إلى ستة أمراء ألمان وأسبان وفرنسيين إلخ ... بعض من الدقة ... إلخ والكثير من الرؤس « المتوجة » بالإثارة . نجلس ونقرأ ثم يبدأ حديث حول نقطة علمية أو عن التاريخ القديم أو عن الفنون الجميلة . يدافع كل واحد عن وجهة نظر ويستمر الجدل حتى الحادية عشر مساءً وربما بعد ذلك ... ترتيب الأحداث كالتالى : الدخول فى الساعة الثامنة ويعلن عن إسم من وصل . تقدم التحية ثم نذهب إلى صاحب البيت لتبادل بعض الكلمات معه . بعد ذلك ننضم إلى الحضور أو نقرأ مظاهر من كتب جديدة . فى الحادية عشرة والنصف يقدم الشاى أو البانش ... إلخ .. وألاحظ أن معظم علمائنا يحسنون تناول الشراب

مثلاً يحسنون الكلام . عندما تصل الساعة إلى النصف بعد منتصف الليل أو في الواحدة يحل لنا الإنسحاب [...] إن ما يثير الضحك وهو ما يثبت في الوقت ذاته أن العلم يسوى بيننا نحن معشر الرجال هو أنك ترى من خمس إلى ست إمراء وبعض السفراء والدوقة إلخ ... لا تتم وجوههم عن مقامهم وهم جالسين في ركن من الصالون حيث يتناب أصحاب السعادة على راحتهم . أمير فورتز بوردج * الشاب يشارك في الكلام وهو يفعل ذلك بتحفظ جم وبفكر صائب . وهو صاحب السمو الوحيد الذي يعد مقبولا . أما بالنسبة للآخرين المحملين بالأوسمة والأوشحة ... فهم ينتظرون الشاي ويحتسونه ثم يهرعون خارجين ... »

إذا كان « صغير » قد تجرأ ودخل هذا « العالم » الدائر في ذلك العلم وأكثر المعارف تجرداً فهو يزداد جرأة ويذهب لزيارة أكثر حاملي مفاتيح مصر شهرة مثل قولني وسونيني وجومار وهم الذين وطأت أقدامهم أرضها لأسباب مختلفة .

كان قد تعرف على قولني في جرونوبل قبل ذلك بعامين وكان قد أصبح كونتاً وعضو مجلس شيوخ الإمبراطورية دون أن يفقد استقلالية الرأي والسلوك .. وكان « صغير » يعجب بوقار الرجل واستقامته ودقة تفكيره .. ومع ذلك فقد كان يضايقه منه طريقته غير الشاعرية تماماً والعلمية البحتة في تصويره لمصر إذ هو يكثر من ذكر الملاحظات عنها المدعمة بالأرقام دون أن يأبه بأساطيرها وألالتها . وكذلك كان الحال بالنسبة لسونيني دو مانونكور عالم الطبيعة الذي كان يصف له مصر وصفا دقيقا ولكنه في رأيه كان يفتقد الخيال والقدسية . ومع ذلك وعلى الرغم من قلة الحيوية التي كان يفتقدها في الشخصيتين فكانا كرجال معرفة حقة يثيران إعجابه .. ولم يكن من الممكن أن يسقط من حساباته أيّاً من المعطيات التي ستسمح له بتنظيم عملياته في كشف الأسرار .

وينفس القدر من التسامح طبق المبادئ ذاتها على المعلومات والأفكار التي إستقأها من جومار الذي أصبح أهم شخصية فيما يتعلق بكتاب « وصف مصر » . في بداية الأمر استقبله هذا العالم الجليل في الجغرافيا بنفس القدر من الترحيب الذي عبر له عنه كل من قوربيه وقولني وسانيني . وعلى

* الشقيق الأصغر لإمبراطور النمسا .

الرغم من أن « صغير » قد إضطر أن ينتظر أشهراً عديدة قبل أن يستقبله السكرتير العام فقد أقام معه علاقات عمل هادئة . إلا أنه ما أن تعرف على مقدار طموحات الشاب إلا وأصبح جومار غير راض عنه وعامله منذ ذلك الوقت بقسوة * إذ كان يرى فيه حدثاً غراً يدعى - دون أن يكون قد وطأ أرض مصر - أنه يعرف أكثر مما يعرفه قدامى محاربى ١٧٩٨ .

سيفضل جان - فرنسوا التعامل مع مساعدى الجغرافى من الشباب فيلار دوتيراج وجولوا وهما المكلفان مع لانكريه ** بكتابه معظم المقالات الخاصة بمصر القديمة فى كتاب « وصف مصر » وكانوا يعاملونه بود حتى لو اختلفت آراؤهم معه . مايدعو إلى الاستغراب من جهة أخرى هو عدم وجود أى مستند عن علاقة « صغير » بفيثان دونون . إن مانعرفه هو أن الشاب قد قرأ كتاب الرائد إذ أننا نجد إشارات مبعثرة هنا وهناك فى مراسلاته إلى « دونون المحترم وخفيف الظل » *** .

أما بون - جوزيف داسييه السكرتير الدائم لأكاديمية الآداب فهو الذي لن يالو جهداً حتى يتعرف الكافة على عبقرية المكتشف وقد عرفه عن طريق أخيه الأكبر منذ وصوله إلى باريس . العلاقات بينهما ستبقى غير محدودة لفترة طويلة لأن إهتمامات العالم العجوز لم تكن لها علاقة مباشرة بالموضوعات التى تخصص فيها الشاب . إلا أنه أعلن عن تعاطفه معه منذ البداية إلى أن أصبح هذا التعاطف عملاً إيجابياً بعد ذلك .

لم يكن شامبوليون الأصغر يكتفى بعلاقاته مع الأساتذة وأصحاب الفكر ، فقد كان وهو فى السابعة عشرة يزامل أيضاً أقرانه مع ملاحظة أنه لن يتعرف فى باريس على صديق يمكن مقارنته بمن صادقهم فى فيچاك أو جرونوبل . ويقر معظم كتاب سيرته أنه لم يقم علاقة صداقة سوى مع المجدين فى عملهم المنكبين على الأبحاث المشابهة لأبحاثه والأفضل من كانت أبحاثه تتلاقى وأعماله هو .

وقد يكون من التزيد أن نصف علاقاته الودية مع بوناڤونتور دو روكفور بأنه صداقة وإن كان يصفها هو نفسه أحياناً بأنها « غوتية » (مثل الكاتدرائيات) بمعنى أنها مرسومة وجادة للغاية . خاص وأن أبحاث دو كفور الموسيقية كانت تذهب فى اتجاه

* غير أن ذلك لم يمنعه من أن يطلب من الشاب باستمرار أن ينقل تحياته إلى أخيه الأكبر .

** معه ... وبعده ، لأنه توفى فى بداية عام ١٨٠٨

*** سنرى فيما بعد الأهمية التى أعطاها باحثنا إلى « البردية رقم ١٢٨ » التى نشرها دونون .

يلتقى وأبحاثه هو فى الثقافة القبطية .. وهذا الوصف ينطبق أيضا على علاقته بالمكتبى
چوچون الذى أرسلته العناية الإلهية له ليبعثه فى مجال الكتب وكان يجمع فى بيته
بشارع دويك أبناء الدوفينيه المغتربين (أو المنفيين ؟) فى باريس .. ويبدو أن چان -
فرنسوا كان يواظب على حضور هذه اللقاءات . أما علاقته بچان - چاك دوبوا
الرسام والمثال فقد كانت عروتها أوثق وهو الذى سيكون معينه فى نقل الكتابات
المصرية الموجودة فى متحف فيلترى وقد وصف الشاب القادم من جرونوبل علاقتهما
بكلمات كلها حرارة إذ كتب يقول : « كنا نثرثر حول الآثار ونتبادل الملاحظات وكنا
نجد دائما شيئا جادا نتكلم عنه أو نتعلمه من بعض .. » ووصف فى خطاب لأخيه
مؤرخ ١٨٠٩ لقاءه بدوبوا أنه من أسعد الأحداث التى جرت له بالنسبة لحياته
العملية كباحث .

هل كانوا أصدقاء أم مجرد أقران عمل كل هؤلاء الشباب الذين كان يلقاهاهم فى
الكولاج أو فى المدرسة الخاصة . ويتبادلواياهم الاكتشافات أو خطأ جديداً فى
أبحاثهم يقتفون أثره ؟ لقد كان يشير إليهم فى معظم الأحيان بكنية عن تخصصهم
وليس بما يميز شخصيتهم * . فكان يلقب ليونار دو شيزى « الهندى » إذ كان
متخصصاً فى السانكرتية وأبال دور ريمورا « بالصينى » وهو الذى أصبح أول أستاذ
يدرس لغة « الماندران » فى الكولاج دو فرانس ، أما چان سان - مارتان فهو « الأرمنى » .
هذا الأخير يمثل حالة خاصة ، فقد كانت علاقته بسان مارتان علاقة صداقة قوية جداً
وكانت الرسائل المتبادلة بينهما غزيرة جدا إلى أن فرق بينهما الطموح وخاصة الطموح
السياسى . ومع ذلك ففى عام ١٨١١ لم يتردد چان - فرنسوا فى اللجوء إلى سان -
مارتان (فهو لم يشك فى وفاءه على الرغم من أى شئ) طالباً منه خدمة « لايمكن أن
تنسى » فقد كانت تتعلق بعلاقة عاطفية ** .

وماذا عن دارس اللغة اليونانية چان لوترون ؟ فقد أصبح مع مرور الزمن من
أفصح المدافعين عن چان - فرنسوا شامبويون عندما ثارت أعنف المجادلات التى
أثارها إكتشاف عام ١٨٢٢ على الرغم من أنه كان فى البداية ضمن منتقديه . ومن
ناحيته أيضا كان يطلق عليه باستهزاء لقب « البستانى صاحب الجذور اليونانية » وذلك
بين أعوام ١٨٠٧ و ١٨٠٩ وكان من بين زملائه أقل من يلقاهاهم .

* وكانوا يلقبونه من ناحيتهم « بالمصرى » .

** سيأتى ذكرها فيما بعد ص .

باختصار كانت حياة مخصصة كلها للدراسة والبحث لتنفيذ طلبات چاك - جوزيف تلك التي قضاها جان - فرنسوا خلال السنة الأولى من فترة إقامته بباريس وذلك حتى خريف عام ١٨٠٨ ، يشهد على ذلك برنامج العمل الأمثل له والذي أفاد به أخاه في ٢٧ ديسمبر ١٨٠٧ . وقد يعتقد البعض أنه مثالي أكثر من اللازم ليكون صادقا فيه ولكن لا يوجد سبب واحد يجعل المرء يشك فيه خاصة وأن الرسائل اللاحقة توضح أن الأخ الأصغر لم يكن يمنع نفسه من الإفصاح عن الحقيقة لساكين جرونوبل حتى لو كانت غير سارة :

« يوم الاثنين الساعة الثامنة والربع أتوجه إلى الكولاج دو فرانس لأصله في التاسعة . أنت تعلم بالطبع أن الطريق طويل إلى هناك فهو يطل على ميدان كاميرى بجوار مبنى البانتيون . في التاسعة أتابع محاضرة اللغة الفارسية للأستاذ دوساسى * حتى العاشرة ولما كانت محاضرة العبرية والسريانية والكالدية تلقى في منتصف النهار فإننى أسرع إلى مسيو أودران الذى أقترح أن أبقى عنده أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من العاشرة حتى الظهر . فهو يظل في الكولاج دو فرانس .. نمضى هاتين الساعتين في الحديث عن اللغات الشرقية وفي ترجمة نصوص من اللغات العبرية والسريانية والكالدية والعربية . وتخصص دائما نصف ساعة للعمل في كتابه عن « قواعد اللغتين الكالدية والسريانية » . ننزل من عنده عند الظهر ليلقى محاضراته عن العبرية .. وهو يطلق على اسم « بطريك الفصل » لأننى الأقوى في هذه المادة [...] بعد أن أخرج من هذه المحاضرة فى الواحدة أقوم باختراق كل باريس وأذهب إلى المدرسة الخاصة لأتابع فى الثانية محاضرة مسيو لانجلاس الذى يخصنى برعاية خاصة .. إننا نشارك فى الحديث فى السهرات ** يوم الثلاثاء أذهب إلى محاضرة مسيو دوساسى فى الواحدة فى المدرسة الخاصة . يوم الأربعاء أذهب إلى الكولاج دو فرانس فى التاسعة وفى العاشرة أصعد عند مسيو أودران وفى الثانية عشرة أحضر محاضراته وفى الواحدة أذهب إلى المدرسة الخاصة (ساعتان) من أجل حضور درس مسيو لانجلاس وفى الخامسة مساء

* كان سيلفاستر دوساسى يدرس هذه اللغة أيضا أما بالنسبة للعربية فقد كان يتناوب تدريسها مع مسيو كوسان .

** هذه الملاحظة تدعو إلى الحرص عندما نتعامل مع الأحكام التى سيطلقها الطالب فيما بعد عن أستاذه .

أتابع محاضرة دوم رافائيل الذي يجعلنا نترجم قصص لافونتان الشعرية إلى العربية .

الخميس في الواحدة محاضرة مسيو دوساسي . الجمعة أذهب مثلما أفعل يوم الاثنين إلى الكولاج دو فرانس وإلى مسيو أودران ومسيو دوساسي السبت عند مسيو لانجلاس في الثانية ... » ويختتم كلامه بقوله : « لقد حميت من كثرة المجهود ولذلك سأذهب لاستحم لاتزود ببعض من الطاقة تمكنني من متابعة محاضراتي » .

ولما كنا على علم بأن جان - فرنسوا يضع لمساته الأخيرة على كتابه عن « جغرافية مصر » وينسخ بعض النصوص لأحدهم أو لآخر ويواصل أبحاثه في الموسيقى الكالدية أو السريانية لصالح الجنرال دو لاسالات (وهو من المثقفين الجرنولوازيين الذين كان يبالغ في الإلحاح عليه ولكن كان « زميله في أكاديمية جرونوبل ») .. ويواصل دراسته في علم النمية ويكتب بعض المقالات لصحيفة « المخزن الأنسيكلوبيدي » التي يصدرها ميلان ويقوم بزيارات متعددة إلى كنيسة سان روش - لأسباب لا علاقة لها بالتقوى بل لكي يزيد من إمتلاكه اللغة القبطية مع القس الشفتيشي ويجري ذات اليمين وذات اليسار ليؤدي الطلبات التي يكلفه بها أخوه .. لذلك يمكن أن نقول أن ابن صاحب مكتبة فيچاك كان شاباً مشغولاً .

كيف لايسخن وهو باستمرار يجري وينسخ ويبحث ويكتب ويقرأ ثم يجري طول الوقت ؟ كان چاك - چوزيف واعياً بذلك كله لدرجة أنه نصحه في يناير ١٨٠٨ أن يعتنى بصحته : « تذكر الدواء الذي وصفه لك مسيو جاننيون في الخريف الماضي . يجب أن تشرب بعض المشروبات المنعشة [...] مثل « الأورچا » [...] إشرب منه عدة مرات في اليوم ولكن بعد الوجبات بفترات طويلة . لاتستحم لأن الاستحمام مضر لك في الشتاء ... » .

رد جان - فرنسوا جاء كالتالي : « سأتناول الأنوية التي كتبها لي مسيو جاننيون - إنني أشعر بسخونة وتنقابني آلام الرأس والمشروبات المنعشة تفيدني كثيراً » مع ذلك فعند حلول شهر يونيو أرسل يحيطهم في جرونوبل بأنه قد أهمل شرب « الأورچا » لأن الجو ليس حاراً ثم إن هذا المشروب « غالي السعر جدا » .

والسؤال الآن هو كيف كانت هيئة هذا المراهق المستقيم الذى ذهبت عن ذاكرته صورة پولين ومع ذلك لم تحل مكانها عاطفة جديدة تملأ عليه أحلامه وتحرك نهاره ؟ لما كنا لم نستدل على نص يصفه فيه طرف ثالث فإننا نكتفى بهذا الوصف الذاتى السريع الطريف المؤرخ ٤ فبراير ١٨٠٨ والذى يكشف عن نوع من التصالح مع الذات :

« أشكر كما أشكر زويه على تمنياتكما لى بالهناء [...] أما بالنسبة لصحتى فإن الصداع لم يعد متكرر الحدوث كما كان إلا أننى أشعر بألم فى جانبي الأيمن يضايقنى كثيراً فى التنفس . ساستمر فى المنعشات التى أفادت عيني كثيراً فأصبحتا متوازيتين الآن تماماً * . وعلى الرغم من أن لون بشرتى مازال يميل إلى « العربية » إلا إنه أصبح أكثر بياضاً . زاد طولى كثيراً وأصبحت بذلتى « الفراك » البنية التى كانت طويلة بعض الشئ تناسبنى تماماً الآن .. »

إن بذلته الفراك المناسبة تماماً لالتخص الحالة التى كان عليها وضعه المالى ، سنراه بعد قليل غاضباً للغاية من باريس والباريسيين ، ولم تساعده الضائقة المالية التى يتخبط فيها على إزاحة السحب التى تجمعت أمام نظرتة لهذه المدينة حيث المظهر له أهميته القصوى خاصة فى هذا الزمن التى تتوالى فيه الأمجاد البراقه ويتباهى فيه محدثو النعمة .

وإذا كانت رسائل جان - فرنسوا قد إمتلأت إعتباراً من صيف ١٨٠٨ بإشارات إلى أبحاثه وإكتشافاته العلمية وإلى ماينشره منافسوه أو من سبقوه فإن رسائله الأولى التى سبقت تلك الفترة كانت تكثر فيها الشكاوى وعلامات الأسى والطلبات والملاحظات المرة عن قلة موارده والحالة المريرة التى يتخبط فيها « فقيراً مثل الشعراء » .

ونذكر هنا بعض الأمثلة المنتقاه عشوائياً لهذه الشكاوى التى كان يطلقها الواحدة تلو الأخرى مثل المدفع الرشاش على أخيه چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك « أبى على » :

* سبق أن أشرنا إلى عدم التوازن الذى لوحظ فى نظرة الشاب .

« .. لا يوجد معى سول واحد . كل مايمكننى عمله هو تنظيف ملابسى وأدفع ثمن نقل الرسائل التى تصلنى * ... » « إن مدام ميك ران تعذبنى وهى تستلم إيجار الغرفة » « مدام ميكران لا تكف عن ملاحقتى يومياً من أجل إيجار الغرفة وليس فى إمكان مسيو فرجا أن يعطينى مالا لأنه لايمتلك [...] مايكفى لمأكلى أرجوك أن ترسل لى مالا فور إستلام خطابى ... »

« حالتى ميئوس منها . لا أجد معى سولا واحدا . إرسل لى فوراً مرتب الشهر القادم حتى لا أكون مضطرا إلى تحمل آلاف المضايقات التى تثيرها لى مدام ميكران بسبب إيجار الغرفة ... »

« استحلفك أن ترسل بعض النقود لدفع إيجار الشهور الأربعة المستحقة لمدام ميكران »

ثم يضيف ساخرا « بدأت ألاحظ أنى أصبحت باريسيا بالفعل بسبب الطريقة (اللبقة ؟) التى تخلصت بها منها فى المرات المائة ألف التى جاءت تطالبنى فيها بأن أمرر لها الثمانية عشر فرنكا . أصبحت أخشى الحجز والقضايا والحبس إلخ إنى يائس وليس معى سولا واحد .. »

كان جان - فرنسوا مستعداً للاكتفاء « بالتعيين » العادى الذى يتغذى عليه من « الأخوة الريفين » ولكنه لم يكن ليقبل بأن يظهر فى مختلف الأوساط فى هيئة الفلاح القادم من مقاطعة كارسى لباريس أو الجلف الواصل من الدوفينيه . وهو يسأل شقيقه بعد ذلك ببضعة أشهر :

« من تريدنى أن أصادق ؟ إذا أردت أن تسكن فى باريس وتعيش مع الباريسيين فعليك أن تتصرف مثلهم . وإنما لا أعنى بذلك وجوب الصرف على العروض الفنية وحفلات الرقص وما إلى ذلك : إنما أقصد أن يكون ملابسك ملائمة وهو مالم يتوافر لدى . إنك لاتذهب فى المجتمع وأنت ترتدى جوارب سميكة من القطن ترتفع حتى الركبة وصيديريا أسود ونفس البدلة القديمة الريفية . ولهذا السبب فإنى لا أرى أحداً ولا أقدر

* كان يوجد فى ذلك الوقت نظامان لإيصال الرسائل : « البريد الكبير » وكان يعمل بنظام النقل بعد دفع المستحق « والآخر داخلى فى باريس فقط ويعمل بنظام « حمل الرسائل المدفوع » .

أن أرى أحدا . [...] وما أنا أصبحت ضمن فئة اللا ... سرواليين * دون أن أكون من معتقى مبادئهم ولا أهدافهم [...] الحقيقة هي أن هينتي فظه بما ارتديه من ملابس واسعة وأطول مما ينبغي وتفصيلها كرية . وإنى أعترف لك أن هذا هو السبب الذى يجعلنى لا أرى مخلوقا ... »

أمام هذه الحدة فى العرض لم يكن أمام چاك - جوزيف سوى أن يستجيب إلا أنه لم يتلق سوى تقرير جديد محرر بوقاحة تنبئ عن كثير من الأحداث :

« وصلنى طرد الملابس . الإنجليزية (نوع من البدل) جميلة للغاية والسراويل أجمل . الصديرى يباع بثلاثين سولا فى الشوارع وكان فى مقدورك أن توفر ثلاثة فرنكات وعشرة سول قيمة المشال . ولن أقول شيئا عن جواربك الحريرية السوداء فهى مقبولة إذا ارتديتها فى المساء للذهاب عند مسيو ميلان حيث لاينظر أحد إلى السيقان أو إذا ارتديتها نهارا للذهاب إلى ملجأ العميان إلا لو إحتجتها أنت لترقيع ما تبقى لك من ملابس . أعترف فى النهاية أنك لن ترتديهما أنت ا وأقول لك أنى قمت بتفصيل سروالا جميلا من نوع محل مارتان وسوف يرسل لك الحساب للسداد . عندما أجد اللباس اللائق والحذاء المقبول سأقوم بتأدية جميع المهام التى كلفتنى بها مهما كانت إذ سيكون فى إمكانى أن أظهر فى المجتمع .. بل إنى مستعد ساعتها أن أرى الإمبراطور ذاته إذا كان فى ذلك مايرضيك . »

ما هو السبب وراء هذه الوقاحة المفاجأة خاصة أنها موجهة إلى الشخص الذى يكن له كل مودة ؟ ذلك لأن هذا الأخ الذى يدين له بالكثير يطلب منه فى المقابل أن يكون ممثله أو سفيره لدى الشخصيات العامة الباريسية وأساتذة الجامعة والسلطات الأكاديمية : إن چاك - جوزيف رجل طموح دائم البحث ليس فقط عن كتاب أو مستند ولكن أيضا عن وظيفة أو لقب أو خدمة أو منحة لنفسه ولأخيه الأصغر هذا الأخير كان على إستعداد أن يؤدى دور المرسال لا دور الجلف ...

* اللا - سرواليون Les Sans - culotes كلمة أطلقت على الثوار من الطبقات الدنيا فى المجتمع الفرنسى فى فترة المؤتمر التأسيسى بعيد الثورة الفرنسية (المترجم) .

الحقيقة هي أن باريس لم يكن لها عليه التأثير الذي قد يؤدي بأخرين إلى التشبثت سواء كانت عواقبه سعيدة أو تعيسة . إن أقل ما يمكن قوله أن الحب من أول نظرة لم يقع بين المدينة الكبيرة والمراهق . وقبل أن يصل به الحال إلى أن يصف باريس « بيبابل » فهذه هي بعض السهام التي أطلقها عليها :

«... شعرت بألم قوى في جانبي . إن جو باريس يقوضني وأبصق مثل المسعور وما أنا أفقد قوتي . إن هذا البلد كرهه إلى أقصى حد إذ أن قدميك تبقيان فيه مبللتان باستمرار . أنهار من الطمي * (بون مبالغة) تجري في شوارعها ولذلك فإنني أشعر بملل يقتلني . وللترفيه عن نفسي أذهب للتريض الله أعلم كيف . وانتاب طول الوقت (هذا هو الواقع وهذه هي إرادة الله) .

هناك ما هو أفضل :

« أشعر باحتقار يختلط به الكره نحو عاصمة فرنسا القذرة ماذا يمكن أن أفعل وسط هؤلاء الأدباء مصاصي الدماء ؟ وفي هذه الأوكار المثيرة للفثيان حيث يكفي الانحياز لحزب لكي تكون صاحب رأي وتصل إلى المناصب العليا ؟ وكلما عملت تفكيري زاد تعلقي بجبالنا . إنك تجد فيها المساد بل الأعداء أيضا ، هذا صحيح ، إلا أن الرأي المستنير يلقي فيها حقه على الأقل . أما في باريس فلا يوجد رأي سوى رأي الأحزاب . وفيها تعد أحقق إذا سقط الحزب أو « نيوتن » ذاته إذا إنتصر . لا توجد نقطة وسط لأن لا مكان للحياة حيث يحكم على الأشخاص من لون لباسهم : كفى حديثا عن هذه القنورات ... إنني مقتنع بما لي من فهم . لأخلاق أن العاصمة لاتناسبني . لو أنني ولدت في الهند لكنت أصبحت بالتاكيد من الدراويش المتأملين . فانا أكره الحركة ولا أود أن أجيد نفسي سوى في حلقة من المعارف ضيقة للغاية » .

وعندما يقترح عليه أخوه أن يطلب من لوى لانجلاس أن يوجهه نحو عمل رسالة بحثية أو أي مكتوب آخر يرد عليه المراهق بحدة :

* الخط في النص الأصلي .

« حتى إذا ألفت أجمل المؤلفات وأعظمها ثقافة فإنى لن أجد قارئاً واحداً لى فى شوارع باريس بسبب عظمة إنتشار التنوع العلمى بها !! إن هذا مثبط للهمم لأقصى حد [...] يالها من مهنة صعبة ... مهنة المؤلف ! » .

وهكذا كره جان - فرنسوا شامبوليون الجو الثقافى العام فى باريس كما كره المؤامرات التى تصيب مقاهيها وصالوناتها بحمى المؤامرات . كما كره أيضا الأكاديميات والجامعة الواقعة - مثل كل شئ آخر - تحت الديكتاتورية الإمبراطورية . ماذا يمكن أن يكون مصيره وسط هذا الخضم المتلاطم ؟ ولما كان جاك - جوزيف يحاول باستمرار أن يجد له عملاً فى المكتبة الوطنية أو فى التدريس كتب له فى ٥ فبراير ١٨٠٨ رسالة يذكر له فيها مقالته له سونى :

« هذا هو ما أعرفه عن الجامعة الإمبراطورية . لقد قرأوا المشروع ست عشرة مرة أمام الإمبراطور الذى كرر باستمرار أن هذا المشروع محتاج لأن ينضج [...] ولا يوجد ما يدل على أنه يريد إنشاء كرسي لغة عبرية [...] فقد راودته كثيراً فكرة إلغاء الكولاج دو فرانس [...] إن مهنة العلوم تمر بمرحلة قاسية للغاية وهى لاتؤدى لشئ الآن . لاشئ يعمل الآن سوى الحرب ... »

هذه الملاحظات المريرة أدت إلى أن أستخلص منها شامبوليون أسوأ الاحتمالات المستقبلية حيث تظهر فيها آثار شخصيته المتذبذبة المزاج :

« ... لم يعد لى أمل كبير فى مستقبلى . أفضل مايمكن عمله هو أن تبحث لى فى البداية عن وظيفة مناسبة فى أى مكان تراه . ولا يعتبر هذا من المستحيلات بالنظر إلى الوسطات التى تساندنى . وفى هذه الحالة ومن هذا الملائ ستأتى الوظائف بعد ذلك . فى المكتبة الإمبراطورية لا يوجد سوى مركز واحد هو مركز الأمين [...] إذ لا أعتقد أنك تريد أن ترانى فى دور موزع الكتب . [...] فكر فيما أقول . الكولاج دو فرانس لا أمل من ورائها ... »

ظل هذا التشاؤم بل هذه الانهزامية مهيمنة عليه لعدة شهور . فكتب يوم ٣١ مارس :

« إن كراسى التاريخ والعربية والعبرية غير موجودة أصلاً . هناك أشياء أخرى تشغل الجميع !! [...] بعد شهرين فقط من وجودي هنا أدركت أن دراستي للغات الشرقية لن تقيدني في شيء [...] ثم .. هل أنا معتاد على التدريس * ؟ هل قمت بالدراسات المطلوبة لهذه المهنة المملة وغير المجدية ؟ » .

واستعد جان فرنسوا بعد ذلك بعدة أسابيع لقبول العمل في وظيفة « في المؤسسات العلمية مثل المتاحف أو مكاتب الآثار أو التاريخ الطبيعي أو المكتبة » غير أنه بقي على مرارته وإحباطه ، ويقر بأنه لا يجد نفسه بالأوهام :

« لكي تحكم على المدرسة الخاصة أو المكتبة الإمبراطورية إلخ ... يجب أن تكون مثلي في الموقع . يجب أن ترى الأشخاص والأشياء وأن تحيا معهم ووسطها وتدرسها ، وأعتقد أنني بعد عشرة شهور قاتلة قضيتها هنا يمكنني أن أصدر الحكم بكل وضوح . »

في ٢١ مارس ١٨٠٨ وصل به اليأس إلى قمته :

« ... كل يوم يمر يزيدني إقتناعاً بأن أسوأ إختيار هو سلك العلوم . إن البندقية تلقى احتراماً أكثر من قيثارة أبولون . وعازف نقيير في سلاح الخيالة يجني فوائد أكثر من أي فنان أو عالم [...] وهكذا ترى أننا مضطرين ** إلى إختيار مهنة جديدة تأكد أنني سأبذل فيها جهداً أكثر مما أبذله في دراسة اللغات الشرقية » .

هل في ذلك ما يمكن أن يكون وداعاً للعلم والبحث ؟ وداعاً لمصر ؟ چاك - جوزيف يعرف شقيقه وانطلاقاته وإحباطاته . فهو لم يتأثر ويجيبه بهدوء ببعض النصائح المرتبة: « لا يمكن أن تدرس الشرق إلا بعد معرفة جميع لغاته التي يمكن إرجاعها إلى لغة واحدة [...] لذلك يجب ترتيب ما هو متماثل بينها . » بارع هو هذا الفيچاك !! فلأنه يعرف تماماً أن أخاه يعمل على هذا المنوال ويفكر بهذه الطريقة فقد قدم له هذه « النصيحة » أي أنه يود أن يقول له : استمر فأننت على الدرب الصحيح .

* كان في السابعة عشر من عمره .

** لاحظ صيغة الجمع التي تميز به علاقتهما .

١٨٠٨ كان العام الذى تبلور فيه مخطط فرض الحصار القارى المخيف على فرنسا وأخذ منحني خطرا بعد الثورة الشعبية الإسبانية . وهو أيضا العام الذى تجسدت فيه الشرعية الملكية الإمبراطورية بالأعداد للزواج النمساوى . وهو أخيرا العام الذى إقتنع فيه الإمبراطور فى نهاية الأمر بما أوصى به مستشاروه بتجميع مختلف فروع التدريس تحت سلطة موحدة .

أولى تلك العمليات أدت إلى أن التعبئة الشاملة للتجنيد للشباب إبتداءً من سن السابعة عشرة وظل التهديد بتجنيد جان - فرنسوا مسلطاً عليه لعدة شهور : فهو قد بلغ السن فى ٢٣ ديسمبر ١٨٠٧ وبالتالي فهو ضمن من سيطلبون للتجنيد .. وتعتبر رسائله لأخيه عن هذا القلق الذى يعمل چاك - جوزيف على تبديده بأن قام بعدة إتصالات ملحة بفورييه المحافظ الكريم الذى قام بدوره بالاتصال بصديقه فوركرو مدير التعليم . كان هذا الإنذار الأول ونجح فى التخلص الأول من الورطة .

إلا أن شره النظام الإمبريالى لهضم الرجال لاينتهى : إذ عادت نغمة التعبئة تتردد من جديد بعدة بضعة شهور . وهنا إنفتح طريق يسمح بالتفادى عن التجنيد وهو دخول مدرسة « الأيكول نورمال » (وهى مدرسة عليا لإعداد مدرسين التعليم الثانوى) (المترجم) يعفى تلاميذها من دخول الخدمة العسكرية . ولكن جان - فرنسوا يرفض تماما أن ينحنى أمام هذه القاعدة « الاعتقالية » حسب ماقاله فهى لن تسمح له لسنتين طويلة قادمة بزيارة مصر والعمل على الطبيعة هناك ولم يأبه فى ذلك بكل مافعله أخوه لحته على الدخول فى هذا السلك .

فى نهاية صيف ١٨٠٨ تكرر الحال من جديد وتجددت مناشدته لچاك - جوزيف الذى رد عليه دون أى تأثر فى ١٨ سبتمبر « ... لاتقلق من التجنيد [...] ولاتقم بأى إجراء [...] واعتمد على فيما أقوم به للتفادى من هذه الأزمة [...] لقد تخطيت أنا هذه المشكلة ستتخطاها أنت أيضا ... » لقد كان فيچاك على يقين من أن أماله فى جوزيف فورييه قائمة على أساس صلب لأنه يمثل بالنسبة له عاملا لاغناء عنه فى تحرير مقدمة كتاب وصف مصر . وجه محافظ مقاطعة إيزار التماساً للإمبراطور « لصالح العلوم » وهو ماسمح للشباب أن يتفادى من الرحيل لفتح سيحومتا وسومو - سيبيرا .

ومع ذلك فقد إستلزم الأمر أن يمر صاحبنا بتجربة « القرعة » (التى تحدد من سيجند ومن سيعفى من قائمة المطلوبين) وذلك فى ١٩ مارس ١٨٠٩ فى فيچاك وقد مثله أبوه هناك . وجاء فى الشهادة الموقعة من عمدة بلده (2) أن « السيد /

شامبوليون جان - فرنسوا « قد سحب رقم ١٦٥ » الذى لم يستدع للخدمة العسكرية .
بهذه الطريقة أمكن الحفاظ على الشكليات .

فى ذلك الوقت ظهر على سطح الأحداث سبب لقلق جديد وهو التجنيد فى السلك
القنصلى فى بلاد الشرق . فى ١٣ مارس ١٨٠٨ كتب « صغير » لأخيه الأكبر :

« تم تسفير بعض البعثات مؤخرا إلى المغرب والبربر ومراكش وضموا إليها طلبة
المدرسة الخاصة * فأجبروهم على السفر [...] (إن هؤلاء الموظفين) يعاملون
معاملة غير لائقة البتة ويشعرون بأنهم باستمرار تحت تهديد سيف أحد الأتراك ...
أحكم أنت بنفسك إذا كان العاملون المستشرقون المقيمون فى تركيا الأوربية
معرضون للأخطار إلى هذه الدرجة فإنهم سيكونون بل أنهم بالفعل أقل حظاً وهم
وسط المغاربة وفى مدن القرصنة فى تونس والجزائر ومراكش [...] لا أشعر أنى
مستغن من الحياة ** لدرجة تدفعنى إلى أن أغامر بها فلا أرى بلادى وأهلى مرة
أخرى وذلك من أجل بعض من دخان المجد .. حتى إذا كان هناك مجد فى أن تقيم
داخل أربعة جدران داخل قصر قديم بلقب قنصل ... ترتعد أوصالى عند سماع أقل
حركة . »

لوحة فنية على الطريقة التركية ... ؟ ما الذى يجعله يذهب إلى هذا المنفى ؟ ثم جاء
لوى لانجلاس بعد ذلك يجس نبض صاحبنا الخائف من « البربريات » فيسأله إذا
كان « يميل إلى السفر » ويرى نفسه « سعيداً فى المشاركة فى العمل فى إحدى
المفوضيات فى بلاد فارس أو فى الهند مثلاً ... » (علماً بأن لانجلاس هذا كان قد
رفض قبل ذلك بعشرة أعوام أن يصاحب نابليون إلى مصر عندما طلب منه ذلك) .

رد جان - فرنسوا بسرعة « أنه ليس بالقوة التى تسمح له بذلك » واستمر
الأستاذ على إصراره مع شئ من المديح ولو لمرة واحدة قائلاً « بعد شهرين أو ثلاثة ... »
إهتزت معنويات صاحبنا بدرجة أنه اقترح على أخيه ألا تظاً قدماء بعد ذلك المدرسة
الخاصة التى يهيمن عليها تماماً هذا الشيطان لانجلاس ، على أن يكتفى بمحاضرات
الكولاج دو فرانس ودروس يوم رافائيل ... خلاصة القول هو أنه من الممكن أن تحب
الشرق وتكره العاملين فى مجاله .

* اللغات الشرقية .

** السطر موضوع فى النص الأصيل .

إلا أن باحثنا الكاره للغربة مستعد لقبول إستثناء واحد :

كتب يقول لأخيه :

« هناك أسباب وجيهة جعلت حماسى للسفر إلى الشرق يفتر بعض الشيء ، إلا أن هذا لا ينسحب على مصر فعلى الرغم من أن حالتها أكثر أسى من حقول القسطنطينية وطرارده (كذا) ويريبيوليس إلا أن لها فى نظرى من إغراءات قوية لدرجة تجعلنى أتحدى الصعاب .. إنها مصر !! »

هل يجب أن نؤرخ لدخول جان - فرنسوا الصريح طريق البحث العلمى فى المصريات ابتداءً من تاريخ قبوله هذه المخاطرة المحتملة التى يشملها إعلان المبادئ هذا أم أننا نؤرخ لذلك من تاريخ الخطاب الذى أرسله لوالديه فى يناير ١٨٠٦ ؟ على العموم فهو الآن فى السابعة عشرة من عمره واضح الفكر ويعرف ما يريد .

إذا كان مجال رؤيته قد تحدد أبعاده فإن نطاق عمله مازال مليئاً بالآفهام . إذ توالى حالات الطوارئ كما توالى خيبات الأمل الواحدة وراء الأخرى . أو هكذا . اعتبر إعادة التشكيل الضخم فى كوادى نظام يدير وجهه عن أصوله الجمهورية طالباً الحصول على الاحترام الذى يضيفه عليه الحكم الملكى . ففى مجال التعليم العالى إختار العاهل الجديد بصفته « المعلم الأكبر » الماركيز « فونتان » مفضلاً أياه على أنطوان فوركروا وهو من اليعقوبيين التائبين إلا أن رائحه المتمرد (السان كولوت) تفوح منه * .

مثل هذا القرار بدا أنه فى غير مصلحة الأخوين شامبوليون .. ولم يكن ذلك يرجع إلى أنهما أفصحا عن ميول جمهورية وإنما كان ذلك لأن فوركروا كان لا يخفى حمايته لهما مثلما فعل فورييه . ما الذى يمكن إنتظاره من فونتان النبيل ؟ الواقع هو أن هذا النبيل لم يكن أقل عناية بصديقينا الجرونوبلوازيين من سلفه . وكان يوجد ضمن معاونيه المقربين واحد من مقاطعة دوفينية . وسنرى عن قريب آثار هذه الطيبة عليهما .

كلا ! لا الفقر ولا الحزن ولا التجنيد ولا احتمال العمل القنصلى ولا مناورات لانجلاس ولا تحفظات جومار ولا خروج دو فوركروا على المعاش ولا التهديد اللاحق بطرد دوفونتان - ولا حتى غرامياته بعد ذلك بقليل ولا شئ من هذا كله كان فى

* كان عضواً فى الجمعية التأسيسية (الكونفانسيون) وحل فيها محل مارا بعد موت الملك .

استطاعته أن يبعد شامبيوليون الصغير عن هدفه السامى . فهو بممارسته لعلم اللغويات المقارن ويدراسته للمخطوطات ويتعامله مع الجزئيات وإعادة ترتيبها وبتشكيل نماذج المعابد الأثرية ويأحاديثه مع من زاروا وادى النيل أصبح أكثر جسارة وسار فى طريق الاكتشاف الذى سيكون كما كتب له چاك - چوزيف « أحد أهم إكتشافات العصر الحديث » .

أولى مراحل العملية الكبرى هى الانتصار المتمثل فى التمكن التام من مختلف لغات الشرق الكبرى وعلى وجه الخصوص تلك التى كانت أو لاتزال تستخدم فى وادى النيل . وتأسيساً على هذه القواعد اللغوية وعلى المقارنات وعلى القياس والتناقضات والاختلاف بينها سيتمكن من البدء فى دراسة العلامات التى تغطى البرديات وأسطح المسلات دراسة منظمة . ولكن مع الأخذ فى الاعتبار الأولوية التى يوليها لعلم اللغويات فهو لا يكل فى جمع مختلف المعطيات الخاصة بمصر وجغرافيتها وثقافتها وفنونها .. وتمكن بهذه الطريقة من إعادة تحرير وتعميق العمل الذى تقدم به فى أبريل ١٨٠٧ إلى أكاديمية جرونوبل ليصبح : « مصر فى عصر الفراعنة قبل فترة قمبيز » .

قبل عدة شهور - وانتظاراً لمرحلة الدراسة المنظمة لحجر رشيد الذى وضع الأب نويترسان نسخة منه تحت تصرفه - ظل يعمل بإصرار على البرديات المكتوبة بالخط المتصل المصرى . فى ١٥ أغسطس ١٨٠٨ كتب رسالة لأخيه تبدو كما لو أنها إفتاحية أوبرا :

« لقد خطوت خطوة كبيرة نوعاً فى هذه الدراسة :

١ - بالقياس تمكنت من إثبات أن جميع هذه البرديات تتبع نظاماً تحريرياً واحداً بالنسبة للخط المكتوبة به .

٢ - أن لدى ما يثبت أن جميع هذه الحروف بما فيها الموجودة على حجر رشيد متشابهة .

٣ - إكتشفت معنى بداية البردية المنقولة فى كتاب دونون - وهى اللوحة ١٣٨ [...] والتى تعنى باللغة القبطية بالنص : « قول : أرقد فى سلام يامصرى وتوصل إلى غايته النهائية وتخلص من ظلمات القبر والموت » .

وهكذا فإن الأمور كما ترى تبدو مبشرة وإذا إستمر الحال على ما هو عليه فإننى

(سأوجه) ركلة قوية إلى كاترومار ومدعى المعرفة بالمصريات الذين يملأون متاحفنا ومعهدنا .

لم يكن فيچاك يحب انفجارات أخيه الجدلية إلا أنه كان فى غاية السعادة أمام هذه الاكتشافات لدرجة أنه امتنع أن يخلط مدائحه باللوم « إذا تمكنت من إثبات افتراضاتك [...] فسنجد فى انتظارك شهرة واسعة ويصحبها فوائد جمة [...] بمايكفى لكى يجعلك تقرر الاستمرار فى أبحاث هى غاية الأهمية [...] إن مشروعك يتطلب المثابرة [...] أن أشهر مثقفى أوروبا سيشعر بالزهو بمثل هذا الاكتشاف ولذا يتحتم عليك الارتباط بهذا المشروع دون رجعة . دع كل شئ عدا ذلك [...] إننى أطالبك (لوسمجت لى) بأن تفيدنى باستمرار بتطورات هذا البحث . ومن ناحيتى وبمساعدة أبجدية أوكريلاد * سأتابع (بحثك) على البردية ١٣٨ فى كتاب دونون وسأسارع بإفادتك بما أصل إليه من نتائج .

لم يتردد چاك - جوزيف العاقل فى أن يضيف أن الباحث يجب أن يأخذ فى الحسبان « كل ماكتبه » أوكريلاد عن حجر رشيد وكذلك ماكتبه باهلين بالإضافة إلى أعمال وارپورتون ثم يضيف مايلى وهو ماوجد فيه چان - فرنسوا بعضا من السم : « كف عن الهزيان فى مواضيع أخرى - إلا إذا كنت تريد أن تتسلى ... »

لم يكن تشجيع أخيه له قد وصله حتى كتب له فى ٣٠ أغسطس يفيده بأنه خطأ خطوة جديدة إلى الأمام متعلقة بالبردية ١٣٨ من كتاب فيفان دونون :

« للوهلة الأولى اعتقدت أنه من المستحيل أن أفك رموز هذا المخطوط لأننى كنت أعتقد أن المجموعات التى تتكرر كثيراً بها توازى عددها من الحروف ، وسرعان ما أدركت أن المصريين لابد وأنهم ساروا فى ذلك على نفس خطى الشرقيين الآخرين . وعلى ذلك نصحت المجاميع جانباً ورحت أجمع الخطوط الأكثر بساطة . ومع ذلك فإن بعضهم قد قاوم حتى الآن إصرار عيني الكاشفة والدقيقة جداً .. على إننى سأغلب عليها فى النهاية .. »

ثم يشير إلى أنه يستخدم أيضا أبجدية أوكريلاد (الذى سيتعامل مع أبحاثه بعد ذلك بتحفظ) ويقارن بينها وبين رموز حجر رشيد ويعلن لچاك - جوزيف أنه تمكن

* عالم سويدي . راجع الفصل ٩ .

بهذه الطريقة من عزل ٢٥ حرفاً « وهو بالضبط العدد ذاته الذى حددته بلوتارك » .. ثم يشير إلى أن هيرودوت قال أن « المصريين يكتبون ويحسبون من اليمين إلى اليسار » . ويختتم جان فرنسوا قائلًا : « أرفع لك خطوتى الأولى » وضوح فكرى جميل ! هل نسى فى غمرة ذلك أن « يركل » إتيان كاترومار وآخرين ؟ سنراه بعد ذلك فى خضم معارك ضارية . إلا أن وضوح رؤيته العلمية تبقى مؤثرة للغاية . فهو يقيم التقدم الذى يحرزه بأنه هام بالمقارنة بما توصل إليه أسلافه ومنافسوه إلا أنه لا يخدع نفسه بتاتا فيما يتعلق بفرصه المستقبلية لحل الطلسم .

فى بداية سبتمبر ١٨٠٨ لخص لفيچاك الموقف بهذه السطور التى جاءت ردا على تحذير الأخ الكبير له من ميله « للهزيان » :

« أولا : المسلات . لم أدع يوما أنى أقوم بدراسة المسلات بوجه خاص [...] إن السيد الفارس زويجا * الذى كتب مجلداً ضخماً جداً (بحجم الفرخ الكامل) عن هذا الموضوع اعترف لشخص من معارفى أنه لم يخط خطوة واحدة إلى الامام بهذه الدراسة على الرغم من أبحاثه الهائلة . ومن السهل أن تقتنع بذلك إذ يكفى أن تقرأ الكتاب .

ثانيا : البردية . نحن هنا أيضاً بصدد فقط غامضة مثيرة للارتباك لقد قرأت سطوراً ونصف وقمت بعمل أبجدية على أساس أثر معروف للكافة . واكتشفت معنى واضحاً يتوافق مع المناسبة ومكتوباً بأسلوب مناسب .. ومع ذلك فإننى لم أتقدم قط إلى الامام .. لايمكننى أن أتقدم لأبعد من ذاك فالجاميع تعرقل مسارى . لقد درستها وفكرت فيها أياماً بأكملها ولم أفهم شيئاً . الحقيقة - دون فخر - هى أنى ذهبت فى هذا الموضوع أبعد مما ذهب إليه جميع الأثريين السابقين مادمت قادراً على إثبات أن جميع البرديات (المكتوبة بالخط المتصل) تتبع أبجدية قريبة للغاية من بعضها وهو مالم يفتن إليه أحد حتى الآن ... »

لا أحد ؟ يفتن ؟ إن هذا الشاب المتهور يتسرع فى أحكامه ويمر فجأة من التواضع إلى خليط من الثقة الزائدة بالنفس والانهازامية . وهو فى السابعة عشر من

*عالم سويدي . راجع المقدمة والفصل ٩ .

عمره يقر بأنه « لم يفهم شيئاً بعد » ثم بيت فى كل شئ ويبدى نحو أساتذته نوعاً من الاحتقار فى صورة ومضات تنبؤية ولكنها بالطبع غير لائقة :

«... ومن جهة أخرى فأتنا عليم بأمور هذا القرن ويعلماء هذه الأيام ! وإذا حدث لشقائى أن تقدمت فى اكتشافى فإنى سأجد كل علماء الحاضر والمستقبل واقفين فوق جسدى يمطروه بالنقد والحذف ووداعاً للراحة * إنى أعتقد على العموم إن الدراسة العليا للآثار القديمة التى أكرس لها وقتى غير قادرة على التوصل إلى نتائج يمكن تقديمها للجمهور الذى هو فى الوقت الحاضر جمهور غبى . ذلك لأن أقل هذه النتائج ستصدم الأفكار المسبقة فلا يمكن أن يتفق معها سوى عدد قليل جداً من الشخصيات المتنورة ... »

وكما لو أنه أراد أن يزيد من تحديه « لعلماء هذا الزمان » تحول مكتشفنا فجأة عن الطريق المفتوح أمامه وترك نفسه لسيطرة ما يمكن تسميته « حمى دراسة الآثار الإترورية (حضارة إيطالية قديمة) أو بالأحرى « إترورية . فنيقية » ولعل ذلك حدث بتأثير من الأب دوترسان الذى كان يفتخر ببعض من المعرفة فى هذا المجال وكتب لأخيه چاك - جوزيف فى بداية شهر سبتمبر :

« الإتروريون يشغلونى فى هذه الآونة : اللغة والأوسمة والأحجار المنحوتة والآثار والتوابيت كل شئ أصبح محفوراً فى رأسى . لماذا ؟ لأن الإتروريين قدموا من مصر . مثل هذه الخلاصة ستجعل كل مثقفيك الفارقين فى كل ما هو يونانى ولاينى يقفزوا إلى أعلى ! ومع ذلك فلدنى الدليل القوى جداً على ذلك ... »

« الدليل » كان عبارة عن « حفر بارز على بازلت أسود أرسل إلى الكاردينال بورچيا وعلى الجانب الآخر من الحجر وجدت بعض الكتابات الإترورية » .

نفذ صبر چاك - جوزيف بعد أن رأى أخاه الذى كان قد أحسن التعامل مع مسألة الخط المتصل المصرى - ينحرف فجأة فى اتجاه هذا السرب الإترورى . هل هو غير قادر على أن يقوم بمجهود متصل ومجهد ؟ وهذه الطريقة الناقدة للسلطات المعترف بها والرواد ! فأرسل له خطابين متتالين يعبر له فيهما عن سخطه وخيبة أمله .

* حديثه هنا بمثابة نبوءة حقيقية .

لماذا تضع نفسك فى موقف معارض « لحقائق معترف بها من عالم « العلماء ؟ »
ولماذا هذا الموقف الخاص بالأتوريين . وقد مضى « ألف عام عرف خلالها أن
الأتوريين نصفهم مصرى ؟ . وهو ما يتضح حسب قول الأخ الأكبر بوضوح
وبالمستندات من كتاب « إتروريا ريجاليس » لدمستار .. أليس من الأفضل « أن نحسن
الرأى بكل ماتم عمله » بدلا من نترك أنفسنا « لتأثير بعض التفاهات والنكات »

أخطر من ذلك كان الهجوم الذى شنّه فيچاك على نقطة حساسة مركزية : « لقد
استسلمت لليأس إزاء دراسة البرديات .. لقد قرأت سطرًا ونصف ثم توقفت عند تلك
النقطة ... لم أعد أعرفك أين ذهب ذوقك المصرى ؟ لقد سبق أن قلت لك أنه ينقصك
الاستمرارية فى العمل [...] هل كتب على أن أقوم بواجباتك ؟ شاركتك العمل ثم
تتركنى هكذا ... »

عاد چاك - جوزيف بعد عشرة أيام إلى الهجوم بحدة متزايدة : « ادرس شيئًا
واحدًا بدلا من الهذيان فى كافة اتجاهات العالم ومن المرور على موضوع ما مرور
الكرام [...] وبدلاً من الاعتقاد أنك ترى أفضل من جميع الآخرين وأن تخلق لنفسك
نظامًا خيالية لا أساس لها سوى بعض الآراء المتحذلقة حول جذور الكلمات وبعض
التشبيهات القياسية الذكية ... »

هل هو يهذى ؟ إن الذى يصفه چاك - جوزيف بالفرس الجامح الذى يطالب بزيادة
مضاعف ثلاث مرات لم يرض بمثل هذه الضربات حتى لو كانت كانت من سوط « أخيه
العزیز جدا » ! فكانت هذه الرفسة :

« لو أن رأسى رأس صغير يخلق نظامًا خيالية لا أساس لها سوى بعض
التفاهات فلماذا تريد أن تطبع جغرافيتى المصرية ؟ وهى المليئة بمثل هذه
المواضيع ؟ حتى لو قلت عنى أنني مجنون فلن يمنعنى ذلك من دراسة التاريخ
القديم بوساطة اللغات ومن حب أصول الكلمات ، والأكثر من ذلك - ويا للكفر
الأسود - لن يمنعنى من احترام لغة مقاطعة بروتانى السفلى احتراماً
عميقاً . »

ويعاود فى خطاب ٢٩ سبتمبر :

« ... أتظن أنك سترهبنى بعالمك من المتعلمين . ولكن هل تعلم ما هو هذا العالم المتعلم ؟ هذا العالم المتعلم مثل عالم السياسة يسير مغمض العينين وراء قائد يستحق أو لا يستحق أن يقود ، قائد يؤمنون بأرائه جميعاً لأنها صادرة منه [...] إلى أن يظهر قائد آخر أقوى منه أو أكثر حذقاً أو براعةً فيقلب عليه ومعه النظام القائم ليقيم آخر بدلا منه .. ألم يكن الاعتقاد السائد لزمان طويل أن الأرض مسطحة ؟ ... وكان معشر المتعلمين في ذلك الوقت يؤمنون بأنها مسطحة . »

– ابتداء من ذلك الحين سيأخذ رفض شامبوليون الصغير للأوضاع القائمة أبعاداً أكثر نشاطاً وسيتضخم ويفرقع في جميع الاتجاهات . ويصيب أخاه بالهلع وهو يراه يستهدف أساتذته وكبار الشخصيات في المجتمع وأعضاء الأكاديمية وكبار رجال الدين وجميع من حملوا ألواح الناموس وراحوا يؤكدون عبر القرون أن الأرض لا يمكن أن تكون مستديرة ما دام الفاتيكان أفتى بذلك . ثم يفتح النار متطاولاً :

« المصريون ، هذا الشعب البسيط من زراع البصل* كانت أفكارهم أكثر عظمة وأقرب لله من صاحب القداسة البابا تبعنا، ممثل يسوع مسيحنا على الأرض . آمين .. »

أهداف هذه السخرية المحطمة للأوضاع التقليدية القائمة كانت متوافرة . بعض هذه الأهداف كانت مكشوفة وتعرض له بسذاجة نون أية دفاعات تقريبا مثل ألكساندر لونوار الذي نشر كتابه « الشرح الجديد للحروف الهيروغليفية » La Nouvelle Explication des Hiéroglyphes في عام ١٨٠٨** الآخرون لم يقفوا مكتوفي الأيدي مثل إتيان كاترومار الذي نشر في نفس الفترة كتابه « أبحاث نقدية وتاريخية في لغة وأدب مصر » وهو كتاب أبعاده مختلفة تماماً . أما مجموعة مؤلفي كتاب « وصف مصر » ولن يظهر المجلد الأول منه سوى في العام الثاني (وكان جان فرنسوا يتابع أعمالهم عن قرب) فقد احتفظ لهم – هم أيضا – « بنصيبهم » من الهجوم .

* البصل هو الغذاء الرئيسي في دلتا النيل .

** راجع المقدمة

لم يكن چان - فرنسوا شامبوليون فى الواقع قديساً علمانياً كما عمل على تصويره مريدوه من كتاب سيرته بل هو مجادل عنيف لدرجة التسميم أحياناً مثل الحية فى لدغها وهو مناظر عنيد ومتعصب ؛ هو خلط من فارس جاسكونى مثل فرسان قديم الزمان المحاربين بالسيوف الذين خرجوا مثله من منطقة فيچاك ومتحرر عنيد من مقاطعة بوفينييه مثل ستانداى . قلة قليلة من الناس تلقى القبول فى عينه وأمام قلمه . وأقلهم قبولاً عنده هم أولئك الذين تجرءوا قبله فى السير على درب محاولة الاكتشاف العظيم للغز الهيروغليفى .

إن الملاحظات التى سنقرأها تثير الاندهاش الشديد بل والمضاعف لا بسبب نضجها المبكر فقط بل لوقاحتها أيضاً . إذ يجب ألا ننسى أننا بصدد مراهق فى السابعة عشرة من عمره ثم فى الثامنة عشرة . وهو لا يزال طالباً وعلاوة على ذلك كله فهو يحاكم أساتذة مبدجلين (من أخيه على الأقل) وعلماء مشهورين .. حدة نبرته لن تهدأ مع تقدمه فى السن . ولكن سن السابعة عشرة هو سن رامبو عندما تحدث عن شعراء عصره المشهورين ...

صحيح من جهة أخرى أنه استثنى تلقائياً « ميلان » هذا الرجل الخير الذى ساعده كثيراً هو وأخاه فى مقال نشره فى مجلة معلقاً على التفسير الذى قدمه ميلان للأبراج السماوية المرسوم فى معبد دندره . وصحيح أيضاً أنه كان يود لو هدم تماماً كتاب « الشرح الجديد للهيروغليفيات » للونوار وكان يعتبره مثيراً للسخرية . فقد كتب « صغير » لأخيه : « إنه فرخ أوزة ولكنه فى آخر الأمر ولد ممتاز » ثم يضيف قائلاً إنه سحب مقالاً له من المطبعة كان يتكلم فيه بصراحة لأنه « فرخ الأوزة » تعامل مع صديقى نوبوا بطريقة يحمد عليها « ثم لأن هذا النقد كان سيصنع له أعداء لأن علاقات لونوار هذا « مع الإمبراطورة كانت جيدة للغاية » - هكذا ! تخرج لنا على السطح أولى علامات الانتهازية والتنازلات عند هذا المحارب المغوار

لكن هذا المزيج من التسامح والحيطة نحو مستقبله لم يشفع لإتيان كاترومار (وكنائته « يوليكارب ») لديه فكان كما سبق وراينا يحلم بأن « يركله » . وكتب چان فرنسوا يقول لأخيه أنه « لا يخشاه البتة » فيما شرع فيه من « عملية اقتحام البرديات » لأنه رجل حقوق وليس أنانى . فهل كان هذا الشاب الذى ادعى أنه « عليم بعالم العلماء » يعتقد بالفعل أن ذلك الباحث يختلف فى هذا عن أغلبية أقرانه من العلماء ؟ على الرغم من كونه « حقوق وأنانى » فإن نشر « يوليكارب » لكتابه « أبحاث

نقدية وتاريخية فى اللغة المصرية « عام ١٨٠٩ اعتبر حدثاً هاماً وصُفِّق له بحرارة واعتبر كذلك من المرشد سيلفاستر نوساسى .

وقد زاد هذا من غيظ جان - فرنسوا : هل سيسبقه هذا « الحقود » (أجمع الكل على نعتة بهذه الصفة) فى أبحاثه .. فى ربيع ١٨٠٩ عاد « صغير » إلى العمل فى « قواعد اللغة القبطية » الذى كان قد شرع فى تحريرها . وراح يملأ الصفحات كتابة حول النص الديموطيقى المنحوت على حجر رشيد والذى حصل على نسخة منه من الأب تيرسان . فقد أقنع نفسه وحاول إقناع أخيه بأن العمل الحقيقى لم يبدأ بعد وأن « بوليكارب » مثله مثل جميع من سبقوه لم يقتحم بعد قلعة أسرار البرديات . فهو إذن ينحى جانباً وبشراصة كبيرة جميع المحاولات السابقة .

الجزء الأول من كتاب وصف مصر الذى سينشر فوربيه مقدمته فى العام التالى ظهر فى يونيو ١ٸ٠٩ . فهل أتى هذا الجزء المنشور بجديد حول الموضوع الهام ؟ يعترف صغير على مضض فى خطاب بتاريخ ١٣ يونيو أن المؤلف جاء فى صورة « مجموعة عظيمة » تضم « رسومات جميلة » وهى إذ تنقل بدقة المخطوطات والبصمات يمكن اعتبارها « أساساً صلباً للأبحاث الأركيولوجية » . أما فيما يتعلق بمحاولات فك ألغاز الهيروغليفية التى قام بها أعضاء لجنة مصر التى يرأسها جومار فيعتبرها جان - فرنسوا « تفسيرات كماء المخللات (الطرشى) ... » طاخ !!

ماذا يقول عن الرواد فى مجال فك الشفرة ؟ ما أن يبدأ الحديث حول الموضوع إلا ويفتح النار من جميع الاتجاهات فى حرب إبادة :

« كل ما قاله عن المسلات كيرشار وچابولنسكى وفاربيرثون الخ . . لايجدى إلا فى إثبات أن أحداً لم يفهم شيئاً ولن يفهموا شيئاً أبداً [...] »

وماذا عما قيل عن أن الدانماركى زويجا أصبح على الدرب ؟ الرد : « السيد الفارس زويجا قام بتجميع كمية هائلة من المواد الأولية ليبنى بها مبنى ضخمة [...] إلا أنه لم يضع لبنة واحدة فوق أخرى ».

والسويدي ... آ كريالد ؟ الرد : « لقد اعترف بنفسه للأب تيرسان والذى أقر لى شخصياً بذلك أنه على الرغم من أبجديته واكتشافاته الجميلة لا يمكنه قراءة ثلاث كلمات على التوالى فى نص مصرى . »

مهما كانت درجة قسوته على من سبقوه وعلى منافسيه فإن جان - فرنسوا

شامبوليون كان يعترف فى ذلك العام ١٨٠٩ أنه لا يزال يبحث عن طريقه وأنه يواجه صعاباً حتى فى تحديد أسس بحثه ذاتها. وذلك فيما يتعلق بما أسماه ببساطة « الخط المكتوب ». ولذلك فهو يعمل بجهد ليتمكن تماماً من اللغة القبطية . فهو على يقين أنه يقف هنا على أرض صلبة يمكن أن يثبىد فوقها وهو مطمئن .

سبق وذكرنا محاوراته المستمرة منذ نهاية عام ١٨٠٧ فى كنيسة سان روش الكائنه بالقرب من مسكنه مع القس شيفتيش ، وكنيته « باسا » . وكانت هذه العلاقة بالنسبة له كنزاً لا يفنى . إلا أنه اكتشف أيضاً فى المكتبة الإمبراطورية مخطوطاً باللغة القبطية ظهرت فيه أسماء المدن المصرية مكتوبة بطريقة تؤكد افتراضاته ، وأيده فى ذلك دوم رافائيل .

أخذ باحثنا الشاب وفى يده نسخة العهد الجديد باللغة القبطية التى أعارها له الأب تيرسان ينقل بطريقة منظمة المخطوطات القبطية الموجودة فى المكتبة الوطنية ، هكذا اندفع فى طريقه .

خلال صيف ١٨٠٨ شرع فى دراسة قواعد « اللهجة الطيباوية – الصعيدية » المستخدمة فى جنوبى مصر حيث تعيش أغلبية الأقباط .

وسنجدّه فى مارس وابريل من عام ١٨٠٩ وقد تفرغ تماماً لدراسة وممارسة اللغة القبطية :

« إنى متفرغ تماماً للغة القبطية [...] أود أن تكون درايتى بهذه اللغة كالفرنسية تماماً لأن عملى الضخم عن البرديات المصرية سيقوم على أساسها [...] لغتى القبطية تتحسن باستمرار وأجد فى ممارستها سعادة كبيرة حقا إذ يمكنك أن تتخيل أن سعادة الحديث بلغة أمينوفيس ورمسيس وتحتمس ، لا يمكن أن تكون صغيرة . [...] أما عن اللغة القبطية فأنا لا أفعل شيئاً آخر أنا لا أحلم إلا بالقبطى . ولا أفعل غير هذا . لا أحلم إلا بالقبطى ، المصرى [...] لقد ألفت (١) قواعد لغة طيبة – صعيدية (الوحيدة فى العالم) (٢) كتاب عن لهجة ممفيس (٣) مقارنة بين اللهجتين (٤) نقلت قواعد اللغة الصعيدية إلى اللغة العربية من النص القبطى (٥) نسخت النصوص (٦) ألفت الحرف أ من قاموس صعيدى (لا يوجد قاموس أصلا) (٧) انتهيت من سبعة حروف من قاموس اللهجة الممفيسية مبنيا على جنور الكلمات . [...] »

أصبحت قبطياً لدرجة أنى أسلى نفسى بترجمة كل ما يخطر على بالى إلى اللغة القبطية ؟ وأتحدث مع نفسى بالقبطى (شرط ألا يسمعى أحد) وهذه هى الطريقة الوحيدة التى ستدخل لغتى المصرية الخالصة داخل رأسى . بعد ذلك سأقتحم البرديات وبفضل قيمتى البطولية أمل أن أتى عليها . لقد خطوت خطوة كبيرة . إنى أعتبر شخصياً اللغة القبطية أكثر اللغات كمالاً وأكثر اللغات المعروفة عقلانية ... »

الملاحظ أنه لا يتحدث عن الهيروغليفية وإنما عن البرديات . فهل يرجع ذلك إلى أنه كان يعتقد أن اللغة المقدسة فى مصر القديمة كانت تستخدم فى هذا الشكل أساساً ؟ لقد لاحظ هو مع ذلك أنها فى صورتها المستخدمة فى المعابد تستحق الدراسة أيضاً .

فى ٢٨ يوليو ١٨٠٨ أى قبل عدة أشهر اكتشف مع صديقه دويوا النحات الممتاز الذى درس فى إيطاليا « فى حديقة الكونت دوشوازول الجزء الأعلى من مسلة من الجرانيت ونحتها وهى الوحيدة التى رأيتها محملة بهيروغليفات دقيقة وجميلة بهذا الشكل » . صب الصديقان وجهاً من المسلة . يعلن جان فرنسوا لأخيه بعد ذلك بأسبوعين أنه سوف يبعث إليه ببعض القطع الجميلة التى صلبها له دويوا : رأس مصرية وباروليف من طيبة وكذلك « تمثال مصري صغير جميل للغاية » قال أنه أخذه من الكساندر لونوار و « لوحة صغيرة هيروغليفية منقولة من مسلة شوازول » .

وهكذا ظهر له بعد جديد يتميز به هذا العالم الذى اعتزم سبر أغواره قبل أى شئ آخر وهو بعده الجمالى . ولا يعنى ذلك أنه لم يكن قد لمس منذ البداية جمال الفن المصرى فقد فضله على جميع الفنون الأخرى ولكن لكونه هو نفسه رساما فقد تمكن مع دويوا من كشف الجوانب الخاصة بالرسم والشكل والتعبير فى الكتابات التعبيرية للكهنة المصريين .

فقد ظهر له بوضوح تام أن هذه الكتابة لم تكن تستهدف فقط وظيفتها الاتصالية إنها تحمل أشياء أخرى كثيرة متمثلة فى رسالة مقدسة تؤدى الجماليات فيها دورها بصفتها قربانا مرفوعا إلى الآلهة . تكمن هنا إحدى اشراقات شامبوليون الذهنية التى هى إحدى الطرق التى سيسلكها للوصول إلى اكتشافه ألا وهو الوعى بالجانب الجمالى وبمعانى الجمال التى تتمتع بها هذه الكتابة .

لنلاحظ هنا أن انغماسه الكامل داخل الثقافة المصرية اضطره إلى مراجعة فاصلة للأفكار التى كان يعتنقها بالنسبة للثقافة العبرية . فلسنين طويلة ومنذ أن بدأ

دراسة الكتاب المقدس فى مدرسة الأب بوسار جعل منه مركزا لجميع أبحاثه فى الأمور الشرقية فأصبح بالنسبة له الجزع المشترك لثقافات الشرق التى لا تتعدى كونها روافد لهذا النهر الكبير .

ها هو فجأة يزيح اليهود إلى نور هامشى شاجباً « اليهود الجهلة ، المؤمنين بالخرافات الذين يدعون أن الأب الطيب إبراهيم والكهنة اليهود قد علموا قواعد الحساب الأربعة والفنون جميعا للمصريين . » . وستجد قلمه قد كتب كلاماً قاسياً نحو هذه « الجماعة البائسة » و « الملك الصغير سليمان » الذين يدعون أنه فى استطاعتهم أن ينافسوا فى تاريخ البشرية حضارة أهل النيل ... مناهض لليهود مثل مناهضة قولتير لهم وهو سيعمل على التقليل من حدثها فيما بعد وهى لا تتناسب بأى شكل مع مناهضة السامية الحديثة .

كان ربيع ١٨٠٩ بالنسبة لجان - فرنسوا شامبوايون ربيع الآمال المضطربة ، كانت أبحاثه بالفعل لاتعود عليه سوى بخليط من الإشارات المواتية وخيبة الأمل . لكنه ربما توصل إلى استعادة الروابط المتناغمة مع أخيه وكانت قد مرت بأزمة كما رأينا خلال الخريف ؛ كما أنه بدأ يعيش وذلك لأول مرة منذ وصوله إلى باريس مغامرة عاطفية سنعود إلى الحديث عنها . يبدو أن هذه التجربة قد حركت فيه جنوة - كاد تردده على الأوساط الباريسية الجامعية والسياسية - أن يطفئها .

فيما يتعلق بأعماله فى الأبحاث المصرية القديمة أصبح الأمر أشبه بالاستحمام على الطريقة الاسكتلندية ، فقد توالى عليه بخصوصها الساخن والبارد حسبما جاء فى رسائله لأخيه . ففى أحد أسابيع شهر أبريل كان الأمل هو السائد :

« البرديات أراها أمامى طول الوقت . إنه أكلي من الغار جميل إذا حصلت عليه : أمل أن يكون من نصيبى ! »

الأسبوع التالى تملكه الغيظ :

« وجدت معنى واضحاً ، متماشياً مع الظروف وأسلوبه مناسب .. ومع ذلك لم أحقق أى تقدم ! ليس فى إمكانى الذهاب أبعد من ذلك .. مجاميع بأكملها تعطل مسيرتى . قمت بدراستها وأمعنت فيها التفكير دون جدوى ... لم أفهم منها شيئاً ! »

فى الأسبوع الثالث : الأمل هو السائد :

« بتشجيعك لى على المضى فى أبحاثى على البرديات تحضنى على المثابرة فى التمسك بالنتائج التى توصلت إليها وهى إنى على علم بما أريد . سأصل إلى هدفى النهائى . »

الأسبوع الرابع . فى بداية شهر يونيو ، ظهر التخوف على السطح :

« سأقوم بتجربة طريقتك لقراءة حجر رشيد . أخشى كثيراً أن تكون مجهوداتنا بلا طائل ، لأن قواميسنا القبطية تضم عدداً من الكلمات محدودة المعنى لدرجة تحد الأمل فى التوصل إلى ترجمة كاملة لكل الجمل اليونانية إلى كلمات محددة مصرية (قديمة) ومع ذلك فالمركب سائرة ! »

وفى ١٧ يونيو ، نجد هذه الخلاصة الحزينة المؤقتة :

« المحاولة التى قمت بها على النص المصرى لم تأتى بأية نتيجة .. أسماء الأعلام التى قرأتها مثلما قرأها أو كربالد (علما بأننا غير متفقين فى طريقة الفصل بين الحروف البسيطة) لا تتطابق مع النص اليونانى - وعليه فإن الخط الذى طلب منى السير عليه لم يؤد لشيء ، فهو قائم على أساس التطابق الكامل بين النصين اليونانى والمصرى » .

والمركب تسير !!.... الإحباطات كانت كثيرة ، علما بأن « صغير » لما يكن قد تخطى بعد دراسة الخط المتصل إلا أنه كان قد تخطى الأزمة التى عملت فى نهاية صيف ١٨٠٨ على تسميم علاقته بچاك جوزيف خاصة وأن يقظة هذا الأخير كانت أحياناً تأخذ أشكالاً تثير السخط . الطلبات والتنبهات والإنذارات والمهمات والانتقادات والمعاتبات والتساؤلات والتأنيبات والمحاضرات فى الاقتصاد فى الانفاق والاستدعاءات والاحتجاجات والتوبيخات التى كانت تنهال من مدينة جرونوبل على المترجل فى شوارع باريس أخذت شيئاً فشيئاً شكل الإزعاج المنظم . چاك جوزيف كانت له صفات حميدة عظيمة ولن نكل من تكرار أن لولا وقوفه بجانبه لكانت عبقرية چان فرنسوا السيكلوتيمية (المتذبذبة بين حالات النشاط العظيم والإحباط العميق) (المترجم) قد غاصت فى أعماق القلق والحزن ، ومع ذلك فلقد كان حقاً هذا الچاك - جوزيف إنساناً مزعجاً إذا أردنا الكلام عنه بصراحة هذا الچاك - جوزيف . وها هو الدليل .

فقد قرر الأخ الأكبر أن يتقدم لشغل وظيفة مفتش بالأكاديمية التعليمية لمدينة

جرونوبل . فأمر « صغير » فى نهاية مارس ١٨٠٨ بأن يستخدم « جميع الوسائل التى تجعله ينجح فى مسعاه [...] أثبت إلى جانب الينابيع التى ستتدفق منها سعادة كبيرة لى والأسرة كلها [...] إمزج بين الوسائل والتمس الحصول على تسهيلات وحرك الأشخاص الذين يستطيعون مساعدتى على بلوغ هدفى » .

جميل ! ولكن بعد ذلك تبدأ المدفعية الثقيلة ! الطلقة الأولى فى شكل زوج من الأمثلة العامة المشبعة بالجو العام السائد فى ذلك العهد ، عهد تاليران وفوشيه : « المكيدة حويطة ، يجب أن نكون أكثر حيلة » و « فى إمكانك أن تفعل بشخص كل ما تريد إن عرفت من أى جانب تأخذه » (إلا أن شامبوليون - فيچاك لم يوضح ماهو هذا الجانب) لابد لنا أن نختتم هذه الدروس فى الحياة من الأخ الكبير إلى الأصغر بهذا المبدأ الذى تلى ما سبق ببضعة أسابيع : « إن المبدأ يعلو دائماً على المكيدة ولكنها إذا فرضت علينا فلنكد . » .

فى ٢٨ أغسطس : « . أمامنا بعض المنافسين ، إذا لم نكن يقظين فإن « فاجو » هو الذى سينال (الوظيفة) [...] اكتب لى [...] اذهب واستعلم من المنبع الأسمى ونبه الجميع » ثم فى ٢٤ سبتمبر « .. سأجد نفسى مضطراً إلى أن أكتب إليك أخبار باريس من جرونوبل .. [...] لا يمكن أن أعتمد عليك فى مهام كهذه [...] هذه هى نتيجة أن تعيش منعزلاً أو وسط أشخاص تنعكس عليهم التفاهات التى يسمعونها أو يتنصتون على أبواب الذين يعرفون [...] عادتكم السيئة التى ترغمنى على استنباط كل شئ أصبحت غير محتملة [...] يجب أن تستوفى هذه الطلبات وأن تقول لى بشكل نهائى إذا كان فى إمكانى أن أطلب منك القيام بهذه المهام [...] لأن الماضى لا يسمح لى بالاعتماد على تعاونك ولا حتى على حماسك » .

وإذا ما بلغنا ٦ أكتوبر نكون قد وصلنا إلى مرحلة الابتزاز المالى : « فلان مسرور ... وغلان غير مسرور ... إنكما * إن تحصلا على نقودى وإذا لم أرسل أى نقود كل شهر فعليكما الانتظار ! عندما لا يفكر المرء إلا فى نفسه فهو يجعل الآخرين يفكرون فى أنفسهم . وهو ما سافعله [...] خطابك تضمن العديد من النفقات غير الضرورية [...] بيرة وقهوة وركوب عربات والخروج إلى الريف [...] هل يمكن أن تقول لى مع من هذه القهوة وهذه البيرة ... » .

* جان فرنسوا وصاحب الدار مسيو فوجا .

مهما كان وفاؤه لأخيه وراعيه و « مدير أعماله » العلمى فإن جان - فرنسوا لم يتمكن من أن يكتم غيظه الذى تسبب فيه عند أخيه وأيضاً ميله إلى معاملته معاملة الساعى أو حتى المشتبه فيه :

فى ٢٩ سبتمبر :

« إنك تشكو كثيراً من إهمالى إلا إنى أريد أن أراك مكانى . أنت الذى تعانقه زويه [وتدله] بولين وتهندمه مدام بريزون أى أن المنزل بكل من فيه يحتضنه أود أن أراك فى [...] وسط أحوال باريس تهول من طرفها إلى الطرف المقابل . فى النهاية (هنا يتضخم الخط كما لو كان يعبر عن إنحناء التحية) سأقوم بتنفيذ طلباتك مهما كانت .»

« مهما كانت » لها معان كثيرة . لأن المشاوير التى يقوم بها من أجل أخيه تستحق كل معنى لها . فهو يركض من المكتبة الإمبراطورية التى كانت كائنة - بالقرب من المقر الحالى للمكتبة الوطنية بشارع ريشوليو إلى الكولاج دو فرانس مارا بالشوارع المزدحمة جداً المحيطة باللوفر وتحترقه ثم كوبرى « البونوف » كل ذلك كان يشغل جزءاً كبيراً من أيام الطالب .

بعد ذلك وبعد أن يؤدى عمله كان عليه أن يجرى من حديقة النباتات إلى شارع « الباك » الحالى ومن حى « الماريه » حيث يقيم دوم رافائيل إلى مكتبة مازارين . كم فرسخ فى اليوم يقطعها وقد أصبح متسخاً ويتصبب عرقاً لدرجة التشبع وهو يلهث فيسخن « كما تعود أن يقول ؛ إنها مهنة صعبة للغاية أن يكون المرء قائماً بأعمال چاك - جوزيف شامبوليون شامبوليون - فيچاك ! ساع أم حمال ؟ من المؤكد أن الأخ الصغير لم يسرق حماية أخيه ولا مساعدته له ...

وها هى صرخة التمرد تتطلق فى ١٠ أكتوبر ١٨٠٨ من الشاب وكان قد غاص تماماً فى عملية فك شفرة حديث الآلهة فأصبح غير قادر على تحمل معادلة ساعى التلغراف غير الواعى :

« عزيزى *

هل أنت حقاً الذى كتب الخطاب الذى استلمته ؟ [...] إذا لم أنفذ حرفياً أوامرك

* التخطيب المعتاد كما نعرف هو : « أخى العزيز جداً » .

مقابل النقود التي ترسلها لى فذلك لأننى أعتقد أن لدى أسباب تجهلها أنت لى
أصرف بشكل مختلف . فيما عدا الاحترام الذى أكنه لكل ما هو صادر من بابكم
العالى [..] كان من المفروض أن تعلم منذ زمن بعيد كم يكدمسيو فوجا لى يمكن
من إعاشة عائلته وهو يعمل من الصباح إلى المساء كالعبيد [..] إنك تعلم تماما أنه
طلب منك [..] تسديد الإيجار مقدماً كل شهر [..] كثيراً ماكنت تجعله ينتظر حتى
٢٥ من الشهر قبل أن تسدد له الشهر السابق [..] يبدو أنك تجد من واجبك أن
تجعلنا ننتظر ومع ذلك فانت تختتم دائماً خطابك بالمواعظ . لعلك تعرف أنه من
القسوة بمكان أن تجد أشخاصاً تعساء (من كثرة كرمك عليهم) بأن يذكروك
تكراراً بوضعهم المؤلم [..] حاول أن ترسل الشهريات مقدماً لأننى أذكرك بأنى
أفضل أن أتسول خبزي أو أن أقيم فى آخر كوخ فى شارع سان مارسو على أن
أرى الألم (الذى أسببه) لأشخاص أدين لهم بمكرمات عديدة .

اسمح لى أن أقول لك أيضاً أنك تبحث عن مصلحتك أكثر مما يجب لأنك تشعر أن
كل شئ ضاع إذا ما لاحظت أن أحداً أعطانى بعض النقود أو أخطبىنى أحدهم
إلى الريف ليرفه عنى أو إذا أنا أكرمت أشخاصاً يستحقون ذلك [..] إنك بتصرفك
هذا تبين كما لو أنك تلومنى على كل ما قمت به من أجلى . لقد أدبت لى الكثير
وسوف أتذكر ذلك ما حييت وإنى لك لمتن كما يتحتم على أن أكون . ولكنى لا أريدك
أن تتخرج بأى شكل من أجلى : إنك لست مدينا لى بشئ وأنا مدين لك بكل شئ ! .. » .

هذا الشاب ذو الدم الحامى لدرجة أن يثور بهذا الشكل على من يحب هل كان من
ناحية أخرى عرضة لفكرة واحدة ملحة تعذبه وتجعله حبيس أبحاثه ورموزه
بالكامل ؟ هل هو رجل الحب الواحد والرغبة الواحدة والأمل الواحد ؟ كلا ! فى
خريف ١٨٠٨ وفى نفس اللحظة التى تعقدت فيها داخل رأسه معطيات المسألة
الكبرى - كما رأينا - دون أن تظهر له حلولها والتى مرت فيها علاقته بأخيه
بأزمة حادة نراه يقع فى الغرام مثله مثل العديد من الأولاد فى سن السابعة
عشرة أو الثامنة عشرة . يبدو أنه قابل ثانى امرأة أحبها فى حياته خلال فترة
الإجازة ، وكان يمضيها فى باريس وهو مشغول جداً كما رأينا ولكن دون أن
تقيده واجباته الجامعية .

إننا لانكاد نعرف أى شئ عن لويز ديشان. * سوى أنها زوجه أحد الموظفين وكان يكبرها بكثير وكان يعمل فى وزارة الحرب . وكان جان فرنسوا يتردد على هذه الوزارة بسبب علاقته بصديقه فوجاس الذى كان يعمل هناك . من المحتمل على كل حال أنه كان يقابل بعض زملائه أيضا ويدعى لزيارتهم فى بيوتهم . كل ما نعرفه مما نستشفه من مراسلاته مع چاك - جوزيف أن صديقنا الشاب قد وقع غرام بهذه السيدة التى ملكت قلبه لمدة عامين - أول المؤشرات ظهرت فى خريف ١٨٠٨ ** وفى ١٨١١ فى جرونوبل قام جان - فرنسوا بمحاولة فى اتجاهها - وكان ولعه لها قد وصل إلى حد أن العاشق راودته فكرة التضحية بطموحاته الجامعية أو على الأقل بأبحاثه .

هل لأن چاك - جوزيف قد بدأ يشتم رائحة مغامرة « باريسيه » كانت ستجرف أخاه بعيداً فاختر أن يفقد وجود قائم لأعماله فى باريس وراح يغريه باحتمال تعيينه فى وظيفة أستاذ للتاريخ فى جامعة جرونوبل ؟ احتمال ولكن لايمكن الجزم به ؟ فى نهاية شهر مارس ١٨٠٨ وفى إطار وصفه لما ستكون عليه الجامعة الإمبراطورية أن اقترح چاك - جوزيف على أخيه أن يعود إلى بيته ليكمل حياته الجامعية مضيفاً : « حيث يكون المرء سعيداً ، هذا هو الوطن » !! لقد نبئت الفكرة وبدأت تختمر قبل ظهور لويز فى حياة الشاب الصغير . لكن كان على فيجاك أن يضع فى حساباته أى إحياء بالموافقة من جان - فرنسوا على فكرة تدريس التاريخ فى أى مكان لكي يحاول أن يجذب أخاه ناحيته لينتزع من « هذا الغرام الاثم » وذلك لدى تأزم الموقف . جاء رد جان - فرنسوا حاداً ويكاد لا يخفى السبب الذى يربطه بباريس :

يبدو لى أننا قمنا بإجراء سئ بمحاولة إيجاد وظيفة لى - فما هو الذى يمكننى أن أؤديه فى الجامعة ؟ ما هو كرسى التاريخ هذا ، على فرض أن هناك بالفعل كرسياً له ؟ هل يتعين على أن أبقى - كما تفرض ذلك اللوائح - عشر سنوات عبداً للحكومة لا أتحكم فى شخص ولا فيما تريد أن تقدم عليه يدي ؟ إن ذلك يعد ضرباً من الرهينة وأنا لست على استعداد لترويض حبي لحريتي ولا أن أضمن أيضاً بقاء قلبى صامتا . فما أصنق هذا المثل الشرقى : « قد تستطيع أن تسيطر على الرياح أن تنتزع السلاح من يد رستم بأسهل من أن تسيطر على قلب المحب ، كما أنك لايمكن أن تنتزع من الوجد العنف طالما أن الحب هو المبدأ . [...]] توجد هنا صفحة بأكملها ناقصة .

* باقى اسمها محو من الخطاب الوحيد المحفوظ والذى جاء ذكرها فيه .

** حتى ٣٠ أغسطس ١٨٠٨ كان لا يزال يلح فى طلب أخبار پولين . ثم يتوقف تماماً عن ذلك فى

أكتوبر

فهل كان هذا صدفة ؟ .. وينتهي عرض چاك - فرنسوا بهذه الكلمات فجأة [...
حتى من الاستشراق أو الأفكار المثيرة جنسياً ».

مثيرة جنسياً.. لعله ذهب في تلميحاته أبعد مما يمكن أن تتحمله أعصاب ساكني
منزل جرونوبل . في ٢٢ أكتوبر وبعد أن اشتكى من أن أخبار زويه لم تصله أضاف في
ارتباك واضح :

« بدأت أشعر الآن أن خطابي قد تسبب في مضايقتها هي وبولين إلا أنني أقسم لك
أن ذلك حدث لعدم اختياري تعبيرات متزنة . لقد تحدثت بصراحة وإني نادم بعض
الشيء لكلم الذي سببه ذلك لكم » .

بهذا بضعة أيام أخذ يتوسل لأخيه أن يسمح له بأن تكون ملابسه أقل إثارة
للسخرية وأقل ريفية وذلك بأسلوب مؤثر يكشف عن وجود اهتمامات جديدة :
« لا تنسى موضوع الملابس . إنه الأهم الآن ! » .

غير أن هذا التحفظ لا يدوم طويلاً وتتفجر العواطف من جديد في
٢٨ نوفمبر :

« سبق أن قلت لي آلاف المرات أنك لا تريد لي سوى السعادة [...] وهو ما يجعلني
أفانتك في موضوع له أهمية بالغة وتتوقف عليه سعادتي الحالية والمستقبلية . لعلك
ستندهش مما أرمى إليه ولكني أريد - قبل أن أعترف لك بما يحدث في قلبي وبما
عزمت على القيام به - أن أحصل على وعد منك بأن يبقى ذلك [...] بيننا فقط وألا
تعلم به زويه أو أحد آخر في العالم [...] أمل ألا تعترض على أعز آمال أخيك على
الإطلاق ».

وتتصاعد النبرات مع مرور الشهور . إزاء حدث چاك - جوزيف له بأن « يتشكك »
في طبيعة عواطفه يجيء رد الأخ الصغير مدافعاً عن حقوق « الشعر » ويختتم كلامه
بشيء من الحدة : « إذا كان قلبي قد ترك نفسه يقع في الأسر فهو سيجد الطريقة التي
يشفى بها أو أن القدر هو الذي سيواسيه ».

عودة إلى بايرون ؟ « القدر » و « المكتوب » هما مرجعه سواء كان الحديث عن
غرامياته أو عن مغامراته العلمية :

« أجد نفسي مدفوعاً من عقلى دون ميولى ومن قلبى دون أى مقاومة ممكنة فى دروب وعرة تنتشر عليها الحواجز الحادة التى تتوالى فى طريقى دون أن يكون لها آخر . هذا هو قدرى وعلى أن أتقبله مهما كان الثمن » .

ومع ذلك فإن « قضية لويز » لم تحفظ بعد . من غير المعروف إذا كان جان فرنسوا قد قطع علاقاته بالسيدة الشابة فى سبتمبر ١٨٠٩ أم لا . من المؤكد أنه أخذ يحاول بعد ذلك بسنة ونصف - وكان قد أقام فى جرونويل - أن يبعث إليها برسالة . لقد سبق وأشرنا إلى « خدمة » لاتنسى كان قد طلبها من زميله جان سان مارتان . وفى ٥ مايو ١٨١١ وصلت لهذا الصديق الملقب « الأرمنى » هذه الرسالة * من جرونويل :

« موضوعنا اليوم لا علاقة له باللغة القبطية أو الفارسية بل أحدثك اليوم عن الحب . ستوضح لك الرسالة المرفقة بعض الشئ ما أرمى إليه [..] حاول أن تكتشف عقرها وأن تسلمها الخطاب فى يدها شخصياً ولا بد أنك تعرف السليبات التى قد تحدث لو أنه وقع فى يد السيد ...

أترك لصداقتك لى عناء إيجاد الوسيلة الحذرة للنجاح فى هذه المهمة . [..] أرسل أحد الأشخاص إلى مسيو نوييلو [..] يسأل عن عنوان مسيو بسك ... ، المسئول بوزارة الحرب [..] وساعتها ستعرف مقرها . إذا كانت الخادمة جوليان لا تزال تعمل هناك تحدث معها . فهى فى صفنا وستعلم أين تجد العريزة ... ولا تسلم الرسالة إلا إذا تيقنت تماماً أنها ستتسلمها دون ما خطر [..] فى أسوأ الظروف إذهب لمقابلة مدام فوجاس ، فندق دولار وشفوكو شارع السين [..] كل ذلك يجب أن يبقى سراً بينى وبينك .. » .

لا نعلم شيئاً عن بقية القصة ، هل سامحت لويز جان - فرنسوا لسفره فى أكتوبر ١٨٠٩ هل أحبته بالفعل ؟ ليس من المتاح مراجعة مراسلتهم . الواقع أنها تزلت بعد سنتين وتزوجت من آخر .⁽³⁾

* تفضل بتقديم هذا المستند لنا السيد / چانو كيتيل ، وهو جامعى من إماره لوكسمبرج وهو يخصص بحثه فى رسالة الدكتوراة لدراسة مخطوطات شامبوليون الصغير .

لم تكن إشارة چاك - جوزيف إلى التدريس فى كلية جرونوبل مناورة فقط من الوصى الذى يريد أن يبعد الموصى عليه بسرعة عن مغامرة حب لا أمل فيها إذ أن الشاب قد نجح وهو ما زال فى الثامنة عشرة من عمره فى أن يلفت إليه الأنظار والتعاطف لدرجة أن مسيو دو فونتان الرئيس الأعلى للجامعة الإمبراطورية ألح فى شهر يوليو ١٨٠٩ إلى إمكانية تعيينه مساعد مدرس للتاريخ القديم فى جامعة جرونوبل . كان عمره ثمانية عشر عاماً ونصف العام حينذاك فلزم التنويه . حدثت فى ذلك الوقت بعض الصراعات داخل إدارة التعليم العام ، وانتشرت شائعات عن احتمال أن يكون دى فونتان من المغضوب عليهم فتعطل تعيين الشاب لشهرين أو ثلاثة . وقد تزامن تعيينه مع تعيين مزبوج لچاك جوزيف فى وظيفتين فى وقت واحد : أميناً لمكتبة المدينة وهو ما كان يحلم به لعدة سنوات وأستاذاً للحضارة اليونانية فى الجامعة وكان قبل ذلك أميناً عاماً لأكاديمية جرونوبل ومديراً لحوليات مقاطعة الإيزار : كان أكبر الأخوين شامبوليون يجمع المراكز الهامة بين يديه .

وهكذا أصبحت الرياح مواتية لسفينة أبنى صاحب مكتبة فيچاك . فبينما كان الكبير يفرض نفسه على مفترق طرق العلوم والصحافة والقمم الجامعية كان چان - فرنسوا وكنيته « صغير » أو « أسد سعيد المنصور » أو « المصرى » مطلوباً ليقوم بتدريس طلبة الدوفينييه وهو فى السن الذى يحاول فيها البعض الحصول على درجة الليسانس .

حظ سئ للويز .. وكرباج للأمام يا سائق المركبة !! .

٥ - أستاذ فى سن العشرين

جامعة وليدة - بدون عقد ... جرونوبل مدينة نموذجية - تصور خاص للتاريخ -
چان - فرنسوا صحفى - مساعده فورييه - قضية الأبراج السماوية - شخصية
« بازاجية » فى المحافظة - تخدير ساس - الحرب على كاترومار ! - « أساس
المنظومة الهيروغليفية » .

« تبا ! - زار الإمبراطور - من الأفضل غزو إنجلترا عن القيام بكل هذه
الجلبة .. » فى ١٤ فبراير ١٨٠٨ بينما كان مستشارو الأمير يلحون على سرعة تنفيذ
مشروع إقامة الجامعة الإمبراطورية صرخ فيهم نابوليون بهذه الجملة المتشدة وقد
نقلها چان - فرنسوا إلى چاك - جوزيف نقلا عن نص مكتوب حصل عليه من
سونينى .

لم ييأس فوركرو ولا سلفه فونتان .. ولا لم يتمكن الإمبراطور من النزول على
شواطئ نوثر فقد أكتفى بهذا الانتصار السلى أى إنشاء جامعة موحدة على المستوى
الوطنى . تم اعتماد المشروع الذى إضطر فوركرو أن يعدله ثمانية وعشرين مرة بناءً
على الرغبات السامية قبل أن يسلمه لنابوليون فى ٩ نوفمبر ١٨٠٩ بعد أسابيع قليلة
من عودة چان - فرنسوا شامبوليون إلى مدينة جرونوبل .

اندرج الشاب فى صلب هذه المنظومة الوليدة معيداً بذلك علاقاته بالمدينة التى
بلور فيها موهبته واكتشف الطريق المؤدى إلى مصر بعد أن سلك عدة منحنيات فريدة
الشان ولكن مدفوعاً فى اجتيازه بولعه الذى ملك عليه وجدانه . لم يعد إلى جرونوبل
عودة الابن الضال ملفوظاً من « عاصمة فرنسا القذرة » أو كما أطلق فيما بعد عليها
إسم « بابل » أو كان فى حالة يأس سببتها له تجاربه المرة بها . ولكنه عاد رجلاً أثبت
ذاته بما يكفى من إنجازات معترفاً بها أدت إلى حصوله على مركز فى التعليم العالى
وهو ما زال فى الثامنة عشرة ...

قبل ذلك بستة أشهر كتب يقول لأخيه : « لا أتوقع الكثير نتيجة لما قد تسفر عنه
دراساتى . هل يمكن أن تجد لى طريقاً آخر يتفق قليلاً وميولى الشخصية ؟ » كما

سنكتشف أنه شك تماماً فى ذاته حتى أنه تصور يوماً أن يصبح موثقاً للعقود . أما الآن فيمكن أن نرى خط مستقبله واضحاً أمامه . فقد أصبح - على الحلوة والمرة - من المثقفين * .

رضخ رئيس الجامعة فونتان ، لضغوط چاك - جوزيف وعين چان - فرنسوا مساعد أستاذ للتاريخ القديم . بل وذهب إلى أبعد من ذلك بأن جعل التعيين بآثر رجعى إعتباراً من ٢٠ يوليو ١٨٠٩

ومع ذلك يجب ألا تعد العودة هذه إلى الدوفينييه نصراً مبيناً . فإذا كان أصغر الشقيقين شامبولىون سعيداً بكل تأكيد ، برؤية أقربائه أخيه وزوجته وابنهما « على » وپولين وأسرتها آل بيرييا وكذلك أوجوستان تيفونى ، فإن إحساساً بالفشل المزدوج كان يعتصره .

فقد اضطر إلى ترك لويى وهو فى قمة التعلق بها وإذا كنا لم نعثر على دليل يوضح الجو الذى تم فيه انفصالهما عن بعض إلا أنه فى استطاعتنا أن نتصور مدى التمزق العاطفى الذى حدث له من جراء ذلك . إن مراسلاته الباريسية خلال ١٨٠٩ وكذلك بعض ما قام به من محاولات من جرونوبل خلال الأشهر التالية تشير إلى أن أستاذنا الذى نضج مبكراً كان من وجهة النظر العاطفية رجلاً كليماً .

ومما زاد من كلمه أن طموحه الفكرى العظيم فى أن يعثر على رد لأبى الهول وهو ما ملك عليه عقله لمدة ثلاث سنوات ، لم يسفر سوى عن بعض التقريبيات الهشة . وقد يتساءل البعض كيف يتجرأ مراهق على الاعتقاد بأن فى إمكانه أن ينتصر خلال بضعة عشرات من الأشهر فيما تعثرت فيه لسنين طويلة عقول عالية القدر مثل زويجا وساسى وأكربولد ؟

من المؤكد لدينا وبصوة نهائية أن أصغر الشقيقين شامبولىون لم يدخل فى إعتباره أى عامل من عوامل الأجيال أو الرهبة الناجمة عن صغر السن أو عقدة الإحساس بالنقص التى قد تترتب عن ذلك .

لم تكن إجهاداته بأى حال من الأحوال صادرة عن طفل ناضج قبل الميعاد وقح تزداد ثقته الكاذبة بنفسه بمقدار صغر سنه : فهو إذا عبر عن تبجيل شكلى نحو دو ساسى ** فهو يفعل ذلك بصفته زميلاً مدققاً ومناضلاً أى ندأ لند ومنافساً . يمكن فى

* هل هى مفارقة فى اختيار الكلمة ؟ سندع القارئ يقرر بنفسه .

** ليس التبجيل مرادفاً حرفياً للإحترام

هذا المجال اعتبار أن اكتشاف حجر رشيد فى يوليو ١٧٩٩ هو العام الأول فى التقويم العلمى لمحاولات فك طلاسم الكتابة المقدسة : ومن هنا جاء واقع أن جميع الباحثين كانوا من معاصريه مع هامش فارق زمنى لا يتعدى ثلاثة أو أربعة أعوام .

كانت الأشهر التى مضت قد سمحت له أن يعبر عن تصوراتهِ الحديثة وأن يقوم ببعض المقارنات التجريبية . وسبق أن ذكرنا بعض هتافات النصر الصادرة منه وكذلك بعض تعبيرات التهكم المتعالى على أوكريالذ وزويجا وكاترومار . إلا أنها جميعا كانت متداخلة كما رأينا من قبل مع إعتراف بالعجز وأنات الألم : ومن هنا جاءت القيمة السامية لتشجيع الأخ الأكبر الذى كان موجودا باستمرار ليزكى جنوة الشجاعة فيه عندما يحل به اليأس فيطفأها بسبب تكوينه النفسى المتذبذب بين النشوة والإحباط وبسبب التعقيد الرهيب الذى تتميز به المشكلة المطلوب حلها .

لابد وأن هذا العاشق المجروح وهذا الباحث المستاء قد وجد فى هذه النقلة الجامعية الكاسحة إلى أعلى مواساة تعويضية . سنراه يقبل بشجاعة التحدى الراجع لقلة خبرته . غير أن التدريس وقد برع فيه لم يكن هو ميله الحقيقى ولا هدفه . لقد ذكرنا بعض المراسلات التى أوضحت الأمور تماماً حول هذا الموضوع والتى ذهب فيها إلى ذكر صفة « الجبن » عند الحديث عن مهنة التدريس * لدرجة أنه قال إنه يبحث عن عمل أسمر وأكثر ربحية .

على الرغم من كل شئ فىها هو على إعتاب الاحتفال بعامه التاسع عشر مزود بمسئولية محترمة ورفيعة المستوى يستتبع له أن يعبر من خلال تاريخ الشرق القديم عن شئ من عبقريته فى اللغات . هكذا وجدت سهراته ولياليه التى أمضاها فى البحث والدراسة فى مدرسة بوسار وليسيه شارع نوف وتلك التى قضاها فى شارع إيشال سانتونوريه وفى المكتبة الإمبراطورية متنفساً لتعبير فيها عن جدواها بصورة علنية .

وعلاوة على ذلك لا يغيب عن الذهن أنه من حقه وقد تولى كرسية التعليم فى هذه السن الصغيرة أن يستثمر تجربة نالها وهو فى سن أصغر عندما لجأ إليه بروسيار أو دران وهو ما زال مراهقاً فى السابعة عشر من عمره ليحل محله فى بعض الأحيان فى الكولاج بوفرانس لتدريس اللغة العبرية أمام حضور من « القساوسة نوى الرأس الجامدة » ؟

* علما بأنه سيمارسها بتقان بأشكال مختلفة .

لقد تغيرت جرونوبل منذ أن وطأتها لأول مرة أقدام الطفل إبن فيچاك الصغيرة تحميتها قباقيب الفلاحين وذلك عندما كان كبير يحكم مصر وكان الملازم هنرى بايل (ستاندال) يستكشف مقاتن مدينة ميلانون وفتياتها . كانت جرونوبل حينذاك مدينة متوسطة (يقطنها ٢٠,٠٠٠ فى عام ١٨٠٠ و ٢٣,٠٠٠ فرد فى عام ١٨١٥) ومازالت قابضة فيما بين الأسوار التى شيدها آل كريكى فى القرن السابع عشر وهما زوج ابنة النبيل توليديجيار وحفيده إلا أن شهرتها كحارسة لجبال الألب وكبرى مدنها كانت فائقة . فى الوقت الذى إستقرت فيها الجامعة الإمبراطورية كانت تحتوى على مجموعة من المؤسسات الثقافية المتميزة فى ذلك الوقت والتى يربعاها ويشجعها محبون للفن والثقافة من نوى الفكر المتعمق . كانت المدينة تحت إمرة رجل التنوير المحافظ جوزيف فورييه يعاونه عمدة نو شعبية ونشاط كبيرين هو شارل رونولون .

فى نهاية عام ١٨٠٩ وإذ كان چان - فرنسوا شامبوليون يستعد لأن يبدأ حياته الجامعية مدرساً بها كانت جرونوبل تعد إحدى المدن النموذجية للإمبراطورية الفرنسية . إلا أن الرأى العام وقد تأثر بالفصاحة الخطابية الليبرالية المتمثلة قبل ذلك بعشرين عاماً فى بارناف ومونيه وفيريو ، لم ينضم طواعية تحت اللواء الامبراطورى .

كانت ذكرى الملكية لا تزال حية تعبر عن نفسها بصور مختلفة : أحد ممثليها كان شيروبان بال والد ستاندال . وكان هذا « الچيزويتى » (أو اليسوعى) هذا « المتطرف » عضواً فى المجلس المحلى يعمل مساعداً للعمدة .

وكانت العقوبية الجاكوبينية نشطة فى المدينة وكان بعض « المثقفين » المحليين المشهورين مثل عالم الرياضيات جرو وأمين المكتبة بوكرو وتاجر الكتب فالكون يتبعون هذا التيار الفكرى . وتحت قيادة المحافظ المشهور كانت البورجوازية المحلية (سواء كانت بورجوازية مهنية أو مالية) قد توافقت مع نظام يحفظ الأمن والنظام ويقوم بتنفيذ أعمال ضخمة ويشجع الأعمال التجارية والصناعية .

لم تكن جرونوبل من وجهة النظر الثقافية على مستوى أكس ولاستراسبورج ولابيزا . إلا أن مدرسة الليسيه التى ضمت بين طلابها الأوائل شامبوليون الصغير كان يديرها فوركرو وكانت تعتبر من أفضل مدارس فرنسا . أما الجامعة التى تم إفتتاحها مؤخراً فقد ضمت لها عمودها الفقرى مدرسة القانون ذات السمعة الممتازة التى

أنشأت عام ١٨٠٥ وكانت قد ورثت تراثاً قديماً من الإمتياز ورفع لواها نواب البرلمان بوفيزيل عام ١٧٨٨ . وقد كان أول من عين رئيساً لها رجل قانون هو شارل بال . أكاديمية الدوفينية التي حلتها حكومة الكونفونسيون الثورية والتي بعثت من جديد تحت مسمى الليسيه أصبحت « جمعية العلوم والفنون » عام ١٨٠٢ واستمرت على نشاطها تحت الإمبراطورية .

ثم أضيفت مكتبة * ومتحف أنشئ بمبادرة من الدكتور جانيون جد ستاندال وعلى يد « جى » الذى علم شامبوليون .. كل ذلك جعل من جرونوبل عام ١٨١٠ مدينة ثقافية توافقة إلى التعبير عن نفسها ، ثرية بتقاليدها وحديثة بمالها من هياكل تسمح بأن تتفتح فيها صفوة من المثقفين والتجار والإداريين . يحركهم جميعاً بعض الشخصيات المرموقة وتلهمهم حرية فكر رائعة ويزكيهم موقع فريد ويسانداهم فوق كل شئ هذا المزاج الدوفينية المتميز الذى سبق وألحنا لبعض بعض أبعاده النشطة والعميقة .

الشخصيات العامة ؟ بخلاف جوزيف فورييه وشارل رينولون وهنرى جانيون يجب ألا نغفل من الدور الذى تؤديه البرجوازية الكبيرة التى دعمتها الثورة فرفعت من قدرها . على رأس هذه المجموعة يبرز السنيور بوفيزيل وكلود بيريه المكنى « بيريه ميلورد » تأكيداً لعظمة وطموح مؤسس الأسرة الصناعية العظمى والتى سيقودها ابنه كازيمير ليصبح هو تحت حكم ملكية يوليوس رئيساً للحكومة ، والأخوة دول وكاميل تيسار الثرى الليبرالى .

إلا أن جرونوبل كانت أيضاً « مدينة برلمانية » . كتب ستاندال عن خاله المحامى صديق النساء أن « الجميع فى جرونوبل كان يعيش على المنازعات ويطلق النكات على المنازعات حول .. الصغائر والممتلكات » . ومثلها كان الحال فى مدينة أخرى يسودها رجال القانون وهى فيچاك . سنجد مناسبة الحديث عن أسرة بيريا هذا العالم المشبع بالقانون والذى يتحرك فيه چاك - جوزيف ببراءة وسهولة .

تقول الأساطير أن ثراء جرونوبل قام على صناعة القفاز وكان أحد رواد هذه الصناعة هو كلود بلان الذى سيصبح فيما بعد حما چان - فرنسوا شامبوليون .

* أثرتها مجموعة كتب دير « الجران - شاتروز » .

والواقع هو أن صعود المدينة قام على تجارة الجملة أكثر مما تأثر بنشاط تصنيعى وكانت تمارسها مجموعة من التجار الريفيين الذين استوطنوها حديثاً.⁽¹⁾

علاوة على ما تقدم فلا التجارة ولا حتى الصناعة كانت لهما اليد الطولى على كبرى مدن الدوفينييه . ولكن كانت السيطرة فى يد طبقة من النبلاء راحت تحرك المجتمع وهى تنتظر الساعة التى تستعيد فيها السلطة السياسية . عائلات أدريه ومارسيو وبارال وبينا ومونمور* أبقت المدينة داخل مناخ عام من النبل القولتيرى الذى كانت تفتخر به فى سالف الأزمان صالونات فوبور سان جيرمان والذى سجلته رواية « العلاقات الخطرة ** » بالنسبة لمدينة جرونوبل ورواية « وكر الأفاعى *** » بالنسبة لبوردو فيما بين هذه الاريستوقراطية الباحثة عن الإنتقام وعالم التجارة الباحث عن التقدير المعترف به تتحرك طبقة من المثقفين الميسورين القادمين من الطبقة الثالثة القديمة ، هم أبناء عصر التنوير ووارثو الثورة وهم يعلنون بفخر عن بنوتهم لهؤلاء الدوفينييين العظام مثل كونديياك وما بلى وفوكانسون وبارناف ومونييه وبوفيريو . ويمثل هؤلاء ويكمل أعمالهم رونولدون (وهو چاكوبى ثورى) وچانيون (وهو ميال أكثر للملكية) محامون ومعلمون وأطباء وفنانون ورجال دين كانوا جميعا يتعايشون مع السلطة الإمبراطورية مع شئ من التذمر طالما أنها موضوعة فى يد جوزيف فورييه وأنها تحافظ على مكاسب الأيام العظيمة لعامى ١٧٨٨ و ١٧٨٩ وأنها تؤسس الجامعة وأنها تسمح بوجود نوع من النشاط الثقافى بدلا من حرية التعبير .

فى مركز طبقة الإنتيلجينسيا الحرونوبلوانية تقف مؤسسة تعرفنا عليها من قبل هى جمعية العلوم والفنون - سابقا ثم لاحقا كان إسمها وسيصبح الأكاديمية الدوفينييه . كان ضمن أهم من مثلها : چان جاسوار دويوا فونتانال أستاذ الأدب الذى علم بستاندال وكان نجمه قد لمع فجأة قبل ذلك بخمسين عاماً بسبب الفضيحة التى أثارها مسرحيته « إيريسى أو الراهبة » وهى راهبة فيها شبه كبير من راهبة ديدرو

* يقول ستاندال ان مدام دو مونمور كانت النموذج لشخصية الماركيز دومورتوى فى رواية الأحمر والأسود .

** مؤلفها شاردلوداى لاكلو (المترجم) .

*** مؤلفها فرنسوا مورياك (المترجم) .

وكانت سيرتها قد خرجت مخضبة من الأحداث * . كان كاتبها متوسطا ولكن نو شخصية ممتازة . تبرز أحيانا من مراسلاته بعض الإعترافات المؤثرة (« أنا شظية من شظايا الجرة المكسورة ») وبعض الأبيات المثيرة للشجن .

« إنى فعلا مجنون أهوج طائش

وإذ حل الشتاء وشاب رأسى

زدت جنونا وطيشا ... »

الداهية الداعر القس جاتال المدير السابق لليسيه والذي سنراه مشتركا فى المناقشات التى ستدور حول إدعاءات وجهت للشقيقتين كان يمكنه وضع توقيعه تحت هذه الأبيات ، سنعود إلى الكلام عن ذلك .

ممثّل آخر لهذه الأكاديمية كان الجنرال چوپار دولاسالات الذى ترك الجيش وسلاح المدفعية ليكرس مجهوده فى علوم الموسيقى دون أن يفقد شيئا من قوة شكيمة ** فقد كان يمكنه من العالم كله من أجل مفتاح صول . ولعل أهمهم جميعا بيريا - سان پرى . أخو زوجه چاك - چوزيف ، رجل قانون ومشرع ورجل إقتصاد وهو أفضل من يمثل تجسيدا حيا لكلية الحقوق التى هى مفخرة « مدينة المنازعات » . شخصية غريبة هذاالسان - پرى : الرواية التى ألفها فى خمسة أجزاء تحت عنوان الحب والفلسفة وأراد أن يجعل منها صورة حية للمجتمع الجرونوبلوازى لم تتخط زمانها... على الرغم من أراءه الليبراليه فإن هذا العالم والمستشار فى القانون رفض أن يتخلى عن غطاء الرأس التقليدى لرجال القضاء والذي كان يميزهم خلال العهد

* منعتها الرقابة بعد أخراجها على المسرح فى ليون عام ١٧٦٨ وتسببت فى أن عددا من تجار الكتب البؤساء (ليس من بينهم چاك شامبوليون) الذين كان فى حوزتهم نسخ منها قبض عليهم وحكم عليهم بالأشغال الشاقة ١ وكان من نتيجة ذلك أنه سمح بعرضها على خشبة المسرح الوطنى الفرنسى فى بداية الثورة .

** جميع مؤلفى سيره والمؤلفين أطلقوا عليه « إسم الجنرال العجوز » كان بالفعل قد أحيل إلى التقاعد ولكن لم يكن قد تعدى سن السابعة والأربعين .

الملكى القديم . وعندما فرض لبس البنطالون نفسه فى فرنسا وهو المستورد من انجلترا فى عام ١٨١٥ أصر على إرتداء السراويل الضيقة والجوارب الحريرية والأحذية ذات الشرائط والساعات ذات الدبوس إلى أن أصبح أحد ثلاثة باريسيين فقط فى هذا الزى عام ١٨٤٥ حسبما كان يقال ..

ونجد أيضا آل بيريا المرتبطين جدا بالأخوين شامبوليون برباط الزوجية والعاطفة والتوافق والمصلحة : زويه ويولين أختا بيريا - سان برى إحداهما زوجة چاك - جوزيف والأخرى كانت حب چان - فرنسوا الأول وهوج أخوهما كان صديقا للأخوين .

وهكذا أعاد الشقيقان إرتباطهما بمقاطعة الدوفينية التى كانت موطن أجدادهما وفتحا لنفسيهما أبواب مجتمع ثرى ومتفتح الفكر فى ذات الوقت ، يرحب بالمواهب وفخورا بشهرته التى إكتسبها بأنه « أثينا الدوفينية » .

فى نهاية العام ١٨٠٩ كان چاك - جوزيف عندما إستقبل أخاه فى حالة تفتح كامل إجتماعيا وفكريا وأسريرا بل وسياسيا أيضا وسط هذه المدينة الثرية . وكان قد أصبح بعد أقل من عشرة شهور من إقامته فيها أحد مواطنيها المعروفين أى شخصية عامة .

خمسة تواريخ تحدد معالم مسار هذا الطموح الجسور من عام ١٧٩٨ حتى ١٨٠٩ الذى بدأ موظفا صغيرا فى أحد المتاجر الصغيرة حتى أصبح مديراً للجامعة والساعد الأيمن للمحافظ وزوج أخت عمدة المستقبل للمدينة : هوج بيريا . سبق أن رأينا جوزيف فوربيه يشيد فى عام ١٨٠٣ « بنوقه المنتور تجاه الآثار » وحمله مسئولية المحافظة على المخطوطات القديمة « الخاصة بالمدينة . بعد ذلك بشهرين إنتخب شامبوليون - فيچاك عضوا فى جمعية العلوم والفنون لمدينة جرونوبل وأصبح بعد ذلك بقليل أمينها العام . فى الأول من يوليو ١٨٠٧ تزوج من زويه ابنة وأخت أصحاب النقود آل بيريا . فى ١٨٠٨ أصبح الأخ الأكبر أمين مساعد مكتبة المدينة وأخيرا فى ١٨٠٩ تم تعيينه أستاذا للآداب اليونانية بالجامعة ومؤديا فى نفس الوقت لورا رئيسيا بها كأمينها العام .

هل كان رجلا سعيداً ؟ إنه بالفعل كذلك فى زواجه . لقد أنجبت له زوجته إبناً نجح أخوه فى إقناعه أن يسميه « على » ... وإبنة أسمها أميلى ولدت فى يوليو ١٨٠٩ . وكانت الدوطة التى جلبتها له زويه بزواجه منها عبارة عن أجمل دار فى قرية قيف الواقعة على بعد سبعة عشر كيلو متر من جرونوبل على مشارف جبال بالون وكانت

يوما من ممتلكات الفيلسوف كونديياك وأخيه الأب ما يلي . وكان چاك جوزيف وزويه يقيمان فيها كثيرا وكانا يستقبلان فيها چان - فرنسوا أحيانا كثيرة أيضا . إلا أن فيچاك لم يبلغ الحالة الميسورة التي كان يصبو إليها . لكن نفوذه على جمعية الفنون والعلوم وفي الوسط المحيط بالمحافظ وأيضا في الجامعة (واصفا نفسه بأنه يد/ رئيس الجامعة المهيمنة) كل ذلك ضمن له سيطرة لا تضاهى على الحياة الثقافية لعاصمة الدوفينية .

لم يكن شامبوليون فيچاك محايدا ، لقد كان بتعبيرنا الحديث « مثقفا ملتزما » موقعه السياسى فى تصور الجمهور - حتى بنون وعى كامل بعد هو أنه يسارى أو على الأقل عضو فى التيار العلمانى الليبرالى . كان يؤكد لأخيه فى العديد من المراسلات بينهما خلال صيف ١٨٠٩ « أن مدينة جرونوبل منقسمة بين الأب دولاكوست وبينى بمن يشغل وظيفة المفتش [...] عند تصادم الآراء فالحقيقة هى أن كل من يرتدى الزى الدينى يرفضنى [...] وستنصرنى السماء على هؤلاء الرعاع [...] يقال إن الحزب الكاثولىكى الرسولى الرومانى قد سقط .. » وإذ بالامر قد انتهى « بسقوط » چاك - جوزيف وليس الأب فإن جرونوبل قدرت أنها هزيمة مؤقتة لحزب الليبراليين .

وإذا كانت هذه المكانة قد تلقت ضربات صعبة للغاية إعتباراً من يونيو ١٨١٥ إلا أن مكانة الأخ شامبوليون الكبير كانت قوية وممتينة فى عام ١٨٠٥ من هذه المكانة استفاد چان - فرنسوا . لقد ترك چاك - جوزيف عام ١٨٠٧ وهو لا يزال خجولا من طموحاته . وإذا هو يجده الآن بعد عامين شابا * من الأعيان واثقا من نفسه . ألم ينجح ضمن نجاحات أخرى فى المناورة التى أدت إلى أن يتولى هو وأخوه وحلفاؤهما كلية الآداب ؟

أستاذ اليونانية فى الجامعة : لقد كان اللقب متمشيا ويليق بعالم الآثار الهاوى . ولكن هل كان فى مقدوره أن يتعامل مع المسئوليات التى تواكب اللقب ؟ لم تكن هذه الأسئلة تؤرق بالهم فى تلك الحقبة من الزمن . بعد أن أسس نابوليون الجامعة الامبراطورية وإذا تحققت الإرادة السامية كيف لا تجد المؤسسة القائمة ما يلزمها من العاملين ؟ صالحو أم غير مؤهلين هذا لا يهم ما دامت الشرعية السامية قد خلعت عليهم ...

* فى الحادية والثلاثين من عمره .

كان هذا فى الزمن الذى شغل كرسي اليونانية فى الكولاج دوفرانس شخص يدعى جيل . وكان إذا أراد أن يلقي محاضرة فى اليونانية طلب أن يترجم له أحدهم توسيدايرس إلى اللاتينية . على حين كان چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك على الأقل فى جرونوبل على نراية بالعديد من المعلومات وكان على كياسة محببة .. من كثرة ما تصفح من كتب قديمة وما حرك من أحجار لابد وأنه على علم باليونانية أفضل بقليل من زميله فى الكولاج دوفرانس ...

بدأت الشكوك تتسلل إلى نفس چاك - جوزيف مهما بلغ طموحه من أفاق وعلى الرغم من ثقته فى إمكانية ابتلاع كل معرفة متاحة فى العالم أو قد يكون ما شعر به نوعاً من خيبة الأمل . لأن ما كان يطلبه هو وظيفة مفتش بالأكاديمية وليس وظيفة تعليمية . وهو المركز الذى عبأ له وأنهك وعاتب وشغل به بال أخيه چان - فرنسوا وسمح له الشهور الأخيرة فى باريس من ربيع ١٨٠٨ حتى صيف ١٨٠٩ إلى درجة إثارة نوع من تمرد الأخ الصغير كما رأينا .

غير أن مؤلف « رسالة إلى مسيو فوربيه حول المخطوط اليونانى فى دندره » ومحرر مداخله إلى جمعية العلوم والفنون حول النص اليونانى المنقوش على حجر رشيد كان على أقل تقدير عالماً وجديراً بالاحترام فى المخطوطات الحجرية باللغة اليونانية . وهى المادة التى كان فى إمكانه توصيلها إلى ثلاثة أو أربعة من شباب جرونوبل وضعوا تحت مسئوليته . وكان يتولى تدريسهم عندما لا تشغله الوظيفة الأكثر أهمية وبريقاً وهى الإشراف على حسن سير الجامعة أو مسئولياته الأخرى * التى جعلت منه مثلاً كان حال فيجارو فى أشبليه « ساعى المدينة » ..

وسنتوقف هنا ضمن مواهبه المتعددة التى وظفها كثيراً ليفتح الطريق أمام عبقرية أخيه عند براعته فى المناورات وهى الموهبة التى كانت يسترفعه إلى مستويات سياسية عليا لو كان دخل بها هذا العالم بدلا من عالم الثقافة . ويشهد على قيمة هذه العبقرية الدور الذى أداه فى تنظيم الجهاز الجامعى لمدينة جرونوبل فيما بين عامى ١٨٠٨ و ١٨٠٩ .

اعتمدت اللعبة التى أداها فيچاك وهو= يحرك فوربيه ، على أن يدفع العجوز بوبوا - فونتانال إلى الأمام والذى كان علاوة على ذلك حما شارل رونوبون عمدة المدينة -

* أمين عام الجامعة ، وأمين مكتبة وصحفى فى حوايات مقاطعة إيزار ومستشار المحافظ ومثقف متعدد المعارف والإداري وعضو لجنة الإنتخابات .

كل ذلك من أجل أن يجد في ظل هذه الشخصية وظائف لأخيه وله أيضا . وهو عندما كان يدفعفورييه إلى أن يقترح على فونتان تعيين مؤلف لا فيستال (وقد كان مرض النقرس قد جعله في حالة إعاقة كاملة) في وظائف أمين مكتبة وأستاذ للتاريخ وعميدا للجامعة فإنه لم يكن يقدم خدماته لأصدقائه الأقوياء آل رينولون فقط بل كان يفتح لنفسه أبواباً واسعة سيمر منها هو وأخوه .

منصب العميد ؟ المتألق جاك - جوزيف - السكرتير - هو الذي كان سيتولى في الواقع مسئولياته . وماذا عن تدريس التاريخ ؟ غياب الرجل العجوز سيعوضه الطفل المعجزة الواصل لتوه من باريس . والمكتبة ؟ كان العجوز المريض سعيداً للغاية لرؤية فيچاك يمارس فيها مهارته كمحب للكتب بكل حيوية . وهكذا نجح هذا العصامي الذي إضطر إلى التوقف عن التحصيل المدرسي وهو في الخامسة عشر دون أن يتحصل على أى شهادة وقد بلغ الآن الثلاثين عام والنصف العام في الحصول على كرسي أستاذية في التعليم العالي كما حصل أيضا على آخر لأخيه * الذي لم يكن قد وصل بعد إلى عامه التاسع عشر ...

بل أفضل من ذلك توصل فيچاك إلى أن يتحصل على « اللقب المطلوب لشغل هذه الوظيفة لأنه يمارس بالفعل مهام الوظيفة » (2) . وما أن مرت بالفعل بضعة شهور إلا وكان قد صدر مرسوم إمبراطوري مؤكدا أن « وظائف أستاذ جامعة يقابلها درجة دكتور » ولذلك فهو يمنح « السيد شامبوليون - فيچاك دبلوم دكتوراه في الآداب ** » ... قلب عجيب للأثر الذي أصبح سبباً !! وهو ما كان قطعاً سيسعد السوفسطائيين اليونانيين القدماء الذين سيتولى تدريس فلسفتهم لشباب مقاطعة بوفينييه !!

وبصفته حامل دكتوراه في الآداب حل شامبوليون - فيچاك مكان العميد المعتل وأعلن في احتفال عام في ٢٦ مايو ١٨١٠ ظهرا في حضور رئيس الجامعة بال ومفتش الأكاديمية لأكوست (الذي تغلب عليه !!) بداية المحاضرات في شهر نوفمبر من العام نفسه وفي اليوم المحدد الخامس من نوفمبر عام ١٨١٠ وقف مرة أخرى

* لم تكن مرتبات الوظيفة تتعدى ما يحصل عليه من كانوا في عمره ٧٥٠٠ فرنكا في العام وهو نصف ما كان يتقاضاه في باريس في حين كان زملاؤه الأكبر سناً يتقاضون ثلاثة آلاف . الواقع أن دوبروا فونتانال قرر أن يجود بنصف مرتبه لنائبه وهو ما جعل بخل جان - فرنسوا يقفز إلى ألفين ومائتين وخمسين فرنكا في العام . ولكن عندما توفي الرجل العجوز وأصبح هو الأستاذ وجد نفسه بمرتب ٧٥٠ فرنكا فقط .

** سيحصل جان فرنسوا بعد ذلك بقليل على الميزة ذاتها .

الأستاذ الشاب اللغة اليونانية إبن مدينة فيچاك ليلقى فى صالون الدور الأول من قصر النبلاء جداً مارسيو وأمام جميع شخصيات جرونوبل العامة خطبة دويوا - فونتانال المتضمنة برنامج العمل . والذي لم يتمكن من إلقائها بنفسه فى هذه المناسبة العظيمة وهذا اليوم المشهود فقد بقى معاقاً متوارياً داخل قصره القريب فى إيشيرول ولم يتمكن أحد من إقناعه بالخروج .

هكذا دخل جان - فرنسوا شامبوليون من باب واسع - فتحه له على مصراعيه أخوه الأكبر النشط - عالم الجامعة وسط جو عام كله بريق . ومع ذلك فقد عبر وهو يخطو أولى خطواته فيه ويتحد سافر عن عدم إتفاقه مع هذا الأخ الذى كان يتوجه فى هذه اللحظة ذاتها - أو عبر بالأحرى عن عدم موافقته على التفكيرالرسمى - الذى عرضه بصفته نائبا عن دويوا - فونتانال وبإسمه .

فهل شارك شامبوليون - بنفسه فى كتابة خطبة العميد الافتتاحية * ؟ أم أنه إكتفى بقراءة نص حرره الشاعر العجوز ؟ وهل ردد هذا الأخير ما جاء أصلاً فى التوجيهات الرسمية ؟ المهم هو أن الأقوال التى وردت على لسان الأخوين خلال بضع أيام فقط حول مهمة المؤرخ التعليميه وهدفه جاءت متناقضة تماماً . فلنستمع إلى چاك - جوزيف :

« الهدف المزدوج للتعليم هو تنشئة الرجال والمواطنين [...] يجب على الأفراد أن يشاركوا فى المجهود العام البعض بما له من مناقب والبعض الآخر بماله والكثرة بما لها من معرفة وموهبة والجميع بانصياعهم وتقانيهم وولائهم . ولكل تلك الأسباب تولت جميع الحكومات المتتورة التعليم العام (3) ... » .

وفيما يتعلق بتعليم التاريخ أوصت « خطبة العميد » بالجوء إلى النقد وهو يحمل أمامه مشعل الفلسفة ولا نعننى هنا تلك التى يطلق عليها هذا الإسم بعد تحريرها وإنما الفلسفة الكريمة المعتدلة التى تعلم الناس التراحم والحب ... (4)

لم يكن من الممكن تأسيس الجامعة الجرونوبلوازية الوليدة على أسس أكثر محافظة أو أقل ثورية وأكثر عملية أو أقل معرفة بالأنسيكلوبيديا والتنوير ... إن ما جاء

* لاحظ ش . ا كاربونال أن النص الذى أتيت له فرصة الإطلاع عليه ليس بخط فيچاك ولا هو بخط مدام رونولون إبنة دويوا - فونتانال وسكرتيرته . وعلى الرغم من ذلك فهو يميل إلى الاعتقاد بأن چاك - جوزيف هو الذى ألفه .

على لسان فيچاك هذا « الليبرالى » وعدو « الرداء الكهانوتى » هو أمر صادر من الدولة الإمبراطورية إلى مدرسيها بتكوين ثم إنتقاء خدم مطيعين لاستخدامها الشخصى .

لابد وأن الأخ الأكبر حرص على حضور المحاضرة الأولى لأخيه . فهل قدر أن ما استمع إليه كان بمثابة تحد أو إهانة أم على العكس من ذلك تعبير عميق عن أفكاره هو والتي اضطرت إلى التمويه عليها تحت ستار النص الرسمى الذى اضطرت إلى إلقائه بصفته الرسمية ؟ لابد وأنه شعر ببعض القلق من أخيه الأصغر وهو يعبر فيما يتعلق بمادة التاريخ عن أفكار غير مطابقة للمبادئ السلطوية السائدة .

كان موضوع الدرس الأول لجان - فرنسوا شامبوليون هو « فى التاريخ عموما وأسس ، التتابع الزمنى والجغرافيا المقارنه » . من البداية قام هذا الأستاذ ذو التسعة عشر ربيعا بشجب :

« الميل الطبيعى لفكر الإنسان لأن يحكم على الأحداث بنتائجها يجعله يمتدح عملا خاطئا توج بالنجاح (...) هذه الطريقة فى الحكم على الوقائع هى إحدى العواقب المنطقية لذلك التساهل الإجرامى الناتج عن إهمال المبادئ والذى يجد العدل حيثما يرى إنتصاراً . هذا الاستسلام الخانع قائم منذ الأزل وفى كل مكان .. (5) »

هل هذا الكلام مأخوذ عن مدام دو ستال أو عن بنجامان كونستان ، وهما : من أصحاب الأيديولوجيات المحرمة من الحكم الإمبراطورى ؟ لايمكن أن تجابه بحزم أكبر « التساهل الإجرامى » فى عدم مناقشة غزو إسبانيا أو اعتقال الحبر الأعظم طالما أن انتصار الأمير قد توجهما .

هذه الكلمات أُلقيت فى إطار الجامعة الامبراطورية هذه المؤسسة التعليمية التى أقيمت لخدمة الأوتوقراطية « المستنيرة » أى هذا المعمل المطلوب منه تفريخ موظفين متسلطين ! ها نحن أمام شاب يجازف بالأ يذهب بعيدا فى مستقبله التعليمى لولا إعتماده على العناية المضمونة لأخيه « خادم الجامعة » .

خصص جان - فرنسوا ما يقرب من ثمانية عشر شهرا للتحضير لمحاضراته المقسمة إلى مائة درس : العناوين التى أعطاه لكل منها تنم عن حجم طموحاته : « عن التاريخ وأسس » ، « عن العصور القديمة للعالم وأصل الإنسان » ، « تأملات ناقدة فى المؤرخين من جميع الأزمنة وكافة الأنحاء » « ما تبقى لنا من وسائل لكتابة التاريخ » .

لم يكن الأستاذ الشاب يكتفى بالدفاع العلني عن حرية الفكر ضد الإستبداد بل كان يؤكد على نقد الأسس وعلى اللجوء إلى الأسلوب التجريبي وعلى البحث في « الأسباب والنتائج الحقيقية » وكان ينصح كذلك بمراجعة ذكريات الشخصيات الفاعلة والشاهدة مثل : تيمورلنك وجوانثيل وتوران ...

كان لهذه المحاضرات صدى واسع . اثنان من المفتشين العاملين جاءا للإستماع إليه (هل كان ذلك بناءً على وشاية بجرأته في الحديث أم كإجراء روتيني بسيط للتعرف على إمكانيات هذا الطفل المعجزة ؟) المهم أنهما خرجا وهما « يعبران عن أنهما » يضعان فيه أمالا عريضة⁽⁶⁾ ، مثلما فعل زميله في المدرسة الخاصة للغات الشرقية أبال بوريموزا ، أو الصيني ، الذي كان يمرّ بجرونوبل . لم يكن الأستاذ الشاب يتمتع فقط بالشجاعة وسمو الرؤى وتعدد المعارف وجزاء هائل ناتج عن « مقارناته » (بين مختلف الحضارات والموضوعات) بل كان يعرف أيضا كيف يحيّ دروسه ويحرك أجواءها . وكان المجهود الذي يقوم به للتغلب على خجله الطبيعي يضع في أقواله من الحماس ما يجعلها تبدو مشتتة وهاجه فتلفت أنظار العدد القليل من تلاميذه المسجلين في محاضراته * . ذلك لأن كل ما كانت تضمه الجامعة الوليدة – وبقي الحال هكذا لمدة طويلة – لم يتعد اثنين وعشرين طالبا مسجلين وثلاثين « مستمعا » .

هذه النظرة الواسعة الدائرية على الكرة الأرضية عبر القرون كانت بمثابة تمرين جيد لباحث في أعرق تاريخ للبشرية يؤمن بأن الحضارة المصرية القديمة مادامت محورية وأصلية فإنها مرتبطة بجميع الحضارات الأخرى وبأن كل من هذه الأخريات تعود بالتالي إلى القالب الأصلي . إلا أن الباحث كان على يقين من أنه لا يمكن من جعل الخلاصة تعلو على العمل التحليلي كما أنه يعرف أن أفضل منابع للعلوم التاريخية واللغوية هي النصوص والأرشفات والمخطوطات والكتب .

من هنا جاء اهتمام الشقيقتين الكبير بوظائفهما كأميني مكتبات . حتى عام ١٨١٢ لم يكن الأخ الأكبر رسميا سوى مساعد بوبوا – فونتانال والأخ الأصغر سوى مساعد المساعد . إلا أن هذه الألقاب المتواضعة لاتعطي فكره صادق عن السلطة التي تمنحها لهما هذه الوظيفة المحورية . ويوجد تقرير وجد في أرشيف مقاطعة إيزار كتبته مراقب سئ النية هو العمدة « اليميني المتطرف » بينا (الذي سيخلف رونولون في ١٨١٥) هذا التقرير يكشف أهمية الوظيفتين :

* كان يلقيها كل أربعاء وخميس في العاشرة والنصف . أحيانا كان كل الحضور تلميذين .

« إن أمين المكتبة لما له من تأثير على العقول وعلى أفكار العديد من الشباب هو في الواقع بمثابة أستاذ عام ويترتب على ذلك ضرورة عدم شغل أماكن كهذه بسوى لرجال تتوافر فيهم كافة الضمانات المطلوبة »⁽⁷⁾

لم يكن هناك جماهير غفيرة تتسابق لدخول المقر الفسيح المتاح لليسيه الذى درس فيه جان - فرنسوا من ١٨٠٤ حتى ١٨٠٧ بل أن مجموع المترددين عليه لم يتعد ستين فرداً منتظماً من الطلبة ورجال القانون والدين . الحقيقة أن إبنى تاجر كتب فيچاك لم يكونا مهتمين بتلقي المبادئ الليبرالية لهؤلاء الزوار بقدر ما كانا مهتمين بإثراء مقتنيات المكتبة بالنسبة للأخ الأكبر وبالإستغلال المنظم لمستودع المطبوعات والمخطوطات والقطع الأثرية بالنسبة للآخر .

كانت المكتبة ثرية بما تحتويه . أقتنى مؤسسوها لدى نشأتها من مبادرة من الدكتور چانيون ٢٤,٠٠٠ مجلداً هبة من المطران چان دى كولىه . وأضيف إليها قسم للقطع الأثرية تتقدمها كما تعرف مومياء مصرية ومتحف للتاريخ الطبيعى ثم جرى توسيعها بمبنى تم شراؤه من البارون بيزادريه . وأصبح المدخل الرئيسى بعد ذلك من هذا المبنى .

چاك - جوزيف أضاف إلى ماسبق - وذلك بحسب له - ثلاثة آلاف عنوان آخر عهد إليه فهى ١٢٠٠ كانت بتبرع من الأب جانتال علاوة على ٣٠٠ مخطوط ومطبوع أصلى من بداية عصر الطباعة وردت من دير الجرانند شارترورز (كان چان - فرنسوا وصديقه ميلان قد راجعوه قبل ذلك) .

سنري فيما بعد * لدى عودة الملكية أن إدارة الأخوين شامبوليون ستعرض لإتهامات قاسية مما أدى إلى الإطاحة بهما . إلا أن الشئ المؤكد هو أن مكتبة جرونوبل كانت مركزاً مفضلاً لأعمال وأفكار وأبحاث مكتشف الغاز الهيروغليفية وكانت مهد محاولاته الفكرية فيما بين ١٨٠٩ و ١٨٢١ .

أستاذ وأمين مكتبة ؟ چان - فرنسوا كان صحفياً أيضاً . فى بداية عام ١٨٠٨ نجح فى إزاحة شخص اسمه أوجوست باردال (وظيفته الأصلية كانت مفتش المنح) وكان المحرر الرئيسى لجريدة « حوايات منطقة الإيزار » والتي كانت تعكس فى الواقع رأى السلطات وتنشر المعلومات الرسمية . وكان چاك - جوزيف يتعاون مع هذه

* الفصل ٧

المطبوعة ببعض المقالات تعكس نشاط جمعية العلوم والفنون منذ ثلاث أو أربع سنوات .
توجد في مراسلات الشقيقتين إشارات إلى تلك العملية والتي تمت كصفقة مالية : إذ تم
تعويض باردال لقاء تنحيه عن هذا المكان بضع مئات من الفرنكات . ولا يعرف إذا
كانفوربيه ذاته هو الذى دفعها . إلا أن الشئ المؤكد هو أن المحافظ كان يود أن يسند
المكان لشخص مؤثوق فيه ومن نوعية ممتازة .

حاول فيچاك أن ينفخ فى هذه النشرة التابعة للمحافظة شيئاً من الحياة فطلب من
نسيبه بيريا - سان برى أن يكتب له بعض المقالات كما كلف بالطبع جان -
فرنسوا أن يمدّه بمقالات تقريرية عن الكتب والمقالات التى تنشر عن الشرق والعصور
القديمة * .

وعلى الرغم من أن إدارتها كانت تحت سيطرة شخص متساهل مثل جوزيف
فوربيه إلا أن قبضة الإمبراطورية الحديدية كانت تقمع دون هوادة أية محاولات من هذا
القبيل وكان للمواطنين الحق فى الحقيقة الرسمية فقط بعد تعقيمها وضمان مطابقتها
للتزمت والتدين القائمين .

يوضح ذلك حدثان مزبوجان ساهما فى تكدير العلاقات بين آل شامبوليون
وجوزيف فوربيه : فى شهر مارس ١٨٠٩ نشرت « الحوليات » مقالاً لا يحترم الصيام
جاء فيه أن هذا الفرض الدينى له على الأقل ميزة أن « يتيح للبهائم أن تتكاثر » وأن
« اللحم سيصبح أرخص سعراً وأجود إذا أحترم الكافة هذا الفرض وصاموا »
و « إذا أكل الفلاحون اللحم كل يوم فلن يكون هناك لحم يكفى الامبراطورية
المتنامية » .. كلام يشبه ما كان يقوله ديرو (أبو الانسيكلوبيديا) مما أثار إستنكار
القراء المتدينين وأخرج المحافظ جداً .

وإزدادت الأمور تأزماً عندما نشرت « الجوليات » مقالاً ساخراً ضد « التطرف
الدينى » و « التعصب » بمناسبة قيام « أحد الورثة بحرق إحدى أكثر المكتبات ثراءً فى
مقاطعة الإيزار » لأنه مقتنع « إنك إذا أردت أن تعيش حياة مسيحية يجب ألا يكون لك
فكر أو شعور أو منافسة أو تعليم [..] ولكى يرضى عنك الله يجب ألا تعرف من الكلام
سوى الصلاة مع التسبيح [..] وأن تخنق فكرك فى المياه المقدسة وأن تنتظر فى

* نشر جان - فرنسوا فيما بين ١٨٠٨ و ١٨١١ خمس مقالات فى الحوليات بعضها بتوقيع C.S. عن
الأهرام والشعر الفارسى ومكتبة الإسكندرية وعن المباني الأثرية من أصل عربى .

ثبات كامل وغبى وتأمل متخلف ، أثار العناية الإلهية ، .. إلا أن التعليق ذهب إلى أبعد مما ينبغى » « ونتيجة لما سبق فإن هذا الشخص أخذ مثلاً من الشعوب التي كانت فى الماضى يحرقن كل عام شخصاً يهودياً لأنه جاء من جنس ملعون كما كانوا يقولون - وراح يحرق كل ليلة وهو يهضم عشاءه من خمسة وعشرين إلى ثلاثين كتاباً [..] كلما اكتشف كاتباً وثنياً أو فيلسوفاً [..] إن ما تم هو جريمة لا تغتفر وإهانة للعصر الذى نعيش فيه ... » .

الدهش هو أن العديد من عائلات الإقليم اعتقدت أنها مستهدفة !! مما اضطرت جاك - جوزيف إلى أن ينشر مذكرة اعتذار وبقي صامتا بعد ذلك إلا أن فوربيه وإن كان فيلسوفاً - فهو قبل كل شئ محافظ الإقليم أى أنه عدو للإضطرابات - فلم يسامحه .

ومنذ ذلك الحين خضعت الحوليات لنظام صارم وصفه إيميه ابن شامبوليون - فيچاك ببراءة خالصة (8) ، وهو ما يذكرنا « بحرية الصحافة » كما يراها فيجارو :

« الأخبار والقضايا التي كان يمكن لهذه الصحيفة أن تنشرها لم تكن كثيرة ، ولحسن الحظ كان الجزء الرسمى والقرارات الحكومية تشغل منها الجزء الأكبر أما الأخبار الخارجية فكانت مأخوذة فى العادة من صحيفة « لومونيتور أو نيفراسال » . ومع ذلك كان من الممكن أن يدور الحديث بون حرج عن المخطوطات القديمة الموجودة للإقليم وعن الكتابات اللاتينية مثل تلك التي تنقش على المباني المشيدة على شرف الإمبراطور . وكذلك عن كتب الأصول اللاتينية واليونانية وعن الروايات الحديثة وعن الأحداث التي تجرى فى الممالك المجاورة (...) كما أن الفلك كان من الموضوعات المسموح بالخوض فيها » .

كلها مبادئ مدهشة مع أن احترامها لن يمنع الشقيقتين شامبوليون من أن تطالهم يد الرقيب وأن يغضب عليهم فى نهاية الأمر . ففى غضون ذلك مرت غيوم على علاقاتهما مع جوزيف فوربيه المتساهل والقوى جداً فى نفس الوقت .

لقد رأينا كيف أن المحافظ قد رعى جاك - جوزيف شامبوليون وإصطفاه بعيد إقامته فى جرونوبل وكلفه منذ ١٨٠٣ بأن يتولى شئون الآثار المحلية وقام بتعريفه على أقرانه فى مصر مثل يوم رافائيل أو على زملاءه أعضاء « الانستيتو » مثل بيو وفوركروا .

اعتباراً من ١٨٠٧ أصبح أكبر الأخوين شامبوليون ما يمكن تسميته الآن بملحق ثقافى للمحافظة - تكلفه بمهام تتطلب الثقة . وقد وصلت الصداقة بينه وبين فورييه لدرجة أن هذا الأخير كان يدعوه كثيراً إلى قصر بوروجار ذى الموقع الجميل حيث كان المحافظ يضع - كما كان يقول - « نهرا بين العالم وبينى » *

أهم تلك المهام كانت المساهمة بتحرير المقدمة التاريخية « لوصف مصر » التى كلفه بها أقرانه فى « معهد (لانسيتو) القاهرة » بصفتة أمينه العام وذلك فى عام ١٨٠٢ حتى قبل سفره إلى جرونوبل . وعندما إستقر به المقام فى محافظة الإيزار (علما بأنه كان يأمل ألا يبقى فيها سوى فترة قصيرة) تبعته إلى هناك جميع المستندات التى كان قد إستطاع جمعها - وأنشأ بذلك فى الدوفينييه ما يمكن تسميته « بملحق » للجنة مصر . هذه اللجنة كانت تشغل مكانا بجوار اللوفر وتحت إدارة لانكريه ومن بعده جومار وهدفها نشر الكتاب الضخم .

بإختصار كان الأخوان مرتبطين إرتباطا وثيقا بتحرير مقدمة جوزيف فورييه . مراسلاتهما مليئتان بإشارات إلى تقدم العمل - مستندات ، ملحوظات ، مراجع وتواريخ . ولكن ليس من المؤكد أن المحافظ قد أتى معه بنموذج لحجر رشيد . والواقع أن فيچاك قد طلب من ميلان توفير هذا المستند حتى يتسنى له ترجمة النص اليونانى وكتابه « دراسة نص حجر رشيد » وذلك فى عام ١٨٠٤

لم يتوقف قط تبادل الرسائل والمخاطبات بين « القيادة العامة » الباريسية والفرع الجرونوبلوازى للدراسات المصرية وسبق أن أشرنا إلى أن چان - فرنسوا خلال إقامته فى باريس - كان يقوم باستمرار بمهمة نقل المستندات والمعلومات التى كان يوفرها جومار عن طيب خاطر . وبعد أن عاد « صغير » إلى جرونوبل قام چاك - جوزيف بالتردد على باريس وكان يلقي ترحيبا من أعضاء اللجنة أكثر من أخيه - لأن هذا الأخير لم يكن يحتفظ لنفسه بأراءه وخاصة أنه لا يعير أهمية أكبرى للأشخاص بذاتهم ولكن لتفسيراتهم للحضارة المصرية القديمة .

حصلنا على إثباتات عديدة على الجهود التى بذلها الشقيقان فى خدمة المشروع الكبير المنوط به فورييه . مثال ذلك هذان الخطبان . الخطاب الأول موجه من چاك - جوزيف إلى الأخ الأصغر والثانى من چان - فرنسوا إلى الأكبر :

« جرونوبل فى ٨ أغسطس ١٨٠٨ ،

* يقصد نهر الدراك .

عندما تقابل مسيو جومار [..] أخبره أن مسيو فورييه متوَعك وأن المقال التمهيدي يتقدم العمل فيه كل يوم وأن مسيو فورييه يحتاج إلى ثلاثة أشهر للإنتهاء منه وأخيرا أنه يشعر باليأس الكامل وإنى أعتقد أن من الأفضل أن يكتب له مسيو جومار كثيرا فى مرحلة الولادة الصعبة هذه لأن ما يمر به مسيو فورييه هو بالفعل كذلك وإنى أخشى أن يمرض بالفعل لهذا السبب ... » (9).

رد « صغير » جاء كالتالى :

« باريس ، فى ٩ أكتوبر ١٨٠٩

أمضيت طوال يوم الخميس [..] وجهاً لوجه مع مسيو فورييه . تلا على « بحثه الفلكى » * . وهو يقدم له بدراسة عن الأوضاع فى مصر تحت حكم الفراعنة ويقع فى ٨٢ صفحة ** رفعت له قبعتى عدة مرات (مثلما كان يفعل بيرون) للتعبير عن إعجابى بالأفكار التى تعلمها منا إلا أنه عرف كيف يستغلها بتفكيره العادى . إلا أننى جعلته يعيد تصحيح من عشرة إلى إثنتى عشرة فقرة تفوح منها رائحة المدرسة القديمة . فقام بتعديلها بانصياع مثالى . وأنى أقدر له ذلك تقديرا لانهاى . إذ يثبت ذلك أننا نتمتع ببعض الأفكار المضيئة . (10)

ثقة بالنفس رائعة ومثيرة للنشوة ! كيف يمكن للمراهق ذى المزاج المتقلب أن يستعيد ثقته بنفسه بطريقة أفضل من أن يتقمص دور المعلم والمصحح لفورييه المشهور ، زميل بوناپارت ، مستكشف روائع ممفيس وطيبة باسم «الأفكار المضيئة» التى إكتسبها هو وأخوه ! قد تكون هذه السويغات التى أمضاها فى أكتوبر ١٨٠٩ مع كاتب مقدمة كتاب « وصف مصر » فى أثناء زيارة له لباريس التاريخ الفاصل للمرحلة الثانية للمشروع الكبير الذى بدأه عام ١٨٠٦ وهو فى الخامسة عشرة من عمره وكانت بعض الإحباطات وحالات الفشل قد أوقفته أحيانا .. أن يكون قد ساعد فورييه على الخروج من ألام « عملية الولادة الصعبة » ومن « مبادئ المدرسة القديمة » لا يمكن أن يكون إلا مصدرا للفخر ..

كان على فورييه أن يواجه رقبيا أكثر صعوبة وهو نابليون نفسه والذى كان يولى هذا النص اهتماماً فائقاً بسبب ارتباطه الوثيق بمجده الشخصى . كشف لنا فيچاك

* راجع فيما بعد قضية « رسم الأبراج السماوية » .

** يقصد المقدمة .

فى كتابه «فوريبه ونابليون : مصر والأيام المائة » * أن الإمبراطور طالب بعدد كبير من التعديلات وأغلبها يتعلق بكل ما كان يمكن أن يجرح الكنيسة الكاثوليكية التى وضعها تحت حمايته بسبب تعبير متحمس أكثر مما ينبغى « بالفلسفة الفرعونية » .

أخيرا فى ٤ فبراير ١٨١٠ بعد أن تمكن من تخطى حالات القرف والضعف أعلن فوريبه إلى وزير الداخلية مونتالييفيه أنه « سلم المطبعة الامبراطورية الصفحات الأخيرة من المقال الإفتتاحى لكتاب « وصف مصر » ** . ثم ينتهز الفرصة ليعبر عن « عدم رضائه عن بعض الشكاوى التى وجهت ضد شخص حكم على نفسه بارادته أن يقوم بعمل صعب ومستمر دام أشهر عديدة . » (أشر مونتالييفيه على الخطاب بما يلى « إعداد رد عاطفى ... ») .

هل تعنى الخدمات المستمرة التى قدمها فيچاك وصغير لجوزيف فوريبه فى تحرير النص المشهور أن « المقدمة التاريخية » من صنعهما وليس بقلمه هو ؟ أكد بعضهم ذلك لكن الصفحات التى خصصها چاك - جوزيف لهذه المهمة فى كتابه «فوريبه ونابليون » تنفى هذا الادعاء: « رأيت الجملة الأولى لهذه المقدمة وهى تخط على الورق ورأيت أيضا سطور النهاية ... ما أن وضع خطة كتب (فوريبه) كل جزء على حدة[٠٠] قامت هذه الخطة على تناسق حسابى [٠٠] ستة أقسام تحتوى على ستة وثلاثين مقالا (٠٠) لا توجد فى النص الأدبى لفوريبه جملة واحدة غير مدروسة فى كل كلمة منها .. »

لايمكن أن يكون المرء أكثر وضوحا فى إرجاع أبوة النص إلى الموقع عليه أكثر من ذلك ، خاصة وأن شامبوليون - فيچاك كان يكتب هذه السطور فى زمن لم يكن فيه من مريدى المحافظ - عالم الطبيعة ، وكان قد أصبح مشهورا هو ذاته وكانت علاقتهما قد خرجت من العديد من العواصف ومهما كان عرفانه بجميل راعيه فإن چاك - جوزيف قد وازن جيدا أبعاد فضل فوريبه عليه فى الوقت الذى كتب فيه هذا النص بما يمنعه من أن يعبر له أمام التاريخ عن فضل لا يستحقه .

* راجع الفصل ٦

** كان الجزء الأول قد نشر بالفعل عام ١٨٠٩

جاءت في خطاب جان - فرنسوا المؤرخ ٩ أكتوبر ١٨٠٩ إشارة إلى « البحث الفلكي » . يتعين علينا أن نتوقف عندها . لم يكن موضوع الساعة حينذاك هو صدور « الوصف » فهو ليس من الأسباب التي تثير المنازعات بل كان الجدل المشار نو الأبعاد العديدة بسببه « البرج السماوى » أو « الزودياك » فهو الذى أثار حفيظة من أسماهم آل شامبوليون « الجيزويت » « المتعصبين للنصوص » أو « مطلقى الشعلات » وهو ما أثار انتباه الإمبراطور « التقى » عندما قرأ له فوربيه مقدمته .

كان قد تم إكتشاف « ست أثار فلكية » فى مصر ومنهم « رسم الأبراج السماوية » المشهور فى بئرته . وكان الذى اكتشفه هو بوسيه والذى درسه جولوا وقيلا روتيراچ والذى نقله رسماً قيغان بونون . هذا الاكتشاف جعل العديد من المتخصصين وخاصة بوبوى صاحب كتاب « أصل الأديان » والعظيم قولنى يعتقدون أن الحضارة المصرية تعود إلى خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد . وجاء ذلك متناقضاً مع التسلسل التاريخى المعتمد من الكنيسة الكاثوليكية الذى كان يرجع تاريخ خلق العالم إلى أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح .

لم يؤيد جوزيف فوربيه هذه النظريات الأكثر تقدماً فى هذا الاتجاه لا فى مقدمته ولا فى بحثه الفلكي . والتى كان يشكك فيها الفلكي المشهور لالاند ذاته وكان ملحداً مناضلاً وكان يود لو تمكن من وجهة النظر الفلسفية أن يسخر من تعاليم روما كان فوربيه يعتقد أن الحضارة المصرية تعود إلى خمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد ومن هنا جاء قول بونابارت : « أربعون قرناً » .

ومع ذلك فإن رأى العام كان قد سجل علفوربيه أنه باسم العلم قد ناقض بجسارة التاريخ الكنسى . فوربيه كان عضواً بارزاً فى الماسونية وقد أدى ذلك إلى إثارة المحافظين فى جرونوبل وغيرها . لقد كانوا على استعداد لقبول فكرة عضوية محافظ مقاطعتهم فى الجمعية التأسيسية الحفيرة « (الكونفونسيون) كنائب مناب ولكن أن يشكك فى تعاليم الكنيسة ! *

لنجدة فوربيه أسرع اثنان من زملائه فى جمعية العلوم والفنون ، هما الأب چاتال (وقد رأينا أنه إنسان متفتح الفكر) والچنرال بولاسالت (السيف) الجنرال بعد الماء المقدس (القس) . أوضح الأول أن الملاحظات التى أبداهها عالم الرياضيات المشهور بناء على « أثار طيبة وممفيس » جعلته يصل إلى « استنتاجات » تناقض « ظاهرياً وليس واقعياً ، رأى العليم الذى أفتى به بوسويه « يعد الرجوع إلى هذا الأخير دعماً أساسياً ** .

* سنرى فى الفصل ١٠ أن إكتشافات - جان - فرنسوا شامبوليون ستؤيد بطريقة غير متوقعة نظريات الكنيسة .

** بوسرت Bosset رجل دين وكاتب وخطيب فرنسى من القرن ١٧ [المترجم] .

أما الجنرال دولاسالات فكان أكثر حصافة ، فقد قال : إذا كان هناك فرق أحد عشر ألف سنة بين تقدير « البرج » « غير القابلة للنقض » والمبادئ « المعتمدة عالميا » للكتب المقدسة مما أدى إلى « تناقض » فيتعين علينا أن نعمل على التوفيق بين النظريتين . كيف ؟ إذا أخذنا في الاعتبار أنه جاء في رسالة بطرس الرسول أن « في نظر المولى يوماً واحداً يساوى ألف عام وأن ألف عام تساوى يوماً واحداً .. » ثم يخرج المؤرخ الموسيقى والضابط السابق بهذا الاستنتاج المدهش : « نرى إذن من هذا النص أن الستة الأيام التي سبقت خلق الله للإنسان كانت من أيام المولى ويجب حسابها على أنها ستة آلاف عام . وتأسيساً على ذلك فإن [..] رسوم الأبراج السماوية التي عرفنا بها المواطن فورييه وهو يحاول أن يعطينا فكرة صحيحة عن الفترة التي خلق الله فيها العالم لابد وأنها أدخلت في حساباتها الستة آلاف عاماً المذكورة والتي تزيد عن الحسابات العادية [...] أما عن الخمسة آلاف عام الباقية فليس في إمكاننا أن نخطو خطوة أخرى أكثر من ذلك [...] نرجو من القارئ أن يلاحظ أننا نقبل بون أي إعتراض أن الأيام بها أربع وعشرون ساعة وهو ما يعتبر أصعب في تفسيره من [الأيام التي هي ألف عام] مع العلم بأن أعمال الخالق لا يمكن كشف أسرارها .»

ليس من المعروف ما إذا كان جوزيف فورييه قد تنوق أم لا حسن الدفاع عنه هذا من زميله أما المؤكد هو أن هيئته كمحافظ لم تهتز ، فقد ظل يدير أمور عاصمة الدوفينييه لمدة خمسة أعوام أخرى مع العلم بأنه كان ينتظر أن يكون المقابل « لعمله المتصل والصعب » في كتابه المقدمة ليس المكافأة الضخمة التي أراد نابليون أن يمنحها له ورفضها هو ، ولكن أن يعين في مجلس الدولة وهو ما كان يرغب فيه بشدة .

مدهش هذا الفورييه ! ... فلنتصور كيف كان يوم من أيامه . لقد كان مسئولاً عن إدارة منطقة من أكثر مناطق الإمبراطورية توتراً لأسباب تاريخية واستراتيجية ، وهو في نفس الوقت يشرف على تنفيذ أعمال ضخمة لتجفيف مستنقعات بورجوان ، يفصل باستمرار في كل موضوع تشريعي في مرحلة إنتقالية صعبة ، وهو معمق أبحاثه العلمية التي أدت إلى ظهور نظريته في إنتشار الحرارة ، ثم بعد ذلك كله يضع اللمسات النهائية على مقدمته العظيمة ويرد على أحد أعداءه بخصوص تفسيره للأبراج المصرية ، ويملى عشرين برقية لعامل تلغراف لا يصل مداه إذا كان الجو صحواً إلى أبعد من مدينة ليون . ثم يسرع إلى قصر بوروجار ليراجع ما به من مستندات تاريخية وأخيراً عند حلول المساء يشرف على سهرة من السهرات التي كان ينظمها في صالونات دار بوكيد يجيار المطلة على حدائق المدينة (حيث كان يتربص شخص بدين

عائد من ميلانو إسمه هنرى بابل) والتي تجعل من مقر إقامته إجتماعاً لإحدى الأكاديميات .. هذا إذا لم يفضل عن ذلك حضور إجتماع جمعية العلوم والفنون بصفته عضواً بها .

وكان يجد أيضاً الوقت ضمن أشياء أخرى لأن يكتب فى ١٧ فبراير ١٨١٢ خطاباً لفونتنان يفيد أنه وفاة بوبوا - فونتنانال جعلت كرسي التاريخ فى الجامعة شاغراً وأن لا أحد يمكنه أن يكون أكثر كفاءة من جان - فرنسوا شامبوليون ليشغله بعد أن « أثبت كفاءته بمعارفه النادرة » و « باكتشافاته فى مجال علم الآثار ».

كان الشقيقان شامبوليون - إعتباراً من ١٨١٠ من المواظبين على حضور سهرات دار توليديجيار مع الكونت دارجو والماركى بوشاج والكونت تولوميو (شقيق عالم المعادن) وأوجوستان بيريه ودوتيسييار وبلانتا وبويريا - سان پرى

« مذكرات » فوريه التى أشار إليها إيميه شامبوليون - فيچاك فى كتابه « يوميات نوفييه » ترسم صورة لأجواء هذا البلاط الريفى لدار توليديجيار الذى يؤدى فيه - دارس اللاهوت السابق (فوريه) ليس دور الملك الشمس (لويس الرابع عشر) ولكن نورميسيس « ميسيس أو مادام نوفيان .. فهو يكره » حفلات الموسيقى التنافسية « وكان يقوم مثل نابليون فى فونتانبلو بتجارب فى علم الطبيعة ويطلق المناطيد ويقوم بتنظيم « تابلوهات حية » . كان يطرد الفنانين المتجولين وغيرهم من « المشعوذين » ولكنه يستسيغ العروض المسرحية مثل « العازب العجوز » * و « المكفهر الطيب » وكذلك حفلات الباليه التى كانت تؤدىها عائلة شاليونى الشهيرة .

جاك - جوزيف وجان - فرنسوا شامبوليون كانا : الأول منظم الحفلات والآخر مقدمها ومحبيها . إذ أن جميع الشهادات متفقة فى أن أستاذ التاريخ الجامعى كان يقوم بمجهود كله خفة وبريق وكوميديا يفتتن لها جوزيف فوريه .. من غير المعروف إذا كان أصغر عضو فى جهاز التدريس الفرنسى كله قد عرض فى هذا الإطار مسرحية « سكولاستومانى » والتى كان يهاجم فيها دون رحمة نظاماً تعليمياً يحتقر أى فكر نقدى وقائماً على عبودية التراث السلطوى .. على الأرجح أن فوريه - مهما كان رأيه فى ذلك - لم يكن فى إمكانه أن يرعى مثل هذه الإنتقادات . ولكن من ناحية أخرى كان « صغير » يعرض فى هذه الحفلات تقليده للتراجيديات الكلاسيكية والتى عشر عليها ونشرها ليون بولابريار . لم نقاوم الرغبة فى عرض مقتطفات منها إذ أنها توضح حيوية هذا المؤرخ ذى العشرين عاماً .

* تغافل من وجود أى تشابه مع وضعه الشخصى .

مثال ذلك مسرحية « باجازبة » * وقد عرضها بمناسبة ماردى جرا ** وفيها يفسح
عالم الإستشراق المجال للكاتب الساخر ويحكى كيف حضر الوزير أكوامات ليحيط -
روكسان - محظية السلطان المفضلة علماً بوفاة سيدهما المشترك :

كان إلى الأمام سائراً ، والحرس تابعاً
ولما كان الجو ساخناً ، كان جلالته شارباً
لا النبيذ لأن بيننا كما أنت عارفة
منه طهر مطابخنا (وهو فى ذلك بصير
وعلىنا خشى من شذاه الخطير)
ولكن شرابه كان بريئاً ولذيذاً
بالسكر والبهار والقرفة والبرتقال
والليمون والمسك خليط للنشاط فعال ،
فجأة صوت السلطان فى المكان علا
حوله إندفع من القوم من سما
كان كالثور بعزم خاتراً ، حتى الخصّ نهل
مما سمع ، فالصوت الرهيب جلجل .

روكسان

آه ! يا إلهى ! ماذا حدث للمسكين المبجل ؟

أكوامات

التواء خطير فى العنق !

روكسان

فقط ؟

* أو « بايزيد » مسرحية لراسين كتبها عام ١٦٧٢ وتصور أحداثها فى سراى تركى فى العصر
العثمانى . (المترجم) .

** الثلاثاء المرفع الذى يسبق شهر الصوم عند المسيحيين (المترجم) .

أكومات

كان في ذلك الكفاية بما أنه به توفى ! ...

روكسان

أوف ! ...

أكومات

لإنقاذه وهذه كانت الظروف

بسحب السلطان من داخل عربته

لنجد جدي ! إذ أن رأسه من ساعته

وقبل نهاية اليوم كانت نحو كتفه إستدارت

ولاشئ أوقف من عظيم الألم الشدة

وهولت الذقن ناحية الرقبة تتقدم

والعيون مبهورة بهذا المنعطف تتفرس

قرأت أمامها ما لم تراه أبدا

رقبته قصمت والموضوع حسم !

هذا ما علمته من آخر مرسال أقسم

روكسان

ياويلي ! ليس هناك إذن شك في شقائى

إنه بالفعل مات ، هذا أكيد

أكومات

من قال لك ؟

روكسان

قلبي

ومعه ألف نذير ؛ صراخ بومة

سكين أمامى فوق شوكة اعترضا
إمارات حبى فى ساعة نحس يوم جمعة سافر
وسط الوليمة أوقع خادم سارح
الملح على المقرش الليلة البارحة
فى الشارع كلب طوال الليل كان نابحا
فأقلق نومي وكنت لذلك نائمة
ووضع الخبز معكوسا ...
أكومات

لاشك إذن عندنا
التركى الأعظم لم يعد بيننا (11)

هل القرن الثامن عشر والتصرفات الغريبة التى سادت « حكم الديريكتوار » والمغامرة
النابوليونية والرومانسية الباذغة كل من رفض أن يشارك فى الهوجة الإمبراطورية دون
أن يرتبط فى الوقت ذاته بالثورية اليعقوبية (الجاكوبية) ولا بتقنين الأوضاع الجديدة
الزاحفة لجأ إلى السخرية مثل بينجامان كونتسان وهنرى بال (ستاندال) .
جان - فرنسوا شامبوليون فضل أن يضحك من ذلك الزمن بدلا من أن يبكى مرغماً .

لعله احتفظ بدموعه للبكاء على أول امرأة أحبها بولين بيريا التى توفيت (بمرض
السل) فى يوليو ١٨١٣ وهى فى التاسعة والعشرين . منذ أن عرف لويز قبل ذلك
بخمسة أوست سنوات كانت عواطفه نحوها لصديقة . البورتية الخاص بها والذى لا
تزال الأسرة محتفظة به فى « ثيف » يقدم لنا وجها « جميلا » وإن كانت خطوطه غير
منتظمة وتعبير ينم عن مرح طبيعى سلس . كل ما عرف عن الشابة المتوفاة وهو قليل :
عن ضحكها وتحفظها الطبيعى ، وعن مسحة الحزن التى اجتاحتها بعد إنسحاب
« صغير » هو فى صالح صورتها الجميلة .. نراهن على أن وفاتها أثرت فى جان -
فرنسوا وكلفته أكثر من الدموع العابرة .

هل أضافت ذكرياته عن لويز ديشان بعد أن هجرها فى أكتوبر ١٨٠٩ إلى تعتيم
حياة جان - فرنسوا ؟ لم تعرف علاقة نسائية فى تلك المرحلة من حياة هذا الشاب
اللامع والمحبوب . وإذا حدث وأقرض الشعر الركيك فى صالون فوربيه على حساب
إحدى السيدات المسماه لويز وقد وصفها بأنها سمحة ومتواضعة فإنه لم يكن يقصد

بالتأكيد لويز الباريسييه وهو بالقطع لم يكن لينكرها فى وسط كهذا . ولعله أيضا قد طوى هذه الصفحة القديمة مما سمح له بالحديث عن سميتها . يقول ابن أخيه وهو دائماً متحفظ فى حديثه - فى كتابه « حوايات دفينيه » : « إن الخطاب الذى أرسله لصديقه سان مارتا لتسليمه عام ١٨١١ كان « وداعا » كله حنان ومواساة رقيقة (12) » إلا أن لهجة الخطاب المرفق تدفع إلى الشك فى أن قطع العلاقة تم بطريقة سلسة .

مع ذلك يوجد دليل أو مؤشر على أن لويز ديشان كانت تحتل مكاناً أليماً فى حياته وهذا الدليل جاء فى سياق خطاب أرسله لصديقه جوجون تاجر الكتب الدوفينى المقيم فى باريس إلى چاك - جوزيف فى ٧ يوليو ١٨١٣ يقول فيه إن « صغير » يجب أن يسافر إلى باريس لأن هذه الرحلة « ستكون قطعاً مفيدة له » . ثم يضيف : « إن السبب الذى أبقاه بعيداً قد زال . الشخصية التى تعرفها تزوجت منذ أكثر من سبعة أشهر * .. » كان الجرح إذن ما زال حياً حتى أن چان - فرنسوا كان يمتنع عن الذهاب إلى العاصمة حتى لا يخاطر بقاء لويز .. زواج السيدة قطع الطريق على خطر الوقوع مجدداً فى علاقة حب جارفة .

كان باختصار يعيش فى جرونوبل حياة أستاذ جامعة إقليمية ، محمواً بأعداد وتنظيم دروسه التاريخية الطموحة . كان يتردد كثيراً على منزل أخيه فى فيف حيث كانت أسرة چاك - جوزيف تستقبله بكل ترحاب وحنان . هناك فى غرفته الصغيرة بالنور الثانى حيث ما زالت أثار أبحاثه محفورة فى خشب السقف وفى غرفة المكتب الصغيرة حيث كانت تتراكم أوراقه وكتبه كما كان الحال فى شقته الصغيرة جداً الواقعة فوق دار كتب جرونوبل .. فى هذه الأماكن كان چان - فرنسوا شامبوليون يطرح أسئلته عن العلامات الهيروغليفية .

فى ٢٨ مارس ١٨١٠ وصل إلى چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك خطاب من سيلفاستر دو ساسى فحواه كانت من النوع الذى يمكن أن يهدم جميع آمال أخيه بل وهدف حياته كلها إذ كتب هذا الرجل العظيم يقول :

« ولازلت محتفظاً بالأثر الطيب الذى تركه لى أخوك وإنى أهيب به ألا يترك الآداب الشرقية أبداً . غير أنى لا أعتقد أنه يجب أن يبقى متعلقاً بحل شفرة نص

* كانت لويز قد تزلت فى ١٨١١

حجر رشيد . إن النجاح فى مثل هذه الأبحاث كثيرا ما يتوقف على صدفة سعيدة لا على عمل شاق يجعل الإنسان يأخذ أحلامه أحيانا أنها واقع ... » (13)

تحذير قاس كان من الممكن أن يجهز على حياة الكثيرين . لعل الشقيقين شامبوليون فسروا هذا التشاؤم بما حدث من خيبات أمل متكررة للمستشرق الكبير . إذ أنه حاول كثيرا مع النص ولأشهر طويلة فى عام ١٨٠٢ بون أن يصل إلى أى نتيجة .. مثلما حدث مع غريمه السويدي دافيد أوكربالد تقريبا . لأن أوكربالد قد نجح - حيث فشل تماماً من سبق من الرواد - فى أن يقترح على الأقل أبجدية ما وأن يتعرف على تشابه يجمع بين مختلف الخطوط المصرية القديمة . أمام كل ذلك ماذا كانت فرص الرجل الشاب فى شيف ؟

إر « السيكلوتيميين » (الذين يعانون من تناوب النشوة والإحباط) يتميزون بأن التحدي يعيد لهم النشاط . ففي حين يدفع حثهم على العمل إلى الانكماش فإن كلمات مثل تلك التى وجهها له أستاذه كانت كفيلة بأن تلهب « صغير » ، هذا الذى اعترف لأخيه فى يوم من الأيام بأنه ينوى ترك المجال الفكرى وليتفرغ لأى عمل يدر عليه مالا أكثر - ها هو شعلة متقدة مقبلة على العمل .

بعد أقل من ثلاثة أسابيع من تحذير دو ساسى له وصله خطاب من صديقه سان - مارتان يسأله عن أبحاثه فى حجر رشيد . اعترف فى رده أن إعداد محاضراته قد عطلته بعض الشئ إلا أنه أضاف : « ... على الرغم من أن ماكتبه مسيو دو ساسى فى هذا الصدد لأخى ليس من النوع الذى يشجعنى [...] إلا أنني أمل أن أعود للعمل بنشاط فى هذا الموضوع ... »

عدة عوامل توافرت حينذاك لصالح المشروع . يجب أولا ألا نهمل أهمية الجو العائلى والمحلى المحيط . فالعودة إلى چاك - جوزيف أعادت له الشجاعة . الأسباب التى أثرت سلبيا على علاقاتهما مثل شطحات تلميذ الليسية ونفقاته كطالب شح يد الأخ الأكبر وطلباته الملحة - كل ذلك إختفى . أصبحا متلازمين فى عمل واحد يجابهان الأعداء أنفسهم ، طموحاتهما واحدة . يتبادلان المعلومات والآراء : موهبة دراسة الأصول لدى الأول تقوم بتغذية العبقرية الخلاقة لدى الآخر .

كانت المكتبة - معقلهم ، وكان ملحقاً بها قسم للأكثر . كان هذا القسم بمثابة صالة التمرين الذى ينشط فيها الرياضى نفسه استعداداً لخوض مبارياته . منذ ١٨١٠ كان قد إنتهى من الكتالوج ذى الأحدى عشرة ورقة يصف فيه القطع العشرة

المعرضة . أهم قطعتين كانتا عبارة عن تابوتين (أحدهما يحتوى على المومياء الخاصة به)
أهداهما للمكتبة مسيو دو مور عشية قيام الثورة وكان يعمل قنصلا عاما فى القاهرة .
من المحتويات أيضا جزء من تمثال من الجرانيت الأسود بعض قطع أوشبتي بعض
تماثيل من البرونز ووعائان كانوب (سنعود للحديث عنهما) . . كان هذا الكنز
« الصغير » موضوعا تحت إشراف المستكشف فى عام ١٨١٠ . (14)

من المؤكد لنا أن جوزيف فورييه لم يكن لديه ما يمنحه لهذا المتحف الصغير بعد
عشر سنوات أمضاها فى جرونوبل التي ربطها إسمه وأسماء أخرى بمصر
ولكن لابد وأن الأخوين شامبوليون قد عبرا عن أسفهما لأن جان - مارى دوبوا -
أيمنه وهو يوفينى آخر من الحملة على مصر فضل أن يحتفظ بمجموعته فى ميلان وهى
إحدى ضواحي جرونوبل .

فى مجتمع جرونوبل لم يكن فورييه وفيچاك وحدهما يشجعان « صغير » إذ كان
للأب جانتال دور ملهم أيضا . وهو الذى كان مديره فى الليسيه قبل بضعة أعوام
وأستأذه فى مادة القواعد وقد إلتقيا عند المحافظ وفى جميع الأماكن التى يجدى فيها
تبادل للأفكار .

كان الأب جانتال عالم لغويات . فى شهر مايو ١٨٠١ قدم إلى جمعية العلوم
والفنون بحثا يعبر فيه عن اعتقاده أن الحروف الأبجدية « بدأت تظهر على الأرجح فى
مصر » وإن دراسة الحروف الهيروغليفية تظهرها « متشابكة مع رموز مختصرة ومع
علامات نوعية » ولابد وأن المصريين قد قادهم تفكيرهم إلى « إحلال علامات ترمز إلى
أصوات فقط محل العلامات التى ترمز إلى أشياء » . لابد وأن شامبوليون « صغير »
قد تأثر إيجابيا بهذه الآراء العميقة . (15)

توفى كلود جانتال عام ١٨١٢ بعد نشر أول نص من تأليف جان - فرنسوا
شامبوليون وهو « مصر تحت حكم الفراعنة » ... لم يعثر على أثر للرسائل التى
تبادلها مع تلميذه القديم : ولكن لا يوجد مجال لأن نشكك فى أنه أدى دورا فيما قام به
المستكشف .

حتى لو لم يعيده المحيطون به إلى موضوع اهتمامه الأول ، فإن الأبحاث التى
قادها غيره كانت كافية لأن تحمس جان - فرنسوا فهو لم يكن يتحمل فكرة أن أحدا
غيره يمكن أن يحصل على أغصان الغار ... فهى له وحده وهو الذى يستحقها . وهكذا
المحب إذا بدأ الملل يتسلل إلى قلبه كانت الغيرة كفيلة بإشعال نار حبه من جديد .

فى ذلك العام ١٨١٠ كثر الحديث بل لم يكن هناك غيره - عن نشر كتاب إتيان كاترومار الذى إستغرق تأليفه سنوات عديدة « دراسات جغرافية وتاريخية عن مصر » فإذا كان جان - فرانسوا شامبوليون لا يتحمل ولا يقبل أن يغامر أحدهم فيطأ أراضيه فإن هذا الرفض يتضاعف إذا كان المتعدى هو هذا « البوليكارب » الخبيث والمتعنت فهو يحتقره إلى أبعد حد ، وزاد حنقه عندما إمتدح دوساسى كتاب غريمه على الفور وكان دوساسى صديق كاترومار وزميله فى المعهد ويربطهما علاقة عائلية .. ما العمل فى هذه الحالة ؟ لاشئ غير إستعادة المبادرة وإفهام الوسيط العلمى أنه « المصرى » وليس أحد غيره وهو الذى يفتح الطريق وينيره ! هيا يجب رفع اللواء ...

فى ٧ أغسطس ١٨١٠ - سيبلغ العشرين بعد أربع شهور - قرأ شامبوليون الصغير ، حثا مطولا أمام أكاديمية الدوفينييه (ثلاثون صفحة من القطع الكبير مكتوبة باليد) * موضوعه « كتابة المصريين » * حدد فيه الموقف الذى وصلت إليه أبحاثه كما لو أنه أراد أن يسجل موقفه بالنسبة لمنافسيه مع علمه التام بأن نتائجه ما زالت عائمة ومؤقتة .

تحديد مواقف أو بيان رسمى .. إنه مستند أخاذ مدهش فيه يرفع جان - فرانسوا شامبوليون من جسارته المعتادة ، يوجه نقده لكليمان السكندرى وللاب أثانار كيرشار والمطران واربورتون على نفس الدرجة من الحدة الفظة فى خليط من الأفكار الحديثة العميقة والأخطاء البينة وذلك بأسلوب حي ولهجة نضالية .. من المؤكد أن مراقبيه إستشعروا وتنبؤا له بمستقبل واعد .

فى ذلك اليوم السابع من أغسطس ١٨١٠ سمعه أعضاء أكاديمية جرنوبل يؤكد أن الهيروغليفيات حروف كتابية وليست كما أدعى البعض ** أعمال نمطية زخرفية . ولكن يجب إعتبارها الشكل الأخير الذى اتخذته مختلف الكتابات المصرية ، سبقتها الكتابة المتصلة أو ديموطيقية التى هى « الأساس الأصلى لهذه المنظومة » . مضيفا : « كيف يمكن أن تكون هذه الأخيرة - كما يدعى البعض فى تكرار - تبسيطا للهيروغليفية ؟ إن فى ذلك سير فى اتجاه معاكس للتفكير البشرى » .. !!

تأسيساً على هذا التأكيد (المشكوك فيه) الخاص بسير التفكير من السهل نحو المركب ، قدم « صغير » عدة إفتراضات جديدة بالاهتمام . أن الخط الديموطيقى

* على صفحة الغلاف كان العنوان الكامل هو « الكتابات القديمة للمصريين » ، مكتبة جرونوبل

مستند ، AF no 6

** منهم الأب رونو .

الأصلى والذي كان يستخدمه المصريون فى أعمالهم اليومية يتكون من خمسة وعشرين حرفاً ، وإذا كان الخط المتصل (الديموطيقى) أبجدي فإن الهيروغليفيات تضم أكثر من ثمانمائة شكل ولا يمكن أن تكون كذلك بل هى أحادية المقطع . كما أن هذه الرموز أو الأشكال لا بد أنها تعبر عن أصوات . ولولا ذلك لما كان فى استطاعتهم أن « ينقلوا » إلى الأسلاف أسماء الملوك المصريين والأمم الأجنبية والقبائل .. « كما أن الهيروغليفيات لم تكن رسماً للأفكار » ولكن توجد كتابة رابعة - ذات طبيعة « رمزية » مكونة من رموز وأشكال وهى فى المعابد المصرية توضع فوق الهيروغليفيات « وقد أدى الخلط بين هذه الأخيرة مع الرموز إلى أن أصحاب المؤلفات الحديثة قد « تراكمت منظوماتهم فوق بعضها دون أن يخطوا خطوة هامة واحدة نحو فهم هذه الكتابة المقدسة » .

فهل قام هو بهذه الخطوة الهامة إلى الأمام ؟ إننا نراه يخطو إلى الأمام لكن سرعان ما يرجع للخلف .. نراه يؤكد أن الهيروغليفيات لم تكن حكرًا على الكهنة وإن بعض العامة كانوا يستخدمونها أيضاً وهذا مشكوك فى صحته . لكنه يخرج من هذا التأكيد غير المؤكد بفكرة مثمرة وهى أن ما دامت المنظومة أحادية المقطع فمن الممكن أن يتحلل على شكل أبجدية .

« جميع المقاطع الأحادية فى اللغة المصرية كان لها مدلول محدد » ثم يعرض بعد ذلك أن المزج بين العلامة المقطعية « المعبرة عن اليد (هو) أما العلامة المشيرة للوجه (إى) تقرأ « يعبد » . هذه التركيبية الدقيقة من مقاطع أحادية مصورة تشكل « على ما يبدو المنظومة الهيروغليفية المصرية » ثم يخلص إلى ما يلى :

« يترتب على ما سبق عن الكتابات المصرية الأربع أن واحدة كانت تستخدم فى الشئون اليومية العادية وفى التجارة ، والثانية الهيروجراماتيكية ، كانت تستخدم فى الكتابات الدينية (..) وتعرفها الطبقة المتعلمة من الشعب وكذلك الهيروغليفية التى كانت تستخدم فقط فى الكتابة على المعابد والصروح الأخرى . الكتابة المقدسة الحقيقية والتى لم يكن يفهما سوى الكهنة كانت هى الرمزية وكانوا لا يكشفون مبادئها إلا للخاصة والطبقات الأولى فى الدولة . ولم يكن السبب وراء ذلك هو خداع الشعب أو لاستعباده [..] ولكن للحفاظ على سرية حقائق عليا ليست فى متناولهم [...] بفضل هذا النظام العاقل بأن أنشأت ديانته للشعب وأخرى للمتورين [..] أن حكومة مصر لم تضطر يوماً إلى قمع المجددين وأن هذه الأرض الشهيرة لم تتلون أبداً بدماء التعصب » ..

فلسفة غربية نابعة من شباب أشيع عنه أنه (يعقوبى) (ثورى متطرف) ! ماذا إذن عن هذه « الأفكار المضيئة » المحجوزة للصفوة المستنيرة .. وماذا عن شجب « المجددين » .. غير أن أهمية كلامه لا تكمن فى الشطط الأيديولوجى إنما فى التقدم الذى أحرزه كعالم لغويات فى مجال أبحاثه « أنتقدت بالطبع عودته إلى فكرة « الرمزية » والتي أسقطها معظم الباحثين ! هذه الهفوة وكذلك الخطأ المتعلق بالتسلسل التاريخى لكتابات المصرية (من « البسيط » إلى المركب) لا يمكن أن يغطيا على إبداعية فكرته الخاصة بالمعنى الصوتى والتصورى للهيروغليفيات : فمن حدسه هذا خرجت الحقيقة .

نعم أخطأ ولكن حقق أيضا تقدما وتنشيطا لمشروعه وطرح تساؤلات طريفة . لم يترك أحد من الجمهور الذى لمستمع « للمصرى » تقريراً عن الحدث . من المتوقع أنهم تأثروا بحماس الشباب ، وتحت تأثير فيچاك وضعوا ثقتهم فى نجاح أصغر أعضاء الأكاديمية الدوفينية سنا الذى سيحتفل بعد أربعة أشهر بعيد ميلاده العشرين .

جان - أنطوان سان مارتان المكنى « بالأرمنى » كان أقرب زملاء دراسة جان - فرانسوا الباريسيين إليه . وسبق أن رأيناه يرجوه أن يئدى له دور ساعى بريد الحب لتوصيل رسالته للويژ ديشان ويفصح له عن آماله بعد أن أصبح أستاذاً فى حل شفرة مخطوط حجر رشيد . مشاغل سان - مارتان المهنية ومن بعدها مشاغله السياسية ستفرقهما قبل أن يتصادما بعنف . ولكن فى هذه الأونة التى نحن بصدها كان « الأرمنى » هو صديق المراسلة الذى يبوح له « صغير » بأسراره وهو ما أتاح إمكانية متابعة مراحل عمله بدقة وتطوره الفكرى .

الحوار بين هذين العالمين فى اللغويات يتوه كثيرا فى منعطفات لا تنتهى وفى منحنيات « قضية پوليكارب » التى سبق أن أشرنا إليها ويجب أن نعود إليها هنا ! إتيان كاترومار - تلميذ بوساسى - كان متعمقا فى اللغة القبطية كان قد نشر فى عام ١٨٠٨ * بحثا فى « لغة وأدب مصر » * ثم أعلن عن قرب ظهور « دراسة جغرافية وتاريخية عن مصر » ** وكان ذلك متزامنا مع إعداد جان - فرانسوا شامبوليون لكتابة

* كان يكبر جان - فرانسوا بثمانى سنوات .

** نشر فى ١٨١١

« مصر فى عهد الفراعنة » وهو البحث الذى كان قد عرض فكرته العامة أمام « جمعية العلوم والفنون بجرونوبل » عشية سفره إلى باريس فى خريف ١٨٠٧ . وكان واضحاً أن الكتائبين سيدخلان فى منافسة ستزداد حدة بقدر ما كان المؤلفان * ينفران من بعضهما لتصل إلى درجة الصراع المعلن .

حاول الشقيقان شامبولىون أن يسبقا كاترومار بأن ينشرا « مقدمة » كتاب « مصر فى عهد الفراعنة » على حدة . إلا أن « بوليكارب » كسب الجولة فقد ظهر كتابه فى يناير ١٨١١ أما مقدمة أستاذنا الشاب فى جرونوبل فقد طبعت فى أكتوبر ١٨١٠ إلا أنها لم توزع على الجمهور سوى فى الأول من مارس ١٨١١ . وقد عرضه ذلك إلى خطر إتهامه بسرقة أفكار غريمه فى مجمل إكتشافاته عن أسماء المدن المصرية بإعادتها إلى تسميتها القبطية أى المسموعة لأنها هى الأسماء الفرعونية - وكان هذا بالضبط مايقوله كاترومار .

استقبل جان - فرنسوا فى البداية الأمور ببساطة وكتب فى ٢٠ فبراير ١٨١١ إلى سان مارتان يقول له أن نشر كتاب « بوليكارب » تسبب له فى « خوف أكثر مما تسبب من ضرر » لأن غريمه لم يقدم سوى أسماء ١٠٤ مدينة فى حين ينشر هو ١٧٤ إسماً ثم أنه شعر براحة نفسه بعد قراءة تعليق سان مارتان المادح لكتابه الذى أرسل له منه نسخة مطبوعة لم تصحح . علاوة على أن « المقدمة »* حازت تأييد جومار ولم يكن هذا بقليل نظراً لأهميته المزوجة بصفته أحد قدامى الحملة المصرية فى ١٧٩٨ ولكونه أيضاً عالم جغرافيا وكان تأييده يحول دون تعرضه لذلك وكتب يقول لچاك - جوزيف فى ١ يونيو ١٨١١ أنه « فوجئ مفاجأة سعيدة » لما وجده فى هذا العمل « من أفكار تتطابق تماماً مع ما كتبته » وهى ستساعد « فى تكملة وصف مصر » (16) .

أما أبال نوريموزا ، دارس اللغة الصينية فقد كتب فى ١٢ فبراير ١٨١٢ إلى شامبولىون فيچاك أن أخاه الأصغر قد وضع نفسه مرة واحدة « فى مصاف العلماء المشهورين » وأنه لن يجنى من هذا العالم سوى الأذى لأنه على حق .

« على حق » ؟ الأمور ستسوء فعلاً : سيلقاستر بوساسى الذى أرسله له صغير « المقدمة » وهو يشير إلى ماتدين به أبحاثه لتعاليم أستاذه فى الكولاج دو فرانس ، أشاد علناً بكتاب كاترومار : إذن الأستاذ العلامة لم يكن مقتنعاً « بخبرته المصرية » وعليه فإنه سيثبت له « أنه يعرف اللغة القبطية كما يعرفها بوليكارب الذى لم يدرسها

* نفور جان - فرنسوا لبوليكارب هو المعروف لنا . أما نفور كاترومار فنستنتج من كرهه للبشرية

جمعاء - فبالأولى مناقسيه .

إلا سطحيا . وكتب صغير في أحد خطاياته أن الصحف « لم تعامل منافسه بنفس إيجابية نوساسي » مختتماً خطابه بقوله « إن العدو الميت رائحته طيبة » ياه !!

بعد ثلاثة شهور تفاقمت الأمور . سيلفاستر نوساسي بعد أن أرسل له خطاباً رقيقاً يشكره فيه على الكتاب ، نشر في « المخزن الإنسيلكوبيدي » تقريراً كله تحفظات عليه غضب جان - فرنسوا :

« مقاله س . دوس . فاجأنتي ولكنها لم ترهبنى . كنت أتوقع عملاً من هذا النوع ولكن لم أكن أنتظر منه أن يذكرني باستمرار بكتاب بوليكارب ويأن من الصعب أن يشتهر كتابي وسط بريق أمجاد صديقه » .

وكان ذلك إعلاناً للحرب : ضغط جان - فرانسوا على سان - مارتان ليعلن عن رأيه الإيجابي في « المقدمة » وحثه على أن « يشهر كل طاقاته ضد بوليكارب » فهو غالباً سيرث « إستبداد » نوساسي في الكولاج نو فرانس ... ثم أقتنع أخاه بأن يشن الهجوم المضاد باسمه وقام أخوه بالتنفيذ . إذ إستلم نوساسي بعد عدة أسابيع خطاب عتاب مطولاً فند فيه « مذكرته الكريمة » بدقه قاسية جداً فهو يذكر أن أخاه لن « يستعيد » بأى جديد من كتاب مسيو « ك » لسبب بسيط هو أن كتاب أخيه قدم عام ١٨٠٧ إلى أكاديميه جرونويل وأرسل في حينه إليه شخصياً - أى اساسي - كما أرسل إلى لانجلاس وجومار وفورييه . كما يؤكد جاك - جوزيف أن أخاه لكي يبرهن على « حرصه وحياده » و « عن رغبته في عدم الدخول في صراع * بأنه لن يكشف علناً » الأخطاء التي وقع فيها مسيو « ك » . ويختتم جاك - جوزيف كلامه حاداً مهدداً وهو أمر غير عادي بالنسبة لشخصية لها هذا القدر ثم يقول « إن الظلم قد يجهز على حماس أخيه بعد أن جمع مادة ثرية لدرجة » تجعله أفضل بكثير من أى شخص آخر « في مجال فك شفرة الهيروغليفية (17) » .

وبعد بضعة شهور ، سيحمل جان - فرانسوا نفسه السلاح في خطاب لسان - مارتان . إذ يعلن أن « لواء الحرب قد رفع » وأن « الوضع كاترومار يرى صولجان الشرق يهتز بين يديه » وينهى كلامه قائلاً : « إن بروتوس مثلك وكاسيوس صغير مثلي لهما أكثر مما ينبغي [..] ضد قيصر بهذا الحجم التافه [..] دع كتابي « مصر » يظهر وسيكون نقطة خلاف ممتازة نلقى بها وسط أعدائنا .. » .

إذا نحن توقفنا طويلاً عند هذه القضية التافهة عن منافسة حول من سبق من بين

* هنا السخرية تخطت الحدود .

مثقفين ، فذلك لأنها تكشف مرة أخرى عن مشاكسته العنيفة المتعصبة وعن حماسه فى الحديث ونزعتة إلى الانتقام وهو ما جعل الشقيقتين شامبوليون فرقة قوماندوز أسقطت بالمظلات وسط البرابرة - فما أن يظهر مناقض له إلا وسحبت سيوفها وإرتدت الدروع وخربوا علاقاته هكذا كان حال مشروع فك الشفرة موسوماً بصك الجدل المتعصب وسيستمر الحال كذلك فى مجال الدراسات المصرية القديمة حتى بعد رحيل العالمين . إذ إن عالم الإيجيبتولوجيا ينوء بما يدور حوله من صراعات الحساسيات الوطنية والمنافع الشخصية والتحزب الشللى ولو أن ذلك كله يحدث لمصلحة مجد الآلهة .

حرب « الجال » المصغرة هذه ضد « قيصر الصغير » لم تشتت فكر جان - فرنسوا شامبوليون فتجعله ينسى الموضوع الرئيسى وهو صراعه الشخصى مع الكتابة المقدسة . وإذا سألناه سان - مارتان عن موقفه منها رد عليه فى ١٥ أكتوبر ١٨١٢ بما يلى :

« لم أحرر بعد مؤلفى عن قواعد اللغة المصرية إلا أن خطة العمل فيه إكتملت (..) . إنى قمت بتحليل اللغة القبطية أو المصرية لدرجة أنى على إستعداد لتدريس قواعدهما لآى فرد فى يوم واحد (..) سأبدأ بأن أثبت أن الكلمة المكونة من مقطعين هى فى الأصل مكونة من كلمتين أخريين . إن هذا التحليل الكامل للغة المصرية يعطينى نون أى شك * فتاح أصل المنظومة الهيروغليفية وسوف أثبت ذلك (..) ولكن هُـس ! »

هُـس ؟ بعد خمسة أشهر أصبح باحثنا أكثر ثرثرة وأفشى لمراسله إحدى أكثر اكتشافاته أهمية منذ أن شرع فى دخول مغامرته .

« يوجد فى الهيروغليفية نوعان من الرموز .

(١) ست رموز أبجدية [..] من حجر رشيد

(٢) عدد [..] محدد من محاكيات لأشياء فى الطبيعة .. »

لقد توصل بذلك إلى ثلاثة عناصر من الحل : أولاً إن المنظومة الهيروغليفية بمختلف أشكالها موحدة (أى أنه إستبعد فكرة أن الديموطيقة سبقت الخطوط الأخرى) ، ثم أنها تتضمن حروفاً أبجدية (توصل إلى ستة منها) بالإضافة إلى رموز تصويرية ،

* أقل ما يقال عن هذه الكلمات إنها زانت عن الحد : أو أنها سابقة لأوانها فهو لن يقيمها إلا بعد عشر سنوات كاملة .

وأخيراً أن لها قيمة (فونيتيقية) (منظومة سمعية) . هل يعد ذلك خطوة هائلة إلى الأمام ؟
هى فى جميع الأحوال خطوة بالفعل .

إلا أن مطاردة الحقيقة لم تتم فى ميدان اللغويات فقط فهو يبحث أيضا فى
مجالى الطقوس الدينية والمعتقدات . متحف المكتبة الصغير كان يحتوى على وعائين
كانوبيين من الألبستر الجزء الأعلى لأحدهما عبارة عن رأس قرد والآخر رأس ابن
أوى وكان قد إصطلح على اعتبارهما رموزا للماء أصل الحياة عند المصريين القدماء .
هل هذه هى الحقيقة ؟ للتأكد من ذلك قام جان - فرنسوا فى نوفمبر ١٨١٢ بإجراء
تجربة هى الأولى من نوعها عليهما . إذ وضعهما فى ماء يغلى أذاب اللسان التحنيطى
الذى يغلفهما وهو ما كشف عن شئ ملفوف فى قطعة قماش صدرت منه « رائحة
حيوانية » .. هل هو كبد أم مخ أم مخيخ أم قلب إنسان ؟ لقد إكتشفها .. الإناء
الكانوبى يستخدم فى طقوس التحنيط .

أفضل من ذلك قوله لسان مارتان إن هذه الطقوس هى جزء من عملية محاسبية
الأرواح وأن الرؤوس التى تعلو الأوانى الكانوبية - لسيدة أو ابن أوى أو صقر أو قرد -
ترمز لصفات إلهية مثل الرحمة والعدل وروح الحياة وروح الموت . « توصلت إلى
المنظومة الشاملة له المادية والفكرية للحنيط » صرخة نصر جديدة وخطوة أخرى إلى الأمام .

فى خريف ١٨١٣ عبر له سان - مارتان عن دهشته ؛ لأن الباحث يشكك فى
الجانب « القدسى » أى المخصص للكهنة نون سواهم الهيروغليفيات - وهو ما سبق أن
أكده فى بحثه المقدم لأكاديمية جرونويل فى ٧ أغسطس ١٨١٠ - إلا أنه هنا على
إكتشافه « وأن الكتابة المذكورة تعبر عن أصوات الكلام المنطوق » رد عليه أستاذ
جرونويل :

« ما زلت أدرس نص حجر رشيد والنتائج لا تتابع بالسرعة التى أود [..]
الهيروغليفية ؟ هذا هو السؤال العظيم . لدى أفكار كثيرة إلا أنى لا أجروء على
تصديقها إلا بعد أن أتوصل إلى شئ من النجاح [..] أرجو أن تكون مسرورا من
تحفظى فى هذا المجال [..] لا يمكن أن يحذر المرء نفسه من نفسه بما يكفى [..] لقد
توصلت إلى نتيجة فى غاية الأهمية . هو أقتناعى بأن شكلا هيروغليفيا واحدا - أى
معزولا - لا يمثل أى معنى ولكنها موزعة فى مجموعات بدأت أميز بينها فى سهولة
[..] المنظومة الهيروغليفية مثلها مثل اللغة المصرية . مقطعية بالكامل ... »

معرفته باللغة القبطية كانت مفيدة له جدا . إلا أنها هنا ولو لمرة واحدة تسببت فى

تضليله وسنرى كيف كان ذلك .

فى نهاية أكتوبر ١٨١٤ ظهر له أخيراً كتاب « مصر تحت حكم الفراعنة » فى جزمين الذى هو فى الواقع كتاب عن جغرافيا مصر فى العصر القبطى . وقد عبر لسان مارتان فى خطاب له عن « سروره وإرتياحه » لأنه « أنجب طفلين بدينين قد يكون لهما بعض العيوب ولكنهما يعطيان على الأقل بعض الآمال » . و « سيجنى المرء بعض ثمار عمله » - حتى لو كانت هذه الثمار محاطة ببعض الأشواك . اعتباراً من ٤ مايو ١٨١٤ كان نابوليون منفياً فى جزيرة إلبا ولويس الثامن عشر فى مقر التويلورى - فى حين كانت جرونويل - ولأول مرة فى تاريخها الحديث - قد عانت من آلام الاحتلال الأجنبى للقوات المتحالفة النمساوية الساردية . أقل ما يمكن أن يقال هنا هو أن عودة آل بوربون إلى عرش فرنسا لم تكن من ناحية المبدأ لتروق للشقيقتين شامبليون وبالنسبة للشقيق الأكبر فعلى الرغم من بعض الأخطاء التى ارتكبها مؤخراً فإن حياته العملية بأكملها بدت مرتبطة برجال وبمؤسسات الامبراطورية أما بالنسبة للآخر فلأنه جمهورى من قمة رأسه لأخمص قدمه .

ومع ذلك فإننا نلاحظ أن أزمة النظام الامبراطورى ثم إنهاؤها لم تثر قلق لهذا أو ذاك فلا يوجد فى مراسلاتهما سوى آثار قليلة نسبياً عن هذه الأحداث الرهيبة : كل شئ يشير إلى أنهما عاشا الكارثة الوطنية أو الشخصية على أنها عقاب على الأخطاء التى ارتكبها النظام الامبراطورى وعلى تجاوزاته .

من جهة أخرى نجد توقيعهما أسفل خطاب لجهاز الأكاديميه لمدينة جرونويل نشر فى ٢٧ أبريل ١٨١٤ يؤكد أن فيه تشييعهما لنظام آل بوربون الجديد ويعلمان عن أنهما « يعبران عن عظيم تمنياتهما لسليل فرنسوا الأول النبيل الذى سيحافظ على ازدهار العلوم والفنون كما أنهما يحيطان بكل الحب صاحب الجلالة حفيد الملك الطيب هنرى الذى سيعيد إلى الأمة السلام والسعادة » .

لم تكن الفترة من ١٧ إلى ٢٠ أكتوبر عندما قام « السيد » الكونت دارتوا شقيق الملك ورمز عودة « المتطرفين » بزيارة لجرونويل سوى سلسلة من الاحتفالات ولا نجد أى أثر لإستنكار الأخوين ، أما فوربيه فقد وقع على التعليمات الآتية لمعاونيه : «... ثلاث ساعات قبل مرور الأمير [...] يجب أن تكون الحشود ضخمة جداً

[..] لاشك أن رجال الدين سيتدافعون للإعراب عن تحياتهم [..] يجب أن تطلبوا منهم أن يساندوا أراغنا وأن يتجمعوا بملابس الاحتفالات على شكل مسيرات في المكان والموعد المحددين [..] ستعلنون اللافتات مكتوب عليها الشعارات مزينة بزهور الزنبق * (..) الأعلام التي سيحملها السكان سيكون لها أفضل تأثير . سيحملها رؤساء المؤسسات أو الشباب . يجب أن تعلو الهتافات من كل جانب . ويجب أن نسمع هذه الهتافات « يحيا موميو » و « يحيا الملك » و « يحيا النوق دانجولام » « تحيا مادام » و « يحيا آل بوربون » .

هل كان هذا التأييد مفاجئاً ؟

بالنسبة لچاك - جوزيف كانت الأمور بسيطة بعض الشيء : كان مغضوباً عليه منذ بضعة أشهر أو على الأقل في حالة عدم وفاق مع السلطات الامبراطورية بعد وفاة دويوا فونتانال في ١٨١٢ أصبح هو عميد كلية الآداب وكبير أمناء ومدير المكتبة إلا أنه قد فشل أيضاً في أن يعين مفتش عام التعليم مثيراً في هذا الصدد تكتلاً مناهضاً له . وقد كشف ذلك عن أن نجاح الشقيقتين أثار أحقاداً حادة وعلى الأخص غيرة سكرتير فوربيه وإسمه لوياسكييه . والأسوأ من ذلك أنه كان قد خسر في ١٨١٢ مركزه المحبب والذي كان يتمسك به جداً وهو رئيس تحرير « حوليات الإيزار » .

لماذا ؟ لأنه سمح بنشر بعض الأخبار دون أن يعرضها على الرقابة تؤكد الخسائر الفادحة في الرجال التي تتسبب فيها الحملات الحربية الامبراطورية وخاصة في أسبانيا - كما لو أن هذا التأكيد لم يكن معروفاً للكافة . فصدر مرسوم من المحافظ (في غيبة فوربيه بالمناسبة) يفيد به أنه حرم من وظيفته ؛ لأنه نشر « معلومات ضارة »⁽¹⁸⁾ ، وقد أكد المحافظ بعد ذلك بنفسه على القرار في تقرير قاس رفعه للوزير .

لم يفقد فيچاك بذلك وظيفة هي من أهم عوامل سلطته فقط .. بل لعله كان قد خسر أيضاً راعياً له وصديقاً وعلى أية حال كانت علاقاته بالمحافظ قد تدهورت قبل إقصائه عن منصبه في عام ١٨١٢ . هل نبحث عن أسباب هذا التحول في نوع من التنافس الأدبي ؟ مهما كانت طيبة الرجل الذي كان أميناً عاماً لمعهد مصر فهو لم يكن ليقبل بسهولة أن تكون مقدمته العظيمة مدينة بهذه الدرجة لشابين مقربين جداً منه تعاونوا معه في العمل فلعلهما يعلنان في يوم من الأيام أبوتهما له بأكمله أو على الأقل

* شعار أسره البوربون (المترجم) .

نسب العوامل المجددة فيه لهما. إذ ليس من السهل أن تسامح أحداً على ما قدمه لك من خدمات بشكل معلن ولامع أكثر من اللازم .

فى أيدينا شهادة عن هذه الأزمة وما إنفعال چاك - جوزيف إزاءها متمثلاً فى خطاب حرره فى بداية ١٨٢٣ موجه لفورييه وهو ينضح بالضغينة ولهجته حادة جداً .

« أحد أساتذہ الأكاديمية [...] يردد منذ ستة شهور أنكم أوصدتم بابكم أمامى [...] وأن شعوركم نحوى قد تغير [...] اعترف إن الاشاعة [...] جعلتنى أكثر خبرة فى علاقاتى معكم [...] لقد تمت الوشاية بأحد أفراد أسرتى * فى باريس عن أفعال لم تحدث وهى غير صحيحة بالمرّة بقدر ما هى خطيرة [...] فى زمن آخر كنتم عبرتم لى عن عظيم كرمكم بأن تفاتحونى بشئ عنها . [...] إلا أننى لم أحظى بمثل هذا التعبير عن ثقّتكم بى .. » .

ويختتم فيچاك بلهجة كلها مرارة وتهديدية : « وبناء على ذلك فإننى على يقين ، يابسيدي ، أنكم لن ترفضوا لى (أ) استعادة الصحيفة اعتباراً من ١٥ أغسطس ؛ (ب) أن تعيدوا لى مجلدى ** كتاب شقيقى والذين كانا مرسلين لباريس [...] إنى فى انتظار شرف الحصول على رديكم بفارغ الصبر (19) » .

هل حاول فورييه أن يسئ لسمعة شريكه المجتهدين الجرونويلوازين « هذا ما أوحاه لهما سان - مارتان . وأيده هيرمينى هارتلوبان (20) . العودة السريعة للعلاقات الطيبة بين المحافظ وفيچاك وعلى الأخص فى فترة المائة - يوم *** ، ثم الوصف الإطرائى الذى قدمه الأخير عن المحافظ بعد ذلك بعشرين عاماً يوحى بأن فورييه كان يعمل على ألا يعرف أحد فى باريس نور الشقيقين شامبوليون فى تأليفه لكتابه وإن عملية تشويه سمعتهم لم تذهب إلى أبعد من ذلك .

رأينا كيف أن سياسى ولانجلاس لا يحتاجان لآى تحذير من علو شأن الشقيقين فكراً وإجتماعياً . الموقف الذى سيتخذه سان مارتان فيما بعد يلقي بالشك حول صدق تحذيراته : فهل كان يستعد لأن يثير لهما ظهره قبل أن يتحول إلى العداء العنيف وإلى المضايقات المستمرة لهما ؟

* هل كان المقصود هو : جاك شامبوليون ؟

** « المقدمة » التى نشرت فى ١٨١١

*** التى أمضاها نابليون فى فرنسا بعد هروبه من منفاه فى جزيرة ألبا مارش (١٨١٥) وهزيمته ثم

العودة إلى منفاه البعيد فى جزيرة سانتيلان فى ٢٢ يونيو ١٨٠٥ (المترجم) .

إذا كان للشقيق الأكبر أن يتعلل بمشاكلة الأخيرة مع السلطات ليصور نفسه ضحية لنابليون معللاً بذلك مشايعته لأسرة البوريون فإن الأخ الأصغر لم يخف قط ميوله الجمهورية وكان معروفاً بعدائه المعلن لرجال الكهنوت والمتطرفين فإن موافقه كانت ومنذ سنين طويلة تحركها مناهضه متنامية نحو النظام الإمبراطوري .

اعتباراً من ١٨١٢ تمتلئ خطابات بنقد حاد لمغامرات نابليون العسكرية سواء في أسبانيا أو في روسيا . وكان ينقل باستمرار لأخيه الإشاعات المتشائمة للغاية والسلبية جداً بالنسبة للآلة الحربية الإمبراطورية ومثال ذلك كتب جان - فرنسوا في خطاب غير مؤرخ ويمكن إرجاعه بالنظر لما ذكر فيه إلى أوائل ١٨١٣ أن الإمبراطور نابليون وهو في طريقه لإيطاليا وظهر « وقد أبيض شعره خلال الحملة العسكرية الأخيرة » .. بعد ذلك ببضعة أشهر تحدث عن لقاء بين الإمبراطور وبعض الشخصيات من « مدينتنا الطيبة » أعلن نابليون خلاله أنه سوف يوقع قريباً على إتفاقية فيينا وتعليق جان . فرنسوا « إما أن الإمبراطور مجنون أو أن الاشاعة كاذبة . وهذا المقطع الأخير من إفتراضى يبدو لي الأكثر صدقاً » (21) .

ثم بعد ثلاثة شهور نقل صغير لأخيه إشاعة تؤكد « أن الروس وحلفائهم نجحوا في عبور نهر الراين في ثلاث نقاط مختلفة أما في نابولي فإن الملك مورا في حالة يأس وفي البيمونتي الشعب مناهض لنا تماماً . الويل للمهزومين ! » بعد بضعة أسابيع أخرى ، علم الأستاذ الشاب لمادة التاريخ بجامعة جرونوبل أن « الحكومة تتوقع أن يتم غزو الإمبراطورية وأنها تفعل كل ما في وسعها لتجعل الشعوب تنثور » .. ولكنهم « اعتقلوا أنهم إذا هزموا الفكر العام سيكونوا أمنين [..] فقضوا عليه وسيصبحوا قريباً ضحايا جريمتهم » .

اختصار تاريخي جميل يعطينا شرحاً مسبقاً لسلوك جان - فرنسوا شامبوليون أثناء عهد « عودة الملكية الأولى » .

هذا الجمهوري لم ينضم أبداً للعهد الإمبراطوري بشكل حقيقي . فقد خشى وهو لا يزال مراهقاً بل أنه خاف لدرجة الهلع من أن - يجند في « الجيش الكبير » (جيش نابليون) . وهو كمواطن يكره التسلط وكمؤرخ يشجب روح المغامرة البونابارتيه : ماهو الحكم الذي يمكن أن يقاوم المد المعاكس إذا هو امتد من قادش (أسبانيا) إلى موسكو ؟ وكانسان يمقت سلسلة نزيف الدم التي تؤدي منذ خمسة عشر عاماً ببلاده وأوروبا كلها إلى حالة من الانهالك الكامل وهو ينضم في ١٨١٤ إلى العدد الهائل من الفرنسيين الذين لم يكن لهم سوى هتاف واحد « كفى » وهو لذلك يحيى السلام في ٣١ مايو وهو يشعر « بسعادة رهيبية » .

عدة أسباب دفعتة إذن إلى عدم استقبال النظام الجديد بموقف عدائي خاصة وأنه يؤكد على دستوريته وعلى أنه سيحتفظ « بمكاسب الأمة » ، ولكن هذا لا يعنى عدم تعلقه بالجمهورية . وهذا هو السبب الذى سيؤدى به تصرفات غامضة جدا - فهو أما يصبح انتهازيا كأخيه وفى أحيان أخرى يدفعه إلى أن يعلن ولاعه بتفعية ساخره مثل تاليران .

وبالفعل ما أن وصل آل بوربون إلى قصر التويلورى إلا وكان فيجاك يهرول إلى باريس : وهدفه أن يجنب كليته الجامعية مصير المؤسسات الامبراطورية الأخرى وأن يحافظ على سمعته الشخصية ولعله أيضا يستعيد صفته الصحفية .

على مستوى وزير الداخلية مونتيسكيو فقد طالبه چاك - جوزيف بأن تتولى « حكومة وصاية » تصحيح « ظلم الحكومة السابقة » . كان فونتان لايزال محتفظا بمنصبه (وفورييه أيضا) واستعاد لقبه الرنان « ماركى » وقد طمأنه على مستقبل جامعة جرونويل ورشحه لأن ينتخب عضوا منتسبا لأكاديمية الآداب وجعله ينال وسام الزنبقة . مما أثار سخرية أخيه والذى لقبه رفيق أو لبس مضيافاً « تذكر أنهم هلكوا جميعا » ثم حذره أيضا من الأوهام التى يغرقه فيها أصدقاءه الباريسيون . إنه يستشعر فى « رعب مخيف » إعلان عودة نوى الأربية « السوداء » (المتعصبين للكنيسة) مما سيدفع « العلمانيين المساكين إلى إعلان توبتهم » ومثال ذلك ما كتبه لأخيه فى ٣٠ يونيو ١٨١٤ فى بيتين من الشعر .

« لأنى أعرف إلا عييبهم وتخيلاتهم المقدسة فىا صديقى أخشى الرداء الأسود ولاشيئا آخر.. »

ويضيف موضحاً « تأكد أن الآمال الطيبة التى يعطونها لك ليست سوى الهوى التام الذى يسبق عادة العاصفة ... »

ثم يضيف فى مرارة :

« إن الباريسيين هم باستمرار أسوأ أوغاد أوروبا . إنهم كالكلاب مستعدون دائما لتحية أول جيفه تصادفهم [...] إنهم يسعون إلى إنقاذ أنفسهم ، هذا كل ما فى الأمر [...] [ثم كتب فى ١٥ يونيو ١٨١٤] : لا مهما حاولت أن تطمأنتنى على حالة الجامعة فأنا أنظر إليك على أنك مؤقت فقط . إن رجال الدين وقد أصبحوا فى كامل سلطانهم لن يتركوا من بين أنيابهم فريسة ظلوا يفترسونها بأعينهم لمدة عشرين عاما (..) أما أنا فمصيرى واضح مثل ديوجين سأسعى لشراء برميل .. »

إنضواء چاك جوزيف تحت لواء النظام الجديد أثار بسخطه :

« .. لقد أسأت التصرف جداً . لا يوجد سبب واحد يدفع لأن تفعل ذلك .. إنى لم أعد أعرفك أنت الذى يتعالى بكل تعقل فوق الرذيلة والغرور والإدعاء [..] إننا لسنا على إتفاق فى ذلك وإنى أتوقع بكل أسى أن الحال سيظل هكذا بالنسبة لأمر آخرى كثيرة إننا لا نتشابه كثيراً فيما يتعلق بالأراء يا صديقى ، وبما أنى تربيت على يدك وبجانبك ولكنى أيضاً مختلف عنك من الأساس ولعل ذلك راجع إلى الطبيعة .. وعلى الرغم من أن بوافعنا كانت تأتينا فى أحيان كثيرة فى اتجاهات عكسية فإنى أرجو ألا ينتج عن ذلك أبداً نقاش أو غضب ... » (22) .

تشدد محمود ولكنه وقتى فبعد أيام قليلة سنرى صديقنا جان - فرنسوا « تحول تماماً ودخل مذهب » الواقعية :

« تقرب بقدر ما تتمكن من مسيو دو شوازل * .. ولا تنسى أن أى كونت أودوق يحتاج « لزراع يمنى » وأنهم لا يفعلون عادة شيئاً بأيديهم لأن رجلاً من الطبقة الثالثة يرتفع إلى حيث هم ويتسلل تحت عباءاتهم ويحركهم طبقاً لهواه وذلك فيه ما يرضى الجمهور [..] يمكنك أن تكون هذا الرجل ملهم مسيو دو شوازل صانع كل شئ الذى يحتاجه الكبار دائماً . الزمن موات [..] ستجد نفسك على خشبة مسرح تليق بك . إن دماغك يمكنها أن تقود سفينة وزير ، إنها موهبتك وأنت لن تتنفس بحرية وبسهولة سوى فى هذه الارتفاعات . وعندما لا تهب الفرصة نفسها يجب إغتصابها [..] يجب أن تعلم أنك إذا أردت أن تتركب عربة الوزير فيجب أن تبيت فى قصره (23) . » .

هل عرفنا « صغير » أم أننا كنا نعتقد ذلك فقط ؟ هذه السطور الغريبة تظهر لنا أن « كاسيوس الصغير » تحول إلى ماكيافيل ، إلى موسكا إلى أب هيريرا ، إلى فوشيه ! أنت محير يا جان فرنسوا ، مختلف ومتعدد جداً ، وتعيش ليومك جداً ، تتفعل بسهولة وتلقائى جداً ولكنك تتحول بسهولة مفاجئة : إنك خليط من الفارس المغوار والفلاح الدوفينى القلق على إدخال محصوله إلى المخازن وعلى جز صوف خرافه ...

كانت عودة الملكية الأولى موسم الحيرة السياسية فى حياة شامبوليون الصغير إلى جانب فترة ظهور الانتهاز - التى لمحناها مرتين أو ثلاثاً فى شخصيته « الشرقية »

* بوق دو شوازل - جوفار من مرتادى صالونات جرونويل ، رشحته الاشاعات ليكون أحد وزراء المستقبل .

ذات الدم الحامى والرأس المتحير كما كان هناك أيضا موسم تحول عاطفى سيكون له أثر عميق فى حياته كلها . كان يحاول نسيان لويز نيشان . وكانت بولين بيريا قد توفيت كما علمنا فى يوليو ١٨١٣ . ولم تمر بضعة شهور قبل أن يتقدم لخطبة روز بلان المسماه روزين وهى ابنة أحد أعيان المدينة وعلى صلة قرابه بعائلة بيريا : وهو يعمل فى صناعة القفازات وهو ما يعنى الكثير فى مدينة جرونويل .

إلا أن طلب العريس ظل دون رد لفترة طويلة فهو لا يلقى قبول صاحب مصنع القفازات . يعطى يد ابنته إلى مدرس عمره ثلاثة وعشرون عاماً لا يكسب سوى ٧٥٠ فرنكا فى الشهر !! وعلاوة على ذلك فإن سمعة الشاب ليست جيدة فى الأوقات الحالية .. إذ يقال أنه يصادق الأب جريجوار . هذا اليعقوبى (جاكوبى ثورى) عضو سابق فى الجمعية التأسيسية ومحامى تحرير اليهود والمستعمرات بل إن البعض يؤكد أن جان - فرنسوا ضالع فى محاوله هجوم بالقنابل فى أثناء الزيارة التى قام بها دوق دانجولام أخو الملك لجرونويل .

ولم يكن نشر كتابه « مصر فى عصر الفراعنة » حتى لو أهداه إلى الملك لويس الثامن عشر فى شهر أغسطس ١٨١٤ - ليغير من رأى صاحب المصانع : لا هذا النشر ولا هذا الاهداء قد ظهر على صفحات « حوليات جرونويل » التى أصبحت الآن فى يد أعداء آل شامبليون .. أما الطامة الكبرى فهى أن چاك - جوزيف الواعى الفاهم الوصى الذى لا يخطئ لايساعده فى مشروع زواجه بأنسة يراها تستحق أن تشارك أخاه مستقبلة العظيم .

المستقبل العظيم ؟ جان - فرنسوا يرى أن جيبه خال ومرتبته الشهرى بسيط والمجتمع العلمى متخوف للغاية منه وأن نجاحاته فى مشروع فك الشفرة ليست بالوضوح الذى يدعيه فى حين أن دكتور يانج المشهور جدا (سيكون له دور رئيسى فى بقية قصتنا) يعلن فى لندن أنه يتقدم نحو فهم الكتابة الديموطيقية * . وأن وضعه فى جرونويل أصبح مهددا بوصول أعدائه اليمينيين المتطرفين و « الجيزويت » إلى السلطة وهو فى النهاية يتألم بسبب إزراء كلود بلان له . فهل أصبح على شفا اليأس ؟

* انظر على وجه الخصوص فصل ١٠

كلا ! إذا كان كتابه « مصر » لم يلق بالفعل تأييد نوساسى إلا أن صديقنا عالم اللغويات لا يزال يحتفظ بأعصابه هادئة .

« قرأت متلهفا ملاحظات أستاذى الكبير على الجزء الأول من كتابى ، وإنه لمن نواعى سرورى ودهشتى أن أرى أن المفتش الأعظم لم يجد سوى أربع قشاش ليحرقنى بها حيا » . بل وسنرى جان - فرنسوا ولو لمرة واحدة رجب الصدر . فعندما قال عالم اللغويات الألمانى هامر عن كتابه فى « المخزن الانسيكلوبيلى » « إن مسيو شامبوليون قد سبق بكثير السادة نوساسى وكاترومار » أرسل « صغير » خطاباً لسان مارتان يقول له فيه إن ما فعله هامر هو « حجر الدب » ويخلص إلى : « لعل هذا يفسر القسوة التى كتب بها أستاذى العظيم خطابه الأخير . هذا هو حال الدنيا ! » .

إذن لم تكن بداية كتاب « مصر فى عهد الفراعنة » سيئه فى الوسط العلمى .

إلا أن أحداث الفصل الثانى من المسرحية لن تجرى بين علماء اللغة : ستصبح قصتنا معاصرة للغاية

٦ - الغول وزهور الزنبق

« نابوليون وصل إلى فريجوس ! » الامبراطور فى فندق لى تروا بوفان - عهد .. « له نصف إسمى » - سأنشر قواعدك اللغة القبطية .. - جان - فرنسوا مؤيد بوناپارتى حديث - أول حوار مع يانج - واترلو - « انقذ نفسك أولا » - الكازينو ... - القاموس والذئاب - نخب الجمهورية - بؤرة اللوشايات - « أريد أن أكون مسجل عقود ! » - الأخوان شامبولىون ، رجال خطرون - مطربون ! - هيا خروجاً ، إلى فيچاك .

بنهاية شهر فبراير ١٨١٥ إنتشرت فى البلاد مهمة ثقيلة مناهضة لنظام آل بوربون العائد للسلطة . والتذمر يصبح أكثر حدة وصخبه أعلى فى منطقة - تقاوم على الدوام أى استبداد مثلما هو الحال فى الدوفينييه . استلم عدد من شخصيات جرنويل المرموقة عن طريق البريد رسالة جاء فيها أن الشعب الفرنسى « سوف يستعيد حريته فى الأول من مارس ١٨١٥ فى الخامسة صباحاً ».

لم يتلق الشقيقان صورا من هذه الرسالة مما يوحى بأنهما لم يكونا أو بالأحرى لم يعودا معتبرين من البوناپارتين . إلا أنهما أحيطا علما بالرسالة ولذلك أمضيا الأيام الأخيرة من فبراير فى توتر كبير .. لكن ما هذا الذى يحدث ، مرّ الأول من مارس بون أن يحدث ما يؤكد ما جرى إعلانه للبعض وجاء الأحد ٥ مارس

يحكى چاك فيچاك فيقول : « فى الصباح الباكر جدا من ذلك اليوم أيقظنى شخص من أقرب المقربين لى من داخل دار جاك - فوربيه لينقل إلى نبأ نزول نابوليون على شاطئ مقاطعة بروفانس وأفاد بأن الذى نقل له هذا الكلام وصله من الخادم الشخصى للمحافظ . وأن هذا الأخير قرأ بنفسه البرقيات التى وصلت إلى سيده حول الموضوع من المحافظات المجاورة وجدها فى جيوب سترته وهو يقوم

بتنظيفها . أسرعت إلى بيت أخى لأخبره بأن أحداث التاريخ ستتم أمام أعيننا وأننا سنلمس بأيدينا ما سيخط على صفحاته ويظل فيها إلى الأبد ... * » .

عشية ذلك اليوم سلم أحد سعاة البريد بالفعل المحافظ برقية من زميله محافظ منطقة « القار » مؤرخة من فريجوس فى ٢ مارس تفيد « بنزول بونابارت إلى شاطئ خليج جوان وأنه متوجه إلى جرونوبل » قام قورييه على أثر ذلك بتوزيع اعلانات ألصقها فى أنحاء المدينة يحدث فيها المواطنين على إحترام « حكومة صاحب الجلالة » وعلى « الحفاظ على الممتلكات » والتعبير عن « إستيائهم العام » ثم أرسل تقرير إلى باريس مؤكداً أن السكان « فى غاية الغضب » وأن « لا أحد يناصر بونابارت » .

لم يكن هذا هو رأى فيچاك ففى رأيه « أن النبأ استقبل بارتياح عام [..] واعتبر الغزو الامبراطورى ** عملية إنقاذ جديدة ... » على الأقل فى جرونوبل . لأنه كان قد جرى إعداد المدينة لى تكون رأس جسر لإعادة البونابارتية للسلطة : إذ قام أحد التجار الشبان وإسمه دومولان بزيارة قبل فترة قصيرة إلى جزيرة إلبا كما أن الطبيب الجراح لفرقة الحرس وهو من مواليد جرونوبل - دكتور إيجرى كان قد غادر الجزيرة فى نهاية فبراير ليقيم اعتباراً من ٥ مارس فى ضواحي مسقط رأسه *** .

فى الأول من مارس أصدر نابليون من فريجوس إعلاناً يؤكد فيه أنه سيمضى فى طريق الثورة وأنه راعى حقوق الانسان والأمة . وصل مدينة دىنى يوم ٤ وجاب فى ٥ وإلى مدينة لأمور فى مقاطعة نوفينييه ليلة ٦ ، ليواجه يوم ٧ « لافريه » وفرقتة الخامسة وكانت أول تشكيل عسكرى أرسل لإيقافه ولكنه أعلن إنضمامه تحت لواء نابليون بعد بضع كلمات أضحت شهيرة . وحدث الشئ نفسه بالنسبة للواءين ١١ و ٧ بقيادة لابيوايار ، وكانا منتشرين للدفاع عن جرونوبل ... وهنا نترك الكلام لشامبوليون فيچاك :

* السطور التالية مستوحاه إلى حد بعيد مما جاء فى كتاب حـ حـ د . شامبوليون - فيچاك فى كتابه

«قورييه ونابليون والأيام المائة»

** لاحظ غرابة التعبير .

*** ترتب على ذلك أنه طورد دون هواة بعد هزيمة واترلو

« رأيت من شرفة متحف المدينة مرور الكتيبة وعلى رأسها عقيدتها .. وبعد أن إصطفت كلها فى الشارع بدأ هتاف « يعيش الإمبراطور » يتصاعد .. جرى الجنود بالخطوة السريعة ، ارتفع العلم نو الألوان الثلاثة * وأصبحت الكتيبة تحت لواء الإمبراطور [..]

« ومع اقتراب هبوط الظلام ، أصبح وصول الإمبراطور مؤكدا [..] وكان المحافظ والجنرال قد إستنفذا جميع الوسائل وكل سلطاتهما منذ الظهيرة . لم يكن العلم الأبيض مرفوعاً سوى فى قلوب بعض الأوفياء له وكانوا قد تفرقوا بأراداتهم . كان يكفى أن يطلق رجل واحد كله تصميم طلقة رصاص واحدة على العلم ذى الألوان الثلاثة ، ولكن هذا الرجل لم يوجد ** .

« حوالى التاسعة ، تقدم الإمبراطور وهو على جواده وحده تقريباً وبشخصه نحو الباب الموصد ودق عليه بعلبة الدخان التى فى يده وهو يقول بصوت مرتفع : « إفتحوا .. هيا ! افتحوا .. إنهم لايفتحون ! .. » وعلى الفور إنهار الباب تحت الضربات التى توالى من الداخل والخارج ؛ وبعدها ذهب نابليون محمولا بأموال من الحماس الشعبى إلى فندق « لى تروا دوفان » الذى يديره دليل سابق فى الحرس القنصلى *** وكان محل إقامته معداً مسبقاً . ورأيته يمر عن قرب فى الميدان ، تغطى معطفه الرمادى زيه العسكرى . لم يتوقف هتاف « يحيا الإمبراطور » سوى لفترات قصيرة وهتاف أحد رجال القضاء الواقفين إلى جانبى « يحيا الإمبراطور مع الحرية ! - فأجابه الإمبراطور على الفور نعم ! وهو يدير رأسه ناحيتنا ، نعم ! تحيا الحرية ! » كنا واقفين على يمينه .

« نزل الإمبراطور فى « فندق لى تروا دوفان » مع الجنرالات بارتران دروه وكامبرون ، واحتل الدور الأول المطل على شارع مونتورج وعلى حديقة المدينة وهو قصر بسيط للغاية وأثاثه قديم وأكثر بساطة .. » أما فوربيه فقد غادر جرونوبل ، قبيل دخول الإمبراطور بلحظات تتقاذفه تعهداته والنداءات التى لاحقته وعدم ميله للاستبداد وإعجابه فى نفس الوقت بالانسان الفذ الذى أعطاه الكثير .

* علم الثورة الفرنسية أزرق ، أبيض ، أحمر أيضا أما علم الملكية البوربونيه فهو أبيض وبه زهرة الزنبق [المترجم] .

** عن هذه الأحداث كتب الجنرال قائد الجيش الملكى فى جبال الألب إلى جانب بوق وانجولام : « العجيب هو أن نبيلاً واحداً من نبلاء النوفينيه لم ينضم إلينا » .

*** ثم الإمبراطورى بعد أن أصبح بونابارت القنصل نابليون الإمبراطور [المترجم] .

« ويقول فيجاك : » خرج فوربيه من جرونوبل لخدمة الملك إلا أنه لم ينسَ مع ذلك ما يدين به للإمبراطور . ودفعهما إلهام سليم إلى أن يفترقا ، وأن يؤدي كل منهما التزاماته الفردية - وفي الوقت الذي كان يستعد للسفر على عجل كان فوربيه يعيد ترتيب دار المحافظة طبقاً لذوق الإمبراطور إذ كان يعرفه جيداً - فقد كان يتصور أن المسافر البطل سيقوم فيها * .

إلا أن الحماس لم يفتر حول فندق « لى تروا بوفان » بل أخذ يتضاعف وكلمة سمحت له الفرصة في الفترات التي تفصل بين توقيعه على المراسيم التي تثبت أنه يحكم الإمبراطورية كان يخرج لتحية الجماهير المحتشدة التي جاءت تقدم له « شظايا باب المدينة الذي اقتحمه بعلبة دخانه... » عودة إلى الأساطير !!

نعود إلى نص چاك - جوزيف شامبوليون فيجاك :

« في اليوم التالي ٨ مارس ذهبت مع بعض أفراد عائلتي إلى شرفة حديقة المدينة لنرى نابليون عندما يطل من إحدى النوافذ المطلة على الحديقة ولدى عودتي إلى المنزل .. في حوالي التاسعة - علمت أن ضابطاً من المدفعية حضر مرتين موفداً من الإمبراطور ليطلب منى الذهاب لمقابلته شخصياً » .

هرول فيجاك إلى دار البلدية ليأخذ رأى شارل رونولون صديقه الذي انضم منذ البداية للقادم الجديد . وهناك أعلمه العمدة أن نابليون طلب منه « أحداً يساعده في إدارة مكتبه وكتاباته » فاقترح اسمه - وأضاف « وعندما كتب نابليون إسمه قال : إنه فال حسن . يشترك أسمانا في مقطع كامل » ** فأسرع إلى حيث كان مطلوباً « تم إعلامه بوصولى وبخلت على الفور . وكانت غرفة الانتظار مكتظة بمن فيها .. »

هنا يسمو أسلوب « عميد كلية الآداب » ليصل إلى مستوى كاتب التاريخ . ولذا وجب نقل ماكتب بالنص :

* اتجه المحافظ إلى مدينة ليون حيث أرسل نابليون إليه مندوبين . لماذا ؟ وإذا بالهارب يعين في ١٠ مارس محافظاً لمنطقة نهر الرون .. لم يكن فوربيه يريد هذه الترقية .. وهو أقل ما يمكن أن يقال عن ذلك : فهو لم يفكر سوى في الوصول إلى باريس ليعود إلى أبحاثه العلمية وهو ما سيفعله بعد قليل . وسرعان ما علم أن فيجاك قد توسط له لدى الإمبراطور في ٩ مارس (انظر بسيتي ذكره لاحقاً) ولذلك كتب له في ١٨ مارس خطاب شكر وعرفان يعرب له فيه عن أمله في أن يرد له جميله يوماً في ظروف مختلفة . وبذلك انتهى الخلاف الذي حدث بينهما في ١٨١٢ وطواه النسيان .

** شامبوليون ونابليون .

« [...] منضدة للكتابة بجوار المدفأة ؛ فى مواجهتها وضعت أريكه كان يجلس عليها الامبراطور ولكن فى اتجاه إمتداد الأريكة مواجهها الباب وظهره للشباك . ممدا ساقه اليسرى على مقعده وقدمه اليمنى على الأرض . قام وتوجه نحوى وقال لى بصوته المتلون والأخاذ وتميزه بعض المقاطع ذات اللهجة الأجنبية : « أنا سعيد برؤيتك ! قيل لى عنك أنك من الشخصيات المحترمة فى هذه المدينة وذات المبادئ المعتدلة . وهذه نوعية الرجال الذين أود أن أحيط نفسى بهم فى المستقبل . يجب أن نشرح للشعب الأسباب التى أدت إلى عودتى . لولاي لعرفت ثورة جمهورية . إن آل بوربون لم يعرفوا فرنسا وإنى مقتنع تماماً اليوم أن قدرها لا يمكن أن يتحقق سوى على يد حكومة ليبرالية .. » .

« ولما كنت غير مطلع على أصول إتيكيت القصور وغير متأثر بضعف جلال المكان الذى كنت أحدث فيه الإمبراطور الذى لم أكن عرفته قط ، قطعت حديثه ورأيت نفسى مندفعاً بهذه الكلمات القاسية » إذا كانت هذه هى الشروط يامولانا فإن فرنسا ستكون عند قدميك « لفظة » إيه ... « ممتدة خرجت من وجه المكفهر ومن فم غاضب لم تنفتح شفتاه سوى من جانبه الأيمن على الفور حذرتني من كسرى لقواعد هذا الإتيكيت ، إلا أننى لم أراجع لأقتناعى على الفور بأن تكرارى لهذه الكلمات سيجعل منى رجلاً غير مهذب ولكنه ليس متعطرساً . فرددت جملى بقوة بعد أن غلفتها مع ذلك بهذه الحيلة الخطابية التى لم تكن جديدة على الإطلاق إذ قلت « لقد سمحت لنفسى أن أقول لجلالتكم ... » دون أن أرفع منها الكلمة المنتهية فى قلة الألب « شروط » . هزة رأس واكبت كلمة « نعم » قالها بحدة [...] واستعاد العائد حديثه قائلاً : « أريد رجلاً جديداً وطنيين ومخلصين . إنظر إلى أين آل بى إنتقالى من محنة لأخرى من موسكو إلى فونتانبلو . كان فى إمكانى الاستمرار فى الحرب على نهر اللوار ولكنى لم أرغب فى حرب أهلية . إنى أنسحبت من أجل فرنسا والآن أنظر إلى ما فعلوه بها . حقوقى ليست سوى حقوق الشعب . يجب أن نقول ذلك للشعب ويجب أن تكرروا له أنى لا أريد إقطاعيات ولا عبيد وأننا سنحافظ على السلام . يجب أن ننسى أننا كنا أسياد أمم أخرى [...] سنعيد النظر فى السياسات من أجل سعادة الشعب . كل ما فعله بعض الأفراد أو قالوه أو كتبوه منذ سقوط باريس سأتجاهله إلى الأبد * أود أن تكون فترة ولاية ابنى هادئة . لقد عمقت التفكير فى السنوات الماضية سنفعل كل شئ من أجل

* جاءت هذه الجملة بنصها فى إعلانه الصادر من جولف - جوان فى الأول من مارس

السلام . استعد صحيفة المقاطعة وانشر على الكافة وأعلمهم بما قلته لك .. هيا . وعد قريباً لأراك » .

ما أن رقى لمنصب ناشر أخبار الإمبراطورية إلا وكان فيچاك قد قفز إلى مكتبه ثم عاد إلى ضيف فندق لى تروا بوفان وقدم له مقالاته المتضمنة سرداً للحديث وللأحداث التى جرت بسرعة ما تم « التصديق » عليها للنشر . يتضح من المقال أن نابليون جرونويل يؤمن أن « قدر فرنسا لا يمكن أن يتحقق سوى على يد حكومة ليبرالية وأن الفرنسيين ولدوا لكى يحافظوا على الحريات العامة وليؤكدوا على مبادئ التساوى فى الحقوق والواجبات » وأن نابليون بعد أن إستعلم « باهتمام شديد عن حالة الأرياف » قال « جئت لكى أبعد إلى الأبد ذكرياتهم عن النظام الاقطاعى والإقطاعيات والعبودية .. وإنى لا أجلب لهم سوى الخير » .

بعد ذلك بقليل جاء أعضاء الأجهزة المختلفة فى المقاطعة ليقدموا لصاحب الجلالة « فروض الطاعة والإجلال » وصف فيچاك نصه كالتالى :

« جاء وقوفى بين أساتذة الجامعة بصفتى عميداً لكلية الآداب مرتدياً معطفى الحريرى ذا اللون البرتقالى : سخر الإمبراطور من هذا الزى بشكل علنى وسألنى عنى قرر لنا رداءً كهذا . لم أتردد فى القول بأنها الجامعة طبقاً لأوامره وهى متضمنة فى قرار إمبراطورى وذكرت له تاريخه المرسوم ... » .

بعد ما أصبح چاك - جوزيف بسرعة « أحد معتادى التردد على هذه الحجرة الفندقية التى جعل منها المسافر قاعة عرشه » وجد الفرصة لكى يفتحه فى الموضوع الذى يهيمه للغاية : مصر .

« لفت هذا الاسم نظره بشكل واضح وأحيا الحديث . وتكلم عنها بسعادة بالغة . أجبتة بون أن أقاطعه بأن هذا الموضوع يملأ تفكيرى - راح يتذكر روائع هذا البلد وأصبحت وتيرة حديثه أسرع من المعتاد . كانت هناك أحيانا بعض الأخطاء فى ذكرياته [..] سمحت لنفسى أن أعبر بإشارة بسيطة للغاية عن شكى فى بعض ما قال [...] إلا أن هذا لم يعجبه فقال لى بشئ من الحدة وهو يضغط بيده على ياقة رداى : « لماذا لا تقرأ هيروdot ! »

ثم وصل الحديث إلى كتاب « وصف مصر » . ويشعر الإمبراطور بالفخر العظيم ؛ لأنه راعى هذا الكتاب ويطلب نسخة من الأجزاء الأولى وأضطر فيچاك أن يعترف له

بأن « مكتبة جرونوبل » التي يديرها « لم ترداع لأن تقتنى نسخة من الكتاب * . واستمر الحديث بينهما :

« إما أن وضعه بعد أن خطا الخطوة الأولى في حملته الخرافية ** لم يكن يشغله كثيرا وإما أنه كان واثقا منه . فقد إنتقل بنفسه إلى الحديث عن مؤلفات أخرى نشرت بأمر منه قبل سترابون والماجلت وأوكليدس والقاموس الصيني : « كان العمل في هذه الكتب قد بدأ قبل مائه عام ، وجعلته ينفذ بمرسوم في ثلاث سنوات » . ثم ذكر نابليون أسماء عدد من العلماء ولحسن الحظ كنت مطلعاً على ما جرى في باريس التي أعرفها فكان في قدرتي الرد على أسئلته المتعددة »

كيف لا يستغل چاك - جوزيف بعد أن رقى إلى مقام حافظ السر أو المقرب القوى وبعد أن وجده متفتحا فكرياً - هذا الوضع بون أن يخدم قضية أخيه ؟ وبالفعل قدم أخاه إلى الإمبراطور :

« ... إستمع الامبراطور باهتمام للعرض الذي قدمه لأعماله التي أدرك على الفور أهميتها وكان القاموس القبطي هو أكثر ما جذب إهتمامه : « إحضر كل هذا معك إلى باريس - وسنقوم بطبعه . إن ذلك سيكون أسهل بكثير من القاموس الصيني » .

نابليون يستمع لشامبوليون يحدثه عن مصر لم يلهم الحدث أياً من الرسامين الكبار : البارون جرو ولا برودون ولا چيريكو « وذلك لسوء حظنا . ولكن يمكن أن نراهن على أن بعضاً من التأثير الكبير الذي وقع فيه الأخ الأكبر قد إنتقل إلى چان - فرنسوا . فمهما بلغ تمسكه بالجمهورية فلا بد وأن « صغير » قد تأثر بالأراء الديمقراطية التي نادى بها سجين جزيرة إلبا الهارب وبالنبرة التي طبعت خطبه وبالوصف المثالي الذي نقله له أخوه :

« بعد العرض *** عاد الامبراطور مترجلاً تحيط به الجماهير المتدفقة . وأثناء سيره وسط الطريق صرخ بائع الفحم كان يقف على إحدى علامات الطريق موجهها كلامه للإمبراطور الذي كان يمر أمامه « هل أنت بالفعل إمبراطورنا ؟ - نعم يا صديقي - أنا الامبراطور - إذن هات كفك ! » فمد الإمبراطور يده وصافح يد بائع الفحم وسط تصفيق الجماهير الحاد » .

* بأمر خاص من وزير الداخلية الجديد كارنو أرسلت نسخة منه بعد قليل لجرونوبل

** حملة ١٨١٥ وإيست حملة ١٧٩٨

*** في ٩ مارس .

فى التاسع من الشهر قبيل الظهر عاد المسافر إلى طريقه فى اتجاه ليون . وقبل أن يتحرك قال لفيچاك : « أعرف أنك لن تسافر معنا . ولكن إلحق بنا فى باريس وسيكون ذلك يوم عيد ميلاد إبنى » الدعوة كانت رقيقة لدرجة أن عميد كلية آداب جرونويل اعتبرها أمرا فترك أسرته وسافر وراء سيده الجديد . وسيبقى إلى جانب العائد للحياة لمدة ثلاثة أشهر عضوا فى مجموعة المحيطين به من العقول المفكرة التى راحت تحت رعاية لوسيان بونابارت وبمباركة من بنجامان كونستان تخترع « الإمبراطورية الليبرالية » .

وهو بذلك قد أعطى امتداداً براقاً وباريسياً مطبوعاً بإسم شامبوليون للفقرة اللوفينيه من مسلسل الأحداث الذى أصبح أسطورة فقد كتب أحد مؤرخى المدينة يقول : « إن دخول نابليون إلى جرونويل تعدى بكثير من عاشوا الحدث الذى تحول على الفور إلى إسطورة ... قبل الوصول إلى باريس كان إنضمام جرونويل حاسماً .. »⁽¹⁾

لم يكن فى الإمكان ربط العشيرة الشامبوليونية بمغامرة المائة يوم بعلمية أكبر ولكن مهما كانت درجة براعته هل كان فيچاك مندفعاً دون روية فيما فعل ؟ من يقرأ وصفه الرائع للأحداث لا يمكن أن يوجه له أى اللوم . القادم إلى المدينة كان لا يقاوم وحديثه جذاب ... وسط حياة أديرت بكل هذه الحيلة تبدو عملية ربيع ١٨١٥ المتهورة كما لو أنها حفل صاحب تسوده التلقائية الصبائية .

لم تكن مائة يوم چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك بالصورة الوردية لقصص الجنيات التى نقلها لنا ابنه .⁽²⁾ من يقرأ هذا المؤرخ المقدس لذكرى أبيه يعتقد أن عميد كلية آداب جرونويل أصبح بالنسبة للإمبراطور العائد إلى السلطة ومثل يوسف الأب أو على الأقل بوريين آخر * .

كلا . لم يحدث ! إلا أن هذا الرجل الطموح عاش طوال هذه الأشهر الثلاثة كما كان يحلم أى إلى جانب شخصية خرافية مشاركاً فى بعض اللحظات الهامة فى التاريخ الوطنى وأيضاً فى هذه الحياة الأكاديمية التى ظلت لسنوات طويلة تداعب أكثر أماله بريقاً .

وقد وجد الوقت بعد أن سافر إلى باريس ليضع نفسه فى خدمة هذا الامبراطور الذى سحره فى بضع ساعات قليلة أن يتقدم فى ١٩ مايو ببحث قرأه فى أكاديمية الآداب التى كانت إنتخبته عضوا منتسباً لها فى العام السابق . وكانت الدراسة عن

* سكرتير بونابارت السابق الذى نقل ولائه للبوربون .

تقويمات الشعوب القديمة وهو يبرز فيها أوجه الشبه المكتشفة بين التقويمات اليونانية والرومانية وكذلك التماثل بين كتاب الفلك لبطليموس (الألفا جنست) والتقويم الجولياني .

حسناً . ولكن المثقف فيه ينسحب أمام خادم الأمير فى ١٩ أبريل بعد وصوله بأيام قليلة . نراه وقد دعى إلى حضور « بداية نهار الإمبراطور » - وهو ما يحيط به أقاربه بفرحة صادقة . وقد طلب الإمبراطور رأيه عن حالة الرأى العام فى الدوفينييه وفى إختيار محافظ جديد لايزار . فهل أصبح مستشار الملك ؟ كلا ! سيصبح أقل من ذلك : سكرتير اللجنة الدوفينييه التى تم تشكيلها حول لوسيان بوناپارت * نائب الإيزار وعقل النظام الجديد المفكر وصديقه سابى . أحد رؤوس الليبرالية الجرونولوازية .

فى ٣١ مايو اتسع الدور الذى يؤديه فيچاك ليشمل فرنسا كلها . فقد كان سكرتير الجلسة التى رأسها كامبا سيراس . والتى جمعت كل هيئات الأمة المنتخبة من أجل مراجعة عملية الاقتراع الخاصة بمراجعة الدستور وقد أوضح هذا الاقتراع أن أغلبية الفرنسيين قد وافقت على « القانون الإضافى » الذى عرض عليهم . كانت الأغلبية كبيرة ولكنها لم تكن إجماعاً كما أرادها الليبراليون الجدد . كما أن الكثيرين إمتنعوا عن التصويت . وقد تلا نابليون بنفسه هذه الأرقام فى إجتماع عام فى الشأن دوميه عشية سفره لواترلو .

وقد كان لچاك - جوزيف لقاء أخير مع الإمبراطور الغارب ، وقد وصفه فيه وصفا حيا يجدر أن يكون بين صفحات « مذكرات من اللحد » (لشاتوبريان) : « نظرته الأخاذة كانت تدخل إلى أعماقك لتغوص فى أغوار نفسك لتعرضها عارية أمام عينيه .. كان المرء يشعر بأنه يعصره دون مقاومة منه . ولكن دون أن ينزعج منه لأنه كان يستمع بدوره . كما أن جدية كلامه الفائقة وإلحاحها لم تكن تجرد الحديث معه من طيبة طبيعية . كان حديثه عن الأشياء الصغيرة لكل الناس وعن الأمور الكبيرة بأسلوبه هو فقط .» .

ومع ذلك تمكن شامبوليون - فيچاك من تبادل أطراف حديث سريع أخير مع من كان لا يزال السيد وذلك لدى استقباله لمجموعة ممثلى وفود محافظات الأرياف . وقد تقدم إليه بطلين الأول بإنشاء كلية للطب فى جرونوبل كان الحديث قد جرى حولها

* شقيق الإمبراطور (١٧٧٥ - ١٨٤٠) [المترجم] .

خلال إقامته فى المدينة فى شهر مارس وجاء الرد إيجابيا ثم أعاد فيچاك تذكير نابليون بوعده بأن تسلم نسخة من وصف مصر إلى مكتبة المدينة التى لم يكن أمينها قد سرقها * .

ويؤكد الأخ الأكبر أنه حصل على وسام الليجيون دونور دون أن يطلبه وذلك بعد شهور قليلة من حصوله على وسام الزنبقة (الملكى) والذى انتقده أخوه عليه . مثل هذا الدأب على جمع الأوسمة لم يتسبب فقط فى سخرية أخيه من ميوعة مواقفه الإيديولوجية فى تلك الأزمنة المضطربة وإنما سخر منه أيضا آخرون . وقد دافع فيچاك عن نفسه فى مذكرة - ١٨٤٥ .

وإذ حان الوقت الذى أقيم فيه المنافع التى خرجت بها من فضولى (كذا) فإننى أجد أن ماجنيته هو :

(١) وسام الليجيون دونور الذى حملته شهرين أو ثلاثة .

(٢) شطب وظائفى كأستاذ وعميد لكلية آداب جرونوبل .

(٣) إنهاء عملى كمدير مكتبة مدينة جرونوبل .

(٤) ثمانية عشر شهرا من النفى إلى جنوب فرنسا (3).

أما جان - فرنسوا فقد إحتفظ من ناحيته بفكر أكثر هدوءا أو على الأقل بحيلة أكبر . فلم يحظ سوى بقاء واحد مع « الشهاب الفذ » ولكنه كان لقاء طيبا على كل حال والأهم أنه كان مفيدا جداً . فقد إهتم نابليون بقاموس اللغة القبطية . وإذا كان البعض يقول إنها كانت تمثيلية من جانب الساحر العظيم فإن الرد هو أن ليس فى إمكان كل إنسان أن ينجح فى إيهام الآخرين !! ثم إن التصريحات العلنية التى أدلى بها الإمبراطور وكذلك ما نقله چاك - جوزيف إلى أقاربه من أحاديث شخصية معه أثرت بالأمال التى أثارته على جان - فرنسوا الجمهورى . أما نابليون الآخر المستبد زوج ابنه القيصر فرانز صانع العروش فقد اختفى .. وأما الذى مر بجرونوبل فهو « الجاكوبينى » الذى صال وجال فى عام ٣ (من تقويم الثورة) صديق أوجوستان رويسبير والجنرال النحيف الذى أخدم الثورة المضادة فى باريس بعد ذلك بعام (قلاقل قانديمير) .

وقد كتب صغير فى ٢٢ أبريل لأخيه - الذى أفاده بمقابلة نابليون له - هذه الكلمات التى كانت تعبر عن شئ من الأمل ولكنها تعبر عن بعض المخاوف ؟ « .. أنتظر بشغف نتيجة لقائك بالرجل الطيب الشجاع لاثيولات ** : إننى أنتظر منه الكثير

* كان چومار قبل عامين قد إشتكى لبفيچاك من رفض الإمبراطور توزيع هذه الأجزاء بسخاء .

** إحدى الكنايات المحببة له والمتعاطفة معه وهى كثيرة التى أطلقها العامة على نابليون .

[..] وإذا كنت مخطئاً . فإن الفلسفة موجودة لكى تواسينا » .

إذا كان « الفيلسوف » لا يخفى شكوكه فيما يخصه شخصياً فإنه أى جان - فرنسوا أكثر جسارة فيما يخص أخاه ففى ٢٨ أبريل ثم فى ٢٩ مايو يدفعه إلى أن يكون أكثر جرأة فى تناوله « لأعماله » : « إن تردك فى القرارات لن يكون فى صالح أغراضك [...] إما أن اتخرج من الميدان وعلى رأسك تاج وإما تترك صفوف المناضلين .. » . ثم ينقل له مؤيداً ما قاله المحافظ بيديه - الذى جاء بعد فورييه والذى يجد جاك - جوزيف شخصاً « غير حاسم » فى الوقت الذى انفتح أمامه « مستقبلاً باهراً » إنه محق جداً فى ذلك : « يبدو أنك لم تذهب إلى باريس إلا لكى تقرأ بحثاً أمام الانستيتو ... لن تجد أبداً فرصة موالية أكثر من هذه [...] السمان يعرفونك . فاغتنم الفرصة . إذا عدت لكى تدفن نفسك فى المدينة الصغيرة فإن الإمبراطور الذى يراك أحياناً منذ أربعة شهور يقول لك « أعرفك جيداً . أنت « سيسألنا العام القادم بجفاء : « من أنت ؟ »

فعلاً صديقنا جان - فرنسوا كان أيضاً واقعياً : كان الأستاذ شامبوليون وهو فى الرابعة والعشرين يتمتع بحضور طبيعى أكدته التدريس الذى أضفى عليه هبة فكرية مؤكدة . خلال فترة المائة يوم سيكون أحد قادة الحركة الليبرالية الجرونويلوازية معبراً بتلقائية لا تخلو من خطر عن زواج كاثوليكي على الحلوة والمرة بين فكر أغسطس* و١٨ برومار** وسيؤدى هذا الدور بنجاح رفع من بريقه سفر أخيه الأكبر فقد حمله هذا الأخير حمل ومسئولية الصحيفة التى وضعها الهارب من الباء على كاهل عميد كلية الآداب .

هذا الجزء يقدم لنا نموذجاً مثالياً للفرق بين رؤية المعاصرين ورؤية المراقبين الذين يبعدهم الوقت عن الأحداث . بعد قرن ونصف من الحدث فإن إرتباط رجل مثل جان - فرنسوا شامبوليون - « صغير » بنابوليون يبدو غير مفهوم . فبقدر ما يبدو مقبولا إنضواء الأخ الأكبر الإنتهازى الطيب والطموح المجد الرجل الاجتماعى ذى الحيوية الطبيعية وقد إنقاد تحت تأثير الإتصال المباشر وطيبة الرجل العظيم الذى شده إلى حاشيته بقدر ما يبدو إرتباط الأخ الأصغر محيراً .

* ليلة الرابع من أغسطس ١٧٨٩ التى ألغت فيها الجمعية التأسيسية الثورية جمع إمتيازات الإقطاع (المترجم)

** ١٨ برومار - اليوم الذى أجبر فيه بونابارت العائد من مصر أعضاء الديركتوار الحاكم على الاستقالة والذى حل محله عصر « القناصل » الثلاثة وعلى رأسهم بونابارت ذاته . قبل أن يصبح إمبراطوراً (المترجم) .

كيف لا يرى حينذاك - إلا لو كانت الموسيقى العسكرية قد سدت أذانه والحب البونابارتي قد أعمى عينيه .. أن أوروبا المتضامنة منذ ثلاثة أعوام ضد الغول ستطبق عليه من جميع الجوانب أكثر مما فعلت في ١٨١٤ ؟ هل لأن التحالف لم يعد برأسه لا الكسندر* ولا فرانسوا الثاني** اللذان تأثرا قليلا بسحر المنتصر في معارك أوسترلينز وفاجرام ؟ ولكن التحالف الآن أصبح في يد ولينجتن وبلوشار نوى الفك الحديدي ؟

چان - فرنسوا الذي حلل بذلك مراسلاته ، خطابا بعد خطاب ، حال التفكك التي وصلت إليها الإمبراطورية وكذلك سقوط المنتصر والذي كان ينظر بعين المؤرخ إلى هذا الأقول ، يقدم نفسه على الرغم من كل ذلك في الأحداث أولا بصفته صحفياً يدير « حوايات الإيزار » التي ظلت لثلاثة شهور صوت البونابارتي الجديدة في الدوفينييه ؟ ثم كمناضل سياسي مرموق في المجتمع الفيدرالي « الذي حاول أن يحيى هذا التيار الليبرالي والإمبراطوري المشترك . ثم وأخيراً كجامعي محاولا الإبقاء على كلية الآداب التي هجرها عميدها لأن هذه الإمبراطورية المتسلطة (والتي كانت الأقرب إلى فكره الأمبراطورية الليبرالية) كانت ملعونة من المتعصبين للكنيسة فإنه سيحارب من أجلها جرونوبل التي إختارها نابليون لتكون العلامة الأولى في طريق عودته كانت مهد وعاصمة « الإمبراطورية الجديدة » التي لم تدم طويلا . ولكن يجب ألا نعتقد أن هذه المدينة الليبرالية في معدنها قد إنضمت للنظام الجديد مرة واحدة .. عودة الملكية الأولى لم تحظ بالقبول . عودة ظهور المهزوم في ١٨١٤ كان لها بريق .. فمن ذا الذي يمكن أن يقاوم « سحر العجائب » غير أن أهل الدوفينييه لم يكونوا يوماً من القوم الذين يؤمنون بالأشباح ... ليس كلهم ... أضف إلى ذلك أن الملكية كان لها فيها - كما سبق أن أشرنا - عملاء نشيطون .

في الواقع كانت الأيام المائة الجرونوبلوازية حرباً صغيرة بين حزبين يتصارعان في ميدان مكشوف دون أقنعة : المكيون الذين يحاربون في العلن وبإصرار بالقدر نفسه الذي يناضل به أطراف النظام البونابارتي والجمهوري .

أما « البوربونيون » ، كما كان يسميهم شاتوبريان - فقد كان على رأسهم الماركيز دويينا - عمدة المدينة القادم - والماركيز بلانيللي دو لا فاللات - الذي سبقه لفترة قصيرة ثم تلاه . والأشقاء سيلقى والسادة دو بوشاچ ودو بالسيز ودوشاليون (جميعها أسماء نجدها عند ستانداال وقد يعلق عليها بأوصاف غير كريمة) أما « الليبراليون » فقد تجمعوا - أو تصارعوا - حول شارل رونولون والكونت دو بارال

* إسكندر الأول إمبراطور روسيا (١٨٠١ - ١٨٢٥) [المترجم] .

** إمبراطور النمسا ثم رئيس الكونفدرالية الجرمانية في ١٨١٥ [المترجم] .

« ... أعلن أهل جرونوبل أنهم حماة أسرة بونابارت ، لقد منحوا أحد أعضاء الاسرة مكانا كئائب في البرلمان يتقاضى ١٨ فرنكا في اليوم . هذا التعيين مقبول بشكل عام لأن الأمير دي كانينو* شخصية قوية ويعرف كيف يقف في وجه أخيه الذي هو عنيد بعض الشيء** مثل سلفية قيصر والإسكندر .

إذا كان الملكيون يضمنون الصفوف في هذا العداء المؤقت - لو أن الأورليانيين كانوا يناضلون وحدهم - فإن منافسيهم كانوا منقسمين على أنفسهم جداً . كان البونابارتيون يجدون أن الامبراطور أصبح تحت تأثير «الديموقراطيين» والمعتدلون كانوا غير مرتاحين لذلك ، يسمعون أنه إذا اضطّر فسيبطلش بأصحاب الألقاب «السابقين» والجاكوبييون (الثوريون) كانوا يفقدون صبرهم بسبب مماطلته في ا ضى على طريق العودة للحكم الشعبى . وهم يلاحظون - وقد زادت المرارة في أنفسهم - أن الهارب من جزيرة ألبا لم يتخل عن رداء المستبد الذى ظل يرتديه ولم يتركه وهو فى المنفى وفى طريقة عودته كالنسر من مدينة لأخرى ، وإذا كان هو «الثورة على حصان» كما كان يقول فذلك يرجع إلى المطية أو الظروف ولا يرجع إلى تطور داخله - إنه لا يحيط نفسه إلا بالاعيان وهم يخونونه مثل فوشيه ، تعليق شامبليون - «صغير» :

«الجاكوبيون ثائرون ضد رجل ساعده لى يتخلصوا من «صاحب الكرش»*** وبطانته وهم يصرخون ضد مايسمونه الفضيحة وعدم الصدق بالنسبة للدستور الذى يؤجل إعلانه إلى مالا نهاية» .

«إلى مالا نهاية» كلمة مبالغ فيها جدا ! فبعد ستة أسابيع من عودته إلى مقر التويلورى كان «القانون الإضافى لدساتير الإمبراطورية» الذى جرى إعداده تحت رعاية بانجامان كونستان ولوسيان بونابارت ليفتح الطريق أمام نظام الليبرالى قد عرض على بضع مئات الآلات من الفرنسيين الناخبين للحصول على موافقتهم عليه - إلا أن هذا النص (الذى كان يعكس بصورة مقبولة فكر أنصار الجمعية التأسيسية (الثورية عام ١٧٩٠) لم يحظ بأعجاب ليبرالى الدوفينييه .

* أو لوسيان بونابارت ، وكان جان فرنسوا يطلق عليه اسم «أمير الكلب الصغير» وهو ترجمة حرفية لكلمة كانينو بالإيطالية .

** «بعض الشيء» ؟ بمعنى كثيراً جداً .

*** لويس الثامن عشر .

«كان يجب وضع دستور جديد لأن في فرنسا يعد ذلك وسيلة لإلهاء الجماهير التي تخذعها مثل هذه الأمور الغامضة تحب أن تراها تظهر من جديد .. ولو من أجل أن تضحك عليها فقط [...] كارنو* الذي لا يضحك أبدا - هو الوحيد الذي عالج هذا الأمر بجدية ...» .

لم يكتف جان - فرنسوا بالسخرية ؛ إذ أعرب عن بعض تحفظاته على المشروع .
«إنه لا يعجبنا كما ينبغي ولكن مادامنا مضطرين للانضمام للإمبراطور فإننا نوقع عن طيب خاطر مع بعض التحفظات مثل : نعم ، مع التعديل عندما يحين الوقت الملائم [...] الأصوات الهجومية كانت عديدة لدرجة أن محافظة جرونوبل اتخذت قراراً بمنعها . سينتج عن ذلك أن العديد من الناس الذين أرادوا التصويت بهم سيصوتون بلا أو سيمتنعون عن التصويت» .

وهو ما حدث بالفعل حتى في هذه المدينة المشهورة برجال القانون وبحب سكانها للتقاضى - أو ربما لهذا السبب - حيث زاد عدد الممتنعين على الذين صوتوا بنعم .
ومع ذلك يجب مساندة العدو الأول المعلن لأوروبا العروش والكنائس «غول كورسيكا» الذي تحالف ضده لورد كاستلريه وميترنيج . في صحيفته - كما في الجامعة - كان صغير ينادى بتعبئة الجهود ويكد من أجل إقامة «الفيدرالية» التي عملت في الدوفينية والمناطق الأخرى من أجل إعطاء هيكل تنظيمي لمختلف الاتجاهات الليبرالية . في جرونوبل ركز الجهود على منطقتي الإيزار والدروم .

وكانت الفيدرالية تنظيماً معتدلاً جداً لا علاقة له «بالنوادي» الثورية القديمة . كان يرأسها عمدة المدينة يعاونة كبار الموظفين وأساتذة الجامعة والأطباء ومسجلو العقود والمحامون أي الطبقة الثالثة .. وهو ما يعد وضعاً جرونوبلوازياً خالصاً أي أن الوضع كان مطمئناً جداً ..

في الأول من يونيو ١٨١٥ ناشدت الفيدرالية الدوفينية وقد اجتمعت الجماهير في دار البلدية تحت رئاسة پيرياسان پرى بهذا النداء : «إن الوطن في خطر : إن البطل الذي أختاره الشعب الفرنسي لرئاسته (يعترض) على المشروعات الطموحة التي تداعب

* وزير الداخلية

افكار الملوك الذين تجرأوا على التخطيط لتجزئة بلادنا الجميلة فرنسا .. يجب علينا نحن أن نجهض هذه المشروعات ...» .. وكتب جان فرانسوا لأخيه :

«إننا معشر الدوفينيين نتحرك ببطء ولكن إذا ما بدأنا العمل فإن الأمور تسير على مايرام فإذا كانت الفيدرالية قد قامت [...] فإن ذلك يرجع إلى ماقت به وعلى الرغم من صراخ طافئى الأنوار* [...] إنهم مايزالون يرفعون رؤسهم ؛ أخشى أن نجد أنفسنا مضطرين لجزءها فى نهاية الأمر» .

«طافئو الأنوار» هم «ذوو غطاء الرأس الأسود» ، هم «المتعصبون للكنيسة» هم «الجزويت» ولكن ماذا كان يعنى «بجزءها» ؟ هل كان يعنى اللجوء إلى موس الجيويوتين كما تعود الأب دوشان أن يقول ؟ نميل إلى الاعتقاد بأن جان – فرنسوا كان يستعين بفن البلاغة وهو لم يكن إذن دمويًا ومتطرفاً فى مجال اللغويات فقط ..

وها هو صديقنا عالم اللغة وقد تحول إلى كاميل ديمولان** على صفحات الصحيفة التى يديرها «نداءات إلى الشعب» كلها حماس وتضخم من أهمية الاحتفال الذى جرى فى باريس فى ساحة «لوشان دومي» والتى أريد لها أن تكون نسخة أخرى من الاحتفالات الضخمة التى جرت فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ – فلنستمع إليه إنه لجسور!

«الجمهور الضخم من المرتعدين إرتعب من عملاء متولى شئون «جان»*** الذين يصلون ويجولون بحرية رافعى الرأس ومنطلقى اللسان .. السلطات لاقيمة لها ولا تفعل شيئاً ولا تريد أن تفعل شيئاً [...] الجزوة مشتعلة فى الصحيفة فقط . إنى أكذب ، أكذب ، أكذب...»

كتب اندريه جيد بعد ذلك بقرن «إن الإيمان يعوض الصدق...» وهذا يسمى الآن «بروباچندا» (الدعاية) غير أن جان – فرنسوا لا يكتفى بالكذب من أجل الوطن بل إنه

* يطلق جان فرانسوا هذه الكناية الشائعة على رجال الدين .

** صحفى وكاتب وثورى فرنسي قام بدور هام فى الثورة الفرنسية مناديا إلى اللجوء إلى السلاح عشية اندلاع الثورة (١٢ يوليو) اعدم بالمقصلة (١٧٦٠-١٧٩٤) (المترجم) .

*** جان Gand حاليا مدينة بلجيكية بالقرب من فرنسا الشمالية الشرقية وصغير يقصد بمتولى شئون جان – الملك لويس الثامن عشر – الذى لجأ إلى هذه المدينة بعد وصول نابوليون قادماً من جزيرة البا (المترجم) .

يلجأ إلى كافة الإمكانيات المتاحة ويضع طاقاته كلها في أمور واقعية وقام بمالا يفعله المثقفون عادة بأن إهتم بتغذية الفقراء ! «قدمت مدرسة اليسيه هدية وطنية إلى نابوليون . أربعمئة فرنك خرجت من جيوبهم الصغيرة ، إنهم تصرفوا كآلهة صغار» .

إنه لا يكف عن العمل من عشر إلى اثنتى عشرة ساعة فى اليوم متوترا ، مشتغلا ، مرهقاً . هل تعدى بذلك المعقول ؟ فقد وصل هذا النداء من صديق مجهول : «عزيزى العميد ، «صغير» فى المنزل يعمل بكل قواه من أجل «الفيدرالية» . كنت أود ألا يأخذ ذلك وقته كله لأن أعماله أهم» .

ميوله البونابارتيه وصلت إلى قمته فى اليوم ذاته الذى أنهار فيه نصف الاله . غير أن أهل جرونويل لن يعلموا بالخبر سوى بعد أسبوع كامل ففى ١٨ يونيو ١٨١٥ ظهر ا. قال الذى تورط فيه بكل جسارة الذى قارن فيه بين الشرعية الوراثة لآل بوربون وشرعية الامبراطور «النابعة من الشعب» الذى أعطاها من قبل إلى هوج كابينة قبل أن يسحبها من أحفاده . ويترتب على ذلك كما يقول صغير «أن نابوليون هو أميرنا الشرعى الوحيد».

سيتعلم المؤرخ شامبولىون على حسابه الخاص أن الشرعية لا تنتج بالضرورة من الانتخاب الشعبى ولكن كثيرا ما تخرج من نتائج الحروب . وفى حالتنا هذه كانت سلطة تعيين الملوك فى يد ولينجتون يساعده بلوشار . لو أن جروشى* فعل مثل ديسيه فى مارنجو لكان مقال الثامن عشر من يونيو شارك بقدر كبير فى رفع شامبولىون إلى المجد . الا أن الأمور لم تكن كذلك وهو ما سيتسبب له فى بعض المشاكل** .

مهما كانت درجة انغماس الأخ الأصغر فى التاريخ الحديث فيجب الا نتصور أنه قد تحول تماماً عما كان قد أصبح هدف حياته كلها : فك طلاسم كتابة المصريين المقدسة . العجيب فى الأمر أن فى تلك الأونة التى اشتدت فيها العواصف بين الأمتين الإنجليزية والفرنسية عشية معركة واترلو والتى بدا فيها أن الحصار الخائق قد اكتمل تماماً على فرنسا ، بدأت أول علاقة مباشرة بين باحث جرونويل وصاحب الاسم الذى

* جروشى - كان يقود لواء الفرسان الاحتياطى فى معركة واترلو ولم ينجح فى منع التقاء الجيوش الإنجليزية والروسية فى معركة واترلو التى أنهت حياة نابوليون السياسية والحربية فى ١٨١٥ فى حين نجح ديسيه فى موقف مشابه فى معركة مارنجو ١٨٠٠ الذى انتصر فيها بونابارت العائد من مصر (المترجم)

** كان هذا المقال هو أكثر ما أخذ عليه بعد ذلك بشهور .

سيظل يقلقة لما يقرب من خمسة عشر عاماً ، وسيكون أشهر منافسيه ، وظل كثيرون ولدة طويلة يعتقدون أنه سبقه تماماً على طريق حل الشفرة : توماس يانج .

فى ١٠ نوفمبر أرسل أستاذ التاريخ الشاب بجامعة جرونوبل الجزئين المكونين لكتابة «مصر فى عصر القراعنة» إلى رئيس الجمعية الملكية فى لندن ومرفقا بهما خطاب يعبر عن الاحترام الشديد ومؤكدا على أن عمله جانباً فى مجالى الجغرافيا وكتابة أسماء المدن . وانتهاز الفرصة ليعلن عن قرب صدور جزء تال يتعرض لكتابة المصريين القدماء .

وأشار جان فرنسوا من جهة أخرى لزملائه البريطانيين أنه فى عمله على حجر رشيد لايعتمد سوى على نسختين (واحدة منهما صنعت فى لندن) وأنهما غير متطابقتين مما يضر بأبحاثه وإذا تم صب نسخ من قالب أثر رشيد الجميل» لتوضع تحت تصرف جميع مكتبات أوروبا الكبرى فإن ذلك سيعتبر «هدية لمحبي الآداب [...]» جديدة بالجدية والكرم الذين تتسم بهما الجمعية الملكية⁽⁴⁾ .

لم يتلق رئيس الجمعية الملكية فى لندن خطاب جان - فرنسوا إنما سكرتيرها العام توماس يانج ورد عليه فى ١٥ مارس ١٨١٥ بعد أسبوع من مرور «غول كورسيكا» بمدينة جرونوبل . لانتظر بالطبع أن تتضمن مراسلات علامة إنجليزى أثرا لحدث تافه كهذا . ولايمكن أيضا أن نقول أن رده على غريمة الشاب كان مشجعاً .

لاتوجد إشارة إلى «النسخ» المطلوبة لمكتبات أوروبا من الحجر الذى اكتشفه الملازم بوشار . إذ يكتفى يانج فى هذا الصدد أن يؤكد أن «الذين يؤذون الاعتناء بدراسة هذا النص سيجدون أن النسختين صحيحتان بالقدر الذى يسمح بالتأكد من معانى معظم الكلمات» لايوجد فى هذا الخطاب من يونج جملة واحدة تخلو من سهم مصوب إلى مراسله (هؤلاء الذين يودون الاعتناء بهذا النص سيجدون أن النسختين صحيحتان بالقدر الذى يسمح بالتأكد من معانى معظم الكلمات..»

أما بقية خطاب العالم الإنجليزى فهى متعمقة جداً فى الجدل الذى سيدور حول الاكتشاف مما يجعلنا نحيل قراءته إلى مكانها فى تطور الأحداث*.

فى ٢٠ يونيو عندما كان جاك - جوزيف شامبليون - فيجاك فى حفل عشاء دعا

* راجع فصل ١٠ .

إليه لوسيان بونابارت - أمير كانينو - فى مسرح الباليه - رويال أن علم بنتيجة معركة واترلو وقرب وصول الملك المهزوم إلي قصر التويلورى . أما خطاب مندوب جرونوبل فى الشأن ب و . ي - إلى أخيه فقد احتاج أربعة أيام أخرى لكي يصله .

فى ٢٠ يونيو لم يكن جان - فرنسوا قد عرف بعد بالكارثة عندما حرر خطاباً لجاك - جوزيف بعد أن حصل على وسام الليجيون دونور (جوقة الشرف) : «سيدى الفارس . أهنئكم على ما حصلتم عليه من معانى التكريم الإمبراطورى . أشارككم السعادة والابتهاج اللذين يغمرانكم بكل تأكيد » لابد أن قراءة هذه الجمل فى نهاية ٢٠ يونيو كان لها تأثير السخرية المرة ..

بعد الكارثة لم ينطو صديقنا أستاذ التاريخ ذو الأربعة والعشرين عاماً فى الحزن والمرارة بل إنه يواجه الأمر بصلاية ورباطة جأش يوجبان الاحترام خاصة لدى شخص يعانى من تبدل حالات النشوة والإحباط مثله . لنقرأ ماكتبه لجاك - جوزيف فى حينه :

«القاعدة الوحيدة التى يجب أن تتبعها هى أن تنقذ نفسك أولاً . أما فيما يتعلق بى ، فلى الله يفعل ما يشاء . عندما عبرت عن رأى فكان ذلك لئى أمنت بصحته ولازلت أعتقد ذلك [...] إذا لامك أحد على چاكوبينييه محيقتك . أجب بشجاعة أنى المسئول مادامت هذه هى الحقيقة . إذا احتاجوا لضحية فإنى لها . ليس لدى زوجة أو ابن : كل واجبى ينحصر فى شخصى وهذا ليس بالشئ الكثير ، أنى أشعر أن ذلك سيؤثر فيك كثيراً . ولكن لا يهم ، استخدمنى كقطعة من الإسفنج . المهم هو أن تخرج سليماً معافى من الأزمة» .

الأزمة ؟ بل أكثر من ذلك بكثير . قل عاصفة أصبح !! اليوم ونحن نقرأ مستندات العصر نندهش لأن انهيار نابوليون - هذا الزلزال العنيف - تولدت عنه حالة من التردد . هن وقوع المارد الأرض كلها ولكن فى أى اتجاه ؟ ومصلحة من ؟

تشهد الرسائل التى بعث بها جان - فرنسوا لأخيه فى بداية شهر يوليو على هذا التردد . فهو يتحدث فيها عن تنويع «نابوليون الثانى» ألم يتنازل الإمبراطور عن العرش لصالح الإمبراطورة ؟ والذى حدث هو أنه بدلا من أن يجد نفسه فى دور المنبؤ راح الأستاذ شامبوليون يصف حالة الهلع التى احتاجت «طاقنى الأنوار» .

وجرى الحديث أيضا عن تنويع دوق دورليان . فى البداية قلة هى التى كانت تنادى بعودة آل بوريون لأنه بدا أن إنهميارهم الفورى والتعيس قد أنهى مصيرهم تماماً فى مارس ١٨١٥ . إلا أن لندن كانت تفضل هذا الحل . وكما سنرى فيما يختص بنابوليون فإن ويلنجتون وكاستيريا يقودون العمليات .

إلا أن بعض المواطنين الفرنسيين كانوا غير مستعدين لتسهيل المهمة لهم تشهد على ذلك هذه السطور المأخوذة من خطاب جان - فرنسوا إلى جاك جوزيف الذى كان قد أخبره بالكارثة . الخطاب مؤرخ الأحد ٢٥ يونيو :

«خطابك الصغير [...] أدهشنا إلا أنه لم يفت فى عضضنا . لقد حان وقت تحديد مصير فرنسا . إنها لن تضعف وإن تتشكك فيما تختاره بين الخزي والشرف وبين الحرية والعبودية للأجنى . لا تخشى علينا من أى شىء - الهدوء يسود . ينتتنا . إذا تحرك أصحاب النية السيئة - سيعاقبون ..» .

لدى اقتراب الجيش النمساوى - الساردى بقيادة الكونت بوبنا فى فجر ٦ يوليو من أبواب جرونوبل فإن عاصمة الدوفينية ستظل فخور لفترة طويلة لأنها كانت آخر من قاوم فى فرنسا كلها . يسرد جان فرنسوا ما حدث لأخيه فى خطاب مؤثر مؤرخ ٦ يوليو الساعة ١١ .

«قصف المدافع توقف الآن فقط . تقدم النمساويون فى طابورين للهجوم على مدينتنا جرونوبل ، الأول من ناحية باب تريكلواتر والآخر من باب دويون [...] تتقدمهم الموسيقى . تقدم هؤلاء السادة بخطى قصيرة كما لو أنهم فى حفل زفاف . يبدو أن «طافئى الأنوار» كانوا قد شجعوهم على التقدم وأنهم لن يلقوا مقاومة فأساوا التقدير ببشاعة . إذ ما أن أصبحوا أمام الأسوار إلا وكانت المدافع الفرنسية وبنادق مجندينا [تنهال عليهم] فانسحبوا إلى الضواحي حيث استقبلتهم طلقات المدافع فطردوا منها . بدأت المعركة فى السادسة وانتهت فى العاشرة والنصف وكانت حامية للغاية . أرسل النمساويون مفاوضا من جانبهم [...] أعلن عن وقف إطلاق النار لمدة أربعة أيام [...] زوجتك زويه التى كانت قد وضعت منذ أمس أخذت الأمور بشجاعة المحاربين [...] لم أشرب فى حياتى مثل هذه الراحاتافيا* الجيدة ..» (5) .

* مشروب كحولى يستورد من جزر الباسيفيكي (المترجم) .

لايوجد ما يطبع هذا النص بالبطولة فهو بدأ بالحديث عن حفل زفاف وانتهى بشرب الكحوليات . لايحاول جان - فرنسوا أن يخدع أحدا . أهم بطولاته انحصرت في «طمأنة السيدات» . غيره كثيرون يجعلونهم يفقدن صوابهن في مثل هذه الظروف .

باختصار استسلام جرونوبل تم في ١٠ يوليو : قلعة الدوفينية أصبحت في أيدي الغزاة ابتداء من المواطنين الذين أغضبوا المتطرفين وكذلك حلفاؤهم «طافئو الأنوار» .

احتاجت بلورة الحل البوربونى عدة أسابيع ليكتمل . ولم يتم رفع علمهم الأبيض على مباني جرونوبل سوى في ٢٠ يوليو بعد شهر كامل من واثرو . حانت ساعة الانتقام الكبير . وزاد من عنفها درجة خوف المتطرفين وأن المدينة كانت أكثر المدن بونابرتية أو ليبرالية .

لايمكن أن نتحدث عن الجو العام الذى ساد هذه الأشهر من صيف ١٨١٥ بأحسن مما فعل أوجان دو فوجيه : «التشدد الذى ساد الملكية الثانية تناقض مع الاعتدال الذى ساد الأولى [...] كان من المتوقع أن تنطلق نار الانتقام الأولى في ١٨١٤ عندما كان على ضحايا الثورة أن ينتقموا لفترات نفى طويلة أو لاعتداءات قاسية أو لأسر كاملة ثم التضحية بها على المقصلة [...] غير أن الضراء التى تحملوها بنبل لم تقلل من قدرتهم [...] لقد حدث بعض الشطط فى السلوك ولكن لم تحدث عمليات انتقام منظم [...] في عام ١٨١٥ كان المطلوب هو الانتقام من وضع مثير للسخرية ومن هروب مزرى تصرف الجميع أثناءه دون تحكم [...] الألام الكبيرة سامحت . الكرامة المجروحة كانت فى منتهى القسوة»⁽⁶⁾ .

تنطبق هذه الملاحظات على جرونوبل أفضل من غيرها . وكما كتب عنها جيزو* في «ذكرياته» كانت جرونوبل مهد المائة يوم ، ورأى البعض أنه من الضرورى ضرب البونابرتية بقسره فى المكان ذاته الذى انفجرت فيه أولا.

ضرب «الإرهاب الأبيض» عاصمة الدوفينية ضربا مباشرا وإن لم يأخذ الشكل الدموى الذى كان عليه فى كل من مرسيليا ونيم وأفينيون . إلا أن الانتقام أخذ فيها أشكالا قانونية وإدارية وثقافية على درجة كبيرة من الانحطاط البشع على يد شخص اسمه راندون سان مارسال . عينه الكونت دو ريفسكى ، ياور إمبراطور النمسا وقائد

* كان حينذاك موطئا فى وزارة العدل .

قوات الاحتلال ، مفتشا عاماً للشرطة وقد فعل راندون ما يكفى لأن يجعله يهرب بعد ستة أشهر فارا من العقاب الذى طالبت به الجماهير الغاضبة وقد تم تهريبه لتفادى أزمة بين باريس وقيينا .

العمليات الانتقامية الحقيقية - غير تلك التى قام بها موظف متطرف وبلا ضمير - جاءت على يد جمعية سرية اسمها «كازينو» يرأسها الماركسى دوشاليون - متطرف مشهور منذ فترة طويلة وقائد «الحرس الوطنى راكب الخيل» وكانت هذه الجمعية هى التى تنظم وتنفذ العمليات الانتقامية . إذا كان الكازينو هو الوكر الذى حيكت فيه أسوء الضربات فإن شاليون وقتلته المأجورين وجدوا لهم منافسين بل وغرماء فى مقر الشرطة والمنطقة العسكرية ودار العمودية : وقد أطلق على هؤلاء جميعاً لقب «جاكوبيو الملكية» .

لم يسرع جاك - جوزيف شامبوايون - فيجأك فى العودة إلى مدينته حيث انضواؤه تحت العلم المثلث الألوان بعد إعلان ولائه الملحوظ لعلم آل بوربون ذى الزنابق كان سيجلب له مشاكل فيها أكثر مما سيجلبه له فى باريس . تركزت إذن على جان - فرنسوا كما كان يريد بالفعل - كل الأحقاد . وكان عليه أن يحارب على أربع جبهات .

جبهة الصحافة أولاً : لم يتردد السادة الجدد فى أن يفرضوا خروج «صغير» من «حوليات الإيزار» الصحيفة التى الذى جعل منه بؤرة الليبرالية . كتب الصحفى المناضل لأخيه خطاباً بدا فيه أنه يأخذ الأمور من جانبها الطيب :

«أشعر بارتياح يا صديقى العزيز لأنك لاحظت دون غضب اسماً غير اسمك أسفل بعض المقالات . لم يكن مقبولاً أن تنفث الساخن والبارد فى نفس الوقت . إن ذلك لايليق بك ولايى واعترف لك أن الشجاعة لم تكن لتواتبنى لكى أحرر الصحيفة بصورة جيدة تتفق والجو العام السائد . لعل فجراً جميلاً يشرق مرة أخرى» .

سيكون أكثر عنفاً ومؤثراً جداً فيما يختص بالجامعة وسيعبر عن ثورته الغاضبة بلغة المؤرخ .

«من الخطر دائماً أن تفتح باب حديقتك للعدو . سينتهى به الأمر دائماً بأن يغزو مطبخك . تكفى تجربة خمسة عشرة قرناً لتأكيد ذلك» .

ولكن أقسى التجارب وطأه عليه ستكون بصفتة باحثاً أكثر من كونه صحفياً أو مربياً . مشكلة الأخرى كانت حينذاك هي مصير قاموس اللغة القبطية الذي وعده بطبعة في أقرب فرصة نابليون الذي كانت تحيط بشخصه هالة من نور متجدد في جرونوبل يوم ٨ مارس .

الواقع هو أن مخطوطه قدم لأكاديمية الآداب في ١٨ مايو . الواقع أن جان - فرنسوا لم يفرق نفسه في بحار من الأمل لأن اللجنة المكلفة بإعطاء أمر الطبع كانت مشكلة من دوساسي ولانجلاس وكوسان . وكانت علاقاته بالأول والثاني قد ساءت جداً كما رأينا - علاوة على ذلك فإن لانجلاس وكاترومار اللود قدما مشروعاً منافساً .. وعلى الرغم من الظروف السياسية المواتية إذ كان نابليون لا يزال في التويلوري - فإن الآفاق لم تكن مشرقة :

«ها هو قاموسى ألقى به إلى جماعة الذئاب المفترسة وبين براثن منتقدي المعروفين . يجب أن يكون عملى ممتازا لكي لايقولوا عنه أنه مكروه . وعلى العموم فإنى مستسلم مقدماً . علمنى كتابى الأول* حقيقتين كبيرتين . الأولى أنه يجب أن تسير بخطى ثابتة على الرغم من الصراخ النابع من الغيرة والكرامة المجروحة . والأخرى وهى الأكثر مواساة للنفس هى أنك تصل دائماً للهدف بالنية الطيبة والاقتناع التام أنه لا يوجد ما تعاتب نفسك عليه وسط عمليات الاضطهاد التى تنتظرك مع كل خطوة تخطوها» .

أخذ «خبراء» الأكاديمية قرارهم فى ١٧ يوليو بعد شهر من هزيمة واترلو عندما كان المتطرفون - وكان ساسي واحدا منهم - قد تمكنوا من جميع مفاتيح السلطة . فيجاك الذى كان لا يزال فى باريس علم لتوه بالرفض وأفاد أخاه بالنبا . اعتبره جان - فرنسوا صفة على وجهه : إن العمل لا يرقى لأن «يطبع على حساب الحكومة» .

كان وعد نابليون فى هذه الظروف ضاراً لعملية نشر الكتاب .. كنا قد لاحظنا أن آمال جان - فرنسوا لم تخدعه فى هذا الصدد ، غير أنه لم يكن ضحية بداية ظلم سياسى فقط وإنما الحكم عليه كعالم كان من محرر التقرير (وهو ساسي) لأنه أكد في تقديمه للعمل أن «الهيروغليفيات ليست سوى علامات محتملة للغة الكلام وليست علامات فكرية [...] وهذا التأكيد يبدو متهورا جدا . بالنظر للبراهين المتوفرة من العصور القديمة كلها ...»

* كتاب «مصر فى عصر الفراعنة»

تحول هذا المأخذ على شامبوليون - كما تقول مدام هارتلوبان الذي كان يبدو في حينه مبرراً - إلى تقرّظ من أعلى درجة للطالب المعاقب [...] الذي تجرأ وأكد أن للهيروغليفيات [...] مدلولات سمعية⁽⁷⁾ .

رد فعل شامبوليون «صغير» كان في منتهى العنف في خطاب أسرع بإرساله لأخيه في ٢١ يوليو ١٨١٥ . لهذا النص أهمية كبرى - إذ أنه يحتوى على كل شيء : الإساءات الشخصية وصراع الحداثه والمخاوف السياسية والآفاق المستقبلية . ولا يجد الشاب في كل اتجاه سوى أسباب للمرارة سواء كان ذلك في اتجاه إنتصار المتطرفين وأصحاب الزى الأسود أو من ناحية احتلال القوات الاجنبية للمدينة أو بالنسبة لرفض طبع كتابه وأخيراً فيما يتعلق بالنقطة التي فاض بها كأسه وهي انتخاب كاترو مار في الانستتيو . كل ذلك يبرر نشرنا لمقتطفات مطولة من هذا الخطاب الذي هو كشف حساب رجل في الخامسة والعشرين .

الموضوع الأول : رفض طبع قاموس اللغة القبطية على حساب الحكومة :

«التقرير الذي كتبه «الجيرويتي» * جاء كما توقعته : سم زعاف تحت السكر . فلائته غير قادر على مهاجمة الموضوع في صلبه فقد تحول إلى الشكل . إنه كالنودة استعصني عليها قضم الورقة أو قطعها راحت تغطيها بريالتها [...] خبث تقرير هذا الجيرويتي واضح جداً أمامي . إنه سيد الموقف الآن ...»

الموضوع الثاني : ما العمل في القاموس المرفوض من الجانب الرسمي ؟ عندما نقل له جاك - جوزيف العرض الذي تلقاه من مسيو / جرينى الذى يقترح على الشقيقين أن يقوموا «بالطبع» ويتولى هو «الباقى» أى التوزيع جاء رد أخيه الصغير عنيفاً :

«أرجو ألا تكون من الجنون بحيث تورطنى - بناء على قوله - فى مصاريف تتعدى بكثير إمكانياتى وإمكانات أسرّتك مجتمعة فى الأوقات التى نحن فيها وسط ثورات عنيفة تمزق «وستستمر تمزق» وطننا المنكوب . يجب ألا تفكر سوى فى الحياة الجسدية [...] لقد انتهى عصر الأمجاد الأدبية»

* كثيراً ما يستخدم شامبوليون هذه الكنية لأستاذة السابق متهما بذلك إياه بالأراء الرجعية ووسائله غير الصريحة والملتوية

الموضوع الثالث : إنتخاب كاترومار فى أكاديمية الآداب وما يعنيه :

« .. لقد قبل الانستيتو فى عضويته أعدى أعدائى وأنت تعلم مثلى تماماً كم أن نجاح بوليكارب هذا رهيب فى ضرره لأعمالى . أعتقد أنه من غير المفيد أن نستمر فى صراع سينتهى بنا إلى أن نسقط فيه صرعى أجلاً أو عاجلاً . روح التحزب تسود فى فرنسا بأكثر مما كانت عليه فى أى وقت مضى . إن لون القبة سيحدد درجة جودة الرأس الذى تغطيه . كل شيء إنتهى تماماً من هذه الناحية .

الموضوع الرابع مستقبل الشقيقين فى جرونوبل :

«إنك اعتمدت على أوهام [...] عندما علمت بوصول الغريب إلى جرونوبل . لماذا اعتقدت أن الصحيفة كانت مازالت لك أهل تعتقد أن هذه النوعية من الرجال سوف تنسى الطريقة التى أعيدت بها إليك* [...] إن العصاة الجهنمية المسيطرة على جرونوبل أعادتها إلى المتأمرين الذين كانوا انتزعوها منك ..»

إلا أن هذا الجان – فرنسوا الذى يحذر أخاه عن حق من «الأوهام» سيعيش هو نفسه فى أخرى ، وأن كانت غير خطيرة :

«مادمت تعرف المحافظ الجديد** فلا يزال هناك أمل فى أن تستعيده . أقول الأمل ولا أقول من المؤكد لأن المحافظ سيحاط عند وصوله بشخصيات [...] ستلبسك أفضل رداء [...] لاتغفر لك أبدا مقابلاتك*** ولاوسامك**** هذا الوسام سيصبح حبلاً حول رقبتك [...] إذا حضر المحافظ أدخل فى زمرة أتباعه وإحضر معه واجعله يعيدك إلى منصبك [...] وإن كنت أشك فى النجاح [...] ولازلت أدعوك أن تغسل يديك على حسابى أنا ...»

ما أعجبها من شخصية .. هذا الاستاذ الشاب ذو الرأس الساخنة ! واضح الرؤيا دائماً (تقريباً) شهم إلى أقصى حد – وإن كان ميالاً إلى أن يكون عرضة للإحساس بالاضطهاد على طريقة روسو . ولبعض من التعصب العلمى وكذلك لشىء من الحماس

* بواسطة نابوليون .

** مسيو دو مونليفو – الياور السابق للإمبراطورة جوزيفين والذى تحول إلى حزب المتطرفين وأصبح على عكس ماكانا يأملان – من ألد أعدائهما .

*** مع نابوليون .

**** الليجيون دونور (جوقه الشرف) .

الجاكوبيني بمثل ستاندال . هل كان به شيء من السذاجة ؟ بالتأكيد ! حقود ؟ بالتأكيد ! بل ومع شيء من العنف ... ولكن ما كل هذا الحماس وطلاقة التعبير والألمعية ! وتحت زيد أهل الجنوب تجد عمق أهل الجبال المرتفعة ..

لم يهزم بعد على الرغم من كل شيء صديقنا «المصري» ! كان العدو يحتل مدينته و«السود» حاملوا اللواء الأبيض يطاردونه والعمدة الجديد بلانيللي ذو لاقالات يأمره بأن يخلق المكتبة التي هو أمينها في غياب أخيه وكنية الآداب مهدده بالوفاة - ليست اختراعا من اختراعات «الغول» الشيطاني ؟ الإشاعات كلها تعلن قرب سقوطه . و«طافئو الأنوار» يطردونه من «حواليات الإيزار» بعد أن جعل منها الناطق بلسان البونابرتية الليبرالية الجديدة في المنطقة ، إلا أنه لايعترف بالهزيمة فلم يترك الميكروفون الذي هو الحواريات دون أن يلقي تحديا سافرا للمتطرفين في صورة «نخب إلى الجمهورية» الذي سيؤدي إلى نفيه :

شارب صادق والكأس في يده
يحتسى المدام نخب ابن ديونيزوس
والحبيب يختم نشيده
في صحبة حبيبته
مثله أنا أيضا لي غرامى
ومادام يجب بالسحر أن أبوح
فإنى اشرب ودائما سأشرب
نخب الجمهورية إلى الأبد⁽⁸⁾

لم تكن قريحته الشعرية على مستوى حماسه الوطنى والانكى من ذلك أن قسمه لم يكن كما ادعى أبديا لارجعة فيه .. غير أن الذى يجب أن يؤخذ في الاعتبار هنا ليس معرفة ما إذا كان شامبوليون ينافس بيرانجية* أو إذا كان ولاؤه الجمهورى من معدن أكثر صلابة من قاتلى الملوك السابقين الذين أعلنوا ولاهم بعد ذلك للتاج الملكى ،

* مؤلف أغاني ومطرب فرنسى إشتهر بأغانيه الوطنية (١٧٨٠ - ١٨٥٧) .

الأهم من ذلك هو الجانب الفدائي في شخصيته : ففي الوقت الذي تظهر فيه بوادر الإرهاب الأبيض نراه يرتدى غطاء الرأس الكاشف عن ميوله نحو الجمهورية .

وهو لا يكتفى بالتحديات العلنية . فقد بدأت المنشورات توزع في صالونات جرونوبل وسرعان ما توجهت الأنظار إليه على أنه محررها : فهي تهاجم «مطفي الأنوار» و «ذوي القبعات السوداء» . مثل ذلك ما جاء في أحد هذه المنشورات وهو على هيئة محاكاة ساخرة لسفر الرؤيا يظهر فيها نابوليون في صورة الحيوان المخيف القادم من البحر .. فصاح صديقنا الجاسكوني (والدوفيني أيضا) تنطلق دون رابط في هذا النص لدرجة أغضبت المحافظ الجديد الكونت دومونليفو - وهو الذي كان جاك - جوزيف يعتقد أنه يعرفه بالقدر الذي يسمح له بأن يحتويه - فقد نسي المحافظ أن أكثر المتطرفين تشدداً هم الملكيون السابقون الذين أصبحوا خدما لآل بوناپارت .

في ٢٨ يوليو ١٨١٥ وضع جان - فرنسوا شامبوايون تحت مراقبة مباشرة . ويجدر أن ننقل هنا النص الصادر عن مفتش الشرطة راندون سان مارسيل الذي سبق أن تكلمنا عنه :

«أخذين في الاعتبار روح التمرد التي تحرك بعض الأفراد ، يضاعف من جرمهم أنهم في ضلالهم هذا سيئو النية ، ومن خطورتهم أن إستنارتهم* ومكانتهم في المجتمع تجعل المثل الذي يعطونه بسلوكهم وبالتعبير عن أرائهم يضاعف من الأضرار التي يتسببون فيها - نظرا لكل ذلك قررنا ما يلي : يوضح تحت الرقابة الفورية السيد شامبوايون - فيجاك الأصغر ، الاستاذ بكلية جرونوبل [...] إلا إذا عدل من سلوكه [...] أن تحدد له أي محل إقامة آخر» .

حركه الكماشه تشتد حوله ، إذ إن حرية حركته هي التي استهدفت** . وصفه للمناخ العام السائد في جرونوبل يبدو غير مبالغ فيه إذ كتب عن ذلك لأخيه يقول :

«الكارينويون*** لهم اليد العليا في المدينة . من المؤكد أنهم مكلفون أو كلفوا أنفسهم بأعمال الشرطة العليا ، الاعتقالات تتم يوميا . البداية كانت في الطبقات الدنيا وستنتهي يعيش يرتدون الملابس الفرنسية . الجميع يرتابون في أقرب الناس إليهم ، الوشاية هي سيدة الموقف» .

* يعاقب لاستنارته 11 موقف متناسق1

** نفس المعاملة كانت من نصيب جاك - جوزيف في باريس

*** أعضاء تنظيم الكازينو - انظر ماجاء من قبل

من الطريف أن نقارن هنا بين هذا التقرير الحى للأحداث من شاهد عليها - إن لم يكن ضحية لها - وبين ماكتبه شامبوليون - فيجاك في كتابه " فورييه ونابليون " . الأسلوب هنا يصبح أكثر سلاسة والنغمة أكثر اعتناءً . بعد التأكد من تطابق الأحداث مع الواقع وبعد أن عاد لينضوى تحت لواء الملكية فإن الأخ الكبير يردد ماقاله أخوه :

" إنها لبركة أسنة من الوشايات يطلقها ويديرها قس متزوج وإثنان أو ثلاثة من الماراتين* أهل ٩٣ ، وهم محترفو الأجرام تناسبهم جميع العمليات الإرهابية سواء كانت بيضاء أو حمراء ويتولون بسبب تكوين شخصيتهم جميع الأعمال القذرة التي تخدم طبقة غير طبقتهم مثلما يفعل الخدم فى المسرحيات الكوميدية بأن يكذبوا لصالح سيدهم^(٩) . "

" ماراتيون " محترفون أو متطرفون خلص ، المهم هو أن أعداء الشامبوليونين الذين انتزعوا منهم صحيفتهم راحوا الآن يهاجمون قلعتيهما الأخريين : الكلية والمكتبة .

فى ١٩ نوفمبر كتب جان فرنسوا لأخيه : " لاشك أن كلية الآداب ستلقى بأكملها [...] لم يحصل بعد أى شئ بصورة رسمية (ولكن) هذا لن يتأخر** وفى جميع الأحوال فإن بيلون وأنا وأنت وبيريا سان برى*** سنكون من المطرودين . لقد إنتهينا .. "

فلنرى ما سيستخلصه هذا الشاب " المفتى " من هذه التجربة السيئة من نتائج غير متوقعة منه فى صورة " خطة لحياة جديدة مدينة وأسرية " يرسلها إلى أخيه طالبا منه أن يقرأها « بتمعن » :

« ... أو أن أدخل فى سلك « موثقى العقود » فى جرونوبل ستقول لى أنك تريد أن تتحول من أسقف إلى نجار وبماذا ستفيد العمة الأسقفية إذا لم تأت بالخبز . علما بأن الدقيق موجود فى المطبخ لم يعد هذا وقت المستويات ، وبالمناسبة فإنى أعرف العديد من موثقى العقود أكثر احتراما وتجيلا من كتبية أساتذة (...) أما فيما يتعلق بى فأنا مصمم على ترك مهنة التعليم العمومى .. »

ولا يخشى «صغير» أن يخوض فى الحديث عن النواحي الأكثر حساسية فى

* نسبة إلى جان - بول مارا J.P. Marat ، ضحية (عشيقته) شارلوت كورديه وهو يعتبر رمزا للأرهاب (المترجم) .

** تحقق ذلك فى ١٨ يناير ١٨١٦

*** عدل جاك - جوزيف - وقد كان نائب رئيس الفيدرالية " (الليبرالية) خلال فترة المائة يوم

المشروع .. لاحظ نبرة الحديث :

« النقطة الرئيسية هي شراء المكتب ... كثير من موثقي العقود لم يحصلوا على مكاتبهم سوى بالزواج ... بالنسبة لى فإن علاقاتى بالحب جيدة لدرجة أنه مستعد ليعمد لى يد المعونة فى هذا الشأن . بابا بلان مقتنع تماما بأننى سأتزوج إبنته .. روزين وأنا متمسكان جدا بذلك . أن مسيو بلان يكرر بالاستمرار أن هذا العالم ليس فيه سوى حالتين : أن تكون صانع قفاز أو مسجل عقود ... »

هكذا وبعد أن وضع النقاط على الحروف ينهى جان فرنسوا كلامه :

« إن وضعى كموثق عقود يعطينى مايلى :

١ - ضمان موقف صلب ومريح .

٢ - ألا أجد نفسى بعد قليل من الآن (...) عالة على أسرتى .

٣ - أن أتمم مشروع زواج أتمسك به من الناحية العاطفية من ناحية الشرف .

٤ - أن أجد نفسى بعد فترة قصيرة بمعناى عن الثورات .

٥ - وأخيرا هذا هو الوضع الذى (...) يسمح لى بالتخاطب مع جنيات الشعر والفن والأدب دون أن يسئ التعامل مع الأدب إلى التعامل مع النقود . أى سأحصل على الورد دون الأشواك .

ينتج عن كل ما سبق أنه بالنسبة لى خارج توثيق العقود

لأنجاه لى مشاركة ممتازة منه فى رسم صورة له !!

ومع ذلك فإن جاك - جوزيف يحصل بعد قليل على آراء مختلفة من أخيه :

« مازالت الإشاعات تتردد عن المكتبة . إذ يدعون أننا لانوجد بها أثناء النهار أماليا فإن إجتماعات خطيرة تعقد فيها وهو ما يتنافى مع التفكير السليم ، يقال أننا تركنا المكان لأحد السعاة فى هذه الأوقات الحرجة . لأن عندما يأتى إليه بعض الضباط النمساويين يقول لهم أنطوان إن أمين المكتبة خرج وأخذ معه المفاتيح الخ الخ .. »

أما فيما يدعونه عن اجتماعات فلست أدرى من أين جاوا بهذه الإشاعة غير المعقولة ، لكن الذى أعلمه هو أن الطريقة الخاصة بسان برى والطريقة الخاصة براندون يحتلها كل ليلة ومنذ ثمانية أيام شرطيان لكل مهما ، وأن عملاء للشرطة يحومون حول المكتبة . عندما أدخل المبنى كل ذلك يختفى لا أدرى أين . إلا أن الشئ المسلى

فى ذلك وهو أيضا مضحك أنى أسمعهم يهمهمون بعد أن أكون أوضحت الأمور بعد وصولى مبكراً وبهدوء تام . لم يتكلموا أبداً معى ؛ لأنهم يودون أن يقبضوا على المتأمرين وهم فى حالة تلبس».

«عملاء الشرطة» .. حتى لو كان جان - فرنسوا يستخدم أسلوب المناضلين السياسيين فى الكتابة فهو لا يبالغ فى الواقع كثيراً . لأن الواقع يفترض أن مهد إعادة البونابرتية إلى السلطة . أى مدينة جرونويل استحوطت معاملة متشددة . بوجه خاص . عملية القمع أدارها رباعى لايرحم : المحافظ الكونت دومونليفو وقد سبق أن رأيناه وهو يعمل ، القائد العسكرى الجنرال دوناديو* ، قائد قوات الشرطة ؛ الكونت دوياستار والعمدة الماركيز دوبيينا** جميعهم من مجموعة الكازينو ومن مؤيدى «ذوى الرداء الأسود» ومن مناصرى الكونت دارتوا . كان وجود هذا الأخير يطمئن أصحاب أكثر الآراء تطرفاً بعد ما قام به من أعمال عاصفة فى ربيع ١٨١٥ .

عاد جاك - جوزيف شامبولىون إلى جرونويل فى نهاية العام وقد اتخذ لنفسه سلوكاً هادئاً للغاية يتناسب والظروف ويتفق مع ما يقال عنه هذه الأيام أنه «سار بجانب الحائط» .

كتب يقول عن هذه الفترة بعد ثلاثين عاماً فى كتابة «فورييه ونابوليون» : «أما أنا فقد قبلت بالكامل وببساطة النتائج المترتبة على ما قمت به وإقتصرت تماماً على عملى كأستاذ وكأمين مكتبة وهى مهام كنت أشعر أنها سيموت اهتمامى بها أو أنى سأضطر إلى أن أختنق أنا فيها وكان مصدر هذا الشعور نابع من العديد من الإعراض» ليس هو الذى يشرب مثل أخيه المجنون «فى نخب الجمهورية» إنه ينتظر انسحاب حمى الانتقام من مدها .

إنه شخص باربع . ولكنه أيضاً رجل عواطف وهو ما سيتسبب له فى أذى كبير جداً . إذ جاء إليه شخص اسمه «مسيو رافيه تاجر من كلارمون فيران» يريد أن يذهب إلى مقاطعة سافوا ليستشفى بمائها ، ولكن ليس لديه جواز سفر لذلك . واضح جداً أن هذا الشخص من المغضوب عليهم وهو يحاول الهرب إلى الخارج . ولم يطل

* وصفه الكونت موليه فى مذكراته بأنه «حقير» بمعنى الكلمة .

** يقول عنه ستانندال إذ كان زميله فى المدرسة المركزية (ليكول سنترال) : «متطرف يقوم بأى عمل وهو يتناسى نظافة اليد .. متطرف خطير .. جيزويتى بمعنى الكلمة» .

المقام بالضيف قبل أن يتعرف فيجاءك على شخصيته الحقيقية : إنه الجنرال درويه دارلون أحد آخر جنرالات الجيش العظيم الذين اعتمد عليهم نابوليون فى واترلو .

هل تشاور الشقيقان ؟ واقع ما حدث هو أنه «مسيو راقيه» اختبأ طوال فصل الشتاء قبل أن يخرجوه من المدينة فى عربة عامة لنقل الأفراد ثم إصطحبوه حتى مدينة شامبيرى وكانت هذه المدينة حينذاك أجنبية وتتبع السافوا . ومن هناك اتجه إلى ميونيخ حيث كان يقيم الأمير أوجان دو بوهارينه⁽¹⁰⁾ .

على الرغم من أن هروب درويه دارلون لم يكشف من الشرطة إلا بعد فترة طويلة* فإن «ملف شامبوليون» كان ثقيلًا كما تقول مادلين يوريوان : «لم يكن اللوم الواقع عليهما راجعًا إلى تهافتهما على استقبال «سارق العروش» بقدر ما كان بسبب عدم إعلانهما عن توبتهما الصادقة»⁽¹¹⁾ وفى ٢٢ فبراير ١٨١٦ يندد الكونت دوباستار مفتش الشرطة الملكى «لدى ديكان وزير الشرطة بالأعمال التى يقوم بها «رجال خطرون مثل شامبوليون»** ويروى وبواسونيه الذين لعبوا دورا رئيسيا خلال المائة يوم وسرقة السلطة (كما أنهم) يزيّدون من شعله التمرد الضار فى صفوف الشعب (بواسطة) الأكاذيب الضارة التى يروجونها [...] كانوا على رأس «الفيدراليين» وكل من هو شرير يركز نظره عليهم .. » ومع ذلك يقر باستار أنهم «أفراد غاية فى الذكاء إذ أن سلوكهم الظاهري لاينم عن أى شيء خطير يلامون عليه [...] لكنهم يلتقون [...] فى اجتماعات تضر بمصالح الحكومة»⁽¹²⁾ .

لكن بعد عشرة أيام فإن ديكان الذى كان يعتقد فى تعقل وحتى تلك اللحظة أن «الأقوال التى تبودلت» منها الكثير الذى «يكتفى بتسجيله» ومنها «القليل فقط الذى يستدعى ملاحقة أصحابه بسببه» انتهى إلى وجوب إبعاد «الأفراد المذكورين» عن مقاطعة الإيزار . ينتهز باستار الفرصة المتاحة وفى ١٩ مارس أرسل مدير الشرطة بالذاكرة الآتية :

«جرونوبل فى ١٩ مارس ١٨١٦ يعتقد السيد المحافظ أنه فى الوقت الذى عادت تنتشر فيه الإشاعات الكاذبة التى إن صدقها الشعب فإنها لا بد وأن تزكى تطلعات إجرامية - أنه من المفيد اتخاذ إجراءات نشطة ضد هؤلاء الرجال الذين لا يقدرسون

* كما سيأتى ذكره بعد ذلك بقليل .

** المستهدف هنا على ما يبدو هو جان - فرنسوا .

شيئا [...] منذ فترة طويلة والرأي العام يشير إلى الأخوين شامبوليون* علي أنهما من أعداء الحكومة ويزيد من خطورتهم أنهما يجمعان بين المرائية الشديدة والمهارة العظيمة والفكر والمعرفة [...] .

كونت دويستار،

لم يتم تنفيذ أمر الإستبعاد سوى بعد عدة شكاوى واحتجاجات والتماسات .. وفي خطاب المحافظ بعد سفر الشقيقين إلى «منفاهما» على الرغم من أنه كان قد ترك جاك - جوزيف يعتقد أن القرار سيلغى .. كتب إلى ديكار يبرر القرار بل يؤكد عليه ويطلب بتنفيذه .

«الأخوان شامبوليون ينويان التوجه إليكم بالتماس ضد إبعادهما . بالنسبة لي فإنني أرى أن ذلك ضروري في الوقت الحاضر وسيكون له أثر طيب للغاية على الأمن في المدينة ..» يوجد لدينا الدليل على أن ذلك التدخل هو الذي حسم الأمر وهو عبارة عن خطاب من صديق قديم من فيجاك ، اسمه دوجيه وكان قد عين في وزارة الخارجية وقام بعدة وساطات لصالحهما في الأوساط السياسية والثقافة في العاصمة ونجح في خلق اتجاه عام لصالحهما . ولكن ليس لدى الجميع ...» .

إذ كتب دوجيه إلى جاك - جوزيف يقول له «لولا الخطاب الشؤم لقائد الشرطة فإن قرار إبعادكما كان سيلغى إن ذلك يعتبر قمة في عدم الولاء . لقد بدا لي البعض متعاطفا مع موقفكما . مسيو سيلفاستر دوساسي** الراهب السابق لن أنقل لكما هنا ما قاله . إنه شخص حقير - يجب أن يترك هكذا يفسد في مكانه حتى يأخذ الرأي العام المستنير منه الموقف المناسب . وداعاً يا صديقي وخذا معكما زاداً كبيراً من الصبر وقبول الأمر الواقع . إنكما في أشد الحاجة إلى ذلك لتحمل شرور الناس بكل شجاعة»⁽¹³⁾ .

في خطابه «الشؤم» أشار مونليفو إلى أن الشقيقين شامبوليون يبديان «أسفا شديداً لأنهما سيذهبان إلي محافظة تكره حتى اسم بونابارت» .. الواقع أن المدن التي ذكرت في بادئ الأمر للمنفيين كانت : ديني وثالانس وأكس ؛ محافظتا بروفانس والألب الجنوبية كانتا مشهورتين بميولهما الملكية ، وهذا هو السبب الذي جعل نابوليون يحرص لدى عودته أن يذهب فوراً إلى الدوفينييه .

* هما مجتمعان فجأة في الاتهام .

** لم يحدد دوجيه كيف أن هذا «الراهب» اساء إلى زميله وتلميذه السابق ولكن من الواضح أنه رفض التدخل لصالحهما .

«السادة شامبوليون» لما لم ينجحوا في الغاء قرار إبعادهما ، سعيًا ونجحًا في الحصول على وجهة أخرى وكانت فيجاك مسقط رأسهما حيث مازال يعيش والدهما وشقيقتاهما الثلاث وبعض الأصدقاء وحيث لايعكر المناخ السياسى أى تعصب . لم ينس جاك - جوزيف أنه عاش فيها دون أية مضايقات ولكن دون - عمل - فترات الإرهاب (الثورة) وتيرميدور ..

إلا أنه هو الذى شعر بوطأة عملية طردهما المشترك بأكثر مما شعر بها أخوه . وهو إذا كان قد نجح فى أن يصطحب معه إبنة «على» فهو ترك زوجته وطفليه الآخرين . وهو فراق أقسى عليه من قسوة فراق جان فرنسوا من روزين التى كان لازال يأمل فى أن يأخذها زوجة له - ومن أقرب أصدقائه إلى قلبه أو جويستان تيفونيه .

لابد وأن فوق ذلك كله بالنسبة لجاك - جوزيف شعوره بالظلم من أن يعامل مثلما يعامل أخوه - نتذكر أن جان - فرنسوا توسل إلى جاك - جوزيف لكى يلقي عليه هو كل المسئوليات السياسية الخاصة بالأيام المائة وخاصة «جاكوبينييه» الصحيفة . كان ذلك كرمًا منه وكان أيضا موقفا واقعياً .

إذا تفحصنا سلوك الشقيقتين خلال الأشهر الممتدة من ربيع ١٨١٤ إلى ١٨١٦ سنلاحظ لدى الأخ الأكبر تحولات عديدة فى مواقفه من خدمة ملك ثم الآخر (والعكس أيضا) وميلاً قويا إلى أن يقف دائما إلى جانب السلطة القائمة من علم مثلث الألوان إلى علم أبيض ، من وسام الزنبقة إلى وسام جوقه الشرف أى ما يسمى بلغة العامة : الإنتهازية . هذا الرجل المحبوب والذكى النشط جعل فى انتها زيته كثيرا من الرقة وقليلًا من سوء النية وهو موقف يندر جداً أن توقع عليه المحاكم أى عقاب وأقل منها الشرطة ، فهما - سواء هذه أو تلك - تعرف جيدا هذه الترددات الأيديولوجية وتعتبر بالنسبة لهم شيئا مألوفا .

أما سلوك جان - فرنسوا فهو مختلف جداً . فحتى بعد إنضمامه لرجل المائة يوم لايكف عن الإعلان عن «ليبرالية» أسامت إليه . وهو يعمل بناءً على ذلك فى توجيه «نداءات إلى الشعب» و«ينشر نخبه فى صحة الجمهورية» وفى كافة كتاباته السياسية . وفى نشاطاته العلنية داخل نادى «الوحدة»* وداخل الفيدرالية . طوال تلك الفترة

* هذا النادى «المناهض للكايزن» كان جمعية سرية ليبرالية فى ١٨١٦ المحامى جوزيف رى يساعده الفنان الرسام سيمون تربول وجان - فرنسوا شامبوليون ثم انضم إليهم بيرانجية دولانورم وفيليكس ريال . ستتكلم فيما بعد عن المساندات التى أرسلتها باريس لهم .

المضطربة التي كان مصير البلد يتحدد فيها بين الألوان الثلاثة أزرق وأبيض وأحمر وتحت شعارات النحل (نابوليون) الزنبقة (آل بوريون) أو البنفسج (الجاكوبية) على مقامات جاكوبيه كبيرة أو كنسية صغيرة فإن جاك - جوزيف كان من الاعيان وجان - فرنسوا رجلا حزيباً . لماذا إذن يعامل هذا مثل ذاك ؟ كان لهما شركاء : بيريا سان يرى وبواسونيه وبولون وهى أسماء شاركت فى «نادى الوحدة» أو فى الفيدرالية ولم يمسا بعد أن عبروا في الخفاء عن شيء من التوبة وهو ما كان الأخ يرفضه لولا أن «صغير» نصحه بغير ذلك .

هل لأنه أثار غيرة العديد من الناس هل لأن نجاحه كان أسرع مما ينبغي ، على العموم كان بروز جان - فرنسوا أوضح وألمع من ألا تطول الفضيحة التالية لهذا العمل البارز أخاه أيضا . هو الذى أراد أن يتحمل وحده كل شيء لكى ينقذ أخاه من إنتقام المتطرفين جر معه أخاه الطيب إلى حيث المفضوب عليهم .

وبناء على ذلك يجب أن نعتبر أن جاك - جوزيف هنا كان ضحية حماس جان - فرنسوا الوطنى . إن ما يؤخذ عليه يبدو تافها للغاية ويمكن إرجاعه على الأكثر إلى التقلبات التى نسيج منها رداء الحياة فى فرنسا فى زمن رأينا فيه قاتلا للملوك يصبح وزير الملك وملكيا يصبح كاتم أسرار «الغول» فى جزيرة سانت إيلان .

كان من الممكن بالطبع أن يؤخذ على جاك - جوزيف خرق خطير للقانون للدور الذى أداه فى هروب درويه دارلون . ولكن هذا التحدى للسلطة لم يكن له أى دور فى إبعاده ونفيه : فهو يقول فيما كتب إنه على الرغم من أن كل ذلك قد جرى على بعد أربع خطوات من مقر المحافظة فإن «مسيو دو مونليقو محافظ إيزار الجديد والجنرال دوناديو القائد العسكرى للمقاطعة لم يدركا أن الكونت دارلون قد مر لفترة قصيرة بجرونوبل (حسب ما جاء فى تقريرهما) إلا بعد أن كان الجنرال قد أمضى فترة طويلة فى موينخ»⁽¹⁴⁾ .

وكما يحدث فى كثير من الأحيان فإن شامبولىون - فيجاك لم يعاقب على «الجريمة» التى اقترفها بالفعل ولكن التى ارتكبها مثله العديد ممن عاقبوه ألا وهى التكيف مع الظروف ..

ها هما الشقيقان مضطربان لترك جرونوبل فى ٢١ مارس ١٨١٦ وبصحبتهم الطفل «على» فى طريقهما للمنزل القديم فى حارة لابودوسكورى . وكان الأمر الصادر لهما يحتم عليهما ألا يقضيا أكثر من خمسة عشر يوما ليقطعا المائة وخمسين فرسخاً التى تفصل بين جرونوبل ومسقط رأسهما وأن يقدموا أنفسهما إلى محافظ مقاطعة اللوت خلال الخمسة أيام التالية لوصولهما هناك .

قبل ذلك بيومين أرسل المحافظ مونليغو مذكرة سرية لزميله فى كاهور وسلم الشقيقين جوازيهما . وتستحق النصوص الثلاثة أن نذكرها لأنها تعتبر بمثابة صور جسدية وسياسية للرجلين – كما كان يراها بدقة عملاء الملكية :

«السيدان شامبوليون لفتا الأنظار بحماسهما فى اعتناق قضية بوناپارت وفى المجهودات التى قاما بها لمساندته . الأخ الأكبر كان عميدا لكلية الآداب وأميناً لمكتبة المدينة . وكان قد طلب من بوناپارت لدى مروره فى هذه المدينة وحصل منه على رئاسة تحرير صحيفة «لوجورنال دوليزار» وهو بذلك أول من نشر مستندات الاستيلاء على السلطة – ومن هنا تبعه إلى باريس حيث عاد منها وقد نال وسام جوقة الشرف . إنه لمّاح وذكى وحسن الكلام مثقف جدا وشكله وسيم . جميع هذه الصفات تصبح ضارة للغاية عند إساءة استخدامها .

«الأخر مثقف جدا مثله وهو أيضا استاذ بالاكاديمية ويهتم كثيرا بالآداب الشرقية وكان خلال فترة السلطة سكرتير لجنة الفيدرالية – شكله ليس على نفس درجة ملاحه الأول إلا أنه أكثر حيوية مما قد يجعله عند التحرك أكثر خطرا .

أما الجوازات أرقام ٢٠٤ و ٢٠٥ فهى تطلب من السلطات «أن تسمح بالمرور على الطريق المؤدى من جرونوبل إلى فيجاك مرورا بليون وأوربلاك [...] لسيو شامبوليون – فيجاك (چاك – جوزيف) أمين مكتبة* يرافقه ابنه البالغ من العمر ستة اعوام ونصف . موطنه فيجاك – ومقيم فى جرونوبل السن ٣٦ عاماً الطول : ١,٦٧ مترا الشعر : كستنائى غامق ، الجبهة : متوسطه ، لون العينين : بنى ، الأنف : رفيع الفم : متوسط اللحية : بنى الذقن : مستدير الوجه : مستطيل لون البشرة : فاتح : علامات مميزة : لا يوجد

* ألفيت جميع القاب الرجلين الجامعية .

و«لسيو شامبوليون الصغير (جان - فرنسوا) أمين مكتبة مساعد السن : ٢٥
عاما : الطول ١,٧٠ متر ، الشعر : أسود ، الجبهة : عريضة ، لون العينين : أسود ،
الأنف : مفلطح* الوجه : مستدير تماماً ، لون البشرة : أسمر ، علامات مميزة : بعض
الأثار البسيطة للجدرى

عمل فى جرونوبل فى ١٨ مارس ١٨١٦

ثمن الجواز : فرنكان

أفضل خلاصة لهذه المرحلة نأخذها من جان - فرنسوا نفسه من خطاب أرسله
بعد عشره أعوام إلى المرأة التى أحبها فعلاً أنجيلكا باللى** :

«فى ١٨١٤ و ١٨١٥ تأثيرى على الشباب الدوفيين الذين يحبون الحرية والذين
كان معظم زملائى وتلامذتى جعلنى شخصاً بارزاً فى تلك الأيام المضطربة هزيمة
الحزب الليبرالى سلمتني مكتوف الأيدي إلى الحزب المنتصر وهو فى قمة عنفه» .

* لم يذكر ذلك أى مصدر آخر .

** راجع الفصل ١٤

٧ - منفى وسط ذويه

عبر الإرهاب الأبيض - «السيدان شامبوليون في أجازة» مؤامرة ديدبيه - جان -
فرنسوا والرقباء - «ماما الحبيبة التي في فيجاك» - روزين وهيلوينز - الدجاجة الجميلة
والديوك - أو كسيلو دونوم - مدرسة «لانكستريه» - «سعة صدر السلطات» - والد
«في مستوى أدنى من الوحوش» - القواعد اللغوية المصرية - ستكون جرونوبل ...

ألقى باستار ومونليفو الشقيقتين شامبوليون ومعهما الطفل «على» على طرق مازال
يخيم عليها شبح الإرهاب الأبيض* وهي المؤدية إلى مقاطعة كارسي . كانت فرنسا
حينذاك - وجنوبها على الأخص - تعيش مرحلة ما أطلق عليه اسم «مجلس النواب
الثانية**» والمحاكم الاستثنائية و«الجاكوبيين» البيض والانتقام العظيم «لطاقنى الأنوار» .

مدينة نيم عرفت من جديد لعدة شهور الحروب الأهلية الدينية بين كاثوليك
وبروتستانت فقام بعض مثيرى الشغب من الكاثوليك باسم الملك بمطاردة البروتستانت
مفترضين أنهم (يدينون بالولاء للمغتصب) . والمرحلة من تولوز إلى مونبيلييه كان
«الجنزاريون» نسبه إلى لون علم الكونت دارتوا الأخضر الذى كانوا يحملونه -
يعتزمون إقامة «المملكة الأوكسيتانية» المؤيدة للمتطرفين - بدعوى أنهم بذلك يسرعون
فى التخلص من المركزية الجاكوبية . أفينيون وأوزاس كانتا واقعتين تحت رحمة
مجموعة من الرعا ع بقيادة «بلطجى» يدعى بوانتو يعيشون فيها عنفاً وفساداً : حتى أن
المارشال درون أعدم دون أية محاكمة وألقيت رفاته فى نهر الرون كما أغتيل الجنرال
رامال ثم قطع جسده إربا وهو على فراش الموت على يد قتله مخمورين .

يبدو أن هذا هو السبب الذى جعل المحافظ مونليفو يأمر بأن يسلك المنفيون طريق
الجبيل عبر الماسيف سنترال إلى ليون وأوريبياك الأقل عنفاً متحاشياً أسوأ الظروف أى
أن يقعوا فى أيدي عصابات من ذلك النوع .

* لون العلم الملكى (المترجم)

** وهو الذى انتخب فى أغسطس ١٨١٥ . كان ٨٠٪ من نوابه من الحزب المتطرف «Vetras» والذى
أطلق عليه هذا الاسم هو الملك لويس الثامن عشر المناهض له بسبب تعارضه مع مزاجه وتفكيره الكاره لآى
شكل من أشكال التطرف فقام بحله فى سبتمبر ١٨١٦ .

أعطى جان - فرنسوا سرداً غريباً للغاية عن هذه الرحلة ضمن خطاب وجهه إلى أوجوستان تيفنيه - يجب عند قراءته إضافة السخرية المستترة فيه حتى يتضح التهكم الذى يغلفه المديح الموجه إلى السلطة تضليلاً منه للرقباء .

«عبرت في رحلتى محافظات الرون ولوار العليا والپوى دو - دوم والكوراز والكانتال واللوت ، جميعها يقطنها سكان على درجة من العمى تمنعهم من رؤية لماذا يتحتم عليهم حب مليكنا الطيب [..] هؤلاء المتوترون كانوا يريدون أن يتمتعوا على الفور بالخير الوفير والوثام أيضا . وهذا غير ممكن الآن وعليهم أن ينتظروا أن يحتل خدام مولانا الطيبون ومحبو المبادئ السامية جميع المراكز وأن يحملوا بجميع الامتيازات ..»

تكمل هذه السطور الساخرة سطوراً أخرى مشفرة لأبد وأنها «دوخت» السادة موظفى «المكتب الأسود» .. ولكن فيما عدا هذه العبثيات البسيطة فإن سلوك جاك - جوزيف وأخيه الأصغر كان سلوك المواطنين المنتظمين . استغرقت الرحلة الخطرة إلى موطن الرأس الفترة المقررة لها . فقد أمضيا أسبوعين ليقطعا المائة وخمسين فرسخا التى تفصل جرونوبل وفيجاك مع الأخذ فى الاعتبار الالتفافات التى اضطروا أن يسلكوها فوصلوا إلى هدفهم فى ٢ إبريل ١٨١٦ .

ما وجداه هناك هل كان سجناً أم مأوى ؟ هل كانا فى رحلة ابتعاد تسمح بتقييم الأمور ؟ هل سيواجهان مسئولين من نوعية الرباعى المتعصب الذى عانيا منه فى الإيزار : مونليفو وباستار ودوناديو وبيينا ؟ هل سيواجهان فى اللوت عصاة سوداء أخرى «كازينو» أخر وهما نجلا تاجر الكتب الجاكوبى ؟

قط ! تشير المستندات الرسمية المتعلقة بهذه المرحلة الفريدة والتى يمكن مراجعتها كما تشير مراسلات «المنفيين» أن سلطات اللوت التى سلما لها بدأت بشيء من الريبة والتخوف - إذ لابد وأن يكونا من المشاغبين الخطرين جداً ما داما يعاملان على هذه الصورة - ولكن سرعان ما أبدت نحوهما تفهما ذكياً واستبدلت بالمضايقات والإزعاجات التى تعرضا لها على يد سلطات جرونوبل الجديدة مودة حقيقية جديدة باهل جاسكونيا* .

* الجاسكونيون مشهورون بأنهم يعيلون للمباهاة والمغامرة ولكنهم أيضا يتصرفون بذكاء وبراعة . وأصبحت الصفة جاسكونى تطلق على شخصية لها هذه الصفات .

أصبح مصير آل شامبوليون بين شخصيتين : الكونت داولوزى مارنيزيا - محافظ اللوت والبارون دو كامباننى - مساعده في فيجاك . لانتعلم الكثير عنهما إلا أن ما نعرفه يشير إلى أنهما تصرفا كإناس محترمين يهتمهم السلام الاجتماعى ولا يبحثون عن عمليات إنتقامية . ويكفى قراءة تقاريرهما للتأكد من ذلك :

فى ٣٠ مارس ١٨١٦ عندما إستلم المحافظ لوزى مارينزيا رسالة من باستار يطلب منه فيها أن يضع هذين الشخصين تحت رقابة [...] قانونية» فإنه كتب إلى مساعده في فيجاك يطلب منه إفادته عن جميع التفاصيل المتعلقة بهذين المنفيين ويسأله إذا كانت هناك خطورة في أن يدخل القادمين فى علاقات «مع بعض الرؤوس السيئة فى المدينة» ولكنه يضيف فى الوقت ذاته مذكراً أنه إذا كان من الواجب الحفاظ على «الامن العام بوسائل تتسم بالعقل وبعد النظر» فإنه من الواجب أيضا «المساس بأقل قدر ممكن بحقوق المواطنين» و «الابتعاد عن أى إجراء متشدد لا لزوم له»

يقول مساعد المحافظ كامبانى في رده «أن هذين الشخصين هما نجلا تاجر كتب صغير أصله من جرونوبل» وأن «الأخ الأكبر قد حصل على مركز مرموق لنفسه وآخر لأخيه بعد أن تزوج هناك زواجا جيدا» ولما كان الاثنان غريبين تماما بالنسبة لسكان فيجاك بعد غيابهما الطويل عن أعينهم فإن إقامتهما فى هذه المدينة لا تمثل «أى خطر».

ويستطرد مسيو دو كامبانى قائلا «بدأ لى السيدان شامبوليون فى غاية التأثر من الاجراء الذى أتخذ حيالهما [...] قد ترون أن تلبى رغبتهما الملحة ألا يعلم العامة أى شىء عن سبب وجودهما فى فيجاك لقد أشاعا أنهما هنا فى إجازة [...] إنهما يتعهدان بالبقاء الدائم وسط عائلتهما وألا يقابلا سوى الأشخاص المعروفين بولائهم للقضية العادلة [...] يبدو طلبهما مقبولا بالنسبة لى [...] من جهتى سأعمل على عدم استخدام الوسائل التى قد تجرح شعورهما..»

قام مساعد المحافظ بالطبع وبصفته ممثلا جيدا للسلطة العامة بمصادرة جوازيهما غير أن هذه المذكرة تعطى فكرة عما ستكون عليه علاقاته بجاك - جوزيف وجان - فرنسوا . إذ ستتطور من حالتها الطيبة هذه إلى نوع عن الصداقة وخاصة مع الأخ الأكبر ولعلنا نستشعر تدخله فى تحرير المذكرة السابقة وخاصة فيما يتعلق «بالقضية العادلة» و«عدم جرح شعورهما» . ليس واضحا إذا كان «صغير» قد عمل بقوه على نسيان أنه ضحية إنتقام المتطرفين . لكنه التزم برغبة أخيه ، صديق رجال السلطة ورجل الأوسمة والأصول وغير الميال للعب دور الشهيد ..

لذلك فإن السلطة التي خلطت عن خطأ في جمعها الرجل شبه الرسمي بالتأثر ، عادت - وهي تمارس على يد رجال عاقلين مثل لوزيه - مارنيزيا وكامباني إلى التمييز بين الذي لا ينتظر سوى العودة إلى رضا «العصر» عنه والذي لا يجد غضاضة في وضعه كضحية بطش السلطة المكروهة .

الواقع أن مواقف الشقيقتين ستباین بعد قليل فيما يتعلق بالإطار الذي يمضيان فيه مدة «نفيهما» لم يتوقف جاك - جوزيف عن الإحساس بأنه منبوذ ومهان في موطنه على حين لم يلبث أن اكتشف شيئاً من السحر في هذه المناطق النائية . لقد سبق وأن اكتشفنا أن جاك - جوزيف من فئران المدينة وأن جان - فرنسوا فأر حقول ..

بشائر الخير النسبي التي بدأت معها فترة الإقامة الإجبارية في فيجاك كادت أن تتحول إلى فال شؤم بالنسبة للشقيقتين بسبب حدث أثار اضطراباً كبيراً في جرونوبل والدوفينية كله بعد وصولهما إلى الكارسي بفترة قصيرة : هذا الحدث هو ما عرف «بمؤامرة ديدييه» .

في ٤ مايو ١٨١٦ قامت أربع مجموعات مشكلة كل واحدة منها من مائة فرد تقريباً بعضهم من الجنود المسرحين والبعض الآخر من الفلاحين السكارى قدموا من جريزيقودان والوازان من طريق فيزيل واييانس - قاموا بالهجوم على جرونوبل وحاولوا الاستيلاء على المدينة وكان على رأسهم وقام بتجنيدهم جان - بول ديدييه المدير السابق لمدرسة حقوق جرونوبل وكانت آراؤه السياسية تتردد بين الليبرالية والثورة المضادة والأهم من ذلك أنه كان رجل أعمال ديونه كثيرة للغاية ومستعد للقيام بأي عمل ينقذه من الإفلاس . كاد إهمال وعدم بصيرة الجنرال دوناديو أن يتسببا في أن تتغلب عليه هذه المغامرة الغبية .

لصالح من كان يعمل ديدييه وعصاباته ؟ نابوليون الثاني ؟ إنتشرت الإشاعات تؤكد أن المتآمرين كانوا على يقين من أن ابن الإمبراطور (ملك روما)* أو الإمبراطورة كان في انتظارهم في المدينة ، أو لعل الأمير أوجان نوبوهاريه** كان معسكراً في

* كان في الخامسة فقط في ذلك الوقت فقد ولد في ١٨١١ [الترجم] .

** ابن زوجه الإمبراطور الأولى جوزيفين - عينه نابوليون نائباً لابنه نابوليون الثاني ملك روما [الترجم]

الجبال .. ترددت إشاعات أخرى تقول إن دوق دورليان الذى أصبح فيما بعد الملك لوى - فيليب - أو الأمير دورانچ هما اللذان كان يعمل لحسابهما ديدييه .
بالنسبة لآخرين كانت عملية استفزازية من تدبير فوشيه (وزير الداخلية فى عصر نابليون) .

كان من الطبيعى أن يؤكد البعض أن الأوساط الليبرالية والبوناپارتية فى جرونوبل كانت ضليعة فى العملية إلا أن شارل رونودون ابن العمدة السابق الذى كان على رأس هذا التيار السياسى وصديق جان فرنسوا شامبوليون الحميم تمكن من أن يثبت أنه قد رفض المشاركة فى هذه المغامرة كما أنه منع أصدقاءه من التورط فيها . علاوة على أن سمعة ديدييه فى الأوساط الليبرالية الجرونوبلوزية كان مشكوكا فيها جدا وأنه جند الرجال من المدن المجاورة فيزيل ولامور واييانس ومن الأرياف .

جاء القمع دمويا : أعدم ثمانية عشر متآمرا (من بينهم ولد فى الخامسة عشرة) رميا بالرصاص فى ساحة المدينة قبل أن يتم القبض على ديدييه الذى فر إلى سافوا وترحيله ومحاكمته محاكمة سريعة وقطع رقبتة على الجيئوتين فى ميدان جرونات فى العاشر من يونيو وأدى هذا القمع إلى الدفع بالمدينة فى أحضان المعارضة المبررة لأسرة بوربون . إذا كانت جرونوبل تفتخر بأنها عبرت مرحلة الثورة دون إراقه دماء ابتداءً من الاجتماعات التى مهدت لها فى فيزيل (١٧٨٨) فى المائة يوم . فأعتبرت هذا القمع الدموى «إهانة» لها⁽¹⁾ .

على الرغم من نفيهما من جرونوبل منذ ستة أسابيع عندما إندلعت العملية فقد كان للشقيقتين أصدقاء كثيرين من أعداء النظام حتى يشكك فى ضلوعهم بطريقة أو أخرى مع المتأمرين أضف إلى ذلك أن ديدييه كانت له علاقات عمل مع بيريا - سان برى أخى زوجه فيجاك . وكان هذا يكفى لكى تتوجه شكوك الرباعى الرهيب فى قمعه نحوهما .

غير أن مونليفو ذاته اضطر إلى أن يصرف النظر عن أى ملاحقة لهما وكتب إلى وزير الشرطة :

«على الرغم من أن ميول الشقيقتين شامبوليون تدفع بسهولة إلى الاعتقاد بأنهما لم يكونا بعيدين عن القلائل الأخيرة فى جرونوبل إلا أنه لايتوفر لدى ولاخطاب واحد

ولأى محرر من السيد شامبوليون الكبير له علاقة بالموضوع ؛ يوجد خطاب واحد من الأخ الأصغر كتب بأسلوب غامض قد يدفع إلى بعض الشكوك إلا أنها شكوك واهية وهى أيضا صعبة التفسير بقدر ما يسهل نفيها .

خطاب من «صغير» ؟ لم يكن الكونت دومونيلفو يجهل شيئا بالطبع عن مراسلات جان - فرنسوا مع أصدقائه فى جرونوبل فهو كان يدقق فيها تدقيقا بواسطة موظفية . ولما كان جان فرنسوا على علم تام بهذه الوسائل التفتيشية فقد إنتهزها فرصة لكى يفصح عن رايه للرقباء . مثال ذلك فى هذا الخطاب المؤرخ ٢٥ إبراهيم ١٨١٦ بعد ثلاثة أسابيع من وصوله إلى كارسى* ، المرسل إلى صديقه أوجوستان تيفونى :

«يجب عدم تفسير صمتى على حساب قلبى . لولا الشرطة الموقرة التى تعتقد أن من واجبها أن تراقب مراسلاتى لكتبت لك أكثر مما أفعل الآن . وعلى الرغم من أن خطاباتى لاتحتوى على شىء يمكن أن يثير حفيظة أكثر الفنانين حساسية [...] ولايعلم هؤلاء السادة أن لدى الأصدقاء آلاف الأشياء التى يودون تبادلها ويعتقدون أن أى مراسلة مستمرة تعنى «خطة» أو «مؤامرة**» لا أعرف [...] إذا كانت عيونهم عيون صقر أو حتى دجاجة*** ويمكنها أن تقرأ مضمون هذه الرسالة عبر ورقها فإن من دواعى سرورى أن يجلبوا هنا تعبيرى الصادق عن عمق إزدرائى ولى الشرف أن أكون - المطيع جدا والمتواضع جدا [لم يكتب قلمه شيئا بعد اكون] .

بعد بضعة شهور أى فى نهاية ١٨١٦ فضل شامبوليون ، بدلا من تحويل خطاباته إلى تحد دائم للرقباء ، أن يجعلها تمر فى سرية عن طريق محام اسمه ماتر لوبينى من مدينة فيلفرانس .. دو رودوارج . على بعد أربعين كيلو متر من فيجاك الذى أصبح «صندوق بريد» لحلال الألغاز الذى أصبحت كتابته مشفرة ...

هل حدث قبيل سفر الشقيقين شامبوليون أو منذ سفرهما أن طلب منهما أن يعلن «خضوعهما» لـ «إتفاديان أمر النفى» ؟ كتب محافظ الإيزار فى إحدى رسائله لوزير الشرطة أن «إبعاد» الشقيقين «كان له تأثير عظيم على مؤيديهم» وأن «اثنين من كبار المتعاطفين معهما - جاء اليعلنا خضوعهما ومعهما المحامى بواسونية - خشية أن يلقون المصير ذاته» .

* قبل عملية ديدييه ببضعة أيام

** السطر موضوع فى النص الأملى تحت الكلمتين

*** فى النص الفرنسى Becasse أو فرخة الأرض وأسمها الشعبى هو Solle أو غبية (المترجم) .

وقد علم «صغير» بذلك فضحك كثيراً على ذلك وكتب خطاباً آخر لتافينة :

«إن الاعتدال الذي عبر عنه بواسونيه* منذ ٩٢ وفى الفيدرالية عام ١٨١٥ يستحق هذه الخدمة بدلاً من الروح الثورية والتعطش للدماء والعنف المتطرف التى هى أراء صديقك ، مناضل الثورة القديم الجاكوبيين فى جرونوبل كما يعلم الجميع .

على الرغم من أن النظام الذى فرض على صديقينا المنفيين قد أصبح انسانياً جداً بفضل مسيو نو كامبانى فإن عميد كلية آداب جرونوبل السابق كان يتحمل وضعه «ليس سجيناً ولكن...» بشكل سىء للغاية جعله يقوم بعدة محاولات فى كافة الاتجاهات ليخرج من هذا الوضع .

أعد ابنه إيميه فى كتابه «الشقيقان شامبوليون» قائمة (ص١٦١) بالخطابات التى أرسلها جاك - جوزيف إلى الحكومة (٢٣ مارس و ٤ إبريل و ١٦ سبتمبر) وإلى محافظ الإيزار لكى يرفع عنه العزل . كما أنه يذكر المخاطبات التى أرسلها محافظ اللوت لنفس الغرض إلى وزير الداخلية (لينييه) والشرطة (يوكاز) وكان قد تأثر مع الوقت بالأسباب التى يقدمها شامبوليون - فيجاك . وكان صديقه الوفى دوجيه يساند كل ذلك فى مكاتب الوزراء .

تجمعت هذه الأسباب فى خطاب وجد وسط أوراق الأسرة وهو موجه لأحد الأشخاص المذكورين :

« .. السيدان شامبوليون لايزالان من الشباب وهما يكرسان وقتهما كله للدراسات الجادة [...] يكادان لا يختلطان بأحد** إذ كان يجعلان من إختصارهما عن العالم تعود ضرورى [...] هل لانهما إنتزعا من عاداتهما هدفهما بصورة مؤقتة - لبضعة أيام*** بسبب أحداث لا يصدقها عقل ، أصبحت فجأة رئيسا حزب كان موجوداً قبل أن يولدا وعلى الرغم من بعدهما التام عن الفضائع الرهيبة فهل يمكن أن يحرضا على ترك النظام وعدم احترام الأشخاص والممتلكات؟»

* كان المحامى بواسونيه منذ أكثر من عشرين عاماً أحد زعماء التيار الجمهورى فى محافظة الايزار الأكثر نضالاً .

** شامبوليون فيجاك الألعى يتعامل هنا مع الحقيقة على هواه ..

*** مائه يوم على العموم ...

كله حرير هذا الجاك - جوزيف ، يلتف ويتميل ...

باختصار فإن المدرسين الشقيقتين وإن كانا يعاملان باعتدال من سلطات محافظة اللوت ، معاملة تحولت مع الوقت إلى تعاطف ، فقد استمررا على هذا الحال مهمشين لعدة شهور وكان أن استخدما كل موهبة لديهما وكل سحرهما (بالإضافة إلى التعاطف الذي أحيطابه وخاصة في الوسط العائلي) لكي تتبدد الرقابة عليهما وتتبخر المخاوف منهما وأن تعود الأمور إلى طبيعتها .

من المعتقد أيضا أنه لم يتجمدا في موقف من اليأس طويل الأمد بل إنهما بدءا يؤمنان بقرب الرجوع السريع إلى رضا السلطات عنهما بعد أقل من ستة شهور من إقامتهما في مدينة مسقط رأسهما . في ٢٠ سبتمبر ١٨١٦ كتب جان فرنسوا إلى تيفوينه .

«يبدو أن حل الملك للجمعية الوطنية ينبئ بحدوث تغيير سعيد في توجه الأحداث . سيحصل المتطرفون على كل شيء وصاحبك قد يكون على حق . فهو يعتمد اعتماداً كبيراً على الروح الدستورية الحقيقية إلى تحرك الوزارة* ، التي ستسرع برفع الظلم وتصحيح الأخطاء التي ارتكبت باسمها [...] يبدو أن الوزير الذي حل مكان فورييه سيأخذ توجهها آخر ، فهو إذ يرى أن قضية المتطرفين أصبحت خاسرة يتوقف عن إنتهاج عن سياسة التساهل الزائد التي كان يعاملهم بها [...]»

ويكمل صغير خطابه بما نقل إيه من أن مونليفو لا يعارض عودة الشقيقتين إلى جرونوبل إذا كانت عودتهما لن يكون لها تأثير كبير على الرأي العام في وضعه الحالي .. أن «تمتعهم بكل هذا التأثير في جرونوبل كان نقمة عليهما وكذلك كل هذا العدد من الناس المتمسكين بهم» ومع ذلك فإذا «طلب رؤية فإنه سيكتب تقريراً يؤيد فيه بالتأكيد طلبهم...»

الأسرة ... !! عندما عادا في أبريل إلى منزل حارة لابود وسكوري حيث أمضيا السنوات الأولى من حياتهما : الأول حتى السابعة عندما وضع في رعاية «لاكاتينو» والآخر حتى سفرة إلى جرونوبل وهو في العاشرة ، لم يجد جاك - جوزيف وجان - فرنسوا سوى والدهما وأختيهما . كانت الأم قد توفيت منذ عشر سنوات تقريبا . يتروننى تزوجت من أحد الحرفيين من المنطقة - أما يتريز التي تدير المكتبة أو بالأحرى ما تبقى منها ومارى التي ترعى المنزل .

* وزارة ريسوليد - بوكاز

تيريز كانت فى الثانية والأربعين وتعنست وستبقى هكذا ومارى وكنيتها «ميون» وهى فى الرابعة والثلاثين : هى أيضا لن تتزوج ولعل كان ذلك بسبب أن ليس لها مهرا* أو «ضطة» . إنها المفضلة لدى جان - فرنسوا الذي يصغرها بخمس سنوات وقد وجدت فى «على» ما يعوضها عنه . لاشك أن الجو العاطفى الذي كان سائداً قديماً عاد إلى الظهور فوراً بين «صغير» وأختيه إذ كانتا تدللانه جداً لأنه طفل المعجزة حلثا فى كثير من الأحيان مكان والدتهما فى العناية به لذا بعد أسبوع من وصوله كتب جان - فرنسوا يقول لتيفونيه :

«وجدت أسرتى متشوقة لرؤيتى من جديد بالقدر الذى كنت أتمناه . سعادتى كانت ستكون مكتملة تماماً لولا أنى تركت أشياء كثيرة ورائى هناك [...] أنا دو بنى حتى النخاع بدت لى فيجاك كبلد جديد ..»

لكن هناك الوالد جاك شامبوليون تاجر الكتب المتجول الدوفينى فتوة سوق بوكار المرح . زوج السيدة العليلة جان - فرنسواز جاليو التى سمحت له ضبطها بشراء الدكان ، رجل الشرطة فى ١٧٩٣ ، الرجل الذي يودع أحد أولاده فى حضانة سيدة غريبة عن الأسرة ويدع الآخر يترك المنزل وهو فى العاشرة إلى مدينة بعيدة - هذا الرجل لم يعد - وقد بلغ الثانية والسبعين - سوى صورة كاريكاتورية لما كان عليه وهو كاريكاتور زاعق ومثير للمشاكل .

إنه يعاقر الخمر بكثرة . هل يعود ذلك إلى أنه يريد مواساة نفسه عما آلت إليه المكتبة ؟ أم أن العكس هو الصحيح وأن مكتبته بدأت تنهار بسبب سكره ؟ بعض المؤرخين المتعاطفين يقولون إنه «ترك نفسه يسير وراء أصدقاء السوء» ، حسنا . الواقع هو أن الرجل الذى قابله الشقيقان لدى عودتهما كان منهارا جسدياً وساحباً أسرته وراءه فى طريق الإفلاس التام .

هل فاجأهما هذا الوضع ؟ سبق أن أتاحت لنا فرصة الحديث عن العلاقة الغريبة بين المكتبى وإبنيه . أى أب آخر كان سيذهب لتحيتهما فى لحظات مجدهما عند إفتتاح جامعة جرونوبل أو عندما رقى الابن الأكبر إلى مركز عميد الكلية . فبالنسبة لرجل كانت حياته كلها مكرسة للكتب والتجارة فيها ، كم هو منعش ومفرح أن يرى إبنيه الأول وهو بعد فى الثلاثين والآخر فى الثامنة عشر وهما يرتديان زى الاستاذية الجامعى :

* فى معظم بلاد الغرب العروس هى التى تأتى بالمهر . (المترجم)

خصوصاً أن بائع الكتب الجوال السابق لم يكن قد فقد ميله للسفريات إذ كان لا يزال يواظب على السفر كل عام في شهر يوليو إلى بوكار ليتزود بالكتب . فإذا هو لم يحضر للقاء ولديه عند وصولهما لقمة النجاح في موطن رأسه في الدوفينييه فلا بد أن سبب ذلك إما كان عائداً إلى قرار بوليس يمنعه من الحضور (ولكن الأوامر كانت في تلك الحقبة تتغير باستمرار حسب الظروف السياسية ثورة ، بونابارت ، آل بوربون ...) أو إلى أن مستقبل إبنيه كان يهمه بقدر اهتمامه بالقنينة المحبة وسيدات اللوت صاحبات السمعة السيئة .

الواقع هو أن العلاقات بين الأستازين والعجوز ساءت جداً ولم يكن جان - فرنسوا يناديه سوى بـ «الريس» - وهو تعبير لا ينم أبداً عن حب ابن لأبيه .. وقد يكون هذا هو السبب الذي ترجع له حالة الاكتئاب العميق التي انتابت الأخ الأكبر لعدة شهور والأخ الأصغر لعدة أسابيع من إقامتهما في فيجاك .

علاوة على ذلك فهناك أسباب أخرى كانت تجعل الشقيقين يعتبان على والدهما ، غير الإفراط في شرب الخمر وما يسببه ذلك من آثار على الشخصية كانت هناك أسباب أخرى أهمها أنهم كانوا مفلسين تماماً وليس معنى ذلك أنهما كانا يضعان أمالهما (بالنسبة لجان - فرنسوا على الأقل) في الميراث ، ولكن مستقبل شقيقتيهما العوانس هو الذي أصبح فجأة في مهب الريح بسبب فسق الوالد العجوز - خلفية كئيبة لحياة ضاعفت الظروف السياسية المتقلبة من وطأتها الثقيلة أصلاً .

فلنحاول تصور هذه الحياة التي تجمع ستة أفراد (منهم «على» الصغير) داخل المنزل بحارة لابود وسكوري الذي لاتعرف الشمس طريقه ولا حتى الدور فوق الأرضي منه حيث تقيم العائلة ، ولنتصور أيضاً الحالة المزرية التي وصل إليها المكان بسبب مالية الوالد ولنتصور أيضاً حالة المكتبة التي تبعد عن المنزل ببضعة عشرات من الأمتار في الساحة القريبة والتي هرب منها زبائننا بسبب الرجل السكير . كانت تزين بالطبع تحسن استقبالهم .. ولكن هل كان جاك يقوم باللائم نحو امداد المكتبة بالكتب ؟

كم كان الوضع الجديد يعتبر سقوطاً رهيباً بعد ما عرفاه من حفاوة بهما في المجتمع الجرونوبلوازي : الليلة عنه فوريه ثم عند بيريه أو اسره رونولدون ، أو عند ال مارسيو أو تيسار . كم كان وضعهما الآن مريراً ! عبر جاك - جوزيف عن ذلك كثيراً في خطابه لزوجته والتي ينتهى أحدها بهذه الكلمات اليائسة «... لا تجدى هنا بعد

جهد جهيد أربعة أو خمسة أفراد يمكن تبادل حديث عاقل معهم [...] الدقائق هنا تمر كالأيام والأيام كالشهور والشهور كالقرون ..»

نفس النغمة تجدها في البداية لدى جان - فرنسوا . إكتشفنا خطاباً وجهه لتيفونى مؤرخاً في الأول من مايو يوضح ذلك تماماً : « .. أمضى وقتى هنا بحزن شديد .. أتائب وأسب طوال النهار [...] لا أعرف متى سأتمكن من رؤية جبالنا الجميلة مرة أخرى ، لم أتصورها في حياتى جميلة بهذا الشكل ..»

ماذا ؟ لا أصدقاء ؟ هل بقوا جميعاً في جرونوبل أو في باريس مثل دوجيه ؟ لنستمع إلى هذا الغندور الخارج من إحدى روايات ستندال .

« ... شباب مدينتنا - مثلاً هو الحال في كل البلاد الخصبة التى لا توجد بها صناعات محلية - لا يهتمون سوى بالخيل واللعب ويمارسون* الجنس اللطيف [...] لا يوجد مجتمع - إن هواء الشياطين من أصحاب الآراء السياسية يفككون أوصال الصالونات تماماً ..»

هذا من كان يكتبه طوال الشهر الأولى من إقامته في اللوت وفي نهاية الربيع . إلا أن النغمة ستتغير . ومع الأخذ في الاعتبار الجو العائلى الثقيل على نفسه سنجد شامبوليون الصغير يتفتح كالزهرة في مسقط رأسه - هذه المدينة الصغيرة - بعد أن مسه الجو النقى بحيويته وبعد أن أضفى وجود شخص كريم بجانبه إشراقة لنفسه ، نراه يفكر في روزين (ولعلها زادت سحراً مع البعد) ويستعيد دوره الحيوى كمنشط للحركة الفكرية ومحط أنظار الصالونات وهو الدور الذي كان يؤديه طوال السنوات الثلاث أو الأربع التى قضاها قبل الآن في محيط جوزيف فورييه .

وجود كريم ؟ سبق أن ذكرنا بعض مقتطفات من خطاب أرسله إلى صديقه العزيز أو جويستان تيفونيه يتكلم له فيه «صغير» عن «ماما الجميلة والحببية في فيجاك» .

لم يكن هذا تلميحاً عابراً منه إذ يضيف «صغير» «انه كابن مطيع «يحترمها» قد قبل مبررات هذه «الأم» خاصة وأن تدخلها كان يستوجب تقديراً أكبر لأن دفاعها كان «لصالح رجل يتسلى كما تعلم بالقيام بأعمال تضاييقها وهى فى ثبات عميق» . وفى نهاية الخطاب وبعد أن أوضح له كيفية إرسال خطاباتة عن طريق مدينة فيلقرانش يقول

* تحفظ مرحلي جداً .

جان - فرنسوا لتوفينية : « هذه فكرة أخرى من أفكار ماما . أنظر كم هي طيبة وكم نحن مدينون لها » .

بعد ذلك بعدة أشهر في ٦ مايو ١٨١٦ نقرأ ما يلي من خطاب مرسل لتيفنيه أيضا : « إن سفر أخى هزنى جداً : كما أن هذه الأم الطبيعية والعظيمة التى كلمتك عنها عدة مرات سافرت هي أيضا إلى الريف . أنا إذن وحيد .. »

من هي هذه « الوالدة الكريمة » التى يكن لها هذه البنية العاطفية ؟ بعد وفاة جان - فرانسواز بعشر سنوات والتى كان يضايقها وهي نائمة هل هي إحدى شقيقاته ؟ نشك جداً فى ذلك هل هي إحدى المرضعات القاطنة فى حارة لابودوسكورى / إن الدفاع عن صديق مذنب يدفع إلى الاعتقاد بأنها امرأة متعلمة هل هي إحدى الجارات ؟ تتعدد الافتراضات ..

هناك افتراض آخر سنرى فيما بعد* عند الحديث عن الأزمة المالية التى ستواجهها الأسرة والتى سيتعامل معها بشجاعة صديقنا المكتشف . إنه حصل على مساعدة سخية جداً من « الأصدقاء الحقيقيين » آل جانسيون . ومن جانبه يذكر صاحب كتاب « الشقيقان شامبوليون » أن هذين الزوجين ذوى النفوذ الكبير والثروة الضخمة (الزوج سيصبح عمدة فيجاك** فيما بعد) قد أحسنا إستقبال المنفيين . كانت مدام جانسيون (إسمها قبل الزواج كان ماري دو فلوران) فى السادسة والأربعين فهل هي هذه الأم التى تكرر كلام جان فرنسوا عنها*** .

سنكتشف مع استمرار مطالعتنا لمراسلات المكتشف وجود سيدة إسمها أديل سيقول عنها لأخيه أن تعلقه بها يوازى تعلقه به . وهو ما يؤكد درجة من الارتباط ليست هينة كما يؤكد بحثه عن الأم وهو بمثابة إحدى العلامات المميزة والمؤثرة فى حياة هذا الرجل ذى الأحاسيس المحبطة .

هذا الرجل الذى لم يذكر ولا مرة واحدة غير مراسلاته المليئة بالحياة والعواطف أمه المذكورة فى شهادة ميلاده التى لم يرها قط منذ أن تركها وهو فى العاشرة ، نراه الآن بعد أن تخطى الخامسة والعشرين وفى فى خضم أعنى العواصف السياسية

* انظر ص 300

** من عام ١٨١٧ حتى ١٨٢٥

*** حصلنا على هذه الإشارة الكريمة من مدام سيمون فواساك .

واقعا تحت الحاح مستمر لموضوع الأم . الواقع أن حياة جان - فرنسوا هذا الإنسان العاطفى والإنفعالى والذى سبب له حرمانه من الأم ألما مؤكدا . هذه الحياة قد تغيرت بسبب هذه « الأم الموجودة فى فيجاك » .

بعد أن انتزعه هذا الظهور العاطفى فى حياته من الحزن ، وجد جان - فرنسوا الوقت اللازم للتفكير فى الأنسة التى كان قد طلب يدها . وكان الأب بلان غير مبال كما رأينا لأن يلبى له هذا الطلب كما أن نفى العريس لم يكن من الأمور التى كانت تجعله يغير رأيه : مدرس مفلس وثورى مندفع وفوق كل ذلك منبوذ ! كل ذلك ما كان ليقتنع عاقلا ..

مع ذلك الشاب لم يستسلم . كتب لصديقه جيمس بوزى « .. كلمتنى عن روايتى . لا أعرف إذا كان الأب ب . قد سحب كلمته [...] إن هذا لايؤثر فى كثير لانه متقلب المزاج [...] كما أن للقمر أوجه متعددة كذلك الحال بالنسبة لحمايا القادم » حما المستقبل ؟ بعد ؟ هكذا هم الشباب ! طبعاً !! إذا كنت فى طريقك إلى اكتشاف اللغة القدسية لأقدم شعب فى التاريخ فإنك لا تأبه كثيراً بالتقلبات المزاجية لصاحب مصنع صغير .

وحتى يحين زمن الجد فلنفكر فى فى روزين ونتكلم عن روزين مع تيفونيه بالطبع فى ٢٥ أبريل ١٨١٦

«وصلنى الآن خطابك يا عزيزى الصغير ووصلنى فى اليوم ذاته واحد من (روزينتى) أن القدر الذى بليت به أصبح أكثر احتمالا مادمت أحصل على مواساة الحب والصدقة»

الامر إذن لم يعد نفخة عاطفية قصيرة فقط . وبعد عام كامل يعبر لصديقه ذاته فى إحدى رسائله أنه يهنئ نفسه لما يلقاه من «حب كهذا من جانب صديقة حقيقية حنونة» ...

بالنسبة للمنفى فإن الحب والصدقة لايتعارضان بل يتفاعلان كما يوضح ذلك هذا الطلب الملح الذى أرسله لا وجستان :

« .. إنى أوصيك بالحاح أن ترى أحد الأفراد كلما أمكن ذلك : إنها تحب صحبتك وأن ما يسعدنى أن أجدها تتفق معى فى ذلك ؟ حاول أن ترفه عنها قدر الإمكان

وامنعها من أن تترك نفسها للأفكار السوداء التي تراودها كثيرا وتؤلفها ألماً عظيماً .
اخترع لها روايات* لو رأيت أن فى ذلك ما يريحها ...

مهما كانت رغبته فى أن يضمن الترفيه عن روزين فإن «صغير» لا يعبر عن هذا التفكير الليبرالى المشهور عنه فى مجالات كثيرة أخرى عندما يتعلق الأمر بقراءات الفتاة . فهو لا يقبل تلبية «نزوة» هاتين الفتاتين** المتمثلة فى طلبهما قراءة كتاب «لانوفاى إيلووينز***» عندما نقل تيفونيه رغبة الفتاتين فى أن يشتري لهما رواية روسو ، رد جان - فرنسوا ، نعم جان - فرنسوا شامبوليون !! «إن أقل ما يقال عن هذا الموضوع هو أنه غير ضرورى» ..

ويضيف صاحبنا المكتشف مؤكداً أنه إذا كانت من الممكن لإبنة العم أن تقرأ مثل هذه الرواية «لأنها باردة بطبيعتها» فإن روزين «لها عقل نشط يمتلىء بسهولة بأوهام لامعة ولها أحاسيس شاعرية قد تجد متعة زائدة عند قراءة هذه الصفحات المتوهجة من أدب روسو بما يؤذى شخصيتها [...] قد أتمكن بعد ثلاثين عاماً من إعلامهم برأى [...] حتى ذلك الحين يمكنهما أن تتخيلا أنهما قرأتا الرواية وستكون النتيجة واحدة ...» .

هذه الكلمات الأخيرة عندما يكتبها رجل مثقف حر تصبح مثيرة للحيرة .. وكلمات أخرى عن «متعة زائدة» فهي تفوح منها رائحة التزمت الدينى النابع من «أصحاب الرداء الأسود» لدرجة تزكم الأنوف . بوسويه ذاته لم يكن يندد بغير ذلك لتأنيباته لأنهن قرأن «مسرحيات السيد راسين» . «صغير» فى دور القس أخذ الاعتراف ؟ لعلنا نواسى أنفسنا بأن نتخيل أن روزين عصت حبيبها البعيد - إلا إذا كان تيفونيه ذاته هو ...

«احتفظ فيجاك بتراث التعليم المرح - كما يقول إيميه شامبوليون - فيجاك - وكانت صالونات عائلات ديلبون وجانسيون وبراديرول وتولايه**** .. إجتماعاتها حية وتبحث دائماً عن الترفيه الجيد» . سرعان ما اكتشف الاستاذان اثناء «إجازتهما» أنه على الرغم من المظاهر الخشنة بعض الشيء ، فإن المدينة الصغيرة كانت بها ثروات

* حول «قصة» أنه فى «إجازة» فى فيجاك - على سبيل المثال .

** روزين وإبنة عمها .

*** «جولى أو لانوفاى بلووينز» رواية لجان - جاك روسو عنوانها الفرعى يدل أكثر على مضمونه

«خطابات متبادلة بين عشيقين يقطنان مدينة صغيرة على سفح جبال الألب» (المترجم)

**** عائلة جدة الشقيقين شامبوليون .

محببة لهما : جمال المكان أولا وسحر التنزه على صفاف نهر اللوت وفي الشوارع العتيقة للمدينة القديمة التي ترجع إلي القرون الوسطي المغطاة بحجر بازالتى صغير وبسحر قاعة السوق وساحة السوق الواسعة وبقصر النقود المسمى قصر سوالي . وبالميدانين العالى والمنخفض وميدان العقل (لاريزون) .. فهل كان الانتقال من شارع لاجران رو بجرونويل إلى شارع الكابوسان فى فيجاك بمثابة الوقوع من عل بعد أن أصبح البارون دو كامبانى يتعامل معهما كصديق أكثر من نائب المحافظ وبعد أن أصبحت الرسائل تمر عبر فيلفرانش ... هل مازالا يشعران بأنهما محبوسين فى قفص ؟

جاك - جوزيف ، نعم - جان فرنسوا لا . مراسلات الأخ الأكبر لم تكن سوى مناشدة مطلولة من أجل العودة إلى الحرية . أما رسائل الأخ الأصغر فهي تأذلات في نزوات السحر الغريب الذى يغلف الاغتراب وعن المزايا المقارنة بين مقاطعتي ا وفينيه والكارسى وعن النساء هنا وهناك وإذا إتفقنا على أن البعد عن روزين لايمزق وجدانه بل إنه يسمح له بتجميل علاقته بها عن بعد وهي فى الواقع علاقة عقلانية أكثر منها علاقة قلوب ، وأن دخول هذه « الأم الفيجاكية » في حياته فتح له أفاقاً لم يكن قد عرفها من قبل من العطف ، فإن كل ذلك يجعلنا نتجراً فنقول أن هذا الجان - فرنسوا وهو فى سن الخامسة والعشرين كان سعيداً ، في فيجاك على الرغم من سلوك وثورات أبيه .

سعادة متواضعة ، منكشبه ، محدودة ؟ سعادة برجوازي ريفي سعيد بالذات الصغيرة التى يجلبها الهواء النقى والغذاء الشهى ؟ هذا هو الواقع ، لم يكن هذا هو شامبوليون المواقف السامية .. إذ لايمكن أن نجد هنا عصر خوف ولا أسرته الثامنة عشر ، ولكننا نسجل أن هذا الرجل العبقري والذى سيموت مبكراً عاش هذه الإستراحة فى مسقط رأسه بشيء من الرضا بدرجة سمحت له بأن يتخلص من حمى الاستكشاف لفترة طويلة ليهدأ قليلاً ، وأنه أنتظر ستة عشر شهراً كاملاً من الإقامة وسط مسرات منطقة الكارسى المتواضعة قبل أن يطلب من صديقه تيفونيه أن يرسل له معدات وأبواته كباحث .. « هدنة » تثير الدهشة تشبه كما لو أن المارد أنتيه* الذى وطأ الأرض فى مسقط رأسه قد أسكت عبقريته المأساوية وأكتفى بممارسة الحياة ..

* مارد من الميثولوجيا اليونانية ابن بوسيدون وجاليا إلها البحر والأرض . وكان كلما أراد أن يشحن نفسه بالقوة وضع رجله على الأرض التى كان قد ولد بها ، خنقه هيراقليس بأن جعله معلقاً بين السماء والأرض [الترجم] .

حياة الجسد ، حياة محببة لديه - أفضل ما قاله عنها جاء في خطابات كتبها جان - فرنسوا لصديقه جان فيسيه* في فيجاك (بعد أن عاد إلى الدوفينييه) من نهاية ١٨١٧ حتى خريف ١٨١٨ ، في هذه الخطابات تظهر الثمانية عشر شهرا التي قضاهما في منفاه في صورة تلونها حياة إجتماعية باسمه للغاية . هل يعتبر ذلك من باب التجميل الذي يسببه الحنين إلى الوطن ؟ ولكن ليكون هناك إحساس بالحنين لوطن ما يجب أن يستثيره الجو مثلا أو الإقامة أو بعض الأشخاص ..

«جرونويل في ١٧ ديسمبر ١٨١٧

ما هو رأيك في شخصي ، يا جان قلبي في الساعة الواحدة التي هي الآن ؟ [...] ذكراك تشارك جميع الأفكار السعيدة اللذيذة والمحبة التي جلبتها معي من فيجاك [...] أجد أن جرونويل من عدة نواحي تبعد مائة ألف فرسخ من فيجاك [...] تعرف طبعاً أن الميزان يميل بصورة طبيعية في صالح موطن الرأس**

... إنك بجابني أكثر مما تتخيل وأنا أقطع الطرق من شارع دي كاپوسان وميدان دولاريزون ، بل لا يمكن أن أكون في ضوء القمر إلا وأراك تحرك يديك في الميدان العالي (بلاس - هوت) أو تتفعل بشدة مع خيالك العاطفي والكوميدي جداً ، صدق أو لا تصدق إنني أتحسر في أوقات كثيرة على تلك الساعات التي كان يضيعها أهالي بوجوازية فيجاك في النوم مثل بقية الناس والتي كنا نستغلها معاً في مرح بأن نلقى بالحجارة أو بأن نطقيء هانوساً أو أن نتبع خطى أحد الأفراد أو أن نغنى أغنية إيطالية عاطفية على الرغم من مفتش الشرطة فوسار أو بأن نخرف ...

.. كلمني قليلاً عن اللعوب اللذيذة الحساسة المبهجة التي تسببت في كل هذه الضجة وحطمت كل هذه القلوب . هل لازلت تستمع إلى صوت ضحكاتنا الحلوة والعذبة ؟ لو أنني تفت يوماً أن يكون لي وزيل جميل وعرف ديك فقد كان ذلك هو اليوم ، على الرغم من كثرة منافسي فإن ذلك لا يهم وأمام الشدائد كن شجاعاً . كنت سأصبح مثل غيري .

وفي إبريل ١٨١٨

«ذهبت الفرخة الجميلة تفرق على ضفاف الجارون . لا بد وأن ديوك فيجاك في نشاز

* ابن مسجل عقود قرية ليفيردون المجاورة وقد أصبح فيما بعد محافظ الرهونات .

** كثيراً ما سيقول عكس ذلك لأهالي جرونويل .

وهم يغنون الآن فى غيابها . وإذا كانت الفرخة فى فيجاك منذ أن عاد الرئيس صاحب الزى الإنجليزى فلا بد أنه ذهب من قوره يفرد ذيله أمامها .. هناك أشخاص يعتقدون أنهم سيعودون إلى الشباب إن هم غيروا بروكتهم . يالها من بشرية !! يجب أن يفهم فى النهاية أنه لا يكفى أن يكون له عرف ولكن ما بعد ذلك هو المهم ليكون ديكاً وخصوصاً أن يكون ديكاً جيداً . إنهم قليلون فى سننا وكم هو عددهم فى سنة ١٩٠٠ .

فى سبتمبر ١٨١٨

«...شبان فيجاك ليسوا دمثى الخلق على الرغم من إنهم لا يفعلون شيئاً تقريباً . إن معظمهم لا يريد فى مجال الحب سوى الذبح والأكل دون أن يفتنوا إلى أهم الجوانب عنوية وتشويقاً فى هذا الأمر . أنى لا أطالبهم قط بأن يفرقوا فى عواطفهم فمن غير المتاح لجميع الناس أن تكون لهم عواطف وأقل من ذلك هم الذين يمكنهم إثارتها . ولكن ما أنصحهم به هو أن يبحثوا عن صحبة النساء وأن يحبوا قله منهن وأن يحترموا جميعاً وإن يعملوا على إسعاد أو قاتن دون أن يطلبوا منهن توضيحات لا يمكن ولا يجب أن يعطيها سوى القلب .. إن هم أراد أن يخرجوا من الحالة الهمجية التى يعيش فيها أو كان يعيش فيها معظمهم دون حتى أن يدركوا».

تتردد فى هذه السطور أصدااء روائى وفلاسفة العصر . وهو شئ مضحك إن صديقنا جان فرنسوا كان ذا قلب دافئ وأسنان نهاشه وقلم حى - وخاصة عندما كان يقلد بسخرية كتابات الآخرين . لقد سبق أن لاحظنا ذلك وسنلاحظه فيما بعد . مايلفت النظر من ناحية أخرى فى هذه المراسلات بين اللوت والايزار هو الإشارة المستمرة إلى الأضرار التى يتسبب فيها الجانب المتميز لرجال الدين والرقابة المتدنية و«طافى الأنوار» كثيراً ما كان يرسمهم بقلمه الرشيق فى صورة كوز مخروطى الشكل مقلوب بحيث كان مكتشف الهيروغليفيات يستمتع باستخدام الكتابة بالصورة ..

«المنبوز» لم يتغير حتى بعد أن عادت له حقوقه ووظائفه . أفكاره ستطور وميوله الجمهورية ستتواءم مع الإمتيازات التى سيحصل عليها من الملوك . وعداواته لأهل الكنيسة ستقل حدة لدى تعامله من رجال دين مرموقين وحتى مع البابا نفسه إلا أنه سيبقى إلى النهاية عدواً «لطافى الأنوار» والرقباء والوشاة الواشاة . كما أنه سيبقى واعياً بالآ يتبرأ أبداً من أصوله المتواضعة . وقد كتب يوماً عن صديق تزوج من أنسة من النبلاء :

« العامة مثلك ومثلى لم يعودوا يحتملون التكلف وادعاءات من يسمون أنفسهم نبلاء .
إننا إذا رضىنا بأن نزعن لسخرة فهى فقط تلك التى يفرضها الحب لأن هذا الأمير
سيظل دائما يتحكم فينا كمستبد شرعى . وإن تكون أنت ولا أنا الذين سينقضون
سيادته المستحقة . وعلى العموم فإن الحب مولانا وسيدنا له جانب جيد جداً : أنه
لايعير اهتماما بالمخطوطات القديمة .

(الأستاذ وعالم الآثار هو الذى يتكلم ..)

«والحب مولانا وسيدنا» - ها هو جان - فرنسوا كله شباب وطلاقة لسان محتفى
به وسط أبناء وبنات فيجاك يبدو أسعد المنبؤين . سنجده عند سيدة إسمها مدام
سارت وذلك فى فبراير ١٨١٧ يقيم محكمة للكياسة ويتهم فيها رواية أتالا* «بالسخر»
والشهداء «بالزوجة» ويعلن أن «إمبراطورية - سينار فى خطر» ويصدر بناءً على ذلك
قراراً بالتعبئة العامة» فى حضور مجلس للتجنيد تكون الرغبة فى إثارة الاعجاب هى
التي توجهه ، وذلك بسبب غياب الفكر» ..

يبدو أن الكياسة تكشف أحيانا عن أكثر من الرغبة فى البريق داخل المجتمع .
سيدة أسمها أديل كانتالوب أثارت فيه أكثر من الرغبة فى كتابة الشعر . وهو خلال
إحدى جلسات محاكمات لعبة الصالونات قد حكم على «ماد موازيل أديل» بالآ «تزداد
جمالا» (مع أن ذلك من المستحيلات) ولكن عليها أن تحتفظ بالمزايا التى حبتها بها
الطبيعة فإن ذلك يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا القول قد يكون نوعاً من الاعتراف . هناك
عدة مؤشرات على وجود من كانت تسمى «أديل» فى هذه الفترة من حياته .. ولكن قد
تكون أدिला أخرى . توجد بين أيدينا قصيدة هجاء (١) ضد مدام أديل ح . وهى على
ما يبدو موجهة لسيدة أخرى .

أما هذه القصيدة الغزلية القصيرة فهى على العكس ، نوع من الهزل ألفها جان -
فرنسوا على شرف إحدى بنات فيجاك :

«إلى الأنسة هيبي برو

» بقيت بقربنا لبعض من الوقت

فإذا بكل شيء لرؤياك ينعم بالهناء

* رواية لشاتوبريان (المترجم)

وعواجزنا للشباب تعود قلوبهم تدق

كم يخسر الغافلون عن رؤية محياك ! »

حسنًا ! كنا نعرف منذ فترة طويلة أن جان - فرنسوا شامبوليون لم يكن رونسار .
إلا أننا كنا نود لو أنه تمكن من محاكاة الشعراء الحقيقيين . كما أننا ذكرنا أيضا أنه
يكون أفضل من ذلك في الهجاء !

أثناء وجوده في فيجاك كتب شامبوليون الصغير بعض الكتيبات السياسية مثل
«الدستور حوار بين الملك المسيحي - جدا والتركي الأعظم» و«نزول بيرتران إلى
الحجيم» وتحت عنوان «أوريست في الحجيم» كتب هجاءً مسرحياً ينتقد فيه ضباط
ذلك العصر⁽²⁾ .

تقول هيرميني هارتلوبان التي نشرت بعض مقتطفات منها أنه كتب على عجل
بعض الدراسات : «الرجال كما هم» ينم عن تشاؤم بدائي «العناية الإلهية والقدر
والحظ» يعالج فيها الأخير بأفضل من سابقه وحرية الإختيار وهو مديح مختصر لقوة
الإرادة لم يكن رونسار ولا كانت بل كان عليه أن يصبح شامبوليون .

انتهت مرحلة اللهو . وقبل أن يعود إلى قاموسه وكتابه في قواعد اللغة القبطية
(فقد أتاح له رفض اللجنة لها في يوليو ١٨١٥ الوقت لكي يثريه ويصححه) وإلى
مشروعه الكبير في فك أسرار اللغز الهيروغليفي وجد جان - فرنسوا نفسه مدعوا إلى
مهمة ذات ثلاثة أوجه : مساعدة أخيه في تنفيذ الإقتراعات التي إستهدفت أمين مكتبة
جرونوبل (أى هو نفسه) والمشاركة في الأبحاث في الآثار المحلية التي يقوم بها جاك -
جوزيف وأن يدفع إلى الأمام في مقاطعة اللوت بالتعليم المشترك وهو فكرة جديدة من
اختراع أخيه الذكي والمتحرك جاك - جوزيف .

الإشاعات سرت في جرونوبل («إذا أردت أن تعدم كلبك...») لم تتعلق بخطر
الشقيقين على «الهدوء العام» ولكنها طالت شرف الأخ الأكبر إذ أن الإتهامات التي
بدأت توجه له بصورة غير مباشرة ثم أكدت عدة رسائل تحمل معان غامض تحولت
مع الوقت إلى اتهامات صريحة كتبها أوجوست بوكوان خلفه في إدارة المكتبة بأنه باع
أو تبادل كتباً مسجلة في قوائم المكتبة - مخطوطات وغيرها - مع صديق جارييل** .

* مثل فرنسى بقيته هي «شبه عنه أن مصاب بالجرب (المترجم) .

** راجع الفصل الثانى .

لم يتهمه أحد مباشرة بأنه قام بهذه العمليات لمصلحته الخاصة ولكنه تأثر بميوله الخاصة وتصرف دون الرجوع إلى مجلس إدارة المكتبة .

وجد شارل - أوليفيه كاريونال رسائل من جارييل خاصة بأوراق المفكر السويسري ونشتاين لاتدع مجالاً للشك في وجود تبادلات (هل كانت مفاوضات أم عمليات بيع وشراء) وهو يعتبر أنها «تدين» المكتبة⁽³⁾ . كلمة الإدانة هنا تعتبر قاسية . كان جاك - جوزيف إنساناً نشطاً يداخل بين مسئولياته المختلفة . وبين أعماله ومبادراته . ولذلك فإنه من غير المستبعد أن يكون ولعه بالكتب قد أثر بالسلب في قراراته لدرجة جعلته يخلط بين عملياته الشخصية وتلك المتعلقة بوظائفه . ولا يذهب أحد إلى أبعد من ذلك . لم يصدر ضده أى قرار إدانة . في وقت كان العميد السابق يعامل فيه بفضاظة - ولكنه عزل من مناصبه . وقد شعر باهانة كبيرة كانت لها بالطبع آثارها على أخيه الأصغر .

تظاهر جان - فرنسوا بأنه لا يرى في هذه العملية سوى مؤامرة من بعض الطموحين الحسودين وكتب إلى أوجوستان تيفونيه في ١١ مايو ١٨١٦ يقول :

«ماذا تقولون في جرونوبل عن الكواسر الجائعة التي تتصارع على وظيفة المكتبة ؟ إن هؤلاء السادة يفقدون عقولهم خاصة عند إصابتهم «بحمى البحث عن وظيفة»* [...] لكى تتمكن من الصعود يجب عليك الزحف على بطنك هذا هو المثل السائد هذه الأيام [...] دوكوان الكبير الذى يؤهله الرأى العام لكى يخلفنا بعد حين [...] يعمل ويكد ليثبت مقدماً ولاحقاً [...] ما سبق أن كررته لك وهو أن أدنا البشر وأكثر الأوغاد إثارة للإشمئزاز هم من يطلق عليهم اسم الادباء ...» .

هل لتحويل الأنظار بعيداً عنه أن قام جاك - جوزيف إبتداءً من يونيو ١٨١٦ بمساعدة أخيه بمشروعه الجديد ؟ لقد خصص شهوراً طويلة من وقته للتنقيب عن الآثار في موقع أوكسيلودونوم . هو آخر معاقل الغال التي وقع في يد قيصر الذي وصف بنفسه الحدث في الكتاب الثامن من «التعليقات» . كان من الواضح أن الموقع يقع في منطقة كارسي . ولكن أين ؟ في كاهور ؟ في فيراك في لوزاش ؟ أم في كابدوناك هذه القرية المطلة على فيجاك .

* التأكيد في النص الاصلى

إذا كان «المنقبان» قد شرعا فى عمليتهما فذلك لا يرجع فقط إلى محاولة نسيان مكتبتهم العزيزة ولكن جاء تنفيذا لطلب ملح من المحافظ الكونت دولوزيه - مارنيزيا المولع بالآثار القديمة ودراستها والذي أراد بهذه الطريقة أن يسجل أنه ليس من الذين لا يعرفون ويقدرّون زميلا مشهوراً مثل شامبوليون فيجاك صديق ميلان ومراسل مجلس «المخزن الإنسيكلوبيدى» والعضو المنتسب لأكاديمية الآداب .

مستندا إلى النصوص اللاتينية التى فى يده كشف العميد السابق بجامعة جرونوبل بالقرب من كابدوناك Capdenac بقايا أوان رومانية . وبما أمكنه من استدلاله منها تعرف على مختلف البيانات الطوبوغرافية التى جاءت فى وصف المنتصرين للمكان . ومنها برزخ يصل بين «القلعة» والهضبة المجاورة ونهر صغير ونقطة مياه وهو ما يشرح السبب الذى جعل المقاومة تطول . ويقول جاك - جوزيف فى كتابه* الدليل أقيم . على حد قوله أن كابديناك بنيت بالفعل على موقع أوكسيلوبونوم . وبذلك نجح فى تأكيد شعبيته وسط أهل فيجاك .

وجاء فى تعقيب جان ليترون على هذا المؤلف أنه «لا يعرف سوى عدد قليل من العلماء تمكنوا - فى مجال الجغرافيا القديمة - من معالجة (مسائلها) بمثل هذه الحصافة وحلها بمثل هذه الثقة» .

كيف اشترك الشقيقان فى الحملة من أجل التعليم التعاونى المسمى «بالمدرسة اللانكاسترية» كانا - كلاهما - معلمين نوى موهبة فذة** ، الأول كان مربياً لأخيه وهو فى الثانية والعشرين والآخر أستاذا جامعياً فى التاسعة عشرة. مربياً بالإضافة إلى أن المستوى العلمى المتقدم الذى وصل إليه كان بأن علما أنفسهما بأنفسهما وكان ذلك كافياً لكيلا يقدسا أسلوب الأستاذية التقليدى . كل ما هو متعلق بنقل المعرفة كان يدخل فى نطاق إهتمامهما : وكما كان أخوه معلمه الأول - بين كالمالز ودوسار - أخذ جان - فرنسوا على عاتقه تعليم «على» ابن أخيه لساعات طوال منذ أن بلغ السن الذى يمكنه فيه أن يتعلم .

* الأبحاث الجديدة عن المدينة الغالية أوكسيلوبونوم التى حاصرها يوليوس قيصر (نشر فى باريس عام ١٨٢٠ وحاز على جائز الاستثنى Institut l')
** نسبة إلى منشئها فى إنجلترا جوزيف لانكاستر .

فى باريس خلال المائة يوم إنشغل جاك - جوزيف بين مشاغل أخرى عديدة إلى المشاركة فى أعمال «لجنة إصلاح التعليم الابتدائى» التى شكلها كارنو وزير الداخلية حينئذ . أنيط هذا الجهاز بعد ذلك بأدم جومار . المسئول الأول عن كتاب وصف مصر . وكانت علاقته بفيجاك وثيقة جدا وكان قد إكتشف خلال إقامته فى لندن التعليم «اللانكستيرى» والمتمثل فى أن تجعل الأولاد الأكثر تقدماً يعلمون زملائهم بواسطة أدوات ملائمة .

كان بعض أعضاء الطبقة الأرستوقراطية المستنيرين أمثال البارون دوجيراندو والكونت دو لاستيرى ومسيو دو لاپورد هم الذين اقترحوا فى الأول من مارس ١٨١٥ (يوم نزول نابوليون على شاطئ خليج - جوان) إنشاء جمعية للتعليم الأولى . وما أن عين كارنو وزيرالداخلية إلا وأخذ الفكره لحسابه . صدر فى ١٧ إبريل مرسوم بإنشاء «لجنة التعليم التعاونى» والتى تولاه جومار فيما بعد مع وجيراندو ولاستيرى ولاپورد و- ح ب سائى . أول الدروس بدأ فى ١٣ يونيو ١٨١٥ بالمقر الكائن فى ٦ شارع جان - دو - بوفيه - ثم وقعت واترلو بعد ذلك بأيام الا أن ذلك لم يؤثر على المؤسسة الجديدة .

بعد ذلك بأربعة شهور تقريبا فى ٨ أكتوبر ١٨١٥ كتب جومار لجاك - جوزيف شامبولىون - فيجاك . الذى كان مشاركا فى الأعمال الأولى للجنة والذى انحسب بعد ذلك بهدوء إلى جرونوبل - يدعوه للمساهمة فى المشروع وإنما كان محل إقامته وكانت هذه هى الفترة التى كان الأمل يراود فيها الشقيقين فى تفادى ضربات «طافىء الأنوار» . بعد ذلك فى عام ١٨١٦ عندما أعطيت دفعة جديدة للتعليم التعاونى - على الرغم من معارضة المتطرفيين علي يد روابيه - كولاى وزير التعليم العام عهد إلى المحافظين بمهمة تشجيع المبادرات الخاصة بذلك فى محافظاتهم . وكان منهم لوزيه - مارنيزيا فى اللوت .

ولما لم تكفى حفريات أوكسيلودونوم فى شغل أيام جاك - جوزيف - وجان - فرنسوا بالكامل فقد انطلقا فى الوقت ذاته فى محاولة إدخال طريقة التعليم الحديث فى مقاطعة كارسى واما أنهما كانا مهمشين فقد كان ذلك أفضل وضع لهما للدخول فى هذا المجال الهامشى .

الشيء الغريب هو أن الطريقة اللانكاسترية دخلت فرنسا فى الوقت الذى كان فيه منشؤها فى صراع مع سلطات بلاده مما اضطره أن ينفى نفسه إلى كندا عام ١٨١٨ حيث توفى بعد عشرين عاماً مفلساً ومنسياً . غير أن أفكاره استمرت فى طريقها بعد

أن كانت أخذت مشعل مبادرات مماثلة في نفس هذا الاتجاه قبل ذلك بثلاثين عاماً قام بها جوزيف هيربو في باريس .

يوجد مستند يشهد على الحماس الذي إستجاب به أهل فيجاك تشجيع باريس لهم في هذا الموضوع . في ٦ إبريل ١٨١٧ كتب مساعد المحافظ البارون دو كامباني إلى المحافظ لوزيه مارنيزيا يفيدته أن «جميع الجهود تبذل في فيجاك من أجل تنمية طريقة تعليم لانكاستر وذلك بفضل بعض السكان الذي تبرعوا من أجل مصلحة الطبقة الأقل يسرا» . إلا أن مشاركة خاصة من وزارة الداخلية (من ٨ إلى ٩٠٠٠ فرنك) ستساعد على تخطي بعض المقاومة الراجعة إلى بعض الاعتبارات الخاصة ..

لم يأتى ذكر الشقيقتين شامبوليون خاصة وأن جاك - جوزيف كان قد غادر فيجاك قبل بضعة أسابيع ، ولكن لا يمكن أن نشك في أن الانطلاقة التي اتخذها التعليم التعاوني في مدينة كارسي الصغيرة والتي كان بها عدد من الفصول يفوق عددها في عاصمة المحافظة كاهور يرجع إلى الدينامية المستتيرة لنجلي صاحب مكتبه الميدان الأسفل .

سفر جاك - جوزيف لباريس أوقف إندفاع المشروع إلى الأمام على الرغم من أن جان - فرنسوا وقد أصبح وحده في الميدان - جعل مدرسة التعليم التعاوني تستمر في عملها باخلاص أشاد به الجميع .

في ٣٠ أبريل ١٨١٧ كتب يقول لأخيه أنه نجح في أن ينتزع من الوزير « ٦٠٠ فرنكا للمدرسة الانكاسترية » كما أنه حصل على وعد بأربعمائه فرنكا لعام ١٨١٨ وتعيين متخصص في هذا النوع من التعليم .

وفي ٥ يونيو كتب لجاك - جوزيف :

«نحن في انتظار المدرب لطريقة لانكاستر وسنجهل يبدأ فوراً . وأنا أفكر في حضور محاضراته »

ثم في ٣ يوليو :

«لم يبدأ المدرب بعد دروسه الأولية ولا حتى ألف باء : الدك غير جاهزه إلا أنه يأمل في أن يبدأ في ١٥ الصالى . لقد استلم الصندوق الخاص بالأقلام والألواح والطباشير . المحافظ شاسه مهتم إهتماما بالغاً بانتشار الطريقة .

ومدرسة فيجاك يحتفى بها في جميع المحافظات المجاورة . وقد سارع محافظ التارن بمراسلة زميله في اللوت يقول له أنه يفكر في إرسال متدرب إلى فيجاك

(سيقيم في المدرسة العامة) ليتعلم الطريقة وينقلها إلى ضفاف التارن . بل يتردد أيضا أن الأميرون سوف تقرر (مع مرور القرون) ذلك أيضا . لاداعي بالطبع أن أقول أن كل رؤساء المؤسسة* في المدينة يعارضون بكل قوتهم لانكاستر ، مؤكدين - وعلى الأخص الراهب - أن الطريقة سيئة للغاية . وهم ليسوا وحدهم »

وأخيرا في ١١ أغسطس : «المدرسة للانكاسترية بها الآن ٤٠ تلميذاً» ، وقد عثرنا على عدة اعترافات بالتقدير من الذين اكملوا المشوار وقد اعترفوا بريادة الشقيقين في إدخال هذه الطريقة التعليمية في كارسى وسنكتشف بعد قليل أن مشاركة المكتشف في هذا النوع من التعليم قد إكتملت في الدوفنية وترعرعت .

كان جان فرنسوا قد عمل لعدة شهور وبدقة تثيرا الإعجاب في تأليف كتاب للقواعد سهل ومزين باللوح في نفس الوقت** وكانت يقول الأحد أصدقائه في جرونوبل في نوفمبر ١٨١٦ أنه جرب مع ابن أخيه «على» طريقه جديدة يمكن تطبيقها على أولاد آخرين . لاشك أن هذه الطريقة في نقل المعرفة دون الاعتماد علي هيكل الأستاذية والتي تسوى بين التلاميذ والتي تعتمد على الوسائل التوضيحية - هي التي استفاد منها على يديه عددا كبيرا» من أبناء جرونوبل مثل أبناء أسر تيسار ومونيه وبيران ورومان وآخرين حسبما قال إيميه أحد من أبناء أخيه .

وصل الأخ الأكبر في نهاية الأمر إلى هدفه بعد تسعة شهور من المحاولات والإجراءات والتظلمات والدفوع . وهو إذا كان مغتاباً ومحسوداً في جرونوبل ففي باريس كان يتمتع بشبكة من الأصدقاء وأشخاص مدينين له بخدمات وزملاء أثبتوا تضامنهم معه في محنته . أقدم أصدقائه الوفي دوجيه أدى الدور الأساسي للمطبيباتي إذ كان يلقي ترحيباً متعاطفاً ومتفتحاً أينما ذهب .

في كل مكان ؟ كلا ... لقد سبق أن ذكرنا تعليقاته المستاءة من موقف الباورن

* المؤسسة الدينية ... بالطبع .

** نسخه من الكتاب سلمت لدام أديل لازالت محفوظة حتى الآن .

دوساسى - المتطرف وسط المتطرفين الذى صده دون أى حياء حين جاء يطلب منه خدمه لصالح زميل كان من تلاميذه . تعليق «صغير» :

«أما «الرايين»* فلا تخفض من قيمة نفسك وتذهب لمقابلته إنه رجل يعرف أوضاعنا وإذا كان لديه شىء من المروعة لكان ضحى بكل الأفكار الصغيرة ليجعل هذه الأوضاع أقل قسوة . إلا أنه لم يحاول . إنه طرطوف لو كان يساوى لكرهته . إنني لا أنكر ماله من موهبة وعلم رفيع . إلا إنه بدون روح وهو بذلك ليس رجلاً وإنما هو كتاب متحرك» .

جاء سلوك الصديق السابق جان سان - مارتان بالمثل مخيباً للآمال إذ تحول إلى الحزب «الأسود» وتعامل معهما معاملة معتنقى الدين الجدد بطريقة جافه للغاية ، فى حين تعامل رجل مثل لوى لانجلاس وكاترومار بوكانسى (الذين كانا متشددتين للغاية فى السابق مع جان - فرنسوا) باهتمام ورعاية .

خلفا للمساعدات التى حصل عليها الشقيقان القادمان من فيجاك من حلفاء قدماء لهما مثل ميلان ودابيه وفوريه** بل وجومار أيضا*** ومن علماء تعاطفوا معهما مؤخراً مثل أراجو وكوفيه . فقد إستفادا من تطور عام للآراء التى اتجهت من الإرهاب الأبيض نحو الليبرالية الحذرة التى سيجسدها بوكاز .

هذا الأخير هو الذى وقع وهو مازال وزيراً للشرطة قبل أن يرأس الوزارة على القرار المؤرخ فى ٢ نوفمبر ١٨١٦ الذى يسمح «للسيد شامبوليون الكبير [...] أن يعود إلى جرونوبل للإقامة بها تحت مراقبة مفتش الشرطة العام [...] أما بالنسبة للسيد شامبوليون الصغير فإننى أترك لمحافظة الإيزار حرية إعادته إذا لم يجد ضرراً من وراء ذلك .

لا بد وأن هذا «الضرر» كان موجوداً بما أن جان - فرنسوا استمر لفترة طويلة

* دأب جان فرانسوا على إطلاق كنية «الچيزويت» أو «الرايين» أى رجل الدين اليهودى على البارون سيلفاستر دوساى (المترجم) .

** فورييه تصالح مع الشقيقين شامبوليون بعد المرحلة التى تلت «المائة يوم» أى بعد عودة نابليون إلى المنفى .

*** سيختلف مع الشقيقين بعد ذلك بعشرة أعوام .

لا يتمتع بسعة صدر السلطات وقد كتب لصديقه تيفونيه :

« يا له من رقى ساحر ذلك الذى عاملنى به الكونت دو مونتيفو [...] لو أنه تصرف بعكس ما فعل وأرجعنا معاً كانت حقوقه على من إمتنان وعرفان بالجميل أثقلت كاهلى : يوجد من الناس نوع لا تريد أن تدين له بشيء » .

فى ١٤ يناير ١٨١٧ أرسل إلى محافظ اللوت «قرار المجلس الملكى» الذى ينص على أن «السيد جان - فرنسوا شامبولىون قد أعفى من الرقابة التى كانت مفروضة عليه فى فيجاك» .. إلا أن «الرباعى الجهنمى» الجرونوبلوازى أستمر فى عناده إلى أن وصلت إلى لوزيه - مارنيزيا (محافظ اللوت) وكان لا يكف عن الدفاع عن الشقيقتين شامبولىون من كاهور ولكنه كان يصدم باستمرار بعناد زميله فى الايزار ، مذكرة تذكر مرة أخرى «وان الرقابة التى كانت مفروضة على السيدين شامبولىون فى مدينة فيجاك قد رفعت بطريقة مطلقة وهما أحرار تماما يذهبو إلى حيث يريدون» المذكرة مؤرخة فى ١٢ مارس* ١٨١٧ .

هذه المرة وجد «كازينو» جرونوبل نفسه يتلقى الإستتكار والتوبيخ . القرار الجديد يشمل الشقيقتين ولا يفرض عليهما ضرورة الإقامة فى جرونوبل ليوضعا تحت رقابة باستار وبينما هو ما كان يريد جاك - جوزيف أن يتحاشاه بأى شكل بعد ما لقاه من تصرفات تثير الاشمئزاز من السلطات ومن زملايه فى مقاطعة الدوفينييه . وقد كان مصمما على قطع علاقاته بالمدينة التى نجح فيها نجاحاً مبهرًا فى الفترة من الثورة (برومار) حتى واترلو (هزيمة بابولىون) .

عندما غادر جاك - جوزيف مدينة فيجاك فى بداية إبريل ١٨١٧ إتجه إلى باريس حيث حصل هناك على جواز سفر . ولم يمنحه إياه البارون دوكامبانى دون أن يرسل إلى دوشاسيمو الذى حل محل لوزيه - مارنيزيا محافظ اللوت مذكرة يقول فيها أن «شامبولىون الأصغر سيبقى بعض الوقت فى فيجاك حيث يقيم مع والده» ثم يضيف مساعد المحافظ «الشقيقتان شامبولىون طوال فترة إقامتهما فى فيجاك كان سلوكهما لا غبار عليه [...] إنهما يتمتعان هنا بالتقدير والاحترام بفضل مواهبهما وعلمهما .

* القريب أن التاريخ الموضوع فى المذكرة هو ١٨١٥ إلا أن كافة المستندات الموجودة بالملف تشير إلى أن التاريخ الصحيح هو ١٨١٧ .

فضل جان فرنسوا أن يمد إقامته فى فيجاك لأسباب مختلفة . كانت معاملة
أسياد جرونوبل الجدد أسوأ من ألا تجعله يشارك أخاه إزدارنة لما أسماه « أثينا
الدوفينية » وإن كان بدرجة أقل ولفترة أقصر حيث عرفا أولى ساعات مجدهما . إن
باريس لاتمثل أى إغراء بالنسبة له : مازالت ذاكرته تحتفظ بصورة كلها مرارة
« لعاصمة فرنسا القذرة » والمؤامرات التى تحاك على ساحتها . إنه يحب بالفعل
المدينة المتواضعة التى ولد فيها والتى عاش فيها عاما هادئاً . ثم إنه لايريد أن يتخلف
عن مسئولياته فى التعليم التعاونى . وكانت الشئون العائلية على درجة من السوء
تستدعى أن يتولاها أحد . ولما كان جاك - جوزيف غير قادر على أن يبقى ساكنا
لحظة واحدة ، ثم أنه يرفض أن يبقى لفترة أطول فقد قرر وضع وزر هذا الواجب كله
على أكتاف « صغير » .

« الرئيس يقوم بضجة جهنمية ! » هذا ماكان يفضى جان - فرنسوا به لأقربائه
بعد أن كان يضيق بتصرفات نوبات هياج والده . وكانوا جميعا . على علم
بتجاوزات « العجوز غير المحترم » ؛ كانت فيجاك قد تعودت على صراخ هؤلاء
السكران الذين يجوبون شوارعها فى المساء بين شارع دى كابوسان وميدان
لا ريزون ... الأب كارامازوف !

يأليت الأمر قد اقتصر على الضجة الليلية ! استدان الرجل ثمانية ألف فرنك .
ولما لم تعد المكتبة تدر دخلا يذكر وكان زملاؤه فى السكر من المقرضين رجال أعمال
لايرحمون أخذ يبيع ممتلكاته الواحدة تلو الأخرى : الكرمة * ثم الحديقة والأثاث وإذا
استمرت الأمور هكذا فإنها ستطول أيضا الدكان ومن بعده المنزل أيضا وإذا لم يفعل
أحد شيئا فإن أختى جان فرانسوا تيريز ومارى سيكون مصيرهما إلى الملجأ .. لخص
جان - فرانسوا الموقف لأخيه فى خطاب بتاريخ ١٣ مايو ١٨١٧ بعد أسابيع قليلة من
سفره المتسرع :

« ... كنت متعجلا وصول أخبارك بقلق شديد على أمل أن تحدد لى فى خطابك
الخط الذى يجب اتباعه حتى نتفادى رؤيه المحضرين وهم يغزون المنزل . وقد حدث
بسبب الرجل الذى جعلته السماء للأسف أباً لنا وبسببك أنت أيضا بقدر قليل ..

* التى كان قد اشتراها أبان الثورة الفرنسية ضمن « الممتلكات الوطنية » .

... لقد قدر لى أنا الذى لا يفقه شيئاً فى الأعمال أن أتحمّل كل خيبة الأمل وقرفها . لم أجد طريقة أخرى لمنع بيع الأثاث سوى أن أتعهد بدفع ٣٠٠ فرنك فى البداية يوم الأحد القادم ثم كل شهر حتى استيفاء الدين . مخططى هو أن أسحب حوالة بستمائه فرنك على أوجوستان * كان قد عرضها على عند سفرى . لم أعش فى حياتى أياماً أفزع من اليومين الماضيين . أحملك جزءاً منها لأنك سافرت دون أن تحل هذه المشكلة وكان أسرع هذه الحلول هو الحجر ** على « الرئيس » . الذى سلك سلوكاً شنيعاً معى خلال ما حدث ... مدام جانسيون عادت تلح علىّ وكدت أن أقع فى خلاف معها ومع زوجها لأنى رفضت قبول المبلغ الذى عرضاه بطريقة كلها رقة عندما علما بنبأ الكارثة .. يالهما من صديقين حقيقيين . كنت تخالهما يطلبان منى خدمة فى حين أنهما لا يمكن أن يقدموا لى خدمة أكثر نفعا لنا من تلك . »

فى ١٧ مايو كتب جان فرنسوا إلى أوجوستان تيفونيه :

« ها أنا أجد نفسى يا عزيزى الصغير ، مضطراً الآن لقبول ما سبق أن رفضته (..) يوم سفرى إلى المنفى . ها أنا أجد نفسى - جزئياً بسبب أخى الذى تركنى وسط مشاكل عائلية معقدة فى حيرة ملحة . (...) أعطيت حوالة بمبلغ ٧٠١ فرنك تسحب من موسيو بريزون نوليون *** وأرسلت إليه حوالة بنفس المبلغ مسحوقة عليك (...) وبذلك يا صغيرى تكون أنت الذى سيتحمل نفقات الحرب ... »

الديون الأكثر إلحاحاً تم تسديدها . « أخيراً وجدت المال اللازم لتفادى الأحداث المؤلمة التى أعتها لنا الرئيس ... » وابتعد خطر توقيع الحجز علينا . لم يصدق الرجل العجوز نفسه : « فم الرئيس يقطر عسلاً ولبناً ... » هذا ما سجله جان فرنسوا . ولكن لم تمتد سعادته طويلاً إذ ما أن طالبه ابنه بأن يبذل جهداً من جانبه لسداد الدين الخاص بصديقه ديلكو أكبر الدائنين إلا وتظاهر أنه لا يسمع شيئاً . وقد وصلت درجة سخط « صغير » من « أنانية ودناءة » العجوز أن كتب فى ٢٦ مايو ١٨١٧ « طالما أنه يأكل فهو لا يهتم بشئ . إن ذلك يدفعنى فى مرات عديدة إلى غضب شديد لا أعرف ما سأفعله له . رجل من هذه النوعية يعتبر أدناً من الوحوش ...) هذا هو أبوه .. وليست له أم ! .

* تيفونيه .

** إجراء قانونى بإعلان شخص غير مؤهل للقيام بى عمل تجارى أو تبادل .

*** على صلة قرابة بعائلة بيريا .

فى النهاىة كانت الخسائر خطيرة لدرجة لاتسمح لجان فرنسوا أن يحلها بواسطة سلفة بسيطة . إنه لن يتمكن من الحفاظ على مصالح أختيه فى المنزل والمكتبة دون أن يتنازل عن حقه فى الميراث * ويقول ببساطة : « لن يبق لهما مع ذلك شئ يذكر . »

وماذا عن مصر ؟ هل نسيها وهو على ضفاف اللوت بين قصائد الغزل والحجوزات ؟ كلا . وهو إذا كان قد بقى لشهور طويلة دون أن يعمل فى المشروع الأصلى الكبير : فك الشفرة - وإذا كانت مستنداته قد بقت فى جرونوبل فهو لم يتوقف عن العمل فى قاموس وقواعد اللغة القبطية . وكان قد حمل معه المخطوطين الكبيرين فى سنة الهجرة ** ، ١٨١٦ ، ومهما كان مجروحاً من رفض وانتقادات ساسى فى أغسطس ١٨١٥ فهو من الذكاء لدرجة تجعله يأخذ فى الاعتبار الاعتراضات والملاحظات التى سجلها عليه « الربين » فى جيبه . كتب لأوجستان تيفونيه ما يلى :

« أستمر فى أعمالى الأدبية بحماس قوى . قواعد اللغة المصرية *** انتهيت منه تقريباً والقاموس الكبير أخذ أبعاداً تليق فى حالتها الراهنة بالذى يؤلفه . كل يوم يزداد الكتاب تخانة ومؤلفه يسير فى الاتجاه العكسى .. »

« سيصل عدد صفحات هذا القاموس إلى الألف ويتعدها عن قريب وهو ينوى أن يعود « بمولوده » هنا إلى جرونوبل على هيئة أربع أجزاء من حجم الكوارتو .

فيما يتعلق بمشروع لغز الهيروغليفية نفسه سنجدّه متحفظاً ومشدوداً فترة طويلة كما لو أن البعد عن جرونوبل منفيماً منها كان بمثابة حكم بالابتعاد عن الدراسات المصرية القديمة . هل أصيب بنوع من العمى عنها أو التحريم عن دراستها وهو بعيد عن المدينة التى أقام فيها من ١٨٠٧ بأبحاثه ونشر فيها أولى نصوصه المتعلقة بوادى النيل ؟

بعد بضعة أسابيع من سفر أخيه وصل من لندن عدد من مجلة مانتلى ريفيو Monthly Review منشور بها عرض لكتاب « مصر فى عهد الفراعنة » وهو الكتاب الذى نشر قبل ثلاثة أعوام فى باريس . خلافاً لما فعله دو ساسى كان الناقد الانجليزى مؤيداً له لدرجة دفعت «صغير» أن يقول على الفور لجاك جوزيف :

* جاك - جوزيف سيتخذ نفس القرار .

** هجرة Hegire فى النص الأصلى (المترجم)

*** تعنى هنا قواعد القبطية التى تحدث مع نابوليون عنها وليس الكتاب الذى ظهر سبق وفاته والذى هو أحد أعماله الرئيسية

« ... قرأت مقالى على الفور . إنه يضيف لمجدى بالقدر الذى كنت أن أتمناه . قدم كاتب المقال أساسى كما لو أنه يساندنى وكما لو كنت تلميذه الذى يشرفه جداً . لابد وأن هذا سيعجبه . هذا أفضل ! الانجليشمان لا يؤخذنى سوى على شئ واحد وهو أنى أهملت استخدام المستندات التى أوردتها لنا الكتب المقدسة التى هى مصادر التاريخ الحقيقية حسب قوله . ويضيف أن آراء عن هذه الكتب تبدو أنها رأى مسبقه لإنسان غير مؤمن أكثر منها عدم إنحياز منصف لفيلسوف . طبقا لهذا التقرير فإنى سأموت بون توبة خالصة . إن الآراء التوراتيه لكاتب المقال تكفى لى أشمئز من كل الأشياء اليهودية الممكنة . إنه يؤكد بثقة تأثير الإعجاب أن سينوسترلى ليس سوى JOSUE (...) كل ذلك أثبت لى ماكنت اعتقده منذ فترت طويلة وهو أن الألمان أيضا الإنجليز لم يخرجوا بعد فيما يتعلق بالمعرفة الحققة من مرحلة الحضارة ... »

سنرى أن هذه « الحضارة » ستكون خصبة ... الشئ الحقيقى هو أن الحوار بين الباحث الفرنسى ومناظريه البريطانيين إن هو قام على الأسس التى حددها مراسل المانتلي ريفيو لم يكن من الممكن أن يستمر ولكنه توماس يانج لن يلبث أن يثبت له أنه توجد فى لندن أنوات عمل أخرى غير التوراة .

يبدو أن المديح الواصل من لندن آثار لدى «صغير» نوعا من فك العقدة . ثم إن الهدوء فى فيجاك بعد حل المشاكل العائلية المؤلة كان يساعد على العمل الذى يتطلب دقة متناهية . لماذا إذن لا يحضر مراجعه مهما كانت صعوبة النقل ؟ فهى ليست على كل حال مسألة ولاحتى حجر من البزالت الأسود اكتشفه الملازم بوشار بالقرب من مصب النيل .

فى ١٨ يوليو ١٨١٧ كان قد اتخذ قرار البقاء شهرين أو ثلاثة آخرين فى كارسى فلجأ مرة أخرى إلى خدمات عزيزة أوجوستان :

« .. لابد وأنتك سحبت أوراقى من مكتبى ، أقصد من مكتبى السابق * وهى موجودة الآن لديك (...) المطلوب أن تختار منها :

(١) صورة بالحفر لكتابات مصرية ويونانية ، كبيرة وطويلة وملصوقة على قماش . أنها نص حجر رشيد * .

(٢) نفس النص الهيروغليفى ملصوق على كارتون .

(٣) رزمة أوراق معنونة أبجدية مصرية .

* التأكيد فى النص الأصيل .

(٤) دفتر معنون كتابات مصرية بخطوط ديموطيقية أو شعبية .

(٥) (...) نسخة مكبرة لنص رشيد . كل سطر مرقم - يوجد بها ٣٢ سطرا
وتحت كل سطر توجد كلمات بالفرنسية واليونانية .

(٦) أخيرا مجلد كوارنو (...) اسمه «مخطوط رشيد» مؤلفه م . اميلهون (...)
يوجد كلام يوناني * ...

طالب من تيفونيه إن يجمع كل هذه المستندات فى « طرد مشدود الوثاق » ويوجهه
لمسيو جارى مدير بريد فيجاك . الطريف أنه لم ينس أن يقترح على صديقه أن يضم
داخل الطرد «مسرحياته التراجيدية» فهو لا يهمل سهراته المكرسة « للتعليم المرح »
لدى مساعد المحافظ ومدام سارت أو عند مدام جانسيون .

وهكذا سمحت الأشهر الثلاثة الأخيرة من النفى فى كارس لجان - فرنسوا أن
يتحاور من جديد مع ألهة النيل . تزامن مع وصول المستندات المطلوبة من تيفونيه فى
الأول من أغسطس زيارة قام بها له طبيب من الكانتال الدكتور رولهاك وهو واضع
كتاب اسمه « منظومة ايتمولوجية عامة » يدعى فيه أنه اكتشف مفتاح يسمح بحل
شفرة الحروف الهيروغليفية لم يأخذه «صغير» على محمل الجد . إلا أننا نعرف أن
لأشئ ينشط عبقريته الخلاقة بقدر المحاولات المنافسة له : مع أنه ليس جدير بالثقة فإن
الطبيب القادم من أوريبياك سيلعب دوره فى إثارة نخوة الباحث . مع عودة الطموحات
العلمية داهمه إحساس بالانعزال فى فيجاك باريس ؟ إنه لا يفكر فيها سوى فيما يخص
جاك - جوزيف الذى أخذ يظهر فيها من جديد . راودته فكرة لبعض الوقت : السفر
إلى روما المليئة بالعديد من الآثار والمخطوطات المصرية . مونسينيور دو بوسيه رجل
الدين المثقف والليبرالى صاحب كتاب فينولون الذى أعجب به ستاندال كان قد رقى إلى
رتبة كاردينال وكان يستعد للسفر إلى المقر البابوى فهل يمكن أن يقوم بدور سكرتير
المونسينيور الذى كان فى علاقة مراسلة مستمرة ووثيقة مع أخيه طوال ثلاث
سنوات ؟ .. عبر عن رغبته فى القيام بالرحلة « على حساب أمنا الطيبة الكنيسة .. »
إلا أن المشروع لم ينجح .

لا بد إذن من جرونويل . لقد تغير الجو السياسى العام فيها بعد سنتين حتى قبل
أن يبعدها عنها . كان مونتيقيو وباستار قد بدءا ينعطفان فى اتجاه ليبرالى أخذ يتطور ،
وهو ما يكشف عن التعليمات التى كانت تصلهما وعن الشعور الشعبى العام . هل تردد

* هذا هو النص « المعتمد » للنص اليونانى لحجر رشيد .

جان - فرنسوا فى العودة لكى لا يضع نفسه تحت رحمتها بسبب ما لاقاه منهما من مضايقات ؟

جاء تعيينه محافظ جديد اسمه شويان دارنوفيل المشهور بليبراليته فى نهاية سبتمبر ١٨١٧ لتبدل جميع شكوكه حول هذه النقطة .

إلى جرونوبل نعم ولكن لعمل ماذا ؟ لم يبق جاك - جوزيف ساكناً منذ وصوله إلى باريس . تردد الحديث حول إنشاء كلية للفلسفة فى جرونوبل لإعادة كلية الآداب التى حلت فى ١٨١٦ فى شكل أخرى . كان من المفروض أن توضع الكلية الجديدة تحت رعاية الأب الدمى بوسورد الذى عين خلفاً ليال على رأس الجامعة وأن تتضمن قسماً للتاريخ كان سيؤول كرسيه بالطبع إلى جان - فرنسوا . لكن كان « طافئو الأنوار » متيقظين وتوقف المشروع . واكتفى المنفى المعفى عنه بما وجدته فى الدوفينييه وهو وظيفة مدرس فى المدرسة الملكية ودور المسئول عن مدرسة تعليم تعاونى على النمط الذى أنشأ عليه مدرسة فيجاك والتى ستبقى فى النهاية أهم إنجاز له خلال هذه الفترة .

فى جو مقعم بالسعادة أخذ شامبوليون الصغير يعد حقييته وصندوق كتبه . وسافر فى ٨ أكتوبر إلى جرونوبل وبصحبه «على» الصغير تلميذه وأبن أخيه الذى كان قد بلغ الثامنة وارتبط به جداً . ذهب ليلقى زوجة أخيه زويه المرحبة به دائماً بحرارة وهذه الروزين التى سيطرت على أحلامه خلال فترة أدائه لدور « الولد الشقى » لمقاطعة كارسي التى دامت ثمانية عشر شهراً .

اقترب جان - فرنسوا من عامه الثامن والعشرين . طعام اللوت الشهير - من ملابس وفواجر وشربة الجاربور إلخ ... - لم يفده إطلاقاً فقد نقص وزنه والهواء النقي ذاته لم يجد فى أن يبعد عنه حالات الاختناق التى تنتابه ولا أزمات السعال الطويلة ولا الارتفاع المفاجئ فى درجة حرارته ، وكثيراً ما كان يضطر إلى أن يبقى ممدداً إلا أن مزاجه أصبح أكثر مرونة . وإذا كان لا يزال على موقفه من عدم إعطاء الجنس البشرى اعتباراً كثيراً (وخاصة الأبناء) فقد اكتشف فى فيجاك أصدقاء حقيقين مثل أسرة جانسون وأسرة جيرى وجان فيبييه . كما أنه لم يترك هذه « الأم المحبوبة والطيبة » بغير ألم .

لم ينمى شامبوليون الأصغر متاعه الإيجييتولوجى فى مدينة فيجاك فقد عاش فيها فترة من الاجترار الهادئ . ولكن بعد المطبات الهوائية العنيفة التى خاضها فى ١٨١٥ وقبل المحن الكبيرة والانتصارات الخطيرة التى ستعرفها العشرينات ، مرحلة مثمرة لا توجد عبقرية لا توجع توهجها لحظة سعادة .

٨ - روبيسبيير جرونوبل

استقبل كالمنتصر - شويان دارنوفيل ، الليبرالى - دوناديو « المضللون » - هل هم ماسونيون ؟ - جاك جوزيف ومسيوداسية . - التعليم التعاونى فى مواجهة « طافئ الأنوار » - عودة إلى الهيروغليفية - جلسة تاريخية فى أكاديمية الدوفينية - روزين أو الزواج المربك - « الاتحاد » وأصحاب الرداء الأسود - فضيحة جريجوار - « يحيا الملك - يحيا الدستور » - البارون بوساز الرهيب . - استيلاء عالم آثار على الباستى ... - غير مذنب ! - « كأس المراره الجرونوبلوازي انتهى بالنسبة لى .. »

ياله من شخص غريب الأطوار هذا السيباستيان فالكيه دو بلانتا ، نجل أحد أعيان جرونوبل . بهرته الثورة ، تطوع فى الجيش وهو فى العشرين وأصبح عقيداً وهو بعد فى الخامسة والعشرين وجزرالا فى الثلاثين ، على الرغم من أنه كان صديقاً للويس شقيق القنصل الأول إلا أنه فضل أن ينفى نفسه بعد إعلان قيام الإمبراطورية ومع ذلك نجح فى أن يجعل نابوليون يعينه مفتشاً لأكاديمية جرونوبل (وهو المركز الذى كان يصبو إلى شغله بشدة جاك - جوزيف شامبوليون *) ثم يناصر قضية أسرة البوربون منذ ١٨١٣ ويؤلف فى ١٨١٤ قصيدة على شرف الكونت دارتوا عنوانها قصيدة غنائية للزنايق ضد غول كورسيكا ويرأس محكمة جرونوبل الخاصة التى أرسلت ديدويه إلى المقصلة .

معجب متحمس للفيلسوف « كانت » وتلميذ للمربي السويسرى العظيم پستالوتزى ، أنهى حياته هو فى علاقه حميمة مع (الفليسوف) جان دوبيران ... شخصيته نجحت فى أن تثير حيرة أهل زمانها بتجاوزاتها على الرغم من كثرة ما حدث فيها من شطط . وصف فى : تاريخ حياة الدوفينية Biographie du Dauphiné بهذه السطور : « رجل وسيم جدا نو فكر متعدد الجوانب أمضى حياته فى الثروة وفى تسويد الورق بالكتابة السطحية فى كافة المواضيع » .

إن اعتناقاته لمبادئ غير مبادئه ثم العودة عنها والتغيرات المفاجئة لأفكاره فى مختلف الاتجاهات وكذلك خطبه وحملاته ، سلطت الأضواء بشدة على بلانتا العجيب . إن حياته تلخص فى الواقع الجو الروائى الذى اتسمت به بداية ذلك القرن فى الدوفينية

* وشغله فى البداية الأب لأكوست مرشح مناصرى الكنسية .

– أى خليط من ستاندال ولاكلو . فى يناير ١٨١٧ كتب جان فرنسوا – وهو مازال « منقيا » فى فيجاك ولكنه كان متيقنا أنه سيرى جرونويل وسكانها بعد فترة قصيرة – خطاباً إلى تيفونيه تجعل المرء يحب الواصف والموصوف :

« ... إنى لسعيد بأن أرى عزيزنا الطيب بلانتا فى صفوف الدستوريين ضد المتطرفين ، وكان الأجدر به ألا يتركهم حفاظا على شرفه ومن أجل راحتنا ، إن قلب هذا الرجل يخدعه باستمرار [...] لذلك فإننى لا أفهم لماذا أنا مبال له [...] أحب أن أراه وهو يدعم المبادئ الليبرالية فإن القضية تستحق هذه الفصاحة ..

ثم يضيف « صغير » هذه الملحوظة التى تكشف الكثير عن « قلبه » ذاته وهو الذى خدعه أحيانا * :

« هنا ينتصر أصدقاء الدستور وإذا وجد عيب فهو فقط أنهم يهاجمون المتطرفين بأكثر مما ينبغى .

كنت أود كثيرا أن أرى الذين كانوا ينادون بالاعتدال فى ١٨١٥ و ١٨١٦ يتصرفون بأكثر من ذلك فى ١٨١٧ . لكن هذا هو حال البشر يغالون دائما فى استخدام السلاح الذى كانوا يخشونه قبل أن يصبح فى حوزتهم » .

كان المتوجه سياستيان فالكيه دوق دو بلانتا المنتمى لهذه النوعية (المتطرفة / الليبرالية) الذى وقف فى ٢٠ أكتوبر ١٨١٧ خلال اجتماع لأكاديمية الدوفينييه يطالب زملائه بأن يجيبوا فوراً على ثلاثة أسئلة هى :

(١) هل يمكن تنوير الشعب ؟

(٢) هل من المفيد تنوير الشعب ؟

(٣) هل من حقه الحصول على التعليم الأولى ؟

كان من جراء هذه الدعوة أن الرود جاءت حماسية وتنزع إلى تعبئة المثقفين الدوفينيين فى موجة «تقدمية» شاركت فيها أيضا الاريستوقراطية الليبرالية المعاصرة – مثل الدوق دود وراى ، والدوق دولاروشفوكو والفيكونت دو موغورانس وكان هذا الأخير مهتما جداً بالتعليم الشعبى وهو بالمناسبة سيؤدى دوراً هاماً فيما بعد فى حياة جان – فرنسوا العملية .

* فى فيجاك .

كان «صغير» يعرف وهو فى العربة التى تحمله وبجواره الصغير « على » من ضفاف الرون إلى ضفاف الإيزار أنه سيلقى مدينة تم عزل العديد من متطرفيها مواقفهم السياسية تماثل موقف بلانتا . ولكن هل كان يتصور أن الأكاديمية العلمية التى تواضعت لتستمع إليه وهو لا يزال مراهقا متتورا ، كانت تعد له هذا الاستقبال الاحتفائى الذى هو بمثابة قسماً يؤدي من أجل الثورة التعليمية ؟ هل كان يأمل بعد أن طرد منها على يد حكومة ريشوليو - فى استقبال حماسى فى نفس المدينة وتحت حكم الوزارة ذاتها .

فى ٢١ أكتوبر أى بعد سويغات من الخطبة الحماسية التى ألقاها سيباستيان بلانتا ، خطيب التعليم الجماعى ، استقبل أصغر الشقيقين شامبوليون وهو يهبط من العربة التى أقلته - استقبال الأبطال المنتصرين . إذ وجد نفسه كما كتب لأخيه « أحتضن ويحتفى بى من أشخاص لا أعرفهم البتة ... » الثورى الخطير فى ١٨١٦ رجل « النخب فى صحة الجمهورية » عدو « الكازينو » استقبل استقبال الابن الضال العائد الذى لم يكن التيه من اختياره ولكنه تحمل بجلد عذاب النفى .

تجمع حوله أعز أصدقائه : أوجوستان تيفونيه . وشارك رونولدون وهوج بلان وأسرة بيريا وأسرة بيريه وأسرة نيسار والجنرال دولا سالات وسافوا دو رولان وسابى وفرانسيه دو نانت والطبيب بيلون ... ياه !! إن « الحزب » الليبرالى استعاد حيويته منذ الوقت الذى كان يضطر فيه إلى الاختباء من القبضة الحديدية لمونليفو وباستار ودوناديو وبيننا . الأول والثانى نقلا إلى مناصب أخرى وكان الثالث على وشك الإبعاد أما الرابع فقد أوشكت فترة حكمه أن تنتهى .

غير أن الحزب « الأسود » لم يكن مستسلماً . إنه يحافظ فقط على ذخيرته هنا وفى باريس أيضاً - وإذا كان نجم بوبيتا هو الذى يلمع الآن فإن بلانيللى دولا قالات فى انتظار أن يحل محله وإلى جواره يقف قوم مثل سيلفى ورو بوشاج وشامبوليون . الإرهاب الأبيض توقف ، نعم ولكن قواته تقف فى صفوف الاحتياطى (للملكية ..) بل إنها تقف متأهبة .

لا يهم ؟ إن جرونوبل الذى دخلها جون فرنسوا فى هذا الشهر العاشر من عام ١٨١٧ دخولا لافتا مدينة مفتوحة . لا يقف أحد على قمتها .. كل شخص فيها يمكنه إسماع صوته أو عرض أفكاره .. ولولا غياب شامبوليون - فيجاك النشاط الذى ذهب يشق لنفسه طريقاً فى باريس لاعتقدنا أننا عدنا إلى الأعوام ١٨١٠ - ١٨١٥ زمن فوريه الطيب والعزيز العجوز دويوا - فونتانال .

يرجع هذا الانفراج فى الأساس إلى رجل واحد هو فرانسوا - شويان دارنوفيل الذى اختاره كل من الملك وبوكاز ليحل مكان التعس المحافظ مونليفو . أصله من نورماندى وهو من سلك القضاء وتولى مناصب رفيعة فى باريس « معتدل فى تفكيره ، مجتهد جداً فى عمله » (1).

لم يأت هذا التعيين من ضربة حظ ، ففى نهاية ١٨١٦ رأت السلطة - أو بالأحرى رئيس الوزراء بوكاز - أن عدم شعبيتها تزداد بسبب التشدد القمعى الذى يمارسه أشخاص مثل باستار ودوناديو ولذلك أرسلت إلى الإدارة العليا الخطاب الدورى التالى : « صاحب الجلالة لويس الثامن عشر يرى أن جهود الإدارة يجب أن تبذل نحو تقريب الأفكار وربطها بالحكومة » (2).

فى نفس الوقت أرسل المارشال مارمون ، نوق دوراجوز فى منطقة تضم الإيزار والدورم والرون محمل بلقب نائب الملك وكان معروفا بأنه خدم البوربون خدمة عظيمة عندما ترك الأمبراطور فى آخر مارس ١٨١٤ ، إلا أنه احتفظ بشئ من الشعبية لدى الشعب البسيط . وكانت المهمة التى كلف بها « هى إعادة السلام بهذه المناطق ومعه الهدوء والثقة » وقد أعلن مارمون فى إحدى جلسات الأكاديمية الدلفينية إعادة بعض الضباط المحالين إلى الاستيداع بنصف مرتب وكذلك العفو السياسى عن بعض الأفراد .

كانت مهمة شويان دارنوفيل إذن هى نزع أسلحة العصابتين أى الليبراليون العائدون لمواقفهم والمتطرفون الجامحون . لم ينجح فى مرحلة أولى سوى - كما يؤكد إيميه شامبوليون - فيجاك - « الوصول إلى نتيجة مؤسفة » وهو أنه « جعل الملكيين المتحمسين يفقدون صبرهم » (3) . أكثرهم حماسة كان نون شك الجنرال - كونت دودوناديو الذى يصف أصدقاء المحافظ الجديد بأنهم رعا ع .

وكانت المصائب قد انهالت عليه وجعلته فى ثورة دائمة : فعلاوة على فقدان أصدقائه أعضاء « الكازينو » لسطوتهم حدثت له كارثة شخصية : فائشاء المحاولة الانقلابية التى قام بها ديدييه فى مايو ١٨١٦ لجأ أحد قادة الانقلاب إلى منزله فى الوقت الذى كان هو يطارد أفراد المؤامرة فما كان من زوجته الكونتيسة إلا أن أوت المتمرد وأنقذته ! : وتقول الإشاعات أن هذا المتمرد لم يكن سوى أوجان بوهارنيه ذاته الوغد : وانتشرت القصة فى جميع أركان المدينة . وترتب على ذلك أن حدث ما يلى ونرويه على لسان جان - فرانسوا كما نقله لجاك - جوزيف :

« قام الجنرال دوناديو بفضيحة جديدة خلال حفل ساهر مقام فى دار المحافظة : إذ أنه رأى زوجته الجنرالة تلعب الورق على مائدة السيد المحافظ عند وصوله . فانتابته ثورة غضب وأخذ زوجته من زراعتها وأعادها إلى منزلها وهى أقرب إلى الموت من الحياة فما كان من مسير دارنوفيل إلا أن استمر بكل هدوء فى اللعب معبرا عن احتقاره لهذه الإهانة الهمجية .. إذا استمرت الأمور على هذا الحال فإننا سنشهد مبارزة بالسيوف عن قريب . »

صفحة من صفحات رواية « الأحمر والأسود » .. مثلما جاء أيضا فى هذه القصة التى يرويها الأب دو سورد الرئيس الليبرالى الجديد للأكاديمية فى خطاب للمحافظ :

« .. رأيت الجنرال يتوجه نحوى راكبا حصانه ويصحبه عدد من الضباط فأسهرت بوضع يدي على قبعتى لتحيته وإذ به بدلاً من رد التحية يقول لضباطه [...] بصوت عال :

« إذا فى الطريق صادفت وغداً صبح عالياً : إنه صديق شوبان » (4)

هل تعدى دوناديو الحدود ؟ يتردد فى باريس أن نجمه آفل . من جان - فرانسوا إلى أخيه :

« يزداد الجنرال الجليل سعيرا من يوم لآخر . إن مقتله للمحافظ وصل لدرجة أنه لم يتبق سوى خطوة واحدة قبل أن نرى المتطرفين يعملون تقتيلا فى الليبراليين . إذا حدث شر وسقط المحافظ فإننى أرى أن أى أمل فى السلام والهدوء سيكون مستحيلا . إننا نقف جميعا على الأشواك . »

وصل نبأ إزاحة دوناديو عن منصبه فى نهاية الأمر إلى جرونويل فهو لم يكتفى بدفعه سكان جرونويل إلى فقدان حلمهم بل ضلع فى باريس فيما أسمى « بالمؤامرة على سطح الماء * » مع شاتوبريان :

« ... كنا فى انتظار التخلص منه خلال الليل . إلا أن المسعور رأى أنه من واجبه أن يجعلهم يدفعون ثمن تجرأهم عليه وأن يكون خروجه بضجه . فعلى الرغم من سوء الجو الشديد فقد أمر بجمع الحامية العسكرية بأكملها فى ساحة السلاح [...] كان المتطرفون قد قاموا طوال الليل بلصق الإعلانات التى تحض على الثورة إلا أن

* التى استهدفت فى منتهى البساطة خطف الملك .

ذلك لم يكن له أى أثر. منذ أن غادر الرجل العظيم الجميع يضحك ويغنى دون خوف من إثارة شكوك الشرطة . لقد كنا عاقلين « فقد نصحنى المحافظ بذلك وكلفنى بأن أقول ذلك للآخرين . »

« أن أقول ذلك للآخرين... ! جان - فرنسوا مكلف بمهمة - أو حتى « بمهمات » من محافظ الإيزار ؟ قبل ثلاثة أشهر من عودته من « المنفى » هاهو المواطن السيئ ، الجاكوبى وقد رقى إلى مستوى الرجل الموثوق فيه من ممثل آل بوربون فى جرونوبل . لقد توطدت بينهما علاقة من نفس نوع العلاقة التى كانت تربط فوربيه بشامبوليون - فيجاك قبل ذلك بعشرة أعوام مع فرق بسيط هو أن صاحب السلطة الجديد لا يمكنه أن يؤثر على العالم الشاب بنفس مقدار التأثير الذى كان لعالم الطبيعة المشهور على أخيه.

إيقاف دوناديو عن العمل فى أكتوبر ١٨١٨ وكذلك دوبينا - وإحلال المعتدلين الجنرال لودرو ديزيسار وروابيه - دولوسن محلهم - دعم موقف شوبان دارنوفيل - وبالتالي موقف « صغير » ولكنه لم يهدئ النفوس . جوقة « الكازينو » بقت على موقفها التحفز . خاصة بعد أن حصلت على مناصرة « خطيب الحروب الصليبية » الأب دو روزان الذى كان على رأس « جمعية الإرساليات » ولم يكن بعيدا عن الاعتقاد بأن وجوده فى الدوفينييه « فى محاربه الكفار » سنراه قريباً وهو يتحول إلى العمل .

« طافئوا الأنوار » بدءوا يتحركون . وقف فى مواجهتهم حزب الذين يعتبرون أنفسهم دعاة الاستنارة وأحد روادهم هو جان - فرانسوا .

هل كان على صلة بالحركة الماسونية الحرة ؟ إن موضوع علاقة الشقيقتين شامبوليون بالحركة غامض جداً . ولكن من ذا الذى لا يعلم أن هذه الحركة كانت - من الأب تيراسون حتى فوربيه - على علاقة بكل من يمكن تسميتهم بما قبل علم المصريات (عصر ما قبل الإيجيبتيولوجيا) ؟ كل شئ كان يشير إلى ارتباط الرجال المهتمين بالأبحاث الاستشراقية بالماسونية - كل شئ من أسرار الوزيس إلى اسطورة إيزيس وأوزيريس والبحث عن « النور » الشرقى ، والطقوس المعقدة المتعلقة بالدخول فى تيار الاستنارة الأوروبية من خلال فون بوردن وموزار .

علاوة على ذلك فإن معظم الأصدقاء الجرونوبلوازيين للشقيقتين من جوزيف فوربيه ، عضو بارز فى محفل « القلوب الآمنية » إلى شارك رونودون وابنه ، ومن هوج بيريا إلى أوجوستان تيفونيه ومن ييلون إلى فروسار إن معظم أصدقائهم ومؤيديهم وزملاء الشقيقتين شامبوليون كانوا أعضاء فى الحركة الماسونية الحرة .

كل شئ كان يؤدي بهما إلى الماسونية ليس فقط للأسباب الأيديولوجية والعلمية التي ذكرناها ولكن لأن هذا الانضمام كان يلتقى وميول جاك - جوزيف الطموح وجان - فرنسوا الليبرالى . أى أين يمكن أن تجعل لك أصدقاء أقوياء ؟ وأن تقيم أفضل التحالفات ضد « طافئى الأنوار » و « المتعصبين للكنيسة » و « المتطرفين » .

إلا أن الإثباتات الدالة على انضمام أى منهما غير متوفرة ويقدر سهولة إثبات ارتباط هنرى بايل بالماسونية بقدر استحالة إيجاد مؤشر واحد فيما يتعلق بجاك - جوزيف أو جان - فرنسوا . ومع ذلك كم كان التفاخر بانتساب « رجل الأنوار » - بين كل الرجال - ضحيه القمع ومن خلال أسرار الطقوس الغامضة والمثيرة للخيال للانتساب للماسونية مرغوباً فيه من الشقيقتين .

فى مذكرة أرسلها السيد / أ . بيهان إلى جان يويوت - ونشكرهما هنا هما الاثنان - والأول هو من الخبراء فى هذا المجال - يستبعد تماماً أن يكون الشقيقان قد انضما إلى الحركة الماسونية فى جرونويل . لاينكر مسيو بير بارال شامبوليون فى مقاله : « قرن من الماسونية الجرونويلوازية (١٧٥٠ - ١٨٥٠) » المنشور فى كراسات التاريخ Les Cahiers d'histoire والتي تنشرها جامعة كلارمون - فيران .⁽⁵⁾ كان لابد أن يلفت نظره اسم شامبوليون ... مع العلم بأنه « محفل أصدقاء التسامح » تأسس فى جرونويل فى ١٨٢٢ وهو ينتمى إلى مذهب ميسراييم . ولكنه لم يدم طويلاً وانحصر فى بعض الأعضاء المقبولين . إن تجنيد رجل كشامبوليون فى جرونويل أو باريس أو فى غيرهما كان لابد أن يذكر بل وأن يشاد به أيضاً .

فى ١٦ إبريل ١٨١٧ وصل جاك - جوزيف شامبوليون فيجاك إلى باريس وبدأ تسلقه الصبور لأسوار القلعة - العاصمة التى القوه من فوقها غداة هزيمة واترلو . لن نهمل أبداً محاولات الأخ الأكبر لأنها تدخل فى إطار الأفاق - بل أنها ترسم الأفاق ذاتها - التى ستجرى فيها مجهودات جان - فرنسوا - النهائية من أجل إيجاد حل الشفرة .

التحالفات والانفراجات والمؤامرات والهجمات المضادة وأعمال التقويض وفك الحصار ... لقد كانت هذه السنوات الخمسة من حياة شامبوليون - فيجاك (١٨١٧ - ١٨٢٢) الباريسية مثل سنوات الدعوة بالموعظات التى قضاهما يوحنا المعمدان على ضفاف نهر الأردن للإعلان عن قرب قدوم المسيح . مع فارق بسيط وهو أن العميد السابق لكلية آداب جرونويل لم يحظ بسعفات الاستشهاد ولكنه سيحصل على الفشل

ثلاث مرات وبالتالي الفشل النهائي فى الحصول على عضوية الأكاديمية فرانسيز وكان من أسباب الفشل الرئيسية فى المرتين الأخيرتين بسبب الغيرة التى أثارتها اكتشافات أخيه الأصغر .

إذا نحن اعتبرنا بداية الحملة الباريسية لجاك - جوزيف بمثابة هجوم أولى من أجل إعداد أوروبا العلمية لكى تحسن إستقبال عبقرية أخيه فأنها فى الواقع تتلخص فى انتصار ضخم وهو العلاقة الحميمة على المستويين المهني والعاطفي التى أقامها المثقف القادم من فيجاك مع بون - جوزيف وأسييه السكرتير الدائم للأنستيتو قسم التاريخ والأدب القديمة* لم تكن هذه العلاقة « حب من أول نظرة » بين داسييه والمنفى إلى كارسى : فعندما قدمهما ميلان لبعض كان الرجلان يعرفان بعضهما منذ أكثر من عشر سنوات كما أن شامبوليون الكبير عضو منتسب للأنستيتو . إلا أنها كانت عملية استمالة متبادلة بين الرجلين .

لقد اتيح لنا أن نتعرف على إمكانات الشقيق الأكبر فى استثارة إعجاب وتعاطف الآخرين . وكان صديقه الجديد - داسييه - المشهور والمبجل يتمتع بنفس هذه الميزة . كان قد نشر قبل أربعين عاماً ترجمة ممتازة لكتاب سيروينييا لجزينوفون (محاولة سيحاول تكرارها كل من كانت له رغبة دراسة اليونانية) وبعد ذلك لم يفعل شيئاً . هذا العجز الدمث الأخلاق الذى عبر الثورة والإمبراطورية دون أن يخطئ أو يخون ، كان يكتفى بالإعجاب بزملائه الشباب ومساندتهم فى أبحاثهم وبالإشادة بهم بعد وفاتهم - من عقد إلى عقد - أصبح خالداً حقيقياً** مع مرور الزمن أصبح المنظم لجنازات أعلام العلوم الفرنسية .

« مسيو دوساسى ترجم [...] مسيو لانجلاس كتب مذكرات مسيو كاترومار بعض الجمل المفيدة ، مسيو داسييه يتلاعب بالكلمات ... » بعض مما كتبه جان - فرنسوا إلى أخيه فيما بعد . هذا المتلاعب بالكلمات سيفعل الكثير لصالح المكتشف مع الأخذ فى الاعتبار أن التعاطف الواثق الذى يكنه لفيجاك كان قد بين الأمور بوضوح للرجل العجوز.

بفضل ما يتمتع به من الحضور الاجتماعى الخلاق الذى هو مزيج مقنن من الوصولية وتقديم الخدمات والعاطفة والذى يجعل منه أحد مخترعى مانسميه اليوم العلاقات العامة - « وضع جاك - جوزيف يده » على بون - جوزيف . مع إضافة تجديد شخصى جداً لاسهاماته العلمية. « هذا السكرتير الخاص » كان يكتب أهم ما جاء فى خطب المديح الأكاديمية التى كانت تثير أو تحافظ على سمعة السكرتير الدائم : أثبت سن . أو . كاربونال بمراجعة أسلوب الكتابة نصاً وراء الآخر ، أن مشاركة الرجل

* الذى سيصبح أكاديمية المخطوطات والأدب .
** كل من يقبل فى الأكاديمية يسمى « خالد » [المترجم] .

العجوز لم تكن تتعدى مع مضي الوقت سوى بعض « التعديلات الخطابية »
وتصحیحات للنسخ (6) ...

كما كان داسييه يعتمد على جاك - جوزيف في تنفيذ مشروع « عصره » الكبير وهو
الجرد الكامل « للأثار » في فرنسا وهو المشروع الذي حاول أن يقنع به بابوليون قبل عشر سنوات .

لكن إذا كان اجتهد الأخ الأكبر شامبوليون قد أعطى لاستاذة العجوز خصوبة
خلاقة جديدة فإن ذلك قد أثار في نفس الوقت الريبة والأحكام المسبقة . تأثير سحر
شامبوليون لم يكن فاعلاً على الجميع : لقد أثار نجاحه السريع أكثر من اللازم وتلوناته
السياسية المختلفة (على الرغم من أن أحداً في ذلك الوقت لم يكن لديه دروس يعطيها
للآخر في هذا المجال) ووضع يده بالحيلة على قبطان الباخرة الأكاديمية - أثار زوابع
كثيرة مثل تلك التي أثارها الامتياز الذي منحه الملك لدوكاز .

عندما رشح عميد كلية آداب جرونويل السابق نفسه لأكاديمية المخطوطات في بداية
أبريل * ١٨١٨ ساندده داسييه بالطبع كما أيده ليونار دو سونييري الذي كان زميلاً
لأخيه في الكولاج بوفرانس ، غير أن جان - فرسوا لم يخفى من موقعه في جرونويل
مخاوفه : « ها أنت الآن بين أيدي السادة أصحاب الكراسي . أرجو من الله ألا
يعاملوك مثلما فعلوا مع الرفيق فورييه ** أعتقد أنهم قادرون على ... » (٧ أبريل
١٨١٨) .

وضوح رؤيا نابع من الحب الحقيقي : جاك - جوزيف انهزم بواسطة الجهة المكونة
من الحسودين وطافئى الأنوار وأفضل مثل لهم هوراعول روشات . هذا الدارس
المغمور للغه اليونانية هاجمه بول لدى كورييه - المعروف بأنه من الكتاب السياسيين
أكثر منه لغوى والذي خسر في انتخابات الأكاديمية هو أيضاً ، هاجمه على طريقته :

« ... مسيو راعول روشات هذا المدافع الأنيق عن الكنيسة *** كان في إمكانه أن
يتعلم كأي فرد بأن يذهب إلى المدرسة إلا أنه رأى أن ذلك لن يفيدده بشئ ففضل أن
يمثل عن أن يتعلم . حصل على عشرة وظائف كعالم ولم يتمكن من ممارسة واحدة
منها علماً بأنه حصل عليها ولم يعمل على أن يستحقها (7) » .

* النص الفرنسى ١٨١٧ - ولكن واضح جداً أنه خطأ مطبعى [المترجم] .

** الذى قد فشل مؤخراً في الحصول على موافقتهم .

*** معروف من الوسط العلمى بأنه ممثل الكنيسة بينهم .

باختصار ، رفض ترشيح جاك - جوزيف * وألمه ذلك جدا . كما ألم ذلك بون - جوزيف أيضا . هذه الإهانة الموجهة لشخص من محاسبيه زادت من ترابطهما . وهو ما سيؤدي دورا رئيسيا ليس في اكتشافات جان - فرنسوا بقدر ما ستؤدي في الاعتراف بعيقريته . كما أن هذا الامتحان الأكاديمي ألقى الضوء الكاشف للعداوات والصداقات . فهو إذ غامر بالدخول في ميدان مكشوف فقد تمكن فيجاك من رصد من أين تأتي الطلقات وفي أي موقع تقف الحلفاء . كانت إذن معركة كاشفة . فيما عدا داسييه إذن ، لم يكن أفريق شامبوليون أن ينتظر أن يأتيه العون من السادة أصحاب الكراسي

بينما كان الأخ الأكبر يتلقى الضربات السيئة بعد أن دخل الأتون الباريسي وهو يسعى لتوسيع رقعة سلطاته وعدد تحالفاته - كان الأخ الأصغر يدعم مواضعه في جرونويل ، إحدى مظاهر التعبير عن الاحترام بل عن « السلطة » التي حازها المنبؤ القادم من فيجاك بعد عودته إلى جرونويل بستة أشهر هو تكليفه بمهمة دبلوماسية في ربيع ١٨١٨ . كان المطلوب هو تجميع واختيار المستندات المتعلقة بالأراضي التي تردها فرنسا إلى ملك ساردينيا والبييمونت . وهكذا وبعد أن تحول إلى مستشار دبلوماسي كتب في ٧ أبريل ١٨١٨ إلى جاك - جوزيف :

« وصلني الآن قرار تعييني كوميسيرا للبحث عن مستندات الملكية والمستندات المتعلقة بماركيزيه سالوس وبكارمانويل ** اللتين يطالب بهما ملك ساردينيا ، والتي قد تكون موجودة في مجلس المحاسبات [٠٠] لا يريدون إعطاء صاحب الجلالة الساردية سوى ما هو لازم ولاشئ أكثر من ذلك [٠٠٠] سوف اجعل زميلي يدفع ثمناً غالياً لما يريده *** [٠٠٠] إذا كنت تعرف أي مواطن ساردينى في باريس أسأله عما يريد عمله بكونتية سالوسى وماهى العلاقة بين جرونويل وهذا البلد **** .. »

وكتب إلى جان فيسييه في ١٥ أبريل

* كما سيرفض ترشيحه مرتين بعد ذلك في ١٨٢٠ و ١٨٢٤ .

** موضوع طريف بالنسبة لشخص جمهورى النزعة في خدمة أسرة بوربون .

*** الكونت كوستا ، من جنوا ، والذي سيصبح صديقا له وسيعرض عليه شغل كرسي التاريخ بجامعة شوريت وهو ما سيرفضه بعد تردد .

**** مقاطعة سافوا أعيدت إلى بلاط تورينو عام ١٨١٤

« أمضى نصف أيامى فى تحريك أوراق قديمة فى أرشيف البرلمان بحثاً عن عقود قديمة لها علاقة بتاريخ الدوفينييه . باقى الوقت أمضيه فى مقابلة أصدقائى ولا يبقى لى سوى نصف ساعة من الوقت لأقوم بقلّة قليلة من الغزل لصاحبة الحق فى ذلك . »

« نصف أيامه .. » النصف الباقى لا يبقى فيه باطلا . ديپلوماسى بالصدفة عالم لغويات بالمهنة . ولكن جان - فرنسوا كان قبل كل شئ مريباً خلال هذه الشهور وذلك على ثلاث جبهات :

أولاً : بصفته معلم أين جاك - جوزيف وهو يريد بذلك سداد الدين القديم الذى عليه .

ثانياً : بصفته مدرس مادة التاريخ فى المدرسة الملكية

ثالثاً : وأخيراً وعلى وجه الخصوص بصفته مديراً للتعليم التعاونى فى مقاطعة الدوفينييه وهو ما كان قد كرس له وقته فى مقاطع اللوت .

عندما وصف تلك الأيام لصديقه فى فيجاك جان فيسييه اعتبر أكثر هذه المشغوليات صعوبة ، « تعليم » ابن أخيه على . « فهو شئت الفكر كالمعتاد . أعلمه اللغة اللاتينية وهى عملية ليست هينة . إذا وجدت صعوبة بل صعوبة كبيرة جداً فى هضم المبادئ الأولية لى مادة فإنك ستجد صعوبة جمّة فى جعل آخر يقضمها . ولكن من واجبى أن أمر بهذه التجربة . إن الطبيعة تنادى وإنى استجيب .. »

فى خطاب لأخيه فى نفس العام ٧ أبريل - كتب جان - فرنسوا مشيراً إلى ما يدرسه لعلّى وكان حينذاك فى التاسعة : « لاتينى ، فرنسى ، قليل من الجغرافيا . قل لى إذا كانت هذه الخطة تروق لك .. » عودة لعلاقة الشقيقين خمسة عشر عاماً إلى الوراء ..

بالنسبة للتعليم الكلاسيكى كان أمّله أن يعود إليه من الباب الواسع فقد أعطاه كل من المحافظ ورئيس الجامعة الأب دوسورى « هشيم جامعى نبيل » ، الأمل فى أنه سيسترد كرسيه لمادة التاريخ . غير أن الكلية المسماة بكلية « الفلسفة » ، لم تعد إلى الوجود (لأن الكلمة لم تعجب آل بوربون) وكان على جان - فرنسوا أن يكتفى بتدريس مادة التاريخ فى المدرسة الملكية مقابل مرتب ضئيل ١,٨٠٠ فرنكا فى العام .

كانت مهمته الأساسية التعليمية فى الواقع هى إدارة المدرسة المسماة بمونفلورى . باسم المكان الذى احتلته مدرسة التعليم التعاونى قبل أن تنتقل مع بداية العام الدراسى ١٨١٨ إلى دير قديم بالقرب من جرونويل وكان اسم المدرسة فى البداية المدرسة اللاتينية .

يمكن أن نتصور عدد الطلبات الملحة التي انهالت عليه فور عودته وكان ذلك غداة نداء دويلانتا من أجل التعليم الشعبى - والذي أصبح الهدف الأسمى لمعركتهم وهى المعركة التي سيكون هو قائدها العام . وذلك بمناسبة شويان دارنوفيل النشطة وبتأييد الأب دوسورد . علاوة على بعض كبار النبلاء الليبراليين ومنهم الكونت دو لاستيرى والكونت دو لاورد الذين عبروا عن حماسهم للمشروع .. وكان التمويل متوفرا .. كيف إذن التخلص من المسئولية ؟

خاصة وأن طافئى الأنوار أخذوا يوزعون الحرمان من الكنيسة . ولما كان من الصعب عليهم أن يعلنوا عن مناهضتهم للتعليم الشعبى فإنهم كانوا ينددون بطريقة « مستترة من الخارج » وتم فرضها خلال « يوم الاغتصاب » على يد « كارنو قاتل الملوك » . وعن ذلك كتب صغير لأخيه « يطوف مبعوثهم من محل لآخر . يقولون أن الماسونيين هم الذين اخترعوا هذه الطريقة ... وبذلك يكون من التقوى كفريق الإعلانات الدالة على قرب موعد افتتاح المدرسة التعاونية .

يالها من قضية يدافع عنها الأب دو روزان . فهو يعلن أن المناولة المقدسة الاولى سترفض للأولاد الذين سيذهبون إلى هذه المدرسة وتحول إلى حامى حمى العفاف كما جاء فى هذه السطور التي كتبها جان - فرنسوا لأخيه : « قبل أيام قليلة هدد مسيو دو روزان بأنه سيأمر بضرب والقتل بالسونكى المتلصصين الذى يقفون عند أبواب الكنيسة لمشاهدة السيدات وهن خارجات . الكنيسة محاطة بالفعل بجنود مسلحين إنها مهزلة حقيقية . »

لم يكن صديقنا عالم اللغويات فى حاجة إلى أكثر من ذلك ليندفع إلى ساحة الصراع . بدأ تسجيل أسماء التلاميذ مع بداية العام ١٨١٨ . وجاء النجاح باهراً . وفى ١٥ إبريل كتب « صغير » لصديقه جان فيسييه يقول : « أدير مدرسة للتعليم التعاونى أقمته فى مدينتنا على الرغم من صياح طافئى الأنوار* الذى لم يمنع أن عدد الأولاد المسجلين بلغ اليوم ثلاثمائة وأن المدرس الذى عينته ممتاز »

المسؤولون المباشرون للمدرسة مونفلورى كانوا ثلاثة من أصدقاء جان - فرنسوا : الشقيقان فروسار ودوران وقد جمعوا المدارس التي كانوا يديرونها . أما هو فكان يكتفى بالتدريس وكان يرسم جداول تعليمية ملونة الغرض منها جعل التعليم محبباً لدى

* أشار إليهم فى الخطاب بثلاثة أقماع وهو الرسم الدال على معدة إطفاء الشموع . وهو يكرر ذلك باستمرار .

الأطفال يجذبهم له سحر الصور الملونة . أشرك معه في هذه العملية صديقه المثال تريول الذى أسس معه ومع جوزيف رى الجمعيه الليبرالية السرية المسماه «الاتحاد» . فى بعض الأحوال كان نور الرداء الأسود يعرفون كيف يدعمون التعليم الشعبى : إذ أنه عندما افتتح مدرسة فى فيف بالقرب من منزل الأسرة دهش جان - فرنسوا بحصوله على تأييد قسيس الكنيسة وكذلك تأييد زميل له من قرية مجاورة . طافئو الأنوار ليسوا جميعها فى جانب واحد ... ومع ذلك فإن قرارات العزل الكنسى الصادرة من الحزب الأسود أخذت تتضاعف بالنسبة لهم . واعتبرت مدرسة مونفلورى وكرا حقيقيا للجاكوبيين مما جعل مسئولو المدرسة الملكية يهددون بأنهم سيعزلون جان فرنسوا من التدريس فيها . ما الذى كان يمكنه أن يحفذه أكثر من ذلك ويربطه بصورة أوثق بهذا « الدير » التعاونى الذى تنتشر فيه الأنوار بدلا من رائحة البخور ؟

إنه كان يريد أن يكون مربيا وهو يتمتع بالموهبة لذلك . ولكن هل كان مربيا حقاً حتى النخاع ؟

لقد سمعناه يتأفف بعض الشئ بخصوص «على» . أما بخصوص مونفلورى فنحن نقرأ : « لم تعد هناك سعادة فى التعامل مع الأولاد أكثر من التعامل مع الرجال » .

بعد قليل يعيد جان - فرنسوا شامبوليون اكتشاف غذاء قلبه وروحه ، سنجد مراسلاته امتلات وفاضت فجأة بإشارات وأشكال مرسومة كما لو أن النيل غمرها هى مصر فوقه كالشمس حلقة مسيطرة ساحرة بل مبهرة لدرجة تحجب الرؤية تماما ! مصر

هذه السنة ١٨١٨ التى تقع بين الانسحاب إلى فيجاك وعواصف ١٨٢٠ السياسية تعتبر إحدى أكثر الفصول إشراقا فى حياة المكتشف . فقد ظل لمدة ثلاث أو أربع سنوات أسير السياسة (أو التاريخ) التى استحوذت على فكره تماما . ثم تلاها التعليم .. هاهو يسترد أنفاسه الآن دون أن يستغنى عن أى منهما وراح يديم النظر فى اللغز ليحله .

كما يحدث فى كثير من الأحيان معه فإن التعبير يبدأ بالثورة وبالغضب : فى خطاب بتاريخ ٧ أبريل ١٨١٨ إلى جاك - جوزيف يعبر عن « غضبه » لأنه لم يتلقى « صورة مشفوفة من النص الهيروغليفى لحجر رشيد » مضيفا بمرارة : « إن هذا يكبلنى تماما ، يداى وقدمائى ... » قدماه؟ ممكن ولكن الباقى لا : ويشهد على ذلك بيان الانتصار - الجزئى - الصادر ضمن خطابه لشامبوليون فيجاك الذى كان قد نقل له الاهتمام الذى قال فوريبه أنه يوليه لأعماله . هذا الخطاب مهم جدا وأساسى :

« أسعدنى جداً أن يكون مسيو فوربيه مهتما بدراساتى الهيروغليفية . أعتقد أن ذلك يسترعى الاهتمام [...] سأتمكن فى نهاية الأمر من وضع الكلمة الفرنسية المقابلة لكل رسم هيروغليفى مستخدماً الصورة الزنكوغرافية التى وفرتها اللجنة* [...] أعرف الآن أين يبدأ وأين ينتهى النص الهيروغليفى بالنسبة للخط المكتوب أو اليونانى المقابل له . وسوف أثبت أن التثمين على الأقل ناقصان ... »

يذهب مكتشف لغز الهيروغليفية المتحمس فجأة إلى أبعد من تقريره عما قام به حتى الآن إذ أنه يقدم رؤية شاملة للعمل الضخم وإعادة نظر أخرى فيما فعل إنها « دراسة فى الأسلوب» ** الخاص به :

« لا يوجد فى عملى شعوذة ولا أسرار . كل شئ يأتى نتيجة للمقارنات وليس طبقاً لنظام مسبق . لقد اكتشفت أدوات التعريف والفرد وجمعه وبعض حروف العطف إلا أن كل ذلك لا يكفى لتحديد النظام الذى تقوم عليه هذه الكتابة ، أن نتائج عملى قلبت رأساً على عقب جميع أفكارى التى كنت كونتها عن الهيروغليفيات حتى الآن . أعتقد إنه يجب العودة إلى ما قاله كليمان السكندرى *** ، فيما عدا بعض التعديلات الطفيفة . إلا أنى لا يمكن أن أصل إلى النهاية دون صورة اللجنة المشفوفة .

لم تنتهى بعد من هذا الخطاب الكاشف إذ يجب أن نذكر أيضاً هذا الاعتراف - الذى هو أيضاً بيان بأهدافه موجه لأخيه واستاذة حيث نكتشف بوضوح طبيعة الرجل التى هى مزيج غامض من الرومانسية (قبل ظهور التيار الرومانى ذاته) ومن جسارة الفرسان ومن الزهو مع وضوح الفكر وصفاء النفس التى يتسم بها أهل الجنوب ليس ذلك فقط بل يكشف أيضاً « سياسته » العلمية وما يسميه « منظومته الأخلاقية والدينية » ****

كان أخوه قد ذكر له احتمال نشر كتابه عن قواعد اللغة القبطية الذى أثار اهتمام نابوليون لدى مروره بجرونوبل فى بداية الأيام المائه (كان الأخ الأكبر يشعر أن بإمكانه تحريك الجبال لولا الأكاديميات ..) وجاء رد «صغير» كالاتى :

* لجنة محصر الموضوعه تحت مسئولية جومار وهى التى تتولى نشر وصف محصر منذ ١٨٠٩ ولم يكن جان - فرنسوا يكف عن انتقاد ما تنقله من هيروغليفيات مما سيؤدى فى النهاية إلى خصام جومار معه .
** عنوان الكتاب الذى ألفه رينيه ديفارت فى ١٦٣٧ والذى يعتبر منعطفاً هاماً فى تاريخ الفلسفة [المترجم]

*** راجع الفصل ١٠

**** التى تستعبر من الروحانيات البوذية بعض أفكارها كما يتضح من بعض الإشارات المتناثرة فى مراسلاته .

« أعتقد يا صديقي العزيز أن ليس هذا وقت التفكير في ذلك ولا هو الموضوع الملح ، وعلى العموم فليس لدينا المال لذلك . ولا أرى داعيا للإستدانة* في هذه الأوقات العصيبة التي نعيشها . يجب أن نركز تفكيرنا في مستقبلنا الجسدي أما المجد فسيأتي عندما يريد [...] أما الشهرة فإني أسخر منها بكل عواظني . ليست هذه نكتة بل هو التسلسل الطبيعي لنظامي الأخلاقي والديني . أنه يرنو إلى الراحة النفسية ويؤدي إليها دائما . [...] على الرغم أنني لم أعرف حتى الآن لراحة الجسد ولا الفكر ولاحتي راحة القلب . يعتبر هذا الأخير الجانب الضعيف وللأسف بالنسبة لي فيبدو أنه هو الذي يقود وجودي كله ** هذا هو قدرى ...

إذا كانت لدى إمكانات نشر شيء فسيكون ذلك دون أدنى شك هو ما لي المتعلق بالهيروغليفية . فذلك فيه بعض الإثارة ولعله يحرك فضول عالم الآداب الذي يبدو لي في ثبات عميق . أما ما أراه الآن من تحركات فإنها تبدو لي على الرغم من حيويتها شبيهة بتحركات من يسير أثناء نومه على الرغم من أن عينيه مفتوحتان .. »

نجد كل شيء في هذه السطور . هل يجب أن ننظر إلى هذا الخطاب على أنه وصيته بعد أن بلغ ثلثي عمره كله – جان فرنسوا كان في الثامنة والعشرين عندما كتب الخطاب ولم يبق أمامه سوى أربعة عشر سنة ... ففيه نجد وضوح الرؤيا ، والحزن والاسلوب المتحمس وهذا التواضع الشكلي الذي هو قمة التعبير عن الزهو وهو ما جعله يصف عمله « بالإثارة » علماً بأنه يلتهم كيانه كله ويتسامى به ؟

أرفق بهذا الخطاب ورقه ضمنها مائة من الأشكال الهيروغليفية ومعها تراجمها بالفرنسية تقريبية مثل الصحراء – المملكة – المعبد – التمثال – الآلهة ... مهما كان هذا المستند غير كامل – إذ يجب أن نتظر أربع سنوات أخرى من المجهود المستمر ووصول بعض القطع الأساسية التي وصلته من مصر قبل أن تنتشر الأثر – فهو يعتبر – هذا المستند – مسودة إكتشافه النهائي . ثم أنه يضيف عموديا في الهامش ملحوظة أساسية بالنسبة للخطاب والورقة المرفقة : « لا داعي لأن أوصيك باستخدام الورقة المرفقة بحیطة كبيرة فالملتصعين ليسوا نادرين . إن هذا السطر يكفي لإعطاء المفتاح لكل الباقي ، يمكنك مع ذلك أن تريها لفورييه⁽⁸⁾ . »

* هو المدقق هذه المرة .

** سيتزوج جان – فرنسوا بعد ذلك بستة أشهر .

لقد أصبح «صغير» داخل المعبد - فى قاعته الخارجية نعم ولكنه فى الداخل بالفعل ... وها هو الآن مغطى بالتراب المقدس وسط النخبة المختارة - لكن سيكون عليه قبل الصعود الأخير ودفع الباب المغلق النهائى أن يمر عبر تقلبات عديدة عرفها القرن . إلا أنه كان يعلم فى هذا الربيع من عام ١٨١٨ أن الإشارات الدالة على الطريق قد وضعت ليسلكه حتى النهاية وأن «الراحة» التى يصبو إليها لن يعرفها غداً وأن القدر قد مسه بمخالبه المصنوعة من حجر . هل يمكن أن يسبقه أحد ؟ الإشارة كانت واضحة .

فى الرابع والعشرين من يوليو ١٨١٨ عقدت جمعية العلوم والفنون فى جرونوبل اجتماعاً برئاسة سافوا نورولان . «شامبوليون الصغير» الذى كان انتخب عضواً مقيماً فى ١٨١٠ لم يكن قد حضر الجلسات منذ خمس سنوات إلا أنه أعلن فى ذلك اليوم أن لديه مداخلة هامة ومع ذلك فإن الحضور لم يكونوا بكثرة : ستة أكاديميين فقط ومنهم الجنرال العزيز دولاسالات .. «القله السعيدة» كما يقول ستانندال* لقد إستمعوا إلى بعض الإكتشافات . لم يصل لنا من صداها لنا سوى النذر القليل ولكنها نقلت مع شئ من التفصيل ضمن الخطاب المرسل لجاك جوزيف فى ١٨ أبريل .

لم يكشف لنا أرشيف الأكاديمية الجرونوبلوازية الكثير عن هذا الموضوع . إذ يذكر به أنه جرى الإستماع لتقرير نابع من اللجنة الزراعيه فى بوردو حول زراعة البطاطس بالإضافة إلى أربع مداخلات : اثنتان من بيرياسان يرى - عن «مقطوعات من تاريخ القانون الرومانى» و «ثلاث خطابات لم يسبق نشرها لقواتير» ومداخلة من «مسيو كوستا ، كوميسير ملك ساردينيا» (نظير جان فرانسوا فى الحوار الدائر حول مركيزية دوسلاوس) ومداخلة من «مسيو شامبوليون الصغير» عنوانها «شرح لجزء من نص حجر رشيد . هل أثارت هذه المداخلة أى ضجه ؟ كتب محرر محضر الجلسة بتسطيح مثالى ما يلى :

«قرأ السيد شامبوليون الصغير أجزاء من شرح لحجر رشيد المشهور . بل إنه أوضح شرحه على صورة رسم عليها رسوما هيروغليفية من السطر الأول والآخر من النص» وبعد أكثر من قرن من هذا التاريخ كان تعليق الكومندان جوستار على هذه الجلسة التاريخية أكثر حيوية :

«شامبوليون هو بلاشك مؤسس الإيجيبتولوجيا (علم المصريات القديمة) . الحركة العلمية التى تلت إكتشافاته [...] بدأت فى فرنسا فى جرونوبل وأتجراً فأقول فى الأكاديمية الدوفينية فى ٢٤ يوليو ١٨١٨ . من حق جمعيتنا إذا أن تفتخر ..»^(٩)

* "Happy Few" بالإنجليزية فى النص [المترجم]

مبالغات ؟ بالطبع هى كذلك لأن جان - فرنسوا عام ١٨١٨ كان لا يزال بعيداً عن هدفه . إن « هذا الميلاد » الذى ذكره الكوماندان جوستار لم يكن سوى الإرهاصات الأولى لعملية الولادة ولم يكن الميلاد قد تم فعلاً . فلو أنه توقف عنه هذا الخد المذكور فى خطاب شهر إبريل وفى عرضه الذى قدمه فى يوليو ١٨١٨ لكان بدى البروفيسور جان - فرنسوا شامبوليون كأحد الرواد العبقريين مثله مثل كيرشار وزوريجا ويانج وأكربالد . فى مرحلته الجرونوبلوازية كان شامبوليون قد لحق بهذه المجموعة وكان عليه بعد ذلك أن يتقدم عليها .

يجب فى جميع الأحوال أن نسجل هنا أن هذا المعلم الشاب المقيم فى محافظة بعيدة عنه بارييس الذى لم يؤلف سوى كتاب واحد هو « مصر فى عصر الفراعنة » وهو كتاب أوضح فيه أنه محاولة لرسم صورة فقط للحياة المصرية الفرعونية ، كان على الرغم من ذلك واحداً من مجموعة دارسى مصر القديمة الذين يشار إليهم على أنهم الأساتذة الكبار فى مادتهم . و « صغير » هو الذى توجه إليه قنصل انجلترا فى الاسكندرية هنرى سولت بخطاب توصية بالرحالة الفرنسى كايو (والذى سنلقاه فيما بعد) لأنه « بفضل إكتشافاته الأخيرة فى هذا البلد قد شرف نفسه ووطنه » . سولت سيكون له دور مفيد ومثير للإضطرابات أيضاً فى بقية القصة إذ أنه أحد الرجال الذين كانوا بيدهم مفاتيحها .

كان جان فرنسوا إذن ينظر إليه على أنه أحد الذين تطلب منهم الضمانات والذين بواسطتهم تحصل على الشهرة ... هل عومل نيوتن هكذا قبل التفاحة أو جوتنبرج قبل مطبعته ؟

كان قلب صديقنا الشاب كما قال لنا هو « نقطة ضعفه » لقد كان مثل يلانثا المجنون يخطئ دائماً من هذه الناحية . لقد أحب شان - مارتان الذى أصبح من أعدائه . كما أحب فورييه ثم كاد أن يفقد صداقته . وأحب يولين التى هزأت به فى البداية ولويز التى تزوجت من آخر . وماذا عن أوجوستان ؟ « ماما الجميلة » فى فيجاك ؟ نعم هنا قلبه لم يخدعه . ولكن ماذا عن روزين ؟ يعتقد أنه يحبها - وهى التى كان يرمز لها بحرف ر فى خطابات لتيقونيه .. هل كان فى إعدادة للإقتران بها نوعاً من حب التغلب على مقاومة شخص غيبى ؟ إن كلود بلان لا يريد مصاهرته ؟ إن فى ذلك سبباً وجيهاً لكى يكون المأثيقاً ضد هذا البارثولو . إستمر تاجر القفازات فى مراوغته طوال خمس سنوات وهو باق على إصراره . وطوال هذه السنوات الخمس كانت روزين

تراسله وتؤكد له بالقدر الذى كان مسموحا لبنت مثلها أن تفعله عن تعلقها به . فكيف لا يتأثر هو بذلك فى الوقت الذى صده فيه العديد من الناس ونفى وحورب وحسد وكره ؟ لم يكن لرفض عم بلان له من تأثير سوى أن يزيده عنادا . لكن رفض جاك - جوزيف كان من الممكن أن يثنيه عن مشروعه . لكن أخيه الأكبر ، أستاذه والوصى عليه لم يعرف فى أوقات كثيرة كيف يجد من أندفاعات قلب المراهق بطريقة متوازنة . ولكن هذه المرة كان بإمكان حججه أن تكون فاعلة . هل روزين هى الزوجة التى يرغب أحد العلماء فى الاقتران بها ؟ ما الذى تعرفه ؟ هل تتمتع بحسن التمييز المطلوب ؟

بقية القصد جعلنا نميل إلى تأكيد رأى الأخ الأكبر . إلا أننا نسجل ونحن نحاول أن نضع الأمور فى إطار ١٨١٨ أن ما نعرفه عن زويه بيريا وأبنة خالها روزية بلان لا يدعمان نظرية جاك - جوزيف . إن خطابات الأولى تعكس ضحالة التعليم (وهى تنادى زوجها باسم الاسرة شامبوايون كما تفعل النساء البورجوازيات فى مسرحيات (لايبش ..) غير أن ذلك لا يقلل البتة من ذكاء أكيد فى فهمها للناس وأمور الحياة . هل هى أكثر ثقافة من روزين التى كانت تلح فى طلب قراءة رواية هيلوين الجديدة ؟ كلا بل إن المראה التى كان يكتنفها الأخ الأكبر لروزين قد يكون سببها أنها كانت أكثر علما من زويه .

ومع ذلك فكم هى واهية الحجج التى يسوقها «صغير» للرد على تلك التى تجعل فيجك يضغط عليه بها لكى يعدل عن هذا الزواج منها وأن يلحق به فى باريس :

« أنا معروف فى جرونوبل ، كما أن لى بها أصدقاء وسمعة طيبة : مكنتى فيها مستقرة وليس بها ما يدفعنى إلى الشكوى . وسأقوم هنا بأفضل من باريس بالأعمال التى خططت لها [..] كنت أفضل ألا أكون ولدت من الأصل مادام من الصعب على أن أرى فى نفس الوقت كل الأشخاص الذين أحبهم كثيرا . إبقى لى على صداقتك كلها ! لعل أقل الأوقات استحقاقا لها هى التى أشعر فيها لأى درجة هى ضرورية بالنسبة لى وكم سيكون قاسيا على أن أراها بدأت تهون ... »

باختصار ... فبعد أن أطاح « جان - فرنسوا » بتحفظات حماه وفضل عدم الاستماع إلى تحذيرات « مرشده الروحى » تزوج بروز (وكنائتها روزين) بلان فى ٣ ديسمبر ١٨١٨ فى كاتدرائية جرونوبل - الذى لم يتمكن الأب دورزان من منع دخولها على هذا الشاب (خاصة وأن عديله هوج كان فوق ذلك كله عضوا فى الحركة الماسونية) .

قبل أسبوع من هذا التاريخ جرى أمام مسجل عقود جرونويل التوقيع على عقد زواج السيد / جان - فرنسوا شامبوليون « الضابط بالجامعة الملكية وأستاذ التاريخ بالمدرسة الملكية بنظام الدوطة على « الأنسه بلان » التي تقدم له بخلاف جهاز محترم للعروس ضوطة بنظام المقدم على الميراث » - مقدارها ثلاثون ألف فرنكا - وهو مبلغ كبير جداً بالنسبة لذلك الزمان * .

ولكن كيف لاندعش إزاء تغيب على الأقل بين الشهود - ليس فقط جاك - جوزيف ** وجميع أعضاء الأسرة في فيجاك ولكن أيضاً جميع أصدقاء الأستاذ الشاب فيما عدا هوج بيريا وپريزون. موضوع آخر مثير للدهشة وهو بقاء الزوجين دون أطفال لمدة ستة أعوام تقريباً - وأن الأب سيعتظر مدة شهرين قبل أن يحضر لرؤية طفله زورابيد وكان ذلك خلال توقفه في جرونويل وهو قادم من باريس في طريقه إلى تورينو .

- بنفس قدر عدم سعادته كإبن لم يكن جان - فرنسوا زوجاً سعيداً هذا القلب المتأجج لدرجة شرهة والتي كانت كل خطباته أكثر دفئاً وإلحاحاً وانفتاحاً من مراسليه لم يعرف مع زوجته (بقدر ما توفره لنا الشواهد) سوى تبادل عاقل ومعتدل في العلاقات وفي الأمور المنزلية . أن تكون روزين قد أحبتة وأعجبت به فليس في ذلك شك ولكن أهم ما يميز خطابات روزين بالنسبة للباحث في سيرته هو وجودها أصلاً ضمن المراسلات الضخمة لشامبوليون الصغير .

جاء الوصف الأكثر بلاغة لقصة هذا الزواج التعيس ضمن خطاب له موجه لصديقه الإيطالية أنجيليكا باليى *** :

« في بحثي عن السعادة يايزليمر **** أخطأت مثل كثيرين مثلي [...] لقد عشت حياتي كلها وأقمعتها على أساس أن اعتقادي الراسخ أن الإنسانية التي سأرتبط بها لن يمكنها أبداً أن تملأ قلبي . غير أنني اضطرت إلى ذلك ربما بسبب مراعاتي الزائده جداً للأصول ... عندما كنت لا أزال صغيراً جداً في السن وجعلتني العلاقات العائليه أقابل أنايس ***** مرات عديدة . كانت تتمتع وهي في السادسة عشرة بكل المزايا الخارجية وب عقلية مثقفة وانفتحت على العالم بالبساطة وعدم الثقة بالنفس الناتجة بالطبع عن تربية تلقتها في مؤسسة تكاد تكون رهبانية . أثار إهتمامي الشديد بها عدم خبرتها وسذاجة تصرفاتها وكما أنني أصبحت محور إهتمام أنايس فتعلقت بي بالقدر الذي أتيح لها ... »

* على الرغم من أن المبلغ لم يسدد بالكامل من قبل إلجا فإن ذلك يمثل دخلاً مقداره أربعة آلاف فرنك ... أي بحبوة لا بأس بها .

*** راجع الفصل ١٤
**** كناية عن روزين .

** في حين أن زويه كانت حاضرة ووقعت .
**** كناية أعطاهما لانجيليكا باليى .

اعتقدت أناييس وقد سحرتها أشكال وتحركات المجتمع أن السعادة تكمن في أن تبدو سعيدة وظنت أنها ستجدها في إرضائها لذاتها ونجاحاتها في الصالونات وهو ما يتحول إلى غرور . هذا هو المأساق الذي تقع فيه معظم نساتنا الفرنسيات ولم تشذ أناييس عنه في ذلك . فرأت العالم من خلال نظرة مختلفة عنى وبحثت عن الهناء خارج المشاعر الصادقة وداخل إطار من أشخاص لم يعرفوه قط . كانت متعلقة بى ولكن على طريققتها ، وعلى الرغم من فتور عواطفى الواضح فإن ذلك لم يمنعها من أن تظهر على العلن لم هى تفضلنى . لقد فعلت كل ما يمكن دون جدوى لكى أشعرها بعدم توافق شخصيتنا .

الظروف السياسية عامى ١٨١٤ و ١٨١٥ حدثت فى هذه الأونة وساهمت فيها مضطراً بقدر كبير نشط [...] خسرت كافة وظائفى . ثم امتدى على حريتى بعد ذلك بقليل واضطرت إلى الحياة فى المنفى لمدة تسعة عشر شهرا وعلى بعد ١٢٠ فرسخا من مدينة اعتقدوا أن فى وجودى بها خطرا عليها .

كنت أمل أن الغياب سيغير أفكار ونوايا أناييس نحوى وأنها ستتخلى عن مشروع زواج لم يكن هناك ما يفرضه ولم يكن يبشر بسعادة أى من الطرفين . كنت مضطهداً فى ذلك الوقت : فوجدت فى تعاستى سبباً نبيل لإصرارها [...] على العلاقة وذلك على عكس رغبة أسرتها [...] كانت أناييس تعيسة بسببى . هل كان من حقى أن أتردد . خط الواجب كان محدداً أمامى . رباط لايفصم جمعنا [...] تعلق أكثر بالدراسة [التى أعطت] معنى لوجودى ... »

هل كان ذلك من أجل تقييم الصورة لكى يثير أعجاب منافسة لزوجته ؛ جائز ولكن الوصف مقنع .

تزوج ، نعم ... « أستقر » لا ... إذا كان الاستقرار هو الوصف الذى يطلق على مواطن ذى سلوك قويم يتبع نظاماً سليماً يتفق مع وضعه كأستاذ - برجوانى . إذ يمكن أن تصبح من الأعيان وتبقى ثائراً ... وبالفعل إستمر المواطن شامبوليون يشد إهتمام ويثير قلق السادة أعضاء « الكازينو » والجمعية الدينية Congrégation والمخبرين الذين نشرتهم المحافظة فى جميع أنحاء مدينة جان بول ديدييه وجوزيف رأى وهنرى بال* ... وبدلاً من أن يهدأ زاده اليسر المادى ميلاً لمشاكاة السلطة القائمة .

علاوة على ذلك بدأت صحته تتدهور . فقد زاد تكرار نوبات الدوار والدوخة الغثيان التى تنتابه منذ أكثر من عشر سنوات . أين هو هذا « النوم العميق الفلاحى » الذى كان له حتى الآن أفضل دفاع ضد المرض . كانوا يعالجونه بواسطة العلاقات . ثمان ثم عشرون ثم ثلاثون . كان ذلك يرهقه جداً ولكن قدرته على التصارع مع المرض بقت متوهجة :

* الذى سيمضى عدة أسابيع فى جرونوبل بمناسبة وفاة أبيه خلال صيف ١٨١٩ .

« ها أنا معافى منذ يومين . الدم الذى كان يتراكم بخبث فى رأسى قمعته
أربعون علة بعنف . لقد تم ترويضه كما سيتم قطع الرعا ع الفرنسيين الذين
وصل بهم التبجح أنهم يرفضون أن تقص رؤسهم على يد الأريستوقراطيين
الطيبين »

طالما أن الأمور فى يد المحافظ المختار شويان دارنوفيل فإن صاحب « نخب
إلى الجمهورية » فى ١٨١٥ يقف ساكنا تقريبا . ولكن بقى « الاتحاد » ملتقاً حوله
هو وجوزيف رأى والمثال تريول أحد مراكز الليبرالية الدوفيينية يقطن كان أحد الأماكن
التي يأوى إليها المتمرد ذو الأفكار السيئة . ومن المعتقد أنه هو الذى ألف « ترنيمة »
رتلها مدندنا بمناسبة مظاهره دينيه نظمته إرسالية فرنسا التي يديرها الأب روندان
مع « المتطرفين » . وقد لاحظ الليبراليون أصدقاء شامبوليون وجود بعض « الثوبين »
المتطرفين من أيام الثورة فى الركب الدينى بعد إستمالتهم واستغلال سذاجتهم إلى
الصفوف المقابلة :

جاكوبيون فى ثلاثة وتسعين
تحولوا عن مبادئهم برشاقة
فهم اليوم فى حمية الجمر
حاملين صليب الإرسالية
وبالرغم من مظهرهم التقى وسط الجمهور اللئيم
داندى ، داندون
الطاقيه الحمراء تحت السوداء
داندى - داندون [...]
حضرت الفيكونتيسة التي
فطمته عن العصا* لمدة شهر كامل
حنان الزوجيه بمناسبة الإرسالية المقدسة
ووقف ضابط بجانبها
لإضافة المرح إلى المسرحية

* إشارة إلى ما كان يشاع عن أن الجنرال بوناديو كان يضرب زوجته .

داندی - داندون

ولزوجها تقول

داندی - داندون (10)

هاجم «صغير» عديداً من الناس : أهل السيف والكنيسة وكذلك الساسة الذين غيروا مواقفهم والرجال المخدوعين و « طائفتي الأنوار » وأهل المجتمع أليس في ذلك أستتفار لأعداء ؟ فيتكاتفون للفتك به بأي ثمن ، ولقد أغضب ذلك كثيراً جاك - جوزيف الذي لابد وأنه أخذ يتسائل متى سيعود تلميذ الليسيه المشاغب في عام ١٨٠٥ إلى رشده ؟ ولماذا يصر على أن يزامن خلاصة ما في جرونوبل من عقليات سيئة ؟

ولكن « صغير » لم يعد صغيراً . لقد كان أصلاً وهو في الخامسة عشرة غير قابل للإنقياد وهو اليوم يحتد في رد فعله : « إنك تسامحني على الأذى التي سببتك لك وأنا أسامحك على ما لأسامح عنه أحداً : وهو الظلم [...] إني أتحدى أن يذكر أحد بيتاً أكون قد دخلته منذ زواجي فيما عدا المحافظة ! »

حسن ! ولكن لم تعد المحافظة في ذلك الوقت ضماناً بوجوازية حتى إن الجنرال دوناديو قد بلغ به الحد أنه كان يصف جميع الذين يرتادونها « بالأوغاد » وعلى الرغم من ذلك إستمر المحافظ شويان دارنوفيل متمسكاً بمواقفه فلم يحسن أن يظهر في العلن بصحبة من كان يطلق عليه لقب « روبسيير جرونوبل » أي شامبوليون الصغير بل أكان لايأبه بأن يوصف هو ذاته بأنه جاكوبي عندما إصطحب معه الأستاذ الشاب في لوج الأوبرا الخاص به .

للأسف وقعت ثلاثة أحداث متتالية فصمت الثنائي شويان - شامبوليون ، وأعادت إلى الأذهان ذاكرة مرحلة الإرهاب الأبيض الذي أجتاح الدوفينييه عام ١٨١٥ . فقد حل دوساز محل مونليفو وبامفيل - لأكروا محل دوناديو أو المركيز دويلا نيلى بولاقالات محل بنتا ، إذا كان « الكازينو » قد بدأ يصدأفأناً عجلة « الروايت » فيه كانت لازالت دائرة وتوزع أضرارها .

في البداية هدد انتخاب الجمعية الوطنية الجديدة التوازن الهش القائم منذ سنتين في جرونوبل بين المتطرفين والليبراليين . سبق لنا أن أشرنا إلى أن لويس الثامن عشر كان قد حل في عام ١٨١٦ « البرلمان المفقود » خاصة أنه قد كره تطرفه منذ البداية وكانت جولة الانتخابات الجديدة ستجرى في سبتمبر ١٨١٩ ... فما هو ياترى الدور

السيئ الذى تعده « جروايبر » (جرونويل الليبرالية) هذه المرة لأسرة بوربون ؟

لم يكن سيئاً فقط بل شنيعاً ! إذ إقترح جوزيف راي - صديق جان - فرنسوا وزعيم جمعية « الاتحاد » ترشيح الأب جريجوار المشهور وهو الأسقف السابق الدرستورى وأحد أشهر شخصيات الثورة (ولكنه لم يكن ضمن من قتلوا الملك) وكان أيضاً من معارف الشقيقتين شامبوليون ... محرر اليهود ومحرر المستعمرين . مع هذا لم يحضر حتى إلى جرونويل للقيام بالدعاية الانتخابية ولكن كان لإسمه وحده ما يكفي من إشعاع لكن ينجح وبمساندة من المتطرفين الذين كانوا متلهفين على توجيه صفعه لحاشية الملك المعتدله : أنظر إلى أين تؤدى الانتخابات الحرة !!

علقت صحيفة « لوجورنال دى ديبا » على ذلك بقولها « فضيحة فرنسا ! عار الإيزار » .. وألغيت نتيجة الانتخابات : وكانت النتيجة أن الذى انتخب هو أحد زعماء الليبرالية الدوفينية كامى تيسار - الذى كتب عنه ستاندال أنه لم يسامح نفسه قط لأنه حقق الثراء من صناعة مشروب الراتافيا .. هذا النوع من الأحداث لا يخرج منه محافظ سليما ! إضطر شويان دارنوفيل المسكين إلى أن يحزم حقائبه . وإذا هو يستعد للرحيل جاء نبأ مصوع الدوق دوبيرى وكان هو الذى سيرث العرش ، مطعوناً بخنجر فى ١٣ فبراير ١٨٢٠ وهو خارج من دار الأوبرا على يد عامل إسمه لوفال . رأى حينذاك أن يد الجوكوبيين وراء الجريمة ! ونجح المتطرفون بأن ينتزعوا من الملك قرار عزل صديقه العزيز ديكاز ووجد الجرونويلوازيون البارون الأشهر دوسان يهبط فى دار المحافظة .. وهل لذلك السادة أعضاء « الكازينو » ولكن هل كانوا على حق ؟ على الرغم من كون « صغير » حزيناً لإقصاء شويان فإنه تأثر فى بادئ الأمر إيجابياً بهيبة وحضور الرجل وديناميته ثم فضل أن يتحفظ فى إبداء رأيه .

ثم جاء الفصل الثالث للتراجيديا التى ستحول مدينه جرونويل السعيدة التى وصل إليها جان - فرنسوا فى أكتوبر ١٨١٨ إلى ميدان متاوراث « لطافى الأنوار » المقروحين . فى مايو ١٨٢٠ زار جرونويل - العاصمة الأولى للمائه يوم - ولى العهد الجديد الدوق دانجولام ابن الكاونت دارتوا . ومشهور عنه عدم تعاطفه مع المتطرفين . لم تال باريس جهداً إذن لتتمكن من إستمالة قلعة المعارضة : الدوفينية : فهل سينجح هذا الأمير الطيب فى إزاله نقمة ناخبى الأب جريجوار ؟ الزيارة كانت نكبة ! فى الثامن من مايو - قرب العصر - استقبل دانجولام بهتاف مزدوج « يحيا الملك ! يحيا الدستور * » لم تكن هذه الأزواجيه لتزعج الضيف الجليل ولكنها أثارت سخط « نوى

* بمعنى الضمانات الليبرالية التى وعدت بها الأسرة البديونية لدى عودتها من المنفى .

الرداء الأخضر « من حاشيته وكلهم من مؤيدي أراء والده . وصف ما حدث : من جان - فرنسوا لجاك - جوزيف :

« هذان الهتافان اللذان كان يجب أن ينطلقا من نفس الحنجرة أصبحا متناقسين وظهرتا كما لو أنه مقدر لهما أن يطبلا أمد الأحقاد والتحديات . إرتكبت حمقات من جميع الجهات ولم يظهر الاعتدال على أى جهة . ألقى بعض أفراد الشرطة بأوامر خاطئة دون شك بالقبض على أشخاص يهتفون : « يحيا الدستور !! » ثم أدت بعض أعمال العنف والغباء المفرط لياوران الأمير الذين أعلنوا وسط الجماهير أن هتاف « يحيا الدستور » هتاف إنقلابى . أدى كل ذلك إلى إحماء رؤوس بعض الشباب المتحمس . وبذلك لم يكن من الممكن أن تمتد إقامة الأمير بيننا وقيل أنه غير راض تماماً عن جرونويل وهامى مدينتنا المسكينه تواجه الشكوك والافتراءات . لا يوجد حديث سوى عن الاعتقالات والخراب القادم قريباً . فلنعتمد على حكمة الملك وانتظر إلى المستقبل بثقة . لاشئ غير ذلك ومع ذلك فهو كثير* . »

« حكمة الملك » ؟ الحكمة هنا هى حكمة المحافظ المسئول عن التعبير عنها والقيام بتنفيذها . وفى هذا الصدد أدى سلوك دوسان بعد ذلك إلى تبديد الآمال التى وضعها فيه شامبوليون - الذى كتب إلى أخيه يقول عنه بأنه « باع نفسه للمتطرفين وأصبح أداة سلبية لدرجة الغباء بين أيديهم » .

« بغباء » ؟ هنا مكن خطأ تقدير أستاذ التاريخ . لأن دوسان ليس بغبى على الإطلاق بل إنه أحد أفضل الرجال الذين تقدموا الصفوف على يد « أعيان فرنسا » وهى إن لم تقدم أمثال ميرابودانتون وهوش فهى أبرزت أشخاصا مثل ديكان ولوس . وإذا كان البارون مشهورا جداً فهو ليس بأقل من ذلك عن ذلك تطرفاً فقد وجد هذا الرجل فى التوتر القائم فرصة للتخلص من بعض الليبراليين المعينين فى جرونويل على يد وزارة ديكان مثل العمدة روايه دولوش والجنرال لودرو ديزيسار الذى تجرأ على الاشتراك مع جان - فرنسوا شامبوليون فى تحرير كتيب صغير يحذر السلطات العامة من مغبة التطرف القمعى و « الاستحواز على السلطة » .

* كثير بالنسبة للرقيب - على مايبدو

نشر هذا النص الغريب فى باريس لدى كوريار فى ١٧ مايو ١٨٣٠ مع خمسة أو ستة آخرين تحت عنوان جماعى « احتر » إنه يشبه الريبورتاج الصحفى القصير ويقع فى أربع صفحات يصف تجاوزات « حزب طافئى الأنوار » - المدنيين الذين يهتفون « يحيا الملك ! وتبا لكل الباقي والعسكريين الذى يستلون سيوفهم وهم يصرخون : « إقطع رقبة هذا المتحرر » أو « أول من يهتف ساقطعه أرباً ! »

التعقيب الذى ينتهى إليه نص الكتيب وهو بدون توقيع ولكنه بليغ . يقول : « إن مكتسبات الثورة (إذ لا يمكن أن تنفى أنها جاءت بكثير منها يمكن أن ينفى ذلك إلا من لانظر له) تكلفنا الكثير حسبما يقال ويعتبر ذلك سبب آخر لكى نزداد تمسكا بها بكل قوة * »

« مكاسب الثورة » ... هكذا !! كتابة ذلك فى ١٨٢٠ كان كفيلا بأن يعود على المرء بالمشاكل :

أسابيع قليلة كانت كافية ليحصل دوسان على إقالة رواييه - دولوش وعلى إبعاد لودرو ديزيسار - ليحل محلهما : فى العمدية أحد رجال الكونت دارتوا فى مقاطعة الدوفينيه الماركى بلانيللى دولاقالات وفى الحامية العسكرية الجنرال الصاخب لامفيل - لأكروا وإذا كان هذا الأخير أقل ضرواة وبدانة من دوناديو فهو لم يكن أقل منه تطرفاً فى عدائه لأى شكل من أشكال الليبرالية . لكن ما حدث هو أن نار الثورة كانت تتأجج تحت السطح فى مختلف أنحاء أوروبا الغربية فى ذلك الوقت وفى حين كان نابوليون يصارع الموت فى سانت هليين (توفى فى ٥ مايو ١٨٢١) إنتشرت موجة بوناپرتية مستوحاة من اسطورة المائة يوم أكثر من حقائق « الزواج النمساوى » من بروكسل إلى تورينو ومن فرانكفورت إلى باريس .

تجمعت الأسباب : من ضباط بنصف مرتب يحركهم حنين جارف للإمبراطورية أو سبب أكثر بساطة وهو التخفيض القاسى فى عدد القوات المسلحة الذى قرره فى ١٨٢٠ وزير الحرب لاتور - موبوريه إلى جمعيات سرية من نوع « الاتحاد » الذى جر جوزيف راي جان فرنسوا شامبليون إليه وإلى شباب داعبت أفكاره مقدمات الرومانتكية الوليدة وهمشة السياسة المناهضة للتضخم المالى الذى إتبعها لوس

* يبدو أن ج . ف . شامبليون لم يحضر سوى ريبورتاج زيارة الأمير .

ودوقيللال وأصحاب الأملاك الوطنية ، الذين بدأت تهددهم مطالب الاقطاعيين السابقين . جميع تلك الأسباب تجمعت لتكون تياراً عاتياً متعدد الأطراف إجتاح فرنسا وعبر أيضا جبال الألب . وهي الفترة التي أنتشر فيها التيار الكاربوناري * في فرنسا - قادماً من إيطاليا - وسرعان ما انضم إلى عضويته عشرات الآلاف .

كيف إذن نندهش لأن الملكية العائدة إلى السلطة قد إختارت شخصية في وزن البارون دوساز ليحكم قبضته على القلعة التي هي جرونوبل الواقعة على أبواب الليمونت الايطالي والتي تنشط بداخلها أفكار التيار الكاربوناري « . دوساز كان في موقف الكونت موسكا (بطل رواية) ستاندال لأشارتروز دوبارم) الذي كلفه ارنست رانوش الرابع بقمع التيارات الثورية التي يقودها أمثال فابريس ** وجميع الليبراليين المهوسين ؟ لقد كان في إمكان ستاندال أن يجعل أحداث روايته تجري في مسقط رأسه : ففي ١٨٢١ كانت جميع شخصيات الرواية موجودة بها حتى لو كان هناك فرق في شخصين جان - فرنسوا القوية وشخصية ديل دونجو الصغير وكيف لانجد لدى بارون جرونوبل (دوساز) السحر التاسع من شخصية الكونت دوبارم) .

هاهو إذن دوساز في موقعه وقد عكست « مذكراته » وسواس واحد كان يلح عليه وهي قصم ظهر الثورة المتأججة فيما وراء جبال الألب والتي كان من المحتم أن تعبرها أن أجلا أو عاجلا إذ كتب يقول :

« عندما طلب مني إدارة مقاطعة الإيزار - عهد إلى أيضا برقابة بوليسية واسعة جداً على المقاطعات المتأخمه للليمونت وعلى نفس هذا البلد وأيضا على الساقوا وعلى جنيف فقامت بزرع مخبرين سرين على الحدود في تورينو وفي شامبيرى وجنوا وأحيانا متقطعة في ميلانو وجنيف . مراسلات هؤلاء العملاء أفادت بوجود مشاريع غامضة [...] وكل ما كان يدور حولي وتحت نظري كان يؤكد شكوكهم »

بينما كان ينشر شباكه التي سيقع فيها الثوريون من المناطق المحيطة كان دوساز يشجع « طافئ الأنوار » على الإنتقام من الحزب الليبرالي الذي ينتمى إليه الشقيقان شامبوليون .

في نهاية يوليو ١٨٢١ علم جان فرنسوا أنه وأخاه قد طردا من المكتبة (وكانا قد أستعاداهما العام السابق) لأسباب سياسية كما هو واضح : فطلب على الفور مقابلة المحافظ . ويلقى وصف مقابله هذه مع البارون المرعب الضوء على شخصية وعلى نوعية العلاقات التي كانت له مع السلطة .

* جمعية سياسية سرية نشأت في إيطاليا لناصره الأفكار الليبرالية في أوائل القرن التاسع عشر وانتشر في فرنسا في تلك الفترة (من ١٨٢٠ حتى ١٨٣٠)
** بطل رواية ستاندال [المترجم]

وجد شامبوليون أمامه رجلاً « محرجاً [...] من خلال أدبه الجم » وهو يوضح له أنه يريد أن يبقى « محايداً » فى هذا الموضوع المتعلق بالمكتبة . كيف ؟ هل يمكن أن يكون الرء محايداً بين العدل والظلم ؟ ويضيف الضيف أن مثل هذا الصمت « سيطلق العنان للإفتراء وتشويه السمعة » بل يكون رفضاً بينا للعدل يصيب اثنين من الأبرياء « أبرياء ؟؟ بدأ المحافظ يتململ مذكراً « بالأراء السيئة » التى عبر عنها الشقيقان شامبوليون فى العديد من المناسبات . وعلى الفور يعبر جان - فرنسوا عن غضبه : « إذا كانت تحت يدكم أعمالاً غير قانونية قمنا بها فأحيلونا إلى القضاء المختص ! » هنا وجد دوسان نفسه فى مأزق فأقصح عما يعرفه : إن مراسلات الشقيقين هى التى تغضبه . هنا يقفز جان فرانسوا من فوق مقعده ويطالب بالأدلة وهنا يقع المحافظ فى خطأ غبى - وذلك على الرغم من ذكائه المعهود - فأخرج من درجه ملفاً يضم - حسب قوله - نصوصاً تعكس ميول فيجاك المؤسفة عندئذ ينظر جان - فرنسوا إلى محدثه باحتقار قائلاً :

« من هو الإنسان الحقير الذى سمح لنفسه أن يعتدى على حرمة مراسلات خاصة ؟ منذ متى تعامل المراسلات العائلية كألة للاتهام ؟ هل تجرؤون على تقديم مثل هذه الأدلة ضدنا إلى القضاء ؟ »

أمام هذا النقد الشديد لم يجد البارون دوسان سوى ليبرر موقفه إلى أن يقول ببساطة أن الحكومات مضطرة لأن تتصرف بهذه الطريقة وأن الحقيقة هى أن هذا النوع من الإجراءات لم يبدأ بعد عودة الملكية إنما هو إجراء قديم لم يبلغ بعدها ... منذ ذلك اليوم فإن البارون النيل سيضممر للرجل الذى أهانه بهذا الأسلوب وإضطره إلى أن يكشف وسائله ، كرها عميقاً له ما يبرره . ومن بعد سيكون الصراع بين الرجلين دون هوادة * .

فى نهاية فبراير ١٨٢٠ ألقى المحافظ القبض على عميل من ساردينيا « كان لا يجالس سوى أكثر الرجال خطورة فى جرونويل » : وجمعه مشروع مؤامرة أعدت فى تورينو ولها تفريعات فى جرونويل وليون . أسرع دوسان بتحذير بلاط بيمونت - وساردينيا - إلا أن صاحب الجلالة ملك بيمونت وساردينيا أفاده بأنه « واثق من حب شعوبه له » . غير أن الخطاب الملكى وصل إلى محافظة جرونويل عندما كان « فيكتور أيمانويل » قد إضطر إلى التنازل عن العرش (من كثرة عواطف شعبه) ولجأ إلى فرنسا .. كيف لا يجد البارون المتشدد فيما حدث سبباً يزيد تشككاً ؟

* يقول ايمية فيجاك - شامبوليون فى الشقيقان شامبوليون أن عمه فى حمية النقاش نعت البارون بأنه « رويسبير » وكان هذا قمة السباب حينذاك . غير أنه لا يوجد ما يؤكد هذا الكلام .

عندما تحولت شكوكه إلى يقين قرر دوسان أن يفتح مراسلات مواطنيه فوجد فيها البراهين التي كانت تنقصه حتى الآن : وفيها أن الكتيبة العاشرة كانت ضالعة في المؤامرة . وعندما استدعى الضباط للتحقيق إتهم المحافظ العديد منهم بأنهم إشتروا في إجتماع تآمري . أجابوا بأنهم إجتمعوا فعلا عند مسيو رونولدون ليشرىوا كأساً من الخمر . فقفز دوسان من مقعده حسب قوله هو شخصياً : « غير صحيح ! لم تشرىوا خمرا بل أن كوب ماء واحداً لم يشرب » خلال الاجتماع .

شرىوا أم لم يشريوا ، المهم هو أن محور هذه المناقشات كان شارل رونولدون ابن عمدة المدينة في العصر الإمبراطوري وهو أحد شخصيات الحزب الليبرالي والصديق الحميم لجان - فرنسوا شامبوايون . كانت القصة منذ بدايتها تمس عن قرب البروفيسور الشاب ، كما أن الرسائل التي فتحها المحافظ الرهيب كانت بها دلالات كاشفة لهذا الموضوع : فقد تردد في خطابات « صغير » اسم « شارل » الذي أصبح محور القلاقل كما يوضحه بقية ما جاء في سرد البارون :

« في العشرين من مارس قبيل الساعة الثامنة أسرع نحوي أحد المخبرين قائلاً أن تجمهراً كبيراً يتبعه وهو يتجه إلى مبنى المحافظة . وبالفعل غزت عدة مئات من الأفراد الحديقة وتعرفت في وسطهم على بعض جنود الكتيبة العاشرة [...] حشد كبير منهم وصل إلى مكتبي [...] فتحت الباب ثم قفلته على الفور بعد أن دخل مندوبان منهم كان في يدي مسدساً وضعت على صدر السيد / رونولدون وكنت أعرف أنه قائد المؤامرة [...] قلت له أني سأرديه قتيلاً إن هو تحرك [...] وأنه سيعرف نفس المصير لو مرت خمس دقائق دون أن تكون دارى قد أخليت تماماً من المتظاهرين » .

« [...] رجاني رونولدون أن احتفظ بهدوئي مؤكداً أن أحداً لا يمكن له أي ضغينة وأن هدف هذه الحركة الوحيد هو إحلال العلم المثلث الألوان محل العلم الأبيض كما حدث في باريس بعد أن تنازل لويس الثامن عشر عن العرش للدوق بورليان . [...] أجبته أن كل ما جاء في تأكيد هذا غير صحيح وكررت عليه تهديدي بأن يجلى عن المقر وأن يصرف الجميع وإلا فإنني سأنفذ تهديدي [...] بدالي رونولدون متردداً .

« [...] أطلقت سراحه .

« خرجت من المحافظة [...] لدى وصولي إلى ساحة السلاح أحاط بي مائه من الشباب يحملون العلم الثلاثي الألوان وهم يهتفون : « يسقط المحافظ » « يسقط الفندياني * » « يسقط الشوان * » كنت أقف وحدي مرتدياً زى المحافظ حملت السيف في يدي وهددت باستخدامه ضد من يقترب مني إلى أن وصلت إلى فسقيه في وسط

* اسم أطلق على الثوريين الملكيين المناهضين للثورة الفرنسية في غرب فرنسا وكان على رأسهم من يدعى «شوان » وانسحب الاسم على الثوار أيضاً [المترجم]

الساحة فاستندت ظهرى إليها وصددت المهاجمين بما يكفى من وقت لوصول جنود قادمين من موقع قريب لتجدتى [...]»

« الجنرال دو لاكروا * [...]» قرر تفريق التجمهر ، ولكنه فعل ذلك بتراخ وصلت درجته إلى حد أنه لم يلق القبض على أحد ولم يصادر علم ثلاثى واحد من الأعلام التى التفوا حولها . لقد اعتقد أنه فعل أكثر مما ينبغى لأنه ضرب بمسطح سيفه المدعو رونولدون الذى وجده واقفا وحده وقد رد عليه هذا الأخير بعدة ضربات من عصاه [...]».

« أجبرتني مشاركة مدرسة القانون فى الإنتفاضة إلى أن أصدر قراراً باغلاقها مؤقتاً كما أمرت باعادة الطلبة إلى بلادهم [...]» [...]» إن ميول سكان جرونويل المناهضة للملكية بدأت تتسلل إلى نفوس الشباب دون أدنى مقاومه لهذا التأثير الضار [...]» ألقيت القبض خلال الإضطرابات على بعض القادة إلا أن رونولدون والعديد من الضباط بنصف مرتب تمكنوا من الهروب ...»

لم ترد كلمة واحدة فى هذه المغامرة الغريبة عن جان - فرنسوا شامبوليون ** ولاعن « القادة » الآخرين الليبراليين : بلانتا الذى لا بد وإنه شعر أنه فى هذا الجو مثل السمك فى الماء ، تريول ، أوجوستان تيفونيه ، فليكس ريال والآخرين علما بأننا نعرف أن صديقنا عالم المصريات كان مشتركاً إشتراكاً فاعلاً فى هذه العملية .

يقول إيميه شامبوليون - فيجاك على الرغم من حذره التام لدى الحديث عن أراء عمه وسلوكه السياسى خوفاً من أن يظهره كإنسان مثير للشغب - « شارك شامبوليون الأصغر فى هذا التمرد بعد أن إستدرج فيه رغما عنه بسبب صداقته لرونولدون وتيفونيه وياتيست فروسار الخ ...» (11)

ومع ذلك فإن صاحب كتاب الشقيقتان شامبوليون فضل أن ينقل هذه الملاحظة الشيقة عن جان فرنسوا : « كان شامبوليون الصغير يقول فى ذلك الوقت بعد أن قبل بشئ من الفلسفة الموقف الذى وضعت فيه الظروف » ربما يجبى يوم يظهر فيه الإستيلاء على قلعه جرونويل دون إراقه نداء على يد عالم أثار فى سجل أعماله الأدبية فى زمن غريب » (12)

* أو پامفيل لاكروا .

** نوسان سيلزى دائما الصمت حياه .

ماذا يعنى « إستيلاء على قلعة » ؟ فى كتالوج معرض شامبوليون الذى نظمته مدينه جرونوبل عام ١٩٨٦ تحت رعاية جميع المؤسسات العلمية فى المدينه مثل المكتبة والأرشيف والمتحف والليسيه والذى كتبه المؤرخ جـ. و . دوربماز نقراً ما يلى : « فى ٢٠ مارس ١٨٢١ [...] إشتراك جان - فرانسوا شامبوليون مع تيفونيه ورونولدون فى محاولة إنقلابية إختلط فيها الجمهوريون واليونابارتيون وأنصار دوق دورليان . هاجم شامبوليون واستولى على حصن راتو (13) » .

وتضيف هيرمينى هارتلويان فى كتابها عن سيرة شامبوليون هذه التفاصيل الإضافية : « سلك فى سكون تام عدد كبير من المؤيدين للحركة تحت قيادة شامبوليون وتيفونيه الطريق الملتوى المؤدى إلى الحصن ثم تم التغلب على الحرس وإقتحام بعض الأبواب وتجنيد بعض أفراد إحدى سرايا الكتيبة العاشرة للمهمة . حاول فقط بعض من حاملى الرماح كانوا يعملون فى الاسطبلات أن يقاوموا . ولكنهم حوصروا داخلها وأغلقت عليهم الأبواب والنوافذ فحيدوا تماما . بعد دقائق قصيره إمتدت يد شجاعه - وهى يد شامبوليون - وأنزلت العلم الأبيض ورفعت الألوان الثلاثة على قمه حصن رابو وهكذا رفرف علم الحرية وأصبح مرئياً من بعيد جداً وحياء آلاف الأشخاص بالهتاف » . (14)

ياه ...! الحراس « حيدوا » وحاملو الرماح حبسوا العلم الملكية أنزل والعلم ثلاثى الألوان رفع ! ما يكفى للذهاب بصاحبنا إلى مناطق بعيدة ... ألم يمض على قضية ديدبيه سوى خمس سنوات ودوسان يجمع فى يده أدلة على التآمر مع الخارج أكثر مما جمعه بالانتا رئيس المحكمة الاستثنائية . كما لم يكن الجو السياسى بعد عام من إغتيال دوق دوبيرى ويعد أن ترك مونليفو وبيننا مكانهما لدوسان ويلا نيللى أكثر تأييداً « للجاكوبين » ولأصدقاء المغتصب مما كان عليه الحال فى ١٨١٦ .

لاشك أن شامبوليون الصغير قد جابه خطراً عظيماً بعد أن ثبت إشتراكه فى محاوله إنقلابية . كان البارون - المحافظ والجنرال بامفيل متعطشين للإنتقام خاصة وأنهما اساءا التقدير مثل سلفيهما وصاروا أضحوكة أمام الناس فطالبوا بضرورة تنفيذ عقوبة مثالية على روندلون وأصدقائه . فهل يعنى ذلك المثل أمام محكمه عسكريه ؟ الملك كان رحب الصدر وأرسل على عجل إلى جرونوبل المارشال فيكتور دوق دويللون لتهدئة النفوس وتأييد الشجعان وإجراء التحقيقات وإقامة العدالة .

المارشال الدوق شخصيه غريبة أخرى . فهو مثال للجندى الذى وصل إلى رتبته بالصدفة . أصله من مدينه فالانس عازف موسيقى متجول وتتطوع فى الجيش تحت اسم فيكتور . كعازف ترومبيت لفرقة المتطوعين فى العام الثانى من التقويم الثورى .. وكان اسمه الحقيقى هو كلود بيران . الكسندر دوما كتب عنه مرة فى أحد مؤلفاته أنه .

شارك حياة « الأنسة موجيه » ؟ الواقع أن نابوليون جعله فى ١٨٠٧ ماريشال فرنسا وفى ١٨٠٨ جعل من هذا الشجاع المقدام قصير القامة الجعجاع ودوقاً لدوبللون (دون أن يكلفه بقيادة ذات بال) . بعد إنضوائه تحت لواء آل بوربون بمنتهى البساطة كلفوه ببعض المهام المتواضعة . ومنها هذه المهمة على سبيل المثال .

عند وصوله إلى جرونوبل نما إلى علم عازف الترومبيت أن أحد أعيان المدينة وهو جنرال على المعاش كان قد ألف عدداً من المارشات العسكرية لتعزفها فرقة لوائه الموسيقيه ولم يكن هذا الجنرال المتقاعد سوى صديقنا القديم جوبار دو لاسالات الذى كثيراً ما رأيناه يجند الشقيقتين شامبوليون ليساعده فى أبحاثه الموسيقية المستمرة ، ذهب المارشال فيكتور بنفسه عند رئيسه السابق لزيارته - مما كان له بالغ الأثر فى نفوس سكان جرونوبل فحوروا اسمه من باللون إلى بوسولاي* .

أول من أفادته هذه الزيارة كان جان - فرنسوا شامبوليون الذى صدر قرار بالقبض عليه . ومن كان أقدر على الحديث عنه بأحسن الكلام ومن موقع العارف بالأمور إلى الزائر صاحب السلطة سوى الجنرال الطيب دولاسالات ؟ فهو مديون له بالعديد من الخدمات وهو زميله فى الأكاديمية الدوفينية وأفكاره السياسية قريبة جداً منه ؟ باختصار جاء القرار بأن عالم اللغويات حامل العلم المثلث الألوان لن يمثل أمام القضاء الاستثنائى ولكن أمام محكمة أقل خطورة من المحكمة الخاصة التى تكلمنا عنها فى السابق .

عاد جاك - جوزيف على عجل من باريس لمؤازرة أخيه أمام محامى الإدعاء الذين جندهم المحافظ ... مذكرة الدفاع عن جان فرنسوا - الواضح أنها بقلم أخيه الأكبر - من المحفوظات التى رجعنا إليها وكان ذلك بالنسبة لنا بمثابة فك شفرة هيروغليفيات فيجاك بدلا من خط صغير « المكتوب » وعلى العموم فأن هذه المسودة تستحق فك شفرتها « قرأت ببالح الأسى - ولعل غيرى يقولون لبالح الحزن [...] الخطبة التى ألقاها ضدى [...] السيد المفتش تريجيزو فى ٢٤ أبريل حول بعض الإساءات المقدمة ضدى .. » وبعد هذه البداية المبنيه على البراءة المجروحة ذهب الشقيقان بعيداً فى الهجوم المضاد .

مهمة النيابة العامة هى إعطاء البيانات أى جمع الحقائق وعرضها فى حياض [...] وفى غياب ... [النص هنا غير مقروء]

« ما حدث فى جرونوبل فى ٢٠ مارس ١٨٢١ كان موضوع تحريات مكثفة جداً وجميع أجهزة الشرطة قدمت [غير مقروء] : لم يرتفع صوت واحد ضدى [...] لا يوجد

* باللون بالفرنسية Belle Lune أى القمر الجميل وبوسولاي هو Beau Soleil أو الشمس الجميلة [المترجم]

شهادة واحدة يمكن تقديمها باعتبار أنها قائمة على أسس ذات بال [...] يعتقد السيد البارون دوسان أن في إمكانه أن يتهمنى بأننى ظهرت وسط جماعة من المتمردين [...] السيد المحافظ كان موجودا شخصيا في المكان مع القوة المسلحة [...] لقد أُلقيت الدروس من الثامنة إلى العاشرة يوم الثلاثاء ٢٠ مارس . كما فعلت نفس الشئ الأربعاء ٢١ ، الخميس ٢٢ تناولت الغذاء في المدينة مع بعض الأساتذة وهم سيشهدون بذلك . أما الجمعة ٢٣ إذ كنت مريضا .. [غير مقرر] ... إن سمعتى هي ملك لأسرتى ولأصدقائى و [لوالدى أو لوطنى ؟] والتعليم الذى أتشرف بالانتساب إليه منذ اثنى عشر عاماً ، ولعلنى أقول أيضا للتاريخ الأدبى الفرنسى من خلال الأعمال التى نشرتها والتى أعدها للنشر . يجب على إننى ألا أترك نفسى تتأثر سلبا بالظلم ...»

الجملة الأخيرة لنبلها تساوى أكثر من الباقي كله الذى يقوم على القول المشهور : لاتعترف أبداً ! « كما أننا نسجل هنا هذا الدفاع الغريب : أنا وسط المتمردين ؟ المحافظ نفسه كان موجودا وسطهم أيضا !

باختصار : كان دفاعهم هو أنه غير مذنب والتنديد بالحكمة وهو لا يخلو من الجسارة : فقد رأينا عندما نقلنا عن مصادر مؤيدة لقضية شامبولىون أنه إشتراك في تمرد يصعب وصفه بأنه كان « مسلحاً » ولكنه تمرد أخذ بالفعل شكلا من أشكال الانتفاضة الشعبية مهدداً لمثل السلطة الأولى في المنطقة في جسده ومستميلاً بعض أفراد القوات المسلحة ومعلنا بأعلى صوت وقوة إلى جانب تغيير طبيعة النظام سواء كان ذلك لصالح مناصرى دوق نورليان أو بونابات .

غير مذنب ؟! كان موقفا تكتيكيا لا يعكس الحقيقة . إن ما تلى ذلك من الإفراج عنه هو شهادة لصالح هذه الحكومة الملكية ، فهي نفس الحكومة التى إقتضت من الشقيقين لانضمامهما لحركة المائه يوم ولكنها أعفت عن هذا المربى الذى نزل إلى الشوارع إلى جانب جنود متمردين وتحدى دون تحفظ الوضع القائم . ويتضح أنه توجد حالات يكون من الأفضل أن تكون فيها معلماً مكللاً بالشهرة يمكنه بذلك أن يخدم أمجاد النظام على أن تكون صانع مفاتيح أو عامل بناء ، هذا هو وضع جان - فرنسوا شامبولىون في مارس ١٨٢١ .

كان ثمن ذلك بالتأكيد أنه اكتسب كنيه « رويسبير جرونويل » وهى تسمية كان سيسعد لو أمكن الإستغناء عنها في وقت كانت الرياح تهب كالعاصفة - من محافظة جبرنويل إلى أكاديمية المخطوطات والأدب - فى إتجاه الثورة المضادة ، وبالفعل ما أن مرت ستة شهور إلا وتشكلت الحكومة برياسة فيلال الذى أتت بالمتطرفين إلى مركز

السلطة . وهكذا كان البارون دوساز - فى الدوفينييه - يستمرى إنتصاره ويرى هيئته تزداد جلالاً بسبب وضوح الرؤيا التى أثبتتها عندما توقع حدوث قلاقل شهر مارس ١٨٢١ والصلابة التى واجه بها .

روبيسبيير ؟ لجأ جان فرنسوا ذاته إلى هذه المرجعية فى خطاب حرره أثناء وجوده فى مقاطعة كارسى : كان يشكر فيه بعض سكان جرونوبل عبر صديقه تيفونى لخدمة أدوها له ثم يضيف : لعل فى ذلك إلقاء الشكوك حول إنسان يود لو لم يعرف عنه أنه أدى خدمة « لروبيسبيير مثلى » ...

مهما كانت أوجه الشبه قليلة جداً بين أصغر الشقيقين شامبليون وصاحب قوانين « شهر يرييال » إبان الثورة إلا أنه كان - كما نقول فى أيامنا الحالية - « يسارياً جداً » يجب ألا ننسى أن الجمعية السرية المسماة « الاتحاد » وكان هو أحد مؤسسيها كان هدفها الأول ليس أقل من « تشكيل أركان قيادة حركة ثورية للمستقبل (15) » . وهذه الجمعية هى التى أثارت « فضيحة » إنتخاب جريجوار الثورى وعضوا الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية - فى انتخابات مقاطعة الإيزار . وبهذه المناسبة فإن محرك المؤامرة الأخيرة وصاحب فكرتها - جوزيف راي - حكم عليه غيابياً بالاعدام وإضطُر إلى أن يلجأ سياسياً إلى أنجلترا .

فى ١٨١٥ دفع جان - فرنسوا ثمن « النخب فى صحة الجمهورية » بان نفى .. وفى ١٨٢١ لأنه « عبر من القول إلى الفعل » فإن حالته كانت أخطر بكثير . لأن النخب أصبح عملاً وأى عمل ! الإحلال العلنى للعلم المثلث الألوان محل الرمز الزنبقى الملكى بمناسبة ما أشيع عن وفاة الملك ... أى أنه قاتل رمزى للملك ... ومن هنا حصل على كنية « روبيسبيير » التى ظلت تطن فى أذنيه فترة طويلة ..

لم يتمكن البارون دوساز من جره أمام قضاة المحكمة العسكرية . إلا أنه سيجعل من حياته جحيماً بما له من وسائل تستحيل معها إقامة شامبليون فى الدوفينييه فقد سحبت منه وظيفة التدريس فى المدرسة الملكية ، أما مدرسة مونفلورى فقد أغلقت أبوابها فى العام التالى . ومن جهة أخرى كان قد صدر قرار يعده بإنشاء كرسى للتاريخ فى الجامعة ، هذا القرار ألغى .

هنا أرسل «صغير» لأخيه صرخة النجدة ! وذاك - جوزيف الذى كان يمضى بضعة أسابيع من خريف كل عام (ما عدا خلال فتره القضية) فى منزله فى فيف إلا أنه كان يرفض الانغماس فى « حمى » جرونوبل - لى هذه المرة النداء وعاد إلى هناك

فى يونيو ١٨٢١ بعد أسابيع قليلة من وفاة بونابارت فى سانت هيلين . وكانت مناسبة لكى يعاتب أخاه الصغير : هل كان ذلك سيحدث لوأنه إصطحبه إلى باريس ليكون بجوار مسيو داسييه بدلاً من أن يتزوج هذه الزيجة التى لا تليق به ويعود إلى جرونويل ؟

كان لدى جان - فرنسوا ما هو أفضل من الدفاع عن حياته الخاصة إذ فضل إطلاع مرشده العزيز على آخر أعماله فى مجال الخط الديموطيكى وفى رسم سبعمئة شكل هيروغليفى وهيراطيكى على ألواح معدة للطبع الليتوغرافى . لقد كان فى حالة إعياء كامل من الانفصالات النفسية والعمل ... هل كان يعرض على أخيه نتائج أعماله ليبرر إقامته فى جرونويل أم كطالب تأشيرة سفر إلى باريس ؟ الإجابة هى لانعرف . إلا أن الشئ الواضح ولا بد أن جاك - جوزيف رده له هو أن الوقت قد حان لكى يستخلص النتائج المترتبة على التدهور الرهيب الذى طرأ على موقفه فى جرونويل المتزامن مع التقدم الهائل الذى حققه فى أبحاثه العلمية . كل شئ كان يتفق ويساعد على إتخاذ قرار الخروج « (أو الصعود) إلى باريس .

فى ٨ يوليو كتب إلى جاك - جوزيف من فيف :

« شربت آخر قطرة فى كأس المرارة الجرونويلوانى . لا يوجد ظلم واحد يمكنه أن يطوانى الآن وليس لدى شئ ما أخسره هنا [...] قرر المجلس (الأكاديمى ؟) فى ٢٣ يونيو أنه توجد أسباب تستدعى المضى فى القضية وأن الوقائع المنسوبة إلى من إختصاص القضاء العادى [...] كانت هذه هى الضربة الأخيرة التى يمكنهم توجيهها إلى [...] العالم كله يصرخ لى : غادر ، سافر ، رقه عن نفسك [...] سأسافر* .

لم تكن الإجراءات القانونية ضده قد توقفت إنن وكان على صغير أن يواجه « المحاكم العاديه » . كيف والظروف هكذا تمكن من مغادرة جرونويل وإيزار كلها ومن الهروب من البارون المرعب ؟ كل شئ يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا المحافظ المتشدد فضل أن يغمض عينيه - فهو فطين كذلك - ليتخلص من مشكلة حية ويحرم جرونويل من مثير محتمل للشغب وليهدى باريس مكتشفاً عبقرياً . مجموع هذه الملاحظات أو

* كتب لآخيه فى خطاب آخر : « أفضل أن يرسلونى إلى سيبيريا عن أن أمضى شهرين آخرين فى هذه المدينة التعسة ! » .

الإفتراضات هي بمثابة دفاع عن الإدارة خلال مرحلة عودة الملكية . تجعلنا نقرر أنها - فيما عدا قلة من المتطرفين - كانت تميل جداً إلى النسيان .. سافر في ١١ يوليو بصحبة صديقه دوفليار - إذا أنه كان أضعف من السفر وحده - تاركاً روزين لتتصرف في الشئون الجارية « ويعد إستراحة دامت ثلاثة أيام في ليون وصول جان فرنسوا إلى باريس في ٢٠ يوليو ١٨٢١ .

جان فرنسوا عمره الآن ثلاثون عاماً أمعن البحث في رموز مجهولة . كان معلماً - ألقى بنفسه في أكثر المعارك السياسية ضراوة وغامر بحريته بل بحياته من أجل أفكاره . أحب سيدتين وتزوج من الثالثة . سلح نفسه بالأداة العلمية والأسلوب وجمع المواد وعقد التحالفات وأثار العداوات من أجل هدفه الأساسي .

منهك قبل الأوان ، ينخر المرض داخله ولعله الدرن . تلاحقه الاختناقات والغشيان والدوار ، سيستمر في نضاله وهو عاكف بوجهه الأسمر بلون قراصنة البحر الأحمر على لوحه المليئة بالصور والرموز والعصافير وأوراق اللوتس والكتبة الجالسين القرفصاء . والصقور وأوراق النخيل ... كل ذلك حمله معه وهو محموم بالمرض في العربة التي ستوصله إلى باريس .

كان جان - فرنسوا . هو اليوم شامبوليون . يستعد ليكون المكتشف . كم هو بعيد الآن « روبيسبيير ! »...

٩ - أوديب : من قرن لآخر ...

« نقش مقدس على الحجر » - اللغز المعلن - العصور الثلاثة « لإعاده - المعرفة »
كيرشار العظيم - الدور الذي قام به لاينتز - واربورتون ومالين - جيني وصينيون -
الأب بارسليمي الذكي جدا - نيبوهر المقدام - تحية إلى زويجا - أثنان من الأبطال
وحجر - تلقائية نبيل سويدي - تحت أعين الأخوة هامبولدت ...

« ختم موضوع على شفاة الصحراء » .. الصورة الأدبية لشاتوبريان وإن كانت
تبدو عرجاء إلا أنها توضح بأفضل الكلمات « الصمت الأبدى » الذي ختم به قرار
الإمبراطور تيودوز بتحريم استخدام الكتابة المقدسة للحضارة النيلية . ومثلما فعل الأب
سيكار في هيرموبوليس عام ١٦٥٠ حدث أيضا لفاسلاب ويوكوك ونوردن وساقاري
وقولني وهم أعظم العلماء المرافقين لبونابارت عندما وقفوا يشاهدون بعيون مبهورة
حوائط المعابد والمسلات التي نقشت عليها صور لكتبهم وهم يقدمون للملوك « لانعرف
ماذا ... » .

نظام الكتابة كان مشفراً - وإن لم يكن كذلك في البداية ؛ إذ إن الكتابات المبسطة
- الهيراطيقة والديموطيكية - تثبت أن الكهنة / الكتبة لم يعملوا على أن تبقى كتاباتهم
سرا للعامة - ولكنها أصبحت مشفرة منذ الفترة التي أصبح فيها احتمال وقوع المبادئ
التي تقوم عليها السيطرة المتأصلة في الزمان على الكون احتمالاً قائماً فتضيع هذه
السيطرة تحت هجمات الفرس والمندونيين والرومان .

فعلى سبيل المثال ، إذا حدث أن حرم أحد غزاة إيطاليا أو فرنسا استخدام اللغة
الوطنية في الكتابة فإن استمرارية هذه الكتابة ستكون مؤكدة من خلال ألف وسيلة .
أما في مصر في نهاية القرن الرابع الميلادي فإن صدور الأمر الإمبراطوري عام ٣٨٤
جعل فهم الكتابة الهيروغليفية غير ممكن بعد وفاة آخر كهنة أمون .

منذ بداية القرن الخامس لم تعد « الحفريات المقدسة على الحجر » - وهي
الترجمة الكاملة لكلمة « هيروغليف » - وهي التي أعطت أقدم إمبراطورية في التاريخ
بناؤها الفكري والروحي سوى لغز مطروح على علماء اللغويات في جميع بلاد العالم بما
في ذلك مصر ذاتها . اليونانيون والرومان المعاصرون لآخر أجيال الكهنة الكتبة راحوا
هم أيضا يتلعثمون ويتحسسون الطريق دون جدوى بعد أن أصبحوا غير قادرين على
نقل مبادئ هذه الكتابة ووسائل حلها بطريقة سليمة .

إذا نحن فى الواقع بحثنا عن بداية محاولات فك الشفرة فسنضطر إلى الرجوع فى القرن الأول إلى شيريمون وهيرماييون لكى نحصل على مراجع ذات بال . إذ بينما كانت الحروف الهيروغليفية تحفر على الجدران القائمة على ضفاف نهر النيل من سايبيس إلى فيله كان العلماء اليونانيون أو البيزنطيون يعتبرون أنهم يتعاملون مع القضية وهم يعكفون على حل شفرة العلامات التى اخترعها الآله تحوت - والتى جعلت منه الثقافة اليونانية إلهها هيرمس .

ما يمكن تسميته جزافاً بالبحث الإيجيبتوجرافى ينقسم إلى ثلاثة مراحل تاريخية : مرحلة « أصحاب التخمينات الجرافية » ثم مرحلة جامعى الرموز وأخيراً مرحلة الباحثين فى حجر رشيد .

كل شئ بدأ فى القرون الأولى من التقويم الميلادى بتدخل « أشباه العارفين بالأمور » تدخلا مشوها ومتناقضا وهم ما أطلقنا عليهم اسم « الجرافيين » من - أباء الكنيسة « العلامة » والرهبان والرحالة والمؤرخين . فمن الإسكندرية إلى بيزانطة أخذوا يجمعون ولعدة قرون (وهم يعتقدون أنهم يفهمونها) المعلومات والنصوص والإفتراضات بل وأحياناً أجزاء بسيطة من نصوص مكتوبة بلغتين . سرعان ما سيصبحون هم أنفسهم موضع بحث بدلا من أن يكونوا باحثين . ومن خلال هذا المنظار المشوش بسبب الأقوال المنقولة والتقريبات والتراث بدأت بعد ذلك باثني عشر أو خمس عشر قرناً أعمال علماء اللغويات .

مرحلة البحث الحقيقى بدأت حول عام ١٦٤٠ على يد أثنانز كيرشار ونحن نتساءل هل فتح هذا الأب اليسوعى القادم من مقاطعة هيس الألمانية سبلا أمام البحث أم أنه طمسها .

الشئ المؤكد هو أنه جزع شجرة المعرفة التى ضربت جذورها فى أرض تقريبيات عصر النهضة والذى يعتبر كيرشار وريثها المباشر . من هذا الجزع سيتفرع العديد من أهل عصر التنوير ، أهمهم فى هذا المجال جابلونسكى ، واربورتون ، بارتليمى ، جينى و زويجا كل فرد من هؤلاء شارك باكتشاف أو بطرح مشروع بحث مثمر أو حتى بخطأ ساعد على الفهم . المرحلة الثالثة نشأت مع إكتشاف حجر رشيد. إذ قبل الرجوع إلى هذا النص الأشهر المكتوب بلغتين مختلفتين * كان محكوم على أعظم المفكرين أن يلعبوا لعبة « حذر فذر » . ومع بداية القرن التاسع عشر أعطى اكتشاف هذا اللوح

* لغتان وثلاثة كتابات .

الذى هو بمثابة « الواح العهد » دفعة هائلة لعمليات فك الشفرة الحقيقية وبعد أن إستعصى على عالمين من كبار الباحثين على الأقل سمح هذا الحجر للدكتور توماس يانج أن يستولى على حصون المقدمة لهذه القلعة المنيعة ، التى هى بمثابة جزر الكاريبى بالنسبة لمكتشف أمريكا . وأخيرا جاء جان - فرنسوا شامبوليون ليجعل من هذه اللعبة الإلهية علماً .

إذا كانت الأحجار العتيقة ترفض أن تتكلم فإن الوسطاء كانوا منذ البداية يعرضون أنفسهم للباحث أو للزائر . بالنسبة للباحث عن الحل فى المرحلة الأوروبية القديمة كان الوسطاء ذوو الشهادة الغامضة والعلم المشكوك فيه هم - من بين آخرين - شيريمون وهيرمابيون وهورابولون وكليمان السكندرى . أول هؤلاء بقى مجهولا لفترة طويلة جداً ولم يكشف عن مساهمته سوى راهب بيزنطى اسمه تزيترزاس بقى فى طى النسيان حتى منتصف القرن التاسع عشر . وهو الوحيد من بين هؤلاء الشهود الذين لم يحسنوا الانصات الذى أشار بشئ من وضوح الرؤيا * إلى أن الأصوات والصور تتداخل فى الكتابة الهيروغليفية .

المساهمة التى أتى بها الثانى - وهى مذكورة فى كتاب « التاريخ » لأميبان مارسولان - كان يمكن أن تكون ذات قيمة حيث أنه جاء بترجمة تقريبية بلغتين لنص يزين مسلة أقامها رمسيس الثانى فى هيليوپوليس وتم إهداؤها إلى القيصر أغسطس فى القرن الأول . إلا أن هذا المستند الذى يعتبر من أجداد حجر رشيد لم يجد من يستغله من الباحثين . أما هورابولون وكليمان السكندرى فقد قدما للعصور التالية** لهما وصفا للمنظومة الهيروغليفية أدخل الباحثين إلى مجاهل التيه . تقوم الطريقة البحثية للأول على ضرب أمثلة لاحتصر لها يحاول أن يثبت بها الصفة الرمزية والمجسدة للأفكار التى تعبر عنها هذه الكتابة . وقد كان لخياله الخصب تأثيراً ترفيهياً حقيقياً لعلماء اللغات . فهو على سبيل المثال يؤكد أن كله « يفتح » تكتب بصورة الأرنب ؛ لأن هذا الحيوان تبقى عيونه دائماً مفتوحة والرقم خمسة تمثله النجمة ؛ لأن النجمة لها دائماً خمسة أضلاع .

إلا أن العلم المعاصر يميل إلى إعطاء هذا المتلاعب بالكلمات حقه بسبب بعض آرائه ذات القيمة .

أما كليمان السكندرى وهو أحد أساقفة الكنيسة وأحد أبائها أيضاً ، فقد كان أكثر طموحاً إذ عمل على إقامة نظام متكامل يميز فى الهيروغليفيات بين عدة طرق

* راجع هنرى سوتاس - مقدمة الطبعة الجديدة « الخطاب إلى السيد داسيه ١٩٢٢ من ٣١ .
** الأول فى مؤلفاته « هيروغليفيا » والآخر فى « السترومات »

للتعبير : الأول مباشر عن طريق المحاكاة ، والثاني رمزي عن طريق المماثلة بين الأشياء والثالث رمزي أيضا ولكن عن طريق التورية والألغاز . هكذا ضمن الأسقف السكندري لنفسه أنه وضع بصمته أمام التاريخ على الطرح الذي ظل سائدا في التاريخ القديم ، وهو القائل بأن الرموز الهيروغليفية هي نوع من الكتابة يعبر الرمز الواحد فيها عن فكرة وأنها كتابة رمزية * .

هذا التصور « المتسامي بمصر » من خلال كتابتها ، وهو التصور الذي زاده الأفلاطونيون الجدد أبناء عصر النهضة الإيطالي « مثالية » حسبما يقول في كتبه إريك إيفرسان . هذا التصور ظل ملقيا بثقله على البحوث في الشأن المصري حتى نهاية القرن الثامن عشر لدرجة أن كل مجهود وكل عبقرية الباحثين من زويجا إلى يانج ومن أكربولد إلى شامبوليون سيتركز تحديدا في البحث عن الصوت الكامن وراء الفكرة ** ...

عالم اللغويات الكبير هنري سوتاس (1) يرى في الخطأ التوجيهي الذي إرتكبه القدماء « حكما مسبقا طبيعيا للغاية » ؛ إذ كيف يمكن أن نتصور مقدما أن هذه الرموز ذات الأشكال عظيمة الأحياء يمكن أن تكون مجردة من قيمة الفكرة وأن يبلغ بها الحال أن ترمز لأصوات فقط مثلما هو الحال بالنسبة لحروفنا التي تشكلت بالصدفة ؟

في تلخيص نقول إن الباحثين المعاصرين دخلوا مهنة البحث مسلحين بهذه البوصلة التي تشير إلى الشمال في اتجاه .

ولا يمكن أن نقر بأن رائدهم أثنانز كيرشار قد نجح في أن ينأى بنفسه من هذه الأحكام المسبقة التي أصيب بعدواها عن طريق الأقدمين العظماء بل أنه زاد الطين بلة في بعض النقاط . وإذا ظلت شهرته كبيرة فلا يعود ذلك إلى أنه كان « آخر البوليماثيين » أي علماء عصر النهضة الذين درسوا وخاضوا في جميع العلوم والفنون تقريبا - فحسب ، وإنما لأنه شارك مشاركة مهمة في البحث الهيروغليفي أيضا . فهو الذي وضع مبدأ أن اللغة القبطية هي اللغة التي كان يتحدث بها قدماء المصريين بعد صياغتها في حروف تشبه الحروف اليونانية وهي تعتبر بذلك الصدى الصوتي للهيروغليفية

في محاضراته الأولى في الكولاج دو فرانس ، ندد جان - قرانسوا شامبوليون بعثف بالجيرزيتي كيرشار ليس لأنه ساهم في تضليل من سبقوه فحسب ، ولكن لأنه وعلى الأرجح كان ينتمي إلى نظام كنسي يمقته « رويسبير جبرونوبل » أيضا .

* الإشارة الوحيدة لقيمتها الصوتية ترجع كما رأينا إلى شيريمون .
** وسنجد ترديدا لهذا الخطأ الأساسي حتى في الصفحة الأولى من « خطاب إلى مسيو / داسيه » في طبعته الأولى .

إذ يقول « الجزويتى كيرشار [...] ضلل معاصريه عندما نشر [...] ما يدعى أنها ترجمات للأساطير الهيروغليفية المنحوتة على مسلات روما وهى ترجمات كان لا يصدقها هو ذاته . فقد وصلت جرأته إلى أنه كان يدعم ترجماته بنصوص منقولة عن كتاب لم يكن لهم وجود أصلاً * [...] لا العلم ولا الآثار ولا التاريخ كان فى إمكانه أن يجنى ثمرة واحدة من أعمال كيرشار [...] المليئة بالرمز شديد الغموض والأكثر إثارة للسخرية ! » (2)

وحتى عندما يجد نفسه مضطراً لأن يعترف لكيرشار بحقه فى أنه « ساهم فى نشر دراسة اللغة القبطية » فإن شامبوليون ينجح فى الإستهزاء به مرة أخرى فى هذه النقطة ، وذلك بأن يؤكد « أنه حتى فى هذا المجال لم يتمكن أبونا القس من التخلص من شعوبته المعتادة إذ سمح لنفسه بإدخال العديد من الكلمات فى قاموس اللغة على أنها كلمات قبطية لسبب واحد هو أنه كان يحتاج لها لدعم شروحه الخيالية » . (3)

مشعوز ؟ عالم موسوعى ؟ رائد ؟ إن أثنان كيرشار كان من الشخصيات العامة فهو من أبطال عهد يمكن تسميته « ما بعد عصر النهضة » . ولد - كما تقول كاتبة سيرته جوسلين جودوين - « إما متأخراً أكثر من اللازم أو متقدماً بأكثر من اللازم » فهو لم يكن فى أهمية كييلار (الذى كلف كيرشار بأن يخلفه فى فيينا) ولا نيوتين .

تزین غلاف الأعمال الكاملة للأب أثنان صورة له كتبت تحتها هذه العبارة الضخمة : « الرسام والشاعر يصرخان دون جدوى : ها هو ! إن وجهه وإسمه معروفان فى جميع أرجاء الكرة الأرضية » . ولد فى مدينة فولدا مقاطعة هاس فى ١٦٠٢ قام بتدريس كل شئ تقريباً (من الرياضيات إلى الموسيقى مروراً بالفلسفة والفلك) وفى كل مكان تقريباً فى ماينانس وفورزبورج وهالينجستادت هرب من جيوش جوستاف - أدولف ليجد نفسه وقد بلغ الثلاثين من العمر فى مدينة أفينيون حيث وجهه العالم المشهور نيقولا بيراسك إلى دراسة اللغة القبطية من أجل البحث الهيروغليفى .

الجزء الهام من بحوثه فى اللغويات أجراه فى المدرسة المركزية للجزويت فى روما ، التى كانت تنتشر فيها المسلات شامخة على قعداتها أو مهملات هى وفى جميع الأحوال تعرض نفسها لأبحاثه ... وهنا فى عاصمة البابوية نشر كتابه المشهور : « أوديب المصرى OEdipus Aegyptiacus . غير أن فك الرموز لم يكن سوى أحد الموضوعات العديدة التى إهتم بها هذا « المشعوز » المتعدد المعرفة فى دراساته . فهو رجل عمل على أن ينزل داخل فوهة بركان الفيزوف لكى يشاهد عن قرب ثورة بركانية .. كما أنه درس أسباب مرض الطاعون . وكان يرأس ليبينيتز وقام بتدريس

* هذا ما كان فى مقنور جوزيف شامبوليون أن يعرفه عام ١٨٢١ وهو لم يكن متأخراً لكيرشار فى ١٦٤٧

المنظور إلى الرسام نيقولا بوسان ، وشارك مع وليم جاسكونى فى إعداد المنظار الفلكى ورمم بيده كنيسة يسوع فى روما وأسس أول متحف فى التاريخ والذى أطلق عليه ببساطة شديدة اسم « كيرشار نوم ... »

هل هذا هو كل ما قام به ؟ بالطبع لا ... فهو مؤلف موسورجيا أو نيفرسا ليس « الموسوعة الموسيقية العالمية » وبذلك يكون هذا الأب اليسوعى كيرشار أول عالم فى الموسيقى (بعد بواس ؟) فى التاريخ والمنظر العبقري لعبور الأسلوب البوليفونى إلى المرحلة الباروك . كما أنه صاحب مؤلف دراسى عن السمعيات ينتهى بهذه العبارة : « الصوت هو القرد [المقلد] للضوء » ولعل شامبوليون قد وجد فى هذه الكلمات مادة للتفكير . ولكن هل هى عبارة صحيحة ؟ خطأ بالتأكيد ... ومع ذلك أليست إحدى « اللاحقييات » التى تنبثق منها شموع الحقيقة ؟ ولا يمكن أن نختتم حديثنا عن العالم المتعدد المعرفة أثنان قبل أن نذكر أنه كان حسبما يؤكد البعض مخترع « الفانوس السحري » وبالتأكيد مخترع أصل « مكبر الصوت » ، وقد أطلق عليه اسم « النفير الستنتروفونى » وكان يستخدمه فى كنيسة منتوريا ليستدعى رعاياها فى دائرة قطرها خمسة كيلومترات (4) .

وبناء على ذلك كيف يمكننا ألا نشارك جان فرنسوا احتقاره * لهذا الرائد المفعم بالحيوية والميال للتهويل والخارج عن الصف والغارق فى التهيؤات الذى يرى فى الهيرغلوفيا رقصة هائلة تقوم بها أشكال عجيبة ذات معان سرية أو عالم خاص لا يدخله ولا يستخدمه سوى قلة قليلة من الدارسين .

لقد كان بالتأكيد عالم لغويات غريب الشأن هذا الذى وقف أمام خرطوش يحتوى على اسم الفرعون العظيم تحوتمس الثالث الذى يقرأه علماء المصريين : « الأشكال المعمرة التى يتخذها الآلة رع » وقرأه هو : « القلعة السماوية لكوكب الأرض تحميه من جميع الأهوال المعونة الإلهية لأوزيريس الجن الأجاتى الرطب ... » كان أبونا هذا يتمتع بخيال خصب جداً إذ كتب هذا النص « إن الآثار الطيبة لأوزيريس الإلهى يجب أن تجلب عن طريق الطقوس المقدسة وسلسلة الجنيات حتى يمكن الحصول على خيرات النيل » على أنه ترجمة لمجموعة من الرسومات ترجمها العلماء الذين خلفوه فى كلمة « أيزيس » .

ومع ذلك يعتبر الأب اليسوعى أثنان كيرشار أحد أفراد مجموعة الآباء المؤسسين [للإيجيبتولوجيا] لا لأنه أكد بتوجيه من بيكولا بارساك كما رأينا من قبل -

* عبر عنه منذ نهاية القرن السابع عشر قس يسوعى آخر وهو الأب مينا سترييه والانجليزى ولكن ومؤخرا الراهب بريوتون الذى ندد بهذه « الفرائب المتصوفة » فى حين أن كتاب معاصرين محترمين مثل إبريل إفرسان ومادلين دافيد لهم آراء مختلفة حول هذا الموقف السلبى .

على الدور المحورى للغة القبطية : (« الصوت القرد المحاكى للضوء) فحسب وإنما لأنه كان يبحث أيضا بكل جوارحه Weltanschauung مصرية ، تعبر عنه الهيروغليفيات ⁽⁵⁾ يجب أن نضع محاولته إيجاد طريقة للكتابة توحد فيها جميع لغات العالم (على مستوى الكتابة فقط) ضمن مشاريعه ذات الصبغة الكونية - وكانت الهيروغليفية ستلعب دوراً أساسياً لهذا النظام - أن يقوم أحد قساوسة القرن السابع عشر اليسوعيين المعاصر لبوسيوه - بكل هذا العناء وبكل هذه الاستتارة لإقناع العالم الكاثوليكي بأن يتفهم الوثنيين عنده « الأصنام » (الأموات منهم بطبيعة الحال) بدلاً من إقصائهم ولعنهم ، هو تعبير عن عظمة فريدة من نوعها كما هو الحال أيضا بالنسبة لحميته فى البحث عن مبدأ ديانة كونية فى الثيوجونيا (مبحث أصل الآلهة وتحررهم) المختبئة فى داخل الكتابة المشفرة لمصر القديمة .

كلها مشاريع نبيلة جدية بأن تجذب إهتمام جان فرنسوا شامبوليون إلا أن عالم اللغويات فى داخله إعترض على أن هذا العالم المتعدد الثقافات والذي سلح نفسه بمعرفة اللغة القبطية لم يقم أى علاقة بين اللغة التى فيها مفتاح اللغز وبين الكتابة المطلوب حل طلاسمها .

ليست أقل أمجاد الأب أثنانز أنه كان مراسلاً للفيلسوف لايبنتز ولفترة ما مصدراً لوى أفكاره إن اسم هذا الرجل العظيم ليس مرتبطاً بجذور السياسة الفرنسية فى مصر* فحسب بل كان أيضا مشاركا فى المغامرة الكبرى للدراسات الهيروغليفية - فقد أعلن لايبنتز لفترة أنه من تلاميذ كيرشار مؤكداً أنه « سيعرف الخلود » لأنه إعتبر أبحاث الأب اليسوعى فى الكتابة الكونية أحد المثل العليا للتفكير الموسوعى الذى يفصح عنه كتابه De arte Combinatoria وإذا كان لايبنتز عاد بعد عام ١٦٧٠ لايرى فى « إختراعات هذا القس » سوى ألعاباً فكرية صغيرة وطريقة أكثر من كونها مفيدة . إلا أن إهتمامه استمر مركزاً على تاريخ الكتابات وعلى الهيروغليفيات واضعاً إياها مقابل الحروف الصينية التى بدت له أقل « شعبية » أو « رمزية » ويغلب عليها الجانب « الفلسفى » أو « الثقافى » .

يصعب وضع لايبنتز (الفيلسوف عالم الرياضيات) فى زمرة مكتشفى حل اللغز إلا أن فكرته العميقة التى قاومت الزمن عن مختلف أنواع الكتابة أوضحت فى العصر الكلاسيكى أن الهيروغليفيات بالنسبة لأحد أكبر المفكرين فى تاريخ العالم الغربى لايمكن إعتبارها سوى أنها مرادفة « للرموز » التى تعمل على « رسم الأشياء » .

* راجع التمهيد ص 24

إذا عدنا إلى موضوع الكتاب « الفلسفية » أو الكونية التي تستخدم الأفكار بدلا من الأصوات وهو الذى أدى إلى خلط الأمور بالنسبة لباحثى الهيروغليفيات التاليين سنجد أن أحد المشاركين الأساسيين فى ذلك هو المونسنيور ويلنز أسقف تشستر الذى أخذ عنه لايبنتز بعض الأسانيد ، فهو فى كتابه « بحث فى الوصول إلى لغة فلسفية » ١٦٨٨ (Essay towards a philosophical language) يعتبر الهيروغليفيات منظومة من الصور البدائية جديرة بأن يستخدمها شعب بدائي - هذا كان رأيه فى المصريين والمكسيكيين - وطورها بعد ذلك الشعوب إلى فكرة « المفهوم » واستخدام الأبجديات .⁽⁶⁾

ثم جاء قرن التنوير حيث تتجمع كافة معطيات الحل التى يمكن تجميعها قبل اكتشاف حجر رشيد .

نان بول - إرنست جابلونسكى وهو ابن باحث لاهوتى من مدينة دانتزج صديقاً ومراسلاً للايبنتز - وجه البحث الهيروغليفى ناحية اللغويات التطبيقية ودراسة الأديان يقوم كتابه Pantheon Aegyptiorum عالم الآلهة المصرى (١٧٤٠) على دراسة منظمة للغة القبطية والآلهة النيلية . والسؤال المطروح كان : هل تسمح قراءة اسمى إيزيس وأوزيريس بواسطة معجم قبطى بإيجاد مفتاح الحل ؟

أهمل جان - فرنسوا شامبولىون هذا الباحث الألمانى لفترة طويلة . بل أنه سخر فى خطاب لأخيه مكتوب عام ١٨٠٩ من محررى كتاب « وصف مصر » الذين « يعزفون على طريقة جابلونسكى » . بعد عشرين عاما فى محاضراته الأولى فى الكولاج دو فرانس إسترجع نفسه وأفكاره المسبقة عنه واعترف بما لمؤلف كتاب « البانتيون » من « ثقافة واسعة » إلا أنه أكد على أنه لم تكن لديه الوسائل التى تسمح « بترجمة أسماء الآلهة المصرية بواسطة اللغة القبطية » وذلك لأن « العناصر الصوتية المكونة لأسماء العلم الأصلية للآلهة المصرية فى النصوص الهيروغليفية لاصلة لها بالكتابة الإملائية التى أضفاها عليها جابلونسكى ولا يمكن أن تستجيب لترجماته »⁽⁷⁾ .

جابلونسكى وقع هو الآخر ضحية للإيديوجرافية * ولتحجيم الكتابة المقدسة المصرية فى إطار اعتبارها رموزاً و « رسومات للأشياء » . كم من عقود مرت قبل أن تلغى « القراءة » المثالية التى اعتمدها كلمان السكندرى ؟ شامبولىون بصفته مؤرخ لتاريخ الكتابة حيا المجهود الذى بذله جابلونسكى بعد أن أكد بالطبع على فشله النهائى وكانت الدراسات الإيجيبتولوجية المعاصرة له قد تناسته . فى حين أن الذين تناسهما هو فى محاضراته كانا قد عرفا فى عصرهما وفيما بعد أيضا أمجاداً مستحقة وهما واربورتون وبارتيلمى .

* الرمز يشير إلى فكرة

يصعب فهم السبب الذي جعل صاحب «خطاب إلى مسيو داسيه» وهو يصدر تقديم كشف حساب أبحاث من سبقوه - يسقط هذين الباحثين علما بأن شهرتهما لا بد وأنها الحت عليه في شبابه ، إذ أن الكتاب الذي ألفه واربورتون بعنوان «بحث في هيروغليفيات المصريين» والذي حقق نجاحاً هائلاً فور نشره في فرنسا كان متوفراً في مكتبة جاك شامبوليون* في فيجاك . كما أن كتاب الأب بارتيليمي «رحلة الشاب انشاريس» الذي نشر في ١٧٨٧ لا بد وأنه سحر لب تلميذ مدرسة لبسيه جرونوبل مثله مثل جميع زملائه المراهقين على الرغم من أن موضوع الكتاب هو اليونان وليست مصر ، باختصار تجاهل شامبوليون ذكر الاثنين ضمن الرواد الذين أشاد بهم بعد أن وصل إلى الشهرة والمجد .. إلا أن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى ما قدماه وهو ما يقره جميع المتخصصين المعاصرين ..

انتهى مطاف واربورتون بأن أصبح أسقفاً ومن ألد أعداء فولتير ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يؤلف أكثر الكتب « فلسفة » فيما يتعلق بالجدل الدائر حينذاك حول الهيروغليفيات ، وجاء تقدير الأنسي؛ لويديبين له على هذا الأساس . إذ لم يكن في الإمكان الابتعاد عن رمزية كيرشار بأفضل من ذلك في وضوح الرؤيا ومحاولة إيجاد تفسير عقلي وتاريخي لمنظومة الكتابة المصرية ولا بأجراً من ذلك .

ومع ذلك يجب ألا نخطئ في تقدير الشخص ذاته . كان واربورتون ينادى في كتابه الأصلي " The divine Legation of Moses " من أجل تجديد الدراسات التوراتية وهو ما قاده إلى إبراز مشاركات مصر الهائلة في تاريخ البشرية . ثم جاء مترجمه إلى الفرنسية ليونار نو ماليان فتخطى نوره كمترجم وأعد بجسارة الكتاب بأن أعاد تبويبه حول مركز واحد وهو الذي يبرر عنوانه ومعناه (بحث في الهيروغليفيا المصرية) وجعل منه فصلاً محورياً من تاريخ و « مستقبل » الكتابة .^(٨) مؤلف واربورتون ومالبان حيث نشرته مجهولة التوقيع ومنشورة في ١٧٤٥ في باريس** على أنه من « الروائع » إذ يكفي أنه أثبت أن « الكتابة الهيروغليفية مهدت للاختراع العظيم للأبجدية ».

وضع مؤلفا كتاب «بحث في الهيروغليفية» حديثهما في إطار جميل من التطور المستمر للتقدم الفكري : قدما التحية بشئ من التحفظ لهورابوللون وكليمان السكندري منتقدين أي فكرة عن « قوة سرية » أو طقوس خفية « وساخرين بقوة من كيرشار المسكين ثم وصفا عملية العبور من الرسم لكتاب الأفكار ومن الرمز إلى الشئ المشروح ومن الشئ الممثل إلى الخط المتصل . بل إن الأسقف الانجليزى يذهب إلى الإشارة إلى العبور من كتابة الأفكار إلى كتابة الأصوات وهو يصدد الحديث عن الرموز

* راجع الفصل ١

** محفوظ ضمن أوراق جاك جوزيف شامبوليون - فيجاك .

الهيروغليفية . وهو يعتبر أن الأبجدية العبرية خرجت من الكتابة الجديدة وهى بدورها مرتبطة إرتباطا لا ينفصم عن اللغة المنطوقة . على هذا الأساس تكون الكتابات « شيئا كليا ومتنوعا » مر من « حالة الرسم إلى حالة الحرف »⁽⁹⁾ وتفرض الحالة المصرية نفسها على الجميع بوضوح لا يقبل المقارنة .

الحيثيات التى ساقها واربورتون ومالبان تعتبر قمة فى العقلانية وهى بالمناسبة تتحدث عن « كتابة للأصوات [...] مرتبطة بالمنطوق * مجهود تسطيحي ؟ جائز ، ولكن كما يقول واضعو⁽¹⁰⁾ Who is who in Egyptology بعد زمن طويل : « إنه الكتاب الوحيد قبل مرحلة شامبوليون الذى أشار إلى الأسلوب الصحيح » ... أسلوب العمل من أجل حل الشفرة بالطبع ومع ذلك فلم يحاول واربورتون دخول المضمار ولعل ذلك هو السبب . لذى جعل جان - فرنسوا شامبوليون يفضل ذكره بعد قرن كامل تقريبا ضمن سجل عظماء الباحثين فى سر الهيروغليفيات . فى حين أن مادلين دافيد تتكلم عن « خطوة حاسمة » وتعلق بهذه الكلمات على ما قدمه الأسقف الانجليكانى :

« الطريق مهد ومع ذلكبقى كل شئ على حاله منتظرا الإستكشاف والاكتشاف [...] لمع بريق أمل حل الشفرة بعد أن درس الهيروغليفيات المصرية وقارن أشكالها المتتابة مع الأخذ فى الاعتبار المشاكل اللغويستية التى استبعتها واربورتون »⁽¹¹⁾ .

فى خط مواز للبحث عن فك الشفرة سواء بواسطة المقارنات أو التداخلات اللغوية أو حتى بوصف عملية التطور التلقائية لوسائل التعبير ، تطورت محاولة فضفاضة لشرح المنظومة المصرية بالمقارنة أو بالمقابلة مع اللغة الصينية ... وهى اللغة التى اعتبرها لايبنيتز كما رأينا من قبل أكثر « فلسفية » من لغة وادى النيل .

ترتبط بهذه المقارنات الجسورة أسماء نيقولا فيريه الذى اعتبره شامبوليون فيجاك « معلما فى النقد وسعة الثقافة » وإتيان فورمون الذى استغل بذكاء جواراته مع شخص يدعى أركادىوس هوانج . وهو شاب صينى أحضره معهم قساوسه فرنسيون إلى فرساي أصل شخصية أوزيك التى صورها ديديرو فى رويته « المراسلات الفارسية » وأخيرا اسم الكونت دوجيتى .

ماذا عن مشاكل الأسبقية ؟ يؤكد فيريه على أسبقية حضارة وادى النيل على الرغم من أنه يقول أحيانا أن « المصريين يشبهون الصينيين » . غير أن هذا ليس

* سيستوحى دوبروس منها بعد عشرين عاما كتابه « دراسة التكوين الألى للغات » (١٧٦٥)

موضوع النقاش لأن الإشكالية تتلخص فى طبيعة وقيمة المنظومتين . تقوم الكتابة المصرية فى رأى فريريه على « علاقة مصورة » منحيا تماما وجود رموز صوتية وهى تعبير رمزى أو مصور فى حين أن الصينية تقوم - فى شكلها الجرافى - على أساس « علاقة مؤسسية » وهى تعتبر لذلك فى تصوره ذات قيمة أعلى .

أخذ الكونت دوجينى الأمر بصورة مختلفة . فهو يعلن فى البداية أن الصينيين مستعمرون مصريون (وخزعبلات أخرى) ثم راح بطريقة أكثر جدية بحاول المقارنه بين مجموعات من الرسوم الهيروغليفية وجذور الكتابة الصينية . وخلص إلى القول الجسور بأن المصريين هم الذين أعطوا منظومتهم الكتابية إلى الصينيين . لم تخلو تهيؤاته هذه من بعض الرؤا الثاقبة : فهو يشير إلى أن طرق الكتابة المصرية الثلاثة تكون وحدة واحدة . ويضيف دوجينى أيضا أن هذه الرموز* لاتوجد بها حروف متحركة . ولأن علماء اللغويات قد أخذوه على محمل الجد لكانوا وفروا على أنفسهم بعض الأخطاء التالية لهم - وهو ما أفاد شامبوليون .

شاركت إذن الدراسات الصينية الوليدة أستاذيها الأول أبل دو ريموزا زميل جان - فرنسوا شامبوليون السابق فى الكولاج دو فرانس فى تقدم الدراسات المصرية . إلا أن هنرى سوتاس يرى أن هذا التداخل « أضر بأكثر مما أفاد لأنه ذهب إلى أبعد مما ينبغى ، حتى من شامبوليون ذاته » .

متى سنتوقف عن تجميع شخصيات هى بمثابة أبطال روايات ضلت طريقها فى هذه الملحمة اللغوية ؟ لدينا واحد آخر : الأب جان - جاك بارتيليمى . المولود فى كاسيس . وعلى الرغم من أنه كان مرتديا اللباس الغامق على الدوام فهو لم يدخل أبداً فى السلك الكنسى أو الرهبانى . ومع ذلك فقد كان واعظاً حتى باللغة العربية . وكان يتحدث عشر لغات شرقية وكان أعظم دارس للنقود والميداليات فى عصره . نشر عام ١٧٥٤ غراميات شاييتيه ويوليدور إلا أن المجد الذى مسه كان بسبب نشره كتابه الأشهر بعد ذلك بثلاثين عاماً بعنوان رحله الشاب أناشارزس إلى اليونان فى منتصف القرن الرابع تقريبا مثل العصر السوقي .

صاحب كتاب حظى بشعبية هائلة وقس علمانى جداً ولكنه أيضا وبالتأكيد عالم بالمعنى الحقيقى ، عمل قبل ذلك بسنوات طويلة ووجد فى فك شفرة الإيجديه البالميرنية

* فى بحث قدمه عام ١٧٦٦

والفينيقية . ثم بدأ يحقق فى اللغز المصرى وذلك بدراسة قطعة من القماش : خرج من هذا البحث بتقرير قدمه لمجموعة الآثار القديمة المصرية والإتروسكية واليونانية والرومانية للكونت دو كايوس بلور لأول مرة (فى ١٧٦٢) . إحدى الأفكار الأكثر تحديداً فى تاريخ الأبحاث فى المصريات والأكثر أصالة منذ أن ربط كيرشار بين اللغة القبطية واللغة الفرعونية موحداً بينهما . إذ قال : « الهيروغليفيات المنقوشة على الآثار المصرية تتجمع فى أشكال بيضاوية [...] لكى ترمز على الأرجح لأسماء الملوك أو الآلهة * » .

بيضاويات أم خراطيش - كما نسميها الآن - الاكتشاف كان حاسماً ، إذ تمكن من فصل مجموعة من العلامات . هذه المجموعات من المفروض أنها مرتبطة بأسماء ملكية أو دينية هى فى الأساس محدودة العدد ... أخذ البحث بذلك يتحدد ويتركز وسنرى فيما بعد أنه عن طريق أسماء الملوك الأجانب مثل بطليموس وكليوباتره ثم الملوك الوطنيين مثل رمسيس وتحتمس وصل آخر الباحثين - شامبليون ويانج إلى الهدف .

لم يتوقف الواعظ العلامة فى بحوثه وإكتشافاته عند توضيح دور الأشكال « البيضاوية » بل إنه وضع هذا المبدأ الأساسى الذى تمخض عنه الكثير وذلك بأن أكد أن مفتاح الشفرة لن يأتى عبر دراسة المؤلفين اليونانيين واللاتين وإنما من « دراسة الآثار التى ستتكم بوضوح » . ما أراد بارتيليمى عمله وهو دارس آثار محترف هو إعادة دراسة النصوص إلى إطارها الأركيولوجى .

لم يخف صاحب « الرحلة » أنه مدينه لواربورتون ويؤكد على براعة وأصالة وصفه لتطور الكتابة من مرحلة لأخرى من الصورة إلى الحروف . وصل الطريق الصحيح عندما قابل بين « الهيروغليفيات كرموز تمثل الأفكار » و « الحروف التى ليست سوى رموز تمثل الأصوات » فهو يتقدم على الدرب القويم عندما يقول « عند إختراع الكتابة الحالية استخدمت الهيروغليفيات المعروفة كعناصر مكونة للأبجدية الحديثة » (12) . معنى ذلك أنه أشار إلى الوحدة الأصلية التى تجمع بين مختلف الكتابات المصرية . شعاع ضوء جديد .

ثم يقول الأب بارتيليمى فى وداعه : « أعددت حجراً من أجل البناء (13) ويمكننا أن نطبق عليه ماقاله هو عن زميله لاكروز « تمر لحظات يشعر فيها المرء بالفخر عندما يعتقد أنه وضع يده على حقائق فانت على بقية البشر ... »

* هذه الفكرة جاءت أيضاً على لسان جيئى ولكن بعد ست سنوات .

« يعتقد المرء أنه وضع يده ؟ » لاياسيدى القس أنك وضعت يدك بالفعل ... جان لوكلان يلخص مشاركة هذا البروفانسانسالى صاحب الزى الأسود فى عملية البحث الكبرى فى « أربع مداخلات هامة : تطابق القبطية والمصريه القديمة * والعلاقة المحتملة بين هذه الأخيرة واللغات السامية ، العلاقة بين الأشكال الهيروغليفية وأشكال اللغة المكتوبة المرسله وقيمة « البيضاويات » [الخراطيش] التى تحيط بالأسماء الملكية . » ياله من فن ؟

فى ختام كتابها عن الأبحاث الخاصة بالهيروغليفيات والكتابات الأخرى والتى أشرنا اليه عدة مرات تؤكد مادلين دافيد على أنها تنوى « إثبات أن أعمال شامبوليون نبعت - بأسلوبها فى البحث - من حركة حل الشفرة التى إفتتحها بارتيليمى ... » الواقع أن هذا البحث يضيف لمعانا خاصا وهاجاً على الصورة والأعمال الكثيرة - والمتعددة - التى قام بها هذا المواطن الكاسيسى وذاك دون التقليل من أهمية ما قام به من سبقوه ومن جاعوا بعده .

الأثار هى التى ستتكم !! بيد وأن هذا النداء الذى أطلقه جان - جاك بارتيليمى وهو الذى بحث من ناحيته فى قطع من القماش وليس على أحجار محفوره - وصل إلى أذان المتكشف الألمانى الكبير وعالم اللغويات كارستين نيبور الذى ترجع شهرته أصلاً إلى فك شفرة الكتابة المخروطيه ** ولكن لم يكن كتابه عن رحلاته إلى الشرق هو الكتاب الوحيد الذى قرأه بوناپارت قبل حملته على مصر . بل كان أحد مراحل البحث فى الهيروغليفية .

* ولعل كيرشار يطالب عن بعد بابوة هذه الفكرة .

** النصوص التى رفعها كارستان نيبور عام ١٧٧٨ فى بيرسيبوليس كانت السبب فى فك شفرة الكتابات المخروطية كتب بياتريس أندريه .. ليكمان (فى كتالوج معرض مولد الكتابه بمعرض الجران باليه - ٧ مايو - ٩ إبريل ١٩٨٢) حوالى عام ١٨٠٠ اتضح تماماً أن الكتابة المخروطيه تحتوى على أسرار الحضارة الميزوبوتامية القديمة . والكتابات بثلاث لغات التى نحتها فى الحجر الملوك الفرس الأشمينين العظام فى بيرسيبوليس وبهيستون هى التى سمحت بحل الشفرة . كان النص الواحد مكتوباً بثلاث لغات جميعها بحروف مخروطيه ولكنها مختلفه : الفارسى القديم والعلمى والأكادى (البابلى) وهى اللغات الثلاث المستخدمه فى الامبراطورية الفارسيه تمكن حد . ف . جروتفاند ونيوتجان والقس الايرلاتدى هتكس من قراءة الأولى منذ عام ١٨٠٢ لان عدد حروفها محدود ستة وثلاثين حرفاً وأقربها من اللغة الفارسيه . فك شفرة الكتابات المخروطية توالى بعد ذلك على مراحل خلال القرن التاسع عشر . الحفريات التى قام بها الفرنسى فى ميزوبوتاميا السفلى عام ١٨٠٠ هى التى أكدت وجود كتابة مخروطية أخرى تابعة من رسومات بدائية ترمز للأفكار وكانت تغطى لغة حضارة لواها النسيان هى حضارة سومر وهكذا فإن الكتابه السومرية تعتبر أقدم الكتابات التى وصلت إلينا وتسبق بذلك (بقرنين أو ثلاثة) الكتابة الهيروغليفية .

عاش نيبوهر فى القاهرة فى ١٧٦٢ واهتم بدراسة الحفريات المقدسة وعلق عليها قائلا إنها تشبه « الكتابة الابجدية » ثم أوضح أن هناك فروقا بين « رموز كبيرة وأخرى صغيرة » وأشار إلى أن الكبيرة فقط هى التى تعتبر « رموز حقيقية » أما الصغرى فهى تؤدى دور « الحروف الأبجدية » ولها قيمة صوتية . كما لاحظ بوضوح أن عدد الهيروغليفيات أصغر بكثير مما تعبر عنه ولا يمكن أن تكون هناك علامة لكل كلمة أو كل فكرة . وكانت هذه الملاحظة عميقة جدا . إستعارها شامبوليون بعد ذلك بنصف قرن من الرحالة الألمانى بعد أن قرأ مؤلفه (حول عام ١٨٠٦) وهى بذلك تعتبر مراحل من مرحلة عملية حل الشفرة .

العالم الدانماركى يوجين زويجا لم يكن عارفا بأثار مصر مثلما كان كارستان نيبوهر ولكنه كان قارئاً لكتب بارتيليمى مثله . عنوان كتابه الرئيسى هو De usu et origine obeliscorum (١٧٩٧) وهو يوضح أن البحث مع زويجا خرج من مرحلة البحوث الفكرية إلى مرحلة دراسة الأشياء إذ أن هذا الباحث تناول بالدراسة أهم الآثار المصرية القديمة الممثلة لحضارة وادى النيل .

ولم يكن ذلك من أجل حل شفرة الكتابة وإنما لنقلها على الورق بطريقة منظمة . وكان هذا عملاً أثارياً حقيقياً .

ولد زويجا فى منطقة الشويلزيج عام ١٧٥٥ وتتلذذ على المؤرخ الألمانى كريستيان هاين . قامت أبحاثه فى بادىء الأمر على مجموعة الآثار الموجودة فى متحف بورجيا فى فيللتري - حيث تعلم أيضا دوبرا صديق شامبوليون . ثم عندما أقام فى روما وكان متخصصا جيدا فى اللغة القبطية خطر له أن يركز أبحاثه فى المسلات وكان ما خلاص إليه فى بادىء الأمر هورفضه الحاسم للنظريات الرمزية على طريقة كيرشار ولم يكن هذا بجديد . غير أنه توصل إلى ملاحظتين قويتين للغاية الأولى أن هذه الكتابة أبعد ما تكون مخصصة لقلّة من العلماء والكهنة العارفين بأسرار الديانة ولا للطقوس الدينية ولكنها كانت « مستخدمة من الطبقة المتنورة من الأمة المصرية »^(١٤) ، وكانت تستخدم فى تحرير النصوص سواء الدنيوية منها أو المقدسة . والملاحظة الأخرى وهى أفضل من الأولى : أن هذه المنظومة الكتابية لابد وأنها تحتوى على عناصر صوتية * .

بهذا يكون يورجن زويجا قد خطا الخطوة الرابعة الهامة فى البحث الهيروغليفى وهى التى تلى الإدراك بتطابق اللغتين القبطية والمصرية القديمة (كيرشار) ثم وحدانية

* وهى الحقيقة التى سبق وأن شعر بوجودها كل من واريورتون ثم نيبوهر .

جميع الكتابات الهيروغليفية وأخيرا تحديد أماكن الاسماء المكلية فى الخراطيش (بارتيليمى) ويعتبر إذن حلقة هامة فى سلسلة الباحثين وأخر مرحلة من مراحل التطور التى سبقت إكتشاف حجر رشيد .

وعلى الرغم من أن مساهمة زويجا قد جددت بعمق معطيات البحث وأن كتابه ظهر عام ١٧٩٧ أى قبل سفر بوناپارت إلى مصر بعام كامل فإن تحية جان فرنسوا شامبليون له فى عام ١٨٣١ فى خطابه التلخيصى جاءت على النحو التالى :

« أراد (من سبقوه) معالجة المشكلة بالمواجهة أى بشرح النصوص مسبقا قبل التعريف على أكثر عناصرها بساطة [...] لقد اعتنى زويجا بعمل كشف كامل ودقيق لجميع العلامات الهيروغليفية الموجودة على المسلات والمباني المصرية القديمة » .

وهكذا تمكن العالم الدانمركى قبل أن تضع المنية حداً « لأعماله المفيدة » من تمهيد الطريق أمام من جاءوا بعده ليس كعالم وثائقى فحسب وإنما كرائد فى المجال الحيوى الذى هو إدراك القيمة الصوتية للهيروغليفيات .

سبق أن عرضنا الظروف الفريدة التى صاحبت إكتشاف الحجر المسمى بحجر رشيد فى يوليو ١٧٩٩ والسرعة الفائقة التى أدرك بها مكتشفوه أهميته العلمية ثم إستيلاء الانجليز المنتصرين عليه بعد أن أرسل اللورد الجين العالم ويليام هاميلتون إلى الاسكندرية لجرد وإستعادة الكنوز التى جمعها الغزاة بعد هزيمتهم وعلى رأس هذه الكنوز بالطبع الحجر البازالتى الضخم المنقوش باللغتين . وكانت شهرته قد عمت جميع الأوساط .

قبل أن يحتل مكانه فى مدخل القسم المصرى من المتحف البريطانى بمدة طويلة أخذت منه عدة صور طبق الأصل وعرفت طريقها إلى باريس فى ١٧٩٩ فقد قام ح . - ح . مارسيل بعمل نسخة ليتوغرافية منه بينما طبق عليه نيقولا كونتى طريقة الطبع بالحفر - الناعم ، وأخيراً صب عليه أ . راينو- لويل قالبين (كانت تسمى حينذاك : كبريت) وفى العام التالى قدم الجنرال بوجا وهو من أوائل القادة الذين ابحدروا من مصر بعد هروب بوناپارت طبيعتين من نصوص الحجر الذى إكتشفه بلير بوشار (15) إلى «الأنستيتو» : النص - بالمناسبة - ناقص حيث أن الصيغة الهيروغليفية منه مبتورة (بها ٢٦ سطرا فقط من ٤٠ تقريبا) والديموطيقى ينقصه ثلث النص واليونانى تنقصه ٦ سطور من مجموع الأربعة وخمسين سطرا الأصلية .

تشير مادلين دافيد إلى أن حجر رشيد لم يكن ليتسبب بذاته في حل شفرة اللغة الهيروغليفية وإنما يعتبر « اكتشاف حاسم في هذا الصدد بمعنى أنه أثبت منذ البدايه العلاقة بين الكتابة الديموطيقية والهيروغليفية من جهة والرباط اللصيق في العلاقة بين هذه النصين والترجمة اليونانية له من جهة أخرى » (16) .

سمحت الترجمة التي أجريت على الفور للنص اليوناني بملاحظة أن النظريات القائلة بأن الحروف المقدسة كانت مخصصة للتعبير الرمزي عن أسرار مكنونة لفلسفة سرية وأو علوم لا تنتشر ستتهار فور التأكد من أن الجزء الأسفل من النص هو ترجمة للنصين الهيروغليفى والمرسل اللذين يعلنانه وهو ما كانت الظواهر كلها تشير اليه . سرعان ما اتضح أن النص لا يتعدى كونه قرارا صادرا من الهيئة اللاهوتية لمدينة ممفيس نحو تقديم التحية الواجبة للفرعون البطلسى بطليموس ايفانوس (١٩٢ ق.م) شى من قبيل ما أصدره المحافظ جوزيف فوريه من أجل تنظيم استقبال حافل للكونت دار توا فى جرونويل * .

فى الوقت الذى كان فيه العامة يمرون مشدوهين أمام الكتلة البازليقة السوداء التى انتزعت بفضل نيلسون من أيدي خلفاء بوناپرت كان علماء القارة يعكفون على الدراسة والعمل ضمن جهة كانت اللجنة المصرية التى يشرف عليها كونتى ثم لانكريه الذى كان أول من علق الإكتشاف ثم جومار - قد بدأت تحرير الكتاب الصرح « وصف مصر » . ومن جهة أخرى أخذ بعض علماء اللغات يدرسون صوراً طبق الأصل من نصوص رشيد التى وصلت من القاهرة لمحاولة فك شفرتها . فقد أعتبر الحصول عن نص واحد بلغتين وهو الأول منذ زمن هيرمايون ** ، سببا يسمح بالانتصار السريع للباحثين .

غير أن الإله تحوت - أمير الرموز - لم يكن يرفرف على باريس وظلت فخاخة مدفونة فى رمال متحركة . أما فى جرونويل فكان ولد فى الحادية عشره يناير وسط الكتب التى تفرش غرفة صغيرة وضعه فيها أخوه الأكبر كما كانت تغطيتها مخطوطات وكراسات بلغات أجنبية تحتوى على علوم الشرق العتيق صاحب الاف السنين وفى جميع الأنحاء كانت كتيبة من الباحثين تتقدم لمحاولة الرد على أسئلة أبو الهول .

يتقدم الكتيبة بطلان : أولهما الحرفى الأصيل الرجل الذى ظل يجسد الدراسات اللغوية الشرقية طوال العشرين عاما الماضية والذى كان يعرف من اللغة العربية

* راجع فصل ٧

** الذى تمكن رويجا منذ البداية التعرف على أهمية .

(المكتوبة) والفارسية أكثر من أى فرد آخر فى أوروبا وهو سيلفاستر دوساسى .
والآخر هو المثل الأعلى للهاوى المثقف - بكل ما فى هذا الكلمة من معنى سامى -
النبيل السويدي ، الصديق المقرب من الملك جوستاف الرابع الذى ترك كل وظائفه
الرسمية ليقوم فى روما حتى يتفرغ لولعه المسيطر « للتعرف على جميع مكونات وجميع
عصور عالم البحر المتوسط . هو : جوهان دافين أوكريالد .

كان اسمه الحقيقى إسحق سيلفاستر وهو ابن موثق للعقود مقيم فى باريس يحمل
هذا الاسم ثم أطلق على نفسه اسم دوساسى قبل أن يحصل من نابوليون ، على الرغم
من أنه كان يبغضه وكان يناهضة ولكن بحرص - على لقب بارون ، وكان وهو فى
العاشرة من عمره يترجم ويكتب بسلاسة باللغتين اللاتينية واليونانية ثم تمكن تماماً من
اللغات العبرية والفارسية والعربية وعلى أغلب لغات الشرق . عمل فترة موظفاً فى دار
النقود ثم تخصص عندما أقترب من سن الثلاثين فى تاريخ العرب ثم فك شفرة
النصوص المحفورة فى سيبوليس التى رفعها نيبوهر .

عندما قامت الثورة الفرنسية كان ساسى وهو فى الثانية والثلاثين أحد أساطين
الاستشراق الأوروبى - ثم زادت شهرته بعد ما نشر كتابين عن النظام الدينى عند
الدروز وفى قواعد اللغة العربية ، وكان أحد مؤسسى المدرسه المختصة للغات
الشرقية عام ١٧٩٥ قبل أن يدخل الانستيتو والكولاج دوفرانس حيث تولى فيه
كرسى الدراسات الفارسية ، وتلمذ عليه جان - فرنسوا شامبوليون إعتباراً
من ١٨٠٧ .

لو أن أنه تم استفتاء العلماء عام ١٨٠٢ فيمن يختارونه لأداء دور أديب المكلف
بحل لغز رشيد لاجمع الكل على إختيار سيلفاستر دوساسى ! كان فى قمة صحته وهو
فى السادسة والأربعين ، ذائع السيط بفضل دراساته عن نصوص برسيبوليس وقد
تسلح بنظام خاص لامثيل له فى المقارنة بين النصوص المختلفة للغات يشغل باله
بالتواضع الزائد والثقة الزائدة بالنفس ولذلك فقد بدا كأنه هو أفضل المرشحين لتبديد
ظلام الأسرار الهيرغليفية .

فلنستمع إلى شامبوليون وهو فى آخر أيامه يفتتح سلسلة محاضراته فى الكولاج
دوفرانس حيث لحق بأستاذه المسن عندما كان فى الثلاثين من عمره :

« اعتباراً من ١٨٠٢ قام عالم ميجل بدين له بالكثيرون هنا فى فرنسا لما وصلت
إليه الآداب الشرقية من إزدهار وإنتشار فى باقى أوروبا بفضل إنتاجه المهم وهو

الاستاذ البارون سيلفاستر دوساسى - بعد أن حصل على صورة طبق الأصل من حجر رشيد - بدراسة النص الديموطيقى بالمقارنه بالنص اليونانى ونشر ملخصا لأبحاثه فى خطاب موجه لمسيو شابيتال وزير الداخلية فى ذلك الوقت . يتضمن هذا النص المكتوب الأسس الأولى لفك شفرة النص الأوسط * وذلك بأن حدد مجموعة حروف تمثل أسماء العلم : بطليموس ، أرسينويه - أسكندر ، أسكندرية ، المذكورة فى عدة أماكن من النص اليونانى (17) .

كانت العواصف التى هبت على علاقاتهما - والتى ستتعرض لها فيما بعد - قد هدأت بما يسمح له بأن يعبر عن عرفان مستحق بالجميل للعالم الذى شارك بأفضل ما يمكن - بعد جاك جوزيف وبأسلوب آخر بعد فورييه - فى تكوينه الفكرى وتشكيل أسلوب عمله وسمح له أيضا بتوضيح النجاح المحدد الذى بلغه صاحب « الرسالة الى مسيو شابيتال ».

إنه فى الحقيقة يجمال من دوره بأن أغفل ذكر الخطأ فى التوجيه الذى ارتكبه وتسبب فى فشله وهو اعتقاده بأن النص الديموطيقى هو نص ابجدى خالص وقد أدى به ذلك إلى أن يقوم بعمليات تقريبية أغلبها خاطيء بين هذا الإشارات والنص اليونانى . ولذلك فإن حديث شامبوليون فى هذا المجال عن دور الأسس الأولى لفك الشفرة « حتى لو أنسحب ذلك فقط على النص الأوسط يعتبر نوعاً من المديح الأكاديمى ينكر جميل بارتليمى وزوجا وآخرين إلا أن العالم العلمى يشبه البندول الذى يتأرجح باستمرار حسبما تفرضه الظروف - ظروف علاقات القوى والحفلات العامة .

ستتاح لنا الفرصة - كما اتاحت لنا من قبل - أن نذكر مراحل عديدة من المبارزة التى ألقى فيها المعلم (« الجيزويت » أو « الرايين » كما كتب عنه « صفيير » لآخيه جاك جوزيف) بكثير من السم وقليل من العسل بل أنه وصل به الحال إلى حثه المشهور له ** وهو مازال مراهقا فى جرونويل على الابتعاد عن البحث الهيروغلىفى .

لقد فضل جان فرانسوا قبل وفاته بعدة شهور أن ينتقى ويبرز ضمن كل ما أخذه عن استاذة دى ساسى الأفضال دون الصفعات .

جوهان دافيد أوكربلاد لم يحظ سوى بتقدير شامبوليون . قليل من رجال هذا العالم الذى يعج بالرموز كما تعج لوحة من لوحات أوتشيللو بالسهام والسيوف - عبروا نحو الآخرين (ومنهم شامبوليون) عن نزاهة متواصلة بهذه الدرجة ورشاقة سلوكية بهذا الصفاء . لقد أضفى الأمين عام السابق لأركان حرب ملك السويد على مجال

* الديموطيقى .

** راجع فصل ٥ ص 221

الدراسات المصرية وهو لازال فى المهد أسلوباً وسلوكيات لو أنها حافظت عليها لكانت هى الرابعة. بل لعل تناسى تلك السلوكيات بعد ١٨٢٢ قد إختصر حياه باحثنا صاحب الاكتشاف* .

فلنترك الكلمة من جديد للبروفيسور شامبوليون :

« سلك السيد أوكريلا المستشرق السويدي صاحب الثقافة الغزيرة التنوع والمعرفة المتعمقة جداً باللغة القطيية نفس الطريق الذى سلكه دوساسى بأن قارن بين النصين :

نشر** تحليلاً لأسماء العلم المذكورة فى النص المكتوب بالحروف الديموطيقية وأستخلص فى نفس الوقت من هذا التحليل أبجدية مصرية مختصره للديموطيقية أو الكتابة الشعبية . بدا هذا النجاح الأول كما لو أنه يؤكد الآمال التى تولدت عن حجر رشيد . لكن اذا كان أوكريلا محظوظاً فى تحليله لأسماء العلم اليونانية فهو لم يتوصل الى أى نتيجة عندما حاول أن يطبق مجموعة العلامات التى توصل الي مدلولها فى النص المكتوب لهذه الاسماء اليونانية على بقية أجزاء النص الديموطيقى».

وجد شامبوليون - حسبما قال فى محاضرة عام ١٨٣١ - سببين وراء إخفاق السويدي : الأول عندما لم يقدر أن المصريين القدماء كانوا يسقطون عدداً كبيراً من الحروف المتحركة كما يفعل العرب والعبريون ؛ والآخر أنه لم يتخيل أن الكثير من العلاقات المستخدمة فى هذا النص كانت « من مجموعة العلاقات ذات القيمة الرمزية » غير أن كاشف أسرار الهيروغليفية لا يتوقف عند هذه السلبيات وانما يتخطاها بأن يخلص إلى أنه بفضل أعمال أوكبرلا بعد مجهودات دوساسى ثبت أن « الكتابة الشعبية للمصريين القدماء عبرت عن أسماء العلم الأجنبية بواسطة علامات ذات قيمة أبجدية بالمعنى الحقيقى » . فكرة « أساسية » ، هذا ما يؤكد هنرى سوتاس فى المقدمة التى كتبها للطبعة الجديدة « للخطاب إلى مسيوداسيه » .

« الأبجدية المختصرة » الديموطيقية التى وضعها جوهان دافيد أوكريلا كانت تضم ستة عشر حرفاً استخرجهم من الأسماء الأول للملوك المذكورين وهم اسكندر وبطليموس*** وبيرينيس ثم تعرف العلامة السويدي على أسماء أخرى منها كليوباترا وديوجين وانطياكوس وأنتيجونا وذلك على برديات مختلفة . وفى يناير ١٨١٥ أعلن أنه

* وهو ما أشار إليه عالم المصريات الأنجليزى الكبير ويلكسون عام ١٨٢٢ .

** فى خطاب وجهه أيضاً لسيلفاستر دوساسى .

*** كشف أوكريلا أنه امكن من التعرف فى البداية على بطليموس . أما دوساسى فقد بدا باسكندر .

قام بترجمة السطور الخمسة الأولى الى اللغة القبطية حيث تعرف على الكلمات : شهر ، صغير ، رجل ، سنة ، انتصار ، شمس ، بل وايضا صوت (18) .

هل كانت الطريقة تعتمد على التخمين واكتشاف الترديدات أكثر من الإعتماد على الدراسة المنظمة حسب خطة موضوعة ؟ بكل تأكيد ! غير أن ذلك يعتبر فى النهاية إحدى الوسائل التجريبية فى البحث عن الحل . والواقع أن أوكريلاد لم يتخطى قط (إذا أمكن القول) حل شفرة الأسماء اليونانية الأصل . وبناء على ذلك فقد أيقن بعد خمسة عشر عاما من العمل أنه لن يتمكن من احراز أى تقدم واستسلم تاركاً الى زميله توماس يانج أفضل اكتشافاته التالية لعام ١٨٠٢ فقد كان يراه أقدر منه على الوصول بالأمور الى غايتها قبل أن ينسحب من السباق (ويموت وهو فى الخامسة والخمسين) . عبر النبيل السويدي للشباب جان فرنسوا شامبوليون عن تقديره وتضامنه الأخوي . ويمكن الرجوع فى ذلك الى المراسلات المتبادلة * بين الأستاذ الجرونويلوازي الشاب وأشهر منافس (فى ذلك الوقت) لسيلفاستر دوساسى . وهى تتضمن خمس رسائل فقط اثنتان من أوكريلاد وثلاثه من شامبوليون . اللهجة فيها تتسم بالقوة والسرعة والأدب . وهى خالية من أدبيات الصالونات وتركز على تبادل المعلومات والجدل حول نقاط علمية . علاقة رجال أحرار يحترمون أنفسهم .

فى ٢٦ فبراير ١٨١٢ كتب دافيدا أوكريلاد من روما الى جان فرنسوا ليشكره على إهدائه كتاب « مقدمة لمصر إبان حكم الفراعنة » ** وهو يعبر عن « تأثيره لهذه اللغة الكريمة » و « اعتزازه بأن يتمكن من تبادل المراسلات الأدبية بينهما » علماً بأنه لايهتم منذ فترة طويلة « الا قليلا بالأدب القبطى » .

فيما يخص « المقدمة » فهو يرى « أنها مليئة بالملاحظات الممتازة » وتجعل المرء « يطوق إلى مطالعة الكتاب الذى تقدم له » هل توجد شبهة تهكم فى السؤال الذى يطرحه عن « الاسهامات (التى يمكن أن تقدمها) الكتب القبطية لصاحب المقدمة ؟ يلى ذلك اعتراضات حادة خاصة بالعلاقة التى يقيمها شامبوليون بين منطقة الفيوم واللهجة « الباشمورية » ومع ذلك يؤكد أوكريلاد أنه ليس « متعنتا » بل مستعد لان يقنعه زميله الشاب بغير ذلك . أما بالنسبة للأبجدية المصرية فعالم اللغويات السويدي يقول عنها بأسلوب يجمع بين إثارة الأفكار والتواضع المؤثر : « ... يبدو لى أنكم ستتفقون معى حول مدلولات الحروف الساكنة لأن الحروف المتحركة يمكن أن نصنع بها كل ما زيد *** وبالمناسبة فان خطابى إلى مسيو دوساسى يتضمن أخطاء عديدة

* جمعها وتفضل باطلاعنا عليها السيد جـ كيتيل وقد ذكر اسمه مرات عديدة هنا .

** راجع فصل ٥

*** كأن نسقطها على سبيل المثال .

لأنى حررتها فى عجالة حتى قبل أن تصلنى نسخة صحيحة من النص . لقد تمكنت منذ ذلك الحين من تحديد دلائل عدد كبير من الكلمات ولما لم أتمكن من فهم عدد كبير من مجاميع الحروف فانى غير متعجل من نشر تحليلى لهذا الأثر - وهو على العموم لا يثير إهتمام سوى عدد قليل جدا من الأشخاص ...» .

النهاية هنا تثير الإعجاب وتجعل المرء يأسف لأن جوهان دافيد أوكريلا لم يراع توقعات الأجيال التالية ولاحتى هذا « العدد القليل جداً من الأشخاص » بما فيهم مراسله ... وكان هذا الأخير حساساً للغاية ولم يظهر فى رده أى نهم سوقى للمعرفة ولكن كان جان فرنسوا سعيداً بأن يرى شخصية على هذا القدر من الشهرة متقدمة فى إبحاثها وهو عالم اللغويات الذى يصادق زويجا ويتخاطب على قدم المساواة مع دوساسى والذى يعيش فى روما بعد أن زار الشرق - تخاطبه بهذه اللهجة التى تنم عن التقدير والاحترام . من المؤكد أن ذلك أثار فيه الكثير من الاعتزاز بذاته .

غير أن رده الذى جاء بعد إنتظار ثلاثة شهور لم يكن على المستوى المنتظر فهو يتناول فيه خلافه مع كاتورمار * مؤكداً أن «من مبادئة أن يتفادى الصراعات الأدبية» وهو ما يؤكد جانباً فى شخصيته يبعد كثيراً المبادئ عن السلوك .

فى ٢٠ يناير ١٨١٥ ** يرسل الأستاذ الجرونوبلوانى الشاب جزئى كتابه « مصر فى عهد الفراعنة » ويرفق بهما خطاباً يتناول فيه مرة أخرى و « بتعنت » (وهى الكلمة التى استخدمها فى خطاب) مسائل أسماء المدن المصرية القديمة . نهاية الخطاب مفقودة وكذلك للأسف رد جوهان دافيد أوكريلا . هل تضايق السويدي من إصرار مراسله الشاب على الدفاع عن أراءه ؟

إن ما ينم عنه هذا التبادل فى نهاية الأمر هو الإحترام الذى أبداه جان - فرانسوا نحو الرجل الذى توصل بالتخمين على أسم بطليموس على حجر رشيد . كذلك الإهتمام الذى أبداه أوكريلا تجاه أعمال هذا الريفى المجهول ذى العشرين عاماً . هل يعتبر هذا تمريراً للشعلة من يد للأخرى ؟ كلا . لأن النبيل السويدي الذى توفى عام ١٨١٩ كان يعتبر أن الدكتور توماس يانج هو الأقدر على حل اللغز *** .

لم تكن المعركة قد أنتهت لعدم وجود متعارفين . فانسحاب سيلفاستر دوساسى من الساحة بعد نشر « رسالة الى مسيو شابيتال » وإنسحاب أوكريلا نحو ١٨١٥ لم يفت من عضد الجميع ، بل على العكس

* راجع فصل ٥

** هذا التاريخ يقترحه مسيو كييال وهو ماتؤيده جميع الشواهد .

*** انظر الفصل التالى .

فى الوقت الذى تحرر فيه جان فرنسوا شامبوليون من العواصف السياسية التى دامت من ١٨١٥ حتى ١٨١٨ ومن آثار « نفيه » إلى فيجاك والتهديدات التى نجمت عن مغامرة « استيلائه على الباستيل » عام ١٨٢١ . ذهب ليقيم فى باريس ليقف فى مواجهة أبى الهول - فى ذلك الوقت كان هناك ما يقرب من عشرة من الباحثين من مختلف التخصصات يلح على أفكارهم لغز الهيروغليفية .

فى عام ١٨٠٤ نشر باحث مجهول دراسة فى : تحليل للنص الهيروغليفى لحجر رشيد ولم يعبه سوى شئ واحد : فهو يقدم ترجمة لأربعة عشر سطرا من النص المقدس (أى ما يربو على ثلث الفصل الأصى) بواسطة الأربعة وخمسين سطرا للنص اليونانى المبتور ربه ... « إن هذا العمل لا يمكنه أن يصمد أمام أبسط امتحان له » هذا ما أكدته شامبوليون عام ١٨٢١ .

نشر الكونت بيلس ح . بالين عام ١٨١٢ « فى دراسة الهيروغليفيات » يحاول فيه تجميع لغة رمزية مبنية على تاريخ الأديان . وهو يقول « إن الحدث الهيروغليفى يعبر عن نظام الأشياء » وليس له أى دلالة صوتية . وبذلك نكون قد عدنا فجأة إلى كليمان السكندرى وهو رابولون وكيرشار ... من وجهة النظر اللغوية كانت هذه المحاولة ضعيفة فى استدلالها لى تؤخذ بعين الاعتبار : ولم يفت جان - فرنسوا أن يسخر من غريمه وهو يراسل أخاه .

هل يستوجب البحث أن نذكر أعمال الأب جوهان سيفران حتى لانكون قد أهملنا أى عنصر من عناصر السلسلة : قدم فى ١٨١٢ ما أسماه « فرضية » أكثر من كونها حلاً ترجمة لثلاثين علامة من المخطوط الهيراطيقى ؟ أقل ما يمكن أن يقال عن هذه المشاركة هى أنها لا تلفت قط نظر مؤرخى البحث العظيم . ولكننا سنراها تثير اهتمام توماس يانج .

اسم يتروى مراراً هو اسم الأخوين هومبولدت : الكساندر وفيلهالم ، على الرغم من أن هذين العالمين لم يشاركا مباشرة وبصفة شخصية فى المسألة المصرية . أول الشقيقين قارن فى كتابه « مناظر من سلسلة الكوريليارا » وهو يتكلم فيه عن « معابد السكان الأصليين فى أمريكا » بين « اللوحات » التى رسمها الفنانون المكسيكيون وهيروغليفيات وادى النيل وهو بذلك شارك بالمقابلة فى إضعاف نظرية الأفكار المكتوبة . أما الأخير فقد وضع سلطته العلمية الكبيرة كعالم لغويات فى خدمة أفكار شامبوليون وقد شارك بعد عام ١٨٢٢ فى أن يحصل على حقه العادل والمستحق . ومن هنا تأتى الصداقة التى جمعت بين الرجال الثلاثة .

لم يبتعد عن الساحة جميع المستشرقين الفرنسيين الذين درسوا في حينه في المدرسة الخاصة وفي الكولاج دو فرانس على يد ساسي ولانجلاس وأودران * بل شاركوا جميعا بطريقة أو أخرى في المشروع الكبير : كاترومار ، سان مارتان ، لوترون وريموزا .

كما ظل القدماء مثل الكسندر لونوار على إصراره لا يستسلم ثلاثون عاما بعد محاولاته الأولى ** محاولين إلقاء الضوء الكاشف على اللغز ... ومثل علماء اللغويات الكبار مثل فولني والهواة الجسورين مثل ربيو الذي إدعى في ١٨١٦ أنه اكتشف الحقيقة - وجومار الذي اعتقد أنه على الرغم من كونه عالم جغرافيا فإن ماضيه كمساح لوادي النيل إلى جوار الجنرال بوناپرت وسلطته التي اكتسبها بصفته المسئول عن « وصف مصر » يعطيانه حقاً مشروعاً غير منقوص في الكشف عن كل ما يتعلق بمصر . ثم ماذا نقول عن فورييه ؟ لكن هل من المعقول أن نكون كتبنا المقدمة التاريخية للوصف دون أن نشعر بحقنا في أن نلقى الضوء على المناطق المظلمة ... ؟

سبق أن أشرنا إلى الانتقادات التي وجهها جان - فرنسوا شامبوليون لوصف مصر وأنه ذهب إلى حد وصفها بأنها « ماء مغلى » فقد وجد على وجه الخصوص أن ما نقل من العلامات الهيروغليفية كان يتسم بتقريبية مشينة : إن بعض إنتقاداته كانت من العنف لدرجة تكاد تقترب من الظلم إذا تذكرنا في الظروف المادية وأولها المناوشات العسكرية التي عمل في كنفها لانركيه وجولدا وفيلار وبوتارتر وروبوته ومارسال ...

في محاضراته الأولى في الكولاج دو فرانس وهو في شتاء عمره سيعبر كاشف اللغز عن عدل أكبر إذ حيا الموهبة الفزة التي تمتع بها منافسوه . كما حيا ماقاله عنه هؤلاء المنافسون الذين قاموا برفع النقوش في صيف ١٨٠٠ بين دفعتين من إطلاق النار تحت حماية نوسيه اوبليار وهم في رداءهم العسكري في درجة حرارة خمسين مئوية في الظل الذي تتردد الآثار في إلقائه عليهم ودون أن تكون في حوزتهم الأدوات الدقيقة العلمية المطلوبة .

ويؤكد شامبوليون في ١٨٣١ - بعد أن ذكر الظروف التي أحاطت بفورييه ورفاقه وهم يقومون بأبحاثهم : « إن هذا العمل العظيم يؤكد - لدى دراسته في إطار الإهتمام

* راجع فصل ٢

** راجع المقدمة .

الحق بتقدم المعارف التاريخية - على أن أكثر المعلومات قيمة كانت تختبئ داخل هذه المخطوطات الهيروغليفية التي تزينت بها دون استثناء جميع الآثار المصرية ... »

ثم تحدث جان - فرنسوا شامبوليون وهو لا يزال يقطر دماً من بعض الجروح عن « الرحالة الانجليز ولعلمهم كانوا في حماسهم الزائد مدفوعين بروح من المنافسة الوطنية أكثر من اهتمامهم المفروض بالعلم » حاولوا أن يقللوا من قيمة العمل العظيم . ثم أضاف ليبدو أفضل من منتقديه موضحاً أن « الأبحاث المفيدة التي قام بها الدكتور يانج ستضمن لانجلترا مشاركة نبيلة في تقدم الدراسات المصرية ... »

وهو يكون بذلك قد عاد إلى لب الموضوع .

١٠ - الرائد ذو الورد

كتلة من البازالت فى المتحف البريطانى - توماس يانج « الظاهرة » - كما لو كنا نتلاعب ... - ترجمة « فرضية » - وانجتون عالم اللغويات - هدوء شامبوليون - مقال فى الانسيكلوبيديا بريتانىكا - بطليموس ! - مباراة فرنسا - انجلترا ؟ - « ... إنه إذن من الرواد » - الحدس والأسلوب .

يستحيل أن تدخل المتحف البريطانى دون أن يشدك على الفور هذا المغناطيس المسمى حجر رشيد. منذ أن تدلف من بوابة الصالة الفسيحة للغاية التى خصصها مسئولو المتاحف الإنجليز للآثار المصرية تستقبلك كتلة البازالت * الأسود - ١ متر و ٢٠ سم فى ٩٠ سم و ٣٢ سم سمك تقريبا - وهى مائلة قليلاً داخل حزام حديدى وتحاصره باستمرار أفواج تبدو كما لو أنها قدمت بذات الحمى التى استولت على الملازم بوشار ومعاونيه عندما استخرجوا هذه التحفة من أساسات قلعة رشيد القديمة فى إحدى ليالى يوليو ١٧٩٩ . مكان للذكرى ، حجر فلسفى منضدة الساحر .

فى بياض فى نضاعة الطباشير تبرز النصوص الثلاثة كالمعجزة وسط الكتلة السوداء . تبدو كما لو أنها صنعت بالأمس فقط .

الذى لا يشاهد كثيرا هو النص الصغير الأكثر حداثة المنقوش فى خلفية القاعدة : « تم الاستيلاء عليه فى مصر بواسطة الجيش البريطانى ، ١٨٠١ . Captured in Egypt by The British Army, / 18 01 . فهو بالفعل غنيمة حرب استولى عليها الفريق تورنر الذى نفذ تعليمات وليام هاميلتون وصايرها من فوق سفينة فرنسية ونقلها عام ١٨٠٢ من الاسكندرية إلى يوسموث قبل أن توضع فى المتحف المشهور . وكتب فى تقريره : « غنيمة مجيدة للسلاح البريطانى [...] لم تنتزع من أيدي شعب أعزل ** ولكن أخذت بشرف وطبقا لقوانين الحرب . »

* بعض علماء المصريات تساطوا مؤخرا عن طبيعة هذا الحجر .. إلا أننا سنتمسك بالتسمية الكلاسيكية ونعتبرها مؤكدة .

** ضمنا : كما فعل الفرنسيون .

قوانين الحرب ؟ قد نرجع إلى تلك المقولة أحياناً خلال سردنا لوقائع هذه « المباراة بين فرنسا وإنجلترا » التي ستشهد مواجهة لاهوادة فيها بين الوردية * والديك ** متتاسين أن فى القرن السابق لم يتردد واريورثون (الإنجليزى) ومالبان (الفرنسى) فى خلط معرفتهما ووحدا قلميها فى بحثيها عن كأس المجد فى وادى النيل .

لنختلط إذن بجموع زوار « البريتيش ميوزيوم » . هل نندهش أم نتضايق لدى سماعنا لكلام المرشد السياحى وهو بدلاً من أن يشير إلى أعمال الباحثين الأوائل لمعهد مصر [انستيتودى كار] يبرز أمجاد نلسون التى لولاها [والحمد لله ! : Thanks god] لما أمكن نقل الحجر من المركب الفرنسى إلى سفن صاحب الجلالة ؟ نندهش ؟ لا !! نبتسم ؟ نعم !

إلا أن الألواح والصور التى تزين الحوائط المحيطة - الأرقام والشروح والتعليقات التاريخية والصور الشخصية - تستحق منا اهتماماً أكبر ؛ إذ يتضح منها أنه إذا كان شعب لندن الطيب - لندن وغيرها أيضاً - لم يعد يجهل شيئاً من معانى النصوص المشهورة فإن ذلك يرجع إلى عبقرية عالم بريطانى اسمه توماس يانج استكملتها الجهود التى تستحق التقدير - وإن كانت ظلت خاطئة لفترة طويلة - والتى قام بها جامعى فرنسى مجد اسمه شامبوليون .

تزين الحائط المجاور صورتان لوجهين : إلى اليسار . فى مكان بارز . صورة الدكتور يانج كلها جلال ومعرضة بعظمة أكبر بفضل إخراج لورانس لها . ؟ ثم إلى اليمين - بشكل فرعى وبريشة ليون كوانيه المسطحة لكل شىء صورة جان - فرنسوا شامبوليون الذى يبدو فى حزن تعبيرات وجهه كما لو كان موصوماً بالعلاقة المشينة التى تميز سارق أعمال غيره . علماً بأن كل من كان خارج دائرة المتحف البريطانى يعلم أنه هو الأب الشرعى لاكتشاف سر الهيروغليفية .

ولكى تكون الأمور أكثر وضوحاً فإن مكتبة المتحف تباع للزوار كتباً أنيقاً عنوانه حجر رشيد The Roseta Stone تزينه صورة توماس يانج المذكورة على صفحة كاملة ونفس صورة شامبوليون منشورة بتحرج على نصف صفحة . يصف الكتيب

* رمز لإنجلترا (المترجم) .

** رمز لفرنسا (المترجم) .

اكتشافات العالم البريطاني التي استغلها أستاذ جرونويل بدأب بأسلوب يصعب معه فهم لماذا وكيف توج هذا الأخير بلقب مؤسس علم المصريات فى نهاية الكتيب . إلا إذا كان مدلول كلمة « مؤسس » هنا هو العامل الفنى الذى يحفر الأرض بالمجراف تحت إشراف المهندس العبقرى .

ولكن إذا عدت إلى باريس وليطمئن قلبك فتحت قاموس لاروس الصغير Le Petit Larousse Illustré ستجد ما يلى تحت اسم يانج ، توماس : « عالم فيزياء إنجليزى . اكتشف التداخلات المضئية » ولا شئ غير ذلك . يكفى أن تعبر المانش ليكون يانج هناك هو المكتشف الحقيقى لأسرار الهيروغليفية - هو هنا « عالم فيزياء إنجليزى » .

سنرى كيف أن العلم البريطانى المعاصر سيتفادى مثل هذه المعارك وأن كتاب Who's Who in Egyptology لوران داوسون وإيريك أبهيل⁽¹⁾ - ضمن آخرين يكتب عن يانج أن اكتشافاته « لا يمكن مقارنتها باكتشافات شامبوليون » الذى يتم تقديمه بكل وضوح على أنه أبو علم المصريات .

ليس مؤكداً أن مدرسة المصريات الفرنسية - فيما عدا استثناء واحد - هو سوناس فى « مقدمة ١٨٢٢ لخطاب إلى مسيو داسييه » - تحيى بنفس الدرجة من العدل توماس يانج الرائد . ولذلك فسنعمل قدر جهدنا على ألا نغفل أياً من الأضواء التى سلطها هذا العبقرى على اللغز المصرى . فهو يعتبر « كيرشار » حقيقى للعصر الحديث الذى كان بالنسبة لعلم الضوء ما كان جوزيف فورييه بالنسبة للحرارة .

ولد توماس يانج فى يونيو ١٧٧٣ فى ميلفرتون ، سومرست من عائلة من الكويكرز تعلم القراءة وهو فى الثانية من العمر . ولما بلغ السابعة تعلم اللاتينية واليونانية والرياضيات . وما أن وصل إلى الثانية عشرة إلا وكان يتكلم العبرية والفارسية وبرع فى استخدام معدات البصرات . وفى الرابعة عشرة كان قد تمكن من اللغات العربية والفرنسية والإيطالية والاسبانية وثلاث السيريانية والكالدية .

وليظن المرء أنه يسمع صدى لتاريخ حياة جان - فرنسوا شامبوليون مع فارق واحد هو أن شاب مقاطعة سومرست كان أكثر إنفتاحاً على العلوم الوضعية أكثر من شاب مقاطعة كارسى ...

قاداته دراساته الطبية وهو فى العشرين من عمره إلى مستشفى سينت بارتولوميو فى لندن حيث بدأ ظهوره ببرز فى تمكنه من مادة الاوفتالمولوجى (الرمد) - حتى أنه إلقى فى تلك الفترة المتقدمة محاضرة جديدة أمام الجمعية الملكية Royal Society عن خصائص العدسة البلورية . ثم واصل دراساته وأبحاثه فى إندنبره وابتعد عن أخلاقيات وأسلوب حياة الكويكرز وأثبت أنه رجل مجتمع مثالى ويعزف على آلة الفلوت ويؤدى الأدوار الترفيهية فى المجتمع - حتى أن بعضهم يقول أنه أصبح راقصاً محنكا على الحبال ... وبذلك يكون الأول من نوعه فى مجموعتنا الغربية من حلالى شفرة الهيروغليفية !

وها هو يصل إلى جوتنجن حيث مسه شيطان علم اللغويات ؛ إذ اكتشف أعمال الأب جوهان سيفران * الذى كان يعكف على دراسة الكتابة الهيروغليفية مدعياً أنه اكتشف أبجدية تضم ٣٠ علامة ، ورد عليه توماس يانج مؤكداً فى نقاش عام أن تلبية متطلبات الصوت والتعبير الإنسانى تقتضى وجود ما لا يقل عن ٤٧ حرفاً .

ثم نجده مرة أخرى بعد وقت قصير فى كيمبريدج حيث كناه أساتذته وزملائه « بالظاهرة » . وهناك تعرف على وليم جيل (الذى سيؤدى دوراً فى الصراع الايجيبتولوجى الكبير فى العشرينات من القرن إلى جوار شامبوليون) وبدأ السلسلة الطويلة والعظيمة من تجاربه على الضوء . وسرعان ما أصبح سكرتير الجمعية الملكية للعلوم ثم عضواً فى كلية الأطباء البشريين الشهيرة College of Physicians ممارساً فى الوقت ذاته مهنة الطب والأبحاث عن العلاقة بين الصوت والضوء . مهتماً بإدخال الغاز إلى لندن وتقنيات بناء السفن ومديراً لمجلة Nautical Almanac المناخ البحرى ومستشاراً للأدميرالية البريطانية فى المجال الفلكى ...

عندما توقف عن ممارسة الطب فى عام ١٨١٤ كان ذلك لكى يعمل فى مجال ... التأمينات ! الشركة التى طالبت تعاونه معها كانت تبحث عن حاسب جيد لكى تفتتح خط نشاط جديد لها . وهو ما يجعلنا نعتقد أن هذا الرجل المتعدد المواهب اختار هذا الطريق لكى يتمكن من الاستمرار فى تحويل أبحاثه عن آليات عمل العين وبناء القرنية والتكيف والاستجماتيزم مما جعله مؤسس علم الفيزيولوجيا البصرية .

دون أن يهمل دراساته الخاصة بالعين والضوء والألوان ، وفى نفس تلك الفترة اندفع مشاركاً فى المغامرة المصرية الكبرى . إذ بدأ كل شىء بالنسبة له فى أحد أيام

* راجع الفصل السابق من 363 .

شهر يونيو عام ١٨١٤ عندما أحضر له أحد أصدقائه سير راوز بروتون الذى كان يعرف اهتمامه باللغات القديمة بردية ديموطيقية ليشغل بها أوقات فراغه التى يقضيها فى الريف . اليس فى ذلك مادة لترفيه هذا العقل الشامل الذى يثير كل شىء فضوله ؟

الشك لا يدخل قط قلب الدكتور يانج وحيث يفشل عالم لغويات كبير مثل ساسى أو علماء اللغة القبطية المشهورون مثل أوكربلاد أو كترومار .. ينطلق هو . وهاهو يقبل على فك ألغاز ليس بردية بروتون فحسب وإنما أيضا النص الأوسط لحجر رشيد .. وهو لا يسميه « ديموطيق » ولكن « أنكوربالي » .

وهو عندما يدخل المغامرة - بفكرة أن يلهو فقط كما يقول - كانت شهرته كعالم معروف ومحترم مؤكدة - وكان ثريا بالقدر الذى يسمح له بالتوقف عن ممارسة الطب . وله أصدقاء عديدون وعلاقات فى لندن وعبر أوروبا . ثم إن حجر رشيد فى متناول يده إذ كان يكفيه أن يدفع باب المتحف البريطانى للوصول إليه . وسرعان ما يتصل بالرجل الذى قيل له عنه أنه يفوقه فى اللغة القبطية أكثر من أى فرد آخر فى العالم ألا وهو أوكربلاد والذى قيل عنه أيضا أنه يئس وابتعد عن المشروع العظيم .

وعلى الفور يضع العالم السويدى تحت تصرف القادم الجديد جميع الاكتشافات التى توصل إليها وعلى وجه الخصوص أبجديته الديموطيقية المشهورة المشتملة على ستة عشر حرفا والتى كانت تعتبر فى زمانها قمة الاكتشافات فى مجال علم المصريات . لم يمض وقت طويل قبل أن يكتشف أن منظومة أوكربلاد غير فاعلة البتة . غير أن ما قدمه له أوكربلاد * فى بداياته جعله يتساوى خلال بضعة شهور مع أكثر الباحثين علماً .

دخول توماس يانج الحلبة كان كاسحاً : ففى خلال ثلاثة شهور تمكن من اللحاق بجميع من سبقوه بل وتخطيهم أيضا . ففى الثالث من أكتوبر عام ١٨١٤ أرسل إلى سيلفاستر نوساسى وبعد ذلك بقليل إلى مجلة أركيولوجيا Archeologia « ترجمة تقريبية للنص الدنكوربالي ** » (الديموطيقى) توصل إليها بفضل منظومة عبقرية للتقريب والتبويب السطرى والمقارنات المادية للعلامات المختلفة ، بل تجرأ أيضا وأخذ يطبق نفس المنظومة على النص الهيروغلىفى - حتى أنه أعلن عن قرب حل لغز النص الهيروغلىفى « الذى مازال سليماً » .

* سينفى دائماً أى أهمية له .

** أعيد نشره فى العام التالى بالتوقيع السرى الغريب أ ب ج د فى مجلة Museum Criticum التى تصدر فى كيمبريدج .

كيف تمكن هذا الطبيب العبقري - ولكن دون أى تأهيل فى اللغويات - علما بأنه يتكلم عشرة لغات شرقية قديمة ولكنه غير ضليع فى اللغة القبطية التى تعتبر طريق الدخول الأساسى إلى فك الشفرة - كيف أمكنه أن يحقق التقدم بهذه السرعة فى ساحة يجوبها كم ضخم من المتخصصين أفضل منه تسليحا لخوض تلك المغامرة على ما يبدو ؟ لنقرأ هذه الملاحظات التى أفضى بها عالم اللغويات النمساوى دوبلهوفار : « لم يكن فى مقدوره إلا أن يقارن مقارنة مادية بحثة بين النصوص ... إن ما قاده فى استنباطه هو حدسه الحسابى . إلى أن حصل بفضل مقارناته وتكيفاته الرياضية على نتائج مثيرة فعلا للدهشة إذا أخذنا فى الاعتبار عدم كفاية الوسائل المستخدمة . »

بالطبع لم تكن ترجمته بعد وباعترافه هو سوى « إفتراضية » * إلا أن تمكنه من التعرف السليم على بعض المجموعات منذ أن كتب رسالته إلى ساسى ومقاله فى الأركيولوجيا أى بعد ثلاثة وأربعة أشهر فقط لشيء مذهل . وهو ما يؤكد عليه هنرى سوتاس : « منذ نوفمبر ١٨١٤ توصل يانج بقفزة واحدة إلى النقطة التى لن يتخطاها أبدا . » (2)

هل سهل ما توصل إليه كل من ساسى وعلى الأخص أوكربلاد من التعرف على بعض الكلمات من عمليات التبديل والتوفيق التى سمحت ليانج من القيام بهذه القفزة الضخمة إلى الأمام ؟ لن يعترف العالم الانجليزى بذلك أبداً ولا بالقدر القليل . وهو يقول فى التعليق الذى قدم به « لرسالته إلى ساسى » فى أكتوبر ١٨١٤ موضحاً : « أعتقد أنه بامكانى أن أعتبر ترجمتى مستقلة تماماً عن الأبحاث الذكية لأركربلاد » وعندما يكتب السويدي فى إحدى رسائله : « إذا صدق مسيو دوساسى القول فإنكم استخدمتم أبجديتى بكاملها تقريبا وكذلك قراءتى ... » فيرد توماس يانج على الفور : « لا يمكننى أن أدعكم تقولون أن استخدامى لمعظم قرائتكم المتضمنة فى خطابكم الأول يرجع إلى موافقتى على ما توصلتم إليه من نتائج ، ولكنها ترجع إلى أبحاث مستقلة قمت أنا بها . الواقع هو أن الثلاثة أسماء التى يسهل جدا التعرف عليها اكتشفها مسيو دوساسى أما الستة عشرة والثمانى عشرة كلمة الأخرى المذكورة فى خطابكم كانت أيضا الأكثر وضوحا للعين : ومن الطبيعى أنها اتضحت أمامى كما أنها اتضحت أمامكم حتى لو لم أسمع قط عن خطابكم . »

* اعتراف مرحلى فقط كما سترى ...

ولكن إذا كان حدس الطبيب الانجليزي أفضل من روحه الرياضية - حسبما يقول سوتاس - فإنه من الظلم البين أن نفعل ما فعله سيربيتر لوياج - لونوف * ونصف محاولات التهديد الأولى ليانج بأنها « غير جديرة بالاهتمام Worthlessness حتى لو أن هذه المحاولات لم تتحول إلى هدف داخل الشباك ...

كيف يمكننا تلخيص هذه المجموعة الأولى من النتائج ؟ في ثلاثة أو أربع نقاط . أولاها تتعلق ببداية القراءة ... فبفضل تخريج ذكي جدا لبعض السطور في النصين المصريين تمكن الطبيب الانجليزي من التعرف علي بعض المجاميع . النقطة الثانية تتعلق بالمدلول الصوتي المحتمل للحروف الهيروغليفية : وهو ما يضع تحته طبيب الضوء الأسطر بذكاء (حتى لو أنه تراجع عن ذلك بعد أربعة أعوام) النقطة الثالثة تتعلق بتنقيح ما سبق أن تصوره العديد من الباحثين ** وهو أن الكتابة المرسلة (الديوطيقية) هي من مشتقات الهيروغليفية . أما « الاكتشاف » الرابع الذي قام به في خريف ١٨١٤ حسبما يقول الباحث نفسه - وهو أن « البيضويات » أو « الخراطيش » تشير إلى أسماء الآلهة والملوك . فقد سبق ورأينا كيف أن بارتيليمي وجيني وزويجا قد وضعوا أسس هذا المبدأ ولكن دون أن يستخلصوا النتائج المترتبة على ذلك مثلما فعل توماس يانج ببراعته الفكرية وخصوبته العقلية .

تأثر سيلفاستر دوساسي بالبحث الذي وصله من لندن للدرجة التي جعلت منه منذ ذلك الحين المدافع عن الباحث الانجليزي وأن يعتبره لمدة سبع أو ثماني سنوات المكتشف الأكثر احتمالا للغز ، مفضلاً إياه على طلبته القداماء في مدرسة اللغات الشرقية ومنهم شامبوليون . هل كان رد فعله الأول رد فعل عالم ؟ إن عالم اللغويات بداخله كان يدفعه إلى اعتبار يانج هاويا خطيرا . ولكن هذه الشخصية المرموقة في التجمع العلمي رأى في سكرتير الجمعية الملكية في لندن زميلاً مساوياً له في القدر .

ثم يجب ألا يغيب عنا أن ساسي كان شخصية تحركها معتقدات سياسية قوية . وفي الجدل الكبير المشتعل في ذلك الوقت بين « الغول » و « زهرة الزنبق » كان يعتبر الانجليز بطبيعة الحال أفضل حماة لآل بوريون ... وأستاذ جرونويل الصغير من زبانية بونابارت .

سيواصل توماس يانج أبحاثه في اللغويات لمدة ثلاثة سنوات متصلة بين كتابة

* انظر فيما بعد في ذات الفصل .

** منهم شامبوليون .

مقال عن عصب العين وإلقاء محاضرة عن التداخلات المضيقية ومشاركة في نقاش عن الملاحه كما واصل تبادل الرسائل مع ساسى وأوكريلا والشقيين هومبولدت ومواطنيه نيبى جال ويانكس : إنه يتحسس طريقه هو أيضا كعالم حق ويصحح أخطاؤه ثم يعود من جديد وهكذا .. أعلن فى خطاب لساسى مؤرخ فى ٣ أغسطس ١٨١٥ أن الحروف الديموطيقية ليست كلها حروفا أبجدية إذ أن بعضا منها لها مدلول رمزى ... وهو إذا كان يتحسس طريقه فإن ذلك كان فى منطقة قريبة من النور .

كانت تلك هى المرحلة التى يرجع إليها كما رأينا من قبل أولى تبادل الرسائل بينه وبين جان - فرنسوا شامبوليون * بمناسبة إهداء شامبوليون كتابه **مصر فى عهد الفراعنة للجمعية الملكية** (سكرتيرها فى ذلك الوقت كان توماس يانج) . وكان هذا التبادل معبرا جداً ، إذ أن الانجليزى كان يتكلم من عليائه كرجل واثق من عمله ونتائجه القريبة ويريد أن يعترف الآخرين بنجاحاته وتفوقه .

كتب توماس يانج لمنافسه الفرنسى يقول له أنه أرسل لساسى منذ ستة شهور « ترجمة ظرفية مع شرح للأسطر الأخيرة المكتوبة بالهيروغليفية » . وهو لم يكن يشك فى أن المعلم الفرنسى الكبير قد أحاط تلميذه علماً بكشف له هذا القدر من الأهمية .. ثم فى جملة تالية يسحب كلمة « ظرفية » : ويقول ببساطة « ترجمة الكتابة المصرية لحجر رشيد » ثم يضيف الدكتور يانج مزايداً : « بعد التعرف على معانى العديد من الحروف الهيروغليفية . وجدت بعضها واضحة جداً فى نصنا ** المصرى : فهى بالتالى ليست سوى حروف أبجدية ... » لا يمكن إذن أن نؤكد بأكثر من ذلك الجلال المتعالى على الأسبقية والتفوق . إذ لا يصح أن نقول لهذا الشاب الذى يؤكد أن لديه ادعاءات تنافسية أنه وصل متأخراً وأننا اكتشفنا مفتاح اللغز بالفعل هكذا وقبل أن يقضى ولينجتون على كل آمال « الأمبراطورية الجديدة » بثلاثة شهور . كان يانج يحاول بذلك أن يقضى تماماً على أى آمال أو حتى تخيلات قد تراود شاب جرونويل .

ومع ذلك فلم يبد على جان - فرنسوا أى تأثر سلبي فى رده فى ٩ مايو ولا حتى أى اندهاش . بل يرد بكل برود أن ساسى لم يطلعه على « النتائج التى توصل إليها (مراسله) بعد الجهود العلمية المتعلقة بحجر رشيد » (أى أنها طريقة مهذبة للقول : إذا كان فيها شىء جديد فإن استاذاً مثل ساسى لم يكن ليحجبها عنى ..)

* راجع الفصل ٧ .

** لاحظ صيغة الجمع هنا (بالنسبة لحجر رشيد بالطبع) .

ويختتم خطابه بأن يستعير من يانج تنازلاً وقوراً فيقول : « لا أتمكن من إبداء رأى إلا بعد أن أطلع على بحثكم الهام » . لم يخش أن يقلب الأوضاع ووضع نفسه فى مكان الحكم ...

سيحصل جاك - جوزيف على هذا التعليق الواثق : « يريد الدكتور يانج أن يؤدي دور أبى الهول إلا أن روح عائلة يوسى ليست بداخله . إنه يعتقد أنه يفهمنى وهو لا يفهمنى » . أول تقارع بالسلاح سيبقى لفترة طويلة معلقاً . بعد ذلك .

الشيء الغريب اللافت هو أن الحرب الدائرة سمحت عام ١٨١٥ بتبادل هذه الرسائل التى تحتوى على لب الجدل العظيم فى حين أن السلام الذى حل بين لندن وباريس بعد تنازل نابوليون عن العرش لثانى مرة قد رفع من كافة الحواجز المادية أمام تبادل المراسلات لم يساعد على التواصل المكتوب بينهما . وسيبقى الحال هكذا لمدة سبع سنوات ، الصمت الكامل إلى أن تسمع صرخة الباحث الفرنسى : « وجدتها يوريكا . »

هل نقر - خلافا لما يؤكد يانج - أن جان - فرنسوا لم يحصل من ساسى على الخطاب الذى وجهه الطبيب البريطانى للمستشرق الفرنسى الكبير فى ٣ أكتوبر ١٨١٤ والذى يحتوى على أهم تأويلاته ؟ أو أنه لم يعط لنفسه الوقت لقراءة هذا المستند الذى كان يمكن أن يغير مجرى حياته بأن يقضى على طموحاته ؟ هذا ما يؤكد مدام هارتلوبان ، ولا يوجد دليل واحد يؤكد العكس .

الواقع هو أن لا شيء فى مراسلات « صغير » التالية يجعل المرء يعتقد أنه أحس بنار القذيفة وهى تمر بجانبه - وهى القذائف التى ستقضى بعد أسابيع قليلة على الحرس الامبراطورى هو - الذى واجه بكل التحدى المتصلب كاترومار وجومار نجده هنا يتصرف ببرود يحسده عليه مناظره . إلا أننا نعرف بفضل خطاب سبق ذكره حول مقال للدكتور يانج * يخص المقدمة - أنه لم يكن ينظر باعتبار لعلم (اللغة أو التاريخ) البريطانى إذ كان يرى أنه يصلح فقط فى التعليق على التوراة

* وجدت فى أوراق شامبليون المعنونة « شامبليون فى الليسيه » المقال الذى نشره يانج فى المجلة الشهرية Monthly review حول الكتاب الأول لشامبليون وكذلك على نسخه كتبها بخط يده (وكان ذلك فى تبويب غريب داخل الملف) جاء المقال إيجابيا فيما عدا تحفظ شامبليون الخاص بالمصادر اليهودية . أغرب ما جاء فى المقال هو جملة يعبر فيها العالم الإنجليزى عن أسفه لأن الفرنسيين سيطروا على مصر لأن « المناخ التدميرى الذى يسود هذا البلد كان يمكن أن يقضى على شباب زائد عن الحاجة وأصبح مصدر اضطراب لجيرانه الأوروبيين » !!

واستخراج ابتهاجات للمولى العلى القدير . وهو الخطأ الذى سيضطر إلى الإقرار به بعد قليل ...

وعلى العموم فإن ما قرأه جان - فرانسوا هو مقال نشر عام ١٨١٧ فى مجلة Museum Criticum التى تصدر فى كيمبريدج بقلم توماس يانج ومع ذلك فإن ذلك لم يثنيه عن شكه .

« ما أعرفه عن اكتشافات الدكتور يانج (خطاب ٢٧ أغسطس ١٨١٧ إلى أخيه) التى جاءت فى الخطاب * الذى كتبه عن حجر رشيد يطمئنى من ناحيته . لقد كتب لى أوكريلايد أيضاً أنه انسحب واستسلم أما الربين ** فهو لا يستحق الذكر [...] أمامى الوقت الكافى لكل أعمالى عن حجر رشيد . ومع ذلك فإذا أتاحت لى مجلة Museum Criticum التى أنتظرها يومياً - فرص الكلام عن أعمالى فلن أدعها تفوتنى [...] فى انتظار ذلك فإننى مستمر فى « القواميس » .

توماس يانج الإنسان . يكفى أن ننظر إلى البورتريه الذى رسمه له لورانس وهما فى قمة مجدهما هما الاثنى لنقتنع بقوة اشعاع شخصيته وهيبته بل وأيضاً - لأن الشواهد العديدة تؤكد ذلك - سعادته . لقد عبر توماس يانج الحياة على سحابة من الضوء ، من نجاح إلى انتصار . يبدو كما لو أنه لا يجد فى أى من اكتشافاته سوى مفتاح للاكتشاف التالى . متعدد المواهب ومعبود الكثيرين ، عظيم الهيئة كالأمير - تعود على أن يتقدم الصفوف بصفة دائمة لدرجة أنه لم يتقبل إلا أن يكون هو المنتصر منذ البداية وعلى طول الخط وإلى الأبد فى مجال اقتحمه باهمال - كما لو كان يلهو - بعد هذا الكم الضخم من علماء اللغة .

لاشئ كان يؤهل يانج ليكون الشخص الذى يحل شفرة الهيروغليفيات سوى عبقريته فى النجاح .. وربما أيضاً أنه رجل نور بجميع أشكاله ومنها التنوير . كان محباً للفخامة . ودوداً شغوفاً بمعرفة كل شئ وأى شئ مهيناً للرقص والموسيقى ، مرحباً فى المجتمع . لقد ولد لينتصر فى كل شئ . كيف يمكن لرجل مثل هذا أن يتكيف مع وضع لا يعترف له فيه بأنه المنتصر الأوحى ؟

قال عنه صديقه وكاتب سيرته أنه « لم يكن يتحمل أى مبالغة .. [...] وكان أكثر الرجال كرمًا وانفتاحاً على الآخرين متحرراً تماماً من أى أشكال الحسد أو الغيرة » .

* لم يعثر عليه .

** س . دوساسى .

مهما بلغ إعجابنا بهذا النوع من الإنجليز العظماء من عصر بيت ونوكس ونلسون فإن بقية القصة ستثبت أنه غير مستعد في لحظات سعادته المتكررة أن يعترف بأفضال الآخرين أو أن يقبل أن يرى أحداً يتقدمه أو يسبقه سواء كان أوكريلا أوتبخسن * أو مواطنه بانكس وأيضا شامبوليون جميعهم سيجدونه ينازعهم بشراسة مدققة في أى أسبقية لهم على اكتشافاته هو . جئت ورأيت وانتصرت .

في مواجهة هذا الميروكوسيو القادم من مقاطعة سومرست المتألق الصاعق والرشيقي مثل سهم زينون الإلهي يبدو جان فرنسوا ثقيلا الحركة مثل فلاحى الكارسي أو راعي غنم من جبالها . إنه يكد في عمله منذ ستة أعوام يكوم نقوده العلمية قطعة قطعة حجرا وراء حجر ويملا زلعه بالرموز ... صبر طويل . عبقرية الآخر تتكون من الحدس والتقدم المفاجيء والاختراقات الصاعقة ... ولكن القائد العظيم ليس هو الذى يدخل موسكو فى الصيف وإنما الذى يحكمها فى الشتاء .

هل ترجع قمة اكتشافات الباحث اللندنى إلى ١٨١٨ ؟ يعتقد هنرى سوتاس كما سبق أن أشرنا أن اختراقه الكبير فى عام ١٨١٤ لم يدعمه بعد ذلك أى اكتشاف ذى معنى . غير أن المقال الطويل مصر الذى نشره فى الانسيكلوبيديا بريتانيكا طبعة ١٨١٨ يبقى فى نظر الأجيال التالية أهم مشاركة له فى كشف الغز ** . ولذلك فإن اهتمامنا سيتركز عليه .

إننا أمام نص طويل يملا عشرين صفحة من الإنسيكلوبيديا تليه أربع صفحات من الرسومات والصور . بعد عرض عن الميثولوجيا والتاريخ . والمؤسسات وتواريخ مصر القديمة هناك خمس صفحات مخصصة « لتحليل مخطوطات رشيد الثلاثة » . يبدأ بذكر الظروف التى اكتشفت فيها كتلة البازلت المعروضة فى المتحف البريطانى ثم يشير إلى أن سيلفاستر دوساسى كان أول من درسها بجدية .

ثم يقوم يانج كرجل العلوم الدقيقة باحصاء عدد المجموعات المعزولة فى النصوص الثلاثة ثم يحاول المقارنة بينها عددا بعدد من نص لآخر . أخذاً فى الاعتبار أن الخراطيش تشير إلى أسماء الملوك والآلهة . فهو يشير إلى أن كلمة ملك مذكورة ثلاثين مرة فى النص اليونانى وأن مجموعة من الرموز مذكورة ٣٧ مرة فى الديموطيقى . وأن بطليموس ذكر ١١ مرة باليونانية وأن مجموعة محاطة بخرطوشة تظهر أربع مرات فى

* أحد الذين عملوا على حل شفرة « المخروطيات » والذى عمل أيضا فى مجال الهيروغليفيات .
** العديد من مؤرخى اكتشاف سر الهيروغليفيات يؤرخون هذا المقال فى ١٨١٩ إلا أننا نتمسك بالتاريخ الذى تذكره الإنسيكلوبيديا ذاتها بعد مائة وخمسين عاما . الواقع أنه حرر فى ١٨١٨ ونشر فى ١٨١٩

النص المقدس ... كشف اسم بطليموس الذي يوجه له إهتمامه في البداية هل كان سهلاً باستخدام هذا الأسلوب ؟ بعد ذلك بخمس سنوات كتب شامبوليون في كتابه « المختصر » : **Precis** :

« أى شخص يقوم بدراسة مطولة للنص الديموطيقى فى حجر رشيد لا يمكن أن يشك بعد أول مراجعة للنص الهيروغليفى أن الخرطوش يحتوى على اسم بطليموس ... » [ولكنه يضيف] : « إن الاكتشاف الحقيقى هو أن تقرأ حقيقة من النص الهيروغليفى أى أن تحدد المدلول الخاص بكل حرف من مكوناته وبطريقة يمكن أن تطبق فيها هذه المداليل كلما ظهرت فيها هذه الحروف » (3) .

هذا هو ما أشار به دوساسى ليانج منذ يناير ١٨١٦ : إذ قال له : « أعتقد بالفعل أنه بالإمكان أن تحدد فى حالات عديدة كما فعلتم المكان الذى تحتله هذه الكلمة أو تلك من النص اليونانى فى النص المصرى الابجدى [ديموطيقى] كما يمكن أن نفعله بالنسبة لنص هيروغليفى خالص ولكن أن تحدد بعد ذلك مدلول الحروف التى تتكون منها الكلمة وتقديمه فى كافة الحالات الأخرى : فهذا هو المحك .»

السبب فى أن يانج لم يصل سوى لقراءة غير مكتملة يرجع أصلاً إلى أنه لم يدخل فى حساباته بعض الاكتشافات التى توصل إليها غريمه الفرنسى الشاب ألا وهى - على سبيل المثال - أن الحروف المتحركة تسقط كثيراً فى الكتابة المصرية المقدسة . ولكن بصورة أقل لما يحدث فى العبرية أو العربية .

عرض توماس يانج فى مقاله هو عبارة عن تسجيل لسلسلة من رص للمعلومات وصفها البعض بأنها حسابية والآخر بأنها ميكانيكية . إلا أن حلال الشفرات المحترف هنرى سوتاس * يذكر بأن هذه هى الطريقة الطبيعية فى العمل فى هذا المجال ، وأن هذه الطريقة التى يستخدمها لاعب الـ Puzzle ومركب لعب الميكانو كانت تسمح له بالذهاب بعيداً ... المعتقد اليوم أن من الـ ٢٢٠ كلمة التى يدعى أنه اكتشفها نصفها كان بصورة تقريبية .

تكشف قراءة مقال الانسيكلوبيديا المطول أن يانج جرب التقريب والمقارنة يحرك قطعة شطرنج هنا وأخرى هناك ، يجرى تداخلات وتكوينات ، يتحسس ويجس ويخمن ويؤول دون أن يقيم نظاماً ولا حتى بروتوكولا للاكتشاف .. إنه قام بتبويب الحروف التى تعرف عليها فى أربع فئات : الآلهة - الملوك - الأفراد - الحيوانات . يسرف فى عرض

* مشفر سابق فى إدارة الشفرة بوزارة الخارجية .

الاقتراحات ومحاولات الشرح ، أما كلمات **إله وإلهة** فهي مميزة بوجه خاص ، وكذلك بطليموس وبيرينيس . الأول بهامش خطأ بسيط والآخر بصورة يشوبها شيء من المجازفة .

إن « قراءته » لاسم بطليموس الذى تعرف عليه فى خرطوش سبق أن حدده ساسى وأوكربلاد تتم عن ابتكارية فذة . هناك ثمانى علامات مرتبة داخل الخرطوش : مربع قرأه حرف ب ، هلال وكان بالنسبة له ت ، شكل عقدة - استبعده على أنه لا يعنى شيئاً ، أسد ممدد ، مشبك للشعر قرأه « أوله » شعر قرأه « يا » ، عودان من القصب منتصبان حرف « ي » وشكل عمودى حدده بأنه « وى » المجموع يصبح « بيتوليمايووس » ... برافو : علما بأن الترجمة السليمة التى قام بها شامبوليون هى بتوليس .

يلاحظ سوتاس أنه « أدخل فى تركيب اسم بطليموس عناصر متنافرة أبجدية (ب . ت . أ) مقطعية (ما - و س) ثلاثية (أوله) ورمز لادلالة له (الحبل المعقود) وبالتالي فبعد أن بدأ بداية سعيدة توقف فى منتصف الطريق [...] هذه الطريقة التى تحتوى على أسلوب نقدى لم تسمح له بالذهاب إلى نقطة أبعد [...] فكره يتمتع بدرجة عالية جدا من إمكانية الحدس [...] ينطلق من فكرة مسبقة يتضح أنها سليمة ولكنه لم يعتنى بالتدقيق ... » (4) .

يبدو أن عالم المصرىات النمساوى دويلهوفار قد قيم هذه العملية المبهرة وغير الدقيقة فى آن واحد تقييما عادلا إذ يقول : إذا كان يانج قد بدأ بالفعل فك شفرة الهيروغليفيات مع بعض التحفظ على بعض التخمينات السليمة فإنه لم يخط بالخطوة الضرورية ليعبر العتبة التى فتح بابها . « عندما يلتقى باسم إله الأموات أنوبيس فهو لا يتعرف عليه و (بالاستيعاب) يطلق عليه « سيريريوس » ، حامى الجحيم اليونانى .. » . أخطر من ذلك : « من المثير للدهشة أن اسما لإله آخر - وهو بتاح لم يستوقفه على الرغم من أنه تكرر عدة مرات فى حجر رشيد وأظهره النص اليونانى وعلى الرغم أيضا من أن يانج قد اكتشف القيمة الصوتية للحرفين الأولين ب ، ت داخل خرطوش بطليموس . »

الشرح الظرفى الذى يقدمه دويلهوفار لهذا النوع من الكبح أو توقف العبقرية التخمينية عند الطبيب العظيم هو :

« إن هذه الدراسات * كانت بالنسبة له وطبقاً لقوله هو » سعادة تجلبها بعض ساعات من أوقات الفراغ » ولكنها سعادة راحت تبتعد شيئاً فشيئاً كلما زادت معرفته بالصريين القدماء . كان يأمل في أن يكتشف كنوزاً من العلوم الطبيعية المصرية التي ألهمت فيثاغورس حسبما يقول . ولكن كلما تقدم في فهمه للنصوص كلما اتضح له أنها لا تتحدث سوى عن الآلهة والفراعنة والأموات وخاصة الأموات وهي أبداً لا تتكلم عن الفلك أو التاريخ .⁽⁵⁾

هل وضع إذن توماس يانج (أو وجد) نهاية لأبحاثه لأنه لم يتمكن من اكتشاف مواد تكفي لأن تجعلها أبحاثاً علمية ؟ الفكرة جديدة .. إلا أنها قد لا تستهدف إلا جانباً واحداً من المسألة . لأنه لو كان ذلك صحيحاً فلماذا عمل يانج بكل هذا الإصرار على جعل المجتمع العلمي الأوروبي يقر ما هو منافي للحقيقة الجلية ولأبسط مبادئ العدل أنه ليس أول من اكتشف الحل وليس هذا فحسب بل أن إكتشافاته كانت شاملة وخاصة به وحده أيضاً ؟

سنعود للحديث ** عن الصراعات الرهيبة والقضايا التي رفعها العالم الكبير وأصدقائه لإثبات أبوته للاكتشاف . حتى ذلك الحين يتحتم علينا أن نشير - مع شبه إجماع من الباحثين المعاصرين - إلى أن السبب في أن توماس يانج لم يتمكن من أن يثبت أمام التاريخ إدعائه بأنه هو المكتشف ، لا يعود إلى خيبة أمله لعدم وجود معطيات علمية كافية في عالم المصريات وإنما لأن الأسلحة اللغوية والأدوات التي لا غنى عنها لكل باحث فيها لم تكن في حوزته .

ففي موضوع يتعلق باللغويات كانت العقبة الكؤود التي اعترضت طريق الدكتور يانج هذا الطبيب العبقرى والمفكر العالمى هي أنه لم يكن عالماً لغوياً *** عندما وصفه ميسوسوتاس بأن « فكره حدسى لأقصى درجة » فهو لم يهجوّه ، بل إن ما يدعى للدهشة فيما يتعلق بالجدل العظيم الذى دار بين الطبيب الانجليزى والمؤرخ - عالم اللغويات الفرنسى أن هذا الأخير هو الذى استخدم الفكر العلمى الدقيق فى حين لجأ الأول إلى تفكير العلوم الانسانية .

ظهر فى عام ١٨٢٧ مقال فى المجلة الجادة المشهورة ادنبره ريفيو Edinburgh Review بقلم شخص يدعى جيمس براون يقول فيه إن ما افترقه

* فى اللغويات المصرية القديمة .

** فى فصل ١٢ .

*** ويضيف لنا جان فليب لوار : أنه لم يكن يعرف اللغة القبطية .

شامبوليون بالمقارنة بيانج هو « أن يتنفس الضباب الكثيف الذى يغلف لندن بدلاً من جو باريس الأكثر خفة ؟ وكان عليه أن يحارب عدم التصديق أو الشك وكذلك الاعتراضات الباردة والمدققة التى يبدىها مثقفونا بدلاً من إثارة إعجاب الأوساط اللامعة التى تبدى أكثر من نصف إقتناعها بمجرد سماعها بأى اكتشاف له بريق ... » (6)

باستثناء الاعتبارات المناخية (التى يصعب التشكيك فيها بالفعل) يبدو أن السيد براون قلب وضع الجمل : فى أى المدينتين ساد عدم التصديق والشكوك والاعتراضات والتدقيقات ؟ السيد يانج الشخصية اللامعة ونصف الاله المعجز وإن كان يضطر إلى أن يتحسس طريقه وسط « ضباب لندن الكثيف » فإن النور الذى يشع منه كان كافياً لكى يجذب إليه إنتباه الفراشات . إذ أنه فى حالتنا هذه ولو مرة واحدة أثرت الاعتراضات والتشكيك المنظم وعدم التصديق على ضفاف السين لدى الفرنسيين الهوائيين محبى التفاخر والشوقيين ...

قبل أن نعود إلى جان - فرنسوا شامبوليون وهو منكب فى إصرار على حجر رشيد أو بالأحرى على النسخة التى فى يده يجدر بنا أن نذكر هنا جانبين من جوانب النقاش .

يجب ألا يدخل فى روعنا أن ما دار بين العالم اللندنى الشهير والاستاذ الفرنسى الشاب الذى يصغره بسبعة عشر عاماً كان بمثابة مباراة فى الكرة بين إنجلترا وفرنسا ، بين الديك والوردة - يناصر كل فريق مشجعون متحمسون على جانبى بحر المانش . ظل توماس يانج يتمتع فى باريس بمؤيدين متحمسين له ولقضيته ليس بسبب أمجاده وسحره الشخصى (ونجاحاته الأولية الكاسحة) كما رأينا فحسب ، وإنما أيضاً بسبب الغيرة التى أثارها الشقيقان شامبوليون وكان ذلك أكثر من بعض إدعائات الدكتور يانج وبكل قسوة عالم مصريات إنجليزى .

فى فرنسا كان سيلفاستر دوساسى هو أول من جسد فى شخصه هذا الولع الهيروغلىفى الإنجليزى مستخدماً أكثر الخيانات انحطاطاً ضد باحث جرونويل إذ كتب ليانج فى ٢٠ يوليو ١٨١٥ * :

* بعد عدة أسابيع من أول تبادل للخطابات بين يانج وشامبوليون (راجع فصل ٦)

« إذا كان لى أن أنصحكم بشيء فهو ألا تحيطوا السيد شامبوليون بكثير من اكتشافاتكم . إذ يمكن له أن يدعى فيما بعد أنه كان الأسبق . إنه يعمل جاهداً فى عدة مواضع من كتابه * على الإيهام بأنه اكتشف كلمات كثيرة من نص رشيد . إنى أخشى أن يكون ذلك نوعاً من الدجل بل إنى أضيف أن لدى أسباباً كثيرة تجعلنى أعتقد ذلك [...] لو أن السادة أوكريلا و كاترومار وشامبوليون قد حققوا بالفعل تقدماً حقيقياً فى قراءة النص المصرى لأسرعوا بإحاطة الجمهور علماً بها وأن غير ذلك يكون مثيراً للدهشة ويعتبر تواضعاً نادراً بالفعل أشك فى أن أياً منهم قادر عليه . » (7)

كانت هذه تسديدة من السموم غير متقنة . أولاً لأن فيما يتعلق بالسويدى دون الفرنسيين الآخرين – فإن التواضع كان كما سبق وأشرنا – علامة مميزة لشخصيته . وثانياً لأن العالم الحق – وكان ساسى فى موقف يجعله يتيقن من ذلك جيداً – لا يكشف سوى عن معطيات أكيدة ومؤكدة إذ يوجد هامش بين « التقدم الحقيقى » والاكتشاف المثبت علمياً كان باحث جرونوبل يرفض تخطيه فى ذلك الوقت .

سيعترف البارون فيما بعد بخطئه وسيتوقف عن محاربته عندما يتقدم شامبوليون بإثباتاته . كما أنه سيحييه بعد وفاته بما يعتبر تعويضاً له . غير أن « الحزب البريطانى » سيختار لرياسته إدم جومار . وهو الذى استمر لسنين طويلة يزود « مصرى » جرونوبل بالمستندات التى فى حوزته بصفته مسئولاً عن كتاب وصف مصر ثم قطع صلته به ولم يتوقف عن الإعلان عن إيمانه بأسبقية توماس يانج فى الكشف وعن تحفيزه المستمر له لكى ينتصر . أى شيء أفضل من أن ينجح هذا الشاب الذى لم « يذهب أبداً » إلى مصر **

مسألة أخرى متعلقة بالجدل بين توماس يانج وجان – فرنسوا شامبوليون هى المتعلقة باستخدام الأخير لاكتشافات الأول وعلى الأخص المقال المطول المعنون مصر فى الانسيكلوبيديا بريتانىكا المنشور قبل أربع سنوات من إطلاق شامبوليون لصرخته « وجدتها » .

سبق أن رأينا أن السؤال الذى يطرح نفسه فيما يتعلق « بالترجمة الظرفية للنص الانكورىالى » (الديموطيقى) البتى أرسلها يانج لساسى عام ١٨١٤ . لم يهتم

* مصر فى عهد الفراعنة .

** ولايانج بالمناسبة .

المتخصصون طويلاً بمعرفة إن كان شامبوليون اطلع عليها أم لا .. فلم يعر المكتشف اهتماماً كبيراً بذلك على ما يبدو فهو يتكلم عنها بإهمال لا اصطناع فيه .

أما فيما يختص بمقال عام ١٨١٨ الذى اعتبره علماء انجلترا لفترة طويلة الأساس الحقيقى لعلم المصريات الحديث عوضاً عن « رسالة إلى مسيوداسييه » فالنقاش لا يزال مفتوحاً . فمدام هارتلوبان التى لا يمكن أن نشك فى أنها أرادت أن تسمى إلى شامبوليون تعتقد أنه من المؤكد أن المكتشف قد إطلع عليه بعد فترة قصيرة من نشره وإضافة إلى مجموعة مستنداته « نون أن يعيره أهمية تذكر » (8) .

يوجد آخرون يتشككون فى إمكانية حصول الباحث الفرنسى على نسخة من مقال الانسيكلوبيديا ، وبالتالى أن « يسرق » العالم البريطانى . منهم على سبيل المثال لوباج - رونوف الذى نفذ صبره من إدعاءات جون لايتنى كاتب سيرة يانج الذى يصر على إثبات أن الفرنسى إكتفى « باستعارة » اكتشافاته من الطبيب اللندنى - فهو يؤكد أن ذلك يعتبر « اتهاماً دنيئاً » .. ذلك لأن المقال المذكور لم يكن إلا فى يد عدد قليل من الأشخاص ؛ ففي عام ١٨٢١ أى بعد ثلاثة أعوام من نشره اشتكى سير وليام جال من أنه لم ينجح فى الحصول عليه فى لندن ... وكذلك فى عام ١٨٢٤ كتب عالم اليونانيات الكبير جان لوترون إلى يانج يطلب منه نسخة لأن النص غير موجود فى باريس (9) .

نعتقد أنه بإمكاننا أن نشير هنا - لوضع حد لهذا الجدل - إلى التوضيح الذى ضمنه ج . ف . شامبوليون عرضه أمام أكاديمية النصوص فى ٢٢ أغسطس ١٨٢٢ حين قال : « لقد تعرفت على آخر أعمال السيد الدكتور يانج بعد وصولى إلى باريس بقليل فى سبتمبر ١٨٢١ . (10) » .. أى قبل « رسالة إلى مسيوداسييه بعام كامل ...

جدال غير مجد ... لأنه من الواضح أن مهما كانت الومضات الفكرية ليانج جديدة وجسورة وعبقرية والتى توصل إليها بالمقارنة ثم التعريف بطريقة تدريجية فسمحت له بأن يتقدم نحو النور إلا أن شامبوليون كان يسلك طرقاً أخرى ... خلف الفارس المقدام الذى انطلق من المواقع المتقدمة راكضاً حيثما « توحى له به قريحته » ، سار شامبوليون فى تودة بطريقة منظمة وعلمية من إثبات إلى إثبات مؤسساً بواسطة أسلوبه منظومة تفسيرية .

قبل أن نعرض لقضية الشعوذة التي سترفع بعد قليل ضد شامبوليون * نرى مناسباً أن نذكر هنا تقديرين متناقضين لأعمال توماس يانج : الأول يمتدحه وهو لعالم المصريات الفرنسي هنري سوتاس الذي يفتخر بأنه « دفع بالحياة إلى آخر الحدود » في صدق على ما يبدو . والآخر لزميل له بريطاني سير بيتر لوباج - رونوف - عمل على تغيير الرأي العام البريطاني المتحيز ضد شامبوليون بسبب مادحي يانج المتحيزين وقد وضع في مجهوده هذا قدراً من العنف لا يخلو من الظلم نحو مواطنه اللامع .

مثله مثل الفارس الذي يقفز بفروسه بمنتهى القوة فيقع إلى الجانب الآخر . قفز لوباج - رونوف إلى أبعد من هدفه حتى أنه إفتقر إلى العدل نحو توماس يانج - ولأنه أراد أن يعيد الحق إلى جان - فرنسوا شامبوليون - وسنرى كيف أن المنحدر الذي كان به أن يصعده كان قاسياً !! - فقد وصل إلى حد أنه رفض أن يعدل بالنسبة للطبيب عالم الأنوار الذي تحول إلى عالم لغة ** .

كتب عالم اللغة الفرنسية هنري سوتاس بعده بربع قرن ما يلي :

« ... الافتراضات التي توصل إليها يانج بالتعرف على المكان الذي توجد فيه بعض كلمات النص اليوناني في النص الهيروغليفي ثبتت صحتها جزئياً . ولما كان النص مليئاً ببعض العلامات المعبرة عن أفكار واضحة جداً ومتكررة فإن التحليل بواسطة المقارنة أصبح ممكناً بالتحكم في المتكررات . وعلى الرغم من العديد من الفراغات فإن يانج تمكن من ملئها ببراعة .

من بين الـ ٢٢٠ علامة أو مجموعة هيروغليفيه التي تقدم بشرح لها عام ١٨١٩ توجد مائة تقريباً معظمها مأخوذة من نص رشيد وتم التعرف عليها بنجاح حقيقي [...] والمدعش أن يانج قد نجح بسرعة ودقة في تحديد مكان الرجوع إلى أول السطر في النص الديموطيقي وفي النص اليوناني [...] إن النتائج التي توصل إليها يانج تثير بعض الإعجاب [...] لقد اتهم بأنه كان يعمل بطريقة « حسابية » علماً بأن بداية أي عملية لحل الشفرة يجب أن تتم بهذه الصورة . إذ أن سلسلة من عمليات القياس والإحصاء تظهر أو لا تظهر فكرة حدسية . تتم مواجهتها بعد ذلك بالوقائع التي يؤكد أو تنفي . لقد تمكن يانج دون أي خطأ تقريباً من عبور المرحلتين الأولى والثانية إلا أنه لم يتمكن من تخطي الثالثة . فهو إذن من الرواد بحق » (11) .

* انظر فصل ١٢

** راجع فصل ١٢

لماذا لا نعطي الآن الكلمة لشامبوليون ونحن على وشك أن نلتقي به من جديد وهو
فى عمله - إذ أنه لم يكن أقل الناس عدلاً تجاه يانج ؟

« أعترف بأنه كان أول من نشر بعض المبادئ الصحيحة عن الكتابات المصرية
القديمة . وأنه الأول أيضاً الذى حدد بعض الفروق الصحيحة التى تخص الطبيعة
العامة لهذه الكتابات وذلك بأنه حدد مداليل العديد من مجموعات الحروف بواسطة
مقارنة مادية بين النصوص . كما إنى أقر أيضاً أنه نشر قبلى أفكاره عن إمكانية
وجود بعض علامات صوتية تكون قد استخدمت لكتابة أسماء العلم الأجنبية فى
مصر بالهيروغليفية. وأعترف أخيراً أن مسيو يانج كان الأول أيضاً - ولكن دون
نجاح كامل - الذى حاول أن يعطى مدلولاً صوتياً للهيروغليفيات المكونة للاسمين
بطليموس وبيرينيس . »

تحية جميلة من المكتشف للرائد الذى أصر بغرابة على وصف شامبوليون بأنه
نائبه ووريثه الفرق بينهما كان الذى يفصل بين الهاوى العبقري والمحترف (الذى لا يقل
عنه عبقرية ...) والفرق أيضاً يعود إلى ما يميز الإكتشافات الصغيرة عن الإكتشافات
الكبيرة والإلهام عن العقل ، والذكاء الفطرى من العلم ، والظرف والمصادفة عن الدليل ،
والحدس عن النظام المنهجي .

١١ - « تمكنت من الموضوع ! »

هارب ؟ - « لم تعد روما داخل روما » - إما الآن أو أبدا ! - الشروط الثلاثة لفك الشفرة - قائمة بثلاثمائة رمز - إشراقة احتفالية - « إبرة كليوباترة » - مستندات هويو - أوريكا ! وجدتتها ! - أمام الأكاديمية - صمت غريب - من البانتيون إلى المختصر - مسيو نوبلاكاس والملك ...

« أن تجعل صمت التاريخ يتكلم ... »

ميشليه .

في الواحد والعشرين من يوليو ١٨٢١ نزل من المركبة العمومية القادمة من ليون بشارع الكوك - هيرون في باريس رجل أسمر البشرة قصير ممتلي شعره أسود منحني الظهر قليلا محمل بحقائب ثقيلة . عمره ثلاثون عاما ولكن يبدو أكبر سناً . يبدو قلقا أن يكون هناك من يتعقبه . هل هو منفى ، أم تآثر من الكاربونارين هارب ؟

الشهور الأخيرة التي قضاها جان - فرنسوا شامبليون في جرونوبل أرهقته . هرب بالكاد من قضية أمام المحكمة العليا قبل أن يمثل أمام زملائه ليحكموا عليه ويعزلوه . وتحت تهديد ملاحقات جنائية جديدة سافر . لم يكن هروبا إنما هوشى يشبه ذلك . كنية « رويسبير » في ذلك الوقت لم تكن مديحا ولا هي مطمئنة .

عندما طرد من الدوفينييه قبل ذلك بخمس سنوات واضطر للإقامة في فيجاك كانت تلك الهجرة الأولى أقل إثارة للقلق والمرارة . كان حينذاك بصحبة جاك - جوزيف و « على » . ولحق بأسرته ومنزله والمدينة مسقط رأسه والريف الذي عاش فيه طفولته والمناظر المحببة إلى قلبه . أما الآن فهو شبه هارب ، ملعون ، مرهق ومضطر إلى العيش في باريس التي يكرهها في هذه « العاصمة القذرة لفرنسا » المليئة بأدباء يزدریهم ورجال سلطة يحتقرهم .

كان نابليون قد توفي في جزيرة سانت هيلين قبل ثلاثة شهور . وكان الخبر لايزال طازجا - فهو لم يصل إلا في نهاية شهر يونيو إلى جرونوبل - وقد أثر في رجل مثله - شجب المستبد بجسارة ومقت فيه الغاوى ولكنه وحد قدر فرنسا لعدة شهور في

شخص هذا البطل العائد من المنفى . ثم كيف لا يشترك مع وطنه الروحي - مصر صاحب مغامرة عام ١٧٩٨ الكبرى ومؤسس « معهد القاهرة Institut du Caire » مع الأب لافيوليت * إنهار فصل من فصول حياته . مثله مثل العديد من شباب ذلك الزمن .. مثل ستاندال وموسيه هو في حداد .

الحزن العميق المنحوت في الوجه الغريب لهذا المسافر له أسباب أخرى أيضا . ليست عودته إلى باريس مظهرا من مظاهر الفشل ؟ لقد اعتقد أنه سيدبر حياته في جرونوبل بأن يدرس فيها ويؤسس فيها الجمعيات ويتزوج فيها ويقيم فيها أعمق الصداقات ويحصل من أهلها على أصوات التأييد والإعجاب والاهتمام من أكاديميتها التي استقبلته وهو بعد في السادسة عشرة ... إن جرونوبل كانت المدينة المختارة .. وما هو قد لفظ منها .

ألم يفشل في حياته منذ الآن ؟ لقد خسر عمله وهو الآن فقير ولم يسدد له حماه دوطه روزين وقد مضى على زواجه ثلاث سنوات كما أن زوجته لم تنجب بعد . إنه يصل إلى باريس بعد أن فصل من التعليم العالي وانتهت آماله في التعليم التعاوني وليس في ذهنه سوى مشروع واحد غير معقول وهو كشف الأسرار القديمة منذ آلاف السنين لحضارة لم ير من أثارها سوى بعض الأحجار وبعض قطع قليلة جدا وصغيرة من القماش العتيق الممزق .

خمسة أقدام وثلاث بوصات هذا هو الطول الذي قدره أحد الأطباء لطول قامته عندما التقيا في ذلك الوقت . أى أقل بقليل من مائة وسبعين سنتيمترا التي قدرها رجل شرطة جرونوبل المنبؤ عام ١٨١٦ . هل يرجع ذلك للارهاق ولأن بداية إصابته بداء الدرن قد قوست ظهره ؟ يقول الطبيب جانان أن له « رأسا ضخما بعض الشيء بالنسبة لجسمه . شعره أسود كثيف ورفيع جداً . عيناه لونهما بنى غامق ووجهه - يميل للاصفرار يلاحظ أيضا في بياض العين وهو ما يجعله عربى المظهر ... » **

في كتابه « ذكريات فترة عودة الملكية » صورت الماركيزة دومابيه بهذه السطور القليلة شامبوايون وقد دخل مغامراً « المجتمع الراقى » بعد بضعة أشهر من وصوله إلى باريس أبان نجاحاته الأولى :

* كناية لنابليون [المترجم]

** وصف أرسله عام ١٨٢٢ أى بعد أشهر قليلة من وفاة شامبوايون الدكتور هيوبار - فرانسوا جانان - عالم الفراسة الدماغية وتلميذ جال - وعلى علاقة شبه عائلية بجان فرنسوا - إلى جمعية الفراسة .

« رأيت منذ بضعة أيام عند مدام دو موسكالم ، السيد شامبوليون وهو أول من اكتشف معانى الهيروغليفيات والذي تمكن من ترجمة بعضها ولا يزال هذا الاكتشاف الجميل فى مرحلة الطفولة إلا أنه بإمكان مسيو شامبوليون أن يوسع أفق اكتشافه لأنه ليس متقدما فى السن وهو مُجد فى عمله ولا يكل . إنه دمث ومتواضع لا يعبر عن نفسه بسهولة ولا يعرف كيف يدعم بريق أعماله .. الهجوم عليه شديد كما يهاجم كل الذين يستكشفون كرواد أحد منابع الشهرة اللامعة والمفيدة ... » (1)

أما وصفه المعنوى فيما وراء هذه اللمسات التأثيرية فهو بنفسه الذى رسمه قبل ذلك التاريخ بثلاثة أعوام فى خطاب مؤرخ ١٢ نوفمبر ١٨١٨ أرسله من جرونوبل إلى أخيه الذى كان يستحثه لى يلحق به فى باريس :

« لم أفكر قط فى أن أقيم بصفة دائمة فى هذا المسرح الكبير [الذى هو باريس] . إنى أفضل أن أكون الأول فى قريتى على أن أكون الثانى فى روما [...] إن العاصمة لاتناسبنى [..] سأحقق هنا وربما أفضل من باريس الأعمال التى خططت لها . أما أنت فقد ولدت لتدير الأعمال وتحريك وتوظيف الأشياء الكبرى [...] وتعرف العالم بهقدار معرفة شخصين معا [..] أما أنا فإن كنت ولدت فى الهند لكنت أصبحت من الدراويش المتأملين : إنى أكره الحركة ولا أحب أن أكون سوى داخل دائرة محدودة [...] ترى أنت الايجابيات فى الحياة أما أنا كفيلسوف شرقى مؤصل فلا أرى فيها سوى المظاهر . [...] أضع فى إطار واقعى ماتعتبره أنت تطرفاً . أن أقيم فى باريس يعتبر بالنسبة لى مجهوداً يفوق طاقتى [...] مثل أغسطس * أقول ! « روما ليست داخل روما ، إنها موجودة بالكامل حيث أكون أنا ... »

خليط لذيذ من الفخر والإنطواء على الذات . خليط معهود فى الواقع إذ أن هذا يفسر ذلك . إذا كانت باريس فى جرونوبل فإن ذلك يرجع فى ذات الوقت إلى التفاهة العدوانية « للقطيع » الأدبى الباريسى وإلى أهمية شخصية المتوحد .

إننا لا نردد بما فيه الكفاية كيف أن هذا الشخص شديد الحساسية الذى هو جان - فرنسوا كان هشاً للغاية ووحيداً . إنه الرجل بلا أم والرجل الذى يزدري أباه والرجل الذى لم يقترب من زوجته إلا لاهتمامه بالشرف والذى ظلت حالات حبه جميعاً دون وصال . كما أنه يلاحظ أن كل شئ تقريباً يفصله عن أقرب صديق له وهو أخوه ما عدا

* لقد وضع كورنای هذه الجملة الشهيرة لا على لسان أغسطس وإنما على لسان سرنديوس (الفصل الثالث ، منظرا) .

المغامرة العلمية العظمى فهي التي تجمعهما معاً . لعل هذا يكفي لوصف الحالة الفكرية التي كان فيها هذا المتأمل المطارد هناك والمراقب هنا لدى وصوله إلى باريس مفتتحاً معركته فيها ...

ما هو المأوى الذي سيتوجه إليه في هذه الليلة من شهر يوليو ١٨٢١ هذا الرجل القمحي اللون الذي ألقى به وسط الأدغال الباريسية ؟ لقد وجد له جاك - جوزيف مكاناً ملائماً للإقامة فوق مسكنه هو ٢٨ ش مازارين على بعد عشرات الأمتار من الأنستيتو * . السنين وحده يفصله عن مقر لجنة مصر . كما أن الكولاج دوفرانس قريب والمكتبة الملكية أبعد بقليل . ولكن كنزه هو فهو بداخله وهو يحمله معه . وإذا كان هناك ما ينقصه فإن جاك - جوزيف يملكه في الأنستيتو المجاور - أو يرسله له ببساطة . يمكنه أن يضع مكتبه وكتبه والصناديق المحتوية على مستنداته ولوحه ورسوماته تحت سقف الدور الثالث الذي كان فيما سبق أتيليه الرسام هوراس فارنيه . هذا هو أفضل جانب للأمور .

الأفضل حقاً ؟ كلا ! لأن لعل ماكان يدفع مسافرنا القلق إلى تفاؤل أكبر هو أن أخاه الأكبر كان قد توصل بالفعل إلى احتلال مكانة مرموقة في باريس في قلب عالمها العلمي . نعم ! لم يكن جاك - جوزيف رئيس جامعة ولا عضو أكاديمية ولا أمين متحف ولا أستاذاً في السوربون ولكنه كما رأينا من قبل الذراع الأيمن - إن لم يكن الأنا الآخر لصاحب المقام الرفيع والمشهور جداً مسيو داسييه ، السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والآداب ، الحكم في مجال الثقافة والمتحكم في شهرة المشهورين وسرعان ما سيصبح جاك - جوزيف محافظ المخطوطات الأصلية للمكتبة الملكية وهو المركز الذي ظل يعمل لسنين طويلة من أجل الوصول إليه والذي زاد من قوة قبضته على عالم الأبحاث .

نعم كان شامبليون - فيجاك يواجه غضب وزير الداخلية القوي جداً مسيو دوكوربيار وعلي وجه الخصوص وزير الأديان مونسينيور دوفرانسينوس أسقف هيرموبوليس رائد حزب « طافئ الأنوار » بطل التزمت وقاهر الحداثة . ولكن كان له خلفاء في كل مكان أقوياء ونشطاء حتى تخوم السلطة .

صحيح أن الأخ الأصغر لم يكن في وظيفة لها مستقبل لأنه وقع تحت سيطرة شيطان بحث علمي سامي . إلا أن مثل هذه الايجابيات كانت تنشط أماله في حالة لو

* مازال المنزل قائماً ويحمل لوحة تشيد بشامبليون واكتشافه .

تبقى له شئ منها ... كل شئ هنا أصبح تحت أمره . المستندات ، الاتصالات ، المناقشات ، تبادل الآراء كل شئ ماعدا أصل حجر رشيد ... كما أن داسييه يستقبله متى أراد بمشاعر أبوية وقد تصالح مع فورييه وعاد إلى لقاء زملائه القدامى فى الكولاج دو فرانس مثل ريموزا وشيزى ولترون ولبعض الوقت مع سان - مارتان مع احتفاظه بعلاقات مهنية طيبة مع جومار وحتى لو أصر على اعتبار نفسه منبوذا فقد أصبح فى الواقع فى قلب الساحة عند مدخل المعبد .

ومع ذلك تكشف أولى رسائله عن قلق مؤلم . إذا كانت باريس الامبراطورية أصلا لم تكن تعجبه فما بالك بها وقد أصبحت بوريونية ؟! وعندما لحقت به روزين فقد عمل ذلك على أن يدرك كيف أن هذه الجرونويلوازية الصغيرة غير متألّمة مع مستقبله الذى ينفّث أمامه على الرغم من كل شئ . كانت خجولة غير متوائمة متوترة باستمرار أكثر ريفية منه وأثبتت صدق توقعات جاك - جوزيف وبدلا من أن تدعم إنطلاقة فى المغامرة التى بدأها فهى تعرقله .

القضية الكبرى التى كانت تشغل باريس عندما وطئت قدماه شوارعها فى يوليو ١٨٢١ لم تكن هى فك شفرة اللغة الهيروغليفية والتى ظل مجال اهتمام بعض المتخصصين - مثل يانج وأصدقائه فى لندن ومصر وفى باريس المحيطين بـ جومار * . وإنما القضية الكبرى كانت مرة أخرى هى عمر الزودياك - أو رسم الأبراج السماوية والرسم المصرى القديم .

لم ننس الصراعات التى فجرها فى بداية القرن وخاصة فى جرونويل والجدل حول قدم سقف قاعة مظلمة صغيرة فى معبد دندرة والذى أنقن رسمها فيلار وجولوا فى كتاب وصف مصر كما رسمها أيضا فى خط مواز لهما فيثان دونون .. المشكلة المطروحة لم تكن أقل من تحديد تاريخ خلق العالم . كانت التوراة وعلى أساسها الكنائس المسيحية - تحدد تاريخ هذا الحدث العظيم بأربعة آلاف عام قبل المسيح . غير أن بعض العلماء الذين درسوا هذه القطعة الفلكية أرجعوا تاريخها إلى خمسة عشر ألف عام قبل الميلاد . وكانت القضية ! لقد تهدد الايمان أو على الأقل سلطة روما والمجامع المقدسة !! ولما كان شامبوليون من أنصار التاريخ القصير المبني على دراسة متأنية للمعطيات الأثرية واللغوية فقد جاء موقفه - أراد أم لا - مناصراً للحزب الرومانى ..

* أما أوكريلا الذى كان قد أعلن أنه عرض عن الاستمرار فى أبحاثه فقد توفى قبل ثلاث سنوات .

هذا الجدل الذي فتر لبعض الوقت عاد ليشتعل من جديد بسبب قرب وصول هذا الرسم نفسه إلى باريس بعد أن نقله إلى فرنسا شخص يدعى سولنيه الذي عمل لفترة محافظاً في عهد الأمبراطورية . أثار هذا الحجر الملعون كما وصفه أحد خطباء كاتدرائية نوتردام - المنتظر وصوله عام ١٨٢٢ - أثار مرة أخرى المناقشات الحامية وجر إليها الباحث القادم من جرونوبل .

ولم يكن ذلك يرجع إلى أن شامبوليون كان يعلق أهمية أثرية عظيمة على هذه القطعة التي كان يعرف أنها تعود إلى عصور متأخرة وأنها محملة بالرموز أكثر من المعلومات العلمية . ولكن كيف يدع مثل كل هذه التخريفات والخزعبلات تقال وتنشر ؟ غريزة الفارس المحارب التي بداخله حفزته وجعلته يكتب بحثاً من أربع وثمانين صفحة ثم « خطاباً إلى مسيوبيو » ليوقف تخريفات أنصار « التاريخ الطويل » مثل جومار ، الذي عاد - بالمناسبة - فحفض التاريخ وجعله اثني عشر ألف عاماً بدلاً من خمسة عشر ألفاً .. ثم بعد ذلك بقليل سيتمكن بعد أن فك شفرة الهيروغليفيات من اثبات صحة افتراضاته * .

ما يهمنا في هذه القضية ليس قيمة هذه النظرية أو تلك بقدر ما يهمنا التوتر الذي تسببت فيه بين جان - فرنسوا شامبوليون ومجموعة « المخضرمين » بدءاً بجومار . كان المسئول الأول عن وصف مصر قد بدأ يضيق ذرعاً منذ بعض الوقت بالانتقادات الحادة غير المنصفة أحياناً التي وجهها - هنا وهناك - الشاب شامبوليون إلى الصور الأركيولوجية المنشورة في الكتاب الكبير فاعتبر نفسه مهاناً - كما شعر سان مارتان المدافع عن وجهة النظر ذاتها - وأن أطروحة شامبوليون الموثقة التي انتصرت في الجدل قد جعلته مادة للسخرية . وكان أن ألقى العداء الذي خرج إلى العلن منذ ذلك الحين بثقله الكبير في سلسلة المناقشات التي ستلى ذلك في إطار ما يمكن تسميته « قضية شامبوليون » .

كانت معركة هامشية من أجل نجاح غالى التكاليف ، أما المعركة المهمة في الحقيقة والتي سيكون الرهان فيها هو حياة جان - فرنسوا شامبوليون ذاتها والتي ستدور رحاها خلال الأشهر التالية فهي معركة حل شفرة اللغة الهيروغليفية . أصبح من الضروري جداً بالنسبة له أن يصل إلى هدفه وبسرعة . إذ أن الحل السريع للغز هو الذي سيسمح له - مستلهماً في ذلك الاستراتيجية النابوليونية - بكسر طوق

* إذ تمكن شامبوليون من قراءة كلمة أوتوكراتور على الزودياك بعد ذلك ببضعة شهور فلم يصعب عليه أن يثبت أنه يرجع إلى العصر الروماني .

الحصار الذى يهدده وإرباك « الحسابات » التى تواجهه .

أدرك - وهو قابع فى مقر إقامته أسفل سقف منزل شارع مازارين حيث كان بإمكانه سماع الأصوات الصادرة من الأكاديمية المجاورة . أدرك أنه قد ذهب بعيداً فى التحدى وأنه قذف بقفازه إلى مستويات عليا ، أبعد وأعلى من أن يكتفى الآن بالأعمال العادية مثلما يفعل أى مدرس تاريخ أو لغويات محترم * يتحتم عليه هذه المرة فى شحذ كامل لكافة طاقاته أن يحل المعضلة .

يجب علينا ألا نهمل هذا الجانب من الأمور فبينما كان يانج يرفه عن نفسه مدعياً عدم المبالاة بالتعامل مع الرموز الهيروغليفية فيما بين تجربتين من تجاربه فى علم البصريات ، وبينما كان أمثال ساسى وجومار وكاترومار يراجعون البرديات بعد إحدى المحاضرات أو بعد زيارة للسيد الوزير أو بعد حفل عشاء كان هو - جان فرنسوا منكباً على ملفاته وعلى قوائم أسرار وعواميد رموزه مثل الجندي المحاصر الذى سيموت جوعاً إن هو لم يجد طريقاً للهروب من الحصار . هذا الشامبوليون فيما بين عامى ٢١ و ٢٥ نراه رافعا سيفه وظهره إلى الحائط . فى حالة ميثوس منها ؟ بل فى مواجهة التحدى على كل حال ... لم يكن الموقف شبيهاً بذلك الآخر الذى صرخ فى وجه العاصمة : « باريس !! الصراع يخصنا أنا وأنت الآن !! » وإنما كانت الأمور أكثر مأساوية فهو التوتر الرهيب بين أوديب والكائن المخيف الذى يلوح له بتهديدات قاتلة .

هل كان اللغز لا يزال حقيقة على ختمه الكامل لم يمس بعد نشر المقال المطول الذى نشره يانج فى الانسيكلوبيديا بريتانيكا ؟ فلنستمع إلى ما يقوله جان - سان مارتان . تلميذ دوساسى ذو المقام الرفيع أمام أكاديمية المخطوطات والآداب فى ٨ فبراير ١٨٢٢ :

« ... إذا نظرنا إلى ماتبقى لنا من المصريين [...] فإننا نتأسى عندما نتذكر أن هذا الشعب الذى اتخذ كل هذه الاحتياطات لكى ينقل إلى الأجيال التالية ذكرى ديانتهم وقوانينه وعلومه وتاريخه لم يترك لنا سوى أثار بكماء مغطاة بكتابات مازالت غير مفهومة ويبدو أنها ستكون لفترات طويلة سببا فى أن يعرف العلماء معنى اليأس .. إلا إذا وهبنا الحظ .. الذى نريده أكثر مما نأمله - فجأة كتلة ضوء هائلة تسمح لنا بالسير بخطى ثابتة على دروب ظلت مجهولة حتى الآن » .

يأس العلماء ... لقد كان سان - مارتان يبالغ فيما يختص بيانج وبصورة مختلفة

* وهو مركز لم يعرض عليه أحد على كل حال .

بشامبوليون ... إلا أن الكلام يشهد على درجة الشك الذى ظل يخيم على المحيطين
بساسى - قاضى المعارف - وذلك بعد أكثر من ثلاث سنوات من تاريخ نشر
اكتشافات الطبيب الانجليزى .

بعد ذلك التاريخ بأربعين عاماً كتب إيمانويل بوجيه خليفة شامبوليون الثانى
على كرسى المصرىات فى الكولاج دو فرانس بشئ من الجسارة : « يمكن أن نؤكد بكل
شجاعة أن جميع أختام الكتابة الغامضة كانت مازالت سليمة لم تفتح عندما مد جان
فرانسوا شامبوليون يده ليكسرها . » إذا نحن تصورنا حركة يد الشاب وهى تمتد فى
عام ١٨١٠ ، نعم !! إنما إذا حدث ذلك فى ١٨٢١ حيث نقف الآن فليس ذلك صحيحاً
تماماً . سبق أن أوضحنا الجانب الظرفى والتأويلى والمتقطع لاكتشافات يانج .. إلا
أنها كانت موجودة فعلاً ... أما ماكان شامبوليون والعلم ذاته يبحثان عنه فقد كان
منظومة متكاملة لحل الشفرة .

حدد هنرى سوتاس فى مقدمته لرسالة إلى مسيوداسيه (2) عام ١٩٢٢ الشروط
الرئيسية لأى محاولة لفك الشفرة . يجب حسبما يقول هذا المحترف المخضرم : أ (أن
تكون ملماً بشكل أو بآخر بمضمون النص ، ب) أن تتكون لديك فكرة عن منظومة
الكتابة المستخدمة ، ح) أن يكون فى حوزتك عنصر واحد مضمون يسمح
بالإنطلاق .

بالنسبة للنقطة الأولى والثالثة كان لدى حلال الشفرة معطيات أساسية جيدة :
مضمون نص رشيد كان معروفاً أولاً فى ترجمته اليونانية . وثانياً عن طريق الحل
الجزئى لشفرة النص الديموطيقى التى قام بها ساسى واوكربلاذ وعلى وجه الخصوص
يانج . أما بالنسبة لنقطة الانطلاق فهى كما نعرف - تحديد اسم بطليموس (الذى
يمكن إرجاعه إلى يانج) داخل أربعة من الخراطيش المحفورة على حجر رشيد .

كان بالطبع الجزء الثانى من المشكلة هو الذى يوقف بل وأحياناً يقود بعض
الباحثين إلى اليأس وهو المتعلق بطبيعة النظام الذى تقوم عليه الكتابة التى يستخدمها
كهنة آمون . هل هى رسومات تعبر عن أفكار أو أشياء (ايدىوجرام) أو إشارات
رمزية ؟ هل هى كتابة أبجدية أو مقطعية مزدوجة ؟ هل تكشف بها رموزاً * لا تمثل
شيئاً أو ليست لها معان بالمعنى المعروف أى لها فقط مدلول تفقيطى بل زخرفى ؟

* مثلاً فعل يانج .

رأينا وسنرى أيضا أن شامبوليون سيسير فيما يتعلق بجميع هذه النقاط الأساسية أو بمعظمها - على غير هدى يناقض نفسه ثم يغامر ويعود إلى ما ساقه ، لا يخشى قط كباحث أصيل أن يلغى كل شئ ليبدأ من جديد . قناص وراء الحقيقة ، متواضع وسط كبريائه العظيم ، طيع ووثاب ، متعصب وناهم ، مهرطق ، ينتكس ويعترف ...

إذا كان جان - فرنسوا شامبوليون هو الذى سار من خطأ إلى حقيقة ومن طريق خطأ إلى آخر يؤدي إلى النور إلى أن نجح فيما فشل فيه آخرون أو اقتربوا من الحقيقة دون أن يدركوها فذلك لأن أحداً قبله لم يكن يمتلك الثلاث خصائص التى لا غنى عنها لحل اللغز : كان لغويا ومؤرخاً وفناناً . إذا وضعنا فى الاعتبار طبيعة الكتابة المقدسة وعلاقتها باللغة القبطية وتشابهها ببعض اللغات الشرقية الأخرى ، وإذا وضعنا أيضا فى الاعتبار دورها فى العصور القديمة جداً وقبل كل شئ الثلاثين أسرة والثلاث أمبراطوريات التى يتكون منها تاريخ مصر الفرعونية ؟ وإذا وضعنا أخيراً فى الاعتبار جمال هذه الحروف والعناية التى حفرها بها الكهنة والكتبة فلا بد أننا سنجد أن ما يحرك الباحث هو إعجاب وتدقيق جمالى لانهايان فى تعامله مع الهيروغليفيات التى هى نحوت من أجل الآلهة والملوك والأهم من ذلك أنه كان قادراً - لأنه رسام ممتاز - على نقلها رسماً .

رأينا شامبليون يناضل بكل قوته منذ طفولته الأولى يخزن اللغات ويقارن بينها ويقارن بين كتابة وأخرى من العبرية إلى العربية ، من الفارسية إلى السريانية ومن الكلدانية إلى الآثيوبية وعلى وجه الخصوص القبطية بل بلغ به الأمر أن استخدم أبحاثه فى مجال اللغة الصينية فى بحثه هذا .

كما أننا رأينا مدرس التاريخ الشاب فى جرونوبل يكس ويقارن (بمساعدة أخيه صاحب كتاب حوليات اللاچيد * بين التواريخ والأزمنة وبين أسماء الأسرات والميثولوجيات المقارنة : إن المرء لا يتعامل لسنوات طويلة مع مراجع الاسكندر وكليوباترا وقمبيز وقيصر دون أن يعطى ذلك لنظرة وأذنه وحواسه المشدودة حدةً وعبقورية خاصة .

كما أننا رأينا فى النهاية العناية والاعجاب الذى كان يفحص بها ويدقق ويطلب

* ملوك - معروفون أكثر بتسمية البطالة . وهم سلالة لاجوس زميل الاسكندر . (المترجم)

من صديقه دوبرا رسم قطع هذه المجموعة الأثرية وتلك وكيف كان يجرد الكنوز التي ضمها متحف مكتبة جرونوبل الصغير . فى حالة غياب مثل هذا الحس الجمالى هل كان يمكنه أن يكتشف النور ؟

يجب أن نضيف إلى كل هذه الايجابيات بعض مصادر القوة الأخرى التى حدثت بالمصادفة وعوضته عن بعض السلبيات التى أخرت حتى ذلك الحين باحث فيجاك وجرونوبل وهى ندرة المستندات وعدم دقة الصور أو الرسومات المنقولة عن الأصول ؟ ففى ذات اللحظة التى بدأ فيها شامبوليون ما يمكن أن نسميه إنطلاقة الحاسمة كانت تخرج من مصر روائع باعداد تفوق تلك التى خرجت منها فى عصر الرومان أو إبان حملة بوناپارت .

مجموعة من « جامعى التحف » اذكىاء وجسورون : قنصل فرنسا دروفيتى وقنصل انجلترا سولت ومواطنه بانكس وبعض الرحالة الأقل أنانية مثل عالم التاريخ الطبيعى الفرنسى من مدينة نانت : كايو أو المهندس المعمارى جان - نيقولا هويو (الذى سيكون دوره حاسما فى قصتنا) كل هؤلاء راحو ينزعون قطعة قطعة أجزاء من المشهد الثقافى المصرى الرائع : لوح وتمائيل وتوابيت - ثم بعد قليل مسلات كلها ذهبت عن طريق البحر تشرى مجاميع المتاحف الأوروبية الكبيرة من تورينو إلى لندن ومن فلورانس إلى باريس .

كانت قرصنة مخجلة . ولكنها أيضا عملية تجميع مستندات مفيدة . إذ بدون هذه السرقات المنظمة التى أثرت الرجال المعينين من حكوماتهم الأوروبية لحماية رعاياها لا لينهبوا البلد وتراثه لكان جان - فرنسوا انتظر فترة أطول بكثير ليحل اللغز . ألم يكن حجر رشيد ذاته الذى هو المفتاح - ثمرة سرقة مزدوجة - إذ وجد القناص الفرنسى من يصيده .

ابتداء من عام ١٨١٦ أفادت دون شك الموجة الثانية من « مجموعات التحف » التى أدارها دروفيتى وسولت ونفذها بلزوني « جبار مدينة بادوفا الإيطالية » الذى كان فى إمكانه تحريك قارات بأكملها والتى لم تقاومه سوى الأهرامات - هذه الموجة الثانية أفادت دون شك أهداف الباحث : إذ لولا المسلة الصغيرة التى انتزعها بانكس من فيلة ولولا بردية كازاتى التى اشتراها بلاط فرنسا ولولا الرسومات التى رفعها هيو ، لتأخرت مصر دون أى شك فى « النطق » .

قد نتأسى إذا تمكنا من التمييز بين الإكتشاف العلمى للشرق وبين غزوه المادى والعدوان العسكرى عليه وتقطيعه إربا وسرقة تراثه . هذا غير ممكن .. وعلى الرغم من الجهود التى تمكن شامبوليون من بذلها فيما بعد وهو أرض مصر من أجل ابقاء التحف فى مكانها * الذى شيدت عليه قبل ذلك بأربعين قرنا ومهما كان أوجوست مارييت هذا المحافظ الحقيقى مفيداً بعد ذلك إلا أننا يجب أن نقر أن مصر لم تبح بأسرارها بالتعذيب ...

هل نؤرخ لبداية المرحلة النهائية لحل شفرة الهيروغليفيات بالنسبة لجان - فرنسوا شامبوليون بتاريخ إقامته فى باريس فى ٢١ يوليو ١٨٢١ ؟ أم بشهر مايو السابق عندما طبع فى جرونوبل كتيباً من سبع صفحات وست لوح يتضمن المبادئ الأساسية لدراسته عن الكتابة الهيروغليفية - التى هى تبسيط نبيل للكتابة المقدسة : أم نؤرخ لها بالمحاضرة التى ألقاها عن نفس الموضوع فى شهر أغسطس ١٨٢١ أمام أكاديمية المخطوطات والآداب تلبية لدعوة من أخيه ومن مسيو داسييه .

كل ذلك لا يهم . إنما المهم هو أنه فى صيف هذا العام ١٨٢١ - أى قبل سنة من صرخة « وجدها » ١ - قدم « أول تجميع للنتائج النهائية الأكثر خصوبة » (3) . فقد أثبت بعد دراسة متأنية ودقيقة لكتاب الأموات والعصور المنقولة فى وصف مصر وهو يقارن علامة بعلامة وصورة بصورة إن الكتابة الهيروغليفية « ليست سوى تبسيط للمنظومة الهيروغليفية » وأنها لا تختلف عنها سوى بشكل العلامات « ويجب النظر إليها على أنها اختزال للهيروغليفية » . عن الكشف المقارن الذى أعده فى هذا الصدد والمتضمن ٣٠٠ علامة كتب هنرى سوتاس بعد ذلك بمائة عام يقول : « إنه لشئ مدهش اليوم ألا نجد فى هذا الكشف سوى هذا العدد القليل جداً من الأخطاء » (4)

هكذا يكون المبدأ الأساسى لوحدة - أو على الأقل لصلة القرابة القوية بين - طرق الكتابة المصرية الثلاثة - قد تحدد فى أغسطس ١٨٢١ ولكن إذا كان هذا الاكتشاف قد غدا أحد الأسس التى سيقم فوقه شامبوليون عمله فإن تطبيقه على نص رشيد بدا غير فعال لفترة طويلة إذ يقول المتخصصون أن نقاط الالتقاء بين شكلين لذات النص بنفس اللغة قليلة للغاية . ويرجع ذلك مثلاً إلى تبديل مكان أحد المنطوقات أو تعديل فى الشكل الإملائى . وفى هذا الصدد يلاحظ هنرى سوتاس على سبيل المثال

* علماً بأنه أحضر بعضاً منها إلى باريس .

أن اسم الإله العظيم بتاح يكتب ابجدياً فى الهيروغليفية ولكن بغير ذلك فى الديموطيقية ... وهكذا اتضح أن نقاط التشابه التى اكتشفها يانج بان طابق بين النصين تناقضت باستمرار مما تسبب فى حيرة الباحثين الذى كانوا يتحسسون طريقهم بتلك الطريقة .

التوصل إلى المبدأ الهام حول وحدة الكتابة المصرية لم يجنب جان - فرنسوا شامبوايون من مغبة الوقوع فى الأخطاء وفى فقدان الطريق الصحيح المتعلق بالجانب الجوهرى لهذا الأسلوب فى التعبير . إذ ظلت نظريته مشوشة لمدة عام آخر ولم تمكنه من الوصول إلى ماسيصبح مشاركته الفذة ألا وهو التحليل الداخلى - الطيفى - للكلمات أو لمجموعات الرموز .

منذ أن قام بخطوته الحاسمة فى ربيع ١٨١٨ والتى ضمنها فى خطابه المؤرخ ١٩ إبريل إلى جاك - جوزيف (« لا يوجد فى عملى شعوزة ولا سرية ») مرفقا بها قائمة هامة لتأويل الرموز * - وهو لم يتوقف عن التراجع والتردد فيذهب من تطرف لآخر فيما يتعلق بطبيعة المنظومة الهيروغليفية ذاتها وهل هى ايديولوجية أم صوتية ؟

إذا كان قد تجرأ فى محاضراته أمام أكاديمية جرونوبل فى أغسطس ١٨١٠ أن يعلن بكل الثقة وأكثر مما فعل نيبور أو زويجا قبل يانج أن الكتابة المقدسة صوتية (لفظية) فى طبيعتها فقد تراجع منذ ذلك الحين وتاه لفترة طويلة متجها ناحية التأويل الايديوجرافى أو حتى الرمزى . وهو يعترف فى خطاب ١٩ أبريل ١٨١٨ لأخيه إنه عاد إلى أفكار كليمان السكندرى أى - فى الأساس - إلى الايديوجرافية وما هو بعد شهر واحد يضع بعض « الارتوش » على وجهة النظر هذه : « سأقول لك باختصار أن ترتيب العلامات الهيروغليفية يتبع ترتيب كلمات جملة من اللغة المنظومة . » إلا أنه يؤكد « إن الهيروغليفيات لا تعبر عن أصوات بذاتها » . وإذا به يتوغل فى منطقة ضبابية فيضيف تأكيدين سينقضهما فيما بعد على أنهما غير صحيحين وهو أن الكتابة الديموطيقية سبقت الهيروغليفية وأنها أبجدية بحتة .

بعد ذلك بثلاث سنوات قبيل مغادرته جرونوبل ألقى محاضرة أمام أكاديمية الدوفينيه موصومة بالفكر الايديوجرافى فهو يؤكد فيها أن العلامات الهيروغليفية هى « رموز لأشياء » وليست أصواتا . ونراه فى نفس المرحلة يتوه فى دروب غريبة فينزلق ناحية الرمزية ونحو طرق تأويلية شديدة الغرابة إذ بلغ به الشطط إلى حد كتابة أن

* راجع فصل ٨ ص 320

كلمة بطليموس أتت بوليموس (« حرب » باليونانية) لأن الخرطوش المتضمن اسم الملك به شكل جميل لأسد وبالتالي فلا بد أنه يعبر عن القدرة القتالية ...

لكن سرعان ما سيعود إلى التدقيق العلمى .. وهى المرحلة التى أخذ يتمرن فيها باستمرار على نقل طرق الكتابة الثلاثة من واحدة إلى أخرى . إلى أن تمكن - طبقاً لما تقوله كاتبة سيرته مدام هارتلويان ومن بعدها علماء المصريين لوياج - رونوف ونافيل ودوبلهوفر - من « عمل ما لم ينجح أحد فيه قبله وهو ترجمة نص ديموطيقى رمزا رمزا إلى الهيراطيقية ثم ينقله بعد ذلك إلى الهيروغليقية ⁽⁵⁾ لكن هذه الحرفية الخارقة لم تجد قبولا لدى هنرى سوتاس إذ يجد أن هذا يعتبر من قبيل « الأسطورة الطريفة وليست حقيقة »

يبقى أن نخلص إلى أن فى بداية صيف عام ١٨٢١ كان « صغير » يكس الأسلحة والذخائر إلا أنه فى المحاضرة التى ألقاها فى أغسطس لا يزال مشبعا بالتفسيرات الإيديوجرافية ومع ذلك فإن جعبته كانت قد أصبحت حينذاك واسعة وغنية ومتنوعة ومراجعته غدت تزداد ثراءا بسرعة جعلته يشعر بقرب بلوغه الهدف . وأصبح كل ما يكتبه الآن يتم عن ثقة بالنفس منتشية .

وفى نهاية عام ١٨٢١ التى عصفت بها زوابع عديدة إبتداءً من أيام جرونوبل العنيفة حتى سفره قلقاً للإقامة فى باريس (الذى كان بمثابة « الهروب إلى مصر » بالنسبة له) ستهبط على الباحث أحد الألغامات التى ستضعه على الطريق الصحيح . إذ أنه سيقر - بعد أن أكد على وحدة المنظومة الكتابية المصرية - الاستحالة المادية أن تكون الهيروغليفيات مجرد إيديوجرامات بسيطة .

ففى يوم عيد ميلاده الثلاثين فى ٢٣ ديسمبر ١٨٢١ جاءته فكرة - كيف أنها لم تخطر على بال من سبقوه * وعليه هو شخصياً ؟ - أن يجرّد عدد الرموز الهيروغليقية فى حجر رشيد وكذلك الرموز الديموطيقية وعدد الكلمات اليونانية جرّداً دقيقاً . فأصابه الذهول عندما وجد فى مقابل ٤٨٦ كلمة يونانية ١٤١٩ هيروغليقية ⁽⁶⁾ كيف يمكن أن يكونوا إذن إيديوجرافات يعبر كل منهم عن فكره أو اسم أو شئ ؟ ... ثم ذهب فى حساباته إلى أبعد من ذلك محلاًلّ الجاميع الهيروغليقية فوجدها تنكّمش فى ١٨٠ رمزا وبالتالي يوجد فارق دائم بين العلامات والكلمات والمعانى .

* ومع ذلك رأينا كيف أن نيبوهر قد سجل مثل هذه الملاحظة قبل نصف قرن .

الخلاصة التي فرضت نفسها هي أن هذه الكتابة لا يمكن أن تكون رمزية أو إيديوجرافية فقط ولا أبجدية بمعنى الكلمة ولكنها يجب أن تكون صوتية أو على الأقل تتضمن عديداً من الرموز من ذلك النوع . وهكذا قام جان - فرنسوا شامبليون باستخدامه الطريقة الحسابية البحتة ، وهي في متناول أي دارس لكتب الأقدمين ، بخطوة حاسمة أخرى بعد الأولى المتمثلة في إثبات صلة القرابة التي تجمع الكتابات الثلاثة وهذه الخطوة الجديدة هي التعرف على الجانب الصوتي الجزئي للهيروغليفيات * فإذا أضفنا إلى يقينه بأن المنظومة الهيروغليفية - واحدة ونصف صوتية وأبجدية بشكل جزئي - تختزل استخدام الحروف المتحركة فيمكننا أن نعتبره قد جمع جزءاً كبيراً من معدات المشروع الكبير .

يجب بطبيعة الحال تطبيق المبادئ التي تستهدف الوصول إلى إقامة المنظومة - على النصوص المطلوب حلها إنطلاقاً من نقطة البداية التي أتاحها لتعرفه على اسم بطليموس الذي يدعى يانج أبوته عن حق . سبق أن ذكرنا جملة شامبليون التي أكد بها أن أي شخص قام بدراسة جدية للنص الديموطيقي لا يمكن أن يشك في أن الخرطوش يحتوي على اسم بطليموس ، إلا أن المشكلة الحقيقية تكمن في العثور على نسج هذا الاسم وتحليله وهو الاسم الذي تعرف عليه الطبيب الانجليزي ولكنه لم يفك شفرته بصورة سليمة .

سبق أن رأينا أن الدكتور يانج جمع في تفسيره لكتابه اسم الفرعون اللاجيدى (البطلمي) الحروف المتحركة والساكنة . والرموز الأبجدية والمقطعية والثنائية المقاطع وبعض الرموز الأخرى « التي لا تعنى شيئاً » : وكل ذلك مجتمعا يقرأ بتوليمايوس

في انتظار إمكانية توضيح النقطة الغامضة المتعلقة بالحروف « التي لا تعنى شيئاً » قام العالم الفرنسي بتصحيح ترجمة زميله الانجليزي على مراحل فلم يحتفظ سوى بالحروف ب ت ل م س ، وهو بذلك يعترف بموهبة سلفه في التخمين ويبين حدود فنه . وكان على شامبليون أن يوسع من نطاق تطبيق طريقته حتى تأخذ شكلها العقلي ولكي تتسع .

في يناير ١٨٢٢ وصلت إلى جان ليترون عالم اللغة اليونانية الكبير وزميل شامبليون السابق وأفضل من حل النص اليوناني لحجر رشيد صورة ليتوجرافية

* التي سبق أن افترضها نيوهر وأكدها زويجا ثم هو نفسه عام ١٨١٠ ومع بعض التحفظات يانج عام ١٨١٨.

لسلة صغيرة مقامة فى جزيرة فيلة ومخصصة لكليوباترا . كان هذا الأثر (الذى سمي « إبرة كليوباترة » بسبب صغر حجمه) قد أثار منافسات قوية بين قراصنة الآثار المصرية القديمة إلى أن نقلت فى عام ١٨٢١ إلى كنجستون هول فى مقر إقامة وليام بانكس صديق الدكتور يانج والذى كان يتشكك كثيرا فى منافسه الفرنسى .

كانت لهذه الصورة الليتوجرافية أهمية عظمى . فهى وإن كانت مكتوبة جزئيا فقط بلغتين لأن النصوص المنقوشة على قاعدتها لا تترجم الكتابات المصرية مثلما كان الحال فى حجر رشيد (الكتابات الأولى * تنقل مناشدة موجهة من كهنة إيزيس إلى بطليموس الثامن إيفرجيت المكنى « السجين » وإلى زوجته وأخته كليوباترا (7) أما الكتابة الأخرى فهى بروتوكلات ملكية (8) اسم كليوباترا موجود بها بوضوح وقد علم عليه وليام بانكس بالقلم وهو الذى قام بنسخ المستند الذى تسلمه ليترون ومنه إلى يد شامبوليون . تقول مدام هارتلوبان :

« شعر حلال الشفرة برعشة كهربية إيجابية لدى مشاهدته للمستند إذ وجد فى الخرطوش الملكى الثانى اسم كليوباترا مكتوبا تماما كما كتبه هو عندما كان ينقل النص الديموطيقى إلى هيئته الأصلية » (9)

يجب قبل أن نتحول إلى لب الأمور أن نشير هنا إلى أحد الإنتقادات الأكثر ترديدا فى حق جان - فرنسوا من غرمائه الانجليز :

إدعى كل من بانكس ويانج - وكلاهما ضد الآخر - أسبقيته فى التعرف على اسم كليوباترا ويوضح الأول أنه علم بذلك على النسخة المرسلة إلى باريس . حدث هذا بالتأكيد !! ولكن ماذا فعل كلا الباحثان الانجليزيان بهذا العنصر العظيم من معطيات البحث ؟ لقد بقى الأصل فى حوزتهما لشهور دون أى فعل أكثر من تحديد مكان الخرطوش حامل اسم الملكة .

أما جان - فرنسوا فهو لم يكتشف ماسة فحسب . لأن ما نعرفه من النتائج التى توصل إليها يسمح لنا بالاعتقاد بأنه لم يكن فى حاجة البتة لمنافسيه الانجليز لكى يتعرف ثم يفك الشفرة ويحلل اسم الملكة وهو الذى سبق أن عاينه فى النسخة الديموطيقية فى البردية المسماة بردية كازاتى .

* نقلها من الأصل وهو فى مكانه الأصلى الرحالة النانتى كايو عام ١٨١٦ .

بمقارنة الخرطوشين لبطليموس وكليوباترا التقى مرة جديدة في الاثنين بهذا الأسد الممدد والذي كان مدلوله في الحالتين هو حرف ل . سبق أن أشرنا إلى الفكرة التي تلح عليه منذ طفولته والتي نتجت عن رؤيته لشكل الأسد المحفور في واجهة مدفأة منزل الأسرة - وكذلك العلاقة التي أقامها بين اسم الحيوان وأسمه هو . فكتب لأخيه يقول بسعادة : « هذان الأسدان سيساعدان الأسد لكى ينتصر ! »

هل سنكون جديرين بالتصديق إذا أوضحنا هنا أننا بسطنا هنا هذه العمليات ؟ لا أحد يوضح تعقيد المسار الفكرى لشامبوليون بأفضل مما فعل هنرى سوتاس :

« [...] تعرض وضوح رؤيته منذ البداية للامتحان لأن حرف التاء (ط) يختلف في بطليموس وكليوباترا . لن نعبر بما فيه الكفاية عن إعجابنا بالوسائل الفنية والوثائق التي استخدمها الباحث لحل الحالات المختلفة [...] أليس ما يميز حلال الشفرة الجيد هو أن يتصرف فيما يخص بطريقة العمل مثلما يفعل بروتيه * ؟ إذا قارنا بين شرح المعطيات المزدوجة ك ، س والتبادل بين ر ، ل (نلاحظ) أن الشرح الأول نابع من المقارنة بين ذات الخراطيش بأشكالها المختلفة ، أما الثانية فهي نابعة من المواجهة بين المخطوطات الجنائزية بالخط المرسل وكان لا يزال غير مفهوم والثالثة من معرفة اللهجات القبطية ... » (10)

بالمرة نقول أن حلال الشفرة / بروتيه حقق اكتشافاً جديداً ومهماً . فحكاية حرف ت المختلف في بطليموس عنه في كليوباترا كشف له أن الكتابة المصريين كان في إمكانهم الاختيار بين هيروغليفيات مختلفة لتدوين نفس الصوت .. وهو ما يعقد المسألة ... دون أن يتسلل إليه اليأس أشار إلى هذه الأشكال التوأم والمتناقضة باسم الـ « هوموفون » .. وهكذا انفتح الطريق من جديد .

وعندئذ أصيب بحالة من النهم سيطرت عليه . أخذ يكتشف . من خرطوش لآخر جميع أسماء الملوك الذى خمن جان - باتيست بارتيليمى ببراعة أنها توضع في هذه الأطر البيضاوية المجيدة . وها هى أسماء اسكندر وقيصر تييريوس وجيرمانيكوس دومينيسيان وتراجان تندفع من وسط المخطوطات كما كانت تفعل في زمن مضى من كتب الأب دوسار - ثم يكتشف كلمة أوتوكرا تور - وهو لقب امبراطورى يرتبط باسم قيصر وهو الذى سيسمح له بضمهم على التوالى إدعاءات يانج الذى قرأه أرسينويه ومؤيدى التاريخ المطول لرسم الأبراج الذى جعلهم يقرون بوجود اللقب الامبراطورى

* بروتيه أحد آلهة الميثولوجيا اليونانية منحه أبوه يوسيدون إله البحار ملكة النبوة وقراءة المستقبل وكذلك الظهور فى أى شكل يريد (المترجم) .

الرومانى على معبد دندره فوجدوا أنفسهم فى موقف صعب حتى يؤرخوا له باثنى عشر قرناً قبل الميلاد * .

كان هذا الاختراق داخل التاريخ الجريكو رومانى وهو يروى بالهيريوغليفية مثيراً لدرجة أنه شده نحو خلاصة خاطئة . وهى أن الكهنة المصريين لم يكونوا يستخدمون الهيريوغليفيات الصوتية سوى عند كتابة أسماء الملوك الأجانب . وسنرى أن هذا الخطأ سيصبح نقطة انطلاق فى كتابه « رسالة إلى مسيوداسييه » وسيسيطر على فكره لبضعة شهور وأنه لن يتخلص منه سوى على مضض شديد .

بوجه عام كونت له مقارناته بين مضامين خرطوش كليوباترا وبطليموس رأسمال أساسى مكون من اثنى عشر رمزا : ب ت ل م س ك ن ر ا أى أى أو ** تم تحديد مكانهم والتعرف عليهم ووضع مداليلهم الحقيقية ومعانيهم . بقي بعض الحروف الغريبة التى أعطاها يانج وهو يقرأ فى إرتباك اسم بطليموس - « القيمة لاشئ » ...

وجد الإجابة على هذه المشكلة المحيرة فى يوليو ١٨٢٢ بمناسبة الجدل الدائر حول الزودياك مع جومار وبيو . إذ لاحظ وهو يرقب المجرات التى تزين الأثر الفلكى الصغير المأخوذ من معبد دندره كما يقول دوبلهونار « أن خلف بعض أسماء النجوم المكتوبة بالهيريوغليفية برسم نجمة صغيرة . نجمة صغيرة خلف اسم النجمة ؟ وفجأة سطع النور . فيقر بوجود ما أسماه بالحروف determinatif وهى رموز صامته تضاف إلى نهاية الكلمة لكى تميز بدقة أكبر مجاميع تكتب بنفس الإملاء ولكنها مختلفة صوتياً . إن هذه الرموز تعتبر عاملاً أصيلاً فى المنظومة الكتابية المصرية فى مجملها . »

إذ نجد على سبيل المثال فى العديد من الخراطيش وخاصة خرطوش كليوباترا رسماً لبيضة مائلة : وهو رمز للمؤنث . وكذلك بالنسبة للنباتات إذ يشار إليها بساق نبات مثله يعلوها تويج زهرة والحركة يشار لها بالبرجل الذى يأخذ شكل ساقى رجل يمشى .

هذا الـ « determinatif » يمكن نعطيه لشامبوليون ذاته ! فهو يسير بخطى عملاقة نحو الهدف . كل أسبوع يكتشف جديداً .. إلا أن ما يدهشنا فى هذه المرحلة هو صمته .. ذلك لأن هذا السباق الرهيب لا يكشف عنه للجمهور سوى نقطة نقطة وفى

* راجع ص 390 .

** واضح طبعاً أنه ليس نظاماً بدون حروف متحركة .

أكثر الأشكال حرصاً . لقد تعرض لكثير جداً من الضربات حتى الآن ومزاجه الجاسكونى تسبب له فى مشاكل كثيرة مما يدفعه إلى عدم كشف بطارياته قبل أن يكون على ثقة كاملة بنفسه .

المقال الذى نشره فى يوليو ١٨٢٢ فى المجلة الإنسيكلوبيدية بخصوص مسلة فيله والتى تسببت فى اغضاب وليام بانكس - لفت كلماته بالكثير من الحيلة وهو لا يعرض فيه سوى سلسلة من الافتراضات . وعندما نعرف ماذا كان حينذاك فى يده ونقارنه بما أخرج به إلى العلن فإننا نقول لأنفسنا أنه لفترة ما تغلب « المزاح الدوفينى » الذى تكلم عنه ستاندال قد كتم داخله النزعة الفرسانية المتهورة .

ولكن ها قد حان موعد مقابلة عظيمة سيضطر فيها أن يرفع القناع ويكشف عن لب القضية . فى ٢٢ أغسطس ١٨٢٢ دعى من أكاديمية المخطوطات والأدب إلى تقديم أعماله عن الكتابة الديموطيقية - وهى الكتابة الوسطى فى حجر رشيد والذى يسميها يانج « أنسكوريال » . هذه المحاضرة لم تنشر علماً بأنها أدت كما سنرى دوراً هاماً فى حياة شامبليون الصغير المهنية . لعله أعتقد أنها تتضمن تقريبات أو أخطاء كثيرة بحيث لم يسمح بنشرها . وعلى العموم فقد كتب لأخيه :

« الهيراطيقى * فقط هو الذى فى وضع الكمال ، وإن يكون أبداً أفضل مما هو عليه اليوم بعد عشر سنوات . إلا أنني أفكر فى إعادة بناء كل الديموطيقى بشكل أكثر تطوراً وعمقاً أنتظر رأيك »

وهو بالفعل سيراجع عدداً هاماً من النتائج التى عرضها فى محاضرة ٢٢ أغسطس ١٨٢٢

« الكتابة الديموطيقية مثل الكتابة الهيروغليفية وأيضاً مثل الكتابة الهيراطيقية كانت أيديوجرافية بطبيعتها . إن الرموز البسيطة التى تكونها مأخوذة دون أى تعديل من المنظومة الهيراطيقية . هذه الرموز البسيطة لدى مرورها إلى الكتابة الديموطيقية كانت فى كثير من الأحيان تتداخل طبقاً لقواعد خاصة بهذا النوع من الكتابة وهو ما يميزها فى الأساس عن الأوليين » .

هل كان أقل ما فى محاضرة جان - فرنسوا شامبليون جودة هو التأكيد على الجانب الإيديوجرافى لهذه الكتابات - وموضوعها كان عن الكتابة الديموطيقية ** مما جعل الحضور يستقبلونه بحفاوة كبيرة على الرغم من أن هذا

* بمعنى دراسته هو عنه .

** كان هذا ملخصاً فقط : أما الكتيب المكتوب فهو يتضمن ما يقرب من مائتى صفحة .

الحضور كان فى الأصل متحفزاً ضده حتى أن بعض النظرات كادت تخترق جسده . وما أن عبر فى نهاية المحاضرة عن وعده بأن يعود بعد فترة وجيزة إلى مستمعيه الذين دعاهم مسيو داسييه ليعرض عليهم حصداً أجد وأغزر حتى دهش للغاية بأن رأى الجمهور غير الودى تجاهه من حيث المبدأ يعبر له عن تأييده الحار .

ساسى ذاته ، ساسى بوجه الخصوص وقف ثم تقدم نحوه وأخذ يديه بين يديه وانهال عليه بالمديح السخى . وعلى الفور اقترح نشر نص المحاضرة على حساب الدولة هل وضع هذا حداً للحرب ؟

كانت فى جميع الأحوال بداية هدنة ستتضح لتصبح سلاماً فى البداية ثم حلفاً فى النهاية . كان هذا الحدث مؤثراً للغاية فى حياة الباحث المهنية لأن عداوة سيلفاستر دوساسى لم تجرح أحساسه المرهف فحسب منذ عشرة أعوام ولكنها كانت تؤثر سلباً عليه على المستوى العلمى وتحد من حركته وتثير ضده الحزب « الانجليزى » . تبدد الغيوم هذا فى صيف ١٨٢٢ سيسهم فى التفتح القريب لجان - فرانسوا شامبوليون .

رأينا كيف أن هذا المديح لم يغشى وضوح رؤية الباحث ... إذا كان « الجيزويت » يصفق له بكل هذه الحرارة ألا يرجع ذلك إلى أن المحاضر فى حديثه عن الكتابة الديموطيقية بدا وكأنه يغير فكره عن التفسير الفونيتيكي الصوتى للمنظومة المصرية ويعود إلى فكرة الإيديوجرافية التى يتمسك بها ساسى ؟

سنقرأ فيما بعد فى « ملخص » شامبوليون :

« بقيت باصرار على هذا النهج الخاطيء إلى أن أجبرنى وضوح الحقائق إلى الإقرار بالمدلول الصوتى لمجموعات كثيرة من الهيروغليفيات الموجودة فى المخطوطات التى تغطى الآثار المصرية فى كافة العصور . »

فى بداية سبتمبر ١٨٢٢ كان شامبوليون الصغير قابلاً فى المخزن / المكتب بالدور الثالث فى شارع مازارين وهو فى حالة نشوة ومحموم مثل أحد ملاحى كرسنوفوس كولومباس وهو يقترب من شواطئ الهند ، وراح يجمع العشر أو الاثنى عشرة معطيات أساسية التى جعلته يجمع اشعة الضوء ويركزها بإصرار وعناد لى يحقق الاختراق النهائى الحاسم .

أن تكون اللغة القبطية هى لغة تخاطب الآلهة أنفسهم وكذلك الملوك والكهنة الذين بدأت كتاباتهم تتكشف له - فهذا ما نعرفه منذ زمن كيرشار . ولكنه - أى جان

فرنسوا - قد تعلم الكلام « باللغة المصرية » كما يتكلم لغته الأم . وأصبحت عادية بالنسبة له لدرجة أنه كان يتكلم بها وحده ولذاته لإسعاد نفسه . كان هذا من الإيجابيات الرئيسية كما سنرى .

وهو إذا كان يتكلم القبطية مثل أحد الكهنة المسيحيين فى وادى النيل فهو يتدرب منذ سنين طويلة على نقل نص من طريقة كتابة إلى أخرى فى الثلاث كتابات الفرعونية. إن حرفيته فى هذا المجال حتى لو لم تصل إلى الدرجة التى يحلو لدام هارتلوبان أن تمتدحها فهى فى جميع الأحوال لا مثيل لها . سهولة حركة اليد تساوى حركة الكلام .

إنه اكتشف أو هضم الخمس أو الست مبادئ أساسية التى ستسمح له بالسيطرة وترتيب وتنظيم إكتشافاته المقبلة . أولاً أن الطرق الثلاث للكتابة ومنها اثنتان مستخدمتان فى حجر رشيد تكون منظومة وحيدة ومتماسكة علماً بأن الكتابة الهيراطيقية والديموطيقية لا تختلفان بتاتاً سوى فى الشكل الهيروغليفى الأسمى .

ثم أن الهيروغليفيات لها قيم صوتية وايدىوجرافية وأن الأصالة العظيمة لهذه المنظومة تكمن بالذات فى هذه الثنائية المشتركة وتظهر فى كل لحظة فى العملية التعبيرية وتتطلب من الذى يفك شفرتها مجهوداً مستمراً من التركيز والتجميع بين الصور والأصوات إذ أنها متداخلة على الدوام .

وأخيراً أن أسماء العلم من أصل أجنبى (يونانى ورومانى بوجه خاص) تكتب بشكل هيروغليفى بحروف أبجدية أو أبجدية ومقطعية فى آن واحد أو رمزية - وذلك يجعل هذه المنظومة طبيعية للغاية ولكنها معقدة أيضاً للغاية .

وقد اكتشف أيضاً أن الكثير من العلامات يمكنها أن تأخذ نفس الدلالات من نص لآخر فى حين أن علامات أخرى ليست لها سوى وظيفة صامتة تهدف إلى الإشارة إلى التفريق أو تحديد الطبيعة أو الوظيفة أو جنس الشخص أو الشئ الموضوع فى الاعتبار وهو يعرف فى نهاية الأمر أن الحروف المتحركة لا تؤدى فى هذه الكتابة سوى دوراً بسيطاً يقترب من العدم مثلاً هو الحال فى العربية أو العبرية .

تأسيساً على هذه المعطيات العامة التى هى ثمار حوالى خمسة عشر عاماً من الدراسة * بدأ عملية فك الشفرة المنظمة معتمداً على الإثنى عشر رمزا التى كشفت

* ١٨٠٧ - ١٨٢٢

عنها خراطيش العاهلين البطلسيين . ما أن كشف وطبق المبدأ المحرك للمنظومة بمعنى التداخل الوثيق والدينامي للمصور والمسموع يمكن حينئذ القول إن لم يكن شامبوليون قد إكتشف عمليا لغز الهيروغليفيات (11) لأنه سيعبر من إكتشاف إلى إكتشاف تالي فعلى الأقل أنه مهد الطريق نحو الحل الشامل .

هنا يكمن الفرق الجوهرى بين الباحث القادم من جرونوبل وطبيب لندن اللامع . هذا الأخير يتحرك مثل الصاعقة من علياء صحابته المضيئة يلقى هنا وهناك بسهمه ويقذف ببرقه فوق هذه البقعة أو تلك ذاهبا من حدث إلى صدفة ، من كشف صغير إلى فكرة تقريبية معطيا للحدس براءات الأوسمة . أما الآخر فهو يجمع الأسلحة من على الأرض ويجمع ترسانته ويسير من معرفة إلى إكتشاف - ينسحب من نقطة ما ويجمع حينذاك قواه بعد توقف يعيد فيه النظر ولا يكتفى أبداً باللف حول العائق بل يهاجمه ويحدده ويسويه بالأرض . يذهب من المعرفة إلى العلم بواسطة المنهج .. وذلك لا ينفى الإلهام أو ضربات الحظ .

يوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ صحا جان - فرنسوا شامبوليون من نومه مبكرا . كل يوم يمر أصبح له قيمة من الآن فصاعدا . فيأتى له بحصاد جديد من المستندات والمقارنات . إذ منذ الاستقبال الحار من الأكاديمية للمحاضرة المحاضرة التى ألقاها عن الديمقوطيقية أصبح مثل المغناطيس . كل شئ يتركز فى اتجاهه ويذهب نحوه وبداخله وصولا للنجاح . بعد أن كان منبوذا محاصرا وقد وصل تقريبا للحظة اليأس قبل أربعة عشر شهرا ها هو الآن وقد هب الريح فى شراعه أو كما يقول العربى الذى بداخله فقد حلت عليه « البركة » .

أصوات الصباح الأولى المتصاعدة من شارع مازارين الهادئ لم تكن لتشتت أفكار الباحث القابع فى مخزنه بالدور الثالث . جاك - جوزيف خرج إلى الإنستيتو المجاور حيث يهيمن على المكتبة . الصباح سيكون خيرا لباحثنا : فقد استلم لتوه صورا طبق الأصل من رسومات محفورة نقلها جان - نيقولا هوبيو (12) أثناء إقامته فى مصر والنوبة (١٨١٨ - ١٨١٩ ؟) وهو أستاذ للعمارة فى مدرسة الفنون الجميلة وعضو فى الإنستيتو * ومشهور باناقة رسومه وبدقة ملحوظاته . وكانت الرسالة التى

* كان المسئول عن بناء قوس النصر بميدان ليتوال فى باريس ، وكان شامبوليون ينوى أن ينشر معه كتابا مشتركا عن مصر .. إلا أن الفكرة لم ترى النور .

وصلت شامبوليون عبارة عن خراطيش منقولة من « باروليف » من معبد أبو سمبل وهو ما يعتبر خبراً مبارکاً بالنسبة للباحث الجائع .

أخذ يدقق فى أول مستند من رسومات هيو . برز وسطه خرطوش يرمز بالطبع إلى اسم ملك . أخذ جان - فرنسوا يفرك عينيه . إذ أن المجموعة التى أمامه تتكون أولاً من أسطوانة تشبه الشمس لونها طوبى أحمر ثم شئ مثل حرف له ثلاثة أرجل تعلوه سنبله لها ثلاثة فروع * وأخيراً علامة مزدوجة على شكل مشنقة مستديرة (مثل تلك التى تكمل خرطوشه بطليموس وقيمتها هى حرف س) هذه المجموعة لاتمثل ولا ترمز لأى ملك بطلسى أو رومانى : إذ أن جان - فرنسوا قد اكتشفهم جميعاً . يجب البحث فى اتجاه آخر . فكرة سابقة ؟ محتمل .

لم يصعب عليه إعطاء مدلول س أو س مشدوده للعلامة المزدوجة التى على اليمين (تقرأ الهيروغليفيات كما يعرف سواء من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين) ولكن ما هذه الأسطوانة الشمسية التى على اليسار ولونها طوبى أحمر ؟ هل هو شمس : بالقبضية الشمس إسمها رع .. فى هذه الحالة إذا كان الرمز المزدوج الختامى ينطق س أو سيس وإذا كان الأول هو رع فيكفى أن يكون الحرف الوسيط المثلث الأرجل له قيمة الـ م حتى يكون هو ... ؟ جان - فرنسوا - راح يكتف أنفاسه .. - أمام خرطوش أكثر الفراعنة شهرة ومجداً : رمسيس ولعله أعظمهم على الإطلاق رمسيس الثانى ... كيف لا يفقدا هدوءه ! هنا أمام عينيه يحتوى هذا الخرطوش على اسم ملك وادى النيل العظيم ؟ بل أكثر من ذلك ثبت له أن نظريته التى كان يعتقد أنها لا تنطبق سوى على أسماء الملوك الأجانب فى العصور المتأخرة يمكن تطبيقها على أقدم العصور ، أزمنة الأسرات العظيمة لمصر العتيقة ؟ هو الذى كان يحاول أن يخترق الزمن من طريق جانبي ثانوى وجد نفسه مدفوعاً فجأة إلى الساحة الرئيسية أمام بوابة الزمن الضخمة يعبر فى قفزة واحدة القرون الغامضة وليجد نفسه وسط الضوء الكامل . هل هذا معقول ؟ رمسيس ! ...

كيف يتأكد من أن ما يراه ليس حدس تخمينى أو خلط بين رغباته وواقعه العلمى ؟ فمسك بورقة ثانية من مستندات هيو . ها هو خرطوش آخر يضم مجموعة رموز أخرى غير معروفة حتى الآن . مختلف هو الآخر عن الاسماء المتأخرة التى تعود عليها . وراح يتأمل فى عجلة محمومة . إلى اليسار طائر ايبيس . ثم نفس الإشارة

* هذا الفرع يصفه علماء المصريات بأنه ثلاثة نيول لعلب منك معقودة .

ذات السيقان المثلثة والواقفة . والذي سبق أن سجلها فى الخرطوش الذى أرجعه لرمسيس وأعطاه دلالة حرف م - وفى النهاية هذا الشكل الشبيه بالمشنقة أو عامود إنارة الذى يقرأ س فى الخراطيش الخاصة بالملوك اليونانيين والرومانيين وإفتراسيا فى خرطوش رمسيس الأخير .

أليس الإيبيس هو الإله تحوت العالم ، صافى الذهن مخترع الهيروغليفية ذاته !! . وإذا كانت قراءة هذا الرمز هى تحوت بالفعل والرمز الثانى قيمته م والأخير س أو إس فيكون الاسم هو تحتمس - لعله الثالث المجيد والفتاح . هائل ! نجحت أول مضاهاه والمعجزة تؤكد معجزة أخرى .. ماكان فيه مخاطرة فى القراءة المنفصلة لرمسيس أو تحتمس نقص إلى أقل درجة ممكنة إذا ما أجرينا مقارنة بين مجموعتى الافتراضات فالأولى تساعد الأخرى وتعضد بعضهما ها هو بعد خطوتين متتاليتين سريعتين قد دلف إلى قربى إثنين من أمجد الفراعنة .

يجب ألا ننسى هذا الخطاب الذى حرره فى ٢١ أبريل ١٨٠٩ إلى جاك - جوزيف :

« لغتى القبطية مستمرة على نهجها السلس وأجد بالفعل سعادة عظيمة فى ذلك فأنت تدرى ولا شك أن السعادة لايمكن أن تكون صغيرة عندما أتكم لغة أعز أعزائى امينوفيس الثالث وسيتوزيس ورمسيس وتحتمس ... * »

وها هو الآن لا يكتفى يستمرى نطق أسمائهم كما لو كانت قطعاً من الحلوى فحسب بل إنه يتعرف عليهم بعد ثلاثة عشر عاماً ويقرأهم أيضاً !! لا يمكن أن يكون على الأرض إنسان أكثر سعادة من جان - فرنسوا فى صباح ذلك اليوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢

كريستوفر كولومبس كان يأمل فى الوصول إلى شواطئ الهند وإذا به يكتشف جزر الهند الغربية ولن يتمكن من تحديد مكانها بدقة أو حتى تسميتها .. وشامبوليون كان يجتهد لحل شفرة اللغة الهابطة نوعياً لآخر عصر الأسرات فى وادى النيل باعتبارها جسراً نحو معرفة الفترات التاريخية العظمى فانعطف ليجد نفسه فجأة عند قمة الحضارة المصرية . مهما كان تصويبه عاليا ومهما كانت جسارته طموحة فهو لم يحلم قط بالوصول إلى كشف مبهر ومباشر وكامل على هذا المستوى . إنه بالفعل أمام نظام ليس مزدوج بل ثلاثى إذ أن الهيروغليفيات تعنى فى ذات الوقت وبالتناوب أصواتا

* انظر ص 182

وأفكاراً وهذه الأخيرة تتمثل فى معنى حقيقى أو مجازى . رع وتحوت ، شمس وطائر إيبيس تشاهد فى حين أن م و س هما حروف أبجدية ، تسمعان . وعلاوة على ذلك فإن المجموعة المكونة من م س قلها معنى وهو : « ولدته » . المنظومة أصبحت الآن كاملة تماماً .

يعيش جان فرانسوا منذ أربع أو خمس ساعات حالة شديدة من الانفصال والقلق تصعب السيطرة عليها . فقد أجبر نفسه بإصرار على التجربة والمقارنة إلى المراجعة فى المستندات التى حصل عليها من هويو للتحكم والسيطرة على الانفجار النوراني العنيف .. لم يعد يتمالك نفسه . كيف لا يحيط علما الشخص الذى شاركه آلامه وصاحبه أو أرشد خطاه بالخبر العظيم ؟

قبيل منتصف النهار اندفع خلال الشفرة (أخيراً يستحق بالفعل اللقب !) وفى يده مجموعة أوراق على السلم إلى شارع مازارين وبخطي سريعة وصل إلى مكتبة الأنستيتو / المعهد . ودفع الباب إلى مكتب جاك - جوزيف وهو يصرخ : « تمكنت من الحل » ثم - حسبما تقول الأسطورة التى يسردها ابن أخيه ريميه ومن كثرة ما تتردد أصبحت تتمتع بقوة القانون التاريخى - إنهار فى حالة من « الإغماء الصرعى » *

أن تكون هذه الأغمائية قد استمرت لعدة ساعات أو لعدة أيام (؟) - أسطورة أخرى - المهم هو أن تبيض مسودة الملاحظات العظيمة التى قام به جان - فرانسوا شامبوليون فى ذلك الصباح قام به بقدر كبير أخوه الأكبر . تابع جاك - جوزيف أبحاث أخيه خطوة خطوة وسطر سطر . وإذا كانت هذه المرحلة الأخيرة تكتسى أهمية أكبر بل قد تكون من نوعية مختلفة إلا أنها كانت مألوفة له . وطبقاً لما يذكره ابنه ريميه فإن المسودة الأولى لما سيطلق عليه اسم خطاب إلى مسيوداسييه والمحزر فيما بين ١٤ و ٢٢ والمؤرخة ٢٥ وتليت أمام الأكاديمية يوم ٢٧ كانت بقلم جاك - جوزيف .

ولكن حذارى ! فبسبب الحيطة المتناهية بل وأكثر من ذلك بسبب الدقة العلمية

* توجد عدة تفسيرات لهذا المرض الغريب . منها أنها « كوما المرض السكرى » وعندما استشار المؤلف الدكتور لوبييتكى استبعد هذا الفرض . لأنها إذا كانت على الشكل الموصوف وفى تلك الظروف فلا يمكن أن يخرج جان - فرانسوا منها حياً . وفى رأى هذا المتخصص المرموق قد تكون الحالة من حالات الناركوليبيا الخدار (حالة مرضية تتميز بنوبات نوم عميق قصيرة ومفاجئة تتوأكب مع فقدان العضلات لقوتها) إلا أن هذه النوبات لا تدوم أكثر من عشرين إلى ثلاثين دقيقة ... ولذلك فهو يرى أن مصدر هذه الحالة يرجع على الأرجح إلى سبب نفسى عصبى أكثر منه متعلق بالأوعية الدموية . إلا أن أى تشخيص لا يمكن أن يكون سهلاً بالنظر إلى عدم الدقة الأسطورية الذى يتسم به هذا الحدث .

لحلل الشفرة فإن المحاضرة المشهورة التي استمع إليها كل من سكرتيرها الدائم وأقرانه لا تعكس بشكل مباشر ما حدث من معجزة صبيحة ١٤ سبتمبر ويكفى أن نقرأ نص موضوع الخطاب إلى مسيو داسييه عن الأبجدية الهيروغليفية الصوتية التي استخدمها المصريون لتحرير القاب وأسماء وكنيات الملوك اليونانيين والرومان على أثارهم فنلاحظ أن العلاقة ضعيفة للغاية بين « يوريكا » (وجدتها) ! في ١٤ سبتمبر وما سيتم إبلاغه للمجتمع العلمي بعد ذلك بثلاثة عشر يوم . ويجب الانتظار نهاية نص الخطاب قبل أن نقرأ أن الكتابة الصوتية لم يخترعها الكهنة المصريون لكتابة أسماء الملوك اليونانيين والرومان ولكنها اخترعت « في فترة متأخرة للغاية » . لا إشارة واحدة إلى رمسيس أو تحتمس ...

يثير الدهشة هذا الجانب من عبقرية هذا الجنوبي المتحمس والمبالغ والمتهو . والذي يستطيع مع ذلك أن يحتفظ لنفسه بالجانب الأساسي من اكتشافه الذي هزه . زأ كما هز مجال المعلومات الذي تجول فيه لفترة طويلة . فهل يمكن أن نتصور بورتن مثلاً أول من يعود بعد اكتشافه منابع النيل ويكتفى بأن يعلن أنه وصل إلى الشلال السادس .

لم يتمكن أحد من إيجاد شرح مقنع لتحفظ حلال اللغز .. ذكر بعضهم الدقة العلمية كسبب .. إنه بالفعل سبب وجيه إذ أن بضعة ساعات من المقارنات بل وبضعة أيام فيما بين ١٤ و ٢٢ سبتمبر قد تبدو غير كافية لهذا الزوج من علماء اللغة . وكان سيل المستندات (والآثار ...) قد بلغ درجة جعلت جان - فرنسوا محقا في أن يعطى نفسه فترة زمنية للتفكير . ولكن يجب أن يكون المرء واثقا للغاية من نفسه (في هذه الحالة نكون بصدد غرور أكثر من كوننا أمام حالة . حذر ؟) لكي يحتفظ بهذا الكشف تحت إبطه .

نرى في هذا الإخفاء المغرور والمتعقل نوعاً من التحية لهذا الشرق المحجب وإلى هذا السر الذي ظل محفوظاً لكل هذه الفترة الطويلة ولهذا الـكتمان* (كذا) والذي أجاد ماسينيون في الحديث عنه . كما هو تحية لسر هؤلاء الأموات الذين دفنوا رفات الملوك - الآلهة تحت أضخم تراكم من الأحجار تمكن الرجال من تشييده وختم مقابر الفراعنة إلى الأبد ... إن السر الذي احتفظ به من مسه الالهام فأصبح المكتشف هو رمز عظيم من المشاركة مع العالم الذي أفشى سره .

باختصار نقول إن الشقيقين شامبوليون : واحد يملأ والآخر يدون - ولعله أيضاً

* بالعربية في النص الأصلي [المترجم] ويشرحه المؤلف على الهامش : بأنه حق الإخفاء الذي يلجأ إليه المؤمنون وخاصة الشيعة في علاقاتهم بالسنة من أجل سلامة مجتمعهم .

يشارك بأسلوبه الشخصي في أناقاة النص المكتوبة به الرسالة أخذاً يعدان على عجل المحاضرة - ولو أنها كانت محدودة الحجم سواء للأسباب التي ذكرناها للتو ولأن الأكاديمية لا يمكنها أن تمنح للباحث الشاب سوى ساعة واحدة فهي مع ذلك ستكون بمثابة بيان رسمي بميلاد علم جديد : إذ حل علم الأحياتولوجيا محل ما كان يسمى بالاجيتبوجرافيا .

احتاج إعداد النص وطبع بضعة عشرات من النسخ لتوزيعها على الحضور المتوقع وإرسال دعوات لبعض شخصيات أجنبية (مثل يانج وهوميولدت) عدة أيام . وكان يجب أيضاً اختيار الأشخاص الذين توجه لهم الرسالة . كانت الرسالة ستوجه في البداية إلى « سيو البارون سيلفاستر دوساسي رئيس الأكاديمية » . إلا أن جان - فرنسوا هو الذي قرر أنها ستوجه لا إلى المعلم الذي أيد آرائه في مرحلة متأخرة للغاية .. وإنما إلى « الرئيس العزيز » داسييه الذي لم يضمن عليه بالرعاية قط .

وجاء يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ دون في السجل المكتوب باليد للأكاديمية الملكية للمخطوطات والأدب أن يعد مشاركات عديدة من السادة : نوديموزا وجومار وسيلفاستر دوساسي دعى مسيو شامبوليون الصغير إلى قراءة بحث على الهيروغليفيات الصوتية (١٣) ...

الجو كان ممطرا والصالة مزدحمة . قرأ مكتشف السر الذي كان سيحتفل بعيد ميلاده الثاني والثلاثين بعد ثلاثة شهور . الصفحات الثمان التي اختصر فيها كتابه مؤقتا والتي نشرت بنصها في طبعة أكتوبر من صحيفة العلماء Journal de Savants نتصوره وجلاً مأخوذاً فهو الذي وصفته الماركيز دوساييه بأنه غير قادر على « التعبير عن نفسه بسهولة » ولا على « دعم بريق أعماله » . ولكن وباعتراف جميع الشهود كانت المحاضرة مثيرة للغاية .

احتفى داسييه وساسي وريموزا وهوميولدت بالشاب ولكن ماذا عن يانج ؟ كان الطبيب الانجليزي جالسا إلى جوار المحاضر وأخذ موقفاً طيباً بل أنه لم يبخل عليه في بادئ الأمر بتهانيه * هل هي ثورة ؟ عصر جديد ! إنه لم ير الأشياء على هذه الصورة بل على أنها تكملة لأعماله هو قام بها شاب موهوب . كتب إلى وليام هاميلتون - الذي انتزع حجر رشيد من الفرنسيين - : « حتى لو أنه استعار مفتاحاً إنجليزياً فإن

* سنرى في الفصل التالي ماذا كانت آراءه الخفية .

المزلاج كان صدهاً لدرجة مخيفة لا يستطيع أى ذراع عادى مهما كانت قوته من إدارته فيه [...] إن حياتى تبدو كما لو أنها طالت بالحصول علي مساعد أصغر سناً .. « بعد ذلك ستتغير اللهجة والأغنية ذاتها أيضاً . أما فى الوقت الحالى « فالسعادة المحلقة (اليوفوريا) « هى السائدة .

بعد بضعة أيام أمكن لجان - فرنسوا أن يكتب خطاباً لأخ زوجته أندريه بلان .

« هذا الاكتشاف الذى أعلنت به الانستيتو فى ٢٧ سبتمبر أثار الدهشة وفرض على الجميع حتى أولئك الذين وقفوا بعيداً عنه لأسباب حزبية أن يصفقوا ويؤيدوا . [...] وبعد ذلك بيومين أعلنت الصحف عن الموضوع والشئ الذى أدهشنى وليس بالقليل أن (العلم الأبيض) Drapeau Blanc * كان من أول من تحدثوا عن المحاضرة ... » (14)

كتب لاموتير أونيفرسال Le Moniteur Universel عرضاً فى أول أكتوبر . جاء فيه : « يتضح من الدراسة الأخيرة للأكاديمية أن بعض الهيروغليفيات تكتسى مدلولاً صوتياً . واكتشف مسيو شامبوليون الصغير أبجديتها نقلاً عن الآثار نفسها . الرموز التى جمعها توازى الحروف الساكنة والمتحركة للأبجدية اليونانية . عند تطبيقها على الكتابات الهيروغليفية التى تزين الآثار المصرية تمكن من التعرف بسهولة فى معظمها على أسماء الإسكندر الأعظم وبطليموس وكليوباترا وبيرييس . »

ملاحظة من السيد لوكلان (15) : « عرض الموضوع فى المقال واضح لدرجة أنه يمكن التعرف على العلامة المميزة لآل شامبوليون عليه بشكل بين . « إلا أننا سنسمح لأنفسنا أن نعترض على هذا المعلق العلامة أن صاحب المقال أعطى على الرغم من ذلك إلى « آل يانج » سياط ليضربوا أنفسهم بها بما أن جميع الاسماء المذكورة على أنها اكتشفت من الباحث الفرنسى يدعى غرماؤه الانجليز بأنها اكتشافاتهم هم . إننا نعرف اليوم القيمة الحقيقية للحجج المتبادلة . ولكن فى أكتوبر ١٨٢٢ اكتست هذه التفاصيل شكلاً مستفزاً بعض الشئ .

نشرت رسالة إلى مسيو داسييه فى نصها الكامل منذ نهاية شهر أكتوبر على يد فيرمان ديدو « صاحب مطبعة الملك والإنستيتو » وصاحب مكتبة بشارع جاكوب - على هيئة كتيب يحتوى على ٤٤ صفحة وأربع لوحات مزينة بصور عديدة . إن قراءة هذا النص المشهور جيداً والذى يكاد يكون مهملاً فى آن واحد تشير

* من الصحف (اليمنية) المتطرفة

الدهشة أحياناً. فمنذ السطر التاسع للصفحة الأولى نقرأ أن الكتابات المرسلة المصرية هي كتابات « إيديوجرافية » * مثل الهيروغليفيات ذاتها أى أنها « تصف أفكاراً ولا تصف أصوات اللغة » التصحيح لن يذكر سوى فى الطبعة الثانية إذ صحح المؤلف نفسه بأن قال « نصف الأفكار تاره وأصوات اللغة تارة أخرى » وفى صفحة ٣ يأتى ذكر « هيروغليفيات تتمتع بإمكانية التعبير عن أصوات الكلمات مستثنية بذلك الطبيعة العامة لرموز هذه الكتابة » . إن الذى يجعل هذه المرجعية إلى « الطبيعة العامة .. لهذه الكتابة » مثيرة للدهشة هو أن « رسالة إلى مسيوداسييه » تظل فى تاريخ العلوم المرجع الرسمى للطبيعة المزدوجة - الصوتية والإيديوجرافية - للكتابة اقدسة لقدماء المصريين ...

« لا يمكن اعتبار الكتابة الصوتية للمصريين منظومة ثابتة لا تتغير مثلما هو الحال بالنسبة لأبجديتنا . لقد تعود المصريون على التعبير المباشر لأفكارهم ، والتعبير بالأصوات لم يكن سوى وسيلة ثانوية فى كتاباتهم الإيديوجرافية - ثم عندما ظهرت لهم فرص متكررة لاستخدام التعبير بالأصوات فقد عملوا على زيادة نطاقات استخدامهما إلا أنهم لم يستغنوا قط عنها على الرغم من ذلك فى كتاباتهم الإيديوجرافية المعتمدة من النيانة ومن الاستخدام المستمر لها لعدد كبير من القرون . »

وبعد أن قدم التحية لاسلافه ساسى وأوكربلاد ويانج قام جان - فرنسوا شامبوليون بوصف عمليات فك الشفرة التى لجأ إليها بالنسبة لبطلليموس وكليوباترا والاسكندر وبيرينس والباطرة الرومانيين . وخلال السرد أخذ يذكر المبادئ التى أقام عليها منهجه والتى ستعطيه قيمته العلمية :

« ... من أجل التعبير عن الأصوات والمنطوقات ولكى يشكلوا بذلك كتابة صوتية أخذ المصريون هيروغليفيات تمثل أشياء مادية وتعبر عن أفكار تبدأ أسماؤها أو الكلمات الدالة عليها فى لغة الكلام بالحرف المتحرك أو الساكن الذى يراد تصويره »

* التأكيد موجود فى النص الأصيل .

ثم أخذ يعدد الكلمات القبطية لابيوى (أسد) ويمثلها أسد ممدد له قيمة حرف ل ،
هـ . (إناء من الألبستر) حرف ن توت اليد : حرف ت ؟ رو ، الفم ، حرف إلخ .

ولكن إلى أى حد يمكنه أن يمسك عن البوح بالسر الذى يكاد يخنقه وهو تطبيق
الهيروغليفيات الصوتية ليس على الاسماء الأجنبية المتأخرة فحسب وإنما على أسماء
ملوك الأسر التى حكمت خلال مراحل الذروة التى بلغتها الامبراطورية الجديدة ؟ وهو
الكشف الذى سقط عليه كالصاعقة فى ١٤ سبتمبر مثلما حدث لذلك الرسول وهو فى
الطريق إلى دمشق وهل سيحتفظ به لنفسه حتى النهاية ؟ كلا . ولكن سيقذف به فى
شكل افتراضى وظرفى إلى معشر العلماء ليشغلهم به :

« إنى على يقين من أن نفس العلامات الهيروغليفية - الصوتية المستخدمة للتعبير عن
أصوات أسماء العلم اليونانية والرومانية تستخدم كذلك فى النصوص الإيديوجرافية
المنحوتة قبل وصول اليونانيون إلى مصر بفترة طويلة جداً وكانت لها فى ذلك الوقت
وفى بعض الحالات ، ذات القيمة التعبيرية للصوت واللفظ التى فى الخراطيش
المحفورة فى عصر اليونان والرومان . [...] إن تطور هذا الواقع الثمين والحاكم
يخص ما قمت به من عمل حول الكتابة الهيروغليفية الخالصة . ولا يمكننى أن
أوضحه فى هذه الرسالة دون أن أدخل فى تفاصيل مطولة للغاية .

ولذلك فإننى أعتقد ياسيدى أن الكتابة الصوتية كانت موجودة فى مصر منذ زمن
قديم جداً وأنها كانت أولاً جانباً ضرورياً للكتابة الإيديوجرافية ...»

يقول « إنى على يقين ... » ثم يمتنع عن تقديم البراهين . فهو لا زال يحتفظ بها
لنفسه . ولكن لا أحد من المستمعين المعنيين الذين تراحموا فى تلك الليلة داخل قاعة
محاضرات الأنستيتوفاته أن يعدد الافتراضات وأن يؤكد الاحساس الذى تولد لديه
من أن هذا الشاب لن يتوقف عن هذا الحد . بأن « عمله فى مجال الكتابة الهيروغليفية
البحثية » لا زال يخفى العديد من المفاجآت ...

أكثر الأمور لا معقولة هو أن نعتبر هذه الأيام من سبتمبر ١٨٢٢ نهاية بل إن
المرء قد يرى أنها فى الواقع نقطة إنطلاق . فمن ١٤ سبتمبر إلى ٢٧ منه لا يقدم
جان - فرنسوا شامبوليون كشف حسابيه . بل راح يجمع أسلحته وهو فى وقفته أمام
الأنستيتو بدا كما لو أنه فى استعراض مثل الذى تقوم به الجيوش قبل انطلاقها إلى
ساحة معركة صعبة . فلنقرأ ما يقوله هـ سوتاس : « لقد وجد نفسه بذلك وقد وضع

تحت يده ترسانة لامثيل لها من الوسائل ... سلسلة من الأحداث هي التي أخرت اكتشاف عام ١٨٢٢ منها : عدم كفاية المصادر والحالة السيئة للمواد الأساسية وعدم دقة الكتب المنشورة وتأخر وصول المنسوجات فى حين أن غيره من الباحثين كانت الأصول فى حوزتهم . »

لم يتوقف شامبوايون بعد ذلك عن المضى قدماً وكما يقول كاتب تمهيد رسالة إلى مسيوداسييه أن هذا الكتيب لم يكن سوى « مقدمة عمله الضخم » أى ملخص المنظومة الهيروغليفية * والذى سيتقدم به المكتشف إلى المطبعة بعد خمسة عشر شهرا . والرسالة ستدخل جزءاً من الطبعة الثانية للملخص التى نشرت عام ١٨٢٨

ت مع الطبعة الأولى المعطيات العلمية التى أرسلها المكتشف طوال عام ١٨٢٣ إلى أكاديمية المخطوطات والأدب . وسنرى بعد ذلك ** كيف أن المفاجأة التى فجرها جان - فرنسوا فى ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ لم تجعل جميع معارضيه يعدلون مواقفهم منه بل على العكس من ذلك تماماً ما حدث لبعضهم . فيفضل داسييه وأيضاً ساسى الآن . عاد الأنستيتو يفتح له أبوابه إلا أن كل خطوة سيخطوها سواء فى مجال الأبحاث أو فى مجال النشر سيواجه فيها بالعديد من العقبات .

يعتبر الملخص توسعاً وتعميقاً ضخماً لمسيرة شامبوايون . ففضلاً عن السرد التاريخى الذى يقدمه لأبحاثه - ولما أتى به أسلافه ومنهم يانج فهو يؤكد هنا بشكل أكثر وضوحاً على دور « الرموز الهيروغليفية الصوتية » كما أنه يعبر فيه عن أكثر التعريفات عمقاً وإيجازاً لأسلوب التعبير الهيروغليفى ! « إنها منظومة معقدة وهى كتابة تصويرية ورمزية وصوتية فى آن واحد وفى ذات النص وذات الجملة بل أكاد أقول فى ذات الكلمة » . يحتاج الأمر العديد من الأعمال المطولة والدقيقة جداً للوصول مثلاً فعل باسكال وإينشتاين إلى هذا النوع من الصياغة المختصرة الدقيقة .

ومع ذلك فإن جان - فرانسوا شامبوايون لم يكن يعتقد أنه وصل إلى نهاية أبحاثه . بل على النقيض من ذلك فإن ما يتضح من دراسة هذه المرحلة من حياته وهى

* « رسالة إلى مسيوداسييه » ستصبح جزءاً من الملخص أدخل عليها بعض التعديلات .
** أنظر فصل ١٢

التي تبدأ من نشر الرسالة إلى نشر الملخص وتوزيع « البانتيون » قبل سفره إلى إيطاليا هو عمق وكثرة العمل الذي يؤديه ونشاطه المحموم كباحث أيضاً ثم كجامع ومستغل لاكتشافاته . إنه كالأعمى الذي استرد بصره وراح يجرى كالمجنون من منظر إلى متحف ومن وجوه النساء إلى مناظر غروب الشمس . إنى أرى ، إنى أقرأ ، إنى تحررت من الخطأ !!

إذا كان كتاب ملخص المنظومة الهيروغليفية لقدماء المصريين قد ظهر في الأسواق في يناير ١٨٢٤ على حساب الدولة فإن ذلك يرجع جزئياً إلى تدخل شمسية غير متوقع ظهورها في هذا الدور كمالك حارس لحلال الشفرة والتي لن يتوقف تدخلها تدخلاً غاية في النفع لشامبوليون طوال العشر سنوات المتبقية له في الحياة .

من ذا الذي كان سيختار - إذا طلب منه أن يحدد من بين عظماء رجال عهد البربون الجديد . الشخصية المرموقة وذات الفكر المحرر من الأفكار المسبقة لطبقته لدرجة إنتشال « رويسبيار جرونوبل » من براثن أمثال موتليفو وهوساز ، ويفتح له جميع أبواب البلاط الملكي والمجتمع - كان سيتجراً ويختار : الدوق دويلاكاس ؟ إذ لم يكن هناك أكثر تطرفاً في تفكيره المحافظ من هذا الأثير لدى لويس الثامن عشر ولا أفضل تمثيلاً لمن كان جان - فرنسوا يسميهم « طائفى الأنوار » .

هو بيبير - لويس - كازيمير دو بلاكاس نوبلى ، نبيل من الأرياف سليل أسرة عريقة مشهورة جداً وقليلة الثروة فى آن واحد وقد تعرف وصادق وهو فى المنفى فى فيرونا الكونت دوبرفونس الذى أصبح فيما بعد لويس الثامن عشر . كان قد قضى فترات من عمره فى سان بيترسبورج وهارتوال وحارب فى فاندى وأصبح فى عام ١٨١٤ وزير البلاط الملكى أى أقرب معاونى الملك . وقد منعتة الشهرة التى اكتسبها بأنه من أكثر الناس تطرفاً - وذلك بناء على طلب الحلفاء - من أن يتولى رئاسة الوزارة . وفيما عدا جيرمان دوستال التى امتدحت عقلية فإن الجميع كانوا يعتبرونه

متعاليا وبدون ثقل ، كما أن شاتوبريان الذى شارك هذا الرأى قد رماه ببعض من
سهامه !

« إن سيد دوبلاكاس يتمتع بالشجاعة والشرف [...] إنه من سلالة عريقة . وهو
ابن أسرة فقيرة ولكنها عريقة معروفة فى مجالس الشعر والسلاح . التزمت الذى يميز
حركاته وثقته الكاملة فى ذاته وتمسكه بدقة الاتيكيت يحفظ لأسياده نبالة عادة ماتتبدد
فى الشدائد [...] خبير على دراية فى بعض مجالات الآثار القديمة ومن هواة الفنون
ولكن دون خيال وفاسق : [...] هدوء أعصابه هو من سمات رجل الدولة لو لم يكن هذا
الهدوء سوى وثوقه فى عبقريته [...] إن المرء يشعر أن النبل العظيم الذى بداخله قد
أجهض ... (16) »

الواقع أن الدوق دوبلاكاس كان محباً لدراسة الآثار . وقبل أن تتيح له مكانته
كسفير فى نابولى فرصة تجميع آثار يونانية ورومانية وإتروسكية فى مجموعة ممتازة
كان يعطى اهتماماً بالغاً للأبحاث الخاصة بالشرق - ولإقامة متحفه الخاص ... لم
يتمكن من حضور الجلسة الأكاديمية المنعقدة فى ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ إلا أن صديقه
الدوق دودوفيل (شخصية ليبرالية سنلقاها فيما بعد) أعطاه عنها تقريراً حماسياً وهو
ما دفع الدوق النبيل إلى العمل على لقاء هذا الجاكوبى الشاب الذى كان مصيره
مطبوعاً بخاتم العبقرية الذى جعل عوالم بكاملها تفيق من سباتها .. مما جعلنا
نعتقد أن « طاقى الأنوار » هذا احتفظ فى داخله بقبس ...

فى يناير ١٨٢٣ فى اللوفر وبمناسبة عرض الآثار التى أحضرها من مصر
القنصل دوفان تعرف كازيمير دو بلاكاس على كاشف أسرار الهيروغليفية .. لابد وأن
هذا الأخير قد بغت عندما إضطر أن يعترف أنه وجد فى هذا الذى يمثل قمة الاستبداد
فى التيار المحافظ أحد المعجبين به ثم راعيا له ثم بعد وقت قصير صديقا له . بعد عدة
أسابيع من هذا اللقاء سلم بلاكاس لجان - فرانسوا هدية من الملك عبارة عن صندوق
من ذهب عليه الحروف الأولى من اسم الملك ونحتت عليه هذه العبارة ! « من الملك لويس
الثامن عشر إلى مسيو شامبوليون الصغير بمناسبة اكتشافه أبجدية الهيروغليفيات » .

كان الدوق يريد أن يوضح للعالم الشاب باسم الملك أن أعماله أصبحت منذ ذلك الحين موضوعة تحت حماية النظام الملكي « لكى يحميه من أى تشكيك لاحق سيصدر من منافسين تأخروا فى الوصول إلى ما وصل إليه » (17) .

تحول مذهب فى المواقف : أصبح « رويسبير جرونويل » المعجب « بالأب لافيوليت » (نابوليون) . ضحية مونتييفو ودوناديو ودوسان ، منتقد « الحرب الصليبية الاسبانية » ... أصبح تحت الحماية المباشرة « لصاحب الكرش » وذلك بفضل الرجل الموثوق فيه من حزب « السود » ، من الفاتيكان ! ولكن سنرى أن صديقنا عالم اللغويات القادم من الدوفينييه سيسير مشوارا طويلا فى هذا المجال ...

مقابلة مع الملك ؟ تعهد بلاكاس لجان - فرنسوا - الذى لم يتردد أبداً - فى أن يدبر له ذلك فى أول مناسبة وهو ما وفره نشر الملخص فى نهاية شهر مارس ١٨٢٤ . استقبل الملك المريض بالنقرس الكتاب وصاحبه الذى سعد لذلك جدا - استقبالا طيبا . إلا أن الملك لم يشر قط كم كان بلاكاس يتعشم إلى رحلة لإيطاليا على حساب الدولة . وهى الرحلة التى ظل الباحث يحلم بها لفترة طويلة ولكنه سيضطر الانتظار لشهرين آخرين قبل أن يقوم بها .

كان جان - فرنسوا قد بدأ قبل ذلك مشروعاً أكثر جسارة من الرحلة وكان ينتظر أن يعود عليه ولو لمرة واحدة ببعض العوائد المادية . إذ أن على المرء أن يعيش وعلى الرغم من الشهرة التى اكتسبها خلال بضعة أسابيع إلا إنه لم يكن لديه أى دخل ثابت . ولذلك فقد غامر بالدخول فى حقل قد لا تكون له فيه دراية سابقة كعالم لغة وهو مجال « عالم الالهة المصرى » Le Panthéon Egyptien

فى خطاب كتبه لحميه « العم » كلود بلان - الذى كانت صحته فى تدهور سريع وهو ما كان يدفع به إلى الوفاء بنوقة روزين لها ولزوجها التى وعدهما بها فى عام ١٨١٨ - أعطى كاشف لغز الهيروغليفيات فى ٢٤ يوليو ١٨٢٣ الأسباب المالية وراء مشروعه الجديد :

« لا بد وأنكم تلقيتم [...] المنشور والإعلان من كتاب جديد ساقوم بنشره من مالى الخاص تحت عنوان البانتيون المصرى . وسيكون فى طبعة فاخرة وسيبلغ ثمن المجلد العادى ٣٠٠ فرنكا وأنى أقوم بهذا المشروع دون أن أخشى الخسارة لأن فى الزمن الذى نحن فيه الكتب الغالية الثمن هى وحدها التى تشتري وتباع دون عناء .

ثم أنى لا أعرض نفسي لأى مجازفة مادام الكتاب سيظهر فى السوق على فترات شهرا بعد شهر وإذا حدث أن عرضت نفسي لأى خسارة فساكون صاحب قرار إيقاف النشر . [..] لدى بالفعل عدد من المشتريين مقدماً لكى أعطى مصاريف أول نشرة ولعلكم قد علمتم بالفعل من صحيفة لومونيتور أن الملك ذاته قد اشترى مقدماً ثلاثة نسخ [..] وأنى على يقين من أنى لدى الوصول إلى النشرة الثالثة أو الرابعة ساكون قد حصلت على ربح كبير ...)

وبعد أن « قدم بضاعته » إلى حميه بأسلوب مختلف عن الذى حرر به « رسالة إلى مسيوداسييه » واصل جان فرانسوا خطابه بأن أعلن إلى مسيو بلان أن الملك قد أمر كذلك بطبع « كتاب آخر » (هو « الملخص » بالطبع) دون مقابل وأنه « طبع أكثر من نصفه » وأنه سيضمن له « مكاسب كبيرة نوعاً ما » ثم يحاول جان فرانسوا تبرير حالته المادية المتردية لوالد زوجته وحالة الشظف التى تعاني منها أسرته « بالحرب المستنزفة للطاقت والمؤسفة من جميع الوجوه سواء بالنسبة للملوك أو بالنسبة للشعوب » والتى بدأتها الحكومة فى أسبانيا بناءً على توصيات وزير للخارجية اسمه شاتوبريان الذى يريد أن يعجل باعادة حكم البوربون المستبد فيما وراء جبل البرانس .

ويخلص هذا التقرير عن الحالة العامة للأسرة بنظرة متفائلة . لقد كان روح البنت العبقري وهو فى مواجهة « حماه العزيز » مثل زوج الابنة فى مسرحية للمؤلف المسرحى الكوميدى لايبش :

« لقد كدحت ويمكننى أن أفخر بأنى كونت لنفسي شهرة كبيرة بالقدر الذى يجعلنى لا أخشى من الفشل إذا حدث وعرض على مركزاً يعود ببعض النفع على [..] إن المستقبل مفتوح أمامى ولن يمر وقت طويل قبل أن أجنى ثمار أعمالى كلها [..] وعلى أن أتسلح بالشجاعة والإعتدال فى كل شئ .. »

يا لهذا الشاب و « اعتداله فى كل شئ » ! ... ولولا فورة الغضب ضد الحرب التى يقوم بها مسيو دوشاتوبريان (وهى عملية لم تكن لتغضب رجلاً محافظاً مثل (مسيو بلان ..) فإننا أمام زوج إبنة يستحق التقدير ، ومع شئ من الحظ سيتمكن من أن يدر لنفسه دخلاً مناسباً .

كفانا تهكمًا ! فى يونيو ١٨٢٣ أعلن الناشر تاديرو بالفعل عن نشره على دفعات لكتاب عن « البانتيون المصرى » : مجموعة من الشخصيات الأسطورية فى مصر القديمة . مأخوذة عن الآثار ، النصوص كتبها شامبوليون الصغير والرسومات لـ جـ دويوا هل كانت هذه عملية ترفيحية تهدف إلى الكسب فى الأساس ؟ إحتوى هذا العرض لعلم اللاهوت المصرى القديم سواء على المستوى الفنى أو العلمى : صعوبات جمة رصدها جان يويوت فى مقال نشر فى نشرة الجمعية الفرنسية للآثار القديمة فى أكتوبر ١٩٨٢ :

« من وجهة النظر النقدية كان المطلوب هو تزيين بعض الأشكال غير الملونة » موثق فيها من الناحية العقائدية « بالرسومات » :

فهل كانت تسمح معارف حلال الشفرة الهيروغليفية وموهبة صديقه دويوا * بحل هذه المشكلة ؟ من وجهة النظر العلمية كانت المصادر الموجودة تحت يد شامبوليون نادرة فحاول أن يكملها باستخدام رسومات بصورة طبق الأصل ملونة أحضرها من مصر بلزوتى ولورد بالمور ، وبعض القطع التى استعارها من مجموعات الأب بوتيترسان ، صديقة القديم فى لآبى - أو - بوا - أو من محافظ متحف ليون - ليون أرتو - الذى كان معجباً به اعجاباً بلا حدود .

تسبب نشر ملازم البانتيون من يوليو ١٨٢٣ إلى سبتمبر ١٨٣١ له فى هم مستمر وضغط وفى إرهاق دائم وكان مغامرة علمية جعلته يعرض نفسه لانتقادات حادة من المتخصصين البريطانيين الذين وجدوا فى عمله هذا عيباً فى الدرع الذى يمكنهم النيل منه من خلاله وليجعلوه يدفع ثمن إنتصاراته ولكنه كان فى الوقت ذاته مصدراً لاكتشافات رائعة .

وصف جان يويوت شامبوليون « وهو يقوم بوضع صورة معقدة - بطريقة غير دقيقة - أخذها من الأكوام المتراكمة من غير نظام للحوارات الهيرميتكية - والتى تعتبر أن هناك نصف إله غير مخلوق يظهر فى صورة إله يخلق نفسه له وصفات الجنسین » ثم يصل إلى هذه الخلاصة التى قالها أخوه على لسانه أخوه بعد بضعة سنوات من وفاته فى مقال ظهر فى مجموعة الكون L'Univers : (18)

* الذى إلتقينا به من قبل فى ١٨٠٨ وهو يشارك جان فرانسوا فى صب قوالب الرسومات المحفورة - والذى ظل أحد أقرب أصدقاءه .

« ديانة الفراعنة كانت موحدة للاله توحيداً خالصاً ، يعبر عن ذاته خارجياً بواسطة تعددية رمزية ، بمعنى أن الاله واحد صفاته جميعاً وملكاته كان يشخصها ممثلون نشطون أو آلهة مطيعة » (هذه النظرية سيأخذها عنه ويعمقها بشكل خاص أول التلاميذ الفرنسيين لحلال الشفرة وهو إيمانويل دوروجية) .

حتى قبل أن يحظى جان - فرانسوا شامبوليون بلقاء الملك صادف لحظة إنتصار مثل تلك التي يسعد بها أعظم المكتشفين ويروا فيها أنهم وصلوا لقمة المجد أو أنهم بلغوا الهدف أو اختتموا حياة عملية ناجحة :

ففى ٢٦ أبريل ١٨٢٣ عقدت الجمعية الآسيوية أولى اجتماعاتها السنوية برئاسة لويس - فليب دوق دورليان . يحيط به نائباً الرئيس الشهيران الكساندر فون هومبولدت وفرانسوا رينية دوشاتوبريان وأعظم مثقفى ذلك العصر : داسييه ، ساسى وريجوزا .

كانت كلمة الرئيس التى ألقاها لتحية صاحب الكشف بمثابة اعلان عن دخوله طبقة النبلاء ... ولما كانت هذه التحية قد أنته من عائلة أورليان الفرع الأصغر للبوربون فإنه ضمن بذلك الحصول على رعاية لن تكون حكراً على الفرع الحاكم فقط : « إن الاكتشاف الوضء للأبجدية الهيروغليفية تشرف ليس العالم الذى توصل إليه فحسب وإنما الأمة بأسرها * ولها أن تفخر لأن أحد الفرنسيين قد تمكن من اختراق هذه الأسرار التى لم يكشف عنها الأقدمون أبداً سوى لقلة من المريدين المضمونين وكشف شفرة هذه الرموز التى كانت جميع الشعوب الحديثة قد يأسست من إكتشاف معناها » (19) .

وجبهته مزينة بكل هذا الغار ذهب جان - فرانسوا شامبوليون للقاء الجمهور الودود حين ظهر له شخص ضخم الجثة على وجهه إبتسامة الصديق : المارشال سوتية وزير الحربية الذى كلفه نابوليون فى عام ١٨١٥ بحماية جبال الألب فى مواجهة القوى المسلحة النمساوية الساردينية - والذى ذهب الشاب شامبوليون للقاءه بصفته هذه فى شامبيرى لحفذه على الصمود : وهى النصيحة التى لم يتبعها سوشية سوى بتكاسل . قال المارشال لعالم اللغويات « الزمن تغير جداً . إلا أنى أمل أن تكون قد تصالحت مع الأوضاع الجديدة .. »

* استخدام كلمة الأمة لفرنسيين ثورى وهى علامة من علامات أسرة أورليان وستستخدم من جديد بعد ثمانى سنوات .

وإذ إرتبك الشاب بأن يسمع ذلك من إحدى صنائع نابوليون فقد فضل أن يظل صامتاً ، صمت كسر حدته على الفور مسيو دو شاتوبريان - قصير القامة تتدلى على جبهته بعض من خصل شعره وهو لا يزال فى حماسه بسبب حرب أسبانيا التى قدمها إلى الملكية لكى تكون على قدم المساواة مع الإمبراطورية والتى إعتبرها شامبليون على نفس القدر من الجنون عن التى سبقتها :

« إن الذى يرى الشمس طالعة أمامه لا يمكن أن يبكى على الليل الذى يتلاشى » : هذا مقاله الفيكونت دو شاتوبريان .

- ومع ذلك يا اكسلانس * بصفتى مصرى قديم فإن نصفى يبقى دائماً ورائى .

- إنك تتكلم بالهيروغليفية .

- أود أن أقول أن طالما قلبى ينبض فى صدرى وموجود جانب الشمس التى أحياها بإمتنان ، فإنى سأظل أتأمل نجوم الليل تتلألأ وهى التى أضأت لى الطريق ، كل منها بنور خاص بها « (20) .

إن رجلنا الريفى لوائق من نفسه فى تحد وهو يواجه العظماء : لقد إنتهى زمان الاتحاد والفيدرالية ولكن لم ينتهى زمن الوفاء - حتى لو أن الوفاء الذى أصبح يربطه بمصر التى كشفت له عن سرها قد ألقى بظله على إرتباطاته القديمة .

فى الأول من مارس ١٨٢٤ أعلنت له روزين من جرونوبل أنه رزق بابنة . سيطلق عليها اسماً لا يمكن أن يكون سوى شرقياً : زوارييد ** . إلا أنه لن يتعجل كثيراً الذهاب لتقبيل الأم والتعرف على الطفلة . وسينتظر فرصة السفر إلى إيطاليا فى نهاية شهر أبريل ليدير الوقت اللازم ويتوقف فى جرونوبل لهذا الفاصل العائلى وهو فى طريق السفر .

كان استقبال المدينة التى خرج منها هاربا عام ١٨٢١ هو استقبال الفاتحين ... « الزيارات كانت « تقتله » من الصباح حتى المساء » . إبنته ؟

* كان شاتوبريان قد ترك لتوه مركزه كسفير فى لندن ...

** تحريف اسم « زهراء » (المترجم) .

« صاحبتنا » الصغيرة بدينة وكلها دهون وهى تؤدى دورها على أكمل وجه تأكل وتصرخ وتأكل . وتنام وتصرخ من جديد وينفس المقدار . يدعون أنها تشبهنى . لقد تعرفت فيها بالفعل على لون بشرتى وأهدابى أما بالنسبة للباقى فلتكن مشيئة الله .

خمسة أسابيع قضائها فى إحتفالات عائلية كانت كافية لاسعاده . فى ٤ يونيو غادر إلى إيطاليا وهو مقتنع أن « الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو » .

لقد أعد أسلحته إعداداً جيداً . الجوهر هو الكشف ، أما إنارة مصر فلا زالت تحت الإعداد . الجانب اللغوى داخل جان فرانسوا شامبوليون لم يقم بالفتح سوى لخدمة الفنان والمؤرخ .

١٢ - القضية

أصدقاء وأعداء - التحالفات الأربعة - جومار وكاترومار - المسكين
دكتور يانج دفاع سيربيتر - عناد سير الفريد - تحكيم Whos'who ضراوة الترتار
- حكمة جان كايار - المتعنتون

لا يمكن أن تكتشف أمريكا دون سابق إنذار ولا أن يوجد جاليليو دون قضاة ولا
أن توقظ خمسة عشر قرناً من سباتها دون أن تجعل النائمين يتأهون . أن الضربات
الإفتتاحية الثلاثة المتمثلة في الرسالة إلى مسيو داسييه و « البانتيون » و « الملخص »
مع الإضطرابات التي أثارها داخل عالم العلماء ورجال الدين أيضاً وكذلك الإحباطات
التي تسببت فيها عند الرواد والمنافسين وزملاء المكتشف كان لابد أن يتسبب كل
ذلك في ضجة كبرى .

أى مكتشف لابد وأن يسير فترة على دربه دون حماية إذ يكفي أن تحرز تقدماً
خارقاً لكي تصبح هدفاً للجميع . وما بالك إذا كان هذا المكتشف ذا شخصية حادة
الطباع وعنيفة في الإنتقاد وعمره الصغير يزيد من غضب الشيوخ الذين فشلوا فيما
نجح هو فيه .

وهكذا فإن فارسنا الجاسكوني صنع لنفسه خلال ثمانية عشر شهراً - من
سبتمبر ١٨٢٢ حتى مارس ١٨٢٤ - من الأعداء أكثر مما تمكن دارتانيان من دحرهم
وظهره إلى الحائط والسيف في يده مشهراً .

نعم كان عدد المناصرين له ولقضيته يتضاعف حول المجموعة الأساسية المكونة
من جاك - جوزيف وداسييه والدوق دو بلاكاس وفيروساك مدير صحيفة النشرة
العالمية Le Bulletin Universel والتي التقى حولها أيضاً فوريه وأراجو وكوفيه وبيو
ولابلاس ثم ولأسباب أخرى شاتوبريان علاوة على انضمامات أخرى لها أهميتها
ولكنها لم تتم كما سنرى دون تردد وبعض التحفظات بل وبعض الندم وهي للثلاث
شخصيات التي لا يجادلها أحد في مرجعيتها في مجال اللغات وهم سيلفاستر دو
ساسى وجان ليترون وقيلاً لم فون هامبولت . ويجب أن نضيف أن « روبسبير
جرونوبل » كان يدعمه عدد من كبار النبلاء بخلاف الدوق دو بلاكاس مثل الدوق دودوقيل .

أما المتشككون ومهاجمو « الدجال » فلم يكونوا أقل نشاطاً وذلك إنطلاقاً من قطبيين : باريس ولندن إذ يجب أن ننوه بعدم صحة ما يدعيه العديد من المؤرخين أن نضال « المصرى » من أجل تقنين إكتشافه إتخذ طابعاً وطنياً . إذ أن أعداءه كانوا على نفس درجة النشاط سواء فى فرنسا أو إنجلترا وجرى التشكيك فيه بنفس المقدار (أو أكثر) سواء فى باريس أو لندن أو تورينو أو برلين .

إن الجدل حول الإكتشاف لم يكن فى جوهره حول علم بلد بذاته صحيح أن « حزباً انجليزياً » أخذ يتحرك وكان توماس يانج هو محركه وشهيدته . إلا أن العديد من علماء الآثار البريطانيين ومنهم وليم جال وهنرى سولت ثم جون ويلكنسون انفصلوا عنه ليتنضموا إلى حزب « المصرى » . صحيح أيضاً أن العديد من اللغويين الألمان مثل كلايروت وهاز كانوا من أنشط المناهضين لجان - فرانسوا . غير أن الكسندر وقيله لم هامبولدت سرعان ما ترأسا جوقه المدافعين عنه إلى جوار آخرين من الباحثين الإيطاليين والنمساويين والهولنديين .

فى باريس استمرت الإنقسامات لفترة طويلة بين مختلف المدارس وإذا حاولنا أن نرتب دعاة الحرب المقدسة ضد صاحب « الملخص » بناءً على درجة ضراوتهم فى مهاجمته فبإمكاننا أن نذكر جومار وكلايروت وكاترومار وبانكس أو بانكس وسان - مارتان أو جوليانون وداؤل - روشات أو سان كوينتينو ولانسي : ومن باب تبسيط الأمور نقول أن حلال اللغز كان يحارب أربع تحالفات : الحزب « الانجليزى » و « حزب القساوسة » ثم المجموعتين التى أطلق على الأولى « التلاميذ القدماء » والآخرى « قدماء المحاربين » .

فلنبداً من جديد سرد الوقائع بهذه المجموعة الأخيرة التى كان يرأسها آدم جومار .

بالنسبة للمستؤل الأول عن كتاب « وصف مصر » - الذى لا يمكن أن ننكر المشاركة الهائلة التى قدمها فى مجال التعريف بوادى النيل - فإن أى فرد يدعى أنه يعرف عن مصر أكثر من الذين وطأوا أرضها بأقدامهم فيما بين ١٧٩٨ ، ١٨٠٢ فهو بالنسبة له ملعون على الرغم من أن كثيراً من زملائه الذين من حقهم أن يدعوا مرجعيتهم بالنسبة « للمشاهدة العينية » مثل فيفان دونان * وفورييه . سامحوا « المصرى » لجسارته بل وشجعوه فى أبحاثه . أما جومار فلم يغفر . فمنذ اللحظة

* توفى عام ١٨٢٥

التي أدرك فيها أن الشاب القادم من جرونوبل عقد العزم على المضي قدماً في أبحاثه ليتخطى المخزون (الهائل) من المعلومات التي وفرها « وصف مصر » قرر أن يهدم سمعة هذا السفيق .

هذا التمسك المريب بذكرى الماضي الذي طغى على بعض « قدماء مصر » حمل لواءه ودعمه أيضا العديد من العلماء ، سنجمعهم تحت تسمية « قدماء الكولاج دو فرانس » ريموزا سان مارتان ، ليترون ، شيزي وكاترمار الذين زاملوا جان - فرانسوا عامي ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ وكانت أعمالهم تثير الإعجاب بالفعل ، غير أن أمجاد « المصري » وضجيجها تسبب في خسوفها . لماذا هو ؟ لماذا تركزت الشهرة حول أعماله هو ؟ ومن وجهة نظر دارسي الحضارة اليونانية لماذا يغطي إحقاق حقوق مصر في عظمة حضارتها على تفوق الحضارة اليونانية المعترف به حتى الآن ؟

تمكن عالم في حجم ليترون في نهاية الأمر - بعد تردد ومناورات (أثرت جداً على نفسية جان - فرانسوا الذي أطلق عليه غاضباً كنية « ذو الشعر الأصفر ») - أن يتحكم في هذا الحقد المزبوج . ولكن يبقى البعض الآخر - الأقل منه أهمية - على غيه على وجه الخصوص جان سان - مارتان ، « الأرمني » والذي كان من أقرب أصدقاء « المصري » في باريس .. بعد أن حاول أن يجعل ساسي وفورين يناهضان شامبليون ، خصص « الأرمني » آخر سني حياته لازعاج جان فرانسوا لدرجة أنه شرع في تأليف كتاب عن تاريخ مصر وهو ما لا يدخل في مجال تخصصه وذلك فقط لكي يضايقه . أما إتيان كاترومار فنحن نعرف أنه لم ينته أبداً من تصفية حساباته مع شامبليون منذ ظهور أعمالهما في نفس الوقت عام ١٨١٤ * ولم يذهب أحد قط أبعد من « بوليكارب » في نفى اكتشاف ١٨٢٢ نفياً قاطعاً .

أما الفريق الثالث من المهاجمين فهم - مثلما هو الحال دائماً كلما كان الأمر متعلقاً بشامبليون - « طائفو الأنوار » . يقف في الخطوط الأمامية لهذا الجيش الصليبي شخصيتان : مونسينيور نو فريسسينوس ورائول - روشات . وكانت هذه الشخصية الدينية المرموقة - إذ كان وزيراً للأديان - تخشى بصورة مرضية ملحة عليها أن تمس آخر التطورات التي طرأت على علم المصريات من قريب أو بعيد « التواريخ » الواردة في التوراة لدرجة أنه لم يأخذ في إعتباره المواقف المؤيدة لنظريات الكنيسة التي إتخذها صاحب رسالة إلى « مسيو داسييه » وعلى وجه الخصوص عام ١٨٢١ . الواقع هو أن فريسسينوس كان « متطرفاً » أكثر من كونه « صاحب رداء اسود » وكان الذي يربيه هو « رويسبير جرونوبل » وناشر « التعليم التعاوني » الذي أضر

* راجع فصل ٥

باحثكار « التعليم الدينى » أكثر من خوفه من الباحث ذاته كباحث وهو لم يتوقف عن النظر إلى « الدوفينى الشيطانى » نظرية شك تتفق ونظرة وزير الداخلية - كوربيار - له .
محرك هذه المجموعة هو رجل التجمع الدينى فى الوسط العلمى : راعول روشات
دارس الحضارة اليونانية المنتخب فى الأكاديمية والذي هزأ به بول لوى كوربييه كما
سبق أن أشرنا * وكان جان فرانسوا لا يكل من السخرية منه وكان يصفه بأنه
« سلطان البوسفور » . وإذا كان تمكنه من مادة المصريات أقل بكثير من سيطرته
على مادته هو - حيث كانت عظمة ليترون تمحوه تماما - فإن ذلك لم ينتج عنه سوى
مضاعفة كراهية رافول - روشات تجاه شامبوليون (وإن كان قد تمكن من السيطرة
عليها قبل عام من وفاة هذا الأخير) .

هل ينسب إلى هذا الحزب كتيب ظهر دون توقيع فى باريس عام ١٨٢٤ غداة
ظهور « الملخص » ينفى أى قيمة علمية لأعمال شامبوليون الصغير ؟ الرجوع إلى
بعض الطموحات الأكاديمية قد توجه البحث ولكنها لا تكفى لتحديد المسئوليات . إن
النص يعبر عن نفسه :

« يوجد حلال للشفرات يعمل فى وزارة العلاقات الخارجية كان على علم بالحروف
التي حددها يانج ويعرف أيضا أن أسماء الملوك التي ذكرها المؤلفون الكلاسيكيون
توجد داخل « الخراطيش » وهو بذلك يكون قد توصل إلى نفس النتيجة دون أن يصرخ
بكل قواه ليطالب بمكان فى أكاديمية المخطوطات (١) »

غير أن طلاقات المدافع الرشاشة الأكثر كثافة والأكثر دقة هي التي أطلقت من
عام ١٨٢٢ حتى ١٨٣٢ من لندن وعلى وجه الدقة من الشلة المحيطة بتوماس باينج .
ما كان يحرك هؤلاء المناضلين من كتاب المنشورات بالتاكيد هو التمرد ضد
الظلم والإحباط اللذين منى بهما الرائد اللامع (يانج) إلى أن أصبحوا من المشهرين
على يد جون ليتسن . إلا أننا سنلاحظ أن الجدل بين مؤيدى وأعداء شامبوليون استمر
مفتوحا فيما وراء المانش وبين البريطانيين المقيمين على ضفاف نهر النيل .

تركنا يانج وهو فى حالة من عدم التوازن بسبب ما سمعه لدى قراءة « رسالة إلى
مسيوداسيه » . وكان مجاملا لشامبوليون بعد أن تأثر بالحفاوة الحارة التي قابلته
بها الإنتيلجينسيا الباريسية . غيز أن رد فعله الدقيق كشف عنه مقال غير موقع

* راجع فصل ٧ .

صدر في لندن عام ١٨٢٣ في المجلة الفصلية Quarterly Review ثم أعيد نشرة بتوقيعه هذه المرة في نفس العام في كتاب عنوانه :

«دراسة حول بعض الإكتشافات الخاصة بالأدب الهيروغليفي والآثار المصرية ومعها الأبجدية الأصلية من وضع المؤلف والتي طورها مسيو شامبوليون *»

يوضح توماس يانج أنه لم يذهب إلى باريس لحضور الجلسة الشهيرة لأكاديمية المخطوطات وإنما كضيف على بعض الأصدقاء في رحلة سياحية وأنه استغل ذلك ليشرّف بوجوده تظاهرتين علميتين تقعان في دائرة تخصصاته : إحداهما في أكاديمية العلوم التي دعيت للإجتماع للإستماع إلى محاضرة يلقيها أحد أشهر أعضائها في مادة طبيعة الضوء وهو العالم فرينال والأخرى في أكاديمية المخطوطات لحضور جلسة تقرأ فيها رسالة إلى مسيو داسييه .

من هذه التجربة المزودة يخرج بملحوظة لاذعه في حق جان - فرانسوا شامبوليون : فبينما يعترف عالم الطبيعة الفرنسي « فرينال » بأسبقيه الأبحاث التي قام بها العالم البريطاني فإن عالم لغويات جرونوبل أمتنع (عن الاعتراف بأسبقيه يانج في اكتشافاته الهيروغليفيه) - حسبما يقول يانج ** . وهو لم يشر هنا إلى حقيقة واضحة وهي أن تفوقه في مجال التداخلات الضوئية كان أكبر بمراحل عن ذلك الذي يمكن أن يدعيه في المجال اللغوي . ثم يضيف الدكتور يانج :

« .. لا يمكن أن اتهم مسيو شامبوليون بأي نية مخلة بالشرف ولا أريد أن أتنازل عن صداقته .. » ثم يشير إلى تبادل الرسائل بينهما عام ١٨١٤ ثم يضيف « .. هل قام باكتشافاته قبل أن يقرأ أعمالى ؟ است في وضع يسمح لى بأن أؤكد ذلك [..] إلا أنني لا أقبل إدعاء مسيو شامبوليون أن منظومته يمكن تطبيقها على العصور القديمة جدا .. »

« لم نتحرك من مكاننا بقدر أنملة نحو معرفة حرف واحد من هذه الحروف المقدسة [..] لأن كتابة الأسماء الأجنبية بالهيروغليفيه هي من تأليف اليونانيين » . وبعد أن أعتقد أنه بذلك قد ألغى تماماً أى أهمية لإكتشاف غريمه الذي يسمح بفهم النصوص المصرية مهما كانت الفترة الزمنية التي ترجع لها ، عاد الدكتور

An account of some recent discoveries in hieroglyphical literature and Egypt antiquities * including the author's original alphabet as extended by Mr. Champollion .

** في الصفحة الثانية من الرسالة توجد تحية إلى ت يانج وربما لم يقرأ شامبوليون هذا الجزء في الجلسة .

يانج ليدعى أسبقية اكتشافه للأبجدية الهيروغليفية : ألم يتمكن بالفعل من أن يكون أول الذين تعرضوا على « تسعة حروف مصرية » على حين لم يضيف الفرنسي سوى « ثلاثة أو أربعة حروف أخرى » ؟

وهنا تصدر الخلاصة : « إنى أؤكد أولويتي فى كل هذه الأبحاث . ولا يمكن أن أمنع نفسى من الإعتقاد بأن (مسيو شامبوليون) سيصل فى النهاية إلى أن يقر بأن الأفضل لشرفه وسمعته أن يعترف بمطالب الآخرين العادلة .. » (2) .

رد فعل جان - فرانسوا على المقال غير الموقع فى المجلة الفصلية Quarterly Review كان حاداً . تجاهل أن المقال لا يمكن أن يكون سوى بقلم يانج وطالب بأن توضع الأمور فى نصابها . الرد الأول الذى جاءه من يانج تفادى الجدل :

« إن كاتب المقال عن كتابكم قد أساء تحليل ما إنتقده كما فعل بالنسبة لما قمت بدراسته قبل بضعة سنوات . وعلى العموم فإنى أرجع إلى كتابى فيما يتعلق بأبجديتى أما فيما يختص بكتابكم فلا شأن لى به . وقد أعتنيت بأن أميز بين ما يخصنى وذلك بأن ذكرت الأماكن التى نشرت فيها . وإنى لا انكر أنكم ربما توصلتم إلى نفس النتائج دون أن تكونوا على علم بنتائجى ، غير أن نشر الكتاب بعد بضعة شهور كشف كل شئ . »

إن الهجوم يأتى من العالم البريطانى من لندن . إذ أن المقال الذى نشرته الكوارترلى رفيو والذى تحدث عنه مع جان - فرانسوا كما لو كان بقلم طرف ثالث ظهر فى الكتاب بتوقيعه مع بعض التعديلات الطفيفة فى التفاصيل ! وكان لهذا الاعتراف ما يثير الدهشة إذ كان توماس يانج قد أعلن لتوه تخليه عن الاستمرار فى المشروع : إذ أعلن فى خطاب له مؤرخ فى ١٣ سبتمبر ١٨٢٣ عن قراره عدم اكتشاف حلول للهيروغليفية بعد الآن « إن شامبوليون يقوم بجهد يكفى لى لا يفوته شئ هام بعد الآن ولذلك فأنى اعتبر دراساتى المصرية منتهية » (3) .

لا بد وأن نشر كتاب شامبوليون « الملخص » بعد ذلك ستة شهور قد دفعه إلى التمسك بقرار الانسحاب من إكتشافات يوضح شامبوليون فى كتابه بدقة متناهية ما جاء به كل منهما بما لا يدع أى مجال لمطالبة علنية أيا كانت بعد ذلك . وعلى الرغم من ذلك ظل توماس يانج على اعتقاده بأنه ضحية ظلم بين ورهيب . واستمر يدفع أو يغذى انتقاداته بواسطة حملة رسائل مستخدماً تعليلاً غريباً للوصول إلى هدفه . فكتب على سبيل المثال إلى سان كوينشيز محافظ متحف تورينو يقول له :

« بامكان مسيو شامبوليون أن يؤرخ لمنظومته بحصوله على اسم كليوباترا * وذلك من مسيو بانكس إلا أن هذا الرحالة العظيم قد حصل على المعلومات التي أوصلته إلى التعرف على هذا الاسم وبنائاً على اعترافه هو شخصياً من خطاب أرسلته للسيد / بانكس في مصر » .

وأخيراً في خطاب إلى الكونت بولون مؤرخ في ٢٠ ديسمبر ١٨٢٦ ينفث الرائد الانجليزي كل مرارته قائلاً :

"Champollion received the name of Cleopatra as ascertained in Egypt by Mr. Banks from my letters, it is hence that himsell dates the origin of his System : Ergo OPERA illius mea sunt . And I willingly add, of this new Achilles

FORTEMQUE IN FORTIA MISI ! " ** :

إذا كان الباحث الرائد قد عدل عن الاستمرار في أبحاثه الشخصية فإن « حزيه » لم يتنازل عن الاستمرار في نضالة ضد شامبوليون طوال القرن كله بل وبعد ذلك أيضاً . سير وليام بانكس في مصر وانطوني نيبى وروبرت بورتون في لندن كانا على رأس مناصري عالم الطبيعة الانجليزي ضد عالم اللغات الفرنسي ومع ذلك فقد ارتفع صوت انجليزي قادم من مصر ليؤكد صحة إكتشاف صاحب « رسالة إلى مسيوداسييه » :

هنري سولت كان في الأصل رساماً مغرمًا بالشرق والإستشراق ويتمتع بموهبة حقيقية . سافر إلى إفريقيا عام ١٨٠٢ وبعد أن أقام لفترة طويلة في الحبشة عين قنصلاً لانجلترا في مصر عام ١٨١٦ بعد أن تعرف على بلزوني الشهير المسمى « بالمارد » محرك المعابد . جمع مجموعة آثار هائلة الحجم ، تنافس مجموعة درويفتي الذي سئلناه فيما بعد .

إلا أن هذا الفنان الرسام – الديبلوماسي – جامع التحف كان قد حاول هو الآخر حل شفرة الهيروغليفيات . وبينما كان يعتقد أنه قد اقترب من هدفه جرى نشر إكتشافات يانج وبانكس وشامبوليون . بعد ذلك بعامين ظهر له في لندن « بحث حول دكتور يانج ومنظومة مسيو شامبوليون في الهيروغليفيات (4) » وعلى الرغم من * سبق أن رأينا أن ذلك غير صحيح .

** « شامبوليون حصل على اسم كليوباترا كما تأكد مستر بانكس في مصر من رسائله له . وهو يؤرخ لمنظومته اعتساراً من هذا التاريخ وبذلك يكون عمله هو عملي أنا وإنني أضيف فيما يتعلق بهذا الأشيل (أكييوس) الجديد : وقد بعثت الجسور إلى الجسارة » (من ليجية حول حجر رشيد . ص ١٠٢)

العنوان والتذكير بكل احترام بالدور الرياڊى الذى أداه مواطنه الأشهر هو تحية مڊوية
لحلّال الشفرة الجرونوبلوازى .

« فى البداية كنت متحيزاً ضد المنظومة الصوتية التى بدت لى مبهمة مبنية على
افتراضات (ص ٣) بعد أن قمت بدراسة جادة توصلت إلى تقييم أدق لقيمتها . إذ
تمكنت من إثبات جميع النقاط التى تقدم بها مسيو شامبوليون بناءً على رسوماتى
الشخصية [..] وفى إمكانى أن أضيف بريقاً لهذا الاكتشاف [..] كلما إجتهدت فى
العمل كلما لاحظت صلابة هذه الأبجدية الصوتية وصحة الاستنتاجات التى توصل
إليها مسيو شامبوليون ص (١٧) [..] من المؤكد إذن أن الهيروغليفيات الصوتية
كانت مستخدمة منذ المراحل الأولى للملكية المصرية [..] ولا أتردد فى أن أقول بأن
أى فرد مزود بمعرفة متعمقة للغة القبطية يمكنه قبل فترة لا تطول من قراءة كل هذه
المخطوطات » . (ص ٧٥) .

ينتهى كتاب هنرى سولت بملحوظة كتبها فى اسكندرية فى ٧ أغسطس ١٨٢٤ .

« كدت أعدّل عن نشر هذا الكتيب بعد أن اطّلت على آخر كتب شامبوليون
الإبن (كذا) .. وصلتني فى الثالث من أغسطس نسخ من « ملخص » مسيو
شامبوليون عن طريق مسيو أناستازى ، وعلى الرغم من أن الكتاب نشر فى عام
١٨٢٤ فريماً يكون قد وضع قائمة الأسماء قبل ذلك . وبذلك فإن مما يتلج صدره مثل
صدرى أن أفكاره قد أكدتها مصادفة غريبة ، إذ يلتقى شخصان تفصل بينهما مسافة
شديدة البعد على الكرة الأرضية وبدون أى إتصال بينهما فى التوصل عن طريق
الاستنتاجات ذاتها إلى ذات الخلاصات حول موضوع على هذه الدرجة من التعقيد
[...] وهو على ما يبدو يؤكد صلابة الأسس التى أقمنا عليها عملنا . إن أبجديته
الصوتية تأكدت الآن بصورة قاطعة ، وهو ما طمأننى على سلامة التفكير فى المضى
قدما فى نشر هذا البحث » .

لم يكن هنرى سولت الانجليزى الوحيد الذى تمكن من التعرف منذ البداية على
الأهمية العظيمة لما أتى به شامبوليون . فى نابولى حيث كان يعيش معظم الوقت
التقى به سير وليام جال المتخصص فى الحضارة الرومانية وخاصة حضارة پومپى
عام ١٨٢٥ . وإذا كان هذا العالم الانجليزى من أصدقاء توماس يانج فقد كان متحفظاً
بعض الشئ تجاهه . ولكن سرعان ما راجع نفسه وإرتبط بعلاقات صداقة مع جان
فرانسوا ولم يتوقف عن التدخل لصالحه لدى مواطنيه .

خطاباته ليانج تتحدث عن نفسها فى أحدها كتب يقول له أنه يحاول إقناع « هذا

الشباب الممتاز « (Fine child) الذى هو جان - فرانسوا أن يعترف بسلفة « كحماء » (Father - in - Law) وفى خطاب آخر يدافع عن مؤلف « الملخص » قائلا :
« أود أن يعرف الجميع أن شامبوليون لم يخف أبداً إكتشافاته الجديدة بل إنه أطلعنى شخصيا على كميات هائلة من أشياء لم تنشر قط لدرجة إنى لو أردت لكان فى إمكانى أن أدعى أنى تفوقت على المخترع ، فى حوزتى حجر رشيد كله إبتداءً من السطر الخامس . قسمها هو كلمة كلمة ومن تحتها مقابلا بالقبطية . ولقد نصحته بما يكفى لدرجة أنى أمل أنه سينشر ما يعرفه الآن وهو لا يقارن فى شئ بما سبق له نشره » (5) .

لم تنجح وساطة سير وليام فى شئ ولكنه لا يمكننا أن نعزو ذلك إلى جان - فرانسوا الذى كتب فى ١٢ سبتمبر ١٨٢٧ إلى عالم الآثار سليم النية فى نابولى :

« تعلمون أنى على أتم استعداد لكى أعطى يانج كامل حقه بالعدل ولست أنا الذى يحرك قط مثل هذه المواضيع القديمة [..] إنى لا أفكر فيها أبداً وإنى على استعداد إلى عودة مراسلة مسيو يانج الذى بادر بإيقاف علاقات المراسلة معى كما إنى على استعداد لإعادة علاقات الصداقة القديمة التى تربطنا . ولقد خطوت الخطوة الأولى بأن كتبت له بالامس لأعرض عليه خدماتى فى باريس وإمداده بنسخ كلكية مرسومة للآثار التى قد تهمة . وبالتالى فهو الوحيد الآن الذى يمكنه أن يجعلنا نلتقى من جديد كما كنا فى السابق وإنكم ستشهدون لصالحى لو أن الأمور لم تسر على النهج الذى أمله بكل صدق ومن كل قلبى » .

الخطاب للدكتور / يانج الذى يشير إليه جان فرانسوا مؤرخ فى ١١ سبتمبر وقد ضم إلى « أعمال » يانج ولكن البحث فيها عن رد للدكتور يانج لا يجدى ...

سيقول البعض أن سعة الصدر من شيم المنتصر وليس المهزوم وأن عالم الطبيعة اللندنى كان يشعر حين ذاك بأن حقه مهزوم أو أنه أهين أو أنه وقع فى طي النسيان . قبل ستة أشهر من رحلته إلى مصر رأى المكتشف الفرنسى معظم المثقفين الأوربيين يحيون تفوق أعماله ، فبعد ساسى وليترون الذين وصفاه بالمشعوذ فى مرحلة سابقة وحتى عام ١٨٢٢ ثم استسلما وانضويا تحت لواءه ، إنضم إليه أيضا كل من الكسندر وقليلها لم فون هامبولدت اللذين ظلا لفترة طويلة أوفياء ليانج . وتشهد على ذلك هذه الرسالة التى كتبها الثانى - وهو عالم اللغويات وكان فى قمة مجده ، تنقلها عن مادام هارتلوبان :

« توصلت بعد دراسة مطولة لأعمال شامبوليون إلى إقتناع كامل أن هذا الإكتشاف الممتاز يرجع له هو وحده . لا أحد يمكنه أن ينازعه حق الريادة في أنه أكد وأثبت أن الجزء الأكبر من الكتابة الهيروغليفية أبجدي . وإذا كان بعضهم قد توصل إلى كشف بعض الرموز الصوتية فإن من الواضح جداً أنهم لم يكونوا ليتوصلوا إلى حل شفرة عدد هام من أسماء العلم . فقد نهجوا في الأصل طرقاً غير سليمة بل أنهم فيما يبدو أهملوا دراسة الهيروغليفيات بالتأني المطلوب مكتفين أكثر مما ينبغي بدراسة مخطوطات حجر رشيد » (6) .

رد فعل الدكتور يانج وكذلك جومار كان سلبياً ولكن مفهوماً . إلا أن المرء لا يسعه سوى أن يأسف لأن الإثنتين قد عبرا عن ذلك بدون أى تحفظ وبدون رجعة .

لم يكفى تدخل هنرى سولت قنصل صاحب الجلالة ولا صداقة وليام جال للباحث الفرنسى في تأكيد موقف « شامبوليون الابن » الايجابى ولا في التوصل إلى توزيع عادل لما يستحقه كل من الغريمين من إشادة . أخذ الجدل يتفاقم ويزداد حدة دون أى اعتبار لوفاء كلا الطرفين في وقت يكاد يتزامن لدرجة أن وصل الحال حتى بعد عشرين عاماً إلى ما يشبه محاكمة أحد السحرة في القرون الوسطى .

ليس من العدل أن نتهم عالم الضوء بأنه المسئول عن الاتهامات التى وجهها إلى جان - فرانسوا شامبوليون بالقرصنة والسرقة جون لايتسن عندما نشر وقدم عام ١٨٥٢ الجزء الثالث من مقتطفات من أعمال توماس يانج Miscellaneous Works of Thomas Young أنه شئ عادى أن يدفع الرجال العظام ثمن تطرف مؤيديهم ومريديهم ثم أن لم يكن شامبوليون أيضاً في منأى من حجر الدب .

ولكن بعد أن أسرف بانكس وبورتون ويانج أيضاً وجون لاتسن وآخرين في تماديهم أضطر أستاذ مدرسة المصريات الانجليزى ذاته إلى الوقوف في نهاية القرن لى يدافع عن صاحب الاكتشاف ضد الحملة التى شنت ضده في بريطانيا العظمى . سيريتز لوباج - رونوف ولد في جزيرة جارفوزى ولا يمكنه أن ينفى عن نفسه بعض من الجذور الفرنسية والتى يعكسها اسم أسرته . غير أنه ليس من العدل أن نرجع دفاعه إلى أى رد فعل لديه من هذا النوع .

في الثانى من يونيو ١٨٩٦ قام رئيس الجمعية التوراتية لعلوم الآثار في لندن (7) Biblical Society for Archaeology of London سير بيتربوضع حد للحملات المتكررة التى يثيرها إعتراف المجتمع العلمى الدولى بشامبوليون مؤسساً لعلم المصريات .. بعد أن عبر عن دهشته لأن عدداً من مواطنيه

ما زال يصبر على عدائه للعالم الفرنسى « مثلما يفعل الرقيب بوزفون الذى تلح عليه فكرة فساد مستر بيكويك » . يعبر لوباج - رونوف عن أسفه لأن لايتش وأمثاله وصل بهم الحال إلى معاملة شامبوليون على أنه سارق يستحق الرثاء « وإلى التأكيد أن أعماله ليست سوى نهباً لأعمال يانج . وذلك كنتيجة « للدجل السفيق الذى ندد به كل من ساسى وليترون » ثم يضيف :

« صلة منهج شامبوليون بأبحاث دكتور يانج واهية لدرجة أن حتى كلمة استعارة لا معنى لها هنا . أن مؤلفاته أخذت شكل الإثبات بالرياضيات [..] أما عمل الدكتور توماس يانج فتعريفه ليس بحل شفرة وإنما على أنه سلسلة من الاستكشافات الحدسية إن أسباب نجاحه أو فشله واضحة للغاية فقد كان يعمل بطريقة ميكانيكية مثل التلميذ الذى يترجم من اللاتينية : Arma virumque بـ الأسلحة والإنسان إذ يقرأ Arma : الأسلحة وكلمة Virum رجل وحرف que يقرأه حرف واو « بسبب غياب المنهج وليس ليانج أية فكرة عن المنظومة الصوتية (فونيتكية) وهو على العموم لم يدعى ذلك [..] فيما يتعلق بالهيروغليفيات على الأقل [..] وبما أن بطليموس كان إسم الملك الوحيد المذكور علي حجر رشيد فلم تكن هناك أى صعوبة فى التعرف عليه كما ذكر ذلك شامبوليون [..] كل شىء (عند يانج) كان إفتراضاً وحدساً وحزراً فيما يختص بالكتابة الهيروغليفية . لقد تعود الحديث عن اكتشافات شامبوليون على أنها إمتداد لاكتشافاته هو [..] إن هذا إتهام مشين .

« إن اكتشافات عام ١٨٢٢ تلتها اكتشافات أعظم . الأبجدية الصوتية كانت مفتاح (حل الشفرة) ليس فقط بالنسبة للأسماء اليونانية والرومانية وإنما لأسماء كل العصور [..] لم يكن فى إمكان شامبوليون أن يتعلم شيئاً من يانج أو من أى فرد آخر . من خلاله هو وحده ومن خلال منهجه تمكن عالم المصريات أن ينطلق ليحتل المكانة التى يحتلها الآن » .

رأينا كيف أن هنرى سوتاس كتب فى مقدمه لطبعة الاحتفال السنوى « لرسالة إلى مسيوداسييه » أن سير بيتر لوباج - رونوف تطرف فى التعبير عن استيائه فكان قاسياً أكثر مما ينبغى على يانج لدرجة أنه نفى أن يكون له أى فضل فى الاكتشافات التى وصفها شامبوليون نفسه أنها « هامة » وذلك فى « ملخصه » الصادر عام ١٨٢٤ وفى محاضراته الافتتاحية فى الكولاج دو فرانس عام ١٨٣١ ... صحيح أن يانج لم يتوقف فقط عند التعرف على اسمى بطليموس وبيرنيس وأن المجموعات التى أمكن التعرف عليها كانت عديدة وتعد بالعشرات ولكن النقطة الحاسمة فيما قاله لوباج - رونوف هى التى تتعلق بالجانب « الحدسى » و « الفرضى » والميكانيكى لجميع خطوات مواطنه .

أن التوضيح الذى جاء على لسان سير بيتر لوباج - رونوف أمام جمعية علم الآثار فى بلمزبورى ومهما بلغ من علنية ومهما بلغ صاحبه من أهمية وشهرة فهو لم يكن كافيا لوضع حد للجدل الدائر . إذا بعد سبعة عشر عاما حرر أحد نظرائه كتيباً بعنوان « حجر رشيد » * (The Rashead Stone (1913) عادت فيه العلاقة بين شامبوليون ويانج إلى الإطار الذى وضعها فيه يانج لنمر كالكرام على الأخطاء أو التقريبات التى تمتلئ بها القصة التى يسردها العالم مستر بادج عن اكتشاف حجر رشيد ونقله إلى لندن - فهو يتكلم على صفحات بأكملها عن « نابوليون » وذلك قبل عدة سنوات من تتويج بونابارت ويؤكد أن نسخا من النصوص المنقوشة على الحجر وزعت على « جميع جامعات أوروبا » - وسبق أن رأينا أن شامبوليون كان يشتكى من عدم حصوله على نسخه واحدة منها - ثم أن يقلب الرموز الموجودة داخل خرطوش بطليموس كما هو محفور فى حجر رشيد بدلا من الذى يزين مسلة كليوباترا التى اكتشفها بانكس فى فيله (لأن ذلك يخدم براهينه لأن يانج ارتكب أهم أخطاءه لدى ترجمته العديد من رموز خرطوش رشيد) .

ولكن فلنترك المكان لسير الفرد وليس بادج نفسه :

« .. فى عام ١٨٢٢ قائمة الحروف الأبجدية المصرية التى وضعها يانج صححها وأكملها ** ح . ف - شامبوليون الذى تمكن فيما بين هذا التاريخ وسنة وفاته من حل شفرة أشكال هيروغليفية لأسماء وألقاب العديد من الإباطرة الرومانيين *** ووضع قائمة للهيروغليفيات ووضع منظومة للقواعد وحل الشفرة التى هى الأساس الذى أقام عليه علماء المصريات أبحاثهم وأعمالهم بعد ذلك .

أف .. قالها فى النهاية !! ولكن يبقى فى ضمير القارئ وكذلك زائر البريتيش ميوزيوم حيث يقدمون يانج عام ١٩٨٧ وحتى الآن على أنه هو أول المكتشفين ولا يزال هو الرجل العبقرى الذى اخترق الحواجز واكتشف المبدأ الجوهري للجانب الصوتي للكتابة المقدسة وبدأ بالفعل حل الشفرة إلى أن جاد أحد التلاميذ المجدين وتمكن من « استكمال » أعماله بفضل تقنيته فى المقارنة الجيدة .. بعد ما يقرب من قرن من محاضرة ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ لا يعتبر هذا تعبيراً عن تفتح فكرى : ولكن تغير الحال بعد ذلك وأعدت المدرسة الانجليزية تقييمها لعلم المصريات بصورة جوهريّة ومتعلقة .

* الكتاب الذى يباع الآن فى البريتيش ميوزيوم بقلم كارول أندروز (١٩٨١)

** هو نفس التفسير « اليانجى » للتلميذ أو « المعاون »

*** سبق أن رأينا لآى ترجمة يجافى هذا العرض الواقع .

أفضل دليل على ذلك نجده في المقالات المخصصة ليانج ثم شامبوليون في الطبعة الثانية ١٩٩٢ من Who is Who in Egyptology الصادرة عام ١٩٧٢ بقلم وارن نواسون وإيريك أبهيل . يصف عالما المصريات البريطانيين مواطنهم بأنه « رائد » كانت « اكتشافاته على الرغم من جزئيتها أبعد ماتكون عن التفاهة وإن كانت لا تقارن باكتشافات شامبوليون في حين أن صاحب « رسالة إلى مسيوداسيه » قدم بوضوح تام على أنه : « الأب المؤسس لعلم المصريات » .

المدھش في الرفض المستمر للمدرسة الانجليزية لقبول الواقع هو أنها لم تعر اهتماماً كبيراً لرأى أشهر علمائها جون جاردنر ويلكنسون الذي أقام في مصر منذ ١٨٢٠ وكان بانكس ويانج قد حذراه من شامبوليون حتى أنه رفض مقابلته وكان يتكلم عنه دائماً بسخرية . ثم إنبه عندها وفاة أبي علم المصريات تقدم له تحية لا مثيل لها * .

مهما بلغت درجة الضراوة التي إتسمت بها الهجمات التي إنطلقت عبر بحر المانش فإنها لم تكن المصدر الذي خرج منه أعنف هجوم وأكثره تركيزاً ضد شامبوليون . العنف كله خرج من باريس وكان « التارتار » هو أشد المدعين العموميين شراسة .

ولد هنريس يوليوس كلايروت في برلين عام ١٧٨٣ قبل جان - فرانسوا بسبع سنوات كان يقال أنه من أصل قوقازي ومن هنا جاءت كلمة « الترتار » وكان عضواً في أكاديمية سان بيترسبرج ومتمكن من العديد من اللغات الآسيوية مثل السنسكريتية والصينية واليابانية وأقام في باريس منذ عام ١٨١٥ فارضاً وجوده كأستاذ في الدراسات الشرقية وكانت له علاقات طيبة مع شامبوليون . ومع ذلك فهو لم ينتظر وفاة المكتشف للتعبير عن تحفظاته . ولكنه نشر في ١٥ سبتمبر ١٨٣٢ بعد ستة شهور من وفاة « المصري » - واسوء حظ كليروت قبل بضعة شهور من نشر كتاب « القواعد » ، كتابه دراسة نقدية في أعمال المغفور له شامبوليون في الهيروغليفيات (8) وتسبق العنوان حكمة من بلين باللاتينية Nitor Verius Quam splendor (ابحث عن الحقيقة قبل الفخامة) .

مع قراءة الجملة الأولى تضح الأمور في أعين القارئ لأن الناقد عندما يستهل كتابة بالقول أنه لا يهدف « أبداً إلى التقليل من شأن ما يستحقه أحد » فمن المؤكد أنه يدخل الحلبة والخنجر في يده .

* أنظر فصل ١٩ ص 635 , 636

كتب كلايبروث « منذ عشر سنوات والحديث المتحمس يدور حول اكتشاف الأبجدية الصوتية التي قام به المغفور له مسيو شامبوليون إلا أن عدداً قليلاً من الناس هم الذين يعرفون بدقة ماهية هذا الاكتشاف أو ما أتى به بالضبط . إن الدكتور يانج هو دون أى جدال ممكن صاحب الريادة في هذا الكشف وكان ذلك عام ١٨١٨ عندما تعرف على الدلالات الأبجدية لمعظم الرموز الهيروغليفية التي يتكون منها إسماء بطليموس وبرينيس [..] وإذا كان من الواجب أن ننظر إلى تحديد قيمة الحروف السبعة على أنها الأساس الذي أقام عليه مسيو شامبوليون أبجدية الصوتية فإن فطنة العالم الانجليزى لم تتخطى هذه الصدفة السعيدة وترك إلى منافسة الفرنسى جنى ثمار المجد الذى يستحقه إكتشاف مبنى على الفكر وقابل للإثبات . »

إن مثل هذا التفكير غير المنطقى يثير الدهشة : إذ كيف يكتب عام ١٨٣٢ أن يانج هو « دون أى جدال صاحب الريادة في الكشف » ويؤكد أن تحديد مدلول بعض الحروف هو « الأساس الذى قامت عليه الأبجدية الصوتية » ثم يتقهقر فجأة ويسلم سلاحه للشاب القادم من جرونوبل بأن يعترف بأن ما حدث بالنسبة ليانج هو بمثابة « صدفة سعيدة » (ويا له من إعتراف بالفضل هزيل إذا جاء على لسان عالم مثله ..)

وأن « المجد المستحق لاكتشاف مبنى على الفكر وقابل للإثبات » (وهو الوحيد الذى يمكن للعلم أن يقبل به) يعود لشامبوليون . تناقضات كثيرة فى حديث لجامعى من برلين !

ثم يواصل كلايبروث بحثه بأن يؤكد على طول فترة الدراسات والمجهودات التي قام بها الباحث الفرنسى . كما لو كان يريد الإيحاء بأن العمل طوال خمسة عشر عاماً فى الموضوع قبل إدراك النجاح يتم عن عدم الذكاء ... وبعد ذلك يقوم بتبديل تاريخ النص الذى ينتقده ويجعله صادر فى عام ١٨٢١ أى قبل عام من تاريخه الصحيح . ويقول أن شامبوليون قد أكد عام ١٨٢١ أن الهيروغليفيات « رموز لأشياء وليست « الأصوات » وإن هذا الخطأ الكبير الذى وقع فيه المصرى والذى قام بتصحيحه بنفسه بعد ذلك وهو الخطأ الذى أثبتت منظومته اللاحقة كلها عكسه ... إن إبراز هذه النقطة بعد إثني عشر عاماً تعنى أن مكتشفاً من المكتشفين لم يكتشف شيئاً لأنه كان يتحسس طريقه قبل إكتشافه بساعة واحدة .

ثم يتحول كلايبروث إلى تحليل « الپانتيون » و « الملخص » ليزيد من خطورة إتهاماته : « يجب أن نشعر بالأسف نحو شامبوليون لأنه ترك مسيرته المنهجية التي

نهجها في عمله الأول [...] إذا أن الصدق الذي يتسم به هذا النص إعتراف به كل المحايدين . كم كنا أحرى بمسيو شامبوليون ألا يترك أبداً هذا المنهج في أبحاثه التالية .. » وهكذا فإن الإتهام الذي يوجهه كلايروت لشامبوليون المتوفى هو عدم الأمانة الفكرية . أن يختلف في الرأي حول إلايدوجرافية والفونيتيكية وحول الأدوار الخاصة التي أداها كل من يانج وشامبوليون كان من صميم حقوقه الشخصية . ولكنه أن ينتظر وفاه المكتشف ولا ينتظر نشر « كتاب القواعد » الذي نشر بعد الوفاة وهو الكتاب الذي توقعت أوروبا العلمية كلها أنه سيكون الوصية العلمية التي تركها صاحب « رسالة إلى مسيوداسييه » لكي يطلق هذه الدفعة من الافتراءات والاتهامات كل ذلك يعطى فكرة عن ماهية شخصية كلايروت . الذي زاد من بشاعته وهو يكتب مايلي : (9)

« إذا كان من الواجب اعتبار الهيروغليفيات رموزاً لأصوات فإن حل الشفرة يصبح سهلاً [..] إن الأمل الذي نجم عن هذا الافتراض قد أثر كثيراً على الاتجاه الذي سلكه مسيو شامبوليون في أعماله الأخيرة . والإمكانية التي لاحت له بأن يقرأ أخيراً (١) الهيروغليفيات لو إتضح أنها بالفعل رموز صوتية قد شاركت دون شك بقدر ليس بالقليل على إقتناعه بأنها بالفعل كذلك ! »

طريقة تفكير مذهلة ! : فلأن أن القيمة الصوتية للمنظومة الهيروغليفية كانت أكثر « سهولة » لأن هذا ما يناسبه - أن اكتشف شامبوليون هذه القيمة . لماذا إذن لا يؤكد بالدليل والحجة أن جاليليو أكتشف أن الأرض مستديرة لأن إثبات ذلك كان جلياً أو أن كولومبوس اكتشف أمريكا لكي يريح بحارته المرهقين .

لم يكتفى كلايروت بذلك بل ذهب إلى القول « لاشئ يسمح أو يبرر [..] ذلك الافتراض (أى القيمة الصوتية للهيروغليفيات) وإذا سايرنا المكتشف « فإنه لا يوجد شئ لا يمكن أن نجده في مخطوط [..] تدشين معبد ، مدح أميرة ، [..] قصة فتوحات سيزوستريس » وإن باحثاً جيداً إذا أعطى مؤشراً عادياً على أن ما يبحث عنه في خراطيش الآثار المصرية هو أسماء ملوك مصر المختلفين الذين جاء ذكرهم في كتب الأقدمين وهي مكتوبة بحروف أبجدية بعد قليل من الحروف المتحركة . لتوصل إلى نفس النتائج التي توصل إليها مسيو شامبوليون .

يعنى ذلك أنه بعد أن اتهم الفرنسي في نزاهته الفكرية راح كلايروت ينعتة بالغباء لأنه إحتاج لوقت طويل لحل شفرة كتابات « لم يكن من الصعب اكتشاف معناها » وأنه بعد أن أثبت عدم بصيرته فإن مشعوذ جرونوبل « قد إخترع بنفسه بعض الكلمات

وأنشأ بنفسه اللغة « التي كان مطلوبا منه فك شفرتها . لدرجة أنه لكي « تثبت سطحية الافتراضات الموجودة في أعمال شامبوليون » « فلعلنا نحتاج لعدد من الصفحات يوازى ما ملأه هذا العالم في أبحاثه »

في النهاية وبعد أن كل من الطرق على صدفة فارغة التي هي أعمال هذا الرجل الذى لم يفعل شيئا سوى أنه اكتشف ما كان في متناول أى فرد وأنه فعل ذلك بالجوء إلى الفن و « الافتراضات التي لا أساس لها » إكتفى كلايروت بأن يخلص إلى أن حل شفرة الهيروغليفيات بمعنى الكلمة ليست في متناول « الفكر الناقد الإنسانى » إنما « الحدس الإلهى فقط هو الذى بإمكانه إحداث هذه المعجزة » وهو بذلك قد منح جان - فرانسوا شامبوليون أكاليل غار لم يحلم يوماً بالحصول عليها . الحدس الإلهى ...

إن أكثر ما يصدم المرء من كلايروت هو التوقيت الذى أصدر فيه منشوره . فلو أنه كتب ما كتب عام ١٨٢٣ أو حتى ١٨٢٥ غداة نشر « الرسالة » أو « الملخص » لكان ذلك مقبولا منه . إنما هو فعل ذلك في فترة زمنية كان جان - فرانسوا شامبوليون قد أحضر فيها سواء من إيطاليا أو من مصر على وجه الخصوص كما سنرى جميع الإثباتات التي تؤكد صلاحية منظومته فى القراءة ، وهو ما سيؤكدده بعد ذلك جميع (تقريبا) علماء المصريات . ولهذا السبب رأينا إبراز هذه المحاولة اليائسة للنقى . لا لكونها حدثا علميا وإنما كعملية غوص في تاريخ الانفعالات الإنسانية .

لم يخلق ملف القضية المثارة ضد شامبوليون قط ، سواء فيما يتعلق بأسبقية الكشف أو حتى بالجانب الجوهرى الفاعل في منهجه . فيما يختص بالنقطة الأولى سنذكر الملحوظة المستنيرة والثاقبة جداً التي جاءت على لسان عالم المصريات البلجيكي جان كايار !

« من النادر التوصل إلى إكتشاف كبير دون أن يكون هناك من يدعى وله في ذلك بعض من الحق - فى الإدعاء بأنه تمكن من الوصول إليه من قبل . فيقال مثلا أن إكتشاف مسيو ومدام كورى للراديوم أصلها البعيد ملحوظة لمسيو باكرال عن أملاح اليوران . علما بأنه لا توجد علاقة مثل القائمة بين محاولات يانج وإكتشاف شامبوليون [..] وإن نكرر بما فيه الكفاية أن يانج لم ينجح قبل شامبوليون فى قراءة ليس سطرين من مخطوطة هيروغليفية ولكن ولا أى جزء من جملة واحدة . أنه لم يفعل سوى التخمين بنسبة نجاح أكبر مما نجده فى محاولات سابقة » (10)

أما فيما يتعلق بالنقطة الأخرى - هل توصل شامبوليون - سواء قبل أو بعد آخرين في تقديم منهج سليم لفك شفرة الهيروغليفية ؟ فسيظهر كل خمسة عشر أو عشرين عاما شخص ينفي ذلك . وهكذا نشرت صحيفة لوفيجارو منذ فترة مقالا بقلم متخصص في « أسرار المصريات » يشك في أى قيمة علمية لصاحب « رسالة إلى مسيوداسييه » . وإذا تذكر هذه الخزعبلات فذلك لأننا نذكر بأن كتابة أية سيرة لا تجد لها نهاية أبداً كما أن أى رأى يمكنه أن يجد منبراً ليعبر فيه عن نفسه .

فهل نختار إعطاء الكلمة النهائية لجان - فرانسوا شامبوليون : لا يوجد شئ اسمه « كلمة نهائية » في المادة العلمية . إلا أن « المصرى » كتب هذه الكلمات البسيطة التى يمكن أن نختم بها كلامنا فى هذا الموضوع :

« أنى لن أطالب بشئ . سأترك إلى الذين يعرفون الموضوع التفريق بالعدل بين ما قمت به وبين ما فعله الآخرون وأن يقولوا ماذا كان عليه وضع الدراسات المصرية عندما التقتها والنقطة التى أوصتها إليها (11) »

١٣ - الطريق إلى ميفيس يمر من تورينو

قصة حب - ثلاث قوادين - دور جومار - استقبال البييمونتيين الحار - « إنه لشيء مذهل » - الخطابات المرسلّة للدوق دو بلاكاس - الفن المؤسس .. « سباضى » - مجموعة سولت - أكاديمى نعم « من وراء جبال الألب » لا - بايستوم ومصر - قبعة الكاردينال ؟ - مسلة من الورق المقوى .

يوجد بين جان فرانسوا وإيطاليا ما يجب تسميته قصة حب . ليس لأن المرأة التى أحبها أكثر من أى امرأة أخرى كانت تقرض الشعر بحماس من نارى أحد موانى مقاطعة توسكانى فحسب وإنما لأنه صاحب كتاب «البانتيون» أقام مثلما فعل هنرى بايل (ستاندال) الذى يكبره سنا وهو أيضا من مواطنية - علاقات مفعمة بالعواطف الجياشة مع أهل البلاد الواقعة وراء جبال الألب سواء كانوا سادة صغار أو سيدات عظام ، وزراء أو حوزية ، ثوار أو ملكيين ، مرشدين أو متسكعين مجرمين أو بحارة ، متصوفين أو ملحدين ، رجال علم أو قانون ، مخادعات أو سيدات مخادع ، رجال بنوك أو شحاذين ، شعراء أو عتالين علماء فى اليونانية أو فى النباتات ..

كانت علاقة عل درجة من العاطفية والإلهام جعلته يتذوق هناك ما كان يكرهه هنا ابتداء من رجال الكنيسة . حتى ليخال المرء أنه ما أن عبر قمة جبل مونت - سينيس إلا وكان « سواد » ، رجال الكنيسة قد خفت حدته فى عينيه وقد أصبح أكثر مرحا . سنراه يصادق الأباء والمونسنيورى بل والكرادلة أيضا - حتى البابا نفسه أقام معه تحالفا طريفا .

لا تهم هنا مسألة أصول أجداده وهل كان أصل اسم اجداده هو سكياميليونى أو كامبوليونى أو كان أبوه التاجر المتجول يتسكع طويلا عند منطقة الحدود الفاصلة بين الدوفينييه والساقوا والبيمونت : كل ذلك لا قيمة له بالنظر إلى العلاقات التى نسجتها الحياة والبحث والعلم والفن والصداقة والحب بين المكتشف وما كان يطلق عليه فى ذلك الوقت البلاد الإيطالية .

مثل ستاندال الذى جعل أجمل رواياته تحدث فى بير لايقع فى جرونويل ولكن فى پارما وأن يضيف على شخصية وزى شرطة أحد الطغاة كل هذا السحر ، فقط لأنه إيطالى (وفى حالة حب) ، فإن شامبوليون يجد فى رجال الدين ألف صفة جميلة وكذلك لدى الدبلوماسيين ورجال البنوك طالما هم بييمونتيون أو توسكانيون أو من رعايا

ملك الصقليتين . سنرى طبعاً السخرية تظهر على السطح من وقت لآخر فيما كتب عن مواعيد وسائل النقل أو لامبالاة رجال المكتبات أو بعض مجرمي كلابريا . إلا أن اللهجة التي كتب بها خطابات من وراء جبال الألب كانت مفعمة بالحنان ولدى عودته النهائية إلى فرنسا في نهاية ١٨٢٦ سيكتب من بولونيا يقول إنه سيكون « ناكراً للجميل لو أنه لم يكن إيطالي القلب » .

عندما يصفه عالم المصريات البيمونتي سيلفو كورتو بأنه « ابن أشهر من أبناء فرنسا » ولكن أيضاً من أبناء إيطاليا « فإن ذلك لا يعتبر عملية سرقة ميراث . لم يقض المكتشف سوى ثمانية عشر شهراً خرج وراء جبال الألب . غير أن الغنيمة الفكرية والعاطفية التي خرج بها من هناك لها ثقل ضخم في حياته وفي أعماله ، وسنسمعه يردد كثيراً حتى ١٨٢٤ أن الطريق إلى ممفيس وطيبة يمر من تورينو . المرحلة الأولى من غزوته - أي اكتشاف الشفرة - قامت على حجر رشيد المرحلة الثانية - أي كشف الحجاب - جرت في إطار متحف أكاديمية تورينو - إنتظاراً للمرحلة الثالثة - أي الغوص - فهي التي ستجرى على ضفاف النيل .

إذا كان قد أقدم على هذه الرحلة في البداية قبل أن تطأ أقدامه أرض مصر المقدسة - من تورينو إلى روما من أجل اكتشاف البراهين الملموسة على تفوق الفن الفرعوني وإذا كان قد توصل لذلك بما يتخطى أماله جميعاً - فهو لم يبحث عن أخفاء إعجابه بمجموعة الآثار الرومانية وكذلك وليس بدرجة أقل آثار يومپيى وبايستوم . بالنظر إلى هذه الروائع زاد إنتقاده لپاريس بأكثر مما فعل من قبل ، هذه المدينة التي تسودها حياة الصالونات والعبث وتعم فيها الغيرة والتي لم تعرف كيف تجمع الكنوز التي يتحتم عليه أن يذهب إلى تورينو لإكتشافها ... إنه يحب « حياة » نابولى و « عظمة » روما و « حرية » فلورنسا . إنه يحب إيطاليا .

ولكن أكثر الغراميات طهارة تنتظر « الوسيط » وقد قام رجال بهذه المهمة التي طالما يتم التنديد بها وهم لودفيكو كوستا وبيرناردينو دروفيتى ولويس - كازيميرد وبلاكابس الاسم الأخير سبق أن عرفناه جيداً . أما الأخران فبصورة أقل .

لعلنا لم ننسى المهمة التي أنيطت بأصغر الأخوين شامبوليون لدى عودته من « منفاه » في فيجاك عام ١٨١٨ وهي دراسة أرشيف مقاطعة الدوفينييه والأوراق التي قد تؤكد صحة مطالبات بعض العائلات الإيطالية . وإنه قام بأبحاثه وهو على إتصال

بممثل لملك بيمونت وساردينيا . رأس عائلة سافويا . هذا النظير هو الفارس لودوفيكو كوستا . والعمل المشترك تولدت عنه علاقة صداقة حقيقية بينهما .

لدى عودته إلى تورينو ، إقترح كوستا على حكومته تعيين أستاذ جرونوبل في مركز دبلوماسي في بلاد الشرق أو في وظيفة تعليمية في البيمونت ، وكان ذلك قبل عدة سنوات من بلوغ جان فرانسوا الشهرة . على الرغم أن الاقتراح قد رفض فإن مسئولى تورينو كانوا يركزون نظرهم على هذا المثقف الدوقيتى الذى تربطه بأحد نبلاءهم الشبان الأكثر موهبة علاقة صداقة وهو علاوة على ذلك محب لإيطاليا بشكل واضح . وأصبح كوستا بذلك همزة الوصل الحية بين شامبوليون وتورينو .

قبل ذلك بربع قرن ومن نفس هذا البيمونت خرج برناردينو دروفيتى محامى بارنايبيا الذى أعجب بالثورة الفرنسية ثم وقع فى سحر الجنرال بوناپارت هذا النيزك الذى هبط من فوق جبال الألب عام ١٧٩٦ لكى يخضع أوروبا الأمراء وكبار رجال الدين . وقد خرج جيش بيمونتى لينضم إلى جيشه بعد موقعتى أركول وريقولى وكان المحامى القادم من بارنايبيا أحد مستنفرى هذا الجيش إلى جوار الجنرال كولى وأظهر شجاعة وبساله في مانتوا . وعندما قرر المنتصر فى أركول الإتجاه إلى الشرق إختار دروفيتى الذى أصبح برتبة نقيب أن يتبعه إلى هناك .

هل أصبح ياورا لمورا ؟ أن اسمه لا يظهر فى تقارير الحملة إلا أننا نقرأ إسمه فى أحد النصوص يقول أنه شارك فى معركة مارنجو . وبما أن المعركة دارت فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ فى الغزوة التى كان الجيش موضوعاً تحت قيادة كليبار ولا يزال على أرض مصر فلا بد وأن دروفيتى كان مرتبطاً بأحد المقربين لبوناپارت (مثل ملك نابولى القادم) حتى يتمكن من الأبحار عام ١٧٩٩ على المويرون (المركب والذى هرب عليه بوناپارت) . إلا إذا كان ذكر اسمه فى تقارير معركة مارينجو كان بدافع من حب المؤرخين البيمونتيين له .

ما حدث هو أن بفضل القنصل الأول (بوناپارت) أصبح دروفيتى عام ١٨٠٣ * فى مصر قنصلاً لفرنسا فى إسكندرية فى الوقت الذى كان فيه ماتيو دوليسبس ينهى مهمته هناك . وكان دروفيتى قد بدأ مهمته مساعداً له . لا يمكن أن نعرف ما الذى كان

* بعض المصادر الأخرى تقول ١٨٠٢

سيفعله دروفيتى لو أنه بقى على أرض وطنه خلال الريسورجيمنتو * . إن مواهبه التى إستخدمها فى مصر تكشف فى جميع الأحوال عن شخصية غير عادية ولو أن ضميره لم يكن دائماً على نفس مستوى جسارته وخياله ولكن سيظل اسمه مرتبطاً إلى الأبد ببناء الدولة المصرية على يد محمد على والذى كان له أحد المعاوين الأجانب الأكثر استمرارية وكفاءة . ومرتبطاً أيضاً بمواد علم المصريات الذى خدمه - بخير أو بشر ناهباً للأثار فى جشع وبعقرية (لا مثيل لها) .

مهما كان تقييماً لهذا المغامر الذى جعل - مثلاً فعل زميله البريطانى هنرى سولت - من السرقة المنظمة الفرع الأكبر لعلم المصريات فإنه الرجل الذى خصص له فرانسوا - دوشا توبريان هذه السطور من كتابه « رحلة ... » من باريس إلى القدس :

« طلبت إيصالى إلى مسيو دروفيتى ** قنصل فرنسا فى اسكندرية . تكلمت حتى الآن عن قناصلنا فى الشام يفر بما يفرضه على واجب الاعتراف بالجميل لما قدموه لى . هنا سأذهب إلى أبعد من ذلك وأقول أننى أقمت مع مسيو دروفيتى علاقة أصبحت صداقة بمعنى الكلمة مسيو دروفيتى وهو رجل عسكرى متميز ولد فى إيطاليا الجميلة إستقبلنى بالبساطة التى تميز الرجل العسكرى وبالحرارة التى تنشأ داخل الأشخاص الذين يعيشون فى محيط مشمس سعيد . لا أدري أن كان هذا النص سيقع بين يديه فى الصحراء التى يقيم فيها الآن . وإن كنت أود ذلك حتى يعرف أن الزمن لا يضعف أبداً أحاسيسى نحوه وأنى لم أنس قط التأثير الذى عبر لى عنه وهو يودعنى على الشاطئ : تأثر نبيل للغاية عندما مسح بيد معاقة فى خدمة بلده دمعة عبرت عن هذا التأثير . لا أملك رصيذاً ولا حماة ولا ثروة . ولكن إذا حدث وكان لدى كل ذلك فلم أكن لاستخدمها وبكل سعادة سوى لصالح مسيو دروفيتى » (1) ..

بهذه « اليد التى تشوهت وهى تخدم بلدها » قاد حملات أقل فى عسكريتها عن زمن أبى قير . لأن الحملات التى قادها ومعه ضابط فرنسى يدعى بوتان والمستكشف النانتى كايو بطول نهر النيل وحتى الشلال الأول ثم فى واحتى الدخلة وسيوه تحولت بسرعة إلى أهداف أثرية وهى لم تكن نزيهة .

فى حين لجأ زميله الانجليزى سولت إلى معاونة جان باتستا بلزوني « عملاق بادوفا » لينتزع من وادى الملوك ثرواته ، لجأ دروفيتى إلى خدمات المثال ابن مدينة مارسيليا جان جاك ريفو الباحث عن الأثار الذكى الذى قام بتقطيع معبد الكرنك

* « النهضة » بالإيطالية وتطلق على الحركة الفكرية والسياسية التى أنت إلى توحيد إيطاليا فى القرن التاسع عشر (المترجم)

** المقر السابق لكليبار - وكان دروفيتى يربى فيها الحمام والسمان .

بمنهج منظم من ١٨١١ حتى ١٨٢٧ . الملاحظ في هذا الصدد أن قنصلي القوتين الأكثر تأثيراً في مصر كان مثالا يحتذى ممثلو أو مبعوثو النمسا وبروسيا والسويد أسيربي ومينوتولي وإنستازي . كانت هذه هي العادات المتبعة في ذلك الوقت : إذا نحن نذكر ذلك فهذا لايعنى أننا نؤيده .

نقول باختصار أن في عام ١٨١٦ أصبح برناردينو دروفيتي على قمة مجموعة عظيمة من التماثيل والألواح والباروليف والأبواب الجنائزية والبرديات ومعظمها مأخوذة من مقابر طيبة وتعود إلى الإمبراطورية الحديثة . ولما كان صنيعه بونا بارت فقد أصبح مغضوباً عليه من بلاط فرنسا الذي تعلل بأصوله الأجنبية وعين مكانه بيافوان .

أصبح دروفيتي بدون دخل ثابت إلى أن أعيد إلى مركزه في عام ١٨٢١ - فحاول بيع مجموعة الآثار التي جمعها بأن توجه في بادئ الأمر إلى مواطنيه في البيمونت الإيطالي ولكنهم رأوا أنهم لا يمكنون المبلغ المطلوب . ونفس الشيء حدث بالنسبة للسلطات الفرنسية ولو أن السبب الرفض لم يكن ثمن الصفقة ولكن شخصية البائع السياسية وربما أيضاً للمخاطر مثل الذي تسبب فيها الزودياك التي قد تتسبب فيها أي آثار تعود إلى العهود القديمة في مواجهة تعاليم الكنيسة .

عاد دروفيتي إلى أهل بلد في البيمونت بعرضه بعد أن سنحت فرص لذلك عندما سافر الكونت كارلوفيدوا إلى مصر والنوبة عام ١٨٢٠ وهو من الرحالة المشهورين وتمكن من رؤية روائع مجموعة القنصل السابق في الاسكندرية . وعند عودته إلى تورينو ضغط على أصدقائه ذوي النفوذ بروسيريو بالبو وشيزاري دي سالوتزو لكي يقنعا ملك بيموتي للحصول على المجموعة الأثرية .

في نفس الوقت كانت المفاوضات قد بدأت من جديد بين دون بيرناردينو دروفيتي (الذي أعيد إلى منصبه وألقابه كقنصل لفرنسا) وباريس . وإعتباراً من شهر سبتمبر ١٨٢٢ فأصبح شامبوليون الذي تحوط به هالة أكتشافه أحد أشد المؤيدين لشراء مجموعة دروفيتي . وكان هذا الأخير يلح على سرعة استقبال المكتشف في مصر وعلى مشاركته له في « أبحاثه » .

في ١٥ يناير ١٨٢٤ علم صاحب « رسالة إلى مسيوداسيه » أن بلاط تورينو اشترى في نهاية المطاف مجموعة دروفيتي وعلى الرغم من أن ذلك كان من المفروض أن يكون في اتجاه ميوله الإيطالية إلا أنه تلقى الخبر كما لو كان هزيمة شخصية له . إذ أن الرفض الذي قوبلت به طلبات صديقه بلاكاس الملحة كان بمثابة إيقاف لإنطلاق سلطته الوليدة .. جومار هو الذي أقنع كوريبار بأن يتحدى إرادة صديق الملك الأثير .

إذ كان يعلم وهو المسئول عن « وصف مصر » أن وصول المجموعة إلى باريس سيكون بمثابة تنويع لاكتشاف سبتمبر ١٨٢٢ : وهذا بالتحديد ما كان يخشاه جومار لو كان حلم حياته هو أن يدير بنفسه متحف باريس المصرى اليس هذا هو التطور الطبيعى لحياته العملية أو حقة المكتسب ؟ « كشف » « مقابل » « وصف » : سيستمر هذا الجدل فى تسميم جو سنوات المراهقة لحياة علم المصريات .

مهما بدأ تصرف جومار مدمراً فى نظر المؤرخ فى القرن العشرين وهو يميل إلى رؤية كل شئ من خلال نظرة شامبوليون له إلا أن من الصعب إدانته دون تروى . فقد كان جومار صاحب مشروع إقامة متحف وإقتناء مجموعة أثرية .

من عام ١٨١٩ أرسل إلى وزير الداخلية خطاباً يتحدث فيه عن مشروع إقامة « قاعة للآثار المصرية فى متحف اللوفر » تضم إلى آثار « تسترد من لندن » وإلى نسخة من « حجر رشيد المشهور » و « مجموعة دروڤيتى » .. وهى أجمل ما عرف عنه الآثار المصرية .

عالم الجغرافية الذى شارك فى الحملة على مصر كان قد تلقى خطاباً من برناردينو دروڤيتى يمتدح فيه الروائع التى جلبها من مصر العليا بمساعدة ريفو ويعبر فيه عن أمله « أن تكون فرنسا التى يحبها بكل جوارحه منذ عشرين عاماً كوطنه » هى التى تحصل على مجموعته لوضعها فى متحف باريس .

لأن جان - فرانسوا شامبوليون كان على وشك أن يسلبه سلطانه فى المجال المصرى عندما أصبح اسمه ومجده كمكتشف مرتبطين باقتناء مجموعة دروڤيتى أصبح آدم جومار مناهضاً للعملية وتوصل إلى إقناع رئيس الوزراء كوربيار والملك بعدم الإلتفات لها .

من رفض باريس إلى رفض آخر . وصل دروڤيتى إلى مرحلة اليأس واكتفى بتسليم روائعه إلى بلاط تورينو الملكى اليسوا هم مواطنوه ؟ وكانت عاصمة الليمونت - ساردينا مدينة جميلة ويتكاثر فيها الرجال الموهوبون - وإذا نجح فى إقناع شامبوليون بالمجئ إلى مصر فإنه لن يعدم الوسيلة التى تسمح بإيجاد روائع أخرى له .

قرر جان فرانسوا أن يقبل الخسارة بصدر رحب ومادامت المجموعة لن تأتى إليه فسيذهب هو إليها . كان هدفه فى جميع الأحوال هدفاً علمياً . مهما كان موقفه المالى متردياً فإن الشئ الجوهري بالنسبة له لم يكن الحصول على وظيفة مدير متحف ولا حتى إثراء ممتلكات باريس الثقافية وإنما كان تعميق إكتشافه والتأكيد على تمكنه

الكامل من كتابة ستؤدى قرائتها إلى رفع الحجاب عن أم الحضرات جميعاً . فإذا كانت مجموعة دروفيتى فى تورينو . فالى هناك إذن السفر . وكان قد بلغه أن صديقه لودوفيكو كوستا أصبح وكيلا للوزارة فما أن بلغه نبأ قرب إقامة مجموعة دروفيتى 3 العاصمة اليموننتية حتى أمسك بالقلم وكتب له الزميل عام ١٨١٨ رساله جاء فيها :

« .. كنت أنتظر فى باريس مجمعة دروفيتى للأثار المصرية التى هى متحف متكامل كانوا يمنوننا باحضاره إلى فرنسا . علمت اليوم أن صاحب الجلالة ملك سردينيا إقتناها وإن يكون العلم قد فقدها إذن مادت أصبحت من ممتلكات عاهل عمل أجداده الكثير لصالح الآداب وبلد خدم علماءه العلم خدمات جليلة [..] تنشر فى باريس ولندن وفيينا وفى بروسيا وروسيا أنباء كل ما يصل من آثار مصرية . وسيصبح الكتالوج المفضل لمجموعة دروفيتى حيث يوصف ويشرح كل شئ شرحا وافيا حتى لا يحتاج العلماء مشاهدته بذاته - سيصبح كتابا ودليلا هاما للغاية بالنسبة لهم . المخطوطات فى البرديات هى أيضا ذات أهمية كبرى [..] فهل تعتقدون أن حكومتكم ستقرر عمل هذا الفهرس وهذا التبويب بصورة تخدم الآداب ؟ ، فى هذه الحالة سأكون على استعداد للذهاب إلى تورينو للإقامة فيها لبضعة شهور (..) ولما كنت أمضيت حياتى كلها أدرس الآثار المصرية ولما كانت لى فى هذا الصدد أعمال رأت أوريا العلمية أنها ذات أهمية فإنى على يقين من أننى أفضل الاشخاص استعداد لتبويب وتنظيم المجموعة الهامة التى إقتناها مليكم فى فهرس (2) »

لا يمكن أن يكون المرء أكثر وضوحاً وبيانا : ولكن لايكفى أن تكون شامبوليون وأن تتقدم بنفسك لى توجه لك الدعوة . فكان على الفارس كوستا وعلى الكونت بالبو - وعلى الرغم من قوة تأثيرهم فى تورينو - ومهما كانت رغبتهم شديدة الاستقبال الباحث الفرنسى فيها فقد كان عليهما للوصول إلى غرضهم تخطى الكثير من العوائق وعلى رأسها إرتياب الملك المحافظ كارلو - فليتشى إرتياباً مفهوماً جداً من « الجاكونى الجرونوبلوازى » .

هل كان ملك بيمونت - ساردينيا رجعيًا بالدرجة القاتمة التى وصف بها * ؟ على الرغم من أنه هو الذى اشترى هذه المجموعة المحملة بالأخطار العظمى التى جعلت المتدينين فى باريس يرتعدون خوفاً منها ، وكان يحضر بانتظام جلسات الأكاديمية

* كان يطلق عليه أحيانا لقب ملك سردينيا وأحيانا أخرى ملك بيمونت سردينيا وكان متزوجا أخت ملك فرنسا القادم لوى - فيليب .

البيمونتية . (قال بعضهم أنه كان يهدف بذلك حسن السيطرة على مداولتها ..) فى حين يؤكد البعض الآخر أنه لم يتخذ « الخط المتطرف » سوى لإرضاء ملوك الحلف المقدس حيث أن أمنه كان مرتبطاً بهم . أما الواقع فهو إذا كان قد سمح لبالبو وكوستا بدعوة جان - فرانسوا شامبوليون إلى تورينو لعمل فهرس المجموعة الشهيرة فقد حرص أيضاً على إبعاد هذا الزائر الفريد من نوعه عنه وعلى الرغم من توصيات بلاكاس (أى لويس الثامن عشر) فهو لم يترك البلاط يشارك قط فى الإستقبال الحار الذى استقبلت تورينو به المكتشف .

ولا يمكن فى الحقيقة فهم أى شئ عن إقامة شامبوليون فى إيطاليا إذا لم نضعها فى إطارها السياسى والثقافى . كان جان - فرانسوا لا يزال يترك وراءه كلما سار فى باريس إحساساً بعدم الإرتياح له . إذ مازال حزب المتدينين وقبيلة المتطرفين يكرهونه ولكنه أصبح الآن محمياً بأمجاده - التى لم تشفع لالجاليليو ولا لكولمبس لدى القضاة ولم تحميهما من العار - ولكنها تمكنت من إحتواء حقد الجبناء . ثم هو الآن من أصدقاء صفى الملك .

كان تدخله فى قضية الأبراج السماوية قد أضعف بعض الشئ من كره « طافئ الأنوار » له إلا أنه زاد من حدة توتر حزت جومار ضده . وهكذا فقد فى أعين كثير من الناس قنصوته الحمراء (أى ثوريته) دون أن يحظى على الرغم من ذلك بتأثير معشر العلماء كله .

أكاديمية المخطوطات كانت تبعده عنها مؤكدة بذلك أن العبقرية يجب أن تتحلى أيضاً بالصبر .

فيما وراء جبال الألب كانت الأمور فيما يتعلق به أبسط : كان رمزاً للتنوير . إستقبله الليبراليون كمخلص استعوض عن أسلحة بونابارت بالمعرفة لمواجهة الأظلام . استقبل المكتشف استقبال المحرر من القيود ومن هنا جاءت الريبة التى سيطرت على بلاط تورينو وهى توازى فى أهميتها حسن استقبال الأرستقراطية المتتورة له وعلى رأسها باليو وسالوتزو وأمثالهما .

الشئ المدهش هو أن جان - فرانسوا شامبوليون لم يكن يمثل فى نظر قطاع كبير من رجال أكهنوت الذى هو أكثر رجعية من مثيله الفرنسى ، المناضل المناهض لرجال الكنيسة كما كان بالفعل - وإنما كان ينظر إليه على أنه المدافع عن التسلسل التاريخى التورانى .

- وسنرى آثار ذلك الطريقة فيما بعد - المهم هو أن حفاوة الليبراليين به لم تضره من وجهة نظر أصحاب الرداء الأسود . هكذا فإن العالم فيما وراء الألب كان

يفعل مثله عندما تتعلق الأمور بإيطاليا أى أن الرموز التى تظهر حوله كانت تتوجه باستمرار لصالحه فهو ليبرالى فى نظر الليبراليين ومدافع عن العقيدة فى نظر رجال الدين .

إلا أن العوائق ظهرت أولا فى باريس . وخاصة تلك المتعلقة بتمويل الرحلة . وكان الدوق دو بلاكاس قد جعلها شاغله الخاص إلا أنه أراد أن يكون الملك هو منظمها المعلن وأن يكون سفر شامبليون محملا على ميزانية المدينته . ولكن صديق الملك واجه معارضة شديدة جعلته يفيد الملك أنه فى حالة رفض الحكومة فإنه سيتولى شخصياً مصاريف الرحلة من حسابه الخاص . لما لها من أهمية علمية . هنا تفتحت سرّة الدنانير الملكية قليلا .. !) أن الدوق النبيل رأى أن قيمة التمويل ضعيفة ثم أنها جاءت متأخرة .

فكتب فى ٣ مايو ١٨٢٤ إلى شامبليون « هذا العائق البسيط لن يؤخر تنفيذ مشاريعنا [..] البارون دور وتشيلد سيضع تحت تصرفكم المبلغ الذى تروونه ضروريا لكم . ويمكنكم المغادرة متى أردتم وسينتظر رجال الأدب فى شوق معرفة نتائج أبحاثكم الجديدة »

علمنا من رسالة أخرى بخط بلاكاس أن المبلغ الذى وضع تحت تصرف الرحالة لدى السادة دوروتشيلد هو ثلاثة آلاف فرنكا . وأن راعى الفنون لم يرض أن يترك الباحث يغادر البلاد دون أن يسلمة خطابات اعتماد لتورينو مع جوازات سفره . كان الدوق يريد أن يؤكد بدقة متناهية رعايته التى سيتضح أنها لا تقدر بثمن .

فى ٢٥ مايو ١٨٢٤ وصل جان - فرانسوا إلى جرونوبل حيث تعرف كما سبق أن أشرنا على إبنته . فى ٤ يونيو وصل شامبيرى وها هو يوم ٧ يونيو فى تورينو وهو لا يزال متعبا من رحلته ولكنه سعيد . كتب لجاك - جوزيف !

« تورينو فى ٨ يونيو ١٨٢٤ وصلت صباح أمس يا صديقى العزيز فى حالة صحية جيدة جدا إلى هذه العاصمة التى هى نون شك أكثر عواصم أوروبا تنظيما فى مبانيها * الطريق من سان ميشيل إلى سوز [..] رائع ولكنه يمر بجوار هوات مرعبة [..] يجب أن يكون للمرء رؤيا أليية ومعتادا على النظر من أعلى إلى أسفل حتى لا يشعر بقلق حاد عند النزول من الجبل .. »

* كلام يؤكد ماهو مؤكد إذ أن تورينو لم تكن فقط « مبنية بنظام » فقط ولكنها كانت رائعة ولا تزال .

استقبل وزير الداخلية « صغير » فى اليوم التالى مباشرة وهو الكونت روجيه دوشولين الذى سلمه التصاريح اللازمة للقيام بأبحاثه فى الدروفيتيانا - وهو الاسم الذى أطلق هنا على المجموعة الأثرية والتي وصلت بالقطع الضخمة منها مؤخرا من جنوا محملة على عربات مدافع . ووضعت فى قصر جميل وضع رسوماته فى القرن السابع عشر جوارينو جواريني لكى يكون مدرسة للجيزويت ثم تحول بعد ذلك إلى أكاديمية العلوم . صالات رحبة وممرات واسعة وأسقف عالية وحدائق عظيمة : إنها إطار جميل للجمال .

إذا كنا لا نملك وصفاً بقلم جان فرانسوا عن حادثة : « وجدتھا ! » فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ وكل ما لدينا هو بعض ممارده جاك - جوزيف ونقلناه هنا - فإننا نملك وصفاً لاكتشافه السعيد للفن المصرى فى تورينو فى ٩ يونيو ١٨٢٤ . كانت لحظة محملة بالأحاسيس والمعانى أيضا وبنفس القدر يجب علينا أن نذكر هنا بأسهاب ما واقاله عنها لأخيه :

« ... منذ يوم ٩ دخلت المتحف المصرى واعتباراً من هذا اليوم وأنا أمضى فيه معظم وقتى .. وانك متشوق جداً دون شك لمعرفة الأخبار . سأقول لك جملة يتكرر هنا : إنه Questo e cosa stupenda * لم اكن أتوقع ثراءً مثل ذلك . وجدت الساحة مزينة بتماثيل ضخمة من الجرانيت الوردى والبازالت الأخضر . مجموعته إرتفاعها ثمانية أقدام تمثل أمون - رع وإلى جواره الملك حورس ابن امينوفيس الثانى من الأسرة الثامنة عشرة منحوتة نحتاً رائعاً . لم أرى شيئاً بهذا الجمال أبداً . فى الداخل يوجد تماثيل ضخمة جداً أيضا : تمثال رائع ضخم لمفرا - تحتس فى حاله رائعة كما لو أنها خرجت لتوها من أتيليه النحات ؟ تمثال من قطعة واحدة إرتفاعه ستة أقدام يمثل رمسيس الكبير جالساً على عرشه بين أمون - رع ونيث ، عمل رائع ؟ تمثال ضخم لموريس من البازالت الأخضر تنفيذه مدهش ، وتمثال واقف لامينوفيس الثانى وتمثال لبتاح من نفس عصر الأمير . ثم مجموعة من الحجر الجيرى للملك امنحوتب وزوجته الملكة اتارى . تمثال للملك رمسيس العظيم أكبر من الحجم الطبيعى . مصنعة مثل الكاميو من البازالت الأخضر ** .. رائع [...] ولا يعبر ذلك سوى عن جزء من المجموعة : لايزال علينا أن نفتح مائتين وثلاثمائة صندوقاً أو لفة . ثم فرد سبعة وأربعين مخطوطاً فقط والمجموعة تضم مائة وواحد وسبعين [...] إن هذه المجموعة تتخطى أى مديح ممكن . الصديق دوبوا *** سيفتح عينيه للغاية وسيسعد سعادة لا نهائية إن هو رأى الرؤوس الجميلة والعظيمة لهذه التماثيل المصنعة بالاسلوب القديم : سأحاول أن أحضر معى نسخاً من الجبس لها ... »

* أنه شئ مذهل

** يرى الزائر هذا التمثال اليوم كالبازالت الأسود .

*** صديق شامبوليون ومعاونه فى كتاب « البانتيون »

عن هذه الصدمة التي فاجأته في ٩ يونيو ١٨٢٤ سيتكلم جان - فرانسوا بأسلوب أكثر إتزاناً وخاصة في أول خطاب له إلى الدوق دويلاكاس * إلا أن هذه الصدمة الأولى لها طعم لا يبارى في صدقها وجمالها إنها النظرة الأولى للمحب أو للمعلم . إذ لا ننسى أنه لم يكن يعرف شيئاً تقريباً عن الفن المصري - سوى بعض القطع المتناثرة والبعيدة عن إطارها مجمعة بطريقة أو بأخرى في مكتبة جرونويل أو في المكتب الملكي للأثار أو في مجموعة بوفان أو تابونا وعند الدوق شوارزوال - جوفية .

في الثامن من يونيو ١٨٢٤ استقبل أيضاً كضيف شرف من وفد يمثل الأكاديمية الملكية اليموننتيه حيث يجتمع من سيصبحون أفضل زملاءه في البحوث : الأب كوستانزو جازيرا وهو مستشرق والأب أميديو بيرون دارس لغوى يوناني و الأب إيمنازيو باروكي . مكتبى - وعالم الفلك الكبير جيوفانى بلانا . ولكن أيضاً الفارس دى سان كوينتينو الذى كان قد عين لتوه محافظاً للمتحف والذى سيتصارع معه في مجالات دخلت الأساطير . كان الفارس من دارسى القرون الوسطى المشهورين ولم يكن يتحمل دون مرارة وإنفعال تدخلات هذا الأجنبي الخبير في مجال محدد لا يمكنه أن ينافسه فيه ولكنه يجمعهما فرضاً ولذلك فإنه سيبدل كل جهده لكي يدمر قدراته العلمية - وسيحاربة مع بعض الحق وبشئ من النجاح في مجال علم المتاحف التطبيقى لم ينضم سان كوينتينو على الفور إلى معسكر المناهضين لمنهج المكتشف . ولكننا سنراه يعترض بسرعة على المسائل المادية .

في خطاب شكر أرسله إلى وزير الداخلية الذى يدين له « بحرية الدخول إلى هذا المنجم الثرى » يوصى شامبوليون بسرعة ترميم التماثيل التى تهشمت بعض أطرافها والتى « إعتنى مسيو دروفيتى بتجميع أجزائها المختلفة » من يمكن أن يعترض على ذلك ؟ غير أنه يقترح أيضاً معالجة البرديات طبقاً للتقنية المعتمدة من مكتب الآثار في باريس حيث لا تلصق على حرير مثلاً يحدث هنا وإنما تثبت على ورق كارتون وهو ما يسمح بحفظها مبنوبة وتغلف في كتاب من حجم الفوليو . في هذه النقطة قبول بالنقد ولأسباب صحيحة .

لما اعترض سان كوينتنو على هذه الطريقة الممنوع إستخدامها حالياً ليحل محلها القماش الخفيف من الحرير نجح في أن يسجل نقطة ضد عالم المصريات . ثم سجل ضده نقط أخرى عندما إعترض على استخدام تقنية النسخ بالبصمة الرطبة التى

(*) راجع فيما بعد الصفحات من 453 إلى 456

محلها القماش الخفيف من الحرير نجح فى أن يسجل نقطة ضد عالم المصريات . ثم سجل ضده نقط أخرى عندما إعترض على استخدام تقنية النسخ بالبصمة الرطبة التى طالب بها شامبوليون لما لذلك من خطورة على ألوان الآثار . ولكن ليته كان من الحنكة بأن يأخذ باقتراحات الضيف للكونت روجيه فيما يتعلق بالترتيب العام للمتحف .

« لا يمكن بأى شكل من الأشكال أن يكون رأى سعادتك بالنسبة للمتحف أن يصبح المتحف الملكى المصرى مثل متاحف كثيرة أخرى مزدهماً تتراكم فيه القطع دون ما ترتيب وتوضع فيه دون علاقة بين الواحدة والأخرى . أن الآثار المصرية تتكيف أفضل من غيرها بين الآثار الرومانية واليونانية مع تبويب منهجى وعلمى فى ذات الوقت تحمل كل قطعة على النوام لوحة مكتوباً عليها بوضوح لا ريب فيه الهدف منها ومن استخدامها . ولا شئ أسهل ولا أصح من إتباع هذه الإرشادات ومن ترتيب هذه القطع حيث آثار دينية أو تاريخية أو جنائزية .

[..] يمثل هذا الترتيب سنقدم إلى أوروبا العلمية لأول مرة سلسلة منهجية من الآثار تعطى بذلك وعلى التوالى فكرة صحيحة ودقيقة عن الديانة والطقوس والعادات وتاريخ هذه الأمة ذاته والتى تدين لها الشعوب التى تزدهر هذه الأيام بأولى عناصر علومها وفنونها وكذلك بأولى مبادئ وضعها الاجتماعى * » .

إلا أن شامبوليون لم يكن ليكتفى بوضع مبادئ صيانة الآثار و سواء كلفته حكومة تورينو أو لم تكلفه بمهمة وضع قائمة رسمية للدروفيتنيا فهو قد بدأ هو إعداد وتقييم ووصف القطع بطريقة منظمة . وكان ما فعله بمثابة « ريبورتاج واقعى » : إذ أن الخطابات التى يرسلها مرتين فى الأسبوع لأخيه كان الهدف من ورائها أن تنشر وقد ظهرت بالفعل ومعظمها منشورة فى Bulletin Féruccac

إلا أن طموحه كان يرمى لأبعد من ذلك : اعتماداً على انطباعاته الأولية ومستخدماً إياها كمواد أولية أعد لنشر سلسلة من أربع أو خمس رسائل إلى الدوق دويلاكاس فى هيئة كتاب كتعبير عن الاعتراف بالجميل إزاء الشخص الذى يدين له « بالتمتع بكل هذه الثروات المصرية » وكاعلان جمالى من أجل تأكيد ريادة الفن الفرعونى .

منذ بداية شهر يوليو وكان قد استقر هادئاً عند صديقه كوستا وإن كانت حرارة الجو تضايقه بعض الشئ وطنين الأذن المؤلم سيطر عليه ، شرع فى كتابة أول رسالة إلى بلاكاس المخصصة للتماثيل الملكية وتهدف إلى « إعادة بناء الأسرة الثانية عشرة ، أعظمها جميعاً » على حد تأكيده :

« .. أهداف من وراء وصف هذه التماثيل أن أستفيد من كل ما تتيحه من وسائل

* هذا هو المنهج الذى طبقة هو على اللوفر بعد ثلاث سنوات

لإعادة تكوين هذه الأسرة بالكامل وسأثبت توافق الآثار مع قائمة أبيبوس وكذلك التماسق مع مانيتون* والقائمة الملكية [..] أن مجموعة تورينو هي في الواقع أجمل تعليق على قائمة أبيبوس إذ تشتمل على آثار أربعة عشر ملكاً متتالياً من الأسرة الثامنة عشرة . أن هذه الآثار المعاصرة ستكفي دون شك لوضع حد لأكثر الشكوك صلابه وستجعل التاريخ الوضعي يتراجع بنفس المقدار .. »

عالم لغويات « رسالة إلى مسيوداسييه » تحول إذن إلى مؤرخ بأن عاد إلى منابع أول العلوم التي قام بتدريسها في جرونوبل وهو ما زال في سن المراهقة ؟ نعم ولا .. نعم لأن إهتماماته التاريخية أمام التماثيل الملكية والمخطوطات واضحة : سنراه في المتحف أمام البرديات المهلهلة مثل لاري أمام مجازر الإمبراطورية . إلا أن المؤرخ سيكون في الوقت ذاته وباستمرار دارساً للجمال وإلهاً بل ومناضلاً : مثال ذلك :

« اجتهدت في خطابي الأول إلى الدوق في تقرير وجهة النظر الحقيقية التي يجب أن ينظر بها إلى الفن المصري أولاً ثم في المستقبل إلى الآثار بذاتها وذلك بناءً على الواقع الملموس .

إن هذه الرسالة التي قد لا تعجب الرنكلمانين** الأكثر تشدداً لها هدف ثانوي هو إعادة مناقشة موضوع الفن المصري الذي حكم عليه بتسرع شديد وبدون حيافة المستندات المؤيدة له والتي أراها أمام عيني بمثل هذا العدد الضخم .. »

منذ الرابع من أغسطس بدأ يرسل أول عشرين صفحة من الرسالة الأولى إلى أخيه بعد أن كلفه بنشرها عند دار بيدو طالبا منه أن يدعمها بترتيب زمني للأسرة الثامنة عشرة . وبدأ المشروع مواتياً خاصة بعد أن عرض عليه ناشر إيطالي نشرها في تورينو في حين شرع كوستانزا جاتزيرا - القس المستشرق (وهو في الواقع مستشرق أكثر منه قسا*** الذي كان يقدره أعظم تقدير في نشر بحث توضيحي « لمنظومة مسيو شامبوليون مطبقة على المخطوطات الهيروغليفية في متحف تورينو ».

ظهرت أولى « الرسائل إلى الدوق دويلاكاس دوليس حول المتحف الملكي المصري في « تورينو » في نهاية أغسطس لدى فيرمان ديوي ٢٤ شارع جاكوب تسبقها مقدمة قصيرة كتبها شامبوليون - فيجاك ويتبعها الترتيب التاريخي بقلمه

* أول مؤرخ أو مرتب للأسرات المصرية .

** المعجبين بعالم الجمال الألماني الكبير رينكلمان (المترجم) .

*** علماً بأنه بدأ حياته العملية في أحد أديرة الكابوسيين .

أيضا . وبناءً على توصية من المؤلف أرسلت نسخة إلى الملك لويس الثامن عشر (الذي سيموت بعد شهر واحد) وأخرى إلى « الصديق يانج * » وكان النجاح الذي أدركته الرسالة عظيماً .

كان في تصور المؤلف أن تكون هذه الرسالة بمثابة مقدمة لمخاطبات مطولة إذ كان سيعي هذا الإعلان المبدئي عن قيمة ومعنى الفن الفرعوني العديد من التقارير من نفس النوع عن مختلف مظاهر الحضارة المصرية . غير أن الإلتزامات التي كان على المؤلف الوفاء بها وكذلك إضطراره لضمان تسليم الإصدارات الدورية « للبانتيون » في مواعيدها لم يسمح له سوى بنشر رسالتين فقط (أغسطس وديسمبر ١٨٢٦) ومع ذلك فإن هاتين الرسالتين تعتبران « بفاعا وتوضيحا » لفن قدماء المصريين موجهة بشجاعة ضد الهيمنة اليونانية وموصولا بذكاء بمنظومة الكتاب التي ربط جان - فرانسوا شامبوليون اسمه بها إلى الأبد .

تبدأ أول رسالة إلى الدوق دوبلاكاس بتحيةة مزدوجة للملك الذي شرفه المؤلف « بحمايته المتنورة » وإلى المرسل إليه فهو العليم بفنون اليونان وروما وتمكن من إدراك عظمة « الشعب العظيم الذي سبقهما .. بأن استقبل في مكتبه بعضا من المنتجات النادرة لمصر الجادة والغزيرة العلم »

ثم بعد أن أدى التحية الواجبة للعظماء ورفع علم الريادة المصرية أعلن جان - فرانسوا شامبوليون متفاخرا أن « فرنسا كانت أول من دخل هذا الأرشف الموقر » ثم صفى بعض الحسابات بأن ذكر « أن لسوء الحظ اختلطت من عاصمتنا مجموعة أثرية كان من المفروض أن تكون لها بمثابة زينة أبدية .. » لولا أن « سخاء صاحب الجلالة ملك سردينيا احتفظ بها في تورينو » ليحل منها « وديعة مشتركة لأوروبا كلها » بفضل « حسن إستقباله » للزوار ،

بعد ذلك تبدأ مرافعة عظيمة - هي في الوقت ذاته عريض إتهام ضد جوهان وينكلمان المُسَبِّح للفن الاغريقي والمنظر لتفوقه المطلق بقدر ما تغذى عبقرية المكتشف المتناقضات وتعظم من شأنها المجادلات .. زاد من حدة هذا الجدل أن قبل ذلك بعام أي في ٢٤ أبريل ١٨٢٣ ألقى راعول روشات خطاباً أمام الاكاديمية تحت عنوان « بعض الاعتبارات عن فنون مصر القديمة » جمع فيه كل ما قاله مؤيدو الحضارة اليونانية المتحمسين الرافضين لأي حضارة غيرها من التلاميذ التافهين لعالم

* نحن الآن قبل العواصف التي هبت عامي ١٨٢٦ - ١٨٢٧ (راجع فصل ١٠ ، ١٢) .

الجماليات الألمانية « كل ما يأتينا من مصر [..] لا يعكس من وجهة نظر الفن سوى
ترديد أمام أعيننا نفس الإله وذات الملك ونفس الرجل الذى ليس هو على الرغم من ذلك
لا إله ولا ملك ولا رجل » (بمعنى « الفن دون فن » كما قال أراجو)
وهكذا وجدت بلاغة شامبوليون هدفا مزدوجا لتعبر عن نفسها ضد هما : العظيم
وينكلمان والهايف روشات :

« إن تاريخ الفن فى مصر لا ينفصم عن تاريخ ملوكها . إن ذات الآثار تشهد فى
نفس الوقت لصالح الأول وللآخرين [...] لم أدرك أن تاريخ الفن المصرى لم يكتب
بعد إلا عندما وجدت نفسى فى المتحف الملكى بتورينو وسط هذا الكم الكبير من
الأنقاض المختلفة لحضارة عتيقة . فى هذا المكان كل شئ يدل على أننا تسرعنا
كثيرا فى الحكم على طرقها وعلى تحديد وسائلها وهو الأهم - على توضيح مداها
.. [..] إن النظرية التى أسسها ونكلمان والتى تدرس فى أيامنا هذه بناءً على ما
للمعلم من سلطة لم تؤسس سوى على مشاهدة مجموعة صغيرة للغاية من الآثار
تجمعت بالصدفة دون إختيار أو تحيز فى متاحف إيطاليا . ثم قيمت فضائلها
بتسرع دون معرفة موضوعها ولا الفترات الزمنية التى تعود إليها ولا الهدف الاصلى
منها .

[..] تثبت مجموعة التماثيل فى مجموعة دروفيتى على وجه الخصوص وعلى عكس
ما يظنه رأى العام أن الفنانين المصريين لم يجبروا قط على المحاكاة الجبرية
لعدد صغير من الأنماط البدائية بأن يعطوا لهذه الشخصيات التى تمثلها أعمالهم
سواء كانوا ألهة أو بشرًا عاديين هذا المظهر التقليدى الذى لا يتغير أبداً والذى نتج
عن الفحص غير المتعمق له إذ أنه إفترض وجود مثل هذا الاجبار .

[..] لو أننا تحررنا من أى حكم مسبق منحاز تماماً للفن الإغريقى ووضعنا مبادئ
ونكلمان فى محك غير منحاز لرؤوس هذه التماثيل [..] لدهشنا من التنوع اللا
نهائى للوجوه [..] سواء بالنسبة للقطع الإجمالى أو بالنسبة لأشكال التفاصيل
[..] معظم هذه الرؤوس تجمع فيما بينهما نوعاً من التماثل فيما يتعلق بالوضع
العام للخطوط يضيف عليها نوعاً من الشبه الأسرى وهو ما نجده فى أعمال أى
شعب آخر نقارن بينها [..] فى مصر كما فى أى مكان آخر يحاول الفنانون
محاكاة الأشكال التى تقع باستمرار تحت أعينهم ولذلك فإن تماثيلهم تعكس الخطوط
المميزة للجنس المصرى [..] ويترتب على ذلك أن إتخذت أحكام منافية للعقل
والعدل كلما جرى الحكم على الفن المصرى إذ أن مراجع التقدير أو المقارنة كانت
للفن الأغريقى أى لشعب غريب تماماً عن مصر .

[..] نسى الجميع أن المصريين عملوا على محاكاة الطبيعة التي تعرضها عليهم بلادهم في حين أن الإغريق عملوا ونجحوا في تجميلها وتغييرها طبقاً لمثل أعلى نجحت عبقريتهم في اختراعه [..] للعديد من الرؤوس البشرية في مجموعة دروئيني أسلوب فخيم ملئ بالتعبير والصدق إنك لاتلاحظ على أى منها هذا الخط الكونتوري الخطأ أو هذا الوجه الشبيه بالصيني الذي اعتقد وينكلمان أنه الجانب المميز للتماثيل الحقيقية (3) يبقى أن نشرح كيف حدث [..] أن هذه الرؤوس الجميلة المصنوعة بدقة ورقة وضعت بشكل عام فوق أجساد نفذت تنفيذاً ركيكاً وبإهمال كبير [..] يبدو لي أن ذلك ليس سوى نتيجة طبيعية للمبدأ الجوهري الذي عليه الفن المصري إذ يبدو أن هذا الفن - كما سبق أن أشرت في مجال آخر (4) - لم يهدف في الأساس إلى نسخ أشكال الطبيعة نسخاً يدوم . بل أنه عمل فقط على تكوين الأفكار أكثر من تصوير الأشياء »

وهنا يصل جان - فرانسوا إلى النقط الجوهرية التي هي رؤيا عبقرية :

إن النحت والتصوير لم يكونا أبداً في مصر سوى أفرع حقيقية من فروع الكتابة والمحاكاة كان عليها ألا تتخطى نقطة ما فقط . التمثال لم يكن في الواقع سوى رمزاً عادياً . أى حرفاً كتابياً . وبناءً على ذلك فعندما ينجح الفنان في التعبير بعناية وصدق عن الجزء الأساسي والمحدد للرمز أى رأس التمثال - وذلك بأن يعبر بصدق عن خطوط الشخصية البشرية الذي يريد أن يذكر فكرتها أو بأن يحاكي بقوة وصدق رأس حيوان يشير إلى هذا الإله أو ذاك - فكان يعتبر أنه بلغ هدفه .. »

ثم يمضي المكتشف في عرض الأفكار التي أثارتها مشاهدته الأولية لمجموعة دروئيني والتي أدت بدورها إلى « نظرية في الفن المصري قائمة أخيراً على وقائع المشاهدة الواضحة » وبالتالي إلى حكم أكثر عدلاً « للجهود المثابرة لشعب كان أول من دخل عالم الفن بأن بنى الأسس الأولى التي شيدت فوقها الحضارة الإنسانية في الوقت الذي كانت أرض اليونان وربما مازالت تغطيها غابات بكر ولم تعبرها من وقت لآخر سوى شرازم من المتوحشين .. »

ويخلص في النهاية إلى القول :

« .. لن تجمع الآثار المصرية منذ الآن على إنها أشياء غريبة فقط [..] إن بقايا وجود شعب عظيم ستنبأ أخيراً المكانة اللائقة بها لتكون أول حلقة في سلسلة الآثار التاريخية . » الخطاب الآخر لم ينشر سوى بعد عامين ويعبر فيه شامبوليون بفطرية جميلة تجاه أحد خلفاء الفرنج الذين يمثلون نظرياً النبالة الفرنسية .

« إنه أصبح أسهل لنا اليوم بناءً على قوة المستندات الرسمية والأوراق المعاصرة لهم أن تثبت وجود الفراعنة مورييس وامينوفيس أو رمسيس ميامون من أثبات وجود أغلب ملوكنا الفرنجة من الجنس الأول » .

إن « جاكوبى » جرونوبل لم يتخلى بالكامل عن مواقفه مهما كانت أرائه الجمالية مستحدثة ومؤلفته بين الكتابة والإبداع الفنى والديانة فى مصر القديمة مبدعة ، إلا أن المؤرخ شامبوليون لم ينسى أبداً أن العلوم الفرعونية التى قام بتدريسها تمتد جذورها فى المستندات المكتوبة . صيف ١٨٢٤ هو فترة عرسه مع التماثيل العظيمة للملوك الآلهة وكان بمثابة نشوة عالية مطولة أسفرت عنها كما لاحظنا رؤية خلاقة لديه . الخريف سيكرسه للبحث وتجميع البرديات الكثيرة أو ماتبقى منها فى الدروقتينا وإلى ترجمتها .

منذ بداية شهر سبتمبر وجاهك - جوزيف شامبوليون - فيجاءك يتلقى أسبوعيا بيانا هو فى ذات الوقت نشيد نصر وصرخة إستغاثة :

« مستمر أنا فى دراسة المخطوطات المصرية التى يتضمنها المتحف .

عثر حتى الآن على ثلاثة أو أربعة احتفالات جنازية بعضها بالهيريوغليفية والبعض الآخر بالهيراظيقية : كثير منها مكتوب بأسلوب رائع . غير أن من المؤسف أن ١٧٥ من هذه المخطوطات ليست سوى نسخ من نفس النص ومع ذلك فإنى أؤسى نفسى بأن أتذكر أن كل هذه الطباعات من نص واحد ستوفر لى لدى المقارنة بينها على كمية كبيرة من التفريعات وسأتوصل فى النهاية إلى تكوين قائمة ثرية بالمتجانسات اللفظية .. لقد توصلت بالفعل إلى استخراج أربع أو خمسة مدلولات صوتية جديدة وبهذه الطريقة سأتوصل شيئا فشيئا إلى استكمال مجموعة الحروف الصوتية .

[..] مذكراتى التى أدونها من أجل القواعد الهيريوغليفية تزداد سمكا وأخذت أبعاداً محترمة . است أسفا سوى على شئ واحد هو اكتشافى أن نصف البرديات على الأقل فى حالة تحلل لا تسمح لى بلمسها . يبدو أن الفترة التى أمضتها داخل الصناديق لمدة ثلاث أو أربع سنوات فى ليفورن قد أثر عليها تأثيرا سلبيا للغاية . ثلثها على الأقل تحول إلى طمباق أسباني .

(..) إليك أيضا موضوعا جديداً مثيرا للفرحة والكم . واصلت وانتهيت من فرد المخطوطات المصرية الموجودة فى المتحف مع التركيز على اللفائف الأكثر صلاحية والأفضل صيانة : فلم أجد سوى أجزاء شبة كاملة لشعائر جنازية تارة لرجل وتارة أخرى لامرأة . لدرجة أن هذه الأساطير الدينية أصبحت تفيض من عيني . قررت منذ ثلاثة أيام أن أتفحص بعناية ما أطلقت عليه اسم « كوم السماد »

أى حوالى عشرين لقافة من البرديات التى سطحت ثم ثنيت مرتين أو ثلاثة مرات ولفت فى قطع من القماش وأغلبها فى حالة يرثى لها وهو ما جعلنى أقرر أن أضعها جانباً على أنها من المخطوطات صعبة التداول (..) ما أمكنتى إنقاذه من الغرق يجعلنى أسف إلى الأبد من ضياع مستندات لعلها تكون فى غاية الأهمية بشكل لا يقبل التعويض على الرغم من أن التجار كان بإمكانهم بشيء من العناية والذكاء من المحافظة عليها سليمة تماماً لبضعة قرون قادمة »

إلا أن النص البالغ الأهمية فى هذا الإطار هو الخطاب الذى أرسله لأخيه فى ٦ نوفمبر ١٨٢٤ . ولو طلب منا إختيار خمسة أو ستة نصوص بقلم جان فرانسوا فقط للابقاء عليها لكان هذا النص منها . التعبير فيها ينم عن نوع من الرومانسية التاريخية التى تذكرنا بشاتوبريان وميشليه ولكن مع شيء مما هو موجود لدى مؤلف الساحرة LA SORCIERE أى أنه قائم على نظام علمى يفرض على الآخرين إحترامه :

« بعدما إنتهيت من فرد البرديات التاريخية التى سبق أن حدثتك عنها أن علمت بالصدفة بوجود بعض بقايا من مخطوطات مصرية فى المخازن ولكنهم أفادونى أن الإطلاع عليها لن يفيد . ولكنى صممت على رؤيتها وتم الإتفاق على وضعها فوق منضدة حيث أتمكن من مراجعتها فى اليوم التالى .

(...) عند دخولى إلى هذه الحجرة والتى أطلقت عليها منذ تلك اللحظة « كولومباريوم التاريخ » تملكنى إحساس ببرودة الموت إذ رأيت منضدة طولها عشرة أقدام تعلوها طبقة من فتات البردى إرتفاعها نحو نصف قدم على الأقل Quls Talia Fando Temperet a Lacrymis* ولكى أسيطر ولو قليلاً على أحزاني تصورت أنى لا أرى سوى بقايا اربعمائه أو خمسمائه مخطوطاً جنازياً ، وتشجعت فألقيت نظرة على أطول الأجزاء وأقلها تشويهاً . وإذا بالجرح يزداد إتساعاً وينفجر دماً من قسوة التعرف على [...] النص الذى فى يدي وهو يرجع إلى السنة الرابعة والعشرين من حكم الفرعون أمينوفيس - ممنون . ومنذ تلك اللحظة إتخذت قرارى بأن أراجع قطعة قطعة - كبيرة كانت أو صغيرة - من هذا الهشيم الذى يغطى منضدة البؤس هذه . بدأت المهمة كما يفعل فلاحونا عندما يقومون بتنقيية ثمرات اللوز فى أمسيات الخريف ولكن فى

* « كيف يمكن ، عند سرد مثل هذه الأشياء ، أن يحبس المرء دموعه »

ملحمة « الإنييد » .. كتاب ٢ فصل ١ ، ٦ - ٨)

حركات أكثر بطناً وفي أجواء أقل مرحاً . أهم أدواتى التى لجأت إليها فى عملى كانت هى سن القلم النسخ (الكالك) وكانت تأخذ كل قطعة من المنضدة لتضعها فى يدي ثم بعد مراجعتها بكل دقة من الأمام والخلف كانت تقع فى صندوق الموت .. [..] يستحيل وصف المشاعر التى تملكتنى وأنا أراجع بقايا رفات التاريخ هذه ! إن أكثر الخيال برودة سيرعد لمثل هذا المشهد . كيف تمنع عنك ولو قليل من الإنفعال وأنت تحرك بيدك رفات قرون من التاريخ ؟ واندفعت فى تأملات فلسفية .. لا يوجد فصل واحد عن أرسطو أو أفلاطون فى بلاغة هذا الكوم من البردى . إن منضدتي تقول أكثر مما قالت منضدة سيباس : لقد رأيت وهى تنساب من بين يدي أسماء سنين فقد التاريخ ذكرها وكذلك أسماء آلهة إختفت مذابحها منذ خمسة عشر قرناً .

كما أنى حملت فى كفى - وأنا أكاد أتنفس خشية أن أهدرها بزفيرى كالدقيق - تلك القطعة الصغيرة من ورق البردى التى كانت المرجع الأخير لذكرى أحد الملوك لعله كان وهو حى يشعر بضالة قصر الكرنك بالنسبة له !

[..] رأيت فى هذه البقايا الهشة والمفتتة لعالم ذهب إلى أبد ، ما أشاهده . فى عالم اليوم : ان ما يفصل بين التسامى بشئ ومنه خطوة واحدة ... وأن الزمن يسطح كل شئ ويذهب دون تفرقة بكل ما هو عظيم وما هو صغير بكل ما هو هام وما هو تافه وبكل ما هو حزين وما هو مرح ! إلى جوار نص يصف أحد أعمال فترة حكم رمسيس العظيم أجد آخر خاص بطقس دينى يشيد بأعمال رمسيس - ميامون أو بأعمال عاهل آخر - وقعت فى يدي قطعة من كاريكاتور مصرى برسم قطة تحرس البط وفى يدها عصا ، وآخر يظهر فيه شخص يعزف على ناي مزنوج وإلى جانب اسم ولقب المحارب مورييس رسم لفأر مسلح فى معركة يطلق خلالها سهامه على محارب من قواته أو لقط ممتطياً عربة حربية .. هنا أيضاً أرى قطعة من طقس جنازى استغل ظهرها لتحرير عقد بيع وهناك بقايا رسم ملون فاجر لدرجة شنيعة هز إيمانى بتعقل وسمو الذوق المصرى *

* تجدر هنا الإشارة إلى شئ غريب للغاية وهو أن عالمين إيطاليين مرموقين جداً هما سيلفيو كورتو ومدام إيدا برشيانى - كثيراً ما نرجع إليهما أضافاً إلى هذه الجملة ما يلى : « .. إلا إذا اعتبرنا أن هذه الرسومات قد صودرت فى وقتها من السلطات القضائية » . وعندما راجعنا النص الأسمى للخطاب لاحظنا خلل النص منه . فهل يوجد نص تورينى لهذا الخطاب ؟

سيعود جان - فرانسوا فى هذا الخطاب البديع - ٦ نوفمبر ١٨٢٤ - إلى الغوص مرة أخرى فى أعماق الدهر - ومعه سيستعيد أسلوبه الجدلى عند النهاية .

« .. إلا أن أهم بريدية وهى التى سأندم عليها إلى الأبد لأنها تبددت تماماً وكانت كنزاً حقيقياً بالنسبة للتاريخ فهى التى كانت تتضمن كشفاً بتواريخ الملوك . وكانت بمثابة « قانون ملكى حقيقى » مكتوبة بالخط الهيراطيقى وكانت تضم أربعة أضعاف ما تضمنته قائمة أبيدوس من أسرات فرعونية وهى كاملة . وجمعت من هذا المخطوط الثمين وسط الركام حوالى عشرين قطعة من بوصة أو بوصتين تحتوى على أسماء مطموسة جزئياً لسبع وسبعين فرعوناً . والمدهش فى كل ذلك هو أن لا أحد من السبع وسبعين اسماً يشبه هؤلاء المذكورين فى قائمة أبيدوس وإنى مقتنع تماماً أنها تعود إلى الأسرات السابقة لها . كما يبدو لى أيضاً من المؤكد أن هذا القانون التاريخى مواكب لكافة المخطوطات الأخرى التى جمعتها هنا أى أنها ليست تالية على الأسرة التاسعة عشرة * .

[..] وإليك أيضاً أهم هذه الاكتشافات ذات الأهمية العظمى والتى تثير الأسى والسعادة فى ذات الوقت - والتى تجعلنا نرى (وهذا هو جانبها المعزى) : فى إمكاننا أن نتوصل إلى كل ما نرجوه من نتائج من أبحاث تجرى بأسلوب منظم فى حالة لو أن حكومتنا قررت أن تصرف بعضاً من المال للحصول على آثار مصرية . غير أننى أشك فى هذا وذلك لأنه من المشرف ومن الأفضل أن نفعله »

إنه درس فى علم الجمال وفى التاريخ وفى علوم اللغة .

سببمضى جان - فرانسوا على هذه الدروب الثلاثة فى طريقه المؤدى إلى حل شفرة الهيروغليفيات بأن إستعان بوجهات النظر التى تتيحها له . وسط هذا الكم الكبير من ركام المستندات المتهاكة أخذت قرون الزمن تخرج من أكفانها ... وفى الخامس عشر من نوفمبر يعلن هذا الفلاح لأخيه الأكبر أنه « إنتهى من فرز ثمرات اللوز » .

وفى الثالث والعشرين من نوفمبر يصدر بلاغاً بالانتصار ويرسله لجاك - جوزيف .

- « وصلتنى لفافة لم أكن أنتظرها من مصر ولا أعرف مرسلاً فقذفت بى إلى أبحاث لم أنتهى منها بعد وإن كنت أنتظر الحصول منها على نتائج جيدة . أى على معرفة تامة وكاملة لمنظومة الترقيم وتسجيل الزمن فى

* تظهر فى نص الرسالة نشرتها مدام بوربون (ص ١٨٨) هذه الجملة : « إن ما يمكن إستخلاصه من هذه الحقيقة الهامة هو أن ٢٠٠ ملكاً مصرياً سبقوا هذا التاريخ »

الكتابات المصرية الثلاثة ويمكننى أن أعلن لك أن تلك النقاط هى بالكامل بين يدي .
ولم يبق سوى جمعها .. وهى موجودة مرة أخرى وسط كوم من ركام البرديات
والذى يجمع المواد جميعا . لا يوجد الآن نص واحد سواء هيروغليفى أو هيراطيقى
أو ديموطيقى يمكنه أن يتسبب لى فى حرج : وإنى أكتشفهم بكل سعادة : العام
الشهر واليوم » .

ها هو التلميذ شامبوليون يحرز التقدم .. ولكن مهما كان هذا التلميذ القديم للأب
دوسار نجيبا فهو لا ينسى أن يحدث ضجة . فلنسمعه وهو يتكلم عن رجال السلطة :

« .. خطاب وصلنى من فلورنسا أفادنى بوصول جمرك ليفوريه طرد ضخم يضم
برديات مصرية يمتلكها مسيو سولت * ويبدو أن هذه المخطوطات معروضة للبيع .
وسيرسلون لى عن قريب مذكرة إجمالية بما تتضمنه . غير أننى لن أحصل عليها
سوى لى تثير أعصابى لأنى على يقين من أنهم لن يفعلوا شيئا بخصوص
باريس ** من أجل الحصول على أهم هذه البرديات . وددت لو أن أصحاب السلطة
كبار وصغارا جاءوا ليمضوا يوما أو يومين فى متحف تورينو ليسمعوا النعوت
التمجيدية لهم التى يطلقها زوار المجموعة من الفرنسيين . لم أجد واحدا لم يعرب
عن أسفه لضياح هذه الآثار على فرنسا بسبب العقول الميكروسكوبية لعظماءنا
السياسيين أنه حفل موسيقى مستمر من الدعاء عليهم وإنى بدورى أقوم بواجبى
المقدس فى توجيهه إلى العنوان الصحيح *** ..)

أذا كان شعورة يزداد بأنه « إيطالى بالقلب » فكان ذلك يرجع أن ما يصل إليه من
أبناء باريس لم يكن بالنسبة له سوى خيبة أمل . كل يوم كان يمر عليه وهو فى
الدروفيتينا كان يزيد من حنقه على الذين رفضوا أن ترى هذه الكنوز متحف اللوفر
وسيعد له المحيط العلمى فى باريس الذى يكرهه - ماعدا داسييه - إصابة جديدة .

بعد وفاة شخص اسمه برناردى شجر مركز فى أكاديمية المحفوظات والآداب :
شامبوليون - فيجاك - الذى فشل قبل ذلك مرة - كان يتحرق شوقا لأن يقبل فى
الأكاديمية . ولكن تحالف قام يناهضه . ولكى يسد الطريق أمامه اقترح بعضهم
عضوية جان - فرانسوا للمنصب الا أن هذا الأخير شعر بالإهانة وكتب إلى أخيه
الأكبر : لا أريد كرسيهم إلا إذا كان فى إمكانى أن أجلس إلى جوارك « ثم نراه يمتطى
جواده مرة أخرى ويهاجم :

* قنصل إنجلترا فى إسكندرية . وهو أيضا عالم مصريات مقتدر وهو تلميذ لشامبوليون ومنافس له .

** سنرى أن جان فرانسوا كان ولو لمرة واحدة متشائما أكثر مما يجب وأن الحكومة الفرنسية ستقدم فى
النهاية على شراء هذه البردية ضمن مجموعة سولت بأكملها .

*** وزير الداخلية : كورينار

« وإنى على العموم مقتنع أنهم لا يريدونك ولا يريدونى كذلك وأنهم يفضلون حشو
الأكاديمية بعدة دستات من « قارعى الرؤوس العنيدة » على حد قول شيخنا * على
أن يفتحوا الباب أمام أشخاص لديهم شجاعة تكوين أرائهم الخاصة . فإذا كان فى
هذا يريحهم ، فليكن [..] وإذا فشلت فإننا سنسعد بمعرفة من هم أعدائنا . ويكون
علينا بعد ذلك أن نتصرف تجاه كل فرد بما يستحقه . لم يعد هناك أى حرج فى
مواجهة أى شخص وسوف نلعب جميع المتأمرين وكل المؤامرات .

العقدة كلها تتلخص فى ذلك [...] لم تكن فى حاجة أن تسألنى لمعرفة ما أفكر فيه
وما أريده . ركز إذن على الهدف وبكل وضوح ولا تقدم أى نوع من التنازلات -
لا يوجد حل وسط. In medio stat virus non virtus ** .

بعد مرور أسبوعين كل شئ أتضح وفشل شامبوليون - فيجاك فى الحصول على
العضوية وفى ١٣ ديسمبر ١٨٢٤ انفتحت جان - فرانسوا عن غضبه :

« علمت من الجورنال دى دييا الذى وصل يوم الجمعة يا صديقى العزيز نتيجة
الصراع وآليات اللعبة . ليترون *** يمكنه أن يعتمد على عرفانى بجميله وسينال
جزائه فى الوقت والمكان المناسبين لم تذكر لى إن كان خطابى قد سلم
للأرمنى **** فى جميع الأحوال فإن اسمه قد محى من القائمة .
[..] ترى إذن كيف أنى أوافق قلبا وقالباً على ما خلص إليه معلمنا
المبجل *

* داسيه

** فى الوسط يوجد الإثم لا الفضيلة . ١

*** أهم شخصية اشتركت فى عملية الاقتراع وذلك فإن جان - فرانسوا يعزى إليه فشل أخيه .

**** أى سان مارتان الذى كتب له « صغبرى » يطلب منه مساعدة أخيه إلا أن هذا الأخير عدل عن تسليمها
بسبب وضوح موقفه المناهض له .

وأنى فى غاية التأثر للمضايقات الجديدة التى لابد وأن هذه القضية برمتها سببتها له . أفضل شئ فعلته هو أنك قررت الغدول فى المستقبل عن أن أتسبب له مضايقات كهذه وأن تحرجه - إن أمكن القول - مع أوغاد يدينون له بكل ما فى حوزتهم . لقد أعلنت الاكاديمية طلاقها البائن منا وسنعرف كيف نواسى أنفسنا بما نقش على ضريح بيرون *

[..] أما جومار الذى تسبب مكروه الحقيق فى إفساد العملية كلها فهو رجل ميت . إنه لم يرنى بعد اذا استخدمنا طريقته فى التعبير - سوى فى هيئة أوزيريس الرحيم ذى رأس الأييس أو الحمل إنى اعد له ظهوراً معتنى به على هيئة تمساح وسبع البحر وسنرى حينذاك كيف سيكون حاله فى هذه الظروف الالهية . ومهما حاول ساعتها أن يحتجب وأن يحيط نفسه بالحجاب المقدس للأسرار فسأمزق الغطاء لأجل المؤمنين يشاهدون كيف أن الكاهن الأعظم ليس سوى أحد الغرباء على أرض مصر من رعاة غنم وهيكلوسوس ** الذى وضع على رأسه بسلطته هو وحده - البشتت *** ويدعى التحكم فى المناطق العليا والسفلى .

اليس هذا هو صديقنا جان فرانسوا الذى تلقاه من جديد فى صورته التى نعرفها أو الدوفينى « المعفرت » الجاسكونى المتشوق لاستلال سيفه ، والمراهق إلى الأبد الذى يعشق أن يكون غاضباً وهو دائم الحماس لتراث قديم من التزمت العلمى . سينال هو نفسه نصيبه من آثاره ولكنه الآن يتعبد بحسده وروحه لمصره العريضة . فى ٣ ديسمبر ١٨٢٤ كتب وهو لا يزال يرتعش من الغضب لم حدث لأخيه - إلى صديقة نوبوا . رسام كتابه « البانتيون المصرى » :-

« ... حصلت أخيراً على الموافقة على تجميع قطع تمثال سينوستريس الذى حدثك عنه فى رسالتى الأولى . لا ينقص منه شئ وعندما أتأمل جمال وكمال هذا الوجه الضخم الرائع فأبني أندم على أنى لم أحدثك بما يكفى فى رسالتى عن روعة الفن المصرى . إن هذا التمثال كان سيسحركم وكنتم ستقولون معنى دون شك :

* « هنا يرقد بيرون الذى لم يكن شيئاً ولا حتى عضو الاكاديمية »

** الهيكلوسوس أو الرعاة غزاة مصر الملعونون .

*** غطاء الرأس الملكى .

كل يوم أراها من ستة شهور كاملة مرت .

وأخالنى دائما أراها لأول مرة *

أنا باختصار أعشق هذا التمثال وسأصل إلى باريس وفى حوزتى نسخة مصبوبة من الجص للنصف الأعلى منه وسترون ساعتها إذا كان ولعى به له ما يبرره . إن الرأس إلهى الجمال ، الساقين والقدمين رائعة والجسد مرن - إنى أسمىه أبولون البلقيدي المصرى .»

كانت هذه الجملة سبباً فى السخرية منه . إذ أنه اختار رائعة من روائع الفن الاغريقى كمثال أعلى ! أفليس فى ذلك اعتراف بصحة وجهة نظر وينكلمان ؟ يجب ألا ننسى أنه يتحدث إلى مجتمع جبل على تمجيد كل ما هو يونانى فأصبحت كل مراجعته يونانية . فأن يقال عن نابوليون على سبيل المثال أنه القيصر الفرنسى لا يعنى أنه أقل شأنًا من سلفة . إن المرجع هنا يعتبر من أساليب التعبير وليس إعتراف بالولاية ، وليس من الكلام المرسل وليست لترتيب الأوليات وواضح من سياق حديث شامبوليون أنه أراد أن يوضح أننا بصدد سلم قيم مختلف .

« فى تورينو كما فى باريس الأوغاد كثيرون . هنا كما هو الحال عندنا الغباء يتحكم والشر ينتشر » إحتاج مكتشفنا ثمانية أشهر كاملة ليكتشف أن الليمونت ليس الجنة ، إلا أنه يضيف متحدثاً عن « الأوغاد » « هنا على الأقل فإنهم يقتصون منهم .»

« الوغد » هنا حسبما يقول « صغير » ليس جومار ولا كاترومار وإنما هو الفارس جوليو كورديرو دى سان كوينتينو مدير المتحف الملكى المصرى . لم تكن الصفات الحميدة تنقص هذا الرجل إذ كان مؤرخاً جيداً وكان يتمتع بصفات محافظ المتحف الجيد ونجح لحسن الحظ فى إعلاء أرائه أحياناً على أراء شامبوليون .. ولكن كيف لا يتضايق هذا الموظف الكبير من التفوق الفكرى الذى يبيده الأجنبى فى المجال المصرى ومن الامتيازات التى يتمتع بها ؟ ولذلك كان الجو مشحوناً بالتوتر . وتكررت الأحداث التى لم ترجع كلها إلى غيرة سان كوينتينو . وإذا كان « محافظ المتحف » قد أخطأ فإن ذلك يرجع إلى أنه لجأ إلى «سرقة أعمال غيره » ** ثم عندما أكتشف أمره وغطاه الخزى قرر أن ينضم إلى شلة « طافئ الأنوار» فى مواجهة المكتشف « عدو الدين » .لم

* مسرحية بيرينس لراسين الفصل الثانى المشهد الثانى (إلا أن تيتوس يقول « خمس سنوات كاملة ») .

** نشر فى كتاب باسمه بعض الاكتشافات التى قام بها جيف شامبوليون متعلقة بالنظام الترقيعى المصرى (أنظر فيما بعد . ص . ص .

تكن جميع حلقات هذه الحرب الصغيرة مشرفة بالنسبة لجان فرانسوا . وإذا كنا نذكر ذلك هنا ، فليس لأننا نريد أن نعيد ذكرياتها – التي غطت عليها المكاسب التي حصل عليها شامبليون من البيميونتين – وإنما لكيلا نكون قد حجبنا جانب من سمات شخصية المكتشف فقد كان مزاجه ينزع إلى الصراعات أكثر مما كانت تحتمله الظروف .

مثال ذلك هذا الخطاب الذي وجهه في ١٨ ديسمبر ١٨٢٤ إلى الكونت روجية دو شاليه فبعد أن ضمن حمايته له وراح يكيل الاتهامات ضد « المسيو دوسان كانتان » مثل التلميذ الذي سرقوا منه لعبته متمادياً في استغلال هذه الحماية . فبعد أن أمتدح نفسه لأنه أنقذ العديد من البرديات التي كانت فتات لا شكل لها ولولاه « كانت ضاعت إلى الأبد » عبر عن دهشته مع شيء من النفاق ، إزاء « تباعد » المدير . ثم يضيف بون أن يتردد في اللجوء إلى نوع من الابتزاز :

« إذا منعت من ممارسة التسهيلات التي رأيتكم ياصاحب السعادة منحى إياها فإنى سأكون مضطراً إلى إيقاف نشر رسائلى إلى مسيو بلاكاس التي كانت ستجعل الناس يقدرون عظمة المتحف الملكى ، فهى تلقى الضوء على مختلف أنواع الثروات التي يضمها . سأترك ساعتها هذا الأمر بين يدي السيد المدير أو أى شخص آخر سيرى أنه فى إمكانه أن يفعل ما أفعله أو أفضل مما أفعله أنا : ولكن سيكون من الصعب على أن أرى حكومة صاحب الجلالة السردى وقد اقتنت هذا الكم من الآثار الثمينة بكل هذا السخاء بون أن تحصل لنفسها على المجد الذى تستحقه ودون أن يجنى العلم مايتوقعه من معارف تكشف عنها هذه المجموعة من الآثار المرتبة والمعروضة بشكل مناسب . ستغفرون يامونسينيور هذه الصراحة الزائدة عن الحد التي دفعتنى إلى أن أتكلم لأنه كلام صادر من شخص كرس حياته كلها للدراسات المصرية وقد يستشعر أكثر من أى فرد آخر الأهمية العظمى التي تتمثل فى الأشياء التي يضمها متحف صاحب الجلالة ... »

لأشياء مما قاله يشوبه الخطأ ولكن ليس كل ما قاله أيضاً سليماً تماماً ويجب عليه ألا يندهش من « التباعد » المتزايد للمدير عنه لأن الرجل الذى عومل بهذه الطريقة لا يمكنه أن يبقى صافى النفس .

وينطبق ذلك أيضاً على البلاط الملكى إذ سيعبر شامبليون عن دهشته لابعاده

عنه وهو الذى تجح فى تخطى تحفظات آل بوريون ، وسيعامله ملوك روما ونابولى وفلورنسا كصديق لهم . لأنه إذا كان يريد أن يحظى برضاء الملك لم يكن من اللائق أن يرسل له ولا حتى بطريقة غير مباشرة « التماسا من الفرعون أو سيماندياس » مكتوب بلهجة السعيد بسفاقتة .

لأن سان كويتنتيز قرر إبعاد تمثال ضخّم للفرعون سيتى الثانى (أطلق عليه الرحالة اليونانيون اسم أوزيماندياس) ووضعه فى فناء المتحف كتب شامبوليون هذا المنشور الذى يسخر فيه من مدير المتحف الذى عينه الملك (ومن الملك نفسه ...) ووزع فى شوارع تورينو . إذا كان تصرفه هذا قد حدث فى ظل حكم ملك راية ستا ندال إرنست رانوتشى الرابع وليس كارلو - فيليشى الأول لكان أقتيد مطرودا إلى الحدود ... ما قاله أوزيماندياس هو :

« جاوا بى يا مولاي وسط اهانات يكيلونها لكرامتى ليصلوا بها إلى الحضيض فبدلاً من إصطحابى إلى قصر فخّم تركونى فى عشة فراخ معرضاً فى وحدتى التامه إلى كافة الصعوبات خاصة الآن ، إذ تصل درجة حرارة هذا البلد إلى مستويات مؤلمة ، لم أعاين مثلها أبداً . وهذا بالذات هو ما يجعلنى استغيث بعدالتكم ورحمتكم يا صاحب الجلالة فبدلاً من تعريضى لاهانات الطقس إمنحونى هنداماً أصفر مطرزاً بالأخضر مثلاً أعطيتم لبعض زملائى بل وأيضاً لبعض القطط وحيوانات أخرى لم تكن تتوقع قط الحصول على مثل هذه النعم * . لقد غطونى بكل فظاظة بتلال من القش ، وإنى أغتنم فرصة اللحظة المتبقية لى - إذ أن هذا الغطاء المضحك وصل حتى ذقنى - لافتح فمى وأتقدم بشكواى بأعلى صوت من هذه الأهانه .

ماذا !! فرعون الذى غزا باكتريان على رأس سبعمائة ألف محارب والذى شيد أعظم مبانى طيبة لن يكون الآن سوى ملك من قش أو إذا كان لا بد أن يقال فالكلمة هى : ملك محشو بالقش ؟ لا يا مولاي إن جاللتكم لن تسمح بذلك أبداً . بعد أن عرفتم الآن المحنة التى أمر بها وإنى ألتمس من جاللتكم العدل . أنا ملك ويجب أن أعاملكم هذه الجملة تلخص ما أنتظره . كما أنى أطالب كتعويض ضرورى أن من اخترع هذا الزى المخجل الذى أتحفت به يجب أن يحشى بالقش لكى يرسل على الفور إلى متحف التاريخ الطبيعى - هذا هو العدل . »

متاعب ثانوية بالمقارنة بهذا الكم من الصداقات التى عقدها مع أعضاء المجتمع

* كان أهل تورينو يسخرون من بعض « الملابس » الذى رأى سان كويتنتيز اتحاف بعض التماثيل بها .

البيمونتي من التعاطفين معه سواء في الأوساط العلمية مثل جيوفاني بلانا عالم الفلك والأب حازيرا وآلان بيرون والكونت فيدوا وآخرين - والأوساط الأرستوقراطية الليبرالية وعلى رأسها الأمير دوسافوا - كارينيان والكونت والكونتيسة سكوييس والكونت بروسبيرو بالبو وأبنه شيزاري وعائلة سالوتزو* بدءاً بالكونتيسة دبودانا « سافو البيمونتي » . تذكر هنا ما قاله في هذه الصند لأخيه « يقف في صفى السلطة التنفيذية ورعاية الوزير والأكاديمية والرأى العام ... »

في خطاب آخر كتبه شامبوليون بعد ذلك بعام إلى صديقه دوفليار الذى كان ينوى اللحاق به في إيطاليا - وكان يقطن ليفورن حينذاك رسم بورتريهات سريعة وطريفة لبعض أصدقائه التورينيين « ... إتصل بالأب جاتزيرا الذى هو أب بالاسم فقط وهو من أصدقائى { ... } وإذا أردت أن تأخذ لك مرشدا يكون من المهرجين فاتصل من طرفى بمسيو لوى كوستا وزير الدولة : إنه من الشخصيات المحبة للحياة . وستكون سعيداً معه ... »

لم يرى شامبوليون في هؤلاء المناصرين له أنهم « مشجعين » مجهولين يستخدمهم لأغراضه الشخصية أو العلمية فحسب بل إنه كان يكن لهم تقديراً عظيماً . وهو ينقل عن الآخرين أنهم قالوا عن جاتزيرا أنه « ياوره » في حين أنه يردد له العديد من تعبيرات التقدير كما أنه يصف بالبو بأنه « رجل سامى الأخلاق » . هل كان في مقدوره أن يحكم على الموهبة الشاعرية لديوداتادى سالوتزو** إنه يتكلم عنها باعجاب خال تماماً من الرياء الاجتماعى ... ولكن بشيء من التفرد إذ أنه أكثر الناس تأثراً بتقدير الأرستوقراطيين له وهو المؤيد للجمهورية . مستوى العلاقة بين طبقة النبلاء البيمونتيين والضيف لعبت فيه السياسة دوراً حيوياً . كانت هذه الارستوقراطية كمثيلتها في باريس حيث نشط آل دوفيل ولاروشفوكو من أجل تنمية التعليم العام وحرية الرأى ، ترفض سياسة الملك المحافظة وتتحرك بدافع المشاعر الملتهبة التى سبقت فترة النهضة الإيطالية « Risorgimento » قد رأت في شامبوليون بونابارتماً مسالماً حاملاً لمشاعل منيرة ولكنها ليست حارقة . كانوا ينظرون إليه في تورينو ، أنه المحرر - وإذا وجد أحد يشك في ذلك فما عليه إلا أن ينظر إلى الجهة التى تأتى منها الحركات المناهضة له ...

* تنطق سالوس في الناحية الأخرى من بلاد الألب . وهى الأسرة التى اهتم شامبوليون وكوستا بأمورها في جرونوبل عام ١٨١٨ .

** أرملة الكونت نوريفال كتبت على وجه الخصوص « قصيدة فلسفية » عنوانها ايباتزيا تجرى أحداثها في الاسكندرية داخل معبد إيزيس .

ليس معنى ذلك أن « صغير » خصص وقته كله لخوض معارك حول فنون ترتيب المتاحف و لصراعات القوى وأصول الاتيكيت أو إنه لعب دور البائع المتجول الذى يروج لمبادئ الثورة فى الأوساط البونابارتية المتطرفة أو بين الكاربوناريين الجدد . ظل وسيظل جان - فرانسوا شامبوليون عالم مصريات خالصاً « مكرساً طاقته كلها لمهمته على المستويات الثلاثة : اللغوية والتاريخية والجمالية » .

كتب سيلفيو كورتو يقول إنه اندفع فى هذه المهمة بنشاط هائل وبصرف النظر عما يمكن تسميته « ببيانته عن سيادة » الفن المصرى وهو ما يميز أول رسائله إلى الدوق دوبلا كاس وعن غوصه فى أعماق آلاف السنين من التاريخ التى أخرجها « كوم » البرديات فقد دعم منجزاته التى تضمنها كتابه « المختصر » الصادر فى فبراير ١٨٢٤ وذلك فى مجالين : من وجهة النظر اللغوية أوضحت الرسالة التى كتبها فى ١٢ فبراير ١٨٢٥ إلى فيلهالم فون هومبولدت الذى كان يعتبر حينذاك صاحب الكلمة العليا فى مجال علم اللغة فى أوروبا ، أنه قد عمق ، العلم الذى أسسه عن الصوتيات المترادفة ، وهى إحدى المعطيات الجوهرية فى الكتابة الهيروغليفية ، ومن وجهة النظر التاريخية فإن إكتشافاته المتعلقة بمنظومة الأرقام المصرية قد صحت كثيراً من المعلومات الواردة فى « وصف مصر » - وهو ما لن يغفروه له أبداً !

كشفت رسالته إلى هومبولدت كم كان أكتشاف ١٨٢٢ يحتاج إلى تعميق ومراجعة فهو إذ يكتب إلى أحد العلماء - الذين تأخذ مراسلتهم على الفور بعداً وصدى الحدث العام ، لا يخفى شامبوليون أيأ من شكوكه ولا أيأ من الأخطاء التى إرتبكها ولا أى حيرة انتابته . نادراً ما عبر فكره العلمى ، أى التشكك الدائم فى نفسه ، بهذا الأسلوب الصادق وبهذه الدرجة المؤثرة . إن العبقرية لا تفعل ما تريد وإنما ما تقدر عليه . إنه يتلعثم ويتراجع ثم يندفع من جديد ثم يخلص فى النهاية كما يفعل دائماً بالأسلوب الذى يميز شامبوليون وهو خليط من تواضع الباحث وحدة نبيرة المجادل .

« ... وددت لو فاض سرورى بأن أتمكن من تبديد كافة شكوككم وأن أقرر بثقة حسم كافة الصعوبات . غير أن علمى بالهيروغليفية لم يصل إلى هذا المستوى بعد لعله تقدم فقط بما يسمح بلمحة على المسافة الشاسعة التى سيتعين عليه أن يعبرها دون ما عائق فى دهاليز الكتابة المقدسة . أرى الطريق الذى يجب السير فيه وأعرف الوسائل التى يجب الأخذ بها للتقدم بخطى واثقة على هذا الدرب الجديد جداً والثرى جداً . إلا أنني لا أعرف إن كان عناء رجل واحد وحياته كلها تكفى لأداء مثل

هذه المهمة الضخمة * . مهما حدث سأستمر فى أبحاثى وإنى أجرى وراء الآثار الأصلية وهى المرشد الوحيد الذى يمكننا أن نتبعه دون أن نخاطر بشئ يعطلنا ، كما حدث لى بالفعل طوال عشر سنوات بسبب النسخ غير الدقيقة المنشورة فى الكتاب الضخم للجنة المصرية ... »

يعتبر أهم نصر حققه شامبوليون فى المجال التاريخى فى تورينو على الأرجح هو فهمه للمنظومة الرقمية التى كشفت عنها برديات الدروفيتيانا فقد أعلن فى يناير ١٨٢٥ منتصراً إلى جاك - جوزيف أنه ألقى الضوء على :

« (١) أسماء الشهور بالديموطيقية والهيراطيقية - (٢) الأرقام الهيراطيقية المخصصة لعد الأشياء والسنين على وجه الخصوص (٣) الأرقام المقابلة فى الديموطيقية (٤) الأرقام الهيراطيقية لتحديد رقم لأيام الشهور . (٥) الأرقام الديموطيقية المقابلة . هذه هى نتيجة عملى منذ شهر . حيث كنت مضطراً أن أقوم بعملية ترقيم حقيقية لكى أضمن المدلول الصادق لكل هذه الحروف ولكى أتبع خطوة بخطوة وأراجع حسابات أحد الكتب واسمه تحوتموزيس . عثرت على الجزء الأكبر من دفاتر وارداته منذ اليوم الحادى عشر من شهر باوبى حتى الثالث عشر من شهر بهارموتى من العام ١٢ من عصر رمسيس الخامس من الأسرة التاسعة عشر . »

ثم أوضح أن كافة النتائج التى توصل إليها عرضها على الفلكى العظيم جيوفانى بلانا فى تورينو فأكد صحتها وهو ما جعله يعبر عن سعادته الجمة :

« ... نجحت فى حل مشكلة عويصة بأن تمكنت دون أى مجال للشك من

تحديد المدلول الدقيق لهذه المجموعة من الرموز التى كان يجب التعرف عليها أولاً ثم أخرجها على أنها أرقام . لم يكن فى استطاعة الأشكال الهيروغليفية أن ترشدنى لشئ ، لأن إعتباراً من الرقم ٥ لا يوجد تماثل بين النظامين ، فكان يجب أن أحذر أن هؤلاء المصريين أصحاب الفكر المتعنت قد عن لهم على سبيل المثال أن يكتبوا اليوم الرابع عشر من الشهر بالأرقام ١٠ ، ٢ و ٢ ، والخامس عشر ١٠ ، ٣ ، ٢ . إنى أشكر الله بأن أرسم على صدرى علامة الصليب لما ألهم به قريحتى عندما أدرس إتفاقيات التعاقد . فأجد أولى كلماتها تتضمن عدداً هائلاً من الأرقام

* عالم المصريات الايطالى سيرجيو نونانونى كتب *Civiltà egiziana* (ص ٧) « أن مجهوده كان أكثر من بشرى » .

المتراكمة - رقم العام وعدد الشهر واليوم في الشهر - كل ذلك متراكماً . علماً بأنه يتبع منظومتين مختلفتين للترقيم ، وكان يتعين على أن أفرق بينهما .. »

ملحوظة أخيرة في الخطاب إلى جاك - جوريف : « لاتجعل أى ضيغ من أى نوع أسود أو أشقر أو أصفر أو أخضر يطلع على ذلك .. »

ومع ذلك فإنه أطلع هو ذاته توماس يانج على ذلك ، فهو لم يكن يعتبره - أو ربما لم يكن يعتبره بعد - من الضباع .. »

توجت « حملة البيمونت » هذه التي اتسمت - حسب قول جان فرانسوا ذاته - بما اتسمت به فيما مضى الحملات الفرنسية من ضراوة - بانتخاب الزائر عضوا مراسلا لأكاديمية تورينو للعلوم . وصاحب هذا الانتخاب تعليق لم يصدر من قبل قط - يوضح الاساس التي قام عليه قرار الناخبين « ... عشية سفر مسيو شامبليون من هذه العاصمة - تعبر الجمعية عن تقديرها العميق للأعمال العلمية للمتلقى . وعلى الفور يكتب « المتلقى » لأخيه ليقول له أن أكاديمية تورينو ضمتها معاً . وإذا كان بعض المنتخبين (يقصد ليترون وريمورا) قد صوت لهم هذا أو ذاك ، فبالنسبة لنا كان الجميع يريدنا وتم إختيارنا بالاجماع »

وعليه كتب جان فرانسوا رسالة شكر إلى السكرتير الدائم تسلمت إليها بعض المشاغبات اللاذعة : « .. يزداد تقديري لهذا اللقب الرفيع بمقدار معرفتي بأنى مدين به لكرم معظم أعضاء هذه الهيئة العلمية وهو الكرم الذي استمر » معظم الأعضاء يغمرنى به .

هل قلنا تتويج ؟ كلا إذ أن البيمونتيين سيدفعون ولعهم الشامبليونى إلى أبعد من ذلك ، فعشية سفره إلى روما (الذى عجل به وصول الدوق دو بلاكاس إليها » مثل طلبة الرصاص « بعد أن عين سفيرا فى نابولى والذى حضه إلى لقاءه هناك فى أقرب وقت بعد إقامة قصيرة فى المدينة الأميرية) عرض عليه ما قد يغير من حياته كلها . فلتعرف على هذا العرض منه شخصيا :

« ٢٨ فبراير ١٨٢٥ »

... وأنا أهم بالسفر قدم إلى عرض على درجة عالية من الخطورة جعلنى لا أبت فيه

بشيء قبل أن أراجع معك مسبقاً ومع « المعلم » راجياً أن يكون في استطاعته إعطاء رأيه في هذه الظروف . تتوى حكومة صاحب الجلالة ملك ساردينيا إرسال قائم بالأعمال الدبلوماسية إلى مصر . وقيل لى أن الوزير يعرض على القيام بهذه الرحلة لحساب صاحب الجلالة .

وبما أنه من العدل فى - حالة قبولى - أن أفكر فى مستقبلهم فإنهم يضمنون لى لى عودتى إلى تورينو بعض المكاسب وذلك بأن يضمنونى بأفضل الشروط المادية الممكنة إلى الهيئة التعليمية . ولكن الموضوع الأساسى هو أن أصبح إيطاليا الجنسية - إنهم فى عجلة من أمرهم ويريدون حتى تعليق سفرى إلى روما . إلا أنني مصر على السفر وسأكون بذلك أكثر تحملاً فى ريدى التى أترك تحريرها لكياستك . فكر فى الأمر إذن واستشر وحدد لى الخط الذى أتبعه ... »

يستحق رد شامبوليون - فيجاءك أن يذكر هنا هو أيضاً إذ يستعرض فيه الاخ والأب الروحى ومدير الأعمال كافة الوسائل الشوقينية مازجا إياها بنصائح لمن يريد الارتقاء فى مهنته :

« .. العمل مع الأجنبى تفوح منه رائحة المغامرة . وهو ما لا يصلح سوى لمن كان غير كفاء فى بلاده . الذهاب إلى مصر بحثاً عن الأحجار هو عمل يصلح له من كان مثل كايو * وغيره من الذين يتمتعون بأقدام صلبة .. ومعدة قوية . أما عملك أنت فهو الاستكشاف الصامت داخل مكتبك لنتائج استكشافات هؤلاء الرواد ** أما المنافع المستقبلية فهى تافهة ومن الأفضل أن نقضى عمرنا وسط أصدقاءنا على أن نقضيه وسط أجنبى يشعرون دائماً ولو بقدر قليل من الغيرة [...] من الأفضل أن تكون الأول فى بلدك عن أن تكون الأول عند الآخرين .

*عالم الطبيعة النانتى (من مدينة نانت) المقدام .

** ستقضى تماماً ثمانية عشرة شهراً من حياة شامبوليون على هذا التصور الغريب لمهنة عالم المصريات !

« يوجد على العموم شئ عظيم فى كل ذلك وهو أن تنقل اللوق * ما يجرى وتظهر له أنك ميال لذلك . إن ذلك سيحفزه على أن يرغب أفاكى باريس ، ويمكنه الإسراع بعمل شئ فى باريس ذاتها . دعهم إذن يرسلون لك العرض مكتوباً وستتمكن ساعتها فقط من تحرير الرد بالصورة الفنية المطلوبة . إن عروض تورينو هى التى ستحدد مصير المعركة وأكثر ما يرضى الأفاقين هو أن تقبلها وسيجدون أن ذلك هو نصر لهم ونجاح لكل المساعى التى يقومون بها فلنمتنع عن إرضائهم » .

ياه !! لبراعة الرجل الذى يعرف كيف يصنع العسل مما لا يبدو سوى أنه خل ... وعلى الأفاقين أن يحسنوا التصرف ... ولكن إذا كان بونابارت قد رد بنفس الطريقة على العرض الذى قدمه له تاليران (الأفاق الآخر) لظل حجر رشيد مدفوناً فى الرمال ... باختصار !! لم يتحول جان - فرانسوا إلى الجنسية الإيطالية سوى بالقلب فقط « وسيمضى حياته » وسط من أسماهم فيجاك « أصدقاء » وهو ما يعتبر نظرة متفائلة بعض الشئ للأمور ...

تشاو تورينو !! قلة من المدن ستستقبله بمثل هذه الحفاوة . سعد فيها بصداقات مثل تلك التى عقدها مع كوستا وجاتزيرا وبيرون وبلانا وبالبووسكلوبيس وسالوتزو وفيها عمق من طريقته فى حل الشفرة - وخلال إقامته فيها أيضاً أكتشف نظام الأرقام المصري . كما أخرج عدداً من القرون والاسرات من غياهب النسيان وهو فى تورينو وفيها أخيراً وعلى وجه الخصوص أكتشف القمم التى بلغها بجمال فن النحت المصرى مما جعله يقع فى حب أحد التماثيل . وهكذا ستبقى تورينو وهى إحدى محطات الطريق إلى ممفيس إحدى أهم عواصم العالم فى حياته .

وتشهد على ذلك وبكل وضوح وبريق لوحة ضخمة مثبتة خلف تمثال رمسيس الذى كان يفضل على جميع التماثيل الأخرى وهو الموضوع فى أجمل القاعات المخصصة لفن النحت . تحمل اللوحة هذا النص اللاتينى .

HONORI ET MEMORIAE / IOANNIS FRANCISCI CHAMPOLION QUI
ARCANAE AEGYPTIORUM SCRIPTURAE / RECONDITAM DOCTRINAM
PRIMUS APERUIT / MONUMENTA AEGYPTIA REGIS VICTORICI EMMA-
NUELIS LIBERALITATE CONQUISITA / INHIS AEDIBUS DOCTAE INVISIT

* در بلاكاس

SCRIPTIS ILUSTRARIT / MODERATORES REI LITTERARIAE STATIM AC
DE MORTE CELEBERRIMI VIRI NUNTIATUM EST / MENSE MARTIO
ANNO MDCCCXXXII *

البيمونت لا يمثل إيطاليا كلها . فبعد ثمانية شهور من تاريخ وصوله عاوده تشوقه للتعرف على روما وفلورنسا و نابولي . كل شيء كان يحثه على الرحيل . دعوات الدوق دويلاكاس الذى وصل إلى مقر عمله فى نابولي وأحلامه القديمة حول مدينة روما وربما أيضا شيء من خيبة الأمل من أنه لم يتمكن من الحصول على حرية التصرف الكامل فى متحف تورينو التى كان ينشدها : كتب لأخيه فى ٨ يناير ١٨٢٣ :

« ... نحن إذ نترك للحكومة السارية تفعل ما تشاء بمجموعة دروفيتز فتضعها فى مخزن بدلا من أن تجعل منها متحفاً وسنبذل قصارى جهدنا لكى نستغنى عن الحكومات الحالية والسابقة والقادمة . كل ذلك يضعف مغنوياتى وكثيرا ما أشعر بالندم لأننى لم أتعلم أى حرفة بدلا من خدمة العذارى التسع ** القلق بدأ يتغلب على وحالات الحزن أصبحت تكرر زيارتها لى . »

قلق وحزن وهو يتذكر فى أماكن أخرى حالات من الكسل والبلادة التى تتملكه أحيانا كما كانت تدهمه بكثرة حالات الصداع ونوبات السعال التى كانت تهز بدنه فى الشتاء البيموننتى فلعلها كانت تعلن عن إصابته بداء الصدر الذى سينهشه بعد ذلك . وعلى الرغم من ذلك فقد أحتفظ بشجاعة المبادرة فى العمل وركوب عربة السفريات متجها إلى ميلانو ثم بولونيا وروما .

وصل مدينة الباباوات فى الساعة السادسة من الحادى والعشرين من مارس ١٨٢٥ . ومكث فى العربة يهتز داخلها طوال ثلاثة أيام لم ينم فى سرير لفترة ثلاثة ليالى متصلة . إنه منهك تماماً وقدماء متورمتان فهل سيحرم نفسه من البقاء ساعة واحدة فى روما ؟ فما أن وصل إلى فندقه فى شارع / فيا كوندوتى إلا وأنطلق ناحية الروائع الموعودة .. ويحيط بالطبع جاك - جوزيف بكل شيء :

* « فى ذكرى وعلى شرف ح. ف شامبوايون الذى كان أول من إكتشف الفن المقدس للكتابة السرية للمصريين . درس كما يفعل العلماء المخطوطات التى خلفها المصريون وجمعت داخل هذا القصر يكرم من الملك فيكتور - ايمانويل وشرف بكتاياته أعلام الألب - إلى أن وصل نبأ وفاة هذا الرجل ذائع السيط فى شهر مارس ١٨٢٢ »

** جنياات الفنون والمعرفة والأداب بالطبع (المترجم) .

« ... توجهت على الفور إلى (كنيسة) القديس بطرس وحيث أن شهيتي كانت في ذروة النهم فكان على أن أبدأ بالقطع الكبيرة . يستحيل تمامًا وصف انطباعي عند وصولي إلى ساحة هذه الكنيسة ... إننا لتعساء في فرنسا . إن أثارنا تثير الشفقة بالمقارنة بعظمة مباني روما ، من ساحة القديس بطرس أسرعرت إلى ساحة نافونا حيث قمت بتحية المسلة الثالثة (پامفيل) إذ كنت قد رأيت قبلها وأنا أدلف إليها من بوابة الشعب المسلة الفلامينية ومسلة بساميديتشوس في مونتى - شيتوريو { ... } وقفت مبهورا أمام الكوليزيوم وعبرت ساحته وسط الحجاج قليلي العدد ووسط جمع من الرهبان ... »

عندما عدت أدراجى تسلقت أنا السليل الحقيقي لشعوب الجبال سلم الكابيتول . لم يصدر عن الأوز أى صراخ ووجدت نفسى على القمة أمام تمثال مارك أورال على جواده - وشدنى تمثال لروما فى ساحة المتحف الكابيتولى فوجدته محاطاً بعملاقين مصريين يمثلان بطليموس الفيلاذيلفى وزوجته أرسينويه ولدى نزولى سلم الكابيتول الضخم قمت بتحية الأسدين المصريين العظميين .

... ثم سرت على قدمى حتى سان - جان بو لاتران يشدنى إلى هذه الساحة أكبر وأقدم مسلات روما وهى مسلة موريس . الهيروغليفيات التى عليها منفذة بطريقة لا يمكن تصديقها ثم توجهت إلى الكوليزيوم مرة أخرى وشاهدته بنفس درجة الانبهار كما توقفت مرة أخرى عند محطة كامبو فاتشينو حيث شاهدت أقواس النصر الثلاثة والمعابد ثم تسلقت الطريق إلى الكابيتول من جديد وعدت إلى الفندق { ... } هذا هو أول أيامى فى روما لن أنساه مدى الحياة ... »

ياله من رحالة طيب ووسيم ! قال يوماً إن الحياه الحقة هى الحماس إننا نحب هذا الرجل الاسمر ذا الشعر الأسود بلون الابانوس وهو يلهث ويعرق ويجرى فى شوارع هذه المدينة المشهورة مثلما يفعل الراهب الحاج غير عابىء بتورم قدميه ولا بالسعال ولا الكيلو مترات التى يتعين عليه أن يقطعها ، يدقق فى المسلات ويتحدى أسود الكابيتول . هنا يكمن سره أى فى هذا النشاط الذى لا ينضب فيدفعه إلى الأمام بل وسوف يصصره بعد بضعة سنوات وهو ينشد الحصول على بضعة سنوات أخرى من العمر ليلقى بمزيد من الضوء ...

لم يفعل هذه المرة سوى المرور بمدينة الباباوات لأن هدفه هو نابولى . حيث ينتظره بلاكاس المتشوق لأن يضع كل قوته وما يتمتع به من مقدرة شخصية عند

قدميه . جاء وصفه لنا بولي أنها « أول مدينة حية يقابلها منذ عبوره جبال الألب حيث تمر الأيام دون أن نبدها سوا بالنسبة للعلم أو للإنسان » ثم يقوم بزيارة معبد سيرابيس في بوتزوني وفي يومپاي - قدس أقداس إيزيس . ثم بعد أسبوع من وصوله يصحبه بلاكاس عند الملك والملكة - عن إهتمامهما الشديد بأعماله إنه سعيد وسيكشف في ياستوم « أجمل وأروع ما في إيطاليا » ولكنه سيذهب إلى أبعد من ذلك وهو يقول لأخيه :

« ... الخط قديم ، خالص النقاء أى أنه جميل بحق . شعرت أن ما هو أمام عيني هو معمار جميل واستحال على أكثر من ثلاث ساعات أن أحيد بنظري عن هذه المعابد مع أنها صارمة في بساطتها وخالية تماماً من أية تزويقات { ... } على مسافة ما وخصوصاً عندما أراهم قد برزوا بلونهم الأصفر الذهبي من الخلفية الأزورية للسماء والبحر ، خلقتى أرنو إلى معابد مصرية : وعلى وجه الخصوص معبد نبتون أضخمهم جميعاً إذ تشع الأصول المصرية من العمارة الاغريقية التي تتبعها جميع أجزاء المبنى بايستدم ليس سوى تيجان الأعمدة المصرية في حالة منحنى بعض الشيء وتلك التي تتشكل منها الزوايا في في قدس الأقداس . هم بالتأكيد مصريون »

هل أكتشف هنا في باسيتوم ما يثبت صحة نظريته التي يجابه بها نظرية وينكلمان ويؤكد فيها أن الفن المصرى هو بالفعل أبو الفن الاغريقى ، الواقع أنه لم ينتظر هذه الرحلة إلى كامبينو ليدلل على هذا الرأى كما سبق أن قرأنا : بل إن ذلك هو الدليل الجوهري الذي بنيت عليه « الرسائل إلى الدوق دويلاكاس » إذ كتب إلى جاتزيرا منذ البداية يقول : « أنغسنت من جديد في النقاء الذي تذوق به العمارة الاغريقية التي هي الأبهة الجميلة والفاتنة للعمارة المصرية ... »

قال عن رأس ثور إغريقى : « إنه دليل ضمن ألف دليل على أن الطقوس الدينية الاغريقية ليست سوى فرع هابط من المصريات . لابد أن ليترون سيعبر عن إمتعاضه أزاء ذلك لأنه في رأى غير متقبل لفكرة أن الاغريق الاعزاء كانوا من المقلدين لغيرهم . »

الاستفزاز هنا واضح ... ولكن ماذا ستكون العبقرية دون إستفزاز ؟ والحماس أيضاً ؟ ماذا سيكون عبقرى جاسكونى متحمس إذا لم يتخطى أصول التخاطب والافكار الموروثة وإذا لم يفجر الجو الثقافى القائم في زمانه ؟ أبدأ لم يكتفى مؤسس علم المصريات بإدارة شئونه وإستغلال ممتلكاته الخاصة فقط . بل سيذهب ناشراً

الحرب الثقافية فيما وراء حدود تخصصه كما فعلت الثورة خارج حدود الوطن . إنه يزرع العواصف لأن المكتشف ثورى فى جوهره .

هاهو فى روما من جديد . هل يعتبر نهر التيبر من روافد النيل ؟ إن مصر موجودة فى كل مكان هنا - وهو يقص ذلك على أخيه بحماسة المنتصر « يجرى من مسلة إلى أخرى » من مسلة البانتيون إلى مسلة مينارف وفى سان - جان دولاتران .. « أم المسلات جميعا وأقدمها التى ترجع إلى الملك موريس - تحتمس مع الإضافات الجانبية لحفيده تحتمس الرابع { فى حين } تعود مسلة البانتيون إلى عهد رمسيس الأعظم .. » الذى « يعيد للتاريخ » أمه الملكة توييا - هذه الرحلة إلى المسلات (وعددها مائىة عشرة فى روما) جعلته يغطى بتهكماته « كيرشار المسكين » لأن ما نسخه منها قبل ذلك بقرنين من الزمان « شوه النصوص المقدسة » : شامبوليون لم يرحم قط من سبقوه . الشيء الغريب هو أن هذا المجادل الكبير كان ساذجا فى أحيان كثيرة . ففى محاولته وصف السيرك الرومانى الذى يصعب وصفه حيث يتقابل رجال الدين والدبلوماسية والحرس حامل الحراب والأساقفة رجال الإدارة الفاتيكانية والنبلاء ، المتآمرون وسيدات القصور ورجال علم حقيقيون ومدعون - وسط هذا كله نراه يتباهى بالحفاوة التى لاقاه بها ثلاثة من رجال الكهنوت ذوى المناصب العليا وهم مونسينيور أنجلو ماى محافظ مكتبة الفاتيكان من العلماء ومكتشف البلايست أو الرقائق الممنوحة ومونسينيور تيسا سكرتير البابا « وحامل سره والأب كانيسيرى مدير اللبروباجاندا إلا أنه أهمل قبل هؤلاء الأب لانسى - المستعرب - دارس الخط الكوفى والذى أصبح فيما بعد أكثر أعدائه ضراوة فى هذا الجانب من جبال الألب . ومثال آخر على ذلك هو أنه يمدح وليام جورج الذى أصبح من أصدقائه . نراه يضم إلى اسمه إسم أنطونى نيبى - وهو عالم مصريات بريطانى آخر وهو « يانجى » أكثر من يانج نفسه . مونسينيور ماى هو الذى سيفتح عينيه على « الخلفية » الحقيقية لإبتسامات نيبى (5) والى الحلف الذى عقده مع لانسى وكلايبروث وسان كوينتينو « للإجهاد على تايفون » *

الواقع أن مدير متحف تورينو قد تمادى إلى أبعد ما يمكن فى عملية الانتقام الذى دبرها ضد من إنقذ متحفه . فى خطاب أرسله الأب كوستانزو جاتزيرا إلى شامبوليون - فيجياك (6) وصف السرقة التى إرتكبها سان - كوينتينو لأعمال شامبوليون :

* قاتل أوزيريس .

« قرأ سيودوسان كوينتيو أمام الاكاديمية (البيموتية) بحثاً عن الأرقام جاء فيه ضمن أمور أخرى أنه يهنيء نفسه لأنه تمكن { ... } من اكتشاف ما لم يكتشفه أحد في العالم حتى الآن - وهو منظومة الأرقام المصرية وهكذا نكون غير مدينين بكل شيء لسكان الجانب الآخر من جبال الألب * بفضل اكتشافه العظيم .

« من كان وسط هؤلاء الاكاديميين على علم باكتشافات أخيكم وبغباؤهم زميلهم الذي لا يعرف قرائه كلمة واحدة من الكتابة الهيروغليفية أو الديموطيقية إبتسموا لقلة حياته . (...) ومجرد النظر إلى قائمة أرقامه كان يكفي لإثبات ذلك لأي شخص له دراية ولو قليلة للغاية بالدارسات المصرية . إذ تجد الأرقام الديموطيقية مختلطة بالهيروغليفية وفيما عدا الأولى التي يمكن للجميع التعرف عليها فإن الأخرى كانت خطأ وكذلك . في الإثباتات التي أراد إثباتها وفي طريقة تطبيقها . ولكنه لم يكن غيباً فقط بل كان سيئاً أيضاً ولأقصى درجة ، إقرأ بحثه وإرتعد بل إضحك على نيته المبيتة إذ أراد أن يلمح أن الدراسات المصرية تهدم الأسس التي يقوم عليها الدين وتنسف سلطة التوراه إلخ ... يصعب تصديق تراكم هذا الكم من الغباء والأخطاء والتناقضات واللامعنى في مثل هذا العدد القليل من الصفحات إلا أن هدف الاساءة للغير كانت واضحة وكان عرضه سيعتبر مثيراً للسخرية فقط لو لم يكن مذبذباً لأقصى درجة ** » .

« اعتداء على الاسس التي يقوم عليها الدين » يبدو أن رئيس الكنيسة الكاثوليكية لم يكن ينظر إلى مشروع شامبوليون بهذه الطريقة . ففي ١٥ يونيو ١٨٢٥ استقبل الحبر الأعظم المكتشف حيث أخطب إليه مونسينيور تيستا . كان البابا ليون الثاني عشر إنساناً فريداً وصفه شاتوبريان *** على النحو التالي : « طويل القامة - صافى الفكر وحزين ، يرتدى جلباب أبيض بسيط (دون) أي فخفخة يجلس أمام مكتب متواضع { .. } إنه لا يكاد يأكل ، ويعيش مع قطته **** على شيء من البولانتا { .. } ولعله كان يضع - مثلما كان يفعل البابا بنوا الخامس عشر - صندوق كفته تحت سريره ... » (7)

الأكثر غرابة من ذلك كان العرض الذي إقترحه ليون الثاني عشر وهو يستقبل

* يعنى الفرنسيين .

** بعد هذا الإيضاح لم يمضى وقت طويل قبل أن يستنكر فيجاك بكل قوة « سيودوسان كانتان » في مقال عنيف جد في نشره فيروساك «

*** سفير فرنسا في روما عامي ١٨٢٨ و ١٨٢٩

**** سيتاها شاتوبريان ذاته فيما بعد .

المكتشف « عدو الدين » هذا . إذ بعد حديث مطول وحى للغاية عبر فيه عن أعظم إهتمامه بأعمال صاحب كتاب « البانتيون » أعلن له البابا أنه قدم « خدمة جميلة وعظيمة وطيبة للديانة باكتشافاته » ومنحه ببساطة شديدة قبعة الكاردينال * وقد أدهش ذلك صديقنا عالم المصريات الجاكوبى لدرجة أنه لم يجد سوى إعتراض واحد يقدمه للبابا : وهو وجود إمرأتين فى حياته ** «

بعد أن منعت النساء من أن يصبح كاردينالا فان جان - فرانسوا ظل لدينا لرئيس الكنيسة الكاثوليكية بترقية أخرى فى مجال علمانى للغاية - وثوريا بطريقة ما - وهو وسام جوقة الشرف . إذ بعد أن تم صده فى موضوع القبعة أعلم ليون الثانى عشر السلطات فى باريس أنه سيسعد لو أنه رأى ضيفه وقد قلد الوسام وهو ما حدث على الفور ... بل أفضل من ذلك أن شامبليون كاد أن يحصل فى ختام إقامته فى روما على قبعة السفير . كان يحتفى به فى كل مكان ويأخذ الجميع رأيه . وإذا كان العالم بارون فون بونزان - ممثل بروسيا - يقف منه موقفًا متحفظًا - فإن جميع سفراء النمسا وروسيا والبرتغال وناپولى كانوا يريدون أن يدعوه على موائدهم أو إلى إلقاء محاضرة .. تحول الأمر إلى ما يشبه الوباء سريع الانتشار والعنف . أما البارون دو نوشال الدبلوماسى اللوزيتانى والذى وصفه شاتوبريان بأنه « نمام » ، عصبى ، أخضر اللون مثل قرد من البرازيل وأصفر فى لون برتقالة من لشبونه « فقد كان أكثر الجميع حماسة ولكنه ليس للدرجة التى تجلب عليه التعنيف الذى وجهه المكتشف لزميله الدبلوماسى ممثل سان ريترسبورج البرنس جاجارين .

إذ عندما علم هذا الدبلوماسى الروسى حالة الشظف التى يعانى منها جان فرانسوا رأى - ما نراه نحن اليوم شيئًا عادياً - أن يعرض عليه ألف فرنك أتعاب مقابل كل محاضرة من المحاضرات الست عن علم المصريات التى كان سيلقيها لدى البارون دو فونشال . كان رد فعل المكتشف مثل رد فعل شاب غر عرضت عليه كونتيسة مقابلا ماديًا لمداعباته :

« لا بد وأنى أما غير مفهوم تمامًا أو أن الحكم على غير سليم البتة حتى أن البعض راودته فكرة - أن يعرض على - كما حدث بالفعل - مرتبًا كما لو كنت أقدم نوعًا من

* التى يمكن أن تمنح للعلمانيين من ناحية المبدأ .

** روزين وزورايبى بالطبع .

العروض . إنى لا أعرف إن كانت تلك الإتفاقات تدخل ضمن العادات والتقاليد الإيطالية ، إلا أن مثقفى فرنسا وهم فى حمية ميلهم لنشر القليل من المعرفة التى لديهم لم يفكروا قط فى بيعها .

يتضح من ذلك أن العادات قد تبدلت تماماً إذ أن « المثقفين الفرنسيين » قد توقفوا منذ فترة طويلة عن الاحساس بالاهانة إزاء إعتبار أن ما يقدمونه « من معرفة قليلة لديهم » « نوعاً من العروض » التى يأخذون عنها أجراً حتى لو كان « القليل من المعرفة » التى لديهم أقل مما كان لدى شامبوليون .

ولم يترك المكتشف مدينة الباباوات دون أن يسمح لنفسه القيام بإحدى المبادرات التى تضيف على شخصيته المندفعة لمسة من التفرد الإجتماعى الصالونى والذى سبق أن لاحظناه عندما كان يحاول جذب أنظار سيدات المجتمع فى فيجاك وفى « الصالونات جوزيف فورييه فى جرونويل .. لماذا نضحك على تلك التصرفات ؟ ألم يكن توماس يانج ذاته من الراقصين على الحبال ..

فى ١٩ يونيو ١٨٢٥ أحتفل بتتويج شارل العاشر ، وعلى الرغم من أن المصاريف الباهظة التى تكلفها هذا الاحتفال قد أثارت حفيظته كما سنرى .. وأن تتويج أحد آل بوربون حامى حمى المتطرفين لم يكن مبدئياً من الأشياء التى تلقى إعجابه إلا أن عالم المصريات المتشرد رأى أن يعرض على الدوق دومونمورانسى - لافال سفير فرنسا فى روما إقامة فى حدائق فيلا مدتشى « مسلة إرتفاعها ما بين خمسة وأربعين وخمسين قدماً محملة بأربعة نصوص طويلة باليهيروغليفيه ملونة وتتعلق بتتويج الملك . الهيروغليفيات - (چان فرانسوا هو الذى يتكلم) ستكون بارزة ولكن فى شفافيه وسيكون لذلك أثر عظيم حسبما يقول المعمارىون وصانعو الزينات . لا يوجد حديث آخر فى الصالونات سوى عن هذه المسلة وإنى أتشوق لرؤية أكبر أبنائى هذا وهو مضاء » . ما حدث بعد ذلك هو أن عناصر الطبيعة كانت أقل ملكية من عالمنا اللغوى فإطاحت بالعمل الفنى الفذ قبل مغادرة الفنان لروما بساعات قليلة وقد تأثر طلبة المدرسة الفرنسية فى روما بحماسة المحدث فأعادوا بناء المسلة الورقية وأعادوا دهانها وجعلوها محطاً لانظار المدينة يوم ١٩ يونيو : هكذا أصبح صاحب « نخب فى صحة الجمهورية » فى ١٨١٥ فى نظر أهل روما المداح - الغائب ولكن المنتصر - لتتويج الأمير الذى تحداه قبل ذلك بعشر سنوات فى جرونويل بما ترتب على ذلك من مخاطر وأثار .

كانت إقامة چان فرانسوا شامبوليون فى روما بالنسبة له فصل الغموض المحير جداً .

لا بسبب هذا التغيير المفاجيء بالنسبة للشرعية الأكثر تعرضا للنقض في المجال العلمي أو المجال الأيديولوجي وإنما بسبب علاقته بالمؤسسة الكاثوليكية دراساته الأولى المتعلقة بالترتيب الزمني القديم عادت عليه بعرفان المدافعين عن العقيدة .

« ها أنا قد أصبحت قديساً في نظر المتدينين من أبناء الكنيسة الكاثوليكية [جاء ذلك في خطاب أرسله إلى أوجوستان تيفونية - صديقه الماسوني] - ملكت من رائحة القدسية التي يستشعرها المتدينون في شخصي كما لو كنت لا أعمل لهدف آخر منذ خمسة عشر عاماً أمضيتها في محاولة الكشف عن أبجديتي - سوى لتمجيد الله (...) غير أنني سأقوم بعمل حركة غير كريمة في اتجاههم في أحد الأيام بأن أطور التداعيات والنتائج المباشرة لإكتشافى .

سيضحك جيداً من سيضحك آخراً .. »

أنه يضحك ولكن في غير سعادة . لأنه يدين برحلة إيطاليا هذه كما نعرف لكازيمير لويس دو بلاكاس وفي هو متدين وإن كان معجباً بالحضارات « الوثنية » .

كان شامبوليون قد قضى قبل ذلك بخمس سنوات على الاساطير التي تسبب فيها رسم أبراج معبد دندرة ، بعد اثبت أن الخمسة عشر أو عشرين ألف عام الذي اعتقد « بيو » وبعض الآخرين أنهم استنتجوها منه ، لم تكن لها أى علاقة بهذا الأثر الراجع للعصر الروماني . ومع ذلك فقد أكتشف من خلال تعمقه في دراسة العام الفرعوني ، عصوراً للبشرية تتعدى بكثير التواريخ الواردة في التاريخ التوراتي . لقد جعل منه رسم الابراج أحد المدافعين عن العقيدة الكاثوليكية . إلا أن الاكتشافات التي توصل إليها خلال رحلته الإيطالية وعلى وجه الخصوص منذ قرأته لبردية تورينو الملكية ستجعله يأخذ صورة أحد الأفاقين مثل جيوردانو برونو . لم يكن يهتم في الواقع إثارة الفاتيكان ضده ولكن كان من الصعب عليه للغاية أن يسىء إلى بلاكاس الطيب * ...

بشيء من التعاسة غادر روما متجهاً إلى فلورنسا حيث كانت مجموعة نيتزولى في إنتظاره والتي اشتراها الدوق الاعظم ورأى أن يعهد إليه بمهمة ترتيبها . أول ما شد انتباهه في عاصمة توسكانيا كان « جوها العام الاقطاعي » ولكن يسرع فيضيف « إن الحرية تسكن هذه الأبراج » ويوضح لجاتزيرا في مراسلته له أنه « عندما وطأت قدماه أرض توسكانيا شعرت ربثاه أنه يتنفس هواء حراً » بل كان فيما كتب لجاك - جوريف أكثر وضوحاً : « فلورنسا هي المدينة الوحيدة في إيطاليا التي تتمتع بحرية حقيقية وصادقة . إنها في الواقع البلد الوحيد الذي تحكمه حكومة ... وهذا في حد ذاته شيء هام ... »

خيبت مجموعة آثار نيتزولى آماله بعض الشيء على الرغم من أنها احتوت على بعض الألواح الجنائزية . ولكنه تعرف هناك على بعض الشخصيات المفيدة . منها الدكتور ريتشى صديق هيو ، والذي أحضر معه من مصر - بعد أن مكث بها فترة

* ستزيد رحلته إلى مصر من مثل هذا القلق (أنظر فصل ١٧) .

طويلة - مجموعة طبية من الخراطيش * ، كما تعرف أيضا علي بعض علماء الآثار مثل انجيرامى المتخصص فى تاريخ الاتروسك وميجليارينى والأب زانونى . كما أنه استقبل بأفضل ما يمكن من الدوق الأعظم ليوبولد وهو الذى سيكون له دور هام فى مشاريعه المستقبلية .

لماذا قرر إذن التوجه إلى ليفورن ؟ يقول أن ذلك يرجع إلى :

« .. أنه كان مشهودا إليها برائحة مجموعة مصرية وصلت منذ فترة وكانت تغلفها هالة من الغموض نجحت فى إزالته . أصحابها الحاليون - وهم من أصحاب البنوك السادة سانتونى - لم يكونوا يريدون أن يكشفوا عنها لأحد .. إلا أن النطق باسمى كان كافياً لى يفتح كل شيء أمامى . إذ اعتقدوا أن مصرىا مثلى له اليد الطولى على الجميع ، وبناءً عليه فإن كل ما كان فى ليفورن أخرج من صناديقه ، وشاهدت مجموعة آثار مصرية رائعة ومنتقاء بعناية . بعض المومياوات وأعمال برونزية رائعة محلاة بأسلاك من الذهب والفضة الكثير منها إرتقاعه قدماى ومشغولة بطريقة تثير الإعجاب . توجد بها كذلك تماثيل صغيرة من الذهب الخالص تنفذها جاء بأروع ما يمكن تصوره ، وكمية ضخمة من أدوات العمل وطبلة ضخمة كاملة وآلة هارب وأخيرا أجمل البرديات الجنائزية التى شاهدها فى حياتى . كما تضم المجموعة أيضا حوالى عشرين بردية أغريقية متباينة الأطوال وبعض الأشياء الغريبة . جميع هذه الكنوز لن تثير دهشتك إذا ما علمت أن هذه المجموعة ليست سوى مجموعة مسيو سولت قنصل إنجلترا فى مصر إلا أن هذا يعتبر من الأسرار ومن المفروض ألا أعرفه أنا شخصيا . هذه المجموعة وهى أجمل من مجموعة دروفيتى (فيما عدا التماثيل الضخمة التى تنقص هنا) معروضة للبيع ويمكن أن تحظى بها الحكومة مقابل ٢٥٠,٠٠٠ فرنك وهذه تعتبر صفقة من ذهب سيكون من المضحك ومن المخجل أيضا أن تضيع . »

ها هو قد إنطلق فى إحدى هذه المعارك التى يعشق إثارتها كمحارب لا يكل . ألم يكن من الأفضل له أن يركز فكره فى أعماله العملية ، مدعما أياها ببعض الإشارات والأقتراحات يقدمها للسلطة ؟ أبداً !! إذ يتحتم عليه أن يشارك فى الصدام وإن ما « يستنشقه » لم يكن فقط « رائحة مجموعة آثار » وإنما رائحة المعركة .

* وهو الذى سيكون بعد عامين أحد رفقاء رحلته إلى مصر .

وَيَّ ؟! لقد حرم جومار باريس من مجموعة ؟ إذن سنلقى بين أقدامه باخرى بحماس تزيد من تأججه الاشاعه السارية الآن بأن إدارة أول متحف مصرى للآثار فى باريس سيناط بها إليه هو أى جان فرانسوا ! ألسيت هذه هى الفرصة لأن « نستقر نهائيا » وبطريقة ملائمة ونقطع فى ذات الوقت الطريق على جومار الذى لا يحتمل ؟ لم يكن إذن زائر ليفورن عالم مصريات فى حالة نشوة طاغية إنما هو أيضا من البدو الرحل الذى يبحث عن مكان ينتمى إليه كما أنه أحد أعضاء العالم الباريسى المغلق على أصحابه . مجموعة سوات بهرته تماما إلا أن الولع الايجيولوجى ترك المجال أولاً أمام حمى الإحساس الوطنى : كتب إلى فيجاك :

« أكرر أن الثمن بخس ويهم الشرف الفرنسى الا يترك ثمرة مجهودات مضيئة لأحد » من الجودام * تتسرب من أيدينا وهو لا يريد بدافع من الاحساس الوطنى أن يذكر اسمه لأنه متشوق أيضا إلى وضع يده على أموال الفروجز ** .

إذن وبكل وضوح فإن فكرة رياسته لمتحف مصرى فى اللوفر تروق له أكثر فأكثر خاصة وأن عملية ليفورن أصبحت مرتبط بتعيينه : لأن حيازة مجموعة ضخمة تضم قطعاً كثيرة مطلوب التعرف عليها وترتيبها تبرر وحدها تفضيله على جومار هذا الخاسر الأبدى .. وهو يذكر أخاه بأن « تشجيعا مدويا يسرى فى أوربا كلها لتأييده » وأن اسمه يملأ الصحف الايطالية وقد جاء فيها ذكر وصول أكبر القطع الخاصة بمجموعة سوات إلى ميناء ليفورن. ومن الممكن إذا ما عقدت الصفقة أن تتوجه على الفور إلى فرنسا . إن صديقنا الفيجاكى يصر ويضغط بل ويلهث ، يالها من حمى :

لدى عودته إلى تورينو بعد ذلك بثلاثة أسابيع ظل قلقاً لعدم وصول الرد . لذلك تراه « وقد فقد سيطرته على نفسه » يكيل التهم للنظام الملكى .

« إنها صفقة ضاعت إلى الأبد وكلمة اقتصاد لها وقع طيب عندما تصدر من أفواه قوم يلقون بالملايين عندما يتعلق الامر بإحدى العمليات الغبية أو بإرضاء غرور ما .

* منذ أطلقت هذه التسمية على الانجليز فى عصر جان دارك وهى لاحقه بالانجليز لدى الفرنسيين (راجع زواج فيجارو) .
** الصفاذع الفرنسية .

[واضحة وهي لإحتفالات التتويج المكلفة] [....] هذه هي الأمور التي تدفع أكثر الرجال أصراراً وهو يعمل بحسن نية و بصدق طوية أن يرمى بأبوابه ويترك الساحة [....] رسائل الإخوة سانتوني تلاحقني وليس لي من رد عليها ، أسرع بإرسال رفض نهائي وساقوم بدوري بإحاطة المختصين علماً به حتى لا أفكر في ذلك بعد الآن إذ أنى سامرض من شدة الشعور بالمضايقة ومن خجلي من حكومتى التي تجد أن مجموعة آثار رائعة مكلفة للغاية علماً بأن ثمنها هو ٢٥٠,٠٠٠ فرنك في الوقت الذي تنفق فيه الحكومة الانجليزية ٢٣٥,٠٠٠ فرنك لكي تنقل أثراً مصرياً واحداً هو مسلة الاسكندرية . وسيظل هؤلاء الناس يتحدثون عن حب العلوم والمجد والريادة الوطنية ثم إننى لا أعول كثيراً على وظيفة المتحف لأن ذلك يعتبر منطقياً بالكثير مما ينبغي »

يمر شهر آخر ويظل الوزير صامتا وعليه ينفجر المكتشف في ٢٧ أكتوبر :

« هاهى صفقة ضائعة أو على الأقل هي في مهب الريح لقد أدبت دوراً ضعيفاً للغاية في نظر آل سانتوني لأنهم عندما ضغطوا على لى أشرح موقفى كتبت لهم في ردى أنى ساصل إلى ليفورن في نهاية هذا الشهر . أرى انى ساضطر ان أكتب لهم ألا يعتمدوا على حدوث أى شئ وقد حررتهم من أى التزام مؤقت ، بل إنى لن أشعر بأى غضب لوحدث خلال فترة المماطلات الباريسية أن عقد النوق الاعظم أو أى بلاط آخر الصفقة تحت أعيننا . إننا نستحق ذلك وأنضرع إلى الله أن يحدث ذلك . »

حان الوقت لى نختتم هذه المرحلة الإيطالية مهما كانت مثمرة للغاية ومثيرة جداً . عبر جان فرانسو جبال الألب في السادس من نوفمبر في رحلة صعبة عبر الثلوج . وصل إلى جرونوبل في التاسع منه حيث « فاجأ زوجته بحضوره . »
« كائى زوج صالح عائد من الخارج » أشاعت إبنقة زورييد في نفسه البهجة . وكتب لجاتزيرا :

« لو لم يكن لى شرف أن أكون والدها لقلت لك أنها أجمل أطفال الدوفينييه ولحسن حظ الجنس النسائى انها لاتكاد تشبهنى . فقط عيناها السوداين احتفظا بكل البريق الذى كانت بعض السيدات تتكرمن على فى شبابى بان تكتشفنه فى عيني اليمنى * وكان ذلك يشعرنى بشئ من الفخر »

هل إنتهت إيطاليا؟ فينيتو إيطاليا ؟ . كلا . كلا . قفى أوائل شهر يناير

* سبق أن ذكرنا علة الحول التي كان يشكو منها والتي لا يظهرها راسمو صورته .

١٨٢٥ سافر فيجاك على عجل إلى باريس لكي يفشل مؤامرة كان سيخرج منها جومار منتصراً ومديراً للمتحف المصري . من باريس أحاط فيجاك أخاه بأن الدوق دو دودو قيل . . وزير البلاط الملكي كان وعلى وشك أن ينتزع من الملك قرار مزدوجا بشراء مجموعة ليفورن ويتعيين جان فرانسوا في اللوفر، فيعلن هذا الأخير أنه على استعداد لأن يسافر على الفور إذا ما تسلم ورقة رسمية تحدد له مهمته وسيقفز نحو الألب على الرغم من بلوغ الشتاء ذروته مما يجعل « مونت سينيس رائعا » ولكن بما أنه يتشكك في « مقدراته » في الأعمال التجارية فهو يطالب بالتعليمات الأكثر تفصيلا وشمولا لجميع الاحتمالات الممكنة ثم يقول محمدا ويذكاء :

« مدامت ميزانية ١٨٢٦ في طور الاعداد فان الوقت الآن مناسب لاتخاذ قرار بانشاء الوظيفة المطلوبة في المتحف * كم سيكون . رائعا بالنسبة لى عندما أصل إلى ليفورن وأنا أمام المجموعة أن اعتبر نفسى عقيداً على رأس كتيبته » .
إلا أنه لا يمنع نفسه من الإضافة :

« إن فشل مذكرات جومار شئ طريف [.....] إنى مقتنع بانه بصراخه يخفى أنه عدل بنفسه عن نشر أوراقه لتاكده من تفاهتها إلا أنه أراد أن يضيف على نفسه بريق الضحية .. لكي يبرر هذا الالغاء من ناحيته » .

طيب القلب جدا صديقنا المشاغب هذا ...

هنا يستلم كوستانزو جاتزيرا مايشبة بلاغ النصر على الطريقة البونابارتية :

« الملك - بناءً على تقريرى الذى قدمه له وزير البلاط - قرر الموافقة النهائية على حياة مجموعة ليفورن - وبالتالي تكون الصفقة قد تمت ولا يوجد إذن شك فى انكم سترونى مرة أخرى فى تورينو حيث أنوى دخولها دخول المنتصر » .

إنه لا يقدر على الصبر أيتها الآلهة العظيمة على العودة إلى ليفورن للقاء كتيبته التى يرى أنه سيصبح على رأسها . جملة قالها تلخص الحالة التى كان عليها عشية حملته الثانية على إيطاليا والتى ستؤثر فى مجال العاطفة فى حياة تأثيرا عميقا للغاية : « إنى أشبه السمكة الحية وهى وسط الملقى وأنا فى هذه الحالة من الترقب » .

* كمدير أو محافظ

١٤- أنجيليكا - عرافة توسكانا

يوم يحدد مسار حياة ... «خشية ان يكون آثير ...» - أسميك زليير - « بل أكثر من إعجاب » سليمان وكاتارينا وكورين ؟ - بريام واليونانية - إني مغازل حذق - « فى إنه لمن القسوة أن ... » - سهم الأوريوس - جبهة « افاقين باريس » - نصر مزدوج - إيبوليتو روسيليني واللوق الكبير ومصر .

يوم ٢ إبريل ١٨٢٦ كان بالنسبة لشامبوليون وطبقا لتعبيره هو « يوم من تلك الأيام التى تحدد مسار حياة بأكملها » . أنه يوم لقاء مع المرأة التى يبدو وأنها أكثر من أحب فى حياته - بدون أن تبادله هى ذلك .

حب أجذب لم يكتمل ، ولذلك ظل يخفق أبداً . حب من العقل ، حزين ؛ فصيح بسبب تمنعها ، ، نواج فى جوهرة ؛ هو نسيج من العتاب من ناحية ، يؤججه الانتصار وتطرق معدنه تحدياتها . هى مزيج من لعوب ، نظراتها من نار ، « وعالة * » ناعمة الأيدى ، أى أنها بالنسبة له نقمة من النعم .

حب الصدفة الخطأ الذى ترك لنا مراسلات جميلة (١) لانعرف منها بالطبع سوى جانب واحد وهى خطابات الحبيب المحبط ... بورتزيه ذاتى مرسوم بخط وراء الآخر - للمكتشف وهو يبحث عن الحب وهو على أبواب مرحلة الكهولة المبكرة التى ستقوده بعد قليل إلى الموت .

فى ذلك اليوم انعقدت إذن الأكاديمية الليقورنية التى ضمت إليها بالانتخاب قبل شهر واحد جان فرانسوا كعضو منتسب وهو يحضر جلساتها لأول مرة . خطبة الاستقبال قرأها سكرتير الجلسة . وإذ هم المتلقى بالرد على خطبة الترحيب به إندفعت واقفة أمام مجلسه امرأة شابة نظراتها شرار وحركاتها أمرة وصوتها محمل بالعواطف وأنشدت هذه الأبيات المؤثرة .

« مزقت ستار الأسرار

التي حجبت على ضفة النيل

* كذا فى النص الفرنسى (المترجم)

أنوار المعرفة الحية
وكان فى ظلماته مثيل
الذى يخفى أصل منبعه ...
.... من الاحاد ومن تراها
ومن هذه المعابد التى على الأرض تناثرت
والتي إلى الآن ظلت على صمتها
هاهو صوت يعلو ويرتفع
ليفشى كافة الأسرار
لم تكن لغة مصر وحدها
التى احتوتها الظلمات
إذ هاهوالاتروسك الغريب يناديك ..

أصبح جان فرانسوا الآن فى الخامسة والثلاثين نعرفه جياش الشعور ولكنة أيضا
والغراية وحيد ، ولا يعود ذلك إلى أن الأصدقاء نادرون .. فبالإضافة لصداقة أخيه جاك
- جوزيف الموجهة والغيورة - والوفاء الذى يكنه له تيفونيه وأرتو وأخو زوجته أندريه
بلان وبخلاف رعاية داسييه وبلاكاس فان التعطش للحنان الذى ينهشه لم يتوقف
طوال سنى بحثه الطويلة .. ومنذ أن إنتهت علاقته بلويز قبل ذلك بخمسة عشر عاماً
وقع فى حب بعض النساء - أو واحدة على الأقل فى فيجاك - فى هذا المجال يعتبر
زواجه فشلاً : سنرى قريباً جداً ماكتبه عنه . إنه فى حالة إحتياج ملح لجرعة من العواطف

إنه إنسان متحمس ومتأجج العواطف، دمه ساخن منفعل ، هذا « الاعرابى »
القادم من كارسى ، هذا الأسمر ، هذا المورى المغربى . مع العلم بأن تكوينه
الشخصى مناسب لحالات الحب الجارف فان هذا الرجل الذى يلتهمه حب الجمال
ترهقه الرغبة وتؤثر فى معنوياته المؤامرات . وهذا الذى غامر بل ذهب بحياته العملية
إلى الأعماق ليبقى وفيًا لمعتقداته السياسية وهو الذى عبر الحياة العامة مثلما عبر
اليهود البحر الأحمر سائرا بين تهديدين ، فهو ثورى بالشخصية وجاكوبى بالقلب بقى
طول حياته ذلك الشاب الذى صرخ فى وجه الأعيان وهو يرتدى رداء جامعة جرونوبل
الوليدة الأصفر ، أن دور المؤرخ ليس الترتيل بمآثر المنتصر علما بأنة لم يكن قد مضى
عام واحد على إنتصار نابليون فى قاجرام .

ها هو يستمع في دهشة بالغة للمناشدة الشعرية له من تلك السيدة ذات العيون البراقة وصوتها صوت عرافة معبد دلفى بأن يكرس إهتمامه الآن - بعد أن أفشى أسرار النيل وهزم الالغاز المصرية ، على القضية الاتروسكية - أى أنها تطالبه فى ذات الوقت بتنمية الأبحاث حول الأسرار الدانية له هنا فى إيطاليا وبالذفاق عن قضية الوحدة الإيطالية : ها هى اتروسكا تناديك . ولانها من أصل يونانى . عن تحرير بلدها ... كانت جلسة أكاديمية شديدة الغرابة كفيلا بهز مشاعر أكثر من شخص واحد محصن ضد الأنفعالات القوية ، بجميع أشكالها بأفضل مما هو الحال بالنسبة لشامبوليون .

كتب بعد ذلك بخمسة أيام لجاك جوزيف (الذى قطب جينه وهو يقرأ هذه الجمل) :

« دخلت أكاديمية ليفورن فى الثانى من ابريل - وهو يوم الجلسات العلنية - وانتهت الجلسة بخطبة تمجيد على شرفى ألقته سيدة شابة يونانية السينيورا انجيليكا باللى - ابنة أحد كبار تجار ليفورن اشتهرت بخطبها الإرتجالية - إذ ألت بشاعرية من نار قصيدة على شرفى ولجدى وإنى أتركك تخمن إذا كانت الكاهنة الشابة الرائعة الجمال قد إستحقت درجة المائة من مائة فى أعين بطلها . إنها عضو فى الأكاديمية ؛ ان ذلك ليعد سابقة لعلها تحت مسيو داسييه على فتح أبواب الفصل الثالث * أمام ثلاث أو أربع عضوات من هذا الجنس(الناعم) لا بد وأنهن سيعطون بعض الرونق لهذه الهيئة الجادة فى تزمت وهو أقل ما يمكن أن يقال . »

إن السخرية من « الجنس » توضح درجة إنفعاله . ولكن القول واضح فيما يتعلق « بالكاهنة » التى هى « رائعة الجمال » على الرغم من أن التعبير يبدو باهتا بالنسبة للموصوفة إذ كانت من الملهمات الاتى يتفوهن بتنبؤات الآلهة .. نسجل هنا حقيقة حتى لا نعود اليها مرة أخرى - وهى أن هذه « المرتجلة المشهورة » كانت تعتنى جداً باندفاعاتها الارتجالية ، إذ أن نص قصيدتها « المرتجلة » اكتشف ** محرراً بخط يدها فى أرشيف أسرتها ولكن من الممكن أيضا أن يكون أحدهم قد حفظه وسجله على الورق بعد ذلك بثلاثة أسابيع . لم يذكر « الجنس » فى الخطاب الذى أرسله لصديقه الأب جاتزيرا . هناك عين ترنو ، والنظرة أخذت طريقها إلى أعماقه . لقد رآها مرة أخرى ، اضطرب من قوة تأثيرها فحاول أن يقاوم :

* الفصل الثالث هو قسم « المخطوطات والأدب » فى الانستيتو institut

** اكتشفته مدام إيريشيانى

«..... كان حفل الاحتفاء بى شاملاً و خلال جلسة عامة للأكاديمية الليثورية ...
تفضلت على سيدة شابة جميلة جداً تقرض الشعر وهى من أكبر العائلات اليونانية
فى ليفورن بارتجال قصيدة على شرفى واستدعتنى من خبرتى بمصر ومعرفتى بها
لألقى الضوء على الآثار الاتروسكية ، لعلك تتصور مدى تأثرى بتلك التحية وهى
تصلنى من مثل هذه الشفاه الجميلة ، إنها أرق مكافأة حصلت عليها مقابل إعتنائى
بالتراث المصرى لمدة خمسة عشر عاماً .

السنيور انجيليكا باللى متقفة جداً ورقيقة للغاية ولا بد أنك سمعت عنها إلا إذا كنتم
من البرابره * أما أنا فإنى اشكر الاله أمون - رع لأنه عرفنى عليها وأنه جعلنى
أحظى برضاها إلا انى لا أنسى أن المومياوات لها حقوقها على الرغم من صمتها ،
ولذلك فإنى أبقي معها أطول الفترات الممكنة ولا أرى الكاهنة الجميلة سوى نادراً
خوفاً من أن «أثير» تتدخل فيتحول تعبيرى عن عرفانى بالجميل إلى شئ آخر...»

« أثير » هى حاتحور التى هى الهة الحب متجسدة فى صورة بقرة إنه إذن
داخل الفخ . وفى حالة من الحماس جعلته يهدد جاتزيرا - البيمونتنى بأن يعتبره
بريريا إن هو لم يعرف انجيليكا التوسكانيه .. إنهم هكذا معشر العشاق لا يطيقون أن
يكون الذى يعجبون به « مجهولاً . يستطيع ما أمكنه أن يباعد من لقائاته « بالكاهنة
الجميلة » وأن يضع المومياوات بينها وبينه . إلا أن انجيليكا - هبة أمون - رع السخى
- قد دخلت حياته عن طريق نوع من المديح يخصص عادة للأموات .

انجيليكا باللى عمرها ثمانية وعشرون عاماً . عائلتها ذات الأصول اليونانية
أقامت منذ قرن كامل فى ليفورن وهو الميناء التوسكاني القريب جداً من مدينة بيزا
والذى نما كثيراً منذ نهاية القرن السابق بمبادرة من بوناپارت . الميناء القديم الذى
عززه آل ميدتشى فى القرن السادس عشر والذى يضيفى القصر البحرى ، المطل عليه
المبنى بالطوب الأحمر ، شينامن الجمال على هذه الضاحية البحرية لبيزا ولوقا ، كان
حينذاك فى كامل إزدهاره : عائلة باللى عائله ثرية ومقيمة فى قصر إحدى أقدم عائلات
المدينة وهى عائلة بارتولومى ** والذى يعتبر صالونها أحد مراكزها الثقافية ومن قال
ثقافة فى إيطاليا فى ذلك الوقت قال سياسة . كانت انجيليكا فى تلك الحقبة الزمنية
تعتبر مايشبه لمتحدث الرسمى للحركة الوطنية الإيطالية مثل ديوداتا دى سالوتزو فى
تورينو . ولما كانت عضواً فى أكاديمية ليفورن فكثيراً ما كانت تقف فوق مقعدها وتلقى
بالنداءات والمدائح والأدانات والقصائد الحماسية سواء عن الاتروريا أو توسكانيا ،
عن إيطاليا أو اليونان ، عن الحرية أو الوحدة وسوف

* البيمونتنى من وجهة النظر التوسكانية

** انجيليكا ستزوج فيما بعد جان - باول بارتولومى

ترتبط بعد ذلك ذلك بماتزيني : كانت كاهنة فتره ما قبل البعث الإيطالي وكانت قصائدها « المرتجلة » توقد حماس « إيطاليا الفتاة » وقد جعلت بطلها هو هذا البايرون الذي ألهمتها وفاته قصيدة كلها حرارة مثما هو الحال بالنسبة لترجماتها لشيكسبير ومن بعده فيكتور هو جو .

هل عرفت هذه الأدبية المجد بفضل أنوثتها الطاغية ؟ لاشي يؤكد ذلك فمن حق أى انسان أن يفضل شاعر آخر على لامارتين أو ماتزوني . إلا أن هذين الأدبيين الكبيرين منحنا رعايتهما (ولو لفتره قصيرة) لانجيليكا باللى - الثانى وصفها بانها منتقاه من السماء ، وسافو العصر الحديث . أما الأول فقد رد على قصيدة لها ارتجلتها أمامه عندما كان سكرتيراً دبلوماسياً فى سفارة فرنسا فى فلورنسا عن « الأم سافو » بهذه الأبيات : « عندما استمع .. الأبيات تصفين فيها

زفرات سافو الحنونة والامها

يا أنستى الشابة وصاحبة المعرفة

ابكى وأقول لماذا لم تحظ الأغريقية الجميلة

بتقافتك أنت وشاعرك »

قد يقول أحدهم لاحاجه لأن يكون المرء شاعراً كلامارتين ليعبر عن نفسه بمثل هذه الأشعار السطحية . ولكن صاحب « التأملات » كان يتمتع فى ذلك الوقت بشهرة هائلة وعندما ذكرت انجيليكا لشامبوليون اعجاب لامارتين بأعمالها فقد صفق لها لانها نجحت فى الحصول على تقدير لامارتين علما بأنه كان يمقت شخصيته .

لم يقع رجلنا العظيم فى حب بنت تافهة بل كانت بطلة فصيحة وطموحة ، ملكة متوجة على بلاط كامل ، تناشد أوروبا أن تحمى اليونان من مذابح الأتراك وأن تسمح لإيطاليا بأن تصنع نفسها كما كان تاليران يقول وتكتب مسرحيات تراجيدية تدمى القلوب قبل قلب شامبوليون أيضا .

ويقال أنها فسخت خطوبتها فى إحدى المرات بسبب رقصة طلبها خطيبها من غريمة لها .

ياليت جان فرانسوا وقع فى حب بائعة زهور بنفسج فى ميدان سان كارلو . لان انجيليكا ستريه - كما يقال - النجوم ظهراً . لا يعرف أحد كم مرة التقيا ولا لى فترات ولا حتى - ماهى طبيعة هذه اللقاءات . يعتقد أنه لم يحدث بينهما سوى

تبادل للكلمات لأن مراسلاتهما خالية من أى إشارة لأى شئ آخر - ولكن من المعروف أن العائلات تأخذ على عاتقها « الاعتناء » بتتقية المراسلات من أى شئ غير « متلائم » من ناحية عائلة شامبوليون كان الشرف هو المصان . المسئول الأول عن اكتشاف هذه المراسلات أحادية الجانب هو استورية پليجرينى - الذى أكد أن المكتشف لم يتعد قط حدود الواجب والشرف .

تبقى من هذه الصفحة من الحياة العاطفية لصاحب «الپانيتون» شهادة جميلة عليها ، متمثلة فى الثلاثين خطابا * الذى أرسلها جان فرانسوا من ١٩ سبتمبر ١٨٢٦ إلى ٢٧ ديسمبر ١٨٢٩ تاريخ عوبته من مصر - إلى انجيليكا . نشرتهم وقدمت لهم بعناية وزكاء عالمة المصريات الإيطالية إدا بريشيانى من جامعة بيزا** وهى ليست بيانات إنتصار العاشق بل هى تكاد تكون وصفا لحب معلق وهى تعتبر على أكثر تقدير احدى أفضل المرايا العاكسة لروح وقلب ومزاج مؤسس علم المصريات . هى نصوص مؤثرة دائما بل مفجعة فى أوقات كثيرة وجميلة للغاية أحيانا ، تتردد فيها أصداء رومانسية قبل ظهور التيار الرومانتيكى لما جاء فى هيلويز الجديدة « لجان - جاك روسو » وهى معاصرة لرواية أدولف «لبانچامان كونستان» وإذا كان شامبوليون ككاتب مراسلات تعوزه الرشاقه فى كثير من الأحيان إلا انه يتمتع بطلاقة التعبير وبإلمسات المعبرة ويعرف كيف يسمو أحيانا إلى مستوى الأسلوب المتميز .

الخطابات موجهة إلى « زليير » وأطلق على نفسه إسم « زيد » . لقد عهدنا فيه كثيرا اللجوء إلى الأسماء الشرقية فهو يوقع باسم « صغير » ويعمل على أن يكون الإسم الذى يطلقه أخوه على مولوده الأول هو «على» . كما أنه يسمي على مولودته الوحيدة «زورايد» . المدهش هو أن انجيليكا أيضا إنسأقت معه فى اللعبة علما بانها تؤكد كثيرا على جانبها اليونانى وهى كانت بالتالى مناهضة لكل ما يمكن أن يذكرها بتركيا . ولكنها وافقت على مسأيرته واستمرت المراسلات بينهما سرية وكان كلا الطرفين يرسل خطابه إلى عنوان طرف ثالث : بالنسبة لجان فرانسوا كانت الخطابات ترسل لعناية صديقين له الأول هو چ - چ - دوبروا (سبق لنا معرفته) والآخر هو أنه لوت (سنتعرف عليه فيما بعد) وبالنسبة للطرف الآخر أى انجيليكا فقد كانت الخطابات ترسل لعناية لورينزو كاليجارى ولورينزو فيولى .

* نشر منها تسعة وعشرون

** « رسائل إلى زليير » الاسيانيك ، باريس ١٩٧٨

أول خطابات « زيد » مؤرخ ١٧ سبتمبر ١٨٢٦ وهو يعطى فكرة واضحة عن اللهجة السائدة فى المراسلات وفيها يكشف تماما عن ذاته الدامية منذ البداية .

« اصرارى على العودة إلى ليفورن * نبع فقط من الأمل الجميل الذى راودنى بأن أتدوق متعة رؤيتك وسماع صوتك بضعة أيام ولكن فضلت أن أعدل عن ذلك بعد أن وضح أن لقائى المفروض على زيلمير ووجودى سيسبب لها الأما ومضايقات ، يتحتم على إذن أن أوفر عليها التعرض لذلك [.....] أسرعت إذن بالرحيل [....] ردود الفعل القليلة وقصر فترات لقائاتنا التى لا يمكن أن تطول لظروف مفروضة علينا لم تسمح « لزيد » بأن يكشف لك على مكنونات قلبه .. »

لنتوقف لحظة عند الجملة الأولى : هل إختيار جان فرانسوا التوقف فى ليفورن يرجع « فقط » لانه يريد رؤية « الكاهنه » ؟ من نابولى حيث كان يقيم إلى وطنه عن طريق البحر كان التوقف فى روما ممنوعا بسبب تفشى وباء الطاعون ولذلك فان التوقف فى ليفورن كان هو الحل الأمثل ولكن يجب أن نقر أن إختيار هذا الطريق يدين كثيرا إلى التشوق لرؤية انجيليكا مره أخرى .

إن ما يثير الدهشة فى النص التالى هو أنه رفض أن يتكلم عن الظروف الغريبة جداً التى واكبت رحلته وهى الكفيلة باثارة خيال محبوبته الشاعرة . شاتويريان مثلا - لم يكن ليفغل عن سرد ما حدث له وسط العاصفة التى صادفته وهو مبحرا وسط اللاسيوم إلى بولين أو ناتالى وهى العاصفة التى دفعت مركبا بأسرع من السهم وسط امواج زاجرة مثل الحيوانات المفترسة . كان مشهدا جميلا بقدر ما كان مرعبا « ولكن بدلا من انجيليكا التى كانت ستتأثر لها فان جان فرانسوا خص أخاه برواية ما حدث له فى هذه الساعات المثيرة للقلق . كما أنه خصه هو أيضا بوصف أحداث جرت أثناء أحد توقفاته فى رحلته وهى كانت ستسعد بالتأكيد كاهنة الاتروسك .

« تحولت الرياح الشديدة - لصالحنا ومعها ظهر بعض الضوء أثار لنا الدنيا فوجدنا أنفسنا بين جزيرة إلبا وبيومبينو [...] فأعلن الريان أننا مضطرون إلى الخروج على أى ميناء صغير [....] ولحسن حظى كانت مدينه پولونيا عند مدى

* عاد إليها قبل يومين وأمضى بها أربعة أيام فقط - يبدو أن زيارته لم تلقى ترحيبا .

البصر وطالبت وحصلت على قرار بتفضيل هذه المدينة الاتروسكية الهامة وإضطرنا للمكوث بميناء يويولونيا المهجورة لمدة يومين حتى مرت العاصفة . ولكن كان من أسباب سعادتي أن أسير فوق شاطئ مغطى ببقايا مبان أتروسكية ومقابر قديمة تؤخذ منها يوفيا وأواني وأشياء أخرى تعود إلى القرون الإيطالية القديمة .

تسلقت الجبل الذي تقع على قمته المدينة الاتروسكية القديمة ... وأخيراً بعد أن عاد البحر إلى حالة تسمح بالخوض فيه ، إحتجنا لثمانية عشر ساعة من الأبحار حتى وصلنا إلى ليفورن . وعلمنا لدى وصولنا أن مركبين من روما أغار عليهما الجزائريون عند مونت أرجانتال وأخذا منهما الفدية وذلك عشية مرورنا على المكان المذكور وأن العاصفة هي التي أبقت عليهم فى عرض البحر ولولا ذلك لكنت تعاملت مسبقاً مع أفريقيا .

هل رأى أحد محباً يتحرق شوقاً لفتح قلبه لسيده لدرجة أن ينسى التأثير عليها بهذه الروايات عن القراصنة والبحارة والتي كان بإمكان الكسندر دوما أن يكتب عنها أكثر من كتاب ؟ ولكن ربما أنه قص عليها ذلك خلال الزيارة التي لم يلق فيها الترحيب ؟ .

لعل مشاعري فاجئتك ... فهي لا تتوافق لامع وضعى الشخصى ولا مع وضعك * وكل شئ يامرنا باحترام هذه الأوضاع ولكن هل تنتظر خفقات القلب حتى تأتينا الأوامر من العقل ؟ انها تجربتنا جراً . ولكنها إذا كانت نقية فهي تجد من داخلها على الفور القوة التي تحتفظ بها داخل الحدود التي يخطها الشرف والواجب بل والظروف الاجتماعية أيضاً، هذا هو الشعور الذي أوحيت به إلى »

نرى إذن أن الموضوع كان شيئاً آخر غير الصداقة مثل هذه الاحتجاجات وهذه الاحتياطات لم يكن لها أن تتخذ بين « أصدقاء » ولم يكن هناك سبب للكاهنة أن « تندهش » أو أن ترى أن شرفها معرض للخطر لو أن « الصداقة » هي التي تربطها برجل غطيم .

بقية هذه الرسالة تعرضنا لها من قبل عند الحديث عن روزين شامبوليون فعندما صرح بحبه لانجيليكا رأى جان فرانسوا من واجبه أن يكشف لها عن فشل زواجه . ثم بعد أن تكلم عن ذلك رأى أن يخطو خطوة جريئة أخرى :

* كانت مخطوطة لشخص يبدأ اسمه بحرف م ونسخت المخطوطة بعد وقت قصير .

« فى اليوم الذى رأيتك فيه لأول مره شدنى إليك إحساس غريب لم أعده من قبل ...
ثم عندما تفضلتى بالكلام عن أعمالى غمرنى أقوى شعور عرفته فى حياتى . أنت
يا زليير التى جعلتني فخورا بما تدين لى به العلوم ، ومنك أيضا حصلت على أكثر
المكافآت إطرانا لى على الليالى التى سهرتها ... سأكتبكم فى نفسى كل ما شعر به
قلبي منذ ذلك اليوم لأنى إذا بحث به ربما أسأت إليك . أنى لا أسير وراء أوهام ،
كل شئ يقف ضدى و أقل شئ يفصل بيننا [.....] وإذا أودع زليير فانى
أرجوها أن تتذكر من وقت لآخر أن رجلا فى الوجود بعيدا عنها يكن لها أكثر من
الاعجاب . »

تكشف لنا رسالة عالم المصريات الثانية تاريخ وظروف اللقاء الوحيد المعلن
والعلنى جدا مع الشاعرة منذ الجلسة الأكاديمية فى الثانى من إبريل ... ففى ١٦ يونيو
التالى دعاه صديقه الشاب روسيلينى إلى مدينة بيزا بمناسبة عيد القديس رانييرى
راعى المدينة وهناك التقى بها خلال حفلات اللومينارا وهى إحتفالية تقام كل ثلاث
سنوات وتجذب جماهير غفيرة للغاية على ضفاف نهر الأرنو وعلى رأسها الدوق الأعظم
لتوسكانا بل والبابا نفسه فى ذلك العام ، وكانت مناسبة للبابا ليون الثانى عشر لكى
يعبر له علانية عن رعايته له . ولكن هل شعر چان فرانسوا حتى بوجوده ... إن
انجيليكا كانت هناك ...

ذكرها كانت قوية لدرجة أنه تكلم عنها ثلاث مرات فى رسائله ففى ٢٦ سبتمبر
١٨٢٦ .

« فى يوم عيد بيزا الذى ترك فى نفسى ذكريات بلغت درجة من السعادة تجعلها
منذ ذلك الوقت بالنسبة لى ذكرى مقدسة . فممنذ تلك اللحظة عرفت أن قلبى ترك
نفسه ينصاع دون وعى منه لتيار جرفه دون أن يكون فى ذلك ما يؤذى مشاعرك ،
بما أن لا شئ فى هذا الميل جاء نتيجة لحسابات مسبقة أو لاستخفاف مذنب فهو
بذلك يكون جديرا بك لسبب واحد فقط لانه يشعر فى حبه لك بكل ما تستحقينه من
حب واحترام فى ذات الوقت »

يبدو أنه بعد خمسة عشر يوما وهو فى البندقية قد فضل الحب على الاحترام .:

« أن قلبى يتمرد . كدت وأنا فى بيزا أن أصرح [....] لم أعد أعيش فى هذه الحياة منذ أن تركتك » .

أخيراً فى يونيو ١٨٢٧ أى عشية الاحتفال بذكرى هذا اللقاء العظيم :

« تحرمين على الكلام عن ذلك - ليكن . ولكنى حرٌ فى التفكير فيه (....) هذه الذكرى السنوية ستبقى دائماً عزيزة على نفسى »

فى إمكاننا أن نجد إثباتاً جديداً على أن ذكرى انجيليكا تلح باصرار عليه وذلك فى فقرة وردت فى خطاب كتبه من البندقية أيضاً إلى صديقة ابوليتو روسيليني بخصوص أحد المتخصصين فى الحضارة الاتروسكية . البروفسور أوريولى :

« قل له أن يزوج مصر إلى أتوريا أن الاثنين يتوافقان مع بعضهما كنت أشك دائماً فى أن كليهما تأمرا معاً واعتقد اننا سنتمكن قريباً من اكتشاف مراسلتهم السرية كلها . خطاب حب بالهيوغليفيه يجيب على آخر بالاتروسكية سيكون شيئاً مؤثراً لغاية » .

إذا ذكرنا درجة الحماس التى طالبت بها انجيليكا منه أن يكشف أسرار الإتروسك فيمكن أن نقيس على ذلك كم كانت فكرة الزواج المصرى الاتروسكى هذه مثيرة بالنسبة له .

ثلاثون رسالة خلال ثلاثين شهراً . لا يمكن أن نذكر كل شئ على الرغم من أن كل شئ تقريباً يساعدننى فى ذلك على فك شفرة حلال الشفرة . وله صبيانى ، حساسية مفرطة ، شخصية مناضلة ، حكيم حكمة فيلسوف الجمال ، فخور بما قام بتأسيسه ، غزير الكلام مثل أهل الجنوب ، خجول كأهل الريف ، يؤمن بالله بدون تعلق بالطقوس الدينية ، غيور غير المحبين إنه بورترية أرجل مثقف فى فترة اليزنورجيمنتو (البعث الإيطالى القرن التاسع عشر) .

كلاسيكى النوق ، رومانتيكى المزاج ، زوج خاب أمله ، أب حنون ، ومعلم جيد ثورى لأنه معجب بالماضى ، ديموقراطى دون وهم متمسك بذكرىات الجمهورية وبما أكثر من ذلك أهمية أى بذكرىات التسامح . هو أذن خليط غريب من المراهقة المتأخرة والنضج الحزين ، فى الصباح هو فى سن فابريس (بطل رواية الأبيض والأسود لستاندال) وفى المساء الكونت موسكا

خلفية هذه المراسلات تكونها أربعة موضوعات رئيسية : الموضوع الأول والمسيطر هو البوح بالحب وهو ملتهب لدرجة لايمكن أن تجعل أى زوج « مهما كانت سذاجته أن يصدق من يسميه « صداقة » . الموضوع الثانى هو رد الاتهامات الموجهة ضده والاحتجاجات علي شخصية جنية الإتروسك وعدم التوافق فى المشاعر بين رجل عاشق وإمرأة بدون عواطف ولكنها تستمرى الأطراء لأن أحد اهم الشخصيات التى تتنازعها أوروبا كلها قد وقع فى غرامها . والخلفية الثالثة تتلخص فى كلمة واحدة : التربية أى تلك التى يقوم بها العاشق الذى حرم من أى وسيلة أخرى نحو السيدة التى كانت الأولى فى الإعلان عن نفسها بالاعجاب به . وأخيرا فإن آخر مواضيع هذه الخلفية فهو الاعترافات الخاصة جداً مثل ذلك الخاص بزوجة الخالى من مشاعر الحب .

اعترافات ؟ بعد اعترافات الملفلة فى بيزا وتلك التى أفلتت منه خلال زيارته القصيرة لليقورن فى سبتمبر ١٨٢٦ هاك إعتراف ثالث يعود إلى شهر أكتوبر أقربه عند عودته الثانية إلى فرنسا ومن شامبيري بالتحديد:

« ...بما أنه لم يكن من حظى أن أكون كل شئ بالنسبة لك فانى أود أن أكون على الأقل أول صديق لقلبك . هل أنا أطلب بذلك الكثير منك ، أنت التى هى كل شئ بالنسبة لى (.....) تعلمت كيف اسيطر على التعبير عن مشاعرى . قلبى هو المسيطر ولايمكن لى أن أكبله بسلاسل »

فى الأول من مارس ١٨٢٧ كتب من باريس وذلك بعد عرض علمى مطول سنعود إليه فيما بعد :

« تأكدى يا صديقتى أننى ملكك باكثر مما يمكن أن أقوله لماذا لا انتاح لى فرصة أن أثبت ذلك كما يود قلبى أن أفعل . أنى لا أريد شيئا آخر من العالم الذى خدعنى باقسى ما يمكن حتى الآن ، سوى أن إقتناعك بانى إلى الأبد صديقك الوفى بكل المعانى التى يمكن لقلبك وقلبى أن يمنحها لهذه الكلمة فتهدأ بالتدريج الأحزان التى تنهشك وتنسين ما فقدتته وتعيد تصالحك مع الحياة التى عصفت بها أيامك الأولى بتلك الاعاصير الرهيبة . أود أن أكون الرباط الذى يشدك إلى الوجود . أما بالنسبة لى فلا أريد شيئا إلا إذا وجدت داخلك هذه العاطفة الحية التى جعلها القدر أولى احتياجات روحى . الوداع » .

ثم بعد بضعة أيام ومن باريس أيضا نراه وقد سما إلى مستويات تشبه الإجلال

« ...أحبك بصدق عظيم لا يسمح لى أن أشعر بالغيرة من تعلق كل من يعرفك بك ومن كل من يقدرونك . إنى أقدر تماما الشقاء الذى يسببه لك وضعك لدرجة أنى أود بحق أن تجدى حولك أشخاصا يمكنهم أن يملئوا قلبك كله .. حتى لو ادى ذلك إلى أنك لاتفكرين فى شخص سوى على أنى رؤية عابرة تمر للحظة على مخيلتك فى أوقات الألم »

وفى الثاني من أبريل يرسل الى سيدة ليفورن بمايشبه أغنية حب :

« مر اليوم عام كامل على لقائنا الأول فى نفس هذه اللحظة التى أعيشها . هل كان بإمكانى أن اتنبأ وأنا أحضر إحدى جلسات الاكاديمية أى إحدى هذه الاجتماعات التى عرف عنها بحق وسط العامة أنها من أكثر الاجتماعات مدعاة للضجر العلنى ، أنى سالتقى فيها انسانة ستحتل كل هذا المكان داخل قلبى فى المستقبل ؟ نعم سبق أن كلمونى عنك ولكن بشكل عابر جداً على الرغم من أنه يستحيل على الآن أن أصدق أن يكون اسمك قد ذكر أمامى دون أن يثير ذلك اهتمامى ومشاعرى ، الا أن عزيزة القلب التى يطلق عليها الأقدمون اسم الشيطان الطيب انتفضت من ثباتها الطويل فشددتنى إليك منذ تلك اللحظة . تعلق نظرى بك إلى الأبد كنت أقرأ فى محياك كل ماكنت أود وجوده . فى الوقت ذاته كان الشيطان يكون رأيه عن حساسيتك وشخصيتك وعن الأماكن النشطة لنفسك المحبة . هل من حظى أنا أن تخميناته كانت فى محلها ؟ إنه لا شك شيطانك أنت (لن أقرر إن كان طيبا أم شريرا) الذى دفعك إلى الحديث عن هيروغليفياتى ..

عشية ذلك اليوم لم أكن أتعلق بأى شئ فى هذا العالم الكئيب . كانت أحلامى فى السعادة مدقونة فى أعماق قلبى ترزح تحت أثقال التجارب المخدوعة التى عرفها شبابى كله [....] وكانت فى سبيلها إلى [...] الزوال التام [....] لم أكن أرى شيئا حولى (....) لم أكن أعيش بل أنى لا أسمى حياه العادة التى أكتسبتها فى التركيز بكل ما أوتيت من امكانات على دراسة واحدة فضلتها لانها كانت تستهوينى تماما وتجعلنى أنسى وجودى ذاته . عرفتك فتغير كل شئ » .

هاهو مندفع عاشقنا عالم اللغويات! إلا أن السعادة لن تطول إذ أن من أحب لم يستجب له .. لم يكن فى الامكان أن نطلع على خطابات انجليكا . إلا ان ماينقلة عنها جان

فرانسوا لكى يحسن الرد عليها - وعلى الرغم من إقتضابه - فهو يكشف عن خبثها الغريب . فلكى « تبرئ » نفسها من « لا - حبها » له - أو لكى تبتعد عن حب كله مخاطر - فان الشاعرة تفننت فى أن تطلق على الرجل العظيم سهاما وتلميحات تختلط فيها الشكوك والغيرة وتحقير اللعوب المحب ثقيل الحركة . غيرة الإنسانية الطموحة من الذى سبقها على سلام المجد وهى قليل من سيليمان * وشئ من كاترارينامن نمرة (شيكسبير) وقليل من جيرمان بوستال ** .

عدة اشارات ذكرها جان فرانسوا توحى بأن انجيليكا كانت محاطة بأسرة كثيرة المشاحنات تحركها الغيرة وتريد أن تراها زوجة لأحد أفراد أسرة بارولومى أو أى شخصية أخرى من الأسر الكبيرة حتى تؤمن بتتويج عشيرة باللى داخل المجتمع التوسكانى . الجميع يراقبها ويجبرها ويمدحها ويحذرها أو يتحداها : أسرة من أسر المسرحيات الكوميديّة بالفعل . فجأة يظهر فى هذه المسرحية الجديدة بمسرحيات جوتزى - عالم مستهلك يتكلم الإيطالية دون طلاقة وبدا كرشه يتكون ويكبر ؛ فصاحته زائدة بعض الشئ ربما لتغطى على خجله مع شئ من التحذلق ... وعلاوة على ذلك فهو متزوج . لاشئ يمكن إنتظاره منه سوى بعض مظاهر المجد لسهرات أيام الجمعة والكثير من الحرج لصاحبة السعادة ، ومع ذلك وعلى الرغم من مضايقات القبيلة فان الراجاتزا (الأنسه) دفعت الأمور قليلا إلى الأمام لا شئ أكثر من نقرات بالمنقار أو جروح بالأظافر أو لدغات حيات أو طفرة من طفرات اللافا إغريقية . أمام هذا الجبروت لا داعى للاندهاش إذا كان شامبوليون الصغير اعتبر نفسه فى بعض الأوقات الملك بريام ذاته . إنه يتفادى الضربات ثم يأن ثم يرد ويحتج ويهاجم هجوماً عكسيا . يستكين أحيانا ثم يندفع من جديد بكل طاقته وإن لم يتمكن من ترويض النمرة فهو يلقتها المبادئ تارة ويؤنبها تارة أخرى وهو فى كل ذلك مؤثر جداً وغير حذق أيضا كما بيتهون وهو يدافع عن نفسه وهو بين أيدي جوليتا . ولكن يجب أن نذكر بعض اللمسات من هذا الصراع الثنائى الذى لا نستمتع منه سوى لصوت السوليست : « باريس » فى ١٠ نوفمبر ١٨٢٦ .

* بطة مسرحية مواير « عو البشر » شابة لعوب ونعامة ونكية [المترجم]

** أدبية فرنسية (١٧٦٦-١٨١٧) [المترجم]

« مكتوب منذ الأزل في كتاب المصير أنى لن أحصل أبداً على رسالة منك لا تبدأ بعتاب ولا تحتوى على عرض لسلسلة من الشكوك ولا تنتهى بهجاء إذا كان الأمر هكذا فما على سوى الإمتثال ، ولن احتمل (حتى لا أضع شخصيتك السيئة أمام المحكمة) سوى بأن أمسك القلم واكتب لك . لكى تخاطبيني تلجئني الى فكرك الصالونى ولا تفعل سوى تكملة ثروة إجتماعية يكون الآخر هو ضحيتها ومن سوء الحظ أن يكون هذا الآخر باستمرار هو أنا . وذلك فى الوقت الذى تتكرمين فيه بمنحى شئ من وقتك . إن ذلك عمل خاطئ . يجب على أن أغضب وأن أستعين بكل بلاغتي لكنى أجعلك تخشين على نفسك من ذاتك وذلك بأن ارسم لوحة مرعبة للتحدى الشكاك الذى ينهش صدرك ويمنعك حتى عن إكتشاف أصدقائك حيث هم بالفعل .

بدلاً من الشكوى ساطلب منك الغفران ضاماً يدي متضرعاً راکعاً وطالبا الرأفة [....] ومادام كبرياء مغازلتى قد ارتضى أن يتذلل على هذه الصورة ومادمت أشعر أن وضعى هكذا يناسبنى فانى انتهز الفرصة لاعتراف الإعتراف الشامل التى تطالبينى به وتصرين عليه . نعم يا قسّ اعترافى : نعم إنى مغازل حذق (.....) من كثرة ما قمت به من تزلف وملاطفة ذكية لكل روسائى ، منذ أن بدأت حياتى سواء السياسية أو الأدبية ، نجحت فى أن أدعهم ينتزعون منى خمس مرات مختلف الوظائف التى أتيت بى . السنة السوء كانت تقول جينذاك أنى كنت أتكلم بصوت أعلى من المسموح به ، ويعيبنى أسو العيوب وهو أنى لا أخفى أبداً ما أفكر فيه عن الأشخاص أو الأشياء»

أن يصل بها الحال أن تصفة بأنه مغازل حذق يدل على أن الكاهنة لم تعوزها وسائل التصنع : إلا ان هذا لم يكن سوى البداية ، فبعد ذلك بشهر ..

« انتظرت وصول أخبارك على أحر من جمر إلى أن وصلت رسالتك المؤرخة ٢٢ نوفمبر لأعاقب بمنتهى القسوة لآتى شكوت من صمتك .

لن أقول لك كل الالم الذى سببته لى لأنك ان تصدقيني . إنك تشككين فى كل ما أفكر فيه ، كل ما أكتب يساء تأويله . جنية مؤذية تقف بيننا تتحكم فينا وتقدمنى لخيلتك فى صورة غير حقيقية . وتستخدم كلامنا كاله لتعذيب

الأخر (...) ومن ناحية أخرى لا يمكننى أن أضع عليك اللوم لأنك لاتعرفيننى فلم
تريينى سوى للحظات . وعبر العديد من العوائق والتحفظات ! ألوذ فقط بحق لا يمكن
أن تتقضية وهو ألا أحاكم دون أن يسمع دفاعى . بعدها سأمتثل للحكم الذى
ستُصدرينه . إذا كنت تحكمين بهذه السرعة على من يحبوك فانى أشفق على من
لايهمك أمرهم ..

بعد سبع أو ثمان شهور نجده قد روض تماما ولايتجراً على الرد سوى بهجمات
مضاضة غير مأمونة العواقب

باريس فى ١٨ أغسطس ١٨٢٧

أخذت عن الطبيعة شخصية مكروهه جداً [....] لأعرف بأى لهجة أتحدث بها
إليك ، بل أنى اعتقد أنى لن أرضيك سوى بأن أكتب لك بعض الكلمات الوقحة
ثم يلى ذلك فورة من الخزن :

« التسامح يعتبر من أشكال التعاطف مع المسنين ولذلك فلن أضحك ولن أغضب
من الوريقات الثلاثة أو الأربعة التى تتكون منها رسالتك . تحلى بفضائل وضاعفى
عددها . يتضمن خطابك إفتراضاً لن أخذه معك بالمعنى « البارد » الذى تحملىنى
أياه . إذا كنت بالفعل تعتقدين ما تقولين ألم تخشى قط أن تتسببى فى الأسائة
إلى ... ؟ »

وسنذكر أيضاً هذه الفقرة من إحدى الرسائل الأخيرة التى تنم عن شئ من سوء
الطباع : « تبدأ رسالتك الأخيرة مرة أخرى بأحد السهام المسمومة التى
أصبحت من الأمور التى تعودت عليها بسبب معاشرتك لأوساط مناهضة لك وهى
تخرج من قلمك بصورة طبيعية للغاية . تقولين أنك ربما تشعرين ببعض الأسف
لوعلمت أن صمتك أحرزنى ! كيف ستصفين هذه الجملة لو حدث وتجرات أنا بكل
أسف وكتبتها لك ؟ »

كفانا من هذه الشكاوى وكما يقول جورج واندان ، من الأفضل دائماً ألا نتعامل
مع إمراه شريرة .. ولكن إذا كانت الإساءة قد حدثت وانها تتمتع بشخصية حادة
الطباع فإن أفضل ما يمكن عمله فى مثل هذه الظروف هو أن تزين الأمر بأفضل ما
أوتيت خاصة إذا كنت قد نشرت « رسالة إلى مسيوداسييه » أو تكون ألفت صوناتا
إلى كروتزر . وها هو جان فرانسوا لايائف من تأدية دور المربى تجاه انجيليكا . لنذكر

هنا أولا هذا التعريف المحدد لشخصية السياسية كما كتبه للكاينة سريعه الانفعال :

« إنى أتمرد ويعتبر هذا من مخلفات حياتى السياسية ولكن إطمئنى فمهما بلغت بى الميول التى لازمتنى طويلا نحو التمرد فلن أتامر أبدا وبالذات ضدك أنت . إنى أشاركك الرأى تماما فيما يتعلق بمن يزرع الشوك قبل ثمان سنوات من الآن كانت الأحلام لاتزال تراوبنى فى إحداث تغيير إجتماعى نحو الأفضل ودون ماحدود وكنت أعتقد أن من الواجب حمل السلاح فى الأماكن التى يمكن لثقافة بطيئة ومنظمة تنظيمها جيداً أن تحول وحدها النباتات السامة إلى نباتات صالحة (....) وهذا هو السبب الذى دفعنى إلى أن أكرس ذاتى بالكامل لدراساتى وهذا يعتبر موضوعاً واسعاً وكبيراً لدرجة أنه يمكن استيعاب قوى فكرية باكثر مما حبتنى بها الطبيعة .. وهذا يعتبر على العموم أسلوب آخر من أساليب القيام بالثورات بقدر ما يمكن أن أكون قد احتفظت به من مثل هذه الميول القاسية » .

على الرغم من أنه أفاق من أحلامه الثورية فان صديقنا عالم المصريات بقى جمهوريا فى أعماقه . فها هو ينهرها - وهى الشاعرة - بعد ما قرأها مسرحية تراجيدية من ستة فصول (لماذا الخروج من العرف المكتسب) حيث إكتشف مذهولاً أنها حولت الجمهوريين إلى « بانديتى » أى « مجرمين » يالللضلال ! «إن تشويه الناس على هذه الصورة شئ فظيع، ثائر تائب ولكنة بقى جمهوريا فى أعماقه وفيلسوفى إتصح إنه « فيلسوف جيد » . الجانب التالى من شخصيته جدير بروسو أو ديدرو فهو إذ يصف لصديقه حادة الطباع الزيارة التى قامت بها لباريس « فرقه صغيره من البدائيين الأمريكين من قبيلة الأزاج » أحضرهم أحد البحارة لمتحف اللوفر « شبه عرايا » وسط المارة المذهولين ، يردف قائلا :

« إحدى النساء الأزاج إسمها ميهانجا . خطوط وجهها كانت جميلة على الرغم من بسمة بدائية إختلطت بطريقة فريدة بالوجه الجاد والهادئ فى نفس الوقت ... لم يحصل منها كل العالم المحيط بها على نظرة واحدة . بقت ميهانجا محاصرة داخل ذاتها ثم وقفت فجأة بعد أن تجولت بنظرة سريعة حول القاعة ومرت عبر الجمهرة التى تحيطها واتجهت فى تودة نحو أحد الأعمدة فى آخر القاعة وجلست تتأمل بها ووجهها إلى الحائط . هناك وبعد أن عقدت ذراعيها فوق ركبتيها ، طاطأت رأسها وأغلقت عينيها وشرعت تغنى بصوت غير مرتفع أغنية بطيئة الوتيرة وحزينة حزنا يمزق القلوب . كنت قد تبعته إلاًنى مكثت بعيدا عنها بعض الشئ . لم تفعل السيدات الجميلات مثلى فأحاطتن بالمرأة الحزينة من جديد التى ظلت على تركيزها

الشديد فى ذكرياتها وظلت تغنى لمدة نصف الساعة دون أن تأبه بالفضوليين الأغبياء الذين لا يراعون الامها بل وجدوا تسلية عابرة حيث يجب أن يجدوا فقط الرحمة والتأسسى والتراحم ، كانت تلك البائسة تفكر دون شك فى بلادها وفى أحبائها الذين تركتهم فى حين كانت باريسياتنا الجميلات تتضحكن أسألك بالله من من هؤلاء ميهانجا أم السيدات التى يجب أن يطلق عليهن صفة البدائية ... » .

« إنه متشائم صديقنا المصرى » . نحو أى أفق مظلم للعالم قادتته تجاربه ودراساته وفك الطلاسم التى جعلته يغوص وسط كل هذه القرون من الزمان ؟ نتوقف مرة أخرى عند هذا التعبير الموجه للكهنة :

« أتشوق لرؤيتك وقد أنهيت دراساتك التاريخية . إنها قرائات مؤذية بالنسبة لك ، مهما كانت المرحلة الزمنية - قديمة كانت أو حديثة - التى تنتظرين من خلالها إلى النوع البشرى فستكتشفين دائماً أنه لا يساوى شيئاً ولن استثنى من ذلك سوى المصريين عن حب * والإغريق عن مجاملة ، أغريقيوك كانوا يتقاتلون للتسلية (...) أما مصريونى فلعلهم إكتفوا فقط بالمظاهر الخارجية للحكمة والأنسانية [...] فذلك يكفى لأنه يعود إلى نفس النتيجة وفى رأى أن الهة التاريخ يجب أن تصور وفى يدها شعلة وفى الأخرى خنجر تلوح به فوق نهر من الدماء !... »

ثم يختم خطابه بهذا الاعتراف للعرافة التى سبق أن كشفت عدة مرات عن إلحادها النشط :

« يجب أن أحدثك عن أسرتى وكنت فى جميع الأحوال عازماً على ذلك حتى لو لم تطلبين ذلك . فى اللحظة التى أكتب لك فيها من مكتبى فإن إبنتى الصغيرة تقاطعنى فى كل لحظة باستئنها التى توجهها لى من قرب النافذة حيث هى جالسة تحاول ترتيب رقعة شطرنج تلعب بها . دون أن تتصور أن يمثل هذه الأسلحة نجحت أنت فى هزيمة أبيها من جدارة المرة الوحيدة التى تجرأ فيها أن يعلن عليك حرباً صريحه. إبنتى (الوحيدة وستبقى كذلك علي ما أعتقد) عمرها الآن ثلاث سنوات. لها مثلك إسم عربى : زورايد . إنها دمثة الطباع وطيبة وسابذل كل جهدى لكى تبقى كذلك

* الحب - إذن - هو المصريين فقط وليس انجيليكا التى يتعين عليها أن تكتفى بالمجاملة فقط .

دائما . أحضرت لها خادمة من جنيف حتى أظل المسئول الوحيد عن تنشئتها الدينية.
ستظل مسيحية ولكن دون خزعبلات »

هل قال لها كل شيء .. لم يبق لديه سوى إلقاء كلمات الوداع التي ستصل إلى
إنجيلىكا وقد أصبحت تتباعد أو تتعالى عشية سفره وعودته من مصر . من هي
المرأة التي كان بإمكانها ألا تتأثر ببدءات أوديب وهو فى طريقه لمواجهة أبى الهول ...
وبدأت هذا البحار العائد محملا بالتاريخ والمخاطر والمعجزات ؟
فى ١٠ يوليو قبل سفره بثلاثة أسابيع كتب لها من باريس

« ساكتب لك مرة أخرى من طولون وساكون شاكرا لو وصلتني منك كلمة صغيرة
على عنوان مسيو لوت * وهل ستتركينى أرحل دون ذلك»

ومع ذلك فهو يرسل لها هذه السطور فى الأول من أغسطس :
« طولون » من فوق « الإيجلى » وهو يفتح شراعه .

انتظرت كلمة منك دون جدوى ربما تكونى قد كتبت ولم تصلنى رسالتك
لضيق الوقت . أود أن يكون ذلك هو ما حدث . ومن القسوة على نفسى بمكان أن
أعتقد أنى أضعت كل أمل فى علاقتك بى فى اللحظة التى لا أجد فيها وأنا أغادر
أرض الوطن سوى ملاذا واحد وهو إعتقادى بأنى سابقي حيا باستمرار فى قلوب
كل من أحببتهم وتركهم الآن ورائى وددت لو قلت لك وداعاً ، ومن المؤلم جدا بالنسبة
لى أن أغادر أوروبا تاركا بيننا غيوما تعكر صفو الثقة التى يأمل قلبى أن يجدها فى
قلبك . ساكتب لك من مصر وإذا أردت أن تردى على خطاباتى . فليكن ذلك على
العنوان التالى . إلى مسيو دروفثيتى قنصل فرنسا العام فى مصر (يسلم إلى
مسيو لوت

سيسعدنى الحصول على ذكرى من يدك . الوداع »

الكلمة الختامية ستكون لخطاب كتبه الكاهنة الصامته بعد أن وضع قدمه مرة
أخرى على الأرض الأوروبية « من فوق اللازارات من طولون ٢٧ ديسمبر ١٨٢٩

* أحد رسامى رحلته الى مصر (راجع الفصل ١٦ ، ١٧)

للركب الذى عاد بى من مصر بعد ١٩ يوماً وصل إلى رصيف طواون مساء الخامس من الشهر . بقيت على أملى حتى اليوم أن يأتوا لى من اليابسة بخطابات منك إلا أنى أجد لزاما على أن أتخلى عن أملى فى أن أكون أكثر سعادة فى أوروبا عما كنت عليه فى أفريقيا حيث لم يصلنى منك خلال ١٩ شهرا سوى تعبير واحد عن الذكرى . كيف أفسر هذا الصمت ، لا يمكن معرفه الاسباب سوى منك أنت فقط .

ولم يبق لى سوى أن أكرر هنا الكلمات الحزينة التى أنهيت بها جميع خطاباتى لك من مصر : إنى أنتظر .

ظل هذا الإنتظار قائما إلى أن إنتهى ب وفاة البطل . كان ايبوليتو روسيلينى رفيق رحلته فى مصر والذى أصبح بذلك أقرب أصدقاؤه وحافظ أسرارهم بالطبع لانه كان أيضا من بيزا وبالتالي من جيران الكاهنة - كان يعرف ذلك جيدا وهو لذلك لم يدع فرصة واحدة تمر دون أن يثير موضوع الغراميات التوسكانية . فى ٢٢ فبراير ١٨٣٠ كتب من بيزا إلى شامبوليون « فى ليفورن إلتقيت بالحاكم الطيب* وبجميع أصدقائه فى منزله . الجميع يهنئونك « ويرينون رؤياك . الأوكس* * مازال علي حاله نحوك : أسرت لى فى أذنى أنها تبعث لك بمشاعر عديدة كما تؤكد لك إهتمامها بكل نجاحاتك ...»

وفى خطاب آخر من بيزا مؤرخ فى ٢٨ إبريل ١٨٣٠ أشار روسيلينى أيضا إلى زليير . وإذا كان يحدث شامبوليون على أن يمضى من ست إلى ثمان شهور فى توسكانا أضاف قائلا :

« سترى من جديد اللومينارا فى كل بهائها » ويضع خطا تحت هذا الكلمات وهو متأكد أنها ستثير لدى صديقه ذكريات عزيزة جدا عليه .

وأخيرا فى ٢٤ أكتوبر ١٨٣١ وبعد أن أقام فى باريس لفترة سمحت له بالاعداد مع شامبوليون لنشر أعمال رحلتهما كتب روسيلينى إلى صديقه وكان يقيم حينذاك فى فيجاك خطابا قصيرا ختمه بهذه الكلمات : « الأوكسيس ويلبها المسكين موجودان الآن فى فو . *** يقال أنها جعلت منه حشرة ...»

أوكس أو كسيس أو أوكسور هى جميعا مأخوذة عن كلمه أوكسر اللاتينية أو زوجة . تلاعب بالألفاظ بين علماء المصريين . وقد عرفا فى مدينة طيبة حيث عاشا فى معبدا الأقصر أكثر مشاعر السعادة عمقا أما فيما يختص بحالة الحشرة التى وضعت

* باولو جاردوني - فنتورى : محافظ ليفورن من ١٨٢٨ حتى ١٨٣٥

** كل شئ يشير إلى أن المقصود بهذا الاسم هنا هو انجيليكا

*** عدة حروف غير واضحة فى الميكروفيلم وأعل الاسم هو : كورفو

الأوكس فيها « بلبلها » فان تلاعب الالفاظ هنا غير واضح لنا .. إلا إنه يشهد على قسوة شخصية انجيليكا . فلم يكن المكتشف إذن فريستها الوحيدة .

عندما كان يسميها أوربوس فكان فى ذلك إشارة إلى الثعبان ذى العيون البراقة الذى كان يخرج وهو يصفر فوق جبين فرعون . من يقترب منه .. وقد أقترّب منه صديقنا وتحدى وأدغ ، وعرف قدر نفسه ...

إذا بريشيانى تحدثت عن « عدم مبالاة » الأنسة باللى ألا أننا يمكن أن نتخيلها غاية فى الحرارة ومتسلطة وقاسية وأحاسيسها العنيفة كلها منطوية إلى الداخل . هل كانت تغير لان موهبتها الخلاقة لم تكتمل أو كانت متقطعة ؟ أم أن غضبها عنيفا لأنها فى تسلطها كانت تواجه جلال العبقرية ؟

من المؤكد أن الجرح ظل يدمى طويلا فى صدر العلامة . ولكن من الممكن أن تكون مغامرة توسكانا أثمرت داخله ما تلخصه هذه السطور المرسلة فى ٢٠ نوفمبر ١٨٢٦ إلى ايبوايتوروسيليني (2) :

« ياالسعادة التوسكانيين ! كم من مرة كررتها خلال فترة أشهر العسل التى أمضيتها معهم وما أنا أكررها مرة أخرى اليوم بقدر كبير من السعادة لأنها صرخة تحية تعبر فى الوقت ذاته عن الأسف وعن شعور بالعرفان . نعم يا صديقى العزيز إنى تعودت أن أرجع كثيرا بالذاكرة إلى أيام السعادة التى عشتها فى ليفورن وفلورنسا »

عندما يتحدث جان فرانسوا عن « شهور العسل » التى أتيح له أن يحياها فى توسكانا - قبل أن يعود إلى روما و نابولى والبندقية - فهو لا يفكر فقط فى انجيليكا التى إمتزج عسلها بمرها . فاذا كانت غرامياته الليقورينية قد غاصت فى بحر من المראה فان صاحب الرسالة إلى مسيو داسييه قد عمق تفكيره فى ذات الوقت كما قام بتحقيق أحد المشروعات اللذين شغلا باله وهما مشروع إقامة متحف مصرى فى باريس يعهد به إليه ومشروع سفره المرتقب لوادى النيل .

عرفنا من قبل أنه سافر إلى ليفورن باحثا عن مجموعة سولت كالعقيد الذى يبحث عن كتيبته كما فعل قبل ثلاثين أو أربعين عاما نواى أو توزاى - أكسيس . وهما فى العشرين من عمرها . وعلى أرصفة ميناء ليفورن المليئة بالنشاط وبالتحديد فى مخازن الميديسيو الواقعة إلى جوار الرصيف الذى تقف عليه من فترة لأخرى مركب البريد المتجهة الى جزيرة كورسيكا ، أمضى الاسابيع الأولى من إقامته التوسكانية مبهورا

ومشغولا بفتح الصناديق ثم باعادة تسميرها يزيل الأتربة من فوق الأقنعة والأوشيبتي،
يفك شفرتها ويصنفها ويحفظها .

وكتب في ٢٧ مارس إلى الأب جاتزيرا صديقه في تورينو :

« بعد أن ألقى بي فجأة وسط كم هائل من الآثار أتيح لي فقط أن ألقى عليها نظرة
سريعة العام الماضي .. فمن الصعب على جداً ألا أبقى معها من الصباح حتي
المساء لأتعرف عليها وأسجلها في الجرد ولأنسخ تلك التي تهمني قبل أن أعيدها
داخل الصناديق لكي أعهد بها مرة أخرى إلى المادة الخائنة * (...) من الثامنة
صباحاً إلى السادسة مساء أبقى داخل المخزن الذي يضم المجموعة الغالية .

ويسعدني أن أفيدكم أن الأمور بدأت تتضح .

وضعت في الصناديق بالفعل ما هو مصنوع من البرونز وعددها ما يقرب من
ثلاثمائة : اما تماثيل أو تماثيل صغيرة أو أشكال أو حيوانات أو أنية من كافة
الأنواع [...] إنها أجمل المصنوعات البرونزية المصرية المكتشفة (...) تمكنت من
مشاهدة التابوت المشهور بكل روية : إنه بالفعل لرمسيس ميامور وهو قطعة واحدة
من الجرانيت الوردي طوله عشرة أقدام على الأقل وأرتفاعه خمسة ونصف . إنه كتلة
ضخمة مغطاة من الداخل والخارج بصور اسطورية من أغرب ما يكون وكمية هائلة
من الهيروغليفيات الشارحة لها .

يعتبر هذا التابوت أكبر التوابيت الموجودة في أوروبا »

فيما يتعلق بكشف الجرد الذي انهمك فيه بهذا الحب الجم اشار عليه جاك جوزيف أن
يكتفي بذكر الأشياء في ماديته حتى لايسرق منه منافسوه الكرام - كما حدث من
قبل - عمله في التعليق على مكونات المجموعة . وكان رد المكتشف فوراً :

« سالتزم بما أشرت به إلى فهو يبدو لي مبنياً على أسس سليمة ومبدئية إنهم
أفاكون ويجب الانضغ في أيديهم السكين لكي يقطعوا به أرجلنا إذا ما ترائي لهم
ذلك »

كان « الأفاكون » نشيطين فعلاً في باريس . فقد نشرت صحيفة تسمى
لوسبيكتاتور مقالا في الأول من أبريل شديد الخسة ، قيل أن كاتبه هو راعول روشات

* يقصد البحر إذ كان في إنتظار مركب طراون التي كانت ستقل المجموعة إلى ميناء الهافر .

« يعتب الأجانب عتابا خطيرا على اثنين من أهم علما ثنا وهما الشقيقان شامبوليون إذ يقولون أن الأخ الأكبر نسب إلى نفسه شرف حل شفرة الهيروغليفية وهو شرف يستحقه الدكتور يانج الإنجليزي أما الأصغر فيقال أنه سرق من ميسو جوليو دى سان كوينينو محافظ المتحف المصرى لملك ساردينيا شرف اكتشاف أن المصريين كان لهم نظاما للأعداد يشبه كثيرا نظامنا . يجب على السידين شامبوليون أن يدافعا عن أنفسهما » .

المؤامرة الكبرى - « الإفعوان ذو المائه رأس الذى يصفر فى زحفه » كما يقول جان فرانسوا - لم يكف عن أعماله وإن يكف . فبينما هو يخرج الآثار من صناديقها ثم يعيدها بعد أن يرتبها ويرقمها على أرصفة ميناء ليفورن ، كان الكونت فوربان مدير المتاحف الوطنية فى باريس ينشط لكى يسحب المجموعة من بين يديه ويمنع تعيينه محافظا للمتحف الذى فى دور التكوين فى حين كان جومار يتحرك مستميتا فى جميع الاتجاهات لكى يتولى هو المنصب - بصفة صاحب الأقدمية ورائد علم المصريات .

ولكن سويستان دولا روشفوكو ياور الملك لشتون الفنون الجميلة وهو ابن الدوق دو دودوقيل وهو أحد حماة شامبوليون المعلنين بت فى الأمر ولو الى حين وأكد أن جان فرانسوا سيكون المسئول عن إنزال مجموعة سولت كما كان مسئولا عن إبحارها .

ولما كانت ضمانتان أفضل من ضمانة واحدة كتب صغير فى ٢٧ إبريل إلى بلاكاس الذى لاغنى عنه ولا تعوزه الحيلة وكان لا يزال سفيراً فى نابولى :

« ... كل يوم يمر يزدنى إقتناعا أن هذه المجموعة من الآثار الجميلة كان يجب أن تؤول إلى فرنسا لتملا الصالات المصرية العارية بأكثر مما يجب فى المتحف الملكى فى باريس (...) سيكون فى استطاعة الجميع أن يقتنع بما أقوله بعد بضعة شهور (...) إلا إذا تقرر ترك الصناديق مقفلة فى مخازن اللوفر وهى الصناديق التى سأشحنها إلى فرنسا حال وصول المركب الذى كلف بذلك إلى هنا . من واجبى أن أشكر سعادتكم لما تفضلتم به من توصية وزير البلاط الملكى بتكليفى بوظيفة محافظ المتحف المصرى القادم » .

الحماية المزدوجة للدوقين دو دو دوقيل ودو بلاكاس لم تذهبه هباءا . فبينما هو يراقب شحن ألهة مصر على ظهر سفينه الشحن « لا دورانس » ويستعد للتعامل معاملة الأتراك إلى المور فيما يتعلق بالمناورات الخسيسة التى يقوم بها السفلة ... كان

أصدقاء شامبوليون الأقوياء يتحركون في باريس . فى ١٧ مايو ١٨٢٦ أعلن فيجاك بكل هدوء إلى أخيه الأصغر « الخاتمة النهائية لجميع المحن » ، فقد وقع الملك على قرار تعيين جان فرانسوا محافظا للقسم المصرى والشرقى للمتحف الملكى فى اللوفر كما عين الكونت دو كلارك مسئولا عن القسم الأغريقى - الرومانى تحت الإدارة الشاملة للكونت دو فوربان كما تحدد فيما يلى :

« كل عام ستلقى فى متحف آثار اللوفر وخلال الفصل الربيعى محاضرات عامة ويدون مقابل عن الآثار المصرية حيث تشرح نظامى الكتابة التى استخدمها المصريون (....) سيتولى هذه المحاضرات السيد شامبوليون الصغير محافظ الآثار المصرية . كما أنه سيطبق بقدر ما هو مستطاع * نظريات على آثار المتحف»

وجاء خطاب من الفيكونت دولارو شفوكو إلى جـ - ف شامبوليون ليرفع من قيمة إنتصار صاحب « الرسالة ... إلي مسيو داسيه » إلى العنان .

« كان يجب أن يعود إلى العالم المتعمق والذى فتح لنا هذا المنهل الثمين من المعارف مهمة نشرها على أوسع نطاق بين عالم العلماء ... وبالتالي فقد قرر جلالته أن تكلفوا أنتم بمهمة هذه المحاضرات وقد تفضل جلالته بمنحكم مقابل هذا وبصفتكم محافظا للقسم الثانى للآثار مرتبا سنويا مقداره خمسة آلاف فرنك تتمتعون به ابتداءً من تاريخ القرار الملكى ... لن أترك هذه الرسالة تغادر مكتبى ياسيدى دون أن أعبر لكم عن سعادتى الجمة بالعلاقات الجديدة التى ساقئيمها مع عالم على هذا القدر من التميز » .

« حمداً لأمون رع ولك أيضاً !! » لم يكن فى الامكان أن يتلقى جان فرانسوا نبأ إنتصاره دون أن يقدم القرابين إلى إله الشمس وإلى الأخ النشيط الذى عبر « نار جهنم » من أجله . وهاهو قد هدأ تماماً ولم يعد يطالب بأن يسلم له جومار أو روشات وهما موثقى اليدى والرجلين بل راح يعرض السلام على الجميع :

« ... لا بد وأنت نقلت كلمات سلمية إلى السادة دوفوربان وكلارك لأن ذلك يعتبر أول ما ينبغي عمله فى عالمنا هذا وسأكون سعيداً لو عشت بسلام مع هذين السيدين . سيتوقف عليهما حسن التعامل بيننا لأننى على استعداد لعمل كل ما فى إمكاني للوصول إلى ذلك » .

* بما يوحى بشئ من الغرابه بأن منهج المكتشف لم يكن مؤكداً

ألا أن حسن الطالع لم يوقف إنطلاقاته الكلامية . فلنستمع إليه وهو يلخص قضية المتحف في خطاب وجهه إلى جاتزيرا :

« المسرحية قسمت إلى خمس فصول :

(١) العرض بدأ ببلاغ رسمي مطابق للقواعد الرسمية (...) مقدم من أصدقائي الطيبين علي القوم في جرونوبل * (..)

(٢) الفصل الثاني : مونواوج لروشات أمام الاكاد يمية مناهض لشراء متحف سولت (...) الكورس كله حيث يؤدي جومار دور السوبرانو .

(٣) الإهتمام يزداد (...) اعتراضات الوزير الذي يؤكد أن العملية ستتم على الرغم من المعارضين ، تصل مذكرة بنون توقيع وجهه إلى الدوق دو دودوفيل وإلى الفيكونت سوستان يرد فيها أن أعماله لا تعنى شيئا وأن كل الصحف الأجنبية تسخر من منظومتي الهيروغليفية وتذكر يوميا ما تتضمنه من غباوات وجهالات لاعدلها ولاحصر .

(٤) جومار يتقدم لياخذ المكان مدعيا بالحق الإلهي . يكتشف أنه صاحب المذكرة ** يعاتبه الوزير على هذه المؤامرة الدنيئة ويرفض أن يوقع على بيان بالنفي (....)

(٥) على خشبة المسرح مجلس الوزراء ينعقد وينجح محافظ باريس في اقناعه بأن يؤدي جومار مناقشة حامية ... الدوق العظيم والفيكونت *** بلباقة مضاعفة مرتين يواجهان كل المؤامرات الموجهة ضده ويوضحان حقوق كلهما (...)

المشهد الأخير يوقع الملك على قرار تعييني : هتافات عامة

الرقصه الأخيرة وموسيقى النهاية يرقص على أنغامها روشات وجومار على لحن حزين مشهور في الخلفية »

السعادة لاتجئ منفردة أبدا . في ٢٤ يونيو بعد أسبوع من الاحتفال الغرامى فى بيزا أى بعد خمسة أسابيع من التوقيع الملكى على قرار جلوسه على كرسي المجد دخلت « لادوراني » ميناء ليقورن وفي العاشر من يونيو يكتب جان - فرانسوا لأخيه :

* حيث عاد الحديث يتردد عن « روبيسر جرونوبل »

** سبق أعيزت إلى رافول روشات وهو الاصح غالبا

*** دو دوفيل ولا روشفوكو

« ... المجموعة كلها شحنت على ظهر « لاندورانسى » ومالت أحشائها تماما وعلى الرغم من أن الحمولة ثقيلة للغاية . أكد القومندان أن مولاك وهو شاب طيب وبحار بمعنى الكلمة ويكل ما فيها من قوة أن كل شئ سيصل إلى الهاغر دون مشاكل ؟ »

بعد شهر واحد اللوفر سيجد بدوره أحشائه وقد امتلأت عن آخرها بالروائع التي جمعت في الأسكندرية وتم التفاوض عليها في ليفورن وبيعت في باريس من صاحب السعادة هنرى سولت جامع التحف الخبير المقدام . ولم يكن ذلك بالنسبة لشامبوليون سوى إتمام جزئى للمهمة ، لأن صاحب الكشف العظيم لم يكن يقبل أن يكتفى - لافى تورينو ولا في باريس بمخزن للتحف . إن ما يحتاجه هو المتحف المصرى في إطار مصرى وليس أغريقى رومانى - إلا أن هذه قصة أخرى * .

أن تكون « قضية المتحف » قد حلت وهو في طريق عودته إلى فرنسا وأن تكون مرتبطة إرتباطا وثيقا بمشروعه الكبير بزيارة مصر فيكفى لتدليل على ذلك خطاب أرسله إلى صديقه جاتزيرا في ١٤ أكتوبر :

« متحفى ينادينى بأعلى صوت للعودة إلى باريس . العمل ينتظرنى وتماثلى الضخمة والموميات موجودة في ساحة اللوفر أو في المخازن ويجب أن أكون هناك لأمنع وقوع أخطاء في زخرفة الصالات (.....) الجميع في باريس سعيد باقتناء مجموعة ليفورن ولا يوجد حديث ولا أحلام لاتتور حول المتحف المصرى وأنا على يقين الآن بانى ساقوم بعمل جميل للغاية سيسغرق منى ذلك عاما ساختتمه بكل وقار برحلة إلى مصر . وضعت خطتى بالاشتراك مع الدوق العظيم الذى هو العمود الفقرى للدراسات المصرية »

ولد ابيوليتو روسيالىنى في بيزا في أغسطس ١٨٠٠ بعد أسابيع من معركة مارنجو . حين كان شامبوليون يستعد لمغادرة فيجاك إلى جرونوبل كان الابن الأكبر لتاجر متواضع ولكنه حريص على أن يربيته تربية النبلاء وبعد دراسات في فلورنسا وبولونيا تحول إلى دراسة اللغات الشرقية بتأثير من الكاردينال ماتزو فاننى المشهور بتمكنه من العديد من اللغات ونجح في دراسته لدرجة أنه كلف بتدريسها في جامعة بيزا وهو في الخامسة والعشرين .

في هذه الفترة - أغسطس ١٨٢٥ - قدمه الدوق العظيم ليوبولد إلى شامبوليون ضيف فلورنسا حيث كان يفتش ويرتب مجموعة اثار نيتزوني ، إلا أن أسمه لا يظهر في مراسلات عالم المصريات إلى أخيه سوى في ٧ ابريل ١٨٢٦ :

* راجع الفصل التالى .

« الدكتور روسيليني وهو شاب مثقف جداً وكله حماس ، أسرع بالحضور إلى هنا قادمًا من فلورنسا حيث عرف بوصولى إلى ليفورن من الجران - بوق . إنه يمضى هنا أربعة أيام كل أسبوع بصورة منتظمة بجوار أستاذه العزيز ويعود إلى بيزا ليلقى دروسه فى الجامعة ، له قلب ممتاز ورأس عامرة بالمعارف وهو يأمل فى المحبى إلى باريس لاستكمال معارفه فى اللغات الشرقية والدراسات المصرية ، الملخص الذى إستخلصته من منظومتى محرر بشكل جيد ، إذا كانت إيطاليا محتاجة لمثل هذا العمل لكى تفهم شيئًا منه . الكسل المعهود يمنعهم من قراءة عمل ضخم لأن ذلك بالنسبة لهم صعب للغاية » .

الجملة الأخيرة تعتبر إحدى التعبيرات غير اللائقة التى يندر خروجها من قلم جان فرانسوا فى حق الإيطاليين على الإطلاق وهى تبدو أقل لياقة بقدر ما كان أول المعجبين به من البيميوننتيين أو من التوسكانيين . وها هو إيبوليتو روسيليني بعد جاتزيرا - قد نشر الكتاب الذى يشير إليه هنا وكان عنوانه بالاطالية « نظام مسيو شامبوليون الهيروغليفى موضوع فى متناول » إدراك الجميع « عنوان لا ينقصه التواضع ولعله جعل شامبوليون يأسف لأن الباريسيين جميعًا لم يصابوا » بالكسل المعهود » .

هكذا بدأت الصداقة . وإذا لم تكن الأكثر حرارة فقد كانت الأكثر ثماراً بالنسبة للمكتشف . لا نعرف أن كانت عواطفه نحو الشاب إيبوليتو كانت فى حرارة تلك التى ربطته باوجوستان تيقونيه ولكن المؤكد هو أن اعتباراً من هذا الشهر إبريل ١٨٢٦ حول ولاء وذكاء استاذ بيزا الشاب مسار حياته تماماً . وسيؤيدان دوراً جوهرياً فى تنفيذ أكبر مشاريعه على الإطلاق وهى رحلته إلى مصر فى ١٨٢٨ - ١٨٢٩ وبقدر ما كان حبه لانجيلىكا أجداً كانت صداقته لاييبوليتو روسيليني مثمرة فى مجالى العلم والحياة الشخصية . لن ترجم سخريّة المكتشف المعهودة شريكه ولن تستثنيه ولكن شيئاً لن يهز تالفاً قام فى الأساس على الاحترام والتقدير وتوافق الأفكار . جميع رسائل شامبوليون سواء الواردة من إيطاليا أو من مصر تشهد على ذلك .

أما بالنسبة لروسيليني فلدينا نص جوهري هو تحية وتقدير نشرها عام ١٨٣٢ فى ذكرى المكتشف حيث يتحدث عن « الروابط الأخوية الحميمة والأثيرة » التى ربطته بشامبوليون لأكثر من أربع سنوات علماً بأن الاثنين - وكانت عشر سنوات تفصل بينهما سناً - لم يرفعا قط الكلفة فى التخاطب بينهما وأن التوسكاني راعى بكل ما أوتى من حسٍ مرهف ومن لباقة أن يعامل صديقه الأكبر سناً كمعلم وكان سلوكه هو

سلوك-أفضل التلاميذ نحو مؤسس العلم الجديد .

أثار تطور أحداث الرحلة المصرية ، أو بالأحرى تداعيات الرحلة بعض التوتر في العلاقة . ولكن أبدأ لم يرجع سبب ذلك لهما . إننا نعرف چاك جوزيف بالقدر الكافي لكي نتصور المضايقة التي شعر بها عندما لاحظ درجة التقارب العلمي بل والعاطفي أيضا القائمة بين المكتشف وزميله ولذلك فإن سبب المبادرات التي قام بها كما سنرى - لكي يفصل بين أعمال الصديقين أو حتى لكي يجعلهما يتصارعان - هو الغيرة الأخوية أكثر من كونها ردود فعل وطنية - وسنعود إلى الحديث عن ذلك فيما بعد .

بالفعل بدا أسم روسيليني يتردد أكثر فاكثُر في رسائل چان فرانسوا مرتبطا في كثير من الأحيان باسم الدوق الأعظم عاهل توسكانيا وكان شامبوليون يقدر تذهقه لعلم الآثار حق قدره وكذلك سياسته الليبرالية التي يمارس بها السلطة . في يونيو ١٨٢٦ كتب شامبوليون بالهيريوغليفية نصا على شرف ملك فلورانس ليوضع في المتحف الجران - دوتى .

كتب تحت الخرطوش الذي يحتوى إسمه « GALLERIA GRANDUCALE » عاهل شديد الكرم « يمكن أن نتصور أن هذا العمل الذكي من جانب الأستاذ الزائر إفتتن به عاهل توسكانيا ودفعه إلى أن يمنح روسيليني - محسوب عالم المصريات - جميع الأجازات التي يطلبها هذا الأخير لاستكمال التعاون الذي بدأ بهذه الصورة الممتازة .

بينما هو يغادر ليفورن إلى روما و نابولي و بولونيا والبندقية وميلانو في يوليو ١٨٢٦ كتب چان فرانسوا لچاك جوزيف يفيد به بان أولى محطاته ستكون بيزا حيث سيحل ضيفا على عائلة اييوليتو روسيليني وأن هذا الأخير سيصطحبه طوال رحلته الإيطالية الثانية قبل أن يلحق به في باريس في شهر نوفمبر . وفي ٥ أكتوبر كتب إلى الجران - دوق ليشكره على « كرمه الزائد » وعلى الأسلوب الإطرائي « الذي استقبله به علماء توسكانيا ويضيف شامبوليون مادحا « الرفيق الدمث » الذي لازمه بفضل صاحب الجلالة وعاونته في روما و نابولي و ليفورن :

« سمح لي ذلك أن ألتس حب الاستاذ الشاب للدراسات المتعمقة وتفانيه الكامل للعلوم واتيح لي أيضا أن أقدر فضائله الكريمة . المتميزة أفضل تقدير (..) علم الآثار المصرية حقق في شخصه إنتصاراً مثمرا ولعله من المفيد أن يتمكن من مواصلة الدراسات التي تنوق منها سحرها الجذاب (..) أن إقامته في باريس

لبضعة شهور ستكمل ما سمح كرم جالاتكم الامبراطورية أن يبدأ ، وسيجد مسيو روسيليني في أساتذتنا في الآداب الشرقية رجالا على استعداد تام لأن يفتحوا أمامه كل الكنوز الأدبية التي تعتر بها عاصمتنا .

في رده المؤرخ ٩ أكتوبر ١٨٢٦ يعرب ليوبولد الثاني عن « تأثره » إزاء هذا الكرم الحنون بل أقول أيضا الأبوى نحو الاستاذ الشاب الذي تأثر لذلك لدرجة البكاء .. « وإذا يعبر عن اعترافه بالفائدة التي عانت على توسكانييا من أعمال « المكتشف الذي ينشر الاستنارة فيها بهذا القدر العظيم فهو يضيف إنه يسمح لمسيو روسيليني بالتغيب عن الجامعة ليذهب إلى باريس حيث سيتيح له تعمقه في اللغات القديمة « القاء الضوء على الأزمنة المجهولة ووضع الحقيقة البسيطة مكان هذا الكم الضخم من الأخطاء والإفتراسات الغبية » .

هكذا نرى أن بلاط فلورنسا كان أقل تشككا في « الحقيقة البسيطة » من بلاط فرنسا وكيف لا يتأثر شامبوليون بحق من مثل هذا الكلام ؟
لابد وأن التوسكانيين كانوا طيبين يستحقون مليكا على هذه الدرجة من حب الاستنارة .

لم يعد لحماس جان فرانسوا نحو التوسكانيين - ملكا أو استاذا - أي حدود فكتب بعد أربعة شهور إلى ليوبولد الثاني أن بعد نظره الكريم « أسرع من مجئ اللحظة التي ستصل فيها الدراسات [المصرية] الى هدفها النبيل . أن موضوع هذه الدراسات على درجة من الاتساع والفخامة بحيث أنى أشعر في ذات الوقت باستحالة عمل كل شئ بذاتي فقط وياحتياجي لمعاون في مثل ما عليه مسيو روسيليني بحق من تقان نحو العلوم » .

نضجت فكرة المشروع الضخم بالقيام بحملة علمية أوروبية إلى مصر بينه وبين روسيليني . في هذا المناخ الفكرى ساهم التعاطف الذي كان يديه عاهل فلورنسا نحو شامبوليون في أن زادت ثقته في المشروع الذي أخذ يتبلور في يونيو في ليفورن لحظة وصول مجموعه سولت إلى الميناء . فكتب جان فرانسوا لآخيه عن « متحفه » :

« يجب أن ينتهى كل شئ في شهر سبتمبر ١٨٢٧ لكي أنفذ مشروعا سارسى أولى أحجار أساسه خلال لقائى القادم في نابولى او روما مع الدوق دو بلاكاس . لعك أدركت أن الموضوع هو مصر . هناك فقط يمكننى الانتهاء من كل شئ . لعك ستقتنع مثلى بضرورة هذه الرحلة عندما أشرح لك لدى عودتى من إيطاليا جميع

الفوائد التي ستعود من هذا المشروع سواء بالنسبة للعلوم أو بالنسبة لسمعتي الشخصية . علق حكلك إلى ذلك الحين وستحدث في الموضوع بعد شهرين ...»

زاد المشروع تبلورا خلال محادثاته مع الدوق دو بلاكاس . إلا أن سفير شارل العاشر كان يدرك صعوبة أن يحصل من باريس على تمويل المشروع الذي كان يريده أن يتم بأى ثمن . أما شامبوليون فكان على يقين من أنه يتمتع سواء في تورينو أو فلورنسا بحلفاء أقوياء . كان عليه أن يركز كل مجهوده على التذرع بمشاركتهم لكي يحصل على تأييد البلاط الفرنسي .

كان قد تعرف في نابولي وصادق عالم مصريات إنجليزي هو سير وليام چال سوف يساعده كثيرا ، كما أنه استقبل في فلورنسا شخصية فريدة تسمى كاثيليا وكان يدعى وأن بإمكانه « كشف أسرار ممفيس » خلال حفريات تتم على ضوء القمر إلا أن هذا الشخص غريب الأطوار أرسله إليه هنرى سولت ذاته - القنصل الإنجليزي صاحب المجموعة الذي كان يضغط عليه باستمرار لكي يلحق به في مصر . وفي توسكانيا أيضا تلقى تشجيعا من العديد من دارسي الآثار الهواة مثل اليساندرو ريتشى والكونت مونتالقي ياور ليويولد الثانى ومن تورينو جائه التعضيد من الكونت كارلو فيدوا الذي سبق أن تعرف على وادى النيل .

فحيثما ذهب منذ ذلك الحين أو ما أن قابل فردا مثقفا أو صادف نظرة صديقة الا وعرج الحديث فوراً على الرحلة العظيمة وعلى جانبها « الأوروبى » . وعندما تعرف في نابولي على المهندس المعماري أنطوان بيبانت طالباه - شامبوليون وروسيليني - بمصاحبتهم في رحلتهم إلى مصر

كتب إلى چاك جوزيف في ٩ سبتمبر أن « الدوق دو بلاكاس سيصل بعد عدة أسابيع إلى باريس وسنبدا على الفور تنفيذ عملية مصر . حتى ذلك الحين مهد الطريق حول ضرورة هذه الرحلة» تركه روسيليني في ميلانو ولكن بعد أن حدد معه المواعيد المؤكدة للدراسة في باريس ومن أجل الرحلة الإفريقية العظيمة . ثم بعد شهر وإذا هو يستعد لعبور حدود إيطاليا العزيزة على نفسه التي لن يراها أبداً بعد ذلك كتب إلى أكثر مؤيديه ولاناً في هذه الناحية من جبال الألب كوستانز وجاتزيرا :

« هل أنت من الذين يمكنهم اصطحابى إلى طيبة في حالة حصولك على المال اللازم من حكومتك ؟ ساكتب عن قريب رسالة لكوستا أوضح له الخطة الكاملة الخاصة بحمله علمية أوروبية تم إرساء أسسها القوية بمعرفة شخصيات لها تأثير قوى في

مختلف الدوائر الملكية . يمكنكما أنتما معاً البحث فيما يمكن لبلاط بلدكما أن يفعله في هذا الصدد . فهل يمكن أن يتخلف عن هذا المشروع وهو الذي يملك أحد أهم المتاحف المصرية ؟ لا أعتقد ذلك . هل ستتركاني أعبر مصر دون أن تشاركاني سعادتي والاكتشافات الهائلة التي يجب أن تتم هناك ؟ لا أعتقد ذلك أيضاً»

ولكن روسيليني سيفرض نفسه منذ ذلك الحين كشريك أساسي في الفريق الذي سيقوم بهذه الرحلة الكبرى . يجب ملاحظة الدقة التي سيتعامل بها شامبوليون والاعتناء بتنظيم مجيئة إلى فرنسا لكي يتأكد من مختلف مراحل سفره واتصالاته وخطابات اعتماده من ميلانو إلى تورينو ومن أكس إلى ليون تماماً مثلما يفعل فيجاك مع «صغير» .

بلغت درجة إهتمامه هذه درجة أنها بدأت تضايق أصدقاء المكتشف السابقين مثل چاك - جوزيف وجاتزيرا وبيرون الذين بدأوا يرفضون المكانة التي بدأ يأخذها ذلك الذي بدا كما لو أنه ولي عهد «المصري» . ألم يضم بترقيته إلى مرتبة « الشريك » - مثلما يقول الدكتور يانج ؟

سيقول جاتزيرا إلى شامبوليون في إحدى رسائله أنه يجد الشاب « أقل تواضعاً بكثير من معلمه » . ملحوظة غريبة تدفع إلى الاعتقاد بوجود نوع من الغيرة - العلمية أو العاطفية - أو بين بيمبونتى وتوسكاني هي التي دفعته إلى كتابة ذلك .

لم يتأثر صاحب الكشف من ذلك وإذا حدث أنه عنف الشاب وخاصة بسبب سلوكه الأحق مع النساء فيجب أن تقرا رسائله التي كتبها في تلك الفترة وخاصة تلك التي أرسلها إلى عاهل توسكانيا الدوق الأعظم في ٣ مارس ١٨٢٧ والتي يصف فيها التقدم الذي يحرزه في دراساته مع توساسى وداسييه وهو شخصياً « الطالب الشاب المتحمس اييوليتو روسيليني » .. والتي يؤكد فيها « احتياجه لمعاون متفان في حب العلم مثلما هو الحال بالنسبة لمسيو روسيليني » .. لكي نتعرف على أهمية التحالف بينهما . ظل عالم المثقفين الباريسيين يثير غضب عالم الآثار المصرية ففي المقابل ظل تلميذه القادم من بيزا يجسد في عينيه إيطاليا العزيزة جداً على قلبه . وفيما يختص برحلته العظمى التي أخذت تملأ كل أحلامه فما أفضل أن يكون زميله فيها رجل شاب في أتم صحة وعافية ؟

وهكذا أصبح الشاب التوسكاني الذي أثبت على الفور أنه بعد جاتزيرا - وچاك جوزيف بالطبع - أكثر مؤيديه حماسة وإصراراً - العامل المساعد لسرعة تبلور الهدف

الأسمى . وأصبح التناقض الغريب فى التقريب بين أحداث الزمن وتواصل القرون فى أن يبقى صاحب الكشف بعيداً عن أرض مصر علماً بأن أربعة أعوام كاملة كانت قد مرت على تحريره « الرسالة إلى سيوداسييه » هذا التناقض أوشك على أن يزول . فقد بدأ أعضاء الرحلة مراجعة الخرائط التى « ستكشف لهم الطريق إلى ممفيس وإلى طيبة مروراً من تورينو وليفورن وفلورنسا ليصب فى النهاية فى وادى النيل ،

فى إيطاليا أحب امرأة لم تحبه . إلا أنه غنم بصداقة بعض رجالاتها (ونسائها) . ظل أحدهم وهو ابيوليتو روسيليني مرتبطاً بمصيره أكثر من أى رفيق آخر فى حياته فيما عدا أخوه وأجوستان تيفونى .

هل هو إذن مستعد لفرد القلاع ؟

كلا إذ قبل أن يكتشف مصر يتعين عليه أن يكشف أسرارها للآخرين .

١٥ - أمين متحف ذو نعال من ربح

الاندفاع حيث يوجد الذهب - شارل العاشر ونابوليون - معركة بسبب مسمار - مذاج مسيو فوربان - المتحف والتاريخ - من باسالاكوا إلى لروقيتي المغامرون يبحثون عن مركب - هزم في الأكاديمية ! ... إلى الشرق المعقد

في بداية القرن الثامن عشر لم تكن توجد مجموعة آثار متحفية مصرية حقيقية . في كتابه « ايزيس أو البحث عن مصر المدفونة » يوضح بيير مونتى أن « مكتب الملك لم يكن يضم حتى ذلك الوقت سوى ست عشرة قطعة مصرية * وأن باقى المجموعات الأوروبية لم تكن أكثر حظاً » .

بدأت فكرة المتحف تظهر إبان الثورة وفكرة المجموعة المخصصة لمصر مع الحملة على مصر . وكان أعضاء اللجنة والانسيتيتو (أو معهد مصر) قد جمعوا أحجاراً منحوتة وأبوات جنائزية وموميوات كان من المفروض أن تشكل مع حجر رشيد نواة هذا المتحف لولا أن ظروف الحرب انتزعت منهم هذه الأشياء لصالح المتحف البريطانى كما شاهدنا من قبل .

وبدلاً من الأشياء الملموسة ، منحت فرنسا نفسها متحفاً خيالياً عظيماً هو « كتاب وصف مصر » والذي واكب ظهوره - كما يلاحظ سيلفيو كورتو في كتابه « تاريخ متحف تورينو » - تكوين معظم المجموعات المصرية داخل كبرى المتاحف الأوروبية .

ومن عام ١٨١٠ حتى ١٨٣٠ أصبحت مصر مسرحاً لصراع شرس بين « جامعي التحف » الذين إندفعوا نحو الآثار مثلما فعل الباحثون عن الذهب بعد ذلك نحو مناجم كلوندايك (في كندا) . هؤلاء الرجال الذين سيعطون أسمائهم إلى المجموعات التي سينقضون عليها كالجوارح ، كانوا من المغامرين من نوع خاص : علماء آثار بالصدفة ، يدفعهم الأمل في الكسب المادى . والعديد منهم سيجمع ثروات هائلة . إلا أن الولع الذي يحركهم كان مصدره أيضاً حب المغامرة والاكتشاف وتذوق الفن بل إرضاء رغباتهم فى أمداد العلم بالأبوات التي يحتاجها كشف سر حضارة ظلت غامضة حتى بعد كشف ١٨٢٢ .

* انظر التمهيد ص 25 ، ملحوظة ميشيل دو فاشنار

وهكذا إندفعوا فى عمليات نهب لاهوادة فيها للثروات التاريخية التى لم يكن يفكر أحد بعد فى الحفاظ عليها . معظم هؤلاء الجامعين للتحف كانوا قناصل معينين من بلادهم فى مصر يحركهم فى أغلب الأحيان ملوكهم الذين كانوا يبحثون عن المجد أو عن الهيبة . كما كانوا يتمتعون برعاية محمد على * الباشا ذى السلطات المطلقة والذى كان يريد إقامة علاقات صداقة مع القوى الغربية بأن صرح بهذه السرقات .

سبق أن تكلمنا عن الدور الذى لعبه دروفيتى قنصل فرنسا وسوات قنصل إنجلترا ولكن الجنرال ميتوتولى المكلف بمهمة من ملك بروسيا أيضا وكذلك نيتزولى ثم أسيرى اللذان تتابعا على رئاسة قنصلية النمسا وانا ستازى قنصل السويد والنرويج كانوا ينقبون هم أيضا بكل حرية وكانوا فى نفس الوقت يقطعون الطريق على التجار وهواة الآثار الذين لا يتمتعون بنفس المزايا .

فى فرنسا كان علم المصريات الوليد يتمتع برعاية تثير الدهشة . فاسرة بوربون الحاكمة التى كانت لاتميل كثيرا إلى الأخذ بفلسفة التنوير لم تتوقف قط عن التعبير عن رعايتها الكاملة للأبحاث الخاصة بحضارة وادى النيل ، ذلك على الأقل من خلال نبلاء كبار يتمتعون بالرعاية المستمرة مثل بلاكاس وبوبوفيل ولاروشفوكو - دون أن يمنعهم ذلك من السماح لأفراد مثل كوربيار أو فوربان أو كلارك بأن يشنوا حرب عصابات ضد هؤلاء لأسباب لم تكن كلها تستهدف الاقتصاد فى النفقات .

الشخصية الرمز - بل والضامن أيضا - لهذا الإفتتان كان دون شك الملك شارل العاشر . أن يتمكن ملك ذو ثقافة محدودة جداً وذكاء قليل وفى نفس الوقت مرتبط رمزياً بجذب « طافئى الأنوار » و « الرداء الأسوء » ورجال الدين عموماً ومن اعطاء كل هذه الضمانات على إهتمامه بحركة علمية وجمالية تهدد التعاليم الكنيسة كما تراها حركة الإصلاح المضاد السائدة حينذاك وتهدد أيضا رؤيا للعالم قائمة على سيطرة الأسر الحاكمة فى الغرب كل ذلك يعتبر من ألباز عهده ولا تجد ردا يفسر هذا السلوك سوى إهتمامه الذى سيحده فى مذكرة كتبها سوستان دولا روشفوكو وعبر فيها عن ذلك بذكاء - كما سنرى فيما بعد - « بالشرف » الأدبى لفرنسا وهو ذات الإهتمام التى جعل الملك الذى الغى من قبل قانون نانت * يحمى مؤلف طرطوف *** ربما

* معظم المؤلفين الأوروبيين يعطونه لقب نائب الملك ، ونحن نفضل عليه لقب محمد على باشا مصر . فهو لم يكن الحاكم ولكن مندوب السلطان محمود فى من القسطنطينية - استنبول)

** Edit de Nantes قرار اتخذه الملك هنرى الرابع فى فرنسا يحمى البروتستانت عام ١٥٩٨ والقاه الملك لويس الرابع

عشر (١٦٨٥) مما تسبب فى فظائع ضد البروتستانت وهدم معاينهم مجرة حوالى ٢٠٠.٠٠٠ بروتستانت إلى ألمانيا وسويسرا (المترجم)

*** مواير [المترجم]

كان الأصح هو « الشرف الأدبي للملكية » ! هل كان من المقبول أن يبقى الاعتقاد السائد هو أن مصر كانت آخر ممالك نابوليون ؟ لفرنسا ولأوروبا كلها حولت نظرها عن مصر منذ وفاة صاحب إنتصار الأهرامات ومخترع حجر رشيد وراعى كتاب « وصف مصر » وقيطان دونون والشقيقتين شامبوليون فى جزيرة سانت ايلين ، وكان سحر مصر لايزال عالقا فى الأذهان ويرجع إلى نابوليون بوناپارت فى كثير من الأحيان أما المجتمع العلمى الذى ظل يحتقر « الغنائم المصرية » لفترة طويلة ويقلل من قيمتها. الحزب الإغريقى ويؤيده فى ذلك كل من فشل فى حل معضلة الهيروغليفية واسرارها وهؤلاء الذين كانوا يخشون من النتائج « الفلسفية » التى قد تترتب على مثل هذا الحل للشفرة ، كل هؤلاء قرروا فى نهاية الأمر أن يؤيدوا إكتشاف عام ١٨٢٢ . دون أن يمنعهم ذلك من الاستماع إلى منتقديه .

راح الجدل ينتشر فيغذى الاهتمام بالعلم الجديد الذى انتشر بين رأى عام تثيره فى ذات الوقت الاسرار و الأجواء الشرقية الغامضة والمشاحنات الجدلية فى وقت كان كل ما يخص السياسة موضوعاً تحت السيطرة ولم يكن الجدل يقوم بين صحيفة ونشرة أو بين مجلة وإنسيكلو بيدا بل كان يجرى بين لندن وباريس وبين فلورنسا وبرلين ، وبين روما وتورينو . نضيف إلى ذلك قصص الرحلات والصراعات بين مؤيدى رجال الدين ومؤيدى التفكير الحر بين الفلاسفة ورجال الدعوة الدينية حول صحة الزودياك (الأبراج السماوية المرسومة فى سقف معبد دندره) وحقيقة الإكتشافات العلمية وجمال القطع التى جلبت من مصر بالطبع بالتأكيد كان على الملك إن أراد أن يصبوا إلى المجد أن يساير التيار . باختصار عندما عاد جان فرانسوا شامبوليون من إيطاليا تحوط رأسه هالة النجاح الذى أحرزه بخصوص حيازة مجموعة سولت ويعززها تعيين مديرا للآثار المصريه فى اللوفر والذى يسمى عن حق متحف شارل العاشر وهو فى غاية الحماس لرحلته العظمى إلى مصر - كان يحق له حينذاك أن يشعر أخيرا أنه نبى فى وطنه . ألم يمنحه حماس الإيطاليين التتويج الذى ظل التمتع الفرنسى يرفضه له منذ خمس سنوات ؟

ومع ذلك غادر « صغير » جرونويل متجها إلى « قذورات بابل » تراوده بعض المخاوف فى نهاية أكتوبر ١٨٢٦ وذلك لعدة أسباب : فبعد أن عبر حبال الألب وفى قلبه

حنين إلى مافات ، شعر بالهناء في الدوفيينه على الرغم من المضايقات التي صادفته بسبب أزمة نقرس في قدمه اليمنى والتي أرجع سببها تارة الى تيارات الهواء التي تعبر مكاتب فلورنسا بكل قوة ، وتارة أخرى لهواء « جبالنا » الرطب ، وقد شكّا ذلك لزليير : « لا أحد في الأسرة أصيب بهذا الداء الذي يخص الشيوخ والذي كان فيما سبق يختص بزيارة كبار النبلاء وما هو اليوم ينقض على رجال الفكر : لابد أن يكون ذلك من نتائج الثورة ! ... » .

في ثيف حقق اكتشافاً جديداً : هي ابنته . كانت زورايد قد بلغت ثلاثين شهرا من عمرها وكانت طفلة ساحرة وكتب إلى زليير يقول لها :

« تأكدي أنني سأترك زورايد تمتع بكل سعادة الطفولة . إنه سن سعيد وقصير لدرجة أنه يصبح من البربرية أن نقطر عليها بما يمنحه لها من امتيازات » .
إلا أنه سيوقف مراسلاته مع انجيليكا أثناء إقامته في ثيف .

هل بسبب معاملة الليقورنية له قد أصبح أكثر تسامحا مع روزين ... ؟

..ويقول لچاك - جوزيف الذي إشتكى من إحدى رسائل زوجة أخيه إن « القلب عند زوجته أفضل من القلم » .

وهو إذا كان حزينا لدى وصوله إلى باريس فإن ذلك كان يرجع دون شك إلى أنه إضطر إلى ترك إبنته وظلال ثيف القريبة إلى قلبه وأصدقاء جرونويل الذين أثبتوا ولا نهم له بصورة براءة .

وإيضاً لأن النقرس لازمه طوال الرحلة إلى باريس .. ولكن الأهم هو أن المهمة التي كلف بها وهي إنشاء المتحف المصري ستجعله في وضع يضطر فيه إلى مواجهة « العصابة » التي ظل يضخم من حقدّها عليه وأيضاً من سلطاتها من جديد .

ولكن إذا كان قد وجد في ايطاليا مريدين يناسبون قلبه ، فأن له في باريس أصدقاء وحلفاء وحزب قوى من الأوفياء ومن المدافعين عنه ومن يحمون شخصه . هل توجد ضمانات أقوى من ضمانات وزير البلاط الملكي الدوق دو دودوفيل ؟ وما هي الحماية الأنشط من حماية الفيكونت سوسنان دولا روشفوكوياور الملك للفنون الجميلة ؟ ومن هو الأب الروحي الأكثر حناناً نحوه من مسيو داسييه ؟ ومن هو الحليف الأفضل من مسيو دوفيرو ساك مدير صحيفة « لو بولتان او نيقرسال » الذي كان ينشر مرافعاته ودفاعاته ومرافعات چاك - يجوزيف ؟ كل هؤلاء ومعهم أيضاً بلا كاس ولا ولي العهد الدوق دانچولام .

لقد ذكرنا كثيرا المضايقات التي إستهدفت صاحب الإكتشاف لدرجه أننا نسينا صلابه ووفاء وحماس مؤيديه الذين أحاطوا به مثل الحرس الإمبراطورى . ولكن يبدو أن بسبب ما يمكن تسميته خلافاً فى الفكر واحساس بالإضطهاد أخذ يرى الآخرين دون سواهم وخاصة جومار و روشات وكاترومار كلايروث وسيفارت وحوليا نوف ويانكس وسان كوينتينو ولا نسى .

كان يتصور أن مهمته العظمى الرسمية الأولى وهى إنشاء القسم الثانى « للتماثيل والآثار القديمة » لمتحف شارل العاشر الذى يكمله إلقاء المحاضرات عن « علم الآثار المصرية » لابد وأنها ستثير حوله المؤمرات والعوائق . لدرجة أنه عندما تولى وظيفته فى اللوفر تحت رئاسة الكونت دو فوربان مدير عام متاحف فرنسا إلى جانب الكونت دوكلراك مدير القسم الأول فى المتحف المخصص للآثار الاغريقية الرومانية . كتب إلى روسيليني فى ٢٠ نوفمبر ١٨٢٦ رساله تشبه طلب النجدة :

« لك أن تتصور رجلا محبا للراحة والهدوء وجد نفسه فجأة * ملقى بسبب الواجب وسط مؤامرات وترتيبات موجهة ضد شخصه ودراساته . أصبحت حياتى صراعاً . إنى مضطر إلى إنتزاع كل شىء لأن أحداً من بين الذين يجب عليهم مساندتى غير مستعد لأن يفعل ذلك . إن وصولى إلى المتحف يضايق الجميع وكل زملائى يتأمرن ضدى لأنى بدلا من إعتبار مركزى وسيلة للراحة رأيت أن أهتم بالقسم الذى أديره وذلك سيكشف للكافة أنهم لا يهتمون بأقسامهم . هذه هى عقدة المشكلة . احتاج لمعركة للحصول على مسمار.»

« الجميع يتأمر » ضده ؟ يمكن لنا أن نتصور أن وصول هذا العبقري البركانى الشخصية وسط الجو العام الهادئ والمريح الذى كان يميز عالم متاحف ذلك العصر والذى كان ينتمى إلى ثقافة الصالونات أكثر من إنتمائيه لعالم العلوم ، كان لابد بالفعل إن يتسبب فى العديد من المصادمات وأن يقلق راحة العديد من الناس .

(عالم الصالونات هذا يمثله أصدق تمثيل العزيز فيثان دونون)

وهو إن « أقلق » أحداً فإن أكثرهم قلقا كان چامور . لوميسير الحكومة داخل «لجنة مصر» وهو أنضم منذ بداية عودة الملكية إلى أسرة البوربون وكلف على الفور بمهمة إحضار نسخ من القطع التى وقعت فى أيدي الإنجليز فى عام ١٨٠٢ ووضع فى البريتش ميوزيوم وتزامن ذلك مع فترة عودة نابوليون « المائه يوم» . وهناك نبتت

* لا « محب الراحة » ولا هذه « الفجاءة » تتفقان مع الواقع الصحيح .

فى ذهنة فكرة تكوين « مجموعة آثار » ورأينه قد قام باتصالات فى هذا الشأن مع دروفيتى .

يتضح إذن أن چومار كان أول من حاول أن يبلور الفكرة إذا لم يكن هو صاحبها ونذكر بذلك بصورة أفضل الأسباب التى أثارت حقه على صاحب الكشف .. بعد « الرسالة الى مسيو داسييه » كان يجب عليه أن ينحنى أمام تفوقه العلمى ولكن يمكن أن نقدر أنه لم يتمكن من التسامح معه لأنه صادر منه المتحف الذى كان هو صاحب فكرته وذلك ماتؤيده فيه بعض الأدلة . وجاء فى ملحوظة لأحدى رسائله التى كتبها فى ٢٢ مارس ١٨٢٦ ما يمكن أن نطلق عليه صرخة من أعماق القلب إذ قال « ألم يكن فى إمكانه أن يحصل علي كرسى الأستاذية دون أن يستولى على ممتلكات الآخرين ؟ »

ومن هنا كان السبب وراء ملاحقاته المستمرة دون هوادة لشامبوليون وبعد أن نال هذا الأخير ما أراد ، وجد نفسه فى مجابهة داخل القلعة - مع أعداد لم تكن الرحمة من سماتهم . وعلى الرغم من معرفتنا المسبقة بالحساسية المفرطة لشامبوليون إلا أنه يتعين علينا أن نقر أن حياته داخل اللوفر مرت ببعض التجارب المؤلمة .

أقل ما يمكن أن يقال هو أن السعادة لم تكن الشعور السائد فى نفوس الرجلين الذين سيتعاون معهما . وتذكر أن قبل ستة شهور غداة تعيينه كان قد كتب إلى چاك جوزيف أنه يأمل أن يسود السلام والتفاهم بين فوربان وكلاراك . إلا أنه لن يحصل على السلام الكلى وأقل من ذلك على التفاهم . لن تتفق أبداً نظرة الرجال الثلاثة فى أى مجال من المجالات . ولذلك فإذا كانت تربية فوربان الراقية وكذلك الضغوط التى تعرض لها من لاروشفوكو قد هيئت مناخاً من التعاون والمقبول إلا أن المجادلات لم تتوقف قط بينهما . لم يكن السبب وراء ذلك أن فوربان كان فى تفاهة شخصية مثل راعول روشات أو فى حقد چومار - بل إنه كان ذا شخصية نبيلة وصفها معاصروه بالاجماع بأنها « مكتملة » .

مسقط رأس فوربان كان فى لاروك - دانتيرون فى مقاطعة منابع الرون . والده كان يسمى بالاماد (فقد حياته تحت المصقلة فى مدينة ليون) وكان بهى الطلعة وفنان مصور غزير الانتاج ومتحدث لبق وكاتب سلس الأسلوب تميز بالشجاعة فى ساحة القتال مما أتاح له أن يصبح باروناً من بارونات إمبراطورية نابوليون . ظل من عشاق شقيقة هذا الأخير بولين - وهذا يعتبر رقماً قياسياً بالنسبة لبرنسييه من

آل بورجيزى هذا الرجل السعيد كانت موهبته أن يكون سعيدا حتى أنه عبر دون أيه عوائق الحدود بين مرحلتى الأمبراطورية وعودة الملكية وحل فى عام ١٨١٦ محل فيثان دونون كمدير عام لمتاحف فرنسا .

علاقاته بجان فرانسوا شامبولىون بدأت بداية حسنه فى إيطاليا حيث ذهب مدير المتاحف للقاء معاونه اللامع . وإنجاز فوربان بكل تقدير لفكرة حيازة مجموعه سولت . والتي كانت تعنى فى ذلك الوقت ترقية عالم المصريات إلى جانبه ، إلا أن العديد من الأشياء كانت تفصلهما فلم يدم التفاهم بينهما طويلا .

لم يكن الكونت فوربان يحتمل أن يسمع محاضرات تلقى عليه عن مصر التى زارها عام ١٨١٨ من رجل لم يذهب إليها قط .

وعلى الرغم من كونه أقل حساسية حول هذا الموضوع من جومار إلا أنه كان يتدرج باقدميته فى هذا المجال بان كان يتفاخر بسرد لرحلته كان بالفعل منمقا ، وببضعة لوحات تصويرية إدعى أبوته لها علما بأنه لم يكن هو الذى رسم الوجوه التى تظهر فيها . إذ كان يترك تنفيذ ذلك إلى متخصصين على قدر كبير من الشهرة مثل فارنية أو چيرار . « عبيد » فخورين بانهم من تابعى مثل هذا النبيل العظيم

كما أن فوربان يتفاخر من جهة أخرى فى المواجهة مع شامبولىون أنه من رواد المتاحف المصرية إذ أنه كان اشترى فى مدينه إكس عشية سفره إلى مصر العديد من القطع الاثرية التى كانت تضمها مجموعة سالبية - ومنها باروليف لكهنة إلاله بتاح - ثم وهبها إلى اللوفر . وأبان شراء مجموعة نوران التى كانت تضم ألفى قطعة أثرية صغيرة والتى شكلت أصل مجموعة اللوفر ، قبل شراء مجموعة ليفورن ، كان قد اقترح إنشاء متحف للمصريات يوضع تحت إسم شارل العاشر وكتب يندد برفض الحكومة شراء مجموعة دروڤيتى قائلا « إن الأفكار الضيقة للاقتصاد فى الأنفاق تعتبر بمثابة وفاة الحقيقة فيما يتعلق بالثروة الوطنية » (1) وكان شامبولىون بالطبع متفقا معه فى تلك النقطة .

ولكن كان هناك عدم توافق جوهري بينهما فى رؤاهما الجمالية . فى إحدى الروايات التى نشرها بعد ذلك بفترة قصيرة تحت عنوان «لورد باريمور » جعل فوربان أحد أبطال الرواية يقول أن معبد بايستوم ثقيل الظل وقليل التناغم فى خطوطه . فإذا تذكرنا أن هذا المبنى كان يمثل بالنسبة لشامبولىون أسمى تحية قدمها الأغريق للفن المصرى - أمكننا أن نقيس عمق التناقضات التى كانت تفصل بين الرجلين .

علاوة على ذلك كان فوربان غيوراً على سلطاته ويرى أنه وحده الذى يجب أن يختار معاونيه من موظفى الدار . ولذلك كان أول صراع بين الرجلين بسبب قرار إتخذه شامبوليون بتعيين صديقه جان - جوزيف دوبوا فى وظيفة رسام . حاول فوربان الاعتراض على ذلك فراجع صاحب الكشف لاروشفوكو فى ذلك فحصل على تأييده فى طلبه . ومن هنا كان رد الفعل الحاد لمدير المتاحف وكان نزيه شؤم لما تلى ذلك . فكتب للاروشفوكو :

« ... اضطرت لأن أرفع لكم الجوانب السيئة لهذا التعيين الذى لامثيل له فى الإدارة والذى يهددها بأن تتنامى دون جدوى وفى تضاعف اليات العمل التى ستهدم وحدة المسار إنى أستجيب اليوم لخطابكم الذى تطالبونى فيه بأن أقترح عليكم الموافقة على تعيين مسيو دوبوا كرسام للآثار المصرية فقط ليتولى تحت رقابة مسيو شامبوليون الأعمال التحضيرية وترقيم وترتيب الآثار المذكورة » .

« هذا النوع من اللدغات لن يتوقف أبدا لدرجة أن جان فرانسوا عبر لأصدقائه عن خشيته من أن يعتبره فوربان وكلاراك « لعنة مصرية جديدة » ومن أن يكمل الوزير بسبب كل تلك المؤامرات الخسيسة على الرغم من حسن رعايته له - غير أن بقية ردود فعله حول عمله كمدير متحف مبتدئ لم تكن كلها على هذه الدرجة من التشاؤم فلنستمع إليه وهو يفضى بما فى نفسه لصديقه الأب جاتزيرا فى نوفمبر ١٨٢٦ :

« عندى قاعة عظيمة فى الدور الأرضى أخصصها للقطع الضخمة وأربع قاعات فى الدور الأول فى القصر . ها أنا إذن وسط النقاشين والمهندسين والبنائين والأمور تسير بصعوبة ولكن لا بد أنك تصورت أنى الأقى (بعض العداوات) من قبل بعض الأشخاص الذين يسمحون لأنفسهم بعدم قبول أصرار كل من الدوق دو ودوقيل والفيكونت دو لا روشفوكو على مساندتى ويعترضون وسيعترضون على الدوام بأن يقيموا ألف عائق صغير فى طريق عملى الذى سيسيروا وسيكون ما يجب عليه أن يكون . إنى أناضل كل يوم قدر طاقتى .. ولكن النجاح حليفى مادام الدوق الممتاز دويلاكاس موجودا فى باريس وأخذ بين يديه إدارة شئونى ... فليحفظه لنا أمون رع العظيم » .

ولكن هاهو بعد ستة شهور يعود إلى شكايه وكتب إلى سويستان دولا روشفوكو فى ٢١ يونيو ١٨٢٧ يشكو من أن المتاح له فقط بجوار الساحة المربعة الداخلية هما قاعتان صغيرتان وممر وشئ يشبه القبو (...) أرضية من الطوب الأحمر ... ثم إنه صارع حتى يتفادى أن يكون طراز ديكور « قاعاته » أفريقى رومانى - كما حارب - للأسف - لكى يفرض أسلوبه فى لصق البرديات على ورق مقوى وهو ما منعه سان

كوينيتى من تحقيقه فى اليبيمون . ولذلك كتب يقول « حشرات باريس تحسد الحشرات الدودية فى تورينو التى تلتهم بهدوء برديات دروئيتى » .

مدير القسم المصرى لن يتفادى أيا من هذه الفرص التى يصطدم فيها بزملائه أو بالببيروقراطية الوزارية وشارك فى كافة تفاصيل الديكور وترتيب التحف ، وتكشف إحدى المذكرات التى كتبها صاحب الكشف ونشرها بيير كوينام (2) « الدقة المتناهية التى تعامل بها فى ترتيب التحف داخل القاعات المختلفة وفى فرد البرديات العظيمة ... (...) على كافة مستطحات الحوائط ... ووضع الفيتريينات التى ستسمح باستقبال الأدوات الجنائزية ، ومهما كانت ثقته فى جان - جوزيف دوبوا فكان هو الذى يتخذ كافة القرارات وبالتالي كان هو الذى يتلقى كافة الضربات .

ولكن الخلاف الحقيقى بين جان - فرانسوا ومديره العام كلارك كان على مستوى أبعد من ذلك بكثير أى أنه كان صراعاً بين رؤيتين متباينتين فيما يجب أن يكون عليه أى متحف . إذا كان المتحف قد أنشئ فى فترة الجمعية التأسيسية (لاكونفانسيون) لأهداف فنية بحتة ، فان شامبولىون كان يرى أن الألوان قد حان لكى يتحول من مجال التذوق إلى مجال العلم أو بصورة أشمل إلى التعليم . فكان صاحب الكشف يرى أن القطع التى يعرضها المتحف يجب أن تقدم بطريقة تصبح بها مستنداً تاريخياً .

وكانت هذه الفكرة على العموم موجودة ضمناً فى النصوص التى كلفته بمهمته . والمدهش حقاً أن المرسوم الملكى الصادر فى ١٥ مايو ١٨٢٦ الذى إتخذ من أجل «ضمان نجاح الأبحاث التاريخية التى صنعت فى جميع العصور أمجاد فرنسا » عينه فى ذات الوقت محافظاً ومعلماً وأن الشرح العلنى للنصوص الفرعونية بواسطة صاحب الكشف كان مرتبطاً بعرض القطع الأثرية المقدمة للزوار من المتحف الذى كان فى ذلك الوقت فى مرحلة التكوين . المشروع إكتسب من الأصل معنى علمياً بحتاً .

هل يمكن أن نرجع مثل هذا التفكير العميق إلى سوستان دولاروشفوكو فى كتابه « الملكية فى أفولها » Au Soir de la monarchie وصفة بارتية دو سوقينى بانه رجل « متأمر عصبى المزاج » كان وثيق الارتباط بشامبولىون ويعتبر من أصدقاء المتطرفين . إلا أنه كان شديد الإعجاب بوالد الدوق دو دودوفيل ولعل ذلك تسبب فى أن ليبرالية هذا الأخير قد طبعتة هو أيضاً وإذا كان ذهنه قد تفتق على إنشاء « صندوق للتعويض » يسمح له بخنق الصحافة وهو الصندوق التى كانت تصب فيه دخول المسارح والعب القمار وكان مكلفاً بشراء أسهم الصحف المناهضة عن طريق أطراف

ثالثة ... إذ كان يرفع إلى الملك شارل العاشر مذكرات تحذره من الأخطار التى كانت تهدد الملكية بسبب قصر نظر الوزراء وتحلل الأخلاق ومؤامرات الليبراليين .. إلا أن هذا الرجعى كان يعبر عن تعاطفه الدائم مع الفنانين وأهل المسرح كما أقام علاقات صداقة مع جورج صائد وسائد شامبوليون على الرغم من أنه لم يذكره بكلمة واحدة فى مذكراته .

قد يرجع موقفه هذا إلى تقديره لوالده أو إلى عداوة الكونت دو فوربان والذى كان يحاربة بكل الوسائل ، المهم هو أن هذا النبيل الجليل ظل على تحالفه الشجاع مع صاحب الكشف « الجاكوبى » ، ويبقى أيضا أن شارل العاشر قد اعتمد أيضا هذا التصور (الفلسفى) جدا لنور المتاحف . ثم إذا كان متحف شارل العاشر قد تحول إلى معمل للأبحاث التاريخية البعيدة تماما عن تعاليم الديانة الكاثوليكية وإلى الطقوس التى وضعها أسلافه الملوك الكايبسيون فإن ذلك لا يتفق ولا يتناسق مع القرارات التى سيتخذها بعد ذلك بثلاث سنوات والتى ربطت إسمه بالقوانين « المشبوهة » . هذا صحيح ولكنه ليس أول الأسباب التى تدعو للدهشة فى سرد تاريخ حياة شامبوليون .

فى إحدى المذكرات التى وجدها ونشرها لحسن الحظ بيتر كونيام فى المقال الذى سبق ذكره يعرض صاحب الكشف بنفسه وبدقة أكبر هذه النظرية للمتحف المدرسة والدور التعليمى والتأريخى للمجموعات التى يتولى مسئوليتها ويعبر عن فكر ديناميكي أكثر من كونه « محافظا » :

« ... تتشكل مجموعات الآثار المصرية (...) بصورة عامة لهدف واحد هو إلقاء الضوء على تاريخ الفن وطرق النحت والتصوير المستخدمة فى مختلف العصور ولدى الأمم المختلفة (..) إلا أن أهمية هذه الآثار المصرية وتسلسلها فى أعداد كبيرة والتى أثرت متحف شارل العاشر بفضل سخائه الملكى ، كانت محتاجة لأن تتوافق مع بعضها على مستويات مختلفة مادام المطلوب منها هو أن تكون إحدى المصادر ، ومن البراهين الدالة على تاريخ الأمة المصرية كله . فكان من الواجب ومن الضرورى جداً التعريف فى نفس الوقت على كثة كل أثر وعلى الهدف المحدد من وراءه ثم تحدد المعرفة الدقيقة للغاية لكل من هذين الموضوعين المكان والترتيب الذى يجب عليه أن يشغله . وكان من الواجب فى النهاية ترتيبهم بطريقة أكثر ما تكون كمالا ، توضيح تسلسل الآلهة وملوك مصر منذ العصور البدائية حتى الرومانية ، وترتيب الأدوات الخاصة بحياة المصريين العامة والخاصة بطريقة منهجية .

كانت هذه الرؤية الثورية لنور المتحف هى التى جعلت شامبوليون فى صراع مع فوربان وكلاراك أكثر بكثير من الاختلاف فى الشخصيات أو الصراعات حول السلطة .

لابد أن هاتين الشخصيتين ذات الميول السياسية المحافظة (ككتليد عاظمى) كانتا تعتقدان أن الملك وبلاكاس وبودوفيل لاروشفوكو على درجة كبيرة من السذاجة حتى يوافقوا هذا « الفيلسوف » فى آرائه التى لم تكن تهدف سوى لأن تجعل من التاريخ علما للمجتمعات الإنسانية : .

بل كان صاحب الكشف من الجسارة بأن إستخدم الكلمة الخطيرة فى مخاطبه مع صديقه الأب جاتزيرا المتحرر جداً (بالمعنى الذى كان يستخدم فى عصر الملكية الأولى) إذ كتب يقول له « لابد أنك توقعت منى أن أنقذ خطة التبويب التى لم يسمحوا لى بتنفيذها فى تورينو ، إنها بالفعل أنسكلوبيديا مصرية » .

لم تكن سذاجة من اللوق دورليان الذى كان من أشد المعجبين بشامبوليون وكان لايترك فرصة تمر دون أن يطلق سهامه على أولاد عمومته من الفرع الأكبر للأسرة الملكية - عندما وصفه وهو يبتسم بانه « محافظ متحف » ومورخ أكثر مما ينبغى ... «
الإنسيكلوبيديا - ثم رابين الملك - فيليب مساواة .. ها هو يعود إلى شياطينه الأعزاء .

الاستيلاء على التحف - كما نقول الاستيلاء على الباستيل - على يد شامبوليون تم عن طريق شراء مجموعة من الآثار ، وبالتالى كانت ديناميته هى السبب الذى جاء به إلى هذا المركز وفى هذا المكان ولم يكن فى إمكانه سوى أن يظهر ذلك ليس فقط عن طريق التعبير الثورى فى المفاهيم التى كانت تقوم عليها علاقة القطع المعروضه فى المتحف مع الجمهور المدعول لزيارة اللوفر ، ولكن أيضا عن طريق الإثراء المستمر « لمتحفه » .

لا ننسى بالطبع المعركة التى خاضها ضد شراء القصر الملكى الفرنسى لمجموعة جيوسيبى باسالوكوا - تاجر الخيول السابق الذى تحول الى تجارة التحف الأثرية - وهى الصفقة التى كان يؤيدها جومار (وهذا ما يشرح جزئيا ذلك) . إلا أن جان - فرانسوا كا يحذر باريس من الثمن المبالغ فيه الذى يطلبه جامع التحف الإيطالى - أربعمائة ألف فرنك - والذى كان كفيلا بالأجهزة الكامل على الميزانية فى الوقت الذى يقترح هو فيه شراء مجموعة سوات التى كانت قيمتها أكبر بكثير من الأخرى . وفاز هو ثم إفتتح عصره فى اللوفر باستقبال مجموعة ليفورن التى سافر من أجلها چاك - جوزيف إلى ميناء لوهافر للإشراف على إنزالها من المركب فى ١٨ أكتوبر .

ثم بعد أن اطمأن على حصوله على رصيد لامثيل له فى النوعية أخذ محافظ

المتحف الجديد ينظر نظرة مختلفة للعرض الذى يتقدم به باسالاكوا . كانت قطع الآثار المعروضة قد شددت إليها الجمهور كما لفتت نظر منافسا قويا هو ملك بروسيا الذى أوفد هو مبولدت إلى باريس للتفاوض..

كان ذلك كافيا لاستثارة صاحبنا الذى كتب لجاتزيرا :

« ... مطالب (باسالاكوا) إنخفضت بمقدار الثلثين منذ أن وصلت قطعى الضخمة من ليفورن . ستتشكل لجنة من أجل الحصول على هذه المجموعة ، وإذا وافق البائع على قبول من ستين إلى ثمانين ألف فرنك التى يمكن أن ندفعها له فإن هذه المجموعة ستتمى متحفى وتثريه (....) .

أنظر كيف يتكلم الآن .. قطعى الضخمة من ليفورن « متحفى » ... ها هو المكتشف الخجول الذى بدا لمدام مابيه « غير قادر على مساندة إكتشافاته » قد تحول إلى رئيس ومجادل صلد يتعامل كند مع كبار رجال المعهد (الأنستيتو) .. وأصبح صوته قويا مدويا عندما يتعلق الأمر بشراء مايسميه زميله كلارك ساخرا « غنائم مصر » . إلا أن سلطات چان فرانسوا الجديدة لم تكن كافية لضمان نجاح الصفقة .

كانت مجموعة باسالاكوا معروضة فى ممر فيفيان فى عام ١٨٢٦ وكثر الحديث حولها . إلا أن صاحبها إضطر لتخفيض الثمن الفلكى الذى حدده لها ولما لم يتمكن من إيجاد مشتر لها فى فرنسا واعتبر نفسه محظوظا جداً ببيعها لملك بروسيا بمبلغ مائه ألف فرنك ، علاوة على وظيفة محافظ الجاليرى المصرى بمتحف برلين .

لم يمنع ذلك أن يحقق شامبوليون كمدير المتحف بعض النجاحات الطيبة . فى سبتمبر ١٨٢٧ كتب إلى جاتزيرا هذا البيان بالانتصار .

« ... اشتريت مارد روما شقيق ماروك المحنط * كما قمت بمشتريات هامة أخرى وتلقيت الهدية الرائعة من المجوهرات الأثرية من الذهب الخالص التى قدمها باشا مصر هدية لملك فرنسا . وجدت ضمنها الختم الملكى لكليوباترا - كوكس من

* راجع فصل ١٢ النكتة حول الفرعون أوزيماندياس

الذهب الخالص ويزن خمس أوقيات عليه صورة هذه المرأة المسترجلة بالحجم الكبير محفورة للداخل . كما تمت مؤخرا صفقة أهم بكثير وهى شراء مجموعة دروڤيتى الجديدة والتي وصلت إلى باريس كما تعلم دون شك والتي تضم مجوهرات مصرية على درجة لاتصدق من الفخامة عقود وخواتم وأساور وحلقان من الذهب المرصع بالمينا . إنها بالفعل تعرية كاملة لاحد الفراعنة وبخلاف التماثيل تضم هذه المجموعة خمسين بردية مصرية وإغريقية وخمسائة جعران وأوانى وثمان لوحات جنائزية إلخ إلخ ... أصبحنا كما ترى أكثر جمالا وأكثر ثراء منكم انتم الذين كان بإمكانهم أن يكونوا الأوائل ولم يرضوا بذلك * »

تم شراء مجموعة دروڤيتى الثانية بمبلغ مائه وثمانين ألف فرنك ١٨٠,٠٠٠ وتعتبر صفقه عظيمة فى حد ذاتها . ولكن كان لها ردود فعل سيئه نوعا ما على المستقبل الأنى للمحافظ . إن شامبوليون الذى نراه يتحرك فى كل إتجاه داخل قاعات متحف شارل العاشر نون كلل على الرغم من أزمات النقرس التي تعذبه مستبدا دون تسامح مع كلارك ومتحديا فوربان كان على الرغم من ذلك يعيش فى مكان آخر ، كان بفكره قد سافر بالفعل إلى مصر .

رأيناه منذ الشهور الأخيرة لرحلته فى إيطاليا يحث أصدقاء الأوفياء - وعلى الأخص روسيليني وجاتزيرا - على الاستعداد للرحلة الكبرى .

ويلتمس من صديقه ملك توسكانيا المساعدة وكذلك وهو الأهم مساعدة بلاكاس مبعوث المعونه الألهية ... ثم أصبح المشروع فجأة موضوع الساعة وبصورة دراماتيكية بسبب الانباء الواردة من مصر لان برناردينو دروڤيتى - وكان قد تفاهم من جديد مع السلطات التي أعادت له لقبة ** قنصلا عاما لفرنسا فى إسكندرية - أعلمه أن إقامته فى مصر يجب ألا تتأخر لأن باشا مصر محمد على بدأ - بالرغم من تحذيراته - فى هدم المعابد ليستخدم أنقاضها وأماكنها لبناء معامل السكر اللازمة لتنمية البلد إقتصاديا *** بقدر ماكانت الانباء القادمة من الشرق مقلقة له وكانت

«دروڤيتى عرض هذه المجموعة أولا على ملك بيمونت ساردينيا إلا أنه رفضها كما فعل لويس الثامن عشر مع المجموعة الأولى .

** السؤال المعلق هو هل ترك أصلا مهام منصبه لالكسندر بيافوان الذى عين بصفه مرجليه وهو من الأكفاء واسير سابق فى أيدي الاتراك ثم قنصلا فى مكا ومنها إلى بالتييمور فى امريكا ١٩

*** إستأنف دروڤيتى حملته ٦ يناير ١٨٢٦ وكتب لچاك - جوزيف : « علمت أن أخاكم عازم على زيارة الوادى المقدس الذى يمكن اعتباره من الآن من الناحية العلمية من إختصاصه هو . ولذلك فانى أبادر بعرض كافة خدماتى عليه راضع نفس بالكامل تحت تصرفه لانى مقتنع بالنتائج النفسية التي ستترتب على هذه الرحلة ولاشئ يثلج صدرى أكثر من أجلها بالنسبة لة أمنه وسهله سعيدة .

بمثابة حافظا له بقدر ما ألهمت خياله الصور المنسوخة والروايات التي أسهب في سردها المكتشف الجسور لمنطقة بروه عالم الطبيعة والتعدين فريديريك كايو والذي نسخ بدقة اللوحة الفلكية لمعبد أبيدوس كما أنها استكملت معارف محافظ متحف اللوفر. هل يمكن بعد ذلك كله مسايره أخيه فيما كان ينصح به في مرحلة سابقة بأن يترك مصر لهؤلاء المتدفعين ولكنهم مكفوفون في حين أن بإمكانه هو أن يرى وأن يقرأ ؟

ظل ذكر المشروع العظيم لعدة شهور يتناثر في مراسلات جان فرانسوا . كتب في ٣ مارس ١٨٢٦ لعاهل فلورانس :

« سأكرس جهودي كلها (للمتحف) حتى شهر نوفمبر . أمل أن أتمكن في هذا التاريخ من تحقيق أمل حياتي كلها بزيارة مصر أرض العجائب ومهد الحضارة وبالبحث في آثارها على ذكريات التاريخ البشري الأولى وعلى أسماء رجال عظماء طواها النسيان منذ ثلاثة آلاف عاماً وعلى مذاهب دينية قديمة لعلها تكون أكثر نقاء مما يعتقد »

كما كتب للكويستانتزو جاتزيرا بعد بضعة أسابيع في ٢٤ مارس رسالة يظهر من خلالها نفاذ صبره أكثر من ذي قبل :

« أضع اللمسات الأخيرة على مذكرتي الخاصة بهذا المشروع الضخم . سأقدمها للملك وسأعرف بعد شهر من الآن ما الذي يمكن أن أنتظره من الحكومة لتنفيذ مشروع تهتم به فروع عديدة من العلوم التاريخية . استعد إذن للسفر ابتداء من شهر يوليو (..) لازلت أعتد عليك لتشاركني مشقات ومباهج ومجد هذه الرحلة (..) خطتي مبنية على أساس أن جميع مصاريفك ستكون مدفوعة وستحصل لدى عودتك على مبلغ خمسة آلاف فرنكا لكي تشرب أعشاباً مغلية ولتستريح من العناء الذي فات »

قبل أن يحاول إقناع الملك بمشروعه الأدبي أرسل مسودة مبدئية له إلى الفيكونت دولا روشفوكو موضحاً أن هذا المشروع المحفوف بالمخاطر لا يمكن إرجائه بسبب الاخطار التي قد يترتب عليها عدم وجود « مايمكن الحصول عليه اليوم من السفر الى هذه الارض ...بعد بضعة سنوات » . في ذلك اشارة واضحة الى مانبيهه اليه دروڤيتي . لم يلب الفيكونت سوستان دولا روشفوكو لأول مرة إحدى رغبات صاحب الكشف ، إذ انه لفت نظر شامبوليون الى انه كلفه منذ اقل من عام واحد بمسئوليات تتطلب منه ولشهور طويلة قادمة ان يبقى في باريس على الاقل حتى موعد افتتاح

متحف شارل العاشر المقترح له يوم ٤ نوفمبر يوم عيد ميلاد الملك . امام هذا التنبيه لواجباته رد جان فرانسوا قائلا أن رسالة مدير الفنون الجميلة وصلته وأنه مستعد للانتظار حتى موعد الافتتاح على الأقل . ولكننا نخطئ لو اعتقدنا ان هذا «الدوفيني الشقي» سيقبل ان ينصاع تماما لما يملى عليه . واذ به يكتب على الفور لملك فرنسا وعاهل توسكانيا الدوق- الاعظم دون أن يخشى إغضاب لاروشفوكو . كتب في ٢ يوليو الى شارل العاشر :

«أوروبا العلوم كلها تتوجه بآمالها شطر هذه المنطقة الكلاسيكية كما يتعلق رجاؤها كله بجلالتكم .

لويس -العظيم * كان قد طلب من لايبنتز رأيه في هذا البلد المشهور ويعود لجلالتكم تحقيق المشاريع السلمية لجدته الخالد وسيزداد بريق ملككم بجميع الانتصارات الأدبية الجديدة التي ستتم تحت رعايتكم المعظمة .

ان ما تفضلت به جلالتكم من أجل العلوم التاريخية من مقتنيات لا تنمحي ذكراها والتي أثرت المتاحف الملكية ستكتمل بما سيجود به كرمكم من عمل جديد أسمح لنفسى بأن أتقدم بطلبه .

وإذ أندر نفسى لهذا المشروع العلمى الضخم فإنى لا أنظر سوى لما سيضيفه يامولاي من مجد لاسمكم » .

وبعد شهر وأحد توجه ناحية ليوبولد الثانى :

« سمحت لنفسى أن أعتمد على تعاون نشط من لجنة توسكانيا لاستكشاف الآثار التاريخية التى مازالت موجودة فى مصر . إن الخطاب الذى تفضل صاحب الجلالة الإمبراطورية والملكية بتشريفى ، قد أرضى آمالى كلها بما أعلنه من إعتماد الخطة التى تضمن الحصول على النتائج العلمية العامة بهذا المشروع . لعلها أكثر الرحلات العلمية روعة ضمن جميع الرحلات التى ابتغت تقدم الدراسات الأساسية والتى يتحتم على هذا القرن أن يقوم بها . أنه من المؤكد على الأقل أن جميع العقلية المستنيرة فى أوروبا تصفق لهذا المشروع بتعاطفها الكامل معه وأنها تشاطرنى

* يقصد لويس الرابع عشر ١٦٣٨ - ١٧١٥ - الملقب بالملك - الشمس وصل الى مرش فرنسا وهو فى الخامسة (المترجم)

المشاعر العميقة المعبره عن إمتناتى إزاء القرار الكريم الذى تفضلت باتخاذہ جلالتم
الإمبراطورية والملكية ...»

تعين على مدير المتحف ذى الحذاء الطائر أن يدعم طلباته وتعبيراته بالعرفان
بالجميل باعتبارات أخرى أكثر واقعية وهو ما أسر دودوقيل ، الراعى المتنور القادر
على تحذيره من الأخطار التى قد تواجهه فهو يوضح له أولا أن مالية الملك يمكنها أن
تتحمل شراء مجموعتى باسالاكوا ثم دروڤيتى (رقم ٢) ثم وراء ذلك مباشرة
مصاريف « الرحلة الأدبية أو الثقافية » ، ثم أن أعمال إعداد المتحف وتنميته لن تتم
قبل نهاية عام ١٨٢٧ ، وأخيرا فان الموقف السياسى والدبلوماسى فى شرق البحر
المتوسط العلاقات فيه مهدده بين فرنسا وياشا الأسكندرية مما يمثل تهديداً على المدى
القريب أكبر من أن تتحمله رحلة سلمية . سنرى فيما بعد أن رؤية الدوق النبيل لم تكن
قصيرة

فرضت بذلك مهلة سنة كاملة على أعضاء الحملة البحرية ، عمل جان فرانسوا على
التعامل مع الشدة بصدر رحب واختار أن يؤدى دور التلميذ النجيب بالنسبة لعاهل
توسكانيا الدوق الأعظم ليوبولد الثانى : « سنتتهز مسيو روسيلينى وأنا - هذه المهلة
للاستعداد للرحلة) بداية متعمقة للآثار الموجودة فى المتحف الملكى بباريس [..]
بذلك نكون حصلنا على وسائل جديدة تساعدنا فى إتمام مهمتنا .

وبالفعل جمع الرجلان المراجع الأكثر أكتمالا عن مصر . فبخلاف « وصف مصر »
ضموا إلى مجموعتهم أعمال القدماء هيرودوت وليودور وسترابون وبلوكارك ومن
المحدثين قولنى وسوفينى ، وفيقان دونون وجو .. إلا أن إهتماماتهم خلال هذه الأشهر
المحمومة بالقلق لم تتركز قط فى الإعداد للرحلة العظيمة ...

ففى فبراير ١٨٢٧ تقدم جان فرانسوا شامبوليون ولأول مرة بترشيح نفسه
لأكاديمية المخطوطات والأدب وهو ما يعتبر عدم تناسق غريب فى المواقف إذ كان
يعرف تماما أن السلطة فى العالم الاكاديمى وأدواتها التنفيذية سيقومون بكل ما هو
ممكن لأزاحته عن طريقهم .. أن وزير الداخلية كوربيير كان فى عام ١٨٢٣ قد فرض
على الأكاديمية أن تخفض عدد أعضائها من أربعين إلى ثلاثين عضوا ليتفادى تسلل
ليبراليين مثله داخل صفوفها كما أنه لايمكن أن يكون قد غابت عن ذاكرته الاحداث
المؤلة التى حدثت فى ديسمبر ١٨٢٤ عندما رفض ترشيح أخيه الكبير لثالث مرة

والثورة العارمة التي إنتابته حينذاك ليس فقط بسبب الأمانه (والظلم فى رأيه) التي لحقت بچاك چوزيف ولكن أيضا بسبب الصوتين الذين صوت له هو بها ... إذ أنه كان مستعداً أن يقبل أن الذى تفوق عليه - المدعو هاز - السكسونى عالم الإغريقيات ولكن مالم يكن قادرا على تحمله هو أن يعتقد أنه دخل فى مناقسة مع أخيه وطالب أخاه فى إصرار أن ينشر بياناً يكذب فيه ذلك بصورة قاطعة ، وظل مقتنعا أن الصوتين اللذين حصل عليها لم يكونا لصديقين يريدان له خيراً وإنما كانا لأعداء يستهدفون الواقعة بينهما .

سواء كان ذلك نوعاً من الماكياثيلية أو كان الحجر الذى ألقاه الدب ، فإن الحدث أمله كثيراً ووعد أخاه حينذاك أن الطلاق بينهما والأكاديمية كان بائناً والى الأبد ، ومن شدة التأثر لفشله وافق فيچاك أخاه على هذا الرأى : ولكن هاهو الآن بعد أقل من ثلاثة أعوام ترك « صغير » داسييه العظيم يقنعه بأن يجلس فى المقعد الخالى لأنه لايمكن ترك شخص يدعى شارل أوج بوكوفيل يجلس فيه فهو كان يعمل معاون طبيب خلال الحملة فى مصر ثم أسره القراصنة فى رحلة العودة وحبس فى القسطنطينية واصبح بعد ذلك قنصلاً فى باترا عام ١٨١٥ ولم يعد من كل تلك المغامرات الطريفة سوى ببعض الروايات المملة .

هل كان يعتقد أن المسألة ستتم بسهولة ؟ كلا !! لأن الرحاله العائد تفوق بجدارة فى ١٦ فبراير ١٨٢٧ على من لم يرحل بعد إلى الإسكندرية . وحصل على ١٦ صوتاً مقابل ٧ أصوات لشامبوليون . هذا هو الثمن الذى يدفعه من يغامر فى مثل هذه الأمور ويمكن أن نتخيل الشعور بالخزى الذى لحق ببون - چوزيف داسييه الذى اعتقد وهوى السابعة والثمانين من عمره قضى منها أربعين عاماً فى الأكاديمية ، أن شاباً عبقرىاً يمكن هزيمة عسكري شاب غير قابل للفرق . كما يمكن أن نتخيل الغضب الذى ألم بالشقيقتين اللتين أقسما ألا يدخلن الخية مرة أخرى « ثم تناسيا ذلك بعد فترة وجيزة .

كان للمهلة التى فرضتها الظروف مختلفه بالنسبة لاييوليتو روسيليني إذ أنه تزوج من زينوبيا شيروبينى إبنة الموسيقار التوسكانى المشهور صاحب أوبرا ميديا - والذى كان يتربع على عرش العالم الموسيقى فى باريس . مراسلات چان فرانسوا مليئه بالنكات الساخرة من صديقه الشاب وغرامياته إذ أنه لايكاد يستبعد أنه يرتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه هو مع روزين قبل ذلك بعشرة أعوام . وكتب لانچيليك يقول أنه « زواج غبى » . لو أن الرحلة إلى مصر تمت فى ١٨٢٧ لربما نسى اييوليتو زينوبيا

إذا كان يتحمس بسرعة وهو يشبه الشاعر موسيه لدرجة أنه لم يعرف كيف يداعب الحب فقط « هل سيرتكب الجنون الأعظم بأن يتزوج قبل السفر؟ ». هذا ما كتبه جان فرانسوا لكاهنته ... ثم حدث التأخير الذي فرض على علماء المصريات مماسمح لدام سيثروبينى بتزويج ابنتها لهذا الشاب الذى كان يروق لها بقدر ما كان لايعجب زوجها المايسترو . تم الزواج فى ٣٠ أكتوبر بكنيسة سان فانسان دويول وشهد عليه جان فرانسوا شامبوليون والموسيقار الشهير چواكينو روسينى .

بعد خمسة أسابيع من حفل الزواج إضطّر جان فرانسوا إلى ارتداء بدلته الرسمية وربطة عنقه الحريرية لأن صاحب الجلالة الملك شارل العاشر سيشرفه بافتتاح المتحف الذى أطلق عليه اسم ثانى اشقاء الملك لويس السادس عشر . لم يكن فى الأماكن الإحتفال بذلك فى عيد القديس شارل بسبب تأخر الانتهاء من أعمال أعداد القاعات المصرية الأربعة وكان المسئول الأول عن هذا التأخير هو الرسام المصور « أنجر » ، الذى لم يكن قد وصل إلى الشهرة العالمية التى حازها بعد ذلك ، وكان يرفض عرض لوحته المشهورة الآن « تتويج هوميروس » بمناسبة الافتتاح ، لأنه كان يرى أنها لم تكتمل بعد .

لم يحضر العاهل الفرنسى إفتتاح المتحف التى قررت باريس فى نهاية الأمر تخصيصه لمصر سوى فى ١٥ ديسمبر ١٨٢٧ ومن كان يمكن أن يتصور قبل عشر سنوات فقط أن هذا الملك كان يمكن فى يوم من الأيام مشاركة « روبسيير جرونوبل » فى أى شئ كان .

« القاعات الفسيحة كانت مرتبة بشكل رائع والمجموعات مرتبة ووصفها منشور بمنهجية ، الملك زار بالفعل إذن متحفاً يثير الإعجاب ومزود بما يمكن أن يبتغى من روائع الفنون جميعاً حيث لم يكن هناك سوى جدران جرداء تقدم للناظرين(3) »

المهمة إنتهت وأوصلها شامبوليون إلى مداها بأن أنشأ المتحف الذى كلف به قبل ثمانية عشر شهراً . ولكن ماذا عن المحاضرات التى كان من المفروض أن يلقيها خلال « الفصل الجميل » متزامنة مع إنشاء المتحف ؟ كان رد صاحب رسالة إلى «مسيو داسييه» لطارحى السؤال عليه بوضوح إنه لايمكن أن يدرس علم المصريات - علماً بأنه هو الذى وضع أسسه - إلا بعد أن يزور أرض الفراعنة : فقد نجحت سخرية جومار وفوريان منه فى هذه النقطة من النيل من طول أناته .

كان من الممكن أن يعترض الدوق دودو وڤيل والفيكونت سوستان قائلين أن الدروس التى يعطيها يومياً فى « متحفه » لايبوليتو روسيلينى والرسام الشاب نيستور لوتر

المرشح للرحلة معه تثبت أن أستاذيته بلغت مرحلة الكمال . إلا أنهما في النهاية نزلوا على رأيه . وأعتمدت فكرة القيام بالرحلة قبل نهاية العام ولكن كم من العقبات كان عليه أن يتخطاها وكم من مؤامرات كان عليه أن يحل عقبتها ومشاركات يعتمدها وعروض يفاضل بينها .

أغرب هذه العروض تقدم بها من أسمتهم مدام هارتلوبان (في عام ١٩٠٦) « بعض الرأسماليين » (4) - ورد ذلك في مذكرة مأخوذة من مراسلات شامبوليون ونشرت بمعرفتها - إذ تقدم ناشر فرنسي كبير (لعله فيرمان ديدو ؟) وأثنان من أصحاب البنوك من جرونويل (لعلهما من عائلة بورجي) يعرضون تمويل رحلة صاحب الكشف « بشرط أن يضع المشروع إسمهم في مكان بارز » ... من المدهش أن يسبق هؤلاء عصرهم ويتشبهوا برعاة الأعمال الإعلامية المعاصرين .

كان رد فعل جان فرانسوا في صورة لا بد أنها ستدهش أي ممول لحملة علمية معاصرة : إذ رفض العرض « مضحياً من - أجل الأصول التي يجب أن تحترم - بفوائد متعددة الجوانب لأن الشكل النفعي التجاري لمثل هذه العملية لا يتناسب وقدسية أرض الآلهة وفنون مصر القديمة » .

كانت الأمور تسير بحلوها ومرها في طريقها في باريس كما في مصر . دروڤيتي الذي حضر إلى باريس بمناسبة عرض مجموعته الثانية في متحف شارل العاشر كان يلح علي شامبوليون لكي يسرع بالقيام برحلته لأن التدمير الذي يلحقه محمد علي بالآثار يتلاحق ، كما أنه من الأفضل أن يسبق سفره وقوع أزمة دولية كانت تتفاقم في الشرق دون إنتظار غلق أبواب مصر لفترة طويلة . إلا أن طريقة تفكير هذا القنصل - تاجر الآثار كانت ملتوية لدرجة تجعلنا نتساءل ما الذي كان يعقبة إصراره هذا وما الذي يدارية ؟ أين كانت توجد مصلحته ؟ هل في السيطرة التي لا بد وأن تدخل شامبوليون المتحمس للغاية للحفاظ على الثروات المصرية سيفرضها على سرقاته ؟ أم أملا في الحصول على الضمان الذي لا بد وأن وجود مؤسس علم المصريين شيفطى على تحركاته المريبة ؟

كارلو بيد يموني - قنصل بيمونت - ساردينيا في الإسكندرية - كان قد ذهب لمقابلة جان - فرانسوا في تورينو قبل ثلاثة أعوام - وهوزوح ابنة دروڤيتي وعلي الرغم من ذلك فهو الذي كشف لشامبوليون عن معنى تحركاته : « طالما أن هنري سولت * على قيد الحياة فإن دروڤيتي يريد أن يستخدمك لكي يهزمه ويشل حركاته . ولكن بعد وفاته فإنه سيسقط القناع . حينئذ يجب أن تأخذ حذرک منه ! »

الذي حدث هو أن سولت توفي بالفعل بعد ذلك بعدة أسابيع أي في ٢٧

* صاحب المجموعة ومن المعروف أنه كان مريضاً .

أكتوبر ١٨٢٧ * وحدث بالفعل ما توقعه ، إذ ما أن أختفى منافسه إلا وأصبح دروفيتي أقل إلحاحاً وكما توقع بيديمونتي فقد قلب ظهر المجن وأخذ ينشط لدى أقل الشخصيات تحمساً لرحلة شامبليون مثل فوريان وجومار حتى لا يدرج أى بند للحفريات فى ميزانية عالم المصريات . بل أننا سنراه عشية إبحار شامبليون وروسيليني إلى مصر يحاول تغطيلهما لأسباب بعضها وجيه والبعض الآخر أقل وجاهة ، ومن أهم هذه الأسباب تدهور العلاقات بين فرنسا وباشا مصر بسبب القلاقل التى أجتاحت شرق البحر المتوسط بسبب الثورة اليونانية على السلطان العثمانى ، وكانت القوى الغربية ومن بينها فرنسا تساند اليونانيين ضد الأستانة وكان محمد على تابعاً وحليفاً للسلطان . وعندما دمرت الأساطيل الأوروبية أساطيل القوى الإسلامية فى ناغارين فى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ فان سفن محمد على هى التى غرقت . فهل كان يعتبر هذا الموعد هو المناسب للاهتمام بالاثار المصرية ؟ وماهو الإستقبال الذى يمكن لمبعوث ملك فرنسا أن يأمل فى الحصول عليه عند ضفاف النيل ؟ وهو الذى كان حبه لانجيليكا باللى يشعل من مناصرته للقضية اليونانية التى كان يشاركه فيها حينذاك بالطبع جميع الليبراليين

بداية الرد علي هذا السؤال ورد فى بيان وجهه محمد على إلى الأوروبيين المقيمين فى مصر فى نهاية ديسمبر ١٨٢٧ : إذ أكد فيه الباشا أنه عازم على حماية (الفرنجة) وأنه متمسك بتقاليد حسن الضيافة الإسلامية . ولكن لم يكن من المؤكد أنه يستطيع التحكم فى كل التيارات المحمومة التى كانت تسرى حينذاك فى الشرق كله .

هل كان جان فرانسوا يشعر عشية سفره ببعض المخاوف من ناحية أسرته أو كان يتخوف على حالته الصحية ؟ لايمكن أن نقول أن مصير روزين وزدورايد قد حال حتى الآن دون أن يعيش حياته بالصورة التى يبغيها .. صحيح أن اهتمامه بابنته كان قد بدأ يزداد فهو كان دائماً محباً للأطفال طالما أن فى استطاعته أن يمارس عليهم عبقريته التربوية الفذة . إلا أنه كان مطمئناً تماماً من هذه الناحية لأن زوجته وابنته كانا فى أيد أمينة . إذ جمع أخوه الجميع فى شقة فى المنزل الواقع فى ١٩ شارع مازارين ، مجاور جداً للذى اكتشف فيه الأسرار الهيروغليفية فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ ، وكانت زوجة أخيه التى كان يحبها ويحترمها بشدة تتفاهم مع روزين أفضل من چاك - جوزيف وكانت علاقات هذا الأخير معها باقية على حدتها ومع ذلك كانت دار شامبليون فى حالة من الوئام .

* أنظر الفصل الثانى

الواقع أنها كانت أفضل بكثير من حاله الرحالة الصحية . إذ كان النقرس مستمراً في تعذيب قدمه اليمنى وكان يعرف أنه سيضطر للسير من مقبرة لأخرى ومن معبد لآخر وكان السعال لايفارقه تنتابه في أحيان كثيرة حالات الأختناق .. وما أن يقل من نشاطاته إلا وتظهر عليه علامات البدانة ، وهذا الجان - فرانسوا ذو السبعة والثلاثين عاماً لم يكن - مثلما نقول اليوم - رياضياً في قمة حالاته بل هو رجل إستهلكته المعارك وعدم الاعتناء بصحته والإرهاق الفكرى وخيبة الأمل العاطفية ... ينهش جسده مرض لم يكن الأطباء قد كشفوا أصابته به بعد وبالتالي لم يعالج منه وهو مرض السكرى .

أما في باريس فان نجم چان فرانسوا كان يزداد بريقاً بقدر ماكان تطور الحياة العامة يسير في الاتجاه الذى يتفق وأماله . فقد سقطت الوزارة التي يرأسها فيلار كوريبيار (هذا الكوريبيار الذى ظل يناهض مقاصد شامبوليون والذى وصفه شاتويريان بأنه « الطاغية الميلو دراماتيكي المناهض للأدب » .. وحلت محلها وزارة ليبرالية يرأسها مارتينياك . « إن فرنسا تسير أخيراً في خط متزن جدير بها » هذا ماكتبه في إحدى رسائله إلى زيلمير . والواقع أن هذا التغيير في المسار السياسى قد خدم أهداف الرحالة .

إذ لو أن كوريبيار قد بقى في منصبه فمن المشكوك فيه أن يكون الملك قد قبل - لدى زيارته للقاعات المصرية في متحف اللوفر في نهاية ابريل ١٨٢٣- أن يعطي في السر موافقته على أن يدرس مارتينياك مشروع الرحلة وأن يعمل هذا الأخير في بضعة ساعات على أن يدرس المذكرة « حول مشروع رحلة أدبية الى مصر » ويوافق عليها في خطوطها العامة - وهى المذكرة التى حررها معا الشقيقان شامبوليون واييوليتو روسيليني في نهاية عام ١٨٢٧ وإلى كانت قد رفعت إلى الملك بعد ذلك بقليل دون أن تكون محل أى دراسة جادة .

مذكرة ١٨٢٧ تعتبر عرضاً ممتازاً للأسباب : وهى وإن كانت متكلفة في أسلوبها بسبب تعدد المشاركين في تحريرها ولم يكن حماس المكتشف وحده الذى ألهمها - إلا أنها مزودة بكافة الأفكار الرئيسية حول الفن المصرى والتجديد الشامل الذى أدخله على المعارف - التى كانت سائدة منذ حملة ١٧٩٨- الكشف عن أسرار الكتابة المقدسة . يجب أن نذكر هنا بعض المقتطفات منها فهى تلقى الضوء على الفكر الذى قاد كلا من شامبوليون وروسيليني وهما يقومان برحلتها :

« إن النظريات الشائعة عن الفن المصرى ودرجة التقدم التى وصل إليها بالفعل هذا الشعب سواء في مجال النحت أو التصوير هي نظريات خاطئة في جوهرها (...) أن أوروبا المتعلمة تعلم بوجود هذه التراكمات من الثروات التاريخية ورغبتها

الجامعة هي الاستيلاء عليها ولذلك فهي تطالب بأن تسرع إحدى الحكومات المستنيره بأن تبعث إلى مصر بأفراد وهبوا حياتهم للعلم وأعدوا أنفسهم إعداداً مناسباً لكي يجمعوا المستندات القيمة التي لاتحصى ولاتعد التي سجلتها العظمة المصرية القديمة على المباني طالما أنها لازالت قائمة والتي تغطي كتاباتها الفخيمة ضفتى نهر النيل (..) (أنها تعرف) أيضا أن البربرية التي لازالت تتنامى تقوم بالتدمير المنظم لهذه الشواهد الجديرة بالاحترام على حضارة عتيقة (..) وهي آثار لا يوجد شئ فى الوجود يمكنه تعويض خسارتها ، إن رحلة أدبية إلى مصر تعتبر الآن أكثر الرحلات المجدية التي يمكن القيام بها فى هذه الآونة (...) متزودة بالمعارف التي اكتشفت مؤخرا عن كتابات مصر القديمة ، فإن أى رحلة تتم الآن فوق هذه الأرض العريقة ستسفر دون شك عن نتائج علمية لايمكن أن يكون مداها قد دار بمخيلة أحد ، حتى فى الوقت الذى كانت فيه مصر واقعة تحت سيطرة جيش فرنسى تدرس بعناية بواسطة مجموعة كبيرة من العلماء كان لهم باع ضخم فى العلوم الفيزيائية والطبيعية والرياضية ، إلا أنهم كانوا مفتقدين الاداة الجوهرية التي لاغنى عنها للاستغلال الأمثل لهذا المنجم البالغ الثراء بمستنداته التاريخية والتي وضعت فى متناول يدهم انتصارات اسلحتهم « ...

أدت هذه الاعتبارات إلى أن يقدم أصحاب المذكرة « كشفا مفصلا بالأعمال التي يجب أن تنفذ وبالهوام التي يتعين عليهم تأديتها » ، وبخلاف «الرفع» بالرسم للعديد من الأماكن المتنوعة على طول ضفاف النيل – إقترح علماء المصريين أيضا أن يقوموا «بحفريات» توضع ثمارها بعد نقلها فى متحف اللوفر الملكى ... أو فى مكتب الآثار التابع للمكتبة الوطنية وأن يقوموا بشراء بعض التحف المثيرة للاهتمام تضم إلى الجامع الملكية ... وتجنّ الخلاصة مدوية « هذا هو الهدف وهذه هى الخطة وهذه هى اسباب الرحلة إلى مصر ولاينتظر مسيو شامبوليون سوى أوامر الملك لكي يقوم بها ».

هذا هو المستند الذى الحقه جاك – جوزيف بطبعته هو (الصادرة عام ١٨٣٣) لمراسلات صاحب الكشف ولكن توجد صيغة أخرى بالايطالية للمشروع الذى شارك فى إقامته – كما سبق أن رأينا – ابيوليتو روسيليني . وقد ورد فى هذا النص الذى أرسل فى يوليو ١٨٢٧ إلى عاهل توسكانيا الدوق الأعظم ليوبولد – والذى سبق أن أعلن قبل ملك فرنسا موافقته أو على الأقل مساندته للمشروع كما أكد مشاركته المالية فيه فاحتفظ بذلك ببعض من الحقوق عليه – أن باريس لن تكون مختصة وحدها بالنسخ والحفريات والمشتريات . « ... هذه الحفريات ستتم حيثما يرى مسيو شامبوليون والبروفسيور روسيليني كل على حساب حكومته . كما أن أياً منهما يرى

أن أثرا من الآثار له أهمية كبرى عليه أن يمد الآخر بنسخة منه وستتم دراسته فيما بينهما » .

الصيغه الفرنسية - الوسطية التي قدمها شامبوليون - فيجاءك تعتبر من أول الدلائل على الجدل القائم بين باريس وفلورنسا التي لم تظهر أثاره خلال الرحلة وإنما بعد وفاة صاحب الكشف - كما سنرى فيها بعد - الذي ظل على علاقة تتسم بالثقة والصداقه مع روسيليني ، إذ كان يكن له تعاطفا واضحا ، كاد هذا التنافس منذ البداية أن يفشل المشروع . أقل ما يقال في هذا الصدد أن الملك شارل العاشر لم يكن يجذب قط هذا الاقتسام للمبارات والمسئوليات والهيبة : فهل كان من اللائق أن يتقاسم « الملك المسيحي جداً » سليل لويس الرابع عشر - مناصفة مع « صاحب سموملكي » حتى لو كان عاجلا لاكثر العواصم نبلا في العالم ؟ هل إحتاج بونابارت أن يشارك مبادر قحلمته مع أى من كان ؟

إحتاج الأمر تدخل بلاكاس - وإن كان تأثيره قد قل في تلك الفترة - ودودوفيل ودولاروشفوكو وأخيرا مارتينياك ، لكي يوافق الملك في النهاية على هذه المشاركة التي كانت تتمتع في نظر رئيس وزرائه بفائدتين : الأولى هي استمالة إحدى الممالك الأوروبية التي زاد تغلغل النفوذ النمساوي فيها بأكثر مما يتفق وماتراه باريس والأخرى هي تخفيف وطأة مصاريف المشروع بمقدار النصف (٩٠ , ٠٠ فرنك) على المالية الملكية .

بقى إيجاد حلول لثلاثة مسائل وهي : تشكيل البعثة « الأدبية الفرنسية - التوسكانية » ووسائل الانتقال من طولون إلى الأسكندرية وموعد الإبحار .

سبق أن رأينا أن جان فرانسوا شامبوليون كان يود أن يصطحب معه - غير روسيليني - بعضا من أعز أصدقائه مثل الأب كوستاتزو جاتزيرا وكذلك أكثر علماء المصريين الأنجليز تعبيراً عن تقديرهم له سير وإيام چاك ولكن لم يتمكن أى منهما من مواجهة أخطار الرحلة . الأول لأسباب صحية والأخير لأسباب مالية .

بقى الأمر محصوراً بين توسكانيين وفرنسيين . ضمت « اللجنتان الثقافيتان » سبع أفراد لكل منهما . الفرنسية برئاسة جان - فرانسوا شامبوليون جمعت

* أحد الألقاب التي كان يختص بها ملوك فرنسا (المترجم)

شارل لونورمان * مفتش الفنون الجميلة (ممثلا للاروشفوكو أى السلطة الملكية) وأنطوان بيبان ، مهندس معمارى كان قد إلتقى به في إيطاليا والرسامين المصورين الكسندر دوشان لوهو ويارتان ** وهم من تلاميذ الفنان المشهور البارون جرو ، وأخيراً نستور لوت ، موظف جمارك شاب محبا للمصريات ومستمعا لمحاضرات ميولون فى متحف اللوفر والذي اتضح أنه رسام جيد .

أحاط بايبوليتو روسيليني ، رئيس اللجنة التوسكانية ، عمه جايتانو وهو مهندس معمارى وأخو زوجته ، سالفادور شيروپيني - رسام *** واليساندر ريتشي ، طبيب وسبق له أن قام مع بانكس ثم مع لينان بعدة رحلات إلى مصر ، وچيو سيبى راضى عالم طبيعة فلورانسى أشهر - والرسام انجيللى ، وأحد مساعدى البروفيسور راضى يدعى جالاسترى .

نصر الاتفاق الذى وقع عشية القيام بالرحلة فيما نص على ما يلى

البند الأول : يتولى مسيو شامبوليون الادارة العامة للرحلة .

البند الثانى : يتولى مسيو إيبوليتو روسيليني مسئولية المساعد للمدير العام وجميع التفاصيل التنفيذية .

البند الثالث : عين مسيو لونارمان مفتشاً عاماً .

كان هناك إذن تسلسل فى القيادة مبنى على السن وعلى الكفاءة وعلى العلاقات القائمة من الأصل بين رئيس « الحملة » . قال روبيرهارى فى مداخلة له فى ندوة خصصت لروسيليني عام ١٩٨٢ فى بيزا ، أن هذه العلاقة حددت على هذه الصورة ، وعاشها التوسكانى بهذا الشكل لأنه « قبلها وفهماها هكذا » . كلا ! أن فارق العشر سنوات فى السن بين الرجلين وكذلك العبقرية الخلاقة التى كانت تحرك أكبرهما سنا لم تكن تتضمن علاقات متساوية بينهما بالكامل . وإنما إذ نوضح ذلك يجب علينا أن نضيف أنه على الرغم من بعض الأقاويل سيئه النية فإن علاقاتهما كانت تنقسم بالولاء المثالى وسوف نبرز كل الشواهد على ذلك عبر سردنا لمختلف المراحل والتجارب التى حدثت حتى وفاة صاحب الكشف . وسيلة المواصلات التى طالب بها رئيس البعثة كانت الركب « ليجليه » الذى وفرته لهم الحكومة الملكية الفرنسية ووضعتها تحت تصرف أفراد الحملة الثقافية وقد أثبت هذا المركب أنه على مستوى المشروع وأوصلهم إلى هدفهم بسلام . أما عن موعد الإبحار فان شامبوليون حدده بنهاية شهر

* ابن أخ مدام ريكاميه وكان يحظى برعاية شامبوليون الذى يذكره كثيرا وأكثر منه زوجته . أصبح ابنه فرانسوا عالم آثار مشهور هو الآخر .

** ابن مؤسسى صحيفة « لوچورنال دى ديبا » رسمة الرسام انجر الذى اصبح ناشرا لأعماله

*** الذى كان يعتبر نفسه عضوا بالمجموعة الفرنسية وكان يتصرف على هذا الأساس .

يوليو ١٨٢٨ مقداراً أن اللجنة لن تجابه تجربة درجات الحرارة المخيفة - في مصر العليا والنوبة سوى في فصل الشتاء : ركب إذن عربة البريد المتجهة إلى طولون في ١٦ يوليو في نهاية فترة بعد الظهيرة وتوقف لدى صديقه أرتو في ليون حيث زوده أصدقاء من جرونوبل « براتافيا » من منطقة الدوفينييه ليشرّبها تحت شمس أفريقيا . ثم أمضى يومين في مدينة إكس عاين خلالهما مجموعة سالييه ، وخاصة بردية كانت تضمها المجموعة وكان يعطيها أهمية كبرى . وادى مروره على مدينة أفينيون تمكن من عناق أوجوستان تيقوني أعز أصدقائه إلى قلبه وأكثرهم ولاءً والذي حضر للقائه بهذه المناسبة الهامة .

في ٢٤ يوليو وصل إلى طولون حيث لحق به رفاقه الفرنسيون والتوسكانيون الذين كادوا أن يحتجزوا على الحدود حيث سرت شائعة إنتشار الطاعون في منطقة بروقانس الفرنسية وكل من كان يعبر جبال الألب كان يكشف عليه جيداً؛ وفي جميع الأحوال يمر بتجربة الخل ... في ميناء طولون أخذ جان فرانسوا عدة حمامات . كتب لأخيه يقول عنها أنها أفادته «فائدة لانهائية» وجاءت اتصالاته الأولية مع طاقم البحارة ممتازة وعلى الأخص من القبطان كارما دومانوار . ولم يبق عليهم سوى الأبحار .

هل هذا شئ مؤكد ؟

لقد كتب على هذه الرحلة أن تبقى حتى النهاية موسومة بكل ما هو غير مؤكد وله طابع إشكالي ... فلأسباب غير الصحة العامة كادت الرحلة تنتهي قبل أن تبدأ في طولون ، ولولا ذكاء شامبوليون فيچاك الواقعي ، لبقى الرحالة وأصدقاؤه حيث هم في الميناء ليواصلوا حلمهم المصري لفترة مطولة ... قبل ذلك التاريخ بثلاثة شهور كان برنارد ينو دروڤيتي قد أرسل إلى جان فرانسوا شامبوليون وافيوليتو روسيليني خطاباً مدمراً للهدف ؛ الواضح من الهدف من وراء هذا الخطاب هو تأجيل المشروع إلى أجل غير مسمى : كتب يقول « يعم مصر ، مثلها مثل جميع أنحاء الأمبرطورية العثمانية شعور مناهض للأوروبيين الذي قد يشكل في بعض الأحوال سبباً لإثارة حركات وأعمال شغب تهدد سلامتهم الشخصية . سواء بالنسبة للمقيمين بصفة دائمة أو الذين يتصادف سفرهم هناك . وإذا كان الأمر يتعلق فقط بإرادة محمد علي بإيقاف ردود الفعل الغاضبة لما كان من الصعب الحصول على ماكلفتموني بطلبه منه * » إلا أنه مجابه هو نفسه بهذا الغضب بسبب مبادئه وشعوره بالميل للأوروبيين ولم يتمكن من إعطائي كلمة ضمان طلبتها منه من أجلكم ورفاقكم .

* كتب شامبوليون في الأول من فبراير رسالة يطلب فيها من دروڤيتي الحصول على فرمانات من الباشا تسمح له بزيارة مصر .

وداح يعبر عن أمله فى أن « يتغير الموقف السياسى للقوى الكبرى إزاء تركيا » بما يسمح فى المستقبل للرحالة أن يبدأوا رحلتهم دون ما انتطار لأى إشعار آخر » ، ثم ختم دروڤيتى رسالته قائلا : « أرجو أن تتأكدوا أنى اسف أشد الأسف لأنى غير قادر على منحكم (رداً) يتفق ورغباتكم يتفق بدوره مع رغبة كل أصدقاء العلوم وهو ما تضطلعون به بكل هذا النجاح المرموق » .

هذا الإعتراض على قيام الرحلة لم يصل إلى باريس سوى بعد مغادرة جان فرانسوا إلى طولون ووقع فى يد فيچاك الذى اطلع عليه ... ومثلما هو الحال دائماً مع دروڤيتى كان عليه أن يحلل الموقف تحليلاً دقيقاً لمعرفة خلفياته ... هل كان القنصل - التاجر قلقاً بالفعل ؟ هل أراد أن يرفع من قيمة الدور الذى يؤديه ؟ هل كان يحاول الانتقام من تصدى شامبوليون وبلاط فرنسا أيضاً له ؟ هل كان يفضل الإنتظار حتى يكوّن مجموعة آثار ثالثة لكى يسيل لعاب ضيوفه لها ؟ بعد أن طرح فيچاك الحويط كافة هذه الأسئلة أختار أن يبقى الخطاب فى جيبه لمدة أسبوع كامل قبل أن يوجهه إلى ميناء الإبحار وقد تأكد تماماً أنه سيصل متأخراً إلى جان فرانسوا .

بعد شهر كامل فى الاسكندرية وبعد أن علم جان فرانسوا من دروڤيتى بمحتوى خطابه المؤرخ ٣ مايو كتب يقول لأخيه الأكبر : « .. أعترف بأنى لو قرأت الرسالة فى باريس لما كنت سافرت . ولحسن الحظ أنها لم تصل فى موعدها والمؤكد أن يد أمون هى التى أبعدتها ... » لقد تشكل الإله أمون فى صور شتى منذ خمسين قرناً - فهل كانت هيئه أمون / فيچاك هى الأخيرة ؟

فيما عدا رياح شديدة هبت لبضعة ساعات إنفعل لها الشاب نيستور لوت ، كانت الرحلة هادئة وتظللها السعادة وتتخللها الدراسات المستمرة . أصر القبطان دومانوار الذى أقام علاقات صداقة مع شامبوليون ، على أن يترك له قمرة الخاصة حيث انضم إليه فيها معه ، ينامون فوق مراتب على الأرض مباشرة كل من روسيليني وراضى و« الأب بيبانت » المهندس المعمارى الذى كان يتجول شبه عار لايهتم بمظهره وكان مصدر سخرية دائمة من « القيادة العامة » ! هذا هو التعبير الذى أطلقه المسافرون على أنفسهم بعد أن قرروا تلقيب شامبوليون « بالجنرال » وعلى الرغم من كونه من مناهضى العمل العسكرى فإنه لم يعترض .

كان جان فرانسوا يذهب ويجئ على سطح السفينة ثم يصعد إلى كابينة المراقبة ويستنشق الهواء البحرى وينهل من أشعة الشمس ويعد النجوم التى تزين « أجمل سماء فى العالم » ويعطى دروس لغة عربية لرفاقه ودروس فى قراءة الحروف الهيروغليفية .. كتب عن ذلك كله شارل لونارمان فى مذكراته الشيقة :

« روح الوثام الكامل ظلت سائدة علي ظهر السفينة : وسط الركاب كان شامبوليون رجلا لا يتغير مزاجه ولا للحظة واحدة . رائق الفكر على الدوام ولا يكل أبدا في الاستجابة لكل ما أحتاحه منه .. أتحدث أكثر مع روسيليني (...) أنه دمث الطباع جداً ومتفاهم جدا ، مرح ومتثقف للغاية . بيبانت هو المستهدف دائما في التنكيت عليه وهو يؤدي دوره هذا ببراعة معقولة . شيروبيني شاب ذو طبيعة ممتازة وهو باريسى الجواهر . الدكتور ريتشى الذى عاش فى مصر لمدة عشر سنوات مثير جدا للإعجاب (..) أعمل كثيرا . وها أنا أقرأ العربية بشئ من السهولة (..) أخذ درسا فى الهيروغليفية كل يوم»

غير أن الأشاعة المستمرة حول إنتشار الطاعون في مقاطعة بروفانس منعت لرحالة البحريين من النزول فى أجريجانتي . فى جمر ك الميناء واجهوهم بأمر صادر من باليرمو يمنع توقف أى مركب قادم من الموانى الجنوبية لفرنسا . « إن طولون ميناء شمالي » هذا ما إدعاه شامبوليون فاجابه الضابط الصقلى : « أنى أعرف ذلك ولكن لا توجد لدى أوامر تخص هذه الموانى » .

باختصار .. منعهم طاعون لم يحدث أصلا من زيارة معابد المجموعة الأغريقية الرائعة الموجودة فى أجريجانتي التي لا بد وانها كانت ستلهم قريحته ببعض التأملات . ولكن كان عليه أن يلتقى بمعابد مصر

١٦ - ماء النيل

حلم يواجه التحدي - موسى في أرض مبعاده - « كأم حنون » « تعاطف دروڤيتي - « غمزات عيون » الباشا - مسألة فرمانات « الجنرال » وقواته - مولد النبي في القاهرة - دروس بنى حسن - « مجنون » في الكرنك - إننا أقزام أبو سمبل حيث يسيطر الخوف على « الخيال » - الخطاب الآخر إلى مسيو داسييه : « أن ابجديتنا سليمة ! » .

أن تضع الخيال في حالة تحدى وتعرض فكرة ما - كرست لها حياة بأكملها - إلى إمتحان النار الكاشفة ، هذه هي التجربة الأكثر قسوة التي يمكن لبشر أن يفرضها على نفسه . لم يقل لنا « متصوف » واحد كيف جابه تجربة مواجهته لوجه الإله . أما شامپوليون فقد عاش بما يكفى لكى يشهد على ما حدث في مواجهته لأرض وأحجار ورجال وألهة وادى النيل ، وقد لخص رد فعله في كلمة واحدة جعل منها القاعدة التي تقوم عليها حياته كلها : الحماس .

لكى نلخص مخاطر مشروعه الذى نفذه عام ١٨٢٨ يجب علينا أن نتصور ماهى الصورة التى رسمها الخيال لمصر لدى شامپوليون - المكتشف : الروايات التى قصها عليه أخوه الأكبر - قرائات نونون - دروس دوساسى القاسية - مبادئ اللغة القبطية مع شيفتيشى - الأبحاث الجغرافية والصراع الشخصى الطويل خلال عشرين عاما - مع الحروف المقدسة - البريق اللامع الذى أضاء كالصاعقة يوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ - الاكتشاف الجمالى في متحف تورينو - .. وها هى اللحظة التى تجمعت فيها كل هذه الأحلام والتصورات لكى تتصادم فجأة مع الحقيقة الواقعة التى لا ترحم .

يوميات الرحلة الى مصر ومراسلات جان فرانسوا تؤكد بها باستمرار روايات رفاقه فى الرحلة : روسيليني ولونورمان ونستور ولوت تعكس حالة نفسية وعاطفية يصفها المتصوفون بالسعادة . وسط هذه الحياة شديدة الحيوية ، التى عصفت بها كمية ضخمة من المؤمرات والغيرة وتعذيب الذات ، تلمع هذه الشهور السبعة عشر فى مصر بكامل بريقها من الإعجاب الجمالى والتعاطف الإنسانى والتضامن المهني والعلمى . شامپوليون على أرض مصر هو موسى فى أرض الميعاد ، ملك ، فحل وسعيد .

لم تكتمل سعادته مرة واحدة . من الأسكندرية - التى كان يقول عنها مثل الرومان

أنها عند مصر Ad Aegyptum - ثم القاهرة ومن سليبس إلى بنى حسن ومن

البدرشين إلى سقارة ومن الجيزه إلى بندره ، تصاعد الحماس فيصل إلى ذروته ليصبح - فى الكرنك - تجلياً يتجدد فى أبو سمبل .

إن الحماس المتأجج والرفا الواضحة لدرجة الشفافية جعلت صاحب الكشف يبدو كما لو أنه يلبي ندائاً للصعود إلى السماء . إنه يشبه فى حالته تلك هؤلاء القديسين الذين صورهم الرسام الجريكو فى لوحاته مغلفين بالسحب التى تصعد بهم فى اتجاه نور الله مع فارق واحد هو أن نظراته هو كانت بعيدة عن أى نتشنج بل إنها كانت مثبتة باستمرار على جدران المقابر وعلى أعمدة المعابد ، دائمة البحث عن معلومة وعن مراجعة أو عن رمز جديد وعلامة مختلفة أو لفظ صوتى غير منتظر .

خطاب إلى فيچاك حرر بعد النزول إلى شاطى الأسكندرية :

« وصلت إلى أرض مصر فى ١٨ أغسطس ١٨٢٨ هذه الأرض الذى ظلمت أحلم بها لكل هذه السنين الطويلة عاملتني حتى الآن كأن حنون ويبدو تماماً أنى ساحتفظ وأنا فى رعايتها على الصحة الجيدة التى أتيت بها إليها . تمكنت من شرب ماء بارد كما أريد - وهذه الماء هى ماء النيل »

قبل الظهر بقليل يوم ١٨ أغسطس ١٨٢٨ تمكن المسافرون على « الإيجلى » من التعرف بواسطة المنظار المقرب على عمود السوارى (بومپى) الذى يتوسط الأسكندرية والذى بدى لهم « مهيباً » الميناء القديم - الغربى - بدا رائعاً فى عيون شامبليون . وسط هذا التشابك الهائل من السفن - منها الحربية سواء إنجليزية أو فرنسية - المكلفة بالحصار والسفن التركية والمصرية التى نجت من كارثة نافرين يكتشف جان فرانسوا « مشهداً فريداً يكفى لتحديد طبيعة هذا الزمان ... » لأنه المصرى « كما سنرى فيما بعد سيبقى دائماً مصرياً بالكامل ويشرك مصير مصر الحية ببعث الإمبراطوريات التى أختفت .

بعد أن قادهم العاملون فى قنصليتى فرنسا وتوسكانيا إلى اليايسة أركبهم الحمير، ويكتشف صاحبنا المكتشف على الفور بحسه وبعينيه المحبتين صفات هذا الحيوان التى ليس لها مثل من الرقة والسحر والشجاعة رجل يرى حمير وادى النيل بهذه النظرة ويصفهم بانهم « أصحاب الشعر المائل إلى الأحمرار والملمس الحريرى » كان بالفعل جديراً بأن يقرأ مصر ككتاب مفتوح :

« وهكذا كان نخولنا الهجومى على محل إقامة البطالة القديم . غير أنه لم يتمكن

من أخفاء ارتبأكه أمام المشهد الذى أمامه : هل يمكن إعطاء اسم شوارع على

فوضى من المنازل المنخفضة للغاية معظمها من الطين وبها منتجات نادرة وهي غير منتظمة في خط واحد (..) إن المظهر الذى كان عليه السكان الذين كانوا يملأون الشوارع على الرغم من الليل كان ينم عن شئ غريب بالنسبة للقادم من أوروبا لدرجة أنه من المستحيل أن أعبر عن الشعور بالدهشة بل الدهول الذى سيطر علينا. كان هذا الخليط من المصريين نوى اللون الأسمر النحاسى والبرابرة نوى البشرة الأغمق والبونوى اللون المائل إلى السواد يزيد من حدته لباسهم الأبيض ، ومن الزوج الاحباش كانوا جميعا يسرعون ويتلامسون ليتقافوا راكبي الخيل أو الحمير فى هذه الشوارع الضيقة ، وكذلك الطواير الطويلة من الأبل الحزينة والبطيئة والمربوطة فى أذيال بعضها - كان كل ذلك غريب فى حدته لدرجة أنى شعرت بانى أمام مشهد من مشاهد الأوبرا .»

نعم .. إنه بالفعل مستدرج إلى كوميديا فريدة من نوعها سواء كانت جادة أو هزلية ومخرجها هو برناردينو دروفيتى . أستقبله بالطبع القنصل ويصحبته كوزماو دومانوار وشارل لونورمان « بكل ترحاب » ، إلا أنه أسرع بإفادته أنه كتب له فى شهر مايو خطابا يعترض فيه على الرحلة ولكنه أقر « بأنى مادمتم وصلت فكان عليه أن يستقبلنى » وأن الباشا* سيعطينى كافة التسهيلات المطلوبة خاصة وأن الاتفاق الذى وقع فى السادس من يوليو بين الحلفاء الأوروبيين والخاص بجلاء القوات المصرية من المورة قد خفف من التوتر فى العلاقات بين القوى المسلحة وأوروبا . وفى النهاية كان دروفيتى حريصا على أن يؤكد أهتمامه بزواره كما وضع تحت تصرف شامبوليون الشقة الخاصة بالقنصلية والتى كان يقيم فيها كليبر فيما مضى وكانت مريحة للغاية .

لم يمض على جان فرانسوا وقت طويل لكى يستشرق . خطاب لأخيه :

أتحمل الحرارة بأفضل ما يكون : يبدو أنى ولدت فى هذا البلد . ويجد الفرنجة** أنى شديد الشبه بالاقباط . شاربى أسود اللون على أفضل ما يكون أصبح طوله محترماً ويعمل من جهته أيضاً على التاكيد على ملامحى الشرقية . وبالنسبة فقد اكتسبت بالفعل العادات المحلية وأشرب العديد من فناجين القهوة وأدخن ثلاثه شيشات فى اليوم . مذاق الطبايق لذيذ وأخلط كل سحبة نفس برشفة من القهوة .. ذات الطعم اللذيذ وتجدها فيها ماتشربه وتأكله فى ذات الوقت ... ثم نوم الأيلولة بعد الغذاء لساعتين حتى أربع ساعات »

* محمد على بالطبع

** يقصد الأوروبيين

كتب إيبوليتو روسيليني في خطاب متزامن مع هذا الخطاب وموجه لچاك - جوزيف أيضا يعبر فيه عن سعادته البالغة بالمظهر الباعث على الإحترام الذي يبدو عليه « صغير » « شواربه والشيشة التي يدخنها مثلما يفعل عجوز تركي » .. ونفس هذه الملاحظات نجدها ضمن ماكتبه لوت ولونورمان . إن أسمر البشرة القادم من مدينة فيچاك يبدو كما لو أنه في داره هنا في الشرق كما لو كان قد عاد إلى أرض الوطن ..

كان يشعر أنه مدلل للغاية يعتنى به القنصل أشد العناية .. إلا أن صحة هذا الأخير تعلقة إذ أن حمى « الدنج » * تنهش صحته الجسدية والحزن صحته النفسية : كان دروفيتي مثيرا للشفقة ويتحتم إعادته للوطن كما قال « صغير » لچاك - جوزيف سيصبح بعد عدة شهور « رجلا ميتاً » . لكن جميع أمراض الحمى والقلق التي في العالم لن تجعل القنصل أقل خبثاً : وسيعطى جان فرانسوا بعد أيام قليلة أهمية أكبر لمكر مضيفه على مرضه الجسدي أو كآبته النفسية . المكر الحقيقي يعبر عن نفسه أولاً بحسن المعاملة . فبعد أن استقبل جان فرانسوا « بكل حنان » حصل له على موعد للقاء الباشا . وبعد أقل من أسبوع من رسو « الا يجلى » في الميناء قاده مع القبطان ولونورمان إلى الديوان . ووصف اللقاء الذي كتبه جان فرانسوا لا يخلو من الحيوية . إلا أننا سنختار أن نسرد هنا ماكتبه شارل لونورمان لأنه مدهش :

« ... بعد أن عبرنا قاعة إنتظار مزدحمة بالحراس وجدنا أنفسنا داخل قاعة فسيحة بها أكثر من عشرين نافذة وفي زاوية منها جلس عجوز صغير الحجم تعبيرات وجهه جادة مثل رئيس المحكمة الملكية لولا أنه كان يغطي رأسه بدلا من القلنسوة المربعة - بعمامة من قماش الموسلين الأبيض وبدلا من الرداء الأحمر بمعطف لونه أزرق فاتح . وكان طول النرجيلة التي يدخنها حوالى عشرة أقدام مرصعة كلها بالماس وحجر آخر كريم . وكانت هذه هي قطعة الأثاث القيمة الوحيدة في المكان . (...) ما أن دخلنا إلا وصرف العديد من موظفيه الوزراء الذين كانوا يعملون معه بإيمانة واحدة وأشار لنا بيده لكى نجلس . ثم بدأ الحديث مع مسيو دروفيتي الذي تحدث باسمنا وترجمان القنصلية الذي كان ينقل إلى الفرنسية مايقول الباشا بالتركية [...] سأل إذا كنا سنبدأ بالذهاب إلى قمم الفراعنة (هكذا يسمى الأتراك الأهرامات) وفيما كان الرجل يشبعنا بابتسامة رقيقة لم تغادر شفتيه ، كنا نراه يطلق علينا من وقت لآخر نظرات كنظرات الأسد تشتت منها على بعد فرسخ كامل رائحة سفاح الممالك .

* حمى شائعة في أفريقيا الشمالية خبيثة للغاية كاد أن يموت بها الجنرال ديغول بعد تلك الفترة بمائة وأثنى عشر عاما .

« علاوة على ذلك فلا شيء أدهشنى أكثر من وجه هذا الرجل الطيب . كنت حفرت فى مخيلتى صورة الشخص المرسوم فى لوحة « هوراس » * الإسكيتش (الرسم السريع) الذى رسمه مسيودوفوريان خلال رحلته . وكم كانت دهشتى كبيرة إذ قابلت بدلا من هذه الرأس الأثرية وهذا الأنف المعقوف وهذا الوجه الأملل الذى أظهره مديرنا الرومانطيقى ، رجلا قصير القامة ذا أنف مستدير وعينين جميلتين ولحية عجوز وقور وحركات سريعة متلوية مثل حركات ماركيز من نابولى . كل ذلك كان مختلطا بحركات أخرى مفاجأة وأوضاع متغطسة لم تسمح لنا بنسيان أنه زميل « جزار » ** .

نعيد الكلمة من جديد إلى شامبوليون . بعد أن أعلم سيد مصر بأنه عازم على أن يندفع جنوبا حتى الشلال الثانى أى النوبة ، التمس منه الحصول على فرمانات الاعتماد التى يستحيل القيام بالرحلة بدونها : « حصلت عليها فوراً وكذلك على شويشين من شواشية الباشا ليظلا فى صحبتنا حتى نحترم من الجميع وفى كل شيء » وهو بذلك يبدو ساذجا بعض الشيء إذ يخلط بين حسن إستقبال المضيف وقرار المتسلط ... مهما كانت نياته حسنة - إذ إستقبل فى اليوم التالى روسيليني وبقية الوفد التوسكانى وطلب منهم إعتبار « مصر كما لو كانت بلدهم » ... فإن محمد على رجل سياسة قبل كل شيء : وهو لذلك لم يرحب بالأنباء التى أفادت بقرب إنزال قوات فرنسية فى المورة التى جلا عنها مؤخراً بضمان من القوى الأوربية . وبدا ذلك كما لو أنه أخلى الساحة من أجل تسهيل إحتلال فرنسا لهذه الجزيرة وبذلك يكون قد خان مليكه وحليفه سلطان القسطنطينية ... وهو ما يسمى « عملية إخراج »

وسبق أن رأينا بعض الروم *** يفقدون رؤسهم لأسباب أقل خطورة من ذلك يقول شامبوليون أنه لاحظ أن الشعب « عبر عن تأييده التام وأكثر من أى وقت مضى للفرنجة وخاصة الفرنسيين **** » الذين يحظون بحب خاص فى القلوب (..) وذلك لأن الضباط العثمانيين المحيطين بمحمد على يسيئون معاملة الشعب ويستبدون به ... « إجم !! نجد هنا نفس النظريات التى نجمت عنها الحملة على مصر فى ١٧٩٨ وكان ثمن ذلك أن القاهرة ثارت مرتين ضد بونابارت وأغتيل كليبر ... ولذلك فإن جان

* لغارنيه VERNET

** جزار باشا « الجزار » الذى نكل بالسوريين .

*** كانت هذه التسمية تطلق فى الماضى على الاتراك .

**** الفرنجة FRANCS تطلق على الأوربيين عموما أما الفرنسيون FRANÇAIS فهم الفرنسيون

فرانسوا يقول نادماً « إن عصر الأبطال قد ولى . »

سواء كان الشعور العام هو حب الفرنسيين أم لا فإن دروفيتي الذى أحس بخطورة الرحالة الجمة على مصالحه الخاصة إستغل مضايقات الباشا وحولها ضد الزوار الجدد .. وسرعان ما أدرك شامبوليون الهدف من وراء تلك المناورات وكتب فى العاشر من سبتمبر إلى أخيه يوضح أن تحذيرات القنصل مثل تلك إلى أرسلها فى ٣ مايو لا تقوم سوى على « حسابات مصالحه الخاص » لأن التجار جميعاً « إهتزوا » عندما علموا أن الزوار الجدد لم يحضروا للزيارة فقط وإنما للتنقيب عن الآثار وكان ذلك وراء « التجمع المناهض الذى تشكل ضد تسليمي فرماناتى الخاصة بالتنقيب » .

فجأة كل ما كان يبدو سهلاً للغاية فى ٢٢ أغسطس أصبح معقداً فى سبتمبر . أفادهم الباشا بأن التصريح بالتنقيب يظل حكراً على أصدقائه دروفيتي وأناستازى النشط جداً والشره جداً وهو قنصل السويد : ووجد شامبوليون من ينصحه بعدم التفكير نهائياً فى التنقيب ... كان رد فعله فى منتهى العنف . وكانت هذه المذكرة التى سلمها لقنصلية فرنسا العامة موجهة لحمد على :

« لما كنت قد حضرت إلى مصر فى مهمة للتنقيب لصالح متاحف الملك أرى لزماً على أن أعلم وزراء الملك بالأسباب التى تمنعنى من تنفيذ هذا الجزء من التعليمات التى أنيطت . أن منع حصولى على هذه فرمانات ينبع من مؤامرة هدفها تجارى .. ولما كان حضورى إلى هنا قدتم بإسم الملك مبعوثاً منه ومن حكومته بأن يحجب عنى رخصة منحت لأشخاص مثل بيلزوني ، باسالاكوا ، لايبورد ، ريفو الخ .. تعتبر إهانة للصفة المخلوعة على ، وإذا كان الباشا ووزيره حريصين على السمعة التى يتمتعان بها فى أوروبا وهى أنهما من حماة العلوم والفنون ، فإن إعطائى فرمان التنقيب يعتبر الفرصة الوحيدة لتشجيع وحماية العلوم لأن جميع فرمانات الماثلة لم تشجع ولم تساعد حتى الآن سوى مصالح شخصية وصفقات تجارية فى الوقت الذى لا تبتغى فيه عملياتى التنقيبيه سوى أهدافاً مختلفة تماماً ... »

ياااه!! فى مواجهة مستبد شرقى لايمكن اعتبار ذلك تقاعساً .. اذ جاء تصرفه سليماً تماماً ، كما أن - حسب قوله - «. الرأي العام السكندري » (٩) أيدته لدرجة أنه حصل على فرمانات وهذه المهمة دون منازع . أما دروفيتي وأناستازى - هذا الأخير عن طيب خاطر أكثر من الأول - فقد تنازلا عن حقهم فى التنقيب « فى الأماكن المحمية » . نهاية الفصل الثانى .

سحر مدينة الأسكندرية - التي يراها « ليبية » أكثر مما ينبغي بالنسبة له - تبدد بسرعة ولم يعد عمود « پومبای » يشد أنتباهه - ومن زيارة « لإیر کلیوباترا » مسلتين من الجرانيت الأحمر ترجعان في الواقع إلى تحتمس الثالث أهديت إحداها إلى ملك فرنسا « الذي يجب أن يرسل من يأخذها » . من هذه الزيارة يذكر شامبوليون على وجه الخصوص ظهور أحد الشحاذين المكفوفين فجأة أمامه قائلاً له : بالفرنسية « صباح الخير يامواطن ، أعطني شيئاً أنا لم أفطر بعد ... » أمام المفاجأة التي تسببت فيها هذه الكلمات الجمهورية أخذت من جيبى بعض النقود الفرنسية إلا أن الآخر صاح قائلاً إن هذه النقود لا تصرف هنا يا صديقي .. وعلى الفور طلبت قرشا تركيا وأعطيته للمواطن الأعمى .

في ١٣ سبتمبر إستقبله الباشا الذي ضاعف من إهتمامه بحسن الاستقبال واعلمه بأنه يمنحه « حماية مفتوحة » وأهتم بأن يشرح الأسباب وراء العناية به : بما أن الأمراء المسيحيين يعاملون رعاياه بكل عناية فإن من واجبه أن يفعل « حسب قوله » نفس الشيء . ثم وجه محمد على الحديث في إتجاه قراءة الهيروغليفيات وطلب الحصول على ترجمة مسلات الأسكندرية ووعده الزائر بأن يفعل ذلك على الفور . باختصار خرج جان فرانسوا من عند الباشا وقد حصل على هذا الوعد . حيثما ذهب وجد « التحية والترحيب » .

حان وقت الاتجاه جنوباً إلى القاهرة وصعيد مصر . جان فرانسوا « الجنرال » نظم الحملة ووزع المسئوليات والوظائف على الفرنسيين والتوسكانيين « كما لو كانت حكومة مصغرة تتحرك بجداول زمنية » . كلف الدكتور ريتشى بالصحة والتموين ، دوشان بالسلاح وبيبان بالتنقيب ولوت بالمالية وشيروييني بالامتعة .. النظام كان دقيقاً ، نظام الأكل محدداً ومواعيد الاستيقاظ أيضاً لن تطلق طلقة نار واحدة دون إنذار مسبق ، ورديات الحراسة ستكون بالدور .. لم يبق الكثير حتى يعتقد « صغير » أنه أصبح بونابارت * .

(*) لعل من المناسب أن نذكر هنا أعمار أعضاء الحملة وهم كسابقيهم عام ١٧٩٨ كانوا صغار السن جداً : شامبوليون ٢٧ عاماً ، لونورمان ٢٦ لوت ٢٤ ، لوهوه برتان ٢٦ سالور شيروييني ٢٣ والكسندر روشان ٢٤ - إيبوليتوروسيليني ٢٨ عاماً ، جايتانور وسيليني ٢٢ ايجيد اليلي ٢٥ الساندروريتشى بين ٤٥ ، ٥٠ عاماً وجيوسيبي راضى هو العميد ٥٧ عاماً

« سيحملنا على النيل مركبان شراعيان (خطاب لچاك - جوزيف) أولهما هو أكبر
« معاش » فى البلد وسبق أن ركب صاحبه السمو محمد على . أسميته إيزيس .
الأخر ذهبية * « أسمها أتير سنجر تحت رعاية ألهتين من أكثر الآلهة مرحا فى
عالم الآلهة المصرية »

ركب شامبوليون المعش بصحبة آل روسيليني الأثنين ومع لونورمان وشيروبينى
وبيانت ولوت انجيليللى ، فى حين سافر على متن الذهبية كل من دوشان وبيرتان ولوهو
(أما البروفيسور راضى ومساعد جالاسترى فقد تركاهم لبضعة أسابيع « لصيد
الفراشات فى الصحراء الليبية ») تبعهم خمسة من الخدم منهم الطباخ وخادم
الجنرال . المدعو سليمان « عربى بهى الطلعة » سيؤدى له خدمات جليلة . الأشرعة
فى ١٤ سبتمبر . للوصول الى النيل عبروا برعة المحمودية التي حفرها محمد علي عبر
الصحراء . وصف مارأه على ضفتيها بأنه « البؤس بعينه » ولكن لم يمض وقت طويل
حتى وصل الأسطول إلى الفرع الكانوبى للنيل حيث إنتشرت أعواد البوص وشجر
الجميز والتمر هندي وبدا المكان يعمل سحره عليهم .

مرت « إيزيس » أمام بلدة دسوق حيث توفى قبل شهور قليلة القنصل هنرى سولت
صاحب المجموعة الأثرية التي غيرت حياة صاحب الكشف . فى الصباح الباكر من يوم
١٦ وجد المعاش راسيا علي ضفاف بلدة صا الحجر إلى جوار آثار سايس المدينة
الأغريقية التي يقال أن أفلاطون درس بها فى شبابه ولاحظ شامبوليون أن جبانيتها
كانت ذات أبعاد « عملاقة » . جمع من أرضها « قطعة جميلة من الفخار المغطى بالطين
تمثل الإلهة نيث كبيرة الهه سايس » .

« عند استيقاننا صباح ١٩ رأينا أخيرا الأهرامات وكان فى إمكاننا تقدير كتلتها من
حيث كنا علماء بأنها كانت تبعد عنا بثمانى فراسخ . عند قمة الدلتا [بطن البقرة]
عند النقطة التي ينقسم فيها النهر فى ذراعين - رشيد ودمياط - المنظر فيها بديع
والنهر متسع بشكل يثير الدهشة . عند الغرب تقف الأهرامات وسط شجر النخيل ..
يتقابل العديد من السفن والمراكب فى جميع الاتجاهات خلفية اللوحة يحتلها
جبل المقطم الذى تتوجه قلعة القاهرة »

* هذا الاسم يطلق الآن على نوع من المنازل العائمة فى النيل - وكان فى ذلك الوقت يطلق على المركب ذات الصاريين

هاهى إمبابة ساحة المعركة المسماة « معركة الأهرام » . وميناء بولاق حيث لاحظ « الجنرال » وهو يرسو أن نزعت الوطنيه قد ارتفعت حدتها لدى سماعه كلمة « فرنساوى » وهي تقال بنوع من السرور ... دخلوا القاهرة في اليوم العشرين من الشهر وفي توقيت جيد إذ كان يوم المولد النبوى .. ووجد سائحنا فى هذه المناسبة مايرضيه ، مندهشا ومبهورا « بمظاهر الجنون الدينى » حيث يختلط «الموسيقيون وبنات الهوى » وبهذا الخليط من الألعاب الدنيوية والطقوس الدينية والتي حولت ساحة الأزليكة المغمور نصفها بالمياه والتي أختار بونا بارت أن يسكن فيها ، إلى مسرح ضخم للغاية « كان مشهداً غريباً للغاية لن أنساه أبدا » هكذا ختم ابن مدينة فيچاك رسالته .

بهرته المدينة الكبيرة ووصفه لها فى خطاب لأخيه مؤرخ ٢٧ سبتمبر يكشف عن عظمة الإحساس الجمالى عند هذه العقلية الفذة التي لم تقبع سجينه داخل عالم الآلهة والمقابر المشهورة :

« قيل عن القاهرة كلام سئ كثير : أما أنا فأجد نفسى سعيداً فيها بشوارعها ذات العرض الذى يتراوح بين ثمان وعشرة أقدام والتي ظلت محل نقد كثير لأنها تبدو لى محسوبة بدقة تامة لى تنفادى الحرارة الشديدة للغاية . ولو انها غير مرصوفة بالأحجار إلا أنها نظيفة لدرجة تثير الإعجاب وودت لو أن باريس لا تكون أكثر قذارة حتى فى الأيام التي تنظف فيها التنظيف الكبير (...) القاهرة مدينة ضخمة للغاية . معظم منازلها مبنية بالحجر أبوابها المشغولة بحفر على الخشب طبقا للمنط العربى تسترعى انتباهك فى كل خطوة .

(بها) عدد كبير من الجوامع جميعها أكثر جمالاً من بعضها البعض مغطاة بخطوط أرابيسك رفيعة الذوق ومزينة بمآذن بديعة لشرائها وجمالها [..] القاهرة من مدن ألف ليلة وليلة لولا أن البربرية التركية قد دمرت أو تركت جزءا كبيرا من المنتجات البديعة الفنون والثقافة العربية يدمر . أدبت أولى صلواتى في مسجد ابن طولون وهو من مبانى القرن التاسع وهو نموذج للرشاقة والعظمة ولا أقدر على وضع حد لإعجابى به وعلى الرغم من أنه نصف متهدم إلا أنه لايزال أجمل الآثار العربية الموجودة في مصر .

العلاقات التى أقامها هو ورفاقه مع أهل البلد كانت ممتازة منذ البداية وفيما عدا كلمة « رعاع » فإنه يمكن أن يكون هو صاحب هذه السطور التى خطها شارل لونورمان :

« إننا بشكل عام كنا نتصور أهل هذا البلد من بعيد على أنهم من الوحوش ، علماً بأننا إذا قارننا بين المتشردين فى الجانبين فإن الشحاذين هنا أفضل من سكان مدننا الكبيرة . الشئ المؤكد هو أن الفرنجة الذين يقطنون هذا البلد منذ فترات طويلة يشيرون إلى الرقة المتناهية التى تميز سلوك السكان العرب على طول أرض مصر »

قام شامپوليون بألف اكتشاف منها حديقة ملاهى الباشا حيث فاتته مشاهدة فرس النهر حياً « إذا أن الحيوان المسكين كان قد مات لتوه بضربة شمس بعد أن نام الأيلولة دون أن يأخذ الاحتياطات اللازمة » . كما أكتشف مجموعة من الانجليز لورد بروديه وبورتون والميجور فليكس ، هم جميعاً من دراسى الهيروغليفيات فى إصرار وتصميم . كانوا يعاومونه بعناية كما لو أن شيخ طريقة « . كما تعرف على لينان دو بالفون وهو مهندس متزوج من حبشية والذي منحه الباشا لخدماته الجلية لقب بك . كما تعرف أيضاً على سيدات مصريات .

« نظمت حفلة لشباب (البعثة) بعد وصولنا بيومين إلى القاهرة وأحضرت لهم ستة عوالم (أو بنات عاملات وهن عاملات جدا) ظللن يرقصن ويغنين من الساعة السادسة مساءً حتى الثانية صباحاً فى جو يسوده الخير والشرف » .

دعونا نمر على الخير والشرف مر الكرام وعلي العموم فلو أنه ظل عفيفاً فإن ذلك لم يرجع لأسباب صحية . فلنستمع إليه :

« صحتى مازالت ممتازة وأفضل مما كانت عليه فى أوروبا مادمت كتبت لك هذه الصفحات السبعة مرة واحدة دون توقف وهو ومالم يكن من الممكن أن أفعله فى باريس دون أن أصاب بتقلصات فى المخيخ . الحقيقة أنى رجل جديد تماماً . حلقت رأسى وأغطيها بعمامة ضخمة . أرتدى لباساً تركيا كاملاً . ويزين وجهى * شارب جميل كما يوجد خنجر كبير معلق على جانبي . هذا الزى دافئ للغاية وهو ما

* اللحية ستأتى فيما بعد وهى التى نعجب لها فى لوحة انجيللى والصور التى رسمت فى المرحلة الثانية من الحملة.

يناسب تماما الحياة فى مصر إذ أن العرق يتصيب منك داخله بغزارة تسعدك . هو شعور يزيدك سعادة بنفس غزارة العرق المتصيب منك . غير أن العرب يقسمون على أن الجميع هنا يظن أنى من المواطنين ، وبعد شهر من الآن سأضيف الكلام بلغة أهل البلد على خداع المظهر إذ أنى أقوم بتنقيح لغتى العربية وكثرة استخدامى لها فلن يعتبرنى أحد بعد قليل من المبتدئين .. » .

إنه رجل سعيد هذا الذى بدأ يتعامل مع « مصره هو » ، بعد أن استحسن جداً تلك التى صاغها وأعاد صياغتها العرب والماليك وبونابارت ومحمد على . بعد أسبوعين من الإقامة فى عاصمة الطولونيين أبحرت البعثة الفرنسية التوسكانية فى الأول من أكتوبر؛ هذه المرة فى اتجاه ممفيس الرائعة وفى المخطط زيارة سقارة والجيزة . هل يجب أن نتحدث هنا عن خيبه أمل ؟ إذا كانت محاجر طرة المنحوتة فى سلسلة الجبال العربية قد أظهرت للرحالة نصوصاً ديموطيقية مهمة جداً فإن الحال التى وجدوا عليها سقارة (قبل أن يزيج عنها مارييت الرمال وينقب فيها عن الآثار) ملأت قلوبهم بالأسى : فيما عدا الهرم المدرج وبعض المقابر التى كانت فى حالة جيدة مثل مقبرة مينوفرى فقد بدت لهم هضبة المومياوات «تافهة جداً بالنسبة للدراسات » .

« ... عندما وصلنا إلى قمة الهضبة تمكنا من تكوين فكرة عن التدمير الذى ألحق عبر القرون بمقابر الممفيسيين . تخيل هضبة هائلة تتخللها الأهرامات وتنهض فى كل مكان منها تلال صغيرة جداً من الرمال المغطاة ببقايا أوانى مخازن قديمة وقمطات من القماش الخاص بالمومياوات وعظام مكسورة وجماجم مصرية أبيضت من تأثير طل الصحراء وغير ذلك من الأشياء المكسورة كالفتات » .

إلا أنهم تمكنوا - فيما بين البدرشين وميت رهينة - من الإعراب عن الإعجاب بتمثال رمسيس الثانى * الضخم الممدد « داخل » الرمال والذي إكتشفه كافيلىا (من مدينة جنوا الإيطالية) وهو من رواد علم المصريات وكان منقباً جسوراً وحذقاً . وعبر صاحب الكشف عن تأثره العميق ...

« ... بأول أضخم تمثال من النحت المصرى وضعت صدفة الرحلة أمام عيني . تمددت أمام هذا الوجه الضخم ولكنه فى نفس الوقت متناسق تناسقاً سعيداً لدرجة أن تعبيراته لا توجد بها سوى الطيبة والدماء وتسللت إلى نفسى كل عظمة هذا التمثال البطولى .. وابتسمت مشفقاً على ذكرى وجهات النظر التافهة والمسطحة التى كونتها العقول الجبارة عندنا عن الفن ولا تزال تنادى بها عن المصريين عن هذا النحت الضخم وهو يشكل الجانب المحورى من معمارهم » .

" يرى شامبولىون إن هذا التمثال الضخم هو توأم « سيزوستريس تورينو » والذي قال عنه قبل ثلاث سنوات أنه « وقع فى غرامه » : ولا يوجد أى شك فى أنه يوجد فى تورينو وممفيس : بورتريهان لأعظم الفراعنة ** « ويضيف متحدثاً لفيجاك أنه لو حصل على الأموال التى تسمح بالتنقيب « على الواسع فى ممفيس فسيتمكن فى أقل من ثلاثة شهور من « تعمير » اللوفر بتمثيل مذهشة « حرك هذا الطلب - يقول « صغير » فى ختام خطابه - وأجعل الجميع يصرخون بأعلى صوتهم لى يحزم المتكاسلون أمرهم » هذه الكلمة بلاغية أكثر مما ينبغى وكان الأصديق أن يقول المخربون .

ها هو الآن فى طريقه إلى الجيزه - وكان الفيضان قد حول الصحراء إلى أرخبيل مما عقد مسار الرحلة واستوجب ذلك عدة ساعات قضوها على ظهر الحمير للوصول إلى مجموعة الآثار الأكثر شهرة على مستوى العالم :

« وصلنا منهكين نحن والحمير حيث تظللنا بعدة أشجار من الجميز على بعد مسافة صغيرة من تمثال أبى الهول الضخم . وبعد إستراحة قصيرة أنعشنا ، أسرعنا نحو الأثر الضخم الذى لا يزال يعطى فكرة واضحة عن النمط النحتى الجميل الذى

* وهو يقوم الآن وسط الميدان التى تطل عليه محطة القاهرة للقطارات .

** رأينا أن جاك فاندبييه وجان كابار شككا فى أن يكون تمثال تورينو يمثل رمسيس الثانى وهما يميلان إلى الاعتقاد بأنه لستى الأول.

شديد به وذلك على الرغم من كل التشوهات التي وقعت له . غير أن ملحوظة دينون * عن التراخي أو بالاحرى الـ Morbidezza الكأبة التي تنم عنها الشفة السفلى هي ملحوظة دقيقة جداً وندت لو تمكنت من إزاحة الرمال التي تغطي مخطوط تحتمس الرابع المنحوت على الصدر إلا أن العرب الذين أقبلوا علينا مسرعين حولنا من المرتفعات المحيطة بالأهرامات قالوا أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج لأربعين فرداً لمدة ثمانية أيام » .

لماذا إكتفى صاحب الكشف بهذا التعليق المختصر على أكثر آثار مصر غموضاً ؟ لذا يتعين الرجوع إلى لوت لنقل عنه تعليقاته لزملائه الشبان في ظل أبى الهول : « كان أبو الهول رمزاً للحكمة والقوة متحدتين وهى من الصفات الخاصة بالاله الذى يمنحها للفراعنة بدوره . رأس الحيوان ذو الوجه البشرى تصور الإله أى الملك المقلد هنا وهو أحد ملوك ممفيس ... » .

جان - فرانسوا شامبليون أمام الأهرام .. كما لو أراد أن يوفر علينا أى خطب أدبية طنانة اعترف ببساطة شديدة أن أمه خاب أو بالاحرى أنه شعر « بالإهانة » لأن « تأثير هذا الاثر الهائل فى الضخامة يقل كلما إقتربت منه » ، وأنه يجب « أن تلمسه بيدك لكى تدرك فى النهاية ضخامة الكتلة » .

ببساطه تليق بالشخصية - سيجى يوم يؤكد فيه أن « أيام ممفيس » كانت من أكثر أيام الرحلة تثقيفاً بالنسبة له ⁽¹⁾ إلا أن لايومياته ولارسائله عكست هذا التعليق . فهذه الزيارة إذا رجعنا إلى هذين المرجعين ** كانت المرحلة الضعيفة فى الحوار الاسطورى بين صاحب الرؤية و« مصره » . قراءة ما سيكتبه عن طيبة ستكون كافية للتأكد من ذلك .

لا نعرف لماذا توقف مخطوط يومياته عند هذا التاريخ : ١٠ أكتوبر ليعود متقطعاً بعد ثلاثة شهور . إلا أن مراسلاته التى ظل جاك - جوزيف يتلقاها بانتظام تعكس أحداث الحملة فى مراحلها المختلفة كما تعكس حالة النشوة المتسامية والمتعاطمة التى يعيشها صاحب الكشف منذ اللحظة - ١٨ أكتوبر - التى رفع فيها هلب مراكبه مبحراً نحو مصر العليا وبعد أن فقد أحد أعضاء البعثة : فبعد راضى « صائد الفراشات » (الذى سيلحق بهم فى مصر العليا) ومساعدته جلاستري - جاء دور أنطوان بيبان الذى راح يفقد إترانه مع مرور الوقت .

* راجع المقدمة ص ٣٢ .

** نقرأ فى رسالة لفيجاك مؤرخة من الأهرام فى ٨ أكتوبر « لا يوجد سوى القليل نوذية هنا »

و- كما قال « الجنرال » « لم يكن مفيداً فى أى شئ غير أنه نشر الفوضى بيننا [.....] وهرب من الحملة » .

إلى الجنوب .. إلى طيبة المجيدة إلى السعادة . الساعات الأولى لرحلة البحارة النهرية لم تسمو لمستوى آمالهم . المنيا ، سوعاده ، زوية الميتين . للوصول إلى الجنة كان يجب إنتظار الوصول إلى بنى حسن ، وتوقع جان - فرانسوا ألا يمكث فيها سوى بضعة ساعات : وإذ به يبقى فى هذا الموقع الذى أهمله « وصف مصر » ما يقرب من أسبوعين . وبالفعل أكتشف فيه الرحالة اكتشافين جوهريين : أولهما الرسم التصويرى الشعبى وثانيهما المعمار الضورى (الأغريقى) الأول .

كانت الرسوم الحائطية (فريسك) التى تزين كهوف بنى حسن تعتبر مطموسة إلا أن جان - فرانسوا لاحظ أنه « إذا مررنا عليها بسفنجة مرطبة لإزالة طبقة التراب » التى تغطيها ظهرت على الفور « أغرب مجموعة من الرسومات التصويرية التى يمكن أن يتخيلها بشر ، جميعها متعلقة بالحياة المدنية والحرف وهو - هذا هو الجديد فى الأمر - بالحياة العسكرية أنه حصاد ضخمة ! ولكنه أقل ضخامة فى رأيه من رسومات مقبرة أحد النبلاء إسمه نيوتيب التى على درجة من « الرقة والجمال تجعلها أجمل ما رأيت إلى الآن فى مصر » .

فى نفس الكهف حقق جان - فرانسوا كشفاً أذهله ! هو عبارة عن لوحة أمر بنسخها بدقة متناهية تصور أسرى طوال القامة « بيض البشرة وأنفهم معقوف . إنهم بلاشك من الإغريق وفى الغالب من الأيونيين ويعتبر ذلك الدليل القاطع الذى لا يقبل الشك » فى رؤية على العلاقات المتقدمة للفن فى مصر واليونان على التوالى . إنها بالفعل قضية قديمة لم تحسم !!

إلا أن أكثر ما سيعلق بذاكرته من هذا البحث المطول فى بنى حسن لعله إكتشافه ممر ضخمة منحوت فى الصخر ويتكون من « أعمدة تشبه لدرجة كبيرة جدا للوهلة الأولى الأعمدة الدورية الاغريقية فى صقلية وإيطاليا [.....] وهى مزينة بخطوط طولية وقواعدها مستديرة ... » قفز من مكانه وهو يؤكد : أين يمكن إيجاد دليل أفضل من ذلك على أسبقية وأبوية المعمار المصرى « على الفن الإغريقى » ؟

« رأينا فيها جميعا النمط الحقيقى للنمط الدورى الإغريقى القديم وإنى أؤكد دون أخشى أن أؤكد رأى كما فعل جومار بالنسبة للنمط الكورينثى والأيونى على أثار من زمن الرومان . لأن هذين الكهفين وهى أجملها جميعاً يحملان تاريخهما وهما من

عصر أوزورتاش الملك الثانى من الأسرة الثالثة والعشرين (تانيت) وبالتالى فهى ترجع للقرن التاسع قبل الميلاد » .

إنه يتهلل - « الجنرال » - عندما يراجع ملفات الرسومات التى يقدمها له كل ليلة لوت ودوشان وأنجيليللى وشيروبينى : ليس فقط لأنها جميلة بل هى أجمل مما كان يحلم بها ولأنها أيضا دفاع مستفيض عن نظرياته ونحن نعرف كم هو يحب أن يكون على حق وأن يجد الفرصة لكى يهزأ من چومار وراؤول روشات أكثر وأكثر !

خلاصة مؤقتة مرسلة إلى فيجاك : « أتجراً فأقول أن بهذه الثروات وحدها تكون رحلتى إلى مصر قد أصبحت أكثر ثراءً وأكثر إنتاجاً من جميع أوراق اللجنة * فيما عدا المعمار - والذى أعتنى بدراسته فى الأماكن التى لم يزرها أو يعرفها أحد . » .

فى ٢٨ نوفمبر بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار جنوباً قام جان - فرانسوا بمراجعة ماتم . حتى قبل أن يشاهد أياً من روائع العمارة المصرية - والتى لن يجدها سوى ابتداءً من أبيدوس فإن ماغنمه عن نواحي الحياة المصرية الخاصة والعامة والدينية والعسكرية تخطى كل ما كان يتمناه .

وفيما يتعلق بعلم الحيوان فقد جنى بالفعل ما يسعد صديقيه كوفييه وسانت هيلار ؛ إنه يدين لولائهما له بذلك على الأقل !!

إلا أنه مر أمام أنتبفرية وأشمونيين وفى حلقه غصة وقلبه مغموم لأنه لم يبق فيها أى من الآثار التى وصفها فورييه وجماعته قبل ذلك بثلاثين عاماً : لم يقلت شئ من ضراوة « ويزيجوت » مصر الذين دمروا كل شئ بتصريح من حكومتهم من أجل إنتاج شئ من الجير ... ومع ذلك فهل كان يشعر هو ذاته بالبرائه التامة بعدما أعترف بأنه إشتري رأساً لتمثال من تماثيل رمسيس الثانى بقرش صاغ واحد (ويحدد أن ذلك يساوى ٧ سو بالعملة الفرنسية) ؟ ومهما حاول أن يتبرأ من ذلك مدعياً أن ترجمانه ليس هو الذى قام بالصفقة التى اعتبر القيام بها شيئاً « مخلاً » فهو على الرغم من ذلك قد إحتفظ برمسيسه الذى دفع فيه سبع « سوهات » فقط .

وعندئذ تظهر داخل القصة شخصية لا بد وأنها كانت ستسعد فلوبار لوقابلها وهو الذى سيبحر على النيل بعد ذلك بعشرين عاماً وسيجرى حينذاك بعض اللقاءات المثيرة. كان اسمه محمد بك وكان مأمور طهطا ، أحد مراكز مصر الوسطى .. الخطاب الذى أرسلته هذه الشخصية الهامة يدعو فيها جان - فرانسوا للترفيه عن نفسه فى منزله جديرة أن ننقلها هنا ولو جزئياً :

* لجنة مصر التى يرأسها چومار .

« هو الله »

« يا أعز الأصدقاء ، يا أعز الخلان صديقنا العزيز . المبجل الجنرال النبيل المحترم حفظه الله .. بعد تقديم وافر التحية المصحوبة بتشوقنا الشديد [لرؤياكم] فإن المراد بهذا المكتوب هو ما يلي :

١ - أن اتعرف على شخصكم المجيد .

٢ - أن أفيد سعادتك إنّه فى تاريخه [تاريخ الخطاب] سنجلس سويا نلتقى ونزيد من تعارفنا ... » (2)

وكان الحفل على مستوى هذه المقدمة . ولما كان الرجل فيلسوفاً - حسبما قال « صغير » فإن هذا البك لم يرفض طوال السهرة شرب كأس من النبيذ أو النهل من البراندى . استمر الغناء والرقص حتى الصباح . رفع الجميع كؤوسهم تحية لملك فرنسا ولباشا مصر ثم غنى رفاق « الجنرال » الأغنية الشعبية « ملبروخ ذهب للحرب » *Malbrough s' en va-t-en guerre* ونشيد المارسييليز وقد طرب المأمور كثيراً لهاتين الأغنيتين لدرجة أنه أمر الموسيقيين بحفظ اللحنين . وتمتع الجميع بالتهام « أوزى صغير محشى » .. يامصر ياعزيزة !!

ومع ذلك فهو وإن كان يشعر أنه فى أتم صحة بدنية فإن « صغير » لم يستطع أن يخفى شيئاً من الحزن : فى ٢٤ نوفمبر أى بعد أربعة شهور من مغادرته طولون يقول لجاك - جوزيف أنه لم يستلم بعد خطاباً واحداً من زويه أو من أى أحد آخر . وهو لذلك يسجل أنه « لمصر بالكامل - وهى كل شئ بالنسبة لى وأطلب منها أن تواسينى مادمت لا استلم شيئاً من أوروبا » . أى لا من باريس ولا من ليفورن . إنه لا يتهم أحداً ويقول لنفسه أنه متأكد من أن الجميع يفكر فيه ويكتب له كثيراً .

ولكن الواقع هو أن لاشئ يصل إليه * . ولو أنه إطمأن على صحة زويه ، لأصبح أسعد الرجال . لأنه « فى نهاية الأمر موجود وسط مصر العتيقة وأن أسمى روائعها على بعد خطوات من مركبى .. »

أسمى ١٩ هى روائعها على كل حال . فقبل ذلك ببضعة أيام أى فى ١٦ نوفمبر توقفوا عند معبد دندره الذى أثارت أسطورته خياله لفترة طويلة . الوصف الجميل

* سيكتشف جان فرانسوا بعد ذلك ببضعة أيام أن دروفيتى يحتفظ برسائله . وكان يدخل فى إختصاصه بصفته ممثلاً لفرنسا أن يستلم ويراجع مراسلات مواطنيه . إلا أن الدبلوماسى جامع التحف تمادى فى التدقيق فى عمله : إذ على الجانب الآخر كان التوسكانيون يستلمون رسائلهم بانتظام .

الذى كتبه ثيخان دونون فى كتابه « رحلة إلى مصر » عام ١٨٠٢ والتعليقات الشفهية التى سردها العديد من الرجال أمام أصغر الشقيقتين شامبوليون بعد ذلك بعدة سنوات وكذلك الجدل الكثير الذى ثار حول موضوع الزودياك - خريطة الابراج السماوية - وسرقته من المعبد - وكان قد ندد به بشدة ، كل ذلك مجتمعاً جعل من هذا التوقف إحدى أكثر المراحل إثارة فى الرحلة ... خاصة وأن الرحالة وصلوها ليلاً ، ومهما كان القمر ساطعاً ومكتملاً فإن اكتشاف المعبد كان صعباً . ولكن فجأة :

« ظهرت لنا المعابد [.....] لن أحاول وصف الأثر الذى تركته فى نفوسنا واجهة المعبد الكبير . من الممكن قياس هذا الشعور ولكن إعطاء فكرة عنه هو المستحيل ذاته ... إنها الرقة والعظمة مجتمعين فى أعلى درجاتهما . بقينا داخل المعبد ساعتين فى حالة تجلى نرقص داخل قاعاته وفى يدنا سراجنا الضعيف محاولين قراءة المخطوطات الخارجيه على ضوء القمر . فى صباح اليوم التالى [...] اكتشفت أن ما أمام عيني هو قمة فى روعة العمارة مغطى بنحت تفصيلي من أردأ الأنماط .. أرجو ألا أغضب لجنة مصر فإن النحت البارز فى دندره كريحه لأنه من فترة الانحطاط .

كان النحت قد بدأ يتحلل [فى هذه الفترة] فى حين كانت العمارة أقل تأثراً بالتغيرات لأنها مصرية فبقت جدية بإله مصر وبإعجاب القرون جميعاً ... » .

شامبوليون الرحالة يتساوى فى القيمة مع شامبوليون الذى فى يده عدسة مكبرة بمعنى أنه مهما كانت عظمتة كعالم لغويات فإن المؤرخ وعالم الجمال فيه ليس بأقل عظمة . أن النظرة الواقعية والتمكن من المبادئ التى تقوم عليها مختلف فروع المعرفة والعلاقة التى يقيمها باستمرار بين التطورات التاريخية والإبداع الفنى وتجمع هذا الكم من المواهب يضمن لهذا المسافر الملهم السيادة والسيطرة . بهذا التفكير عاشت مجموعة مغامرى عام ١٨٢٨ حوله . روايات روسيليني وأيضاً لونورمان وكذلك لون وشيروبينى جميعها تؤكد ذلك .. ها هو مستعد للقاء طيبة ...

كتب يقول إن « طيبة - وهذا الاسم كان أصلاً كبيراً جداً فى فكرى - أصبح هائلاً منذ أن درست أطلال العاصمة القديمة ، الأخت الكبرى لجميع مدن العالم .. » وكذلك سجل أييوليتو روسيليني فى يوميات رحلته أن يوم وصوله إلى طيبة « كان الأكثر خلوداً وتعلقاً بذاكرتنا طوال حياتنا كلها » . وكتب إلى زملائه فى جامعة بيزا أن هذه الأيام القليلة لا تكفى لاكتشاف « كل الروائع التى تشكلها بقايا العاصمة الخالدة

جداً لضفاف النيل » . وفي طيبة سيحتفل شامبوليون بزواجه الأبدى مع محبوبته : مصر . دون أن يحيد للحظة واحدة عن وضوح الرؤية وصفاء الذهن الكاملين .

« ظلت أركض من رائعة إلى أخرى طوال أربعة أيام كاملة » .. إختار أن يبدأ زيارته بالضفة الشرقية للنيل . زار في اليوم الأول تمثالاً ممنون « ومقبرة أوزيماندياس المزعومة » ولم يصعب عليه أن يكتشف أنه الرامسيوم (وكان المصريون يسمونه حينذاك الرهامسيون) نسبة إلى التمثال العملاق الرائع الممدد على الأرض لرمسيس الثانى . وفي اليوم التالى كان فى مدينة حابو وفى اليوم الذى يليه - أى كان يسير على وتيرة السياح - فى وادى الملوك وحيث وقف مبهوراً أمام قصر « منحوت بزميل فى الجبل » . هنا ارتكب أحد أطرف أخطائه قاطبة . فبعد أن خرج من المعبد المشهور المسمى اليوم الدير البحرى ، كتب يقول :

« سجلت فى عجلة حقائق ذات أهمية قصوى بالنسبة للتاريخ ! اذ رأيت مقبرة أحد الملوك وقد طرقت نقوشها من أولها إلى آخرها ، فيما عدا الأجزاء التى نحتت فيها صور الملكة والدته وزوجته فقد حوفظ عليها بكل احترام وكذلك الأساطير الخاصة بهما . لا شك أنها مقبرة أحد الملوك الذى أدين بعد وفاته » .

« اليوم وبعد قرن ونصف فإن أى زائر من حاملى آلات التصوير يعرف أنه ليس « ملكاً مدانا » وإنما ملكة فرعون : الشهيرة حتشبسوت وأن المخرب الذى طرق وجه الملكة التى غزت بلاد بونت سلمياً هو تحتتمس الثالث العظيم ... لا يكفى أن يكون المرء عبقرياً ليمتلك الحقيقة ولكن يجب أن يأتى فى موعده .

فلنتذكر هذا التاريخ ٢٣ نوفمبر ١٨٢٨ ففيه عبر جان - فرانسوا شامبوليون النيل إلى الضفة الشرقية ليزور الجزء الشرقى من طيبة . فى معبد الأقصر توقف طويلاً أمام المسلتين المنحوتتين فى قطعة واحدة من الجرانيت الوردى « باتقان رائع » . هل جالت ساعتها بخاطره فكرة أن يرسل أحدهما إلى باريس ؟ لم يسجل ذلك على الفور فى مذكراته .. ولكن عندما وصل إلى الكرنك جائه الإلهام الحاسم أكثر حدة من الهام ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ وايضاً من ذلك الذى تملكه قبل ذلك بثلاث سنوات لدى دخوله إلى متحف تورينو :

« ذهبت أخيراً إلى قصر ، بل قل ، إلى مدينة الآثار ، إلى الكرنك . وهناك ظهرت لى العظمة الفرعونية فى أتم صورها أى أعظم ماتصوره ونفذه البشر على الإطلاق . كل ما رأيته فى طيبة وكل ما أعجبت به بحماس على الضفة الشرقية بدا

لى بائس وهزيل . أمام الأفكار العظيمة الأبعاد التى تصورت وأبدعت ما كان يحيط
بى هنا . سأمتنع تماماً عن وصف أى شئ وذلك لأحد السببين الأتيين : إما أن
تعبيرأتى لن تعكس سوى جزء من الألف مما يجب أن يقال فى الحديث عن تلك
الاشياء وإما سيقال عنى - أنا حاولت أن أرسم ولو خطوطاً عامة لها - أنى
مهووس بل - فلنقلها بوضوح - إنى مجنون .

لسنا فى أوروبا سوى أقزام ولا يوجد شعب قديم أو حديث تخيل العمارة بالقياس
إلى هذه العظمة ولا هذا الاتساع ولا هذا التسامى مثلاً فعل المصريون القدماء . لقد
تصوروا البشر فى أحجام تصل إلى مائة قدم فى الإرتفاع أما مالدينا نحن فلا
يتعدى خمس أقدام وثمان بوصات . أن الخيال فى أوروبا الذى ينطلق إلى أعلى
بكثير من بواباتنا يتوقف فجأة ليسقط عاجزاً عن المائة والأربعين عموداً داخل القاعة
الكبرى . فى الكرنك (الهيبوستيل) . »

لم يكن ليرضى مؤسس علم المصريات - مهما وصل به الإلهام ومهما أصبح هو
ملهماً - أن يكتفى بهذه الاشعار الغنائية إذ سرعان ما يتحكم العالم فى شاعر
التاريخ ، فيكمل بسرعة هذه المذكرات بملحوظات خاصة بالتسلسل التاريخي ،
فتأسيساً على « الوجوه » العديدة للفراعنة التى يراهم هنا أعلن أن تواريخ الأسر
الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرين وبما فى ذلك « لوحة أبيدوس » يجب أن تراجع
من جديد « وإذ به يصبح كالمجنون . فسحر الجمال امتزج بحماس الاكتشافات وكتب
يقول لجاك جوزيف بقلم يحركه الحماس « أرسل لك ما يكفى فقط لكى لا تموت
من الجوع . سأضطر إلى أن أمضى وقتى كله فى الكتابة لو اضطرت أن أنقل لك
بالتفصيل جميع إكتشافاتى ... » .

إنه يتهلل ويبعث ويجد ، إنه فى كامل السعادة . وتصبح لذلك رسالته كرسائل
العاشق السعيد . المناخ يناسبه . أهل النيل سحروه - حتى لو كانوا أتراكا يعوقون
تحركاته . وأخذ يصفى أحواله داخل « قصره فى القرنه » (قصر الطيبة اليابس)
حيث يتردد عليه العديد من الأغاوات والمأمير والزوار وطالبي الخدمات ومقدمى الذبائح
متبادلاً معهم الهدايا والأحاديث باللغة العربية الدارجة التى زاد تمكناً من ناصيتها
بمرور الأيام ، كما كانت تغزوه الخرفان والدجاج التى يحضرونها إلى « القيادة العامة
الفرنسية التوسكانية » . كان مثل روسيه قبل ذلك بثلاثين عاماً فى هذا
المكان « السلطان العادل » إلا أن عدله هو كان منزوع السلاح ووجد ليبقى .

كيف يمكن انتزاع نفسه من طيبة التي لم يتمكن سوى من أن « يلمسها » كما كان مقررًا في مخطط الرحلة ؟ يتحتم عليه ذلك ! ولكن بشئ من الصبر ! وبعد العودة إلى هذه الأرض الكلاسيكية ليدرسها « خطوه خطوة » سيتمكن من الكتابة بمعرفة وثيقة بالأشياء « ومن تقديم » نتائج كاملة النضج ، أما الآن فهيا بنا إذن نتجه إلى الشلالات .

أثار معبد هيرمونتيش حيرته بسبب عدم التأكد من تاريخ بنائه : وصفه أنه شئ يشبه المهد الأسطوري أقامته كليوباترا الأخيرة والأكثر شهرة من أجل ابنها قيصر بن أبني يوليوس قيصر . لم يكن قد اخترع بعد كلمة ماميزي التي فرضها هو فيما بعد ليبدل على المكان الذي تقيم فيه الملكات - الآلهات قبل وبعد فترة الولادة والتي يمكن التعرف بسهولة عنه داخل * المعبد ولكنه هو أمام عالم الرسوم المنحوتة البارزة من العصور المتأخرة ، فهي لم تبهره مثلما حدث في طيبة . وسيتكرر ذلك أيضا في مويس ** واسنا وادفو .. لا يوجد أحد طبع بفكرة « العصر المتدني » مثل شامبليون .

ولكن فيله ؟ ماذا عنه ؟ كان النقوس يعذبه لدى زيارته له . وحمله إلى المعبد أربعة رجال ولم يقل لنا عنه شيئا هذه المرة سوى أن « كل شئ فيه حديث » وأن النحت الذي فيه « بربري » وذلك على الرغم من أن أول مراسلات وصلته من أوروبا إستلمها داخله: رسالتان من أخيه وواحدة من زوجته إلا أن الحدث لم يثر لديه سوى تعليق حزين : « وإن الآخرين موجودون حيث يريد الله . ولكنه شئ والسلام ! ... وسأكتفى به » كيف يمكنه أن يشير بأقل حذر من ذلك إلى جاك - جوزيف - ومن خلاله إلى روزين أن ما كان ينتظره أكثر كان ما يجب أن يصله من ليفورن *** ؟

رحلة الذهاب ، أي صعود النيل لم تنته دون أحداث . وهو حدث كثر التعليق عليه وقدمه البعض على أنه كان بمثابة طلاق بين التوسكانيين والفرنسيين - وهذا غير

* قدس الأقداس في المعابد الاغريقية الرومانية يوضع داخله تمثال صاحب المعبد (المترجم) .

** تسمى كوم أمبو الآن .

*** إننا نعرف (لأنه كتب لها ذلك بعد عودته) أنه أرسل عدة خطابات لا نجيليكا من مصر : إلا أننا لم نرها .

صحيح . بعد ذلك اليوم - ٣١ ديسمبر ١٨٢٨ كما كان الحال قبله أعطى روسيليني وشامبوليون مثلاً نادراً عن التضامن الحق وعن التعاون الصادق بين الاشقاء وتشهد على ذلك مراسلاتهما وكذلك كلمة المديح المؤثرة التي ألقاها (ابن بيزه بعد وفاة ملهمه ومعلمه) . ولكن هذا لا يمنع أن ما حدث عبر الساعات الأخيرة من عام ١٨٢٨ كاد يثير أزمة بين اللجنتين .

إذا كانت « لوحة أوزورتاسن * » قد سميت « لوحة النزاع » (3) والتي انتزعت من هيكل إيزيس في بوهين بالقرب من وادي حلفا فذلك لأنها أعطيت للفرنسيين في بادئ الأمر باتفاق الجانبين ولكنها استردت بعد ذلك لحساب التوسكانيين على يد الدكتور الساندرو ريتشى دون علم شامبوليون (ولا روسيليني ..) « هل كانت حركة خداع فلورانتيني ؟ » الطريقة الى تمت بها العملية في الخفاء ودون علم الآخرين صدمت زملاء جان - فرانسوا الفرنسيين أما هو فلم يكثر لذلك كثيراً .

كان للدكتور ريتشى بعض الحق في تحديد من يأخذ اللوحة لأنه هو الذي كان قد اكتشفها خلال رحلة سابقة له في مصر . بل أنه قام بنسخها .

ومن جهة أخرى حدث أثناء تقسيم « الغنائم » ذاته بين توسكانيين وفرنسيين أن طلب شامبوليون وحصل على لوحة لرمسيس الأول إنتزعت من نفس الهيكل ، وبالرجوع إلى القواعد الموضوعية والتي احترمت حتى ذلك الوقت من المجموعتين فإن إعطاء إحدى القطعتين الهامتين للإيطاليين لم يكن فيه ما يصدم أحداً .

وانتهى الحدث بسرعة . ولم يأخذ الأمر حجم « النزاع » سوى بعد وفاة جان - فرانسوا عندما بدا كما لوأن أخاه الأكبر يتفنون في تسميم العلاقات الفرنسية التوكسانية سواء فيما يتعلق بما نشر أو بتحديد ملكية الثروات التي جمعت من مصر . للإبحار بين الشلالين بين سيان ** وادي حلفا كان عليهم تغيير المراكب لأن الأولى كانت أكثر اتساعاً مما لايسمح به ضيق مسار المركب في النهر وتعرجه . الاسطول الجديد تكون من ذهبية أصغر حجماً ولكنها مسلحة بمدفع (١) حقيقى وبين ست مراكب صغيرة أخرة تحمل الحراس الذين عينهم الباشا لحماية الرحالة : لأن سلامتهم في النوبة لم تكن مضمونه تماماً ...

* تم التعرف بعد ذلك على أنها لسيزوستريس .

** أسوان .

ديبود ، كلابشة ، دكه ، السبوع ، عمارة * قدموا تحياتهم لهذه الاطلال الدالة على الاستعمار الفرعوني لبلد وصل حد الفقر فيه إلى أن كاشف الدر - عاصمة النوبة - أخبر جان - فرانسوا أنه لا يجد شيئاً يقدمه له على العشاء وهو لذلك يدعو نفسه عنده ! لما كنا على علم بمقدار الكرم والأبهة التي يتسم بها حسن الضيافة في هذه البلاد يمكننا قياس « فخامة وإمكانات » هذه المنطقة كما فعل الرحالة في تعليق اتسم بالمرارة أرسله لأخيه .

تأثره للفقر المدقع الذي يعانيه هذا الشعب جعله يحتفل بعيد ميلاده الثامن والثلاثين في شئ من الحزن لولا أنه « عوض ذلك » بأن زار في ٢٣ ديسمبر ١٨٢٨ معبد در المنحوت في الصخر حيث تمكن من التعرف على أسماء وألقاب سبع أبناء وثمانى بنات لرمسيس الثانى الذى أنشأ هذا المعبد .

فى صباح ٢٦ ديسمبر ظهر لهم فجأة على سطح الماء المعبد - الجبل - المزدوج فى أبو سمبل ** : معبد نفررتارى *** المخصص لحاتحور ومعبد زوجها رمسيس العظيم الذى لم يجد من يكرسه له أفضل منه ذاته هو ! مثلما حدث لأسلافه بوركاردت ودروفيتى وبلزوني وكيو وجو وكذلك للعديدين الذين جاؤا بعده ، أخذ جان - فرانسوا شامبوليون العجب بل ذهل وتأثر بشدة أمام هذه الروائع بالغة الفخامة التى « تساوى وحدها الرحلة إلى النوبة » ولو كانت « فى طبيبه ذاتها » لاثارت الإعجاب أيضاً وهى ناتج مجهود « يرعب الخيال » . إنه إفتتان أوصلته إلى ذروته التماثيل الأربعة العملاقة التى يبلغ ارتفاعها ستون قدماً والتى حققت للمعبد مجداً عالمياً وهى « صورة » حية لرمسيس . « إنه عمل يستحق كل الإعجاب » .

اتضح أن زيارة المعبد العظيم المنحوت فى الجبل عملية وعرة ، لأن « الرمال والنوبيين الذين كانوا يدفعونها (نحوه) » سدت المدخل لكى يأخذوا أجراً مقابل نزحها . كان عليه أن يدلف للداخل وهو ممدد على بطنه من الفتحة الصغيرة التى حفرت فى الرمال مقابل فدية .. ثم بدأت التجربة القاسية التى وصفها لأخيه بهذه الكلمات :

« .. ظننت أنى تقدمت نحو فوهة أحد الأفران [...] فى جو بلغت درجة حرارته ٥٢ مئوية : زرنا هذه الحفرة الأثرية المدهشة روسيلينى وريتشى وأنا وواحد من أعرابينا وكل منا يحمل شمعة فى يده .. » .

* أسماء تكاد تكون عادية الآن بعد حملة اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة تحت إدارة كرسيتيان ديروش - نوبلوكور .

** كان يسمى ابسامبول فى ذلك الوقت .

*** كان شامبوليون يسميها نفرى - أرى .

وبعد أن وصف التماثيل الرمسية الضخمة الثمانية والرسومات المحفورة الرائعة التي تصف المعارك ، والقاعات الستة عشرة والتماثيل الأربعة في قدس الأقداس خرجوا من الأتون بعد ساعتين ونصف ولكن في أى حالة ؟

« ... أرتديت صديريين من القطن وبرنس من الصوف ومعطفي الضخم الذي وضعوه على كتفى لحظة عودتى إلى الضوء : وهناك جلست إلى جوار أحد التماثيل العملاقة الخارجة .. والذي حجبت عنى بطن ساقه الهائلة الضخمة ربح الشمال ، استرحت لمدة نصف ساعة حتى تمضى مرحلة العرق الشديد ، عدت بعد ذلك إلى مركبى حيث ظلت أعرق لساعة أو ساعتين . أثبتت هذه الزيارة التجريبية أنه بالإمكان البقاء لساعتين ونصف أو ثلاث ساعات داخل المعبد دون أى ضيق فى التنفس ولكن مع وهن بسيطة فى السيقان والمفاصل ، واستخلصت من ذلك أن لدى عودتنا ستمكن من نسخ الرسومات التاريخية المحفورة على أن يقوم بالعمل فريق من أربع أفراد (حتى لا نستهلك الهواء) لمدة ساعتين صباحاً ومثلها مساءً ، أنها ستكون حملة مرهقة » .

فى نفس هذا المكان بعد عشرين عاماً كتب جوستاف فلوپار فى مذكراته :

« منظر الشمس إذا نظرت إليها من باب مدخل المعبد الكبير يعطيك إحساساً بأنك تنظر إليها من خلال شبك صيفى فى بدروم .. تطلق الخفافيش صرخة قصيرة حادة ، تذكرت المزارع النورمانديه فى الصيف عندما يكون الجميع فى الحقول عندما تقترب الساعة من الثالثة بعد الظهر .. » .

ثم بعد بضعة أيام بالقرب من وادى - حلفا سمعه مكسيم دوكشان يصرخ قائلاً « وجدتتها !! سأسمىها إما بوفارى ! » ..

فى الأول من يناير ١٨٢٩ وبعد أن ودع « الجنرال » شارل لونورمان الذى كان قد أعرب له عن نيته بأنه سيكتفى برحلة الذهاب فقط ثم يعود إلى فرنسا - زرع علمه عند نقطة النهاية المحددة للرحلة عند الشلال الثانى وهو عبارة عن « حاجز من حجر الجرانيت نجح النيل فى هزيمته وتخطيه ؛ ولكننى لن أذهب إلى أبعد منه » .

وهو يعكس إتجاه الرحلة لى ينهى مرحلة المشاهد السريعة التأثيرية ويبدأ مرحلة الدراسة العلمية ، أرسل بالبيان الأول بالنصر إلى فيجاك . وهو إذ يؤكد له أن « عمله الحقيقى يبدأ اليوم » مع العلم بأنه نفذ بالفعل « أكثر من ستمائه رسم » . يقول

أنه « يكاد يكون فى حالة رعب إزاء » الذى بقى عليه أن يؤديه . ولكنه يعتقد إنه سينهى مهمته فى غضون ثمانية شهور ، « شهر للنوبة ، وستة أو سبعة شهور لطيبه حتى منتصف أغسطس » يليها نزول سريع على النيل مع التوقف فى دندره وأبيدوس لأن « الباقي موجود بالفعل داخل الحوافظ » .

وعلى هذا الأساس فإنه يقدر موعد الإبحار إلى أوروبا فى أول أكتوبر .

فى ليلة ٣١ ديسمبر إلى الأول من يناير ١٨٢٩ وهو فى وادى حلفا وصف لجاك - جوزيف لقائه الأول مع عمالقة الجبل ، وأضاف (فى ملحوظة) أنه سيكتب لزوجته من أبو سامبول بعد أسبوع ... أما أول أيام العام فقد كرسه للكتابة أولاً إلى شخصين : صديقه تيفونيه وعزيزه مسيو داسييه .

كتب يقول للأول :

« .. أرجو لك عاما سعيداً [...] وكذلك لجميع أصدقائنا الطيبين الذين ستقبلهم بالنيابة عنى .. على الرغم من المسافات فإنى لا أنسى من أحبهم » فمهما أكون فى أعماق النوبة وملتحياً مثل أحد الرهبان الكابوسيين وأرتدى زى عرب الصحراء ولا أعرف ما هى القبعة أو السروال ، مهما كنت أكل الارز بأصابعى وأدخن النرجيلة ثلاث مرات يومياً وأشرب ماء النيل بكميات كبيرة فإن كل ذلك لم يتعد بشرتى ولا زلت فى أعماقى دوفينى « معفرت » .

ها أنا قد وصلت إلى آخر مدى رحلتى إذ أن الشلال الثانى أوقف أسطولى [..] كان بودى أن أذهب إلى أبعد من ذلك لولا أن للضرورة أحكام ولولا أن قافلتى التى تضم ثمانية وعشرين فما (دون أن أضع فى الحساب فم المدفع) تواجه الموت جوعاً فى أعماق هذه النوبة التعيسة فإنى منذ البداية قد حددت هنا (حداً لرحلتى) . وما أنا أهبط مع النيل حاصداً كل ما سأجده من الهيروغليفيات فى طريقى .. » .

ولكن الرسالة الجوهريّة التى صدرت منه فى ذلك اليوم كان متلقيها هو جان بون - جوزيف داسييه : من المؤكد أن من جميع الرسائل الموجهة إلى مسيو داسييه فإن رسالة سبتمبر ١٨٢٢ هى التى تسترعى إنتباه الأجيال التالية ، إلا أننا نكاد نولى إهتماماً مماثلاً لتى كتبها على ظهر ذهبية « الجنرال » الراسية بجانب الشط الرملى فى وادى حلفا فى الصباح الباكر الأول لعام ١٨٢٩ . إن ما كتبه عام ١٨٢٢ كان المقدمة أما نص ١٨٢٩ فهو خلاصة النهاية . فلنحكم بأنفسنا :

« وادى حلفا فى ١ يناير ١٨٢٩ »

« .. أشعر بالفخر الآن ، بعد أن سرت مع مجرى النيل من مصبه حتى الشلال الثانى ، لأنه يحق لى أن أعلن لكم أنه لا يوجد ما يستوجب أى تعديل فى خطابنا عن الأبجدية الهيروغليفية . إن أبجديتنا سليمة : وهى تطبيق بنجاح تام أولاً على الآثار المصرية فى عهد الرومان واللاجيد (البطالسة) وأيضاً - وهو ما يثير اهتماماً أكثر من ذلك بكثير - على ما خط على جميع المعابد وسرايات ومقابر الأزمنة الفرعونية . كل شئ يضيف الشرعية إذن على التشجيع الذى تفضلتم به على فى أعمالى الهيروغليفية فى وقت لم يكن فيه أحد على الإطلاق مستعداً لمنحها أية فرصة » .

ها أنا ذا عند أقصى نقطة من رحلتى نحو الجنوب [..] سادير إذن مقدمة سينتى فى إتجاه مصر لاهبط النيل وأنا أدرس بتعمق الآثار التى على الضفتين [..] حسبما رأيت وبالقيااس الفكرة العامة التى كونتها فى رحلة الصعود فإن الحصاد سيكون من أكثر ما يكون ثراءً ووفرة » .

ساكون فى طيبة فى منتصف فبراير تقريباً لأنى مضطر إلى تكريس خمسة عشر يوماً لمعبد أبسمبول العظيم فهو إحدى روائع النوبة [..] أما معابد أرمبوس (كوم أمبو) وإدفو وإسنه التى أشادت بها كثيراً « لجنة مصر » على حساب معابد طيبة - التى لم يشعر بها هؤلاء السادة ، فهى ستستوقفنى بعض الوقت فقط [..] لا يمكننى أن أنهل سوى من المنايع الأصيلة [..] ملفاتى عدت ثرية جداً : أنى أشعر مقدماً بالسعادة لأنى سأضع أمام أعينكم مصر القديمة كلها على التوالى : الديانة والتاريخ والفنون والصناعات والعادات والتقاليد [..] رسوماتى [..] لا تشبه فى شئ رسومات صديقنا جومار لأنها تنقل الأسلوب الحقيقى للأصول بأمانة متناهية . وسيتمكن روشات من أن يرى بنفسه أن كل المصريين لم يفعلوا - كما يحسن الإدعاء - سوى إله واحد وملك واحد ورجل واحد وهو لم يكن رجلاً ولا ملكاً ولا إلهاً .. إن طيبة كلها - وهو أقل ما يقال - هى احتجاج هائل على هذه الجملة .. » .

هل يوجد نص آخر يكشف أكثر وبأفضل من هذا عن بطلنا ؟ كل شامبوليون موجود هنا : إعتزازه بنفسه فى حساسيته ، وكرمه فى بساطته ، وإنفتاح فكره للتضامن ، وحبه للنضال دون كلل ضد كل من يرفض من أقرانه فكرة تفوق المكتشف وأسبقية الحضارة المصرية على الحضارات الأخرى .

نجد فى هذا النص العظيم - نود أن نقول هذا النص المهيب والذي لا يخلو فى ذات الوقت من الفخامة - بأعجاب ممزوج بابتسامة ساخرة بسبب طريقته هذه فى إشراك من يحبهم فى عمله (« خطابنا » و « أبجديتنا ») مدفوع بكرمه بمزاجه الشخصى المسيطر ولكن أيضا تمسكه المتعالى بحقوقه المكتسبة وكرامته (« أشعر بالفخر » و « يحق لى أن .. »)

شامبوليون - نعم - الرجل ذو الاسد بل الرجل ذو الأسدين ، المسيطر ، الشمسى ، « جنرال النيل » هذا الذى أسماه مأمور طهطا « كنز الأصدقاء - حفظه الله » ، جان - فرانسوا الملهم ، الذى وصل إلى « عواميد هرقل » من حقه أن يتأمل هذه القرون التى ينقذها وهذه العوالم التى يقرأها - بالفعل - مثل كتاب مفتوح .

١٧ - مصر كتاب مفتوح

زجاجة طافيا - « الجنرال » داخل الأتون - من أبوسمبل إلى فيله - « الأقصر
التي ليست ! » - مليماً واحداً للتنقيب - « حفلة أكل » فى مقبرة - السماء والجحيم
اللوحة التصويرية الهوميرية فى الرامسيوم - « صوت الاجداد . » - مصر تدعو للشفقة
... محمد على وإبراهيم - سلف مارييت - فوق سطح الاسترولاب .

« ... رحلنا جميعاً الساعة التاسعة صباحاً بعد أن أنزلنا أشرعتنا من صواريخها لأنه
لم يكن علينا سوى السير مع التيار . فمنذ هذه اللحظة ! أسترنا فى اتجاه الشمال
وشعرت بسرور بالغ للسير فى هذا الاتجاه الذى كان يقرب فى كل لحظة المسافة
التي تفصلنى عن طيبة وعن باريس أيضا .. » .

غنى المجدفون لحن الرحيل ووجه « الجنرال » منظاره شطر الأحجار
الظاهرة على سطح الماء فى الشلال الثانى . بدأ ايجيللى يخط الخطوط العريضة
لأحد رسوماته . أنهمك نستور لوت فى كتابة مذكراته ، راجع شيرويينى الحسابات
ورتب البروفسور راضى فى المركب الثالثة نباتاته وأحجاره النادرة التي ألقى بها نوبى
متحمس فى النيل بعد بضعة أيام لأنها فى تقديره كانت ثقيلة للغاية ! هكذا بدأت رحلة
العودة فى الأول من يناير ١٨٢٩ وهم على ثقة من أنهم سيغنمون الذهب الذى لحوا
فعلاً بزيقه : لم يبق عليهم سوى الحصاد من خلال الرحلة العلمية الحقيقية للرحلة .

لم يكن جان فرانسوا شامبوليون فى حالة من النشوة تجعله ينسى الجانب
الاحتفالى لهذا اليوم : فالأول من يناير يحتفى به تحت أى سماء . مع هبوط الظلام
رست المراكب بالقرب من ساقية . « الناعورة » التي يجرها زوج من الجاموس التي
ترمز صورة نورانها - فى لونهما الأسود - إلى المشهد الريفى المصرى . وبدأ الحفل :

« كان الطعام لذيذاً بالنسبة لعشاء نوبى : وتفوق طاهينا على نفسه وأضفت
زجاجاتان من نبيذ سان - جورج علماً بأن الحرارة الاستوائية قد أثرت سلباً عليها

بالفعل - على الوايمة جواً من الاحتفال يتناسب تماماً مع مناسبة أول أيام السنة .
بعد العشاء تم توزيع البقشيش على الخدم . ثم تناول جميع أعضاء البعثة القهوة
على ظهر الذهبية - الاميرالية . ثم شربنا زجاجة راتافيا من جرونوبل بالكامل
فى نخب نجاح الحملة » .

« لم يكن علينا سوى السير مع التيار » كان « جنرالنا » متفائلاً بعض الشيء
الآن . الهواء البحرى الذى كان يهب ، على مراحل ، كثيراً ما كذب هذا التوقع . ولم
يكن المجدفون وحدهم الذى اشتكوا من هذا الوضع ، ففى اليوم التالى إنطلق الريح
الشمالى (كذا) فى غضب وعلت أمواج النيل كما يحدث فى خليج الأسد عند هبوب
ريح المترال حتى أن جان - فرانسوا الذى كان يفتخر بأن معدته « بحرية » جداً عندما
غادر ، ولون - راح يتألم من دوار البحر .. كانت ليلة صعبة للغاية . وانتظر الرحالة
ظهور صباح يوم ٣ يناير لكى تنكشف أمام أعينهم الصورة الرائعة للنيل الغاضب وهو
يهاجم الشلال الرملى لأبو سنبل .

رسا الأسطول الصغير عند أقدام التماثيل الجبارة - التى سارت مألوفة لديهم ...
- لمعبد نفرتارى التى بدت كما لوأنها تتقدم فى اتجاه النيل لكى تستحم فيه على بعد
عشرات الأمتار من « الصور » الضخمة لوجه رمسيس الجالس فى مواجهة الشمس .
يا إلهى ! كم هو جميل هذا المشهد : سيكتب جان - فرانسوا لأخيه بعد عدة أيام :

« إنى لأسف على أنى لا أملك بضعة صنايق الدنيا المسحورة لكى أنقلهم وسط
ميدان لويس الخامس عشر * لكى أسحق بضربة واحدة كل من ينتقد الفن
المصرى . كل شئ ضخم هنا نون أن نستثنى الأعمال التى بدأناها .

للأسف ! كانت ركبة جان - فرانسوا اليمنى تعذبه من جديد وكان قد نسي
« معدات النقرس » فى طيبة .. وقد حرمه ذلك من قيادة عملية « الغوص » الأولى داخل
المعبد الكبير من حيث أحضر « شباب » الحملة دوشان وبيرتان ولوت بمساعدة
« بربرى » من فيلة على درجة مدهشة من الذكاء اسمه عبد الوهاب - وكان قد سبقهم
روسيلىنى وريتشى وانجيليلى - بعد بضعة ساعات - نسخاً مرسومة جديدة
بالنحتيات الحائطية الرائعة للقاعة الكبيرة ذات التماثيل الثمانية الضخمة . وكان عليه
أن ينتظر ثلاثة أيام طوال أن يهدأ النقرس قبل أن يحاول بدوره المغامرة بالنزول فى
غلاية العجائب :

* حيث توجد المسلة اليوم .

« سرت مسنوداً من محمد ومن القواس أحمد - فى الطريق الوعر الذى يفصلنى من دهبيتى حتى مدخل المعبد الكبير . استرحت لبضعة دقائق ، حتى يتوقف تصيب العرق ، عند أقدام التمثال الضخم الذى على اليسار : وبعد ذلك خلعت ملابسى كلها تقريباً عدا كالسونى وقميصى وجواربى الصوف ونزلت إلى الأتون الذى تفاجؤك دائماً حرارته القوية للغاية فى اللحظات الأولى ، ولكن بعد أن يبدأ العرق يتصيب وينساب من جميع الأعضاء تشعر براحة أكبر وحينذاك بدأت استكشافاتى ، بعد أن راجعت وصححت - مستخدماً مقياس مدرج فى كثير من الأحيان - الكتابات المنحوتة التى على اليمين والتى نسخها روسيلينى . ثم بدأت رفع المخطوطات التى على اليسار مبتدئاً بالمخطوط الضخم الذى يعلن فيه لرمسيس أن الأعداء يهاجمون خطوطه وأن عربة المعركة قد أعدت .

[..] بعد أن خرجت من المعبد فى الرابعة والربع ، حرصت أن أفرط فى زيادة الغطاء بمعنى أنى حملت جسدى بقميص وصديريين من الصوف الناعم (الفلانيل) وردانجوت مزدوج الأزهر وبرنس ومعطف واسع من القطن بالإضافة إلى حزام عربى فوق الرودانجوت وبنطولونات جيدة من القطن تحت كل ذلك . وهكذا قطعت المسافة من المعبد حتى المركب دون أن أشعر بأى شىء من الريح البحرى الشديد جداً والمثلج الذى كان يعصف فى ذلك الوقت .. بقيت ممدداً فوق سريرى لمدة ساعتين . أتصيب عرقاً مباركاً وهو ما سيخلصنى مثلاً أرجو لبعض الوقت من الـ « النقرس .. »

استراحة . وبعدها مباراة فى الشطرنج الذى أخذ ميله له يزداد باستمرار . ولكن ها هو أحد النوبيين فى غاية الجمال وعلى رأسه غطاء فرعونى وتصدر عنه روائح قوية جداً ويحمل فى يده قيثاره جديرة بالأجداد . أنه شاعر ربابة أخذ يؤدى أغنية عربية تروى حملات إبراهيم باشا العسكرية وعبور أسطوله الجسور الشلال الثانى . وفجأة يغير المنشد من نغمته ويبدأ فى مديح رئيس الحملة :

جئت من بلاد الروم
أنت يا جنرالنا الكبير
موفداً من ملك عظيم

رسوت تحت جبل أبو سمبل
مرتديا معطفا من سمور
وعلى رأسك شال من كشمير
يا جنرالنا العظيم .

فى ١٢ يناير جعلهم ينزلونه عدة مرات داخل المعبد الكبير وكان يعتبره « لايزال بكرة » لشدة خيبة أمله فى أعمال بلزوني وجو بعد مراجعتها وكرس جلّ وقته لنسج لوحة نقش عليها مرسوم من بتاح لتحية رمسيس الثانى ، فى كل مرة كان يخرج فيها من فرنه كان يشعر بأنه أفضل مما كان قبل دخوله ، ولكن كان ربح الشمال العنيف ؛ حق به لدى خروجه لدرجة أنه كان يثير ألاماً فى « العينين والاسنان » فلا يصل إلى ذهبيته إلا وهو يترنج مع كل خطوة يخطوها . كم هو هش جنرالنا هذا فى جسده المتألم والذي كان يدفع بالآلم كل ثمن نصر يحققه !!

ومع ذلك فإن ما ان يشعر به هو كان السعادة الحقة إنه فخر حقيقى ذلك الذى يشع من هذا الخطاب المرسل لأخيه فى ١٢ يناير ١٨٢٨ :

« أود أن أصبح كل الذين يرفضون الايمان بالرشاقة التى يتسم بها النحت المرسوم هنا فيضفى على فن العمارة ثراءً على ثراء . أضمن أنهم فى أقل من ربع الساعة سيكونون قد تخلصوا من أفكارهم المسبقة مع عرقهم المتصبب منهم وأن جميع ما انطبع فى فكرهم دون تفكير سيخرج من جميع مساهم .

« روسيليني وأنا احتفظنا لأنفسنا بالجزء الخاص بالتعليقات الهيروغليفية المطولة فى كثير من الاحيان التى تصاحب كل شكل أو مجموعة من الأشكال فى الرسومات التاريخية المنحوتة - (الباروليف) . نقوم بنسخها فى مواقعها أو طبقاً لبصمتها على الورق عندما تكون مرتفعة جداً [...] هذا هو الوضع بالنسبة لحملتنا التاريخية فى أبو سمبل . أنها أكثرها أرهاقاً لنا وأمجدها على الإطلاق فيما يمكن أن نقوم به خلال هذه الرحلة كلها . الفرنسيون والتوسكانيون تنافسوا فى حماسهم وإخلاصهم » .

يجب علينا أن نتوقف عند هذه النقطة لأن الموضوع أثار تشككات لاحصر لها . كثيراً ما أثارها الشوفينيون إن لم تكن الغيرة الشخصية لجاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك . عندما نشر رسائل أخيه بادر بأن عدل فى نصها أو زيف بعضاً منها . وعلى

وجه الخصوص تلك التي ذكرناها للتو . وهكذا قبلاً من قراءة : « روسيليني وأنا احتفظنا لانفسنا بالجزء .. » وجدنا أنه نشر : « أحتفظت لنفسى . » وهو ما بغير المعنى تماماً . واضطر روسيليني أن يكتب عن ذلك بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ :

« ما أن نصل إلى أحد الآثار إلا ونتدارس معاً بعناية جميع أجزائه ونوزع على الرسامين المصاحبين لنا مختلف التفاصيل التي يهمننا الحصول على نسخته منها . وتوزع فيما بيننا نحن الاثنين مهمة وصف المبنى ونسخ مخطوطاته » . بعد تأدية عملنا – سواء كان ذلك خلال الليل أو أثناء إبحارنا على النيل – كنا نتوصل عبر تبادل الآراء والاتصال المشترك من تمكن كلانا من العمل بأكمله . وينفس الأسلوب كان الرسامون التوسكانيون ينقلون أعمال الرسامين الفرنسيين والعكس صحيح ، هكذا تكون لدينا ملفان كاملان متطابقان [....] أن المذكرات والمستندات التي جمعت خلال رحلتنا كانت تستهدف عملاً مشتركاً يشرف فرنسا وتوسكانيا معا بأن يوفر لعلوم العصور القديمة ثماراً عظيمة للغاية .. » .

من ناحيته ذكر شامبوليون هو الآخر في خطاب لروسيليني مؤرخ في ٣٠ سبتمبر ١٨٣٠ هذا المبدأ الخاص بالعمل المشترك : « لا يمكننى وكما لا يمكنك تصور إمكانية نشر أى شئ بدونى [...] لا يمكننى القيام بذلك بدونك وإلا إنتهى بنا الأمر إلى عملين غير كاملين وغير مترابطين .. » .

في ١٦ يناير وبعد أن كتب بضعة خطابات وبيض ومذكراته عن النبوة : أعطى شامبوليون أوامره بالإقلاع . لقد أفشت « المعابد – الجبال » التي فى أبو سمبل بأهم أسرارها .. أزيلت الشدات الخشبية التي كانت تحجز الرمال أمام مدخل المعبد الكبير حتى لا يدفن الباحثون أحياء داخله وسحبت المراكب وأعلامها مرفوعة فى حين صدح البحارة بأغانيهم . أما التماثيل الماردة فكانت تتسامى فى ضوء الشمس . بينما المراكب تتعد شعراً فرانسوا بإحساس يتملكه فجأة (كما أفضى هو ذلك بنفسه) أنه متأكد أن المعبد الذى يختفى هكذا من أمام ناظرى وراء منحنى للنيل هو أول المعابد التي لن يراها أبداً بعد ذلك .

يجب ألا نتصوره على الرغم من ذلك مثل أى مازيباً تمرقه أحاسيس متضاربة ، مصلوب فوق آلامه ، يمرقه الحزن وقد تملك منه الحاح علوم المصريين . بل أن كل شئ

كان يثير اهتمامه : ففى درى * على سبيل المثال نراه يكرس وصفا أقصر للمعبد
الحجرى عن سرده لحوار طريف دار بينه وبين ثلاثة نوبيين بجلاليهم البيضاء وهم
يحيطونه علما بسعر البلح وزراعة النخيل والضرية المفروضة على كل شجرة منه
(وكانت توجد بهذه المقاطعة وحدها فى ذلك الوقت سبعمئة ألف نخلة وهى الأجمل
وتحمل ألد الثمار فى مصر كلها) وكان جان - فرانسوا يسجل باهتمام جميع هذه
المعلومات . كان الأحياء يثيرون إهتمامه مثلما كان الحال بالنسبة للأموات : وقد سجل
بشئ من الغضب الشديد أن الضرائب المفروضة كانت « كفيلة بهدم إقتصاد البلد
وإبقاء السكان فى حالة إملق » .

بعد ذلك بأيام قليلة إذ كان داخل سبيوس ** فى إبريم ، سجل مشهداً سمح له
بأن يعبر عن آرائه فى موضوع أحوال المرأة . نرى فيه زوجة أحد الأمراء تتقدم نحو
فرعون وهى واقفة وراء زوجها مباشرة تسبق جميع كبار الموظفين ، هذا يثبت تفوق
الحضارة المصرية على منافساتها الشرقية ، « لأنه يمكن تقدير درجة تحضر الشعوب
بناءً على الوضع المحتمل أو الأقل احتمالاً للنساء فى التركيبة الاجتماعية . براقو
يامايسرو !! » .

قلب سخرى مثل هذا القلب من المؤكد أنه سيكافأ بمقابلات سعيدة . فى « درى »
على سبيل المثال ، ألتقى بهذا البربرى فسأله إن كان يعرف سم من بنى هذا المعبد .

« أجابنى على الفور أنه أصغر من أن يتمكن من معرفة ذلك إلا أن شيوخ المنطقة
بدوا له متفقين على اعتبار أن هذا « البربرى » بنى حوالى ثلثمائة ألف عام قبل
الإسلام [..] هناك بعض الشيوخ غير متاكدين من إحدى النقاط وهى ما إذا كان
الفرنسيون أم الانجليز أم الروس هم الذين شيّدوا هذا العمل العظيم .. » .

فى اليوم التالى فى « عمادة » سجل ملحوظة وهى وإن كانت تخص فترة أحدث
فهى لا تقل عنها طرافة . كانت الرسومات المنحوتة فى هذا المعبد مغطاة « بطبقات من
الجبس سيئة للغاية » وضعها الأقباط لكى يحولوه إلى كنيسة . وأضطر إلى أن ينزع
هذه الطبقة الجبسية التى عليها صور القديسين لكى يصل إلى الصور الأصلية .
ملحوظة جادة منه : « رد الفعل الوثنى هذا كان يتسم بجانب خاص به وهو أن الذى
أمر (بعمل هذا) كان مسيحياً والذين نفنوه مسلمون فى صالح الوثنية » . فكأننا
نسمع ديدرو ! .

* كتبت در قبل ذلك (المترجم) .

** كهف فى الصخر مختلف عن المقبرة .

أخذ النيل يشبه نهر اللوار الذى كان تجرى فيه لقاءات جميلة جداً فى عهد رونسار . من بعيد ظهرت على صفح النهر شراع عليه علم إتضح أنه إنجليزى : أليس هذا اللورد برودويه الذى أعلنوا له فى « درى » عن سفره إلى سنار والحبشة ؟ ولكى يتخاطب معه لم يكن الرحالة النبيل محتاجاً لأن يقول « مستر شامبوليون على ما أعتقد ؟ » فقد سبق أن التقيا فى القاهرة ، كما قلنا من قبل ، مع الميجور فيليكس الذى مازال يرافق برودويه . تم اللقاء بعد أن توقفوا وتبادلوا المعلومات و« الملفات » وعبر جان فرانسوا وهو يودعه عن تأثره لإبتعاد « رجل يمتلك ثروة هائلة ومع ذلك ، فإن سمو قلبه جعله يلقي بنفسه فى عملية خطيرة ولكنها مفيدة بالنسبة للعلم .. » .

هذه المقابلات كانت تقابل بكل ترحاب . كما حدث بعد بضعة أيام مع قنصل النمسا أسيرى الذى كان متوجهاً إلى الشلال الثانى - وهو الذى أحسن استقباله فى الاسكندرية . وكان اللقاء الجديد ودياً للغاية . ولم يقطع الدبلوماسى علاقاته بشامبوليون سوى بعد ذلك بعد أن أمره وليام بانكس صديق يانج ! « إما هو وإما نحن » .

قصيرة كانت أم غامضة كانت هذه اللقاءات تكسر رتابة الأيام التى لا تثيرها تماثيل النوبة العملاقة ولا قاعات العواميد التى سيزورها بعد ذلك .

« أرى أن خطاباتك مختصرة بعض الشيء [كتب ذلك لأخيه] تذكر إنى على بعد ألف فرسخ منك وأن أقل نميمة لها مذاق عظيم ومنعش . كم هى طويلة الليالى - لا شئ يشغلها سوى التدخين أو لعب الورق - وذلك ممل فى النهاية ، وأكون سعيداً جداً عند إعادة البحث فى اللغات الصغيرة القادمة من باريس .. » .

ما زالت هناك عدة ساعات طويلة إنتظاراً لطيبه وهى التى أمضاها داخل معبد كلابشى * الأغريقى - الرومانى . أنه بالطبع يرى أن « النحت فيها أصبح سيئاً للغاية بعد أن جعلوه ثرىاً لأنهم لم يعوبوا يعرفون كيف يصنعوه جميلاً .. » .

إلا أنه يكتشف فيه « جيلاً جديداً من الآلهة » - وهذا ليس بالشئ البسيط بالنسبة لمؤلف « البانتيون » . إنه بالطبع يتأكد من أن أمون - رع لا يزال هو الكيان الاسمى والرئيسى والإله موت تتبع من ذات الجوهر المذكر والأنثوى فى نفس الوقت وأن جميع الآلهة المصرية الآخرين ليسوا سوى « أشكالاً من هذين المبدئين الذين يعتبران تجريدات خالصة للوجود الاعظم .. » أخذت أشكالاً بشرية حتى آخر تجسيد

* تنطق اليوم كلابشة .

وهو جسد حورس ؛ ومع ذلك فهو يعتقد أنه إكتشف - تأسيساً على الثلاثية المبدئية (أمون - رع وموت وخونسو الابن) - « الثلاثية النهائية » المشكّلة من حورس ووالدته إيزيس وابنتهما مالولى . وهذا الأخير هو الذى كان يعبد فى كلابشة ، لأن إذا كان أمون - رع يسود كل الأماكن ويحتل الجانب الأيمن من قدس الأقداس إذ أن كل قرية ومدينة تقُدس إلهاً تقديساً خاصاً دون أن ينتج عن ذلك أى حقد مع المدن المجاورة ، بسبب ما يصفه صاحب الكشف بارتياح « نوعاً من الاحترام المتبادل المدروس بعناية » .

لم ينجح سحر فيله « الجزيرة المقدسة » فى التأثير عليه . وإذا كان ينسب فضل بناء المعبد الجنوبي الصغير إلى نكتانيو آخر الفراعنة من أصل مصرى فهو لا يخفى أزدرائه للباقي الذى يعود إلى عهد الرومان وعلى وجه الخصوص - (نرجو منكم التسجيل) : « ماهو منحوت .. » أخص ! أما جزيرة سيم الصغيرة ، جارتها ، والغنية بمخطوطاتها الحجرية فقد أوحى له بأكثر مما أوحى له به الآثار المشيدة والنحت البارز الموجود فى جزيرة إيزيس . فى المجموع فهو يفضل أن يؤخذ بسحر معابد أومبوس * وإدفو وإسنا حتى ولو أنهم جميعاً إغريقيون ومن « مرحلة الانحطاط » إلا أنهم « جمال من الناحية المعمارية ولهم تأثير ضخم » ولكن كم أن هيروغليفياتهم « سوقية » ! ولكن متى سيجئ دور طيبة ، طيبة صاحبة المائة باب ؟ .

« كان الحزن فى قلوبنا لما رأينا هذه الاطلال الضخمة مرة أخرى : وأضافت معداتنا إلى هذا الشعور لأننا كنا قد سمعنا أن مراكب تحمل مؤناً صابحة وصلت إلى عنوانى فى الأقصر ولكن الهواء البحرى كان عنيفاً للغاية وقفنا فى المسافة بين هيرمورنيس وطيبة التى لم نصلها سوى فى الصباح الباكر من يوم ٨ مارس . رسى أسطولنا الصغير على أعتاب الرصيف الأثرى الذى كشف النيل جدرانه وهو لن يصمد طويلاً ليدافع عن سراى ** الأقصر إذ أن آخر أعمدته تكاد تمس شواطئ النهر ... » .

« الشئ الغريب هو أن مذكرات شامبوليون والرسائل التى كتبها من طيبة أهملت الأثر الذى كان يعجب به أكثر من الآخرين جميعاً وهو معبد الكرنك وإن كان يتكلم - كما نرى فيما بعد - عن عمليات التنقيب إلى أجراها فيه ولكن دون تعليق .

* كوم أومبو .

** يستخدم شامبوليون هذا التعبير علماً بأن الهدف الاساسى منه كما يعرف (أى معبد الأقصر) كان دينيا .

لا يوجد لدينا فى هذا الصدد سوى رسالته الرائعة المؤرخة ٢٤ نوفمبر ١٨٢٨*
التي تقول الكثير ولكنها تبقى مثل مدخل لامثيل له لمعبد إختفى . لماذا هذا الصمت ؟
هل ضاع هذا الجزء من مراسلاته ؟ هل إحتجزه فيجاك لسبب غامض ؟ الواقع هو أن
الجزء الرئيسى من التقارير الخاصة بإقامة جان - فرانسوا المطولة فى طيبة يتعلق
بالأقصر من جهة وبمجموعة الجبانات ومعابد الضفة الغربية من جهة أخرى .

يبدو إذن أن الأقصر إستقطبت اهتمامه وبداية كان ذلك من زاوية غير متوقعة .

« ... هذه السراى الرائعة ، الأكثر تديناً من جميع آثار مصر ، التي تعوق الوصول
إليها دور الفلاحين التي تحجب وتشوه جمال بواباتها بخلاف دار هزيله لأحد
البكاشية ** المعلقة فوق الساحة التي أجريت فيها الثقوب بواسطة الازاميل لكى
تسمح بمرور الكناسة الخاصة بالضابط التركى . هذه البوابات تؤدي إلى قدس
أقداس رائع نحت فى عهد ابن الاسكندر الاكبر . أقول أن هذه السراى الرائعة
لم تقدم لنا أى مكان لائق يسمح لنا للإقامة فيه .. » .

ظلوا مقيمين فوق المعاش والذهبية والمراكب طوال فترة الأعمال التي أجروها فى
الضفة الشرقية قبل أن ينقلوا وكرهم بعد ذلك بخمسة عشر يوماً داخل إحدى المقابر
فى الضفة الغربية ولكن شيئاً من الصبر»

فعندما شرع فى الدراسة المنظمة للمجمع الأثرى الضخم فى طيبة وقع حدث فى
باريس أشار لديه طفرة من الحماس المتوقد باستمرار والذي يؤججه فيه التناقض
الفكرى : إذ وجد فى إنتظاره لدى وصوله إلى طيبة خطاباً من جاك - جوزيف يسرد له
فيه ما حدث فى جلسة من جلسات المعهد (الانستيتو) التي قرأ رئيسه - أراجو
خلالها خطاباً موجه من توماس يانج يعاتبه فيه لأنه يعطى أهمية مبالغاً فيها لأعمال
شامبوليون ، مما دفع عالم الفيزيكا الفرنسى إلى إلقاء مرافعة فصيحة فى صالح
صاحب كتاب « رسالة إلى مسيو داييسيه » جاء رد فعل صاحب الاكتشاف مثيراً
للأهتمام لأنه - كما سنرى - يتخطى بكثير الجدل الذي ينبغ هو فيه :

« ... مسكين الدكتور يانج *** ان ينصلح حاله أبداً ؟ لماذا يحرك قضية قديمة
أصبحت مومياء بالفعل ؟ أشكر مسيو أراجو للهجوم الذي قام به بكل هذه الشجاعة

* التي سبق أن تحدثنا عنها فى الفصل السابق (ص ٥٥٩ - ٥٦٠) .

** رائد [كذا] وهو اللقب الذي كان يتقلده بعد ذلك بمائة وثلاثين سنة جمال عبد الناصر عندما أستولى
على الحكم (المترجم) .

*** سيموت بعد ذلك بثلاثة شهور .

دفاعاً عن شرف الأبجدية الفرنسية الفرعونية . البريطاني مهما فعل سيبقى لنا
[عقدة] لايزال الدكتور يناقش الأبجدية وأنا - وقد ألقيت بنفسى منذ ستة شهور
وسط آثار مصر - مذهول لأنى أقرأ فيها بسهولة ويسر أكبر مما كنت أسمح لنفسى
أن أتصوره . توصلت إلى نتائج (ليبقى ذلك بيننا) مثيرة للحرص بكل تأكيد من
مختلف الزوايا وسنضطر إلى الاحتفاظ بها فى الكتمان : لم يخذلنى انتظارى قط
والعديد من الأمور التى كنت أشك فيها بشكل عام قد تجسدت أمامى وأصبحت
مؤكدة ولا تقبل الجدل .. » .

« خائف ؟ » من ماذا إذن ؟ ولماذا يخاف مخترع من اختراعه ؟ من الواضح أن
ما قرأه هذا البصير فى وادى النيل هو حياة سابقة للبشرية وحضارة وإن كانت لا
ترجع إلى الثلاثمائة ألف عام التى تخيلها « بربرى » قرية درى إلا أنها تنسف التعاليم
اليهودية المسيحية من أساسها وكذلك الترتيب الزمنى التوراتى ومعتقدات
الفاثيكان . الآن العزيز جان فرانسوا لن يرسم كاردينالا أبداً حتى لو احتفظ لنفسه
وفى كتمان تام ولبعض الوقت بما اكتشفه بين ممفيس وأبوسمبل .

لن يضطر هو أن يصرخ مؤكداً « ومع ذلك فهى تدور* .. ١ » ولكنه سيضطر يوماً
إلى القول « ومع ذلك فهى متقدمة جداً فى السن » أرض البشر بالنظر إلى حضارة
وادى النيل وهى ليست فقط عجوز بل إنها أيضاً أم وهى أيضاً رائدة وهى أيضاً
مخترعة لهذه الاساطير وهذه المعتقدات التى زودت بها اليهود ثم المسيحيين والإسلام
كل بدوره فى الشرق الأدنى والغرب والأهم هو إنها اخترعت الثلاث المسيحية ..

بالتأكيد كانت لديه أسباب « لفرعه » ، خاصة إذا كان الذى كلفه بالذهاب إلى
هذه الأماكن هو الملك المسيحى « جداً » والذى يعتمد كلية على الكنيسة المقدسة ...
رأينا فى أزمان لاحقه كاشفى أسرار أخرى - أسرار المادة - وهم فى فزع شديد أمام
الآثار المترتبة على إكتشافاتهم . ولكن إذا كان جان - فرانسوا شامبوليون لن يتسبب
فى هيروشيما أخرى فهو يعتبر فى رأى الكنيسة كافراً عندما كان يدون مذكراته كل

* « ومع ذلك فهى تدور » تعبير يعزى إلى العالم الإيطالى جاليليو (القرن السابع عشر) ، قاله بعد أن
أرغمته الكنيسة على الإعتراف بخطئه عندما قال أن الأرض تدور حول نفسها - مؤكداً ما إكتشف قبله ،
كوبرنيكس - وكانت الكنيسة فى ذلك الوقت تؤكد أن النصوص الدينية توضح أن الأرض مسطحة وثابتة فى
مكانها وأنها مركز الكون . ومع ذلك فقد حكم عليه بالإقامة الجبرية فى داره وأمضى فيه الثمان سنوات
الآخيرة من حياته . (المترجم) .

مساء على ضوء الشموع فى قمرته على « المعاش » الثابت عند مرساه
فى الأقصر خاصة وأن ذلك كان يحدث فى عصر « الحلف المقدس » وبعد ذلك بقليل
« السيلابوس » * ؟

لن نتوقف طويلاً عند وصفه معبد الأقصر ، الأمينوفيوم (نسبه إلى مؤسسه
أمينوفيس الثالث) الذى أرسله « الجنرال » إلى أخيه ولا للجزء الشمالى منه وهو
ينسبه لرمسيس الثانى ويسميه - بناءً على ذلك - راميسيوم الضفة الغربية . هنا
يجب أن نرجع إلى نصوص كتابه « آثار مصر والغوبة » . ما يسترعى الانتباه فى
ملاحظاته الخاصة بالأقصر هو إهتمامه الشديد بمسلتين من الجرانيت الأحمر مقامتين
أمام واجهة المعبد البحرى وإختياره الفورى للتي على اليمين لكى تزين احد ميادين
باريس . سنعود بالطبع إلى الحديث عن هذا التوقع المذهل ** .. إلا أننا لا يمكن أن
نغفل الإشارة .

الحماس المتدفق الذى يبذله ليفرض على الجميع فكره غيرت من معالم باريس
وهى فكرة يعود له وجده فضل بلورتها وتحقيقها ومع ذلك لن يعترف له أحد بذلك .

قبل أن يتعامل مع المسلة بدأ شامبوليون حفريات التى انتزع من أجلها فرمانات
الباشا التى تسمح له بالقيام بها بعد صراع عنيف فى الاسكندرية دون أن يتمكن من
الحصول فى الوقت المناسب على الأموال الضرورية لذلك من باريس (حيث نشط
أصدقاء دروفيتى ومنهم بالطبع ودائما جومار)

« ...بدأت فى تنفيذ الحفريات فى الكرنك والجرنه ، وحصلت بالفعل على ثمانية
عشرة مومياء من كل نوع وصنف إلا إننى لن أخذ معى سوى أفضلها [..] جميع
الأشياء المصنوعة من البرونز والنااتجة من حفريات فى الكرنك والمأخوذة من منازل
طبية القديمة ذاتها من أعماق تصل إلى خمشة عشرة أو عشرين قدماً تحت المستوى
الحالى للهضبة هم فى حالة صداً كامل مما لايسمح بالاستفادة منها . وضعت على

* اسم مرسوم باباوى نشر فى ٨ ديسمبر ١٨٦٤ فى عصر البابا بيوس التاسع يدين فيه « أخطاء » تلك
الفترة مثل الليبرالية والاشتراكية والطبيعية ... » [المترجم]

** راجع الفصل الختامى .

رأس الحفريات فى الضفة الشرقية رئيس عمال الحفر الخاص بدروقيتى المدعو تمساح وهو يبدو لى رجلاً ماهراً مما يسمح لى بأن أعلق عليه أمالاً واسعة إلا أننا ينبغي أن نعمل « على الواسع » [..] فمن الأفضل إذن أن أحصل على الأموال الإضافية التى طلبتها ، الزمن يتطاير وسأحصل على الأرجح على الرد النهائى عندما أكون مضطراً لمغادرة طيبة وهى المكان الوحيد الذى يمكن أن تجد فيه أشياء عظيمة وجميلة بشكل مؤكد [..] .

إذا حملت معى بعض الأشياء الجيدة سيكون ذلك نتيجة صدفة من جهة ونتيجة لكرم خاصة منى من ناحية أخرى بما أنى غير مضطر إلى جلب أى مجموعة آثار إلى اللوفر - بما أن الأموال المطلوبة لذلك قدر رفضت مع سبق الإصرار [..] لدى أربعون رجلاً يعملون وسأرى إذا كان الناتج سيعوض المصاريف وإنما كانت ميزانيتى تسمح بتحميل نفقاتهم ولدى أيضاً ستة وثلاثون رجلاً يقومون بالتنقيب فى الجرنه نصف مصاريفهم على روسيلينى . من الواضح أنه ليس فى إمكانى أن أنقل معى ما يحتاجه المتحف الملكى وهى القطع الضخمة ، لأن الشحن وحده إلى الأسكندرية سيبدد ماليتى بالكامل علماً بأن اليد العاملة هنا لا تكلف شيئاً . عمال التنقيب - بعد عمل مضمئ يتقاضون عشرين بارة (ثلاثة سولات وثلاثة لياردات) .. » .

لم تكن الحفريات التى أمر بها المسئولان عن الحملة - « بالمناسبة فى المصاريف » - متعمقة كما كانا يودونها طبقاً لما سمح به التصريح الذى إنتزاعاه من الباشا لدى زيارتهما له .

ومع ذلك ففى العاشر من مارس قام الباحثون عن الكنز بفتح مقبرة لم تستكشف بعد . نستور لوت الذى سمح له شامبوليون بأن يكون أول من يدخلها تعبيراً على شكره له لما يبديه من الجد فى عمله - اكتشف حسبما قال « أثاثاً جميلاً ومومياتين لزوجين يرتديان قناعين من الذهب وعند أقدامهما وضعت حبوب من القمح التى أنبتت داخل وعاء على هيئة تمثال مفرغ من الداخل » .

يعرب علماء المصريين المعاصرون عن دهشتهم من « الإجراءات التى أتبعها هؤلاء الرواد ، وتقول إذا بريشيانى التى تحتل اليوم كرسى علم المصريين فى جامعة بيزا والذى أنشأ من أجل روسيلينى وبواسطته والتى تعتبر وريثته المعنوية إنها « صدمت لسلوك رئيسى البعثة الفرنسية التوسكانية . فهما - على النقيض من الباحثين

المعاصرين لهما - لم يتواجدا بأشخاصهم فى أماكن التنقيب وتركوا ذلك للعمال المعينين لتنفيذ هذه الأبحاث . ثم توضح أن « روسيليني عندما مر بطيبة وهو فى طريقه إلى النوبة فى فبراير ١٨٢٨ أصدر أوامره لعمال الرئيس أبو سقاره - الذى كان يشرف عليهم لوكوا بيتشيني وهو ممثل أستشارى للحفريات والذى كان يقيم فى الجرنه - أن ينقب على الآثار عند سفح « الجبل الطيباوى » وذلك يعنى وجود العديد من الوسطاء ووسطاء الوسطاء من أجل عملية على هذا القدر من التخصص .

عاد مرة أخرى جان - فرانسوا يتحدث فى ذات الموضوع فى ١١ سبتمبر ١٨٢٩ بعد أن ترك المواقع الطيباوية إلى أخيه الكبير قائلاً أنه لو حصل على التمويل المطلوب لهذا الغرض لما أنفق « سولاً واحداً فى التنقيب » لماذا ؟ « عدلت عن ذلك منذ عدة شهور لأنه ليس مهنتى وأن العرب المنقبين محتاجون لرقابة مستمرة فى كل ثانية فهم لا يجدون شيئاً دون رقابة أو يخفون كل ما يجدونه ... » .

باختصار ، لم تكن الحملة الفرنسية التوسكانية حملة تنقيب بأى معيار . كلاهما أحضر معه إلى باريس وفلورنسا بعض الروائع التى إنتزعت من المقبرتين اللتين فتحتا فى ١٣ و ١٨ مارس ١٨٢٩ (المقبرة الأخيرة مسماه « مقبرة المرضعة ») ومن مخزن للبناء للملكة حتشبسوت فتح فى شهر مايو التالى : مومياوات وتوابيت وأوانى وأوشيتى ومرايا وأوانى من الألبستر . كما إنتزع شامبوليون وروسيليني قطعتين من النحت البارز من مقبرة سيتى الأولى الرائعة : وضعت الأولى فى اللوفر والأخرى فى فلورنسا . وتلاحظ مدام بريشيانى باختصار أنه « إذا كان هذا النوع من التخريب يفرعنا اليوم فيجب أن نتذكر أنه كان شيئاً عادياً فى ذلك الوقت » .

فى نهاية شهر مارس عبر الباحثون عن الكنوز النهر ليقيموا بالقرب من - ثم عند مدخل - وادى الملوك وكان أهل البلد يسمونه ببيان الملوك (أبواب الملوك) وكان شامبوليون يشكك فى ذلك ويرى أن أصل التسمية - راجعاً فى ذلك إلى تفسير إستاذة ساسى ، « تحريف فى النطق للإسم المصرى القديم وهو بيب - آن - أوروع - أو مقابر الملوك » إختاروا فى البداية الجرنه ليقيموا فيها - أى فى « السراى » المبنية بالطوب اللبن والتى إستمرت لفترة طويلة مأواهم قبل وبعد إقامتهم المشهورة لمدة ثلاثة أسابيع داخل مقبرة رمسيس الرابع ، ولكن قبل أن يتجرأوا على خوض هذه التجربة الفريدة أعطاه « الجنرال » للفرنسيين والتوسكانيين فكرة مبدئية عن ذلك - فلنستمع إليه :

« .. أقيم هذا المساء لشبابنا حفلاً « وإيمياً » داخل إحدى أجمل قاعات مقبرة أوزيريس * وهو عيد ميلاد الأنسة زورايد ** وقد أعلنته للتاريخ يوم زورايد ووعدت بأننا سنحتفل به عيداً إحتفائياً . كان من المفروض أن نحتفل به فى الأول من مارس ولكننا كنا فى ذلك الوقت وسط فظائع الشلال ويكاد لا يكون لدينا خبز نأكله . وتأجيل الإحتفال لذلك السبب إلى اليوم .

الطعام لن يصل إلى مستوى عظمة المكان ولكننا سنفعل المستحيل لكى لا يكون دونه بكثير . وهى مفاجأة أعدها لشبابنا . ويوجد طبق سيصبح مفاجأة الحفل : هو قطعة من تمساح صغير بالصلصة الحريفة .

وتشاء الظروف أن يأتونى بواحد صيد وقتل صباح أمس . وإنى أضع الكثير من الآمال فى هذا الطبق لإحداث التأثير المطلوب . سنشرب فى صحتكم جميعاً ياسكان باريس وستكونون معنا فى حفلنا [...] ملحوظة : فسدت أكلة التمساح خلال الليل وبتن لحمه وأخضر لونه بالسوء الحظ ! ويجب أن نواسى أنفسنا بأننا تفادينا عسر هضم أو على الأقل ثقل فى المعدة » .

حفلة وإيمية ! عيد إحتفالى ! فى هذا اليوم التاريخى ! وفى داخل مقبرة ستي الأول المبهرة .. بتمساح أو بدون تمساح يروق لنا أن نعرف أن صديقنا جان - فرانسوا قد عرف - وسط عدد لا بأس به من الصعاب - ساعات مثل تلك . ولم يكن لطيبة قلبه أن ترضى بأن لايجعل رفاقه الشجعان يشاركونه فرحته . إذ أراد أن يجعل من هذه السهرة تحية أيضاً إلى العظيم جيانباتيستا بالزوني مكتشف جبانة ستي الأول فى ١٨١٧ وكان قد نقل صورة طبق الأصل لها منسوخة منها إلى أوروبا . وقد بهر بها الباريسيون ومن ضمنهم جان - فرانسوا المصرى . وسمع فى ذلك الوقت العزيز داسييه ينصحه بأن يلحق « بمارد بادوفا » فى طيبة : يمكن أن نتصور طلاقة لسان وأنفعال « الجنرال » وهو يتذكر ويثير ذكريات تلك الليلة وهو فى قمة حفله وعلى ضوء الشموع مما جعل الآلهة والملوك والرموز تتمايل على جدران المقبرة ، صورة هذه الشخصية العظيمة التى حركت المعابد .

ومع ذلك لم تكن مقبرة ستي الأول تلك التى سيقيمون فيها وإنما مقبرة رمسيس الرابع .

* المقصود هنا هو ستي الأول وتعتبر مقبرته فى العادة أجمل مقابر وادى الملوك .

** كان هذا هو عيد ميلاد ابنته الخامس فقد ولدت فى أول مارس ١٨٢٤ .

« ... المقبرة التى نسكنها تعتبر كنزاً بالنسبة لهذا الفصل من السنة ، الحرارة داخلها [...] ٢٠ أو ٢١ درجة مئوية فى حين أن التيرمو متر يقفز على بعد خطوتين من بابنا إلى ٢٥ أو ٢٦ درجة فى الظل [....] علاوة على أن الشهر الماضى مر وسيمر هذا الشهر أيضاً - دون أن تهل فترة الخماسين [...] وهى رياح حارة جداً ومخيفة [..] يتيسر كل شئ فى طريقها .. » .

هذا الملاذ الرطب فى قلب الأتون ذاته التى هى الجبانة الملكية « مقام الموت بحق إذا لا يوجد بها عود أخضر أو أحياء فيما عدا الضباع والهايينا » هو مقبرة بالفعل .

« أقامت إذن قافلتنا المكونة من الحمير والعلماء * [داخل] أفضل المساكن والأروعها التى يمكن العثور عليها فى مصر . الملك رمسيس [الرابع من الاسرة التاسعة عشرة] هو الذى يستضيفنا فى مقبرته العظيمة وهى الثانية التى تقابلها على اليمين لدى دخولك فى وادى ببيان الملوك . تستقبل هذه المقربة المحفوظة بشكل رائع ما يكفى من الهواء والضوء لكى نقيم فيها إقامة ممتازة . نحتل منها القاعات الثلاثة الأوائل والتى يبلغ طولها حوالى خمسة وستين خطوة ترتفع الجدران من خمسة عشر إلى عشرين قدماً والأسقف جميعاً مغطاة بنحت ملون تكاد تحتفظ ألوانها ببريقها الكامل . إنها بالفعل سكن لأمير فيما عدا عيب واحد هو أن غرفها فى صف واحد : الأرض مفروشة كلها بالحصر الحيزان » .

لماذا أبقى جيشه لهذه الفترة الطويلة - ثلاثة شهور تقريباً - داخل هذا الوادى التراجيدى ؟ لأنه لا يوجد مكان آخر تعبر فيه هذه الحضارة عن ذاتها بمثل هذه الدقة والتنوع والذى يعطى فيها المرور على الأموات هذا التعبير الاسمى عن الحياة بأنه يمد فيها ويتسامى بها ويشرحها .

« ... لم اتصور أبداً إنى سأبقى لهذه الفترة الطويلة هنا ، ولكن جدران هذه المقابر وبالذات الأسقف مغطاة بمواضيع غريبة لدرجة أنه تعين علينا أن نستمع إلى صوت الضمير وأن نقرر نسخها صوراً ونصوصاً . حيث أن بحثنا عن مثل هذه اللوح لم يكن مجدياً فى الأماكن الأخرى ، أنا الذى أقوم بهذا العمل ، محتفظاً بأنامل

* تريد الأمر يقال أن أحد معاونى بونابرت قد أصدره خلال الحملة : « شكلوا المربع ! الحمير والعلماء فى الوسط » .

رسامينا المهرة * لتنفيذ الرسومات التاريخية التي تهم تاريخ الفن في مصر مباشرة . وعلى العموم فانا لا يمكن أن نعتمد على نفسى لنسخ هذه المشاهد الشيطانية التي تعكس - فى أكثر الأشكال وحشية وتعقيداً - جميع القوى الجهنمية والعادات والتقاليد الموجودة فى العالم الآخر . إنه علم النفس فى أرقى صورته .. » .

قد نندهش لاستخدامه للتعبير « علم نفس » فى هذا الصدد (ومن المرجح أنه يقصد « دراسة للأرواح فى العالم الآخر ») وكلمة « جهنم » ليس لها مدول واضح فى ديانة المصريين القدماء . إلا أننا سنرى فيما بعد أن شامبوليون - دون أن ينسى ذكر دانتي - قد اكتشف فى المقابر الطيباوية تصوراً مسبقاً لعالم أضفت عليه اليهودية - المسيحية - مفهوم الخطيئة .

من مقبرة إلى أخرى أوصلت الأبحاث صاحب الكشف إلى نظرية حقيقية عن الحياة الملكية ورسالتها وذلك بنائاً على المعاملة التي يلقاها الملك المتوفى . وهو يذكر أن أياً من كل تلك التفسيرات لم يكن نابعاً من تصوراته هو لأن « زمن التخمينات قد ولى بالنسبة لمصر القديمة » منذ أن أصبح يكفيك أن تشاهد - والأبجدية فى يدك - « الاساطير التي تغطى » المقابر الملكية » . ويوضح شامبوليون أن حياة الملك تشبه مسيرة الشمس من الشرق إلى الغرب . كما أن وموته هو مثل هبوط نجم الشمس إلى نصف الكرة السفلى أو الأمتى ، إنتظاراً لبعثه من جديد طبقاً للدورة الشمسية .

صاحب كتاب « البانتيون المصرى » أو « عالم الآلهة المصرى » أقام عرضه التوضيحي على أساس مقبرة رمسيس السادس ** وهو الأكثر كمالاً وتفصيلاً فى هذا المجال ! المركب (بارى) تتطلق حاملة الملك - الإله فى بريق الشمس وسرعان ما يلقي فى طريقه الثعبان أبوفيس وهو الآخ - العدو للشمس ، ومع ذلك فإن البارى تعبر المناطق الأثيرية - الشانزليزية *** القديسين المتحالفين معه ضد الوحش . إلا أن الإلهة نيفتن تأخذ المركب بين ذراعيها وتغمره فى النيل السماوى . عندئذ يبدأ السباق فى النصف التحتى الذى تعتبر أوساطه التى يسكنها الأرواح المدانة مقدمات لإختراعات دانتي : والعذاب فيها لا تقل قسوة ولا تنوعاً و« المكافئات أقل مثالية . فلنحكم بأنفسنا ! » .

* التوسكانيون على وجه الخصوص - هذا ما أوضحه فى مكان آخر .

** كان شامبوليون معتقد فى ذلك الوقت أنه رمسيس الخامس .

*** فى الميثولوجيا هى نقر أرواح الأبطال والرجال الورعين .

« نقرأ دائماً بجانب المدانين بالعذاب الحكم عليهم بالإدانة والعقوبة التى يلقونها . فنقرأ مثلاً » هذه الأرواح العدائية لا يرقى قط الإله وهو يرسل أشعة قرصه ، إنها لم تعد تعيش فى العالم الأرضى وهى لا تستمع قط إلى صوت الإله العظيم عندما يعبر منطقتهم » فى حين نقرأ عكس ذلك بجانب تصوير النفوس السعيدة فى الجدران المقابلة « وجدوا الرضاء عند الإله العظيم . إنها تقيم فى دار المجد حيث تعيش الحياة السماوية . الأجساد التى تركتها ستستريح إلى الأبد فى قبورها بينما هى تتمتع بوجود الإله الأعظم » .

وعليه يؤكد صاحب الكشف :

« بهذا يكون كل ما قاله الأقدمون عن العقيدة المصرية فى خلود الروح والهدف الإيجابى للحياة الإنسانية قد تم إثباته بالكامل . لاشك إنها عظيمة وسعيدة فكرة الرمز إلى قدر الأرواح بأكثر الظواهر السماوية لفتاً للانتظار وهو مسار الشمس فى نصفى الأرض وإلى ربط رسمها بهذا المشهد العظيم والرائع » .

هاهو جان - فرانسوا الذى ولد عالم لغويات ثم جعل مؤرخاً ، وهو فنان بميوله الطبيعية ودخل مجالاً علمنا - دون أن يدهشنا ذلك - أنه خائف من الذى يكتشفه فيه أو يتصوره عنه . وهو إذ يتلمس طريقة فى هذه المقابر السامية المقام حيث تراكم ثم تركز عشرون قرناً يخلص إلى الآتى :

« كانت الديانة هى الأساس الثابت لكل النظام الاجتماعى المصرى . فى مثل هذا النظام السياسى كان لكل علم من العلوم جزءان متباينان : الجزء الخاص بالوقائع المسجلة الذى تتكون منه علومنا الحالية والجزء التأملى الذى يربط العلم بالمعتقد الدينى وهو الرباط الضرورى بل الذى لا غنى عنه فى مصر حيث أن الدين - ليكون قوياً ويستمر على قوته للأبد - أراد أن يجمع داخله الكون كله ... » .

فى بداية شهر يونيو تخلص جان - فرانسوا تعبيراً عن إحترامه للدورة المقدسة من أبوفيس وانتزع نفسه من الأمتى وبعد أن صعد من المناطق السفلى عاد من جديد إلى المناطق الشمسية - من وادى الملوك وصل نون أن يترك الضيفه الغربية - إلى هذا البرج الذى ولع به بوضوح منذ البداية وهو الذى أطلق عليه اسم الرامسيوم .

« يثور الخيال ويختلج في النفس شعور طبيعي بالرهبة لدى زيارة هذه القاعات المهدمة [..] عندما نتذكر أن الذي شيدها وأقام فيها طويلاً هو أشهر وأفضل الأمراء الذين عرفتهم مصر القديمة عبر تاريخها الطويل كله.. وفي كل مرة أمر بها أقدم لذكرى سيزوستريس شيئاً من الطقوس الدينية الذي أحاطته بها العصور القديمة كافة » .

إننا نعرف أن جان - فرانسوا - منذ زيارته لمتحف تورينو - مغرم بتمثال سيزوستريس وأنه منذ فترة طويلة متيم بهذه الشخصية العظيمة . إلا أن بعض المؤرخين المعاصرين * يعبرون عن تحفظهم إزاءها : ذلك لأن بطل قادش كان رجل بروباغندا عبقرياً وأن الفن المصري لم يخرج سليماً من أيدي مشيدي الرامسيوم . أما عن كونه « أفضل الأمراء » فإن هذا اللقب نادراً ما يستحقه الغزاه أو مشيدو القصور الفخمة . « ولكن ألم يكن من حق المكتشف أن يتطرق في غرمياته ؟ ولذا فإننا لن نجادله عندما يقول : « إن الرامسيوم [..] وإن كان أكثر الآثار تدهوراً [...] فهو أكثر ما تتضمنه طيبة نبلاً ونقاءً » ، بل ونزداد أعجاباً بتعليقه الغريب الذي أثارتته مشاهدته للبقايا المذهلة لتمثال رمسيس الضخم وهو على الرغم من كونه مهدم ومفتت ومنتثر على الأرض مازال مسيطراً على الفراغ الذي كان يسحقه بوجوده في محيطه في قديم الزمان » يجب أن نعبر عن أعجابنا في أن واحد بمقدرة الشعب الذي شيده وبالبراعة الذين هدموه بكل هذه البراعة وهذا الاتقان » .

ثم بعد أن يضيف لچاك - جوزيف المنحوتات البارزة الهائلة التي تصف المعارك التي تصف مجد أكبر رامسيات آثار مصر الفخمة ، يلخص « جنرالنا » رأيه بقوة ساحقة :

« أردت بدخولي في كل هذه التفاصيل أن أعطي لك فكرة عن النحت البارز التاريخي الذي كانت تزين به الآثار الفخمة في مصر وعن النصوص العظيمة التي يروق لي أن أسميها لوحاً هومييري أو نحوتات بطولية لأنها مليئة بهذه النار وهذه الفوضى المهيبة التي تحرك فينا الأحاسيس لدى قراءة معارك الإلياذة ... » .

كيف يمكن التعبير بأفضل من ذلك عن إعجابه وبأقل شوقيين مصرية ؟
فمنذ سنوات وهو يثبت بما فيه الكفاية الدور التأسيسي لمصر للحضارة والفن

* مثل جان بيريوت .

على الإطلاق مما يتيح له فرص تحية الثقافة التى كانت أفضل من عبر عن عظمتها وذلك من خلال هوميروس .

إن وصف جان - فرانسوا شامبوليون للرامسيوم يعتبر أغنية غرامية . أما الذى خصصه للدير البحرى - تحت المسمى الذى جاء فى وصف مصر أى « الاطلال الواقعة شمال مقبرة أوزيما ندياس » - فهو درس فى التحليل التاريخي فهو يثبت أن أعظم المفكرين يمكنه أن يستخدم جميع الوسائل التى يمكنها أن تكشف الحقيقة دون أن يبلغها على الرغم من ذلك لأن الشروط المادية لم تكن متوفرة بعد .

سبق أن رأينا * أنه خلال رحلته إلى الصعيد فى نوفمبر ١٨٢٨ أعتقد المكتشف - وهو يزور هذه الآثار التى لم تكن درست بما فيه الكفاية بعد وكانت الرمال لا تزال تغطيها - أنه رأى خلال مروره أمام صور وجه تم محوه بالطرق عليه - صورة ملك مدان ومخلوع عن عرشه .

الدراسة المتأنية التى قام بها بعد ذلك بستة شهور كشفت له عن شخصية من الشخصيات التى تظهر فى هذه المواقع تحت اسم أميننتى تسبق فى كل مكان اسم تحتمس الثالث الشهير (ماوريس عند الإغريق ووضعوه فى مستوى سيزوستريس ذاته) . ولكن - وهو الأكثر غرابة - أن أحداً لا يتكلم عن هذا الملك الملتحى الذى يرتدى الزى التقليدى لفرعون « إلا مستخدماً أسماء وأفعالاً مؤنثة كما لو كان يتكلم عن ملكة » .

ويلاحظ « الجنرال » فى هذا الصدد أن اسم أميننتى يسبقه باستمرار لقب « الملك سيدة العالم كله » ويتبعه لقب « ابنة الشمس » ويستمر شامبوليون ، فى تعميق بحثه وهو فى ذهول فيلاحظ أن فى كل مكان تقريباً كان خرطوش أميننتى ليس فقط مطرقاً بل وضع فوقه خرطوش تحتمس الثالث وإلى جواره ظهر فجأة اسم أمنسى وعلى هذا الأساس راح يغير من ترتيب الأسرة الثامنة عشر جاعلاً من أمنسى ابنة تحتمس الأول ليس فقط أخت وزوجة تحتمس الثانى ولكن جعلها أيضاً ملكة مصر الحقيقية لأكثر من عشرين عاماً قبل أن تتزوج أميننتى الوصى على العرش خلال السنوات الأولى من عصر تحتمس الثالث ويخلص إلى الآتى :

* راجع الفصل ١٦ من 561

« الإضافات التي تأثرت بها معظم النصوص الشارحة لما قام به الوصى أميننتي تثبت أن وصايته كانت بغيضة وثقيلة على الموصى عليه تحتس الثالث ويبدو أن هذا الأخير قد إهتم بأن يزج بالوصى عليه فى غياهب النسيان . ففى عهد تحتس الثالث جرى بالفعل تطريق كل قصص أمينانتى .. » .

خلفاء مؤسس علم المصريات توصلوا إلى الحقيقة التي هربت عن إدراكه وتعرفوا على حتشبسوت تحت ماطرقه ماوريس على الرغم من تخميناته التقريبية لعام ١٨٢٩ . لعله من حقنا أن نقيم هذه الأبحاث التجريبية العبقريّة فنعتبرها أفضل من كونها إنتصار كامل للحقيقة نظراً لأن التتقيب كان يتم فى رمال تخفى جيداً ما تحتوية ، كما تخفيه آلاف السنين فلا تكشف المعاول التي تتعامل معها سوى عن جزء بسيط من الحقيقة . هل وقع شامبوليون هنا ضحية عدم كفاية المستندات المتاحة للباحث أم وقع فى خطأ لغوى بسبب تفسير خاطئ لنهايات الكلمات المحددة لوظيفتها ؟ إن هذه النهايات ذاتها وهى عبارة من رموز صوتية تقع عادة فى آخر « الكلمات » كانت من إكتشافه هو وهى أحد العناصر الجوهرية من « أوریکا » عام ١٨٢٢ ؟ إننا نمتنع هنا عن الفصل فى الأمر ولكننا نقول فى ذات الوقت أننا نحبه على هذه الصورة وهو يتته ويخطئ هدفه بقليل ..

بعد ذلك ببضعة أيام يواجه أوديب لغزاً آخر من الألفاظ الشهيرة فى طيبة أى : أصل ومعنى والهدف من وراء « تمثالى ممنون العملاقين » وهو الاسم الذى أطلقه عليهما الاغريق . غيران المحترم والحقق دونون - كما يذكر جان - فرانسوا - رأى أنهما لأميرتين . لم يقف عدم الوضوح الخاص بجنس صاحبي التمثالين حائلاً أمام حصافة المكتشف إذ أعلن أنهما شيذا لتمجيد أمينوفيس الثالث وهما على ما يبدو كانا فى موقعهما عند مدخل هذا المعبد البالغ الفخامة « أكثر روائع العاصمة القديمة إثارة للدهشة » وكان المصريون يسمونه « أمينوفيون » . أما اللغز الآخر الذى كان يطرحه هذان العملاقان فهو الغناء الذى أدعى العديد من الرحالة الاغريق والرومان أنهم سمعوه يصدر من حنجرة أحد التمثالين العملاقين ما أن تقع عليه أولى أشعة الشمس ، عن هذه الظاهرة كان بطلنا أقل ثقة إزائها واكتفى بأن أورد شهادته :

« وإذ كنت جالساً مع شروق الفجر فوق ركبتى ممنون » حسبما أورد ساخرأ ، فإننى أسجل « عدم صدور أى نغمة موسيقية من فمه تشتت إنتباهى من الصور الحزينة التي كنت أتأملها ... » .

كشفت دراسته المستفيضة للآثار التي لا يمكن حصرها في مدينة حابو أن هذا التل يعتبر بمثابة « كشف مختصر للآثار المصرية الضخمة » حيث يتزامن « الرائع والأصيل مع المفقوت (المضاف) » . وهو ما يقود جان - فرانسوا - إلى تأملات جديدة حول العلاقة بين الفن المصرى والجماليات الإغريقية . نقطة إنطلاقه في تقييمه كانت « الحالة المزرية » لترميم أحد معابد الاسرة الثامنة عشر تحت حكم بطليموس - إيفرجات الثانى : أنه يرى في ذلك نقياً قاطعاً للرأى القائل بأن الفن الفرعونى إكتسب اكتمالاً على يد الإغريق في مصر .. هل كان من واجبه أن يؤسس إثباته على مثل هذا البرهان المشكوك فيه من حيث أنه لا يمكن أن نعتبر المستعمر البطليموسى (اللاجيدى) أفضل الممثلين للفن والجماليات الإغريقية ولا الترميم هو أفضل تعبير عن إحدى الثقافات . إلا أن مرافعته في تطرفها - وهى مثلاً في نوعيتها - تعتبر بالفعل مؤثرة :

« أكرر من جديد أن الفن المصرى لا يدين إلا لنفسه بكل ما أنتج من أشياء ضخمة ونقية وجميلة وأرجو ألا اثير استياء العلماء الذين أقاموا معتقاداتهم على أساس إيمان راسخ بأن فنون اليونان تولدت تلقائياً بأننى أؤكد أنه من الواضح بالنسبة لى كما هو الحال بالنسبة لجميع الذين شاهدوا مصر جيداً أو الذين لديهم معرفة حقيقية بالآثار المصرية الموجودة في أوروبا بأن الفنون بدأت في اليونان بأن قلدت تقليداً أعمى الفنون المصرية التى هى أكثر تقدماً بكثير مما يعتقد العامة في زمن كانت المستعمرات المصرية الأولى على إتصال بالسكان المتوحشين لمنطقتى الاتيك والبيلوبونيز .

علمت مصر القديمة الفنون لليونان التى بدورها طورته نحو مراحلها الأسى . ولكن بدون مصر لم يكن لليونان أن تصبح الأرض الكلاسيكية للفنون الجميلة . هذه هى نظريتى التى أؤمن بها إيماناً راسخاً حول هذا الموضوع البالغ الأهمية وأكاد أخط هذه السطور وأنا أمام النحت البارز الذى نفذه المصريون بأفضل حنكة .. فى الصنعة وذلك ١٧٠٠ عاماً قبل العصر الميلادى فماذا كان يفعل الإغريق حينذاك .. » .

ولكن كيف كان يعيش - أوكانوا يعيشون - فيما أسماه جان - فرانسوا - « الأرض المقدسة » الواقعة بين المناطق السفلى التى تغوص فيها الآلهة ونار السماء التى لا ترحم ؟ فى ٤ يوليو ١٩٢٩ - بعد أقل من عام من وصول الحملة كتب إلى جان - جوزيف هذا التقرير الملى بالأيحاءات :

« لعلك تعتبرنى رجلاً قام لتوه من بين الأموات : حتى الأيام الأولى من شهر يونيو كنت أحد سكان القبور حيث لا يهتم أحد بشئون الدنيا [٠٠] أسكن منذ ٨ يونيو قصرنا فى الجرنه * وهو عبارة عن كوخ من اللبن من دور واحد وهو يعتبر فخيماً بالمقارنة بالأوكار والشقوق التى يقطنها مواطنونا العرب [٠٠] لا أقيم فى القصر سوى فى الليل ، فما أن يبرز أول ضوء النهار إلا وأقوم وأركب حمارى وأنطلق فى السهل بخطى وثيدة استنشاق نضارة الصباح ... » .

إقامتهم هذه فى القرية تنبع أهميتها من أنها جعلت رجالنا الباحثين عن الكنوز فى مكان يعطى فكرة عما كان عليه مقر إقامه إحدى الشخصيات الهامة فى مصر القديمة . فبعد المعابد والقبور أخذوا يجربون هنا بعضاً من مكونات الحياة اليومية لرعية فرعون – الأكثر ثراءً . ونحن نعلم منذ إقامته فى بنى حسن أن صاحب الكشف يوجه اهتماماً لمعطيات الحياة الإجتماعية لسكان وادى النيل بنفس مقدار اهتمامه بالمواضيع الهامة المقدسة والتاريخية ** .

كان يعمل من سبع إلى ثمان ساعات يومياً ، من الفجر حتى الظهيرة والساعة الرابعة حتى السادسة فى الحر الشديد . ولكن كم هو مرهق الآن ومهما قال فى رسائله أنه فى صحة « تتماسك فى روعة » فإن رفاقه كانوا يعبرون عن قلقهم من آثار الجو والمجهود الضخم والمشاكل والمسئوليات على صحته وربما أيضاً بعض المجازفات الغذائية . إن تكوينه الجسدى الذى أشرنا إلى نقاط ضعفه فى عديد من المرات لم يكن ليكتفى بالغذاء الضعيف الذى أشار إليه أحياناً فى مراسلاته والأكثر من ذلك أهمية ، شرب كميات كبيرة من ماء النيل دون ترشيحها .

كان معاونوه يكتشفونه مدداً أرضاً فى أغمائه أمام أحد المقابر أو داخلها ومذكراته منثورة حوله فتقرروا عدم تركه وحده بعد ذلك . إلا أنه أصر على أنه يأسر على الجميع أن يتركوه وحده فى بعض الحالات فى وحدة وسكون « حتى أتمكن من سماع أصوات الأجداد » .

وحيداً فى قلب مقبره سیتی الأول المحفورة فى الجبل ، وحيداً مع « أجداده » الذين يلهمونه حياته كلها منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ، هاهو « صاحب الرؤية

* الذى وضعه بيتشيني تحت تصرفهم وهو المسئول عن حفريات أناستازى .

** سيسكن جان – فرانسوا ورفاقه خلال الأسابيع الأخيرة من إقامتهم فى طيبة ، المعبد الصغير للإله أدبه بالأقصر .

النافذة « الذي يجد بكل ما أوتى ليعرف ، ثم يفزع من فتوحاته ، يقف وحده في هذا الظلام الذي يمزقه - كما لو كان حريراً - طيران الخفافيش وقد بهره مسار إله - الشمس ونعم نيفتى وبياض بشرة أوزيريس المقدس .

هاهو جان - فرانسوا شامبوليون المكتشف وقد اكتشفته مصر . واكتشفه زملاؤه أيضاً . كانوا أربع عشرة حوله في البداية ثم اثني عشرة ثم تسعة ثم سبعة . كان بيبانت أول من تركه ثم جالا ستري . ثم انسحب لنورمان في أول يناير ١٨٢٩ الذي كان كما يقال اليوم - قد أخذ تذكرة « ذهاب فقط » . وبعد ذلك بفترة قصيرة لدغه عقرب الدكتور ريتشى فأقعه عن العمل - وقد توفي بعد ذلك بخمسة أعوام في فلورنسا مشلولاً . ويقول بعضهم : مجنوناً . أما البروفسور راضى فسنراه يهرب يوماً ناحية الدلتا التي أراد أن يعبرها سيراً على الأقدام فتاه فيها إلى الأبد .

سيترك الكسندر دوشان القافلة بدوره وكان على وشك أن يجر معه لوت ولوهو وبيرتان - لولا أن شيروبيني نجح في إبقائهم إلى جوار « الجنرال » .

ظل ابن مؤلف موسيقى أوبرا « ميدى » وسيظل ، أكثر رفاقه المتحمسين له وأكثرهم ولاءً والأكثر حناناً . منذ بداية الرحلة أندمج داخل المجموعة الفرنسية * وتصرف كما لو كان سكرتير وياور شامبوليون : إذ كان حريصاً على تلبية كافة رغباته وعلى مساندته في أزماته الصحية ومرافقته في نزحاته العفوية وحصل لذلك على اعتراف المكتشف بجميله عليه . وكلما إقتربت الرحلة من نهايتها كلما فرض شيروبيني نفسه كالرفيق المفضل ** .

بعد أن مرت حادثة « لوحة النزاع » ظلت العلاقات بين الفرنسيين والتوسكانيين صافية على الدوام . لم يكن « الجنرال » يكتفى بتقدير أييوليتو روسيليني لفضائله العلمية وفهمه للظروف المحيطة ومزاجه المعتدل دائماً بل أعجب أيضاً بقدرات عمه جياتانو روساليني كمهندس معماري وموهبة الرسام جيسيبي أنجيليلي وكان يفضل على زملائه الفرنسيين ، كما كان مقداراً للخدمات التي أداها الدكتور ريتشى في هذا المجال والمجالات الأخرى .

* كان قد نال الجنسية الفرنسية .

** عثر على بعض أجزاء من مذكراته وهي تحتوي على رسومات وتعتبر إحداها أكثر صور شامبوليون المعروفة تأثيراً على المشاهد . وقد نقله وعلق عليه بذكاء ميشال دوفاشتار في Revue Française d' Egyptologie الجزء ٢٨ صفحات ١٩٨ - ٢٠١ .

الواقع أن المشاكل جائته من الجانب الفرنسى . لنمر كالكرام على انطوان بيبانت الذى أفقدته مغامرة الرحلة كيانه . ثم إننا نعرف أن شارل لونورمان كان قد أخطر رئيسه بأنه لن يتمكن من إطالة إقامته لما بعد الأيام الأخيرة من عام ١٨٢٨ إلا أن « الجنرال » أسف كثيراً لمغادرة الكساندر دوشان إلى اليونان فهو مجد فى عمله بقدر ما هو كفاء ، وقد تأثر للغاية لما أبداه الرسامون الشبان الثلاثة من رغبتهم فى الانضمام إليه فى الإبتعاد عن المهمة .

كاد أن يؤدى نستورلوت دور يهوذا عندما صرح بأنه أصيب « بتخمة من الهيروغليفيات » وأن ما يتقاضاه لا يتناسب مع مجهوداته . غريب أمر موظف الجمارك هذا الذى ولع بعلم المصريات ثم كان يحلم بصوت عال - فى بعض الأحيان - بالعودة إلى وظيفته الأصلية وكان يصف نفسه بأنه « رجل يعبر النار ويعتقد أنه وصل باستمرار إلى حافة الموت » . كان قلقاً ومتطرفاً فى انفعالاته ومتقلب المزاج وسريع الغضب ، حاداً أكثر منه ذكياً هذا الجمركى الذى فعل الكثير ليرفع من درجة القلق لدى قائد الحملة . إلا أنه عوض كل ذلك بأن سهر عليه وهو على فراش الموت ثم بأن دافع ببسالة عن ذكراه .

لو أن هذه الشهادة لشارل لونورمان لا تنصب سوى على الجزء الأول من الرحلة إلا أنها تظل ذات قيمة بالغة ! « لا أجد سوى المديح لأصف به زملائى الفرنسيين فى الرحلة . شامبليون ممتاز باستمرار مسرفاً فى عطائه من كنوزه العلمية ، سهل المراس على الرغم من عبقريته . رفيق مكتمل وأنى لمدين له لدرجة أنه لا يمكننى سوى أن أتعلق به مدى الحياة . الرسامون الخمسة أعضاء البعثة جميعهم شباب ممتازون ودمثو الاخلاق عشت معهم كأخ لهم : أفضل الجميع هو دوشان ... * » .

ثم بعد ذلك بفترة عندما راجع شارل لونورمان الدروس المستخلصة من تعاونه مع شامبليون كتب يقول : « إن ماتمكن نفر قليل جداً من الناس مثلى من تقديره عنده هو هذه السرعة التى تحكم النتيجة وهذه القوة فى الحدس التى لا تملكها سوى العبقرية وفى نفس الوقت هذه البراعة عند البحث عن الحقيقة وهذه البساطة النبيلة فى الاعتراف بالخطأ عندما يكتشف أنه وقع فيه ... » .

* هذا التقدير أثر فيه لدى لونورمان - وله صفة شبه رسمية وشخصية متعالية بعض الشيء - كون دوشان ابن محافظ المكتبة الملكية .

أضاف لونورمان لهذه الصورة الجميلة للعالم وهو يعمل على أرض الواقع لمسة يجب أن نعيدها اهتمامنا . بعد أن عدد مناقب شامبوليون العلمية - حيا فيه ممثل سلطة آل بوريون المتحفظ : « ميله الهادئ لأن يتجاهل مالم يحن الوقت لمعرفته » : وهكذا - بينما كان يعترف لأخيه « برعبه » لما أكتشفه ، كان جان فرانسوا يقول لزملائه المتدينين أنه يقبل ألا يتضح « كل شئ الآن » فيما يتعلق بالأمور التي تعرض العقيدة الكاثوليكية للخطر وتثير فزع هؤلاء الذين كانوا يراعون حملته ..

الحقيقة ستكون الأقوى وستفرض نفسها بسرعة . ولكن يمكن أن نقول منذ الآن أن « صاحبنا الدوفيني المعفرت » لن يمنع نفسه من إلقاء غطاء مؤقت على وعاء الساحرات إلى أن تتولى ثورة عام ١٨٣٠ عملية فك أسر التاريخ بالمعنى الكامل للكلمة . ولكنه كان قبل ذلك قد حرر مذكرة سرية لحمد على سلمها لنائب الملك في مصر قبل رحيله منها ، تجرأ فيها فإنتقد التسلسل التاريخي الذي جاء في التوراة . ويجدر أن نذكر هنا أن ملحوظة لونورمان تزداد أهمية عندما ندرك أنه كان متخصصا في الآثار المسيحية القديمة وأن هذه المشاكل الخاصة (« وربما حان الوقت لمعرفته ») قد فرضت نفسها عليه أيضا وقد أصبح في آخر أيامه غاية في التدين .

وإذا كان صاحب الاكتشاف لم يمنع نفسه من الحيطة التكتيكية فيما يخص صلب الموضوع ! فهو لا يخطئ ولا يتردد في الشئون المتعلقة بواقع مصر الحي . لقد رأيناه مهتما منذ البداية بهذا الشعب الوريث البعيد لتاريخ عظيم وقد تأثر للغاية من ظروفه الحالية . هذا وكان صديقه الدكتور باريزية عالم الأويئة الموفد إلى الشرق للبحث عن وسائل مكافحة الطاعون قد حثه على ذلك ولما لم يتمكن من لقائه في صعيد مصر كتب له في يناير ١٨٢٩ :

« إنك تعجب بروائع مصر القديمة أما نحن فإننا نبحث بتمعن في مصائب مصر الحديثة التي لا نهاية لها . أوه ! كم هي شاسعة المسافة التي تفصل الاثنين !! كلما أمعنت التفكير كلما زادت دهشتي لتاريخ مصر القديم ولحكمتها وعبقريتها وعلومها وقوتها . وكلما زادت مشاهدتي زادت قناعتى بأن مصر اليوم وضعت وسط الأمم كمثال لا يجب أن يخشى منه ويلزم الهروب بعيداً عنه . كل ذلك يحدث وهي تحت سماء رائعة وعلى أرض خصوبتها متناهية ... » .

لم تكن أراء شامبوليون أقل تشدداً عن مصر المصريين وقد انحنت قامتهم أمام سطوة الباشا الكبير ولم تتوقف عن كونها بضعة سطور فى رسائله إلى أخيه أو إلى داسييه وكان معروفا منذ البداية أن لهذه الرسائل صبغة العلنية . أثناء حياته اليومية فى صعيد مصر لم يكن يتخرج من إسداء النصيح للفلاحين ليتفادوا بعض المضايقات أو دفع بعض الضرائب ولا بد أن ذلك لم يخفى عن عيون جواسيس الباشا . وسنرى من محادثات الباشا مع « الجنرال » والدكتور باريزيه فى نوفمبر ١٨٢٩ أنها ستوضح له الأمور .

حكم صاحب الكشف حكماً يبدو كما لو أنه لا يقبل النقض ضد نظام محمد على فى خطاب إلى مسيو داسييه غداة عودته إلى فرنسا .

« محمد على هذا الرجل الممتاز لا يفكر فى شئ سوى إخراج أكبر كمية ممكنة من المال من مصر المسكينة ولما كان يدرك أن القدماء رمزوا إلى هذا البلد بالبقرة فهو يحلبها ويرهقها من الصباح إلى المساء قبل أن يذبحها وهو ما سيحدث عن قريب . هذا هو بالضبط ما ينتج عن مشورة دروفيتى الطيبة والنبيلة وجومار العظيم ومن كانوا على شاكلتهما من رعاة الشعوب الأخرى . إن مصر تثير الربح والشفقة .. » .

إلا أنه يعبر عن رأى أقل قسوة فى الباشا الكبير عندما يلقيه فى أحاديثه بكنية كاشفة لما يريد قوله وهى : حورس - تيفون . حورس المفيد والخالق وصانع حداثة مصر ؛ تيفون هو الإله القاتل الذى حدد لنفسه هدف انتزاع وادى النيل من غياهب الظلمات وفرض على شعبه قانوناً لا إنسانياً وأجبره على السخرة الدائمة فى جميع المجالات وعلى تشييد هرم لا يكتمل .

فى ٤ سبتمبر ١٨٢٩ أعطى « الجنرال » أوامره لمغامريه بالانسحاب .. الإبحار تم بعد هبوط الليل عند أعتاب معبد الأقصر . كانوا جميعاً يستعجلون الانتهاء من كل هذا . إذ لعب المناخ دوره فى تلك الحالة التى انتابتهم . وكانت المهمة قد انتهت فى مجملها ، وبدأت بعض التوترات تظهر على السطح وكان شامبوليون قد بلغ به الإرهاق مداه . وذهبت آثار النشوة بعد أربعة عشر شهراً من الأعمال الجسورة والاكتشافات والانبهارات ، وهذا شئ طبيعى جداً .

كان من المخطط التوقف فى دندره وأبيدوس . التوقف الأول تم اختصاره بسبب حالة الإرهاق الذى كان عليها رئيس البعثة ولم يعد فى إمكانه أن يخفى ذلك سوى عن أخيه . أما التوقف الآخر فقد ألغى بسبب الفيضان . سنذكر هنا إشارتين متوازيتين إلى هذه المرحلة النيلية فى اتجاه الدلتا .

الأولى لروسيلىنى : « وسط أشجار التمر هندى والسنت والصفصاف كانت هذه الرحلة قصيرة ولكنها ممتعة لأنها جاءت بعد الإقامة فى الصحراء الجرداء فأعادت الطبيعة الصفاء إلى نفوسنا » .

الأخرى لشامبوليون : « نرى البؤساء من الفلاحين نساءً ورجالاً وأطفالاً يسرعون الخطى حاملين القفف المليئة بالتراب ليتمكنوا من إنقاذ منازلهم وماتبقى لهم من مؤن [....] إنه مشهد مؤسف [....] الحكومة لن تطالب بضرائب أقل على الرغم من كل هذه الكوارث » .

ومهما كان جان فرانسوا شامبوليون لا يميل كثيراً للمشاركة فى نهب وادى النيل إلا أنه لم يترك وادى النيل خالى الوفاض . فهو لم يجعل من صرخة الأسف الشديد الزائفة التى أطلقها قبل ذلك بتسعة أعوام بخصوص رسم أبراج معبد دندره ، لم يجعلها نبراساً له ، فعلى الرغم من تفاهة المبلغ الذى خصص له مؤخراً (عشرة آلاف فرنكا) نجح فى أن يضيف إلى لوحته النحت البارز الرائعة التى اقتسمها مع روسيلىنى والتى انتزعت من مقبرة سيى الأولى ، تابوتا لا يقل عنهما جمالاً وهو من البازالت الأخضر تم شراؤه بناءً على أوامر منه لدوشان من وزير الحربية محمود بك * .

إقامته القصيرة فى القاهرة خلال شهر سبتمبر أتاحت له فرصة مقابلة ابن محمد على ** وقائد حملاته العسكرية إبراهيم باشا وقد وجد فيه مثل العديد من المؤرخين بعده - رجلاً ذا شخصية أكثر عظمة من أبيه بل إنه ذهب إلى القول عنه فى خطاب لداسييه : « إنه رجل فريد فى عظمتة . جدير تماماً بحضارة مصر .. » وهو لذلك حث إبراهيم إلى القيام بحملة سلمية لمرة واحدة على الأقل إلى منابع النيل : إنه هدف جميل لمنتصر سلبت منه انتصاراته حتى ذلك الحين .

* القطعتان معروضتان فى اللوفر فى صالة هنرى الرابع.

** بالتبنى .

ملحوظة من المترجم : نرى أن المؤلف أقر بون تحفظ ما يتردد عن عدم أبوة محمد على لإبراهيم على الرغم من أن المؤرخين لم يتفقوا قط على ذلك . (المترجم) .

فى الإسكندرية - حيث سيبقى لأكثر من شهر ، استقبله القنصل ميمو - الذى تولى منصبه مؤخراً بعد دروڤيتى - يقول أنه غمره بالعديد من علامات « الود الصادق » وهو يستخدم صفة « الصديق » حتى يميز هذه العلاقة عن التى ربطته بسلفه . وقد كان « الجنرال » أكثر وضوحاً فيما بعد إذ قال : « إن ميمو رجل سكن قلبى مباشرة فكان بالنسبة لى ما كان على دروڤيتى أن يكون » .

الطراد « أسترولاب » أنيط به إعادة شامبوليون إلى فرنسا ومعه آخر الرفاق سالفادور شيرويينى وقد لقبه بحنان « ياورى الشخصى » . أما التوسكانيون فقد سبقوه إلى ليفورن فى السابع من اكتوبر على متن مركب تجارى . فى حين وجد الرسامون الشباب أعضاء اللجنة الفرنسية وهم لوت ولوهو وويارتان فرصة استغلال موهبتهم فى الاسكندرية ثم بعد ذلك فى القاهرة لبعض الوقت . ولما كان على المركب الفرنسى التوجه أولاً إلى محطات الشام فقد اضطر صاحب الكشف أن ينتظر الإبحار حتى شهر ديسمبر .

وجد فى هذه المهلة فرصة يجرى فيها عدة مقابلات جديدة هو وصديقه الدكتور باريزييه مع الباشا وأبنه إبراهيم . ولما كان الطبيب قد أنقذ الأمير من نوبة صرع أصابته بعد وجبة دسمة للغاية أصبح محمد على يعبر للشخصين الأروبيين عن نفس القدر من الإعتراز : « الأول أقام أبنى من فراش الموت والآخر أعاد إلى الحياة » أمجاد بلادى . وأتاح ذلك للضيفين فرصة الدفاع عن التراث التاريخى لمصر لدى الباشا من أجل الحفاظ عليه والدفاع أيضاً عن « كرامة الإنسان المصرى » . إلا أن توزيع الأدوار هنا لم يمنع قط عالم المصريات من الخوض فيما يطلق عليه اليوم «شئون الساعة » .

لم يكن جان - فرانسوا شامبوليون رجلاً يدع كل هذه الفرص تمر دون أن يدفع بالأمور التى تهمه وتشغل بال مواطنيه إلى الأمام . فخلال مقابلاته مع محمد على وإبراهيم دافع عن مشاريع صديقة لينان نو بالقون من أجل إخضاع النيل بصورة نهائية فى خدمة الزراعة المصرية وذلك بواسطة « الرى الدائم » . ونجح فى أن يغير من لتجاه الباشا لتحويل مستشفى القاهرة إلى مصنع للحريير وهو المستشفى الذى أنشأه لتوه الدكتور بارتيليمى كلوت مواطنه من جرونوبل كما جعل الباشا يقتنع تماماً بحتمية دعمه الكامل والنشط للبعثة التعليمية التى تضم مجموعة من الشباب المصرى المتعلم والتى كانت موجودة فى فرنسا والذى سيكون نجمها المتألق رفاعة الطهطاوى

والتي ظلت بمثابة همزة وصل بين الثقافتين لفترة طويلة . وحصل في النهاية على تأكيد إهداء مسلة الأقصر من محمد على لفرنسا - وهي المسلة التي تيم بها جان فرانسوا قبل ذلك بأربعة شهور * .

إلا أن أهم مبادرات صاحب الكشف كانت المذكرة التي سلمها للباشا من أجل الحفاظ على آثار وادي النيل وكان قد سجل عبر رحلته فيه الحالة المتدهورة التي كانت عليها هذه الآثار بل سجل أيضاً إختفاء بعضها . إنها صرخة استغاثة شجاعة أطلقها بعد التحذيرات الشفهية التي لم يظل يكررها بها خلال لقائاته مع سيد مصر . فلنحكم بأنفسنا .

«...إنه من مصلحة مصر العليا نفسها أن تحرص حكومة سموكم على المحافظة على المباني والآثار القديمة التي تشعر أوروبا وعلمائها جميعاً بالأسف العميق على الدمار الذي يلحق بها . [..] من المعلوم بالطبع أن هذا التدمير البربري يتم على الرغم من نوايا سموكم ومن رؤيتكم الثاقبة المعروفة جيداً من الكافة ** ومن أشخاص عاجزين عن تقدير الأضرار التي يسببونها لبلادهم عن جهل .. ومع ذلك فإن هذه الآثار قد ضاعت بالفعل دون رجعة .. » .

وبعد أن ذكر قائمة بثلاثة عشر وأربعة عشر أثر تم تدميرها مؤخراً مثل آثار أشمونين أو الكاب « أو جزيرة اليفانتين أخذ شامبوليون يستحلف محمد ألا ينتزع شيئاً من الآثار بعد الآن ولأى سبب كان من الأربعين موضعاً الذي حددهم - ومنهم الكرنك ، الأقصر ، الجرنه ، ومدينة حابو ، أسنا ، إدفو ، كوم أمبو ، أبو سمبل وبعض الآثار الأخرى فيما وراء الشلال الثاني .

وبعد أن أوضح أن « الآثار المحفورة في الجبال لا تقل أهمية من المشيدة بالحجارة المستخرجة من هذه الجبال » دافع صاحب الكشف عن حماية سقارة وبنى حسن وبيبان الملوك وغيرها .

« .. الآثار التي تدمر يومياً تدميراً كاملاً [...] على يد الفلاحين لحسابهم الخاص أو على وجه الخصوص - لحساب تجار الآثار الذين يعملون لحسابهم [..] إن الكهوف المنحوتة أو المرسومة التي تكتشف يومياً في سقارة وفي العراية أو في الجرنه تكاد تدمر تماماً فور فتحها بسبب جهل المنقبين أو عمالهم [..] إن مصلحة

* راجع الخاتمة ص 645 .

** خداع جسكوني .

العلم لا تفرض بطبيعة الحال توقف عمليات التنقيب لما تجذبه العلوم كل يوم من حقائق مؤكدة وأنوار لم تكن تحلم بها قط ولكنها تطالب بفرض نظام على المنقبين يسمح بأن تكون المحافظة على المقابر التي يتم الكشف عنها اليوم وفي المستقبل مؤكدة تماماً ومؤمنة جيداً ضد ما يناله منها الجهل والجشع الأعمى ..
الاسكندرية في نوفمبر ١٨٢٩

وهكذا استكمل محافظ المتحف مهمة المكتشف . صحيح إننا رأينا أن رئيس الحملة لم يحجم هو ذاته عن انتزاع لوح رائعة من الحفر البارز من مقبرة سيّتي الأول ولا من استعادة أو الحصول على هدايا أو شراء قطع أثرية لم يكن الهدف من ورائها إثراء مجموعات متحف أجنبي . ولكننا نتذكر أيضاً ما نقلناه عن مدام بريشيانى عن تقاليد ذلك الزمان . ولنا أن نتخيل ما كان يمكن لأفراد أقل تمسكاً بالتراث الثقافى المصرى من شامبوليون وروسيليني أن يأخذوه معهم من رحلة مثل هذه وفى ذلك الزمان ... أن المصلح الكبير لا يلقى السلوك القديم برمته ولكنه يندد بمساوئه ويحدد فضائل جديدة .

قبل أن ينصب نفسه رائداً لاجوست مارييت الذى أسس بعد ذلك بثلاثين عاماً إدارة الآثار المصرية - أشرف جان - فرانسوا على شحن تابوت « زيهار » الرائع على متن الاسترولاب وكذلك تمثال الملكة كاروما الذى اشتراه فى الاسكندرية ولوحة النحت البارز المأخوذة من مقبرة « سيّتي الأول » وكان فى حالة قلق من أن تفعل معه الحكومة البريطانية ما فعلته بالنسبة لحجر رشيد : لأن لندن ادعت الآتى : بما أن من اكتشف مقبرة ستي الأول هو بلزوني وبما أن هذا الأخير يعمل لحساب هنرى سوات فإن جميع القطع الخاصة بالمقبرة تعتبر ملكية إنجليزية إلا أن هذه المطالبة لم تصل إلى أية نتيجة واحتفظ شامبوليون بغنيمة .

رفع هلب « الاسترولاب » الذى كان يقوده فارنيناك دو سان - مور وهو من مقاطعة كارسي مثل صاحب الكشف - فى ٦ ديسمبر ١٨٢٩ - كان معروف عن هذه السفينة التى قادها دومون دورفيل عبر عدد لا بأس به من العواصف وفى عدد مماثل من المناطق ، أنها ثقيلة وبطيئة ولكنها محصنة ضد الأزمات الكبيرة . واستغرق عبورها للضفة الأخرى من البحر تسعة عشر يوماً وهو متوسط طول الرحلة فى الشتاء وذلك على الرغم من أن بضعة أيام منها كان الجو فيها هادئاً تماماً .

استمتع جان فرانسوا شامبوليون بالرحلة . فبخلاف الصحبة الطيبة لسالقادور شيرويينى سعد أيضاً بصحبة القبطان فانيك . وهو رجل شجاع على درجة عالية من الثقافة . كانوا يتبادلون أطراف الحديث وكان هو يسجل ملحوظاته ولكنه كان يغفو كثيراً إذ كان منهكاً للغاية .

فى يوم عيد ميلاده التاسع والثلاثين - ٢٣ ديسمبر ١٨٢٩ - رسى الاسترولاب فى ميناء هيار . وكان عليه أن يعبر محفة (الكارتينا) والحجر الصحى لأن الطاعون كان منتشرًا حسبما يقال فى الشرق كله وأحيط بعد ذلك علماً بأن العشرين يوماً اللازمة للعزل قد أضيفت لها عشرة آخرون له ولزمائه لأن الاسترولاب كانت قد توقف فى ميناء اللاذقية حيث يقال أن خطر نقل الطاعون منها قد ارتفع . أكدت مدام رارتلو بان فى مذكراته المصاحبة لمراسلات شامبوليون التى قامت بنشرها أن البارون ديسار - وزير البحرية فى ذلك الوقت - كان المسئول عن هذا الإجراء التعسفى الذى أثر كثيراً فى صحة الرحالة شامبوليون - وقد ذكر تلك المحنة فى رسالة موجهة إلى مسيو داسييه : « لدى وصولى إلى بلاد الأجراس * كما يسميها أصدقائى الأعزاء من أهل الصحراء ، اضطرت إلى أن أتركهم يعاملونى معاملة المصابين بالطاعون ويحبسونى فى محجر قذر وتعتيس .. » .

أوضح لجاك - جوزيف أنه قرر فى بادئ الأمر تمضية فترة الحجر الصحى على متن الاسترولاب إلا أنه اضطر - بسبب استحالة إشعال النار داخله - إلى اللجوء إلى غرفة سيئة فى الحجر لأنها مزودة بمدفأة إلا أن هذه الأخيرة كانت تصدر كمية هائلة من الدخان ولذا كانوا يطفئونها فى كثير من الأحوال إذا لم يتولى الهواء العاصف ذلك بنفسه .. كانت الأمطار والثلوج تنهمر . بالنسبة له لسالقادور وكانا قد خرجا لتوهما من وادى النيل كانت المحنة قاسية . وكانت بالفعل محنة بالنسبة له قاتلة .

لنحاول أن نتصور الحالة الفكرية التى كان عليها الرجل الذى أكمل لتوه رحلة لانظير لها وهو يعود لبلاده ومعه ثروات تخصها - تحيط به هالة المجد . كانت أوروبا كلها قد قرأت لتوها رسائله التى أرسلها من عمق آلاف السنين ومن أرض أسطورية وهو الآن قابض ينهش السعال صدره بجوار مدفأة فى جو زمهرير ينتظر الإفراج عنه من هذا السجن المخصص للمصابين بالوباء .. الشئ المؤكد فى مجمل الأمر أن استقبال كريستوفر كولومبس كان أفضل من ذلك ..

* أى بلاد المسيحيين - بسبب الكنائس .

شغل وقته فى فترة الانتظار القاسية هذه بأن أمطر بالخطابات كل من كان عليه أن يقدم له تقريراً عن رحلته لسبب أو لآخر .

فإلى سويستان دولاروشفوكو - حامى حماه قال :

« من ناحية الأبحاث العلمية التى كانت الهدف الرئيسى (للرحلة) يمكن القول بأن ما حدث قد فاق كل آمالى : إذ أن الثراء الذى تتسم به ملفاتى يثير الإعجاب [..] كان من واجبى أن أفعل ما فى وسعى لكى أثرى القسم المصرى بالمتحف الملكى بمختلف أنواع الآثار التى تنقصه [...] لم أتلو جهداً للوصول إلى هذا الهدف : كل ما أمكننى إدخاره من أموال تفضل بها على بلاط الملك ومختلف الوزارات من أجل القيام بالرحلة - أستخدم فى التنقيب والحصول على آثار مصرية من كل نوع - من أجل متحف شارل العاشر ... » .

وكتب إلى البارون دولاويورى - وزير البلاط الملكى الذى أتاح لهذه الرحلة أن تتم :

« جلت فى مصر خطوة خطوة وأقمت فى كل مكان ترك الزمان فيه بعض آثار من روعة الماضى [..] الأشياء التى جمعتها تخطت توقعاتى [..] أعتقد أنه فى استطاعتى القول أن تاريخ مصر وديانتها والفنون التى راعتها لن تعرف جيداً وتقدر على حقيقتها سوى بعد نشر الرسومات التى جنيتها من رحلتى » .

أما الخلاصة النهائية فهى من حق حاملى سره المقربين :

كتب إلى جاك - جوزيف ما يلى .

« انتهت حملتى إذن يا صديقى العزيز - وكل شئ جرى كما كنت تشتهى وأشتهيه أنا .. »

وإلى مسيو داسييه

« يهكم أن تعرفوا ياسيدى أن نتائج رحلتى عبر البحار تخطت كل آمالى » .

انتظار ؟ نعم . ولكن ما هو الثمن ؟ كتب إلى صديقه جان جوزيف دوبا أيضاً من محجر طولون : « قمت بجمع أعمال تكفى حياة بأكملها ! »
كان ذلك يعنى بالنسبة له خمسة وعشرين شهراً .

١٨ - « الموت يتربص بى فى بابل ! »

« الثلاثة أيام المجيدة » والحزن - سكة - مدام أديل .. « دفعة أكاديمية - المتحف - أبواب الكولاج دوقرانس - أثنان مع - الانسحاب إلى فيجاك - آخر عربة بريد ..

١٨٣٠ ... بعد أن أقام لمدة ثمانية عشر شهراً تحت سلطة حاكم شرقى مستبد هل كان من الممكن أن يحلم المواطن شامبولىون بسنة أفضل من سنة « الأيام الثلاثة المجيد » ليعود فيها إلى فرنسا ، وهى التى وضعت حداً نهائياً وبصورة باهرة لخمسـة عشر عاماً من الحكم المطلق وسيطرة « طافى الأنوار » . . .

هو الذى حركت فى نفسه عودة الليبرالية - الممثلة فى وصول وزارة مارتينياك للحكم فى ١٨٢٨ - الآمال وهو فى أعماق صعيد مصر ، كيف لا يصفق للحركة التى أطاحت بآل بروبون (« المرة الأخيرة » . حسبما قال شاتوريان ..) وأوصلت للعرش دوق دورليان الذى كان يعتبر رمزاً للمساواة بين المواطنين وهو الذى كان يعبر له منذ ثمانى سنوات عن تعاطفه القوى والنشط ؟ .

الأفكار التى كانت تحرك السلطة الجديدة هى التى كان يدافع عنها وهو فى جرونوبل عندما عمل صحفياً بحكم الظروف فى عام ١٨١٥ . جمهورى القلب ، لم يكن لديه ما يجعله يعترض على نظام ملكى يحترم حقوق الشعب . ولم تكن الأفكار فقط بل أصدقائه أيضاً هم الذين وصلوا إلى السلطة : فرانسوا أراجو لم يكن بعد سوى إحدى مفكرى التحرك أما كازيمير بيريه - ابن الدوفينييه من مدينة فيزيل فهو التجسيد الحى لبرجوازية منطقة الإيزار التى تتبنى التحديث فكان يستعد لرئاسة الحكومة .

ومع ذلك فإن ما يسترعى الانتباه فى مراسلات وأقوال كاشف أسرار الهيروغليفية لدى عودته من مصر هو أنها لا تعكس قط الحماس الذى كان يحرك فيما مضى عالم اللغويات إزاء كل تقدم تحققه الديمقراطية .

إننا نعرف - من خلال خطاب إلى زليمر بوجه خاص - أن جان - فرانسوا قد تحرر من الكثير من الأوهام فى هذا المجال . إنه لا يزال من حزب « التنوير » ومناهضاً جداً « للمنافقين » لأنه إزداد إيماناً بأن سلطانهم يمنع ظهور الحق .

وهو لم يخفى تعاطفه مع القادمين الجدد ولكن فى اعتدال يعكس ما يمكن أن نسميه انقشاع أو هامه الحماسية .

هل نستخلص من ذلك أنه أصبح الآن - ملكا لمصر وحدها وأن التحركات الانفعالية لصغار القوم الذين شهروا على وجه البسيطة بعد خمسين قرناً من الملك - العقرب لم تعد تدخل فى نطاق اهتماماته ؟ هذا محتمل بالفعل . ولكن إذا كان يميل إلى ارجاع الأمور كافة إلى العلم الذى أسسه لا فهو لا يفعل ذلك إهمالا لكل ما لا يتعلق بهذا العلم الجديد ولكن لأنه لم يعد يحكم على الرجال والأشياء سوى بمقدار مشاركتهم فى معرفة حضارة وادى النيل . فهو إذن يعير أهمية أقل لشخص جاكوبى لا يحب مصر عن جيزويتى يحب مصر .

إذا كان الانهيار المفاجئ لنظام « الرستوراسيون » أو إعادة الملكية يثير حماسه فذلك لأن الحدث حكم على العديد من هؤلاء النبلاء الذين خدموا أهدافه بكل سخاء لعدة سنوات بالانسحاب من الحياة العامة أو بالمنفى ، أمثال دودوفيل ولاروشفوكو ولابويورى ونواى وعلى وجه الخصوص بطبيعة الحال بلاكاس .. العزيز إلى قلبه بلاكاس . يمكن أن تكون « الثلاثة أيام المجيدة » قد سحرت فؤاده إلا أن رحيل الدوق للمنفى (وعلى الرغم من أن شارل العاشر كان قد غضب عليه من قبل إلا أنه أصر على أن يكون مصيره هو المنفى) قد مزق قلبه . هذا الرجل الجمهورى هو قبل كل شئ رجل ولاء وعلاقات إنسانية : علاقات المركز فيها والقلب هو مصر . ولذلك فيما يخص مصر كان لراعيه - فى تصوره - حقوقاً عليه . ولذلك فإنه لا يوجد تناقض فى قولنا أنه أستقبل ثورة يوليو « وهو يبتسم من خلال دموعه » .

هل كررنا ذلك بما يكفى : هذا الشامبوليون العائد من مصر منتصراً وتحوط بهامته أوراق الغار للنصر العلمى الذى توصل إليه كان رجلاً منهكاً إلى أبعد الحدود .

كما لو أن الغنيمة الثقيلة قد أثقلت كاهله حتى بدا كما لو أن ردائه الذهبى يسحقه بثقله . وهو إذا كان يستقبل انتصار الحريات بفرحة غير عارمة فإن ذلك يرجع أيضاً لهذا السبب . الولاء العاطفى والحاح مصر على فكره وفؤاده لعباً أيضاً دورهما بالتأكيد إلا أن الإحساس المسيطر عليه قد يكون نوعاً من الإرهاق الحزين بسبب الآمال التى تبددت .. هذا الرجل اكتملت أبعاده وحقق ذاته وهو فى نفس الوقت

مستنفذ بالمعنى الكامل للكلمة – مازال بالطبع أمامه مهمات عظمت ولكنها لاتعدو أن تكون « من قبيل : « إكمال ما توصل إليه بالفعل » .

تركناه فريسة لزمهرير مقاطعة بروفانس وجسمه المسكين يتقلص أمام العدوان المناخى (شتاء ١٨٢٩ – ١٨٣٠ لا يزال مشهوراً فى التاريخ ونهر السين قد تجمد فى باريس) منذ يناير ١٨٣٠ لم يعد جان فرانسوا سوى رجلاً مريضاً * أصيبت رئتاه مؤخراً بإصابات لا تعالج وهذه التهاب رئوى مزمن هزاً وهو فريسة لمرض السكرى . كبده تنهشه طفيليات النيل ، رأسه يتعذب من طنين فى الأذان ثم أن النقرس لن يتوقف قط عن إيلاجه أشد الألم . نقرأ شكاويه من قسوة المناخ عبر جميع مراسلاته وبصورة منتظمة : « ما هذا الشتاء الشيطانى الذى ترسله لنا السماء هذا العام ؟ إنى أتألم لذلك جداً وأخشى كثيراً أن أجد النقرس فى إنتظارى فى ضباب باريس » .

يعكس بوضوح الطريق شديد التعقيد الذى سلكه عند العودة مخاوفه هذه فهو بعد أن عدل عن فكرة التوقف فى إيطاليا (حيث كانت تراوضه فكرة الانضمام فيها إلى التوسكانيين العائدين بسرعة إلى ليفورن حيث لازالت تتكهن فيها الكاهنة ..) قرر أن يقوم ببعض الالتفاتات فى طرق الجنوب – الغربى الفرعية .

« .. إن البرد القارس الذى تعانون منه تحت هذه السماء السعيدة يوقف شعر رأسى ولذلك قررت أن أسلك طريقاً يجعلنى لا أترك شمس الجنوب سوى بعد أطول فترة ممكنة لكى أراعى الانتقال المرحلى . ولذلك فإنى لن أسلك طريق ليون الذى يكاد يكون غير صالح للسير فيه بسبب الثلوج وخاصة فى القطاع الذى يفصل بين ليون وباريس . لدى عمل أوديه فى مدينة أكس لسبعة أو ثمانية أيام على الأقل لدراسة بردية سالبيه [..] كما أنوى زيادة أفينيون لزيارة متحف كالفيت . وأعود إلى نيم لزيارة حفرياتها الجديدة ثم إلى مونيولين – ناربون – كاركاسون ، تولوز وبوردو .. » .

* ومع ذلك نقرأ فى خطاب غريب من روزين لأخيها هوج تقول فيه على الرغم من ذلك أن « الصغير » يتمتع بصحة جيدة غير أنه « يزداد سمناً أكثر مما ينبغى » وهذه هى الإشارة الوحيدة فى هذا الاتجاه (نهاية ١٨٣٠) .

توجد فى خطاب آخر إلى جاك - جوزيف بتاريخ ١٨ فبراير ١٨٣٠ إشارة تسترعى منا التوقف عندها :

« بما أنى سافرت دون أن أتوقف فى فيجاك فمن العدل أن أرى فيها الأسرة بالمرّة . وأنا هنا * أنتظر فى أى لحظة وصول هذه الشخصية التى ظلت تنتظر رؤيتى اثنتى عشر عاماً ولا أشك أن درجة تعلقى بها لا يقل عما تكنه هى لى . وهى أيضاً إحدى احتياجات قبلى . فاستسلمت لها . ستغفر لى هذا التأخير لبضعة أيام [...] إنك تعرف بالطبع أنى أعنى مدام أديل . سوف نسافر على الفور إلى فيلفرانش حيث ينعقد مؤتمر عائلى لمدة يومين .. » .

هذه هى إذن « مدام أديل » تعود من جديد وهو لا يذكر اسمها سوى بعد أن دار طويلاً وإلى إمعاننا فى الغموض ، « هذا الشخصية الذى ظلت تنتظر رؤيتى اثنتى عشر عاماً » والتى يشركها بعد ذلك فى أمور أسرية . هل هى « ماما الجميلة » التى تحدث عنها عام ١٨١٧ أم هى بطة إحدى المغامرات التى خاضها « صغير » وهو فى مقاطعة كارسى؟ هل لعبت مدام أديل ** الدورين فى تتابع فتوات فى النهاية دور الأمومة الحية ؟

نوع غريب من العلاقات من كافة الوجوه . بعد فترة زمنية كتب إيميه شامبليون - فيجاك - ابن جاك جوزيف - بخط يده على هامش أحد النصوص الخاصة بنشاط جان - فرانسوا التعليمى فى مقاطعة كارسى وهو بصدد التعليق عليه : « إن هذا النص كان ملكاً » لعشيقة عمه » . وهو لا يضيف شيئاً بعد ذلك . وهذا لا يكشف لنا الكثير عن الحياة العاطفية لصاحب الاكتشاف فى مسقط رأسه ولكنه يؤكد وجود « شخص » فى فيجاك « مرتبط » به بنفس قدر ارتباط أخيه به وهو ما يعنى الكثير . وعندما سيشعر جان فرانسوا شامبليون بعد عشرين شهراً أن النهاية اقتربت فسيصر على أن يذهب للإقامة لبعض الوقت فى كارسى ولم يكن ذلك لأسباب مناخية فقط .

هذه الجولة الريفية العاطفية والأثرية لم تمنع إصابته ببعض من ضغائن وأحقاد قادمة من باريس ففى إكس وصلته أصداء منشور صادر من المجموعة العدائية له حول رحلته إلى مصر . وإذا كان جاك - جوزيف قد أحاطه بها علماً فكان ذلك من

* فى تولوز .

** راجع الفصل (٧) .

أجل إعداد هجومهما المضاد . إلا أن الأخ الأصغر ألقى بالأوراق فى النار وكتب لأخيه يقول له :

« وجدت [..] بعضاً من الكلمات الحلوة المذاق التى تضمنتها المنشورات التى أتحدثت بها » العصابة « أثناء غيابى . إنها تتم عن سوء طوية تجعل المرء يتقيأ ولن أنزل أبداً إلى مستوى مصارعة هذه النفايات ، وإن أرد عليها سوى بالمضى فى طريقى محتقراً كل هذه المناورات الخسيسة . إن الحسد يخرج من جميع المسام - وهو يعتبر من طبيعة الأمور . إنى أبصق * عليه وأكمل طريقى ... » .

فى ٤ مارس ، شارع كوك - هيرون فى باريس . صدم جان - جوزيف وه لفادور شيرويينى اللذان جاءا لاستقباله لدى وصول العربية القادمة من الجنوب الغربى لفرنسا - بالإرهاق البادئ عليه ويثقل مشيته فقد أصبح بدينا ويتنفس فى اهتزازات متلاحقة . كم من السنوات أضافتها مصر إليه ! .. صوته فيه حشجة وسوالفه تلوئت بالمشيب والنظرة الجميلة فى حزن أحتجبت . يجب ألا يحبه المرء سوى قليلاً حتى لا يملكه القلق كما حدث لهذين الوفيين ..

سارع جان فرانسوا بالعمل على الإقامة فى مكان دافئ . فمن طيبة ومن الحجر الصحى فى طولون كان قد أرسل بالتعليمات لأخيه :

« أكتب الآن لزوجتى عن المسكن الذى يجب أن تأخذه . فهى إذا لم تتمكن من التصرف وبما أن معك توكيلاتهما فقم بذلك بنفسك واختاره بالقرب منك . مكتب كبير للعمل وغرفة نوم صغيرة ملاصقة له ** أهم شئ أن تكون الشقة دافئة .. » [ثم يطلب بعد عدة أيام] : « بسجاد جيد وسميك للأقدام *** فى مكتبى وفى غرفة نومى : إن هذا البند هام جداً بالنسبة لى [...] كرسى من الجلد ، مكتب صغير مدفأة كبيرة جداً فى وسط غرفة المكتب ، أما بالنسبة للسرير فهو لا يهمنى » .

* الغضب ليس دائماً من مصادر الإلهام للأسلوب الجميل .

** السطر موضوع فى النص الأصيل الخطاب .

*** إن سرد الأحداث يعطى الرؤية صورة شخصية باهتة ومخيب للآمال أكثر مما تعكسه مراسلاتها حيث يمكن ملاحظة أبعاد تؤكد أنها على شئ من الثقافة السياسية والتعقل .

ها هو يهتم بحياته الأسرية الخاصة أكثر جداً من اهتمامه بظروف عمله إنه سيهتم قليلاً جداً بزوجته كما تفعل هي أيضاً به : « إذا لم تتمكن من التصرف .. » وهو يكتب ذلك وهو عائد من رحلة طويلة ومرهقة .. أن ذلك يعنى أن الأوهام لم تكن تداعبه بخصوص زوجته حتى أنه لم يكن متأكداً من أنها ستفعل كل ما فى طاقتها لإعداد مسكن له .

السكن الذى عثر عليه جاك - جوزيف - الذى أصبح الآن محافظاً للوثائق فى المكتب الملكى وبالتالى حظى بسكن خاص بوظيفته - كان مجاوراً بالفعل له : ٤ شارع نافار . وسيعلم صاحب الكشف عن رضائه عليه . كان يحب شارع مازارين والشوارع الصغيرة المحطية ، إلا أنه استعاد هكذا الحى الذى أمضى فيه فترة المراهقة وهو طالب . وفى متناول يده هنا توجد كل الكتب وإذا عبر جسر ديزار - كوبرى الفنون - فهو على بعد دقائق قليلة من مسيو داسييه والأنستيتو (المجمع العلمى) .

الانستيتو ... ! إن علاقات الشقيقتين شامبولىون بالرجال نوى الرداء الأخضر كانت ولا زالت عاصفة . وهى تلخص فى الواقع تلك التى كانت قائمة بين القبة * وأغلبية الكتاب والمثقفين الفرنسيين والتى تتراوح بين الطمع الملح (فى عضويته) والأزراء مع الحنين إليه .

يقول هؤلاء لماذا نكون أعضاء فيه مشيرين (فى تكتم) إلى أن عدم عضويته لا تكفى قط لتمييز العبقرية . فى حين يقول الآخرون فى أسى كيف لا نكون أعضاء فيه ؟ .. كان جاك - جوزيف مثلاً حياً لطالب العضوية وجان - فرانسوا مثلاً لمن لا يريد - أن يطلب العضوية .. ولكن ...

ليس من المبالغة فى شئ أن نقول أن حياة جاك - جوزيف المهنية كلها كانت تستهدف المجد الأكاديمى . الكرسي - والوظيفة الهامة كانا الأملين اللذين سار ورائهما منذ بداياته فى جرونوبل - وهو عالم آثار علم نفسه بنفسه . وكانت استراتيجيته الاجتماعية تستهدف هذا التتويج . لقد اكتسب صداقة فورييه وصداقة ميلان وكان يعتنى بعلاقاته بساسى وكان يتودد لداسييه .. ويمكن أن نذكر العديد من تقلباته السياسية من أجل طموحه البرئ هذا .

* قبة الانستيتو أصبحت ولا تزال « كنية » لهذا الصرح العلمى [المترجم] .

أما التشاؤم العميق وتعالى جان - فرانسوا فكانا يضعانه فوق تفاهات هذا العالم . وهو إذا كان قد تطلع للحصول على مكانة أكاديمية فذلك لأنه كان يقدر أن هذا الشرف هو بمثابة تقنين لاكتشافه وأنه من حق العالم الذي فك شفرة الهيروغليفيات ، وهو إذا استمر على إصراره فكان ذلك لأنه فى تقديره أن ظلما قد وقع فى حقه وفى حق أعماله .

بهذا المعنى فإن اكتشاف عام ١٨٢٢ كان كارثة بالنسبة لشامبوليون - فيجاك :

لأن الذى يمكن أن يقبل أصبح الآخر .. يبدو أن أعضاء الأكاديمية فى ذلك الوقت لم تجل بخاطرهم فكرة قبول الأخين ابنا صاحب مكتبة فيجاك معاً كما فعل زملاؤهم بعد ذلك بقرن كامل مع الأخوين تارو ... ولكن ذلك عملاً ذكياً وملائماً إذا أخذنا فى الاعتبار ما قام به الأخ الأكبر فى إنجازات الأخ الأصغر : أحدهما يسحب الآخر إلى أعلى والآخر يجر الأول إلى الأكاديمية .

على الرغم من أنه يتوارى وراء أخيه فإن جان - فرانسوا كان يعتبر نفسه عضواً محتملاً . فهو عندما يعلن لتيفونيه عن نشر كتابه « الملخص » وكان قد قدمه لتوه للأكاديمية فى ٩ إبريل ١٨٢٤ - أضاف يقول له :

« الجميع يردد لى أن أول مكان يخلى فى الأكاديمية سيكون لى » إن ترديد مثل هذه الأقوال وذلك دون تعليق ساخر يكشف وجود بعض الاهتمام بها .

لم تكن العلاقات بين الشقيقين وكى كونتى * قد تحسنت منذ أن راح جان فرانسوا يجوب العالم . وسبق أن تحدثنا عن فشل الأخ الأكبر فى الفوز بعضوية هذه الهيئة التعليمية الجليلة عندما كان صاحب الكشف مقيماً فى إيطاليا . كما تحدثنا عن فشل الأخ الأصغر أيضاً بعد عدة شهور عندما كان يعد « متحفه » فى اللوفر ويستعد لرحلته إلى مصر واندفع دون تروى فى التقدم بعضويته الفاشلة . إذ تفوق عليه الرحالة المجهول بوكوفيل ** . بعد ذلك بثلاثة عشر شهراً بينما كان جان فرانسوا منكبا على قراءة المخطوطات التى على أعمدة امينوفيون فى الأقصر .

* Quai Conti اسم الشارع الموازى لنهر السين والذى يقع فيه الانستيتور [المترجم] .

** راجع الفصل ١٥

اجتمع أعضاء الأكاديمية لاختيار خليفة عالم الإغريقيات جيل وهو الذى كان أعداؤه يؤكدون أنه لكى يشرح لتلاميذه نصوص اكرنوفون كان يطلب ترجمتها إلى اللاتينية أولاً لكى يتمكن من قرائتها إلا شئ يجعلنا نعتقد أن صاحب الكشف قد تقدم بنفسه لطلب العضوية ويبدو بالطبع أن المبادرة جاءت من أخيه ومن مسيو داسييه اللذين إعتقدا أن من المناسب مفاجأته بذلك . من كان فى إمكانه فى ذلك اليوم أن يفضل على شامبوليون الصغير ؟ فالمنافسين الوحيدين اللذين كانا فى إمكانهما التغلب عليه وهما فيكتور كوران وأوجو شان تييرى كان عدد أعدائهما أكبر من أعدائه .

ومع ذلك فإن نتيجة الاقتراع لم تكن فى صالحه إذ نجح رجل القانون جان - مارى باردوسو - الأستاذ بكلية الحقوق - عند الاقتراع الرابع بخمسة عشر صوتاً ، تسعة إلى شامبوليون الصغير فى حين حصل كوزان على ثلاثة أصوات وتييرى (الذى لم يتقدم بطلب العضوية على الأرجح) صوت واحد ... كان فشلاً مهيناً عمل جاك - جوزيف على إخفائه لفترة طويلة عن أخيه ولم تتم احاطه « الجنرال » علماً بهذا الاخفاق سوى فى رسالة مؤرخة ١١ سبتمبر ١٨٢٩ وصلته وهو فى الرحلة النيلية بين دندره وأبيدوس .

كما لو أنه يريد أن يحصل على مغفرة أخيه ، قدم جاك - جوزيف « خطأه » على أنها فضيحة رهيبة وهاجم المنتصر متجنياً عليه وجعل من المهزوم ضحية خطأ قانونى مشين ، وأضاف مؤكداً أن هذا الإقتراع « أصبح موضوعاً لهجوم (الصحف) [..] ولم يحدث قط أن إندلج مثل هذا الحريق فى المجلات الأكاديمية والأدبية [..] وأصبحت محك وحجر الزاوية لكل ذلك وأصبح أسما باردوسو وشامبوليون - ولم يكونا ليلتقيا أبداً - مجتمعين كل صباح تطلقهما سوياً فوهات المدافع ... » .

مادمنا سقطيا فليكن ذلك بأكبر دوى ممكن ... ا » من ناحيته تظاهر جان - فرانسوا بأنه يهزأ من كل ذلك إلا أن رسالته لفيجاك لم تنجح فى إخفاء استيائه بالكامل :

« ... أرجو الا يكون [مسيو داسييه] قد استاء كثيراً من أن قطيعه الذى ينخر الجدرى فيه - قد وضعنى تحت مسيو باردوسو * أن ذلك لا يدهشنى منهم . كنت

* مهما كان انتصار مسيو باردوسو غريباً (ولكن طبيعياً بالنسبة للأكاديمية) على شامبوليون فهو يستحق أكثر من الاستهزاء به . جاء فى ملحوظة بقلم ميشال لوفاشتر فى العدد رقم ٩٨ - أكتوبر ١٩٨٣ من نشرة الجمعية الفرنسية للمصريات أنه كان من مواليد مقاطعة لوارشا - وكان مرجعاً أوروبياً فى قانون البحار .

سأشعر بقيمة الأطراء إذا إستدعتنى الأكاديمية عندما كانت اكتشافاتى مشكوكاً فيها - عن قصد أو غير قصد فهذا لا يهم : ساعتها كانت هيئة الأكاديمية ستستحق منى العرفان بالجميل . وكنت سأشعر أيضاً بالأطراء لو أن هذه الهيئة تذكرتنى عندما كنت أرتقى بدراساتى وأحقق حصداً رائعاً وسط أطلال طيبة . كنت سأعتبر قبولى بها نوعاً من المكافأة الوطنية ، ولكنها رأت أنه من الأفضل أن تمنع عنى هذه الترضية . ولذلك فمن الآن وصاعداً لن أخط قط خطوة واحدة فى اتجاهها وحتى لو حدث أن نادتنى الأكاديمية فسأتردد كثيراً فى الجلوس على كرسيها مثلاً يفعل خبير بالنسبة لزجاجة من الشامبانيا نزع عنها سدادتها قبل ستة شهور . إن ماء النيل ذاته سيثير الغثيان عندما يزول العطش ... » .

من الجائز أن يشعر المرء بالحرارة عندما يكون الأمر فى محله . كما هو الحال هنا . كان صاحب الكشف وهو فى طريقه إلى القاهرة على حق حين أكد أن فى مرحلة ما كان التصويت الأكاديمى سيخدم هيئته ومن ثم أبحاثه وعلمه الجديد - وأن هذا الوقت قد ولى . وأن من الآن فصاعداً أنه هو الذى سيشرف الأكاديمية بقبول عضويتها - لكى تضع حداً على الأقل للخطأ المثير للسخرية والذى تجلبه على نفسها بإصرارها على تنحية رجل تتصارع عليه جميع الجمعيات العلمية فى أوروبا كلها . وقد كان فى استطاعته الآن أن يلقي الضوء على هذه العلاقة الجديدة بين القوتين ... إلا أنه لن يتمادى فى هذا الاتجاه .

فإذا لم نره يصارع الرجل الممتاز فان برايت - محافظ المكتبة الملكية خلال الإقتراع التالى والذى جرى فى ١٩ مارس (فهو لم يجد سوى الأطراء يوجهه له منذ أيام الدراسة) إلا أنه وجد من الأمور الطبيعية أن ينضم إلى المجموعة التى إنتخبت فى ٧ مايو سنة ١٨٣٠ والتى سمحت بتصحيح وضع خلوسنة مقاعد * وهو إجراء غير مسبق وسبق فريداً فى تاريخ هذه المؤسسة ** وهكذا جرى تعيين شامبوليون كما لو كان ضمن تعبئة عامة دون مجد ولا مناقشات على الرغم من أنه تفوق على شارل نوديه بأربعة وعشرين صوتاً مقابل صوتين كما قبل ضمن هذه المجموعة كل من أوجستان تيرى وأميديه جوبار ، عالم اللغويات التركية العجوز عضو الحملة الفرنسية (حمله القرن السابق) .

* من أصل عشر مقاعد كانت مجمدة بعملية الإصلاح التى قررها كورنيا - عام ١٨٢٣ .

** إلا أن الأكاديمية الفرنسية قامت بنفس الاجراء عام ١٩٤٧ ، وقد أدى بول كلودال دور شامبوليون فى عام ١٨٣٠ .

. هل كان إنتخاب شامبوليون إنتخاباً غير لائق ؟! إن السؤال الوحيد الذى طرح بعد عمليتى الإعاقة التى تزعمها جومار وكاترومار - راولول - روشات وسان مارتان هو هل - سيحبس نفسه أم لا داخل سجن كرامته المجروحة .

(« لست من الذين يقبلون أن يرفضوا عدة مرات متتالية ... » هذا ما كتبه لروسيلىنى) وما أن قبل أن يجلس إلى جوار الذين تكالبوا ضده منذ سنوات عديدة إلا وتناقشوا حول موضوع أهم بكثير ممن له الحق فى ارتداء قبعة الأكاديمية - : وهو وببساطة شديدة موضوع أمانته العلمية - فإن طبيعة الإنتخابات ونوعية الناخبين وتوازن نتيجة الاقتراع لا تهم كثيراً . وإذا كان حديث قد جرى فهو فقط و بإختصار عن عملية تصحيح بسيطه وسريعة .

وتجدر الإشارة أنه ما تم ذلك إلا وكان جان - فرانسوا شامبوليون من الأكاديميين المواظبين جداً على الحضور . وحضر الإجتماعات منذ جلسة ٢٨ مايو . وفى ٦ أغسطس قدم عرضاً عن آثار مصر كما قدم فى ٢٤ سبتمبر بعض الرسومات التى جلبها معه فى رحلته ، فى حين أثارت مشاركته الثالثة الخاصة بطرق حساب الزمن عند المصريين القدماء ، مفاجأة غير متوقعة : إذ بعد أن استمع إليه أندفع راولول - روشات نحوه ورجاه أن يقبل أن يكون صديقه ، (١) . كما حضر أيضاً جلسات ديسمبر ١٨٣١ ويناير ١٨٣٢ أى قبل وفاته بأسابيع قليلة لا يمكن إذن أن نقول أنه عبر عن أقل قدر من الاستهانة نحو هذه الجمعية التى اسامت معاملته لفترة طويلة .

يبدو أن عناق راولول روشات - وهو خير مثل « لحزب القساوسة » كان تعبيراً - منهم - عن أنهم سامحوا تماماً جاكوبى مدينة جرونوبل ، صديق الأب جرجيوار وأعضاء الحزب الكاربونارى فى مقاطعة الدوفينييه . فهل كان ذلك بسبب أنه لم يعد يثير الخوف ؟ أو لأن « طافئى الأنوار » - وقد أحسوا بقرب هبوب عاصفة شهر يوليو- طالبوا بمغفرة وسعة صدر رجل التنوير ؟ بعد ثلاثة شهور كان روشات وسان مارتان وأمثالهم قد خسروا المباراة : إذ لم يتمكن مزلاج رجال الدين الصمود أمام كشف الحقائق الأساسية واستولى التاريخ على السلطة : فى الجامعة : ميشليه وكينيه وتييرى . فى الحكومة : جيزوتيار ... ولم يعد تاريخ بداية العالم متعلقاً بإدارة مونسنيور دوفريسنوس المنفردة .

وإذا لم يحتفل جان فرانسوا شامبوليون بهذه الساعات فى جو من الحماس مثلما كان يفعل فى أزمان سابقة ، وإذا كان يستمتع بها استمتاع الذى خاض تجارب عديدة فلا يجب أن نتصوره متفوقاً داخل مكتبه فوق سجاده المصنوعة من الصوف داخل أبواب مغلقة . بل كان يستقبل كثيراً فى داره بشارع فافار . وعلى الرغم من بدانته وثقل حركته فهو لا يزال يساير التحرك العام للمجتمع فى عشية الأيام المجيدة الثلاثة فى ٢٥ يوليو ١٨٣٠ سنراه يتحاور مع فرانسوا أراجو والمارشال مارمون الذين حضرا إحدى جلسات الاكاديمية . المساعد السابق لبوناپارت - وكان قد استدعى فجأة لقيادة قوات العاصمة - عبر لمحدثيه عن نفوره من المهمة التى اضطرت إلى الاضطلاع بها بسبب كون الهدف الواضح منها هو هدف قمعى :

« إنكم لن تعانون من ذلك أنتم بصفتكم مواطنين عاديين - فرنسين عاديين . ولكن كما أننى جدير بالمواساة لأنى بصفتى رجلاً عسكرياً قد أجد نفسى مضطراً أن أقتل بسبب أعمال امقتها ومن أجل أشخاص تفننوا منذ زمن طويل فى كيفية إشباعى بمشروب الاشمنزان » . ولكن عبثاً لم ينجح كل من شامبوليون وأراجو وكازيمير بيريه فى اقناعه بتقديم استقالته (2) ... » .

« الثلاثة المجيدة » عاشها شامبوليون بطريقة أقل مأساوية من المارشال المشمنز ولكنها تمر بدون أخطار أهدقت به . هذه الأيام التى كان من الطبيعى أن تثير خيال أستاذ جرونوبل كانت بالنسبة له مثيرة للقلق فى هجومها على التويلورى صبيحة ١٩ يوليو إندفعت الكتائب الباريسية داخل متحفه واستولت على عدد غير قليل من القطع الصغيرة . منها بالطبع بعض من أجمل المجوهرات . إن من عاين أحداث نهب يمكن أن يتصور الصدمة التى لحقت بمعنويات هذا الإنسان القلق بطبعه وهو فى مرحلة وهن حقيقية .

وهكذا أصبحت « الثلاثة أيام المجيدة » بالنسبة له « الثلاثة المائجة » تماماً كما بدت لمن إستمروا على ولائهم للبوريون من أصدقائه وهو ما أدى إلى توطيد العلاقة بينهم .

لم تحول الصدمة التي أصابته من نظرتة لمهمته كمحافظ « للقسم الثاني للآثار » وهو الذي أثاره - كما سبق أن رأينا - بقطعتين لامثيل لهما - الجدارية بالنحت البارز المأخوذة من مقبرة سيّتي الأولى وتابوت زاهر - هذا بخلاف تمثال الملكة كاروساسا ووجه رمسيس الأول الذي أخذه من بوهان . بل أنه شرع أيضاً في تحرير كشف جرد جديد للمجموعة مستكملاً بذلك المقالة التي حررها في ١٨٢٨ .

غير أن الكونت بوفوريان لم يكن قد تقبل قط إنتصار صاحب الاكتشاف ، فعادت حرب العصابات بينهما من جديد . وانتهاز مدير المتحف فرصة موت جان - فرانسوا فالغى ببساطة وبجرة قلم وظيفته ومركزه . ويجدر هنا أن ننشر النص الذي وقع عليه في هذا الصدد رجل البلاط هذا :

« الإدارة العامة للمتحف تدخل دائماً في إطار الفنون أكثر من كونها جزءاً من العلوم * فلا داعي لذلك تعيين أحد في المكان الذي شغل كما أن الجمع بين قسمي الآثار في إدارة واحدة كما كان الحال عام ١٨٢٦ سيعود بالإدارة إلى الهدف الأول من إقامتها وبذلك نحصل بهذا الجمع بين القسمين على إلغاء مرتب أحد المحافظين .. » (3).

كان جان - فرانسوا شامبوليون في تلك المرحلة مهتما بالتشريف الأكاديمي له . أكثر من إهتمامه بمسئوليّاته كعالم في الشئون المتحفية - وكان لديه إحساس بأنه أداها على أكمل وجه (ومن هو الذي كان يعتبره « محافظاً » لمتحف ؟) .

كان إذن مركزاً إهتمامه « بنشر وتداول النتائج » التي توصل إليها في حملته . ولكن كيف يمكن نشر المعارف الفريدة والى لا مثيل لها والتي عمقها بالنسبة للبعض أو اكتشفها بالنسبة للبعض الآخر ، بغير اللجوء إلى صحافة غير مأمونة الجانب وإلى سبل الاتصال الأكاديمي التي تبقى من الأمور الداخلية شبه السرية ؟ كانت علاقاته بالإدارة التعليمية وظلت عاصفة ، فهو ظل على حنقه عليها بسبب تشككها فيه وبسبب إقالته المتكررة وعموماً بسبب جبن الأغلبية العظمى من زملائه إزاء الأوامر التي تصدرها لهم السلطة الموجودة في الحكم . إذن ، أين وكيف يمكن أن يقوم « بتدريس مصره » هو ؟

* وهو ما يتناقض تماماً مع نصوص لاروشفوكو المذكورة في الفصل ١٥ .

فرض « الكولاج دو فرانس » نفسه عليه . ألم ينشئ الملك فرانسوا الأول هذه الدار العتيقة تحديداً لدراسة ونشر اللغات القديمة وعلى الوجه الخصوص الإغريقية والعبرية - اللتين كانتا تثيران مخاوف أهل السوربون ؟ سبق أن رأينا أن جان - فرانسوا كانت له خبرة سابقة في هذا الإطار حيث أنه تابع فيه قبل عشرين عاماً دروس دوساسى ولانجالاس وكوسان دودران (هو الذى كان يطلب منه أحياناً تدريس العبرية مكانه) . عبر الكولاج العواصف التى اجتاحت تلك الفترة الزمنية - متلقياً طعنات أقل لهيباً من معظم المؤسسات الأخرى . من هذا المبني سيتعين عليه نشر معارفه . ولكن يجب أن يحصل على مقعد فيه قبل كل شئ .

تحدث فى الموضوع مع النوق دويلاكاس غداة وصوله من مصر . ولما كان هذا الأخير مقتنعاً بذلك فقد ضغط على القصر لكى يعبر لمؤسس علم المصريات على إهتمام الحكم الملكى بنجاحاته العلمية : إلا أن حكومة بولينياك لم تكن قد عينت لتأخذ فى إعتبارها مميزات رجل يجمع الرأى العام دائماً بينه وبين مرحلة إلى الجاكوبية الممقوته وبغول كورسيكا (نابوليون) .

ثم كانت « أيام يوليو » . فلما تأكد أن الرجال الذين وصلوا إلى سدة الحكم سيستمعون إليه - وليس فقط بعض النبلاء العظماء غير المصنفين - رجا أصدقائه فيكتور كوزان ، مفكر الليبراليه المعتدلة وملهم المجلس الملكى للتعليم العام ، وشارل لونرمان زميل رحلته إلى مصر الذى أصبح فى « أروقة الحكم » أن يعضدوا عضويته فى الكولاج دو « فرانس وكان يديره دوساسى » الخالد . تبرز الرسالة التى بعث بها إلى لونورمان فى ٣٠ سبتمبر ١٨٢٠ رغبته الشديدة « فى الوصول إلى غرضه :

« .. حاول فى الحملة التى ستقوم بها على إنجاح موضوعى فى الكولاج دو فرانس . ليس لى أمل سوى فى مسيو جيزو وإنى لارتعد خوفاً من حكم المحامين . ستفشل العملية حتماً لو وصلوا هم إلى دفة الأمور . أعرض الأمر على الوزير على أنه عمل ورع ، أن ذلك يعتبر هلب الأمان بالنسبة للمدرسة المصرية ⁽⁴⁾ » .

واضح أن عزيزنا جان - فرانسوا لم يعد يثق سوى فى المعتدلين وعلى رأسهم جيزو ، ضد « المحامين » أى اليسار أى مسيو تيار ذاته .. لم يكن لخوفه أى أساس فى غياب مسيو جيزو - الذى رحل لفترة - لم يصل رجال القانون إلى السلطة وإنما البنك هو الذى اعتلى سدة الحكم ممثلاً فى شخص لافيت .. وكانت هذه السلطة هى التى لبت طلبات عالم المصريات .

فى ١٢ مارس ١٨٣١ أمر « لوى - فيليب ، ملك الفرنسين » بنائاً على تقرير مرفوع من وزير الداخلية مونتالييفيه - بإنشاء كرسى للآثار فى الكولاج دوفرانس يحتله « مسيو شامبوليون الصغير . عضو الانستيتو (المجمع العلمى) » . هكذا حظى الكونت دومونتالييفيه الذى إستقال فى اليوم التالى - وكان له الفضل فى ربط أسمه - فى آخر لحظة بالاعتراف العلنى بالمصريات على أنها علم * مستقل ، علماً بأن الكلمة ذاتها لم تذكر ولم يتحدث النص الرسمى سوى عن « الاركيولوجيا » « الآثار القديمة » إلا أن إسم شامبوليون كان كافياً والتقليد فى الكولاج دوفرانس هو أن التعليم لا يرتبط بتسمية المركز بقدر ارتباطه بشخصية من إختير لإحتلال كرسية .

باختصار فإن إجتماع الاساتذه الذى تم يوم الاحد ٢٧ مارس ١٨٣١ ضم بين الاعضاء الثلاثة الجدد (ومنهم رجل الإقتصاد الأشهر باتيست ساي) مسيو شامبوليون الصغير ، وجاء فى الإعلان عن محاضراته فى المرحلة الثانية من العام الدراسى ما يلى :

« تحت عنوان « علم الآثار » سيعرض مسيو شامبوليون الصغير - عضو المجمع العلمى (الإنستيتو) - مبادئ المنظومات المختلفة للكتابة الخاصة بمصر القديمة - وهو فى تطويره لسلسلة قواعد اللغة المستخدمة فى النصوص الهيروغليفية والهيراطيقية سيوضح التماثل بين اللغة القبطية ولغة المصريين القدماء . أيام الثلاثاء والخميس والسبت . فى الساعة الثامنة صباحاً ... » .

ألقى جان - فرانسوا شامبوليون محاضراته الافتتاحية فى ١٠ مايو . وكان ضمن الحضور الكثيف أحد أبناء الملك لوى - فيليب والعديد من السفراء . خصصت صحيفة لوتان Le Temps صفحتين للحدث ، ممتدحة « الأستاذ العلامة الذى سيعرض فى محاضراته نتائج إكتشافاته الرائعة وأعماله ورحلاته » ، ونشرت النص الحرفى للمحاضرة - التى سيجعل منها فيجاك مقدمة كتاب « القواعد » الذى قام بنشره تحت إشرافه بعد ثلاث سنوات .

سبق أن إستعرنا الكثير من هذا النص الكلاسيكى وعلى وجه الخصوص فى الفصول الخاصة بتاريخ الكشف ** . وفيه أعاد صاحب « رساله إلى مسيو داسييه »

* كانت بيزا اسبق من باريس فى هذا الصدد بسبع سنوات . بإنشائها كرسى روسيلينى فى ١٨٢٤ .

** الفصول : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

سرد المراحل الهامة للكشف . مع شئ من العدل تجاه من سبقوه (ماعدا كيرشار الذى استهزء به فى تطرف) وهو يحيى فيه على وجه الخصوص زويجا لأنه أكد على أهمية دراسة الآثار وعارض بشدة « الحكم المسبق المنتشر جداً بأن الهيروغليفيات كانت تستخدم لأغراض سرية ويختص بها عدد محدود من المؤمنين وهدفها الوحيد هو نقل الاسرار المقدسة » .

لم يحجم الأستاذ الجديد عن إلقاء الضوء على أهمية « المواد الهائلة التى جمعها » أثناء إقامته فى وادى النيل والأفضل من ذلك على تأثير مصر فى فنون اليونان فى عصورها القديمة - مذكرا - (وهو ما كان بمثابة « اللحن المميز » له) - أن « شرح المباني والآثار المصرية سيكشف بوضوح ويؤكد على الأصول المصرية للعلوم والنظريات الفلسفية الرئيسية لبلاد الاغريق » ... واختتم محاضراته قائلاً :

« مثل هذه النتائج الهامة لا يمكنها أن تحظى بكل الثقل واليقين سوى بعد الفهم الكامل للمخطوطات العديدة المحفورة أو المرسومة على الآثار المصرية ، كما أن دراسة لغة الكلام يجب أن تسبق دراسة النصوص التى تستخدمها ، ولذلك فإن عرض مبادئ القواعد المصرية بشكل متعمق وكذلك الرموز الخاصة بها هى التى سنبدأ بها محاضراتنا » .

مقال جريدة « لوتان » Le Temps : إن « الجلسات القادمة ستخصص للقواعد والعلاقة بين اللغات القبطية والمصرية (القديمة) وأن الأستاذ سينتقل بعد ذلك إلى التاريخ التطبيقي [...] من خلال الآثار » لم يلقى جان - فرانسوا سوى محاضرتين قبل الإجازة وذلك يومى ٢٣ ، ٢٦ مايو والاخيرة حضرها الكسندر فون هومبولدت . وجاء فى لوتان أن آخر هذه المحاضرات « استرجعت المراحل الهامة من التاريخ المصرى وأكدت على أهمية الثقافة القبطية . بعد عودته من إقامة مطولة فى مقاطعة كارسي حيث ذهب ليسترد عافيته فى خريف ١٨٣١ تمكن البروفيسور شامبوليون من إلقاء ثلاثة محاضرات آخرها لم تستكمل فى شهر ديسمبر ١٨٣١ . وكانت هذه هى الأخيرة كما سنرى .

المتحف ، الكولاج (دو فرانس) ؟ كانت فى ذهن هذا الرجل المنهك تماماً أمور أخرى تشغل باله . أولها مشروعان علميان جوهريان : نشر الأعمال - النصوص

والرسومات التى عاد بها من مصر وتحرير « قواعد » و « قاموس اللغة المصرية » حتى يجعل منهما التجميع البراق والنهائى لإكتشافاته العلمية . الإنتهاء من العمل الثانى إستدعى منه مجهوداً فاق فى نهاية الأمر كل قدراته ، كما إن العمل الأول تطلب من جهة أخرى مجهودات هائلة من الدبلوماسية والتفاهم لأن مبدأ العملية الأصلية هو الإزدواجية الفرنسية التوسكانية ... ومعروف الكم الهائل من المجازفات التى تتضمنها مثل هذه المواقف .

كان إيبوليتو وجايتانو روسيليني قد وصلا إلى ليفورن فى نهاية شهر نوفمبر ١٨٢٩ وذلك قبل أسبوع من مغادرة شامبوليون وشيروبينى مصر متجهين إلى طولون . وبقدر ما كانت عودة صاحب الكشف إلى فرنسا شبه سرية ومرهقة بقدر ما كانت عودة التوسكانيين عودة المنتصرين . روسيليني الذى كان يزور على الدوام تجار القاهرة والاسكندرية عاد معه ٧٩ صندوقاً من الآثار للجران دوق ليوبولد الذى نظم عرضاً لهذا الكنز قبل أن يودعه متحف آثار فلورنسا بهدف إثرائه .

لم يهدأ لليوبولد الثانى بال بعد ذلك قبل أن يتحقق النشر العلنى لنتائج الحملة وكان مجدها يعود له بقدر كبير : ألم يكن هو أول من استجاب لندائات شامبوليون وأول من ضمن له المساندة ؟ ومن وضع تحت إمرة روسيليني الفريق العلمى والفنى الممتاز ؟ ومن كان أخيراً ممول مول العملية فى جانبها الأكبر ؟

لا يمكن تلخيص هذا الجو العام التوسكانى بأفضل مما فعله روسيلبنى فى خطاب مؤرخ يوم ٢٠ (أو ٢٢) فبراير ١٨٣٠ موجه لشامبوليون :

« لا يمكننى أن أصف لك الحماس الذى أثارته فى نفس الجران - دوق الطيب مشاهدة الملف الذى درسه فى أدق تفاصيله لعدة أيام [..] لقد تم تقدير تعبنا والنتائج التى توصلنا إليها بأكثر الاشكال أطراً لنا . كما أن الجران دوقات طالبنى بأن أسرد عليهن جميع الأحداث والقصص التى عرفناها فى رحلتنا » .

« كل شئ كان جميلاً ورائعاً . حتى لحيتى ، وصورتك التى جرى تداولها أمام أعين الجميع وكان لها أثر قوى وأخيراً أندهش الجميع أمام عدد كبير جداً من الروائع . إن مجهودات شلة [باريس] معروفة هنا للكافة وهم ينتظرون أن يكون انتصارك أكثر روعة بفضل هذه المعارضات [...] كان الجران دوق سعيداً للعلاقات التى ربطت بيننا والنتائج . الكبيرة التى عدنا بها وهو لذلك يرجع لذاته مجد مساعدتنا بكل هذه القوة . وهو سوف سيقدم لك ما يثبت لك سعادته وتقديره .. »

بعد مرور شهرين تغيرت اللهجة ، فبعد لفت النظر الذي تلقاه ايبولتو روسيليني من الأوساط العليا نقل له الإشاعات التي تنتقلها فلورنسا : « إنهم فى باريس لا يأبهون بنتائج الحملة [..] الملك والبلاط لا يوافقون على الدراسات التي تقلل من هبة التوراة .. »

والجران - دوق وقد بدأ يعرب عن قلقه إزاء « المضايقات » التي ربما يتعرض لها شامبوليون ، أخذ يستعد لـ « يعطى أوامره لنشر » نتائج الحملة وذلك من جانب واحد واستمر أستاذ بيزا فى ضغوط على شامبوليون « يجب إذن أن نهتم بالأمر بجدية دون تأخير لأن هذا العمل - مع كتاب القواعد الذي تألفه - هو أهم أعمالك ... » وهو لذلك يدعو « الجنرال » لتمضية عدة شهور فى توسكانيا بعيداً عن « بابل » * هذه ، والتي لا يعتبر مناخها مواتياً للعمل .

وإذ تلقى من شامبوليون إجابات تسويفيه بعض الشئ مشيراً إلى أعماله الأخرى والأجواء غير المستقرة التي تسود باريس عبر روسيليني - وكان واقعاً تحت ضغط من الجران دوق - عن نفاذ صبره : فعبر فى ٦ سبتمبر عن « شعوره بالمرارة » لأنه لا توجد أى إشارة من باريس تؤيد هذا « التعاون الأدبي مع توسكانيا » وأخذ يذكر بأن الحساسية لديهم مرتفعة بقدر ما هم أصغر حجماً « وإذا كن التوسكان يتركون للفرنسيين أغصان الغار التي تستحقونها فى مجال الحملات العسكرية والثورات العظيمة فإنهم يتمتعون « فى الشئون الأدبية » « بشهرة قديمة للغاية » كما أنهم يتباهون « بادعائتهم الصغيرة » . هذه ثم أعلم صاحب الكشف أنه « اتخذ القرار بنشر نتائجنا ** » [على حدة] فى الوقت الذي كان خطابه الأخير يؤكد له أن « المهمة المشتركة » ستتم على أكمل وجه - ويضيف دون مراعاة مشاعر صديقه الأكبر سناً « فى الوقت الذي كنتم تقومون بالثورة كنت أعمل أنا مثل الكلب لإعداد مهمتى ... » ثم ينتهى به القول إلى : « أنه فى إنتظار معلومات عن طريقة تقسيم المواد فيما بيننا : مشروع الكتيب الذي سينشر بالفرنسية والإيطالية والذي سيسمح بالبدأ فى عملية الاكتتاب فى الوقت الذي تنهون فيه من كتاب « القواعد ... » .

بإختصار كان السيف موضوعاً على رقبة شامبوليون فى الوقت الذي تزداد فيه صحته سوءاً ويأخذ « كتاب » القواعد وقته كله - ولما كان يعرف الجران - دوق

* رأينا أن شامبوليون كان يطلق على باريس تارة إسم بابيلون وتارة أخرى بابل .

** الضمير هنا عائد على اللجنة التوسكانية .

واصدقائه التوسكانين فقد كان متفهماً لنفاذ صبرهم : فهم ليسوا مهددون بالازمات السياسية كما أن الحملة مثلت بالنسبة ليزانيتهم عبئاً كبيراً نسبياً بالمقارنة بما قدمته باريس ثم أن العاهل الشاب كان شديد الإحتجاج لتحقيق بعض الأمجاد . ولما كانت المواقف مختلفة إختلافاً جوهرياً فى الناحيتين ولما كان الرجلان مطلبان بتحقيق الكثير وتحركهم أمورا متباينة فمن المتوقع أن يوصلا إلى قرارات متبانية .

ومع ذلك نفى شهر مايو ١٨٣١ وقد اجتمعا في باريس أعد شامبولىون وروسيللى مشروعاً مشتركاً لكتاب « آثار مصر والنوبة » يوزع بينهما مسئوليات النشر على النحو التالى : « سيتناول شامبولىون الآثار التاريخية بمعنى الكلمة ما يتعلق بالآلهة والمواضيع الخاصة بالفلك والنجوم . روسيللى سيهتم بالفنون والحرف والحياة اليومية والإحتفالات الدينية والجنائزية » . ويعتبر هذا التقسم جائراً لأنه يضع على كاهل روسيللى مسئوليات كبرى ولكنه يعبر عن إرادة فى إستغلال مساو للمواد العلمية * .

إلا أن هذا العمل المشترك لم يكتب له أن يرى النور . لأن شامبولىون وقد شغلته أمور أخرى أجل مشاركته فيه لدرجة أن الجران - دون فقد صبره معتبراً أنه مالك للمواد التى جمعها التوسكانيون ودفع روسيللى إلى الإسراع فى عملية النشر التى تمت بعد وفاة شامبولىون والنسخة الأولية للملزمة الأولى من طبعة فلورنسا ظهرت يوم وفاة صاحب الكشف فى بداية مارس ١٨٣٢ .

ومنذ ذلك اليوم أصبح الموضوع من وجهة النظر الفرنسية فى أيدي جاك - جوزيف شامبولىون - فيجاك وهو الذى لم يخف قط تحفظاته نحو التلميذ المفضل (روسيللى) ولا على مبدأ هذا التعاون الدولى ذاته .

والذى كان فى الأصل تبايناً حول وتيرة العمل تفاقم ليصبح إختلافاً فى المبادئ . من - التلميذ أم الأخ - كان الأجدر بتنفيذ العمل حتى يبلغ غايته ؟ إختلاف حول جنسية العمل أيضاً . فلم ينتهى الأمر إلى تحقيق « أول عمل علمى دولى فى التاريخ كله »⁽⁵⁾ وهو ما كان يحلم بتحقيقه الرفاق الاعزاء على متن المركب « إيزيس » - ولكن تم إلى نشر عمليتين متوازيتين - وهما فى الواقع متشابھتين جداً (أكثر من نصف الرسومات المنشورة فى النسخة الفرنسية كانت بيد فنانيين توسكانيين) ومتكاملتين .

* نشر الكتيب باللغتين وبتوقيع المؤلفين فى باريس لدى فيرمان - دييو - فى سبتمبر ١٨٣١ . وتم توقيع عقد دقيق للغاية من الرجلين فى نفس الفترة .

فى المقدمة التى صدر بها الشقيق الأكبر كتاب « القواعد » وهو الذى عنى بنشره فى عام ١٨٣٦ وأهداه لسيلفاستر دوساسى ، كتب جاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك يؤكد « على أهمية معرفة تاريخ تأليف هذا الكتاب لكى نتأكد - واثقين تماما - من الأهمية العلمية التى يتحلى بها هذا الكتاب المرجع .. نظراً للتطور المستمر الذى طرأ على نظريات مؤلفه ونظراً لتنقيحه لها بناءً على مشاهداته على الطبيعة وملاحظاته الجديدة ... » .

وبناءً على ذلك يؤكد هذا الأخ المجد أن قواعد اللغة المصرية هو « آخر أعمال » جان - فرانسوا (وهذا يعنى فى رأى صاحب المقدمة أنه أكثر أعمال أخيه كمالات من وجهة النظر العلمية) وأنه قام بتحرير النسخة الأولى ، المحررة لثانى مره ، « فور عودته من مصر . كما أنه يوضح أن المؤلف أضاف إلى مخطوطه أمثلة عديدة مأخوذة من الآثار التى قام بدراستها خلال هذه الرحلة وأنه إذ أمضى خريف عام ١٨٣١ فى فيجاك فقد كتب هناك ٣٣٢ صفحة التى تشكل النسخة الثانية كما أنه كرس ابتداء من شهر ديسمبر من نفس العام الأوقات القصيرة من الراحة التى سمح له بها مرضه - هذه الهدنة القصيرة جداً والمضلة للغاية - لمراجعة النص ولترتيبه » .

إن كتاب « القواعد » هو إذن وبالفعل - حسبما يقول فيجاك - ليس فقط العمل « المفضل » ولكنه الوصية العلمية لجان - فرانسوا شامبوليون وهو بنفسه الذى قال عنه ذلك . كما أنه قمة فى تكتيكية النشر « أول ثمار التحالف - فى فرنسا - بين التيبوجرافيا والليتوجرافيا » . هذا أيضاً ماكتبه صاحب مقدمة الكتاب * . وهو فى النهاية عمل فنى . وقد أناط فيجاك بمهمة نسخ الصور التى لم يتمكن صاحب الكتاب من الإنتهاء منها إلى يد سالفاتور شيرويينى الأمانة والواعية والمحركة .

فلنحاول أن نتخيل ما تمثله الكتابة لهذا الرجل وهو فريسة لآلام متعددة الاشكال وعليه الإضطلاع بعمله كمحافظ لمتحف وعليه أيضاً تبادل للرسائل الحادة اللهجة مع توسكانييا وإعداد محاضرات فى الكولاج دو فرانس وإجراء المناقشات التى أثارها مشروع نقل مسلة الأقصر والطلبات التى لاتنتهى من فيروساك وفوربان وأخيه أومن مراسليه العديدين عبر أوروبا وتشكيل هذه المجموعات الفكرية والمروئية التى هى إحياء لعالم مدفون وتوضيح لفكر دام آلاف السنين . يقال أن أحداً لا يموت من العمل ؟ ولكن

* اعاد نشره فى طبعة جميلة جداً عام ١٩٨٤ ميشيل سيدهم - معهد الشرق ٢ ، ٥١ شارع لاسيباد فى

باريس .

إن وجد إستثناء لهذه القاعدة فالغالب أن البحث عنه يجب أن يكون فى إتجاه شامبوليون .

من الصعب جداً معرفة مقدار ما إختزله الجو السياسى والاجتماعى المضطرب من حياة جان - فرانسوا ، وهو الغليان الذى جعل من الأيام الأولى للكية يوليو - إبتداءً من محاكمات وزراء شارل العاشر إلى جنازة جنرال لامارك التى سادها الاضطراب - ثورة بعد الثورة . بدت كما لو أنها لا تستهدف إلا أن تكون مقدمة لثورة جديدة . لقد فاجئنا عدة مرات بأنه طواق للسلام الاجتماعى والنظام ومندد بجميع أشكال الإثارة . ومع ذلك فإننا نجد أيضاً فى بعض خطابه المحررة فى ذلك الوقت بعض الأفكار الجديرة بالصدى القديم للكاربوناريين ، ويأخذ المعجبين بالآب جريجوار ورفيق راي . وقد تحدث حينذاك عن « ربيع الحرية » . كما أنه مهما بلغ تأثيره بالقلقل الباريسى فهو ينظر بعين متعاطفة مع ربود الفعل التى تثيرها هذه الأحداث عبر أوروبا داخل الامارات الصغيرة .

أما فيما يتعلق بفرنسا فهو بالقلب والفكر مع « بلدياته » كازيمير بيربيه ، الليبرالى المتسلط ، والبورجوازي الكبير الذى يريد كل شئ للشعب ولاشئ بواسطة الشعب .. المعارك التى جرت من أجل النظام التى قادها جل فيزيل بعد أن أنهيار حكومة لافيت ولافاييت كانت معاركه هو . وهل كان أى من الرجال العظام الذين واكبوا فترة مراهقته الثورية سيسلك سلوكاً مختلفاً ؟

أصبحت رؤيته للعالم وفهمه للتاريخ .. كما يتضح ذلك من رسائله إلى زليير - متشائمة للغاية حتى أنها لم تسمح له بغير مرارة اليقين بأن الشعوب ترغب أن تكون اليد التى تقودها حازمة فى غير وهم . إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يتخيل فى شئ من السذاجة أن توثيق العلاقات بين فرنسا ومصر التى ستترب على إقامة أثار فرعونية وسط باريس ستفتح أفاقاً لتحرير شعب وادى النيل .

كان صاحب الاكتشاف فى ذلك الوقت مفتوناً تماماً بمصر وتحت هيمنتها حيث أن الأشهر التى أمضاها فى ربوعها كانت هى الحاسمة فى حياته . من وجهة النظر الشاملة نتج عن هذه الرحلة درس مزدوج ومتناقض فى أن واحد . أوضح مصر الحديثه أيقذت داخله الاحتجاج الاجتماعى إذ أدرك أن كل البؤس فى ظل كل هذا الظلم شئ لا يحتمل . إن الإنسان الجدير بهذا الاسم يجب عليه أن ينهض فى مواجهة هذا الضيم ومهما كان هذا الاستبداد عريقاً فهو يتطلب الثورة عليه . وكان الواجب

الذى فرض نفسه على الضيف هو أن يختزل الفضيحة وأن يعمل ما فى وسعه لكى لا تفتح الانتفاضة الحتمية الطريق أمام أحداث مفرطة فى دمويتها .

ولكن كيف لا يتأثر صاحب الكشف بتأملاته وهو يعيش فى أعماق المقابر ويتحاور مع « الاجداد » ؟ إن ما شاهده من أحوال الفلاحين المصريين كان يدفعه إلى الثورة فى حين أن تعامله مع أمون - رع ومع سيزوستريس وموريس ومع أمنحوتب وسمنوت كان يطالبه بإحترام مبادئ الاستقرار .

لقد أيقن منذ ذلك الحين أن التاريخ بالنسبة للمصريين فى العصور الكلاسيكية القديمة كان « رسالة تكررهما مصر لمصر » وأن « المصريين القدماء كانوا لا يعرفون ماهية مجازفات التاريخ أو فى كلمات أخرى أنهم كانوا يقيمون التاريخ على أساس أنه تكرار لذات المجازفة المتواصلة وهى المجازفة التى تولدت من عملية الخلق ذاتها والتى كانت تتوالى فى هيئة صور محكمة النظام والثبات تنطق بها الآثار والهيروغليفيات فى شعائر تنظيم الكون ، وهو ما كان يبعث فى نفوسهم الطمأنينة .. » (6).

التاريخ كان يراه يومياً - طبقاً لما جاء - فى رسالة إلى أنجيليكا - فى هيئة امرأة فى ثورة عارمة فى غير سيطرة ، حاملة شعلة من نار وتعبر بها نهراً من الدماء . إكتشف وهو على ضفاف النيل أن هذا النهر أنه مدرسة فى الاستقرار والهدوء الصافى . كان الكهنة والملوك هنا يبدعون فى تنظيم الاستمرارية . ولولا غزوات الاسيويين الغاصبين لتواصلوا بها لأكثر من ثلاثين قرناً أخرى .. وهكذا عاد المسافر من مصر وهو تواق لأن يغير من الحالة التى كانت عليها الأمور فى فرنسا وقد أصبح الوقت ذاته مقتنعاً تماماً بحتمية مشبع احترام الاستمرارية .

جان - فرانسوا شامبوليون مثله فى ذلك مثل جاره فى مقاطعة الدوفينييه هنرى بال (ستندال) لا يابى كثيراً بالرجال ولكنه يكره المستبدين بأكثر من ذلك . إنه من الديموقراطيين المتسامين الذين يضحون بانفسهم من أجل الحريات التى إذا استخدمتها المجاميع من الشعوب التى يحبها - تلك التى شيدت الكنائس الرومانية ومعابد وادى النيل - فهى تؤدى فى كثير من الأحيان إلى التجاوزات التى يمقتها . إنه قدم التحية - مع بعض التحفظات التى سبقت الإشارة إليها بخصوص أصدقائه المؤيدين للشرعية (الملكية) - لحركة عام ١٨٣٠ . وهو أيضاً الذى اجتاحه القلق من مشاهدة التحركات الجماهيرية الهوجاء التى تنبئ بعواصف جديدة يخفيها تحت السطح « الدستوريون » والسيطرة البرجوازية الليبرالية .

لم يكن لدى هذا الجمهورى العريق - كما رأينا - ما يعاتب به الملوك . خارج حدود فرنسا ، فى تورينو : كارو - فيلييتشى كان الوحيد الذى يخشاه كثيرا . ولكن من الجران - دوق عاهل فلورنسا إلى ملك نابولى والبابا فى الفاتيكان والشركاء فى الحلف المقدس عاملوا « روبسبير » جرونوبل بأفضل ما تكون المعاملة - هذا بخلاف نائب الملك المصرى ..

أما فى باريس فقد كانت شخصيته تعكس صورة قديمة للجاكوبى الثورى يصعب التخلص من أثارها . وظلت مجموعة من رجال الشرطة الحقودين والمحافظين الكائدين والمستشرقين الغاضبين تؤكد عليها بعناية فائقة ، ولكن تعاطف بلاكاس معه ومن بعده دودوفيل ولاروشفوكو وبدرجة أقل لابويرى ، نجح فى فتح جميع الأبواب أمامه - ولكن خلف كل باب كان يقبع له مخبر شرطة .

رأينا كيف أن لويس الثامن عشر إستقبله بعد إصرار من بلاكاس . ولم يعامله شارل العاشر بأقل من ذلك ومنحه فى نهاية الأمر الوظائف الرسمية التى أرتبط بها أسم الكونت دارتوا السابق ذاته وكانت تلك المعاملة التى حظى بها صاحب « النخب إلى الجمهورية » عام ١٨١٥ ومقتحم باستيل جرونوبل عام ١٨٢١ ، بعد ذلك كله معاملة لم يكن يحلم بها .. ثم ما الذى كان لا يمكن أن يحصل عليه من علاقاته مع الدوق - دورليان الذى كان قد أعلن بوضوح « اعجابه » بالرسالة إلى « مسيو داسييه » قبل أن يصبح الملك - المواطن ؟

لعله علق أمالا كثيرة على ذلك . لقد حاز بالفعل من السلطات الجديدة على تعيينه فى الكولاج دو فرانس وهو مالم ينجح بلاكاس فى إنتزاعه من شارل العاشر . وبالفعل أتاحت له إمكانية الوصول إلى الملك بفضل توسط مسيو فاتو - أمين مكتبته . وكان على علاقة به منذ فترة طويلة ، كما أنه أقام علاقات ودية مع البلاط الملكى ورأى السحب القديمة تتبدد ويختفى التأثير السئ للمثقفين المتدنيين الذين كانت لهم يد فى الانستيتو وأخرى فى التويلورى (القصر الملك) وكانوا يطاردونه منذ سنين عديدة . إلا أن بعض الظروف ، بالإضافة إلى الشخصية الحادة لعالم المصريات ، منعت إقامة علاقة بينه وبين العاهل الليبرالى شبيهة بتلك التى كانت تعقد فى قرن التنوير بين السلطة والمعرفة ولنا فيها العديد من الأمثلة الرائعة .

إصطدمت إرادتا الملك وعالم اللغويات مرتين على الأقل فى عام ١٨٣١ عندما دار الحديث حول الإهداء والتحية الخاصة بنشر أعمال الحملة العلمية الفرنسية -

التوسكانية فقد أوضح جان فرانسوا للبلاط دون أى مرارة أنه إذا كانت النسختان الأولى والثانية مهادتين إلى ملك الفرنسيين والجران - دوق ليوبولد فإن الثالثة ستهدى رسمياً إلى الدوق دويلاكاس - الذى لحق بشارل العاشر فى منفاه . ثم عندما دخل مشروع نقل مسلات الأقصر إلى باريس فى مرحلته التنفيذية ، تناقضت أراء جان - فرانسوا مع لويس - فيليب حول أفضل الأماكن التى ستقام (أو تقامان) فيها * .

وهكذا نجد بغرابة شديدة أن شقيق لويس السادس عشر قد خص منبؤ جرونوبل بمعاملة طيبة فى حين أن ابن فيليب - المساواة لم يعقد التحالف الذى كانت تفرضه ولو نظرياً تماثل أفكارهما التاريخية والثقافية .

فى نهاية أغسطس ١٨٣١ غادر جان - فرانسوا شامبليون باريس إلى فيجاك . هل كان هروباً أم إختياراً منه لعزلة للعمل ؟ لم يفتر قط إزدرائه « لعاصمة فرنسا القذرة » . إذا كان هذا التعبير قد كتب فى عصر نابوليون فهو يمكن أن ينطبق أيضاً على عصر آل الفرع الصغير من البوربون .. صحيح أنه كان يستقبل بترحاب حتى فى أعلى دوائر الدولة والوساط الثقافية . فقد كان فى نفس الوقت صديقاً لرئيس الوزراء (بيريه) والأمين العام الدائم للأكاديمية (داسيه) ومفتش التعليم العام (كوزان) وأشهر العلماء (أراجو ، كوفيه ، بيو ..) وهو ما أحاط بالشخصية العامة التى أصبح يتميز بها جواً صحيحاً أكثر نقائاً من ذلك الذى عاش فيه عندما كان هدفاً لأحقاد أمثال كوربييار وبواساز .

ولكن ماذا نقول عن حياته الخاصة ؟ كان جان فرانسوا يشعر بسعادة جمة مع أبنته التى قاربت الثامنة من العمر وكشفت عن مواهب جيدة عديدة . وهو إذا كان نادماً جداً على افتراقه عن أسرة أخيه ولو أن قربه منها قد قلل من حدة الندم ، فذلك لأن بقاءه وحيداً مع روزين يضايقه كانت فى الواقع علاقات التفاهم والثقة مع زويه زوجة أخيه أوثق من تلك التى . كانت مع زوجته . كما أنه لاحظ أن العلاقات بين جاك - جوزيف وروزين ، وهى أصلاً لم تكن جيدة ، ازدادت مرارة ولعله ركب العربة التى حملته لتولوز وفيجاك فى ذلك الصيف لكى يهرب أيضاً من هذا المناخ .

* راجع الخاتمة .

وهو يبتعد أيضاً من الهموم والمضايقات التي تأتيه من متحف شارل العاشر ومن فلورنسا وأيضاً من مجلة النشرة الدولية Le Bulletin Universel الذي يصدره مسيو دوفيروساك . بل أنه يبتعد أيضاً من المشاكل التي يواجهها صديقة كازيمير بيريه بسبب القلاقل والتهديدات الخارجية وقد كان هو الآخر منهك القوى وفاقداً للصبر . كان شامبوليون لا يفكر سوى في كتاب « القواعد » وكان قد قرر أن يستثمر فيه كل ما المقابل تبقى له من قوى . أما في باريس فلا يمكن أن يقاوم كل المطالبات التي تلاحقه في فسيكون الدفاع عنه في كارسى أفضل وسيبقى مركزاً على كتابه الذي هو بمثابة وصيته العلمية .

كما يدخل في الحساب أيضاً الأمل في إنقاذ ما تبقى له من صحة في هواء مقاطعة اللوت الطلق .. لو كان أصلاً هناك ما يمكن إنقاذه .. الرسائل التي كتبها من فيجاك تعمل على طمأته المقربين منه وتمجد من آثار الجو في الجنوب .. غير أن رئتيه كانتا مصابتين لدرجة متقدمة وأزمات السعال مؤلمة وحنجرته ملتهبة وكبدته مرهقاً وأزمات النقرس عنيفه لدرجة أن الشهور الثلاثة التي أمضاها في كارسى من نهاية أغسطس حتى نهاية نوفمبر لم تأتي له سوى بمسكنات واهية . هل كان يمكن لاختياره حل الانسحاب إلى مسقط رأسه أن ينقذ حياته ؟ لقد توسل أطباؤه أن يفعل ولكنه لم يكن يؤمن بإمكانية تنفيذ ذلك . خلال تلك الرحلة السعيدة القصيرة كان للعواطف دور أيضاً . لا يوجد ما يسمح بالإعتقاد بأنه قام بتلك الرحلة لكي يرى للمرة الأخيرة مادام أدل ، هذه « الشخصية العزيزة جداً عليه » الذي أصر على رؤيتها عند عودته من مصر مكلفاً نفسه عناء سفر مطول . لا يوجد أي أثر في مراسلاته هذه المرة لهذا النوع من الإهتمام ولكن توجد إشارات عاطفية متبادلة مع أختيه اللتين تقومان على شئون مكتبة ميدان الهال . إلا أنه من الواضح أن لقائه من جديد مع سيدة فيجاك كان له وزنه الهام عند إتخاذه لقرار إنسحابه هذا إلى موطن رأسه . في المنزل الواسع الكائن بما سمي الآن بشارع شامبوليون . أخذ يعمل كالمجنون . نعم كان يسعل من

وقت لآخر إلا أن اختيه كانتا حوله تدخلان السكينة إلى قلبه وخاصة أخته ماري . كما كانت تفعل الصداقات التي أحاطت « برجلهم العظيم » .. حتى أنه بدأ يستدرج إلى الحياة الإجتماعية التي عرفها هنا عام ١٨١٧ .. كان يود مد فترة إقامته . غير أن رسائل جاك - جوزيف زادت من إلحاحها عليه : فهي لا تتحدث سوى عن مؤامرات فوربان في المتحف وعن التوسكانيين نافذى الصبر وعلاوة على ذلك عن « نشرة فير وساك » التي تتدهور .. وأخيراً محاضراته في الكولاج لوفرانس التي يجب أن تبدأ من جديد في أول ديسمبر . لم يكن أمامه مفر...

وأفضى إلى صديقه البارون شوبروك بوكرازان المثقف الكارسيني الذي شاركه وأخوه في حفريات أوكسا لنوم عام ١٨١٧ في إحدى السهرات : « إن الموت يتربص بى في بابل » . في ٢٨ نوفمبر ركب عربة البريد التي أوصلته إلى هناك بعد أربعة أيام .

١٩ - وفيما بعد ذلك بكثير ، حتى طيبه

« ولا ثقل إضافي من أثقال الأرض .. » مستمع في الكولاج .. البروفسير / الذي سقط - « يا إلهي ، علمان أحزان .. توجد في الداخل أشياء كثيرة ! » - وفاة لأسباب عديدة - آخر سهام مسيو نوساسي - وداع روسيليني ، وويلكسون وشاتوبريان ، ها عاقل من عقلاء الامبراطورية الجديدة .. »

« ظهر إله مثل النور ، سيعيش .. »

كتاب الموتى

بابل ؟ بابلونيا ؟ أم هدف لجراح مصر ؟ وباء الكوليرا الذي جاء من الشرق عبر وادي نهر الرون سينقض على باريس . وسيصل عدد ضحاياه في ثلاثة شهور * إلى عشرين ألف شخص منهم (رئيس الوزراء) كازيمير بيريه . صحيح أن أحداً من الذين بحثوا في أسباب وفاة مؤسس علم المصريين لم يذكر هذا الوباء ** ، إلا أن هذه الكارثة التوراتية تلقى على آخر أيامه بضوء يمكن أن نسميه أركيولوجي . إقامته في كارسى أعادت إليه شيئاً من صحته كما أن تنقيح كتاب « القواعد » قد أضفى عليه نوعاً من الإحساس بالسعادة والنشوة خدعت عدداً كبيراً من المقربين له أمثال دوبا ولونورمان ونستورة لوث (الذي تقرب جدا من « الجنرال » بعد عدة مضايقات راجعة

* من فبراير حتى مايو ١٨٣٢

** أعراضه سهل التعرف عليها .

إلى شخصيته المتقلبة المزاج) وعلى وجه الخصوص سالفادور شيروبينى الذى أضحى مع جاك - جوزيف أقرب الأصدقاء وأئمنهم - فى حين أن شخصا يدعى سالتونينى نجح فى التقرب من صاحب الكشف وكان يعلن أنه من أقرب تلاميذه المتحمسين ، أخذ يسرق بعض الأوراق الخاصة بالعلاقة بين الحروف الهيروغليفية والهراطيقية وقام بنشرها على أنها من تأليفه - ولم يكشف عنها النقاب سوى بعد وفاته .

إلا أن الذين لم يروه قبل فترة طويلة صدموا لما طرأ على سمات وجهه من تغيير فى هيئته وقوامه من بدانة * وعلى صوته من حشجة بين أزميتين من السعال الحاد ، ومن قصر أنفاسه . وهكذا فإن الكونت فونشال سفير البرتغال فى روما الذى كان قد استقبله بترحاب يتسم بالود قبل ذلك بأربع سنوات وإذا كان يعتقد أن بإمكانه أن يطلب منه الإهتمام بنشر كل المخطوطات المنحوتة على المسلات الرومانية ، عدل تماماً عن تقديم عرضه وأفضى إلى لونورمان :

« .. رأيت شخصا يسرع الخطى ناحية أبواب الأبدية ولا يمكن أن نرهقه بأحمال دنيوية إضافية .. » (1) .

ولكن كانت عليه التزامات تجاه مستمعى محاضراته فى الكولاج دوفرانس وقد خصص لهم وكتاب « القواعد » آخر ما تبقى له من طاقة . وكان قد عاود إلقاء محاضراته بعد وصوله إلى باريس بيومين فى ٥ ديسمبر ، وقد حضر جمهور كبير كما حدث فى الربيع ، وكان

* إشتكت روزين فى إحدى رسائلها لسلفتها من سمعة - « صغير » .

على نفس الدرجة من الحماس والانتباه وقد شدته هذه الطلاقة في الحديث فهي التي يمكنها أن تستدرج إليه الحضور عندما يكون الإلهام حاضراً .. وقد ردد الشهود وخاصة لونورمان على الجوانب المؤثرة والتنبؤية لهذه المحاضرات .

ترك لنا أحدهم- وهو شارل لامبار- وهو من الخريجين الشباب لكلية الهندسة (بوليتكنيك) والذي أصبح من السان-سيمونيين ورحل إلى مصر مثل العديدين منهم ودخل في خدمة محمد علي كمهندس أشغال عامة - بعض المذكرات⁽²⁾ التي دونها خلال إثنين من محاضراته الثلاثة الأخيرة. هل كانت تعكس بدقة تعاليم صاحب الكشف ؟ سنجد في ذلك مادة للتأمل حول عملية نقل المعرفة ، إن قراءة هذا النقل غير الدقيق لآخر محاضرات هذا الرجل العظيم ، على الرغم من أنها بقلم رجل حسن النية، تدعو لذلك:

الدرس الأول (٩ ديسمبر)

" بدأ مسيو شامبوليون محاضراته بشرح الحروف الهيروغليفية وعددهم ٨٠٠,٠٠٠ حرفاً ، يوجد نوعان من الخطوط الهيروغليفية الديموطيقية والإيراطيقية (كذا) الإيراطيقية خاصة بالمعابد ، الديموطيقية بالكتابة اليومية العادية، الكتابة الإيراطيقية منحوتة ١ - بارزة ٢ - سليويت ٣ - بارزة داخل حفر ٤ - على قطع مطلية بالطين أو المزايكو أو مرسومة "

الدرس الثاني (١٢ ديسمبر) :

" الكتابة الهيروغليفية الخطية على الرغم من كونها مختصرة عن الكتابة الهيروغليفية الملونة كانت تتطلب وقتاً طويلاً في التنفيذ ولذلك عملوا على اختصارها وهكذا أنشأوا كتابة جديدة أيسر وأسهل سميت إيراطيقية لأن الذي كان يستخدمها هم الطبقة الكهنوتية"

لم يتمكن شامبوليون من إنهاء محاضراته في ١٣ ديسمبر ففي ذلك اليوم - كما جاء في مذكرات الدكتور هوبار - فرانسوا جان (الذي سبق أن ذكرنا علاقته الوثيقة بعالم البصرييات) أحس " بعض أعراض الصرع " أصبحت حركاته " صعبة " ولسانه أخذ يتلعثم إلا أن " الإفرازات الدموية * وضعت حداً فورياً لهذا الحادث. " لم يعد أستاذ الآثار بعد ذلك أبداً إلى الكولاج . في سـردها الجميل للأسابيع الأخيرة من حياة جان فرانسوا شامبوليون ذكرت مدام هارتلوبان في ٢٣ ديسمبر وهو يوم عيد ميلاده الواحد والأربعين: أراد المريض أن ينقل إلى مكتبه الذي

* لم يكشف الدكتور جامنان إن كانت هذه الانبعاثات الدموية تلقائية أم لا .

كان يقع فى شارع مازارين والذى اندفع خارجاً منه إلى مكتبة الانستيتو فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ ظهراً ليعلن لأخيه أنه نجح فى الوصول إلى حل الموضوع .. " إن علمى ولد هناك وأنا وهو نكون وحدة لا تنقسم: إننا شئ واحد" إنه موقف " فكرى مصرى خالص لرجل يحتضر ينصهر فيه شامبوليون مع علمه فينصهر داخله الفكر والسكان الزمان والرسالة . كما أنه سلوك نموذجى للمحتضر - ومع ذلك فإن صاحب الكشف إنتقل و بنفسه مرة جديدة لزيارة عزيزة داسييه (" أبى الحقيقى) الذى كان قد بلغ التسعين ولم يكن يغادر سريره قط كانت حواراته الأخيرة تتم فى غرفته شارع فافار .

فى ٤ يناير كتب له إيبوليتو روسيللى معرباً عن أسفه "للعكة" التى قالت له مدام شيروينى أنها أملت به وأضاف التلميذ التوسكانى أن أسفه كان سيصبح كبيراً جداً لولا أنه علم بعد ذلك أن "الهزة" كانت "بسيطة" ولم يترتب عليها "أى أثر سئ" وإن "الأمراض التى تكتفى بالإنذار تحل محل المستشار الجيد الذى يوجهنا إلى الاحتياجات التى يجب إتخاذها " . فلسفة حكيمة يخلص منها الودود إيبوليتو بأن يحث صديقه على "وضع العمل جانباً لبعض الوقت " .

ومع ذلك فهذا الراعى الصالح لا ينسى أن يعود إلى ذكر الموضوع الذى يخصه «بالنسبة لما تبقى لنا تأديته فإن العمل ممكن أن يسير دون أن يؤثر ذلك بأى شكل من الأشكال على الاحطيات اللازمة لك . إنه لا يتطلب منك عملاً آخر سوى أن تلقى نظرة عابرة على الأشياء التى سأرسلها لك» . ثم أعلن له روسيللى أنه ينوى أن ينشر فى القريب العاجل "النصوص الخاصة " بالأوضاع المدنية " الذى كلف به طبقاً لتوزيع المهام الذى قاما بتحديدده سوياً قبل بضعة شهور ؛ وبعد أن كرر دعوته له لكى يستعيد صحته فى توسكانا ، أكد رفيق الرحلة إلى مصر إلى جان - فرانسوا « كل الود الذى لن يتغير أبداً » .

جملة كان لها ما يبررها : فإن الشد والجذب الذى حدث بسبب تباين مواقفهما من علاقات غير متساوية مع سلطات هى أيضاً غير متكافئة وكذلك بسبب اختلاف السن والمستوى العلمى وحتى بسبب اختلاف الأمزجة بينهما ، فهى إذا كانت قد نجحت فى تعطيل النشر المزدوج والذى كانا يحلمان بتحقيقه سوياً والذى نظمناه بذكاء، فهى لم تنجح فى فصم علاقه صداقة مؤثرة ومثمرة ستؤكد لها للأسف الشديد بعد وقت قصير كلمة الوداع الرائع الذى خص به التوسكانى صديقه الفرنسى . يجب أن نذكر ونكرر إلى ما شاء الله أن على الرغم من كل الافتراءات التى ذكرت (ولم يكن جاك

-جوزيف غريباً عنها فى كثير من الأحيان) فإن الصداقة والتعاون والتكامل بين جان-فرانسوا شامبوليون وإيبوليتوروسيليني كانت نوراً فى حياة كلها أنوار وبقيت مثلاً يحتذى به فى الأوساط العلمية .

فى ١٢ يناير ١٨٣٢ إستقبل جان-فرانسوا بيو الذى جاء لزيارته وكان قد أشاد فى اليوم السابق بما قدمه علم المصريين القدماء إلى علم الفلك الحديث. وكان المريض قد حارب كثيراً فى هذا المجال أفكار ليترون (وكان يقول "هؤلاء القوم لا يعرفون سوى قراءة الطالع فى النجوم) كما أنه فاضل كثيراً فى موضوع الزودياك (لوحة الأبراج السماوية المأخوذة من معبد دندره) وقد رفعت هذه الزيارة من حالته المعنوية والجسدية فأستقبل عالم الفلك مبتهجاً إذ كانت تربطه به وشائج كثيرة توثقت خلال كثير من الجدل لم يكونا خلاله من نفس الجانب فى كثير من الأحيان .

وفجأة ترنح ثم وقع أرضاً وهو يصرخ من الألم ، تم استدعاء إثنين من الأطباء الإستشاريين الدكاترة بروسبه وكروفاليار اللذين وجدا شامبوليون مشلولاً ويكاد لا يقوى على التعبير عن نفسه وهو مع ذلك يصدر بعض الأناث كثيراً ما وصفت بأنها صرخات الإحتضار وهى التى إضفت على أزمة ١٢ يناير هذه- التى ردد أخوه وصفها كثيراً - بعداً مأساوياً : "يا ألهى عامين آخرين ، ولما لا !.... " ثم أخذ يضرب رأسه بيديه "لازال الوقت مبكراً ، فما أكثر ما هو موجود هنا بالداخل " .

سيتمكن من العمل لبضعة ساعات أخرى فى تنقيح كتاب "القواعد" مع جاك - جوزيف الذى كتب فى المقدمة التى وضعها بعد ذلك بعامين فى صدر هذا المؤلف - الوصية إن جان-فرانسوا وهو يسلمه المخطوط قال له "إحتضنه جيداً إذ أن أملى هو أن يكون بطاقتى إلى الأجيال القادمة . كما تمكن المريض أيضاً من أن يستعلم عن مراحل الحملة الثالثة إلى مصر ، تلك التى سمحت بنقل مسلة الأقصر إلى فرنسا والتى جائته فكرة إقامتها فى أحد المواقع الباريسية وهو الذى أقنع محمد على بإهدائها لفرنسا * وكان هذا الموضوع يلح عليه وسط هذه الآلام وخلال هبوطه الطويل نحو "الأماكن السفلى" - بمثابة قبس من الزهو القلق : إلى أين وصل المركب "الأقصر" الذى كان يقوده صديقه فارنيناك دوسان مور والذى كلف بنقل أكثر الغنائم قيمة وعظمة إلى فرنسا ؟

* راجع الخاتمة .

إبتداء من أول فبراير دخل مرحلة الهلوسة التى لا عودة منها . هل تعرف حتى على كازمير بيريه رئيس الوزراء الذى جاء لزيارته وهو يعرف أنها المرة الأخيرة التى يراه فيها والتى لم يعيش هو نفسه بعدها سوى شهرين فقط إذا صرعه مرض الكوليرا فى بداية شهر مايو . يبدو أن المحتضر لم يترك وصية : إنما طلب شفويًا من أخيه أن يدفن فى مقابر الأب لاشان بالقرب من فورييه "

فى مساء ٣ مارس حصل على المباركة الدينية النهائية وعلمنا من مراسلاته مع أنجليكيا أن هذا المناهض الشرس للكهنوت قد أكتشف أنه مؤمن ... أراد أن يرى مرة أخرى الأشياء التى أحضرها معه من مصر - جلبيته وقفطانه* الأسود وطربوشه وشبشبته الذى أحضره من الجرنة. وسمع بعض أقربائه أننا طويلاً اعتقد البعض منهم أنه قال " إذن فهيا إلى أبعد من ذلك إلى مصر حتى طيبة .. " أبنته زورايد التى كانت قد بلغت لتوها عامها الثامن وكانت قد ولدت على نفس هذا السرير ، هل شعر بوجودها ؟

جان - فرانسوا شامبوليون يواجه الموت " إذن فألى أبعد من ذلك حتى طيبة .. " إن ما بقى له من وعى عبر به الدورة التى قادته نحو المناطق السفلى فى إتجاه "الأمنتى" قبل الصعود التطهيرى التى سيولد بعده من جديد - كما هو موقن- إلى جوار الأجداد .

ما الذى يمكن أن تعنيه هذه المعرفة الهائلة التى كرس لها حياته كلها ، ما الذى يمكن أن يكونه شعب الآلهة الذى حضر مؤخراً لاستقباله لفترة دامت شهوراً من ممفيس إلى أبو سمبل إذا لم يكن وعداً بالأبدية ؟ إن التماثيل المصنوعة من الجرانيت الأحمر والباذلت الأخضر الذى نجح فى أن يقرأ عليها ، منذ إقامته فى تورينو ، الهيروغليفيات الأسطورية التى تشهد على وجود حياة غير قابلة للفناء ، ماذا يمكن أن تكون - سيزوستريس المحبوب وتحتمس المرهوب - سوى الصورة الصلبة من حجر التى يتم من خلالها استمرارية الحياة؟

هذا الاحتضار الذى لا يحتمل ملئٌ بحقائق لا ريب فيها ودائمة: إن الرجل الذى كان يحاور داخل مقابر ببيان الملوك ولفترات زمنية طويلة "الأجداد" فى حدة متناهية ، لدرجة أن سلفادور شيروبينى كان يجده منهاراً ووجهه إلى الأرض ، هذا الرجل كان

* محتفظ بها فى منزل الأسرة فى فيف

يعرف وهو فى أكثر الفترات عذاباً - "لا يزال الوقت مبكراً" ما أكثر ما هو موجود هنا فى الداخل .. " أن العالم الذى أحياه من جديد سيضمن له حياة لا ملل فيها .

توفى فجر ٤ مارس ١٨٣٢ ، كان عمره واحد وأربعون عاماً وشهران ونيف . كانت قسمات وجهه التى تشبه وجه محارب أفريقى قد أسأت إليها فغيرتها الآلام وكانت الشيخوخة التى طالت هيئته مأساوية لدرجة أن روزين وجاك جوزيف رفضا فى بادئ الأمر أن تؤخذ لوجهه بصمة شمعية ولكنهما وافقا على ذلك فى النهاية* ولم يسمح سوى لعدد قليل جداً من الأشخاص بتحية الرفات .

كثير الجدل حول أسباب وفاته ** كان السل أهمها جميعاً وكانت هشاشة رتتيه معروفة منذ فترة طويلة ثم إن المحنة المناخية القاسية للغاية التى فرضت عليه فى بداية عام ١٨٣٠ لدى عودته من مصر (إذ بعد أن كان قد مر لتوه من جو الإسكندرية الخانق واجه على الفور ثلج محجر طولان الصحى فى شتاء لا يمكن تصور قسوته فى ذلك العام وهو الأكثر برودة لنصف قرن كامل) كل ذلك حول الوهن إلى مرض قاتل .

على الرغم من أن المتخصصين المعاصرين يرفضون إعتبار حالات الإغماء التى كانت تطرحه أرضاً فى كثير من الأحيان (وخاصة فى اليوم المشهود يوم "وجدتها" وفى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢) تشخيصاً إكلينيكياً لهذا المرض، فقد كان مريضاً بالسكر، سبق أن أشرنا إلى أزمات النقرس التى عصفت بالسبع سنوات الأخيرة من حياته، كما توجد أسباب عديدة للإعتقاد بأن إقامته فى مصر وما شربه فيها من (ماء النيل) وما أكله خلال

* حدث نفس الشئ عندما طلبت جمعيه فراسة الدماغ صب قالب للرأس لولا أن العلاقات القوية التى كانت تربط الدكتور جانين بالمتوفى أقنعت الأسرة بالسماح بإجراء هذه العملية ، مما سمح للطبيب بإجراء بعض التعقيبات التى جاءت مخيبة للآمال على العموم .

** قدم الدكاترة كروفيليا دبروسيه ودوبار التشخيص الثانى : "مرض معقد جداً" وهن عام نتج عنه مرض السكرى ، البقاء فى الحجر الصحى ، الإنفعالات لأحداث الثورة ، الإرهاق المستمر والإحساس بأن الموت يقترب منه وهى جميعاً أسباب معنوية لها أثار رهيبه على المريض بداء السكر وهن ثم التئام سبب الجراح وتنتج عنه انتشار السل . سبب آخر النقرس المصاعد ، كانت الأزمات التى لحقت بشامبليون أزمات إحتقان أكثر منها أزمات جرح (تسببت رحلته المرهقة والأجواء السيئة داخل مقابر الملوك وشرب كميات كبيرة من ماء النيل كل ذلك تسبب فى مرض الكبد تم تشخيصه فى وقت متأخر جداً) نشاط عقله المتوهج وإنشغاله الفكرى المستمر جمد دمه وأوصله إلى القبر.

فترة إقامته الطويلة في الجرنة لم تكن غريبة عن التدهور المفاجئ لصحته . إن مرضى الدرن يعرفون مثل هذا التدهور السريع لصحتهم وأكثر من ذلك إذا كان جسدهم قد أصيب بفيروس أو أميبا مثل الذين جاء بهم من الشرق (الذى لم يكن صحيحاً في تلك الأزمنة) الرحالة الجسورون .

جرت مراسم الجنازة صبيحة ٦ مارس ١٨٣٢ وكان يوم الثلاثاء المرفع والصلاة أديت في كنيسة سان روش التي كان لها دور هام في حياة المتوفى وفي حل شفرة اليهروغليفيات، ففيها التقى بالقس شيفتيشى وكان في السابعة عشرة من عمره وكان أفضل أساتذته للغة القبطية وكان يستمع إليه وهو يقيم القداس " بلغة أعزائه رمسيون وتحتمس " . في أي مكان آخر أفضل من هذا يمكن إثارة الرحلة الأخيرة لروح لشخص الذي كان يطلق عليه الدكتور باريزيه اسم "ميامون" ؟ أين يمكن أن نجد مصدراً أكثر تفعيلاً لاستناره .. الرابع عشرين سبتمبر ١٨٢٢ ؟ اللغة القبطية ..

للانتقال إلى مقابر پارلاشاز أحاط بالنعش سيلفاستر "دوساسي ، المعلم فرانسوا أرجوا ، الصديق ، الكسندر فون هومبولدت ، ممثلاً لعلماء أوروبا كما كان يحب أن يصفه والكونت دو فوربان ، ممثلاً للسلطة بصفته مديراً عاماً للمتاحف وكان الحضور كبيراً جداً ولم تصرفه إحتفالات الكارنفال .

خطبة وداع مؤسس علم المصريات ألقاها سيلفاستردوساسي في جلسة أكاديمية يوم ٢ أغسطس التالي للوفاة . "كان "إطراءاً" فريداً من نوعه بسبب غموضه وهو يلقي الضوء - في صراحة غير مألوفة في مثل تلك المناسبات- على الشك الذي كان على مكتشف الشفرة أن يواجهه ويتخطاه وعلى الانضمام الحذر والمتأخر لمؤيدي شامبوليون حتى قبل تأييد أستاذ الإستشراق ومعلمه .

" من المؤكد أن شباب المؤلف والحيوية التي يتسم بها خياله وحماسه غير المتأني كان لهم دور هام في الآمال التي كان يفتخر بها وفي الثقة التي كان يعرضها بها للخطر ولم يكن النقد الذي ظل متردداً في قبول مثل تلك الوعود سوى حذراً وعادلاً* .

" ومع ذلك فإن ما كان يعد به دون حذر في ذلك الوقت قام بتحقيق الجزء الأكبر منه بعد ذلك ببضعة سنوات ولو لم يحصده الموت مبكراً فلاشك

* أكثر "حذراً" من كونه "عادلاً"

أنه كان سيحققه تماماً بل لعله كان يتخطى أماله ذاتها " .

حتى وهو على أعتاب مقبرة تلميذه السابق لم يسحب المعلم العجوز تحفظاته إلا وهو نادم ، وقبل أن يستسلم فهو يفاوض على إستسلامه حتى آخر لحظة ، متهماً في عناد "الحماس غير المتأنى " للرجل الذي لم يبيع في "رسالته إلى مسيوداسييه" في ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ سوى بجزء بسيط من إكتشافه. استمر الجدل-كما لو أن وفاة صاحب الكشف لم تكن بالفعل سوى عبور مؤقت للممالك السفلى في إنتظار ميلاد الشمس الجديد بعد أن أطلق آخر سهامه أصبح ساسي على سجيته وأخذ يحيى في الرجل شخصيته "هذه الإستقامة في القلب ، وهذه البساطة في الشخصية وهذه الصلابة في الفكر الممتزجة بكل هذا المرح وهذا الولاء الدائم في العواطف وهذه النزاهة الشخصية وهذا الإمتنان الحي والصادق أى وفي كلمة واحدة جميع الصفات العظيمة التي طبعت بها كتاباته" . ثم يضيف الخطيب متسائلاً: "ولكن من منكم أيها السادة لا يؤيد ما نمتدحه فيه هنا ؟ ولو أن الأكاديمية لم تضم لها شامبوليون سوى مؤخراً ولفترة وجيزة إلا أنها كانت تعترف بكل ما سبق كما كانت تفعل لها بالنسبة لدراساته العلمية وأدابه وذلك لأن قوة أحاسيسه واستمراريتها لم تكن سوى العلامة المميزة لقلبه وبنفس القدر الذي تميز به فكره من تعاطف واستعداد طيب " .

أهم تحيتين قدمتا لجان - فرانسوا شامبوليون ندين بهما لأقرب مريديه له وهما إيبوليتو روسيليني والغريم الذي ظل لفترة طويلة على عنادة ضد الشخصية المسيطرة لمؤسس علم المصريات جون جاردنى ويلكنسون .

بعد أسابيع من وفاة زمليه في الرحلة إلى مصر نشر البروفيسور التوسكاني في بيزا : تقدير الامتنان والحب في ذكرى جان - فرانسوا شامبوليون الصغير : حيث عبر فيه - فيما وراء المبالغات التقليدية المعهودة في مثل تلك المناسبات - عما يجب تسميته صرخة من القلب وهو ما يعتبر شيئاً نادراً في مثل هذا المجال : " .. لك الفخر يا فرنسا أن أخرجت "كولومبس" جديداً فتح أمام العلم عالماً ظل لعديد من القرون عاجزاً عن إكتشافه ! آلام رجال العلم الذين وقفوا حول جثمانه عبرت عن الخسارة التي لا تعوض المتمثلة في إختفاء مثل هذه العبقرية والحزن الذي ألم بأصدقائه العديدين يذكرنا كم كان طيب القلب وخدموا وأميناً ويستحق الاحترام والتقدير والحب (..) كم كان عفيفاً ورزينا ومقبلاً على العمل ، قليل الإهتمام بالشكليات الاجتماعية كما أنه

أكثر الناس سخائاً بالتعريف بنظرياته .. "

في ١٧ أبريل ١٨٣٢ تلقى جون جاردنر ويلكنسون الذى ظل عشر سنوات متقوقعاً في منزله المشيد باللبن في ألجرنه (حيث رفض قبل ثلاث سنوات حتى ولو بصفته جارا - مقابلة أعضاء البعثة الفرنسية التوسكانية وذلك ولاءً منه ليانج) تلقى نبأ وفاة شامبوليون فكتب رسالة إلى فارنيناك دوسان مور الضابط المولود في منطقة اللوت والذى قاد مركب "أسترولاب" الذى عاد عليه صاحب الكشف في فرنسا :

"لا أحد يمكنه " أفضل منى تقدير الموهبة الخارقة لهذه العالم ولا أحد أيضاً يمكنه تقدير فداحة هذه الخسارة أفضل من الذى شغل نفسه لهذه المدة الطويلة بنفس دراساته . هكذا توقفت إشعاعات النور التى كان علمه يلقها على الهيروغليفيات وقعت الشعلة . لى الأرض ولا يمكن لأحد أن يرفعها . أخشى كثيراً أن تكون وفاته نتيجة للهجوم . ير الطبيب الذى قامت به العديد من الشخصيات مؤخراً في إيطاليا وإنجلترا وألمانيا وحتى في فرنسا على منظومته وسمعته . إلا أن الأمل يحدوني في أن العالم سيكون عادلاً بما يكفى لمنحه ما يستحقه . الواقع هو أنه لا يمكن إنكار أن دراسة الآثار واللغة المصرية لا تدين بما هي عليه الآن سوى لأعمال شامبوليون* ..

بين كافة التعبيرات عن الحزن والإعجاب التى وصلتته حينذاك وضع الأخ الأكبر لجان فرانسوا شامبوليون هذه الشهادة وحدها في المقدمة وقد حث ابنه إيميه على نشرها - دون الآخرين جميعاً في كتابة "الشقيقان شامبوليون" (ص ١٠٦)

"إن الأعمال الرائعة التى قام بها أخوكم مضاعة بمعارفكم أنتم أيضاً وستدوم مثلما تدوم الآثار التى شرحها لنا لتوه " توقيع : شاتوبريان** .

الأنوار : نفس الكلمة تظهر في كتابات روسيللنى وولكسنون وشاتوبريان وهى تفرض نفسها بالفعل منذ البدايات القديمة لعملية الكشف حتى إختفاء صاحبه " هذه هى نهاية الأنوار" أعلنها ويلكنسون ولكننا يمكن أن نقول أيضاً " ها هى الأنوار قد هلت .. "

حكيم مصرى من الأمبراطورية الحديثة قال ما يلى ، منقولاً من بردية شيستر بيتى الرابع : " رجل ذهب . جثمانه مسجى داخل الأرض ، جميع معاصريه ذهبوا " عن الأرض : إلا أن المكتوب سيضع ذكره على شفاء من سينقلها إلى شفاء أخرى .. "

* سبق أن أشرنا إلى هذا الخطاب في الفصل ١٢ .

** أعاد شاتوبريان هذه الجملة بالنص تقريباً في الصفحة قبل الأخيرة من مؤلفه مذكرات من وراء القبر.

خاتمة

الغائب عن المسلة

بقلم

جان فيدال

فى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ إجتاح مئتا ألف باريسى ساحة لا كونكورد وحدائق التويلورى لحضور حدث ظلوا ينتظرونه طويلاً : إقامة المسلة .

منذ أن أهداها محمد على لفرنسا ظلت المسلة المصرية موضوعاً للمقالات وسيبياً لإثارة الرأى العام و تابعت الصحف يومياً تقريباً مختلف مراحل إقتلاعها من مكانها ورحلتها التى دامت ستة عشر شهراً ونقلها من ضفاف النيل بالقرب من طيبة حتى شواطئ نهر السين .

ولكن ، وحتى قبل أن تصل إلى باريس فى نهاية ١٨٣٣ ، أثار موضوع إقامتها فى العاصمة واختيار المكان الأمثل لذلك العديد من المناقشات المريرة وكمية غزيرة من الكتابات تغذيها فصاحة محبى المجادلات . أخيراً ستراها العين تلك المسلة القادمة من هذه الأقطار النائية بعد كل هذا المجهود وهذه الأموال : .

كانت لا تزال فى صندوقها الخشبى الضخم الذى حماها عبر رحلتها عندما رفعت على منحنى مريح زاويته صغيرة ينتهى عند قمة القاعدة التى أقيمت لاستقبالها ، فى الوضع الذى كانت عليه فى ذلك الوقت ، ممددة على الرديم المائل . كانت قاعدتها تمس سطح القاعدة التى سترسو فوقها وكان الموضوع الآن هو تنفيذ أصعب العمليات وأدقها وهو إيقافها على قاعدتها .

بفضل الآلية التى اخترعها المهندس "لوبا" الذى كان يشرف على المناورة وبفضل الشدة الخشبية والحبال العجلات والونش وعضلات ٤٨٠ من جنود سلاح المدفعية شاهد الناس هذه الكتلة الضخمة والتى تزن ٢٣٠ طناً ترفع وهى تدور حول نفسها ببطء - بل ببطء شديد فى شكل قوس زاويته ٩٠ درجة تقف بدقة متناهية فوق قاعدتها . ارتفعت صرخات الاستحسان من الحضور الغفير فى حين راح الملك فيليب وأسرته التى أحاطت به فى شرفة وزارة البحرية يصفقون لهذا الأداء الميكانيكى الرائع .

أصبح لباريس الآن مسلتها . كان الوقت متأخراً لكى يتمكن شامبوليون من حضور انتهاء المشروع الذى بدأه والذى كان التأخير المتكرر والمعوقات أمام تنفيذه أحد المنغصات التى أثرت على السنوات الأخيرة من حياته .

غير أن ذكرى صاحب الاكتشاف كانت عالقة فى أذهان عدد كبير من المشاهدين عندما ارتفع الحجر ذو القاعدة المربعة المزين بالهيروغليفيات نحو سماء باريس . بالنسبة لهؤلاء كما كان الأمر بالنسبة لكل من كان يتعلم فى فرنسا وأوروبا الذين يعرفون قدر ما يدين به العلم لاكتشافه العظيم فإن إفتتاح هذا الأثر اعتبر تحية ضمنية لمؤسس علم المصريات .

مضت الآن مائة وخمسون سنة ونيف على الحدث وعندما نمر أمام المسلة فيكفى أن نرنو إليها لكى تذكر شفاهنا اسمه .

إنه اسم ننتظر أن نراه مكتوباً أسفل القاعدة الحديثة لهذا الأثر ومع ذلك وللعجب لا نجده وسنذهب بانفسنا لنتأكد من ذلك عندما يحين الوقت ولكن يجب علينا أولاً أن نذكر بالدور الذى قام به شامبوليون فى المغامرة الفريدة التى قام بها هذا الأثر الذى هو "رمز الشمس والحياة يقف رأسياً مثل شعاع مضئ ومثل أير منتصب " * أنشئ لكى يجل التسامى الإلهى للفرعون المصرى والذى أصبح أحد معالم الحياة الباريسية المشهورة والشاهد العلنى لأعظم أيام فرنسا الجمهورية .

مسلة فى باريس؟ لم تكن الفكرة جديدة . قدم جان أومبار فى كشف موثق ضمن مقالة "مسلات باريس" المشاريع والذى تحقق منها " الذى ظهر فى مجلة لاروفو دولار (1) La Revue de l'Art تضمن كافة الأعمال المقامة على شكل مسلة والتى أقيمت منذ القرن السادس عشر لكى يتزين بها ميدان أو مجموعة معمارية أو للإحتفال بذكرى حدث ما مثل ذلك ، المسلة التى شيدت فى عام ١٥٤٩ فى شارع سان دونى بمناسبة دخول الملك هنرى الثانى إلى عاصمته ويبلغ إرتفاعه سبعين قدماً فوق قاعدة على هيئة حيوان وحيد القرن .

* التعبير منقول من الكتاب الممتاز الذى ألفته مدام برناديت مونو : "مسلة الكونكورد" ونشر بمناسبة العيد المائة والخمسين لإقامتها ، قدمت له نبذة تاريخية مدام ديروش نوبلوكور ، وتزينه رسومات أصلية . يوفر هذا الألبوم كافة التفاصيل الخاصة بهذا الحجر الصلب ، ومعانى مخطوطاته وتاريخ رحلته والوسائل التقنية التى استخدمت لنقله من طيبة إلى باريس .

السحر الذى كانت تؤثر به مصر وأسرارها على الأذهان فى القرن الثامن عشر، إذ تطور فأصبح جنوباً بمعنى الكلمة أطلق عليه اسم "جنون الولع بمصر" أدى إلى ظهور مسلات ليس فى المدينة فقط وإنما فى الحدائق وفى المنازل الريفية الترفيهية المحيطة . كانت نزوات تستلهم وجودها من الآثار الفرعونية الأصيلة الوحيدة الموجودة فى أوروبا الغربية وهى مسلات إيطاليا، المستوردة إليها فى العصور القديمة وخاصة فى روما والتى نجح باباوات المدينة الأميرية فى عصر النهضة فى إدخالها فى الإطار العام لعاصمتهم فى تناغم رائع معه . ولكن بعد الأباطرة - من أغسطس إلى قسطنطين الذين أسقطوا ثم نقلوا إلى شواطئ التيبر والهيليسبوتن معظم المسلات التى كانت قائمة أمام معابد وادى النيل - لم يفكر أحد فى تقليدهم .

ثم جاءت الحملة على مصر. أن تكون فكرة إخضار مسلة إلى فرنسا ضمن الأفكار العديدة التى ألهمت خيال بوناپارت وأعوانه وتلقى قبوله، فهذا يعتبر من طبيعة الأمور ولم يتردد الإسكندر الجديد فى حملاته السابقة من إنتزاع غنائم عديدة أخرى إلا أن المشروع توقف وسبق أن قلنا لماذا .

إلا أن المشروع عاد إلى الظهور المفاجئ مرة أخرى ولكن فى صورة مختلفة عندما أراد نابوليون وقد بلغ قمة المجد بعد انتصاراته فى بينا والفيستول ، أن يمجدها إلى الأبد، ويتأثير من دونون الذى إمتدح له جلال مسلة الكرنك حدد اختياره فى هذا النوع من التشييد ولكن لم يكن الأمر خاصاً بآثر مصرى ولكن بمسلة خاصة ترتفع مائة وثمانين قدماً تقام عند نهاية جزيرة لاسييتته أمام ساحة جسر البون نوف - وكان المفروض أن يكتب عليها عبارة "الإمبراطور نابوليون إلى الشعب الفرنسى " .

وصدر قرار باعتماد هذا المشروع فى ١٥ أغسطس ١٨٠٩ وبدئ بالفعل فى تشييد أساس هذا الأثر الضخم واستعدت ساحة البون - نوف لاستقبال مسلتها عندما غيرت الظروف التاريخية فى ١٨١٤ من الأثر الذى تحول إلى تمثال للملك هنرى الرابع فوق جواده تم صبه من برونز إحدى تماثيل نابوليون واحتل القاعدة التى أعدت للمسلة الإمبراطورية وظل فى مكانها حتى الآن .

إلا أن باريس أصبحت مركزاً للدراسات المصرية : ظلت أجزاء كتاب "وصف مصر" تظهر تحت رعاية لويس الثامن عشر بينما عمليات إقتناص الآثار كانت على أشدها عند ممفيس والكرنك، ولم يطل الوقت حتى عاد الحديث بدور من جديد عن المسلة.

هل قام ملك فرنسا بالأمر بالمفاوضة على للحصول عليها أم أن نائب - ملك مصر هو الذى بادر بإهدائها له ؟ إن المراجع حول هذه النقطة غير دقيقة إلا أن الافتراضين لا يتعارضان وتتفق مع ماكتبه شامبليون - فيجاك أن "نائب ملك - مصر كان يسمح بشئ من البذخ: ففي مقابل بعض التعويض له بتصدير المنتجات الأثرية للخاصة الملكية وفي مقابل بعض الهدايا من القطع الأثرية الهامة كان يتلقى خدمات ويستفيد من ورعاية أمراء الغرب له" (2)

نضيف إلى ذلك أن تأثير صديق الباشا الحميم - (القنصل برناردينو دروفيتي) - فى هذا الموضوع كان عظيماً. يبدو أن فكرة إهداء مسلة ملك فرنسا كانت تراوده ، ففي إحدى رسائل دروفيتي المحررة فى القاهرة بتاريخ ١١ يناير ١٨١٩ نقراً ما يلى: "أما بخصوص المسلة التى كنت أخصصها كهدية إلى ملك فرنسا فقد ضاعت بالنسبة لكم بسبب الخطأ الرهيب الذى ارتكبه مسيو ريفان (ريفو) الذى لم يقبل أن يذهب ليأخذها عندما أرسلت فور وصولى إلى هنا زوج ابنتى إلى سيان* مكلفاً إياه بشحنها (إلى فرنسا) (3) .

المرسى إليه غير مذكور فى الرسالة ، لكن لا شك أن خطاب دروفيتي هذا كان رداً على الرسالة التى أرسلها له شخص يدعو جويو كان قد كتب له من أسوان فى ١٣ ديسمبر السابق يقول له فيها : " إنى انتهز فرصة كرم ميسو سولت على لأصعد أبعد من ذلك فى نهر النيل " أريد أن أعلمكم أن المسلة موضوعة بالفعل فوق المركب والذى سيفادر الجزيرة غداً" (4).

ما هى هذه المسلة التى أراد دروفيتي إرسالها لملك فرنسا والتى خطفها منه غريمة البريطانى - ضمن سلسلة الصراعات القائمة بين تاجرى الآثار ؟ هل كانت الجزيرة المذكورة هى جزيرة فيلة وهل كانت المسلة هى تلك التى أخذها بانكس شريك سولت ونقلها إلى أنجلترا ؟ من المعلوم أن خرطوش كليوباترا الهيروغليفى الذى يعتبر من أهم العناصر التى بنى عليها شامبليون اكتشافه كان منقوشاً عليها

فى تلك الأونة كان دروفيتي يعمل على استعادة رضاء أسره البوربون عليه فقد خلع من منصبه بعد عودة الملكية ، كقنصل فرنسا العام فى مصر، وكان الأمل يحدوه فى العودة إليه، كما أنه كان يأمل فى أن تشتري منه فرنسا مجموعته الأولى من الآثار

* أسوان (المترجم) .

المصرية القديمة وكان مدير عام المتاحف الملكية - الكونت دو فوربان قد تأثر للغاية من حسن استقبال القنصل السابق له لدى مروره على الإسكندرية فى بداية عام ١٨١٨ كما أعجب للغاية بمجموعة الآثار التى جمعها ، ولدى عودته إلى باريس أعلن الكونت لدورقيتى أن عودته إلى منصبه تكاد تكون مؤكدة وأفهمة أن ذلك يساوى بعضاً من التضحية بالنسبة للسعر الذى يطلبه لمجموعته الأثرية وأضاف "سينظرون هنا بعين الرضا إلى بعض العينات من مصر الرائعة التى قد تهبونها مباشرة إلى صاحب الجلالة" (5)

فضل دروقيتى أن يبيع مجموعته إلى ملك سردينا ، ولكن بعد أن أعيد إلى منصبه كقنصل عام لم يكن فى إمكانه أن يغفل التعبير عن ولائه بتقديم هدية إلى ملك فرنسا، ويعود له الفضل دون شك فى أن أصبح لويس الثامن عشر فى أواخر عهده مالكا لمسلة هى واحدة من اثنتين موجودتين فى الإسكندرية تسميان عن خطأ "بابر كليوباترا" أما الأخرى فقد أهديت إلى إنجلترا للحفاظ على حسن التوازن الدبلوماسى بين الدولتين العظميين .

ومرت الأعوام دون أن يفكر الملاك الجدد للمسلتين فى الحضور لاخذهما ونسى شارل العاشر ووزرائه وجودهما إلى أن ذكرهما كل من الكونت لابورد لدى عوته من مصر وشامبليون لدى وصوله إليها بأن قال إن إحدى المسلات المملوكة لفرنسا تركت فى إهمال وسط آثار الإسكندرية .

غداه وصوله إلى الإسكندرية فى ١٨ أغسطس ١٨٢٨ ذهب شامبليون لزيادة "ابن كليوباترا" ولفك شفرة الهيروغليفيات التى عليها فيتعرف على مصدرها - هليوبوليس - وعلى عصرهما : تحتتمس الثالث كما سجل أيضاً حالتها السيئة للغاية - وواجهاتهما تأكلت بفعل هواء البحر والمنحوتات تكاد تكون مطموسة تماماً - إلا أنه ينصح فى إحدى رسائله لأخيه "بعدم التأخير فى أخذ تلك التى تخص فرنسا خشية أن تخطف الهدية من أساسها" ولكنه سيندم على تقديمه لهذه النصيحة فى تسرع وذلك عندما رأى مسلات الأقصر .

إلا أن الخطاب كان قد أخذ طريقه وبينما كان شامبليون والحملة الفرنكو-توسكانية يبحرون فى اتجاه مصر العليا كان الخطاب قد فجر فى باريس كل طاقات المنقذ الذى لا يكل شامبليون - فيجاك- فحاصر أصدقائه وأخذ يهز جمود البيروقراطيين فعاد ملف المسلة إلى السطح، وتمكنت شارل العاشر رغبة أن يراها

منقولة إلى عاصمته وكلف فيجاك من البلاط الملكي بدراسة تكلفة وضع هذه المسلة على ظهر إحدى سفن البحرية الملكية .

كانت الحكومة البريطانية قد درست الموضوع بالفعل وطبقاً لتقديرات مهندسي البحرية الإنجليزية الذين أرسلوا للمعاينة على الطبيعة فإن نقل المسلات يتطلب إنشاء طريق سيتكلف ثلاثمائة ألف فرنك . بنائاً على ذلك صرفت إنجلترا النظر عن نقل الأثر الذي يخصها وسر شامبوليون لدى سماعه النبأ وهو فى قلب منطقة طيبة: " إنى لفى غاية السعادة لأن المهندس العلامة الإنجليزي طرأت له فكرة إنشاء طريق يكلف ثلاثمائة ألف فرنك حتى ترفض حكومته وبالتالي حكومتنا أيضاً مسئلتى الإسكندرية فهما يثيران الشفقة منذ أن شاهدت مسلات طيبة . " رآهم للمرة الأولى لدى توقف قصير هناك (فى الأقصر) فى ٢٣ نوفمبر ١٨٢٨ ولما كان يريد الإسراع فى مواصلة رحلته إلى النوبة فقد اكتفى بالتعبير عن إعجابه إزاء "العمل الرائع الذى شغلت به كتلتى الجرانيت الأحمر القائمتين أمام معبد الأقصر " وكان من نتيجة هذا الحب من أول نظره .. أن حصلنا على الصرح النبيل الذى يزين ميدان الكونكورده .

بعد عودته إلى طيبة فى بداية مارس ١٨٢٩ وبعد أن راجع من جديد المسلتين إستبعد أى خيار آخر وكانت أولى رسائله موجهة إلى دروفيتى الذى كان يستعد لمغادرة مصر : "أود أن تصلكم هذه الرسالة فى الوقت المناسب حتى تقدمون فى باريس إقتراح فكرة الحصول على إحدى مسئلتى الأقصر بدلاً من تلك المسكينة المطموسة القائمة عند الميناء القديم وسيكون ذلك أجدر بالأمة وبالوزارة وبكم .. "

وفى نفس التاريخ كتب لأخيه يقول : "شاهدت مرة أخرى المسلات الجميلة ، لماذا نلهى أنفسنا بنقل مسلة الإسكندرية بينما يمكن أن نحصل على إحدى القائمتين هنا مقابل مبلغ بسيط قد يصل إلى أربعمائة ألف فرنك فقط . " ويعاود مرة أخرى بعد بضعة أيام : " إذا أرادت الحكومة أن يكون لها مسلة فى باريس فيجدر بالشرف الوطنى أن تكون واحدة من الموجودتين فى الأقصر (التي على اليمين عند الدخول) فصنعتها رائعة وهى فى حالة جيدة لدرجة مذهلة . أصر على ذلك وحاول أن تجد وزيراً يود أن يخلد اسمه بأن يزين باريس بمثل هذه الرائعة . ثلاثمائة ألف فرنك تكفى....."

ثلاثمائة ألف فرنك ، أربعمائة ألف فرنك .. لم تكن لدى شامبوليون أدنى فكرة عما سيتكلفه نقل المسلة وتسليمها ثم إقامتها فى محيطها العام الباريسى .

ولكن دعونا من التفكير فى ذلك ولنشاهد معه ونعرب عن إعجابنا ونحن أمام الواجهة الشمالية لمعبد الأقصر بالمسلتين المشهورتين المصنوعتين من الجرانيت الأحمر: "هاتان الكتلتان الضخمتان " تحفطان حقيقتان ترتفعان لأكثر من سبعين قدماً أقامهما رمسيس الأكبر فى هذا المكان لأنه أراد أن يزين بهما الرامسيون كما هو مكتوب بالنص فى مخطوط المسلة اليسرى .. "

وكان صاحب الكشف فى قمة السعادة عندما لاحظ من جديد أن النصوص المنحوتة على هذه الآثار "كانت أبعد ما تكون عن إحتواء أسرار دينية كبيرة أو تأملات فلسفية أو أسرار علوم السحر أو على أقل تقدير دروس فى الفلك بل هى إهدانات مكتوبة كتعبير عن الفخامة للمباني المشيدة أمامها .

وقام شامبوليون بنسخ هذه النصوص بعناية تامة على الرغم من أن أياً من أسرارها كان لا يخفى عليه . الجزء الأسفل من المسلتين كان مغموراً فى الرمال ، فعمل على إزاحتها حتى الأساس لينسخ الهيروغليفيات المنحوتة على ثلاثة صفوف عمودية فوق كل من وجوها الأربعة . ظل جزء من المخطوطات تخفيه عنه بيوت بعض الفلاحين المبنية بالطوب اللبن ولكن سيحصل عليها فيما بعد على يد المهندس لوبا الذى حضر بعد ذلك بعامين ليشرف على أعمال إنزال المسلة التى اختارها ونقلها : أى تلك الذى على اليمين عند الدخول .

لماذا وقع شامبوليون فى غرام هذه المسلة بالذات (وهى المسلة الغربية لان مدخل قصر الأقصر فى إتجاه الشمال*) ؟ إن الأسباب التى يسوقها لأخيه ليست مقنعة بالقدر الكافى : "أختار التى على اليمين لأسباب جيدة بالنسبة لى على الرغم من أن الهرم الصغير الذى يعلوها مشطوف وأنها تبدو أصغر من جارتها ببضعة أقدام .."

السبب الوحيد الجاد تضمنه تقرير مرفوع للوزير " إنها أفضل بكثير من التى على اليسار ؛ لأن الجزء الأسفل لهذه الأخيرة مصاب حتى ارتفاع قاعدتها بأضرار جسيمة " .

* يجب أن نسجل هنا من ناحية أخرى أن فى ضعبها الحالى فى ساحة لاكونكورد غيرت المسلة من توجيهاتها، إذ أن واجهتها الشمالية أصبحت اليوم فى إتجاه الغرب وتواجه الشانزليزيه .

هل لم يلاحظ شامبوليون أن مسلة اليمين كانت بها بعض الشروخ وهى ظلت تقلق بال لوبيا فى عملياته المختلفة (وهى شروخ واضحة جداً أحدها على الوجه المثل على كنيسة المادلين والآخر عند القاعدة فى إتجاه السين ؟) على العموم كانت هذه هى المسلة التى رأى شامبوليون أنها الأجمل : وهو سبب يكفى ..

بعد أن تم الاختيار بقى كل شئ ينتظر التنفيذ : أى إقناع الحكومة الفرنسية بالعدول عن مسلة الإسكندرية ثم الحصول على إهداء الباشا لإحدى المسلتين الأقصريتين (أو الاثنتين معاً ولا لا ؟) ثم - وهو الأهم - نقل كتلة تزن ٢٣٠,٠٠٠ كيلو جرام طولها ٢٣ متراً من طيبة إلى باريس .. لا يوجد أى مجال لتقطيعها إلى أجزاء مختلفة ! "لن أوافق أبداً على مشروع نشر هذه المسلات الرائعة المصنوعة من كتلة حجرية واحدة إلى ثلاثة أجزاء. إن ذلك يعتبر خطيئة مميتة : كل شئ أولاً شئ! "

ماذا ؟ هل كان فرنسيو القرن التاسع عشر غير قادرين على عمل ما نجح فيه الرومان؟ تصور شامبوليون تجهيز طوف ذى أبعاد مناسبة توضع عليه المسلة تنقله مائة الفيضان إلى المركب التى ستتولى حمله ونقله إلى أوروبا . هذا هو الممكن .

من الأمور المبالغ فيها أن نرجع إلى شامبوليون الفضل- كما فعلت كاتبة سيرته هيرمينى هارتلوبان- تصميم فى اختراع المركب الذى تمكنت المسلة من السفر على متنه من الأقصر حتى باريس دون تغيير فى وسيلة الانتقال من بداية الرحلة لنهايتها. إن فكرته الخاصة بتصنيع طوف قام بتصميمه بليون - وهو من ضباط البحرية- لم يتم إعتمادها، إلا أن مبدأ الفكرة ذاتها موجود فى تصميم حوض السفن "الأقصر" ذى القاع المسطح الذى يسمح له بالإبحار فى البحار والأنهار والذى بنى خصيصاً لنقل المسلة .

سبق القول أن شامبوليون لدى عودته إلى الإسكندرية فى نهاية شهر سبتمبر ١٨٢٩ اضطر أن ينتظر بها شهرين لحين وصول المركب الذى عاد به إلى فرنسا . تعتقد مدام هارتلوبان أنه "أنهى خلال لاقائاته بمحمد على وابنه إبراهيم باشا موضوع نقل مسلتى الأقصر بعد أن أهداها إلى فرنسا " إلا أن شامبوليون -فيجاء كان أكثر حذراً ؛ إذ يقول : "خلال إقامته فى إسكندرية وضع شامبوليون الصغير خطة الحصول من نائب الملك على مسلتى الأقصر مع مسيو ميجو قنصل عام فرنسا الذى خلف دروفيتى ، كما أنه تحدث مع نائب الملك ذاته فى الموضوع خلال اللقاءات العديدة التى تفضل بها عليه صاحب السمو"⁽⁶⁾، وعود حذرة حول قدح من القهوة هذا هو كل ما

حصل عليه شامبوليون . ومع ذلك فقد كان بإمكانه أن يعتقد وهو يغادر مصر أن المسلتين كانتا في حوزته . إن الباشا في تعبيره عن تقديره له أوضح له عدة مرات أنه يود أن يعبر لفرنسا عن تقديره كما أن ميجو أثبت أنه مفاوض ماهر . وكان من الممكن الاعتماد عليه للوصول بالعملية إلى نهايتها السعيدة .

أثناء رحلة "الاسترولاب" ارتبط شامبوليون بعلاقات صداقة مع أحد الرجال الثلاثة الذين تظهر أسماؤهم على قاعدة المسلة القائمة في ميدان الكونكورد وهو النقيب بحرى فارنيناك دوسان مور الذى حصل على منصب قيادة "الأقصر" وعلى المهمة الشاقة التى هى إحضار الحمل الثمين إلى فرنسا . هو من مقاطعة كارسى مثله وقد ظل فارنيناك على ولائه له وظل يفيدته علماً بكافة تطورات العملية .

ومع ذلك أصبحت المسلة فى باريس أحد شئون الحكومة . "إبحث عن وزير" كان هذا هو النداء الذى وجهه جان فرانسوا إلى شقيقه من طيبة وهو مشدوه أمام كتلتى الجرائيت الأحمر . هذا الوزير لم يكّد فيجاك طويلاً للتوصل إليه . ففى شهر أغسطس ١٨٢٩ خلف بولينياك مارتيناك فى رئاسة الوزارة وعين وزيراً للبحرية المسئول عن ملف المسلة من ٩٠٠ أسوء أعداء شامبوليون ، البارون دوسان - محافظ جرونوبل السابق الذى لم يغفر قط لشامبوليون إحتجاجة بخصوص سرقة رسالة له * .

الغريب فى الأمر أن دوسان بدا كما لو أنه نسى الإهانة فما أن نزل شامبوليون إلى طولون إلا ودعاه الوزير إلى كتابة تقرير مفصل على المسلة وطرق نقلها إلى فرنسا وعلى الرغم من إنغماسه الكامل فى الإعداد للحملة على الجزائر حيث كان يمارس مواهبه التنظيمية ، إلا أن المحافظ السابق كان يولى إهتماماً مثيراً للدهشة بموضوع المسلات وخاصة فى لحظة كهذه . هل كان يجد فيها وسيلة للظهور فقط؟ الواقع أن هناك دافعاً خاصاً لسلوكه هذا ، إذ أن موضوع المسلات أتاح لدوسان وسيلة لرد الإهانة التى تلقاها من صاحب الكشف قبل ذلك بعشرة أعوام .

كان الملف فى حوزته فهو الوزير ولا يمكن ألا يكون على علم بالدور المحورى الذى يؤديه شامبوليون فى هذه العملية كما أنه على علم بالخطوات التى اتخذها عالم المصرىات للحصول من الباشا على هدية مسلتى الأقصر ولكنه سيدعى دائماً أنه لا

* راجع الفصل العاشر .

يعلم شيئاً . فى مذكراته التزم صمتاً كاملاً إزاء ما قام به العالم وأرجع لذاته ويحماس شديد كل مميزات العملية : " ما أن عرفت الأوساط العملية أنى أفكر فى إثراء فرنسا بأثر لا يوجد فى أوروبا كلها مثيل له سوى فى روما إلا وراحوا يحثونى على محاولة الحصول على مسلتين أكبر قيمة من مسلتى الإسكندرية ولكنهما أكثر صعوبة فى نقلهما بسبب موقعهما فى الأقصر (7) .. "

لحل مشكلة النقل هذه شكل دوسان لجنة مكونة من بعض الخبراء والمستشارين ورأسها بنفسه وأقصى شامبوليون عن المشاركة فيها بالطبع ولكن لم يمنع هذا الوزير من اللجوء إليه لكفائاته التى كان يقدرها تقديراً عظيماً ، فقد إستعار من الحجج التى ساقها لكى يدافع أمام شارل العاشر عن قضية مسلات الأقصر والتى أنحاز إليها بنفسه ، وكان التقرير الذى طلبه من عالم المصريات يتضمن عديداً من الأفكار التى اعتمدها ولكن طالما كان المحافظ السابق سيد الموقف لم يذكر اسم شامبوليون قط .

ومع هذا فيجب أن نعطي فعالية وكفاءة دوسان حقهما فيرجع إليه فضل حل المشكلة الشائكة الخاصة بنقل الكتلة الحجرية بسرعة حتى قبل أن تتم عملية الحصول على حق حياة الأثر. كان المركب الذى صمم خصيصاً لنقل المسلة من طيبة إلى باريس وهو الخوض العائم الذى سمي "الأقصر" قد دخل مرحله الإنشاء بنائاً على أوامره فى ترسانة طولون لا شك أنه كان يتمتع بإرادة صلبة ونافذة " لكى يتغلب على مقاومة الذين كانوا يرون أن العملية مستحيلة التنفيذ ولكن أن يأمل فى "أن فرنسا ستدين له بأجمل أثرين تركتها العصور القديمة على الأرض المصرية " كان بمثابة الإعتماد على أوهام سرعان ما ستتبدد ، فبعد أقل من عام من توليه وزارة البحرية قامت ثورة يوليو لتخرجه منها .

وإذ أرغم دوسان على الهجرة أعرب فيما بعد عن خيبة أمله : "لم تتح لى فرصة أن أرى استكمال هذا العمل أثناء ولايتى للوزارة وإن يعرف على الأرجح وإلى الأبد أن فكرته كانت من أعمالى وإن كافة وسائله التنفيذية أعدت ودخلت مرحلة التنفيذ على يدي". إلا أن الظلم الذى إدعى دوسان أنه وقع عليه أراد أن يرفعه عن الرجل الذى "ساعده بقوة وهو" يوصى به جميع محبى الفنون " إلا وهو البارون تيلور وهو شخص آخر قال وترك الآخرون يرددون أن فرنسا تدين له - حسبما جاء فى أقوال واحد من الذين كتبوا سيرته "بالعينة الغربية للمعمار المصرى التى تتزين بها ساحة لاكونكورد فى باريس " .

ابن أحد الإنجليز المتجنسين، كان البارون تيلور شخصية من عالم الفن والأدب. فهو رسام وكاتب وقادته نجاحاته في مجال التأليف المسرحي إلى وظيفة كوميسار الملك في الكوميدي فرانساز ووضعه ولعه بعلم الآثار على إتصال بالكونت دو فوربان وهو صديق لجومار ومهتم بمصر. هل زارها قبل أن يتصل بدوسان بواسطة جبهة جومار؟ يبدو ذلك . المهم أنه هو الذي أعلم دوسان بوجود "إبر كليوباترا" وتحت ضغط "محب الفنون المتحمس" هذا قرر الوزير نقل الأثر الخاص بفرنسا وتلقى الطراد "درومادار" (الجميل) الأوامر بالإبحار إلى الإسكندرية ، ثم عندما ظهر أن الحصول على إهداء عن مسلات الأقصر أصبح ممكناً ، كلف الوزير تيلور بالذهاب إلى الباشا ومعه بعض الهدايا المختارة والقيمة بقصد حث الباشا على المضي قدماً في تنفيذ مانواه ومن نيات حسنة سبق أن عبر عنها " .

مفوضاً لدى باشا مصر بمرسوم ملكي ومزوداً بمبلغ مريح مقداره مائة ألف فرنك لتغطية مصاريف مهمته الرسمية ولشراء بعض الآثار لمتحف اللوفر ، وصل البارون تايلور إلى الإسكندرية في ٢٣ أبريل ١٨٣٠ ، إلا أن الهدايا التي حملها معه لباشا مصر لم ينتج عنها رد الفعل الفوري والحاسم الذي توقعه دوسان .

لما بلغ إلى علم بيكر قنصل إنجلترا أن محمد علي أهدى مسلتي الأقصر إلى فرنسا طالبه بهما من أجل بلده. وإذ فات محمد علي أنه سبق أن وعد آخرين بهما تعهد بمنحهما إياه .. وعندما وصل تايلور تغلب عليه حبه لفرنسا، شعر الباشا بحرج شديد.. هنا تمكن ميجو من حل للموقف . ويرجع الفضل في إيجاد فكرة هذا الحل لشامبوليون إذ كتب له في ٦ يونيو : "كانت هناك عقبة كبيرة كما تعلم إلا أنك أقترحت على بنفسك طريقة إزاحتها . تذكرتها مثل الإلهام السماوي وسط موقف الباشا المتردد الذي قبلها على الفور وأصبحت المسلتان لنا " . ما هي هذه الوسيلة ؟ هي أن يقترح على قنصل إنجلترا الذي وافق على الفور تبديل مسلتي الأقصر بمسلة الكرنك أجمل المسلات على الإطلاق وكان شامبوليون على يقين من إستحاله نقلها ، التفاهم الودي كان لا يزال بعيداً ..

بدت العملية محسومة لولا أن قامت ثورة الثلاثة أيام المجيدة " في شهر يوليو وكادت أن تعيد الأمور كلها إلى نقطة البداية إذ أن المسلات كانت مهداة إلى شارل العاشر فلما تم عزله عاد القنصل الإنجليزي يصر من جديد على الحصول عليهما ،

ولكن تايلور وميمو حاولا إقناع الباشا بعدم إمكانية الرجوع فى قراره ؛ لأن الهدية كانت مقدمة لملك فرنسا لا إلى شخص الملك ولكن إلى الأمة ذاتها .

فى باريس نفسها كان الإنقلاب السياسى الذى حدث قد خلق مناخاً مواتياً للمبادرات ، إلا أن إقامة مسألة فى العاصمة لم تكن ضمن أولويات الحكومة وبالتالى كاد المشروع أن يختفى لولا أن شامبليون قام بجهد جبار لكى يعيد إثارته على الساحة.

كان على صلة بالملك لوى فيليب الذى سبق أن عبر له عن تقديره العظيم واستقبله فى قصره . ونجح فى الوصول إليه خلال الاسابيع الأولى لتوليهِ العرش... غير أن الملك إكتفى- فيما يبدو - بأن أوصى بشامبليون ومسلاته لدى وزير البحرية الجديد الجنرال - كونت سيباستيانى .

كان خليفة دواساز ضابطاً سابقاً فى جيوش الثورة ثم نابليون وكان يدعى أنه من أسرة الإمبراطور وأنه صحبه فى جميع حملاته العسكرية . ضمن عالم المصريات فى تقريره (واحد آخر!!) الذى قدمه للوزير عاملاً جديداً جديراً بآثارة إهتمامه ودفعه إلى التحرك وهو أن رغبة الحكومة السابقة انحصرت فى جعل المسلة مجرد رونق تزين به العاصمة فى أحد ميادينها إلا أن الحكومة الوطنية (الحالية) يتعين عليها أن تحدد لها هدفاً أسمى ألا وهو الاحتفال بالصفحات المجيدة التى حفلت بها تطورات الحملة على مصر والتى لا يشير إليها أى من معالم باريس حتى الآن كانت الفكرة جديرة بأن تروق للويس -فيليب أيضاً إذ كان يمد يده للبونابارتيين .

الفترة الصغيرة التى أمضاها سيباستيانى فى وزارة البحرية أتاحت له فرصة إعادة مشروع نقل المسلتين إلى الساحة من جديد . كان مبلغ الثلاثمائة ألف فرنك الذى خصصته حكومة بولينياك فى بداية عام ١٨٣٠ قد أنفق فى تشييد المركب "الأقصر" وعلى مهمة تايلور، فحصل الوزير على موافقة البرلمان على اعتماد جديد قيمته مائتان ألف فرنك تبعته بعد ذلك العديد من المبالغ الأخرى هى التى سمحت بتحريك الخطة التى وضعها سلفه ويتحدد ربيع ١٨٣١ موعداً لسفر الحملة .

فى أثناء ذلك إستلم الوزير سيباستيانى خطاباً من وزير الباشا -بوغوز يوسف- يعتمد فيه التنازل عن المسلتين لفرنسا . بهذا الخطاب المؤرخ ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ وضع صاحب السمو الملكى محمد على نائب الملك على مصر تحت طلب صاحب الجلالة لويس -فيليب ملك الفرنسيين -إبرة كليوباترا الموجودة فى الإسكندرية ومسلتى الأقصر الموجودة ضمن آثار طيبة" .

ثلاث مسلات مرة واحدة !! فى حين لم يكن يبقى على أرض الفراغة سوى نصف
دسته منها ..

لحسن الحظ لم يكن من الممكن نقلها جميعاً دفعة واحدة . بمن سيبدأ العمل ؟
البارون تايلور الذى كان على علاقة طيبة مع بلاط لويس فيليب كما كان الحال بالنسبة
لشارل العاشر* أعطى الأولوية "لإبرة أو مسلة كليوباترا " . كانت محاولة نقل هذا
المنليت من قبل قد فشلت لأن السفينة "درومادير" التى أرسلها دوساز إلى الإسكندرية
لتسليمها عادت فارغة لأنها لم تكن مجهزة بالأخشاب الضرورية لتنفيذ العملية – هل
ستعاد الكرة والعودة لنقلها ؟ إنتهى الأمر بالعدول عن ذلك .
وظلت "مسلة كليوباترا" على حالها* .

إنتصر فى النهاية . رأى شامبوليون السيد! فى ١٥ إبريل ١٨٣١ غادرت
"الأقصر" ميناء طولون إلى مصر وبعد ذلك بعامين ونصف ، فى ٢٣ ديسمبر ١٨٣٣
عادت لترسو بجواركوبرى الكونكوردي وعلى متنها حملها الثمين..... مسلة الأقصر
الغربية التى حددها شامبوليون للحملة التى تم تنفيذها بدقة متناهية كانت حملة
مكلفة للغاية والانتقادات حادة جداً لدرجة أن أياً من الحكومات لم تفكر حتى فى
تكرارها أما شقيقة المسلة الباريسية فقد وضع الشاعر تيوفيل جوتييه هذه الأبيات
الحرينة على لسانها

كم أود مثل أختي
لباريس العظيمة أنقل
إلى جوارها ، لأتسلى
وسط ساحة ، أزدهر فيها .

لا يمكنها اليوم أن تأمل فى ترك موقعها الذى تحتله منذ ثلاثة وثلاثين قرناً .
عبور البحر المتوسط حتى الإسكندرية ثم الإبحار فى النيل صعوداً حتى طيبة
وتحميل المسلة ثم العودة على النيل ثم بعد الوصول إلى طولون (والتوقف فيها لأسباب
فنية) ثم الإلتفاف حول شبه الجزيرة الإيبيرية وعبور خليج جاسكونيا والوصول إلى

* إنتهى بها الحال أن رحلت إلى الولايات المتحدة وهى تقف اليوم فى نيويورك وسط سنترال بارك بجوار
متحف المتروبوليتان أما شقيقتها (المسلة التى وهبت لإنجلترا فقد نقلت عام ١٨٧٨ إلى لندن عبر رحلة عصيبة
وشيدت إلى جوار جسر واترلو.

الهافر ومنها الإبحار فى نهر السين حتى باريس : كانت هذه هى الرحلة التى قامت بها "الأقصر" لمسافة ١٦٠, ٢ فرسخا بحريا (١٢, ٠٠٠ كم)

كان يقود "الأقصر" فارنيناك دوسان مور- قبطان "استرولاب" السابق الذى أعاد شامبوليون من مصر . وكان على متنها حوالى عشرة ضباط وضباط صف - منهم كمساعد للقبطان ليون دوجوهانيس نقيب بحرى وأنجولان الطبيب الجراح بحرى وشاب متخرج لتوه من الكلية البحرية- شارل جوراس أحد أنجال ابن عم جان جوارس أما الطاقم فقد بلغ عدد أعضائه مائة وخمسون رجلاً وضم مع البحارة عمالاً من مختلف التخصصات من نجارين وحدادين وميكانيكيين كان وجودهم ضرورياً من أجل إقامة التجهيزات اللازمة لتحريك المسلة .

المسافر الوحيد كان مهندس البحرية أيولينار لوما المكلف بإدارة عمليات إنزال المسلة من مكانها ونقلها إلى المركب . كما تم تعيينه بعد ذلك مسئولاً عن إقامتها تحت سماء باريس .

بالنسبة لمعظم هؤلاء الرجال كانت هذه الرحلة والإقامة الطويلة فى مصر مغامرة حياتهم العظمى فهى بالفعل كذلك بالنسبة لمن تولى مسئولية مركب صممت لكى تبهر فى البحار والأنهار معاً -فكرة شامبوليون - ولكنها لم تكن مزودة بإمكانية مواجهة أعالي البحار والحالات الجوية الصعبة . إذ تمكنت "الأقصر" من الوصول إلى مصر بوسائلها الخاصة ولكنها اضطرت إلى أن تعود مسحوبة من إحدى أوائل المراكب الفرنسية التى تحركها محركات تسير بالبخار : "السفنكس" .

إنها أيضاً لمغامرة تلك المتمثلة فى الحياة لأكثر من عام وسط أطلال حضارة عظيمة وأن تقيم داخل سراى سيزوستريس وأن تتعرف على الشرق بفخامته وبؤسه وأن تتفادى وباء الكوليرا وأن تنتظر أشهر طويلة فى أعماق منطقة طيبة عودة فيضان النيل الذى سمح "للأقصر" أن ترسو بجوار المسلة حتى السنة التالية لتحملها بحمولتها وتعود بها إلى البحر .

أما بالنسبة للمهندس لوبا فالرحلة كانت شيئاً آخر ، غير كونها مغامرة عظيمة : لقد كانت فيما يخصه هو عملية محفوفة بالمخاطر يغامر فيها بمستقبله العملى كله : وكان واعياً جداً بخطورة المهمة الموكلة إليه ، وقد كتب يقول "بالنسبة إلى كل شئ مركزاً فى هذه الكتلة من الجرانيت التى تزن ٢٣٠, ٠٠٠

كجم التى ينبغى إنتزاعها من أساسها المغروز داخل الأرض وتحميلها فوق مركب (..) كانت هذه العملية فى نظرى - تحتوى على شئ عظيم ظل يثير وجدانى⁽⁸⁾ .

" هذا الشئ العظيم " يحمل هذا التعبير معناه بالكامل إذا عرفنا الخاصية البدنية التى تميز بها صاحبنا ، إذ أن لوبا كان قزماً أو يكاد .. وهو يسوق بنفسه العديد من النكات حول ضئالة جسمه . فى طيبة . عندما علم "عربى" بأنه يهيم برفع المسلة لم يصدق وصرخ قائلاً " الله الله !! من ؟ هذا ؟ إن عصاى أطول منه " . فى مرة أخرى حملاه أثنان من السياس ثم : " وضعانى فوق حصان تناقض حجمه الهائل بشكل كبير مع ضئالة حجمى .. حتى أن ساقاى كانتا فى وضع يكاد يكون أفقياً .. "

كان لوبا يستخدم هذه النكات بشئ من السخرية ولكنه لم يكن مزاجه رائقاً عندما تظاهر الباشا أثناء أحد اللقاءات أنه لا يراه " أين هو المهندس ؟ أطلبوا منه أن يجلس بجوارى حتى أتمكن من رؤيته " . على الرغم من صغر حجمه كان أبولينار لوبا رجل الموقف وعلى مستوى المواصفات اللازمة لهذا الرجل ، كما حددها شامبوليون إذ طالب بإرسال "مهندس معمارى أو ميكانيكا عملى النزعة وليس عالماً " كان بالفعل عملياً وقد حمل معه فى ملفاته رسومات الأجهزة التى تصورها من أجل رفع هذا الحجر الهائل الضخامة ، ولكنه كان من العلماء أيضاً لأن حساباته كلها كانت سليمة إذ بعد خمس سنوات كاملة سينجح فى نصب المسلة فى مكانها الحالى دون أن تصاب بأقل خدش .

لنعد الآن إلى شامبوليون فى باريس : عندما كانت الأقصر تستعد للإقلاع لم يكن أمامه سوى عام واحد من الحياة . كان مريضاً وأعصابه متوترة للغاية ممزقاً بين واجباته كمحافظ للمتحف ومحاضراته فى الكولاج دوفرانس والانتهاى من تأليف "القواعد" ومناشدات روسيليني التى تطالبه بالبدأ فى عملهما المشترك ؛ ومع ذلك فلم تغب عن مخيلته السفينة المتوجهة نحو المسلتين المقربتين لقلبه . كلما غادر المتحف ومر أمام أعمدة بيرو كان يتخيلهما منتصبين أمام المبنى الأوسط على جانبى الباب الرئيسى وإذا لم تتح له سوى واحدة فكان يراها واقفة وسط فناء اللوفر بجوار المجموعات الأثرية الموضوعة تحت مسئوليته .

كانت هذه رغبته كما عبر عنها ، غداة أحداث يوليو . فى تقريره إلى سيياستيانى عن المسلات : "إن مكانهما محدد بالطبع إما على جانبى الواجهة أمام سلسلة عواميد اللوفر وإما أمام البوابة المواجهة للمجادلين فى حالة لوأن هذا المبنى إستعاد اسمه كما هو مأمول وهويته كمعبد للمجد الفرنسى. إن استخدامهما على هذه الصورة

يحتفظ للمسلات بمهمتهما الأصلية .

بصفته عاشق لمصر أراد شامبوليون فى الواقع الإحتفاظ بالهوية والهدف الذى كان منوطاً بالمسلات داخل الإطار المعمارى للمعبد المصرى عند اختيار موقعهما الباريسى .

كان يريد لهما أن تقامان على قاعداتهما الأصلية لتفادى إقامة "القواعد المضحكة ذات الشكل المعمارى الحديث التى أقيمت مثيلاتها عليها فى أوروبا - " . وكان يريد أيضاً عدم إقامتهما وسط ساحات مسطحة واسعة لأنها تفترسها وتسلبها عظمتها وجلالها . هذا التمسك بالنواحي الجمالية إصطدم بتناقضات قوية إذ كان شامبوليون يفكر كعالم آثار . إلا أن الموضوع كان مطروحاً من وجهة نظر تخطيط المدن .

أثار أحد أشد منتقدي المسلة الباريسية - بيتروس بورال تأييداً لنظرية موضوع إحترام النمط المحلى : "لماذا لاتتركون لكل مكان ولكل منطقة أمجادها وزينتها ؟ لا توجد قيمة لشيء سوى فى مكانه الأصيل وفوق أرض وطنه وتحت سمائه، إذا توجد علاقة متبادلة وتناغم حميم بين المباني المشيدة والبلد الذى أقامها . إن المسلات محتاجة لواجهات المعابد وعبادة الشمس وتعدد الآلهة .. وجود الصحراء واجب :

موقع المسلة كان موضوع جدل عام عندما وصلت إلى باريس . بل إنها أصبحت سبباً فى إنشغال بال الأوساط السياسية العليا وعلى الرغم أن المنتظر وصولها كانت مسلة وحيدة على متن "الأقصر" إلا أن الجميع كان يفكر فى إثنين إن لم تكن ثلاثة - فى إعدادهم للمشاريع التخطيطية .

لم يخف الملك رغبته فى نصيبها فى المحور الذى يبدأ من التويلورى حتى قوس النصر إحداهما فى ميدان الشانزليزيه Rond-point des Champs - Elysées والأخرى فى ساحة لويس الخامس عشر (التى ستستعيد اسمها فى ميدان لاكونكورد) . بالنسبة لشامبوليون كان إختيار هذه الأماكن ضرباً من الهرطقة كما رأينا قبل قليل وكان يأمل فى أن يجعل الملك يعود عن قراره . حصل عن طريق جان فاتو صديقه وأمين مكتبة الملك على عدة لقاءات مع لويس فيليب ولكنه دافع عن مواقفه هو دون جدوى أى "فى ساحة اللوفر ولا مكان آخر " فى حالة لو الذى نحصل عليه هو مسلة واحدة . كان الملك قد إختار ولا يريد تعديل قراره ولم

يكن شامبوليون الشخص الذى يتنازل عن رؤية هو أيضاً ، اختلافات وجهات النظر هذه أُلقت بظلالها على علاقاتهما ، ثم وقع حدث آخر زاد من تدهورها .

سرت شائعة عن قرب قيام لويس - فيليب بإحلال البارون تايلور مكان ميمو بحجة أن حكومة شارل العاشر هى التى عينت القنصل ولما كان شامبوليون لا يمكنه إحتواء سخطه عندما يتعرض صديق له للظلم فقد احتدم نقاش له مع الملك ولا بد أنه ذكر له أن البارون ذاته كان من محاسيب النظام السابق ...

لم يكرر شامبوليون محاولاته لاعتماد وجهات نظره حول مكان إقامة المسلات . إلا أن الفرص أتت له قرب نهاية العام لتوضيح رأيه حول ضرورة إقامتها فوق قواعد الأصلية ، وكان الملك قد أرسل يطلب منه إيضاحات حول مصدر ومخطوطات مسلات الأقصر وكان وزير البحرية أيضاً الأميرال دوريني يود أيضاً الاستعلام عن الرسومات والمخطوطات المنقوشة على القاعدة التى كان لوبا قد أخلاها وأرسل صوراً منها لصاحب الاكتشاف .

الخطاب الطويل الذى حرره يوم ١٠ ديسمبر للرد على الوزير كان من آخر الأعمال التى أداها فى حياته . فبعد ثلاثة أيام أصيب بنوبة خرج فيها بشلل نصفى وكان قد علم لتوه أن ولاء الكوليرا اجتاح مصر العليا وأوقف فى طيبة أعمال الحملة، عندما وصلت رسائل دوفارنيناك التى أفادته بإنهاء الوباء ويتحميل المسلة على متن "الأقصر" كان قد قارب النهاية. لقد علم على الأقل قبل وفاته أن المأمورية التى كان حسبما وصفه ميمو. (محركها الأساسى) فى إتجاهها إلى التبلور .

فى باريس أصبحت المسلة فى الصالونات وفى الشارع موضوع الأحاديث الذى تغذيه المقالات الصحافية وكانت الجرائد قد أعلنت عن مغادرة "الأقصر" ووصولها طيبة فى ١٤ أغسطس ١٨٣١ . ونشرت صحيفة لومونيتور Le Moniteur يوم ٢٩ يوليو تقريراً عن رحلتها من طولون إلى الإسكندرية وكانت الصحافة تنشر تقاريرها تباعاً عن سير عمل الحملة بقدر ما كانت تسمح به وسائل الاتصال فى ذلك الوقت وكان شامبوليون بدوره ينقل إليها الأنباء التى كان يتلقاها من أصدقائه .

وعلم الناس أن المسلة التى كانت قد أنزلت فى الأسبوع الأخير من أكتوبر وحملت على ظهر "الأقصر" فى نهاية ديسمبر ١٨٣١ ظلت تنتظر فيضان النيل لتفادر

طبية فى ٢٥ أغسطس ١٨٣٢ وأنها اضطرت للانتظار فترات أخرى بسبب مصاعب الإبحار قبل مغادرتها رشيد والإسكندرية التى غادرتها فى نهاية الأمر فى أول أبريل ١٨٣٣ .

بدأ الباريسيون يأخذون المسلة على محمل الجد ، وكان موقع إقامتها بالطبع هو محور المناقشات . ولتهدئة النفوس أعتقد لويس - فيليب أنه من الأفضل تنظيم إستفتاء عام للجمهور ، وبمناسبة إحتفالات يوليو ١٨٣٣ أقام مسلتين مقلدتين تشبهان المسلات المنتظرة : إحداهما فى ساحة لاكونكورد والأخرى فى الساحة التى أمام الأنفاليد . هذه الأخيرة كانت حياتها قصيرة جداً أما التى أقيمت فى ميدان لاكونكورد فقد ظلت فى مكانها حتى معرض الفن والصناعة الذى أقيم عام ١٨٣٤ .

بدلاً من تهدئة النفوس أثارت هذه المسوخ - المصنوعة من مواد رديئة ومغطاة بهيروغليفيات ذات خطوط ركيكة - الانتقادات ونشر عنها وابل من المنشورات - ومشاريع تنتقد المكان المختار وتقتراح أماكن أخرى . كان عدد كبير من المنتقدين يلومون على المسلة أنها تحجب فى نفس الوقت المنظر العام من التويلورى حتى قوس النصر وكذلك المشهد العام من المادلين إلى مجلس النواب ولدى سماعة المرء لهؤلاء ، يعتقد أنها ستحجب تماماً هذه المباني فى حين كان يأسف البعض الآخر "لاختيار هذا الأثر النحيل لتكون وسيلة الزينة الرئيسية التى تتحلى بها "أوسع ميادين أوروبا" والتى كان يمكن أن يصبح أجملها على الإطلاق فى حين ردد غيرهم لو أنها وضعت فى الأنفاليد أو وسط اللوفر أو فى ميدان الشانزليزيه (..) لكان ذلك أفضل لها "فلتوضع فى ميدان الباستيل" ! كان ذلك الإقتراح صادر من عمدة الحى الثالث الذى لم يكن على دراية بأن مكان الحصن السابق قد خصص لإقامة عمود فى ذكرى "المجيدات الثلاثة" ومرة أخرى عاد الحديث عن الأرض الموجودة أمام البون-نوف لتحل محل تمثال هنرى الرابع ويجدد شباب الكوبرى ذاته وتعاد زخرفته على النمط المصرى .

كانت أكثر الآراء المؤثرة تلتقى مع وجهة نظر شامبوايون : المهندس المعماري جو زار مصر ودرس ورسم معابدها : "لم يرى فيها أبداً مسلات موضوعة وسط مساحات شاسعة" . الآن وقد أصبح الحديث مختصراً فى مسلة واحدة فهو "يعتقد مع فنانيين كثيرين غيره .." أنها يجب أن توضع فى ساحة اللوفر إذ ستزداد فيها عظمة وأبهة وهى على رأس مجموعة النفائس التى تثير أعجاب الأوروبيين .

كانت ساحة اللوفر هي إختيار مناصري المساحات المقفولة والكونكورد إختيار مفضلى المنظر العام وكما يحدث فى مثل هذه الأحوال دائماً كانت وجهة نظر الملك هي التى تغلبت .

وعندما رست "الأقصر" فى نهاية عام ١٨٣٣ عند الكونكورد لم يعد هناك مجال للشك فى إختيار المكان ، وكان الحوض العائم قد وصل إلى ميناء طولون فى ١٠ مايو وغادره فى ٢٠ يونيو وبعد أن مرت من أمام جبل طارق واتخذت طريقاً إلتفافياً عبر المحيط الأطلنطى دخلت إلى مصب نهر السين فى مدينة روان ونزعت عنها سوارىها لكى تتمكن من العبور أسفل الجسور وجذبت حتى باريس حيث كان لويّا قد بنى لها مرسى خاص لاستقبالها . عملية إنزال المسلة ونقلها إلى المكان الذى ستتنصب فيه كانت على درجة من التعقيد تساوى - إن لم تكن تفوق تلك التى تم إنتزاعها بها من مكانها الأسمى . هذه العملية تمت على عدة مراحل ودامت نحو ثلاث سنوات .

لإخراج هذا المنليث الضخم من أحشاء السفينة كان يجب إنتظار هبوط منسوب نهر السين ولم يكن إنزاله على رصيف النهر قبل شهر أغسطس ١٨٣٤ ، ثم رفعه حتى قمة المطلع اليمىن لكوبرى الكونكورد حيث بقى هكذا لعدة شهور أخرى لأن إيقافه منتصباً أثار فى الواقع مشاكل عديدة أولها مشكلة القاعدة التى سيقف فوقها .

كانت أمنية شامبولىون كما رأينا من قبل هي أن توضع المسلة فوق قاعدتها الأصلية وكان قد أوصى لويّا وفارنيناك أن يحضرا الأثر (مع ملحقاته) . فلما وصل لويّا إلى طيبة أزاح الأتربة من حول الأساس من أوجهه الأربعة المنحوت فيها رؤوس فردة على كل وجه . ثم أرسل إلى عالم المصريات نسخة من خرطوش رمسيس الأكبر وأيضاً نسخاً من الهيروغليفيات المنحوتة على القاعدة . إلا أن هذه القاعدة كانت تاكلت تماماً بفعل أملاح الأتربة لدرجة أن لويّا تخلى عن فكرة إحضارها معه . وعلى الرغم من بغض شامبولىون الشديد "للقواعد السخيفة التى يخرعها المعمار الحديث" فكان من الواجب إنشاء واحدة لا تكون على درجة كبيرة من السخف .

إلا أن مسألة المسلة وقاعدتها كانت مرتبطة بمشروع أضخم بكثير وهو مشروع التخطيط العام لميدان الكونكورد . فى تلك المرحلة التى نحن بصددّها لم يكن الميدان

سوى أرض فضاء وكان قصر جابريل وتمانثيل خيول مارلى وخيول كوازوفوكس تحيط بمساحة من الوحل ومن وراء "الدرابزين" تمر بها مصارف مليئة بالنباتات البرية والقمامة والمياة الآسنة (9) .

كان أحد أهم المشاريع التى أراد لويس- فيليب تحقيقها عندما إعتلى العرش هو ردم هذه القنوات وأن يجعل من الكونكورد ميداناً يليق بالعاصمة إذ أنه يحتل مركزها وكان الموقع محملاً بتاريخ قريب لا يزال حياً فى الأذهان وكان قصد الملك هو أن يجعل منه مكاناً يرمز للتصالح بين الفرنسيين ويكون هو حكماً بينهم وهو عندما يضع المسلة التى هى أثر محايد من وجهة النظر السياسية فى ذات الموقع الذى أخلى منه تمثال لويس الخامس عشر فى عام ١٧٩٣ وحل محله تمثال الحرية وهى ترتدى القلنسوة الفريجية* " فلعله كان يتصور - مثلاً فعل شاتوبريان : "ستأتى الساعة التى ستلتقى فيها (المسلة) من جديد . وهى فى ساحة الاغتيالات - بالصمت والوحدة المخيمان عليها فى الأقصر"⁽¹⁰⁾ ولكن الوقت لازال مبكراً إذ أن مشروع تخطيط ميدان الثورة القديم أثار إحتجاجات الذين كانوا يأملون رؤية صرح يقام تخليداً لذكرى لويس السادس عشر الذى وعد شارل العاشر بتشبيده "حيث سالت دماء رجل شريف " .

فما هو العمل ؟ حول الملك لم تكن الأفكار المقترحة قليلة العدد .. كان من رأى البارون تابلور- إذ كان على ولائه لكليوباترا ومسلتها - أن يضعها مع مسلتى الأقصر فى جنبات الكونكورد الأربعة وتصنع الرابعة من الجرانيت الفرنسى . رفض المجلس فكرة المسلات الأربعة ولكنه أقر فكرة تزيين الميدان وشارع روابال والشانزليزيه بتمانثيل لرجال عظماء .

أوكل لويس فيليب - بتعقل شديد مهمة تجميل ميدان الكونكورد إلى مهندس تخطيط مدن حقيقى - جاك إينياس هيتورف وهو المهندس الذى تولى إحتفالات عودة الملكية الكبرى وهو الذى جعل - خلال عشرين عاماً من هذه المساحة بنافوراتها وأعمدتها المزينة برموز بحرية وأعمدة إنارتها المشعبة وتمانثيلها التى ترمز إلى مدن فرنسا - أحد المعالم الهامة للعاصمة .

كان هيتورف منذ عام ١٨٣٣ يضع المسلة - علماً بأنه لم يكن قد رآها بعد-

* كانت القلنسوة الفريجية يرتديها العبيد المحررون فى روما القديمة وأصبحت أبان الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ رمزا لتحرر الشعب (المترجم) .

فى دراساته المختلفة لميدان الكونكورڊ. كانت الدراسات تتضمن نافورتين وأحياناً أربع نافورات والمسلة تظهر فيها وواقفة أحياناً على قاعدتها الأصلية ذات وجوه القروڊ الأربعة .

هل يجب إعادة نحت القاعدة ما دامت الأصلية غير متوفرة - أم إنشاء أخرى مسئلهمة من نمطها؟ كان وزير الداخلية أنواف تيلر ميالاً لقاعدة على الطريقة المصرية وبنائاً. على طلبة قدم له هيتورف ست مشروعات مختلفة لقاعدات مع تعديلات خاصة لكل منها فيما يتعلق بالأسود أو أبو الهول المستخدمة كدعائم) وكلها مشروعات لم تكن ترضيه ولكنه وضعها فقط حسب قوله -لكى يثنى مسيو تيار عن عزمه المضى فى هذا الاتجاه. ومن ناحية أخرى لم يكن مجلس المبانى المدنية متفقاً مع نوق الوزير⁽¹¹⁾.

تقرر إختيار سداسى متوازى الأضلاع خطوطه مجردة ودون أى زخرفة ولكن يعوض بساطته البالغة نبل المادة المصنوع منها .. طاف هيرتورف كافة سواحل مقاطعة بريطانيا الفرنسية بحثاً عن الجرانيت الذى كان يحلم به إلى أن عثر عليه عند مدينة براست فى المحاجر الواقعة عند مصب نهر الأييار - إيلدوت . رست مناقصة أجريت فى هذا الصدد فى ١٥ مايو ١٨٣٤ على المقاول جياستريناك الذى تعهد باستخراج وقطع خمس قطع من هذا الجرانيت المخصص للطبيلية والقاعدة مقابل ١٩١,٢٥٠ فرنكاً وهو مبلغ ضخم فى ذلك الوقت - إلا أنه كان يجب الذهاب إلى آخر مقاطعة الفينيسيتار لإحضارها . فتم تكليف "الأقصر" ، "والسفنكس" للقيام بذلك. غادرت "الأقصر" باريس لمهمتها الثانية فى بداية سبتمبر ١٨٣٥ وهى ما زالت تحت قيادة فارنيناك وعادت فى نهاية العام محملة بالقاعدة وهى فى قطع مفككة زنتها ٢٤٠ طناً. كان عليها أن تنتظر حلول الربيع الثانى لإنزالها من المركب وتجميعها وسط ميدان الكونكورڊ، إلى أن أصبحت مستعدة لإستقبال المسلة فى بداية شهر أغسطس ١٨٣٦ كانت هذه الأخيرة قد نقلت من مكانها مجدداً : وأصبحت الآن ممدة عند أقدام الطريق المائل الذى أقامه لوبا لكى تصعد فوقه حتى قاعدتها . للقيام بهذه العملية أراد المهندس فى بادئ الأمر اللجوء إلى أحدث تقنية متاحة فى ذلك الوقت وهى آلة تدور بالبخر ولكنه لم يتمكن من أن يحصل منها على الطاقة المطلوبة واكتفى مضطراً بعضلات جنوده من سلاح المدفعية .

فى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ شاهدت باريس كلها المسلة وهى تقف على قاعدتها وكان هذا اليوم أطول أيام حياة لوبا كلها : "أمر أعطيه ولا يفهم جيداً أو رسو خاطئ أو مسمار بصمولته إعوجج" (..) أى من ذلك كان كفيلاً بأحداث كارثة مروعة والمسلة

ستتهشم والملايين تضيق وأكثر من مائة عامل يسحقون لا محالة* .. " ولكن سبق أن رأينا كيف أن كل شيء تم على أكمل وجه على الرغم من حدث بسيط عطل العملية لبعض الوقت .

أصبح لباريس مسلتها أخيراً ولكن إقامتها في مكانها لم يضع حداً للجدل حولها: فقد بدأ إجراء الحسابات التي أوضحت أن المبلغ وصل حتى الآن إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنكا مع حساب القاعدة - ولم يكتمل الحساب بعد- هذا ما تكلفته هدية محمد على مما دفع بيتروس بورال ليقول : "أشعر بأسى عندما أتذكر المبالغ الهائلة التي صرفت لنقل وتركيب قطعة من الحجر... وبينما يقومون بإرهاق الميزانية تقع كاتدرائياتنا أطلالاً ويتدهور حال قصورنا ، إن دير رويومون أصبح نصف مدمر وخراباً" .

فإذا كان الجدل حول مكان إقامتها قد هدأ أثير آخر وكان أكثر خبثاً حول العبارات التي ستنقش على القاعدة. كل فرد كانت له رغبة مختلفة بل أن الموضوع أثير حتى قبل وصول الأثر إلى باريس ، ويبدو أن أحد التيارات كان قادماً من الجهات العليا يهدف إلى إختصار هذه التعبيرات إلى أقل قدر ممكن وتحاشي ذكر حدث أو فرد قد يثير النفوس أو يجرح الكرامات كتب الكونت لابوردي في الكتب الذي نشره عام ١٨٣٣ عن "مسلات الأقصر" أن "عدداً من الشخصيات المرموقة " تتصارع من أجل إحضارها لفرنسا ثم تسائل : " من هو صاحب الفكرة ؟ " وكان يقصد بالطبع شامبوليون إلا أنه أضاف بحذر " يعود الشرف الأهم إلى الذين نفذوا العملية ببراعة وهكذا فإن الفضل كله يعود إلى البحرية الفرنسية " .

في نهاية العام ذاته نشر شامبوليون- فيجاك مقالاً تحت عنوان "مسلة الأقصر المنقولة إلى باريس" يثبت فيه بالمستندات أن شرف إختيار المسلة وإهدائها إلى فرنسا يعود لـون أدنى شك إلى أخيه. في هذا المؤلف الذي نشر فيه "صورة المسلة وترجمة لمخطوطاتها الهيروغليفية طبقاً للرسومات والمذكرات الخطية لشامبوليون الصغير . " إعترض فيجاك على النية المعلنة لكي لا يظهر على القاعدة سوى الإنجاز الفني في إقامتها : "هل سيكفى لإرضاء الحكومة إظهار (المسلة قائمة) على أنها براءة كانت محفوفة بالمخاطر أنجزتها تقنياتنا الميكانيكية الحديثة؟ (..) ألا يخطر على بال أو قلب أى من الشخصيات التي لها صوت مسموع في مجالس الأمير أو الأمة لتقول إن العديد من الذكريات الخالدة تدور في فلك هذا الحجر وتحية؟ .." (12).

* نلاحظ ترتيب المخاطر .

مثلاً فعل جان فرانسوا فيما مضى إقترح شامبوليون- فيجاك أهداء الأثر المصرى إلى ذكرى جيش الشرق، ولكنه عندما عبر عن أمله فى ربط ذكريات أخرى به ، كان يشير على وجه الخصوص - أو إن ذلك هو ما يشعر به المرء من كلامه- إلى اكتشاف أخيه . للأسف فإن أياً من مستشارى الأمير لم يستمع إليه .

أقيمت إذن المسلة فوق قاعدة خالية من أى إهداء ولم يضع هيتورف لمساته الأخيرة على زخرفة القاعدة سوى فى عام ١٨٤٠ . وإذا عدنا إلى مراسلاته الرسمية مع السلطات المسئولة سنجد أن فكرة هذا العمل تعود إليه فما هو الموضوع الذى إختاره وسط جميع المواضيع الأخرى التى كان يمكن أن تثيرها فى الأذهان إقامة المسلة المصرية لزخرفة قاعدتها ؟ قال : "يجب أن تتعرف الأجيال القادمة على إحدى أهم العمليات الميكانيكية فى العصر الحديث" . إختيار غريب بل هو مدهل : ألم يكن من الأفضل أن تعرف الأجيال التالية شيئاً عن إحدى الإكتشافات التى إعتبرتها أوروبا فى ذلك الوقت من أهم ما عرفه القرن وهو إكتشاف عالم فرنسى تحمل المسلة والهيروغليفيات التى عليها بعد أن حلت شفرتها الدليل على عظمتها؟ بالطبع! وكان المهندس المعماري فى ذلك الوقت جيداً . إلا أنه كان يعرف كذلك أنه بتفضيله الوجه اللوجيستى للحدث فإنه يساير وجهات نظر السلطة وهكذا إضطر شامبوليون المكتشف أن يتنحى أمام لوبا الشئال (13) .

بعد أن ظلت المسلة معزولة عن العالم بسبب نوامة المرور أصبح الآن من الممكن زيارتها (بفضل إشارات المرور التى أقيمت لذلك) فالنمبر الطريق إذن وندور حول قاعدتها، على وجهتها الغربية فى إتجاه الشانزليزيه كتب ما يلى :

فى حضور الملك .

لويس -فيليب الأول هذه المسلة

المنقولة من الأقصر إلى فرنسا

أقامها على هذه القاعدة .

مسيو لوبا ، مهندس

وسط تصفيق

جمهور غفير

فى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦

وعلى الوجه الشمالى (فى إتجاه شارع رويال) والوجه الجنوبى (ناصية السين) نحتت رسومات مطلية بالذهب لها أثر زخرفى جميل تصف طبقاً لنماذج لوبا الأجهزة التى سمحت له برفع كتلة الحجر الهائلة التى تزن ٢٣٠ طناً من فوق قاعدتها فى الأقصر ثم سحبها حتى ضفاف النيل ثم من شاطئ السين حتى موقعها الحالى وأخيراً إقامتها على قاعدتها .

يشرف لوبا بظهور اسمه على ثلاث من واجهات القاعدة وكان اسمه سيظل وحده مع اسم الملك المذكوراً على الصرح لولا أن أضيف اسم فرنيناك قبطان المركب "الأقصر" المذكور فى تواضع فى الوصف العام ⁽¹⁴⁾ لأنه إحتج باسم سلاح البحرية على هذا السهو .

إستوجب الأمر أيضاً إرضاء جزء من رأى العام الذى اراد مثل شامبوليون رؤية ذكرى الحملة على مصر مشاراً إليها على الصرح كما أن هدية الباشا كانت تستوجب كذلك كلمة شكر.

الغريب أن ملك الفرنسيين أوفى بواجب الشكر هذا باللغة اللاتينية كما أهدى المسلة إلى ذكرى النجاحات التى أحرزها جيش الجمهورية وهى المسلة التى تعلن إلى الجهات الأصلية الأربعة عظمة أحد الفراعنة الذى يعتبر أجمل أعماله المجيدة هو أنه رد المهاجمين على أعقابهم بعيداً عن إمبراطوريته .

LUDOVICUS PHILIPPUS I
FRANCORUM REX
UT ANTIQUISSIMUM ARTIS AEGYPTACIAE OPUS
IDEMQUE
RECENTIS GLORIAE AD NILUM ARMIS PARTAE
INSIGNE MONUMENTUM
FRANCIAE AB IPSA AEGYPTO DONATUM
POSTERITATI PROROGARET
OBELISCUM
DIE XXV AUG A MDCCCXXXII THEBIS HECATOMPYLIS AVECTUM
NAVIG AD ID CONSTRUCTA INTRA MENSES XIII IN GALLIAM PERDUCTUM
ERIGENDUM CURAVIT
D. XXV OCT A MDCCCXXXVI ANNO REGNI SEPTIMO

هذه العبارة اللاتينية التى عهد بتحريرها إلى أكاديمية المخطوطات والآداب تحتل الساحة الشرفية للأساس التى تطل على التويلورى قام بترجمتها الى الفرنسية آلان پاچاس :

"ملك الفرنسيين إذا يبغي أن ينقل إلى الأجيال التالية أحد قمم الفن المصرى وكذلك الذكرى الرائعة لإحدى الأعمال المجيدة التى تحققت بالسلاح مؤخراً على ضفاف النيل. تم رفع هذه المسلة الممنوحة لفرنسا من مصر ذاتها . رفعت من مقابر طيبة فى ٢٥ أغسطس ١٨٣٢ ونقلت إلى فرنسا على متن سفينة شيدت لهذه المناسبة خلال رحلة دامت ثلاثة عشر شهراً، أقيمت هنا فى يوم ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ ، سابع أعوام ولايته " .

لا توجد إشارة واحدة فى هذا النص لمنشئ المسلة رمسيس الثانى وهو العظيم الغائب الآخر عن هذه القاعدة . فلنصحح هنا هذا الظلم إن كان ذلك ممكناً بأن نردد أحد التراتيل التى أمر ملك مصر العليا ومصر السفلى بنحتها بالهيروغليفية على واجهة المسلة التى تنيرها فى هذه الأيام الشمس الغاربة :

"ملك المنطقة العليا ، ملك المنطقة السفلى ، منظم وملك مصر ، الذى أدب الشعوب ، حارس الوضاء ، حارس السنين ، عظيم بانتصاراته ، ملك الشعب المطيع ، الشمس حامية الحقيقة ، حاكم الحكام ، الذى أنجبه شمو ، لكى يمارس الأحكام الملكية على العالم عدداً عظيماً من الأيام ، ابن الشمس ، عزيز أمون : رمسيس ، ليحيا !

لتحيا أيضاً فى ذاكرة البشر أعمال وأفكار جان- فرانسوا شامبوليون .

حواشی

تمهید: میض هائل من نور صامت

1. Préface à l'Essai sur les hiéroglyphes de Warburton, Aubier-Flammarion, 1977.
2. *Les Prêtres de l'ancienne Égypte*, Seuil, 1967, pp. 110-130.
3. *Ibid.*, pp. 111-130.
4. *Lettre à Zelmire*, « l'Asiathèque », Paris, 1978, p. 63.
5. *Les Prêtres de l'ancienne Égypte*, *op. cit.*, p. 115.
6. *Sillex*, *op. cit.*, p. 59.
7. Flammarion, Coll. « Les Perspectives dépravées », Paris, 1985.
8. *Naissance de l'égyptologie au XVIII^e siècle*, revue publiée par le CNRS, n° 158, 1988.
9. En trois tomes, chez Jacques Guérin, libraire quai des Augustins.
10. Ces diverses citations sont empruntées au livre III, pp. 210-214.
11. Voir à ce sujet le récit savoureux de Gérard de Nerval dans *les Illuminés*, pp. 202-214.
12. Jean Leclant, « En quête de l'égyptomanie », *Revue de l'art*, 5, 1969, p. 83.
13. « L'expédition d'Égypte et l'art français », dans *Revue des Études napoléoniennes*, janvier 1925.
14. Jurgis Baltrusaitis, *la Quête d'Isis*, Flammarion, p. 34.
15. *Ibid.*, p. 218.
16. III^e partie, chap. 3.
17. *Mémoires d'outre-tombe*, I, p. 735.
18. Jean Tulard, *l'Histoire*, n° 61, novembre 1983, p. 34.
19. *Mémorial de Sainte-Hélène*, coll. « l'Intégrale », Seuil, 1968, chap. 1, p. 67.
20. *Mémoires d'outre-tombe*, I, p. 719.
21. Oxford University Press, Londres, 1931.
22. *Mémorial de Sainte-Hélène*, chap. 10, p. 503.
23. *Bonaparte et l'expédition d'Égypte*, traduction 1962.

24. *Journal d'un notable du Caire durant l'expédition française*, Albin Michel, 1979, traduction J. Cuoq, pp. 90-91.
25. Herold, *op. cit.*, p. 218.
26. Ch.-O. Carbonell, *l'Autre Champollion*, « l'Asiathèque » et Presses de l'IEP, Toulouse, 1984, p. 10.
27. *Vivant Denon ou la conquête du bonheur*, IFAO, 1986, pp. 163-177.
28. Duchesse de Maillé, *Souvenirs de deux Restaurations*, Librairie académique Perrin, 1984.
29. *A la recherche de l'Égypte oubliée*, Gallimard, 1986, p. 54.

١ - الحياة في فيجاك في عهد الثورة

1. Archives du Lot, série C., n° 960.
2. Document communiqué par Mme Simone Foissac, professeur à Figeac.
3. Ch.-O. Carbonell, *l'Autre Champollion*, *op. cit.*, p. 4.
4. Philippe Calmon, *Bulletin de la Société des études du Lot*, III^e fascicule, 1982, pp. 250-252.
5. *Ibid.*
6. *L'Évolution de l'humanité*, Albin Michel, chap. VII.
7. *La Vie quercynoise*, repris dans une brochure des Amis de Champollion, à Figeac.
8. Traduction française publiée en 1983 chez Pygmalion, Paris.
9. *Op. cit.*, p. 41.
10. *Op. cit.*, p. 18.
11. *Op. cit.*, p. 22.
12. H. Hartleben, *op. cit.*, pp. 44-45.
13. Gérard Macé, *Revue de la Bibliothèque nationale*, 15, 1985, p. 45.
14. Lucien Cavalié, *Monographie de Figeac* (cité par André Sors : *les Frères Champollion et l'énigme égyptienne*).
15. Fonds Champollion, Grenoble, AF 10, f° 2.
16. Fonds Grenoble, AF 00, f° 68.
17. Fonds Grenoble, AF 1, f° 75.
18. Fonds Grenoble, AF 61, f° 3.
19. Fonds Grenoble, AF 1, f° 79.
20. Fonds Grenoble, AF 1, f° 77.
21. *Émile*, Œuvres complètes, « l'Intégrale », Seuil, 1971, p. 451.

٢ - أخ ، أم أستاذ ، أم أب ؟

1. Fonds Grenoble, AF 1, f° 25.
2. Lettre publiée lors de l'exposition de Grenoble, en 1987.
3. Madeleine Pourpoint, *Champollion et l'énigme égyptienne*, p. 3.
4. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 10.
5. *Bulletin de l'Académie delphinale*, 1^{er} janvier 1973.
6. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 13, note 22.
7. *Ibid.*, p. 22.
8. *Ibid.*, p. 23.
9. Fonds Grenoble, AF 1, f° 77.
10. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, pp. 48-49.

11. *Op. cit.*, p. 29.
12. Louis Lambert, « l'Intégrale », Seuil, t. 7, p. 287.

٣ - جرونوبل ومكان إقامة قاتل

1. *La vie d'Henry Brulard*, Pléiade, p. 620.
2. *Ibid.*, p. 582.
3. A. Champollion-Figeac, *Chroniques dauphinoises*, pp. 153-156.
4. *Ibid.*, p. 148.
5. Papiers de famille, Fonds Grenoble, I, mi 17.
6. Stendhal, « Œuvres intimes », Pléiade, p. 741.
7. *Ibid.*, p. 742.
8. Fonds Grenoble. (Cette mention apparaîtra seule désormais.)
9. Léon de La Brière, *Champollion inconnu*, Plon, 1897, p. 28.
10. *Chroniques dauphinoises*, *op. cit.*, t. 2, pp. 156-157.
11. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 55.
12. *Ibid.*, p. 69.
13. *Chroniques dauphinoises*, *op. cit.*, t. 2, p. 386.
14. Fonds Grenoble, N. 1549 (4).
15. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 73.

٤ - بابل أو متاعب باريس

1. *Vie de Henry Brulard*, *op. cit.*, pp. 870-874.
2. Document des archives municipales, communiqué par Mme Foissac.
3. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 41.

٥ - أستاذ في سن العشرين

1. Vital Chomel, *Histoire de Grenoble*, chap. IX, p. 219.
2. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 74.
3. *Ibid.*, p. 76.
4. *Ibid.*, p. 77.
5. Les premières leçons du jeune professeur ont été publiées dans les *Annales de l'université de Grenoble*, par Herminie Hartleben et J. de Crozals, en 1897.
6. Jean Paquet, *Bulletin de l'Académie delphinale*, janvier 1973.
7. *Ibid.*, p. 38.
8. *Chroniques dauphinoises*, t. 2, p. 97.
9. Fonds Grenoble, AF 2.
10. *Chroniques dauphinoises*, t. 2, p. 403.
11. Léon de La Brière, *op. cit.*, pp. 113-116.
12. *Chroniques dauphinoises*, t. 2, p. 404.
13. *Ibid.*, t. 2, p. 305.
14. Gabrielle Kuani, *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, n° 39, avril 1964.
15. Jean Paquet, *Bulletin de l'Académie delphinale*, article cité, p. 35.
16. Fonds Champollion.
17. Keppel Jeannot, *Correspondance inédite*, p. 123.
18. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 84.

19. Fonds Grenoble, AF 9, f° 138.
20. Herminie Hartleben, *op. cit.*, p. 125.
21. Fonds Champollion.
22. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 54.
23. Fonds Grenoble.

٦ - القول وزهور الزنبق

1. Vital Chomel, *Histoire de Grenoble*, p. 263.
2. Aimé Champollion-Figeac, *Les Deux Champollion*, pp. 15-16.
3. Jacques-Joseph Champollion-Figeac, *Fourier et Napoléon*, p. 310.
4. Correspondance Keppel, *op. cit.*
5. Fonds Grenoble, AF 10, f° 323.
6. « Le procès du maréchal Ney », *Revue des Deux Mondes*, mars 1893.
7. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 145.
8. Fonds Grenoble, AF 4, 191.
9. *Op. cit.*, p. 305.
10. *Fourier et Napoléon*, *op. cit.*, pp. 306-307.
11. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 68.
12. *Les Deux Champollion*, *op. cit.*, p. 158.
13. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 69.
14. *Fourier et Napoléon*, *op. cit.*, p. 306.

٧ - منقى وسط ثوبه

1. Vital Chomel, *Histoire de Grenoble*, *op. cit.*, pp. 263-264.
2. *Les Deux Champollion*, *op. cit.*, p. 26.
3. Fonds Grenoble, AFT 2, f° 95.

٨ - رويسبير جرونويل

1. *Les Deux Champollion*, *op. cit.*, p. 49.
2. *Ibid.*
3. *Ibid.*, p. 50.
4. Henri Dumolard, *Jean-Paul Didier et la Conspiration de Grenoble*, Rey-Arthaud, Grenoble, 1928, p. 242.
5. N° IV de 1957, pp. 373-394.
6. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 153.
7. *Ibid.*, p. 159.
8. Lettre publiée *in extenso* dans les *Lettres à son frère* réunies par M. Vaillant, L'Asiathèque, *op. cit.*, pp. 41-43 et 48-49.
9. *Bulletin de l'Académie delphinale*, 1922, 5^e série, t. 13/1.
10. Cité dans le catalogue de l'exposition Champollion à Grenoble, 1987, pp. 71-73 (archives BMG R. 7636). Les responsables de cette brochure produisent une attestation de H. Gariel attribuant ce texte à Champollion.
11. *Les Deux Champollion*, p. 53.
12. *Ibid.*
13. *Op. cit.*, p. 75

14. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 188.
15. *La France des notables*, de A. Jardin et A. J. Tudesq, Seuil, 1973, pp. 65-66.

٩ - أوييب ، من قرن لآخر .

1. Préface de la réédition (1922) de la *Lettre à M. Dacier*, p. 32.
2. Leçon inaugurale du Collège de France, publiée dans la *Grammaire égyptienne*, réédition 1984, Michel Sidhom, p. IX.
3. *Ibid.*
4. La plupart de ces indications sont tirées de l'*Athanasius Kircher*, de Joscelyn Godwin, J.-J. Pauvert, Paris, 1981. (Trad. de l'anglais.)
5. Madeleine V. David, *le Débat sur les écritures et l'héroglyphe aux XVII^e et XVIII^e siècles*, Jean Touzot, Paris, p. 48.
6. M. V. David, *op. cit.*, p. 70.
7. *Leçon inaugurale*, *op. cit.*, p. X.
8. M. V. David, *op. cit.*, p. 96.
9. M. V. David, *op. cit.*, p. 100.
10. Warren R. Dawson et Eric P. Uphill, 2^e édition révisée, Londres, 1972.
11. M. V. David, *op. cit.*, p. 103.
12. *Encyclopédie*, article « alphabet ».
13. Cité dans M. V. David, *op. cit.*, p. 112.
14. J.-F. Champollion, *Leçon inaugurale*, p. X, ij.
15. Jean Leclant, article cité, p. 5.
16. M. V. David, *op. cit.*, p. 134, note.
17. *Leçon inaugurale*, *op. cit.*, p. X iv.
18. H. Sottas, *op. cit.*, pp. 50-51.

١٠ - الرائد نو الوردية

1. Seconde édition, Egypt Expl. Society, Londres, 1972, p. 313.
2. Préface à la *Lettre à M. Dacier*, *op. cit.*, p. 12.
3. *Précis*, p. 22.
4. Préface de Sottas à la *Lettre à M. Dacier*, *op. cit.*, pp. 45-46.
5. *Ibid.*, pp. 59-60.
6. Cité dans Camille Lagier, *Autour de la pierre de Rosette*, p. 110.
7. *Ibid.*, pp. 90-91.
8. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 208.
9. Young et Champollion, Le Page-Renouf. *Proceedings of the BASL*, vol. IX.
10. Cité par H. Sottas, *op. cit.*, p. 47.
11. *Ibid.*, pp. 11 et 59.

١١ - " تمكنت من الموضوع ! "

1. Marquise de Maillé, *Souvenirs de deux Restaurations*, p. 311.
2. Préface de la *Lettre à M. Dacier*, *op. cit.*, p. 5.
3. H. Sottas, *op. cit.*, p. 17.
4. *Ibid.*

5. Doblöher, *op. cit.*, p. 71.
6. Cf. *Précis*, p. 316.
7. Adolphe Cattai, *Champollion et le déchiffrement des hiéroglyphes*, Le Caire, 1918, p. 12.
8. Jean Leclant, *Publication de l'Acad. des Inscriptions et Belles-Lettres*, 1972, p. 8.
9. H. Hartleben, *op. cit.*
10. H. Sottas, *op. cit.*, p. 68.
11. Pierre Grandet, « La méthode de Champollion », *l'Histoire*, n° 106, p. 24.
12. Cf. l'article sur Huyot de Jean Leclant : *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, n° 32, déc. 1961, pp. 35-42.
13. J. Leclant, *op. cit.*, p. 9.
14. Cité dans H. Hartleben, *op. cit.*, p. 232.
15. J. Leclant, *op. cit.*, p. 9.
16. *Mémoires d'outre-tombe*, La Pléiade II, pp. 689-690.
17. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 244.
18. Jean Yoyotte, article BSFE, octobre 1982, n° 95, p. 102.
19. J. Leclant, article cité, p. 12.
20. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 248.

١٢ - القضية

1. H. Sottas, *op. cit.*, p. 4.
2. « An account of some recent discoveries »... *Quarterly Review*, 1823, p. 54.
3. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 252.
4. Londres, 1825, Longman and Hurst.
5. C. Lagier, *op. cit.*, p. 109.
6. H. Hartleben, *op. cit.*, pp. 266-267.
7. *Proceedings of the B.S.A.L.*, vol. XIX, 1987.
8. Librairie orientale de Dondey-Dupré et fils, 1832.
9. *Examen critique des travaux de M. Champollion*, p. 12.
10. *Bulletin de l'Académie royale de Belgique*, n° 5, 1922, pp. 135-152.
11. Cf. H. R. Hall, « Letters of Champollion », *Journal of Egyptian Archaeology*, vol. II, 1915, pp. 76-87 et 133-167.

١٣ - الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو

1. *Itinéraire de Paris à Jérusalem*, La Pléiade, pp. 374-375.
2. H. Hartleben, *Correspondance de J.-F. Champollion*, Lettres d'Italie.
3. *Histoire de l'art*, II, chap. 46.
4. *Précis*, IX, II, 364.
5. H. Hartleben, *Correspondance de J.-F. Champollion*, p. 204.
6. *Ibid.*, p. 209.
7. *Mémoires d'outre-tombe*, Pléiade, t. II, p. 236.

١٤ - إنجيليكا - عزافة توسكانا

1. *Lettres à Zelmire*, l'Asiathèque, Paris, 1978.
2. *Vita di I. Rosellini, padre dell'Egittologia Italiana*, Giardini, Pise, p. 25.

١٥ - أمين متحف نو نعال من ربيع

1. P. Quoniam, *Bulletin de la Société française d'archéologie*, n° 15, 1982.
2. « Champollion et le musée du Louvre », *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, n° 95, 1982.
3. *Notice descriptive des monuments égyptiens du musée Charles X*, Paris, 1827.
4. *Lettres de Champollion le Jeune*, éditées par son frère, t. I, Italie, éd. C. Bourgois, 1986, p. 425.

١٦ - مامو النيل

1. Note de Mme Hartleben, *Lettres et journaux d'Égypte*, p. 121.
2. *Ibid.*, pp. 486-487.
3. Edda Bresciani, « L'expédition franco-toscane en Égypte et en Nubie », *Bulletin de la Société française d'égyptologie*.

١٨ - الموت يتريص بي في بابل

1. R. Maréchal, article cité, p. 28.
2. *Ibid.*, p. 20.
3. Cité par P. Quoniam, article cité.
4. Jean Leclant, *Champollion et le Collège de France*, B.S.F.E., octobre 1932, p. 38.
5. Robert Hari, « Rosellini et Champollion, deux vies pour l'égyptologie ».
6. Jean Yoyotte, communication pour le colloque du Caire de 1988.

١٩ - فيما بعد ذلك ، حتى طيبة

1. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 579.
2. Retrouvées par Mme Catherine Berger et citées par Jean Leclant dans l'article cité au chap. 11.

خاتمة : بقلم جان فيدال - الغائب عن المسئلة

1. *Revue de l'Art*, n° 23, éd. du CNRS, 1974.
2. J. J. Champollion-Figeac, *l'Obélisque de Louqsor transporté à Paris*, notice historique, descriptive et archéologique de ce monument par M. Ch... avec la figure de l'obélisque et l'interprétation de ses inscriptions hiéroglyphiques d'après les dessins et notes manuscrites de Champollion le Jeune, Paris, 1833.
3. Bernardino Drovetti, *Epistolario (1800-1851)*, publié par Silvio Curto avec Laura Donatelli, Instituto Editoriale Cisalpino, Milan, 1985, lettre n° 94.
4. *Ibid.*, lettre n° 90.
5. *Ibid.*, lettre du comte de Forbin à B. Drovetti du 30 juillet 1818.
6. J. J. Champollion-Figeac, *op. cit.*
7. Baron d'Haussez, *Mémoires*, publiés par son arrière-petite-fille, la duchesse d'Almazan, 2 vol., Paris, 1896-1897, pp. 167-170.

8. J.-B. Apollinaire Lebas, *l'Obélisque de Louqsor*, histoire de sa translation à Paris par M. A. Lebas, ingénieur de la Marine, Paris, 1839.
9. Robert Burnand, *la Vie quotidienne en 1830*, Hachette.
10. Cité par Giovanni Macchia, in *Paris en ruine*, Flammarion, p. 374.
11. Archives nationales, F 13 1230.
12. J. J. Champollion-Figeac, *op. cit.*
13. Archives nationales, *ibid.*
14. *Ibid.*

مراحل حل شفرة الكتابات المصرية

١ - **العصور القديمة** : مؤلفون إغريق ورومان ، متعهدون التيس عليهم أمر المنظومة

ظلال وأضواء على طبيعة الهيروغليفيات

- شيريمون (اكتشف في القرن الثاني عشر على يد تزيترس نشر في فرنسا في القرن التاسع عشر)

أصوات وصور مختلطة ببعضها ؟

- هيرمابيون (ذكره أميين مارسولان في كتاب التاريخ حول عام ٣٩٠) .

ترجمة لخطوط مكتوب بلغتين ...

هورا بولون (القرن الخامس)

محاولات تفسيرية غير دقيقة .

- كليمان السكندري (١٨٠ - ٢١٥) .

إيديوجرامات (صور تمثل أشياء) ، رموز .

٢ - **جامعو الرموز**

أحداس ، تخمينات ، فروض

المشكلة تتضح

القرن السابع عشر

- أثاناسيوس كيرشار

Podromus coptus sive AEgyptiacus (1636)

OEdipus AEgyptiacus.....

تأويل هوائى جداً للهيروغليفيات ، ولكن طرح جوهرى :

اللغة القبطية هي إمتداد للغة الشعبية لقدماء المصريين .

القرن الثامن عشر :

- ويلكنز : منظومة من صور بدائية ؟
- واربرتون (إقتبسه بالفرنسية ل . دو مالىان) : المرور من الصورة إلى الكلمة ، ومن الإيديوجرام إلى الكتابة .
- جابلونسكى : محاولة ترجمة أسماء الآلهة المصرية بواسطة اللغة القبطية بارتيلمى ثم جينى وزوجا .

اليضويات (الخراطيش) تحتوى على أسماء الآلهة أو الملوك .

- جينى : وحدة الكتابات المصرية الثلاثة .
- نيبور : بعض الهيروغليفيات أبجدية ، هل هى صوتية ؟
- زوجا : لا بد أن المنظومة تتضمن عناصر صوتية .

٣ - الحل العلمى :

. ١٧٩٨

- حملة بونابارت على مصر ، يصطحب معه لجنة من العلماء.

٢٢ أغسطس ، تأسيس معهد مصر (المجمع العلمى المصرى) فى القاهرة
. ١٧٩٩

١٩ يوليو - بونابارت يشكل لجنتين - يرأس فوريه الأولى ، وكوستاز الأخرى - تتولى الدراسة العلمية للمبانى الأثرية القديمة فى مصر العليا ورسمها بدقة ، لدى نشرها فى بداية القرن التاسع عشر فى كتاب "وصف مصر" ، أعطت الرسومات والمستندات التى جمعتها هاتان اللجنتان ودفعة حاسمة لدراسات المصريين .

فى اليوم ذاته - فى مدينة رشيد - بالقرب من مصب النيل يعثر ضابط فرنسى على حجر مدفون من الجرانيت الأسود منقوشة عليه مخطوطة بكتابات ثلاثة وهى عبارة عن ثلاثة نسخ لنص واحد الأولى بالهيروغليفية - لم يبق سوى جزء منها فقط والثانية بالديموطيقية - وهى الكتابة الشعبية المصرية والثالثة باللغة اليونانية - لغة معروفة .

حجر رشيد

سيصبح المستند الحاكم فى عملية حل شفرة الكتابات المصرية .

١٧٩٩ - ١٨٠٠

ترجمات عديدة للنسخة اليونانية لحجر رشيد - النص الذى تعبر عنه المخطوطات الثلاثة هو قرار أصدره الكهنوت المصرى لتحية بطليموس الخامس صدر عام ١٩٦ قبل الميلاد ، بالإضافة إلى اسم بطليموس ، تضمن القرار أيضاً أسماء إغريقية أخرى ، فهى إذن أسماء أجنبية مثله .

١٨٠٢

- الفرنسى سيلفاستر دوساسى والسويدي أوكربلاد يدرسان المخطوط الديموطيقى لحجر رشيد. اعتقدوا أنه أبجدي بالكامل ويقارنانه بالنص الأغريقى .

- س . دوس ساسى يتوصل إلى عزل مجموعات من الرموز فى النص الديموطيقى توازى الأسماء اليونانية الموجودة فى النص اليونانى أوكربلاد يحمل هذه الرموز قيماً صوتية (فونيتية) غير أن الأبجدية المكونة من ١٦ رمزاً لا تسمح له بترجمة بقية النص ومع ذلك فقد ثبت أن :

الكتابة الديموطيقية تعبر عن الأسماء العلم الأجنبية بواسطة رموز أبجدية

- بعد استسلام الجيش الفرنسى فى مصر أصبح حجر رشيد غنيمة حرب وأودع البريطانى ميوزيوم (المتحف البريطانى) ولكن بعض البصمات كانت موجودة فى فرنسا وكذلك بعض النسخ (غير الدقيقة) .

- يؤسس القنصل الأول (بونابارت) لجنة تتولى تنفيذ العمل الذى أصبح "وصف مصر" والذى كتب فورييه مقدمته . الكوميسارات المكلفون بهذا التنفيذ كانوا على التوالى كونتى (حتى ديسمبر ١٨٠٥) لا نكريه ثم جومار (اعتبار من ١٨٠٧) .

- فيفان دونون ينشر كتابه "رحلة إلى مصر السفلى والعليا" أثناء حملات الجنرال بونابرت وهو يتضمن على وجه الخصوص نسخاً للعديد من البرديات .

١٨٠٨

شامبوليون - طالب فى باريس - يخطو "أولى خطواته" كحلل للشفرة: يقوم

بدراسة المخطوط الديموطيقى لحجر رشيد من إحدى الصور له ويقارنه ببردية دونون
ثم يحاول تحسين أبجدية أوكربلاد . سيظل لسنين طويلة - وهو يعمق دراسته للغة
القبطية - يحاول فهم الكتابات المصرية الثلاثة.

١٨١٠

النسخة الأولى من "وصف مصر" (مؤرخة ١٨٠٩) تظهر وهي تحتوى - بالنسبة
للآثار : على لوح مرسومة، المجلد الأول للوصف "الجزء الأول" وبالنسبة للمذكرات -
الجزء الأول - يؤكد شامبوليون في مذكرة قرأها في السابع من أغسطس أمام
أكاديمية فنون وعلوم مدينة جرونوبل أنه للتعبير عن الأسماء الأغريقية.

لا بد أن للهيروغليفيات خاصية التعبير عن أصوات .

١٨١٣

- شامبوليون في كتابه "مصر في عهد الفراعنة" (ظهر عام ١٨١٤) المجلد الأول ،
ص ١٠٥ يؤكد .

كان المصريون يهملون الحروف المتحركة فلا يدونها في كثير من الأحيان .

- الدفعة الثانية من وصف مصر (مؤرخة ١٨١٢) الآثار لوح الجزئين الثانى
والثالث .

١٨١٤

توماس يانج ، عالم فيزياء وطبيب ومثقف إنجليزى يدرس بدوره فى يونيو ١٨١٤
المخطوط الديموطيقى (أنكوربالى) لحجر رشيد يستخدم فى البداية - دون جدوى
أبجدية أوكربلاد ثم يلجأ إلى المقارنة المادية مع النص اليونانى فيتوصل إلى عزل
مجموعات من الرموز تتوافق مع كلمات من النص اليونانى يتوصل هكذا إلى " ترجمة
تقريبية (ظرفية) للنص الديموطيقى يرسلها إلى مسيو دوساسى فى ١٣ أكتوبر
وينشرها فى مجلته ميوزيوم كريتيكوم عام ١٨١٥ وفى مجلة أركيولوجيا عام ١٨١٧
يتمكن يانج بإتباع الطريقة ذاتها من التعرف على مجاميع من الرموز الهيروغليفية
تتفق مع كلمات من النص اليونانى .

١٨١٨/١٨١٧

- الدفعة الثالثة من "وصف مصر" الآثار القديمة : لوح المجلد الرابع ، الوصف:
الجزء الثانى المذكرات : الجزء الثانى .

١٨١٩/١٨١٨

ينشر توماس يانج فى مقال للإنسيكلوبيديا برتنيانكا الملحق الرابع (١٨١٩) كشف يتضمن ٢٢٠ "كلمة" أو مجموعة رموز هيروغليفية منها مائة تقريباً توصل إلى تحديدها "بالخط السعيد" (سوتاس) .

يحاول يانج فى المقال ذاته تحليل خرطوش بطليموس صوتياً وهو تردد عدة مرات فى حجر رشيد وخرطوش بيرنيس المأخوذ من "وصف مصر" وهو :

يستشعر وجود هيروغليفيات صوتية . كما يخمن وجود علاقة قرابة بين الكتابات المصرية الثلاثة

ولكنه يتوقف فى الطريق بعد أن أقترّب جداً من الحقيقة دون أن يكتشف الطبيعة الحقيقية للمنظومة.

١٨٢١

ينشر شامبوليون فى مايو قبل أن يغادر جرونوبل ٧ لوح من القطع الكبير مع نص يثبت فيه أن الكتابة الهيراطيقية هى تبسيط أو إختزال لهيروغليفية ٢٧ أغسطس فى باريس يعلن أمام أكاديمية المخطوطات والأدب بحثه عن الكتابة الهيراطيقية ثم بعد ذلك بعام يتقدم ببحثه عن الكتابة الديموطيقية ويثبت فيها أن الحروف الديموطيقية ذاتها ليست سوى تبسيط نهائى للرموز الأصلية .

وأن الكتابات الثلاثة نابعة من ذات المنظومة الواحدة .

٢٣ ديسمبر :يجمع شامبوليون عدد الرموز الهيروغليفية وما يقابلها من كلمات يونانية فى حجر رشيد فيجد ١٤١٩ هيروغليفية و ٤٨٦ كلمة يونانية .

مستحيل أن تصور كل هيروغليفية فكرة مستقلة

إلا أن الـ ١٤١٩ هيروغليفية تختزل فى ١٦٦ شكلاً رئيسياً .

من الصعب التسليم بأن تكون كل هيروغليفية رمزاً لصوت .

١٨٢٢

- رابع دفعة من "وصف مصر" الآثار القديمة لوح مجلد (يتضمن النسخة الكاملة لحجر رشيد) .

- حاول شامبوليون مثل يانج التحليل الصوتي (خرطوش بطليموس الموجود على حجر رشيد وينسب لسبع رموز هيروغليفية مدلول ٧ حروف للإسم القبطي PTOLMIS - فرض ينتظر إثباته ،

- بداية يناير : يحصل شامبوليون على نسخة من خرطوش كليوباترا بالقبطية KLEOPTRA ثلاث رموز هيروغليفية O,P,L تتماثل في الاسمين وهي أيضاً رموز لأصوات.

إذن فإن الأسماء الإغريقية هي بالفعل منقولة بواسطة هيروغليفيات صوتية.

- مزوداً باثنى عشر حرفاً أبجدياً يستمر شامبوليون في إستكمال الأبجدية بدراسة الخراطيش الملكية للفترة الإغريقية الرومانية المنشورة في كتاب "وصف مصر"

- ١٤ سبتمبر يستلم شامبوليون خرطوشين ملكين أرسلهما له شارل هيو وهما لرمسيس وتحتمس : الهيروغليفيات الصوتية التي فيها تختلط بها رموز إيديوجرافية يكتشف شامبوليون المبدأ الرئيسى للكتابة المصرية فهي:

كتابة ترسم الأفكار تارة والأصوات تارة أخرى .

٢٢/١٤ سبتمبر يحرر شامبوليون مع أخيه رسالة إلى مسيو داسييه ويقرأها في ٢٧ سبتمبر أمام أكاديمية المخطوطات والآداب .

١٨٢٢/ ٢٤

- شامبوليون في كتابه "رسالة إلى مسيو داسييه" بخصوص أبجدية الهيروغليفيات الصوتية التي استخدمها المصريون لكتابة القاب وأسماء أسرات الملوك الأغريق والرومان "لم يكشف سوى عن جزء من اكتشافه محتفظاً بواجب إثباته على أسس لا تقبل الجدل قبل نشره على الجمهور .

- في ١٨٢٤ نشر "كتابه" ملخص المنظومة الهيروغليفية عند المصريين القدماء - أو أبحاث في العناصر الأولية لهذه الكتابة المقدسة وفي تركيباتها المختلفة وفي العلاقات القائمة بين هذه المنظومة والمنظومات الكتابية المصرية الأخرى" وهي المنظومة التي لم يتوقف عن تنقيحها حتى آخر يوم في حياته وفي إطارها صدر "كتاب القواعد" المصرية بعد وفاته على يد أخيه جاك - جوزيف وهو آخر مراحلها .

علامات تاريخية

الشقيقان شامبوليون

علامات تاريخية

١٧٧٣ جاك شامبوليون - ولد عام
١٧٤٤ في لاروش - أن - فالبونيه (بالقرب
من جرونوبل) بائع كتب متجول - أول الأمر
ثم استقر عام ١٧٧٠ في فيچاك - مقاطعة
كارسي حيث فتح مكتبة لبيع الكتب وتزوج
جان فرانسوا جاليو من أصل بورجوازي
١٧٧٤ مولد تيريز وتبعها بيترونيل عام ١٧٧٦
وماري في ١٧٨٢ .

١٧٧٤ جلوس لويس السادس
عشر على العرش .

١٧٧٦ ، ٤ يوليو : إعلان
إستقلال الولايات المتحدة

١٧٧٨ ، ٨ أكتوبر : مولد چاك -
چوزيف شامبوليون .

١٧٨٧ جرونوبل
إجتماع البرلمان المحلي
٧ يونيو : أيام القراميد
journées des tuiles
٥ يوليو : إجتماع المؤتمرات
العامة لمقاطعة الدوفينييه .

- ٢٣ يوليو : مؤتمر فيزيل
١٧٨٩ ، ٩ يوليو : إجتماع
المؤتمرات العامة
١٤ يوليو : الإستيلاء على
الباستيل .
١٧٩٠ ، ١٢ يوليو إنشاء الهيئة
المدنية لرجال الكنسية.
١٤ يوليو : عيد الفيدرالية .
١٧٩١ ٢٠ - ٢١ يونيو : فرار
الملك ثم القبض عليه فى فاران
١٧٩٢ ، ١٠ أغسطس : سقوط
لويس السادس عشر .
٢ - ٦ سبتمبر : مجازر سبتمبر
٢٠ سبتمبر : إجتماع الجمعية
التأسيسية بإعلان الجمهورية .
١٧٩٣ ، ٢١ يناير : إعدام لويس
السادس عشر .
٣١ مايو : سقوط الجيرونديين
فترة الإرهاب
١٧٩٤ ، ٢٧ يوليو (٩ تارميدور) :
سقوط رويسبيار .
١٧٩٥ أكتوبر : إنفضاض الجمعية
التأسيسية ، الديركتوار
إنشاء مدرسة اللغة الشرقية .
- ١٧٩٠ ، ٢٣ ديسمبر : مولد جان
فرانسوا شامبوايون فى فيچاك . فى
منزل كائن بحارة لابوردسكورى أخوه
جاك - جوزيف هو أبوه الروحى .
١٧٩١ چاك جوزيف يقبل فى
الفصل الخامس .
- ١٧٩٤ فى مايو جاك - جوزيف
يعين موظفاً فى بلدية المقاطعة .

١٧٩٦ جاك جوزيف يعطى أول
دروسه لأخيه الأصغر .

١٧٩٨ جان فرانسوا يدخل
المدرسة الابتدائية .

جاك جوزيف يعين موظفاً فى
مؤسسة « لا شانال وشامبوليون وريف»
فى جرونوبل وينفصل عن أخيه .

١٧٩٩ جان فرانسوا - يسحب من
المدرسة ويضع تحت مسئولية دوم
كالمالز الذى يعلمه مبادئ اللغة اللاتينية
(واليونانية) جاك جوزيف - يعمق
دراساته فى الآداب القديمة .

١٨٠٠ ، ٢٣ ديسمبر جان فرانسوا
شامبوليون يبلغ العاشرة من عمره .

١٨٠١ مارس : يخضر جاك
جوزيف أخاه إلى جرونوبل يوضع تحت
مسئولية مدرس خاص فى بادى الأمر
ثم يدرس تحت إشراف أخيه .

١٧٩٦ حملة بوناپارت على إيطاليا
١٧٩٧ ، ١٨ أكتوبر : معاهدة
كامبوفورميو إنتهاء حرب إيطاليا .
١٧٩٨ : مايو إعداد الحملة على
مصر .

أول يوليو : نزول بوناپارت على
شاطئ الإسكندرية .

أول أغسطس : تدمير الأسطول
الفرنسى فى أبو قير .

تأسيس المعهد المصرى فى
القاهرة (المجمع العلمى المصرى)
أنستيتوديجييت

١٧٩٩ فبراير : الحملة على سوريا
نهاية أغسطس : يغادر بوناپارت
مصر تاركاً لكليبار قيادة الجيش
٩ أكتوبر : عودة بوناپارت إلى
فرنسا

٩ نوفمبر : إنقلاب ١٨ برومار:
بوناپارت القنصل الأول .

١٨٠٠ ، ٦ يونيو : اغتيال كليبار
فى مصر الحملة الثانية على إيطاليا
١٤ يونيو : إنتصار مارنجو

١٨٠١ ، ٣١ أغسطس : فى مصر
إستلام مينو .

الحجر المكتوب بلغتين والمكتشف

١٨٠٢ فبراير : الفصل الأول ١٨٠٢ جان فرانسوا يدخل مدرسة
يشكل لجنة تتولى نشر "وصف مصر" - الأب دوسار حيث يتعلم العبرية وفي نفس
تعيين جوزيف فورييه محافظاً لمنطقة الوقت يتابع دراسته في المدرسة المركزية .
الإيزار . جاك -جوزيف يسافر سفريات عمل ،
٢٧ مارس : سلام أبيان مع ويبدأ دخوله في المجتمع الجرونوبلوازي
إنجلترا . وينشئ لنفسه مكتبة خاصة ، يرسل أ.ل.
إلغاء المدارس المركزية وإنشاء ميلان محافظ الآثار القديمة في المكتبة
مدارس الليسيه . الوطنية ومؤسس مجلة المخزن
جوزيف فورييه يستقر في الأنسيكلوبيدي (ماجازان انسيكلوبيديك) .
جرونوبل في ١٨ أبريل . ١٨٠٣ جان-فرانسوا يواصل دراسة
العربية بداية دراسة العربية ، والسيريانية
والكالدية (الأرامية) جاك جوزيف وقد بدأ
يهتم بالدراسات الأثرية يتولى بتكليف من
المحافظ فورييه الآثار القديمة المحلية - يكتب
بحثاً وينشره تحت عنوان « بحث في أثر تحت
الأرض موجود في جرونوبل » .
في ديسمبر يقبل في أكاديمية العلوم
والفنون .
١٨٠٤ دخول جان فرانسوا في
الليسيه الأمبراطوري بصفته تلميذ الحكومة
يتعاون جاك جوزيف مع الماغازان
الأنسيكلوبيدي ومع حوليات مقاطعة الإيزار
(أنال بودييارتومان دو ليزار) .
٨ يونيو : يقدم بحثاً إلى أكاديمية
العلوم والفنون عن مخطوطات حجر رشيد .

١٨٠٥ ، ٢ ديسمبر : أوسترليتز

١٨٠٥ جان فرانسوا يشكو لأخيه
من "الإقامة الجهنمية" التي يمثلها له
بقاؤه في اليسييه .

جاك - جوزيف يترجم النص
اليوناني لحجر رشيد .

٢٣ ديسمبر : جان فرانسوا في
الخامسة عشر .

١٨٠٦ جان فرانسوا بمناسبة
توزيع الشهادات في شهر أغسطس
يشرح في حضرة المحافظ فورييه
مقطعاً من سفر التكوين من النص
العبري .

تعيين جاك جوزيف سكرتيراً
لأكاديمية العلوم والفنون لمدينة جرونوبل
وينشر "رسالة عن النص اليوناني لمعبد
دندرة" - موجهة ليسو فورييه .

١٨٠٧ ، ١٩ يونيو : وفاة مدام
شامبليون في فيجاك .

أول يوليو : زواج جاك - جوزيف
بزويه بيريا في جرونوبل وكانت من
"دوطتها" المنزل الريفي في فيف .

جان فرانسوا يفكر في تأليف
كتاب عن مصر الفرعونية ويبدأ في
كتابة جزئه الجغرافي - ويعطى وقته كله
لدراسة اللغتين القبطية والعربية.

٣١ أغسطس : يترك اليسييه دون
رجعة .

أول سبتمبر : يقرأ أمام أكاديمية
العلوم والفنون بحثه " في الوصف
الجغرافي لمصر"

١٨٠٦ مايو تأسيس الجامعة
الأمبراطورية.
٢٤ أكتوبر : بينا .

١٨٠٧ معاهدة تيلسيت . نابليون
في أوج قوته ،

قبل غزو قمبيز" وكان حينذاك فى
السادسة عشرة والنصف من العمر .

١٣ سبتمبر : جان فرانسوا يصل
إلى باريس بصحبة أخيه ويحضر
محاضرات فى الكولاج دو فرانس
ومدرسة اللغات الشرقية - يدرس
العبرية والعربية والفارسية والسريانية
والكالدية والقبطية .

فى أكتوبر : يعترف لأخيه فى
إحدى رسائله بحبه لبولين أخت زوييه .
١٨٠٨ جاك جوزيف أمين -
مساعد مكتبة جرونوبل ويصبح رئيس
تحرير "حوليات منطقة الإيزار" (إنال
دوديبارتمان دوليزار) .

تعيين جان فرانسوا وهو فى
السابعة عشرة من عمره عضواً مراسلاً
لأكاديمية علوم وفنون جرونوبل -
يدرس برديات مكتوبة ، بالخط المرسل
cursive ويعكف على تأليف كتاب
"القواعد المصرية" (اللغة القبطية) بلهجة
مدينة طيبة - يقابل لويز ديشان ثانى
حب فى حياته .

١٨٠٩ : ٢٧ يوليو تعيين جاك -
جوزيف أستاذاً للأدب اليونانى وأميناً
عاماً لكلية الآداب .

مارس : أتم جان فرانسوا - كتاب
"القواعد القبطية" - يعكف على دراسة
نسخة من حجر رشيد .

١٨٠٨ حرب إسبانيا

٢ - ٣ مايو : ثورة مدريد ، قمعها
بقسوة شديدة .

تشكيل الجامعة الأمبراطورية
إنشاء كليات الآداب .

١٨٠٩ - يوليو : فاجرام .

يوليو : يعين استاذاً مساعداً .
للتاريخ القديم فى كلية أداب جرونوبل
١٥ أكتوبر : يغادر باريس إلى
جرونوبل

١٨١٠ جاك جوزيف وجان
فرانسوا يحصلان على الدكتوراه فى
الأداب بمرسوم أمبارطورى يحى أيام
"الأربعاء، فورييه فى داس دوليديجيا
(مقر إقامته الرسمى) ويقيمان كشفاً
بالقطع الأثرية الموجودة بمحف
جرونوبل

٢٠ مايو : جان فرانسوا يلقى
محاضراته الافتتاحية فى مادة
التاريخ.

٧ أغسطس يعرض أمام أكاديمية
العلوم والأداب أفكاره التى كونها فى
ذلك الحين عن كتابة المصريين معتقداً
أن الهيروغليفيات لها دلائل صوتية .

٢٧ ديسمبر : جان فرانسوا بلغ
العشرين .

١٨١١ ينشر فى جرونوبل مقدمة
كتابه "مصر تحت حكم الفراعنة" (راجع
كشف المؤلفات) .

١٨١٢ تعيين جاك - جوزيف كبير
محافظى مكتبة جرونوبل وعميداً لكلية
الأداب ولكنه يفقد وظيفة رئيس تحرير
"حوليات مقاطعة الإيزان" بسبب نشره
"معلومات ضارة" ، علاقاته مع فورييه

١٨١٠ أبريل : ناپوليون يتزوج
مارى لويز النمسا .

١٨١١ مارس : مولد ملك روما
(ابن ناپوليون)

١٨١٢ : الحملة على روسيا
سبتمبر: الإستيلاء على موسكو
وحرقتها .

أكتوبر : الانسحاب من روسيا .

تعيين جان فرانسوا مساعداً فى
مكتبة جرونوبل وأميناً عاماً لكلية الآداب
- يتعرف ويصادق روز بلان (روزين)
ابنة صاحب مصنع قفازات فى جرونوبل
وفاة بولين بيريا .

١٨١٤

جاك - جوزيف يناصر نظام
آل بوربون يحصل على الوسام الملكى
زهرة الزنبق.
جان فرانسوا بعد تردد يفعل مثله
وينشر "مصر تحت حكم الفراعنة"
ويهديه إلى لويس الثامن عشر .

١٨١٥ جاك جوزيف - فور وصول
ناپوليون يصبح أقرب معاونة ويلحق به
فى باريس حيث يعين سكرتير مجمع
ناخبى دائرة جرونوبل .
يحصل على وسام جوقة الشرف،
يصبح عضواً فى جمعية تشجيع
التعليم التعاونى (المتبادل) يناصر جان
فرنسوا ناپوليون هو أيضاً ويصبح
نصير القيدالية (حزب مؤيد لپوناپارت
خلال المائة يوم) - ويدير "ليزانال
دوليزار" بدلاً من أخيه، بعد هزيمة

١٨١٣ : أكتوبر : هزيمة لايپتزج
تحلل الأمبراطورية .
١٨١٤ الحملة على فرنسا
٣١ مارس : سقوط باريس
٦ أبريل: تنازل ناپوليون عن
العرش فى فونتانبلو
٢ مايو : عودة لويس الثامن عشر
عودة الملكية الأولى .
مايو : ناپوليون فى جزيرة البا .
جرونوبل
أكتوبر : الكونت دارتوا (الذى
سيصبح فيما بعد الملك (شارل العاشر)
وهو زعيم حزب اليمين المتطرف ultras
يزور مقاطعة الدوفينية
١٨١٥ : المائة يوم :
مارس : ناپوليون ينزل على شاطئ
جولف - جوان (خليج جوان)
٧ - ٩ مارس : يقيم فى جرونوبل.
٢٠ مارس : يصل إلى باريس
لويس الثامن عشر يهرب فى صباح
نفس اليوم .
١٨ - يونيو : واترلو

يتنازل نابوليون عن العرش للمرة الثانية.

عودة لويس الثامن عشر إلى العرش .

جرونويل

الإرهاب الأبيض يأخذ في مدينة جرونويل شكلاً مستتراً على يد مونليفو محافظ الإيزار .

١٨١٦ سبتمبر : حل الجمعية الوطنية الملكية المتطرفة النزعة - الدوق دروريشوايو رئيساً للحكومة

جرونويل

مايو : مؤامرة ديبييه . إعدام ١٨ متآمراً رمياً بالرصاص في ميدان جرونات

١٨١٧ : تأسيس مدارس التعليم التعاوني في ١٣ أكاديمية جرونويل .

جوزف شوبان درانوفيل المحافظ الجديد (ليبرالي) لمقاطعة الإيزار .

يطرد من "ليزانال" لأنه نشر تحدياً لحزب المتطرفين في "نخب الجمهورية" وهو منشور مناهض " لأصحاب القبعة أو الرداء الأسود (المتدينين المتطرفين) - كما ألغى قسم التاريخ الذي يدرسه ٢٣ ديسمبر : جان فرانسوا بلغ عامه الخامس والعشرين .

١٨١٦ الشقيقان شامبوليون تحت الإقامة الجبرية في فيجاك حيث يلتقون مرة أخرى مع والدهما وأخواتهما ويحسن "المجتمع النخبى الفيجاكى" إستقبالهما يتعرف جان فرانسوا على مدام أديل .

جاك جوزيف يقوم بمساعدة أخيه بابحاث أركيولوجيه بتقنين موقع أوكسيلودونوم الحالى - ينشط الإثنان في مجال التعليم التعاوني المتبادل طبقاً لأسلوب لانكاستر .

١٨١٧ أبريل : يسمح لجاك جوزيف بالعودة إلى باريس حيث يصبح رجل مسيو داسييه الموثوق فيه داسييه هو السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والأدب، جان فرانسوا يبقى في فيجاك لحل بعض المشاكل العائلية - توتر مع والده - يعاود عمله الاسكتشافى في الهيروغليفية يعاود تنقيح "قاموس وقواعد اللغة القبطية" وينشط في مدرسة من مدارس التعليم التعاوني المتبادل .

١٨١٨ يحل بوكاز (معتدل) محل
ريشوليو

٢١ أكتوبر : يعود إلى جرونوبل
حيث يحسن أصدقاؤه إستقباله .
١٨١٨ بصفته سكرتيراً خاصاً
لسيو داسيه يصبح جاك جوزيف عضواً
مراسلاً لأكاديمية المخطوطات والأدب
التي منحه جائزتها لكتابة (حوليات
اللاجيد) (البطالة) (راجع المراجع
الكتب) .

فى جرونوبل ، يشرف جان
فرانسوا وينشط فى مدرسة التعليم
المتبادل .

١٨ يونيو : يعاد جان فرانسوا إلى
وظيفته فى المكتبة .

١٩ أغسطس : يقرأ أمام أكاديمية
العلوم والفنون بحثه حول "بعض
هيروغليفيات حجر رشيد" .

٣٠ ديسمبر : يتزوج روزين بلان
فى غياب جاك جوزيف الذى لا يوافق
على هذه الزيجة .

١٨١٩ جان فرانسوا يدير
"المدرسة اللاتينية" فى هونفلور .

١٨٢٠ جاك -جوزيف يتقدم
لعضوية أكاديمية المخطوطات والأدب
ولكنه يفشل .

جان فرانسوا ينشط فى "النادى
الجمهورى للوحدة" : الشرطة تراقب
مراسلاته

سبتمبر : يشترك فى تحرير كتاب
: "احترس" ا يحذر فيه الحكومة من
التمادى فى عمليات القمع وجان
فرانسوا يلتقى مع المحافظ دوسان فى
لقاء عاصف

١٨٢٠ نوفمبر : انتصار المتطرفين
فى الانتخابات ويسيطرون على مجلس
النواب .
جرونوبل
البارون دوسان يحل محل شويان
دارنوفيل كمحافظ للإيزار .

٢٣ ديسمبر : جان فرانسوا فى

الثلاثين

١٨٢١ جان فرانسوا يفقد وظيفة

استاذ التاريخ فى اليسييه .

٢٠ مارس : يشترك فى انتفاضة

الطلبة مع صديقه تبثونيه .

يونيو : يهرب من محاكمة بتهمة

الخيانة العظمى : إلا أن المحافظ دوسان

يجعل إقامته فى جرونوبل غير محتملة

ويقرر مغادرتها .

١١ يوليو : يركب العربة فى إتجاه

باريس حيث تلحق به روزين .

٢٠ يوليو : يقيم فى باريس عند

أخيه ٢٨ شارع مازارين بعد أن حرم

من جميع وظائفه، يكرس كل وقته لعملية

فك شفرة الهيروغليفيات .

٢٧ أغسطس : فى أكاديمية

المخطوطات والأدب يقرأ جان فرانسوا

- بحث عن الكتابة الهيروغليفية يعبر

فيها عن مبدأ علاقة القرابة اللصيقة بين

الكتابات المصرية الثلاثة ، إلا أنه يبقى

متأثراً "بتخيلى فكرة الأيدوجرافية

والرمزية "

سبتمبر :جان فرانسوا يقابل يانج

لدى مروره على باريس .

٢٣ ديسمبر بواسطة عملية

حسابية بحتة يتأكد من الجانب الصوتى

الجزئى للهيروغليفيات وهو ما

١٨٢١ ٢٠ مارس ثورة الطلبة

المناهضة للملكية فى جرونوبل .

٢٥ مارس : الانتفاضة الوطنية

لليونانيين ضد الأتراك .

٥ مايو وفاة نابوليون فى سانت

هيلان .

نوفمبر : فيلان يحل مكان

ريشوليو .

كان قد إقترحه عام ١٨١٠ - نشر كتابة
عن "الكتابة الهيروغليفية لقدماء
المصريين" في جرونوبل (راجع كشف
مؤلفاته)

١٨٢٢ - ٢٢ يناير : يحصل جان
فرانسوا على نسخة - مرفوعة من مسلة
فيلة - لخرطوش لكيوباترا وبمقارنته
بخرطوش بطليموس - حيث
الهيروغليفيات لها ذات المداليل الصوتية
- يتوصل إلى العناصر الأولية لأبجدية
هيروغليفية .نشر مؤلفه : عن المسلة
المصرية في فيلة (راجع كشف
المؤلفات).

أغسطس : جان فرانسوا يقرأ في
الأكاديمية بحثه عن الكتابة
الديموطيقية .

١٤ سبتمبر : يلاحظ جان فرانسوا
أن خراطيش رمسيس وتحتمس التي
نسخها هيبو من معبد أبو سمبل تحتوي
في ذات الوقت على رموز أيديوجرافية
ورموز صوتية ويتمكن من حل شفرتها
ويخترق كالبرق سر طبيعة الكتابة
المصرية التي ترسم (تارة الأفكار وتارة
أخرى أصوات اللغة) ويهرع إلى منزل
أخيه: الموضوع في حوزتي " وضعت
يدي على الموضوع " .
ثم يغمى عليه .

١٨٢٢ مونسينيور لوفريسينوس
رئيساً للجامعة.
قانون الصحافة- عودة الرقابة .

١٤ - ٢٢ سبتمبر : يكتب جان فرانسوا مع جاك جوزيف البحث الخاص لهذا الاكتشاف - ويطلق عليه عنوان "رسالة إلى مسيو داسيه " .
٢٧ سبتمبر يقرأ البحث أمام أكاديمية المخطوطات والآداب المجتمعة فى جلسته تاريخية .

١٨٢٣ يناير : المكتشف يقابل الدوق نوبلاكاس نولب أول أمراء الملك الذى يضعه تحت رعايته ويعد بضعة أيام يقدم له بلاكاس علبة من الذهب هدية من الملك لويس الثامن عشر تقديراً لاكتشافه .

٢٦ أبريل : الدوق لويس فيليب نورليان يحى اكتشافه فى الجمعية الآسيوية . يقدم جان فرانسوا أيضاً بالتعاون مع صديقه الرسام وعالم الآثار ل.ج.ح دوبا كتاباً مصوراً عن الميثولوجيا المصرية والذى سينشر تحت اسم "الپانتيون المصرى" (راجع كشف المؤلفات) .

١٨٢٤ ينشر صاحب الكشف كتابه المختصر فى المنظومة الهيروغليفية للمصريين القدماء أو البحث : " ألخ " وهو يعتبر مسودة لكتاب القواعد (راجع كشف المؤلفات) .

- البلاط الملكى فى تورينو يشتري مجموعة نورفيتى : يزود بلاكاس جان

١٨٢٤ ، ٩ سبتمبر وفاة لويس الثامن عشر يتولى العرش بعده أخوه شارل العاشر .
حرب تحرير اليونان بمساندة إنجلترا وفرنسا .

فرانسوا بالمال اللازم لكي يذهب
لدراستها في موقعها الجديد .

منتصف مايو : جان فرانسوا
يسافر إلى إيطاليا مروراً بجرونويل -
يتعرف في شيف على ابنته زورايد التي
ولدت في الأول من مارس .

٧ يونيو : يصل إلى تورنيو

٩ يونيو : يدخل (الدروفيتيانا)
حيث تنتزع منه المجموعة الأثرية هذه
الصرخة " إنه شيء مدهش "

توحى إليه دراساته المنظمة
والدقيقة للآثار والبرديات التي تتضمنها
المجموعة برسالتين إلى السيد الدوق
"دوبلاكاس" الأولى في ١٨٢٤ والأخرى
في ١٨٢٦ (راجع كشف المؤلفات) .

دراسة البرديات الجنائزية
والمخطوطات المهلهلة تسمح له بإعادة
تجميع قانون ملكي صادر قبل الأسرة
الثامنة عشر وبالقاء الضوء على الأرقام
العديدة التي استخدمها المصريون

نوفمبر : جاك جوزيف يتقدم
لعضوية أكاديمية المخطوطات لثاني مرة
دون جلوى .

١٨٢٥ مارس جان فرانسوا يغادر
تورنيو لرحلة عبره إيطاليا تدوم أربعة
شهور .

١١ مارس روما زيارة سياحية
(المدينة الأبدية) .

١٨٢٥ ، ٢٩ مايو تتويج شارل
العاشر في مدينة رانس .

٢٠ مارس : بلاكاس يستقبله فى نابولى حيث أصبح سفيراً لفرنسا- زيارة يومبى ويايستوم .
٢٢ أبريل : بعد عودته إلى روما يكلف بعمل كتالوج برديات مكتبة القاتيكان .

١٥ يونيو : يستقبله البابا ليون الثانى عشر .

١٧ يونيو : فلورنسا : بناءً على طلب الجران بوق (عاهل فلورنسا) يدرس مجموعة نيتزولى .

بداية يوليو : ليفورن . زيارة مجموعة سولت التى يود أن تقتنيها فرنسا . بعد إقامة جديدة فى تورينو يعود جان فرانسوا إلى جرونوبل .
١٥ نوفمبر : يلتقى من جديد بأخيه وبأسرته .

١٨٢٦ فبراير : الملك يكلف جان فرانسوا بتقدير قيمة مجموعة سولت ويمنح مبلغ خمسة آلاف فرنكاً للمصاريف الخاصة بالمهمة يعود جان فرانسوا عبور جبال الألب من جديد ويصل إلى ليفورن حيث يتعرف على إيبوايتو روسيليني الاستاذ الشاب القادم من بيزا الذى يصبح من تلاميذه.
٢ أبريل : أثناء إجتماع عام لأكاديمية ليفورن ، تترجل الشاعرة انجيليكا باللى قصيدة تمتدحه فيها ويقع جان فرانسوا فى حبها .

١٨٢٦ ، ٢٣ إبريل الأتراك سيتولون على ميسولونجى .

١٤ مايو جان فرانسوا يعين
محافظاً للمتحف المصرى فى اللوفر
١٦ يوليو يلتقى لثانى مرة مع أنجيليكا
فى الاحتفالات الضخمة "لومينارات" فى
بيزا وبعدها يسافر جان فرانسوا
بصحبة روسيليني إلى فلورنسا وروما
ونابولى حيث يرسم مع بلاكاس خطة
لحملة علمية أوروبية إلى مصر .

٢١ سبتمبر : لدى عودته إلى
ليقورن يقابل أنجيليكا للمرة الأخيرة
أرسل لها ٣٠ خطاباً تحت أسماء
مستعارة من "زيد إلى زيلمير" فى الفترة
من ١٨٢٦ حتى ١٨٢٩ يعود إلى فرنسا
عبر البندقية

جرونوبل : أزمة نقرس حادة .
٣٠ أكتوبر : يسافر إلى باريس مع
زوجته وابنته .

٤ نوفمبر فى باريس يقطن جان
فرانسوا مع روزين وأخيه فى شقة
جديدة ١٩ شارع مازارين حيث تلحق
بهم زوييه وأسرة جرونوبل الصغيرة .

نوفمبر - ديسمبر : يستلم
مجموعة سولت التى وصلت ميناء الهافر
عبر نهر السين - بمساعدة دوبا يقوم
بتجهيز متحفه - أفكاره التجديدية
تتسبب فى خلافات مع الكونت
دوفوربان مدير متاحف فرنسا

ديسمبر : روسيليني يلحق بجان
فرانسوا في باريس .

١٨٢٧ فبراير : يتقدم جان
فرانسوا للمرة الأولى دون أن يصيب
النجاح لعضوية أكاديمية المخطوطات
والآداب.

يوليو أغسطس تم تقديم مذكرة
بمشاريع حملة إلى مصر تجمع فرنسين
وتوسكانين مع شامبليون وروسيليني
إلى الجران - دوق عاهل توسكانيا الذي
يوافق عليها .

نهاية أكتوبر : وفاة سولت .
٣٠ أكتوبر : زواج روسيليني
برزينوبيا شيروبيني ابنة الموسيقار
شيروبيني. جان فرانسوا يشهد على
الزواج من طرف العريس .
نوفمبر - ديسمبر : فتح وإفتتاح
المتحف المصري في اللوفر حاملاً اسم
متحف شارل العاشر .

١٨٢٨ أبريل : بمساندة مارتيناك
رئيس الحكومة الجديد يوافق الملك على
مشاريع الحملة الفرنسية التوسكانية إلى
مصر .

١٦ يوليو : شامبليون يغادر
باريس بصحبة سالفادور شيروبيني -
توقف في ليون عند الصديق أرتوف في
أكس عند سالييه

٢٤ يوليو، لقاء الحملة: الفرنسيون:
شارل لونورمان المهندس المعماري

١٨٢٨ هزيمة فيلال في الانتخابات
يحل مارتيناك (ليبرالي) محله.
القوات المصرية تجلوا عن المورة

أنطوان بيبان ، الرسامون لوت ،
الكساندر دوشان بيرتان الإبن، لوهو .
التوسكانيون : إيبوليتو وجاتينانو
روسيليني ، إيساندروريتشي، طبيب
وعالم آثار، جيوسيبي إنجيليلي رسام ،
جـ ، راضى عالم طبيعة ومساعدته
جالاسترى .

٣١ يوليو : الحملة تصعد إلى
الإيجلى السفينة : "

١٨ أغسطس : فى الإسكندرية
شامبوليون ورفاقه يقابلون القنصل
دروفتي الذى كان فى استقبالهم .
زيارة "مسلات كليوباترا"

٢٤ أغسطس : محمد على باشا
يستقبل شامبوليون .

١٤ سبتمبر تبحر الحملة على متن
المعاش "إيزيس" والذهبية "أثير" إلى
القاهرة.

٢٠ سبتمبر الوصول إلى القاهرة
إحتفال بالمولد النبوى .

١ - ٨ أكتوبر ممفيس تمثال
رمسيس الثانى الضخم - سقارة .
٨ أكتوبر : جيزة أبو الهول ،
الأهرام .

١٨ أكتوبر : يرفع الأسطول
الصغير الهلب ويبحر إلى صعيد مصر
- بيان تترك الحملة .

٢٣ أكتوبر ٦ - نوفمبر: بنى حسن
: محصول ضخيم من الرسومات .
١٦ نوفمبر لنهره .

١٩ - ٢٦ نوفمبر : طيبة (" كنت
أعدو من روعة إلى روعة أخرى ")
رامسيوم الأقصر وبها المسلتان من
الجرانيت الأحمر ، الكرنك وبهو الأعمدة
٢٦ نوفمبر - ٤ ديسمبر :
هيرومونيس إسنا - إدفو - كوم أمبوم
(أمبوس) .

٤ ديسمبر : أسوان : الشلال
الأول إنتقال الحملة إلى مراكب أقل
وزناً .

٥ ديسمبر : فيلة . أزمة نقرس
حادة تجعل شامبوليون يطلب حمله إلى
المعبد ١٦ - ٢٦ ديسمبر : ديبود ،
كلابشة ، نكا ، أمادا .

٢٦ ديسمبر : أبو سمبل : قدس
أقداس المعبد فى درجة حرارة ٥٢
مئوية .

٢٨ ديسمبر : إلى وادى حلفا :
الفرنسيون والتوسكانيون يتنازعون على
ملكية " لوحة الخلاف " .

٣١ ديسمبر : الرحالة يحتفلون
برأس السنة عند الشلال الثانى :
شامبوليون يكتب لداسييه " من حقى أن
أعلن لكم أنه لا يوجد أى تعديل يجب
إدخاله على خطابنا الخاص بالأبجدية
الهيروغليفية أن أبجديتنا سليمة "

١٨٢٩ أغسطس : إقالة مارتيناك.
بوليناك (متطرف) يعين رئيساً للحكومة
- المعارضة تنور في الصحف .

١٨٢٩ أول يناير : وداع لونيورمان
الذى يعود لفرنسا الأسطول يغير
إتجاهه العمل العلمى يبدأ .

٣ - ١٦ يناير : أبو سمبل: رسم
الحايطيات المنحوتة فى المعبد الكبير
١٦ - ٣١ يناير (ديرى أمادا ،
كلايشة حيث يكتشف شامبوليون "جيلا
آخر من الآلهة" .

٢ - ٧ فبراير : فيلة "اليفانتين"
٧ فبراير - ٨ مارس : كوم أمبو
، إدفو ، إسنا ، طيبة .
مارس - سبتمبر : الإقامة فى
طيبة

٨ - ٢٣ مارس : الضفة الشرقية
الأقصر ومسلتاها ، يحدد شامبوليون
تلك التى يود يراها منصوبة فى
باريس .

٢٣ مارس : الحملة تعبر إلى
الضفة الغربية للنهر وتقيم قيادتها فى
الجرنة - الحفريات غير مجدية الباتة
أبريل - مايو - شامبوليون يحتفل
بعيد ميلاد أبنته (المولودة فى أول
مارس ١٨٢٤) داخل مقبرة سیتی
الأول.

بيان الملوك (وادی الملوك) دراسة
الأشكال والمخطوطات فى المقابر -
يعسكر أعضاء الحملة داخل مقبرة
رمسيس الرابع - شامبوليون بنسخ
ليلاً ونهاراً ، الرحلة النهرية التى

قام بها رمسيس السادس
والمرسوم فى مقبرته .

يونيو - يوليو - الرامسيوم ،
تمثالاً ممنون ، معبد وأطلال مدينة حابو
- أحداث وتوترات داخل الفريق المهرق
- دوشان يرحل إلى فرنسا ريتشى
يلدغه عقرب .

أول أغسطس : عودة إلى الضفة
الشرقية لدراسة الكرنك .

٤ سبتمبر الحملة التوسكانية
الفرنسية تغادر طيبة . جان فرانسوا
يعلم بوفاة يانج (١٥ مايو ١٨٢٩) وهو
فى الطريق كما يبلغ بفشله الثانى فى
أكاديمية المخطوطات والأدب .

١٥ سبتمبر: القاهرة زيارة
إبراهيم باشا ابن محمد على .

٢٠ سبتمبر: إسكندرية ميمو خليفة
دروفتى يستقبل شامبوليون .

٧ أكتوبر يرحل التوسكانيون إلى
ليفورن

أكتوبر - نوفمبر مقابلات مع
محمد على . شامبوليون - يكتب له
مذكرة من أجل الحفاظ على آثار وادى
النيل .

٦ ديسمبر : شامبوليون
وشيروينى يبحران إلى فرنسا على متن
"الاسترولاب" - شامبوليون يحمل معه
أكثر من مائة قطعة من أجل متحف
اللوفر (منها تابوت تاهو وحائطية
سيتى الأول من النحت البارز) والملكة
كاروماما ، الخ) .

٢٣ ديسمبر : "الاسترولاب" فى ميناء هيار .

٢٤ ديسمبر - ٢٣ يناير ١٨٣٠ ،
شامبوليون وشروينى فى الحجر
الصحنى فى طولون .

١٨٣٠ ٢٤ يناير : نهاية الحجر
الصحنى - مقابلة دروفيتى .

٢٦ يناير العودة إلى باريس مروراً
بالجنوب الغربى (ياله من شتاء رهيب)
إنى اتألم منه جداً) (مارسيليا - أكس)
حيث إستقبله ساليه ويشاهد مرة أخرى
بردية سيزوستريس - مونپوليه -
ناربون، كاركاسون وبوردو تولوز حيث
يلتقى من جديد بمدام أديل يرى أخواته
فى فيلفرانش .

٤ مارس عودة : شامبوليون إلى
باريس يقطن مع زوجته وابنته فى شقة
جديدة ٤ شارع فافار يعود لوظيفته
محافظةً للمتحف المصرى فى اللوفر .
٧ مايو ، يتقدم للمرة الثالثة
وينتخب فى أكاديمية المخطوطات
والآداب .

١٥ مايو زيارة أخيرة لفورييه الذى
توفى فى اليوم التالى .

٢٧ - ٢٩ يوليو شامبوليون بقلبه
مع المتمردين ولكن متحفه الذى جرى
إقتحامه فى عملية الإستيلاء على اللوفر
تحدث فيه عدة عمليات سلب ونهب .

١٨٣٠ ، ٥ يوليو الإستيلاء على
مدينة الجزائر

٢٧ - ٢٩ يوليو : ثورة يوليو "
الثلاثة أيام المجيدة" .

٣١ يوليو : تنازل شارل العاشر
عن العرش

٧ أغسطس : لويس فيليب دوق
نورليان يصبح ملك الفرنسيين .

ديسمبر محاكمة وزراء شارل
العاشر (بولينياك) فى عهدة وزارة
لافيت .

٦ أكتوبر رسالة من روسيليني
تحثه على الإسراع فى نشر أعمال
اللجنة الفرنسية التوسكانية التى يود
الجران دون بشوق رؤيتها منشورة إلا
أن شامبليون يعطى أولوية للإنتهاء من
كتاب "القواعد".

١٨٣١

١٢ مارس : الملك لويس فيليب
يؤسس من أجل شامبليون قسم
(كرسى) للآثار المصرية فى الكولاج دو
فرانس

١٠ مايو : شامبليون يفتتح
سلسلة محاضراته .

٢٣ ، ٢٦ مايو يلقي محاضرتين
فى الكولاج دو فرانس .

نهاية مايو : روسيليني يصل إلى
باريس ليحدد مع شامبليون كيفية
النشر المشترك لكتاب "أثار مصر
والنوبة" ولكن ستظهر بعد وفاة
شامبليون طبعتان منفصلتان فرنسية
 وإيطالية .

أغسطس : شامبليون يسافر إلى
فيجاك ليسترد صحته إلى جوار
شقيقاته يرى مدام أديل ويعمل فى كتاب
"القواعد".

نوفمبر : العودة إلى باريس .

٥ ديسمبر شامبليون يعود إلى
إلقاء محاضراته فى الكولاج دو فرانس .

١٨٣١ - ١٣ مارس : وزارة

كازيمير بيريه

١٨٣٢ مارس ، وباء الكوليرا يصل
إلى باريس وفاة كازمير بيريه .

١٣ ديسمبر : لم يتكمن من
الإنهاء من إلقاء محاضراته - لن يعود
أبداً إلى الكولاج دوفرانس .

١٨٣٢ يناير : لم يعد شامبوليون
يترك غرفته في شارع فافار - معاونوه
وأصدقائه يأتون لزيارته كثيراً .

٤ يناير روسيليني يؤكد له في
رسالة ولائه له الذي لا يهتز .

١٢ يناير أثناء لقاء مع بيو ، يقع
صاحب الكشف نصف مشلول
سيستعيد بعضاً من صحته للعمل مع
أخيه في تنقيح كتاب "قواعد اللغة
المصرية" وهي بمثابة "بطاقة زيارة
يتركها للأجيال التالية" والتي سينشرها
شامبوليون فيجاك مع "قاموسه" بعد
وفاته.

نهاية فبراير : يدخل شامبوليون
مرة جديدة في شبه - كوما يطلب من
أخيه أن يدفن في مقابر الأب لاشاز
فوريه .

٣ مارس : يحصل على المسح
بالذيت المقدس الأخير .

٤ مارس : يتوفى في الفجر .

المؤلفات

أهم أعمال شامبوليون الصغير

لا نذكر هنا لا الدراسات ولا المقالات التى كتبها شامبوليون فى الماجازان انسيكلوبيديك ، البولتان (وفيروساك (نشرة الفيروساك) ولا ليزانال دوليزار (جوليات مقاطعة الإيزار) والدوريات الأخرى ولا مقدماته وكتاباتة الصغيرة ولا كتاباته السياسية . يمكن الرجوع إلى قائمة مؤلفات صاحب الكشف الكاملة المنشورة فى النسخة الألمانية لسيرته التى كتبتها هارتلوبان (برلين ١٩٠٦) ، كما توجد سيرة أخرى ألفها سيمور دوريتشى ظهرت فى Recueil Champollion (باريس شامبيون ١٩٢٢) .

* "خطبة إفتتاح دروس التاريخ أمام أكاديمية جرونوبل" ، جرونوبل بيرونار ١٨١٠ ، قطع كوارتو .

* "مقدمة (نشر منفصل) لمصر فى عهد الفراعنة" ، قطع ثمانى أوكتافو - ١٧ صفحة ، جرونوبل ، ح - ب بيرونار ، ١٨١١ ، ٦٧ صفحة .

* مصر فى عهد الفراعنة أو بحث فى الجغرافيا والدين واللغة والكتابات وتاريخ مصر قبل غزو قمبيز وصف جغرافى ، باريس نوبور يوليو ١٨١٤ ، جزئان ٣٦ + ٣٧٩ و ٤٣٧ صفحة وخريطة .

* "عن الكتابة الهيرواطبيقية عند قدماء المصريين" ، جرونوبل ، الأخوة باراتيه ١٨٢١ ، قطع كبير ٧ صفحات و ٧ لوح بالليتوجرافيا .

* "رسائل إلى السيد محرر الروفو انسيكلوبيديك حول خريطة أبراج (زودياك) دندره" فى الروفو انسيكلوبيديك الجزء الخامس عشر ، ١٨٢٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٩ - ثم نشر منفصلاً فى باريس لانوا ، ١٨٢٢ ، وكتافو ٨ ص .

* "رسالة إلى مسيو داسيه ، السكرتير الدائم للأكاديمية الملكية للمخطوطات والأداب خاصة بأبجدية الهيروغليفيات الصوتية التى استخدمها المصريون لكتابة الأسماء وكتابات الملوك الأغريق والرومان" باريس ، ديبو (أكتوبر) ١٨٢٢ ، أوكتافو ٥٢ ص ٤ لوح الليثوغرافيات .

* "البانتيون المصري" ، مجموعة الشخصيات الاسطورية (الميثولوجية) لمصر القديمة كما جاءت فى الآثار مع نص بالشرح السيد ج - ف - شامبوليون الصغير والصور من رسم ل.ح.ج دويوا "باريس" ، ديدو ، ١٨٢٣ ، ١٨٢٥ ، ١٥٠ دفعة ، كوارتوا "ملخص المنظومة الهيروغليفية لقدماء المصريين أو أبحاث فى العناصر الأولية لهذه الكتابة المقدسة وفى تشكيلاتها المختلفة وعلى علاقات هذه المنظومة وأنظمة الكتابة المصرية الأخرى" وبالإضافة إلى مجلد اللوح باريس ١٨٢٤ ، تروتال ووتر .

"ملخص المنظومة الهيروغليفية ... الطبعة الثانية نقحها المؤلف أضاف إليها" رسالة إلى مسيو داسييه عن الأبجدية الهيروغليفية الصوتية التى استخدمها المصريون على معابدهم الراجعة إلى العصر الإغريقى والعصر الرومانى "باريس ، المطبعة الملكية ١٨٢٨ ، مجلدان أو كتافو ٢٤ ص - مقدمة ٤٦٨ ، ٤٨ ص و ٥٢ لوحة رسم بالليثوغرافيا .

* "رسائل إلى السيد الدوق دوبلاكاس دوليس من المتحف الملكى المصرى فى تورينو الرسالة الأولى ، الآثار التاريخية" ، باريس ديدو ١٨٢٤ ، أوكتافو ١٠٩ ص ، ولوح ٣٠

* رسائل إلى السيد الدوق دوبلاكاس دوليس .. الرسالة الثانية تابع الآثار التاريخية" ، باريس ديدو ١٨٢٦ أو كتافو ١٦٧ ص ، ولوح ٤ - ٨ و ٨ مكرر ، ٩ - ١٥ .

* "رسائل إلى السيد الدوق دوبلاكاس عن المنظومة الهيروغليفية الجديدة للسيد سبوهن وسيفارت" ، فلورنسا ، ح بياتى ١٨٢٦ أوكتافو ٢٣ ص طبعه مستقلة ، باريس فان ١٨٢٦ أو كتافو ٢٣ ص .

* "مذكرة وصفة للآثار المصرية فى متحف شارل العاشر القسم الثانى" ، باريس ، كرابوليه ، ١٨٢٧ ، قطع ١٢ ، ٨ + ١٦٦ ص .

أعمال نشرت بعد وفاته على يد أخيه

* "رسائل من مصر والنوبة عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩" باريس ، فيرمان ديدو ١٨٣٣ ، أوكتافو ١٦ + ٤٧٢ ص و ٧ لوح بالليثوغرافيا .

* "رسائل من مصر والنوبة عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩" طبعة جديدة ديدويه ، ١٨٦٨ أوكتافو ٢ + ٣٩٧ ، ٣ لوح وخريطة واحدة (طبعة نشرت تحت إشراف إبنته زورابيا

شبرونيه - شامبوليون) آثار مصر والنوبة منقولة عن الرسومات التي تمت على الطبيعة تحت إشراف شامبوليون الصغير والأوصاف المحررة بيده عليها" ، باريس فيرمان ديديو ١٨٣٥ - ١٨٤٥ ، ٤ مجلدات قطع كامل ٥٠٧ لوحة .

* "قواعد اللغة المصرية أو المبادئ العامة للغة المقدسة المصرية مطبقة على لغة الحديث" .. نشرت عن المخطوط اليبوسى بأمر من مسيو جيزو وزير التعليم العام وباريس ، فيرمان - ديديو ١٨٣٦ قطع كامل ٨ ، ٣٣ + ٥٥٥ ص .

* "القاموس المصرى بالخط الهيروغليفى ينشرها من المخطوطات بيد المؤلف وتحت رعاية مسيو فيلومان ، شقيقه مسيو شامبوليون فيجاك" ، باريس ، فيرمان ديديو ، ١٨٤١ ، فوليو ، ٣٦ + ٤٨٧ ص بخط اليد .

طبعات وإعادة طبعات أخرى

* "رسائل شامبوليون الصغير جمعتها وعلقت عليها هـ هارتلويان" مكتبة المصريين : نشرت تحت إدارة حـ ، ماسبيرو

- المجلد ١ : "رسائل مكتوبة من إيطاليا ، باريس لورو ١٩٠٩ ، أوكتافو ٩ + ٤٤٥ ص وصور شخصية .

- المجلد ٢ : رسائل ويوميات حررت خلال الرحلة إلى مصر" ، باريس لورو ، ١٩٠٩ أوكتافو ٧ + ٤٩٠ ص صورتان .

* "رسائل شامبوليون الصغير جمعتها وعلقت عليها هـ هارتلويان إعادة طبع س بورجوا (١٩٨٦) .

* "جان فرانسوا شامبوليون" ، "رسائل إلى زمير" قدمت لها إيداً بريشيانى ، أستاذة بجامعة بيزا ، مقدمة لجان لوكلان عضو الانسييتو ، الناشر لازياتاك ، لم تنشر من قبل باريس ١٩٧٨ .

* جان فرانسوا شامبوليون ، "رسائل إلى أخيه ١٨٠٤ - ١٨١٨" تقديم ب. فابان، مقدمة جان لوكلان ، عضو الانسييتو الناشر لازياتاك لم تنشر قبل ١٩٨٤ .

* "قواعد اللغة المصرية" .. إعادة طبع ، صورة طبق الأصل من الطبعة الأصلية الصادرة عام ١٨٣٦ ، معهد الشرق (ميشيل سيدهم) مقدمة كريستيان زيغلر باريس ، ١٩٨٤ .

* "البانتيون المصري" إعادة طبع صورة طبق الأصل للطبعة ١٨٢٤ / ١٨٢٥
الأصلية الناشر بارسيا ، باريس ١٩٨٦ .

المخطوطات

أوراق العمل والمخطوطات اليدوية ورسومات جان فرانسوا شامبوليون التي إقتنتها الدولة بعد وفاته محفوظة في قسم المحفوظات بالمكتبة الوطنية . هذه المستندات جمعت في ٨٨ مجلداً مرقمة من ٢٠,٣٠٣ حتى ٢٠,٣٩٠ تشتمل على المخطوطات اليدوية للجزء الأكبر من أعماله المنشورة والتي لم تنشر بعد "أوراقه الخاصة بحل شفره المنظومة الهيروغليفية ودراسة الطرق الثلاثة للكتابة المصرية وأعماله عن تاريخ المصريين وحياتهم المدنية اليومية ومبانيهم ، وديانتهم (بانتيون) دراساته عن المتحف المصري في تورينو) رسائل إلى الدوق (الويلاكاس) ومذكراته ويوميات رحلته إلى مصر أعماله الخارجة عن نطاق مصر- إلخ .. جزء آخر من مراسلاته محفوظ في قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية تحت أرقام مختلفة .

من جهة أخرى فإن الرسائل العديدة جداً التي أرسلها لأخيه منذ طفولته حتى وفاته بقيت لدى أسرة هذا الأخير. هذه الرسائل تعتبر المصدر الرئيسي للمعلومات المتاحة عن حياته وأعمال ومعارك والرحلات إلى إيطاليا ومصر لصاحب اكتشاف أسرار الهيروغليفية وهي كلها مدموجة- مع كميات من المذكرات والملاحظات والأوراق التي لم يسبق نشرها ورسومات طراحية- في الأربع وستين مجلداً التي يتكون منها الأرشفة العائلي التي يحتفظ به في دارهم في فيف بالقرب من جرونوبل. الأحفاد الحاليون لشامبوليون فيچاك مسيو ومدام شاتومينا وقد أودعت صور ميكروفيلمية لهذه المستندات في المكتبة البلدية للدراسات التابعة لمدينة جرونوبل .

أعمال شامبوليون فيچاك الخاصة بمصر

رسالة عن مخطوط يوناني في معبد دندره إلى مسيو فورييه محافظ الإيزار جرونوبل ، بيرواز ، ١٨٠٦ أو كتافو ١٨ ص + لوحة .

* "حوليات اللاجيد" (البطالسة) أو "المسلسل التاريخي للوك مصر الإغريقية خلفاء الإسكندر الأكبر" ، باريس فاندج ، ١٨١٩ مجلدان أو كتافو مع لوح ، ووت

اليشاين (حصل على جائزة لاتستيتو ١٨١٨) .

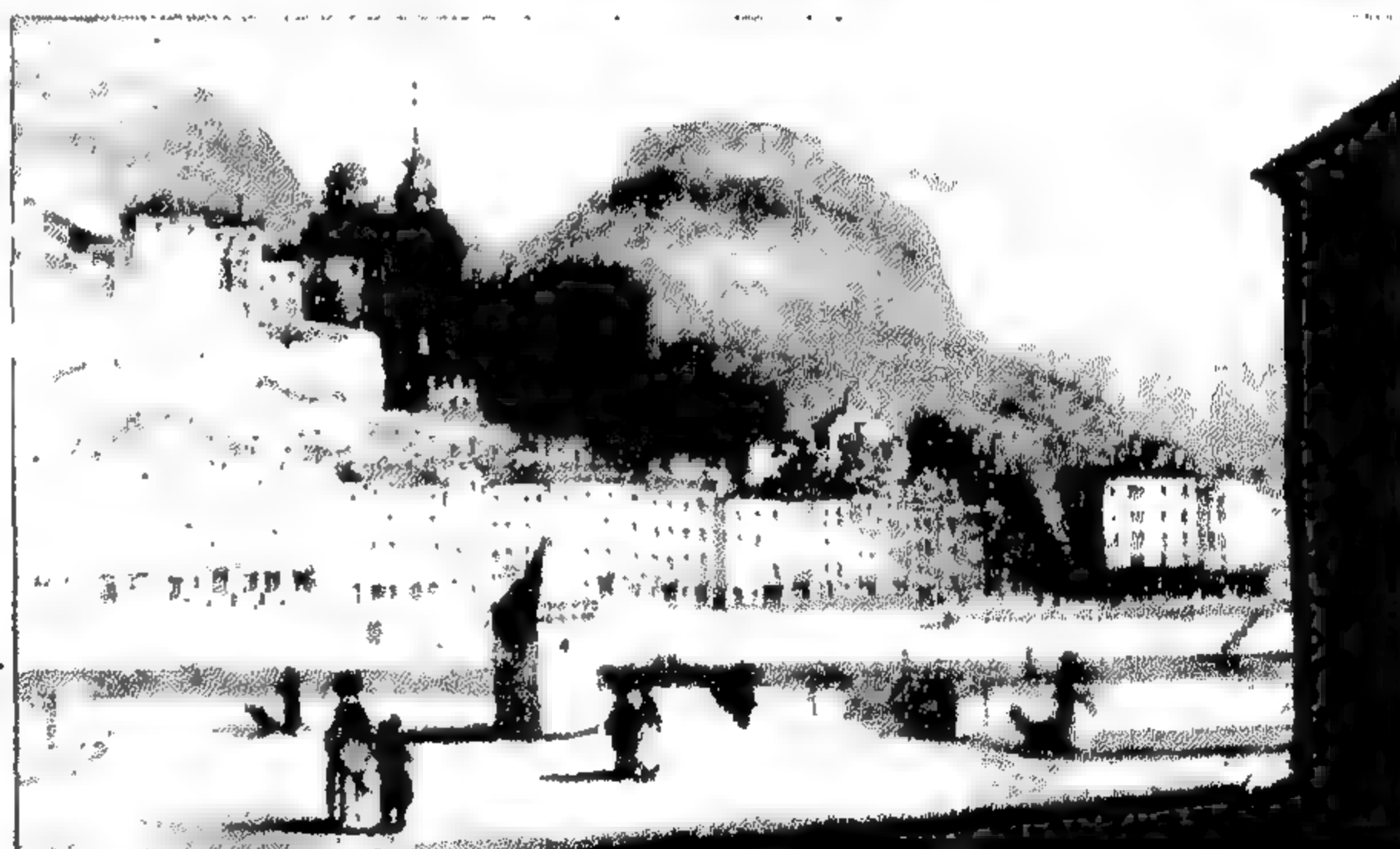
* سلسلة الأقصر المنقولة إلى باريس منكرة تاريخية وصفية وأثرية عن الأثر
بقلم شامبوليون فيچاك ، مع رسم للمسلة وتفسير للمخطوطات الهيروغليفية كما
رسمها وطبقاً للمذكرات المكتوبة بخط يد شامبوليون الصغير " ، باريس ديئو ، ١٨٣٣
أوكتافو ، ٩ + ٩٢ ص ولوختان مصر القديمة ، باريس ، ديئو ، ١٨٣٩ ، أوكتاتو ٥٠٠
ص مجموعة العالم المصور .

* "فورييه ونابوليون : مصر والمائة يوم ، مذكرات ومستندات لم يصبق نشرها"
باريس ، ديئو ١٨٤٤ ، أوكتافو مع لوحة واحدة و ٣٧١ ص .

“ أخ وأستاذ وأب ” : چاك چوزيف
شامپوليون - فيچاك فى بداية القرن
التاسع عشر عندما كان موجهاً لأخيه .



إلى أعلى (يمين) المنزل الذى
ولد فيه چان- فرانسوا وحرارة
لابروسكوى فى مدينة فيچاك .



جرونويل فى القرن التاسع
عشر - مشهد من شاطئ الإيزار .



منزل الأسرة فى فيف عند سفح
جبل بالدون. كان ضمن "نوطه"
زوييه عند زواجها بچاك چوزيف
شامپوليون - فيچاك .

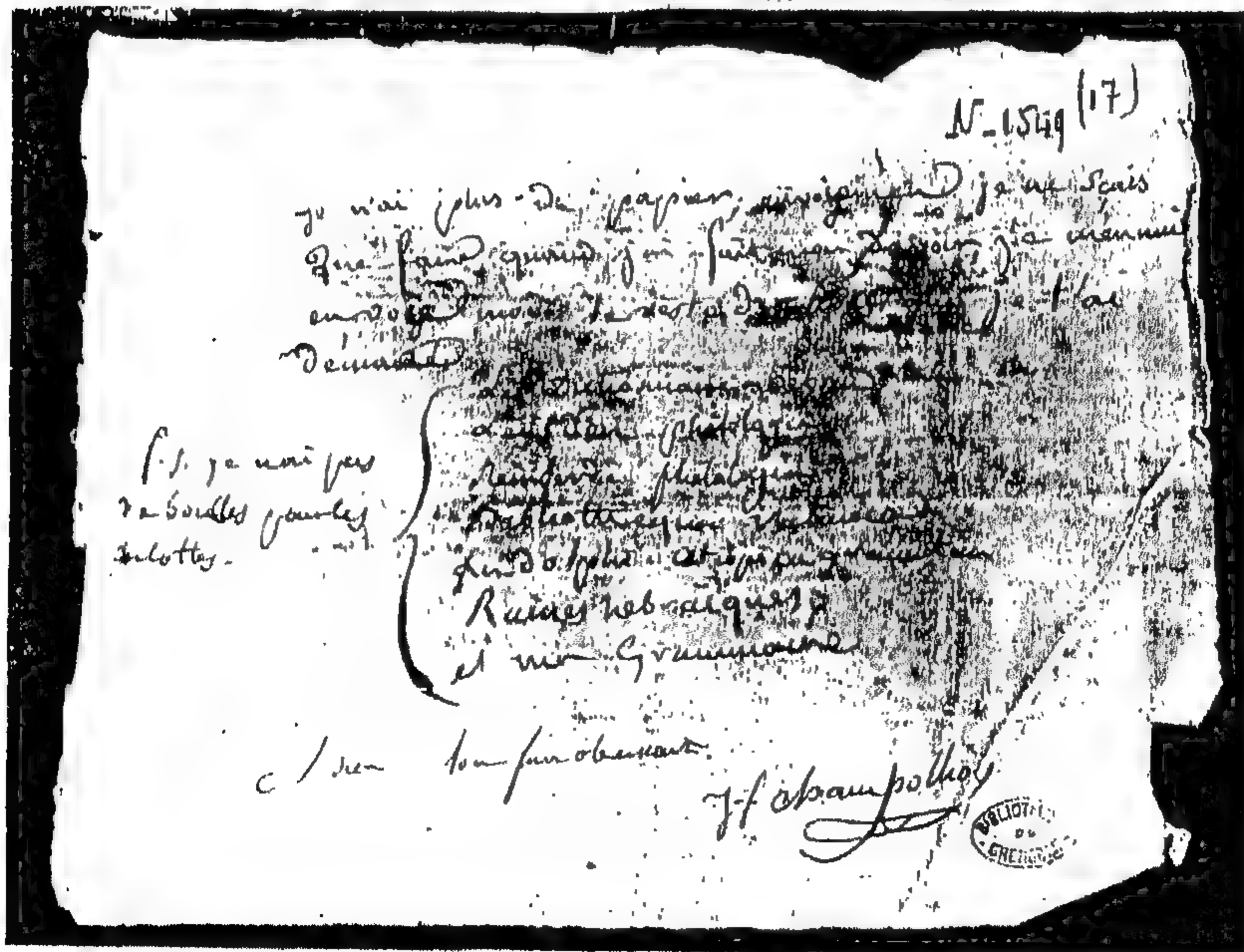


رسم كروكي بيد التلميذ جان-فرانسوا
(لعله كان لأحد مدرسيه).



شغب "يوم التويلوري" أمام مدرسة الآباء
اليسوعيين (الچيزويت) التي ستتحوّل
إلى المدرسة المركزية ، الليسيه
الامبريالي ، الذي التحق به جان
فرانسوا في نوفمبر ١٨٠٤ - وهو الآن
ليسيه - ستاندال .

خطاب من التلميذ جان - فرانسوا
لشقيقه جاك جوزيف يطالبه فيه
بتموين من الورق وذاير لسراويله وكتاب
"قواعد عبرية" وكتابه "القواعد".

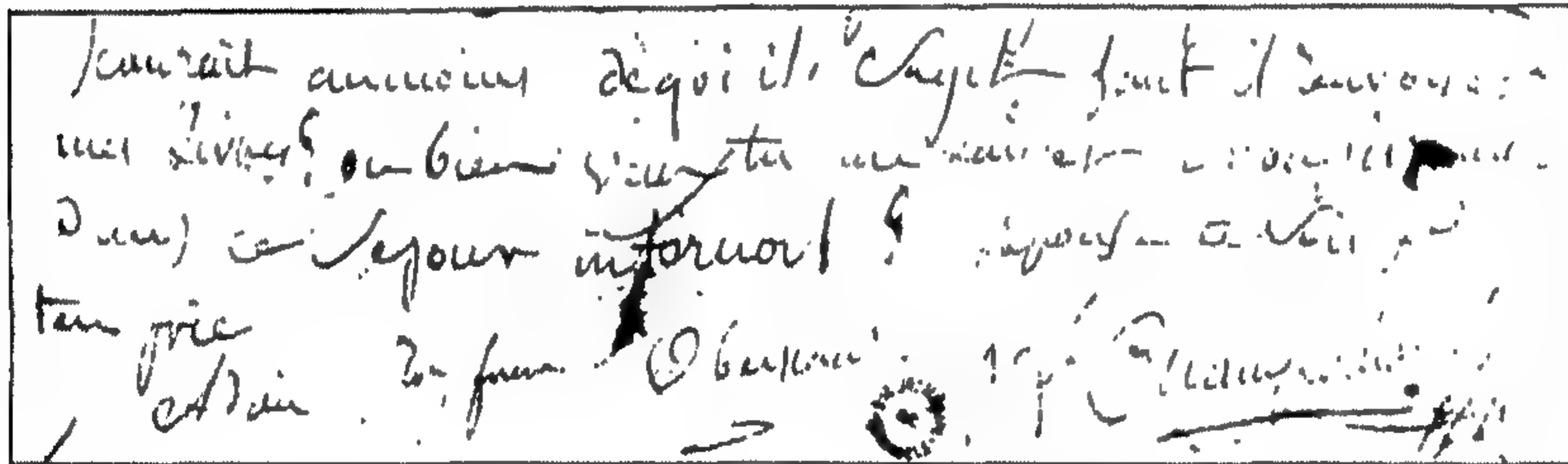


جان فرانسوا شامبوليون وهو فى سن
العشرين وقد أصبح أستاذ جامعة فى
جامعة جرونوبل.



أحد ندائات جان فرانسوا لأخيه الأكبر
جاك - جوزيف طالباً النجدة طالباً فيه
بانتزاعه من "هذا الجحيم" الذى هو
مدرسة الليسيه - والتى وصفها فى
مكان آخر بأنها "مغوى الموت".

سيلفاستر نو ساسى المعلم
الأشهر والخائن عند اللزوم...



المكتبة الإمبريالية - ثم الملكية - ثم
الوطنية حيث عمل الشقيقان شامبوليون.



اللجنة العلمية التي أرسلها
بونابارت إلى صعيد مصر في
حشد كبير وبالزى العسكرى .



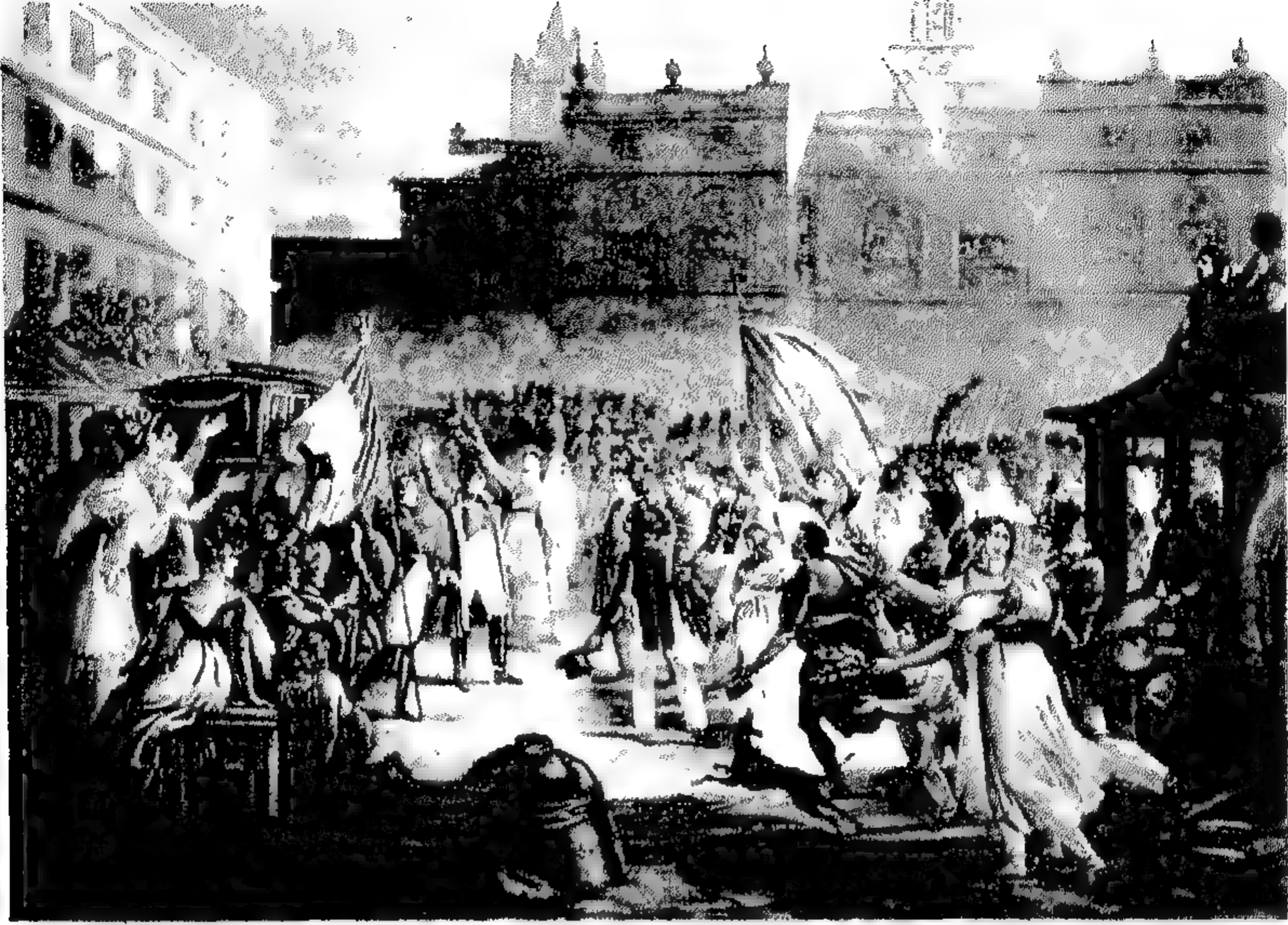
جوزيف فورييه من علماء الفيزياء
المشهورين رفيق بونابارت في مصر ،
صاحب مقدمة كتاب "وصف مصر"
محافظ مقاطعة الإيزار وصديق الشقيقين
شامبوليون - وكثيراً ما كان واحداً من
الذين شملوهما بالرعاية .



أدم جومار - عالم الجغرافيا - المستول
عن إصدار كتاب "وصف مصر" . إنه لم
يتقبل قط أن يكون جان - فرانسوا
شامبوليون متفوقاً عليه .



صفحة غلاف كتاب "وصف مصر" .
ينبه الرسم أن الحملة كانت عسكرية قبل
أن تكون علمية .



نابوليون ، بعد هروبه من جزيرة إلبا يعلن في مدينة جرونوبل "الإمبراطورية الجديدة" في حضور أفراد الشعب ومنهم الشقيقان شامبليون.



البارون روسان محافظ مقاطعة الإيزار لدى عودة الملكية وكان مناهضاً شرساً لجان-فرانسوا شامبليون (روبسبير مدينة جرونوبل) ثم أصبح وزيراً للبحرية وكُلف بنقل مسلة الأقصر إلى باريس .



بون-جوزيف داسييه السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والآداب ، الذي وجه له جان-فرانسوا شامبليون "رسالته" المشهورة وكان ملهما وراعيا



قاعة المائيل الملكية في متحف تورينو
التي جعلت جان- فرانسوا شامبوليون
يصرح قائلًا إنه شيء مدهش

إيمبوليتو روسيليني ابن مدينة بيز
تلميذ جان- فرانسوا شامبوليون ورفيق
رحلته وصديقه ومعاون



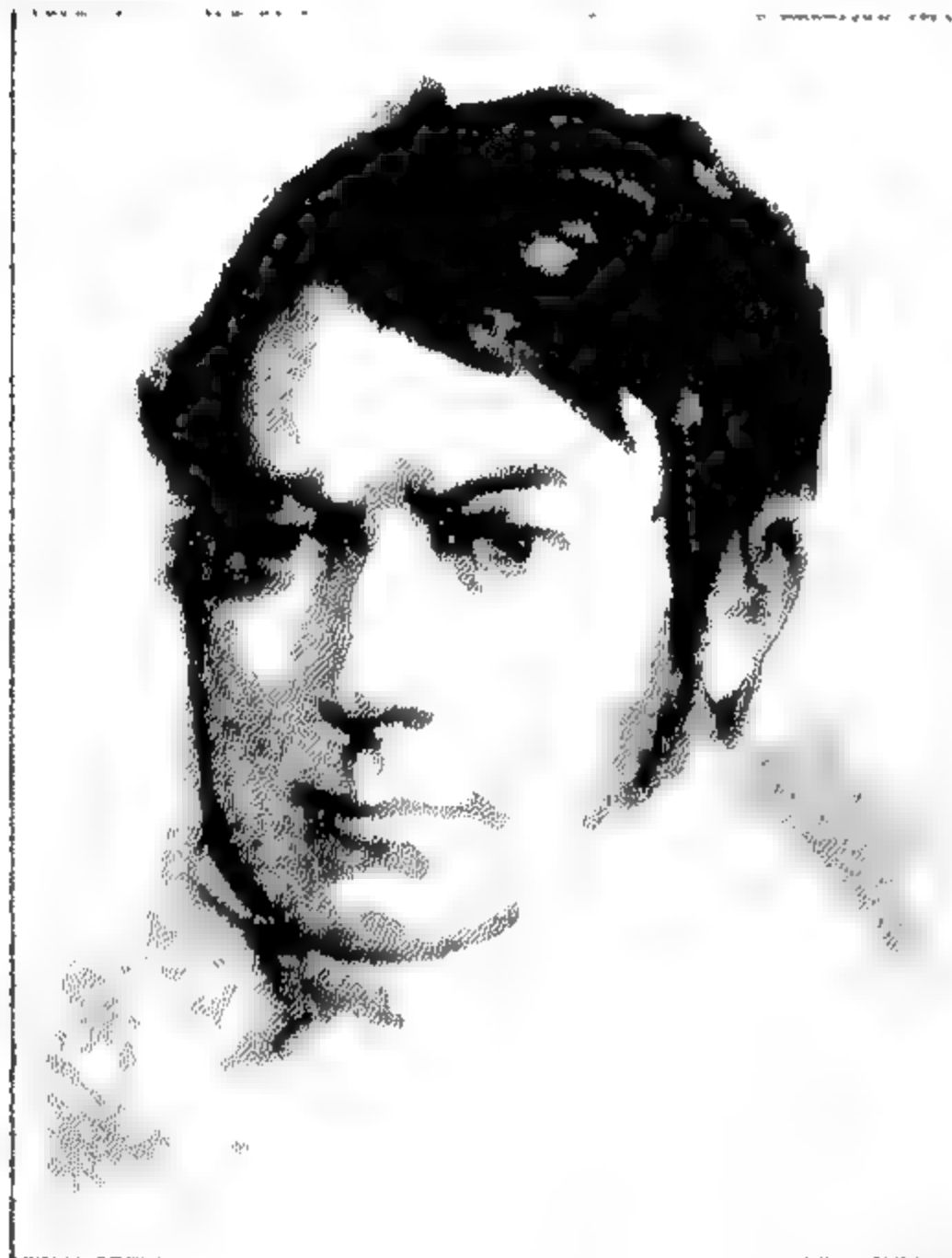
أنجيكا بالي شاعرة مدينة ليفورنو التي
كان يرأسها شامبوليون وقد أحبها ،
وكان حياً من جانب واحد وظهورت هذه
لرسائل في كتاب بعنوان "خطابات إلى
زيلمير"

صورة لأعضاء اللجنة الفرنسية
التوسكانية رسمت لزملائه الرسام
الإيطالي إنجيلي في مصر- شامبوليون
(جالس وهو يلتحي ويظهر السيف الذي
أهداه له محمد علي معقاً حول وسطه)
والى يمينه يظهر روسيليني وقفاً ورأسه
عارياً





صورة مأخوذة من كتاب "وصف مصر"
المسلتان عند مدخل معبد الأقصر .
التي على اليمين هي التي اختارها
شامبليون لكي يزين بها "أحد ميادين
باريس" .



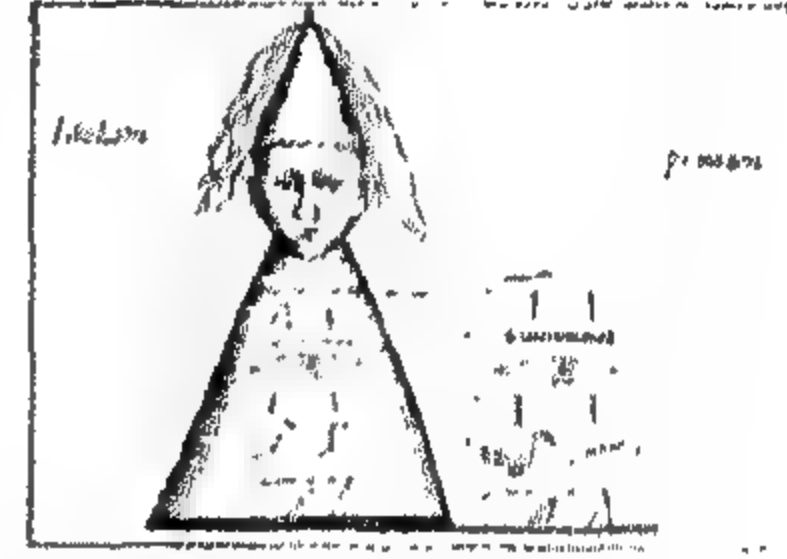
صورة لشامبليون وقد ظهرت على
ملامحه آثار التجارب القاسية التي مرَّ
بها ، ولعلها رسمت له في المرحلة التي
تلت عودته من مصر (١٨٢٩) وقبل وفاته
(١٨٣٢) .



مذكرات ورسومات خطها صاحب
الكشف خلال رحلته في مصر والتي
رأس خلالها اللجنة الفرنسية التوسكانية
المشتركة.

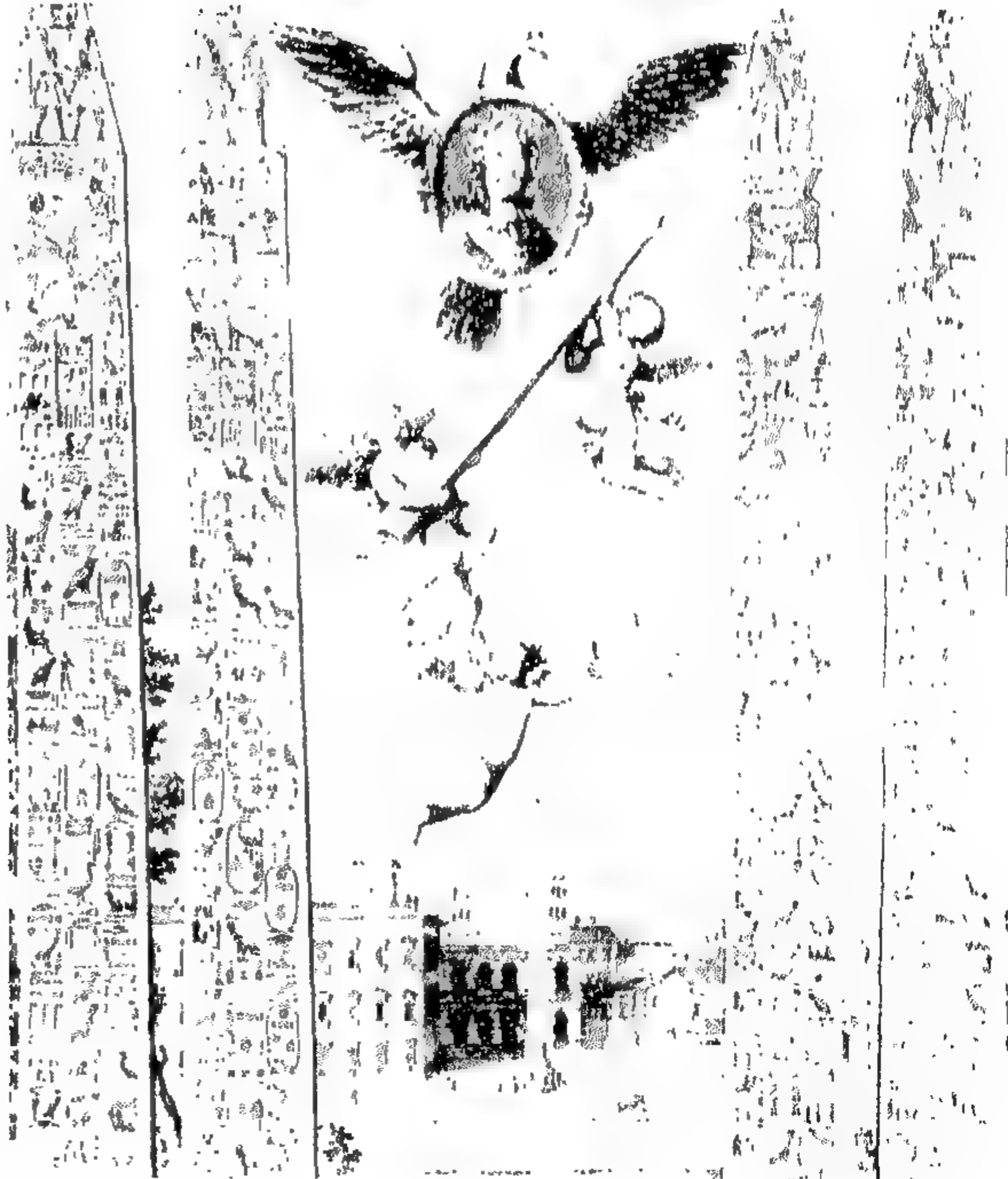


أعطى الأب أنثاس كيرشار في القرن السابع عشر تفسيراً غريباً للهيرغليفيات في كتابه "أوديب المصري" OEdipus Aegyptiacus (١٦٥٢) إلا أنه وجه مجهودات حل الشفرة في الإتجاه الصحيح وذلك بأنه طرح الفكرة المبدئية أن اللغة القبطية هي لغة المصريين القدماء .



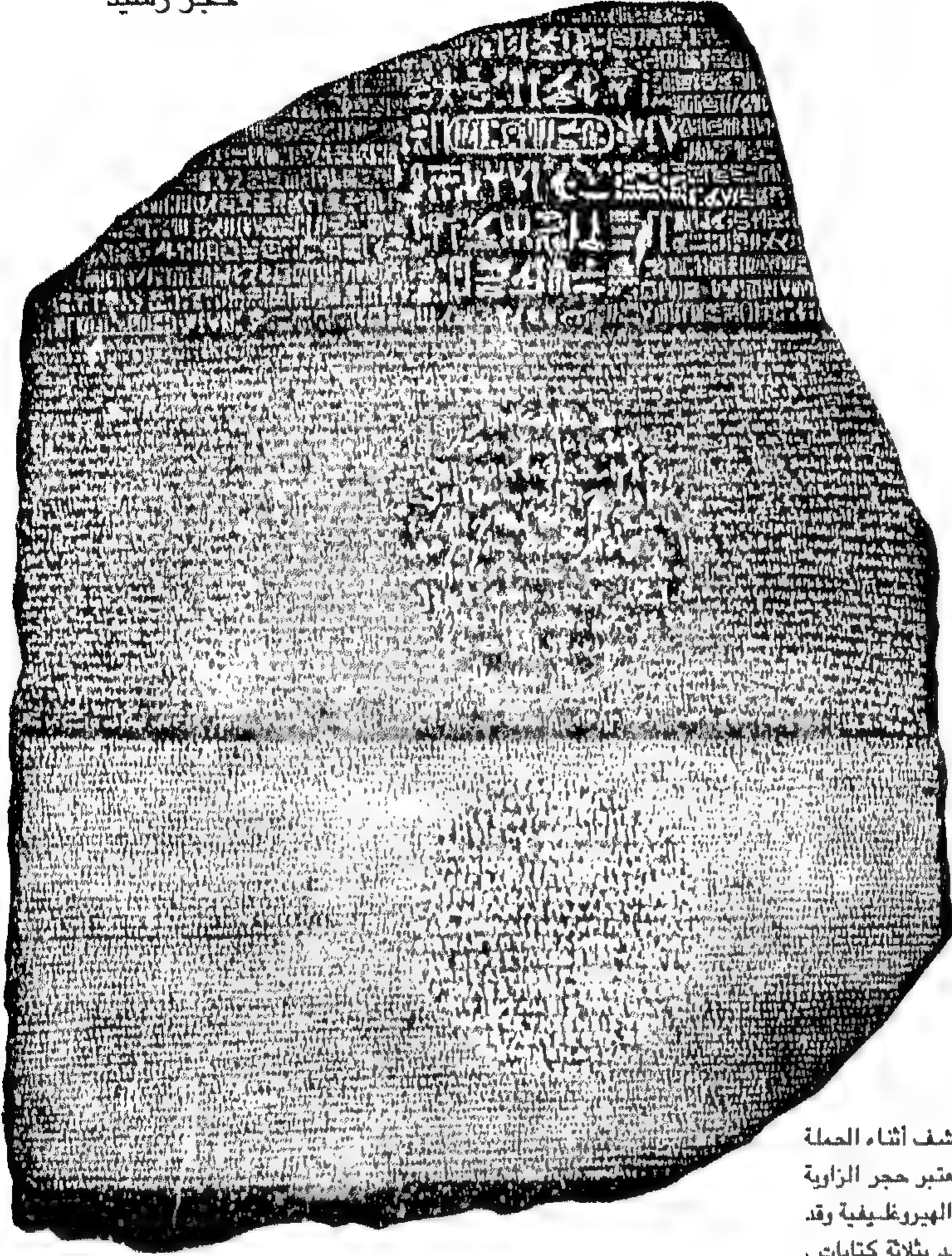
صورة منقولة عن كتاب "أوديب المصري".

كان كيرشار يدرس الرسومات الهيرغليفية المحفورة على المسلات المصرية المقامة في ميادين مدينة روما وهي المسلات التي جلبها الإمبراطور الروماني أغسطس ومن خلفوه إلى روما. ظلت هذه المسلات ولفترة طويلة الآثار المصرية الوحيدة الموجودة في أوروبا وقد خصها العالم الدانماركي رويجا (١٧٥٥ - ١٨٠٩) بدراسة هامة قام شامبوليون ببحثها بحثاً مستفيضاً



مسلة تحوتعوس الرابع المقامة في ميدان سان-جان اللاتراني في روما .

حجر رشيد



حجر رشيد الذي اكتشف أثناء الحملة الفرنسية على مصر يعتبر حجر الزاوية في عملية حل الشفرة الهيروغليفية وقد حُفرت عليها (نص واحد بثلاثة كتابات : إثنان باللغة المصرية (بكتابتين مختلفتين) والكتابة الثالثة باللغة اليونانية (وهي لغة معروفة) .

إلى أعلى : النص مكتوباً بالهيروغليفية وقد فقد جزء كبير منه ، في المنتصف .
النص بالكتابة الديموطيقية أو الخط الشعبي المتصل .

أسفل : النص اليوناني وفي داخل الدوائر تكبير لكل خط منهم ويمكن ملاحظة خرطوش اسم بطليموس في النص المكتوب بالهيروغليفية



توماس يانج



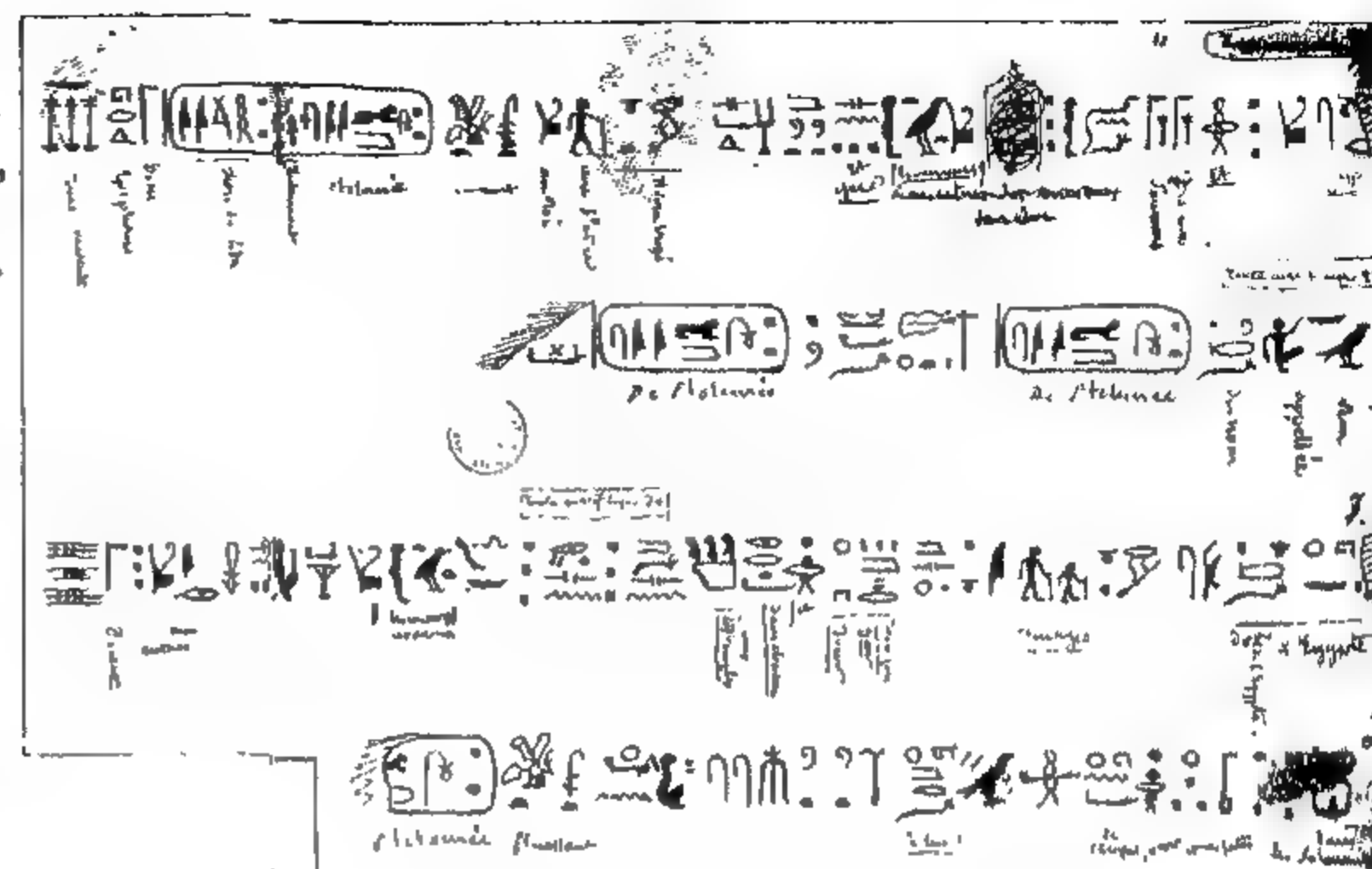
كان الإنجليزي توماس يانج (١٧٧٣ - ١٨٢٩) عالماً مشهوراً في علوم الطبيعة والطب وكان أعظم منافس لشارليز داروين ، ولما كان يمارس هواية البحث في علم اللغويات في أوقات فراغه فقد أخذ يتعامل مع حجر رشيد عام ١٨١٤ ، وقد توصل بسرعة إلى نتائج مبهره وذلك باستخدامه وسائل حسابية وبالجوء إلى مقارنات مادية بين النصوص .

المقال المطول الذي نشره يانج تحت عنوان "مصر" في الإنسكلوبيديا بريتانيكا عام ١٨١٩ وهو يعتبر استيفاءاً لأبحاثه . إستشف يانج من هذه الأبحاث وجود هيروغليفيات فونيتيكية أطلق عليها اسم "أصوات" (sounds) كما أنه أدرك تكامل المنظومة الهيروغليفية إلا أنه توقف في منتصف الطريق دون أن يتوصل إلى كشف المبدأ العام الذي تقوم عليه هذه المنظومة .

K. SOUNDS ?					
205 Δερε	/4	210 KE, KH		215 π	
206 Δip		211 α, αα		216 q	
207 ε		212 N		217 τ	
208 ENE		213 OΛE		218 ω	
209 i		214 OΛ, DC			

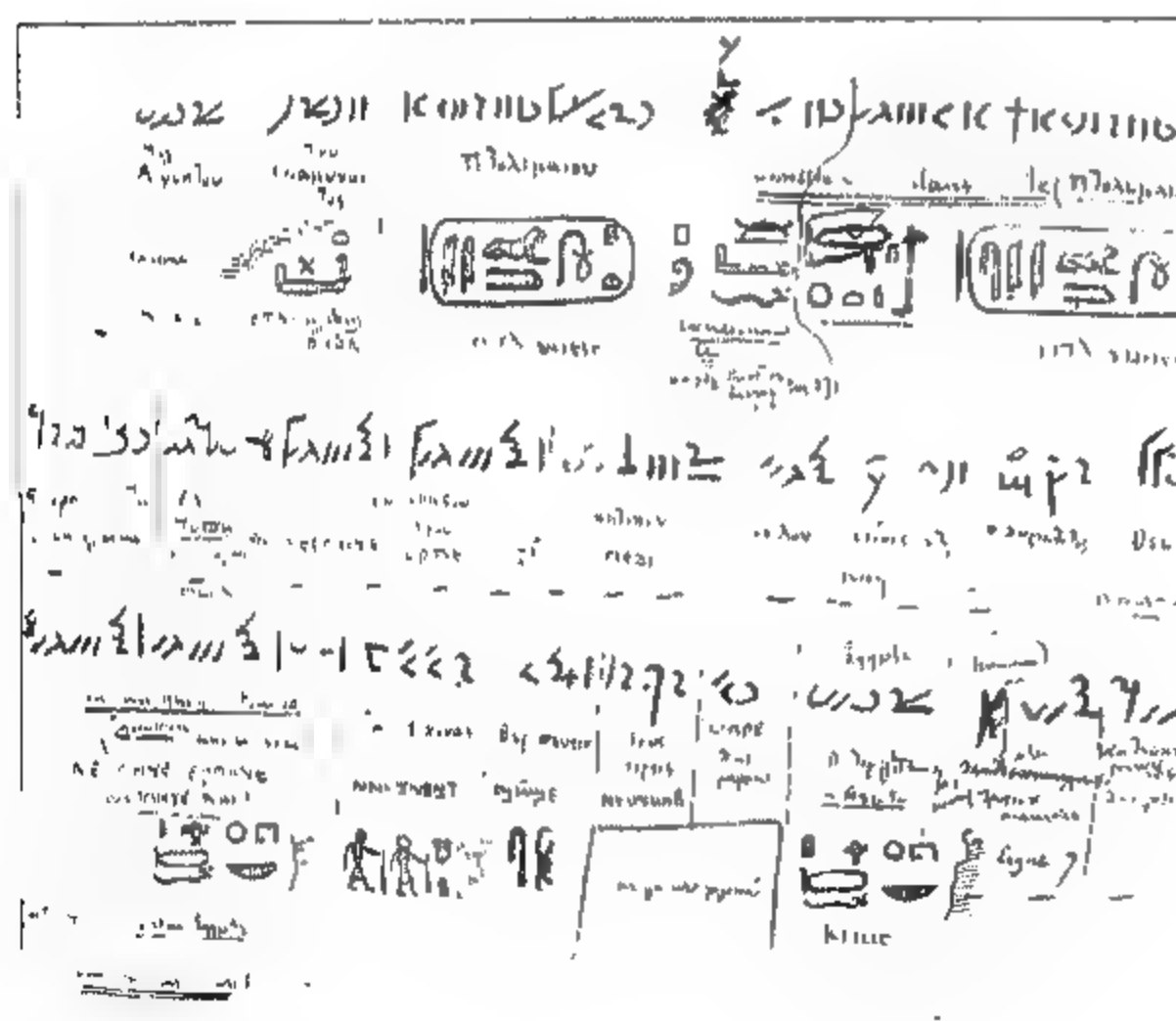


صاحب الكشف عند
وصوله إلى اكتشافه
صورة زيتية رسمتها له
مدام رومبيس عام ١٨٧٢



إلى أسفل شامبوليون أثبت في كتابه
عن الخط الهيروغليفى أن رسومات هذا
الخط المفصل ليست سوى تمسيحا
لرسومات الهيروغليفية

أول خط هو شامبوليون على طريقه
اشتهر الهيروغليفية عام ١٨٢٢ وهو صاحب
في باريس عام ١٨٢٨ وبعث رسالة
رسالة فيكتور ريشو، ساعدته في ذلك
إلى أن بدأ خطه في باريس على يد
لقد اكتشف الهيروغليفية وبدأ يفسر
في صحيفة كتابه هذه البروف
في عام ١٨٢٨ في باريس
أصبح من الخطوط الهيروغليفية
هيروغليفية في عام ١٨٢٨





حاول يانج وشامبوليون - كل منهما من
تأحيته - إعطاء قيمة فونيتيكية (صوتية)
للمرسومات الهيروغليفية للخرطوش
المنحوت داخل اسم بطليموس (إلى
اليسار) وهو يظهر أربع مرات على حجر
رشيد، أما الخرطوش الدال على اسم
كليوباترا (أسفل وعلى اليمين) فقد
سمح لشامبوليون أن يتأكد من سلامة
القراءة وأن يخضع أبجدية أولى تضم ١٢ رسماً :

YOUNG		CHAMPOLLION	
P	□	P	□
T	△	T	△
?	☐	?	☐
OLE	☐	OLE	☐
MA	☐	MA	☐
IouE	☐	IouE	☐
OS	☐	OS	☐

فرضيات يانج وشامبوليون

ثلاثة من الرسومات الهيروغليفية كانت
لها نفس القيمة الصوتية وهي : ب ، او ،
ل في خرطوشين مختلفين



Lettre A M. Dacier, sur les hiéroglyphes phonétiques	
Hiéroglyphes	Alphabète
☐	A
△	B
☐	C
☐	D
☐	E
☐	F
☐	G
☐	H
☐	I
☐	J
☐	K
☐	L
☐	M
☐	N
☐	O
☐	P
☐	Q
☐	R
☐	S
☐	T
☐	U
☐	V
☐	W
☐	X
☐	Y
☐	Z

الخطاب إلى مسيو داسييه "الموقع
بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٨٢٢ - والذي تلى
أمام أكاديمية المخطوطات يعتبر الإعلان
الأول عن مولد علم الدراسات المصرية
القديمة أو الإيجيبتولوجيا"



خرطوش رمسيس (إلى اليسار)
وتحوتمس (إلى اليمين) . إن اسمي
هذين العاهلين - وهما من أسرآت مالكة
مصرية صعيدية - وقد خُطا
بهيروغليفيات أيديوجرافية (تعبّر عن
أفكار) وفونيتية (صوتية) في آن واحد -
كشفا لشامبوليون عن طبيعة الكتابة
المصرية ، أي أنها ترسم أفكاراً تارة ،
وتعبّر عن أصوات لغوية تارة أخرى .



كتاب "إلى مسيوداسية" يتعلق في
الأساس باكتشاف الهيروغليفيات
الصوتية أما المنظومة المتكاملة للكتابة
المصرية القديمة فقد أوردها شامبوليون
في طبعتي كتابه "المفهم" (عامي
١٨٢٤ ، ١٨٢٨) وفي كتاب "القواعد" .



Plante du genre
des Colchiques.



Paille.



herbe, foin, fennel



fleur



fleur, nourriture



Epi de blé.



Eau



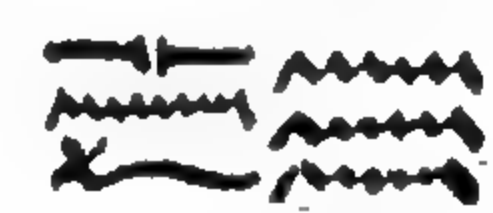
Fontaine



La Mer



source



Sang.

حتى يمكن تعويض الاختلاف في الشكل الإملائي وبالتالي
عدم دقته فإن المصريين : كانوا يصنعون شكلاً تحديدياً
لللمة المكتوبة فونيتيكياً (صوتياً) : مثل زهرة . لوتس -
تشير إلى فكرة السائل والرطوبة .

Ce même es 1° au caractère

figuratif , même dans les textes hiératiques comme

bien et p̄uan ou pouan Grenoble ; 2° /

figuratif accompagnant le nom phonétique comme

cunin . cunin : Lotus ; 3° enfin à de

par des caractères tropiques comme hierat

Ouotoret Les Sources, les sources des Plantes .

F. Divers genres de Reptiles ; (1)



G. Quelques espèces de Poissons ; (2).



H. Des Insectes en fort petit nombre ; (3).



I. Des Végétaux des Fleurs et des Fruits.



J. Des Objets d'Habillemant ou de Costumes (4).



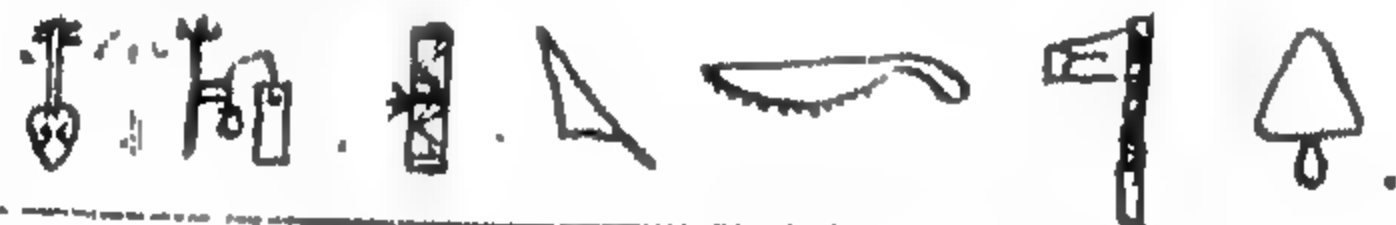
K. Diverses Armes et Insignes divers ; (5)



L. Des Vases et un grand nombre d'Ustensiles (6)



M. Les Instrument de la plupart des Arts et métiers, (7)



- (1) Le lézard, la couleuvre, la grassinelle, les couleuvres, la vipère Mayya, et la couleuvre de.
 (2) Le datus, la depidota, l'oxygynchus etc.
 (3) La scarabée, la scorpion, la mantre, une espèce d'abeille etc.
 (4) Diverses coiffures, un collier, un bracelet, des sandales etc etc.
 (5) un trône, un coffre, un lit funéraire, un arc, une flèche, un trait de scorpion.
 (6) trois ustensiles de cuisine, un vase à brûler l'encens, un brazier, une corbeille, une natte.
 (7) un Thésor, les instruments pour écrire, un vol de papier, un couteau, une scie, une hache, etc.



چاك جوزيف شامبوليون - فيچاك - وقد
 عاش لسنوات عديدة بعد وفاة شقيقه
 الأصغر. تولى نشر أعماله التي لم
 تمهله المنية نشرها وهي: كتاب "أثار
 مصر والنوبة" وكتابه "القاموس المصري"
 - وأخيراً "قواعد اللغة المصرية"



صفحة	فهرس
7	تقديم « ذاب في حب مصر »
13	تمهيد: وميض هائل من نور صامت
53	١ - الحياة في فيچاك في عهد الثورة
79	٢ - أخ ، أم أستاذ ، أم أب ؟
99	٣ - جرونوبل و"مكان إقامة قاتل"
145	٤ - بابل أو متاعب باريس
193	٥ - أستاذ في سن العشرين
237	٦ - الغول وزمور الزنبق
273	٧ - منفي وسط نويه
305	٨ - روبيسبيير جرونوبل
341	٩ - أديب ، من قرن لآخر
365	١٠ - الرائد ذو الورد
385	١١ - " تمكنت من الموضوع ! "
423	١٢ - القضية
441	١٣ - الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو
485	١٤ - إنجيليكا - عزافة توسكانا
517	١٥ - أمين متحف نوتغال من ريج
545	١٦ - ماء النيل
571	١٧ - مصر كتاب مفتوح
603	١٨ - " الموت يتريص بي في بابل "
629	١٩ - فيما بعد ذلك ، حتى طيبة
639	خاتمة : بقلم جان فيدال - الغائب عن المسلة
665	حواشي
673	مراحل حل شفرة الكتابات المصرية
679	علامات تاريخية
703	المؤلفات
709	الصور

المشروع القومي للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مدهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف يتم كتابة السيناريو	انجا كاريتتكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد مقصم وعبد الجليل الأزني وعمر حلي
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إنوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيلى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
١٨ - الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يعنى طريف الخولى / بدوي عبد الفتاح
٢١ - خوذة وألف خوذة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العناني
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصري
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر النيب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مدهو باننيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حمزة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . نيكسون	ت : خليل كلفت

- ٢٦ - نظريات السرد الحديثة والاس مارتن
٢٧ - واحة بسيوة وموسيقاها بريجيت شيفر
٢٨ - نقد الحداثة آلن تورين
٢٩ - الإغريق والحسد بيتر والكوت
٤٠ - قصائد حب أن سكستون
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية بيتر جران
٤٢ - عالم ماك بنجامين بارير
٤٣ - الذهب المزوج أوكتايفيو بات
٤٤ - بعد عدة أصياف آلنوس هكسلي
٤٥ - التراث المغفور روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين
٤٦ - عشرون قصيدة حب بابلو نيرودا
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١) رينيه ويليك
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية فرانسا دوما
٤٩ - الإسلام في البلقان هـ . ت . نوزيس
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير جمال الدين بن الشيخ
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية داريو بيانوييا وخـ . م بينياليستي
٥٢ - العلاج النفسي التدميمي بيتر . ن . ثوفاليس وستيفن . ج .
روجسيفيتز وروجر بيل
٥٣ - الدراما والتعليم أ . ف . ألنجلتون
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح ج . مايكل والتون
٥٥ - ما وراء العلم جون بولكنجهوم
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١) فديريكو غرسية لوركا
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢) فديريكو غرسية لوركا
٥٨ - مسرحيتان فديريكو غرسية لوركا
٥٩ - المحبرة كارلوس مونثيث
٦٠ - التصميم والشكل جوهانز ايتين
٦١ - موسوعة علم الإنسان شارلوت سيمور - سميث
٦٢ - لذة النص رولان بارت
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢) رينيه ويليك
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة) آلان وود
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى برتراند راسل
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية أنطونيو جالا
٦٧ - مختارات فرناندو بيسوا
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى فالنتين راسبوتين
٦٩ - العالم الإسلامي في أول القرن العشرين عبد الرشيد إبراهيم
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية أوكينيو تشانج روبريكت
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مفتي
ت : منيرة كروان
ت : محمد عيد إبراهيم
ت : عطف أصد / إبراهيم فتحي / محمود ملجد
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تانرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد علي
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جويجاتي
ت : عبد الوهاب عروب
ت : محمد يرانة وعثمانى الميود ويوسف الأنطكي
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
ت : مرسى سعد الدين
ت : محسن مصيلحي
ت : علي يوسف علي
ت : محمود علي مكي
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهيم
ت : صبرى محمد عبد الغنى
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاعي .
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض .
ت : رمسيس عوض .
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد قزاد متولى وهويدا محمد فهمي
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمماليك في مصر
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية
٧٦ - جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢
٧٨ - العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»
٨١ - الجماعات المتخيلة
٨٢ - مسرح ميغيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالغرب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - وسم السيف (قصص)
٩١ - للمسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسباني وأمريكي المعاصر
٩٣ - محدثات العولمة
٩٤ - الحب الأول والصحية
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)
٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مساهمة العولمة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوبرا ماهوجنى
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأندلسي
١٠٧ - صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . إليوت
جين . ب . تومكينز
ل . ا . سيمينوفا
أنثريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
بوريس أوسبنسكى
ألكسندر بوشكين
بندكت أندرسن
ميغيل دى أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكى أقطاي
جمال مير صانقى
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنتونى جيننز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
باربر الاسوستكا
كارلوس ميغل
مايك فينرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بويرو بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روبنسون
بول هيرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليط
عبد الكريم الخطيبى
عبد الوهاب المؤيد
برتول بريشت
جيرارچينيت
د. ماريا خيسوس روبييرامتى
نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الفانمى وناصر حلاوى
ت : مكارم الفمرى
ت : محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالي
ت : عبد الحميد شبيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحي يوسف شتا
ت : ماجدة العناني
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
ت : إيوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحي
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتانى الإبريسى
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادئ أرلين علوى ماكليود
١١٣ - راية التمرد سادى بلانت
١١٤ - مسرحيات حماد كرنجى سكان المستنقع وول شوينكا
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده فرجينيا وولف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر بى بارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١ - الليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيل الكسندر وفنادولينا
١٢٤ - الفجر الكاذب جون جراى
١٢٥ - التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفى
١٢٦ - فعل القراءة فولفانج إيسر
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحي
١٢٨ - الأدب المقارن بسوزان باسنت
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا تولورس أسيس جاروته
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوند فراتك
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فينرسترن
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على
١٣٤ - تشريع حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥ - المختار من نقد د. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كوتون
١٣٧ - منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية جوزيف مارى مواريه
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيفيلينا تارونى
١٣٩ - باريس فى باريس ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار هيرت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣ - قضايا التطوير فى البحث الاجتماعى ديريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولدونى
- ت : محمود على مكى
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : ليس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبه من المترجمين
ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحه الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقي جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبرى
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : على السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فويتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليس	ت : على عبد الرؤوف البعبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تاتكريد نورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وألونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برويل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراغة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	ليل سليتير	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرمى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان ولويدت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برويل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - شامبوليون (حياة من نود)	جان لاکوتير	ت : نبيل سعد

(نحت الطبع)

الجانب الدينى للفلسفة	الإسلام فى السودان
الولاية	العربى فى الالب إسرائيلى
مختارات من الشعر اليونانى الحديث	آلة الطبيعة
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	ضحايا التنمية
جان كوكتو على شاشة السينما	المسرح الإشبانى فى القرن السابع عشر
الأرضة	أيدىولوجى
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة	تاريخ الكنيسة
العنف والنبوة	فن الرواية
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)	ما بعد المعلومات
وضع حد	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
التليفزيون فى الحياة اليومية	المهلة الأخيرة
أنطوان تشيخوف	الهيولاء تصنع علماً جديداً
من المسرح الإشبانى المعاصر	مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)	النقد الأدبى الأمريكى
حكايات ثعلب	

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٩١٩ / ١٩٩٩



CHAMPOLLION une vie de lumieres

JEAN LACOUTURE



أسس جان - فرانسوا شامپوليون علم المصريين «Egyptology» بعدما حل شفرة الكتابة الهيروغليفية .. وكانت هذه الكتابة تحير الباحثون فيها لعدة قرون تبدأ من القرن الثالث الميلادي عندما حرم قراراً إمبراطورياً رومانياً الكتابة بها .. إلى أن تمكن هذا الباحث الجامعي الفذ من اللغز ! فارتبط اسمه إلى الأبد باسم مصر التي أحبها . فالحب وحده هو الذي كان قادراً على أن يصل بشامپوليون إلى هدفه؛ فأبعده عن اليأس عدة مرات ، فظل على مثابرته إلى أن نجح في مهمته.

حب شامپوليون لمصر كان خالصاً وكاملاً؛ فهو يقول : «إنها كل شيء بالنسبة إليّ» ، كما أنه أحب شعب مصر عندما زارها وأقام فيها عاماً ونصف تقريباً .

وحب مصر أيضاً هو الذي حرك كاتب سيرة شامپوليون «جان لاكوتير» ، فهذا هو الكتاب الثاني له عن مصر بعد كتابه الأول عن جمال عبد الناصر ، الذي عرفه عن قرب وعاش في مصر عدة سنوات، ولا يمر عام الآن إلا ويزورها لمرة أو أكثر.. وله حوالى سبعين كتاباً ومؤلفاً معظمهم سير لشخصيات عظيمة .

وهذا الكتاب يلقي الضوء أيضاً على العلاقات التي كانت قائمة بين فرنسا ومصر في مرحلة من أهم مراحل تاريخها الحديث؛ مرحلة بناء الدولة الحديثة على يد محمد علي ومحاولة تحويل مصر من ولاية تتبع الدولة العثمانية إلى دولة مستقلة ذات سيادة .

LE 30.00